كتابُ التَّوحيدِ

الَّذي هو حقُّ اللَّهِ على العبيدِ

تَصْنِيفُ: محمد بن عبدالوهاب التميمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

شرح

فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور/

صالح بن عبد العزيز بن عثمان سندي

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

الأستاذ في قسم العقيدة بكلية الدعوة وأصول الدين

بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

والمدرس في المسجد النبوي الشريف

الشرح الثاني

(الشيخ لم يراجع التفريغ)

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح كتاب التوحيد

لفضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور/

صالح بن عبد العزيز سندي

الأستاذ في قسم العقيدة بكلية الدعوة وأصول الدين

بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

والمدرس في المسجد النبوي الشريف

(الشيخ لم يراجع التفريغ)

١

١– المقدمة

شرح كتاب التوحيد

١ - [المقدمة]

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه ونستعينُه ونستغفرهُ، ونعوذُ بالله من شُرورِ أنفُسِنا ومن سيئاتِ أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضْلل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وَحْدَه لا شريكَ له وأشهدُ أنَّ نبينا محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد:

فبعون الله عَزَّوَجَلَّ نجتمع في هذه الليلة ليلة الثالث عشر من شهر ربيع الآخر عام سبعة وثلاثين وأربعمائة وألف من هجرة المصطفى صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وفي هذا المسجد النبوي المبارك، نتدارس بتوفيق الله وإعانته كتابًا عظيماً من كتب الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة بل لا أُبْعِدُ إن قلت إنه أهم كتب الاعتقاد وأشهرها في العصر الحديث ألا وهو: كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد؛ للشيخ الإمام المجدد محمد ابن عبد الوهاب رَحِمَهُٱللَّهُ رحمةً واسعة.

وقبل أن نبدأ بالكتاب يَحْسُنُ أن نقدم بمقدمة عن المؤلِّف والمؤلَّف.

[ترجمة المؤلف]

أما المؤلِّف، فهو: الشيخ أبو علي محمد ابن عبد الوهاب ابن سليمان ابن علي المشرَّف التميمي النجدي المولود في بلدة العيينة في نجد في وسط الجزيرة العربية سنة خمس عشرة ومائة وألف من الهجرة، والمتوفى سنة ست ومائتين وألف للهجرة في مدينة الدرعية المتاخمة للرياض في نجد، وعاش رَحِمَهُٱللَّهُ ما يزيد على إحدى وتسعين سنة قضاها في الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وفي طلب العلم، وفي التعليم، وفي الجهاد في سبيل الله، ونفع الله به نفعاً عظيماً حتى أضحى مجدد القرن الثاني عشر بلا منازع.

وذكر المؤرخون له رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لما حجَّ -وقد حجَّ مرتين أو ثلاثاً- لما حج وقف بالملتزم ودعا الله تعالى أن ينصر به الإسلام وأن يجعل له قبولاً في الناس، ونرجو أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ قد استجاب لدعوته، فإنَّ هذا الإمام الجليل قد نهض بدعوةٍ سلفية علمية على منهاج النبوة، بدأت في وسط نجد وبلغ أثرها مشارق الأرض ومغاربها، ونحن اليوم -ولله الحمد- نتفيأ ظلال هذه الدعوة المباركة التي هي امتداد لدعوات الأئمة المصلحين السائرين على طريق إمامهم نبينا محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنما شَرُفَ باتباعه طريق السابقين الأولين وإلا فإنه لم يأت بشيء جديد يتميز به في العقيدة والعبادة والعلم، إنما دعوته هي دعوتهم دعوة من قبله من علماء التوحيد، لكنَّ الشيخ قد جعل الله له القبول وجعل لدعوته المناصر، فاجتمع في دعوته الكتاب الهادي والسيف الناصر وكفا بربك هادياً ونصيراً.

مكَّن الله ﷻ لهذه الدعوة ويسر لها أسباب الانتشار، ولعل هذا من آثار إخلاص هذا الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ونحمد الله أنه ما سَمِعَ بالشيخ ولا بدعوته أحدٌ منصف إلا وقد تلقى ما يقول بقبول حسن، ولذا أطبق علماء أهل السنة والجماعة حقاً على الثناء على هذا الإمام الجليل وعلى الاحتفاء بمؤلفاته وبدعوته.

وأمَّا من شَرِقَ بهذه الدعوة وألَّب عليها وعلى صاحبها فإنَّ هؤلاء كانوا أخلاطاً وأصنافاً وغالبهم أخذته حميةٌ وعصبيةٌ جاهلية تجاه هذا الشيخ أو ما يدعو إليه، أو كانوا ممن يخافون فوات حظٍ من حظوظ الدنيا التي كانوا يتأكلون بها قبل أن ينهض الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدعوته، ولكنَّ الشيخ وفقه الله إلى أن كان شجاعاً مِقداماً صابراً على ما يلاقي من أعداءه الأقربين والأبعدين بدأ وحيداً و ختمت حياته بأن أقرَّ الله عَزَّوَجَلَّ عينه بقبول الناس لهذه الدعوة وانتشارها في كثير من أجزاء الجزيرة العربية وما كان خارجها أيضاً.

واستمر الخير بعد وفاته، وحَمَلَ لواء دعوة التوحيد بعده أئمة أجلاء إلى هذا العصر - ولله الحمد والمنة-، وقد أعيا أعداء الشيخ أن يجدوا شيئاً يُعابُ عليه من كلامه ومؤلفاته، ولذا إذا نظرت إلى كل ما يقال عن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا تجد شيئاً من منصوص كلامه، كلامه موجود ومحفوظ ورسائله مدونة وكتبه منشورة جُمعت مؤلفاته في كتاب حافل في أكثر من عشرة مجلدات، ومع ذلك إنما تجد القيل والقال والنقول المُغْرِضَة عنه من أشياء لا تمت له بسبب.

وبين أيدينا هذا الكتاب كتاب التوحيد ما استطاع أحد أن ينتقد هذا الكتاب نقداً علمياً يبين فيه مخالفةً واحدة على الشيخ في الاعتقاد أو أنه عارض الكتاب والسنة، أو أنه أتى بشيء جديد ما سبقه إليه أحد من السلف الصالح، فالأمر أنَّ أعداء الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عليه تجدهم هم أعداء التوحيد وأعداء السلف الصالح وما تميزوا بشيء عن غيرهم من أهل البدعة والخرافة، وأما الشيخ فمضى رَحِمَهُ ٱللَّهُ في دعوته وما التفت إليهم ولا أثروا فيه، والحمد لله أن ((كتاب التوحيد))، و ((ثلاثة الأصول)) و((كشف الشبهات)) وغيرها من مؤلفات الشيخ، ومؤلفات مدرسته تُباع وتُذاع وتُدرس وتُحفظ، ولم يؤثر طعن الطاعنون في ذلك –ولله الحمد–، بل إنما زادهم مضاءة وإنما زادهم قوة.

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عوَّد تلاميذه ومحبيه على التجرد للحق وقبوله ممن أتى به، وكان يخاطب من يعارضه بهذا في مخاطبات مشهورة ويبين لهم أنهم إن أتوه بحرف واحد خالف فيه الكتاب والسنة فإنه راجعٌ عن ذلك، بل إن أتوه بشيء قاله خالف فيه أئمة المذاهب الأربعة، وكان يحاجج أهل كل مذهب بكلام أئمة مذهبهم إن أتوا بشيء يخالف ما عليه هؤلاء الأئمة المحققين فإنه راجعٌ عنه، وما استطاعوا أن يأتوا بشيء من ذلك.

المقصود أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ جاء بـ:(قال الله) و(قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، جاء بـ:(كلام الصحابة والتابعين)، وما جاء بشيء من عنده البتة.

ولذا فإن أهل التوحيد قاطبة أولهم وآخرهم لسان حالهم يقول لو أن الشيخ بُعِثَ من قبره وقال للناس أن كل ما دعوت إليه قد رجعت عنه فإنهم سيقولون عن بكرة أبيهم هذا شأنك أما نحن فلا نرجع عن كلام الله وعن كلام رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن التوحيد هو لب ما جاء في كتاب الله وما جاء في سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما أجمع عليه السلف الصالح، فالرجوع عن ذلك رجوع عن التوحيد الذي جاء به الرسل عن الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا كتاب التوحيد ما الذي فيه لا يتجاوزُ الآيات والأحاديث والآثار، هذا الكتاب فيه ثمانينَ آية، وفيه مائةٌ وواحد وأربعون حديثاً، وفيه جملةٌ من الآثار، وأحاديثه أكثرُ من نصفها لا تخرج عن الصحيحين والباقي بين صحيح وحسن وما يحتمل التحسين، ونزه كتابه عن حديثٍ موضوع أو حديث مُجْمَعٌ على ضعفه لا تجد إلا هذا، الآية والحديث والأثر، حتى نقولات الشيخ عن العلماء كانت يسيرة جداً، ما

نقل إلا عن ستة فقط من أهل العلم منهم: شيخ الإسلام ابن تيمية في ثلاثة مواضع والبقية نقل عنهم موضعاً موضعاً.

إذاً دعوة الشيخ كانت قائمة على الكتاب والسنة وعلى ما جاء ومضى عليه السلف الصالح رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

إذاً الذين يقولون إن محمد ابن عبد الوهاب أتى بشيء جديد أو اخترع مذهباً خامساً هؤلاء عليهم أن يأتوا بالدليل والبرهان على ذلك وإلا فعليهم أن يعيدوا النظر فيما هم عليه وأن يتوخوا الحذر وأن يتنبهوا إلى أن هناك مقاماً عظيماً بين يديَّ الله جَلَّ وَعَلَا فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، وإذا كان على الشيخ شيئاً من المآخذ فليبرزوها بشرط أن تكون من كلامه، أما مما يفتريه أعداءه عليه فهذا عند كل منصف شيءٌ غير مقبول.

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ نشأ نشأةً صالحةً علمية حفظ القرآن ولم يبلغ بَعْدُ العشرة أعوام وحج وعمره ثلاثة عشر عاماً، وكان يعيش في نشأته في بيئة علمية أبوه فقيهٌ حنبلي، جدّه عالم نجد ومفتيها، عمه كان قاضياً وفقيهاً، وكان في بيتهم مكتبة متوفرة على جملة من أمهات الكتب، فنشأ نشأةً علميةً صالحة، وما عُرِفَ عنه شيئاً من صبوات الشباب بل عرف بالتدين والاستقامة والانكباب على العلم إضافةً إلى سرعة البديهة وحدة الذكاء.

ورحل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في طلب العلم في مدد متفاوتة تصل إلى أكثر من ثنتي عشرة سنة تنقل بين المدينة، ومكة، والأحساء، والبصرة، والزبير يطلب العلم ويستفيد من علماء تلك البلاد حتى حاز إلى العلم الذي استفاده في نجد العلوم التي كانت تدرس في هذه البلدان، ولما حصَّل هذا الحظ العظيم من العلم نهض بدعوته وأعلن دعوته في حريملاء أولاً، ثم في العيينة، ثم استقر به المقام في الدرعية، واجتمع بالإمام محمد ابن سعود رحمة الله على الجميع، وكان ما كان من التعاهد والتعاقد على نصرة التوحيد، بدأت دعوةً وانتهت دولةً تدعو إلى التوحيد وتقوم على التوحيد.

[تعريف بكتاب التوحيد]

وأما عن المؤلَّف الذي بين أيدينا فهو: ((كتاب التوحيد)) اسمه المختصر: كتاب التوحيد، واسمه الكامل على الأشهر: كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، وهذا

الكتاب أَلَّفَهُ الشيخ وهو في بحر العشرينات من عمره، وذكر بعض أهل العلم ومنهم حفيده الشيخ عبد الرحمن ابن حسن أنه أَلّفَهُ في البصرة، لما كان قد وقف في مكتباتها على كتب الحديث وكتب أهل العلم أَلَّفَ من مجموع ما انتخب من كتب أهل العلم هذا الكتاب الفريد في بابه، وبعضهم كالشيخ ابن غنام مُؤرخ الدعوة، وكذلك الشيخ عبد اللطيف بن عبدالرحمن ذكر أنَّه ألَّف ذلك في حريملاء لما رجع من العراق، ولعله ابتدأ تأليفه في البصرة ثُمَّ حرره وأكمله وأتمه في نجد.

هذا الكتاب موضوعه يُنْبِأُ عنه عنوانه فهو كتاب في التوحيد والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تناول في هذا الكتاب أنواع التوحيد الثلاثة وإن كان قد اقتضب في توحيدي الربوبية والأسماء والصفات وأسهب في بيان توحيد الألوهية الذي كان هو المقصود الأهم في تأليفه لهذا الكتاب.

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ دعاه إلى تأليف هذا الكتاب ما رآه من الحاجة الماسة إلى بيان التوحيد، والحث عليه، وبيان ضده والتحذير منه.

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ألَفَ للحاجة لا للترف العلمي كأنه رأى أن المؤلفات في توحيد المعرفة والإثبات إذا تعلقت بالربوبية والأسماء والصفات كثيرة، لم يزل التأليف فيها منذ القدم، أما في توحيد الألوهية فإن هذا التأليف فيه قليل، فألهمه الله ووفقه إلى أن يَخُطَّ ذراعه هذا الكتاب الحافل العظيم الذي أجمع كل من اطلع عليه أنه لم يسبقه إليه سابق ولم يلحقه فيه لاحق، وأنه كتاب فذٌّ فريدٌ في بابه لم يُؤلف كتاب على نمطه وجمعه وما فيه من حسن الترتيب والتبويب والاستنباط لم يسبقه إلى هذا سابق، وهذا أمر يشهد به كل مُنصف اطلع على هذا الكتاب.

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعل كتابه في أبواب، اختلف العلماء في عدد هذه الأبواب، منهم من قال: إنها مقدمة وستة وستون باباً، ومنهم من قال: إنها سبعة وستون باباً والخلاف في: المقدمة، هل المقدمة باب أو مجرد تقديم، إنه قال: كتاب التوحيد وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦].

والأظهر والله أعلم أنه باب؛ لأنه عامله معاملة الأبواب وذكر مسائل في ختامه كما هو الشأن في بقية الأبواب، والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يعنون ويبوّب أبواباً تُنبئ عن مضمون هذا

الباب، يعني الموضوع الذي يريد أن يتحدث فيه على طريقة العلماء السابقين، لا سيما الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه كان متأثراً به جداً في طريقة التبويب والإيراد، فكان يُبَوِّبُ عنواناً ثم يورد بعد ذلك ما يرى أنه أدل على المراد من الآيات والأحاديث وما تيسر من الآثار، ثم يختم الباب بمسائل نفيسة استنبطها من الأدلة التي أوردها فيها من الفوائد، وفيها من فقه الاعتقاد ما يدل على براعة هذا الإمام الجليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والكتاب قد جعل الله عَزَّوَجَلَّ له قبولاً واحتفى به أهل العلم منذ أن ألفه، ونُسخ هذا الكتاب كثيراً، وطُبع طبعات لا تكاد تحصى، وشُرح في مؤلفات حافلة منها الموسع ومنها المتوسط ومنها المختصر، ودُرِّسَ في دروس لا تحصى منها ما هو مُسَجَل ومنها ما لم يسجل.

المقصود أنَّ هذا الكتاب كتابٌ قيّم وعظيم وينبغي على طالب العلم أن يعتني به وأن يَشْدُدَ يديه عليه وأن يحفظه إن تيسر له ذلك، وأنا أوصيكم أيها الإخوة بحفظ هذا الكتاب ولعل مِثْلَ هذا الدرس ما يكون سبباً في شحذِّ الهمة على حفظ هذا الكتاب، احرص على أن تحفظه فإن أبيت؛ فأكثر النظر فيه واقرأه مرات وكرات حتى تُحفر معانيه التي دلت عليه في ذاكرتك، فإن هذا من أهم الأشياء فالتوحيد حق الله على العبيد، التوحيد هو الغاية التي من أجلها خلق الله الخلق، التوحيد هو اعتقاد ما يجب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وما يختص به جَلَّ وَعَلَا.

إذاً علم التوحيد علمٌ يدور على العلم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإذا كان الله أكبر من كل شيء فالعلمُ به أكبر من كل علم، وإذا كان الله أعظمَ من كل شيء فالعلم به أعظمُ من كل علم، وماذا تكون قد عَلِمْتَ إذا كنت تجهل ربك يا عبد الله، إذا كنت تجهل ما له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الأسماء والصفات التي دلنا عليها كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو حقه على العباد وهو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وهذا له تفاصيل كثيرة لابد من أن تكون على علمٍ بها، ماذا تعلم إذا كنت تجهل ذلك يا عبد الله.

إذاً من أهم المهمات وأول الأوليات العناية بعلم التوحيد دَرْسَاً وحِفْظَاً ومُطالعة، وأن تكون متأملاً في نصوصه وآياته، ولا شك أن أعظم كتاب للتوحيد هو كتاب الله جَلَّ وَعَلَا ثم ما صح عن رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهذه القضية ينبغي أن تكون منك على بال وأن تكون منك على قدر من الاهتمام.

هذا الكتاب سوف نتدارسه بعون الله جَلَّوَعَلَا في هذه الدروس على الوقت المعتاد الجمعة والسبت والأحد بعد العشاء، ونرجو الله جَلَّوَعَلَا أن يعيننا على أن نفيد منه الفائدة المرجوة، والشرح سيكون شرحاً متوسطاً ليس بالمُسْهِب ولا بالمختصر إنما هو شرح متوسط -إن شاء الله تعالى-، ونبدأ بعون الله جَلَّوَعَلَا ما في هذا الكتاب.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لشيخنا وانفعه وانفع به يا رب العالمين.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب التوحيد:

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب التوحيد

بدأ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه بالبسملة، قال: (بسم الله الرحمن الرحيم)، والحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((الفتح)) ذكر أن المصنفين قد استقر أمرهم على البداية في مصنفاتهم بالبسملة، وهذا مما جرى عليه كتاب الله جَلَّوَعَلَا فهو مُفتتح بالبسملة وكل سورة مُفتتحة بالبسملة، وهذه سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رسائله ومخاطباته، فإنه قد بعث إلى هرقل عظيم الروم كما في الصحيحين من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: بدأ كتابه إلى هرقل ببسم الله الرحمن الرحيم، كذلك كتاب الصلح، كما في الصحيحين أيضاً في قصة الحديبية بدأه ببسم الله الرحمن الرحيم، كذلك أصحابه من بعده، فأبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كما في البخاري حينما بعث كتاب الصدقات إلى البحرين بدأه ببسم الله الرحمن الرحيم، فهذا كتاب علم اُفتتح ببسم الله الرحمن الرحيم، بل إنَّ هذه سنة الأنبياء فيما يظهر، ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ **[النمل: ٣٠]**.

والعلماء لهم كلام طويل في الباء في: بسم الله الرحمن الرحيم، هل هي للمصاحبة أو هي للاستعانة أو هي لغير ذلك؟ والأقرب والله أعلم أنها: للاستعانة.

والمقدر ها هنا في الباء اخْتُلِفَ فيه أيضاً هل هو اسم أو فعل؟ وإذا كان فعلاً فما هو؟ والأقرب والله أعلم أنه: يُقَدرُ فَعْلاً خَاصَاً مُتَأَخِراً.

أمَّا فِعْلاً فلأنه الأصل في العمل، ومتأخراً للتبرك بذكر اسم الله عَزَّوَجَلَّ أولاً، وخاصاً يعني: بحسب ما يقتضيه الحال، فحينما يكتب الإنسان فإنه يقول: بسم الله الرحمن الرحيم، والتقدير: أنني أستعين باسم الله وأتبرك باسم الله في كتابتي، كذلك إذا قالها قبل أن يقرأ أو قالها قبل أن يكتب فإنه يستعين بالله جَلَّوَعَلَا ويتبرك بذكر اسمه الذي تحل البركة بذكره جَلَّوَعَلَا ويفعل ذلك بالاستعانة بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وهذا أحسن من أن يُقال: إنه يفتتح أو يبتدأ بذكر اسم الله، وذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ: أن التقدير بالفعل أولى من التقدير بالابتداء حتى يكون الإنسان مستعيناً بالله جَلَّوَعَلَا في كل الفعل.

بسم الله الرحمن الرحيم، بدأ المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ بالبسملة ولم يذكر المقدمة المعتادة عند المؤلفين لاسيما من المتأخرين من الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الكريم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ولعله كان في هذا مقتضياً بأئمة الحديث المتقدمين كمالك في موطئه والبخاري في صحيحه، وعبدالرزاق في مصنفه، وكذلك أحمد في مسنده، وغيرهم من أهل العلم، وقد يُقال إنه رأى أن المقصود هو التبرك بذكر الله ﷻ وقد حصل بالبسملة، على أنه قد جاء في نسخة من نسخ كتاب التوحيد الثابتة كما أشار إلى هذا الشيخ عبدالرحمن ابن حسن في مُفْتَتَح ((فتح المجيد))، ذكر أنه وقع على نسخة للكتاب فيها الحمدلة وفيها الصلاة والسلام على الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

قال الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ: (بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب التوحيد).

كتاب مصدر كَتَبَ يَكْتُبُ، وهذه المادة تدور على معنى الجمع، يقولون: تَكَتَبَ بنوا فلان إذا اجتمعوا، ومن ذلك: الكتابة؛ لأن فيها جمعاً بين الحروف والكلمات، والكتاب على وزن فِعَال بمعنى مفعول، كتاب بمعنى مكتوب، فراش بمعنى مفروش، فعال بمعنى مفعول، فالكتاب بمعنى مكتوب وسمِّي كذلك؛ لأنَّه قد جمع فيه الكلام أو جمعت فيه الأسطر، أو جمعت فيه الحروف، فهو كتاب في التوحيد، مضافٌ ومضافٌ إليه.

وكتاب الأقرب أن يُعْرَبَ بأنه: خبر لمبتدأ محذوف، هذا كتاب التوحيد، فهو كتاب في شأن التوحيد وفي موضوع التوحيد، جمع فيه كاتبه شيئاً من العلم والكلام المتعلق بالتوحيد.

أما التوحيد فإنه مصدر وَحَّدَ يُوَحِّد، وهذه المادة في اللغة: تدور على معنى الانفراد، فالتوحيد في اللغة: جعل الشيء واحداً، أو الحكم على الشيء بأنه واحد، أو اعتقاد الشيء واحداً، بكل قال أهل العلم.

والتوحيد في الشرع هو: إفراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

وَعَبَّرَ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الجزء الثالث من ((الفتاوى)) بكلمةً حسنةً عن التوحيد وهي: أنه لا يشركه أحد أو لا يشركه شيء، قال: التوحيد هو أن لا يَشْرَكَه أحد في شيء من خصائصه، فالله جَلَّ وَعَلَا له ما يختص به ولا يشاركه فيه أحد، وهذا هو أن له الربوبية وأن له الأسماء والصفات التي اختص بها، كما أن له حقاً على العباد لا يقبل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يشاركه فيه مشارك وهو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.

والتوحيد قد دل استقراء الكتاب والسنة على أنه ينقسم إلى قسمين:

توحيد المعرفة والإثبات، وتوحيد القصد والطلب.

وإن شئت فقل: ينقسم إلى التوحيد العلمي، وإلى التوحيد العملي.

وبعض أهل العلم يجعل القسمة ثلاثية فيقول التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

[أولًا]: توحيد الربوبية.

[ثانيًا]: وتوحيد الألوهية، وإن شئت فقل: إلى توحيد العبادة والمعنى واحد؛ لأن الألوهية هي العبادة.

وثالثاً: توحيد الأسماء والصفات.

هذا التقسيم مستفاد من استقراء كلام الله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبالتالي فإن من قسم هذا التقسيم ما أتى بشيء جديد إنما أبرز ما هو موجودٌ في الكتاب والسنة.

وكلمة التوحيد كلمةٌ مأثورة قد جاءت في كلام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكلام أصحابه وليست كلمة مُخترعة كما يظنه بعض الجهال، بل هذه كلمةٌ عظيمةٌ واردة في السنة من ذلك ما خرج الإمام أحمد بسند حسن من حديث عمرو ابن العاص رضي الله عنه أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: «**أما أبوك فلو كان أقر بالتوحيد فتصدقت وصمت عنه بلغه ذلك**».

[الشاهد أنَّ] النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: أقر بالتوحيد.

كذلك ما أخرج الترمذي بإسناد صحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يدخل النار قوم من أهل التوحيد حتى إذا كانوا حمما أخرجوا فألقوا على أنهار الجنة وأفاض عليهم أهل الجنة حتى ينبتون كما تنبت الحبة على حميل السيل**».

الشاهد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: أهل التوحيد.

كذلك ما ثبت عند ابن ماجة بإسناد صحيح من حديث عائشة وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا أراد أن يضحي اشترى كبشين أملحين وموجوئين فضحى بأحدهما عمن لم يضحِّ من أمته من أهل التوحيد وضحى بالثاني عنه وعن أهل بيته**».

وكذلك ما ثبت في ((صحيح مسلم)) من حديث جابر الطويل في ذِكرِ حجة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فأهل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتوحيد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك**»، فهذا إهلاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان بالتوحيد.

كذلك ما ثبت عند أبي داود وغيره من حديث جابر بإسنادٍ صحيح «**أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أنهى طوافه وأتى إلى المقام وقال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[البقرة:١٢٥]، صلى ركعتين كما يقول جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقرأ: فيهما بالتوحيد، وقل يا أيها الكافرون**»، أراد بكلمة التوحيد هاهنا: سورة الإخلاص؛ لأن فيها التوحيد وفيها بيان التوحيد.

فالشاهد أن هذه الكلمة كلمةٌ مأثورة ثابتة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبالتالي فهي كلمةٌ شرعية يجب أن يُحتفى بها وأن تُعْظَّم وأن يُعرف معناها الذي دلت عليه الأدلة ومضى عليه السلف الصالح.

٢

٢- الباب الأول

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب التوحيد

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦].

فإن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عطف على قوله كتاب التوحيد ذكر الدليل الأول في هذا الكتاب العظيم وأتبعه بأربع آياتٍ وحديث وأثر.

هذا الباب هو مقدمة الكتاب، واستغنى المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بما أورده عن المقدمة التي تُفْصِحُ عن موضوع الكتاب، فهو أراد بهذه الآيات الخمس والحديث والأثر أن يخبرنا أنَّ موضوع كتابه هو: بيان التوحيد وبيان أهميته، هذا هو الذي يدور عليه هذا الكتاب وهذا ما أرشدت إليه الأدلة التي أوردها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كتابُ التوحيد، وقولِ الله تعالى)، ولك أن تقول: وقولُ الله تعالى وهذا مُطردٌ في الكتاب كله، إمَّا أن تعطف على كلمة التوحيد، أو تستأنف فترفع.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقولِ الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦])

هذه آيةٌ عظيمة، وأصلٌ في باب الاعتقاد، ويتفرعُ منها مسائل كثيرة، واستيعابُ القولِ فيما تضمنته هذه الآية من مسائل العقيدة أمرٌ يطولُ به المقام، والمهم الذي ينبغي أن نَعْلَمَهُ أنَّ هذه الآية قد دلت على أنَّ الحكمة التي لأجلها خلق الله الجن والأنس هي عبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والعبادة لا تكون عباده صحيحة إلا بالتوحيد، فصار التوحيد والعبادة الصحيحة مترادفان.

الله جَلَّ وَعَلَا أمرَ العباد لا بعبادة مطلقة إنما بعبادة مقيدة وهي ما كانت خالصة لله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾[الزمر:٢]،﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[الزمر:٣].

فصار التوحيد وعباده الله الصحيحة أمران مترادفان فالغاية، والحكمة، والعلة من خلق الجن والأنس إذًا إنما هو توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦].

ومر بنا كثيرًا أنَّ (ما) و(إلا) تفيد الحصر، فهذه هي الحكمة التي خلق الله الجن والأنس لأجلها لا غير.

والآية تدل كما هو بيِّن على أن الجن مكلفون، وهذا أمرٌ مُجْمَعٌ عليه بين أهل العلم، فهم مكلفون ويشتركون مع الأنس في جنس التكليف وإن كانت تفاصيل ذلك مختلفة، لا يلزم من كونهم مكلفين أن يكونوا مساوين للإنس في تفاصيل التكليف، وذلك لأنهم يختلفون عن الأنس في الحقيقة والكيفية، إنما لهم تكليف يناسبهم، ومن ثَمَّ فإنهم من أهل الثواب والعقاب؛ يعني: يثابون أو يعاقبون بنَاء على ما صدر منهم تجاه هذا التكليف.

فأمَّا إثابتهم على التوحيد والطاعة فهذا ما عليه جماهيرُ أهل العلم، وهو الصحيح الذي لا شك فيه بدِلالة القرآن الكريم: ﴿**لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ**﴾**[الرحمن:٥٦]**.

وأما عقوبتهم المؤبدة في النار بالكفر، أو توعدهم على معاصيهم التي هي دون الكفر، توعدهم بالعقاب على ذلك فإن هذا محل إجماع بين أهل العلم.

المقصود أنَّ الله جَلَّوَعَلَا بيّن أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى خلق الجن والأنس لهذه الحكمة العظيمة ليعبدوه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وهنا مبحثٌ طويلٌ عند أهل العلم في قوله: ﴿**ليعبدون**﴾ والذي عليه أهل السنة والجماعة، أنَّ: (اللام) في قوله: ﴿**ليعبدون**﴾ هي: لام التعليل، أو لام الحكمة، أو لام كي، وكلٌّ قد عبَّر به أهل العلم والمعنى واحد.

فالمقصود أن ما دخلت (اللام) عليه هو الحكمة والغاية، أو كما يعبرون أنه العلة الغائية من الخلق، العلة الغائية هي: العلة التي لأجلها وُجِدَ المعلول، فكان خلق الخلق لأجل هذه الحكمة، ولأجل هذه الغاية.

وفي هذا إثبات الحكمة والتعليل في أفعال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وفي أوامره وفي قضائه، وهذا أيضًا من الأمر المجمع عليه بين أهل العلم ودلائله لا تكاد تحصر، أن الله جَلَّوَعَلَا يخلق لحكمة يحبها ويأمر لحكمه يحبها ويقضي لحكمة يحبها سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وأمَّا أهلُ البدع فإنَّ طائفةً منهم أنكرت أن يكون الله جَلَّوَعَلَا فاعلًا لحكمة يعني: أن يفعل شيء لشيء أنكروا هذا بتحريفاتٍ وتأويلاتٍ وتعليلاتٍ عليلة، وتُصادم كتاب الله

عَزَّوَجَلَّ وسنه رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الصريحة، ولأجل هذا فانه ليس عندهم في كل ما يُضاف إلى الله جَلَّوَعَلَا لام تعليل فهذه الآية وأمثالها اللام فيها عندهم هي: لام العاقبة أو لام الصيرورة كما يعبِّر بعضهم، يعني: أنَّها التي إذا دخلت على الفعل بينت أنه هو الذي يكون إليه المآل وهو الذي تكون إليه العاقبة.

ولا شك أنَّ هذا باطل ليس بصحيح، بل الذي حققه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ ونقل هذا عنه ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ في ((البدائع)) أنَّ لام العاقبة لا ترد في الأفعال المضاف إلى الله ﷻ البتة بل لا يجوز أن يُقال هذا، لا يجوز أن يقال أن اللام في أفعال الله ﷻ أذا أضيفت إليها أنها تكون لام العاقبة أو لام الصيرورة، وذلك لأنَّ لام العاقبة إنما تجري أو تأتي في كلام من يجهلُ العاقبة أو لا يستطيعُ دفعها، أما من هو على كل شيء قدير ومن هو بكل شيء عليم فأنه لا يقال في كلامه أو في ما يُضاف إليه إنَّ اللام في هذه الآية أو تلك هي لام العاقبة، فمثلاً في قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[القصص:٨] هم ما فعلوا هذا لأجل أن يكون لهم عدوًا وحزنا، إنما كان عاقبة الأمر أن كان لهم عدوًا وحزنا وذلك لجهلهم، وإلا فإنهم إنما التقطوه لأجل أن ينتفعوا به لأجل أن يدخلَ عليهم السرور لا لأن يكون عدوًا لهم وحزنا، فهم جهلوا العاقبة، أو أن تكون العاقبة معلومة لكنهم لا يستطيعون دفعها، كما في قول الشاعر:

لِدُوا للموتِ وابنُوا لِلخُرابِ ....

فلا أحد يستطيعُ أن يدفع الموت، أو خراب هذه الدنيا.

إذًا من الخطأ البيّن أنْ يُقال أنَّ (اللام) في قوله تعالى: ﴿ليعبدون﴾ هي: لام العاقبة، أو لام الصيرورة.

وضَمَّ هؤلاء المتكلمون إلى خطئهم الأول خطأ ثانيًا وهو: خطؤهم في تفسير العبادة، فطائفةٌ من المتكلمين عرفت العبادة ها هنا: بأنَّها الخضوعُ لأمر الله القدري، وهذا لاشك أنَّه باطل فلم يأتِ دليلٌ في الكتاب والسنة أنَّ العبادة هي الخضوع لأمر القدري، ولو كان ذلك كذلك لصحَّ أن يُقال إن كفر الكافر عبادة؛ لأنَّ الكافر خاضعٌ لقدر الله جَلَّوَعَلَا، أليس كذلك؟ أيستطيعُ أحدٌ أن يخرج عما يشاء الله ﷻ ويقدره؟ الجواب: بالتأكيد لا.

إذًا بناء على هذا فلازم قولهم إنَّ كفر الكافر عبادة، وهذا حكايته تغني في بيان فساده، فهذا لا يجوز لمسلم أن يقوله.

إذًا ليس صوابًا أن يُقال: إن العبادة هي الخضوع لأمر الله القدري، بل العبادة هي: التذلل لله جَلَّوَعَلَا بفعل أوامره واجتناب نواهيه محبةً وتعظيمًا، وإن شئت فقل: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

والفرق بين التعريفين:

أن الأول: عَرَفَ التعبد.

والثاني: عرف المُتَعبَدَ به.

إذاً كلُّ ما جمع هذين الوصفين ودلَّ الدليل عليهما فإنه عبادة:

أن يكون محبوبًا لله.

وأن يكون مشروعًا مرضيًا لعباده.

متى ما كان ذلك كذلك فهذا الأمر عبادة، وإذا كان عبادة كان خالصَ حق الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

قال جَلَّوَعَلَا ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]، فسَّر طوائف من أهل العلم كلمة (يعبدون) بمعنى: يوحدون، وهذا ما فسَّر به البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((صحيحه)) عند تفسير سورة الذاريات قال: (يعبدون: يوحدون)، وهذا أيضًا مرويٌّ عن الكلبي، وقاله غير واحد، وتوارد كثيرًا من علماء التوحيد المتأخرين على التنصيص عليه.

ولا شك أنه معنًى صحيح، فإنَّ العبادة الصحيحة -كما ذكرت لك- هي التوحيد، فالتوحيد عبادة الله وحده لا شريك له، والعبادةُ الصحيحة هي: العبادة التي تكون لله وحده لا شريك له، فصارت العبادة الحق الصواب هي حقيقة التوحيد.

وبعضُ أهل العلم قال: إنَّ معنى قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا لآمرهم وأنهاهم، ومراد هذا القائل: إلا لآمرهم وأنهاهم فيطيعوني، و إلا لا شك أنه ليس مجرد الأمر والنهي هو المقصود، إنما المقصود أمرٌ ونهيٌ يحصل أو يكون ثمرته طاعة الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

وبعض أهل العلم قال: إن هذه الآية خاصة بالمؤمنين يعني: وما خلقت الجن والأنس إلا ليَعْبُدَني أهل السعادة وأهل التوفيق، وهذا ميل من قائله إلى بيان أن هذا مراد الله سبحانه

الكوني من أهل السعادة وهذا صحيح، لكنَّ القول بأن الآية بينت مراد الله الشرعي هو الأصوب والأصح.

ولشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ مناقشةٌ حسنة للأقوال في هذه الآية في كتابة ((درء التعارض))، وفي غيره أيضًا.

المقصود أن الله جَلَّ وَعَلَا بيَّن في هذه الآية أنه يريد من عبادة أن يعبدوه وهذه الإرادة إرادةٌ شرعية، يعني: أنه يحب منهم ذلك ويؤمرهم بذلك، ويريد منهم ذلك إرادة شريعة، ويبقى بعد ذلك أنهم قد يستجيبون وقد لا يستجيبون، ومردُّ هذا إلى إرادته الكونية.

وبناءً على هذا لا ينبغي أن يُستشكل فيقال :كيف يخلق الله ﷻ الخلق لحكمة ثم لا تقع من جميع من خلق؟

والجواب عن هذا: أن هذه الآية فيها بيان مراد الله التشريعي لا مراد الله الكوني، بمعنى: أنه فعل بهم الأول، ليفعل هم الثاني هذا هو الذي جاء في هذه الآية، الآية أفصحت عن أن الذي أرادة منهم شرعًا هو أن يعبدوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أمَّا كونهم يفعلون هذا يقومون به بالفعل أو لا يقومون، هذا مرده إلى إرادة كونية له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهذا ليس له علاقة بالآية، لم تأتِ الآية لبيانه وإنما جاءت لبيان الإرادة الشريعة.

وبناءً على هذا فأننا نقول: إنَّ الله جَلَّ وَعَلَا قد يريد ما لا يقع، وقد يقع ما لا يريد، انتبه لهذا.

قد يريد الله شرعًا ما لا يقع؛ لأنه لم يريده كونًا، وقد يقع يعني: يقع بإرادته الكونية ما لا يريد شرعًا، وبالتالي فالإرادة اثنتان:

١/إرادة شرعية المراد فيها: محبوب لله جَلَّ وَعَلَا وقد يقع وقد لا يقع بحسب ما تقتضيه حكمة الله جَلَّ وَعَلَا.

٢/وهناك مرادٌ كوني مُتَعَلَّقُهُ هو كل ما شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقوعه ولا رادَّ لحكمه جَلَّ وَعَلَا، فالذي شاءه ويشاؤه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنه واقع ولابد، ما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن.

فلا تلازم إذًا بين المراد شرعًا والمراد كونًا.

ثم إنَّ كَوْنَ الله جَلَّوَعَلَا يريد شرعًا ما لا يشاء وقوعه هذا راجعٌ إلى حكمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى من جهة أنه أراد كونًا ما لا يحب؛ لأنه يُفْضِي إلى ما لا يحب، فصار المبغوض لله الواقع بمشيئته مرادًا لغيره لا مرادًا لذاته، فكل ما أراده الله كونًا؛ يعني: كل ما شاءه الله كونًا، فإن وجوده أحب إلى الله من عدمه، ولأجل هذا شاءه فإذا شاء وجود الكفر، إذا شاء وجود المعاصي، إذا شاء وجود إبليس، فإنَّ هذا راجعٌ إلى أنه يترتب على وجود هذه المبغوضات لله شيءٌ يحبه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ولأجل هذا أوجده، لما وجد إبليس وجدت التوبة والله يحبها ويحب أهلها، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾[البقرة:٢٢٢] لما وجد إبليس وجدت المجاهدة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، لما وجد إبليس وجد الشيء الذي يقتضي مغفرة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وهو الذنوب، والله عَزَّوَجَلَّ يحب أن تظهر آثار أسمائه وصفاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

إذًا هذه نبذة يسيرة في موضوع طويل، لكن الخلاصة المهمة الذي نحتاجه أن الآية بينت مراد الله الشرعي وهو الحكمة التي لأجلها خلق الله الخلق ألا وهي عبادته وتوحيده سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦] الآية.

أردف المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآية الأولى التي بينت الحكمة من خلق الخلق، أردفها بآية بينت الحكمة من بعثة الرسل، وكلا الآيتين تدلان على معنًى مقارب، فالله جَلَّوَعَلَا إنما بعث الرسل لأجل الدعوة إلى توحيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦] فبعث الله الأنبياء والرسل لدعوة الناس إلى التوحيد، وإقامة الحجة عليهم وبيانِ حقِّ الله على العباد.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا﴾ البعثُ جاء في كتاب الله على ضربين:

[الضرب الأول]: جاء البعث الكوني كما في قولة جَلَّوَعَلَا: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾[الإسراء:٥] ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾[المائدة:٣١]، وبالتالي فهذا البعث لا يلزمُ أن يكون لنبي، أو صالح، أو حتى مكلف.

و[الضرب] الثاني: البعثُ الشرعي، وهو: بعث الله الرسل إلى الأمم لبيان حقه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عليهم، وتعريف الأمم ما يحبه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وما يبغضه ولأجل بيان عقبة استجابتهم أو إعراضهم عن الدعوة، فبينوا لهم من استجاب فماله إلى رحمة الله ومن أعرض فماله إلى عذابه وغضبة.

قال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾[النحل:٣٦]

الأمة هي: الجيل من الناس، فالجيل وطائفة من الناس تسمى أمة، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[فاطر:٢٤].

فالله جَلَّوَعَلَا عمَّ بفضلة الذي هو إرسال الرسل مجموع الخلائق، مجموع الأمم بعث الله عَزَّوَجَلَّ إليهم من يقيم عليهم الحجة، وهم الأنبياء والرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾[النحل:٣٦].

(أن) الأقرب ها هنا تفسيريه، وضابط (أن) التفسيرية أنها: هي التي سبقت بمعنى القول لا لفظه، ومعنى ذلك أنَّ الله جَلَّوَعَلَا أرسل الرسل وبعثهم إلى الأمم لأجل إن يخبروهم ويأمروهم أن يعبدوا الله وأن يجتنبوا الطاغوت، والعبادة لله جَلَّوَعَلَا مع الكفر بالطاغوت، هذان هما حقيقة التوحيد ولا يغني أحد الأمرين عن الآخر، لا يكون التوحيد توحيدًا إلا إذا ضُمَّ إليه الكفر بالطاغوت: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦].

ومن عَبَدَ الله واجتنب الطاغوت فهذا هو الذي أتى بالتوحيد، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى﴾[البقرة:٢٥٦]، العروة الوثقى هي: لا إله إلا الله، وهي مفتاح التوحيد.

إذا بينت هذه الآية مسألةً مهمة إشادة وإشارة إليها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنها المسالة العظيمة، وأنها المسالة الكبرى وهي: أنها لا يكون التوحيد إلا بالكفر بالطاغوت، وسيأتي معنا -إن شاء الله- في عدة مواضع في هذا الكتاب تفاصيل في بيان حقيقة الكفر بالطاغوت.

الطاغوت على وزن فعلوت، وهو من صيغ المبالغة من الطغيان، والطغيان: مجاوزة الحد، ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا المَاءُ﴾[البقرة:٢٥٦] وكثيرٌ أو أكثر تفاسير السلف لكلمة الطاغوت

هي: أنه الشيطان، ومن ذلك ما علّق البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: (الطاغوت: الشيطان) من العلماء من فسر أيضًا الطاغوت بأنه: الأصنام، ومنهم من فسر بتفسيرات بهذا السبيل؛ يعني: بذكر تفاصيل هذا كله من التفسير بالمثال وليس حدًا جامعًا مانعًا.

وأقرب ما يُقال في تفسير الطاغوت، ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أوائل ((إعلام الموقعين)) أنَّ الطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبوده أو متبوعٍ أو مطاعٍ.

العبد له حد معين لا يجوز أن يُرفع فوق فمتى توجه إليه بالعبادة، فإنه يكون طاغوتًا، تجاوز به العبد حده صار طاغوتًا لعابده، كذلك إذا تجاوز العبد حد المتبوع من العلماء أو المطاع من الأمراء إلى الحد الذي يكون لله جَلَّ وَعَلَا ولا يجوز أن يشركه فيه غيرة، مثل أن يطاع في تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله فإنه حينئذٍ يكون طاغوت بالنسبة لمن تجاوز به حدَّه.

إذًا هذا هو الطاغوت وهذا هو الذي أوجب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على العباد اجتنابه.

ولاحظ أنَّه قال ها هنا ﴿ وَاجْتَنِبُوا ﴾ ولم يقل: اتركوا، فإنَّ الاجتناب تركٌ وزيادة، ففيه معنى: القصد، وفيه معنى: المباعدة، وفيه معنى: اجتناب الأسباب الموصلة إلى هذا المتروك، كأنه يقول: كونوا في جانب وعبادة الطاغوت في جانبٍ آخر، ﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾

وهذه الآية دلت على أن حقيقة التوحيد ما جمع النفي والإثبات، ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ هو الإثبات، ﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾هو النفي ولا توحيد إلا باجتماعهما، فإن الإثبات المجرد لا يمنع الشرِكَة، والنفي المجرد عدم لا مدح فيه، وحقيقة التوحيد إنما هي اجتماع النفي والإثبات، والمراد: نفي العبادة عن ما كل سواء الله عَزَّوَجَلَّ، وإثبات العبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده.

أود إن أنبه هنا إلى مسالة تتعلق بالطاغوت، وهي: أن النظر إلى الطاغوت يكون من جهتين:

[الأولى]: من جهة عابده.

[الثانية]: من جهة من عُبِد.

أمَّا من جهة عابده: فإنه يُقال في حق كل من عَبَدَ غير الله جَلَّوَعَلَا إنه عبد الطاغوت، كلُّ من عبد غير الله أو أطاع غير الله في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله إنه أتخذ طاغوتًا، وعبادته وطاعته طاغوتية.

أمَّا بالنظر إلى من اتُخِذَ كذلك إذا نظرنا إلى هذه الجهة، فإنَّ هذا الإطلاق فيه تفصيل:

فأن كان المعبود من ذوي الإرادة وكان راضيًا صحَّ أن يقال فيه إنه طاغوت.

أمَّا إنْ كان ممن له الإرادة وهو كارهٌ لذلك فلا يصحُ أن يُقال فيه إنه طاغوت.

وإن كان لا إرادة له صحَّ أن يقال فيه إنه طاغوت.

إذًا يتلخص لنا أنَّ الأحوال في النظر إلى من عُبِدَ مع الله عَزَّوَجَلَّ، لا يخلو الأمر من ثلاث أحوال:

[الحالة]الأولى: أن يكون لا إرادة له؛ كأن يكون أن عُبِدَ صنم، أو حجر، أو شجر فإنه يقال هذا الصنم طاغوت.

الحالة الثانية: أن يكون له إرادة وهو راضٍ بعباده مع الله فهذا يقال في حقه أنه طاغوت؛ إذا دعا أحدٌ إلى عبادة نفسه ترشح للعبادة أو حتى ولو لم يترشح للعبادة، لكن وقع إن عُبِدَ فرضيَّ بذلك ووافق فإنه يكون طاغوتًا.

الحالة الثالثة: وهي ما إذا كان لا إرادة ولكنه كاره لأن يكون معبودا مع الله عَزَّوَجَلَّ، فإنه لا يقال في حقه أنه طاغوت، فإن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قد عبد مع الله،

والنبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد عبد مع الله، علي وفاطمة والحسين، وكثيرًا من الصالحين عبدوا مع الله، ومع ذلك فأنهم ليس بطواغيت وحاشا، إنما يقال فيمن رضيَّ ووافق، أو ترشح وحتى ولم يعبد؛ من قال للناس اعبدوني أنا استحق العبادة ولم يعبد فإنه يكون طاغوتًا.

ولذلك هؤلاء الصالحون الذين عبدوا من الملائكة والأنبياء والأولياء يبرؤون إلى الله جَلَّوَعَلَا، ولذا يوم القيامة يوم يحشر الله الخلائق يقول الله عَزَّوَجَلَّ للملائكة: ﴿أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾[سبأ:٤٠] ماذا كان جوابهم؟ ﴿قالوا سبحانك أنت وليًا من دونهم﴾؛ تبرؤوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ من هذه العبادة، وكذلك يقول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كما في أواخر المائدة.

إذن إذا كان البحث في شأن من عبد مع الله ﷻ، فأنه يقال إن العابد عبد الطاغوت مهما كان معبودة، أما المعبود فلا بد فيه من لابد فيه من التفصيل السابق والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَقضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[الإسراء:٢٣] الآية.

هذه هي الثالثة آية الإسراء وهي إحدى الآيات العظيمة المحكمة التي تضمنت وصايا عُظْمَى يحتاجها كل مسلم، وافتُتِحت هذه الوصايا بالتوحيد: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[الإسراء:٢٣] ثم ثنَّ الله عَزَّوَجَلَّ بعد ذلك بوصايا أخرى بلغت سبعة عشر وصية، ومجموع هذه الوصايا ثمانية عشر وصية أوصى الله عَزَّوَجَلَّ بها عباده، افتتحت بالتوحيد واختتمت بالتوحيد أيضا وذلك في قوله تعالى:﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾[الإسراء:٣٩].

فهذا يدلك على أن التوحيد هو أول الأمر وآخره، وأنه ظاهره وباطنه، وأنه القضية الأهم، وأنه هو الذي ينبغي أن يفتتح به المسلم حياته ويختتم به حياته، فالسعيدُ الموفق من قال لا إله إلا الله، وعاش على لا إله إلا الله، ومات على لا إله إلا الله، -نسأل الله أن يجعلنا منهم-.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاه﴾[الإسراء:٢٣].

لا يزال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبيِّن لنا ما هو هذا التوحيد، يكرر علينا الأدلة التي تُفْصِح عن هذه القضية الكبرى التي لأجلها خلقنا الله عَزَّوَجَلَّ.

قال: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاه﴾[الإسراء:٢٣].

﴿قَضَى﴾ فَسَرَ هذه الكلمة كثيرٌ من السلف بمعنى: وصى، وهكذا جاءت في قراءتي أُبَيّ وابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا بمعنى: وصى.

وذهب بعض الصحابة ومن بعدهم من السلف إلى أنَّ معنى ﴿وَقَضَى﴾ يعني: وأمر وأوجب، وكلُّ ذلك بمعنًى متقارب، يعني: وصى، وأمر، وأوجب ألا يعبد إلا إياه ﷻ، وهذا فيه تأكيد على المعنى السابق، وهو أن التوحيد الذي أمر الله عَزَّوَجَلَّ به ما جمع بين النفي والإثبات ﴿ ألا تعبدوا إلا إياه ﴾، ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ ﴾[البقرة:٢٥٦]، ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾[النساء:٣٦]، في آياتٍ كثيرة

-سيأتي إن شاء الله كلام عنها-، فهذا كله يدلك على أنه لا يكون الإنسان مُوحدًا، إلا إذا كَفَرَ وبَرِءَ من كل عبادة سوى الله عَزَّوَجَلَّ، ثم أفرد الله بالعبادة وحده لا شريك له: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا﴾[الإسراء:٢٣].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النساء:٣٦] الآية.

هذه الآية الرابعة آية النساء: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النساء:٣٦] وهي مفتتح الحقوق العشرة عند العلماء، هذه الآية ضمت الحقوق العشرة التي أمر الله عَزَّوَجَلَّ بها: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[النساء:٣٦].

فهذه حقوق عشرة لهؤلاء المذكورين في هذه الآية، أمر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بها ولا شك أن الحق الأول، وأنَّ الحق الأولى، وأنَّ الحق الأعظم، وأنَّ الحق الأهم هو حق الله جَلَّوَعَلَا، وهو أن يعبد وحده لا شريك له، وأن تجتنب عبادته ما سواه.

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، لا يزال الشيخ يؤكد لنا حقيقة هذا التوحيد، وأنَّه الجمعُ بين النفي والإثبات.

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، ولاحظ أنَّ قوله: ﴿شَيْئًا﴾ ها هنا نكرةٌ في سياق النهي فتعم، بمعنى: لا يجوز أن يُشرك مع الله شيءٌ البتة، أي شيء مهما كان ومهما كان ومهما ارتفعت منزلته، ومهما علت مكانته فإنه لا يجوز أن يُشرك مع الله جل وعلا، فالله له حق لا يجوز أن يُشرك معه فيه غيرُه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وهذا فيه بيانٌ واضح لحقيقةِ الشرك، وأنَّ الشركَ كلَّهُ مبغوضٌ لله منهيٌّ عنه مهما دَق، فهي آيةٌ عظيمة فيها بيانُ بطلان الشرك كبيرة وصغيرة، جلية وخفية.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[الأنعام:١٥١] الآيات.

هذه الآية وما بَعدها، واختلفت نسخ الكتاب في الموضع الذي وقف عنده قلمُ المؤلف، لكنَّ الشاهد من ذلك هو: أنَّ هذه الآية بينت حقيقة التوحيد الذي هو حق الله على العبيد: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[الأنعام:١٥١] وهذه الآية دليلٌ على التوحيد، وذلك: لأنَّ النهي عن الشرك يستدعي التوحيد بالاقتضاء كما يقول أهل العلم، يعني: كأنه قال: لا تشركوا بالله شيء مع عبادته سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وإلا فإنَّ اجتناب عبادة غير الله دون عبادة سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لا ينفع صاحبه شيء على أنه لا يمكن أنْ يكون الإنسان مُنْفَكًا عن توحيدٍ أو شرك لا يمكن، يعني: لا يمكن أن يكون هناك إنسان ليس بموحد ولا مشرك، إنما هو لا بدَّ أن يكون أحد رجلين إمَّا أن يكون موحدًا لله، أو أن يكون مشركًا الشرك الأكبر، أمَّا أن يكون خاليًّا من الأمرين فهذا لا يمكن لأن التوحيد والشرك نقيضان، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[الأنعام:١٥١] هذه آياتٌ عظيمة تسمى آيات الوصايا العشر، افتتحها الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بالتوحيد والأمر به والنهي عن ضده، وقد يقال أنه اختتمها بذلك أيضًا لأنه قال في ختامها: ﴿وأنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ ومعلومٌ أنَّ صراط الله المستقيم والسبيل الذي دعت إليه الأنبياء إنما هو توحيد الله جَلَّوَعَلَا، فهذه الآيات أيضا افتُتِحَت بالتوحيد واختتمت بالتوحيد، ودلالة الآية الأولى على بيان حقيقة التوحيد دِلالة واضحة كسابقتها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «من أراد أن ينظر إلى وصية محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي عليها خاتمه؛ فليقرأ قولَه تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[الأنعام:١٥١] إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾[الأنعام:١٥٣] » الآية.

هذا الأثر عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خرجَّه الترمذي وقال: (حسن غريب)، وحسَّنه طائفةٌ من أهل العلم، وضعفه طائفة.

وأورده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بلفظٍ مُقارب للفظ الترمذي: (من أراد أن ينظر إلى وصية محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وعند الترمذي: (من سره أن ينظر إلى صحيفة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي عليها خاتَمُه) ولك أن تقول: خاتِمة، يجوز: خاتَم وخاتِم.

ليقرأ هذه الآيات في سورة الأنعام، وهذا يدلُ على أنها آيات عظيمة مشتملةٌ على حقوقٍ واجبة على جميع العباد، وعلى أنَّ هذه الآيات محكمة لم تُنسخ وأنها من آخر ما نزل؛ لأن عليها خاتم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهي من الآيات التي يجب أن يعمل بها المسلم ويتنبأ لها والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ استنبط بعض الفوائد منها فيما أورده رَحِمَهُ ٱللَّهُ من مسائل إلى هذا الباب.

هذا الباب استنبط منه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فوائدَ ومسائلَ كثيرة بلغت أربعًا وعشرين فائدة، ومسألة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، **قال: كنت رديف النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **على حمار فقال لي:** «يا معاذ، أتدرى ما حق اللّه على العباد؟، وما حق العباد على اللّه؟»، قلت: اللّه ورسوله أعلم، قال: «حق اللّه على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على اللّه: ألا يعذب من لا يشرك به شيئا»، قلت: يا رسول؛ أفلا أبشر الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا» أخرجاه في الصحيحين.

هذا الحديث الصحيح المخرج في صحيحي البخاري ومسلم، فيه: بيان حقيقة التوحيد من كلام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أن يُعبد الله ولا يُشرك به شيء، وأن هذا من الحقوق التي يستحقها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عبادة، بل هو أعظم حقٍ له جَلَّ وَعَلَا على العباد.

هذا الحديث فيه: أن معاذًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان رديف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حمار.

الرديف هو: الراكب خلف الراكب.

وفيه: جواز الإرداف على الدابة؛ كما ذكر المؤلف في المسائل.

وفيه: تواضع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث كان يركب حمارًا.

وفيه أيضًا: تسمية الدواب، فإنه جاء في ((الصحيح)) تسمية هذا الحمار بعفير، وذكر علماء السيرة أنَّ هذا الحمار أهداه له المقوقس عظيمُ مصر.

لما كان مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بادره عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بهذا السؤال: أتدري ما هو حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟

وهذا أسلوبٌ بليغ في التعليم وهو: استثارة ذهن المتلقي وجلب انتباه لما يُلقى عليه من خلاله إرسال هذا السؤال إليه، أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟ فأجابه معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بتواضع وأدب بردِّ العلم في ذلك إلى الله وإلى رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي يوحى إليه من الله، فبيَّن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جواب هذا السؤال العظيم الذي هو من أهم المهمات في حياة كل إنسان، لابد أن يعرف الجواب عنه ما هو حق الله عليَّ؟ وما حقي على الله عَزَّ وَجَلَّ؟ ومع الأسف كثيرٌ من الناس على وجه الأرض يعيشون كالبهائم، أو استغفر الله البهائم خيرٌ منهم؛ لأن البهائم تعرف حق الله عليها ولا تعصيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ،

أمَّا هؤلاء يعيشون أسوأ من حالة البهائم والأنعام، لا يعرفون لحياتهم هدفًا ولا غاية ولا يعرفون لله عَزَّوَجَلَّ حقًا يقومون به.

الشاهد: أنَّ النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بيّن أن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا هذا هو التوحيد النفي والإثبات، وهو حقٌ استحقه الله على عبادة بمقتضى كونه ربَّهم وسيدهم وخالقهم، وكلُّ العقول مُجمعة على أن للسيد على عبده حقًا.

وهو يستحق هذا الحق ثانيًا على عباده؛ لأنه المنعم المتفضل عليهم، وشكرُ المُنعم مما أجمع العقلاء على حُسْنِه، فصار من حق الله عَزَّوَجَلَّ عليهم من هذه الجهة.

واستحق جَلَّوَعَلَا هذا الحق على العباد من جهة ثالثة وهي: من جهة أنَّ هذا ما تقتضيه ذاته وصفاته ونعوت جلاله وجماله، إذْ كلُّ ما عرف الله جَلَّجَلَالُهُ وعَظُمَ سلطانه بأسمائه وصفاته، فإنه لا يملك إلا أن يُذعن له بالمحبة والمهابة والخوف والتعظيم والإجلال، فهذا شيء يستحقه لذاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فلأجل هذه الوجوه الثلاثة كان حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا.

وأما الشق الثاني في الحديث فهو: حق العباد على الله، فإن أهل السنة والجماعة يقولون: إنَّ للعباد على الله حقًا بمقتضى هذا الحديث وأمثاله من الأدلة، ولكنَّه حقُ تفضلٍ من الله عَزَّوَجَلَّ، يعني: حقٌ أحقه الله على نفسه، لا أنَّ العباد هم الذين استحقوا على ربهم، أو أوجبوا على ربهم حقا، العباد أذلُّ وأحقر من ذلك، والله أجلّ وأعظمُ من ذلك.

إذا هذا حقًا أحقه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على نفسه.

وهذا التأصيل مرجعة عند أهل السنة والجماعة إلى ثلاثة أصول:

[الأصل]الأول: أنَّ الله جَلَّوَعَلَا كَتَبَ على نفسه إثابة الطائعين ومغفرة ذنوب التائبين، وما إلى ذلك قال جَلَّوَعَلَا: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[الأنعام:٥٤] فهذا شيء كتبه الله على نفسه، لا أنَّ العباد كتبوا عليه شيء وأوجبوا عليه شيئا، فصار هذا حقًا للعباد بمقتضى إيجاب الله وكتابته على نفسه.

[الأصل الثاني]: أنَّ الله وعد عباده المطيعين بالإثابة، والمستغفرين والتائبين بالمغفرة، ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ المِيعَادَ﴾[آل عمران:٩]، ﴿وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ

وَعْدَهُ﴾[الروم:٦]، ﴿وَعْدَ الصِدْقِ الذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾[الأحقاف:١٦]، فصار هذا حقًّا للعباد بمقتضى وَعْدِ الله الذي لا يخلف وعده.

الأصل الثالث: وهو أنه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ حرَّم على نفسه الظلم، ﴿إِنَّ الله لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾[يونس:٤٤]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[النساء:٤٠]، «يا عبادي أني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما»، ومن الظلم وَضْعُ الشيء -كما تعلمون- في غير موضعه، فإذا كان وعد، وأوجب، بالإثابة والمغفرة، كان خلاف ذلك وضعًا للشيء في غير موضعه، وهذا حقيقة الظلم.

إذًا حق العباد على الله حقًّا تفضل الله عَزَّوَجَلَّ به فأوجبه على نفسه، ومرجعه إلى هذه الأصول الثلاث التي سلفت.

(ألا يعذب من لا يشرك به شيئا) ، هذه المسألة راجعة إلى قضية الوعد والوعيد، وفي ذلك تفصيل يطول به الكلام، وسيأتي البحث فيه -إن شاء الله- على وجهة التفصيل في الباب الآتي، الباب الذي بعد هذا -إن شاء الله- فنرجي الكلام عن قوله: **(ألا يعذب من لا يشرك به شيئا)**.

لما سمع معاذٌ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ هذه البشارة العظيمة طلب من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أن يبشر الناس وهذا يدلك على أن من محاسن الأخلاق التي كان عليها الصالحون، ومنهم أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ومنهم معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ وهو محبة تبشير الناس بما يسرهم وبما يفرحهم، ولا شك أن الصالحين أعظم ما يفرحون به فضل الله عَزَّوَجَلَّ ورحمة وإحسانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾[يونس:٥٨].

إلا أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حضه على عدم بيان ذلك، وذلك: ألا يتكلوا، فإن من الناس من قد لا يحملوا هذا الحديث وأمثاله على محملة فيقعون في الخطأ بناًء على ذلك.

وأنبه إلى أنه وقع في بعض شروح كتاب التوحيد أنَّ معاذًا رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ حدّث بهذا قبل أن يموت تأثما، والذي يبدو والله أعلم أنَّ هذا ليس بالصواب وأنه قد حصل خلطٌ بين حديثين، فإن لمعاذٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قصة قريبة من هذه لكنَّها تختلف عنها في السياق والموضوع، وهو أنه كان رِدْفَ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على رحل، وليس على حمار يعني: كان على بعير.

فناداه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاث مرات وهذا أسلوب آخر لاسترعاء الانتباه: «يا معاذ، يا معاذ، يا معاذ»، وكل ذلك يقول: (لبيك يا رسول الله وسعديك)، ثم قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من أحدٍ يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار**»، هنا كرر معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطلب بأن يبشر الناس فكرر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التوجيه نفسه، ثم جاء في ختام الحديث، (فأخبر بها معاذ رضي الله عنه تأثمًا)، والذي استظهره الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ في ((الفتح))، وهذا الذي يبدو رجحانه أنَّ هذه القصة مخالفة لتلك، وأنه قد تكرر لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يكون رديفًا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن في كل مرة كان الحديثُ مختلفًا.

الشيخ لم يراجع التفريغ

٣

٣- باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب

فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

بعد أن بيَّن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الباب السابق حقيقة التوحيد وأهميته، عَطَفَ عليه هذا الباب ببيان فضل التوحيد؛ فإنَّ النفوس كأنها قد تشوفت بعد أن عرفت التوحيد، تشوفت إلى معرفة فضله، فكان من المناسب عَقْدُ هذا الباب في هذا الموضع.

وأيضًا حتى تنبعث الهمة، وتَعْظُم الرغبة في الاهتمام بما سيأتي في هذا الكتاب من تفاصيل مسائل التوحيد.

(**باب فضل التوحيد**) الباب عند أهل التأليف والتصنيف هو: القسم من الكتاب والذي يحتوي غالبًا على مسائل من جنسٍ واحد؛ هذا يطلقون عليه الباب، ويقَسِّمُون الكتب كثيرًا إلى أبواب.

والباب في اللغة: هو ما يوصل إلى المقصود، وهذا مناسبٌ لهذا المعنى الاصطلاحي، فإنَّ أبواب الكتب مُوصلةٌ إلى فَهْمِ المراد فهذا التقسيم إلى المسائل المجموعة كلٍّ على حدة تحت جزءٍ واحد وقسمٍ واحد تُعين على فَهْمِ هذا الموضوع.

قال: (**باب فضل التوحيد**)؛ يعني: هذا بابٌ موضوعٌ في بيان فضل التوحيد، وجاء في نسخة عند حفيد المؤلف الشيخ عبد الرحمن بن حسن في ((فتح المجيد)) باب بيان فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب.

الأقرب أنَّ (**ما**) ها هنا مصدرية؛ يعني: باب فضل التوحيد وتكفيره الذنوب أراد الشيخ أن يبين أن هذا التوحيد له فضائل وأنه يكفر الذنوب، وعليه فيكون قوله: (**وما يكفر من الذنوب**) من باب عطف الخاص على العام فبعض فضائل التوحيد تكفيره الذنوب.

ولا شك أن التوحيد له أعظم الفضل، والإحاطة بهذا الفضل مما تعجز عنه العبارة فإن التوحيد أعظم الأشياء وأكملها وأشرفها، وهو لُبُّ الدين، وهو أساسه وقاعدته وليس في دين الرسل ولا في كتب رب العالمين شيءٌ أعظم من التوحيد، والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ انتقى أدلةٍ يسيرة لبيان فضل التوحيد وإلا فالمقام أعظم من ذلك بكثير.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقول الله تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[الأنعام:٨٢].

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا الباب آيةً واحدة هي هذه الآية التي بين أيدينا: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[الأنعام:٨٢]. فسَّر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظلم هاهنا بـ:**الشرك**، ففي الصحيحين من حديث بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن هذه الآية لما نزلت شقَّ الأمر على أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجاءوا إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقالوا: «أينًا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ليس الذي تذهبون إليه، ألم تسمعوا إلى قول الرجل الصالح ﴿إن الشرك لظلمٌ عظيم﴾». فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن في هذا الحديث أن الظلم هو: الشرك.

ولا شك أن الشرك ظلم، **فالظلم** في اللغة: هو وضع الشيء في غير موضعه؛ ولأجل هذا تقول العرب: (ظَلَمَ الشيبُ الشعرَ)؛ يعني: إذا خرج في غير أوانه.

ومن الشعر السائر:

بِأَبِهِ اقْتَدَى عَدِيٌّ فِي الكَرَمْ ... وَمَنْ يُشابِه أَبَهُ فَما ظَلَمْ

(**ما ظلم**) يعني: ما وضع الشبَه في غير موضعه بل وضع الشبه في موضعه إذا وافق وشابه الابن أباه فإنه يكون قد وضع الشبه في موضعه، وعليه: فإن الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ ظلم بل هو أعظم الظلم؛ وذلك لأنه -أعني المشرك- وضع العبادة في غير موضعها فالعبادة حقٌّ لله، وموضعها الصحيح أن تكون مُتقرَّبًا بها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فمتى ما صرف ذلك لغير الله كان هذا ظلمًا، وكان وضعًا للشيء في غير موضعه، على أن الظلم يُطلق على جنس المعاصي سواءً كانت من الصغائر أو من الكبائر أو من الشرك، وذلك أن معصية الله عَزَّوَجَلَّ وضعٌ للعبد، ولعمله، ولقوله، ولعقله في غير موضعه وإذا كان ذلك كذلك كان هذا ظلمًا، وهذا الذي فهِمَهُ أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهموا أن المعاصي من الظلم.

وعليه فإن الإنسان لا يخلوا من معصية فظنوا أنه فاتهم الأمن والاهتداء بسبب المعاصي، وتنبه ها هنا إلى أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد أن يُبين لأصحابه أنَّ الشرك هو الذي

يُذهِب الأمن والاهتداء أراد أن يبين أن الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يُذهب الأمن، ويمنع الأمن والاهتداء، وليس أنَّ من لم يشرك ووقع في المعاصي يكون له كمال الهدى بكمال الاهتداء والأمن ليس هذا المراد، إنما أراد النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يبين أن كل من كان مؤمنًا بريئًا من الشرك الأكبر فإن له حظًا من الاهتداء والأمن.

ولكنَّ الأمر لا شك أنه متفاوت فمن كان له الإيمان المطلق كان له الأمن والاهتداء المطلق، ومن كان له مطلق الإيمان عنده أصل الإيمان مع ذنوبٍ ومعاصٍ، وإدمانٍ على ما حرم الله فإنه يكون له مطلق الأمن والاهتداء.

إذن تنبه إلى هذه القاعدة المهمة وهي قاعدةٌ مطردة: أن الأمن والاهتداء المطلق؛ يعني: الكامل يكون حظ من معه الإيمان المطلق؛ يعني الكامل، وأما من كان معه مطلق الإيمان؛ يعني أصل الإيمان فإنه يكون له مطلق الأمن والاهتداء؛ يعني: له حظ وله نصيب بحسب ما معه من هذا الإيمان، وأنه لا يفوته الأمن والاهتداء بالكلية ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾[الأنعام:٨٢]، كل إنسانٍ بحسب ما يقدم فإنه يكون له هذا الحظ من الأمن والاهتداء.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنَّ الأمن يراد به في: الآخرة، وأنَّ الاهتداء الذي يكون في: الدنيا، والأقرب والله أعلم أن الأمن والاهتداء يكون حاصلًا في الدنيا ويكون حاصلًا في الآخرة.

أما الأمن في الدنيا يكون بأنواع الأمن، وحصول الطمأنينة في النفوس وهذا يقع بفضل الله للنفوس التي اطمأنت إلى ربها وخالقها، وأقبلت عليه وقصدته بالعبادة والتذلل.

كما أنه يكون لهؤلاء المؤمنين الأمن في الآخرة وهم: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾[سبأ:٣٧]، ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾[النمل:٨٩].

وكذلك الاهتداء يكون في الدنيا، وكذلك يكون في الآخرة.

أما في الدنيا فلا شك أن من ثواب الإيمان والطائعة، والإقبال على الله عَزَّوَجَلَّ أن يهدي الله عَزَّوَجَلَّ هؤلاء المؤمنين إلى الصراط المستقيم، ويوفقهم إلى لزوم هذا الصراط المستقيم فيكون لهم الهداية في الدنيا.

وفي الآخرة يهديهم الله عَزَّوَجَلَّ إلى الجنة وهذه ثمرة الاهتداء في الدنيا أن يُهدى الإنسان إلى جنات النعيم: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[يونس:٩].

والله جَلَّوَعَلَا يجازي المؤمنين الذين اهتدوا بالدنيا بأن يهديهم يوم القيامة إلى منازلهم في الجنة، قال السلف رَحِمَهُمُٱللَّهُ: (فإنَّ أحدهم لهو أهدى إلى منزله في الجنة منه كان في الدنيا)، وجاء في هذا بعض الأحاديث والآثار.

إذن من حقق الإيمان بالله جَلَّوَعَلَا فإنه يكون له الأمن والاهتداء بحسب ذلك.

أما من نقضَّ إيمانه ووقع في الشرك فلا شك أنه يكون قد زال عنه الأمن والاهتداء، وهذا يكون من إثم وعقوبة الشرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ:

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «من شهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٍ منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» أخرجاه.

هذا الحديث عظيمُ القدر جليل المنزلة، وهو من أعظم الأحاديث بيانًا لمسائل التوحيد، هو كنز من كنوز علم الاعتقاد الذي ينبغي أن يعتني به المسلم.

وقبل أن نشرع في تعلم ما فيه من مسائل وفوائد أنبه إلى قاعدةٍ عامة تتعلق بفضائل التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

تواتر في النصوص أن: «**من قال لا إله إلا الله دخل الجنة**»، وأنَّ من أتى ربه جَلَّوَعَلَا، ولاقاه دون أن يكون مشركًا به سُبْحَانَهُوَتَعَالَى فإنه يكون من أهل الجنة، وهذا موضعٌ قد يغلطُ فيه بعض الناس، ويحملون ذلك على غير محمله وربما جرَّهم عدمُ الفهم الصحيح لهذه النصوص نصوص الوعد إلى الوقوع في شيءٍ من الإرجاء والغرور.

فالقاعدة هي: أنَّ الوعد الذي جاء في فضائل التوحيد ولا إله إلا الله وعدٌ مشرُوطٌ بشروط ومقيدٌ بقيود؛ فمن أتى بهذه الشروط وهذه القيود حصل له هذا الفضل الذي جاء في الأحاديث.

وقد مرَّ بنا في مراتٍ عدَّة قول الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما قيل له: «**من قال لا إله إلا الله دخل الجنة**»، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من قال لا إله إلا الله وأدى حقها وفرضها دخل الجنة)، وهذا كلامٌ حسنٌ متين ينبئ عن فقهٍ عظيم.

ولما قيل لوهب بن منبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أليست لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى ولكن لكل مفتاحٍ أسنان فإن أتيت بمفتاحٍ له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك).

إذن النصوص التي جاء فيها أنَّ «**من قال لا إله إلا الله دخل الجنة**» مقيدةٌ بتحقيق أصل التوحيد وكماله الواجب، وكمال التوحيد الواجب إنما يكون: بفعل الأوامر، واجتناب النواهي.

وهذا التقيد للنصوص مستفادٌ من الأدلة الصحيحة وهي على ضربين:

[الضرب الأول]: النصوص التي جاء فيها قيودٌ في قول لا إله إلا الله.

[الضرب] الثاني: النصوص التي جاء فيها قيودٌ مع قول لا إله إلا الله.

فالنصوص في هذا المقام، النصوص المقيدة والواجب حمل المطلق على المقيد هذه النصوص جاءت على ضربين:

[الضرب الأول]: نصوصٌ فيها تقيدٌ في قول لا إله إلا الله.

[الضرب الثاني]: نصوصٌ فيها تقيدٌ مع قول لا إله إلا الله، وإن شئت فقل:

نصوصٌ فيها شروطٌ باطنة.

ونصوصٌ فيها شروطٌ ظاهرة.

أما الضرب الأول: فهو مثل الحديث الذي سيأتي معنا إن شاء الله وهو حديث عِتبان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله، فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**». لاحظ معي أن ها هنا قيدًا مهمًا في تحصيل ثمرة قول لا إله إلا الله، وهي التحريم على النار، ألا وهي قوله: «**يبتغي بذلك وجه الله**».

إذن لابد من إخلاص، ولابد أيضًا من عمل؛ لأن من كان يبتغي شيئًا فلابد أن يكون باذلًا للأسباب التي توصله إلى تحصيله، وأما إذا لم يكن كذلك فإنه لا يكون مبتغيًا.

المبتغي الذي يصدق عليه وصف الابتغاء لابد أن يبذل، ولابد أن يعمل ما يوصله إلى ما يريد وإما إذا لم يكن كذلك فإنه كاذبٌ في زعمه أنه مبتغيٍ.

إذن تجد أن هذا قيْد قَيَدَّ تحصيل الفائدة المرجوة من لا إله إلا الله بقيدٍ مهم لا ينبغي إغفاله، وعليه: فالنصوص التي جاءت مطلقة جاء لها تقيد، فالإطلاق ينبغي أن يُحمل على هذا التقيد ،وهذا في النصوص له أدلةٌ عدَّة تجد أنه يقيد بأن من قالها: صدقًا من قلبه إذًا هذا قيدٍ مهم لابد في اعتباره في أدلةٍ كثيرة سيأتي طرفٌ منها فيما يأتي من هذا الكتاب -إن شاء الله-.

إذًا هذا هو الضرب الأول المقيد للنصوص المطلقة أن يكون فيها قيود لقول أو في قول لا إله إلا الله.

الضرب الآخر: أن تأتي النصوص فيها بيان فضل لا إله إلا الله ولكن مع أشياء أخرى فتكون القيود مع قول: لا إله إلا الله.

من ذلك ما ثبت في الصحيحين من أن أعرابيًا أمسك بخطام دابة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وسأله عن عملٍ يدخله الجنة، فأجاب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بقوله: «**تعبد الله ولا تشرك به شيئًا**» هذا هو التوحيد، هذا هو مضمون لا إله إلا الله. أليس كذلك؟

ثم قال: «**وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم**».

إذًا تلاحظ أن هناك قيودًا مع قول: لا إله إلا الله لابد من تحصيلها؛ لنيل الثواب المترتب على التوحيد، تجد مثلًا عند الإمام أحمد وغيره بإسنادٍ جيد أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**من عبد الله لا يشرك به شيئًا** -هذا التوحيد- **وأقام الصلاة، وأتى الزكاة، واجتنب الكبائر فله الجنة**» أو قال: «**دخل الجنة**».

تلاحظ معي أن هاهنا قيودًا مع التوحيد وهي: أن تأتي بالواجبات، وأرفعها وأعلاها الصلاة والزكاة، ثم أن تكف عما حرم الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ هنا تحصل الثمرة التي تريد وهي أن تدخل الجنة.

إذًا النصوص في فضل لا إله إلا الله ينبغي أن تحمل على هذه السبيل، وهي أنها نصوصٌ مطلقة، ولها قيود قيودٌ في قولها، وقيودٌ مع قولها.

وبالتالي يستقيم فَهْمُ الإنسان لهذه النصوص، ويكون متوسطًا بين طرفي أهل الوعيد وأهل الإرجاء.

وإن كنت طالبًا للعلم حريصًا على الفائدة فأوصيك بمراجعة موضعٍ أُراه من أحسن المواضع في تحقيق هذا المقام، وهو موضع لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((تفسير آياتٍ أَشكلت))، فهذا من أحسن المواضع التي وقفت عليه في تحقيق المقام في هذه المسألة العظيمة.

قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في هذا الحديث: **«من شهد أن لا إله إلا الله»** مرَّ بنا أن الشهادة: قولٌ وإخبارٌ عن علمٍ ويقين، لا تكون الشهادة شهادة دون قول، ولا تكون الشهادة شهادةً مع جهل، ولا تكون الشهادة شهادةً مع شكٍ وارتياب.

إذن يكون الإنسان شاهدًا بأن لا إله إلا الله إذا تكلم بها عن علمٍ ويقين، يعلم المعنى ويستيقن به وبالتالي يكون مُتشهدًا.

وهذا الحديث أيضًا مما يمكن أن يُقال إنه من النصوص المقيدة فإن الشهادة لابد فيها من يقين، واليقين يستتبع العمل، من لوازم اليقين أن يكون هناك أثرٌ في العمل فإذا صلح القلب باستيقان معنى لا إله إلا الله أثمر ذلك على الجوارح؛ الإقبال على الأوامر واجتناب النواهي.

قال: **«من شهد أن لا إله إلا الله»**، **(من)** هنا هي المخففه من الثقيلة، تُكْتب ولا تنطق، يُخطئ بعض الناس عندما يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، قد تسمع هذا من بعض الناس في الأذان وغيره، وهذا غلط الصواب أن تُقال هكذا: (أشهد أن لا إله إلا الله) تكتب ولا تنطق.

ولا إله إلا الله هي الكلمة العظيمة التي قامت من أجلها السماوات والأرض تلحظ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أكدَّ معنى لا إله إلا الله بقوله: **«وحده لا شريك له»**، ومرَّ معنا في الدرس الماضي أن لا إله إلا الله جملةٌ مشتملةٌ على نفيٍ وإثبات، وأنه لا يكون توحيدٌ إلا باجتماعهما فالنفي وحده عدم، والعدم ليس بإيمانٍ ولا توحيد، والإثبات وحده لا يمنع المشاركة فلا توحيد، فالتوحيد الجمع بين النفي والإثبات وسيأتي معنا -إن شاء الله- بابٌ مختص لتفسير هذه الشهادة العظيمة.

ثم قال: «**وحده لا شريك له**» هذا تأكيدٌ للإثبات، تأكيدٌ لقول: «**إلا الله**»، ولا شريك له تأكيدٌ للنفي تأكيدٌ لقوله: «**لا إله**»، قال أهل العلم: (تأكيدٌ بعد تأكيد تنبيهٌ على مقام التوحيد)، المقام مقامٌ عظيم يحتاج إلى تنبيه وتذكير وتأكيد؛ حتى يستقر المعنى في النفوس المؤمنة.

قال: «**وأنَّ محمدًا عبده ورسوله**» محمدٌ بن عبد الله القرشي الهاشمي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا النبي الكريم لا يكون الإنسان مؤمنًا موحدًا إلا إذا شهد له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرسالة أنه رسولٌ من عند الله جَلَّ وَعَلَا، وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن رسالته عامةٌ للثقلين هذا معنى شهادته أن محمدًا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **ولازم ذلك:** طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يُعبد الله إلا بما شرع.

هذه الشهادة قرينة شهادة التوحيد لله، فلا يكون الإنسان موحدًا إلا إذا شهد الشهادتين ووحد التوحيدين: التوحيد لله بالعبادة، والتوحيد للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإتباع، ومتى أتى الإنسان بواحدٍ أو بواحدةٍ من هاتين الشهادتين ما انتفع فلا تنتفع بشهادةٍ إلا بضم الأخرى إليها.

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جمع الله له كمال أكمل وصفين في البشر ألا وهو: أنه عبد الله ورسوله، وهذان الوصفان أكمل وصفين للبشر وللنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهما كمالهما؛ بمعنى أن للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كمال العبودية، وللنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كمال النبوة والرسالة فإنه بالاتفاق أعظم الأنبياء وأفضل المرسلين، وهو إمامهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآدم كمن دونه تحت لوائه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة.

هذان الوصفان كما ذكرت لك أكمل وصفٍ يصل أو يمكن أن يصل إليه بشر أن يكون عبدًا لله وأن يكون رسولًا لله، وذلك مقام الأنبياء والمرسلين الذين هم أقبل البشر ولكن لنبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كمال العبودية، ولنبينا كمال الرسالة وكمال المنزلة للنبوة .

إذًا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل الأنبياء، وأفضل المرسلين، وأفضل البشر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولاحظ أنَّ في هذا الحديث ردًا على طرفي الضلال: على أهل الغلو، وعلى أهل الجفاء، على الذين فرطوا وعلى الذين أفرطوا.

فقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وأن محمدًا عبده**» ردٌ على أهل الغلو الذين رفعوه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مقام العبودية إلى مقام الإلهية، بل إن منهم من رفعه إلى مقام الربوبية وهذا لا شك أنه غايةٌ في الضلال، والرد على هؤلاء بقوله ﷺ: «**عبده**» فالغالي في النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي رفعه إلى درجة أن يكون معبودًا لا عابدًا فإنه يكون مكذبًا لقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنه عبد الله**».

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ورسوله**» ردٌ على أهل الجفاء وهم الذين كذبوا بنبوة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورسالته، أو قصّروا في إتباعه.

هؤلاء وهؤلاء الرد عليهم بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ورسوله**»، فمن كان غير مؤمنٍ برسالته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه يُرَدُّ عليه بقوله: «**ورسوله**»، والذي يُقَصِّرُ بإتباع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إما بإتباع الشهوات والإعراض عن أوامر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسننه أو يكون متبعًا للشبهات مُقدمًا قولًا غير قول نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن هذا بين أن يكون مكذبًا لرسالته في حال الكفار، أو يكون عنده نقص في الشهادة للرسالة بحسب حاله إذا كان من أهل الكبائر أو كان من أهل الابتداع فهؤلاء وهؤلاء عندهم نقص، وعندهم تقصير في الشهادة للنبي محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرسالة، من كان مؤمنًا وشاهدًا لرسالة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه يلزمه أن يطيعه فيما أمر، وأن يصدقه فيما أخبر، وأن يجتنب ما نهى عنه وزجر، وأن يعبد الله وفق ما بيّن وشرع صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما سوى ذلك تقصيرٌ ولا شك.

ثم قال: صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وأن عيسى عبد الله ورسوله**».

عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أحد أولي العزم من الرسل الذين هم أفضل الأنبياء والمرسلين، وهم الذين جمعهم الله عَزَّ وَجَلَّ في قوله: ﴿**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾ **[الشورى:١٣]** فهؤلاء الخمسة هم أولوا العزم من الرسل، وأعظمهم منزلة ومكانة هو نبينا محمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: «**وأن عيسى عبد الله ورسوله**» هذا أيضًا فيه ردٌ على طرفي الضلال في شأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الذين رفعوه إلى أن يكون إلهًا أو ابنًا للإله أو واحدًا من ثلاثة.

وردٌ أيضًا في قوله: «**ورسوله**» على الذين طعنوا في نبوته ورسالته أو قدحوا فيه كـ اليهود حينما وضعوا عليه ما وضعوا من ألقاب السوء كزعمهم ابن زانية –وحاشاه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ–.

إذًا هؤلاء الرد عليهم جميعًا بقوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وأن عيسى عبد الله ورسوله**».

قال: «**وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٍ منه**».

معنى قوله: «**وكلمته**» أي: أنه كان بكلمة الله، كما بيَّن هذا الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((الرد على الجهمية والزنادقة))، وكما فعل أيضًا غيره من المتقدمين كقتادة، أو ممن بعدهم كالدارمي في ((نقضِّه على بِشر))، وتسلسل هذا في كلام أهل العلم قاطبة أنَّ معنى قوله: «**وكلمته**» أنَّه: بالكلمة كان لا أنه هو الكلمة؛ أي: أنَّ الله خلقه بقول (كُنْ): ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾[**آل عمران:٥٩**] فعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خُلِقَ بهذه الكلمة ولم يُخلَق بالسبب المعتاد في خلق بني آدم فإن الله جَلَّ وَعَلَا خَلَقَ عامة الناس بتوسط سبب وهو التقاء الوالدين، أما عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وكذلك آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فلم يكن خلقهم بهذه الأسباب أو بهذا السبب المعتاد إنما خلقه الله عَزَّ وَجَلَّ بقوله: ﴿**كُنْ**﴾[**آل عمران:٥٩**].

إذًا (**كلمته**) يعني: بكلمته كان.

وقوله ﷺ: «**وروحٌ منه**» أي: أنه مخلوقٌ بالروح التي خلقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالروح في قوله: «**منه**» يعني: الروح المخلوقة التي خُلقت من الله عَزَّ وَجَلَّ، فقوله: «**منه**» هاهنا (من) لابتداء الغاية، وذلك له نظائر في النصوص فهذه الروح من الله كانت خلقًا وإيجادًا، وجبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نفخ في جيب مريم هذه الروح التي خلقها الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال أهل العلم: (الله خلق بكُنْ وجبريل نفخ الروح) جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان منه النفخ في الروح، والله جَلَّ وَعَلَا كان منه الخلق بـ(**كُنْ**).

وهذا الموضع مما ضلَّ فيه من ضلَّ من أهل الكفر، وأهل الضلال فالنصارى ضلوا ها هنا حيثُ زعموا أنَّ صفةً من الله عَزَّ وَجَلَّ وهي الروح قد حلَّت في عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فكان اللاهوت في الناسوت كما يقولون، أو أنَّ جزءً من الإلهية في عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولا شك أن

هذا من الضلال البين، فإن إضافة الروح هاهنا إلى الله جَلَّوَعَلَا إضافة مخلوقٍ إلى خالقه الشأن فيها كالشأن في ناقة الله، وبيت الله وأمثالها مما جاء في النصوص.

والقاعدة: أنَّ الإضافة إلى الله جَلَّوَعَلَا **جاءت على قسمين**:

[القسم الأول]: إضافةُ صفةٍ إلى موصوف.

[القسم الثاني]: إضافةُ مخلوقٍ إلى خالق.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإضافة الأوصاف ثابتٌ لمن قامت به كإرادة الرحمن
وإضافة الأعيان ثابتٌ له مُلكًا وخلقًا ما هما سيان
فأنظر إلى بيت الإله وعلمه لما أُضيفا كيف يفترقان

فرقٌ شاسع بين أن تقول: علمُ الله، فهذه إضافة صفةٍ إلى موصوف؛ لأنَّ العلم صفة لا تقوم الصفة بذاتها بنفسها بل لابد أن تقوم بذات، وحينما تقول: بيت الله، الأمر ها هنا مختلف هذه إضافة مخلوق إلى خالقه؛ لأنَّ هذا المخلوق قائمٌ بنفسه، الروح مخلوقٌ كائنٌ قامٌ بنفسه وإن كان يحلُّ في غيره لكنَّه مخلوقٌ مستقل، فإضافته إلى الله جَلَّوَعَلَا من إضافة المخلوق إلى خالقه.

قال: «**وأن الجنة حقٌ والنار حق**»، الجنة والنار هما الداران اللتان جعلهم الله عَزَّوَجَلَّ محلًّا لثوابه وهذه الجنة، أو محلًّا لعقابه وهذه النار، فالمؤمنون يعتقدون أنهما حق، وذلك يتضمن أنهما داران مخلوقتان موجودتان الآن، وأنهما باقيتان لا تفنيان وما فيهما، وأنَّ الله جَلَّوَعَلَا قد أعدَّ فيهما شيئًا عظيمًا لا يحيطُ به فكرُ الإنسان ففي ذلك مما أعدَّ الله عَزَّوَجَلَّ من أصناف النعيم في الجنة أو أصناف العذاب في النار -نسأل الله السلامة والعافية، ونسأل الله من فضله- لا شك أنَّ في ذلك ما لا يحيط به فكر إنسان، فهذا مما يجب أن يعتقده المسلم أن الجنة حق وأن النار حق.

ثم قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أدخله الله**»، ما إعراب: (أدخله)؟ جواب الشرط.

وأين الشرط؟ (من شَهِدَ).

إذًا هذا هو جواب الشرط، هذه هي الجائزة التي وعد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من حقق هذه المذكورات في هذا الحديث وعد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وهو الذي لا يخلف وعده جَلَّوَعَلَا أنَّ منه

كان منه ذلك: (أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)؛ يعني: على أي عملٍ كان يلاقي فيه ربه جَلَّوَعَلَا فإنه سيكون من أهل الجنة.

وها هنا وقفة عند قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أدخله الله الجنة**» فإن هذا النص وأمثاله محمولٌ عند أهل العلم على أحد وجهين بحسب حال العامل:

«**أدخله الله الجنة**» ابتداءً.

أو «**أدخله الله الجنة**» مآلًا.

سيدخل الجنة قطعًا تحقيقًا لوعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا مما لا يقبل الشك؛ ولكن لابد من التنبه ها هنا إلى أن الدخول مختلف قد يكون: الدخول المطلق، وقد يكون: مطلق الدخول؛ بمعنى:

- قد يكون الدخول أول وهلة مباشرة من الحشر من عرصات القيامة وإلى الجنة دون المرور على النار -نسأل الله أن يجعلنا من هؤلاء- هذا شأن كُمَّل المؤمنين، هذا شأن الذين حققوا أصل التوحيد، وحققوا كماله الواجب ومن باب أولى الذين حققوا كماله المستحب.

- وأما الدخول المآلي يعني: مطلق الدخول أو ما عبرنا عنه بمطلق الدخول فأنه يكون لمن مات على التوحيد وأتى بكبائر لم يغفرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له فإن هذا سيدخل الجنة قطعًا ولكن بعد أن يدخل النار دخولًا مؤقتًا؛ يعني في مدةٍ يشاؤها الله سبحانه وهو العليم بها فهذا سيخرج من هذه النار بعد ذلك قطعًا ويدخل الجنة ويبقى فيها أبدًا، فهو داخلٌ إلى الجنة إذا أتى بهذا التوحيد، وشهد هذه الشهادات، وكفَّ عما يناقض ذلك فإنه سيدخل الجنة قطعًا إما دخولًا: أوليًا أو ابتدائيًا، وإما دخولًا: مآليًا مع ملاحظة أن أهل الكبائر الذين ماتوا مصرين على الكبائر قد يكونون من أهل الصنف الأول ممن بدخول الجنة دخولًا مآليًّا [أوليًّا]؛ لأنَّ عندنا هاهنا أصلًا آخر وهو أن كل الوعيد الذي جاء في حق العصاة فهو مقيدٌ بقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[النساء:٤٨] فهذه قواعدٌ مهما لابد من استحضارها حين النظر في نصوص الوعد والعيد والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهما في حديث عتبان: «فإنَّ الله حرم على النار من قال (لا إله إلا الله)؛ يبتغي بذلك وجه الله».

هذا الحديث الثاني في هذا الباب وهو حديث عتبان، وهو عتبان بن مالك الأنصاري صحابيٌ جليل.

ومن اللطائف أنَّ هذا الصحابي رابع صحابيٍ يذكره المؤلف في كتابه، وكلُّ هؤلاء الأربعة الذين افتتح المؤلف كتابه بذكرهم بدّريون مرَّ معنا: ابن مسعود، ثم معاذ ثم عُبادة ثم عتبان، وكلهم بدريون رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

قال: «**فإن الله حرم على النار**»، قال هذا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديثٍ فيه قصة، وهي: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زار عتبان لما استزار النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يعني: طلب زيارته، وأن يصلي في بيته بعد أن ضَعُفَ بصره.

الشاهد: أنه ذكر بعض من رُميَّ بالنفاق حينها قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**»، وهذا الحديث مخرجٌ في ((الصحيحين)) خرجه الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مواضع من صحيحه من حديث الزهري، عن محمود بن الربيع، عن عتبان بن مالك، وجاء في موضعٍ عن مسلم من حديث أنسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن عتبان.

وجاء بمسند الإمام أحمد بإسنادٍ فيه بعض النظر من حديث أنسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن عتبان أن الصحابة ما فرحوا قط كفرحهم بما قالها هنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا الحديث من المبشرات العظيمة بل جاء في هذه الرواية: أن أنسًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال لابنه أبي بكر: (احفظ هذا الحديث فإنه من كنوز الحديث)، هذا من كنوز الحديث؛ يعني: فيه فضل وله منزلة ومكانة؛ لأن فيه بشارةً عظيمة لأهل التوحيد الذين قالوا: لا إله إلا الله بشرط أن يكونوا مبتغين بذلك وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**».

هذا الحديث فيه بيان فضل التوحيد، وأنَّ من فضائل التوحيد أنه يُحَرِّمُ صاحبه على النار -نسأل الله من فضله- وهذا التحريم أمرٌ قطعي؛ لأنَّه وَعْدُ الله، والله لا يخلف وعده.

ولكن الجمع بين النصوص يدل على أنَّ هذا التحريم ينقسم إلى قسمين:

[القسم الأول]: تحريم الدخول.

[القسم الثاني]: تحريم الخلود.

من الناس المؤمنين أعني من يحرم عليه دخولها أصلًا لا يدخلها البتَّة، وهؤلاء الذين حققوا كمال التوحيد الواجب وأولى منهم من حقق التوحيد المستحب.

أما الذين يُحْرُم عليهم الخلود فيها فهؤلاء الذين معهم أصلُّ التوحيد لكنَّهم من العصاة أهلِّ الكبائر، والشأنُ فيهم كالشأن فيمن ذكرنا قبل قليل فهؤلاء يُصْدُق عليهم قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**» لا شك أنهم قالوها، وحصل لهم حظٌّ من ابتغاء ذلك لوجه الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لكنْ ما حصل لهم كمال الابتغاء فحصل منهم التقصير؛ بترك الواجبات، أو فعل الكبائر، أو الإصرار على الصغائر.

أما كُمَّلُ المؤمنين الذين لهم كمال الإيمان والتوحيد فهؤلاء منزَّهون عن فعل الكبائر أو الإصرار عليها ليسوا معصومين هم بشر وكل ابن آدم خطاء، لكنَّ ذنوبهم إمَّا أن تكون صغائر، وإما أن تزِّلَ بهم القدم فيقعوا في كبيرة لكنَّهم يبادرون إلى التوبة، والله جَلَّوَعَلَا قال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ**﴾[**الأعراف:٢٠١**]. ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ**﴾[**آل عمران:١٣٥**]. ماذا يكون منهم؟ ﴿**ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ**﴾[**آل عمران:١٣٥**].

إِذًا هذا شأن الكُمَّل من أهل التوحيد أنَّهم لا تقع منهم الكبائر أو إذا وقعت بادروا إلى التوبة إلى الله جَلَّوَعَلَا.

أما هؤلاء الذين نتحدث عنهم في هذا الصنف فهم الذين ماتوا مصرين على الكبائر، وهؤلاء الذين ماتوا وعليهم كبائر أو كانوا مصرين على الصغائر ولم يشأ الله عَزَّوَجَلَّ أن يعفوا عنهم فهؤلاء يَدْخُلون النار دخولًا مؤقتًا مدةً يشاءها الله، ثم يخرجون إمَّا بسبب شفاعة أو

بمحضِّ رحمة أرحم الراحمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبالتالي يَصْدُقُ عليهم أنَّهم حرموا على النار؛ بمعنى حرموا على النار خلودًا، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «قال موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: يا رب علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به. قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله؛ قال: كل عبادك يقولون هذا؟ قال: يا موسى لو أنَّ السموات السبع وعامرَهنَّ -غيري - والأرضيين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة؛ مالت بهن لا إله إلا الله». رواه ابن حبان والحاكم وصححه.

هذا الحديث حديثُ أبي سعيدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فيه بحثٌ من جهة إسناده، خرجَّه كما رأيت ابن حبَّان والحاكم بل خرجه النسائي في ((الكبرى)) وغيرهم من أهل العلم لكنَّ الإسناد فيه بحث فإنه جاء من طريق دراج أبي السمح، عن أبي الهيثم، وهذه الرواية فيها ضعف بل وقع فيها مناكير، وإن كان قد صحح هذا الحديث طائفةٌ من أهل العلم كابن حِبَّان والحاكم، وكذلك الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الجزء الحادي عشر من ((فتح الباري)).

وهذا المعنى الذي جاء في هذا الحديث جاء في حديثٍ عند الإمام أحمد بإسنادٍ جيد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ولكنَّ السياق مختلف فليس الأمر في كلامٍ بين الله عَزَّوَجَلَّ وموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وإنما بين نوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وابنه.

وكذلك جاء عند ابن أبي شيبة بإسنادٍ صحيح معنى هذا الحديث من قول كعب الأحبار رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الشاهدُ: أنَّ معنى هذا الحديث لا شك في صحته وهو عِظَمُ وفَضْلُ التوحيد، والكلمة التي هي دالةٌ على هذا التوحيد وهي لا إله إلا الله، وأنَّ زينتها وقدْرَهَا أعظم من السماوات والأرض وهذا لا شك أنه حقٌ وصدق.

موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أحدُ أولي العزم من الرسل سَأَلَ ربه جَلَّ وَعَلَا أن يعلمه شيئًا يدعوه ويذكره به، كونُ (لا إله إلا الله) ذكرًا هذا شيءٌ واضح، وكونها دعاءً هذا شيءٌ صحيحٌ أيضًا، وذلك أنَّ هذا الذكر وأعلاه قول: لا إله إلا الله دعاءٌ بلسان الحال، ومرَّ بنا في مناسباتٍ سابقة أنَّ الدعاء ينقسم إلى قسمين:

[القسم الأول]: دعاء المسألة هو: السؤال والطلب، فالدعاء المعروف: (اللهم إني أسألك)، (يا الله)، (يا رب).

[القسم الثاني]: دعاء العبادة، هو: كل أنواع العبادة فإنها طلبٌ من الله عَزَّوَجَلَّ بلسان الحال، طلبٌ من الله أن يعفو، وأن يغفر، وأن يُدْخِل الجنة بسبب هذا العمل. طلب موسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ شيئًا يدعو الله ويذكره به فأمره ربه جَلَّوَعَلَا أن يقول: لا إله إلا الله، هنا موسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ طلب شيئًا يختص به، ويتميز به عن غيره والنفوس مجبولةٌ على حب أن تتميز فقال: **«كل عبادك يقولون لا إله إلا الله»** ليس هذا انتقاصًا من قدر هذه الكلمة العظيمة، لكنَّه طلبٌ للاختصاص أن يخصه الله عَزَّوَجَلَّ بشيء، فبين سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في هذا الحديث أن لـ (لا إله إلا الله) لها شأنٌ عظيم حتى وإن كانت كلمةً عامة يقولها المؤمنون جميعًا إلا أنَّ الشأن فيها عظيمٌ جدًا، حتى إنه لو كانت السموات والأرض في كِفَّة وهذا هو الأشهر في هذه الكلمة، وقال بعضهم :كَفَّة، وقال بعضهم: إنها من مُثلث الكلام كِفَّه، وكَفَّه، وكُفَّه لكنَّ الأشهر بالكسر، لو كانت في السماوات والأرض هذه المخلوقات العظيمة الكبيرة الواسعة الثقيلة في كِفَّة من كفتي الميزان، وهذه الكلمة الطيبة لا إله إلا الله في الكِفَّة المقابلة فإنَّ لا إله إلا الله أثقل (لمالت بهنَّ لا إله إلا الله)؛ يعني: ترجحت، وذلك يدلك على عظيم شأن هذه الكلمة، وعظيم قدرها عند الله، وعظيم ثوابها عند الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

وهنا اختلف أهل العلم في هذا الحديث إن صحَّ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أكان مراد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يُمَثِّل ويبين عِظم شأن هذه الكلمة؛ بمعنى أنه لو قُدِّر أن جُسِّد أو صور فضل لا إله إلا الله بحيث يكون فيه كِفَّة، والسموات والأرض وضعت في كِفَّة الميزان فإن لا إله إلا الله ثقلها ومكانتها، وثوابها أعظم من ثقل السماوات والأرض أو أن مراد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن لا إله إلا الله في كِفة الميزان الأخروي الذي يضعه الله جَلَّوَعَلَا يوم القيامة ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾**[الأنبياء:٤٧]** أن وزن هذه الكلمة في الميزان الأخروي أثقل من السموات والأرض؟

الحديث محتملٌ للأمرين، والمؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ كأنه يميل إلى الثاني فإنه ذكر في مسائل الكتاب أن: الميزان له كفتان، وكأنه يشير بذلك إلى أنَّ الميزان الأخروي له كفتان، وهذا الأمر ثابتٌ ولا شك فيه كما يدل عليه حديث البطاقة وأظنُّه معلومًا عندكم.

الشاهد: أن هذا الحديث يؤيد ويؤكد ما دلت عليه النصوصُ السابقة في فضل لا إله إلا الله، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وللترمذي –وحسنه - عن أنس، سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة».

هذا الحديث حديثُ الترمذي وذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه حسَّنه، وإن كانت النسخة المطبوعة ليس فيها هذا التحسين وإنما قال الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذا الحديث إنه: (غريبٌ من هذا الوجه). ولكن الحديث حسن إسناده لا بأس به، وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه على الأربعين النووية، وهذا آخر حديث في ((الأربعين النووية)) قال عن إسناده: (إنه لا بأس به)، وصححه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((المدارج))، وصححه الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضعٍ في ((صحيح الترمذي))، وحسَّنه في ((السلسلة الصحيحة)) فهو حديثٌ ثابتٌ إن شاء الله.

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قطعةً من هذا الحديث، وأوله: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول –فهو حديثٌ قدسي-: **«يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أُبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أُبالي، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»**.

(قُراب) وهذا هو الأقرب، وقال بعضهم: (قِراب)؛ يعني: ما يملئ الأرض، أو ما يقارب ملئ الأرض.

«لو أتيتني بقراب الأرض خطايا» هذا فيه تمثيلٌ لكثرة الذنوب التي لو لقيَّ الإنسان ربه بها؛ يعني: توفي مصرًا عليها لم يتب إلى الله جَلَّوَعَلَا منها ولكنَّه لم يشرك بالله شيئًا لقي الله بريئًا من الشرك، وقلنا سابقًا إن النصوص التي فيها نفي الشرك تستدعي التوحيد بالاقتضاء (لا يشرك بالله شيئًا)؛ يعني: كان موحدًا لله جَلَّوَعَلَا مع اجتنابه للشرك.

وهذا يدلك على عظيم شأن التوحيد وأن التوحيد أعظم سببٍ لمغفرة الذنوب حتى قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إن التوحيد الذي هو توحيد –انتبه– ليس التوحيد الذي لا يتجاوز الشفتين، ولا يصل إلى سويداء القلب، ولا يكون له أثرٌ على الجوارح إنما هذا التوحيد الضعيف أثره ضعيف لكنَّ التوحيد الذي هو توحيد تكفيره للذنوب أعظم من تكفير التوبة للذنوب؛ لأنَّ حسنة التوحيد أعظم من حسنة التوبة، فمن لقي الله جَلَّ وَعَلَا بذنوبٍ عظيمة حتى إنها تكاد أن تبلغ حجم هذه الأرض لكنَّه لقي الله عَزَّوَجَلَّ بتوحيدٍ صادق ولم يشرك بالله شيئًا فليبشر بمغفرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا من وعد الله جَلَّ وَعَلَا وهو لا يخلف وعده تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وهذا الحديث ينبغي فهمه على الوجه الصحيح فإن كون الإنسان يأتي بمثل هذه الذنوب العظيمة البالغة التي تبلغ هذا القدر الذي هو بقدر السموات والأرض لا يتأتى ممن لا يشرك بالله شيئًا، ولا يقع في شيءٍ من الشرك البتَّة بل لابد لمن كان مدمنًا على هذه الذنوب والمعاصي، وأتى بهذا القدر الكبير لابد أن يكون قد وقع في شعبةٍ من الشرك ولابد، لابد أن تؤثر هذه الذنوب العظيمة شيئًا من الوقوع في شعبةٍ من الشرك بأن يحب غير الله، أو أن يرجوا غير الله، أو أن يخاف من غير الله، أو أن يضعف تصديقه بخبر الله ووعده ووعيده.

وبالتالي فإن الذين يدخلون النار من عصاة الموحدين وهذا أصلٌ قطعي فلابد من دخول طائفةٍ من عصاة النار قطعًا تصديقًا لأحاديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هؤلاء اجتنبوا الشرك الأكبر ولكنَّهم وقعوا في ذنوبٍ ومعاصٍ، وأطرافٍ من الشرك الأصغر.

وبناءً على ذلك فالجمع بين النصوص كهذا الحديث الذي بين أيدينا وتلك التي تدل على أن عصاةً أتوا بـلا إله إلا الله ومعهم توحيد كما مرَّ معنا في الدرس الماضي أو الذي قبله أنه يدخل قومٌ من أهل التوحيد النار نص النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أنهم من أهل التوحيد ومع ذلك دخلوا النار؛ بسبب ذنوبٍ ومعاصٍ وقعوا فيها، فالجمع بين النصوص إذًا أن يقال: إن هذا الذي يغفر الله عَزَّوَجَلَّ له إذا أتى بالمعاصي إما أن يكون لا تقع منه إلا على ندرة يقع منه صغائر وهي مكفرة باجتناب الكبائر أو يقع منه كبائر يبادر بالتوبة منها، وبالتالي: فإنها لا تؤثر فيه.

أو أن هذا الإنسان وإن أتى بهذه الذنوب العظيمة ولكنَّه يوفَّق إلى تجديد التوحيد، وتجديد لا إله إلا الله في قلبه فتكون أنوار لا إله إلا الله محرقةً لذنوب هذه المعاصي؛ بمعنى: أرأيتَ إنسانًا أتى بذنوبٍ عظيمة وكثيرة جدًا ولكنَّه رُزق التوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ قبل وفاته مات على توبةٍ من هذه الذنوب. ما حكم تلك السيئات؟

مغفورة، قال النبيصَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«التائب من الذنب كمن لا ذنب له»**.

إذًا هذا الإنسان لو ما أتى بالتوبة لكنَّه جدد التوحيد أتى بلا إله إلا الله بصدق ويقين وإخلاص تأثير التوحيد في مغفرة تلك الذنوب أعظم من تأثير التوبة، فهذا هو الذي يقتضيه الجمع بين النصوص التي جاءت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الشأن.

والناس في هذا لا شك أنهم متفاوتون تفاوتًا عظيمًا، وإن كان كل المسلمين يقولون: لا إله إلا الله فإن قولهم: لـ (لا إله إلا الله) وإنَّ أَثَرَ (لا إله إلا الله) لا شك أنه يتفاوت تفاوتًا عظيمًا.

والشأن في هذا كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((الداء والدواء)): أن لا إله إلا الله في النفوس متفاوتة؛ من الناس من تكون لا إله إلا الله في نفسه ميتة، ومنهم من تكون لا إله إلا الله في نفسه مريضة، ومنهم من تكون لا إله إلا الله في نفسه نائمة، إذا أُيقظت تيقظت، ومنهم من تكون لا إله إلا الله في قلبه متيقظة قائمةٌ لمصالح الروح والبدن فهي في النفس بمنزلة الروح فروحٌ ميتة، وروحٌ ضعيفة، وروحٌ نشيطة هكذا الناس يتفاوتون في لا إله إلا الله في تحقيق شروطها، في الإتيان بقيودها، في مجانبة نواقضها، في الابتعاد عن القوادح فيها، وبالتالي فإن لهم درجات بحسب أعمالهم، ولهم ثواب بحسب ما قدَّموا.

إذًا لو أتى الإنسان بتوحيدٍ صادق، ولقيَّ الله جَلَّ وَعَلَا على هذا التوحيد فليبشر بأن الله جَلَّ وَعَلَا سيغفر له ذنوبه السالفة، فالشأن إذًا الجد والتشمير في تحقيق هذا التوحيد، أسأل الله جلَّ وعلا أن يجعلني وإياكم من المحققين للتوحيد.

أخيرًا أنبه إلى فائدة ذكرها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المسائل وهي: أنه يستفاد من هذا الباب وما جاء فيه إثبات الصفات لله جَلَّ وَعَلَا خلافًا للأشعرية، وجاء في نسخة خلافًا للمعطلة وذلك أنَّ الأحاديث التي مرت بنا فيها إثبات الوجه لله جَلَّ وَعَلَا: **«يبتغي بذلك وجه الله»**، وفيها أيضًا إثبات الكلام والقول لله كما في هذا الحديث، وكما في الحديث الذي قبله، ففي

هذا أن أهل السنة والجماعة يثبتون لله الصفات التي جاءت في الكتاب والسنة دون تحريف ودون تعطيل، كما أنهم يثبتونها دون تكيف ودون تمثيل، وهذا يدلك على عناية المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر الفوائد التي تتعلق بأنواع التوحيد كلها.

٤

٤- باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

(المجلس الأول)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب

من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

فبعد أن بيَّنَ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، شيئًا من فضل التوحيد، عقد هذا الباب ليبين لنا أنَّ كمال فضل التوحيد إنما يكون بكمال تحقيقه، وتحقيق التوحيد هو أن يبلغ الإنسان بالتوحيد الغاية والمنتهى.

حقق الشيء: إذا بلغ غايته، فتحقيق التوحيد بلوغ غايته وذلك إنما يكون: بتصفيته وتكميله.

إذاً لا يكون تكميل التوحيد إلا بهذين بتصفيته وبتكميله، وهو على درجتين أعني تحقيق التوحيد:

الأولى: تحقيق التوحيد الواجب.

الثانية: تحقيق التوحيد المستحب.

أما تحقيق التوحيد الواجب فإنه يكون: بتصفيته وتكميله.

أما تصفيته؛ فتكون باجتناب ثلاثة أمور:

الأول: الشرك الأصغر.

الثاني: البدعة.

الثالث: الإصرار على المعصية.

قال حفيد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حاشيته الملقبة بـ((قرة عيون الموحدين)): (تحقيق التوحيد تصفيته وتخليصه من شوائب الشرك والبدعة والإصرار على المعصية)، وكلامه هذا في بيان تحقيق التوحيد الواجب فهو يصفيه من هذه الأمور الثلاثة ويكمله بفعل ما أمر الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ من الواجبات.

إذاً تحقيق التوحيد الواجب يكون بتصفيته من: الشرك الأصغر، والبدعة، والإصرار على المعصية، وبالإتيان بالواجبات.

أما تحقيق التوحيد المستحب فإنه يكون بتصفيته من أربعة أمور بتصفيته من:

[الأول]: المكروهات.

[الثاني]: المشتبهات.

[الثالث]: فضول المباحات.

[الرابع]: التنزه عن الحاجة إلى المخلوقين.

وأمَّا تكميله: فبفعل المستحبات، وهذا المقام يحتاجُ إلى توضيح وذلك لمسيس حاجة المسلم إليه، ولاحظ -يارعاك الله- أنَّ من أتى بتحقيق التوحيد أكملُ ممن وحد الله عَزَّوَجَلَّ.

هناك توحيد، وهناك تحقيق التوحيد.

التوحيد يأتي به كل مسلم، من أتى بأصل الدين فهذا هو الموحد، لكنَّ تحقيق التوحيد ولاحظ أن السياق في هذه الكلمة في مثل سياق المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان تحصيل فضل وثواب وغاية، فتحقيق التوحيد هو -ما ذكرته لك- بلوغ الغاية فيه وذلك بتصفيته وتكميله.

أمَّا تحقيق التوحيد الواجب فيكونُ: بفعل ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به الواجبات الثابتة في الكتاب والسنة فإنَّ من تكميل أصل التوحيد أن يأتيَّ بها الإنسان: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ هذا هو التوحيد.

ثم قال: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ **[فصلت:٦]** فدل هذا على أن من وحَّدَ الله جَلَّوَعَلَا فإنه يستلزم توحيده الاستقامة على شرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ولا شك أنَّ من فعل ما أوجب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى فإنه يكون قد أتى بلازم التوحيد فاستحق دخول الجنة، ومر بنا قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الذي خرجه النسائي وغيره بإسناد جيد وهو قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«من عبد الله لا يشرك به شيئاً وأقام الصلاة وآتى الذكاة واجتنب الكبائر فله الجنة -أو قال: - دخل الجنة»**.

أمَّا تصفيته فمن الأمور الثلاثة التي ذكرتها لك:

أولاً: **الشرك الأصغر**. ولا نقول ها هنا الشرك الأكبر، لما؟ لأنَّ الشرك الأكبر منافٍ لأصل التوحيد، ونحن نتحدث عن درجة أعلى وهي تحقيق كمال التوحيد الواجب.

الشرك الأصغر أكبرُ وأعظمُ قادح في تحقيق التوحيد الواجب، والشرك الأصغر بحرٌ لا ساحل له، وهو أمر مخوف قلَّ في هذه الأمة من يسلم منه، حتى إن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خافه على أصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وهم قِمَمُ أهل التوحيد، ففي حديث محمود بن لبيب عند

أحمد وغيره بإسناد صحيح قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**».

فالشرك الأصغر أمرٌ مخوف وهو يتنوع وينقسم إلى صورٍ كثيرة لكن يجمع ذلك أمران، صور الشرك الأصغر لا تكاد تخرج عن أمرين:

الأول: صرف نوع طاعة لغير الله جَلَّ وَعَلَا؛ كقصد مثل الرياء، أو محبةٍ أو خوف أو توكل أو ما شاكل ذلك.

والثاني: نقصٌ في اعتقاد تفرد الله عَزَّوَجَلَّ في النفع والضر، وهذا ما يرجع إليه ما يتعلق بالتمائم والرقى الممنوعة وما إلى ذلك.

فالشاهد أنَّ الشرك الأصغر قادحٌ في تحقيق التوحيد الواجب لما فيه من هذه الشوائب التي تُنْقِصُ التوحيد وتمنع من تمامه وكماله.

أمَّا القادح الثاني فإنه: **البدعة**، والبدعة كما قال أهل العلم ينبوع شر، ودهليز الكفر، وسبيل ظلمات، وفي حشوها من السموم المضعفة للإيمان والتوحيد شيءٌ كثير.

البدعة أمرها عظيم؛ لأنه يجتمع فيها أمور:

أولاً: أنَّ في البدعة مشاقةً لله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فالله يقول: ﴿**وَاتَّبِعُوهُ**﴾[**الأعراف:١٥٨**]، ﴿**فَاتَّبِعُونِي**﴾[**آل عمران:٣١**]. والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**فعليكم بسنتي**» ويقول: «**وإياكم ومحدثات الأمور**»، فجاء المبتدع وخالف كل ذلك، وانتهج غير نهج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحُقَّ في البدعة أن تكون مشاقةً لله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم ثانياً: البدعة اتباعٌ للهوى والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ**﴾[**القصص:٥٠**].

صاحب البدعة متبع هواه ولابد، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿**فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ**﴾[**القصص:٥٠**].

لا يمكن أن يكون الإنسان إلا أحد رجلين: إما متبعاً للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن لم يكن، فإنه متبعٌ لهواه ولابد.

وأمرٌ ثالث: وهو أن المبتدع نزل نفسه منزلة المستدرك على الشريعة، أو المتهم للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بعدم البلاغ المبين، كل مبتدع لسان حاله يقول الشريعة ناقصه فأنا أكملها، أو هي كاملة لكن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ما بلغ البلاغ المبين ولا أتى بهذا الأمر الذي جئت به وهو من الشريعة، ولذا ما أحسن ما قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: (كل مبتدع فإنه منتقص للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وإن ظن أنه يعظمه)، وأحسن من كلامه ما قاله الإمام مالك رَحِمَهُٱللَّهُ: (من ابتدع بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ خان الرسالة فإن الله تعالى يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[المائدة:٣] فما لم يكن بالأمس ديناً لا يكون اليوم ديناً).

وإذا كان ذلك كذلك تبين لك أن البدعة قادحٌ في توحيد الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، قادح في توحيد ربنا جَلَّوَعَلَاوالاستجابة لأمره باتباع نهجه ونهج نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كما أنه قادح في توحيد الاتباع للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

أمَّا **المعصية** فإن البلية بها عظيمة وما أكثر الغفلة عن أثرها على التوحيد.

المعصية تجمع أموراً:

أولاً: فيها تقديم طاعة النفس والشيطان على طاعة الرحمن: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[يس:٦٠].

ثانياً: المعصية تدل على نقصٍ في الخوف من الله جَلَّوَعَلَا وإلا لو كَمَلَ الخوف من الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لما عصى العاصي، والخوف من الله من التوحيد.

ثالثًا: وهو أنَّ المعصية قد يكون مصاحباً لها نقصٌ في تصديق وعيد الله جَلَّوَعَلَا وإلا فلو كمل التصديق بالوعيد لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ على هذه المعاصي وآثارها لكان هذا حاجزاً بين الإنسان واجتراحِ محارم الله جَلَّوَعَلَا.

رابعاً: وهو أن المعصية في الغالب يشوبها شيءٌ من التعلق بغير الله والتفات القلب لغير الله ومحبة لغير الله وهذا كله مما يضعف توحيد العبد، ولكنْ ذلك لا يعني خروج الإنسان من الإسلام، وذلك لأن محبة الله أعظم بخلاف حال المشركين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا

لِلَّهِ﴾[البقرة:١٦٥]. لكن المَخُوفَ والمخْشيَّ هنا إنما هو أن يتدرج الإنسان من صغيرٍ إلى كبيرٍ حتى ربما أخرجته المعصية من صغيرةٍ إلى كبيرةٍ، وربما أوقعته في الكفر بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ولأجل هذا خاف السلف رَحِمَهُمُٱللَّهُ من المعاصي ووصفوها بأنها: بريد الكفر.

إذن اجتناب هذه الأمور الثلاثة به مع الإتيان بالواجبات يتحقق كمال التوحيد الواجب وما أحسن ما قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ في كتابه ((التبيان)): (الهدى التام يتضمن توحيد المطلوب، وتوحيد الطلب، وتوحيد الطريق الموصلة)؛ الهدى التام يتضمن توحيد المطلوب، وهذا يقدح فيه: **الشرك**، وتوحيد الطلب وهذا يقدح فيه: **المعصية**، وتوحيد الطريق الموصلة وهذا يقدح فيه: **البدعة**، والشيطان إنما يُنْصِبُ شراكه من خلال هذه الأمور الثلاثة.

إذاً هذا هو تحقيق التوحيد الواجب، وثمة درجةٌ أرفع وأسمى، والواصل إليها عزيز أفراد من الكُمَّل من المخلصين هم الذين وصلوا إلى هذه الدرجة المنيفة الرفيعة ألا وهي: تحقيق التوحيد المستحب، وأعظم الناس تحقيقاً لهذا التوحيد الأنبياء والمرسلون، وأعظمهم في ذلك الخليلان، وأعظم الخليلين في ذلك نبينا الكريم محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

حقيقة هذه الدرجة: انجذاب الروح إلى الله جَلَّوَعَلَا بحيث يكون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في القلب أعظمَ من كل شيء، وبالتالي لا تنبعث الجوارح إلا وِفْقَ ما يحبه الله جَلَّوَعَلَا؛ إن أَحَبَّ أَحَبَّ لله، وإن أَبْغَضَ أَبْغَضَ لله، وإن أَعطَى أَعطَى لله، وإن مَنَعَ مَنَعَ لله، وإن جَلَسَ جَلَسَ لله، وإن قَامَ قَامَ لله، فكل أموره الظاهرة والباطنة متعلقة بأمر الله جَلَّوَعَلَا قد تحقق بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾[النجم:٤٢]، فمنتهى القصد، ومنتهى الطلب، ومنتهى المحبة، ومنتهى الرجاء، ومنتهى الرغبة، ومنتهى الرهبة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وهذا كلامٌ يَسْهُلُ التلفظُ به لكن القيام به على وجهه أمرٌ لا يتيسر إلا للموفَقِينَ السعداء، -أسأل الله جل وعلا أن يبلغني وإياكم ذلك-، المقصود أنَّ من حقق هذه الدرجة فهو من أولياء الله الصالحين الذين جاء فيهم حديث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن ربه جَلَّوَعَلَا: **«وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها»**.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عَقَدَ هذا الباب ليدُلَّ على أنَّ الفضل العظيم للتوحيد هو لمن كمل التوحيد الواجب والمستحب؛ لأن فيما أورد المؤلف والمؤلف أورد في هذا الباب آيتين وحديثاً أورد هذا الحديث وفيه ما يدل على اتصاف الواردين في الحديث بكمال التوحيد الواجب وذلك في قوله: (لا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون)، وأيضاً ما يدل على تحقيقهم التوحيد المستحب، وذلك في قوله: (لا يكتوون، ولا يسترقون).

تحقيق التوحيد المستحب يكون بفعل المستحبات بعد الواجبات ويكون بالكفِّ عن الأمور الأربعة –التي ذكرتها لك–:

[الأمر الأول]: **المكروهات**: وهي: ما نهى عنه الشارع نهياً غير جازم، ولا شك أنَّ المكروهات تَقْعُدُ بصاحبها عن السعي إلى الله جَلَّوَعَلَا وإلى جنته، ولو لم يكن فيها إلا أنها تُضَيِّعُ العمر فيما لا يقرب إلى الله.

الأمر الثاني: **المشتبهات**: وهي التي ليست بحرامٍ بَيِّن ولا بحلالٍ بَيِّن، هي برزخ بين الأمرين، قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات»**، وهؤلاء الكمَّل من عباد الله جَلَّوَعَلَا لعظيم تعظيمهم لله وخوفهم منه يَدَعُونَ هذه الأمور التي يُخشى أن يكون فيها بأس حتى لا يقعوا في شيء مما قد يُغضب الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

الأمر الثالث: **فضول المباحات**: وضابط فضول المباحات هو: كل مباح لا ينفع في الدار الآخرة؛ بمعنى: أنه كل مباح لا يستعان به على الطاعة.

والقاعدة عند أهل العلم: أنَّ كلَّ مباحٍ لا يُستعان به على الطاعة فعدمه خير من وجوده، لاشك أنَّ عدم هذه الأمور خيرٌ للإنسان؛ لأنَّ أقل ما فيها أنها مشغلة وكان يمكن أن يستثمر هذا الوقت الذي ضاع فيها فيما يُقرِّبُ إلى الله جَلَّوَعَلَا، فإن أهل هذا التوحيد يعلمون أن هذه الدنيا سباق إلى الآخرة ومزرعة للآخرة فهم يظنون بأنفسهم وأعمارهم وأوقاتهم عن أن يضيع منها شيء فيما لا ينفع عند الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وهذا لا يعني أنهم يتركون المباح جُلَّه، كلا إنما هم يأخذون المباح على أنه أباحه الله، ويستلذون بهذه المباحات أيضاً ولكن بأمرين:

[الأمر الأول]: بكونها مقربةً إلى الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بحيث يمكن أن يُستعان بها على طاعة الله.

[الأمر الثاني]: بوجود النية الصالحة، فإنهم يتناولونها على نية أنها تعين على طاعة الله جَلَّوَعَلَا كما قال معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كما في الصحيحين: «**أما أنا فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي**»، فلا يوجد في حق هؤلاء مباح مستوي الطرفين؛ الأكل والشرب، والشراب الحلو، والحديث الشيق مع صديق وزوجة وولد، كلُّ ذلك ينوون فيه أنهم يُرَوِحُونَ النفوس لأجل أن تستعد بعد ذلك لطاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

والمقصود أن أصحاب هذه الدرجة العالية عندهم حرصٌ شديد على أوقاتهم فلا يضيعون شيئاً لا يوصل إلى مقصودهم العظيم وهو أن يصلوا إلى رحمة الله وجنته.

الأمر الرابع: **أنهم يتنزهون عن سؤال المخلوقين**: يستغنون بالله عن خلقه، عندهم من التعظيم لله والذل له ما يجعلهم يأنفون من أن يَرِيقُوا وجوههم أو يذلون لأحد من المخلوقين، فلا يسألون إلا الله مهما استطاعوا ومهما أمكنهم ذلك فإنهم لا يسألون الناس شيئاً.

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث عوف ابن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ذكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بايعهم وكانوا رهطاً وكان فيما بايعهم ألا يسألوا الناس شيئاً**». وهذا فيه من تحقيق التوحيد ما لا يخفى على طالب العلم، فأهلُ هذه الدرجة أحرص ما يكونون على الاستغناء بالله عن كل ما سواه.

فمتى ما أتى الإنسان بالمستحبات وكفَّ عن هذه الأمور التي تَقْعُدُ به عن بلوغ الغاية التي يسعى إليها، فإنه يكون قد حَقَقَ التوحيد المستحب، ومن وفقه الله جَلَّوَعَلَاإلى ذلك فليُبْشِّر بكل خير فإن من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ:

باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

أي: ولا عذاب.

والحديث جاء في الصحيحين في حديث السبعين ألفاً الذي سيأتي: جاء فيه تارةً يدخلون الجنة بغير حساب، وجاء فيه تارةً في بعض الروايات: بغير حساب ولا عذاب.

ولا شك أن الذي نجى من أن يكون مُحاسباً فإن هذا يستلزم نجاته من عذاب الله جَلَّوَعَلَا كما هو واضح، وأورد المؤلف كما ذكرت لك آيتين وحديثاً تدلان على هذا الفضل العظيم لمن حقق التوحيد، -نسأل الله جَلَّوَعَلَا أن يجعلنا منهم-.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:
وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[النحل:١٢٠].

قوله عَزَّوَجَلَّ عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[النحل:١٢٠]، هذا دليلٌ على أن من ترك الشرك فإنه يكون بسبيل إلى تحقيق التوحيد، وهذه حال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فحريٌ بالمسلم أن يقتديَّ به.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[النحل:١٢٣]. ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[آل عمران:٩٥]. ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[الممتحنة:٤].

إذاً إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ محلُّ الأسوة والقدوة لهذه الأمة، فإذا كان الله جَلَّوَعَلَا وصفه بأنه لم يك من المشركين، كان على المسلم أن يقتديَّ به -عليه الصلاة والسلام- في ذلك، ومن فعل ذلك فإنه يكون قد خطَى إلى تحقيق التوحيد.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[النحل:١٢٠].

حذفت النون ها هنا والأصل: (ولم يكن من المشركين)، وذكر علماء اللغة أنَّ النون فيها شَبَهٌ من حرف العلة فناسب أن تُحذف بـ(لم) وذكروا أسباباً لشبهها بحرف العلة، قالوا خفتها، أو الغنة التي فيها، أو كثرة ورودها على الألسنة، إلى غير ذلك مما ذكروا.

الشاهد أنَّ النون إذا كانت ساكنة في مثل هذا السياق فإنها تُحذف، أما إذا كانت متحركة فإنها لا تُحذف، ولذلك في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾[البينة:١] تلاحظ أنَّ النون ما حُذفت، لأنها متحركة ليست ساكنة.

قال جَلَّوَعَلَا عن إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[النحل:١٢٠]، لم يكن من المشركين في كل شيء، كان مجانباً لهم في كل أحوالهم، بقلبه، بلسانه، بجوارحه، ببدنه، لم يكن من المشركين في حالٍ من الأحوال.

ولاشك أن هذا واضح بيَّن في كتاب الله جَلَّوَعَلَا عن حال إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ وذلك أنَّه عالن قومه بالبراءة منهم وبمعاداتهم في الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[الممتحنة:٤]. إبراهيمُ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ اعتزل قومه لأجل الله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي﴾[مريم:٤٨]

وهو الذي وَادَعَ قومه وتركهم بعد أن رموه في النار فأنجاه الله من النار وكانت عليه برداً وسلاماً، هاجر إلى ربه جَلَّوَعَلَا وتركهم وما يعبدون من دون الله، وهذا من أعظم ما يكون من تحقيق التوحيد، أن يكون الإنسانُ نافراً من الشرك، ونافراً من أهل الشرك، ومبتعداً عن الشرك ومبتعداً عن أهل الشرك، وحاذراً من الشرك وحاذراً من مشابهة أهل الشرك، فيتحقق بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[النحل:١٢٠]، وهذا من كمال تحقيق التوحيد.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾[المؤمنون:٥٩].

وصف الله جَلَّوَعَلَا أهل الإيمان، بصفات منها أنهم بربهم لا يشركون، قال جَلَّوَعَلَا في سورة المؤمنون: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[المؤمنون:٥٧-٦١].

فمما وصف الله عَزَّوَجَلَّ عباده المؤمنين أنَّهم بربهم لا يشركون، لا يشركون البتة لا قليلًا ولا كثيرًا لا شركاً أكبر ولا شركاً أصغر، لا شركاً جلياً ولا شركاً خفيًا، لا يشركون بالله عَزَّوَجَلَّ البتة.

وإيراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذه الآية بعد سابقتها من دقة فهمه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وذلك أنَّ الموحد مُطالبٌ باجتناب الشرك واجتناب أهل الشرك، مُطالبٌ ببغض الشرك وببغض أهل الشرك، مُطالبٌ بالبراءة من الشرك وبالبراءة من أهل الشرك، مُطالبٌ بأن يبتعد عن أعمال الشرك وأقواله وعقائده، ومُطالبٌ أيضاً بأن يجتنب مشابهة المشركين، فلابد من أن يحقق الإنسان الأمرين لا يكونَ من المشركين، مُطالبٌ ألا يكون من المشركين، ومُطالبٌ بأن لا يشرك بربه جَلَّ وَعَلَا فتحقيق التوحيد يتضمن هذين الأمرين:

[الأمر الأول]:﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

[الأمر الثاني]: ﴿بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير، فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقضَّ البارحة؟

هذا الحديث حديثٌ عظيم، وفيه مسائل وفوائد شتى، خرجه الشيخان في صحيحيهما في مواضع، وخرجه غيرهما أيضا.

هذا الحديث يرويه والسياق الذي ساقه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هو سياق الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لكن مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ، سيأتي التنبيه عليها.

والإمام مسلم أخرج هذا الحديث من طريق سعيد بن منصور، عن هشيم، عن حصين بن عبدالرحمن، عن سعيد بن جبير، عن بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وفيه:

أن حصيناً رَحِمَهُ ٱللَّهُ –والصحيح أنه من التابعين– توفي سنة ست وثلاثين ومائة كان جالساً عند سعيد بن جبير، وهو من سادات التابعين، وهو من أَثْبَتِ أصحاب ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قتله الحجاج سنة خمس وتسعين.

فقال سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟**»، وهذا فيه: أنَّ السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ كان لهم عناية بالتأمل في ملكوت الله جَلَّ وَعَلَا، وفيما في السماء من الآيات والعِظَات التي تُكسب الإيمان، فالله جَلَّ وَعَلَا وصف المتقين المؤمنين بأنهم يتفكرون في خلق السماوات والأرض، وهذا مما فقده كثيرٌ من الناس اليوم، مع غلبة هذه الحياة العصرية وانشغال الناس البالغ فاتهم هذا الأمر العظيم وهو التأمل والتفكر في الآيات الكونية العلوية

والسفلية، فسأل سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ من رأى هذا الكوكب الذي انقضَّ، فأجاب حصينٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنا.

فقلت: أنا، ثم قلت: أمَا إني لم أكن في صلاة.

الأمر حصل في الليل، وربما كان في وقت متأخر، وحصين يقول أنا رأيته، ثم خشيَّ أن يُظن فيه أنه كان يقوم الليل، فلعظيم إخلاصه وحبه أن لا يحمد بما لم يفعل، قال: (أما إني لم أكن في صلاة)، وهذا يفيد الإخلاص العظيم الذي كان عليه السلف الصالح رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ فهم لا يحبون أن ينسب إليهم ما لم يفعلوا من الخير، وإن فعلوا خيراً حرصوا على كتمانه.

لكن الذي يحب أن يُحمد بما لم يفعل، أو أنه يُظهر للناس أعماله الصالحة وربما تكلم بالحديث الطويل حتى يصل إلى شيءٍ في نفسه وهو أن يُبَلِّغَ جلسائه بأنه فعل وفعل، كان يصلي، تصدق بكذا، وفعل كذا، وربما يمشي بين الناس وبيده المسبحة، يسبح يظهر للناس أنه يسبح لله جَلَّوَعَلَا، شتان بين حال السلف وحال الخلف، هذه كلمة عظيمة يحسن لطالب العلم أن يستحضرها دائماً، (أما إني لم أكن في صلاة).

ولكني لدغت

قال: ولكني لدغت، هذا هو السبب الذي جعلني أستيقظ في هذه الساعة من الليل، لُدِّغَ من عقرب أو نحوه.

قال: فما صنعت؟ قلت: ارتقيت

قال فما صنعت، قلت ارتقيت، والذي في صحيح مسلم استرقيت، وهذا هو المناسب لإيراد الحديث، والألف والسين والتاء للطلب، يعني: طلبت من يرقيني، سألت أحداً أن يرقيني، والرقية هي: القراءة على المريض، سيأتي الكلام فيها في بابٍ خاص إن شاء الله، وذكر ما يتعلق بها من مسائل، الشاهد أنه طلب من يرقيه بسبب هذه اللدغة أو هذا السم الذي أصابه.

قال: فما حملك على ذلك؟

هذا فيه: السؤال عن الحجة، والمطالبة بالدليل، وهكذا كان السلف في كل خطوة، كل حرُكة وسكنة، كانوا يحرصون على أن لا يفعلوا إلا بدليل وشتان بين من كان على نهجهم

وطريقتهم وبين من تكون أفعاله كيفما اتفق، يفعل ما يحلو له، وما تهواه نفسه، دون أن يكون واقفاً عند حد الدليل، وهذا هو الفارق بين أهل الاتباع وغيرهم، قال بعض السلف: (إن استطعت ألا تحك رأسك إلا بأثر فافعل)، في كل أمورك احرص على أن تكون ناهجاً وفق حجة ودليل صحيح.

قلت: حديث حدثناه الشعبي، قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيب؛ أنه قال: «لا رقية إلا من عين أو حمة»

يقول: عندي دليل، وعندي حجة على ما فعلت، وهو أنني طلبت من يرقيني، وذلك أن الشعبي، والشعبي من سادات التابعين رَحِمَهُ ٱللَّهُ حدَّث حصينًا بكلام سمعه من بُريدة ابن الحصيب الصحابي الجليل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهو أن بريدة قال: «**لا رقية إلا من عين أو حمى**»، وهذا الكلام رويَّ مرفوعاً إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وسيأتي الكلام عن ذلك إن شاء الله في محله من الباب الذي عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ للرقية، والمعنى في هذا الحديث باختصار، هو: أنه لا رقية أنفع من الرقية في شأن العين، وفي شأن الحمه.

الحمه هي:

١/ذوات السموم؛ كالحية والعقرب.

٢/أو السم الذي يخرج من هذه الدواب.

٣/أو الإبرة التي تصيب.

٤/أو الحرارة والحمَّى التي تنال من أُصِيَّب بهذا السم.

على كل حال هي أقوال متقاربة في المعنى.

فأنفع وأحسن ما تكون الرقية في هاتين الحالتين:

في حال: الإصابة بالعين.

وفي حال: اللدغ بشيء من هذه الدواب السامة، فأحسن ما يكونه في العلاج هو الرقية.

قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع

هذه قاعدة حسنة: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، وذلك يفيد أن من اجتهد في الوصول إلى الحق وعمل بدليل فإنه لا تثريب عليه وذلك أنه هذا مبلغ اجتهاده وهذه طاقته ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، فهو عمل وفق دليل بلغه.

ولكنْ حدثنا ابن عباس، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال:

ولكن هنا سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد أن يبين لحصين أن ثمة درجة أرفع وأن هناك حالةً أولى ممن فعلت وهي أنك طلبت من يرقيك، أنك استرقيت، وذلك ما حدَّث سعيدًا وأصحابه ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

قال: «عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحدٌ...

قال: عرضت عليَّ الأمم قاله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاء عند الترمذي: أن ذلك ليلة أُسريَّ به، ليلة أسري به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرض عليه الأمم، فكان فيما رأى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النبي ومعه الرهط؛ يعني: جماعة عشرة فما دون، أو أقل، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد.

وهذا نستفيد منه فائدتين:

[الفائدة] الأولى: أنَّ النبيَّ مُرْسلٌ كالرسول، والنبيَّ مبعوثٌ كالرسول، ومن هذه الجهة لا فرق بين النبي والرسول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢]. وذلك يدل على أن النبي مرسل وأنه مطالب ومأمور بالدعوى إلى الله جَلَّ وَعَلَا، وقد يستجاب له وقد لا يستجاب له، قد يستجيب الناس وقد يكون الحال أن الاستجابة كبيرة كما سيأتي في شأن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وكذلك نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد لا تكون الاستجابة كبيرة حتى إنه قد يأتي النبي ومعه الرجل ومعه الرجلان أو ليس معه أحد البتة.

وهذه هي الفائدة الثانية، وهي: أنَّ على الدعاة إلى الله جَلَّ وَعَلَا أن لا يغتروا بالكثرة.

وقد أشار إلى هذا المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إحدى المسائل، لا ينبغي على الدعاة وطلاب العلم أن يهتموا بشأن العدد والجماهير فلا يلتفتوا إليها ولا يعملوا من أجلها، والله إذا حضر

الناس دعوت وإذا كانوا حاضرين قليل سكت، هذا ليس من شأن الدعاة الصادقين، الصادق في دعوته إلى الله جَلَّوَعَلَا همه أن يؤدي الواجب، وأما النتائج فأمرها إلى الله.

وعليّ أن أسعى وليس ... عليَّ إدراك الفلاح

ليس عليك إدراك النجاح وليس عليك إدراك الفلاح، الأمر إلى الله جَلَّوَعَلَا، المطلوب أن تدعوا إلى الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وليس قلة المستجيبين دليلاً على فشل الدعوة أو أن الإنسان قد قصر، هؤلاء أنبياء كرام من أنبياء الله جَلَّوَعَلَا ومع ذلك ربما يأتي من الأنبياء من لم يستجب له أحد البتة، والأمر لله جَلَّوَعَلَا من قبل ومن بعد.

إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه...

إذ رفع لي سوادٌ عظيم، سواد يعني: أشخاص كُثر، رآهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وجاء في الصحيح أنَّهم سدوا الأفق، أو قال: سواد سد الأفق، يعني: سواد كثير، فظن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنَّ هؤلاء أمته.

قد يقول بعض الناس: وكيف يظن ذلك وهو يعلم سمتهم وعلامتهم وأنهم يأتون غراً محجلين يوم القيامة؟ أجاب أهل العلم، ومنهم: الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ أن ذلك لأنه كان قد رآهم عن بُعد، أمَّا إذا قَرِّبُوا منه فإنه سوف يعلمهم، أو يعرفهم بسيماهم.

فقيل لي: هذا موسى وقومه

هؤلاء: قوم موسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، وهذا يدلك على فضيلة قوم موسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ وأنه قد استجاب قبل أن ينحرف بنوا إسرائيل استجاب لموسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ كثيراً من الناس آمنوا به ووحدوا الله عَزَّوَجَلَّ، واتبعوا هذا النبي الكريم صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

فنظرت إلى سواد عظيم، فقيل لي هذه أمتك

نظر عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وإذا بسواد عظيم، وهذا السواد أعظم من الأول وقد جاء في رواية عند البخاري لهذا الحديث، أنه قيل له: انظر ها هنا فرأى سواد عظيم، ثم قيل له انظر هكذا وانظر هكذا، فكان يرى سواداً عظيماً، تكرر الأمر بالنظر له صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من عدة جهات، فدل هذا على أن أمة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أعظم من أمة موسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ.

وهذا ما أشار إليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله في المسائل إنَّ هذا الحديث فيه بيان: (فضيلة هذه الأمة في الكمية والكيفية).

أما في الكمية: فإن عدد المستجيبين للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا شك أنه أعظم.

وأمَّا في الكيفية: فلأن في هؤلاء المؤمنين به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هو على درجة عالية في التوحيد، حتى أنهم إن منهم هؤلاء السبعون ألفاً الذين سيأتي الكلام فيهم وهم قد حققوا كمال التوحيد الواجب والمستحب.

ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب

ومعهم سبعون ألفا، هذا العدد لا شك أنه مقصود وأنهم سبعون ألفاً كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ كلامه حقٌ وصدقٌ ولا ينطق عن الهوى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والعدد جاء في النصوص -في هذا المقام- على ثلاثة أضرب:

[الضرب الأول]: أنهم سبعون ألفاً فقط يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وجاء في الصحيحين: أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر، سبعون ألفاً آخذٌ بعضهم بيد بعض لا يحاسبون، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم**»، -نسأل الله أن يجعلنا منهم-.

الشاهدُ أنَّ هؤلاء الذين نالوا هذا الفضل العظيم الذي بَشَرَ به النبيصَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث، عددهم سبعون ألفاً فقط.

[الضرب الثاني]: وتفضل الله جَلَّ وَعَلَا بزيادة هذا العدد، ففي مسند الإمام أحمد بسند جيد أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصفهم بأنهم سبعون ألفاً ومع كل ألف سبعون ألفا، يكون العدد قرابة الخمسة ملايين، وهذا فضل عظيم من الله جَلَّ وَعَلَا.

الضرب الثالث: جاء فيه تفضل الله عَزَّ وَجَلَّ بزيادة أكثر، وذلك ما عند الترمذي بإسنادٍ لا بأس به أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أنَّهم سبعون ألفاً ومع كل ألف سبعون ألفاً وثلاثُ حثياتٍ من حثيات ربنا، وفضل الله عظيم، -نسأل الله أن يجعلنا من هؤلاء الذين نالوا هذا الفضل العظيم-.

ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً وذكروا أشياء...

هذا يدلك على حِرْصِّ أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على إشغال مجالسهم بما ينفع، ما كانت مجالس الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في قيل وقال وفي كلام قليلِ الفائدة أو عديم الفائدة؛ إنما كانوا يتحدثون فيما ينفعهم وفي الأسباب التي تأخذ بهم إلى مراد الله جَلَّ وَعَلَا.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبرهم بأن هناك سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، ثم قام ولم يبيِّن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما صفتهم وما السبب الذي لأجله كانوا كذلك؟

تشوفت نفوس الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى معرفة من هؤلاء فتكلموا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهذا يدلك على أنه يجوز الكلام بالاجتهاد لمن كان أهلاً له، منهم من قال: لعلهم الذين صحبوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعلهم نحن معشر الصحابة، نحن صاحبنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآمنَّا به لما كفر الناس به وجاهدنا معه ونصرنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلعلنا نحن، وقال بعضهم: لعلهم أبناؤنا الذين ولدوا في الإسلام، أما نحن فقد أشركنا بالله جَلَّ وَعَلَا ثم أسلمنا، لكن لعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء حتى خرج عليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فخرج عليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبروه، فقال: «هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»...

خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهم فسألهم عن الحديث الذي كانوا يتحدثونه فأخبروه، فجاء الجواب الناجع والبلسم الشافي والعلم الصحيح من لدن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شأن هؤلاء السبعين.

هؤلاء السبعون ألفًا موصوفون بأربعِ صفات، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **«هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»**.

أقفُ عند مسألةٍ فقط أخيرة في هذا الدرس، ونكمل -إن شاء الله- الحديث ببقية مسائله الدرس القادم إن شاء الله، ألا وهي:

أنَّ هذا اللفظ الذي ذكره المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، هو -كما علمت- لفظ مسلم، طريق مسلم من طريق هشيم، عن حصين، عن سعيد، عن ابن عباس، ولكنَّ الذي في مسلم ليس فيه: (هم الذين لا يسترقون)، إنما فيه: (هم الذين لا يرقون)، وذلكَ دليلٌ على أنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ رأى أنَّ هذا اللفظَ معلول.

وحفيد المؤلف الشيخ سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ اعتذر له بأنه لما رأى هذا اللفظ معلولاً -كما سيأتي إن شاء الله- اختار لفظًا واردًا في ((صحيح البخاري))، وفي ((صحيح مسلم)) أيضاً، لكن من طريقٍ أخرى، فأتى بهذا اللفظ وإلا هذا السياق الذي ذكره المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن مسلم ليس فيه هذا اللفظ إنما فيه: (أنَّهم لا يرقون)، كما أنه أسقط في هذه الرواية الاكتواء (لا يكتوون)، فجعل فيه (لا يرقون) وأسقط فيه (لا يكتوون).

وبحث أهل العلم هذا اللفظ الذي جاء في هذه الطريق وهي قوله: (لا يرقون)، والذي ذكره جمعٌ من المحققين ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وابن القيم، ومن المعاصرين الشيخ ناصر الألباني رحمة الله على الجميع أنَّ هذا اللفظ (لا يرقون) معلول، وأنه شاذ، وأنه خطأٌ من الراوي ولم يقل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيهم أنهم (لا يرقون)، فإن هذا اللفظ مردود من جهة الرواية ومردود أيضاً من جهة المعنى.

أما من جهة الصناعة الحديثية:

[أولًا]: إنَّ هذا اللفظ لا يصح، وذلك أن الحديث كما ذكرت لك رواه مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن سعيد بن منصور، عن هشيم، عن حصين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وتابع سعيداً يعني روى عن هشيم هذا الحديث خمسة أو أكثر كلهم لا يذكرون كلمة (لا يرقون)، ما أحد ذكر هذا اللفظ إلا سعيد ابن منصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ثانياً: أنه تابع حصينًا في رواية هذا الحديث أربعة أو أكثر وكلهم لم يذكر هذا اللفظ وهو: (لا يرقون).

[ثالثًا]: أنَّ هذا الحديث جاء برواية غير ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وليس فيه (ولا يرقون)، وذلك أنه في الصحيحين جاء من حديث ابن عباس وليس فيه -كما علمت- (لا يرقون)، وجاء أيضاً في الصحيحين من حديث عمران ابن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وفيه **«أنهم لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»**، ليس فيه (لا يرقون)، كما أنَّه جاء عند

أحمد، والبخاري في ((الأدب المفرد))، وغيرهما عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بإسناد جيد وأيضاً ليس فيه (لا يرقون)، إنَّما فيه (لا يسترقون)، وأيضًا جاء عند ابن حبان في ((صحيحه)) وعند غيره أيضاً من حديث أبي هريرة بإسنادٍ صحيح وليس فيه (لا يرقون)، كما جاء من حديث غيرهم أيضًا من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكلهم لا يقول: (لا يرقون) كلهم يقول: (لا يسترقون).

ما وقفتُ على حديث فيه (لا يرقون) إلا هذه الرواية، وكذلك عند الطبراني في ((المعجم الكبير)) من حديث عبيد الله بن حَزْر، عن شيخه علي بن يزيد الألهاني، عن القاسم أبي عبد الرحمن، عن أبي أمامة، عن خباب بن الأرَت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ورحمة الله على الجميع فيه لفظ (لا يرقون)، ولكن لاشك أن هذا الحديث حديثٌ ضعيف أو ضعيف جداً، إذا وجدت في الإسناد عبيد الله هذا، عن علي بن يزيد، عن القاسم أبي عبدالرحمن فاعلم أن هذا الإسناد ضعيف جداً حتى قال ابن حبان: (إذا رأيت هؤلاء في إسناد فاعلم أنَّ هذا الحديث مما عملته أيديهم)، هذا يدلك على أنه ضعيفٌ جداً.

الشاهد: أنَّ هذا اللفظ الذي ذكرته لك لفظٌ غير ثابت، وأنَّ سعيد ابن منصور وإن كان ثقةً وإماماً رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولكنَّه وَهِمَ وأخطأ ومن الذي لا يهم ومن ذا الذي لا يخطئ، والصواب الذي لا شك فيه هو رواية الثقات الكُثر في أحاديث كثيرة عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلُّها فيها أن هؤلاء الموصوفون بأنهم يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب لا يسترقون، وليس أنهم لا يرقون، **هذا من الجهة الحديثية**.

أما من جهة المعنى: فإن هذا الحديث مخالف لأحاديث كثيرة عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه قد رَقَى، وقد رُقِي، وقد أذن في الرقية صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال في شأنها: «**من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل**».

ثم إنَّه فارقٌ كبير بين الراقي والمسترقي، الراقي متوكل على الله محسن الظن بالله تالٍ لكتاب الله، لماذا يكون هناك ذم له من جهة أنه يفوته هذا الفضل.

أمَّا المسترقي فإنه وقع منه طرفٌ من الذل لغير الله حينما يطلب من غير الله، وربما يقع في نفسه شيء من الالتفات لغير الله.

إذاً شتان بين الراقي والمسترقي ولا يمكن التسوية بين هذين.

وبالتالي فالصواب أنَّ لفظ (لا يرقون) لفظٌ غير صحيح، والصواب: (لا يسترقون).

ما معنى لا يسترقون؟ لا يطلبون الرقية من غيرهم.

٥

٥- باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب

(المجلس الثاني)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب

من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

وعن حصين بن عبد الرحمن قال: « كنت عند سعيد بن جبير، فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ قلت: أنا، ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة؛ ولكني لُدغت، قال: فما صنعت؟ قلت: ارتقيت، قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديثٌ حدثناه الشعبي، قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا بن بريدة ابن الحصيب؛ أنه قال: «لا رقية من عين أو حمى»، قال: قد أحسن من أنتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا بن عباس، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «عرضت عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب، ولا عذاب». ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول اللّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا باللّه شيئا، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول اللّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبروه فقال: «هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون». فقام عُكَّاشة بن محصن؛ فقال: يا رسول اللّه، ادعُ اللّه أن يجعلني منهم، فقال: «أنت منهم». ثم قام رجل آخر، فقال: ادعُ اللّه أن يجعلني منهم. فقال: «سبقك بها عُكَّاشة».

فهذا باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب، ومر بنا الكلام عن الآيتين اللتين أوردهما المؤلف في هذا الباب، وأخذنا شيء من الكلام عن حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وهو حديثُ السبعين ألفًا وقفنا عند قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في صفة هؤلاء أنهم: **«الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»**.

الصفة الأولى: هي ترك الاستقراء، قال: (لا يسترقون) ومر بنا أنه جاء في رواية مسلم (لا يرقون)، وقلنا: الصواب: أنها غلط، وأن الحق في هذه الرواية هي (لا يسترقون).

يسترقون يعني: يطلبون الرقية، ومادة استفعل موضوعة غالبًا على معنى الطلب، والاستدعاء، هذا هو الغالب في استعمال هذا البناء استفعل، أو كما يقولون: الألف، والسين، والتاء، للطلب.

إذن استرقى يسترقي يعني: طلب من يرقيه، وبالتالي لا يتحدثُ هذا الحديث عن الرقية، وأن يرقي الإنسان، وإنما يسترقي الإنسان، وبين الكلمتين فرق.

عندنا في هذا الباب أحوالٌ أربع:

أولًا: أن يرقي الإنسانٌ نفسه.

ثانيًا: أن يرقي الإنسانُ غيره.

ثالثًا: أن يسترقي الإنسانٌ لغيره.

رابعًا: أن يسترقي الإنسانُ لنفسه.

أما أن يرقي الإنسان نفسه، أو أن يرقي غيره فهذا الكلام فيه سيأتي إن شاء الله في باب ما جاء في الرقى والتمائم وهو الباب الثامن إذا اعتبارنا المقدمة باب.

وفي الجملة رقية الإنسان نفسه أو غيره تنقسم إلى قسمين من حيث الحكم:

القسم الأول: الرقية المشروعة.

القسم الثاني: الرقية الممنوعة.

والرقية الممنوعة: قد تكون شركاً الأكبر، وقد تكون شركاً الأصغر؛ على تفصيل سوف يأتي في محله -إن شاء الله-.

أما الرقية المشروعة: فهي أن يقرأ الإنسان على نفسه بآيات القرآن أو أدعية النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أو أي دعاء لله جَلَّوَعَلَا يذكر فيه أسماء الله وصفاته؛ فإن هذا أمرٌ حسنٌ

مشروع، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرقي نفسه كما في الصحيحين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا أشتكى رقى نفسه، ونفث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

كذلك أن يرقي الإنسان غيره وهذا أيضاً مشروع، ففي هذا الحديث أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما مَرِضَ كانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقرأ عليه ثم تمسح عليه بيده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجاء بركتها، كذلك ثبت في صحيح مسلم «أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرض فجاءه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: يا محمد اشتكيت؟ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نعم، فقال جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: بسم الله أرقيك من كل شيءٍ يؤذيك من كل ذي عينٍ أو نفسِ حاسد بسم الله أرقيك الله يشفيك» فهذا فيه أن رُقية الإنسان لغيره أمرٌ حسنٌ جائز، بل لما سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك كما في مسلم قال: «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل».

رقية الإنسان لنفسه توكلٌ على الله واعتمادٍ عليه وحسن ظن بالله، وتحقيقٌ للتوحيد: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

ورقية الإنسان لغيره فيها من تحقيق التوحيد ما فيها، وفيها أيضًا إحسانٌ إلى المسلم، وبذلُ معروفُ له؛ فهذا لا شك أنه أمرٌ مشروع.

إذن رقية الإنسان لنفسه، ورقية الإنسان لغيره لا إشكال فيها.

أمَّا الأمر الثالث فهو: أن يسترقي الإنسانُ لغيره؛ يعني: يطلبُ من يرقي غيره، لا يطلب من يرقه هو، إنما يطلب من يرقي غيره، وهذا أيضاً أمرٌ جائزٌ بل حسن، وفَعَلَ هذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد ثبت في الصحيحين من حديث أم سلمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى في بيتها جارية في وجهها سفعة -يعني: يظهرُ في وجهها تغير في اللون يدل على علة بها-، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: استرقوا لها فإن بها نظرة» قال: استرقوا لها؛ يعني: اطلبوا لها من يرقيها فإن بها النظرة يعني: بها عين، فها هنا أمرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يسترقوا لها.

كما أنه ثبت في الترمذي وأحمد وغيرهما والحديث أصله في مسلم «أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى ضعفًا في أبناء جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال لأمهم أسماء بنت عميس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال: ما بال بني أخي ضارعين؟ يعني: فيهم نحف وفيهم ضعف،

فقالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إن العين تُسرع إليهم، فأمرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تسترقيَّ لهم»
يعني: أن تطلب من يرقيهم.

فالشاهدُ أن استرقاء الإنسان لغيره أمرٌ جائز لا بأس به.

نأتي إلى موضع البحث وهو المقصود في هذا الحديث وهو أن يسترقيَّ الإنسان لنفسه، وهذا هو الذي مُدِحَ هؤلاء السبعون ألفًا بتركه قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«هم الذين لا يسترقون»** يعني: لا يطلبون من يرقيهم، إنَّما إذا نزلت بهم النازلة فإنَّهم يرقون أنفسهم، وإن جاءهم أحد وَعرض عليهم أن يرقيهم فقبولهم لذلك لا يعد استرقاءً، يعني: إن جاء إنسان إليك وقال: أراك مريضًا وأريد أن أقرأ عليك، فإذا سمح له بذلك فليس هذا من الاسترقاء، وهذا قد حصل من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبلَ أن يرقيه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ K وقَبلَ أن ترقيه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ولكن هذا لم يكن هذا عن طلب، فبحثنا هو في الطلب.

قال بعض أهل العلم: إن هؤلاء مُدحوا بترك الرقية التي فيها استغاثة بغير الله أو ذكرٌ لأسماء الشياطين أو باعتقادا بأن الرقية تنفع بذاتها يعني كأنهم يقولون: إن الرقية التي مُدِحَ هؤلاء بتركها هي رقيةٌ ممنوعة، هكذا قال كثيرٌ من أهل العلم.

الذي يظهر والله تعالى أعلم أن هذا التوجيه فيه نظر، فإن ترك الرقية الممنوعة أمرٌ هو من شأن المسلمين جميعًا إلا من ضعف إيمانه، وتوحيده؛ والحديث يدل على أن هؤلاء السبعين ألفًا لهم ميزة على غيرهم وأن لهم خاصية دلت على عظيم إيمانهم، وعظيم توحيدهم، وأنهم من المحققين للتوحيد فكيف يكون فكيف يقال بعد ذلك أنهم إنما مُدحوا على ترك الإشراك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بل الظاهر أنهم تركوا على شيءٍ أرفع وأعظم من ذلك؛ يعني: أنهم تركوا شيء يتنافى مع كمال التوكل، وليس مع أصل التوكل.

ويدل على هذا أيضاً أسلوب سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ مع حصين بن عبد الرحمن فأولًا لا يظن أن حصينًا قد ارتقى رقيةً شركية حتى يقال إن سعيدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورحمه قد استدرك عليه، حصينٌ تابعيٌ جليل ولا يظن به أنه استرقى رقية شركية هذا بعيد، ثم إنه لو فعل لم يكن سعيدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ ليتلطف معه في الكلام بهذا الأسلوب فيقول له: (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا...) بل كان ينكر عليه ذلك بوضوح، لكن

أسلوب سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ورحمه يدل على أنه أراد أن يرشده إلى ما هو أكمل وأفضل، فدل هذا على أن حصينًا لم يكن قد وقع في رقية شركية.

فإذن هذا الجواب فيه نظر، والظاهر والله تعالى أعلم أنَّ الرقية التي ترك طلبها هؤلاء السبعون ألفًا هي الرقية المشروعة لا الرقية الممنوعة.

وعليه فإنَّ هذا الحديث يدل على أنَّ هؤلاء السبعين ألفًا وصفوا بترك طلب الرقية من غيرهم، إنَّما كانوا يرقون أنفسهم، أو إذا رُقُوا من غيرهم يكون هذا عن غير طلب، أما أن يطلبوا ذلك فهذا لم يكونوا يفعلونه، وذلك أنَّ في الاسترقاء؛ يعني: في طلب الرقية من الغير أن في ذلك أمورًا:

أولًا: أنَّ في الاسترقاء ذُلاً لمخلوق وهؤلاء أهلُ توحيدٍ عظيم لا يَذلون لا غير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وثانيًا: أنَّ طَلَبَ الرقية من الغير لا يخلوا غالبًا من نوع التفاتٍ للقلب لغير الله جَلَّ وَعَلَا، يعني: للراقي وهؤلاء أهل اعتمادٍ تام، وقصدٍ كامل لله رب العالمين لا يلتفتون لسواه.

وثالثًا: وهو أنَّ الاسترقاء فيه في الغالب سؤالٌ لمخلوق بلا حاجة، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حث على ترك سؤال الناس وكون الاسترقاء بلا حاجة غالبًا سببه؛ أنَّ رقية الإنسان نفسه تتيسر ولا تتعسر، فلما يطلب الإنسان من غيره أن يرقيه وهذا في الأحوال الغالبة متيسر فما حاجته إلى أن يعمدَ إلى غيره ليرقيه، بل لو رقى نفسه كان هذا أقرب للاستجابة؛ لأنَّ الغالب أن المصاب يكون صادقًا في الرقية ويكون فيه من الاضطرار ما ليس في الراقي غير المصاب، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**﴾[**النمل:٦٢**].

إذن هؤلاء فيما يظهر والله تعالى أعلم مدحوا بترك الاسترقاء، يعني: بطلب الرقية من الغير، لكن يشكل على هذا التقرير ما ثبت في الصحيحين في حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «**أمر رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –أو هكذا جاءت الرواية بالشك– «**أمرني رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أن استرقي من العين**»، وفي رواية مسلم: «**كان النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يأمرني أن استرقي من العين**».

إذن هذا أمرٌ من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن تسترقي فهل كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آمرًا لها بشيءٍ يؤدي إلى تفوتيها هذه الفرصة العظيمة؟ وهي أن تكون من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، ولا عذاب؟ الأمر في الحقيقة يحتاج إلى نظر، فالذي يظهر والله تعالى أعلم أنه لم يكن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليأمر عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وهي من أحب الناس إليه لم يكن ليأمرها بشيء يكون سببًا في فواتِ هذا الفضل العظيم.

إذن كيف نوفق بين هذا الحديث وبين حديث لا يسترقون؟

يمكن أن يقال في هذا أجوبة عدة:

أولًا: قال بعض شراح الحديث إن قولها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: **«أمرني أن استرقي من العين»** المراد من هذا: الاسترقاء ليس الرقية التي هي القراءة، إنما المراد: طلب الاغتسال ثم مداواة من أصيب بالعين بِغُسَالة العائن كما ثبت هذا في حديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[ثانيًا]: أنَّ هذا الحديث مختصٌ بالعين فيكون ترك الاسترقاء عامًا في كل الأمراض ويكون الاسترقاء من العين خاصًا لدلالة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

ثالثًا: قيل أو يمكن أن يقال إن قوله: صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو أمره لعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن تسترقي يعني لغيرها لا لنفسها، وهذا أمرٌ جائزٌ كما قد علمنا، ولكن هذا التوجيه بعيدٌ عن ظاهر الحديث.

رابعًا: أن يقال إن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما كان ذلك منه قبل أن يأتيه الوحي من الله جَلَّ وَعَلَا بفضل هؤلاء السبعين ألفًا وهذا أيضاً ليس بوجيه؛ لأن معرفة المتقدمة من المتأخر ليس متيسر.

خامسًا: يمكن أن يقال إن الاسترقاء هنا هو طلب الرقية لا طلب الراقي، يعني كأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرها في حال الإصابة بالعين أن تطلب علاج ذلك بالرقية وليس أن تطلب غيرها أن يرقيها، إنما كأنه يقول عليكِ بالرقية؛ الرقية هي الدواء الناجع لمرض العين.

[سادسًا]: أن يُقال إنَّ الرقية من الغير إذا تعينت؛ بمعنى: أنَّه لم يمكن أو تعذر أو تعسر أن يرقي الإنسان نفسه، وهذا قد يحصل فإن من الناس من تصبح القراءة عليه أمرًا صعبًا وهذا أمرٌ مشاهد، فيطلب الإنسان من غيره أن يرقيه.

ويشترط في هذا أن لا يكون قد ألتفت في قلبه إلى المخلوق، إنما هو معتمدٌ اعتماد كليًا على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فإذا تعينت ولم يكن منه التفاتٌ إلى المخلوق، فإن هذا الحديث يدل على أنَّ الاسترقاء حينئذٍ لا بأس به، ولا يُفَوتُ هذه القضية، ويؤيد ذلك ما ثبت عند الترمذي وأحمد وغيرهما بإسنادٍ صحيح أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من اكتوى أو أسترقى فقد برئ من التوكل**»، وسيأتي معنا بعد قليل -إن شاء الله- أنَّ هذا الحديث معناه متعلق بالكي إذا لم يتعين على توجيهٍ سيأتي، فيكون ما ذكر في الحديث وهو الاسترقاء مثله والله تعالى أعلم.

على كل حال المقام مقام احتياط وعلى المسلم إذا كان حريصًا على أن يفوز بهذا الفضل العظيم فينبغي عليه أن يتحفظ من طلب الرقية من الغير ما استطاع إلى ذلك سبيلًا؛ حتى لا يفوته هذا الفضل العظيم الأمر ليس بالأمر الهين الذي يقبل المجازفة الأمر فيه دخول الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب- أسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يجعلني وإياكم من هؤلاء-.

الصفة الثانية: قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ولا يكتوون**»، الكي هو: أن تُحمى حديدة بالنار ثم توضع على العضو العليل فيكون الشفاء بإذن الله، وأهل الطب في الغالب يستعملون الكي في حالتين:

[الأولى]: في حسم نزيف، يعني أن يكون هناك عرق جُرِحَ والدم ينزف فإنَّ الكي ينفع في حسم هذا النزيف وإيقاف هذا الدم.

الثانية: أن يكون في الجسم أخلاطٌ باردة، مواد ضارة باردة، فإذا اسَتَعمَل الإنسان الكي فإن هذه الأخلاط تذهبُ ويُشْفَى الإنسانُ بإذن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

هنا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَفَ هؤلاء الزمرة الطيبة بأنَّهم يتركون الكي، قال: «**لا يكتوون**».

فهل المراد أن يطلبون الكي من غيرهم أو أنهم في أنفسهم لا يستعملون الكي؟

ذهب بعضُ العلماء ومنهم حفيدُ المؤلف الشيخ سليمان في ((التيسير))، ذهب إلى أن (لا يكتوون) أي: لا يطلبون غيرهم أن يكويهم فيكون على نسق لا يسترقون.

ولكنَّ الذي يظهر والله أعلم أن هذا فيه نظر، وأن الاكتواء شيء والاستكواء شيءٌ آخر، في لسان العرب اكتوى: استعمل الكي، واستكوى: طلب من غيره أن يكويه، وهذا

الذي يظهر -والله تعالى أعلم- أنَّ الذي جاء نفيه في هذا الحديث هو عدمُ الكي مطلقًا، وليسَ خصوصَ أن يطلب الإنسانُ من غيره أن يكويه.

وموضوع الكي موضوعٌ طويل الذيل، وفيه بحثٌ كثير، والأحاديث التي جاءت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شأنه جاءت على أنحاءٍ مختلفة:

أولًا: فعله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حصل منه أن كوى غيره.

من ذلك: أنه كوى عبد الله بن حرام الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أصيب يوم الأحزاب والحديث في ((مسلم)).

كذلك كوى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سعد بن معاذ في أكحله لما أصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهذا في ((الصحيح)) أيضاً.

كذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسل طبيبًا إلى أُبَيّ بن كعب فكواه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والحديث في ((مسلم)).

كذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كوى أسعد بن زرارة من مرضٍ أصابه يسمى الشوكة وهذا عند ((الترمذي)) بإسنادٍ صحيح.

كذلك ثبت في ((صحيح البخاري)) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «**اكتويتُ من ذات الجنب والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حي**»، والظاهر أن هذا مما يبلغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان هذا بمحضرٍ بعدد من الصحابة فهذا فعله وإقراره بل إرساله الطبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليكوي.

ثانيًا: نجد في الأحاديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يحب الاكتواء كما في الصحيحين عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**وأنا لا أحب أن اكتوي**».

ثالثًا: كراهته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للكي ومن ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**وأنا أكره أن اكتوي**».

رابعًا: نهيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الكي قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وإني أنهى أمتي عن الكي**».

خامسًا: وصفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من اكتوى بالبراءة من التوكل قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من اكتوى أو استرقى فقد برئ من التوكل**».

سادسًا: مَدْحُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ترك الاكتواء وهذا كما في هذا الحديث الذي بين أيدينا.

والذي لا شك فيه أن حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يمكن أن يكون بينها تعارض والجمع ها هنا ممكنٌ ولله الحمد:

أولًا: كون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَلَ ذلك أو أقره دليل على أن الأصل في الكي الجواز.

[ثانيًا]: وكونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يحبه أو أنه يكره فهذا يدل على أن تركه أفضل وعلى أنه مكروه وليس بمحرم.

[ثالثًا]: وكونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينهى عن هذا له حالٌ مخصوصة، وكذلك كونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصف من اكتوى من البراءة من التوكل هذا له توجيه خاص سيأتي.

[رابعًا]: وأما مدحه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بترك الاكتواء فهذا في حالِ عدم على الاضطرار كما سيأتي إن شاء الله.

والتحقيق والله أعلم أن الاكتواء له ثلاث أحوال عليها تتنزل تلك الأحاديث السابقة:

[الحالة الأولى]: أن يكون محرمًا ويدل على هذا الحكم نهيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الكي، وكذلك وصفه من اكتوى بأنه قد برئ من التوكل، وهذا محمولٌ على حالتين: كلاهما كان من شأن أهل الجاهلية، أهل الجاهلية كان لهم حفاوة كبيرة بالكي، وكانت لهم فيه عقائد من ذلك أنهم كانوا يعتقدون أنَّ الكي يحسم الداء بطبعه لا بإذن الله جَلَّ وَعَلَا، ولذا كانوا يبادرون إليه ولو لم يضطروا إليه، بل كانوا يعتقدون أن من اكتوى قبل أن يصاب بالمرض فإنه لا يصيبه مرض البتة.

ولا شك أن هذا كله عقائد باطلة نفاها الإسلام.

إذن تحريم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووصفه بالبراءة من التوكل لمن اكتوى تتنزل على حالتين:

الأولى: من اكتوى قبل أن يمرض، قبل أن يكون هناك مرض، قبل أن يكون هناك سببٌ يقتضي الكي كما كان شأن أهل الجاهلية.

الثانية: أن يكون على ما يكون عليه اعتقاد أهل الجاهلية في الكي، وأن الكي يحسن الداء بطبعه لا بإذن الله جَلَّوَعَلَا.

إذن هذه هي الحالة الأولى: وهي أن يكون الكي محرمًا.

[الحالة الثانية]: أن يكون مكروهًا، وذلك يكون بعد نزول البلاء ويكون الشفاء به مظنونًا لا متعينًا، أن يكون بعد نزول الداء، يعني يكون هناك مرض السبب وجد ولكن كون هذا الفعل الذي هو الاكتواء سببًا للشفاء أمرًا مظنونًا وليس أمرًا قطعيًا يمكن أن يكون سببًا للشفاء، في مثل هذه الحال اللجوء إلى غيره من الأدوية أولى، وبالتالي يكون استعماله أمرًا مكروهًا، ووجه ذلك أنَّ الكي:

أولًا : فيه إيلامٌ للنفس.

ثانيًا: فيه طرفٌ من التعذيب بالنَّار.

[ثالثًا]: ربما يقعُ في النفس شيءٌ من تلك العقائد والأباطيل التي كانت في نفوس أهل الجاهلية بسببه.

[رابعًا]: وهو أنَّ الاكتواء قد يترتب عليه شيءٌ بعد حصوله، وهذا يحصل أحيانًا وهو أنه بعد استعمال الكي، يكون هناك شيءٌ من الآلام التي تطول، أو شيءٌ من القروح، أو شيءٌ من الانتفاخ في الجلد الذي يُخرج صديدًا وما شابه ذلك، قد يكون هناك آثار سيئة لهذا الكي والأمرُ ليس متعينًا، وممكن أن يكون هناك أسبابٌ للشفاء سواه.

إذن في هذه الحالة مكروه.

الحالة الثالثة: أن يكون ذلك جائزًا، يكون الاكتواء جائزًا؛ وهذا في حال ما إذا أصيب الإنسان بمرض وتعين الكيُّ سببًا للشفاء، في حالة الإصابة بالمرض وتعين الكي سببًا للشفاء، وهذا لو تأملته وجدته ظاهرًا في الأحاديث التي فيها كيُّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فهو مثلًا كَوَى سعد بن معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من جرح ينزف منه كان في أكحله، ومعلومٌ أن لو الدم لو استمر بالنزول سيموت الإنسان؛ وهذا سببٌ متعين بإذن الله مقطوعٌ به بأن يكون بإذن الله سبب في كف الدم وقطع هذا النزيف، فأصبح الأمر ها هنا متعينًا، وبالتالي لا يستعمل الإنسانُ الكي في هذا الحال فإنه يكون قد فعل أمرًا جائزًا.

وبناءً عليه: فإننا نعود الآن لحديثنا الذي بين أيدينا على أي شيء يتنزل قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لا يكتوون»؟

الجواب: يتعين على أنهم لا يكتوون في حال كون الكي مكروها، وهي: الحال التي يُصاب فيها الإنسان ولا يكون الكي متعينًا، بل يمكن أن يكون هناك أسباب أخرى للشفاء يمكن أن نستعمل أسبابًا أخرى للشفاء؛ كعقاقير، أدوية، عسل، حجامة، إلى آخره، وليس يتعين أن يكون هاهنا العلاج بالكي.

أما إذا تعين العلاج بالكي فالذي يظهر والله تعالى أعلم أن هذا الأمر جائز، وأنه أيضاً لا يضيع فرصة لحوق الإنسان بهذا الفضل العظيم، وهو أن يكون ممن يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، هذا الذي يظهرُ والله تعالى أعلم.

الصفة الثالثة: قال: صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ «ولا يتطيرون»؛ التطير: يعني التشاؤم، وهذا الموضوع عقد المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ له بابًا خاصًا فنؤجل الكلام فيه إلى الموضع الذي خصه به المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ.

[الصفة الرابعة]: قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «وعلى ربهم يتوكلون»؛ لا شك أن التوكل هو الصفة الجامعة لكل ما سبق كما أشار إلى هذا المؤلف في المسائل، تجدُ أن الصفة الجامعة بين هذه الأوصاف الثلاثة لهؤلاء المؤمنين الذين بلغوا هذه الدرجة العالية هي أنه قد قام بهم توكلٌ عظيم على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فاستحقوا أن يكونوا ممن يدخلوا الجنة بغير حساب ولا عذاب.

والتوكلُ هو: ترك الاعتماد على الأسباب بعد بذل الأسباب.

يجمعُ إذن أمرين: بذل السبب، مع الاعتماد على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ترك الاعتماد على الأسباب بعد بذل الأسباب.

أو هو كما قالوا: حركة بلا سكون، وسكون بلا حركة؛ يعني: أن يكون الإنسان منه حركة، واضطراب وعمل، لا يدعُ سببًا لتحصيل المقصود إلا بذله، ثم يكون منه سكون بلا اضطرابٍ ولا حركة وهو سكون القلب واعتماده على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وعلى كل حال المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ خص التوكل أيضاً ببعض الخاص فنؤجل الحديث عن التوكل إلى ذلك المقام.

الشاهدُ والخلاصة: أن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مدح هؤلاء بأنهم جمعوا ما به تحقق فيهم كمال التوحيد الواجب وذلك في قوله: «**لا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون**»، ومدحهم أيضاً بتحقيق ما به حققوا كمال التوحيد بمستحب وكذلك في قوله: «**لا يسترقون، ولا يكتوون**».

الاسترقاء جائز من فعله ما وقع في محرم، لكن تركه أفضل وهو دليلٌ على كمال التوحيد المستحب.

والكي إذا ظُنَّ فيه الشفاء أمرٌ جائز، لكن تركه أفضل وهذا الترك من تحقيق كمال التوحيد المستحب، فجمع هؤلاء بين الأمرين حققوا كمال التوحيد بالواجب وارتقوا حتى حققوا كمال التوحيد المستحب.

بقيت مسألة قد يبحثها بعض الناس في هذا المقام وهي: أنهم يقولون إن هذا الحديث دليلٌ على ترك اتخاذ الأسباب اعتمادًا وتوكلًا على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هكذا قال بعضهم ولا شك أن هذا غير صحيح، ليس في هذا الحديث وجهٌ البتة لهذا الاستنباط، بل إنَّ اتخاذ الأسباب أمرٌ كان يفعله سيد المتوكلين صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والأحاديث في هذا متواترة وكثيرة في وقائع شتى، بل كان هذا منه أمرًا صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذن لا ينبغي أن يلتفت إنسانٌ إلى مثل هذا الاستنباط الباطل وهو أن يقال إن على الإنسان أن يترك استعمال الأسباب ويفوض الأمور إلى الله جَلَّ وَعَلَا، بل إن الشريعة قد جاءت باتخاذ الأسباب، وترك الأسباب قدحٌ في الشريعة.

بعضهم ذكر أن من فوائد هذا الحديث أن ترك التداوي أفضل كأنه أخذ من ترك الكي والاسترقاء التعميم لجميع أنواع الأدوية، والصواب: أنَّ الحديث خاص بهذين المرين اللذين جاء فيهم جاء عليهم التنصيص وهما الكي والاسترقاء، وأمَّا التداوي فهذا شأنٌ أخر والبحث فيه طويلٌ عند أهل العلم، وعلى كل حال ليس هو من متعلقات هذا الحديث.

على كل حال التداوي خلاصة الراجح في موضوع التداوي؛ أن **التداوي له أحوال**:

[الحالة الأولى]: **أن يكون التداوي واجبًا**: وذلك إذا كان تركه يؤدي إلى الهلاك، إذا عُلِمَ أن استعمال دواءٌ معين سببٌ لتوقف الداء الذي يؤدي إلى الموت، مثال ذلك: وجود مرض، ليكن ورمًا ضارًا -نسأل الله السلامة والعافية- لو استعمل الإنسان دواءً معينًا

وهو الجراحة والاستئصال، فهذا يكون دواءً قطعيًا بإذن الله جَلَّ وَعَلَا في إزالة هذا المرض والسلامة من الهلاك، ففي هذا الحالة نقول: يتعينُ الدواء أصبح التداوي الآن سببًا متعينًا في الحفاظ على النفس، والحفاظ على النفس أمرٌ ضروريًا في الشريعة.

الحالة الثانية: أن يكون التداوي مظنونًا في حصول الشفاء، وفي هذه الحالة نقول التداوي مستحب وليس واجبًا، من كان يظن أنَّ استعماله لهذا الدواء أو هذا العقار أو هذا الشرب سببٌ للشفاء فإنه في هذه الحالة يكون أمرًا مستحبًا، ويدل على هذا ما ثبت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند أحمد وغيره بأساليب عدة من رواية عدد من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أمر بالتداوي فقال: **«تداووا عباد الله، ولا تتداووا بحرام»** وأقل درجات الأمر أن يكون للاستحباب.

إذن التداوي مطلقًا ليس له علاقة بهذا الحديث، والله تعالى أعلم.

لما حدَّث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الحديث سمت همة عكاشة بن محصن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الأكثر على أن عكَّاشة بالتشديد وقيل بالتسهيل، لكن الأكثر على التشديد عكاشة بن محصن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهو صحابيٌ جليل من أفاضل الصحابة؛ لأنه كان بدريًّا، كان من أهل بدر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، وأهل بدرٍ من أفاضل الصحابة، قال للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يا رسول الله ادعُ الله أن أكون منهم، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنت منهم»** بَلَغَهُ بوحيٍ من الله جَلَّ وَعَلَا أنه منهم.

ولاحظ في هذا الحديث أنَّ الحديث يدل على جواز طلب الدعاء، سؤالُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو الله جَلَّ وَعَلَا، وهذا جائزٌ لا شك فيه في حياته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أما بعد موته فإن هذا لا شك أنه من الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا؛ إذ جنس دعاء الأموات لا شك أنه شركٌ بالله جَلَّ وَعَلَا.

ودعوة الأموات تحبط العمل   وتسلخ الإيمان خاب من فعل

هنا قام صحابيٌ آخر وقال طالبًا المسألة نفسها والدعاء نفسه، أن يدعوا الله له أيضًا أن يكون منهم فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«سبقك بها عكاشة»**.

هنا حسم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الباب، والظاهر والله تعالى أعلم أن جوابه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ها هنا ليس لأن السائل لا يستحق ذلك، وإنما خشي النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

أن يتسلسل الأمر فيسأل السؤال من ليس أهل له، فَحُسِّمَ الأمر بهذا الجواب الطيف، فكان فيه تحقيقٌ للمصلحة والمحافظة على شعور هذا الصحابي، وهذا من عظيم أدب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولطفه، وكيف لا يكون كذلك والله جَلَّ وَعَلَا قد وصفه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤]، وفي هذا كما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المسائل فيه: (استعمال المعاريض) هذا والله تعالى أعلم.

٦

٦- باب الخوف من الشرك

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ

باب الخوف من الشرك.

عقد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب؛ الذي وسمه بباب الخوف من الشرك، والترتيب عند المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يدل على دقيق فهمه، فإنه بعد أن بَيَّن طرفًا من فضل التوحيد، وفضل تحقيقه، عقد هذا الباب ليبين أن من تحقيق التوحيد الخوف من الشرك، وأيضًا حتى يكون الموحد جامعًا بين الخوف والرجاء، فإنَّ الأدلة التي تدل على فضل التوحيد، وفضل تحقيقه تُثمِر في النفس الرجاء لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكان لابد أن يَضُمَّ الموحد إلى ذلك خوفه من الله، وباجتماع الخوف والرجاء يصح سير العبد إلى الله جَلَّ وَعَلَا، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((كشف الشبهات))، بعد أن ذكر نبذة في فضل التوحيد وخطر الشرك، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإذا عرفت ذلك أكسبك هذا أمرين:

الأول: أن تفرح بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عليك بالتوحيد: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

ثم أن يَعظُم خوفك من الشرك، فإنك إذا علمت أن الإنسان قد يخرج من الإسلام بكلمة يقولها، فإن هذا يُورِث في النفس الخوف العظيم من الله عَزَّوَجَلَّ، هذا كلامه أو نحوه.

والمقصود أن على المسلم أن يجمع بين الخوف والرجاء، ومن ذلك هذا المقام العظيم مقام التوحيد، يرجوا فضل الله جَلَّ وَعَلَا بالتوحيد وتثبيته عليه، كما أنه يخاف من الله، ويخاف من الشرك وإثمه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(باب الخوف من الشرك)**.

الخوف أسرع المطايا إلى الله جَلَّ وَعَلَا وهو مع المحبة والرجاء محركات القلوب إلى علام الغيوب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهما أصول الأعمال القلبية التي تجب على كل مسلمٍ ومسلمة.

والخوف: هو خاصية أهل التَذكُر: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ [الأعلى:١٠]، الخوف: ثمرة من ثمرات الهدايا، ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤]، وأهل العلم هم أهل الخوف والخشية: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨].

الخوف من الله ثمرته عظيمة: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن:٤٦]، ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾[إبراهيم:١٤]، فالخوف من الله من أعظم الأعمال الصالحة، والمقام لا يتسع للتفصيل في ذلك.

وقد عقد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابًا في منتصف الكتاب؛ خصه بالكلام عن الخوف: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥] عقد على هذه الآية بابًا نُفصِّل فيه -إن شاء الله- ما يتعلق بموضوع الخوف، لكن الذي يُهمنا ها هنا: هو أن عبادة الخوف لها متعلقات عدة انتبه لهذا.

الشيء الذي ينبغي أن تخاف منه يرجع إلى ما يأتي:

أولا: الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ: وذلك أن من صفات الله ما يقتضي خوف العبد منه، فإن الله جَلَّوَعَلَا ﴿عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾[آل عمران:٤]، بأسه شديد، وعذابه أليم، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين، الله جَلَّوَعَلَا هو القهار، والله جَلَّوَعَلَا هو الجبار، والله عَزَّوَجَلَّ ينتقم ممن حادّه وحادّ رسله، هذه صفات تقتضي الخوف من الله جَلَّوَعَلَا، وإذا قال سبحانه عن الملائكة الكرام عليهم سلام الله قال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾[النحل:٥٠] قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[الحشر:١٦].

هذا هو المتعلق الأول وهو الأصل لمن عداه.

ثانيا: الخوف من عذاب الله: عذاب الله عظيم، وهو يورث في النفس دون شك الخوف منه: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾[إبراهيم:١٤]، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾[الإسراء:٥٧]، ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن:٤٦].

قال أهل التفسير الآية تحتمل أمرين:

الأول: ولمن خاف مقامه بين يدي الله جَلَّوَعَلَا يوم القيامة، فإنه مقامٌ مخوف، جد مخوف.

أو وهو **المعنى الثاني** في الآية: ولمن خاف مقام الله جَلَّوَعَلَا عليه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[الرعد:٣٣]، إذِ الله عَزَّوَجَلَّ هو الشهيد، وهو الرقيب، وهو العليم، وهو المحيط سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فيخاف الإنسان من قيام الله جَلَّوَعَلَا عليه، فهو الذي يعلم السر وأخفى.

إذًا يخاف الإنسان من عذاب الله جَلَّوَعَلَا، والله جَلَّوَعَلَا يقول عن عذاب النار: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾[الزمر:١٦].

[ثالثًا]: **الخوف من عدم قبول الحسنة**، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[المؤمنون:٦٠]، فسرها النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالرجل يصوم ويصلي ويتصدق، ويخشى ألا يُقْبَلَ منه.

[رابعًا]: الخوفُ من إثم السيئة، وهذا موضوعٌ عظيم، والآثار فيه عن السلف كثيرة، حتى قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ فيما خرج البخاري: (**إن المؤمن يرى ذنوبه كجبل فوق رأسه، يخاف أن يسقط عليه**)، انظر إلى هذا الخوف من إثم السيئة، تخيل أن جبلًا عظيمًا فوق رأسك يا عبد الله، وأنت قاعدٌ تحته، وتتوقع أن يسقط عليك في أي لحظة، كيف سيكون الخوف من ذلك آخذًا بِلُبك؟ **قال**: (**وأما المنافق: فإنه يرى ذنوبه كذباب مر بأنفه، فقال به هكذا**) حرك يده جهة أنفه، لا يعتبر ذلك شيئًا، ولا يلتفت إليه.

[خامسًا]: **هو الخوف من الوقوع في السيئة مستقبلاً**: الإنسان لا يدري ما الذي سيكون عليه مآله؟ وما الذي سيختم عليه به؟ ولذلك كان من أعظم ما خافه الصالحون، الخاتمة، لا يدرون ما هو العمل الذي يعملونه مستقبلاً، وربما كانت الخاتمة عليه، وأعظم ما يكون من ذلك، الخوف من الوقوع في الكفر والشرك والنفاق -عياذًا بالله-.

علق البخاري رَحِمَهُٱللَّهُ في ((صحيحه)) عن ابن أبي مليكة التابعي الجليل رَحِمَهُٱللَّهُ قال: (**أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كلهم يخشى النفاق على نفسه**).

الخوف من الوقوع في السيئة، هو محل الكلام في هذا الباب، وأعظم ذلك الخوف من الوقوع في الشرك، وكيف لا يكون الإنسان خائفًا من ذلك، وهذا الذنب العظيم، أكبر جريمة وقعت على وجه الأرض، أخطر الأشياء على الإطلاق الشرك بالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فهو:

أولًا: أعظم الذنوب.

وثانيًا: عقوبته أعظم العقوبات.

أمَّا كونه أعظم الذنوب، فيدل على هذا ما خرَّج الشيخان في صحيحيهما عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: «**سألت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أي الذنب أعظم؟ قال**

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أن تجعل لله ندًا، وهو خلقك»**، وهذا من الأمور المتفق عليها، بل المعلومة من الدين بالضرورة، أن الشرك والكفر بالله أعظم الذنوب على الإطلاق، وقلت لك إن هذا الذنب أعظم الذنوب وذلك لأمور:

أولًا: أن حقيقته انتقاص الله جَلَّ وَعَلَا، المشرك منتقص لله جَلَّ وَعَلَا بشركه، وذلك لأنه تجرأ فصرف خالص في حق الله لغيره، وذلك لا يكون لمن عَظَّم الله، ما كان هذا إلا لأنه انتقص مقام ربه جَلَّ وَعَلَا في نفسه، وانتفى عنده تعظيمه لله، وفي حديث الحارث الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي خرجه الترمذي وأحمد بإسناد صحيح، وفيه أن الله أمر يحيي بن زكريا بخمس كلمات يعمل بهن، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، جاء في الحديث، قال:(**أمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، فإن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهبٍ أو ورق، وقال: هذا عملي وهذه داري، فاعمل وأدِّ إلي؛ فكان يعمل ويؤدي إلى غيره، فأيكم يحب من عبده ذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم، فلا تشركوا به شيئًا»**. هذا المشرك انتقص الله جَلَّ وَعَلَا، وانتقص مقامه العظيم لمَّا أشرك بالله جَلَّ وَعَلَا.

وثانيًا: الشرك أعظم معاندةٍ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، المشرك معاندٌ لله، الله خلقه لعبادته وتوحيده، فأتى المشرك بضد ذلك، وهذا معاندةٌ لله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾**[الذاريات:٥٦]**، فاستحق المشرك أن يكون بغيضًا إلى الله جلَّ وعلا.

ثالثاً: الشرك أظلم الظلم ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾**[لقمان:١٣]**، وحُقَّ للمشرك أن يكون كذلك، كيف لا يكون كذلك والمشرك قد سوى غير الله بالله: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**[الشعراء:٩٧-٩٨]**، ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾**[الأنعام:١]**. يعدلون: يعني يسوون غير الله بالله. يالله العجب! أي ظلم أعظم من هذا الظلم، أرأيت لو أن إنسانا عمد إلى أذكى الناس وأنبل الناس وأرفع الناس، فشبَّه به أقذر الناس وأقبح الناس وأغبى الناس وأحمقهم، أكان هذا ظلما منه أم لا؟

لا شك أنه أعظم الظلم، أن تسوي هذا بذاك، فكيف تسوي المخلوق الضعيف الذليل الحقير من كل وجه بالله العظيم من كل وجه؟!

يا لله العجب! أي جرأة هذه وأي ظلم هذا؛ أن تجعل هذا المُشَرَك به مع الله جَلَّوَعَلَا في رتبة واحدة، كما أن الله يُعْبد هذا المخلوق يُعْبد: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:٩٧-٩٨].

رابعاً: ضلالٌ محض، وذلك أن الشرك ذنبٌ لا يدعو إليه داعٍ ولا تحث إليه شهوة، إنما هو ضلالٌ محض، وإنما هو فسادٌ في القلب خالص، كل الذنوب يُحرِك إليها شهوة: الزنا، والخمر، والسرقة، تجد أنَّ هناك أسبابا تدعوا إليها وتحث عليها، ويشتري الإنسان من وراء ذلك لذة ما يظنها تنفعه وإن كانت في الحقيقة تضره، لكن المهم أن هناك سببٌ يدعوا إلى هذا الذنب.

أما الشرك فلا سبب يدعوا إليه، إنما هو فسادٌ وضلالٌ محض في قلب المشرك، فالله جَلَّوَعَلَا فطر الناس على التوحيد، وأقام الحجج العظيمة على ذلك، وجعل اللذة والطمأنينة والسكينة والنعيم في الدنيا في التوحيد، ثم جاء المُشرِك وترك كلَّ ذلك وأشرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

إذًا هو ضلال محض فاستحق أن يكون أعظم الذنوب.

أما كون عقوبته أعظم العقوبات فإن ذلك يظهر من وجوه:

أولاً: أنَّ هذا الذنب لا يغفره الله البتة، من مات على الشرك، فإن الله جَلَّوَعَلَا قد حكم، وهو الذي لا يرد القول لديه، أنه لا يغفر هذا الشرك أبداً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾[النساء:٤٨]، لو تاب الإنسان من الشرك، فإن الله يغفر له ذلك، قال الله عَزَّوَجَلَّ في مخاطبة النصارى المشركين، ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[المائدة:٧٤]، وقال جَلَّوَعَلَا في المشركين في آيات عدة بيَّن سبحانه أن هؤلاء المشركين لو تابوا إلى الله جَلَّوَعَلَا، فإن الله تعالى يتوب عليهم، ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾[الأنفال:٣٨]،في آيات كثيرة في هذا المعنى.

أمَّا إذا مات الإنسان على الشرك، فإنه لا أمل له في المغفرة، ولا أمل له في الرحمة: ﴿أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾[العنكبوت:٢٣].

ثانياً: أن الشرك بالله جَلَّوَعَلَا **مُحبِطٌ لجميع الأعمال الصالحة**، من مات مشركًا بالله فلا ينفعه شيء قدمه في دنياه عند الله البتة، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:٨٨]، ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[الزمر:٦٥]، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾[الفرقان:٢٣].

[ثالثًا]: **أن الشرك يُحرِّم دخول الجنة ويُخلِّد في النار**، -نسأل الله السلامة والعافية-: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة:٧٢]، ذنبٌ هذا شأنه، أفلا يكون مَخُوفاً يا عباد الله؟ أفلا يخاف الإنسان أنه إن وقع في الشرك وخُتِم عليه به؟ -نسأل الله السلامة والعافية-، يبوء بهذه الخسارة العظيمة، ألا يقتضي هذا خوفًا ووجلاً في القلوب؟

أرأيت إنساناً عاش سبعين، أو ثمانين، أو تسعين سنة، قضاها كلها في طاعة الله في تلاوة وذكر، وقيام وصيام، وصدقة وزكاة؟ ثم قبل وفاته بلحظات أشرك بالله، سجد لغير الله، أو دعا غير الله، قال يا سيدي فلان لمقبورٍ في قبره، قال يا سيدي فلان: المدد! دعا غير الله، فمات على ذلك، ما مآله؟

نصوص الكتاب والسنة متضافرة مع إجماع الأمة، أن هذا مآله إلى النار خالدًا مُخلدًا فيها: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة:٧٢]، أي زمن تتخيله في ذهنك، فإنَّ هذا المشرك سيكون في النار، وما بعده أيضًا إلى ما لا نهاية.

أرأيت هذا الذنب كيف كانت عقوبته بهذا العِظَم!

إذًا على الإنسان أن يخاف، أن يوجل قلبه، أن يلجأ إلى الله جَلَّوَعَلَا مخافة أن يقع في هذا الذنب العظيم، واعلم -يا رعاك الله- أنه إن كان الإنسان صادقًا في الخوف من الشرك، فإن هذا يستدعي أن يكون عالمًا بالشرك، أنت لا يمكن أن تخاف مما تجهل، لا تخاف خوفًا حقيقيًا ليس مُدَّعًا، ولا مصطنعًا إلا من شيء تعلمه وتعرفه، وكلَّ ما كنت أكثر معرفةً به ازداد خوفك منه.

إذن إذا أردت أن تبلغ هذه الدرجة التي بلغها الصالحون، وهي الخوف من الشرك، فعليك: أولًا أن تعرف ما هو الشرك؟ فتعرف أفراده وتعرف أصوله، وتعرف دقائقه، وبالتالي ينبعث في قلبك الخوف من هذا الشرك، والخوف من الوقوع فيه، والخوف من إثمه وعقابه؛

أما الذي هو سادر يمشي في هذه الحياة، ولا يفرق بين خير وشر، وتوحيد وشرك، ونور وظلمة، فإنه ما أسرع أن يقع في العطب، يمشي في طريق ليس به بصيرًا مع كثرة المُهلِكات فيه، وكيف لا يكون كذلك؟ والله جَلَّوَعَلَا أخبرنا عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾[إبراهيم:٣٥-٣٦].

إذًا هو أمرٌ مَخُوف، لكثرة من وقع، وكثرة من زل، فلا تأمن على نفسك أن تكون كهؤلاء، ولا يكون ذلك إلا بالعلم، ثم العمل، ثم الخوف، ثم اللجوء إلى الله جَلَّوَعَلَا، تبتهل إلى الله بصدق، أن يُجَنبك هذا الذنب العظيم.

أعود فأقول: الخائف من الشرك، هو الذي يعلم حقيقته وتفاصيله، وهذا كان أكمل الناس فيه أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كانوا أعلم بالحق، وكانوا أعلم بالباطل، ولذا كانوا أقوم بالحق، وأبعد عن الباطل.

والتوحيد لا يقوم ساقه إلا على **هذين الأمرين**:

أن تعلم التوحيد فتلتزمه.

وأن تعلم الشرك فتجتنبه.

أما إذا قصرت في واحدٍ منهما، فإنه سيدخل عليك من الخلل بحسب ذلك، وما أحسن ما يُروى عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: (**إنما تُنقَض عُرى الإسلام عروة عروة، لمن نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية**)، الموفقون السعداء هم الذين يعلمون الحق بتفاصيله، ثم يُوفقون إلى التزامه، وهم أيضًا الذين يعلمون الباطل بتفاصيله، ثم يُوفقون إلى اجتنابه.

والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ لما نبه هذا التنبيه المهم، على ضرورة أن يخاف الإنسان من الشرك، كأنه قال لقارئ كتابه دونك هذا الكتاب ستجد فيه تفاصيل التوحيد، وستجد فيه أيضا تفاصيل الشرك، حتى تكون على علم بما ترجو، وحتى تكون على علم بما تخاف، فإن عملت بذلك بلَّغك الله ما ترجوه وأمَّنك مما تخاف.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (باب الخوف من الشرك).

الشرك تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائصه هذا هو الشرك، تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائصه.

وينقسم بحسب موضوعه إلى:

١/شرك في الربوبية.

٢/وشرك في الألوهية.

٣/وشرك في الأسماء والصفات.

كما أنه ينقسم بحسب حكمه إلى:

١/شركٍ أكبر.

٢/شرك أصغر.

وسيأتي الكلام -إن شاء الله- عن الشرك الأصغر فيما يأتي.

إذًا هذا هو الشرك، وله تفاصيل، وله أحكام، وله أصول، وله دقائق، والكتاب الذي بين أيدينا سيبين ذلك لك جملة -إن شاء الله-.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾[النساء:٤٨].

هذه الآية آيةٌ عظيمة وردت في سورة النساء مرتين: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾[النساء:٤٨].﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا﴾[النساء:١١٦].

هذه الآية قال أهل العلم: هي (أحكمُ آية في الشرك، وأخوف آية في الشرك، وأرجى آية في التوحيد).

أمَّا كونها أحكم آية في الشرك: فإنها بينت حكمًا فصلًا في شأن الشرك وأهله، وهو أن الله لا يغفر هذا الذنب، وصاحبه محكومٌ عليه بأن الله جَلَّوَعَلَا لا يغفر له، وبالتالي فهو الذي خسر كل شيء عند الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

وهي أخوف آية في الشرك: لأنها تدل على هذا الأمر العظيم، وهو أن الشرك ذنب لا يغفره الله، وإذا لم يغفر الله هذا الشرك كانت الخسارة التامة على العبد، -نسأل الله السلامة والعافية-.

وفيها أمرٌ ثالث **وهي أنها أرجى آية للتوحيد**: هكذا ذَكَرَ طائفةٌ من أهل العلم، نصّوا على أن هذه الآية أرجى آية في كتاب الله، والباب به خلاف، والمقام مقام اجتهاد، ما هي

أرجى أية في كتاب الله؟ والذي اختاره طائفة من أهل العلم أنها هذه الآية، وذلك أن الله جَلَّوَعَلَا أعطى فيها الرجاء لأهل التوحيد، وإن كانوا عصاةً وذلك في قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[النساء:٤٨].

هذه الآية دلت على الأمر القطعي، وهو أن الشرك الأكبر لا يغفره الله البتة إلا لمن تاب منه، وذلك أمر معلومٌ بالضرورة من دين الله جَلَّوَعَلَا والكلام إنما يتعلق بالشرك الأكبر.

ويبقى الحديث بعد ذلك في الشرك الأصغر: الشرك الأصغر مضى طرفٌ من الحديث عنه في الدرس السابق، وقلنا إنه في الجملة يرجع إلى أمرين -لعلك تذكرهما، وذكرناهما في الدرس الماضي-، الشاهد أن من مباحث هذه الآية، هل الشرك الأصغر داخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾[النساء:٤٨]، أم أنه ليس من مشمولات هذه الآية؟

هذا موضعٌ اختلف فيه أهل العلم، من أهل العلم ممن قال: إن الشرك لا يُغفر مطلقا لا كبيرًا ولا صغيرًا، واستدلوا على هذا بأمور:

أولًا: بهذه الآية فإن الله تعالى قال فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾[النساء:٤٨]، قالوا: إن والفعل المضارع مؤولان بمصدر، يعني: إن الله لا يغفر إشراكًا به، وإشراكًا هنا نكرةٌ في سياق نفي فتعم كل شرك.

فدل هذا إذًا على أن الشرك لا يُغفر منه شيءٌ البتة، واستدلوا على هذا أيضا بالحديث الذي سيأتي بالمعنى قريبًا -إن شاء الل-ه، «ومن لقيه يُشرك به شيئًا دخل النار». ولاحظ أنه قال ها هنا (شيئًا) وهذا نكرة في سياق الشرط فتعمُ كل شرك فيدخل في ذلك الشرك الأصغر.

ومُرادُ القائلين بهذا القول، يعني ما معنى قولهم إن الشرك الأصغر لا يُغفر؟ مرادهم بذلك أنَّ الشرك الأصغر لابد من دخوله في الموازنة، يعني لابد أن يكون ضمن السيئات التي تكون في كفة السيئات، لا يكون من السيئات التي تُغفر ويعفى عنها، وبالتالي فلا تدخل في الموازنة؛ لأن هذا هو معنى السيئة المغفورة.

ما معنى غُفِر ذنبه؟ غفر الله هذه السيئة؟ المعنى أنها محيت، فلا تدخل في الوزن.

وأما الذنب الذي لا يغفر فهو الذي يدخل في الوزن.

إذًا مُراد هؤلاء العلماء أنه لا يُغفر؛ بمعنى: أنه لابد من دخوله في الموازنة، وبالتالي فإن الإنسان إذا كان معه حسنات عظيمة أكثر من السيئات التي فيها الشرك الأصغر، فإنه ينجو وإلا فإنه فلابد أن يعذب هذا مرادهم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

وهذا القول اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ونص عليه صراحةً في كتابه ((تفسير آيات أشكلت)) ومال إليه ميلًا في ((ردِّه على البكري))، وفي كتابه ((قاعدة في المحبة))، واختار هذا جماعةٌ من علماء التوحيد، فظاهرُ نقل وموافقة الشيخ سليمان في ((التيسير))، وكذلك الشيخ عبد الرحمن في ((الفتح))، وكذلك غيرهم من أهل العلم، يدل على أنهم يختارون هذا القول.

أما **القول الثاني**: فهو أن الشرك الأصغر حكمه حكم الكبائر، وبالتالي فإنه لا يدخل في مشمولات هذه الآية، إنَّما تكون هذه الآية متعلقةً بالشرك الأكبر، قال هؤلاء العلماء: نظرنا فوجدنا أنَّ الشرك الأصغر أشبه بالكبائر منه بالشرك الأكبر في أحكام الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا: فإنه لا يُخرِّج من الملة.

وأما في الآخرة: فإنه لا يخلِّد في النَّار، ولا يحبِطُ جميع الأعمال.

وبالتالي فإنه يكون حكمه في حكم الكبائر.

قالوا: وأما الاستدلال بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾[النساء:٤٨]، قالوا إن هذه النصوص الواردة في تحذير من الشرك، إنما تتعلق بالشرك الأكبر، فهذه الآية من جنس قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾[المائدة:٧٢]، ومن جنس قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:٨٨] في كل الآيات التي جاءت في الشرك، فكما تقولون في هذه الآيات قولوا في هذه الآية أيضًا.

وعلى كل حال المسألة مُختَلفٌ فيها بين أهل العلم، وهذا القول مال إليه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما يظهر لك في كتابه ((الداء والدواء))، وفي ((إغاثة اللهفان))، وكذلك اختاره جماعةٌ من أهل العلم، وممن انتصر له الشيخ عبد الرحمن بن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في علماء آخرين.

الشاهد أن المسألة خلافية، والمقام مَخُوفٌ، وعلى الإنسان أن يخاف ويحذر: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[النساء:٤٨].

بقيّ أن يُقال: إن قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[النساء:٤٨] ينبغي أن يُفهم في ضوء النصوص الأخرى، بمعنى: كون العاصي الذي وقع في ما دون الشرك تحت مشيئة الله جَلَّوَعَلَا، هذا إنما هو بالنظر إلى كل عاصٍ من حيث ذاته، أما بالنظر إلى مجموعة العصاة فإن أهل السنة والجماعة مُجمعون على أنه لابد من دخول طائفةٌ من العصاة النار، حتى تتحقق النصوص القطعية المتواترة بدخول بعض الموحدين في النار كأحاديث الشفاعة وغيرها.

إذًا ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾[النساء:٤٨]، هذا متعلق بكل فردٍ فرد.

أما مجموع العصاة فإنه لابد من دخول طائفةٍ منهم النار ، ويكون دخولهم دخولًا مؤقتًا، وليس دخولًا مؤبدًا

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾[إبراهيم:٣٥].

الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يلجأ إلى الله جَلَّوَعَلَا في هذه الآية العظيمة أن يُجنِبَه وبَنيه عبادة الأصنام. أتدري من الذي دعا هذا الدعاء؟ إنه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومن إبراهيم؟

إبراهيم خليل الله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾[النجم:٣٧]، إبراهيم الذي ﴿جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الصافات:٨٤]، إبراهيم الذي قال له ربه جَلَّوَعَلَا: ﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[البقرة:١٣١]، إبراهيم هو الذي قال الله فيه: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[البقرة:١٣٠]، إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي كسَّر الأصنام، والذي طرح ابنه على الأرض وتله للجبين ليذبحه بيده استجابة لأمر الله، إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي أنكر على المشركين، وهجرهم في الله ، وهاجر في سبيل الله، إبراهيم إمام الموحدين وأبو الأنبياء صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ومع ذلك يخاف على نفسه من الشرك! فماذا يقول من سواه؟

وصدق التابعي الجليل إبراهيم التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما خرج الطبري في ((تفسيره)) قال: (**ومن يأمن البلاء بعد خليل الله إبراهيم؟**) من يأمن هذا البلاء؟ وقال كلمة مثلها سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما عند عبد البر قال: (**ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم إذا كان إبراهيم** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **يخشى ويخاف من الوقوع في الشرك بالله** جَلَّ وَعَلَا، **فكيف بغيره من الناس؟**).

إذن هذه الآية من أعظم ما يدل على أن الخوف من الشرك من المقامات الرفيعة لأهل التوحيد، كلما كان الإنسان أعظم توحيدًا، كان أخوف من الوقوع في الشرك.

وانظر –يا رعاك الله– إلى حرصه على بنيه، الحرص على أهم قضية وهي التوحيد، وأن يَسلَموا من الشرك، وهكذا ينبغي لمن كان خائفًا على أبنائه، حريصًا على مصلحتهم أن يسعى في إنقاذهم من عذاب الله، قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾[إبراهيم:٣٥] حريصٌ على أبنائه أن يسلموا من هذا البلاء. وليس كحال كثيرٍ من الناس، حرصهم على أبنائهم لا يتجاوز أمور الدنيا، حريصٌ على أن يأكلوا ويشربوا ويلبسوا، وأن يكون في جيوبهم المال، وأن يدرسوا وأن يتعلموا، وهذا حسن لا بأس به.

ولكن الأهم إنما هو أن يكونوا مستقيمين على طاعة الله، تجد الأب يغضب أنَّ ابنه تأخر عن المدرسة، لكنه لا يحرك ساكنًا إذا تأخر عن الصلاة، بل ربما لا يسأل صلى أو لم يصلي، لكن المهم أن يذهب إلى المدرسة ولا يغيب! تأمل كثيرًا في قوله تعالى: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾[إبراهيم:٣٥].

تأمل في قوله: ﴿واجنبني﴾.

إذن عندنا تجنيب، وعندنا اجتناب، أمَّا التجنيب: فهو فعل الله. وأما الاجتناب: فهو فعل العبد، ولا يكون الثاني إلا إذا كان الأول.

إذًا القضية قضية توفيق وقضية تفضلٍ ومنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والله لا تجتنب الشرك إلا إذا جنبك الله ذلك، فاحذر من أن تغتر، أن تقول أنا من الموحدين، أنا عندي شهادة علمية، أنا عندي درجة وظيفية، أنا ابن فلان، أنا ذو نسب، أنا ذو علم، لا يا عبد الله انتبه!

القضية ليست بالذكاء، وليست بالجاه، وليست بالدراسة، القضية إنما هي بتجنيب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي يُجنبك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذًا الجأ إلى الله وأصْدُق مع الله حتى يوفقك إلى أن تجتنب الشرك، قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾[إبراهيم:٣٥].

ثم علل ذلك عَلَيْهِالسَّلَامُ قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾[إبراهيم:٣٦]، يذكر عَلَيْهِالسَّلَامُ سبب الخوف من الشرك، وهو أنه شيء خطير لأنه منتشر، وكلما كان الداءُ منتشرًا كلما كان أخطر؟ لأنَّ الإصابة به الاحتمال بها أكبر، احتمال أن تُصاب، لأنَّ الأمر خطير ومنتشر.

الناس اليوم إذا وقع وباءٌ في الأرض، أصابهم المقيم المقعد، استُنفرت الجهود والطاقات، وتبذل الدول والأفراد والمنظمات الغالي والرخيص في سبيل دفع هذا الوباء، أليس كذلك؟ يعني انفلونزا الطيور، ولا انفلونزا الخنازير، ولا إيبولا، ولا هذا الوباء الذي ظهر قريبا حمى زيكا أو ماذا يقولون.

تجد أن الناس ترتعد فرائصها خوفًا من نزول هذا الوباء بساحتها، أين هذه الأوبئة من أعظم وباء، وهو الشرك بالله جَلَّوَعَلَا؟ الحرص على السلامة من هذه الأوبئة الدنيوية حسن، ولكن الحرص على السلامة من الوباء الأعظم أحسن، وأولى وأوجب.

إذن على الإنسان أن يحذر، وإذا كان الوقوع في الضلال ضلال الشرك كثيرًا قديما فاستحق أن يُخاف، فإنه لَعَمْرِّي في هذا الزمان ينبغي أن يُخاف أكثر، وذلك أن الشُبه التي تُحسِّن الشرك وتقربه إلى النفوس، أضحت أقرب من السابق بكثير، تُقذف على الناس من الفضاء، أو تصطادهم من خلال الشبكة، مواقع شبكية، وقنواتٌ فضائية، وكتبٌ، ومجلاتٌ، وإذاعات، ووسائل تواصل، وحدَّث ولا حرج من سلسلةٍ طويلة تبث وتقذف الشبه -نسأل الله السلامة والعافية-.

المقام والله في هذا الزمان عظيم، وصدق النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حينما قال: **«لا تقوم الساعة حتى تشرك قبائل من أمتي، -أو قال- حتى تعبد قبائل من أمتي الأصنام»**، والله إن هذا كلام صادق قاله رسول الله حقًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أمرٌ واقع، وأضحى مشاهد بالعيان -نسأل الله السلامة والعافية- صدق النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حينما قال كما خرج الإمام مسلم رَحِمَهُٱللَّهُ: **«بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا»**، إنا لله وإنا إليه راجعون.

أو «يمسي مؤمنا ويصبح كافرا» مقام خطير، في خلال ساعات، خلال ساعات يمكن تأتي شبه تُقذف في النفس، يقرأها في تويتر أو في فيس بوك، أو تصل عن طريق الواتس آب، أو يطلع على حلقة في برنامج في الفضائيات فتفعل في قلبه الأفاعيل، هذا والله نشاهده يا إخواني مشاهدة بالعيان، ومن يعرف الواقع يعرف شيئًا كثيرًا من ذلك وحرِّك ترى، المقام مقام مخوف جدًا، ينبغي على الإنسان أن يبتهل إلى الله بصدق، أن يثبته على الدين والتوحيد، وأن يجنبه عبادة الأصنام، وأن يخاف ويحذر، إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يخاف من الشرك، الصحابة يخافون على أنفسهم النفاق الأكبر، ومن الناس من يضع رجلًا على رجل، ويقول هذا شيء بعيدٌ عني! سبحان الله العظيم!

في كتاب ((كشف الشبهات)) ذكر إمام التوحيد رحمه الله فائدة لطيفة، قال إمام الدعوة رَحِمَهُ اللَّهُ عند حديث ذات أنواط قال: وفي هذا الحديث: (أن المسلم، بل العالم – ضع خطًا عند كلمة العالم–، أنَّ المسلم بل العالم قد يقع في أنواع من الشرك، وهو لا يعلمها فيفيد التعلم والتحرز، وأن قول الجُهَّال (التوحيد فهمناه) من أعظم الجهل ومكائد الشيطان)، نعم بعض الناس يقول: إيش التوحيد؟ التوحيد كله كلمتين، عشر دقائق تعرف التوحيد وينتهي الأمر، وبالتالي فلا حاجة إلى تكرار الكلام في هذه القضية.

ولذلك تجد هؤلاء باردين لهذا الموضوع كأن الأمر ليس فيه خطورة، كأن الأمر لا يعنيه، مع أن المقام مقام عظيم جدًا والله، لأن الإنسان لو لقي الله بأي ذنب، فهو على سبيل نجاة، والله إنك لو لقيت الله جَلَّ وَعَلَا ولم تقع في هذا الوباء العظيم، فأنت ناجٍ قطعًا بتوفيق الله ورحمته، لأنَّ هذا وعد الله: «لو لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا للقيتك بقرابها مغفرة»، وإن أصاب الإنسان ما أصاب قبل ذلك إن لم يعفُ الله عنه فمآله إلى الجنة، ومآله إلى السعادة، ومآله إلى رحمة الله جَلَّ وَعَلَا لكن المصيبة كل المصيبة أن يموت الإنسان على هذا الشرك، –نسأل الله السلامة والعافية–.

والعجيب أن شُبَه الشرك خطيرة، الشرك أوضح الأمور وأجلاها عند العالم به، لكنه خفيٌّ ودقيق عند الجاهل الذي لا يبالي، ولذلك كم من الناس يصبح ويمسي وهو يصلي ويصوم ويردد لا إله إلا الله، ربما تكون له سبحه فيها ألف حبة يسبح لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، ولكن لا إله إلا الله لا تُجاوز لسانه، يقع في ضدها في كل وقت وفي كل حين،

ودونك هذه المشاهد، ودونك هذه القبور، ودونك هذه الأضرحة، ودونك هذه القصائد، ودونك أشياء كثيرة تدلك على أنَّ هذا الشرك واقعٌ ويقع من أناس يظنون أنفسهم على خير، فحذاري يا عبد الله احذر! والجأ إلى الله بصدق:

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾[إبراهيم:٣٦]، يعني على ملتي، وملته هي التي أمرنا الله بإتباعها.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[النحل:١٢٣]، ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[آل عمران:٩٥]، ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾[البقرة:١٣٠].

ثم قال جَلَّوَعَلَا عنه: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[إبراهيم:٣٦].

هنا بحث عند أهل العلم قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قد يحصل إشكالٌ في فهمه من جهة أنَّه قد يُشعِر بأنَّ الشركَ قد يُغفر ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، كأنه يدعو الله بأنه يغفر له هذا الشرك، وقد علمنا أن الله لا يغفر أن يشرك به.

واختلف العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في توجيه هذه الآية:

[التوجيه الأول]: إن مغفرة الشرك كانت واقعة في الأمم السابقة، ولكنَّ هذا لا شك أنه غلط، فالشرك لا يُغفر في القديم ولا في الحديث، وكيف يُقال إنه لا يُغفر لهذه الأمة التي هي خير الأمم وأفضلها عند الله، ويغفر لمن هو دونها، فهذا لا يمكن أن يقال به.

[التوجيه الثاني]: إنه قال هذا الدعاء عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قبل أن يعلم أن الشرك لا يُغفر، وهذا أيضًا فيه من البعد ما فيه.

التوجيه الثالث: قالوا إن قوله ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ ما دون الشرك، ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

التوجيه الرابع: وهو ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ ، فأشرك ثم تاب ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

.

التوجيه الخامس: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ فأشرك، فأرحمه يا الله بأن توفقه للتوحيد، ثم اغفر له شركه، ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ويبقى أخيرا سؤال، وهو هل استُجيب لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾؟

أما في حقه: فنعم قطعاً.

وأما في بنيه: فهل استجيب فيهم هذا الدعاء أم لا؟ الذي يظهر والله أعلم أنه إن كان المراد بنيه يعني من صلبه، فنعم ما أشركوا بالله بل جعلهم الله أنبياء ومرسلين.

أما إن كان المراد بنيه وبنيهم: يعني ذريتهم القريبين فما بعد فاستجيب له في بعض، ولم يُستجب له في بعض كما قال جَلَّ وَعَلَا ومن ذريتهما هو وإسحاق: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾[الصافات:١١٣]، والله جَلَّ وَعَلَا أعلم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفي الحديث «أخوف ما أخاف الله عليكم الشرك الأصغر، فَسُئِل عنه. فقال: الرياء»

هذا حديث محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو حديث حسن، حسنه الحافظ ابن حجر، وجوَّد إسناده المنذري وغيره، وخرجه الإمام أحمد وغيره.

وفيه: أن الشرك الأصغر أخوف ما خافه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أصحابه، وإذا كان الشرك الأصغر مخوفًا على الصحابة الذين هم أعظم الناس إيمانًا وتوحيدًا، فإن من بعدهم يخاف عليهم من الشرك الأصغر والأكبر؛ لأنهم لا يقارنون بالصحابة في الإيمان والتوحيد، ولأجل هذا أورد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث، الصحابة يخاف عليهم الشرك الأصغر، ونحن يخاف علينا الأصغر والأكبر أيضًا.

ويشهد لهذا الحديث ما خرَّج الإمام أحمد وابن ماجه وغيرهم بإسناد لا بأس به، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأصحابه: **«ألا أخبركم بما هو أخوف عندي عليكم من المسيح الدجال»** -المسيح الدجال أكبر فتنه منذ خلق الله آدم وإلى قيام الساعة، ومع ذلك هذا الأمر أخوف عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصحابة من المسيح الدجال- **قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الشرك الخفي أن يقوم الرجل فيصلي ويزين صلاته لما يرى من نظر رجل»**.

إذن الرياء وصفه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالشرك الأصغر، ووصفه بالشرك الخفي، ووصفه أيضا بشرك السرائر، وهذا يدلك على خطورته حتى خافه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ولا شك أن الرياء أمر مخوف لقربه إلى النفوس، ولأن له ما يزينه، ولأن له دقائق قد يغفل الإنسان عنها، النفوس مجبولة على حب المدح والثناء والرِفعة في أعين الناس، وهذا من الأمور التي يجب أن يجاهد الإنسان فيها نفسه.

وعلى كل حال موضوع الرياء عقد فيه أو عقد المؤلف له بابًا خاصًا، ونؤجل كلام فيه إلى ذاك الوقت، لكن هو الذي يهمني هنا أن تعرف الفروق بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر.

الشرك الأكبر والأصغر هذان الشركان بينهما فروق:

أولاً: الشرك الأكبر: محبط لجميع الأعمال.

وأما الشرك الأصغر: كالرياء فمحبط لما قارنه فقط من الأعمال.

ثانيا: أن الشرك الأكبر: يخلد صاحبه في النار، -نسأل الله السلامة والعافية-.

والشرك الأصغر ليس كذلك.

[ثالثًا]: أن الشرك الأكبر مُخرِجٌ من الملة.

وأما الشرك الأصغر فلا يخرج من الملة.

[رابعًا]: مبني على الخلاف في هل يغفر الشرك الأصغر أم لا؟ فإذا قلنا إنه يغفر أي أنه حكمه كالكبائر فيكون فرقاً رابعا، وإن قلنا إنه لا يغفر، فلا يكون هناك فرق بينه وبين الأكبر في هذا المقام والله أعلم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من مات وهو يدعو لله ندًا؛ دخل النار» رواه البخاري.

حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرجه الإمام البخاري في ((صحيحه))، وفيه بَيَّنَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن من مات وهو يدعو من دون الله ندًا؛ يعني: مثيلًا وشريكًا يدعوه كما يدعوا الله، فإنه يدخل النار ودخوله كما دلت الأدلة عليه دخول مؤبد لا شك في ذلك ولا

ريب، وتتمة هذا الحديث، هي أن قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **(وأنا أقول من مات وهو لا يدعو من دون الله ندا دخل الجنة)**.

فابشر يا أيها الموحد، واحذر يا أيها الموحد، إن مت وأنت لا تدعوا من دون الله أحدا، فأبشر بالخير أنت موعود بجنة أرحم الراحمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، واحذر فإنك إن وقعت في الشرك، وأعظم الشرك دعاء غير الله، فأعلم أنَّ هذا يُخلِد صاحبه في النار، -نسأل الله السلامة والعافية- إذًا هذا مما يقتضي الخوف.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولمسلم عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال «من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئا دخل النار».

الشاهد من الحديث هو في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ومن لقيه يشرك به شيئا دخل النار**» وهذا يؤيد ويؤكد الحديث السابق، ويؤيد ما سبق من الكلام، من أن الشرك مقتضٍ لأعظم عقوبة، وبالتالي كان حريًّا أن يُخاف من أهل التوحيد.

أما شطره الأول: فإن المراد أن من مات لا يشرك بالله شيئًا مع إتيانه بالتوحيد، لأننا قلنا إن عدم الشرك يستدعي وجود التوحيد، يعني لا يشرك بالله شيئًا ويوحد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد مر بنا توضيح ما المعنى الصواب في مثل هذا النص، مر بنا في الأدلة التي أوردها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ لما تكلم عن فضل التوحيد، وقلنا إن من مات موحدًا لا يشرك بالله شيئًا فهو من أهل الجنة قطعًا برحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكن قد يكون دخوله لها دخولًا أوليًا، وقد يكون دخولًا مآليًا بحسب مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

٧

٧- باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

(المجلس الأول)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ
باب
الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

هذا بابٌ عظيم، عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لشحذ الهمة لأجل الدعوة إلى التوحيد، ووضع هذا الباب في هذا الموضع من حِذْقِ الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ فأنه بعد أن بيَّن ما هو التوحيد، وما فضله، وما فضل تحقيقه، وأهمية الخوف من ضده، استعدت النفوس للقيام بالواجب عليها تجاه هذا التوحيد، وهو الدعوة إليه، فإنَّ الدعوة إلى التوحيد من آثار تحقيقه ومن شُكْرِ هذه النعمة، الدعوة إلى التوحيد تجمع بين كونها أثرًا من آثار تحقيق التوحيد، وبين كونها بعض شكر الله جَلَّوَعَلَا على هذه النعمة العظيمة.

أما كون تحقيق التوحيد مؤثرًا في النشاط والهمة في الدعوة إليه، فوجهه:

أن تحقيق التوحيد يقتضي اعتقاد المسلم أن الله جَلَّوَعَلَا أهلٌ أن يُوحد فلا يُشرك به، وأن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر، ولأجل هذا فإنه يعظم حق الله عَزَّوَجَلَّ في نفسه، ويقتضي لنفسه وماله وكلِّ ما يملك في سبيل أن يُوحد الله جَلَّوَعَلَا في أرضه، وما أحسن ما قال زهير بن نعيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأخرج ذلك صاحبُ الحلية، قال: **«وددت أن لحمي قُرِض بالمقاريض، وأن الناس أطاعوا الله»**، ليس عنده مانع أن تُقطعَ أجزاءه وأوصاله إذا كان في ذلك أن يطيع الناس ربهم جَلَّوَعَلَا ولا يعصوه.

هذه هي النفوس التي عرفت قدر التوحيد وحققته وعظمت الله حق تعظيمه.

ثم إن الدعوة إلى التوحيد أيضًا من شكر الله جَلَّوَعَلَا على هذه النعمة وأي نعمة أعظم من نعمة التوحيد، الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[الضحى:١١]، نعمة عظيمة يجب أن يُحدث بها الإنسان، قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الآية: أي بالنبوة، يعني بلغ ما أُرسلت به يا نبينا، فإن هذا أداء نعمة الله جَلَّوَعَلَا عليك، والخطاب موجه للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، والحكم له ولأمته صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[التكاثر:٨]، وهذا التوحيد أعظم نعيم.

إذًا من كان مُوحدًا حقًا وصدقًا، فإن قلبه مُعظمًا لله جَلَّوَعَلَا ونفسه مليئة بالغيرة على دين الله جَلَّوَعَلَا وحقه أن يمتعك، إذا فإنه يسعى السعي الحثيث، في أن ينشر الخير وينتشر التوحيد ويندحر ضده ، ألا وهو الشرك به وكذلك معصيته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

الدعوة إلى الله من أعظم الواجبات، وتكرر في كتاب الله الأمر بها: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾[القصص:٨٧]، ولاشك أن الدعوة إلى الله جَلَّوَعَلَا فرض كفاية، يجب أن يكون في الأمة من ينهض بهذا الواجب، وأما إذا قصَّر الجميع فالكل آثم، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في ((مجموع الفتاوى)): (وأعظم ما عُبِدَ الله به نصيحةُ خلقه).

وشاهد هذا في سنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قوله كما في ((الصحيح)): «الدين النصيحة»، فجمع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الدين في هذه الكلمة قبل النصيحة، وإذا كانت الدعوة إلى الله جَلَّوَعَلَا في كل أبواب الخير شيئًا مطلوبًا ومأمورًا به، فلاشك أنها إذا تعلقت بأعظمِ الأمور وهو التوحيد، كانت أهم وأوجب، وإذا كانت الدعوة إلى التوحيد أسمى وأساس ولبَّ دعوات الأنبياء جميعًا عليهم الصلاة والسلام، فأعظم ما دعا الأنبياء إليه هو التوحيد، وأكبر ما دعا إليه الأنبياء هو التوحيد، وأول ما دعا إليه الأنبياء هو التوحيد، التوحيد هو الأول، التوحيد هو الأولى، التوحيد هو الأكبر، التوحيد هو الأعظم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦]، ونبينا محمدٌ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أعظمُ الأنبياء والمرسلين قيامًا بهذا الواجب، فإذا كانت سبيله الدعوة إلى الله على بصيرة، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[يوسف:١٠٨].

فمن كان صادقًا في اتباع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فعليه أن ينحو منحاه، وأن ينهج سبيله، وأن يَجِّدَ فيما كان مُجِّدًا فيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو الدعوة إلى الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لا سيما الدعوة إلى التوحيد، ولا سيما التحذير من ضده، وإذا كانت الدعوة إلى التوحيد أمرًا متحتمًا لا خيار فيه في كل زمان وفي كل مكان، فإنها في هذا الزمان الذي نعيش فيه وهو آخر الزمان، وهو زمان الغربة، لا شك أنه في هذا الزمان آكد، ولا شك أنه في هذا الزمان أوجب، وذلك لعظيم الخلل الواقع في عا لم المسلمين اليوم مع الأسف الشديد.

الحق أن الانحرافات العقيدية قد ضربت بجذورها في عالم المسلمين اليوم مع الأسف الشديد، على أن الدعوة إلى التوحيد لا ينبغي أن تكون مقصورة في حقِّ ما كان عنده خلل في التوحيد، بل حتى الموحدون ينبغي أن يُدّعوا إلى التوحيد، وأن يُذَّكروا بالتوحيد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[النساء:١٣٦]، وذلك لأنه من أسباب الثبات على التوحيد، الدعوة إليه والتذكير به، وهذا مسلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففي الصحيحين من حديث عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مجلس، فقال: «**بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئًا**»، سبحان الله!

أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم الناس توحيدًا، وأقْوَمُهم بهذا الواجب، وأبعد الناس عن الشرك، ومع ذلك يبايعهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أن يوحدوا الله، وعلى ألا يشركوا به شيئًا!

في صحيح مسلم من حديث أوس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**كنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ألا تبايعون رسول الله؟ وكانوا حدثاء عهدٍ ببيعة، فقالوا: قد بايعناك يا رسول الله، فكرر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكرروا جوابهم، حتى بسطوا أيديهم، وقالوا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلى أي شيء نبايعك؟ قال: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة ...**» إلى آخر الحديث.

الشاهد أن الدعوة إلى التوحيد والنصيحة به والتذكير به، ليست مقصورة على من كان عنده خلل في التوحيد، فكيف وكثير ممن ينتسب إلى الإسلام في بقاع شتى، قد وقعوا في كثير من القوادح، بل النواقض في هذا التوحيد، فمن كان بصيرًا بحال الناس، علم صدق ما أقول.

كم هؤلاء الذين يشركون بالله جَلَّ وَعَلَا بأنواع الشرك، كم الذين يذبحون لغير الله، يُسَّمِنُ ذبيحته السنة كلها، حتى إذا جاء موعد مولد الشيخ والسيد، قَدَّمُه قربانًا بفعل لا يفعله فيما يقربه لله جَلَّ وَعَلَا يوم العيد، كم الذين يدعون غير الله يهتفون بأسماء أموت تقطَّعت أوصالهم وتحللت أجسامهم، وينسون الحي الذي لا يموت سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يهتفون

ويضْرعون ويصيحون بأسماء الأولياء والأنبياء والملائكة، كم الذين يهتفون ويقولون: ما سامني الدهر ضيمًا...، يخاطب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ما سامني الدهر ضيمًا واستجرت به   إلا ونلت جوارًا منه لم يُضم

كم الذين يقولون: "يا سيدي فلان، المدد، المدد، أغثني"، كثير مع الأسف الشديد، الميت الذي في قبره أعظم في قلبه من رب العالمين، يعظمه ويرجوه ويظن فيه أحسن الظن، ويظن فيه ما لا يظنه في رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ذكر صاحب تفسير المنار في الجزء التاسع من تفسيره، أنه سمع امرأة تصيح تقول: "يا متبولي.. يا متبولي"، تدعو وليًا من الأولياء، يقول فانتظرت حتى هدأت روعها، ثم قلت لها: "لماذا تدعين متبولي، ولا تدعين رب العالمين؟"، فقالت بلهجتها العامية: "المتبولي ميستناش"، المتبولي لا ينتظر، يسارع إلى إجابة الدعاء، أما الله جَلَّ وَعَلَا في ظنها، انظر إلى هذا الظن، ظن السوء الذي ظنته بالله رب العالمين العظيم الملك من بيده ملكوت كل شيء، الذي يجيب دعوة المضطر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هو الحي لا إله إلا هو، لكن قلب هذه وكثير من أمثالها مع الأسف الشديد، تعلق بالمخلوقين، بل تعلق بالأموات، إنا لله وإنا إليه راجعون.

كم في عالم المسلمين اليوم من يطوف بالقبور وينحني لها ويذل ويخضع ويسكن ويعْكُف، وإذا قيل له احلف بالله، فإنه يحلف بالله كذبًا، أما عند السيد وعند ضريحه، لا يستطيع أن يحلف باسم السيد كاذبًا البتة، لعظمته في قلبه ولخشيته منه.

كم الذين يدعون علم الغيب أي يسعون إلى معرفة الغيب؛ بقراءة الفنجان، أو قراءة الكف، أو الضرب بالحصى، أو ما شاكل ذلك.

كم الذين يذهبون إلى السحرة فيطلبون منهم أن يسحروا؛ لربط، أو لأذية، أو لصرف، أو لعطف.

كم الذين يقعون في مَهْيع خطير يُودِي بدينهم -والعياذ بالله- حينما يستهزئون بدين الله أو يسبون الدين -والعياذ بالله-، أو يسخرون من شريعة وسنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو يصفونه بصريح القول أو برمزه بأنه دين فيه ما فيه من الوحشية، وفيه من الظلم، فيما يتعلق بالمرأة، أو فيما يتعلق بغيرها.

كم وكم أولئك الذين يعلقون التمائم أو يستعملون الرقى الشركية، كم الذين يحلفون بغير الله، كم الذين يتوسلون توسلًا بدعيًا، كم الذين يفعلون سلسلة طويلة لا تنتهي من البدع العقدية والبدع العملية،

بل إن الانكباب على المعاصي والإدمان على هذه الموبقات، لا شك أنه من ضعف التوحيد، فلو عَظُمَ خوف الله، ولو عَظُمَ رجاء الله، ولو عَظُمَتْ محبة الله، ما حصل الإصرار على المعاصي.

إذًا من عرف الواقع أدرك أن الدعوة إلى التوحيد في هذا الزمان من أهم المهمات، ومن أوجب الواجبات، فكيف إذا ضم إلى هذا أن أسباب القدح والنقص والنقض للتوحيد، أصبحت مع الأسف الشديد قريبة من الناس، فقد أطبقت على الناس الأطباق، واصطادتهم الشبكة، وأصبحت أضداد التوحيد شيئًا قريبَ المأخذ، سريعًا إلى الناس مع الأسف الشديد، في داخل بيتوهم، بل وفي غرف نومهم، ربما يسمعُ الإنسان أو يرى أن يقرأ شيئًا يكون سببًا في انقلاب قلبه –عياذًا بالله–.

ولقد والله تحقق قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو الصادق المصدوق، فيما خرَّج الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ‹‹**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**››، يصبح مسلم لكنه يشاهد أو يطالع مقطعًا أو يقرأ تغريدة، فيقع في قلبه شبهة لا تزول حتى تُرْدِيه –والعياذ بالله–، فمَعَ الأسف الشديد كثيرٌ من هذه الفضاءات التي أُدْخِمَ بها الفضاء، لا شك أنَّها تبث شرًا كثيرًا؛ هذه القناة تخصصت في بث الإلحاد، أو في تحسين نظرية التطور، وتلك قناة تخصصت في تحسين وتزيين التنصير ودين النصارى، وتلك قناة تخصصت في قدح في الشريعة بأساليب غاية في الخبث والدهاء، وتلك قناة تخصصت في الشعوذة قناة يسمونها روحانية، يقوم عليها أناس روحانيون كما يزعمون، يبيعون مع الأسف الشديد باتصالاتهم دينهم بَعَرَضٍ قليل مع الأسف الشديد، وناهيك عن قنوات كثيرة تدعو إلى الانحلال الأخلاقي الذي قد يكون وسيلةً للانحلال العقدي.

وأما صفحات ومواقع الشبكة التي هي بالملايين ففيها خير قليل، وفيها شر أكثر من ذلك بكثير، حدِّث ولا حرج عن تلك الصفحات التي تدعو إلى الشرك، والكفر، والإلحاد،

والتنصير، والبدع، والخرافة، والطعن في أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والطعن في سنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وانسلاخ الإنسان من كل فضيلة -والعياذ بالله-.

إذًا مع انتشار هذا الأمر الذي لم يكن موجودًا في السابق، لا شك أنه أصبحت الدعوة إلى التوحيد أعظمَ وأوجب وأهم وأولى.

أضف إلى هذا نشاط ملل الكفر في السعي في إخراج الناس من دينهم أو تغيير دينهم في نفوسهم، هم يسعون إلى تحقيق أحد هذين، إمَّا أن يخرجوا الناس من دين الله جَلَّ وَعَلَا، ويبذلون في هذا الغالي والرخيص، يسعون السعي الحثيث بكل طريق وبكل وسيلة، ليخرجوا الناس من دين الله جَلَّ وَعَلَا، أي أن يغيروا مفاهيم الدين وعقائده وتصوراته في نفوس الناس، حتى ينسلخوا من الدين الحق الذي جاء به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى يكون دينهم ذا عقيدة باهتة، لا لون لها ولا رائحة ولا طعم، هذا الذي يسعون إليه ويجندون الجنود ويمكرون المكر الكبار، والله جَلَّ وَعَلَا نسأله أن يبطل كيدهم.

أضف إلى هذا نشاطًا غير مسبوق لأهل البدع والضلال، أهل الخرافة وأهل الشرك وأهل محاربة السنة وأهلها، حتى أصبحوا يطؤون أماكن ما كان لهم فيها موطئ قدم، تأثر بهم فئامٌ كُثُر مع الأسف الشديد، وأصبح لهم خطواتهم الفضائية وجامعاتهم ومعاهدهم العلمية، مراكزهم البحثية، ومصنفاتهم ومجلاتهم الورقية والإلكترونية، مبيعات وبعثات ومراكز ثقافية، ومكتبات عامة في أقطار شتى مع الأسف الشديد، يسعون بأيديهم وأرجلهم لإخراج أهل الإسلام الصافي وأهل سنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا الحق الذي هم عليه، فنجحوا في أماكن ونجحوا مع أناس للأسف الشديد.

وأضف إلى هذا أمرًا أيضًا وهو تقصيرٌ كبير من جماعات وأحزاب ومن أفراد، قَصَّرُوا كثيرًا في الدعوة إلى التوحيد، هذا إن سلموا من الوقوع في ضدّه أو من التحويل منه، فتجدهم يتحاشون الدعوة إلى التوحيد، حفاظًا فيما يزعمون على جمع الكلمة وعدم انصراف الناس، يحرصون على التجميع وعلى التكتيل، ولو كان هذا الاجتماع على غير ما يحب الله وعلى غير سنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك تجد بعض وسائل الإعلام التي تزعم أنَّها تدعو إلى الإسلام، فضائيات متخصصة في بثِّ الفكر العقلاني، الذي يُقدِّمُ العقل على النقد، أو فضائيات تُحسِّن الوثنية،

وتريدُ أن تعيد الناس إلى دين أبي لهب وأبي جهل، تعليقهم بالأموات، تزين لهم دعاء غير الله والذبح والنذر لسواه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فإذا جمعت هذا كله تبين لك يا أيها الموحد أنَّ المقام مقام عظيم وأن المهمة كُبْرى، فإنه لمن الخذلان أن يجلس الموحد ولاسيما وإن كان من طلاب العلم أن يجلس على طرف، وهو يرى الخير والشر يصطرعان وتتنادى الأقران، ودين الله جَلَّوَعَلَا يُسْعَى في طَمْسِّ أنواره ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره﴾ وهو جالس لا يتحرك، مع الأسف الشديد، فيه برودة قلب لا ينهض ولا يشمر ولا يغار على دين الله جَلَّوَعَلَا.

فلتعلم يا عبد الله أنك إلى الدعوة وإلى دين الله أحوج منها إليك، إذا كنت تظن أنك ستدعو لأن الدعوة بحاجة إليك، فالنصيحة أن تجلس ولا تصنع شيئًا، فدين الله منصور بك وبغيرك، نحن لا نشك في هذا البتة، دين الله عَزَّوَجَلَّ منصور، إنما عليك أن تدعو إلى الله لأنك أنت بحاجة إلى الدعوة، أنت بحاجة لأن تقوم بالواجب الملقى على عاتقك، أنت بحاجة إلى فضل الله عَزَّوَجَلَّ وثوابه، فهذا كله يدعونا إلى أن نشمر عن ساعد الجد في الدعوة إلى التوحيد، والواقع والله أنه لأكبر مما ذكرت بكثير، ولكن هذه نبذه لعلها تشحذُ الهمم، وإذا كنت من دعاة التوحيد، فإني أوصيك بخمسة أمور، **هي مُهِمَاتٌ خمس احفظها**:

أن تكون عليمًا، وأن تكون رحيمًا، وأن تكون حكيمًا، وأن تكون كريمًا، وأن تكون سليمًا، خمس مهمات للدعاة، انتبه لها.

أولًا: أن تكون عليمًا، إذا أردت أن تكون داعية إلى التوحيد، فعليك أولًا أن تعرف التوحيد، فإن فاقد الشيء لا يعطيه، كيف تدعو إلى التوحيد وأنت تجهله؟ كيف تحذر من الشرك وأنت لا تعلم تفاصيله؟

إذًا ابدأ بنفسك أيها الموفق، ابدأ بنفسك، والله جَلَّوَعَلَا يقول: **﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[القصص:٨٧]**، **﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ﴾[الرعد:٣٦]**، ثم قال: **﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾[الرعد:٣٦]**.

إذن أولًا يتحقق الإنسان ويتشبع بالتوحيد، ثم بعد ذلك ينطلق داعية إلى التوحيد، وذلك يعني أن يكون لك جُهْدٌ في التعلم والحفظ والدعاء والاستماع، فإذا كانت العلوم كلها شيئًا مهمًا لك يا طالب العلم، فإن علم التوحيد هو الأهم، وهو الأولى وهو الأعظم، حتى

لو تخصصك الدراسي شيء غير، فإن التوحيد شيء لا يقبل المنافسة، خصص له الوقت الأكبر، وخصص له المساحة الأهم في طريق دراستك وطلبك للعلم.

ثانيًا: أن تكون رحيمًا، الرحمة أساس الدعوة ومنطلقها، الذي يدعوك لكي تدعو وأنَّ في قلبك رحمة، تريد أن الناس تُنْقذ من عذاب الله، تريد أن الناس تفوز برحمة الله، داعية التوحيد ينبغي أن يجعل نصب عينيه، أن يجعل شعاره: **«اللهم اهد دوسًا وائت بهم»**، حديثٌ في ((الصحيحين))، لما أعرضت قبيلة دوس أول مرة، لما عُرِضَ التوحيد عليها، أعرضت، كان دعاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرحيم: قال: **«اللهم اهد دوسًا وائت بهم»**.

إذًا هذه الرحمة هي التي ينبغي أن تكون في نفسك لكي تكون داعية موفقًا إلى التوحيد، ولأجل هذا فإن على الإنسان أن يترفق، فلما بعث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ركب التوحيد ودعاة التوحيد مُعاذًا وأبا موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا إلى اليمن -كما سيأتي معنا في الباب- قال كما في ((الصحيحين)): **«بشرا ولا تنفرا»**، رحمة بالقلب تدعو إلى أن يترفق الإنسان وأن يكون حريصًا على أن تهتدي القلوب.

ليست الدعوة هي شيئًا تحمله على ظهرك، ثم غاية الأمر أن تلقيه عن ظهرك وتستريح، إنما هي شيء آخر، حرص واهتمام ورغبة بأن يهدي الله جَلَّ وَعَلَا هذا المدعو، حتى ولو كان مُخالفًا، بل حتى ولو كان كافرًا بالله، ينبغي على الإنسان أن يكون عنده رحمة ولأجل هذا يدعوه، ومعلومٌ ما قرره أهل العلم من أن نظر المسلم إلى المخالفين يكون بعينين:

الأولى: ينظر بها النظر الشرعي، فيعامل المخالف بما يستحق من محبة أو بغض أو هجر أو زجر، وذلك أن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله.

العين الأخرى: ينظر بها النظر القدري، وبالتالي فإنه يرحمهم إذا رآهم كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في آخر ((الحموية)): (إذا رآهم الحيرة تستولي على قلوبهم، أوتوا علومًا وما أوتوا فهوما، وأوتوا ذكاءً وما أوتوا زكاءً، ورآهم على هذه الحال فإنه يرحمهم، ويسعى في استنقاذهم قدر استطاعته).

ثالثًا: أن يكون حكيمًا، لابد من الحكمة ولا بد من الفقه في تفاصيل الدعوة، وهذا بابٌ واسع، من لم يكن حكيمًا في دعوته، ربما أفسد أكثر مما يصلح، فعليك بالتؤدة والرفق والعقل، ما أحسنها وما أجملها تلك الدعوة الصدَّاعة بالحق، التي تبين بالحق دون تردد ودون

إحجام ولكنها مع ذلك تتحلى بالعقل، تتحلى بالحكمة وتتحلى بالرفق، الرفق ما كان في شيء إلا زانه، وما نزع من شأن إلا شانه، من أعطى حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير، فمن الحكمة أن تكون دعوتك بأسلوب سهل، لا معقد، بلغة مفهومة، لا غامضة، وأسلوب مُحَبِب لا منفر، أن تعرف أنواع المدعوين وبالتالي تعامل كل صنف بما يناسبه.

لا تظن أن الطريق مفروش بالورود، وأن الناس سيستقبلونك على أعناقهم إذا جئتهم داعيًا إلى التوحيد، الأمر ليس كذلك قد يكون هناك مشقة، قد يكون هناك صعوبة، قد يكون هناك معارضة، ستجد الصعب وستجد السهل، ستجد القريب وستجد البعيد، وستجد محب الخير وستجد المعاند، فأعطِّ كل واحد من هؤلاء ما يستحق من الأسلوب والكلام المناسب.

من الحكمة أيضًا أن تسلك أفضل سبيل يوصل إلى تحصيل الخير، فتنتقي أفضل العناوين، توزع أفضل ما يكون من الكتب، تنهج كل سبيل لا محظور شرعية فيه، في سبيل إيصال الناس إلى الخير، تقتنص الفرص، تقتنص الأوقات، احرص على أن تعلم الناس التوحيد بكل طريق من خلال القصص النبوي وقصص الأنبياء، من خلال السيرة، من خلال آثار السلف، بكل سبيل، وثق أنك إذا كان أمر التوحيد يشغل بالك أنك ستوفق: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت:٦٩]، عليك يا أيها الداعي إلى التوحيد، أن تكون حكيمًا في دعوتك.

[رابعًا]: **أن تكون كريمًا**، وذلك أنَّ الدعوة إنما ينهضُ بها رجال، يتحملون المسئولية ويعلمون عِظَمَهَا، فلأجل هذا فإنهم يسترخصون كلَّ شيء في سبيل القيام بها، يبذلون أموالهم، يبذلون جهدهم ووقتهم، يبذلون كل شيء في سبيل الدعوة إلى التوحيد.

أما هذا الذي يعطي الدعوة فضول وقته وفضول اهتماماته، إذا كنت فارغًا، إذا فرغت من الأولاد والعمل والبيت، هنا يتصدق على الدعوة ويعطيها النُتَش من الوقت والاهتمام والجهد، مثل هذا فإنه إن أفاد فإن فائدته قليلة، الدعوة إلى التوحيد تستحق أن تبذل لها وأن تكون كريمًا في كل شيء، في وقتك، في جهدك، على سبيل راحتك، على سبيل أشياء في حياتك، بهذا تكون داعية إلى التوحيد حقًا، لابد أن تكون كريمًا.

وأخيرًا: أن تكون سليمًا، سليم القلب: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الصافات:٨٤]، هذا إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إمام الموحدين، داعية التوحيد عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، الذي أُمِرتَ يا عبد الله باقتفاء سبيله، وذلك بأن تخلص القصد والنية لله جَلَّ وَعَلَا.

سبحان الله! كيف يجتمع أن تكون داعية للتوحيد وأنت واقع في الشرك، يرائي! أمران عجيبان كيف يجتمعان؟

إن كنت داعية للتوحيد، ابدأ بتصفية النية، تحسين القصد، ادع إلى الله، لا إلى نفسك، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾[يوسف:١٠٨]، وتحتاج إلى حضوض النفس، واحذر من الحسد، المقصود أن يهتدي الناس، أن يصل الخلق إلى الحق ليس أن يشار إليك بالبنان، وأنك إذا دخلت المجالس أُكرمت وصُدِّرت وأشير إليك بأنك الشيخ والداعية.

المقصود هو أن يهتدي الناس على يديك، أو على يد أخيك، إنك لا تبالي، المقصود أن تحصل الهداية، عُرِفت أو لم تُعرف، الأمر عندك سيان، بل أن تكون غير معروف أحب إليك، لا تحرص على الشهرة، ولا تحرص كما يقولون عن الرصيد الجماهيري، أنت داعية إلى التوحيد، قلبك سليم، معلق بالله جَلَّ وَعَلَا ترجو الله ولا ترجو سواه، بهذا تكون دعوتك مثمرة.

وبالتالي إذا كان قَلْبُك سليمًا سلم من حظوظ النفس وشوائبها، فإنك ستكون جامعًا لا مُفرقًا، دعاة التوحيد يجب أن تتوحد كلمتهم على كلمة التوحيد، أما أن يتفرقوا فإنهم ينبغي أن يعلموا أن تفرقهم يعني قوة أعدائهم وأن تنازعهم يعني ضعف دعوتهم.

وشاهد هذا في كتاب الله: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[الأنفال:٤٦]، لما بعث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ دعاة التوحيد إلى اليمن معاذًا وأبا موسى قال لهم: (تطاوعا ولا تختلفا).

الاختلاف شر، التنازع وفساد ذات البين، فإنها والله لحارقة تحرق الدين والشعر .

إذًا على دعاة التوحيد أن يتقوا الله في الدعوة وأن يتقوا الله في المسلمين.

إنه من أعجب الأشياء أنه في ظل السهام الكثيرة المريشة ضد التوحيد والسنة في هذا الزمان أن نجد هذا التنازع الكبير وهذا الاختلاف العظيم بين الدعاة إلى التوحيد الذين هم متفقين في التوحيد وفي اتباع السنة وفي لزوم منهج السلف الصالح، لكنَّهم مع الأسف نزاع مؤلم، يدمي القلب وإذا كان النزاع والفرقة شيئًا ينبغي السعي في إزالته في الأحوال الحسنة المستقرة.

فكيف بهذا الزمن؟! ونحن أحوج ما نكون أن تجتمع القلوب وتأتلف وتتعاون على الخير، العدو على الأبواب وأنت تأخذ بتلابيب أخيك يا عبد الله اتق الله.

شبابنا وفتياتنا انتهشتهم هذه الفرق وهذه التوجهات وأنت تتلاطم مع أخيك الذي هو معك، الشباب ذهبوا إلى إلحاد، أي ذهبوا إلى غرور، صار الواحد منهم يقتل ابن عمه، بعد أن يكفره بغير مكفر ويسجل مسجدًا بيت الله ويستبيح دماء المسلمين، وأخذت كثيرًا من الشباب هذه الأيام أفكار إمَّا إلى انحلال وإما إلى غلو، ودعاة التوحيد يتصارعون عجبًا والله! شيءٌ مؤلم.

اعلم -يا رعاك الله- أنَّ الخلافات التي تقع بين أهل السنة والجماعة أتباع السلف ينبغي أن يُنظر فيها إلى أمرين:

[الأمر الأول]: هل هذا الذي اختلفوا عليه، يستحق أن يُختلف عليه أم لا؟ فأن كثير من الخلافات مرجعها لا إلى خلاف في الحقيقة بل هو إلى حظوظ النفس، أو إلى إيغار صدور من بعض الجهات الخارجية، أو قد تكون المسألة اجتهادية، لا ينبغي أن يعنف فيها على المخالف، لابد من وزن المسألة الخلافية أولًا بميزان الكتاب والسنة ومنهج السلف وكلام أهل العلم المرسخين.

ثم إذا تُحقق إلى أن الخلاف كان في شيء خطأ محضَّ، فإنه ينبغي أن يعلم **وهو الأمر الثاني**: كيف التعامل مع المخالف، التعامل مع المخالف ليس شيئًا واحدًا يطرد مع كل مخالف، من كان كذلك فإنه سيقع في خطأ عظيم، هذا الموضوع ينبغي أن يوزن بميزان العلم وميزان الحكمة، فليس كل خلاف يستدعي الهجر والزجر والتحذير والتنفير، المسائل ينبغي أن يُنظر إليها بنظر آخر، ينبغي أن يُنظر إلى حجم المسألة، وإلى حجم الأثر المترتب عليها،

وأيضًا إلى الزمان والمكان، ربما المسألة يشدد فيها النكير على شخص في بلد، أعلام السنة فيه ظاهرة ولا يشدد على بلد السنة فيه غريب.

كذلك ينظر فيها إلى الشخص نفسه، أهو ممن له قدم صدق في السنة أو من المعروفين في اتباع سبيل أهل البدعة من طرائق المتكلمين أو الخرافين، هذا أيضًا ينبغي أن يُنظر فيه، فشتان بين سني أخطأ وبين مبتدع أخطأ، فلا ينبغي أن يعامل هذا وهذا على حد السواء، فالسني سني، وإن أخطأ في شيء يسير، والمبتدع مبتدع وإن أصاب في شيء يسير، كما أن العالم عالم وإن جهل شيئًا يسيرًا، كما أن الجاهل جاهل وإن علم شيئا يسير، هذه من المسائل التي ينبغي أن يلتفت إليه، ولذلك قد يقع بعض الناس من أهل العلم والفضل في خطأ عقدي، قد يقع في تأويل للصفة، هذا والله ليس أمرًا سهلًا، لكن تجد أهل العلم يحتملون لهذا العالم السني ما لا يحتملون لأحد من أهل البدع.

لذلك ابن خزيمة إمام الأئمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقع في خطأ، وهو أنه أَوَّلَ حديث الصورة، يقول أبو موسى المديني رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (أخطأ ابن خزيمة في حديث الصورة ولا يؤخذ ذلك منه ولا يطعن عليه به)، ذكره شيخ الإسلام في ((بيان التأسيس))، وهذا منهج منضبط متوسط، من كان عالمًا من علماء أهل السنة ومعلوم تحريه في اتباع السنة، وأخطأ هذا الخطأ.

أولًا ينبغي ألا يؤخذ عليه، بل يقال فلان أخطأ ولا يتاب عليه، لكن أيضًا لا يكون سببًا في إسقاطه، لأن المسألة بينة بل تتعلق بصفة لله، ففي هذا المسلك ينبغي أن يلاحظه دعاة التوحيد وأن يترفقوا وأن يزنوا الأمور بميزان العلم وميزان الحكمة، إذا كانوا كذلك، وإذا جمعوا إلى ذلك أيضًا يقينهم أنهم إلى الحق: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٦٧].

لابد أن يستيقن الداعية بأنه على الحق، إذا كنت على نهج الكتاب والسنة، فاعلم أن الله حق، وأن نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حق، وأن دين الله حق: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس:٣٢]، إذًا أنت على الحق، استيقن بهذا لأنك كلما كنت أكثر يقينا، وأبعد عن الريب والتردد، كلما كنت أثبت في الدعوة، وكلما كانت نتائج دعوتك أعظم أثرًا.

ثم أن تكون صبورًا، متحللًا، فاصبر في سبيل الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ولا تيأس إذا رأيت نشاط أعداء الله، ليكن هذا سبيلا في أن تنشط لا أن تيأس، تصبر وتحتمي وتترقب نصر الله

عَزَّوَجَلَّ وفتحه، وحينئذ تثمر الدعوة، وبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة: ٢٤].

هذه مقدمة دعا إليها هذا التبويب العظيم الذي بوّبه إمام الدعوة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الموضع وهو باب الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله، ونحن في حاجة إلى أن نتواصى، إلى أن نتذاكر بهذا الأمر العظيم.

٨

٨- باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

(المجلس الثاني)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب

الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:١٠٨] الآية.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

الدعاء والدعوة مصدران للفعل دعا، يدعو، والأصل في معنى الدعاء والدعوة هو: الطلب، وهذا الباب كما سلف في درس البارحة أنه باب مهم ومحله محلٌ مناسب، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ اعتنى كثيرًا بهذا الباب حتى أنه كان أكثر الأبواب مسائل، أكثر بابٍ في كتاب التوحيد ذكر فيه المؤلف المسائل المستفادة منه هو هذا الباب.

ذكر فيه ثلاثين مسألة مستفادة والدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله هو الدعاء إلى التوحيد، وذلك أن معنى لا إله إلا الله هو توحيد الله، وهذا ما سيتبين من خلال الأدلة التي أوردها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أورد المؤلف في هذا الباب آية وحديثين، أما الآية فآية سورة يوسف: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[يوسف:١٠٨].

هذه الآية لأهل التفسير فيها قولان: أهي جملة واحدة أم جملتان؟ بمعنى هل الآية تُوصَل ويكون المعنى أن سبيل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكذا من اتبعه هو الدعوة إلى الله على بصيرة: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[يوسف:١٠٨].

أو أن الآية جملتان: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾، ثم تستأنف: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾؟

وعلى كل حال القولان كما لا يخفاك متلازمان، وإن كان القول الأول لا شك أنه أولى لأنه يجمع الأمرين، يجمع بين كون منهاج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسبيله هو الدعوة إلى الله على بصيرة وكذلك منهاج أتباعه، فجمع هذا القول بين الدعوة والبصيرة.

﴿قُلْ﴾ خطاب للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قل يا نبينا.

هذه ﴿سَبِيلِي﴾، السبيل هي: الطريق؛ يعني: هذه طريقي وهذا نهجي.

وكلمة السبيل تُذَّكر وتؤنث، تؤنث كما في هذه الآية وتذكر كما في جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾[الأعراف:١٤٦]، وما قال لا يتخذوها سبيلا، وهذا فيه بيان أن نهج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصراط الذي جاء به من عند الله جَلَّوَعَلَا طريق واضح مستقيم، يمكن لكل أحد أن يعرفه وأن يسلكه، هكذا منهج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طريق وصراط واضح لا اعوجاج فيه، ويمكن لكل أحد أن يسلكه ليس فيه أي تعقيد.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ ما هي هذه السبيل؟ جاء بيانها أدعو إلى الله، الدعوة إلى الله نهج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا شك أن هذا أعظم ما يكون من الأعمال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾[فصلت:٣٣]، هذا نهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله.

كلَّ الأنبياء كانوا يدعون إلى الله، وأعظم ما دعوا إليه التوحيد، كلهم صاح في قومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[المؤمنون:٣٢]، وأكملهم وأعظمهم بذلًا في ذلك هو النبي الكريم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منذ مفتتح الرسالة وإلى خاتمتها، وفيما بين ذلك دعوةٌ جادةٌ إلى التوحيد وإلى التحذير من ضده، في أول ظهوره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة، قال لكفارها: «قولوا لا إله الله تفلحوا»، وإلى آخر لحظات حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر الكلمات التي نطق بها في هذه الحياة: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد- يحذر ما صنعوا» وفيما بين ذلك كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو إلى التوحيد صباح مساء: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[يوسف:١٠٨].

وهذا فيه بيان أن إتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقًا وصدقًا يقتضي من المتبع أن يكون داعية إلى الله، هذا منهاج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبحسب إتباع الإنسان للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكون نشاطه في الدعوة، وبحسب دعوته يكون التزامه بمنهج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكلُّ إنسان عليه أن يزن نفسه بهذا الميزان، إذاً أردت أن تعرف مقدار اتباعك للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فزن نفسك بهذا الميزان، انظر كيف أنت في الدعوة إلى الله، فإن هذا نهج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[يوسف:١٠٨] إن كنت متبعًا له صدقاً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأنهض إلى الدعوة إلى الله جَلَّوَعَلَا.

قال: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾، ذكر المفسرون في البصيرة أقوال:

منهم من قال: إنها الثبات واليقين،.

ومنهم من قال: إنها الحجة، أدعو إلى الله على حجة على بينة.

ومنهم من قال: إن البصيرة هي العلم.

ومنهم من قال: إن البصيرة أعلى العلم، وذلك أنه يكون نسبة المعلوم فيها للقلب كنسبة المرئي للبصر؛ بمعنى البصيرة للقلب كالبصر للعين، كما أن قوة العين الإدراك؛ فإذا رأى الإنسان شيء أصبح شيئًا يقينيًا؛ لأنه يراه بعينه، كذلك البصيرة من بلغ إلى حد البصيرة كان المعلوم عنده على هذه الدرجة من اليقين كأنه مبصر، ولاحظ التقارب بين البصر والبصيرة.

وهذه الأقوال متقاربة في المعنى فالبصيرة العلم أو أعلى العلم وهو الحجة ومن كان كذلك فلا شك أنه يكون على ثبات وبصيرة، ولاحظ حرف الاستعلاء ها هنا: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ وهذا فيه إشارة إلى التمكن في هذه البصيرة وأن دعوة النبي ﷺ وكذا دعوة أصحابه وأتباعه دعوةٌ ليس فيها أي خلل وليس فيها أي نقص، وليس فيها أي تردد، دعوةٌ قائمة على ساق العلم والحجة وأهلها فيها على يقين وثبات ورسوخ.

ها هي دعوة النبي ﷺ غضة، طريه كما كانت في عهده ﷺ يراها المصلحون ماثلة أمام أعينهم في سنة النبي ﷺ وأحاديثه التي هي بين أيدينا وهي التي قام بها أتباع النبي ﷺ على مر العصور وإلى هذه الأيام وإلى هذه الأزمان، دعوة النبي ﷺ باقية وثابتة، وطريقها واضح لا لبس فيه ولا غموض، **«لا تزال طائفة من أمتي»** طائفة واحدة إذن الأمة فيها طوائف، لكن طائفة واحدة فازت بأنها كانت على ما كان عليه النبي ﷺ **«لا تزال طائفة من أمتي على الحق»**، الحق المحض، (**أل**) للاستغراق فالحق المحض الذي جاء به النبي ﷺ هو الذي عليه أتباع النبي ﷺ على مر العصور.

ولاحظ يارعاك الله في هذه الآية كيف جمعت بين شرطين قبول العمل: الإخلاص والمتابعة.

أما الإخلاص: ففي قوله تعالى: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾[يوسف:١٠٨] لا إلى نفسي، وهذا من الأمور العظيمة الأساسية في الدعوة التي ينبغي أن يلحظها الداعية بعين الرعاية والاهتمام، ادعو إلى الله لا تدعو إلى نفسك، كثيرًا من الناس يدعو كما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المسائل لكنه يدعو إلى نفسه، الإخلاص أمره عظيم ويحتاج إليه الداعية أكثر من غيره، وذلك أن دواخل ومداخل الرياء بالنسبة إلى الداعية أكثر من غيره، يحتاجُ إلى مزيد عناية وتذكر وتذكير بهذا الباب العظيم.

قال بعض السلف: (أي أحمق يقول إنه إذا أجتمع إليه عشرة نفر، لا يحب أن يجود كلامه لهم) –اللهم سلم– مقامٌ عظيم، والداعية إلى الله ينبغي أن يتنبه إلى هذا الأمر العظيم، أنه يدعو إلى الله لا إلى شيء أخر، يدعو إلى الله لا إلى نفسه، لا إلى دنيا يحصلها ويتكسب من وراء هذه الدعوة، الدعوة يبذل فيها ويبذل لها، وليس أنها بابٌ للتكسب والتأكل، كما يقع من بعض الناس مع الأسف الشديد.

المقام يحتاج إلى تنبه ومن علامات صدق الإخلاص، والخلل فيه أن يَنْظُرَ الإنسان في حاله مع المدعوين، إن كان يتأثر بحسب عدد الحاضرين؛ فإذا قل الحاضرون ترك الدعوة وإذاً كثروا نشط، هذه علامة على أنَّ هناك خللًا، كذلك إذا كان غضبه إذا ترك الناس ما يدعو أعظم مما يغضب إذا تركوا ما لم يدعو إليه، وقد يكون أهم مما دعا إليه هذه علامة على أنه كان يغضب لنفسه لا لدين الله جَلَّوَعَلَا.

إذن هذا هو الأمر الأول: الإخلاص.

والأمر الثاني: المتابعة، وذلك ما دل عليه قوله تعالى: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾[يوسف:١٠٨] ليست المسألة مطلقة دون أي زمام يدعو الإنسان كما يحلو له، كلا، الدعوة الحقة ينبغي أن يترسم فيها أهلها نهج النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ولو فعلوا ذلك لعمَّ الخير في العالم، ومن أحسن ما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((الفوائد)): (ولو سلكوا الدعاة إلى الله المسلك الذي دعا الله ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ به إليه لصلح العالم صلاحًا لا فساد معه).

وأكثر ما يقع الخلل في مناهج الدعوة إنما هو بسبب التقصير في متابعة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والتقصير في الأسس والأولويات التي تقوم عليها الدعوة إلى الله جَلَّوَعَلَا،

وأول الأولويات وأولى ما يُدعى إليه لا شك إنه توحيد الله جَلَّوَعَلَا، وهذا ما أعظم تقصير كثير من الدعاة فيه.

ولذلك انظر حجم ما يلقي من الخطب ومن المحاضرات ومن الدروس ما نصيب التوحيد من ذلك في مجمل أحوال الدعاة، تجد أنَّ هناك نقصًا بيّنًا في هذا المقام، مع أن هذا أحوج ما يكون الناس إليه، فالناس ملت من القيل والقال، تريد كلام الله، تريد كلام رسوله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تريد ما يذكرها بالله ويحثها على إتباع النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يعلمها حق الله، ويعلمها كيف تعبد الله هذا الذي يحتاجه الناس.

ثم قال تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ **[يوسف:١٠٨]**.

نبه المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ في المسائل إلى أن من حسن التوحيد أن فيه تنزيه الله جَلَّوَعَلَا ومن قُبْحِّ الشرك أن فيه مسبة لله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ **[يوسف:١٠٨]** أنزه الله؛ أنزهه عن كل ما لا يليق به، ومن أعظم ذلك الشرك به سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ولذلك قال: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فمن تنزيه الله أن يدع الإنسان الشرك فلا يكون من المشركين بحال.

ولاحظ قوله ها هنا ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ **[يوسف:١٠٨]**، لستُ من المشركين في شيء البتة، لا في حال ولا في قول ولا في فعل ولا في مخالطة ولا في تشبه لست من المشركين في شيء ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

إذن هذا هو حقيقة التوحيد أن يكو الإنسان نائيًا بنفسه عن الشرك، وأن يكون نائيًا بنفسه عن أهل الشرك، -كما مر معنا هذا في درسٍ سابق-.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما بعث معاذ إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قوما من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله». -وفي رواية: «إلى أن يوحدوا الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»، أخرجاه.

هذا حديثُ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وهو مخرج في ((الصحيحين))، بل رواه الجماعة، وفيه بيان وصية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حينما بعثه إلى اليمن وكان هذا سنة عشرٍ من الهجرة على الصحيح، وقيل سنة تسع، وقيل سنة ثمان، ولكن الأقرب أنها: سنة عشر، واتفقوا أنه لم يعد إلى المدينة إلا بعد وفاة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث معاذ وبعث أيضا أبا موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا إلى اليمن، لكن جعل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاذاً على مخلاف وهو أعلى اليمن في صنعاء وما حولها، وأبا موسى جعله في مخلاف اليمن الأدنى في عدن وما حولها، بعثهما النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معلمين وولاة وقضاة.

فكان من مهماتهم التعليم والدعوة، وأيضا من مهماتهم أنهم كانوا الولاة، ولاة الأمر، ومن مهماتهم أيضا أنهم كانوا قضاة يقضون بين الناس.

لما بعث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاذ وهذه الوصية خصَّ بها معاذ، وصاه بهذه الوصية العظيمة وهذا يدل على أنَّ العالم عليه أن يبصر طالب العلم وينصحه ويوصيه عند الحاجة، ويكشف له الأشياء التي يحتاج إلى معرفتها.

وفي هذا أيضا: أهمية الدعوة إلى الله جَلَّ وَعَلَا، وأن من سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبعث الدعاة إلى الآفاق، لا ينبغي أن يحصر الحق في مكان معين، إنما ينبغي أن يفشوا الخير وأن يكون الدِّين كله لله.

ولاحظ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث فقهاء، علماء، سادة، وهما معاذ وأبا موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهذا يدل على أن التصدر لمثل هذا الأمر العظيم ينبغي أن يكون لأهل العلم لا للجُهال، بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا موسى ومعاذا وأمرهم -كما مضى معنا في الدرس الماضي- معاً بوصايا، وخص معاذا بوصية، لما بعثهما كما في الصحيحين قال: «**بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسر وتطاوعا ولا تختلفا**».

أما معاذا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فخصه بهذه الوصية، قال: «**إنك تأت قومًا من أهل الكتاب**»، اليمن دخلها دينا: اليهودية والنصرانية، اليهودية على يدِ تُبع الأصغر، والنصرانية على يد الأحباش، فكثر فيها أتباع هذين الدينين، كان فيها مشركون لكن كَثُرَ فيها أهل الكتاب.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنك تأتّي قوماً من أهل الكتاب**»، وفي رواية: «**إنك تأتي قوماً أهل كتاب**» وهذا فيه بيان أهمية العلم بحال المدعوين، وإن العلم في الدعوة يراد به أمران: يراد به العلم بالشريعة، ويراد به أيضا العلم بالمدعوين ومعرفة أحوالهم.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كأنه يقول له انتبه هؤلاء ليسوا كالمشركين الأميين هؤلاء أهل كتب عندهم حجج وعندهم أدلة يُدْلُونَ بها عندهم شبهات، إذن خذ للأمر أهبته واستعد لذلك.

وهذا الذي ينبغي على الدعاة إلى الله جَلَّ وَعَلَا، أن يتيقظوا وأن يتنبهوا وأن يُعِّدُوا العدة إذا خاضوا غمار الدعوة، فلربما احتاجوا إلى بيان باطل أو ردٍّ على مبطل، فلابد أن يكونوا متسلحين بالعلم وبمعرفة كشف شبهات المبطلين؛ لأنَّ ضَعْفَ موقف الداعية إلى الحق يعني في نظر المدعوين ضعف الحق وهذا لا ينبغي أن يكون، لذا على طالب العلم أن يتنبه إلى هذا الأمر العظيم، لا يضع نفسه في موضعٍ يؤتى الإسلام من قبله، وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (من لم يناظر أهل البدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه ولا وفَّى بموجبه)، على الإنسان أن يتنبه وأن يأخذ من هذا درسًا «**إنك تأت قومًا من أهل الكتاب**» تنبه واستعد.

ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه**» هذا فيه أن الدعوة فيها أولويات، فيها أهم وفيها المهم وفيها ما هو دون ذلك.

إذاً هناك رقم واحد في الدعوة، هناك رقم اثنين في الدعوة، ولذلك ينبغي على الإنسان أن يسير في ذلك وفق هدي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمره، وليس أنه يقدم في الدعوةما يحلو له، عليه أن يسلك في ذلك هذا النهج السديد الذي بينه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا فيه الدعوة أيضا بالتدريج، وأنه لا ينبغي على الداعية أن يقذف بالعلم كله في جلّسة واحدة، أو أن يرميَّ بالحق كله على الناس في مقامٍ واحد، لا ينبغي ذلك بل ينبغي التدريج، وينبغي التأني وينبغي أن يُؤخذ الأمر على الهون وعلى التدريج، ولذلك سيأتي المعنى في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فإن هم أطاعوك لذلك**» وفي رواية عند البخاري: «**فإن هم أطاعوا لك بذلك**» لاحظ أن (لك) هنا مع أن الطاعة تتعدى بنفسها ولكنها عديت هنا بـ (اللام) لأنها تدل على معنى الانقياد، وأنه أصبح عندهم مطاوعة ولين، أصبحوا منقادين لك، أذعنوا وسلموا إذن أنتقل معهم بعد إلى الأمر الثاني ثم الثالث وهكذا.

وهذه الرواية التي بين أيدينا لا أعلمها في ((الصحيحين))، لا أعلم أنه جاءت رواية وقد جاء هذا الحديث في الصحيحين في روايات متعددة لكن هذا اللفظ أنا لا أعلمه: «**فليكن أولُ ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**» ولك أن تقول «**فليكن أولَ ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**» يعني عندك وجهان «**فليكن أولَ ما تدعوهم إليه شهادةُ أن لا إله إلا الله**» ولك أن تقول «**فليكن أولُ ما تدعوهم إليه شهادةَ أن لا إله إلا الله**»، لكن هذا اللفظ لا أعلمه في الصحيحين، إنما الذي جاء في الصحيحين ثلاثة ألفاظ:

[الرواية الأولى]: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله**».

والرواية الثانية «**فليكن أول ما تدعوهم إلى عبادة الله عَزَّوَجَلَّ**».

والرواية الثالثة قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**فأدعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله**»-

-وفي رواية «**فأدعوهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله**».

وأكثر الروايات في كتب السنة هي الثالثة، وهذا فيه أن السلف إما الصحابي أو التابعي أو من بعدهم عَرَفُوا معنى التوحيد فعبروا عنه بمعناه.

إذاً عندنا ادعهم:

١/ إلى الشهادة.

٢/ إلى أن يوحدوا الله.

٣/ إلى عبادة الله.

ثلاثة أشياء، وكلها بمعنى واحد والسلف عبروا لا شك أن النبي قال لفظ منها بقية الألفاظ بالمعنى، والسلف عبروا بمعنى اللفظ، وذلك أن شهادة أن لا إله إلا الله معناها هو التوحيد، وما هو التوحيد؟ عبادة الله وحده لا شريك له، فصارت الألفاظ راجعة إلى معنى واحد.

وبهذا نستفيد تفسير شهادة أن لا إله إلا الله كما سيأتي معنا، ما هو معنى لا إله إلا الله؟ هو توحيد الله، يعني عبادة الله وحده لا شريك له، وليس أنه لا خالق إلا الله، أو لا قادر على الاختراع إلا الله، هذا نص في حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الشاهد أن اللفظ أتى الذي جاء به المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ لا أعلمه ثابتًا، لكنه أشار إلى رواية البخاري وفي الرواية قال: (إلى أن يوحدوا الله).

وظهر لي بالتتبع أن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ قد يورد بعض الأحاديث بالمعنى وكأنه كان يكتب في تلك اللحظة من حفظه، وهذا سيمر معنا في مواضع، وكان لحفيد المؤلف الشيخ سليمان رَحِمَهُ اللَّهُ، كان له عناية بتتبع هذه المواضع، ويبين الفروق بين ما أورد المؤلف، وبين ما هو موجود في مصادر التخريج.

الشاهد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمره أن يكون الأول في مقام الدعوة هو توحيد الله، هو الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله، هو أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، ثم قال: صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **«فإن هم أطاعوا أطاعوك لذلك –أو قال– أطاعوا لك بذلك فأعلمهم أن الله أفترض عليهم خمس صلوات»**، وهذا يدلك على أن الواجب على المسلم هي الصلوات الخمس وصلاة الجمعة، وأن الوتر ليس بواجب على الصحيح لأن بعث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان متأخرًا.

قال: «**فإن هم أطاعوك لذلك أو قال: فإن هم أطاعوك لك بذلك فأعلهم أن الله أفترض عليهم صدقة**» صدقة هنا هي: الزكاة، والصدقة تطلق في الشرع وفي لسان الفقهاء على: الواجبة يعني الزكاة، وعلى صدقة التطوع، والوارد هنا هو الواجب يعني الزكاة

على نحو قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾[التوبة:١٠٣]، ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾[التوبة: ٦٠]، هذه كلها الزكاة.

قال: «تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم» وهذا يدل على أن الكافر لا يعطى من الزكاة، زكاة المال الواجبة لا يعطاها الكافر لهذا الحديث.

ثم قال: «فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم» يعني: الأموال النفيسة عند أصحابها لا ينبغي عليك أن تأخذها في الزكاة، إلا إذاً سمح صاحبها بها، إنما المطلوب أن يأخذ من أوسطها فلا يجوز للوالي أو العامل أن يأخذ كرائم الأموال، ولا يجوز لصاحب المال أن يبذل أسوء ماله، إنما الواجب أن يُعطى الأوسط من المال.

قال: «واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»، مقبولة لا ترد من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وهنا بحث عند أهل العلم وهو السبب في اقتصار النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصلاة والزكاة دون الصوم والحج.

من أهل العلم من قال: إنه لم يذكر الصوم والحج لأنهما لم يفرضا بعد ولكن هذا ضعيف؛ لأن بعث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متأخر في السنة العاشرة.

وقيل إن الصوم لم يُذكر لأنه عبادة خفية، وإنما نبه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى العبادة الظاهرة، والحج لا يجب على كل أحد، ولكن هذا فيه نظر أيضا فالزكاة قد تكون ظاهرة وقد تكون خفية، والحج كما أنه لا يجب على كل أحد فالزكاة أيضا لا تجب على كل أحد.

والأقرب –والله أعلم- جوابان:

إما أن يقال إن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اقتصر على أعظم الواجبات وهو التوحيد، ثم الصلاة، ثم الزكاة، فهذه الثلاثة هي أعظم الواجبات.

ولذلك كَثُر في النصوص التنصيص عليها فحسب، وذلك أن هذه الثلاثة من أذعن بها فإنه سيذعن لما سواها بالتأكيد، يعني الذي سَهُلَ عليه أن يأتي بالتوحيد وبشهادة أن لا إله إلا الله وأن يصلي وأن يزكي، فإنَّ ما وراء ذلك سيكون عليه سهلًا، لذلك أن التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله ثقيلة على أهل الشرك: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[الصافات:٣٥]، والصلاة ثقيلة إلا على الخاشعين، والزكاة لا شك أنها أيضا

ثقيلة كون الإنسان يعمد إلى ماله الذي أكتسبه بعد تعب، والمال حبيب عند أصحابه، ثم يبذله طواعية لغيره هذا أمرٌ لا يسهل إلا على من يسر الله عَزَّوَجَلَّ ذلك عليه، فإذا أدي هذه الأمور فما بعدها فإنه سيكون سهلًا.

وقيل وهذا أيضًا جواب فيه وجاهة إن بعثة معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كانت في شهر ربيع الأول وبينه وبين رمضان نحو خمسة أشهر، فلعله أراد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يؤخر الكلام عن الصوم ثم الحج لأنه وراء رمضان، أراد أن يؤخره إلى الوقت الذي تكون نفوسهم قد أقبلت على الإسلام وحَسُن إسلامهم من باب التدرج في الدعوة والله تعالى أعلم.

الشاهد في هذا الحديث: أن أول الواجبات في الدعوة إنما هو الدعوة إلى التوحيد وإلى شهادة أن لا إله إلا الله، وهذا هو بيت القصيد في إيراد المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ لهذا الحديث تحت هذا الباب، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ:

ولهما: عن سهل بن سعد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أن رسول اللّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غدًا رجلّا يحب اللّه ورسوله ويحبه اللّه ورسوله، يفتح اللّه على يديه»، فبات الناس يدوكون ليلتهم، أيهم يعطاها، فلما أصبحوا غدوا على رسول اللّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كلهم يرجو أن يعطاها: فقال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه فأتي به، فبصق في عينيه ودعا له؛ فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق اللّه تعالى فيه، فواللّه لأن يهدي اللّه بك رجلّا واحدا خير لك من حمر النعم».

((يدوكون)) أي يخوضون.

هذا حديث سهل بن سعد بن مالك الأنصاري، صحابي جلّيل من صغار الصحابة وأبوه صحابي أيضا، وهو مخرج في الصحيحين وفيه بيان قصة إعطاء النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الراية يوم خيبر لعليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وهو كما يقول أهل العلم أصحُ حديث أو من أصح الأحاديث في فضل علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه.

النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ غزا خيبر سنة سبع على الصحيح، وقيل: سنة ست، وامتد انتظارهم للفتح؛ فقد استعصت حصون خيبر على صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والمسلمين، انتظروا أكثر من عشرة أيام، وجاء عند أحمد وغيره أن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أعطى الراية أبا بكر وكان معسكره دون حصون خيبر، فلما ذهب عاد ولم يفتح له، فأعطى الراية من غدٍ عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ثم عاد فلم يفتح له، ثم قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله**».

الراية هي: العلم وذلك إذا كان منشورًا، العلم المنشور المفرود هذا يسمى راية، وكان من عادة العرب أن الراية تكون في الموضع الذي فيه القائد لأجلّ أن ينحاز الناس إليه، وقد يحمله أمير الجيش، وقد يحمله غيره، لكن المهم أنه يكون في الموضع الذي يكون فيه القائد والأمير، هذا ما يتعلق بالراية.

ويفرقون بين الراية واللواء، اللواء هو: العلم الملوي، علم ولكنه ملوي مطوي.

أما الراية فمنشور، وكانت راية النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سوداء، وكان لواءه أبيض.

الشاهد أن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أخبر أنه سيعطي الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، وهذا فيه إثباتُ المحبة من طرفيها، الله جَلَّوَعَلَا يحب كما أنه سبحانه يُحَب: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[المائدة:٥٤]، وهذا على خلاف طريقة أهل البدع، منهم من أنكر المحبة من طرفيها، فالله عندهم -ويا الله العجب من هذا القول الغريب العجيب!!- الله عندهم لا يُحب، إنما تُحب الجنة، يُحب ما فيها من الحور العين وأنواع الملاذ، أما الله فلا يُحب.

إذاً ما قيمة هذه العبادة؟ محبة الله جَلَّوَعَلَا لب العبادة ورأسها والمحرك إليها، فأي عبادة هذه إذاً لم يكن هناك محبة لله جَلَّوَعَلَا.

والطرف الآخر أن يحب الله عباده، والله جَلَّوَعَلَا يحب المؤمنين وجاء التنصيص في القرآن والسنة على محبة أصناف من المؤمنين كالتوابين والمتطهرين، كذلك يحب الله جَلَّوَعَلَا أزمانًا، يحب الله أمكنة ويحب الله بقاعًا، من تتبع ذلك في النصوص ظهر له.

الشاهد أن هذا فيه إثبات المحبة من الطرفين، الله عَزَّوَجَلَّ يحب عباده وعباده يحبونه ولذلك كان اسمه الودود، والودود على الصحيح: فعول بمعنى فاعل، وفعول بمعنى مفعول، وهو ودود بمعنى واد، وودود بمعنى مودود، وكلاهما حق.

قال: «**لأعطين الراية غدا رجلًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه**» وهذا فيه علم من أعلام النبوة، وهذا الحديث فيه موطنان تدلان على ذلك:

أولًا: إخباره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ الفتح سيكون غدًا وكان ما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وثانيًا: ما كان منه لعلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حينما دعا له وبصق في عينه فبرأته عينه، وذلك علم من أعلام النبوة أيضا -كما سيأتي الكلام عنه إن شاء الله-.

ثم إن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أخبرهم بهذا الإنسان فباتوا يدوكون ليلتهم، يدكون: يخوضون ويتحدثون وأصل الدوكة في اللغة: الاختلاف والخصوم، وهذا كناية عن أن الأمر كان شغل شاغلًا كانوا يتحدثون ويخوضون فيه كثيراً في تلك الليلة، حتى أن حرصهم على هذا الأمر العظيم وهو أن يكون كل واحدا منهم، كل واحد كان حريصًا على أن يكون المقصود، وأن يكون قد شهد له النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن الله يحبه وأنه يحب الله، هذه البشارة أنستهم البشارة الأخرى وهي أنه سيكون غدًا الفتح، وهذا فيه حرص الصحابة على الخير، حرصهم على أن ينالوا المراتب العظيمة التي تقربهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: «**لأعطين الراية غدا رجلًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها فلما أصبحوا غدوا على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلهم يرجو أن يعطاها**»، حتى جاء عند البخاري أن عمر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: فتسورت للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رفع نفسه من أجلّ أن يراه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كذلك جاء عن بريده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: فتطاولت للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يراني لعلِ أكون أنا المقصود.

أما علي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يكن في ذلك الوقت معهم، علي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان قد تأخر في المدينة فإنه كان مصابًا في عينيه، ثم إنه قال: أأتخلف عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحرك دابته ولحق بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تلك الليلة، وصل إلى خيبر حيث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكن الوجع منعه أن يغدو إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا كما ذكر المؤلف في مسائل الباب فيه الإيمان بالقدر، حيث أنه لم يعطاها الذي بادر وغدا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُعطيها الذي تأخر، ولا شك أن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان عنده من الحرص ما عند بقية الصحابة لكن منعه الوجع، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أين علي بن أبي طالب؟ فأخبروه أنه يشتكي عينيه، كان به الرمد، الرمد مرض معروف يصيب العين، فطلبه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

جاء عند مسلم أن سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جاء يقود علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سلمة هو الذي كان يقود علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهذا يدل على أنه كان مصابًا بشدة، وكان يتألم حتى أنه ما استطاع أن يمشي وحده، وفي هذا وقفة وهي: أنَّ الأولياء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا فكيف يملكون لغيرهم؟

هؤلاء الذين يدعون عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويدعون الحسن والحسين وفاطمة، ويدعون البدوي والعيدروس وغيرهم، ليتأملوا مثل هذا الحديث، علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لو كان له من الأمر شيء لدفع عن نفسه، أليس كذلك؟ لكنه لا يملك لنفسه شيء، فضلًا عن أن يملك لغيره، بل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه حصل لهم ما تعلمون في غزوة خيبر، ما حصل من العطش وشدة الحال، يدل هذا على أن الأمر كله لله، وعلى أن الرغبة ينبغي أن تكون إلى الله لا إلى المخلوقين.

الشاهد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسل إليه فجاء يُقاد حتى وقف بين يدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فما كان منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أن فعل أمرين: دعا الله له، وبصق في عينيه، وجاء في خارج الصحيحين أنها بصق في راحة يده ثم دلك بها عينيه فبرأ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا فيه أمران:

أولًا: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان مجاب الدعوة.

وثانيًا: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان مباركًا بركة ذاتية يتعدى أثرها إلى الغير، ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما هو سبب البركة، لا أنه مانح البركة، فالبركة من الله، يدل على هذا ما جاء في البخاري من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه كانوا في سفر فقل الماء، فاشتكوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: اطلبوا لي شيئا من إناء، فأتوا بإناء فيه شيء من ماء، فوضع يده فيه وقرأ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول ابن مسعود: فلقد رأيت

الماء يفور من بين أصابع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، -آية من آيات الله،- ثم قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هلموا إلى الطهور المبارك والبركة من الله»، هذه قاعدة مهمة لا يغفل عنها المسلم: «هلموا إلى الطهور المبارك والبركة من الله» ليست مني، هذا فيه تعويد الصحابة على تحقيق التوحيد، التعلق بالله لا بغيره.

الشاهد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما كان منه ذلك برأ من هذا الوجع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى جاء في غير الصحيحين أنه ما أشتكى عينيه بعد ذلك، ببركة دعاء وبصاق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطاه الراية، جاء في الصحيحين سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أقاتلهم على أن يكونوا مثلنا»، أقاتلهم مع حذف همزة الاستفهام، يعني كأنه قال: أأقاتلهم على أن يكونوا مثلنا؟

هنا بيّن له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأمر المطلوب قال: «انفذ على رسلك» يعني: على هونك على تؤدة لا حاجة إلى الاستعجال، «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم» يعني حتى تصل إلى ما دون حصونهم، والحصن الذي بدأ به وفُتح له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثم توالي فتح بقية الحصون، لأن خيبر كان فيها حصون بعضها وراء بعض، ذكر الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ أن الحصن كان اسمه حصن القموس، وبعضهم قال إنه حصن ناعم، وعلى كل حال كلاهما من حصون خيبر.

الشاهد أن النبي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، واخبرهم بما يحب عليهم من حق الله فيه»، هذا هو موضع الشاهد، ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم أيضا بحق الله فيه وهو التوحيد، ومفتاح ذلك شهادة أن لا إله إلا الله، فطابق الحديث الترجمة، الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله،

وفي هذا الحديث أيضا شاهد آخر وهو في قوله: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلّا واحدا» ففيه فضل الدعوة إلى التوحيد.

الشاهد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ادعهم إلى الإسلام»، جاء أيضا عند مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: «امشِ ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك».

يقول أبو هريرة: فمضى على شيء ثم وقف وصرخ ولم يلتفت، استجابة تامة للنبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ودقة عجيبة في المتابعة، وقف ولم يلتفت وصرخ وقال: يا رسول الله على ماذا أقاتلهم؟ قال: قاتلهم على أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا قالوا ذلك فقد عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقها، فهذا أيضا فيه شاهد لتبويب المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله وهذا ألصق بالتبويب، لأن فيه التنصيص على الشهادتين.

الشاهد أن في هذا فوائد:

من ذلك قبول خبر الواحد، وهذه فائدة نأخذها من هذا الحديث ومن الحديث الذي قبله أيضا، وأن خبر الواحد إذا صح فإنه يفيد العلم والعمل، لأن الحجة قد قامت على أهل اليمن وعلى أهل خيبر، بخبر واحد، أليس كذلك؟

وما الذي يترتب على هذا الخبر؟ يترتب عليه استباحة الدماء والأموال بل يترتب عليه السعادة أو الشقاء، لو رد أهل اليمن خبر معاذٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في مخلفاه، أو خبر أبا موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في مخلفاه ثم ماتوا، ما مصيرهم؟ لا شك إنهم إلى النار خالدين مخلدين فيها، فكيف يقال بعد ذلك أن هذا الأمر العظيم ترتب على أمر ظني، لا يترتب مثل ذلك إلا على أمر قطعي، هذا أعظم الأمور، وكذلك الشأن في خبر علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لأهل خيبر.

ثم فيه أيضا دليل على مذهب أهل السنة والجماعة من أن أول الواجبات هو توحيد الله وهو شهادة أن لا إله إلا الله، بخلاف مذاهب المتكلمين المبتدعة الذين قالوا إن أول واجب هو الشك، أو القصد إلى النظر، أو هو النظر، أو هو المعرفة، كلها أقوال مخالفة للحق؛ لأن كون الإنسان يُطلب من أن يشك وقد بلغ درجة اليقين هذا من سفه العقل فضلًا عن أنه مخالف للشرع، وثانيًا: أن النظر والقصد إلى النظر والمعرفة التي يدور عليها كلامهم إنما تتعلق بتوحيد الربوبية، وهذا أمر الأصل فيه أنه فطري، ولذلك قالت الرسل لأممهم: أفلله شك! كيف يكون في وجود الله وفي ربوبيته شك؟ بل كيف يكون في إلاهيته شك، وأنتم تقرون أنه الخالق الرازق المدبر سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟!

قال: «**ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدا** -واللام على كل حال موطئةٌ للقسم- **خير لك من حمر النعم**»

هذا فيه أن الإسلام هداية الناس إليه أحب من قتالهم، بخلافِ ما يروج الأعداء عنه، القتال في الإسلام ليس مقصودًا لذلك، القتال في الإسلام مقصودًا لغيره، لما؟ لكي يهتدي الناس، لكي يكون الدين كله لله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾[البقرة:١٩٣].

هذا الذي جاء به الإسلام ليس الإسلام متشوفًا إلى سفك دماء الناس، كما يروجه أعداء الإسلام، -حاشا وكلا- ولذلك انظر هنا كيف أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوصي عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأن يتلطف وأن يعتني بمقام الدعوة وأن يصبر، «**ادعهم إلى الإسلام، فلأنَّ يهدي الله بك رجلّا واحدًا خير لك من حمر النعم**»، يعني: احرص على هذا الفضل، وهذا لا يكون إلا بعناية وحرص واهتمام، فإن استجاب الناس إلى التوحيد فالحمد لله، ما الحاجة إلى قتلهم؟ ما جاء الإسلام بهذا، بل حتى لو لم يستجيبوا لكنَّهم قبلوا أن يكونوا تحت مظلة الإسلام ويدفعوا الجزية، فالإسلام يعصم دمائهم، أليس كذلك؟

إذن ليس الإسلام متشوفًا لسفك دماء الناس، القتال مرادًا لغيره ضرورة، إزالة العوائق، إماطة الأذى عن طريق الدين.

هذا هو القتال في الإسلام، فمتى ما كان الطريق مفتوحًا والناس مقبلة فإنه لا حاجة حينئذٍ إلى هذا القتال، وكل كلامي يتعلق بجهاد الطلب.

قال: «**فوالله لأن يهدي الله بك رجلّا واحدا خير لك من حمر النعم**» فضيلة الدعوة إلى التوحيد وأنَّ فوز الإنسان بهداية إنسان واحد خير له من أن يكون له هذا المال العظيم الذي هو ثمين ومحبوب إلى الناس.

حمر النعم يعني: الإبل الحمراء، وهذه كانت أَنفَسَ أموال العرب وأحبها إليهم.

والنعم والأنعام بمعنى واحد على الصحيح، قال بعضهم: النعم خاصة بالإبل، والأنعام تشمل الأصناف الثلاثة: الإبل والبقر والغنم، لكنَّ الصحيح أن النعم تشمل الأصناف الثلاثة أيضا كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾[المائدة:٩٥]، وهذا

يشمل الأصناف الثلاثة، فدل هذا على أن من هدى الله عَزَّوَجَلَّ على يديه أحدًا، والهداية هنا هي: هداية التوفيق، أن يهدي الله الأمر إلى الله بك، أنت السبب رجل واحد خير لك من حمر النعم.

٩

٩- باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

(المجلس الأول)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:
باب
تفسير التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**باب تفسير التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله**)، كأنِّ بالمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن بَوَّب الباب السابق، وهو في **الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله**، كأنِّ به يريد أن يقول إنَّ الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله لابد أن تكون دعوةً فيها تفسير، وفيها تفصيل، وفيها بيان، لا يكفي أن تكون الدعوة لـ (لا إله إلا الله)، ولـ(توحيد الله) دعوةً مُجملة، فإن الدعوة المجملة في هذا المقام عديمة الفائدة، أو قليلة الفائدة.

فإن الداعية إذا كان يصيح في الناس، فيقول: "عليكم بتوحيد الله، وقولوا لا إله إلا الله"؛ لكنهم لا يعرفون معنى لا إله إلا الله، ولا تفاصيلها؛ من أركانٍ، وشروطٍ، ونواقض، فإن انتفاعهم بهذه الدعوة إن كان، فهو قليل، لذا لابد أن تكون دعوة أهل التوحيد دعوةً فيها تفصيل، وفيها بيان، لتقوم الحجة على العباد، وهذا ما أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يُنبه عليه، ولذلك قال في خِتام هذا الباب: وتفسير هذه الجملة ما يأتي من الأبواب، فهذه افتتاحيةٌ تُبيّن لك أصل التوحيد، ثم بقية البيان يأتي في أبواب هذا الكتاب إن شاء الله.

ولاحظ أنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عطف ها هُنا شهادة التوحيد على التوحيد، فقال: (باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله)، قال العلماء: هذا العطف من باب عطف الدال على المدلول، فإنَّ (لا إله إلا الله) لها مدلول هو التوحيد، والتوحيد له ما يدل عليه، وهو (لا إله إلا الله)، فإذا أردت أن تعرف التوحيد، فعليك أن تعرف ما يدل عليه، وهو لا إله إلا الله، والتوحيد قد مَرَّ بنا تعريفه.

وهذا الباب قد مضى بعض ما يتعلق به في الباب الأول، أو في مقدمة الكتاب، ولكن المقام يستحق أن يُعاد، ويُكرر فيه الكلام، فإنَّ كلَّ الموضوعات تقل أهميتها، وتتقاصر أهميتها أمام هذا الموضوع العظيم، أقول إنَّ التوحيد قد مضى الكلام في تعريفه، فإنه: إفراد الله جَلَّ وَعَلَا بما يختص به، والله جَلَّ وَعَلَا يختص بثلاثة أمور؛ يختص بالربوبية، ويختص بالألوهية، ويختص بأسمائه وصفاته جَلَّ وَعَلَا، هذا هو التوحيد.

وضده الشِّرك، وقد يكون الشِّرك في الربوبية، وقد يكون في الألوهية (يعني العبادة)، وقد يكون في الأسماء والصفات.

ولا إله إلا الله دَلَّت على أنواع التوحيد الثلاثة.

أما دلالتها على توحيد العبادة (يعني توحيد الألوهية)، فبدلالة المطابقة، دلالة المطابقة هي: دلالة اللفظ على كامل المعنى، وتوحيد الألوهية هو إفراد الله بالعبادة، والبراءة من عبادة كلِّ ما سواه، فمجموع الأمرين نفهمه من (لا إله إلا الله) بدلالة المطابقة.

وتدل لا إله إلا الله على توحيدي الربوبية، والأسماء والصفات بدلالة اللزوم، فإن المعبود الحق لابد أن يكون ربًا، والمعبود الحق لابد أن يكون كاملًا بأسمائه، وصفاته، فصارت لا إله إلا الله دالة بدلالة اللزوم على توحيدي الربوبية، والأسماء والصفات.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: باب **تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله**.

الشهادة في اللغة: إخبارٌ عن علمٍ، ويقين، انتبه لهذا.

هذه أمورٌ ثلاثة لا تكون الشهادةُ شهادةً إلا بها، وبيانها:

أنه لابد أولًا: من إخبار، لابد أن يُخبِر الإنسان بلسانه عما يُكنه قلبه.

إذن لا ينفع الإنسان أن يعتقد معنى لا إله إلا الله دون أن ينطق بلسانه مع قدرته على النطق، فلو أنه اعتقد أنه لا معبود إلا الله، بل وفعل ما فعل من عبادة الله لكنه امتنع عن أن ينطق بلا إله إلا الله مع عدم العذر، فإنه كافرٌ بإجماع المسلمين، وهذا من المعلوم بالضرورة من دين الله.

إذن، لابد من نُطق، لابد من تلفظ، لابد من إخبار، لابد من أن يقول "لا إله إلا الله".

إذن، إذا قال المسلم: أشهد أن لا إله إلا الله، فإنه أولًا يُخبِّر.

ثانيًا: لابد أن يكون إخباره عن علمٍ بما يشهد به، وهذا الذي يُعقل من كلمة الشهادة، أرأيت شاهدًا يشهد عن القاضي على شيءٍ يجهله؟ أتكون شهادته صحيحة؟ الجواب: لا، لابد أن يكون عالمًا بما يشهد به.

إذن، لا بد من العلم بـ"لا إله إلا الله" حتى ينتفع بها، وحتى تكون شهادةً في حقه.

[ثالثًا] ولابد أيضًا من يقين، لابد من قطع، لابد من ثبات، أما إذا قال لا إله إلا الله عالمِا بالمعنى؛ لكنه مُرتاب، أو شاك، أو متردد، فإنه ما أتى بالشهادة، فلابد إذن حينما ينطق الإنسان بلا إله إلا الله أن تكون شهادة.

إذن، ليست لا إله إلا الله كلمةٌ تُقال باللسان فحسب، ولا شيئًا يُعتقد بالقلب فقط؛ إنما هي عقيدةٌ في القلب، وكلمةٌ تُقال، ولها لوازم على الجوارح كما سيأتي.

إذن الخلاصة أنَّ قول المسلم: "أشهد" يعني: أُخبر وأنطق بما أعلم وأتيقن.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **شهادة أن لا إله إلا الله.**

هذه الكلمة العظيمة، لا إله إلا الله أحسن الكلام، وأعذب الكلام، وأعظم الكلام.

لا إله إلا الله هي الكلمة الطيبة، وهي أحسن القول، وهي الحُسنى، وهي القول الثابت.

هي التي خَلق الله الخَلْق من أجلها، وخَلق الجنة والنار لأجلها، وهي العاصمة للنفس، والمال.

لا إله إلا الله بها تُؤخذ الصُحف بالأيْمان أو الشمائل، وبها تَثْقُل الموازين أو تخف، وهي التي أُسست من أجلها الملة، والتي من أجلها انقسم الناس إلى شقيٍ أو سعيد، وإلى مُقربٍ أو طريد.

لا إله إلا الله هي الدِّين؛ أوله، وآخره، وظاهره، وباطنه، ولا يمكن أن يصل الإنسان إلى الله إلا إذا تعلق بهذا السبب، لا إله إلا الله هي السبب، والحبل الذي من تمسك به، وصل إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإلى رحمته.

لا إله إلا الله هي مفتاح السعادة، وهي مفتاح، وهي مفتاح دار السلام، وأسعد الناس بشفاعة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جاء بها صدقًا من قلبه.

إذن كلمةٌ هذه قدرُها، هذه مكانتها، حَريةٌ أن يُريها المسلم ما تستحق؛ من العناية، والاهتمام، والمعرفة، والدراسة، والتأمل، فإن الخير كله في الدنيا، والآخرة مُعلقٌ، ومنوطٌ بالإتيان بها، وتحقيقها، والكف عما ينقضها، والمسلم مُطالب أن يعلم هذه الكلمة بوجوب، هذا قدرٌ لا يُعذر الإنسان فيه، ولا يُسامح فيه، بل يجب عليه أن يعرف هذه الكلمة، وهذه المعرفة تتعلق بأربعةِ مباحث:

أن يعلم: ١/معناها، ٢/وأركانها، ٣/وشروطها، ٤/ونواقضها.

هذه أربعةُ مباحث لابدَّ منها حتى تكون قد قمت بهذا الواجب عليك، وهو أن تشهد أن لا إله إلا الله، لابدَّ من العلم بمعناها، ولابدَّ أن تعرف أركانها، ولابد أن تُحيط بشروطها، ولابد أيضًا أن تتعرف على نواقضها حتى تكون في منأىً عنها، فلا إله إلا الله لها شروط، ولها معنى، ولها أركان، ولها نواقض؛ كالطهارة، وكالصلاة، لابد أن تعرف ما هي الصلاة، وما هي الطهارة، ولابد أن تعرف أركان ذلك حتى تأتي به، لابد أيضًا أن تلتزم بهذه الشروط التي بالطهارة، والصلاة، وكذلك بلا إله إلا الله، وأيضًا حتى تنتفع بطهارتك، وصلاتك، لابد أن تكف عن نواقضها، وهذا فرعٌ عن العلم بذلك.

أما معنى لا إله إلا الله فهذه الكلمة كما ترى مُشتملةٌ على أربعة أشياء:

١/لا، ٢/إله، ٣/إلا، ٤/الله.

أما (لا) فإنها: حرف نفي، وهي التي تُعرف عند أهل اللغة بـ: لا النافية للجنس العاملة عمل إنَّ، فهي وإنَّ ضدان، (لا) للنفي، و(إن) للإثبات، وحق النقيض أن يُخرَّج على حق نقيضه، فإذا كانت (إنَّ) لها اسمٌ، ولها خبر، فـ(لا) أيضًا لها اسمٌ، ولها خبر، ولذا نقول: لا النافية للجنس العاملة عمل إنَّ، تُسمى أيضًا عن اللُغويين بـ: لا التبرئة؛ لأنها تُبرئ جنس اسمها من مضمون خبرها.

(لا إله) هذا الأسلوب أبلغُ ما يكون من النفي، فتلاحظ أولًا أنه جيء بـ(لا)، وما جيء بـ(ما)؛ لأن (لا) أبلغ في النفي من (ما)، و(لا) هذه -كما قد علمت- هي العاملة عمل (إنَّ)، وليس العاملة عمل (ليس)، فـ(لا) التي تعمل عمل (ليس) تنفي الوحدة، تقول: لا أحدٌ في الدار، أو تقول: لا رجلٌ في الدار؛ لكن يمكن أن يكون هناك رجلان، أو ثلاثة؛ لأنَّها تنفي الوحدة، أمَّا إذا قلت: لا رجل في الدار؛ لا واحد، ولا اثنين، ولا أكثر، أليس كذلك؟

إذن **أولًا**: جيء بـ(لا)، وما جيء بغيرها.

وثانيًا: أنَّ كلمة (إله) هنا مفردة، ما قيل: "لا آلهة إلا الله"؛ لأن نفي المفرد أبلغ في نفي الجنس، ثم إن النفي تسلط على (إله)، ومعلوم عند أهل اللغة، والأصول أنَّ النكرة التي نُفيت أبلغ في العموم من النكرة التي هي في سياق النفي، فرقٌ بين الأمرين.

إذن (لا) هذه حرف نفي، ونفيها نفي تنصيص (يعني: تدل بالتنصيص) على نفي ما بعدها.

(لا إله): إله اسم لا وهو مبني على الفتح في محل نصب، وكلمة (إله) في اللغة تعني: معبود، (إله) فِعَالْ بمعنى مفعول، كتاب بمعنى مكتوب، بساط بمعنى مبسوط، فراش بمعنى مفروش.

إذن (إله) بمعنى: مألوه، والعرب إنما تعرف من هذه الكلمة معنى العبادة؛ أله، يأله بمعنى: عَبَدَ يَعبُد، فـ(إله) إذن بمعنى: معبود، وأله بمعنى: عَبَدَ، وألوهية بمعنى: عُبودية، أو عبادة.

لله در الغانيات المُدَّهي   سبحن واسترجعن من تألهي

يعني: تَعَبُّدِ.

إذن إله تعني: معبود، والأصل أن هذه الكلمة لا تُجمع، الأصل أن هذه الكلمة لا تُجمع لولا أن الشياطين اجتالت المشركين، فزينت لهم عبادة غير الله، وإلا فإنه لا أحد يستحق أن يكون إلهًا إلا الله؛ لكن مع الأسف الشديد عُبد غير الله، فصار هناك آلهة.

إذن كل معبودٍ يصح تسميته لغةً إلهًا، ولكن قد يكون إلهًا بحق، وهذا لا يكون إلا لله، لا يكون إلا في حق الله، وقد يكون إلهًا بباطل، وهذا كلُّ ما عُبِدَ سوى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ولا شك أنَّ المعبودات كثيرة؛ فالبشر قد عُبد، والشجر قد عُبد، والحجر قد عُبد، والشمس، والقمر، والكواكب، والحيوانات، أشياء كثيرة عُبدت، فهي آلهة، ولكنها آلهةٌ باطلة، أما الإله الحق، فهو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(لا إله إلا...)، إلا: أداة استثناء، ولاحظ أنه جيء هنا بـ(لا)، و(إلا)، وهذا الأسلوب الذي فيه النفي، والإثبات أبلغ أساليب الحصر، وذلك لإثبات العبادة لله وحده لا شريك له، ونفي العبادة عما سواه.

هنا نحتاج إلى أن نعرف الخبر لأننا قلنا إن (لا) تعمل عمل (إنَّ)، فلها اسمٌ ولها خبر، فما هو خبر (لا)؟

قال بعضهم: إنه اسم الجلالة الله، ولكن هذا غير صحيح، لأنَّ (لا) إنما تعمل في نكرة، واسم الجلالة الله أعرف المعارف.

وينبغي أن تعلم هُنا أنه يُكثر عند العرب نفي خبر (لا) إذا كان معلومًا عند السامع، أو دَلَّت قرينةٌ عليه، وهذا كثيرٌ في كلام العرب لاسيما عند أهل الحجاز، ولاسيما بعد "إلا" حتى إن من العرب كبنو تميم، والطائيين كانوا يلتزمون ذلك، وله نظائر في اللغة، بل في كتاب الله: ﴿قَالُوا لا ضَيْرَ﴾ [الشعراء:٥٠]، «لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ»، «لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ».

ولأجل هذا كان يقول ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وشاع في ذا الباب إسقاط الخبر إذا المراد مع سقوطه ظهر

واجتهد الناس في معرفة الخبر ها هنا، فمنهم من قدَّره: بموجود، فقال: "لا إله موجودٌ إلا الله"، ولا شك أن هذا التقدير غير صحيح، لأنه يترتب عليه أحد لازمين:

[اللازم]الأول: نفي حقيقة لا تُجحد، وهي ألا يكون قد عُبد إلا الله، وهذا غير صحيح، فالواقع أنه عُبد غير الله، قال جَلَّوَعَلَا عن الأنبياء: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات:٨٦].

وأما المشركون فكانوا يقولون كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص:٥]، فلا يصح أنه لم يُعبد إلا الله، بل عُبد غير الله، وإن كانت عبادة غير الله باطلة؛ لكنها موجودة، والآلهة موجودة.

أما اللازم الثاني: فالوقوع في مذهب أهل الحلول الوحدة الوجود الذين يزعمون أن كل ما عُبد، فهو الله؛ إنما هو صورة وتجسيد لحقيقة واحدة، فكل معبود هو في الحقيقة الله، -تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا-، وهذا المذهب من أخبث مذاهب أهل الكفر.

إذن، هذا التقدير غير صحيح.

بعضٌ قدره بـ:(لنا)، "لا معبود لنا إلا الله"، وهذا أيضًا ليس بجيد لأنه قد يُفهم، قد يفهم أحدٌ أن الإله لنا هو الله، ويجوز أن يكون لغيرنا إلهٌ آخر.

إذن الحق الذي لا شك فيه هو أن الخبر لـ(لا) هو: حقٌ، أو: بحقٍ، لا معبود أو "لا إله حقٌ"، ولك أن تُقدر بشبه جملة "لا معبود بحقٍ إلا الله"، وهذا ما دل عليه قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج:٦٢]، [لقمان:٣٠]، وإذا علمنا ذلك علمنا حينئذٍ معنى: "لا إله إلا الله"، أي: أنه لا معبود حقٌ إلا الله.

وبقي اسم الجلالة "الله"، واختلف العلماء في إعرابه اختلافًا طويلًا، وهل هو منصوب، أو مرفوع، والصحيح أنه مرفوع، والصحيح في إعرابه أنه: بدلٌ عن الضمير المستكن في خبر "لا" المحذوف، وهذا أسلم، وأبعد عن الكُلفة في إعراب، في إعراب هذه الكلمة.

الشاهد أن لا إله إلا الله معناه الذي دلت عليه دون شكٍ، ولا ريب هنا أنه "لا معبود حقٌ إلا الله"، بمعنى نفي العبادة عما سوى الله، وإثباتها لله وحده، انتبه لهذا الأمر.

نفيُّ العبادة عما سوى الله، وإثباتها لله وحده.

إذن لا إله إلا الله" دلت على أمرين؛ على نفي، وإثبات، وهذان هما رُكناها.

إذن أركان لا إله إلا الله اثنان: النفي، والإثبات.

نفي العبادة عما سوى الله، وإثباتها لله وحده، ولا توحيد إلا باجتماع الأمرين، لابد من نفي، لابد من تجريد، ولابد من تفريد، وباجتماعهما يكون التوحيد.

أما تجريدٌ فقط، نفيٌ فقط يدل عليه "لا إله"، فإن هذا ليس بشيء فضلًا عن أن يكون توحيدًا، لأنه عدم، والعدم ليس بشيء، فلو كرر الإنسان "لا إله" ألف مرة، هل يكون أتى بالتوحيد؟

الجواب: لا، فالتجريد وحده ليس توحيدًا، والتفريد وحده ليس توحيدًا، لو قال الإنسان: "الله إله"، هل دخل في الإسلام؟ الجواب: لا، لِمَ؟ لأنَّ الإثبات المجرد لا يمنع المشاركة، يمكن أن يُقال: "الله إله"، ويمكن أن يكون معه غيره؛ فالله إله، وعيسى أيضًا إله بناءً على قولنا إن كلمة التوحيد هي إثباتٌ فقط، ولا شك أن هذا أبطَلْ الباطل.

إذن لا يكون التوحيد إلا باجتماع الأمرين؛ تجريد، وتفريد، لابد من نفيٍ، ولابد من إثبات، لابد من تخلية، ولابد من تحلية.

سيمر معنا -إن شاء الله- حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده الذي هو معاوية بن حيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«لما سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: بأي شيء بعثك الله إلينا، قال: بالإسلام، قال: وما آية الإسلام، ما هو هذا الإسلام؟ قال: أن تقول: أسلمت وجهي لله وتخليت»**، هذا هو معنى لا إله إلا الله أن تقول: أسلمت وجهي لله، وهذا هو: (إلا الله)، "وتخليت" تخليت عن عبادتي كل ما سوى الله عَزَّوَجَلَّ، والحديث حديثٌ حسن خرجه أحمد، والنسائي، وغيرهما.

إذن لا توحيد إلا باجتماع الأمرين: الولاء، والبراء، النفي، والإثبات، التجريد، والتفريد، أما أحدهما فقط فإنه لا يغني عن الإنسان شيئًا.

وقد يقول قائل: من أين لك أن هذا هو معنى "لا إله إلا الله"؟

لا معبود حقٌ إلا الله نفي العبادة عما سوى الله، وإثباتها لله وحده أين لك هذا المعنى؟

الجواب: أن هذا المعنى في كتاب الله، وفي سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أظهرُ المعاني، وأوضحُ المسائل أوضح ما يكون من دلالاتِ القرآن هو هذا المعنى الذي دلت عليه لا إله إلا الله، من ذلك قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج:٦٢]، [لقمان:٣٠]، هذه في الحج، وفي لقمان: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[الحج:٦٢]، [لقمان:٣٠]، تأمل قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ثم قال: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الزخرف:٢٧-٢٨].

هذه الكلمة هي: لا إله إلا الله، انظر كيف عبَّر عنها بمعناها، وذلك بقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ﴾ هذا: لا إله، ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ هذا: إلا الله.

تأمل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ انظر هذا معنى لا إله إلا الله الذي بُعثت به كل الرسل ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦]، إثباتٌ، ونفي.

قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ ماذا؟ ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[البقرة:٢٥٦]، هي: لا إله إلا الله نفيٌ، وإثبات.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ هذا النفي، ثم قال: ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾[الزمر:١٧].

إذن هؤلاء الذين أتوا بالنفي، والإثبات هم الذين لهم البشرى ولهم الرحمة.

تأمل في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾[الكهف:١٦]، نفيٌ، وإثبات.

تأمل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ﴾[الشعراء:٧٥-٧٦] ماذا؟ ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾[الشعراء:٧٧]، هذا النفي، هذا: لا إله، ثم قال: ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:٧٧]، هذا هو الإثبات، هو: إلا الله.

تأمل في قول الله جَلَّوَعَلَا في حق إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا﴾ ماذا؟ ﴿مُسْلِمًا﴾[آل عمران:٦٧]، نفيٌ، وإثبات، لأن معنى حنيفًا هو: مائلًا عن الشرك، وهذا يقتضي نفيَّ الشرك، والبراءة من كل معبودٍ سوى الله، ثم كان مسلمًا مستسلمًا لله عَزَّوَجَلَّ وحده، وهذا هو الإثبات.

إذن الأدلة كثيرة في كتاب الله جَلَّوَعَلَا دلت على أن التوحيد هو مجموع النفي، والإثبات.

أمَّا في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكذلك أحاديث كثيرة، منها –ما ذكرته لك قبل قليل، وهو– حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده: «**أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسر الإسلام بقوله: أن تقول: أسلمت وجهي لله وتخليت**»، هذا بمعنى قول: لا إله إلا الله".

من ذلك أيضًا الحديث المشهور حديثُ الصحيحين حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**بُني الإسلام على خمس**» ما هي؟ «**شهادة أن لا إله إلا الله**» إلى آخر الحديث، جاء في رواية عند مسلم: «**على أن يُعبد الله، ويُكفر بما دونه**».

إذن يُعبد الله ويُكفر بما دونه تفسيرٌ لقول: لا إله إلا الله.

لا إله إلا الله تعني: أن يُعبد الله وأن يُكفر بما دونه، الحديث فسر الحديث.

من ذلك أيضًا حديث وفد عبد القيس وهو مُخرج في الصحيحين: «**قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لوفد عبد القيس: آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله**»، جاء في رواية عند مسلم «**آمركم بأربع؛ أن تعبدوا الله، ولا تُشركوا به شيئًا**» هذا هو معنى: لا إله إلا الله.

إلا إله: «**لا تُشركوا به شيئًا**»، إلا الله: «**أن تعبدوا الله**».

إذن هذه –أيها الأخوة الكرام– حقيقة لا إله إلا الله، وهذا هو معنى لا إله إلا الله، إذا علمت ذلك= علمت أنَّ هناك خطأً كبيرًا في فهم هذه الكلمة وقع فيه فئام من الناس، والغالب –يارعاك الله– أن يكون الخطأ في فهم لا إله إلا الله راجعًا إلى الخطأ في فهم **أمرين**:

الأول: الخطأ في تفسير كلمة (إله)، وما أكثره، كثيرٌ من الناس إذا قيل لهم: ما معنى إله؟ قال: خالق، وبالتالي تكون لا إله إلا الله: لا خالق إلا الله، بعض الناس تسألهم: ما معنى إله؟ يقول: إله هو: القادر على الاختراع، أو يقول: إنه مُستغني عمن سواه، والمفتقر إليه كل ما عداه، وهذا في الحقيقة راجعٌ إلى معنى (رب) وليس إلى معنى (إله)، وبين الكلمتين بونٌ شاسع.

(رب) على زِنةِ اسم الفاعل أصلها: رابٌ، وحُذفت الألف تخفيفًا، فصارت: رب، وأما (إله) فعلى زِنَةِ اسم المفعول، فكيف نجعل اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول، أو يكون اسم المفعول بمعنى اسم الفاعل؟

إذن بين المعنيين فرقٌ كبير، فالخالق، والقادر على الاختراع، والمستغني عمن سواه، هذه كلها معاني الربوبية، وليس هذا مدلولَ لا إله إلا الله في المطابقة، نعم الله هو الخالق؛ لكن نحن نبحث في معنى لا إله إلا الله الذي دَلَّت عليه المطابقة، وهذا ليس هو معنى لا إله إلا الله الذي دَلَّت عليه المطابقة.

إذن يُخطئ كثيرٌ من الناس حينما يفهمون من لا إله إلا الله؛ "لا خالق إلا الله"، "لا رازق إلا الله"، وهذا الخطأ في فهم كلمة أدَّى إلى خطأٍ عظيم مع الأسف الشديد، ذلك أن هؤلاء ظنوا أن من اعتقد هذه العقيدة، فإنَّه لا يضره ما فعل إذا كان يعتقد أنه لا خالق إلا الله، ولو دعا غير الله، ولو ذَبَحَ لغير الله، ولو تقرب بالنذر، والطواف لغير الله، ولو جعل بينه، وبين الله وسائط يستغيث بهم، لِمَ؟ لأنه يكون في اعتقاده ماذا فعل؟ أتى بـ"لا إله إلا الله"، وهذه لا تقدح في "لا إله إلا الله".

ولذلك إذا جئت لبعض هؤلاء، وقلت: هذا شرك بالله، يقول: كيف يكون شرك وأنا أقول: لا إله إلا الله، فتقول: وما معنى لا إله إلا الله؟ يقول: أنا أقول "لا خالق إلا الله" أعتقد أنه لا خالق، ولا مُدبر إلا الله، فيا لله العجب! كيف أن المشركين الذين هم أبو جهل، وأبو لهب، وأضرابهما كانوا أعلم بـ"لا إله إلا الله" (أعني بمعناها) ممن ينطق بها، هذا في الحقيقة من العجائب!

عجيبٌ أن ينطق بـ"لا إله إلا الله" من يجهل معناها، وأن يعلم معناها من كان مستكبرًا عن "لا إله إلا الله"، لِمَ؟ لأن المشركين لما «**قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم: قولوا لا إله إلا**

الله تُفلحوا»، ماذا قالوا؟ ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ماذا؟ ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات:٣٥]، مستحيل! كيف نترك اللات، والعُزى، ومَناة؟

السؤال: لماذا أجابوا بهذا الجواب؟ ولماذا كان هذا موقفهم؟

الجواب: لأنهم علموا أن معنى لا إله إلا الله هو عبادة الله وحده، والبراءة من عبادة كل ما سواه، ولذا في الصحيح: **«لما جاء النبي ﷺ إلى أبي طالب، وهو على فراش الموت، وقال له النبي ﷺ: يا عماه، قل لا إله إلا الله، كلمة»**، انظر كيف يسهلها، ويخففها عليه ﷺ **«كلمة أحاج لك بها عند الله»**، فماذا قال أبو جهل الذي كان قرين السوء، وجالسًا عند رأسه؟ ماذا قال له؟ "**أترغب عن ملة عبد المطلب؟**".

لِمَ قال له هذا؟ لأنه فَهِمَ أن لا إله إلا الله تعني البراءة من عبادة كل ما سوى الله، ووالله لو أن النبي ﷺ جاء إلى المشركين، وقال لهم: قولوا لا إله إلا الله، وإن لا إله إلا الله تعني: أنه لا خالق إلا الله أكانوا يستكبرون؟ أكانوا يعادون؟ أكانوا يقاتلون؟

الجواب: لا، لأن هذه العقيدة كانوا يعتقدونها قبل بعثة النبي ﷺ، أليس كذلك؟ وشاهد هذا في كتاب الله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[الزخرف:٨٧]، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[لقمان:٢٥]، ﴿قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[المؤمنون:٨٣-٨٤].

إذن هذه عقيدةٌ ما كانوا يجحدونها؛ إنما الذي كان محل الخلاف بين النبي ﷺ والمشركين؛ إنما هو قضية العبادة وإفراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها، والبراءة من عبادة كل ما سواه.

إذن هذا هو الخطأ الفادح الأول: الجهل بمعنى: إله.

[الأمر الثاني]: في تقدير الخبر، من زعم أن تقدير الخبر هو موجود، وليس بحق، وبالتالي، فإنهم ما فهموا لا إله إلا الله فهمًا صحيحًا، فوقعوا في الخلل الذي يؤدي إليه ما ذكرت لك من اللازمين السابقين.

إذن تلخص لنا أنَّ المعنى الذي دلت عليه لا إله إلا الله، وهو الذي بُعث به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الذي يكون لا غير توحيدًا، وما سواه، فإعراضٌ عن التوحيد، هو أن المسلم عليه أن يعبد الله، وأن يبرأ من عبادة ما سواه، فلو أن الإنسان عَبَد الله؛ لكنه ما كفر بما يُعبد من دون الله، لو أن إنسانًا قال: لا إله إلا الله، قال: أنا أعبد الله لا أتوجه بالعبادة لغيره؛ لكنه إذا مر على أُناسٍ يسجدون لقبر، أو صنم، فقال: أنا ليس لي علاقة بهم، والله أعلم هم مُصيبون، أم مُخطئون، قد يكونوا مُصيبين، وقد يكونوا مُخطئين، هل انتفع بلا إله إلا الله؟ [لا]، لِمَ؟

ما حصل له الشطر الأول، وهو: نفي العبادة عما سوى الله، لابد من الكفر بما يُعبد من دون الله، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ يكون قد أتى بـ"لا إله إلا الله" **﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[البقرة:٢٥٦]**.

إذن حذاري من الجهل، أو الخلل في فهم لا إله إلا الله، فإن الإنسان إذا حصل منه هذا الخلل في لا إله إلا الله، فأي صلاحٍ يأتي منه؟ لا يُنتفع بلا إله إلا الله، وبثمراتها إلا من حَسُن فهمه لهذه الكلمة العظيمة، وهذا أمرٌ من الأهمية بمكان.

إذن عندنا معنى "لا إله إلا الله"، وعندنا أركان "لا إله إلا الله"، وقلنا هما: النفي، والإثبات، وعندنا شروط لـ"لا إله إلا الله".

الركن من ماهية الشيء، والشرط لابد منه في الشيء؛ لكنه خارجٌ عن ماهيته، أليس كذلك؟ فالطهارة شرطٌ في الصلاة، فهل هي جزء من الصلاة؟ أو أمرٌ مطلوبٌ في الصلاة؟ ولكن حقيقتها ليست من ماهية الصلاة.

إذن لا إله إلا الله لها شروط، يسميها أهل العلم: قيودًا، يسمونها: شروطًا، يسمونها: حقوقًا عبر عنها بما شئت، والعلماء منهم من يُجملها، ومنهم من يُفصلها، وعلماء التوحيد اعتنوا كثيرًا ببيان شروط لا إله إلا الله، ومنهم حفيد المؤلف الشيخ عبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ اللَّهُ صاحب ((فتح المجيد))، فإنه قد حررها، فبلغت سبعة شروط:

وبشروطٍ سبعة قد قُيّدت ... وفي نصوص الشرعِ حقاً وَرَدَت
فإنه لم ينتفع قائلها ... بالنطق إلا حيث يستكملها
العلم واليقين والقبولُ ... والانقياد فادرِ ما أقولُ

والصدق والإخلاص والمحبة وفَّقك الله لما أحبه

ونظمها آخر بقوله:

علمٌ يقينٌ وإخلاصٌ وصدقُكَ مع محبةٍ وانقيادٍ والقبولِ لها

لعلنا نمر عليها مرورًا سريعًا حتى يكتمل الانتفاع بهذا الدرس –إن شاء الله–.

أولًا: العلم، لابد بأن يعلم بمعناها هذا أمرٌ واجب حتمي، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾[هود:١٤]، يعني: اعلموا أن لا إله إلا هو، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[محمد:١٩].

إذن هذا قدرٌ واجب، ولا ينتفع بـ: لا إله إلا الله إلا من علم هذا المعنى.

ولذا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رتَّب في الحديث الصحيح دخول الجنة لمن قال لا إله إلا الله، وهو يعلم ذلك **«من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة»**.

إذن لابد من العلم، وإلا أصبح الإنسان متكلمًا بكلامٍ هو فيه كالهاذي، كالنائم الذي يتكلم في نومه، لأنه يتكلم بشيءٍ غير مفهوم كالهاذي الذي يقرأ كلامًا أعجميًا لا يُدرك له معنى.

إذن لابد أن ينطق الإنسان بلا إله إلا الله مستصحبًا العلم بذلك، وبذلك ينتفع بها، وبذلك تكون شهادة في حقه ويكون صادقًا إذا قال: " أشهد أن لا إله إلا الله".

ثانيًا: اليقين، لابد أن يكون مستيقنًا بالمعنى غير شاكٍ، ولا مُرتاب، وفي هذا يقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾[الحجرات:١٥]، قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لأبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: **«فمن لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله مُستيقنًا بها قلبه، فبشره بالجنة»**.

ثالثًا: الإخلاص، ليس المقصود هنا أن يُخلص العبادة لله، فهذا ما دلت عليه لا إله إلا الله بدلالة التضمن؛ إنما المقصود أن يكون مُخلصًا في نُطقه لـ: لا إله إلا الله، حينما يقول: لا إله إلا الله، يريد بها وجه الله، أما لو كان ينطق بها، وهو يريد شيئًا من الدنيا، يريد أن يصاحب المسلمين، أو يتاجر معهم، فقال: "لا إله إلا الله"، ليَكسَب ثقتهم، فإنه لا ينتفع بلا إله إلا الله.

إذن لابد من الإخلاص في قول لا إله إلا الله"، وهذا ما دلت عليه أدلةٌ كثيرة فيها اشتراط الإخلاص في قول لا إله إلا الله، ومنها ما سيأتي الكلام عنه إن شاء الله في قادم الكتاب.

[رابعًا]: **الصدق**: والصدق: مواطأة اللسان للقلب، لابد أن يواطئ لسانه قلبه، ينطق بشيء مستقرٍ في قلبه، فلو أنه قال: لا إله إلا الله بلسانه، وقلبه مُكذبٌ بذلك، فإنه لا ينتفع بـ: لا إله إلا الله كحال المنافقين، فالله جَلَّوَعَلَا شهد أن المنافقين كاذبون: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[المنافقون:١] مع كونهم كانوا يقولون: لا إله إلا الله، وكانوا يقولون: محمدٌ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

لاحظ هنا أن عندنا يقين، وإخلاص، وصدق، هذه كلمات متقاربة المعنى لكن بينها فوارق دقيقة انتبه لها.

الإخلاص يقابله: الشرك، فينتقض هذا الشرط في حق من كان مُشركًا في قول: لا إله إلا الله.

أما الصدق فإنه يقابل: الكذب، وهذا ينتقض يعني قول "لا إله إلا الله"، لا ينفع المنافقين، لأنهم كانوا يقولون شيئًا بلسانهم لا يواطئ قلوبهم.

عندنا يقين، واليقين يقابل: الشك، وهذا حل طائفة من المنافقين، قال الله جَلَّوَعَلَا عنهم: ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[التوبة:٤٥].

إذن الإخلاص يُنافي حال المشركين، والصدق واليقين يُنافي حال المنافقين، وبين هذه الأمور الثلاثة تمازجٌ في الغالب.

[خامسًا]: **المحبة**: لابد أن يحب لا إله إلا الله، وما دلت عليه لا إله إلا الله، ورأس ذلك وأساسه محبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولذا فأي إيمان وأي توحيد لمن لم يحب الله جَلَّوَعَلَا.

وهذا هو حال أهل الإيمان دون شك: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾[البقرة:١٦٥].

وهذه المحبة كما علمت لها أصل، وهو محبة الله، ولها فرع وهو محبة المؤمنين، وموالاتهم، فإن هذا من فروع شرط المحبة، ويلزم من هذه المحبة أيضًا بُغض المشركين، فالله جَلَّوَعَلَاأمرنا بأن نأتسِيَّ بإبراهيم، والذين معه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ

﴿قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[الممتحنة:٤].

وما الدين إلا الحب والبغض والولاء كذاك البراء من كل غاو وآثم

[سادسًا]: **القبول**: والقبول يعني: أن يتلقى الأخبار بالتصديق، ويتلقى الأحكام بالالتزام، انتبه لهذا.

لا إله إلا الله تقتضي من المسلم حتى يكون أتى بها بحق أن يحصل منه القبول بأن يتلقى هذين الأمرين؛ والإسلام إنما يحتوي على أخبار، ويحتوي على أحكام، فالقابل الذي أتى بالقبول هو من تلقى الأخبار بالتصديق، فمهما جاءه من أخبارٍ في كتاب الله، وسُنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلقاها بالتصديق، ولو أنه كذَّب الله، ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كلمة، بل في حرف، فإنه نقض لا إله إلا الله.

إذن، لابد من تلقي الأخبار بالتصديق، ولابد من تلقي الأحكام بالالتزام، بمعنى: يجب أن يعتقد أنه مُلزم، ومُخاطب، ومُطالب، وعليه أن يُذعن لأحكام الله جَلَّ وَعَلَا، بمعنى لو اعتقد أنه يسعه الخروج عن شريعة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحُكمه، فإنه انتقض في حقه قول لا إله إلا الله، كل حُكمٍ من أحكام الله، وأحكام رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجب أن يلتزم به، يجب أن يُذعن له، يجب أن يخضع له، يجب أن يلتزم به بغض النظر عن الفعل، الفعل شيء، والالتزام شيءٌ آخر.

الفعل محكوم بالاستطاعة، وقد يقصر الإنسان، فيكون عاصيًا.

أما الالتزام، فإنه لا يُسامح فيه الإنسان، يجب أن يعتقد أنه مُخاطب، ومُلزم، فلو أنه قال مثلًا: الحج، حُكمٌ أوجبه الله، أليس كذلك؟ يقول: "أنا سأحج"، ويحج فعلًا، ويقول مع ذلك: "الحج ليس واجبًا علي، لست مُلزمًا الحج عليكم أنتم، أنتم تحجون، أنا لا يلزمني أن أحج"، نقول: هذا انتقض في حقه شرط لا إله إلا الل.

في حكم الله لو أنه اعتقد أنه ليس مُلزمًا بحكم الله، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[الأنعام:٥٧]، وأنه يسعه أن يتحاكم إلى غير حكم الله، وأنه لا يجب عليه أن يتحاكم إلى حكم الله.

فنقول: لا شك أن هذا نقضٌ منه لشرط القبول، لاحظ أننا نُفرق بين مسألتين، بين قبول، والتزام، وبين فعل، وعمل، والفعل، والعمل له أحكام؛ لكننا نتكلم في قضيةٍ عقدية، وهي قضية القبول، والالتزام، والإذعان، والخضوع لحكم الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

إذن ما معنى القبول؟ يتلقى الأخبار بالتصديق، ويتلقى الأحكام بالالتزام.

[سابعًا]: **الانقياد**، ومعنى الانقياد أنه لما قال: لا إله إلا الله، وأخلص في قولها، وأحبها، وقَبِل، فصدَّق، والتزم، بقيَّ الآن أن يقوم بالفعل بما التزم به، وصدَّق به، وهذا هو المراد بقول الله جَلَّوَعَلَا ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[النساء:١٢٥]، فإسلام الوجه هو: الانقياد، أن ينقاد بالفعل لأحكام الله جَلَّوَعَلَا، **وهذا ينتقض في حق اثنين:**

الأول: من وقع في الشرك، لأن من وقع في الشرك ما عمل بـ: لا إله إلا الله، وما انقاد لـ: لا إله إلا الله، عرفتم هذا؟

إذن، لابد أن يعمل بالتوحيد، لابد أن يقوم به التوحيد بالفعل، وبالتالي إذا أشرك مع الله شركًا أكبر، فإنه يكون لم يَنْقَد، لم ينقد ما حصل منه انقياد، وبالتالي انتقض شرط الانقياد في حق المشرك، وإن قال: لا إله إلا الله"، نقول: أنت قلت "لا إله إلا الله"؛ لكن انتقض عندك شرط، فـ: لا إله إلا الله تعني أن تعمل بها، وذلك بأن تجعل العبادة لله جَلَّوَعَلَا وحده، فلما جعلت مع الله غيره في العبادة، ما حصل منك انقياد، انتقضت في حقك، في حقك "لا إله إلا الله".

[الثاني]: في حق من تولى وأعرض عن طاعة الله، ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

الأول: عَبَد الله وعَبَد غيره، والثاني: ما عَبَد الله، وهذا حال المنافقين الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ في حقهم: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ قال الله: ﴿وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾[النور:٤٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ: (هؤلاء أتوا بالقول؛ لكنهم تولوا عن العمل)، ما عملوا، وهذا أمرٌ بدهي، فما معنى التوحيد؟ أليس هو عبادة الله وحده؟ إذن، لابد من عبادة، فأي توحيدٍ لمن لم يعبد؟ وأي فائدة من إيمانه بالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وهو لا يُطيعه، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[النساء:٦٤].

ولاحظ أننا نتحدث الإعراض، والتولي عن طاعة الله بالكلية، وليس الذي حصل منه طاعةٌ في الجملة؛ بمعنى: فعل، وترك، أطاع، وعصى، ليس هذا الذي نتحدث عنه؛ إنما نتحدث عن شخصٍ تولى عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ كلية، وما فعل شيئًا مما أوجبه الله جَلَّوَعَلَا، وبالتالي ما حصل منه شرط الانقياد، هذا لم يُسلم وجهه لله.

إذن السؤال الآن: ما الفرق بين القبول، والانقياد؟

الجواب: القبول أصلٌ ثمرته الانقياد، على أنه لا يُجحد أن بين المعنيين تقارُبًا، ولذا قد تجد من أهل العلم من يستعملُ كلمةً في معنى الأخرى؛ لكن بالتفصيل الذي ذكرته لك لعله يزول هذا الاشتباه.

١٠

١٠- باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

(المجلس الثاني)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب

تفسير التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾[الإسراء: ٥٧] الآية.

ما نزال في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، وفي هذا الباب أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أربع آيات وحديثًا فيها بيان التوحيد إما بمعناه أو ببيان ضدِّه، كما سيأتي معنا –إن شاء الله–.

أما الآية الأولى هي: آية الإسراء، وهي قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ لكن إنما يستبين تفسيرها بذكر ما قبلها: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلًا * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[الإسراء: ٥٦–٥٧].

بيَّن حفيد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه إنما يستبين الاستدلال بالآية بذكر ما قبلها.

والحقُ أن وجه الدلالة يتبين من هذه الآية ومما قبلها أيضًا، وعليه فتفسير التوحيد يتبين من هاتين الآيتين من وجهين:

أولاً: في الآية التي أوردها وهي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾[الإسراء: ٥٧] هذه الآية نزلت كما في الصحيحين عن ابن مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ نزلت في قومٍ من الإنس كانوا يعبدون قومًا من الجن، فأسلم الجن وبقيَّ الإنس على عبادتهم.

الله جَلَّوَعَلَا في هذه الآية يقول للمشركين: ﴿ادْعُوا﴾ قل يا نبينا للمشركين: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِهِ﴾[الإسراء: ٥٦]، والأمر ها هنا للتهديد والتوبيخ والتحدي، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي: أنكم زعمتموهم آلهة من دون الله جَلَّوَعَلَا.

والواقع أنهم ﴿فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلًا * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾[الإسراء: ٥٦–٥٧]، يعني: الذين يدعوهم هؤلاء المشركون هم ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾، بمعنى: أن الآية فيها إنكارٌ على الذين عبدوا من يعبُد الله،

هؤلاء الذين تدعونهم من دون الله هم أنفسهم يدعون ويعبدون الله جَلَّوَعَلَا: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾[الإسراء: ٥٧] يعني: أولئك الذين يدعونهم هم ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾[الإسراء: ٥٧]، فالمعبودون الذين تعبدونهم هم في الحقيقة عابدون لله ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، فكيف تعبدون من يعبد الله جَلَّوَعَلَا؟!

كان الأجدر بكم أن تعبدوا من هو المعبود دون أن يكون عابدا وهو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، أما أن تعبدوا عابدًا لله فهذا قبيحٌ في العقل، لو كان هؤلاء معبدون حقا ما عبدوا غيرهم، فلما عبدوا غيرهم دل هذا على أنهم لا يستحقون العبادة.

إذًا هذه الآية في ذم وبيان جهالة هؤلاء الذين يعبدون معبوداتٍ هي أنفسها تَعْبُد الله، كالذين يعبدون المسيح أو أمه، أو يعبدون الملائكة، أو يعبدون الجن المؤمنين، أو يعبدون الأولياء الصالحين، والواقع أن هؤلاء الذين عبدوهم هم يعبدون الله جَلَّوَعَلَا، فكيف يتأتى ذلك يا أيها العقلاء؟!

فدل هذا على بيان التوحيد ببيان ضده، وهو حال المشركين، فإن حال المشركين أنهم يعبدون مع الله غيره.

إذًا التوحيد هو أن يُعبد الله وحده.

ووجهٌ آخر: وهو في قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾[الإسراء: ٥٧]، وفي الآية كما تلاحظ تقديم المعمول على العامل، والمعمول هنا هو الجار والمجرور، وتقديم المعمول على العامل كما هو مقررٌ في علم البلاغة من أساليب القصر، يعني قَصْر الحكم على هذا الذي قُدم دون غيره، فالله جَلَّوَعَلَا وصف هؤلاء المؤمنين الذين عُبدوا مع الله جَلَّوَعَلَا ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾[الإسراء: ٥٧]، ما قال: يبتغون الوسيلة إلى ربهم، كما هو الأصل، لكنه قدم الجار والمجرور ليدل على أن العبادة وابتغاء الوسيلة لا يكون إلا لله وحده لا شريك له، فهذا يدل على حقيقة التوحيد، وأن التوحيد هو عبادة الله وحده لا شريك له.

فهذان وجهان من هذه الآية التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ.

وأما الوجه الثاني: وهو الذي في الآية التي قبلها، فذلك لبيان التوحيد أيضًا من خلال معرفة ضده، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ

﴿عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلًا﴾[الإسراء: ٥٦]، وهذه الآية في كل معبودٍ سوى الله جَلَّوَعَلَا، كل معبودٍ سوى الله جَلَّوَعَلَا ينطبق عليه ما جاء في هذه الآية، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلًا﴾[الإسراء: ٥٦]، كل معبود، كل أحد دون الله جَلَّوَعَلَا لا يملك كشف الضر ولا يملك تحويلا، لا يملك كشف الضر؛ بمعنى: أنه لا يملك إزالته ومحوه، ولا يملك على الأقل أن يحوله من محلٍ إلى آخر، ومن شخصٍ إلى آخر.

فهؤلاء الذين عُبدوا أعجزُ من أن ينفعوا عابديهم، فكيف يُعبدون؟!

العابد إنما يطلب بعبادته حصول النفع وزوال الضر، فإذا كان الذي عبده لا يقدم له شيئًا، لا ينفعه، لا يملك له شيئًا، إذًا ما الفائدة من عبادته؟

وصدق الله إذ قال: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[الأعراف: ١٩٧]، لا يستطيعون أن ينصروكم يا معشر العابدين، بل هم أنفسهم لا يستطيعون نصر أنفسهم، لا يملكون لأنفسهم شيئًا، وهذا ينطبق على كل أحد حتى الأنبياء، وحتى الأولياء، وحتى الملائكة، وحتى الجن، كلٌ لا يملك أن يكشف الضر، ولا أن يتصرف في هذا الكون، إلا بمشيئة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

أما الله وحده فهو الذي يفعل ما يشاء، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو الذي بيده التدبير، وهو الذي يملك أن ينفع أو يضر سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وما سواه فعبادته ضلالةٌ في العقل.

رأيتُ مرةً في إحدى الدول قبرٌ أو ضريحًا أصابته صاعقةٌ من السماء، ضريح يزعمون أنه لولي من أولياء الله، يتوجهون إليه بالدعاء والنذر والطواف والذبح، ومن عجيب تقدير الله أنه وحده أصابته الصاعقة من السماء دون بقية بيوت القرية، حتى إني رأيت حجارة هذا الضريح متناثرة، فقلت للأخوة الذين كانوا معي: أما كان في هذا عبرة لهؤلاء الذين يعبدون هذا الولي، أما كان في هذا الذي يرونه عبرة أنه ما استطاع أن يدفع عن نفسه، فكيف يستطيع أن يدفع عنهم، فقالوا: قد قلنا لأهل القرية ذلك، فكان جوابهم أن قالوا: إن الولي رجلٌ رحيم قال: أنا أتحملها دونكم.

يا للعجب!! انظر كيف تلبيس إبليس على هؤلاء المساكين، فقلت لهم: عجيبٌ شأن هذا الإله الضعيف، أما كان يستطيع أن يدفعها بالكلية بدل أن تنزل على أم رأسه؟ فإبليس

له تزين في حال هؤلاء المشركين، يزين لهم الشرك بالله وعبادة غير الله، -نسأل الله السلامة والعافية-.

إذًا يتبين التوحيد من معرفة ضده، وهو عبادة غير الله.

إذًا الشرك عبادة غير الله، ولذا يتبين أن التوحيد عبادة الله وحده لا شريك له، فإنه على حدِّ ما قال المتنبي:

وَنَذيمُهُمْ وبِهِمْ عَرَفْنَا فَضْلَهُ   وبِضِدِّها تَتَبَيّنُ الأشْياءُ

فإذا عرفت الشرك فإنك ستعرف التوحيد، كما أنك إذا عرفت التوحيد ستعرف الشرك؛ لأن هذين ضدان لا يجتمعان، فمتى ما وجد التوحيد فإنه لا يكون الشرك، ويُعرف أنه ضده، إذا كان التوحيد عبادة الله، فالشرك عبادة غير الله مع الله، والعكس صحيح.

إذًا هذان وجهان في بيان التوحيد، وتفسير التوحيد، وتفسير شهادة أن لا إله إلا الله من هذه الآية.

وهاهنا وقفة عند قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾[الإسراء: ٥٧]، الوسيلة ذُكرت في القرآن في هذا الموضع في آية الإسراء، وفي آية المائدة أيضًا: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[المائدة: ٣٥]، والوسيلة في اللغة: بمعنى القربى.

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا   وعاد التصافي بيننا والوسائل

يعني: التقارب أو القربى، أو ما يكون به التقرب.

فالوسيلة في اللغة هي: القربى، هي التي يتوصل بها ويتقرب بها إلى الشيء، وهي أخص من الوصيلة، كما يقول الراغب في ((مفرداته)): (أخص من الوصيلة لأنها تتضمن معنى الرغبة).

إذًا ما يُتوصل ويُتقرب به إلى الشيء هذا يسمى الوسيلة، والله جَلَّوَعَلَا يُتقرب إليه، ويُتوصل إلى رحمته بطاعته سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ولا طاعة إلا بإتباع نبيه محمدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

إذًا تبين لنا أن قوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾[الإسراء: ٥٧]، وأن قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[المائدة: ٣٥] يعني: الطاعة لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

وذكر ابن كثيرٍ في ((تفسيره)) عند آية المائدة أن هذا لا خلاف فيه بين المفسرين، فالوسيلة بمعنى: القربى.

وذكر بعضهم أن الوسيلة هي: الحاجة، وروي هذا عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا لما سأله نافعٌ بن الأزرق عن الوسيلة، قال: الحاجة، قال: فهل تعرف هذا العرب في لغتها؟ قال: أمَّا سمعت قول عنترة:

إنَّ الرِّجالَ لهمْ إليْكِ وسيلَةٌ   إنْ يأْخذوكِ تكحَّلي وتخضَّبي

ويكلمها على سبيل التحذير والإنذار؛ لأنها كانت تلومه على عنايته بفرسه، فبين لها في أبياتٍ ذكرها، بين لها أن عنايته بفرسه في سبيل دفع الأعداء، وإلا فلو لم يعتني بهذا الفرس لكان ذلك من أسباب تغلب الأعداء عليه، وبالتالي سوف يأسرونك يا أيتها الزوجة، وبالتالي سوف تكون لهم إليكِ حاجة، وليس أمامك إلا أن تتكحلي وتتخضبي.

ويمكن أن يقال: إن الحاجة يمكن أن يعود معناها في حق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، يعني في حق ابتغاء الوسيلة إلى الله إلى معنى القربى، فإن طلب الحاجة يعني الدعاء والسؤال لله جَلَّوَعَلَا هو من جملة القرب التي يُتقرب بها إلى الله جَلَّوَعَلَا ، فالدعاء هو العبادة، كما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

الشاهد أن هذا هو الصواب الذي لاشك فيه، أن الوسيلة في هاتين الآيتين هي التقرب إلى الله سبحانه بطاعته.

وبالتالي فإن الذي يروج له عُبَّادُ القبور من أن الوسيلة هي الشيخ أو الولي الذي يقربك إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فلا يمكن أن تسير إلى الله إلا بوسيلة هي الشيخ، هي السيد، هي الولي، الذي تتوجه إليه برغبتك، ورهبتك، وخضوعك، وتعبدك، وهو يرفع هذه التعبدات وهذه الطلبات والحاجات إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

والواقع أنَّ هذا الاعتقاد هو اعتقاد المشركين الأولين سواء بسواء، هو اعتقاد أبي جهل وأبي لهب، هو الذين قال الله فيهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[يونس: ١٨]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[الزمر: ٣].

إذًا من أبطل الباطل، بل من التلاعب بكتاب الله، أن تفسر الوسيلة لهذا التفسير، فهذا تفسيرٌ باطل محدث، بل هذه الوسيلة هي الكفر الأكبر المخرج من الملة.

إذًا عليك رعاك الله أن تعلم أن الوسيلة والواسطة بين العبد وبين ربه نوعان:

[النوع الأول]: وسيلةٌ نفيها كفر.

[النوع الثاني]: ووسيلةٌ إثباتها كفر.

أما الوسيلة التي نفيها كفر: فهي وسيلةٌ وواسطة الرسول في تبليغ شرع الله جَلَّوَعَلَا، فالرسول وسيلةٌ وواسطةٌ بين العباد وبين الله عَزَّوَجَلَّ في تبليغ الشريعة، فلا يمكن أن يعلم العباد شريعة الله ما يحبه الله وما يبغضه إلا من طريق الرسول، وبالتالي فنفي هذه الواسطة كفر.

أما النوع الثاني فإنها الواسطة التي إثباتها كفر: وهي التي كان عليها المشركون قديمًا، وعليها المشركون حديثًا، وهي اتخاذ معبودات يتقرب إليها الإنسان، وهي تُقرب الإنسان إلى الله جَلَّوَعَلَا، فهذا حقيقة ما عليه المشركون.

إذًا تنبه إلى هذه المسألة المهمة، وهي أن الوسيلة التي أمر الله جَلَّوَعَلَا بابتغائها، وهي التي كان يطلبها الصالحون من عباد الله، هي طاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

بعض الناس حمل الوسيلة ها هنا على دعاء الله جَلَّوَعَلَا مع التوسل إليه بالجاه، والحق، والأنبياء، والأولياء، بمعنى: أنه يسأل الله فيقول: يا الله أعطني أو أسألك بجاه فلان، أو بحق فلان، أو بفلان، وكذلك الإقسام على الله: اللهم أقسم عليك بفلان إلا ما أعطيتني.

والصواب أن هذا معنىً مُحدث ومبتدع، ولم يقله في هذه الآية أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولا السلف الصالح.

والصواب أن هذا التوصل توسلٌ بدعي لا يجوز، ليس شركًا بالله لكنه توسلٌ بدعي؛ لعدم الدليل الشرعي عليه، هذه أدعية النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بين أيدينا، وهذه أدعية أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بين أيدينا، وهذه أدعية التابعين وأتباعهم لا نجد فيها شيئًا من هذا التوسل، ولو كان هذا خيرًا لسبقونا إليه، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾[الزخرف: ٢٦ -٢٨] الآية.

هذه الآية من أعظم وأبين ما يفسر كلمة التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله، وذلك أن إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ بيَّن معنى لا إله إلا الله في هذه الآية، ألا وهي ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾[الزخرف: ٢٦-٢٧]، يعني: إلا الذي خلقني، وهو الله عَزَّوَجَلَّ.

فهذه الآية جمعت ركني لا إله إلا الله النفي والإثبات:

أما النفي: فهو قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾[الزخرف:٢٦] فهذا يقابل في كلمة التوحيد (لا إله).

وقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾[الزخرف:٢٧] فإنه يقابل في كلمة التوحيد (إلا الله).

إذًا عبر عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ عن لا إله إلا الله بمعناها، ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾[الزخرف:٢٨]، هي لا إله إلا الله، فلم يزل في عقبه وذريته من يقول: لا إله إلا الله، ومن يعمل بلا إله إلا الله.

إذًا هذه الآية تفسيرٌ واضح لمعنى لا إله إلا الله، فدخلت في هذا الباب بوضوح، باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

وقد بيَّن الله جَلَّوَعَلَا في مواضع من القرآن أن هذا قد تكرر من إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، وهذا في مواضع من كتاب الله، من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧]، النفي والإثبات، البراءة والولاء، التخلية والتحلية، وهذا كله قد مضى الحديث فيه في الدرس الماضي، وقلنا: إنه لا يكون الإنسان متشهدًا شهادة التوحيد، ولا قائمًا بلا إله إلا الله، إلا إذا جمع بين الأمرين: النفي والإثبات، نفي عبادة ما سوى الله، وإثبات العبادة لله وحده؛ لأن النفي المجرد عدم، والعدم ليس بتوحيد، والإثبات مجرد لا يمنع المشاركة، وهذا ليس بتوحيد، فالتوحيد مجموع الأمرين: التجريد والتفريط بمجموعها يكون التوحيد.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:
وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾[التوبة: ٣١] الآية.

هذه الآية فيها بيانٌ لمعنى لا إله إلا الله من جهة بيان، أو معرفة ضدها.

.... وبِضِدِّها تَتَبَيّنُ الأشْياءُ

فإن من الشرك أن يتخذ الإنسان غير الله جَلَّوَعَلَا ربًا، ومن ذلك أن يطيعه في التحليل والتحريم مُصدقًا مُعتقدا، فإنَّ هذا هو الذي جاء في هذه الآية في حال أهل الكتاب، أنهم ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[التوبة: ٣١].

﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ يعني: علماؤهم، أحبار: جمع حَبر أو حِبر، يجوز فيها الفتح ويجوز فيها الكسر، الأحبار: هم العلماء، والرهبان: هم العُباد، اتخذوهم أربابًا من دون الله بأن حرموا لهم الحلال أو أحلوا لهم الحرام، فأطاعوهم في ذلك معتقدين مصدقين، بمعنى أنهم قالوا لهم: إن هذا الأمر الحلال حرام، فاعتقدوه حرامًا، أو أن الأمر الحرام الذي حرمه الله جعلوه لهم حلالاً فاعتقدوا أنه حلال.

من كان حاله كذلك فإنه قد وقع في الشرك بالله جَلَّوَعَلَا، وهذه الحال تضاد التوحيد، وبالتالي من التوحيد أن يُعتقد تحليل ما أحل الله، وتحريم ما حرم الله، فمن خلف في ذلك فإنه يكون قد اتخذ مع الله جَلَّوَعَلَا ربًا، وهذا هو الشرك الذي هو ضد التوحيد.

ولاحظ أنه قال في هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً﴾[التوبة: ٣١]، ولم يقل هاهنا: آلهة، وكأنَّ ذلك والله أعلم لأن شرك الطاعة إلى منافاة توحيد الربوبية أقرب منه إلى منافاة توحيد الألوهية، والله تعالى أعلم.

وعلى كل حال هذه الآية بوّب لها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابًا خاصًا سيأتي معنا إن شاء الله في قادم الكتاب، ونفصل القول فيه بمشيئة الله جَلَّوَعَلَا .

لكن باختصار تنبه هنا إلى الفرق بين مقامين، يغلطُ بعض الناس في عدم التفريق بينهما، وقد بينَّ ذلك أهل العلم المحققون كشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره، وذلك أن مسألة التحليل والتحريم تنقسم إلى حالتين:

الأولى: أن يَأمر عالمٌ أو عابد أو مُقَدَم آخر بأن يعتقد الحرام حلالاً، يقول له: الخمر حلال، فيعتقد ذلك، ويصدق كلامه، وهو يعلم حكم الله.

أو يحرم الحلال، يقول: الخبز حرام، يوافقه على ذلك ويعتقد أن الخبز حرام، مع علمه أن الله جَلَّوَعَلَا أحله، فهذا لاشك أنه شركٌ بالله عَزَّوَجَلَّ، ويدخل في قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

أما الحالة الثانية: فهي أن يوافقه في العمل لا في الاعتقاد، بمعنى أن يأمره بفعلٍ محرم فيفعله، مع اعتقاده أنه محرم، أمره بشرب الخمر، فشرب الخمر مطيعًا لهذا الآمر دون اعتقاد أن الخمر حلال، بل هو لازال يعتقد أنها حرام، أو منعه من حلال فامتنع مع اعتقاده أنه حلال، فمثل هذا يرجع إلى باب المعاصي لا إلى باب الشرك الأكبر، تنبه إلى الفرق بين الأمر، والمقام فيه بسطٌ سيأتي في محله إن شاء الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] الآية.

هذه الآية في سورة البقرة فيها بيان تفسير التوحيد من جهتين أيضًا:

أما الأولى: بمعرفة ضد التوحيد وهو الشرك، وهو ما بينه عَزَّوَجَلَّ من حال هؤلاء المشركين، الذين يحبون غير الله كحب الله، فمن أحب غير الله كحب الله فإنه يكون قد أشرك مع الله، وهذا ضد التوحيد، التوحيد: هو محبة الله عَزَّوَجَلَّ دون محبة من سواه محبةً كمحبة الله، هذا هو التوحيد، وما سوى الله فإنه يحب لأجل الله، أو بإذن الله.

هذا هو التوحيد أن يحب ما سوى الله لأجل الله، أو بإذن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، يأذن ويبيح سبحانه هذه المحبة، فتكون حينئذٍ محبةً صحيحة، وما سوى ذلك فإن هذه المحبة قد تكون معصية، وقد تكون شركًا بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وذلك إذا كان الإنسان حاله كحال هؤلاء المشركين الذين أحبوا غير الله كمحبة الله، منزلة ربهم سبحانه في قلوبهم هي منزلة هذه الآلهة والمعبودات التي أحبوها، يحبونها كحب الله، فلاشك أن هذا شركٌ بالله به يتبين معنى التوحيد.

وجهٌ ثانٍ في الآية: وهو في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾[البقرة:١٦٥]، هذا هو التوحيد، أن يكون الله في قلبك أحب إليك من كل شيء، هذا هو حال أهل التوحيد أن يكون أعظم محبوبٍ إليهم هو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وبهذا يتبين لنا تفسير التوحيد، فمحبة الله فردٌ من أفرادِ التوحيد به يتبين كيف يوحد الله، بأن يكون الله في قلب الإنسان أحب إليه من كل شيء ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾[البقرة:١٦٥].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي الصحيح عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله = حرم ماله ودمه، وحسابه على الله عَزَّوَجَلَّ».

وشرح هذه الترجمة: ما بعدها من الأبواب.

ختم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب بإيراد هذا الحديث، قال: (في الصحيح): يعني في صحيح مسلم، وهذا الحديث حديث أبي مالكٍ الأشجعي عن أبيه، هو تابعي يروي عن أبيه، ولم يروي عن أبيه إلا هو، أبوه طارق بن أشيم الأشجعي صاحبي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، يروي هذا الصحابي الجليل عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن: **«من قال لا إله إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله»**.

لاحظ هذا القيد المهم في قوله: **«وكفر بما يُعبد من دون الله»**، يقول: لا إله إلا الله مع كفره بما يُعبد من دون الله، هنا يكون مسلمًا، لما؟ لأنه قال: **«حرم ماله ودمه»**، وهذا هو المسلم وحسابه على الله؛ لأن قاعدة الشريعة معاملة الناس بالظاهر، فمن كان قائلاً: لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبد من دون الله، فإنه يكون مسلمًا فيحرم ماله ودمه.

إذًا هذا قيدٌ مهم يبين لك حقيقة لا إله إلا الله، وأنه لا يكون التوحيد إلا بالكفر بما يُعبد من دون الله.

قد يقول قائل: قد مر بنا أن لا إله إلا الله ركنان: لا إله، وإلا الله، ولا إله إلا الله هذا ركن هو الكفر بما يُعبد من دون الله، فما وجه ذكره في الحديث مع أنه داخلٌ في الشطر الأول؟ فمن قال: لا إله إلا الله لا يقول هذا حقًا وصدقًا إلا إذا كان قد كفر بما يُعبد من دون الله، فما الحاجة لقوله بعد ذلك: **«وكفر بما يُعبد من دون الله»**؟

الجواب عن ذلك: أن عطف قوله: «**وكفر بما يُعبد الله**» من عطف الخاص على العام، هذا من باب عطف الخاص على العام، وإلا فكفر بما يُعبد من الله، هذه الجملة هي هي لا إله، ولكنه عطفها على لا إله إلا الله للتأكيد.

والأمر كما قال حفيد المؤلف الشيخ عبد الرحمن في ((حاشيته))، قال: (المقام يستحق التأكيد)، لاشك أن المقام مقامٌ عظيم يستحق أن يؤكد هذا المعنى، لاسيما مع كثرة الغفلة عنه، لاسيما في هذه الأزمان المتأخرة، كثيرٌ من الناس يغفل عن هذا المعنى العظيم، وهو الذي لا يكون توحيد إلا بوجوده، وهو أن يكفر بما يُعبد من دون الله.

ولذا ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آخر مسألة ذكرها في آخر هذا الباب، قال:

في قوله: «**وكفر بما يُعبد من دون الله**» (وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله؛ فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى الكفر بما يُعبد من دون الله، فإن شك أو توقف؛ لم يَحْرُمْ ماله ولا دمه.

فيا لها من مسألة ما أجلها! ويا له من بيان ما أوضحه! وحجةٍ ما أقطعها للمنازع!)

وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإن هذا الأمر أمرٌ عظيم، كثيرٌ من الناس مع الأسف الشديد لا يتنبه له، لابد من الكفر بما يُعبد من دون الله، ولا يكون الإنسان موحدًا إلا بذلك، هذا كلام نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ليس عبثًا وليس لغوًا، لا يكون الإنسان مسلمًا إلا إذا عبد الله ومع ذلك كفر بما يُعبد من دون الله.

ولأجل هذا ذكر إمام الدعوة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نواقض التوحيد: (من لم يُكفر المشركين، أو شك في كفرهم، أو صحصح مذهبهم) من قال: إن اليهود والنصارى مؤمنون ناجون عند الله من أهل الجنة، فهذا لاشك أنه ما كفر ما يُعبد من دون الله، من قال: إن المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يجوز أن يكون إلهًا، أو على الأقل لا أدري ربما يكون إلهًا حقًا وربما لا يكون، ربما يستحق الإلهية وربما لا يكون، هذا لا تنفعه لا إله إلا الله، لابد من الكفر بما يُعبد من دون الله، وإلا فإنه لا ينتفع بقول: لا إله إلا الله، وإن كرر ذلك عدد الأنفاس.

تنبه إلى هذا القيد المهم، وتدبره لأجل أن ينجو الإنسان، لابد من الجمع بين الأمرين، لابد من الولاء ولابد من البراء، لابد من التجريد ولابد من التفريد، لابد من أن يكفر

الإنسان بما يُعبد من دون الله، لابد أن يعتقد بطلان عبادة غير الله، كل عبادةٍ لغير الله عَزَّوَجَلَّ فهي باطلة، يجب أن يعتقد بطلانها، ويجب أن يكفر بها، ويجب أن يبغضها، ويجب أن يبغض أهلها، إلا أنَّ بغض أهلها في تفصيل، فإنه لم يبغض أهلها، بمعنى أنه أحبهم لأجل أنهم يفعلون الشرك، فهذه المحبة شركٌ بالله.

أما إذا أحبهم لسببٍ آخر كدنيا، ولذة يكتسبها الإنسان منهم، فإن هذه المحبة معصية وليست شركًا، تنبه إلى هذا المقام العظيم.

ثم إنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بينَّ أن شرح هذه الترجمة، أن بيان التوحيد وتفسير لا إله إلا الله، ما سيأتي من أبواب، ستون بابًا ستأتيك كلها تفسيرٌ وتوضيحٌ وتفريغٌ لمعنى التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله، فاجمع همتك لفهم هذه الأبواب، ولفهم هذا الكتاب حتى تفوز لمعرفة التوحيد -إن شاء الله-.

١١

١١ – بابٌ من الشرك لبسُ الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بابٌ

من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما؛ لرفع البلاء أو دفعه.

إنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن قدَّم تلك المقدمات العظيمة التي أفصحت عن حقيقة التوحيد، وأهميته، والخوف من رده، والحث على الدعوة إليه، ناسب الآن أن ينتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى بيان تفسير التوحيد، وذكر أفراده، وأفراد ما يضاده.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب شرع في تفصيل ما أجمله في الباب الماضي، الباب الماضي في تفسير التوحيد، وشهادة ألا إله إلا الله، وشرع الآن في ذكر جزئيات هذا التفسير.

وبدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب، وما بعده في تفسير التوحيد ببيان ضده؛ إذ بضدها تتبين الأشياء، وهذا المناسب لكلمة التوحيد إن شطرها الأول في النفي، فناسب أن يبدأ في بيان معنى لا إله إلا الله، ومعنى التوحيد ببيان ما يضاده، أو يضاد كماله الواجب.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**باب من الشرك**): من هنا تبعيضية؛ يعني: من أفراد الشرك، ومن أنواع الشرك.

(**لُبْسُ الحلقة**): الحلقة: هي ما استدار من المعدن، وغيره، ومنه يُقال للمجتمعين على ذكر، ونحوه إنه في حلْقة، حلقة: بسكون اللام، ويجوز فتحها، حلْقة، وحلَقة.

قال: (**باب من الشرك لبس الحلقة والخيط**): الخيط معروف، ومراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ اللُّبْسُ الخاص الذي هو على صفة معينة؛ وذلك بأن يكون بقصد رفع البلاء، أو دفعه، هذا هو محل بحثنا في هذا الباب، ليس اللبس المطلق؛ إنما هذا اللبس الذي اقترن باعتقاد، وقصد؛ ألا وهو رفع البلاء، أو دفع البلاء.

(**رفع البلاء**): هو بعد نزوله، فيلبس هذا الخيط أو تلك الحلقة، والقصد أن يكون ذلك سببًا في إزالة البلاء بعد نزوله.

و(**أما دفع البلاء**): فإنه يلبس الحلقة، أو الخيط بقصد أن يكون ذلك سببًا في دفعه قبل نزوله.

إذن رفع البلاء ما كان بعد نزوله، ودفعه ما كان قبل نزوله، وما يلبسه المشركون، أو أشباه المشركين من هذه الأمور؛ إنما يتنوع أصلهم في ذلك إلى هذين الأمرين:

[الأول]: قد يلبسون شيئًا، والقصد أن يكون سببًا في إزالة مرض، أو سحر، أو عين، أو مس، أو ما شاكل ذلك بعد أن يُصاب الإنسان.

[الثاني]: وقد يكون اللابس لذلك قصده ألا يُصاب، هو سليم، ويريد ألا يُصاب بعين، أو لا يُصاب بمرض، أو لا يُصاب بسحر، أو ما شاكل ذلك، فهذا هو محل البحث في هذا الباب أن يلبس الإنسان حلقة، أو خيطًا، أو نحوهما أي شيء آخر ليس المقصود هو أن يكون من جنس معين، أو على هيئة معينة.

أي شيء من هذا الباب يلبسه الإنسان بهذا القصد، إما لرفع البلاء، أو دفعه فإنه داخلٌ في هذا التبويب، وأنه من الشرك، ولا شك أنَّ الواقع فيمن ينتسب إلى الإسلام مع الأسف الشديد، مؤسفٌ في هذا الجانب، وللناس الذين هم متأثرون بهذه الوثنيات لهم فيها تفنن، ولهم فيها تنويع.

ويتطور من مكان إلى آخر، ومن زمان إلى آخر، فمن الناس من لا يلبس حلقةً، أو خيطًا؛ لكنَّه يعلق مثلًا حذوة حصان؛ يعني: نعل الحصان على بابه، أو على سيارته، والقصد أن يكون ذلك سببًا في دفع العين.

أو تجده يعلق في سيارته صورة كف، أو صورة نعل صغيرة يعلقها على السيارة، والقصد أن يكون ذلك سببًا لدفع أذى العين، أو الحوادث، أو ما شاكل ذلك.

ولربما لبست المرأة ما يسمى بالعين الزرقاء التي تباع في المحلات على هيئة قلادة، أو ما شاكلها، والقصد أن تكون سببًا في دفع أذى العين.

أو تجده يُعلِّق ذلك على طفله، ومن الناس من يستخدم بعض الأعضاء من بعض الحيوانات لهذه القصود تجد منهم من يضع رأس حمار، أو رأس كلب في مزرعته، ويقول: أنه يدفع أذى الجن، وبعضهم يعلق على طفله منقار غراب، أو كما يقولون: عين ثعلب، أو عين ابن آوى، أو قطعة جلد من ذئب يضعها على ولده، أو يضعها في بيته، أو في دكانه؛ لأجل أن يكون ذلك سببً في دفع البلاء.

بعضهم يلبس خاتم من عقيق، ويزعم أنه يدفع عنه أذى السم لو أكل أو شرب شيء فيه سم فإن ذلك يدفع عنه، إلى غير ذلك من صور كثيرة كلها ترجع إلى معنىً واحد، وهو أنه شيء يُلْبس، والقصد أن يكون سببًا في دفع البلاء قبل نزوله، أو رفعه بعد نزوله.

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين حكم هذا اللُبس، وأنه من الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، لا شك أن هذا اللبس من المحرمات باتفاق العلماء، ويتفاوت ذلك التحريم بحسب الحال.

قد يكون ذلك شركًا أصغر: وذلك إذا اعتقد اللابس أنَّ هذا الذي لبسه مجرد سبب، وإلا فإن الذي ينفع الله جَلَّوَعَلَا، هذا شركٌ أصغر.

أما إذا عَظُمَ تعلق اللابس بما لبس حتى اعتقد الاستقلال بالتأثير في هذا الشيء الملبوس، فإنه يكون ولا شك **شركًا أكبر**.

وكونه شركًا أكبر ظاهر، فإن من اعتقد أن غير الله عَزَّوَجَلَّ يملك نفعًا، وضرًا استقلالًا عن مشيئة الله، فهذا من المعلوم بالضرورة أنه شرك أكبر في باب الربوبية.

أمَّا الحالة الأولى: وهو كون هذا اللبس **شركًا أصغر**، فإن النصوص قد جاءت به؛ أعني وصف هذا الأمر بأنه شرك، وسيمر معنا إن شاء الله: (من تعلق تميمةً، فقد أشرك)، وسيأتي في الباب القادم إن شاء الله قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إن الرقى، والتمائم والتولة شرك**».

أما كون ذلك شركًا أصغر: فيرجع إلى ثلاثة أمور:

[الأمر الأول]: من تعلق ذلك اعتقد سببًا لم يجعله الله سببًا لا شرعًا، ولا قدرًا، والقاعدة عند أهل العلم: أن من اتخذ سببًا لم يجعله الله سببًا لا شرعًا ولا قدرًا، فقد أشرك الشرك الأصغر.

الأسباب التي تؤدي إلى المقصود تنقسم إلى قسمين:

تنقسم إلى أسباب شرعية، وإلى أسباب قدرية.

أما الأسباب الشرعية: فهي التي دل الشرع على أنها نافعة، وذلك كالرقية بالقرآن مثلًا سببٌ لحصول الشفاء دل على هذا الشرع.

وقد يكون السبب سبب قدريًا: بأن يجعل الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ في شيء إما أنه سبب موصل إلى شيء ما، مثال ذلك: شرب الماء سبب لحصول الري، أو الأكل سبب لدفع الجوع.

والمرجع والضابط في كون هذا سبب قدرياً هو: التجربة الظاهرة، فالتجربة الظاهرة هي التي تضبط ذلك، فمتى عُرف بالتجربة الظاهرة، والتكرار، أو بشهادة أهل الخبرة أن هذا

الأمر سبب في كذا، فإنه يكون سببًا قدريًا، ولا حرج في استعماله؛ كالأدوية مثلًا يثبت بالتكرار، أو بشهادة أهل الخبرة، وأهل الطب أن هذا الدواء نافع بإذن الله جَلَّوَعَلَا في علاج مرض الصدر، أو مرض البطن، أو ما شاكل ذلك، هذا سبب قدري لا حرج في استعماله **بشرط**: أن يعتقد الإنسان أنه سبب، والمعول وتعليق القلب إنما هو على من بيده النفع والضر، وهو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فمن استعمل السبب على هذا الوجه إذا كان سببًا شرعيًا، أو قدريًا مع اعتقاد أنه مجرد سبب يُفعل واعتماد القلب على الله، هذا لا حرج فيه، وقد يكون هذا جائزًا، وقد مستحبًا، وقد يكون واجبًا بحسب أحوال المسائل.

إذن هذا الذي علَّق خيطًا من قماش، أو لَبِسَ أسورة من حديد، أو نحاس، وقال هذا سبب في دفع مرض، أو سبب في دفع عين، أو ما شاكل ذلك نظرنا في هذا الأمر، فوجدنا أنه لم يأتي في الشريعة أن هذا سبب ينفع في ذاك إذًا ليس سببًا شرعيًا.

ثم من حيث التجربة الظاهرة، فإنه ليس هناك مناسبة بين خيط، ودفع أذى العين، أو أن يلبس الإنسان معدنًا مثلًا، ويكون سببًا في دفع الحمى، أو ما شاكل ذلك، ليس هناك دليلٌ واقعي حسي على أن هذا سبب في دفع ذاك، وبالتالي فهذا الذي لبس هذه الحِلَق، أو هذه الخيوط اتخذ سببًا لم يجعله الله سببًا لا شرعًا، ولا قدرًا، فيكون قد أشرك الشرك الأصغر.

الأمر الثاني: فهو أن من لبس هذه الحلق، أو الخيوط، فالغالب أنه حصل في قلبه تعلق بوجه ما بهذه الخيوط، التفت قلبه إلى هذه الأمور التي علقها، ولم يعتمد بقلبه، ويتوكل بقلبه على الله جَلَّوَعَلَا، وهذا الالتفات وهذا التعلق، وحصول نوع من التوكل لا شك أنه شعبة من شعب الشرك.

[الأمر الثالث]: يذكره غير واحد من أهل العلم؛ وهو أن لبس مثل هذه الأمور وسيلة إلى الوقوع في الشرك الأكبر، والقاعدة التي ذكرها غير واحد من أهل العلم: أن وسائل الشرك الأكبر شرك أصغر، وهذا أمر لا يُجحد، ولا يُنكر أن من علق مثل هذه الخيوط، أو علق مثل هذه الحِلَق، أو ما شاكلها، فإنه يتدرج به الشيطان شيئًا فشيئًا حتى يصبح اعتماده، وتوكله بالكامل على هذا الشيء الذي علقه، فيكون قد خطا معه الشيطان

خطوات، والشيطان ليس له خطوة واحدة؛ إنما له خطوات، يمشي مع الإنسان في التلبيس والتسويل خطوةً خطوة، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[البقرة:٢٠٨].

إذن لهذه الأوجه الثلاثة قال العلماء إنَّ الأصل في لبس التمائم التي هي من الخيوط، والحلق، ونحوها أن ذلك شرك أصغر، وقد يكون شركًا أكبر إذا عظم تعلق القلب بهذه المعلقات.

إذن هذا هو تبويب المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو باب في غاية الأهمية؛ نظرًا لكثرة الأخطاء التي تقع من المنتسبين إلى الإسلام في هذا الباب، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾[الزمر:٣٨] الآية.

هذه الآية في سورة الزمر، فيها يخبر الله جَلَّوَعَلَا عن اعتقاد المشركين، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[الزمر:٣٨].

هذه الآية آيةٌ عظيمة في بيان التوحيد، وتوضيح الشرك، وفيها أمران مهمان يدلان على بطلان الشرك.

الأول: ما أخبر الله جَلَّوَعَلَا عن المشركين في اعتقادهم في آلهتهم التي يعبدونها مع الله جَلَّوَعَلَا ، وهي أنها لا تملك شيئًا لا خلقًا، ولا رزقًا، ولا تدبيرًا: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[الزمر:٣٨].

إذًا كانوا يعتقدون أن الله وحده هو الخالق، وأن الله وحده هو الرازق، وأن الله وحده هو المدبر، ومع ذلك ما نفعهم ذلك، ولم يكونوا بهذا الاعتقاد مسلمين، لم؟

لأنهم أشركوا مع الله جَلَّوَعَلَا في العبادة.

وأمر آخر: هو في بيان أن هذه الآلهة التي تعلقوا بها آلهة لا تتصف بالكمال، بل تتصف بالنقص، وإذا كانت كذلك كان التعلق بها ضلالًا في العقل، كما كان ضلالًا في الشرع، ما الفائدة أن يُعبد ما لا يملك نفعًا، ولا دفع ضرٍ عن عابده؟ ما الفائدة؟

قل أرأيتم في حال هذه الآلهة التي تزعمونها مع الله جَلَّوَعَلَا إن أرادني الله بضر هل تستطيع هذه الآلهة أن تكشف هذا الضر؟ أن تدفع الشيء الذي أراده الله وشاءه؟

أو إذا كان الأمر بالعكس إن أراد الله جَلَّوَعَلَا رحمة منه، هل تستطيع هذه الآلهة أن تمنع رحمة الله من النزول على هذا الإنسان؟

الجواب معلوم، ولذلك سُكت عنه لوضوحه، ثم بين سُبْحَانَهُوَتَعَالَى حال أهل التوحيد الذين يجعلون حسبهم هو الله، الله جَلَّوَعَلَا هو حسب المؤمنين، فهو كافيهم، وهو الذي يتوكل عليه المتوكلون، ولا يتوكلون على ما سواه جَلَّوَعَلَا.

والشاهد أن هذه الآية فيها بيان بطلان الشرك، والتعلق بغير الله جَلَّوَعَلَا في جلب نفع، أو جلب ضر، فيدخل في معناها رد ما عليه هؤلاء المتعلقين، أو المعلقين لهذه التمائم، إن الذي هم فيه ضلال، وباطل، وشعبة مما عليه أهل الشرك بالله جَلَّوَعَلَا.

وفي استدلال المؤلف بهذه الآية لطيفة؛ وهي أن الله جَلَّوَعَلَا نفى أن تكون الآلهة التي يتعلق بها المشركون نافعة لهم في جلب خير، أو دفع ضر، وفي هذه الآلهة صالحون، وملائكة، وجن، وأنبياء، فإذا نُفيَّ عن هؤلاء أن يكون شيء منهم نافعًا، أو دافعًا للضر، فلا أن يكون هذا مدفوعًا، ومنفيًا عن جمادات لا تتحرك، ولا تعقل، ولا تصنع شيئًا كخيط، أو حلقة لا شك أن نفي ذلك عنها من باب أولى.

فهذا استدلال لطيف من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان أنَّ التعلق بهذه الأمور في جلب المنافع، ودفع المضار أنه ضلالٌ، وأنه من حال أهل الشرك، والله تعالى أعلم.

بقيَّ التنبيه على أن هذه الآية كما هو ظاهر من سياقها فيها بيان ضلال ما عليه المشركون الشرك الأكبر، فكيف يستدل المؤلف بها على ما الأصل فيه أنه شركٌ أصغر؟

والجواب عن هذا:

[أولًا]: أنَّ تعليق هذه التمائم في بعض أحواله قد يكون شركًا أكبر.

وثانيًا: أنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ جرى على قاعدة السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ ، فإنهم كانوا يستدلون بالآيات النازلة في الشرك الأكبر على ردِّ ما هو من الشرك الأصغر، كما سيأتي معنا -إن شاء الله- في أثر حذيفة، وكذلك ما جاء عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في تفسير قوله تعالى:

﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢]، فسر ذلك ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا بأشياء هي من قبيل الشرك الأصغر.

فأهل العلم من السلف الصالح رحمة الله عليهم أجمعين يستدلون بما هو نازل في الشرك الأكبر على رد الشرك الأصغر، فإنه إذا كان الشرك الأكبر مدفوعًا، فليكن الشرك الأصغر الذي هو دونه مدفوعًا من باب أولى، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ:

عن عمران بن حصين؛ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رأى رجلًا في يده حلقة من صُفْرٍ، فقال: « ما هذه؟»، قال: من الواهنة، فقال: «انزعها، فإنها لا تزيدك إلا وهنًا، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا»، رواه أحمد بسند لا بأس به.

هذا الحديث، حديث عمران رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فيه كلام من جهة ثبوته، فإنَّ هذا الحديث جاء من رواية الحسن البصري عن عمران بن حصين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهذه المسألة فيها كلام طويل عند أهل العلم، فإن العلماء مختلفون هل سمع الحسن من عمران؟

أثبت هذا السماع طائفة من أهل العلم، كالبزار، وابن حبان، وابن خزيمة، وكذلك الحاكم، وحكاه عن أكثر شيوخه.

ويقابل هؤلاء أئمة النقاد، نفوا سماع الحسن من عمران، كابن المديني، وابن معين، وابن أبي حاتم، وغيرهم من أهل العلم.

على أن رواية أحمد لهذا الحديث فيها قول الحسن: أخبرني عمران بن حصين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ففي هذا ما يدل على أنه سمع هذا الحديث، والله تعالى أعلم.

وعلى كل حال هذا الحديث له شواهد تدل على ثبوته.

له شاهد من حديث أبي أمامة بإسناد فيه ضعف، وكذلك من حديث ثوبان، وكلاهما عند الطبراني في ((الكبير))، فالحديث -إن شاء الله- ثابت عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، كما أن ابن أبي شيبة، وابن بطة، وغيرهما رويا هذا الحديث عن عمران موقوفًا عليه، والله تعالى أعلم.

الشاهد «**أن النبي** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ **رأى على رجلٍ حلقة من صفر**»، وهذا الرجل المبهم في رواية أحمد جاء التصريح به عند الحاكم بأنه عمران نفسه، فصاحب القصة هو عمران الذي يرويها.

رأى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على هذا الرجل حلقةً من صفر يبدو والله أعلم أنه هذا المعدن المسمى بالنحاس، رأى عليه هذه الحلْقة، «**فقال النبي** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **ما هذا؟**» وهل كان النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في هذا السؤال مستفسرًا، مستعلمًا، أو كان مُنكرًا؟

توجيهان لأهل العلم.

وجاء في رواية أحمد أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**ويحك ما هذا؟**»

فهذا يرجح أنه استفهام إنكار، فبين الرجل، أو عمران سبب هذا اللبس، وأنه من الواهنة، (من) هذه سببية، أو تعليلية؛ يعني إنما لبست هذا الأمر لأجل دفع ألم أعاني منه، أو مرض أصبت به، وهو الواهنة.

قال أهل اللغة: الواهنة: عِرقٌ يصيب المنكب؛ يعني: ألم يُصاب به الإنسان في ذراعه، قالوا: وهو يصيب الرجل دون المرأة.

فالشاهد أنه لبس هذه الحلقة، الأسورة من هذا المعدن؛ لأجل أن تكون سببًا في دفع هذا الألم، «**فقال النبي** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **انزعها، فإنها لا تزيدك إلا وهنًا**»، وكيف يكون ذلك كذلك، وهي لا تأثير لها؟

قال أهل العلم: إنَّ ذلك بأنه يُصاب بالوهن معاملةً بنقيض مقصوده؛ يعني من عقوبة أن يلبس الإنسان هذا الأمر المنكر أن الله جَلَّوَعَلَا يزيده وهنًا، ويزيده ألمًا، ويزيده مرضًا، فلا هو بالذي انتفع، ولا هو بالذي حِفِظَ عليه دينه.

ثم قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**انزعها**»، وجاء في رواية: «**انبذها عنك**»، والنبذ أشد من النزع؛ فيه قوة، وفيه طرح، وهذا يدل على أن الأمر غاية في القبح أن يلبس الإنسان مثل هذا الأمر حتى أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أمره بالنزع الشديد، والطرح المباشر «**انبذها عنك، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا**».

وهذا يدل على أن لبس الحلقة ونحوها لهذا القصد؛ أعني رفع البلاء، أو دفعه أن هذا من الأمور المحرمة، بل ذلك شركٌ بالله كما دلت عليه النصوص الأخرى.

وقوله في هذا الحديث: **«ما أفلحت أبدًا»**، الظاهر والله أعلم أنه نفي للفلاح المطلق، ليس نفيًا لمطلق الفلاح؛ يعني لا يفلح الفلاح التام، ولا يكون من أهل الفلاح الكامل، وليس أنه نفيٌّ لأصل الفلاح، فإن هذا إنما يُنفى عمن أشرك الشرك الأكبر.

وفي هذا الحديث أن الرجل الصالح، بل العالم قد يقع في أخطاء، وميزة العالم، والصالح على غيره، أنه إذا نُبه تنبه.

وفي هذا أيضًا ما يحذر المغرورين الذين يظنون أنهم لانتسابهم إلى نسب شريف، أو لأنهم أبناء رجل صالح، أو أحد الأولياء، أنهم بهذا يكونون فائزين، وسعداء مهما فعلوا، فإن هذا مما يردُّه هذا الحديث.

هذا صحابي ومع ذلك يقول له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الذي يقول، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه.

الشاهد أن في هذا الحديث بيان أنَّ لُبسَ مثل هذه الأمور لا شك أن من المحرمات، بل من الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ويتعلق بهذا الحديث مسألة معاصرة، وهي حكم لبس ما يسمى بأسورة الروماتيزم انتشر في بعض الأوقات، وأظن هذا موجود إلى هذا الوقت ما يباع في بعض الصيدليات أسورة من معدن يزعم بائعوها، أو صانعوها أنها تنفع في علاج مرض الروماتيزم.

والقاعدة في هذا أن الشريعة لا يمكن أن تخالف العقل، ولا يمكن أن تخالف الواقع، وعليه فمتى ما ثبت بالتجربة الظاهرة المحققة أن هذا الأمر علاج بالفعل لهذا المرض أو غيره، فإن الشريعة لا تمنع من ذلك؛ ولكن الشأن هو في ثبوت أن تكون هذه الأسورة، أو هذا السوار أنه بالفعل نافع ذلك، وهذا فيما أعلم لم يثبت حتى هذه اللحظة.

وقد صدرت فتوى للجنة الدائمة برئاسة سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذه الأسورة من الأمور المحرمة الشركية، وأنها شبيهة بما كان عليه المشركون، وما جاء في هذا الحديث، وأمثاله، وأضعف الإيمان أنها وسيلة للشرك، أو على الأقل أنها من الأمور المشتبهة التي ينبغي على من أراد أن يستبرأ في دينه وعرضه أن يدعها؛ لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»**.

ويجرنا هذا إلى أمر آخر حدث مؤخرًا في السنوات القريبة، وهو ما يسمى بأسورة الطاقة، أو سوار الطاقة، أو كما يقولون باللغة الإنجليزية (power plants)

هذه الأسورة اشتهرت عند الشباب، والفتيات منذ سنوات قريبة، ويزعمون أن من لبس هذه الأسورة تراها من الجلد، أو البلاستيك، أو شيئًا من هذا القبيل، يزعمون أنه يعطي الإنسان توازنًا، ويسحب الذبذبات الكهربائية الزائدة وما شاكل ذلك.

وأعود، فأقول: إن ثبت بقول أهل الخبرة من الأطباء الثقات أن هذا الأمر صحيح، وأنه فعلًا ينفع الإنسان، فإنه لا حرج أن يلبس ذلك المرأة؛ وأما الرجل لا يلبسها في يده كحال النساء حتى لا يكون متشبهًا؛ لكن يمكن أن يضعها في جيبه، أو ما شاكل ذلك.

لكن الذي أعلم أن هذا أيضا لم يثبت ثبوتًا علميًا متحققًا إلى هذه اللحظة، بل تواردت الأخبار في وسائل الإعلام أن هذه الأسورة ظهر بطلان ما ادَّعاه منتجوها، وإنما كانت نوعًا من الكذب، والتضليل الذي حصل بسببه نوع من التضليل للناس؛ حيث ظنوا أن ذلك نافع طبيًا، والواقع أنها كانت مجرد مكاسب تجارية لا أقل، ولا أكثر.

على كل حال أعود، فأقول: إن ثبت، ونتوقف حتى يثبت علميًا ذلك، وإلا فإنها تكون من جنس هذه التمائم، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وله عن عقبة بن عامر مرفوعًا: «من تعلق تميمة لا أتم الله له، ومن تعلق ودعة، فلا ودع الله له».

وفي رواية: «من تعلق تميمة، فقد أشرك».

هذان حديثان عن عقبة بن عامر الجهنين وهو من فضلاء الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وكلام المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ حينما قال: (وفي رواية) يوهم أنه حديث واحد له روايتان، والواقع أنهما حديثان مستقلان، هذا حديث، وذاك حديث، وراويهما واحد.

أما الأول: ما أخرجه أحمد، وقال الهيثمي: (رجاله ثقات)، فيه أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**من تعلق تميمة لا أتم الله له**»؛ دعا على من علق التميمة بألا يتم الله له أمره.

والتميمة ضابطها: كل ما عُلق بقصد دفع البلاء أو رفعه، سواء كان ذلك خرزًا، أو كان خيطًا، أو كان ورقةً، أو كان جلدًا أي شيئًا كان. والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ سيزيد الأمر بسطًا في الباب القادم إن شاء الله.

الشاهد أن كل شيء يُلبس بهذا القصد، بقصد دفع البلاء قبل نزوله، أو رفعه بعد نزوله، فإنه يسمى تميمة دعا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ألا يتم الله أمره، والمشركون سموا هذه المعلقات تمائم، تلمحوا من لفظها أنه يَتِمُ لهم مقصودهم، من لبس ذلك فإنه يتم له مقصوده، فجاءت الشريعة بمخالفة هذا المعنى، ودعا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من لبس ذلك ألا يتم الله له أمره؛ لأنه ارتكب ما نهى الله عنه وما نهى عنه رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وهذا دليل على أن لبس هذه التمائم أمر محرم.

وقال: «**ومن تعلق ودعة، فلا ودع الله له**».

الودْعُ، والودَعُ: يجوز فيه الإسكان والفتح هو شيء يشبه الصدف يكون في البحر سمي ودعًا، كأن ذلك والله أعلم؛ لأن البحر يلقيه على الساحل، ويدعه، وهو شيء مجوف يشبه نواة التمر؛ ولكنه أكبر ومجوف، وهو معروف مما يلعب به النساء، والأطفال، وكان أهل الجاهلية لهم فيه عقائد يعلقونه على أطفالهم، ودوابهم، ويزعمون أن ذلك سبب في دفع أذى العين.

هنا دعا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على من لبس ذلك بقوله: « **فلا ودع الله له**».

أي: لا جعله الله في دعة، وفي هناء، وفي سكون، وذلك معاملة بنقيض مقصوده هو لبس ذلك الأمر؛ لكي يكون مرتاحًا، ووادعًا، وهانئًا، فدعا عليه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يحصل له ضد ما أراد؛ لأنه يستحق ذلك حيث ارتكب ما حرم الله جَلَّ وَعَلَا لم يكن قلبه سليمًا، فيه شيء من هذه الوثنية، وهذه التعلقات بغير الله تعالى، فاستحق أن يدعو عليه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

والشاهد أن في هذا الحديث ما يبين أن تعليق هذه الأمور بهذا القصد أمر محرم.

أما الحديث الثاني: ففيه قصة، وهي أنه أقبل إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ رهط كانوا تسعة، فبايع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هؤلاء الرهط إلا واحدًا لم يبايعه، فقالوا: بايعه يا رسول

الله، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن عليه تميمة»، فأدخل الرجل يده، فقطعها، فبايعه النبي ﷺ وقال: «من تعلق تميمة، فقد أشرك».

أكثر روايات الحديث (تعلق)، وعند الطبراني، وغيره من (علق)، وكلمة التعلق فيها زيادة في المعنى؛ لأن زيادة المبنى زيادة في المعنى، كأن ذلك فيه إشارة إلى أن تعليق حسي مع تعليق قلبي، فهو علق هذه التميمة، والقصد أن يكون ذلك سببًا في دفع البلاء والأذى عنه، فبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث، وهو حديث حسن إن شاء الله، بيَّن فيه باللفظ الصريح الواضح إن تعليق التمائم من الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا.

فهذا البيان ليس بعده بيان، وعلى من أراد نجاة نفسه أن يحظر من هذه الأمور النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما بعثه الله جَلَّ وَعَلَا لإزالة هذه الوثنيات، وهذه التعلقات أن يكون القلب صافيًا متعلقًا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فمن كان على شيء من هذا الإرث الشركي، فليعلم أنه واقع في أمر عظيم، -نسأل الله السلامة والعافية-.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولابن أبي حاتم عن حذيفة؛ أنه رأى رجلًا في يده خيط من الحمى، فقطعه وتلا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦].

هذا الأثر أخرجه ابن أبي حاتم من طريق عاصم الأحول، عن عزرة، عن حذيفة، وثبوته موقوف على ثبوت سماع عزرة، ولعله عزرة بن عبد الرحمن، إن ثبت سماعه من حذيفة، فالأثر صحيح.

وقد جاء عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شيء قريب من هذا الأثر من ذلك ما أخرج ابن أبي شيبة بإسناد صحيح، عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه عاد مريضًا فتحسسه، فوجد في عضده خيطًا، فقطعه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: (لو مت وهو عليك ما صليت عليك).

وهذا من حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بيانٌ لأن هذا الأمر من المحرمات، وفيه المبادرة إلى إنكار المنكر.

الشاهد أن هذا الأثر الذي بين أيدينا إن صح عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيه أن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عاد مريضًا، فوجده قد علق هذا الخيط من الحمى؛ يعني بسبب الحمى، أنه يدفع

عنه هذا المرض، فقطعه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦].

يعني: أن هذا الإنسان قد وقع في شيء من الشرك -والعياذ بالله- وفيه ما يشهد بالقاعدة السالفة، وهو: أن السلف كانوا يستدلون بالآيات النازلة في الشرك الأكبر على ما هو من الشرك الأصغر.

الشاهد أن هذا الأثر فيه أيضًا ما يؤكد، ويؤيد أن تعليق التمائم بقصد دفع البلاء، أو رفعه أنه من الشرك بالله جَلَّوَعَلَا.

وفي ذلك أيضًا الحرص على إنكار المنكر، يا أيها الإخوان المنكرات المتعلقة بجناب التوحيد أعظم من المنكرات المتعلقة بغير ذلك.

ويا لله العجب!! أن يكون عند بعض الناس همة في إنكار منكرات تتعلق بمحرمات ترجع إلى جنس الشهوات، وهذا أمر حسن طيب؛ لكن ربما وجدت منهم شيئًا من البرود في المنكرات المتعلقة بجناب التوحيد، ولا شك أن هذا من الأخطاء، فإن جنس الشرك الأصغر أعظم من جنس الكبائر.

وإذا كان في الإنسان غيرة على حرمات الله جَلَّوَعَلَا، فينبغي أن تكون غيرته على هذا الجنس من الحرمات أعظم، وأعظم، ربما لو بادر الإنسان إلى قطع تميمة من إنسان ليس له عليه سُلْطة، أو لا يعرفه، ربما حصل من المفسدة ما حصل، وربما عاد الرجل، فلبس ذلك، أو أكده بلبس شيء آخر زيادة عليه وعنادًا.

لكن ما عذر الإنسان في أن يترك الإنكار بلسانه؟

فالله الله بالجد، والحرص أولًا: على إزالة هذا المنكر من القلب، ثم بالتي هي أحسن تزال من شخص الإنسان إذا كانت على عضده، أو عنقه، أو ما شاكل ذلك بالنصيحة، وبالكلمة الطيبة، وببيان الدليل على هذا الأمر يزول هذا المنكر إن شاء الله.

والناس الغالب عليها أن فيها خير، الغالب على الناس أن فيها خيرًا؛ ولكن الكسل، والتردد، وربما التخوف من بعض الدعاة، وطلبة العلم هو السبب الأهم في انتشار مثل هذه المنكرات في كثير من المجتمعات.

الحرص الحرص، والجد الجد يا طلاب العلم على إنكار هذه المنكرات؛ تمائم، أو حلف بغير الله، أو توسل بدعي، أو رقى شركية، وأعظم من ذلك ما كان من الشرك الأكبر كدعاء غير الله، أو الذبح، أو النذر، أو ما شاكل ذلك.

١٢

١٢- باب ما جاء في الرقى والتمائم

(المجلس الأول)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب

ما جاء في الرقى والتمائم

بعد أن أنهى المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ باب من الشرك لبس الحلقة والخيط لدفع البلاء أو رفعه، عَقَّبَ على ذلك بهذا الباب الذي بين أيدينا وهو: باب ما جاء في الرقى والتمائم، وهذا الترتيب حسن، فإن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن بين ما يضاد كمال التوحيد الواجب أو ربما ضاد أصل التوحيد في الباب السابق، ناسب أن يعطف عليه بابا فيه التفصيل، أتى أولا بالأمر الواضح الذي يخالف التوحيد، ثم جاء بعد ذلك بالأعم فقال: (باب ما جاء في الرقى والتمائم)، والتمائم -كما عرفنا في الدرس الماضي- هي: كل ما يعلق بقصد رفع البلاء بعد نزوله أو دفعه قبل نزوله.

وكلمة التمائم ها هنا كلمة عامه تشمل كل ما يعلق سواء أن كان ذلك من ما اتُفق على تحريمه كالحلقة والخيط السابقة، أو ما وقع فيه خلاف مما سيأتي الكلام فيه -إن شاء الله-، أعني تعليق التمائم من القرآن أو من الأدعية النبوية أو مما فيه ذكر الله، هذا نوع من التمائم لكن الخلاف واقع فيه بين العلماء، فناسب أن يتطرق إليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب، **هذا أمر**.

والأمر الثاني: أنك تلحظ -يارعاك الله- أن المؤلف جمع في هذا الباب بين الرقى والتمائم وذلك لأمور:

أولا: لأن الرقى الممنوعة والتمائم الممنوعة بينهما شبه من حيث الحكم والتفصيل كما سيأتي إن شاء الله.

ثانيا: أن التمائم يحصل كثير أن يجتمع معها رقيه، من ما سيأتي معنا إن شاء الله في قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **«إن الرقي والتمائم والتولة شرك»**.

قصة هذا الحديث أن عبدا لله ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ راء في عنق زوجته خيط، فسألها عن ذلك قالت: خيطا رقي لي فيه قالت: فاجتمع أن كانت تميمة ورقي فيها أيضا فكثير ما يحصل الجمع بين الأمرين.

[ثالثًا]: وهو أن في النصوص الجمع بينها كهذا الحديث الذي بين أيدينا وهو قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**».

إذن هذا الجمع في الكلام بين الرقي والتمائم في هذا الباب له وجه كما رأيت.

والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ كما أسلفت لم يجزم بحكم في هذا الموضوع كما فعل في الباب الماضي، إنما قال: (باب ما جاء في الرقى والتمائم)، وذلك لأن المقام لا ينبغي فيه إطلاق الحكم، بل لابد من التفصيل؛ فمن الرقى ما هو مشروع ومنها وما هو ممنوع، وكذلك التمائم منها ما هو شرك ومنها ما هو مُختلف فيه، بعض أهل العلم أباحه وبعضهم منعه، فناسب مع هذا التفصيل هذا الأسلوب الذي جاء به المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ وسبقه أئمة الحديث في تبويباتهم كما هو معلوم عند طلاب العلم.

الشاهد أن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ قال: (باب ما جاء في الرقى والتمائم).

الرقى جمع رقية، وهي كما يعرفها العلماء :العوذة التي يعوذ بها، والمعنى أنها: ألفاظ وأقوال تقال وتقرأ بقصد دفع البلاء قبل نزوله أو رفعه بعد نزوله. هذه هي الرقية حينما يقرأ الإنسان على نفسه أو على غيره مريضا كان أو من باب التحصين؛ هذا يسمى رقيه، والكلام فيها ينتظم مسائل من ذلك الأدلة الواردة فيها.

الناظر في موضوع الرقية يجد أن الأحاديث التي جاءت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها على أنواع مختلفة:

نجد من هذه الأحاديث أحاديث فيها وصف الرقى بأنها شرك كالحديث الماضي: «**إن الرقي والتمائم والتولة شرك**».

نجد أن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد نهى عن الرقى لما ثبت في ((صحيح مسلم)) أن آل عمروٍ بن حزم جاءوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: «**يا رسول الله أنه كانت لنا رقيه من العقرب وإنك نهيت عن الرقي**». فهذا دليل على أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن الرقي وسيأتي الكلام عن هذا الحديث -إن شاء الله-.

نجد أيضا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء عنه ما يدل على أن الرقية مكروهة كما مر معنا في باب من حقق التوحيد ما جاء في رواية مسلم لحديث السبعين وفيه أنه قال: «**لا يرقون**».

كما نجدُ أحاديث فيها تخصيص للرقية في شيء معين كقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا رقية إلا من عين أو حمى»** وسيأتي معنا إن شاء الله في هذا الباب.

هذه أربعة أنواع من الأحاديث.

يقابلها أنواع أخرى:

فمن الأحاديث أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يرقي، كان هو يفعل الرقية صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا ثابت عنه في أحاديث كثيرة وذلك لما ثبت في الصحيحين من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: **«أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا عاد مريضا رقاه بقوله: اذهب البأس رب الناس واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما»** فهذا فيه أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعل الرقية وهذا له مظاهر عده في السنة.

نجد أيضا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُقِيَ، رقاه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حينما نزل إليه فقال: **«يا محمد أشتكيت؟ قال: نعم قال: بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من كل ذي نفس أو عين حاسد بسم الله أرقيك الله يشفيك»**.

نجد أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أباح الرقية حتى تصل إلى حد معين تكون فيه ممنوعة وذلك كما جاء في حديث عوف ابن مالك الأشجعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: **«قلنا يا رسول الله أنه كانت لنا رقي نرقي بها في الجاهلية فماذا ترى؟ فقال النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **اعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقي ما لم يكن فيها شرك»** ها هنا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أباح الرقى حتى تصل إلى هذا الحد وهو أن يكون فيها شرك.

نجد من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحث والأمر على الرقية كما مر معنا في باب من حقق التوحيد حديث مر معنا حديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **«استرقوا لها»**، وكذلك حديث عائشة **«كان يأمرني أن استرقي من العين»**، كذلك ما جاء في حديث مسلم حديث آل عمرو ابن حزم لما قالوا : يا رسول الله انك نهيت عن الرقى وأنه كان عندنا رقى من العقرب فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«اعرضوا علي»**، ثم قال: **«لا أري باسا»**، ثم قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **«من يستطيع منكم أن ينفع أخاه فليفعل»**.

كما ثبت أيضا في ((صحيح مسلم)) من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال كان لي خالٌ عنده رقية من العقرب فجاء إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله إنك نهيت عن

الرقي وإنني أرقي من العقرب فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل»**.

إذن هذه أحاديث فيها تنوع في الدلالات، ونحن نقطع ونجزم أنه ليس بين أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اختلاف في الحقيقة، والجمع بين هذه الدلالات المختلفة سهل ميسور بحمد الله:

أما حديث **«لا يرقون»** فقد علمنا أن هذا اللفظ لم يثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنه لفظ شاذ، أخطا فيه على الصحيح من كلام أهل العلم شيخ مسلم وهو سعيد بن منصور رَحِمَهُ اللَّهُ.

وأما وصف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرقى بأنها شرك فان هذا منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنوع مخصوص من الرقية وهو ما كان فيه شرك.

وأما تخصيص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرقية بشيء معين وهو: **«لا رقية إلا من عين أو حمة»** فالصحيح في فهم هذا الحديث أنه لا رقية أنفع من الرقية من عين والحمة، والحمة: هي ذات السموم كما سيأتي الكلام إن شاء الله في ذلك لاحقا.

ومما يدل على ذلك أن الأحاديث كثيرة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفيها الرقية في غير هذين الأمرين، من ذلك ما جاء في صحيح مسلم من ترخيص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الرقية من العين والحمى والنملة، والنملة قروح تظهر في جانب الإنسان، فها هنا لم يقتصر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على العين والحمى.

كذلك في الأحاديث المطلقة التي جاء فيها الرقية للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا عاد مريضا، قال له جبريل أشتكيت؟ وليس في هذا تخصيص لهذا النوع أو ذاك، فدل ذلك على أن أنفع الرقى ما كانت من العين والحمى.

أما إذنُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الرقى فانه دليل أن الرقية إذا لم تكن ممنوعة مما سيأتي الكلام فيها إن شاء الله فلا بأس بها، كما مر معنا في حديث عوف ابن مالك قال: **«لا بأس بالرقى ما لم يكن فيها شرك»**، بعض أهل العلم حمل حديث عوف وكذلك حديث آل عمرو بن حزم على أن هذا نسخ منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنهيه السابق، كما نحى إلى هذا الطحاوي وغيره من أهل العلم.

والصواب: أن الجمع مقدم على النسخ، وأن هذا ليس نسخا، إنما هذا منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيانٌ لنهيه، وأنه إنما نهى عن الرقية التي فيها شرك وليس نهيا مطلقا، إنما كان نهيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن شيء معين وهذا الذي بينه في هذه الأحاديث.

فيتلخص لنا أنَّ حكم الرقية فيه تفصيل فتنقسم الرقية إلى قسمين:

إلى رقية ممنوعة، وإلى رقية مشروعة.

أما الرقية الممنوعة: فإنها قد تكون شركا أكبر وقد تكون شركا أصغر.

أما كونها شركا أكبر فإن هذا يكون:

[الأمر الأول]: إذا اشتملت الرقية على استغاثة أو استعاذة بغير الله كما يفعل الدجالون والمشعوذون، وهؤلاء المشركون الذين يرقون برقى شريكة يأخذونها عن شياطين الإنس أو عن شياطين الجن في كتاب ((شمس المعارف)) أو غيره، تجد عندهم رقى شركية يستغيثون فيها بالجن، أو يستغيثون فيها بالأولياء، أو يستغيثون فيها بالأنبياء، كما يفعل بعضهم في رقية يسمونها "رقية أم الصبيان"، يزعمون أنها جنية مؤذية يرقون منها برقية شركيه يقولون: (نبي الهدى ضاقت بي الحال في الورى وأنت لما أملت فيك جدير).

(نبي الهدى) خطاب لمن؟ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استغاثة شركية، فمثل هذه الرقية لا شك أنها شرك أكبر.

أو وهو الأمر الثاني، أن يعتقد أن التأثير في الرقية لغير الله جَلَّ وَعَلَا إما أن الرقية تنفع بنفسها أو أن النفع راجع إلى الراقي فهو الذي يشفى وهو الذي ينفى وليس الله جَلَّ وَعَلَا ، ولا شك أن من اعتقد هذه فقد أشرك في الربوبية، حيث اعتقد أن مع الله من يشاركه في ملك النفع والضر وهذا لا شك أنه شرك أكبر.

القسم الثاني من الرقية الممنوعة أن تكون **شركا أصغر**، وهذا:

[الأمر الأول]: إما أن تشتمل الرقية على ألفاظ غير مفهومة ليست بكلام واضح وليست بشرك واضح، فيها همهمات وفيها كلمات غير معروفة المعنى، فهذا لا شك أنَّه شركٌ أصغر اتخاذٌ لسبب ما جعله الله سببًا لا شرعًا ولا قدرًا.

[الأمر الثاني]: أن يكون في الرقية إقسام بغير الله بعض الرقاة إذا رقى فإنه يُقْسِمُ في ملك أو حياة فلان أو نبي أو ولي، ولا شك أن الإقسام بغير الله جَلَّوَعَلَا شرك؛ قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»

الأمر الثالث: أن يكون في المرقي التفات بقلبه إلى الراقي وليس أن يكون معتمدًا بالكلية على الله جَلَّوَعَلَا ، متى ما كان منه شيء من الاعتماد والتوكل والالتفات إلى هذا الراقي ولم يعتقد أنه مجرد سبب فلا شك أن هذا شعبة من الشرك.

إذن هذه الأحوال التي تكون فيها الرقية ممنوعة؛ قد يكون الحكم فيها أنها شركا أكبر وقد يكون ذلك شركا أصغر.

أما الرقية المشروعة فقد أجمع العلماء على أن الرقية تكون مشروعه إذا اجتمع فيها ثلاثة أمور، الرقية إذا كان فيها ثلاثة أمور فأنها تكون مشروعه بالإجماع:

[الأمر الأول]: أن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته، ولا شك أيضا أن ما كان من أحاديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الثابتة عنه دخل في ذلك أيضا، فيرقي الإنسان نفسه أو غيره بآيات من القرآن أو بدعاء الله جَلَّوَعَلَا بأسمائه وصفاته، أو بالرقي النبوية التي جاءت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ومن أكثر تلك الرقي النبوية ورودا في الحديث هذه الرقية التي ذكرتها قبل قليل: (أذهب البأس رب الناس واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما).

[الأمر الثاني]: أن تكون هذه الرقية بكلام عربي واضح أو مما يفهم من غيرها، أن تكون الرقية بكلام عربي واضح أو إذا كان الراقي من غير أهل هذه اللغة فانه لابد أن يرقي بكلام مفهوم في هذه اللغة، أما أن يأتي بكلام غير مفهوم في هذه اللغة أو يأتي بكلمات حروفها عربيه ولكن غير معلومة المعنى فلا شك أنه يلفق هذه الرقية بالممنوعة لا بالمشروعة.

الأمر الثالث: أن يكون الاعتماد في الرقية على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أن يعتقد كل من الراقي والمرقي أن الرقية مجرد سبب، وأن المعول والتوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذ اجتمعت هذه الأمور الثلاثة كانت الرقية مشروعة بالإجماع.

أمَّا عن حكم الرقية على وجه التفصيل: فإنَّ المقام فيه تفصيل بين أن يكون الحكم متعلقًا بالراقي أو المرقي أو المسترقي.

أما الراقي لنفسه أو لغيره في الرقية المشروعة والكلام إنما يتعلق بها إذا كانت الرقية مشروعة فان حكم هذه الرقية بالنسبة للراقي لا شك أنه الاستحباب، فإن رقية الإنسان لنفسه أو رقيته لغيره لا شك أن فيها لجوءًا إلى الله وطلبًا من الله وتذللًا لله ورجاء في الله وتوكلًا على الله، فالحقيقة أنها عبادة يجتمع فيها أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وإذا كانت الرقية للغير كان فيها أمرٌ زاد وهو نفع المسلمين وإفادتهم، وهذا ما حثَّ عليه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بقوله: «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل»، **هذا الحكم في الرقية المشروعة بالنسبة للراقي.**

أمَّا بالنسبة للمرقي، والمراد به: من طُلِبَ منه أن يُرْقَى غيره فان ذلك في حقه جائز لا بأس به، لا بأس أن يقبل أن يُرْقَي من غيره دون طلب منه؛ كما رَقَى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جبريل، وكما رقى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

وأما بالنسبة للمسترقي: وذلك بأن يطلب من غيره أن يرقيه فهذا ما مضى الحديث فيه في باب من حقق التوحيد دخل الجنة، وقلنا الأصل في الاسترقاء أنه من الأمور التي ينبغي أن يحرص المسلم على تركها، وذلك لأنها قد تفوت عليه المنزلة العظيمة الرفيعة وهي أن يكون من السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب، وذلك لأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصف هؤلاء بأنهم (لا يسترقون)، ولا سيما إذا كان الإنسان قادر على أن يرقي نفسه، فما حاجته إلى أن يتذلل لغيره؟

بل ينبغي أن يلجا إلى الله مباشرة، وكلام الله الذي يرقي به يسير ولله الحمد، لله جَلَّوَعَلَا يسره يستطيع الإنسان أن يرقي نفسه بنفسه.

إذًا هذا عن حكم الرقية.

وننتقل إلى صفة الرقية: كيف تكون الرقية؟

الناظر في أحاديث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يجد أن كيفية الرقية جاءت على أنواع:

أولًا: من ذلك أن تكون الرقية مع نفثٍ أو تفل، هذا نوع تكون رقية يقرأ الإنسان و يصاحبه نفس أو تفل.

النفث إخراج الهواء مع شيء من الريق هذا الشيء الخفيف.

وأما التفل أو البزاق أو البصاق فانه شيء أكثر.

وكلا الأمرين ثابت في السنة، أن يقرأ الإنسان بآيات أو بأدعية أو برقي نبوية ويجمع مع ذلك النفث أو التفل.

ويدل على هذا أحاديث عدة عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، من ذلك حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: «**كان إذا مرضا أحد من أهل النبي** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **نفث عليه بالمعوذات**»، والأحاديث في هذا كثيرة.

البصاق أو التفل أو البزاق هذا أيضا جاء في أحاديث عدة، من ذلك قال أبي سعيد الخدري في الصحيح، وفيه قصة الرجل الذي كان سيد قومه ولدغ فرقاه أحد أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالفاتحة، فكان كلما ختمها جمع ريقه فتفل على هذا المصاب حتى شفي بإذن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إذن أن تكون الرقية معها نفث أو تفل.

ثانيا: أن تكون الرقية بلا نفث ولا تفل مجرد قراءة دون أن يجتمع معها نفث أو تفل، وهذا جاء فيه أحاديث أيضا عدة عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تدل على رقية بلا نفث، وذلك كما جاء في ((الصحيحين)) في روايات عدة لحديث عائشة أنه كان إذا عاد مريضا دعا له أو رقاه بهذه الرقية: «**اذهب البأس رب الناس**»، ولم تذكر عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا نفثه.

كذلك ما ثبت في الصحيح من حديث أنس أنه زار ثابتًا تلميذه وكان مريضا فقال ألا أرقيك برقية النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فذكر هذه الرقية ولم يذكر في الحديث النفث.

كذلك جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لم يأت في الحديث أنه نفث.

فدل هذا على أن هذا أيضا وجه صحيح مشروع إن رقى بنفث أو رقى بلا نفث فالأمر لا بأس به.

[ثالثًا]: أن يجمع الإنسان مع القراءة المسح على الموضع المصاب أو وضع اليد عليه، فإن عائشة رضي الله عنها كانت تُخبر أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذا اشتكى رقى نفسه ومسح بيده، فلما اشتكى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كانت ترقيه ثم تمسحه بيد نفسه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ و رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

كذلك ثبت في ((صحيح مسلم)) من حديث عثمان بن أبي العاص أنه قال يا رسول الله: **«إني اشتكى مرضا منذ أسلمت، فأمره النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يضع يده على المكان المصاب ثم يقول: باسم الله ثلاثا ثم يقول سبعا أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»**، فهذا الحديث فيه رقية مع وضع اليد على الموضع أو المكان المصاب أو الذي يتألم منه الإنسان.

[رابعًا]: وهي أن تكون الرقية على ماء يُنفث فيه ثم يُشرب أو يُغتسل أو يُغسل به، رقيه تقرأ مع نفث في ماء، ثم بعد ذلك يشربها الإنسان أو يغتسل منها أو يغسل نفسه بها.

وجاء في هذا حديثان، أولهما عند ((الطبراني)) بإسناد صحيح صححه الشيخ الألباني وغيره من أهل العلم من حديث علي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ : **«أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لدغ، كان يصلى فلدغ من عقرب، فكان منه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بعد ذلك أن أتى بماء وملح فكان يقرأ على هذا الماء ويمسح من هذا الماء والملح»**.

كذلك في ((سنن أبي داوود)) عن حديث ثابت بن قيس بن شماس: **«أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عاده رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ وكان صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يرقيه بقوله: اذهب البأس رب الناس** عن **ثابت ابن قيس ابن شماس، وكان صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قد أخذ شيئا من تراب بطحان، فوضعه في ماء فكان ينفث فيه ثم يمسح به ثابتًا رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ»**.

وأما الآثار عن السلف في الرقية على الماء فإنها كثيرة.

هذه أربعة أوجه في كيفية أو صفة الرقية.

وها هنا يحسن التنبيه على أن هناك اجتهادات وربما كانت التجاوزات في حال الرقية المعاصرة مع الأسف الشديد هذا مما ينبغي أن ينتبه وينبه إليه، وذلك أن من الناس من يرقي فيأتي بأشياء جديدة وربما كانت محدثة بعض الناس مثلا تجد أنه يرقى رقية جماعية، يجلس في مجلس مكتظ فيه العشرات ربما أكثر ثم يرقى هكذا الكل بهذه الرقية، وهذا أمر لا دليل عليه.

بعضهم ربما رقي فنفث في خزانات الماء الكبيرة وهذا أمر أيضا لا دليل عليه.

واليوم أصبحنا أيضا نسمع عن أناس يرقون من خلال المواقع في الإنترنت، يرقيك من خلال الأثير عبر الشبكة، "ادخل إلى موقعي ضع يدك على المكان الذي يؤلمك وافتح المقطع الذي فيه الرقية! ما الدليل على هذه الأمور؟

هذه أشياء تقع من بعض الرقاة.

كما أن هناك أخطاء تقع من بعض من يطلب هذه الرقية وذلك أن بعض الناس مع الأسف يظن أن الرقية لابد أن تكون من شخص معين أو من فئة معينة، ويغفل عن أن رقية الإنسان لنفسه أنفع ما تكون أو من أنفع ما يكون، وذلك أن الإنسان إذا رقى نفسه يكون عنده من الاضطرار وصدق اللجوء إلى الله **جَلَّوَعَلَا** ما ليس في الحال الأخرى وهي أن يكون مرقيا من غيره، فما الذي يمنعك أن ترقي نفسك بنفسك؟

أما التعلق برقات، وربما يكون معينين، وربما يقطع الإنسان مئات أو آلاف الأميال للوصول إليهم، ينتقل الإنسان من قطر إلى قطر بل ربما من دولة إلى دولة لأجل أن يصل إلى راقي معين، سبحان الله العظيم!

أليست الرقية بكلام الله؟ أليس كلام الله موجود عندك أو على الأقل عند أناس في بلدك؟ ما الحاجة إلى أن تذهب إلى فلان أو فلان؟ الرقية تأثيرها يرجع إلى كلام الله جَلَّوَعَلَا إلى الدعاء بأسماء الله وصفاته، وليس إلى ذات هذا الشخص بأنه هو المؤثر، لأنه هو الذي يجلب النفع أو يدفع الضر فهذه التجاوزات مما ينبغي أن يتنبه له الإنسان.

أيضا من الأخطاء الشائعة في هذا الباب أن بعض الناس يستعمل الرقية على سبيل التجربة يقول: "دعنا نجرب لن نخسر شيء". فهو يرقي نفسه أو يُرقى من غيرة وفى نفسه أن هذا ليس بالأمر النافع يقينا، يعنى ربما يكون جازما بحصول الانتفاع من حبة دواء أو من جرعة شراب ولا تجد هذا اليقين في نفسه بكلام الله جَلَّوَعَلَا الذي أخبر سُبْحَانَهُوَتَعَالَى فيه: **﴿وننزل من القران ما هو شفاء ورحمة﴾[الإسراء:٨٢]** اعلم أنك لا تستشفي فتنتفع بالقرآن إلا إذا كان عندك يقين.

قال العلماء: إذ اجتمعت ثلاث أمور فما أنفع هذه الرقية:

صدق الراقي، ويقين المرقي، وصحة المرقي به.

احرص على اجتماع هذه الأمور الثلاثة، صدق الراقي ويقين المرقي وصحة المرقي به.

تنبه -يارعاك الله- إلى أن الرقية كما يقول العلماء سيف، والسيف حتى ينفع لابد من اجتماع أمرين: لابد أن يكون الضارب به قويا، ولابد أن يكون المحل قابلا؛ لابد أن تكون اليد قوية، يقولون: (السيف بضاربه أليس كذلك؟

لو كان معك أمضى السيوف لكن اليد هزيلة ضعيفة تكون قتالا ضرابا؟ لا، السيف ربما يسقط من يدك، فالأمر يحتاج إلى صدق ويقين.

ولابد أن أيضا يكون المحل قابلا، لو أخذت أقوى السيوف وكانت يدك أقوى الأيادي ولكنك كنت تضرب في صخرة صماء هل يحصل شيء؟ لا، لأن المحل غير قابل للقطع بالسيف.

إذن لابد من صدق في الراقي ولابد من يقين في المرقي ولابد أن يكون السيف في أصله قويًّا وهذا هو صحة المرقي به.

١٣

١٣- باب ما جاء في الرقى والتمائم

(المجلس الثاني)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب

ما جاء في الرقى والتمائم

في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري ؛ أنه كان مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعض أسفاره، فأرسل رسولا : «لا يبقين في رقبة بعير قلادةً من وتر، أو قلادةٌ إلا قطعت».

كنا قد بدأنا الحديث عن هذا الباب، لكن لم نأخذ شيئًا من شرح ما أورد المؤلف من أدلةٍ.

وقد أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب أربعة أحاديث وأثرين عن تابعين.

أما الحديث الأول فهو ما ذكره المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، أنه (في الصحيح) ومراده في: الصحيحين.

عن أبي بشيرٍ الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأبو بشير على الصحيح لا يُعرف له اسمٌ من وجه ثابت، وإنما هو معروف بكُنيته، وهو: أنصاري، قيل: مازني، وقيل: إنه حارثي، وقيل: غير ذلك.

الشاهد أن هذا الصحابي الجليل كان مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعض أسفاره، وقد ذكر الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه حَرِصَ على الوقوف على هذا السفر، فلم يقف في ذلك على شيء.

المهم أنه كان في سفرٍ مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأرسل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رسولًا من أصحابه ينادي في الناس، جاء في بعض الروايات، في خارج الصحيحين، أنه مولاه زيد بن حارثه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أرسل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الرسول؛ لينذر الناس، ويعلمهم، وينبهم في شأنٍ مهم، ألا وهو أن لا يبقيَّن في عنق بعير قلادةٌ من وتر، أو قلادةٌ إلا قطعت.

الأظهر والله وأعلم أن (أو) ها هنا شكٌ من الراوي، أقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلادة هكذا مطلقة؟ أو قال قلادة من وتر؟

وجاء عند أبي داود: «قلادة من وتر وقلادة» بـ(الواو) وليس (أو).

والمقصود من ذلك أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن تقليد البهائم، ومنها الإبل، أن تُقَلَد الأوتار.

الوتر هو: وتر القوس الذي يربط بين طرفيه، الذي يدفع السهم، و كانت العرب تتخذ الأوتار من حبال، أو من عصب الشاة أو من غير ذلك، فإذا قِدُمَ واخلولق، وأرادوا أن يستبدلوه، فإنهم يقلدون به أنعامهم.

قال الأمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((الموطأ)) عقيب إخراج الحديث: (أُرى ذلك من العين)، أي أنهم كانوا يقلدون الأوتار أو غيرها على دوابهم خشية العين.

من عقائد أهل الجاهلية، أنهم كانوا يعتقدون أن تعليق الأوتار ونحوها على البهائم يقيها من أذى العين، فنهى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك، وأمر بقطع هذه القلائد، وفي هذا دليلٌ على تحريم تعليق التمائم.

وهذا الحديث أصحُّ حديث في النهي عن التمائم؛ لأنه مُخرَج في الصحيحين، وحُمْلُه على ما ذكر الأمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الصحيح، وإن كان ذكرت عللٌ أخرى لأمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقطع الأوتار، لكنَّ الصحيح هو ما قاله الأمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتبعه عليه جماعة من أهل العلم.

فالحديث إذًا دليلٌ على النهي عن تعليق التمائم.

والتمائم -كما ذكرنا في الدروس الماضية-، هي: كل ما يُعلَّق بقصد دفع البلاء قبل نزوله، أو رفعه بعد نزوله، وهذا يتنوعُ إلى أشياء مختلفة، منها ما يكون خيطًا ،ومنها ما يكون قلادةً، ومنها ما يكون قطعة من حيوان، ومنها ما يكون شيئًا مكتوبًا إلى غير ذلك.

المهم أنه كلُّ شيء يُعلق و يوضع وهذا القصد فيه، وهو أنه يكون بقصد دفع البلاء أو رفعه، فإنه حينئذٍ يسمى تميمة، وتتنزل عليه الأحاديث الناهية عن ذلك، بل الواصفة له بأنه من الشرك.

وليس في الحديث النهي عن تقليد البهائم مُطلقًا، فلو أنه قلَّد الإنسان البهائم بسببٍ آخر، فإن هذا لا بأس به، فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قلَّد الهدي الذي بعثه إلى مكة، وكانت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، كما ثبت عنها، كانت تفتل القلائد؛ لهدي للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم كان

يعلقها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذه البهائم التي كان يهديها إلى الحرم، ولم يكن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحرم على نفسه شيئًا بذلك.

الشاهد أن تقليد البهائم لغير هذا السبب، هو غير داخل في هذا النهي، كتقليد الهدي ونحوه، يعني: يُعلق عليه قلائد، لِيُعلَم أنَّه هديٌ، هذا كان من عادة الناس أنهم كانوا يعلقون على الهدي أشياء من القلائد، لأجل أن يُعلَم أنَّ ذلك من الهدي، فهذا لا بأس به، إنما المنهي عنه في هذا الحديث، هو أن يكون تعليق التمائم بقصد دفع البلاء أو رفعه.

وفي هذا الحديث من الفوائد:

أنه يجب الإنذار، ويجب التبليغ، ويجب التعليم، لابد أن يكون في الناس من يبين الحق، وأن يصدعُوا فيهم، لابد أن يفشوا الخير، لابد أن ينهى عن الشر، حتى تقوم الحجة على الناس، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما ترك الناس على جهلهم بهذا الأمر العظيم، لاسيما وهو يتعلق بجناب التوحيد، إنما أرسل رسولًا، وكلفه، وأمره أن يحذر الناس، ويعلمهم، وينبههم، حتى لا يقعوا في هذا الأمر المخالف في شريعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهكذا السائرون على نهج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عليهم أن يبادروا، وأن يجدوا، وأن يُشَمِروا في الدعوة والبيان والتحذير، حتى تقوم الحجة، وحتى يقل الشر، -نسأل الله الإعانة على ذلك-.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك» رواه أحمد ابن أبي داود.

هذا الحديث أصلٌ في هذا الباب، وله قصة، وهي أن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **رأى في عنق زوجه زينب الثقفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رأى خيطًا في عنقها، فسألها، قال: ما هذا؟**

وهذا فيه: الاستفسار قبل إنكار المنكر، لا تَهْجُم على شيء تجهله، فتنكر شيئًا قد لا يكون منكرًا.

سأل ابن مسعود زوجه ما هذا؟ **فقالت: خيطٌ رُقِيَّ لي فيه،** كانت مصابه بمرض، يُصيبها بالحمى والحرارة، فلبست هذا الخيط الذي رُقِيَّ لها فيه، لأجل أن يدفع عنها ما نزل بها.

وهذا يدلك على الاشتراك والعلاقة التي تقع أحيانًا أو كثيرًا بين التمائم و الرقى، فهذا قد اجتمع فيه أنه تميمة ورُقي عليها أيضًا **فعند ذلك غضب ابن مسعودٍ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وجاء في بعض الروايات **أنه شمر عن ذراعيه، وأخذ هذا الخيط فجذبه بعنف، حتى كادت تسقط على وجهها**، وهذا يدلك على غضب ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لحرمات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

الأمر ليس هينًا، أن ينهى الله جَلَّوَعَلَا عن شيء ونبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثم بعد ذلك يتعامل معه الإنسان ببرودٍ شديد، لكن لاحظ أن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إنما فعل ذلك مع من هي من رعيته، أليس هو الولي عليها؟ فحينئذٍ مثلُ هذا من الزوج مع زوجه، إذا كان أبلغ في بيان أنَّ هذا منكر، فلا شك أن هذا من الحكمة.

المهم أن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مد يده فقطع هذا المنكر، «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده**»، وهذا حيث تعلمون حين لا يكون هناك مفسدةٌ مترتبة على ذلك أعظم، وقال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك**»، هكذا بيوت أهل التوحيد، مثال على بيت من بيوت الموحدين، الذين لهم عناية عظيمة بتحقيق التوحيد، والحذر من شعبه ومن ذرائعه.

«**إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك**»، يا ليتها تكون قاعدة نجعلها في بيوتنا، ونُشيعها في أهالينا، إنا لأغنياء عن الشرك كبيره وصغيره.

ثم قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: سمعت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه يقول: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**»، فبين لها رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الحجة والدليل على هذا الإنكار، بل بين المسوغ الذي جعله يتناول هذا الشيء فيقطعه بيده، أن المسألة عظيمة، المسألة تتعلق بقضيةٍ شركية.

إذًا لا تساهل في هذا الأمر العظيم، قطع ذلك ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ثم بين الحجة، وذلك أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**»، هذا الحديث فيه ما يدل على حكم هذه الأمور الثلاثة، وأنها من الشرك، لكن تنبه إلى أن المقام فيه تفصيل.

أما قوله: «**إن الرقى**» والحكم على ذلك بأنه شِرك، فقد مضى الكلام فيه، وقلنا إن هذا الحديث إنما يتناول الرُقى الممنوعة وغير المشروعة، أما الرُقى المشروعة فإنها غير داخلة في هذا الحديث، فهذا الحديث فيه تنصيص لا على الرُقى مطلقًا، إنما على رُقى مُقيدة، وهي: الرُقى الشركية.

ومر معنا أن الرقى الممنوعة قد تكون شركًا أكبر، وقد تكون شركًا أصغر، على تفصيل مضى معنا في الدرس الماضي.

ثانيًا: قال: « **التمائم** »، ووصفها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنها شرك، وقلنا إن ضابط التميمة هي: كل ما يعلق مع قصدٍ وهو دفع البلاء أو رفع البلاء، وهذا جاء منهيًا عنه مطلقًا، ولم يأتِ تقييدٌ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإباحة تميمة دون أخرى.

إذًا هناك فرق بين الرُقى والتمائم، لابد أن تفرق بين الرُقى والتمائم.

الرُقى :شيءٌ يُقال، شيءٌ يُقرأ، وأما التميمة: فأنه شيءٌ يُعلق ويوضع، إذًا هناك فرق بينهما، الرُقى فيها تفصيل، وأما التمائم فالنهي فيها لا تفصيل فيها عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[ثالثًا] قال: «**والتولة**»؛ التولة فسرها مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما عند ابن حبان والحاكم وغيرهما: «**قالوا يا أبا عبد الرحمن: هذه الرقى والتمائم فما التولة؟** -التولة بكسر التاء-، **قال** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **شيءٌ تصنعه النساء تتحببن به إلى أزواجهن**».

وهذا يا رعاكم الله ضربٌ من السحر، كما بَيَّن أبي عبيد وغيره، ضربٌ من السحر يُستعمل في التحبيب، كما سيأتي في كلام المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يحبب المرأة إلى زوجها، ويحبب الرجل إلى امرأته، وهذا لاشك أنه شركٌ بالله جَلَّ وَعَلَا، وسيأتي التفصيل فيه -إن شاء الله- في باب خاص بالسحر.

الشاهد أن هذا الحديث فيه بيان حكم هذه الأمور الثلاثة، الرُقى ومضى الكلام فيها، والتمائم والتولة.

التمائم في غير القرآن، -وسيأتي الكلام في تمائم القرآن بعد قليل إن شاء الله-، الحكم فيها أنها تتراوح بين شركٍ أكبر وشرك أصغر.

قد تكون التميمة شركًا أكبر، وقد تكون التميمة شركًا أصغر.

تكون التميمة شركًا أكبر في الأحوال الآتية:

أولًا: أن يعتقد مُقلدها ومُعلقها أنها تنفع وتضر بذاتها، هذا شركٌ في الربوبية، شركٌ أكبر في الربوبية.

ثانيًا: أن تشتمل التميمة على شيءٍ من الاستغاثة بغير الله، من التمائم التي تعلق ما يكون فيها شيءٍ مكتوب، مكتوبٌ في رقعة، في قطعة من الورق، في قطعة من الجلد، كلامًا قد يكون فيه شرك، استغاثة بالأولياء، بالأنبياء، بالملائكة، بالجن، ثم يطوون ذلك ويخيطونه في قطعة قماش أو جلد، ويعلقونه على الأعناق، أو على العضد، أو على الساق، أو على البطن، أو يضعونه وضعًا في البيوت أو السيارات، فإن كانت التميمة مشتملة على استغاثة بغير الله، فهذا لا شك يجعل التميمة شركًا أكبر.

[ثالثًا]: أن تشتمل التميمة على شيءٍ من علم الحرف أو الطلسم، علم الحرف والطلسم، هكذا يسمونه، ولاشك أنه من علوم الشياطين والمردة، شياطين الأنس، هو ضرب من الكهانة، حيث إنهم يعتقدون أن الحروف الحروف الهجائية، الألف والباء والتاء إلى أخره، والأرقام، علم الطلسم هو علم الأرقام، يعتقدون أن الأرقام: واحد وأثنين وثلاثة إلى آخره، كل حرف منها، أو كل رقم منها له خاصية، بحيث إنه لو رُكب تركيبًا معيننًا، فإنه يكون له اتصال بالأرواح العلوية، أو بالكواكب، أو بالنجوم، فيكون في هذا تأثيرٌ على مجريات هذا الكون، على ما يقع في هذه الأرض.

لذلك تجد أنهم يجعلون جداول، يجعلون في مربع رقم، ومربع ثاني رقم، بطرائق و حسابات معروفه عندهم، وفيها كتب ومؤلفات، وقفت على شيءٍ منها، -أسأل الله أن يتلفها و أن يحرقها، وأن يبعدها عن المسلمين-، تجد أنهم يجعلون في جداول بحيث تقرأ بهذا الشكل على كيفية، و بهذا الشكل على كيفية، وبهذا الشكل على كيفية، إذا رُكبت على الطريقة التي يزعمون، فإنه يحصل بذلك ما يريدون، إذا كانوا يريدون نجاةً من فقر، أو نجاةً من عدو، أو سلامةً من جن، أو نحو ذلك، فلكل شيءٍ من هذه المطالب كيفية، وطريقة في جمع الأرقام، أو في جمع الحروف، باء بعدها تاء بعدها جيم بعدها واو، وبالأسفل كذا، ثم بعد ذلك يزعمون أنك إذا علقتها فإنك تنال ما تطلب من الخير، أو يُدفع عنك ما تخاف من الشر.

لا شك أن تعليق هذه التمائم شرك بالله عَزَّوَجَلَّ، لأن مُعلقها انتهج ما هو في حقيقته شرك، فإن هذه العلوم علم الحرف، أو علم الطلسم، لا شك أنه شرك بالله

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأن فيه اعتقاد أن تصريف الكون يكون من غير الله جَلَّوَعَلَا، وهذا شرك أكبر في الربوبية.

إذًا عندنا ثلاث أحوال يكون فيها تعليق التميمة شركًا أكبر.

أما إذا لم يكن شيءٌ من ذلك، فإذا علقها، علق خرزة، علق العين الزرقاء التي تكلمنا عليها، علق مِنقار غراب، علق خيطًا ، علق أي شيء، لم يكن فيه استغاثة بغير الله، ولا شيءٍ من علم الحرف والطلسم، وعلقها باعتقاد أنها مجرد سبب، والنفع و الضر بيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، حينها يكون تعليق التميمة شركًا أصغر.

إذًا بالتفصيل السابق، يتبين لنا معنى قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أو معنى وصف النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ التمائم بأنها شرك.

هذا عن هذا الحديث، وسيأتي تعليقٌ من المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ عليه.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ:

وعن عبد الله بن عُكَيم مرفوعًا: «من تعلق شيئًا وُكِلَ إليه» رواه أحمد والترمذي.

ما رويَّ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**من تعلق شيئًا وكل إليه**»، هذا الحديث حديث عبد الله بن عُكَيم الجهني، والصحيح أنه من المخضرمين، الذين أدركوا زمان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، لكنهم لم يلقوه، وهذا الذي رجحه جماعةٌ من الأئمة الكبار، كالبخاري، وأبي زرعه، وابن أبي حاتم، وكثير من أهل العلم، والترمذي وغيرهم، كلهم نصوا على أنه مخضرم، لم يدرك النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فحينئذٍ فالحديث على هذا مُرسل، **هذا أولًا**.

وثانيًا: في إسناد الحديث رجلٌ ضعيف، هو ابن أبي ليلى.

وهذا المعنى جاء من حديث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بإسناد أخر، جاء من طريق الحسن، عن أبي هريرة، وجاء من طريق الحسن عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مُرسلًا، كما جاء عند ابن أبي شيبة وغيره عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ من قوله، كما جاء أيضًا عن غيرهم، فهذا الحديث بإسناده الذي بين أيدينا ضعيف، لكن جاء من طُرقٍ أخرى.

الشاهد أن هذا الحديث لو صح عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ففيه بيان ثمرة تعليق التمائم، وذلك كما جاء في هذا الحديث، أن «**من تعلق شيئًا وكل إليه**».

من توكل على الله، واعتمد عليه، وأنزل حوائجه به، فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يتولاه، فيُيسر له كل عسير، ويقرب له كل بعيد، ولا يأتيه إلا الخير والفلاح والسعادة، لكن من غفل عن الله، وأنزل حوائجه لغيره، فإن الله جَلَّ وَعَلَا يخذله، و يتخلى عنه، ويكله إلى ما اعتمد عليه، فلا يناله حينئذٍ إلا الخيبة والخسران.

وهذا شأن من تعلق شيئًا فعلقه بفعله، وتعلق قلبه به، كحال هؤلاء المشركين وأشباههم، حينما يعلقون خيوطًا، أو يعلقون أصدافًا، أو يعلقون حروزًا من هذه الأشياء التي سبق الحديث فيها، قلوبهم التفتت لغير الله، واعتمدت على غيره.

وهذا حالٌ عجيبة في الحقيقة، كيف يغفل الإنسان عن رب الأرض والسموات؟ الذي بيده كل شيء، الذي أخبر سبحانه أن من يتوكل عليه فإنه سيكون حسبه،﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[الطلاق:٣] كفيل به سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، يغفل عن ذلك كله ويعلق أمله في خيط، خيط لو فعلت به هكذا انقطع، لو نفخت فيه طار، أهذا يجلب لك الخير؟! ويدفع عنك الضر؟! هذا والله من فساد العقل، ومن فساد القلب.

إذًا هذا الحديث فيه: أن من تعلق شيئًا وكل إليه يخذله الله ويتخلى عنه، فإذا تولاه هذا الشيء فلا شك أنه سيخرج صفر اليدين، بل المصيبة أنه سيخرج بعد أن يكون قد وقع في الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا، من تعلق شيئًا وكل إليه.

وهذا الحديث فيه قصة، وهي: أن عبد الله ابن عُكَيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرض، فزاره بعض الناس فعرضوا عليه أن يعلق شيئًا، قالوا: إن علقت شيئًا، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورحمه: (الموت أقرب من ذلك)، التوحيد عزيز عند أهله يا أخوان، قال: الموت أقرب من ذلك، كيف يمكن لي وأنا من أهل التوحيد أن أقع في شيء من الشرك؟!، لا أعلق قلبي، ولا أجعل اعتمادي على الله، وإنما على شيءٍ تافه أعلقه، لا والله، الموت أقرب من ذلك، ثم قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من تعلق شيئًا وكل إليه».

إذًا عندنا ثلاث أحاديث في التعليق، منها اثنان مرا بنا في الباب السابق، وهذا هو الثالث، والاثنان السابقان حديثان صحيحان: «من تعلق تميمة فقد أشرك»، والثاني «من تعلق تميمة فلا أتم الله له»، وهذا «من تعلق شيئًا وكل إليه».

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

التمائم شيءٌ يعلق على الأولاد للعين؛ لكن إذا كان المُعلَّق من القرآن، فرخَّص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه؛ منهم ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

التميمة: هي كل شيء كان يعلق على الصبيان من العين، هذا في الغالب، وإلا قد يعلق الكبار أشياء عليهم، وقد يُعَلَقُ على الدواب كما سبق، وقد يكون هذا من العين، وهذا هو الغالب على أهل الجاهلية، وقد يكون لغيره أيضًا.

ثم عطف على هذا رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكلام عن مسألة أخرى مهمة، وهي حكم التميمة من القرآن، يعني: أن يعلق الإنسان شيئًا فيه آيات، أو فيه شيءٌ ويلتحق به شيءٌ فيه ذكر الله جلَّ وعلا، أو شيءٍ من الأدعية، أو يضع المصحف كله، كما يطبعون الآن مصاحف صغيرة، أليس كذلك؟ فربما وضعت في علبة من الذهب أو الفضة فعلقت على الأطفال، ربما كتبت آية الكرسي في قلادة ذهبيه أو فضية، ربما وضع الإنسان لوحة في بيته فيها الفاتحة أو قل هو الله أحد أو فيها ما شاء الله تبارك الله، أو فيها غير ذلك.

المهم أن هذه مسألة أخرى تختلف عن أي كلامٍ سابق، وهي التميمة أو إن شئت فقل المعلقات من القرآن، أو ما فيه شيء من القرآن، أو شيءٌ من الأدعية أو الأذكار.

شيءٍ من هذا القبيل، هل حكمه حكم التميمة السابقة أو يختلف؟ نبهنا المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كلامه السابق، أن هذا موضع خلافٍ بين العلماء، بعض العلماء رخص فيه، وبعضهم منع منه، وذكر منهم ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، هذه المسألة مهمة ويكثر السؤال عنها، وتحتد وتشتد الحاجة إلى معرفتها.

الواقع أن العلماء مختلفون في هذه المسألة إلى ثلاثة أقوال:

[القول] الأول: فهو أنَّ تعليق هذه التمائم من القرآن، أو ما فيه شيء من ذكر الله، أن ذلك جائزٌ قبل نزول البلاء وبعد نزول البلاء، وهذا القول رُويَّ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وروي عن بعض السلف كسعيد بن المسيب وابن سيرين ومجاهد، ولكنَّ الأقرب أنه لم يصح عنهما، لكنه صح عن عطاء، وعن أبي جعفرٍ الباقر، أبو جعفر الباقر، محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رَحِمَهُ ٱللَّهُ و رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الشاهد أن هؤلاء ذهبوا إلى جواز ذلك، وابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حكى -أورد هو وغيره من أهل العلم- هذا قولًا لأهل العلم، واستدل هؤلاء بعموم الأدلة التي فيها الاستشفاء بالقرآن: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾[الإسراء:٨٢]، وهذا استشفاء من القرآن فيكون داخلًا في الآية.

يستدل أيضًا بأثر عن عبد الله بن عمر بن العاص، وهو أنه علمه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعاء الفزع، يعني قد يصاب الإنسان في نومه بشيء من الأشياء التي تفزعه، قد يرى أشياء، وهذا يحصل لبعض الناس، علَّم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد الله بن عمرو بن العاص دعاء الفزع، وهو: «**أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه، وعقابه، وشر عبادة، ومن همزات الشياطين، وأن يحضرون**»، خمسة أشياء تحفظها، احفظها وحفظها لأبنائك، هذا يقوله الإنسان إذا أوى إلى فراشه، إذا كان ممن يصاب بشيء يُفَزِّعُه في نومه، فإنه يستحب في حقه أن يقول هذا إذا أوى في فراشه، قبل أن تنام اذكر هذا الذكر، وادعُ بهذا الدعاء.

إلى هذا القدر هذا سنة ثابتة عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جاءت في حديث عمرو بن العاص، وجاءت من حديث غيره.

لكن جاء بعد ذلك زيادة وهي: **أن عبد الله بن عمر** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، **كان يحفظها أبنائه البالغين، كان من بلغ من أبنائه حفظه إياها، ومن لم يبلغ كتبه في صكٍ**، يعني كتبه في شيء في ورقةٍ أو نحوها ثم علقها عليه، هذا يفعله مع الصغار الذين لم يبلغوا، قال وأما من بلغ فيحفظه إياها، ومن لم يَبْلُغ يكتبه في صك فيعلقه عليه.

قال هذا دليل على إنه يجوز أن يعلق الإنسان التمائم، مما فيه شيء من الأدعية والأذكار، ومن باب أولى ما كان فيه شيء من القرآن.

والواقع أن هذين الاستدلالين فيهما نظر.

أما الأول: فإن خير من فهم الآيات المتعلقة بالاستشفاء وطبقها؛ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يثبت عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قط أنه قد علق شيء من القرآن البتة فدل هذا على أن هذا الفهم غير المراد.

[الثاني]: أثرُ عبد الله ابن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فيه نظرٌ من جهة الإسناد، ومن جهة المتن أيضًا.

أما الإسناد فإنَّ الحديث مع ما بعده من الأثر جاء من طريقِ ابن إسحاق، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، الذي هو عبد الله بن عمرو، وعنعن في الإسناد وابن إسحاق مدلس وعنعن ها هنا، ففي الحديث ضعف، هذا الأثر عن ابن عمرو رضي الله عنهما يُحتاج في إثباته إلى إسنادٍ آخر، ولا يعلم له إسناد إلا هذا ففيه ضعف، **هذا أولًا**.

وثانيًا: **من جهة المتن** الأثر ليس صريحًا في أنه علق ذلك لأجل دفع هذا البلاء، قال بعض أهل العلم: ربما علقه لأجل التعليم، لأجل أن يتهجى هؤلاء الصغار ويتَّحفَّظونه، لأن هذا الأثر ليس فيه التعليق على الصغار والكبار، لو كان يريد التعليق ليكون دافعًا للأذى، لعلق على الجميع، لكن هؤلاء الكبار حفظوا، وهؤلاء الصغار لم يحفظوا، فعلقه عليهم من أجل أن يتهجوا هذا ويقرأوه قبل النوم ثم إذا ناموا يكونون قد أتوا به، أما الكبار فكانوا حفظه، فما احتاجوا إلا ذلك.

على كل حال هذا يبقى احتمالًا، ومع الاحتمال يبعد أو يسقط أو يضعف الاستدلال.

القول الثاني: في هذه المسألة هو أنه يجوز لُبسُ هذه التمائم من القرآن أو نحوه، بعد نزول البلاء لا قبله، رويَّ هذا عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، وجاء عن بعض أهل العلم، ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ في ((زاد المعاد))، أورد روايات عن الأمام أحمد، تفيد ميله إلى هذا القول، يعني قبل نزول البلاء ألبس تميمة من القرآن، لأني أخاف، أخشى أن ينزل بي شيء، يقولون: لا يجوز.

بعد البلاء أُصيب الإنسان بعين بسحر بمسٍ أي شيء هنا يجوز له بعد البلاء لا قبله.

وهذا القول روايته أو حكايته عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا فيها نظر، فالأثر الذي استدلوا به جاء من طريق بكير بن عبد الله بن الأشج عن القاسم بن محمد عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا وبكير لم يسمع من القاسم، فالأثر فيه انقطاع فلا يصح عنها رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، وهذا التفريق يرده عموم أدلة النهي عن التعليق، والله تعالى أعلم.

القول الثالث: هو النهي المطلق عن تعليق هذه التمائم، فلا يجوز ذلك لا قبل البلاء ولا بعده، وهذا قول ابن مسعود وابن عباس وعقبة بن عامر وحذيفة وعمران من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما أنه قول جماعة من التابعين ومنهم الحسن البصري، ومنهم أصحاب ابن مسعود؛ كعلقمة والأسود وعبيده السلماني وغيرهم من أهل العلم، كما سيأتي عن إبراهيم، (كانوا يكرهون التمائم من القرآن ومن غير القرآن)، كما أنه قول جمهور أهل العلم، وهذا القول هو الراجح إن شاء الله، ويدل على رجحانه أمور:

أولًا: عموم الأدلة الناهية عن التعليق، مع عدم التفريق بين مُعلَّق ومُعلَّق.

ثانيًا: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرق في الحكم بين الرُقى والتمائم، أما الرقى فقال في شأنها: **«اعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيها شرك»**، أليس كذلك؟، مر بنا في درس ماضٍ، أما التمائم فلم يُفرق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما قال فيها أعرضوا عليا تمائمكم، فلا بأس بالتمائم فيها ذكر الله، ما فعل هذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدل هذا على أن النهي عن التمائم نهيٌ مطلق لا تقييد فيه.

ثالثًا: الناظر في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما جاء عنه قط في الأذكار، أو الأدعية، التي فيها جلبٌ أو دفعٌ، أو التي تكون سبب لجلب أو دفع، ما جاء فيها كتابة أو تعليق، لكن أن تجد فيها من قال، من قرأ، أليس كذلك؟ **«من قرأ الآيتين من أخر سورة البقرة في ليلةٍ كفتاه»**، من قال كذا وكذا كان له كذا وكذا، تأمل في الأحاديث ما استطعت منها، ما تجد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال من كتب أو من علق أو أن هذا في الواقع أسهل وأبعد عن النسيان، أليس كذلك؟

أذكار النوم كان يمكن للإنسان أن يكتبها إذا كان هذا مشروعًا، لَمَ لا يرشد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ذلك، يكتبها ويجعلها بجواره أو يتعلقها على صدره وينام، وبالتالي يسلم من مغبة النسيان، كم من الناس ينام قبل أن يذكر الأذكار؟ صح ولا لا؟ كثير من الناس تنعس عينه قبل أن يذكر هذه الأذكار، أليس كذلك؟ وكان هذا أسهل، ومع ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما جاء عنه قط، كان يعلق الأمر بالقراءة، بالذكر، بالتلاوة.

[رابعًا]: أن هذا القول فيه عملٌ بقاعدة الشريعة التي هي سد الذرائع، وهذا من أوجهٍ عدة:

١/أن القول بإباحة التمائم من القرآن، فتحٌ لذريعة اختلاط التمائم المشروعة، التي يزعمون أنها مشروعة، التي يقولون بمشروعيتها، مع التمائم الممنوعة، لأن الغالب أن هذه الأشياء تكون مغلقة، وبالتالي يختلط الأمر.

٢/وبالتالي يجد المشركون فرصة ليروجوا على الناس التمائم الشركية ويتقاعس أهل الخير عن إنكار هذا المنكر الآن، لو كانت التمائم كلها يمنع تعليقها، لأنكرت مباشرة، أما إذا كان الأمر فيه تفصيل، فلربما رأى الإنسان على آخر شيء من التميمة، يعلقه فيقول لعله تميمة من القرآن، فينتشر الشر.

٣/ كما أن فيه إغلاق لباب الرقية يستغني الناس عن الرُقية مع أن الرُقية سنة، أليس كذلك؟ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَقى ورُقي، وبتعليق هذه التمائم ربما يكتفي الناس عنها ويستغنون عنها.

[خامسًا]: أن هذا القول هو الثابت عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ولم يثبت على غيرهم خلافة.

[سادسًا]: أن هذا قول أكثر التابعين، فمن بعده من أهل العلم.

[سابعًا]: المنع من هذه التمائم فيه صيانةٌ لكلام الله واسم الله، لأنه لا يُؤمن ابتذال هذه الأشياء، لا يؤمن أن تبتذل الآيات أو الأدعية.

ولذلك جاء عن إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: (كانوا يكرهون التعويذة من القرآن، ويقولون أن الصبيان يدخلون بها الخلاء)، لأنها تُعلق فمع الوقت يتساهل أو ينسى فيدخلون بالقرآن، أو بشيء من ما فيه ذكر الله دورات المياه، والخلاء، أيضًا ربما يلبسها الإنسان فينام، فإذا به يجعلها تحته مثلًا، أو ربما علقها عليه، وأصبح يتكلم بكلام مُحرم أو بلغو، أو نحو ذلك.

المهم أن تعليق هذه الأشياء قد يكون فيه شيء من عدم احترام كلام الله، وما فيه اسم الله.

[ثامنًا]: أن هذا القول أحوط، والاحتياط في هذه المسائل أولى.

إذًا الأولى بالإنسان هو الصحيح من كلام أهل العلم إن شاء الله، أنه ليس للإنسان أن يعلق هذه الأشياء بسبب دفع البلاء عنه.

بعض الناس تجده يضع مصحف في السيارة، لا يقرأ فيه، ربما تضربه الشمس حتى تتلف جلده، وهذا فيه شيء من عدم التقدير لكتاب الله، المهم أنه يضعه في الآخر، ترونه يضعونه في آخر السيارة أو في مقدمتها أو ربما وضعوه في درج السيارة، ويريدوا بذلك أنه يُحفظ من العين، أو الحوادث، أو نحو ذلك.

هذا لا شك أنه على الصحيح لا يجوز، كذلك تعليق هذه الآيات ونحوها على الأطفال، فالأقرب أن ذلك -رعاكم الله- لا يجوز، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والرقى هي التي تسمى العزائم، وخصَّ منه الدليل ما خلا من الشرك، قد رخص فيه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العين والحُمَةِ.

مضى الكلام في ذلك والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قلنا رخص قال: **«لا رقية إلا من عين أو حمة»**، وقلنا الحمة: هي ذوات السموم، وأن هذا على معنى: أنه لا رقية أنفع من الرُقية في العين والحمة، ومضى الكلام تفصيلًا عن الرُقية في الدرس الماضي.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والتولة: شيءٌ يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.

مضى الكلام في ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وروى الإمام أحمد عن رويفعٍ قال: قال لي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا رويفع، لعل حياة ستطول بك، فأخبر الناس أن من عقد لحيته، أو تقلد وترا، أو استنجى برجيع دابة أو عظم، فإن محمد بريءٌ منه»

هذا الحديث حديثٌ صحيحٌ -إن شاء الله-، وفيه أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لرويفعٍ عبد الأنصاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، **«لعل الحياة تطول بك»**، وهذا علمٌ من أعلام نبوته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه قد طالت به الحياة، فإنه توفي سنة ستٍ وخمسين من الهجرة، وقيل: سنة ثلاثٍ وخمسين، فأمره النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالدعوة والبيان، **«أخبر الناس»** وهذا واجب

الدعاة، واجب وراث الأنبياء، أن يعلموا الناس وأن يخبروهم وأن يحذروهم كما سبق، أمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يحذر الناس من ثلاثة أشياء:

الأمر الأول: عقد اللحية، **«أن من عقد لحيته»**.

اختلف العلماء في تفسير المراد بعقد اللحية:

[القول الأول]: أن يعقدها، يربط لحيته، أو يفتلها تكبرًا، وهذا كما ذكروا كان من عادة بعض أهل الجاهلية.

[القول الثاني]: أنه من فعل أهل التخنث فيهم.

[القول الثالث]: أن هذا كانوا يفعلونه من أجل دفع العين، وهذا القول هو المناسب لبابنا.

[الأمر الثاني]: **«تقلد وترا»**، تقلد الأوتار مر بنا في تقليد الدواب والإبل، في حديث أبي بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ السابق، وهذا يدل على أنهم قد كانوا يتقلدون هم، يعني الناس كانت أيضًا تتقلد الأوتار، وهذا قد مضى الحديث فيه، وأنهم كانوا يفعلون ذلك من لأجل دفع أذى العين، هذا هو الشاهد من الحديث، وكذلك ما قبله على القول الثالث في تفسير عقد اللحية.

إذًا تقليدُ الوتر الذي جاء النهي عنه في هذا الحديث، فيه دليل على النهي عن التمائم، وهذا هو الذي عقد لأجله المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب.

الأمر الثالث: هو الاستنجاء برجيع الدواب، نهى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أحاديث عدة عن أن يستنجي الإنسان، يعني: أن يتطهر، يستجمر بشيئين: بالعظام عظام الحيوانات، وكذلك بروث، بمخلفات الدواب؛ لأن عظام هذه الحيوانات التي نأكلها إذا ذكر اسم الله عليها فإنها تكون طعام إخواننا من الجن، والروث هو: طعام دوابهم، فدل هذا على أنه لا يجوز للإنسان أن يستنجي ويتطهر بهذين الأمرين، من فعل ذلك فإن محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بريء منه، وهذا دليل على أن هذه الأمور السابقة محرمة، بل من الكبائر، لأن كل من جاء فيه وعيدٌ خاص فإنه يكون من الكبائر.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن سعيد بن جبير قال: «من قطع تميمة من إنسان؛ كان كعدل رقبة». رواه وكيع.

هذا الأثر عن سعيد ابن جبير، فيه نظر:

[أولًا]: في إسناده، فإنه جاء من طريق عن ليث بن أبي سُليم وهو ضعيف.

وفيه: أن من قطع تميمةً من إنسان كان كعدل رقبة، يعني: كأنما أعتق رقبةً في سبيل الله، يعني: ثوابه كثواب من أعتق رقبة لوجه الله.

قال أهل العلم وجه العلاقة بين قطع التميمة وعتق الرقبة: أن من قطع تميمة من إنسان، فإنه يكون قد فعل سببًا لعتق رقبته من النار، فكان من ثواب ذلك، أنه كمثل من أعتق رقبةً في سبيل الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، يعتق الله عَزَّوَجَلَّ لذلك رقبة هذا الإنسان من النار، ولكن هذا الأثر كما علمت ضعيف.

وثانيًا: إن صح هو قول تابعي، وليس قول صحابي، وقول التابعي في ما لا مجال للاجتهاد فيه؛ الصحيح أنه ليس له حكم الرفع، فإن هذا خاصٌ بأصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

ومن لطيف ما يذكر ما أخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان يطوف بالبيت، فرأى رجل يطوف عليه خرزة يعلقها فقطعها رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا فيه إنكار السلف للمنكرات العقدية ومنها التمائم، لكن كما سلف وكررتُ هذا حيث تؤمن الفتنة، المهم أن تخرج من قلبه، وأن تُقطع علائق القلب بهذا الشيء، أما لو قطعتها فقط وهي لم تخرج من قلبه، فأنه سيرجع ويلبس اثنتين.

المهم أن تخرج من قلبه أولًا، ثم بعد ذلك برفق تحرص على أن تزيلها منه، أو تجعله هو يقطعها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وله عن إبراهيم قال: كانوا يكرهون التمائم كلها ، من القرآن وغير القرآن.

هذا -كما ما سبق- قاله إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقوله: (كانوا) يريد أصحاب بن مسعود وهذه قاعدة عامة، إذا وجدت في كلام إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وهذا يوجد في كلامه كثيرًا، كانوا كذا، كانوا كذا، فإن مراده أصحاب ابن مسعود -كما ذكرت لك-؛ كعلقمة، والأسود، وعبيدة السلماني، وغيرهم من التابعين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ رحمة واسعة، ففي هذا بيانٌ أن هذا القول وهو المنع من تمائم القرآن هو قول جماعة من التابعين، بل هو قول الجمهور -كما أسلفت-.

١٤

١٤– باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب

من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ :(بابُ من تبرك، أو بابٌ من تبرك بشجرةٍ أو حجرٍ ونحوهما)، هذا بابٌ مهم والحاجة ماسةٌ إلى الإلمام بمسائله لكثرة الأخطاء الواقعة في هذا الموضوع ألا وهو موضوع التبرك.

التبرك تفعُّلٌ من البركة فهو يعني: طلب البركة.

وكلام أهل اللغة معنى البركة يدور على أمرين: على كثرة الخير، ودوامه.

إذن التبرك طلبُ كثرة الخير، ودوامه.

والبركة شيء يضعهُ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ويعطيه من يشاء، فالله عَزَّوَجَلَّ يبارك الشيء ويبارك فيه ويبارك له ويبارك عليه، والله جَلَّوَعَلَا هو المبارك وحده وما سواه مما شاء أن يجعله مبارك فهو مبارك وما لم يجعله الله مبارك فلا يمكن أن يكون مباركا.

والله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ قد يجعل البركةَ في أزمنة؛ كَليلة القدر: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾[الدخان:٣].

وقد يجعل البركة في بقعة أو مكان من الأرض: ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾[القصص:٣٠].

وقد يجعل البركة في ذوات؛ كبيت الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾[آل عمران:٩٦]، أو المطر، فالله جَلَّوَعَلَا سماه ماءً مباركًا، أو المسلم فالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «إن من الشجر لما بركته كبركة المسلم».

فهذه الذوات يجعلها الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ مباركة.

إذن البركة يجعلها الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فيما يشاء من أزمنة وأمكنة وذوات وهيئات وغير ذلك.

والبركة في الجملة تنقسم إلى قسمين:

[القسم الأول]: **بركة دينية** راجعة إلى الإيمان والطاعة والثواب وما إلى ذلك؛ فالكعبةُ مباركة بنصِّ القرآن وبركتها بركة دينية؛ فإن العبادة ثمَّه فيها من الأجر والفضل ما ليس في غير

ذلك، كذلك المسجد النبوي مسجدٌ مبارك الصلاة فيه لها من الأجر ما ليس في غير هذا من المساجد.

القسم الثاني: **بركة دنيوية** كالمطر فالله جَلَّوَعَلَا جعله ماءً مباركًا.

كذلك النبات جعله الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ذاتًا مباركًا قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[الأعراف:٩٦] يعني: المطر والنبات.

وقد يكون الشيء جامعًا بين الأمرين؛ كالقرآن فيه بركةٌ دينية من جهة ما يحصل لتاليه والمتدبر له من الإيمان والرقي في سُلم العبودية مع تحصيله جزيل الثواب.

وفيه أيضًا بركة دنيوية من جهة ما يحصل من الاستشفاء به ولذلك كان القرآن مباركًا: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾[ص:٢٩].

فالمسلم إذا طلب البركة من كتاب الله جَلَّوَعَلَا فليستشعر هذين الأمرين.

وكلام الناس في البركة وفيما تُطلب فيه البركة وكيف تطلب البركة كلام الناس في هذا كثير، لكنَّ الذي عليه أهل السنة والجماعة أنَّ التبرك -يعني طلب البركة- ينقسم إلى قسمين:

[القسم الأول]: **تبرك مشروع**.

[القسم الثاني]: **تبرك ممنوع**.

أما التبرك المشروع فهو الذي جمع ثلاثةَ ضوابط:

أولًا: أن تُلتمس البركة مما ثبت شرعًا أن فيه بركة، كون الشيء مباركًا هذه قضية إنما تُعلم من جهة الشرع فليس للإنسان أن يزعم أن في هذا الشيء بركةً تُلتمس إلا ومع هذا دليلٌ من الشارع فلابد أن يثبُت في الشيء بأنه مبارك حتى يمكن أن يُتبرك به.

ثانيًا: أن يكون التبرك وِفق ما ورد في الشرع كما أننا نطلب الدليل على كون الشيء فيه بركةٌ تُلتمس، كذلك علينا أن نطلب الدليل في الكيفية التي نلتمس فيها أو نلتمس بها البركة فكلا الأمرين توقيفي.

قد يكون الشيء قد ثبت أنه مبارك، لكنَّ الكيفية التي تُفعل من بعض الناس ليس عليها دليل، وهذا مخالفٌ للشرع فعلى الإنسان أن يقف عند حد الشرع في الأمرين: في ثبوت أن هذا الشيء فيه بركة، وفي كيفية التماس هذه البركة.

[ثالثًا]: أن يكون التماس البركة على جهة السببية؛ بمعنى: أن يُعتقد أن البركة إنما يمنحها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إنما يعطيها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إنما يتفضل بها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فهي كالعافية وكالنصر وغير ذلك، إنما يتفضل الله جَلَّ وَعَلَا بها إذا شاء على من يشاء، فمن اعتقد أن غير الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يعطيه البركة فلا شك أنه يعتقد أن غير الله يشارك الله فيما اختص به؛ ولذلك تجد في النصوص أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي يجعل الأشياء مباركة، قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[مريم:٣١]، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾[الصافات:١١٣]، والمسلم في صلاته يقول: (اللهم صلِّ على محمد)، ثم يقول: (وبارك على محمد)، أنت يا الله الذي تبارك كما باركت يا لله على إبراهيم.

إذن البركة من الله لا من غيره.

ورد في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجاء أيضًا عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويبدو والله أعلم أن القصة واحدة رواها ابن مسعود ورواها جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ذلكم **أن الصحابة كانوا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سفر، فقلَّ الماء، -أضحى الماء قليلا فاشتكوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اطلبوا لي فضلة من ماء»، فأتوا بماء قليل في إناء، فوضع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده في الإناء وقرأ، وإذا بالماء كما يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يفور من بين أصابع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حيَّ على الطهور المبارك، والبركة من الله»**

(حيَّ) أي: هلموا خذوا هذا الطهور المبارك، ولكن نبههم قطعًا لذريعة الشرك وتحقيقًا للتوحيد، (حيَّ على الطهور المبارك)، لكن احذروا لست أنا الذي أعطى البركة، البركة من الله، هذه القاعدة ينبغي أن يستمسك بها المسلم البركة من الله لا من غيره.

إذن ضابط البركة هو: **أن تلتمس البركة مما ورد شرعًا أن فيه بركة، بالكيفية التي وردت على جهة السببية.**

أما البركة الممنوعة فإنها ما فقدت واحد من الضوابط السابقة، وذلك:

أولًا: أن تلتمس البركة مما لم يثبت شرعًا أن فيه بركة، يدعي بعض الناس في مكانٍ ما أو زمانٍ ما أو شيءٍ من الذوات أن فيه بركة فيطلب التبرك بها يتمسح يتبرك يلتمس نيل

البركة من هذا الشيء، وإذا نظرت لم تجد دليلًا على أن هذا الشيء فيه بركة تُلْتَمس؛ إذن هذا تبركٌ ممنوع.

مثال ذلك: بعض الناس إذا جاء إلى مثل هذه البقعة المباركة في هذا المسجد النبوي تجد أنه يتمسح بالأبواب أو بالسواري ويفعل هذا التماسًا للبركة، تجده يمسح ثم يمسح على جسده يريد أن البركة تنال جسده؛ فنقول: يا عبد الله أين الدليل على أن في هذه السواري والأبواب بركةً تلتمس؟ أين الدليل أفي هذا أية من القرآن؟ أو حديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أفعل هذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا المسجد أو في أبواب المسجد الحرام أو سواريه؟ أفعل هذا أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أفعل هذا التابعون وأتباعهم؟

الجواب: لا، إذن كان هذا تبركًا ممنوعا.

ثانيًا: أن تُلتمس البركة بكيفيةٍ لم ترد، قد يكون الشيء مباركٌ لكن الكيفية التي تُفعل ليس عليها دليل وحينئذٍ نقول هذا التبرك ممنوع؛ مثال ذلك: الكعبةُ بيت مباركٌ بنص القرآن: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾[آل عمران:٩٦]، ولكن ماذا عن التبرك بأستارها؟! نجد من الناس من يحرص أشد الحرص على أن يتمسح ويتبرك بستارة الكعبة، وبعض الناس ربما حرص أشد الحرص على أن ينال شيئًا من قطع هذه الستارة ليستشفيَّ بذلك يغمسه في الماء ثم يتناوله أو يناوله المريض يزعم أن فيه بركة تنال من خلال هذه الكيفية والسؤال أين الدليل على هذه الكيفية؟

فإن التبرك فعل يفتقر إلى دليل، ولم نجد حديثًا واحدًا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يتبرك بأستار الكعبة وهكذا أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قد يقول قائل: وماذا عن استلام الحجر الأسود؟ أو مسح الركن اليماني؟

الجواب: أننا نتكلم عن التبرك بأستار الكعبة **هذا أولًا**.

وثانيا: أن فعلنا في الركن اليماني إنما نقتدي فيه بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يثبت أن فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان لأن الركن اليماني فيه بركةٌ تلتمس، كذلك الحجر الأسود نقتدي باستلامنا له بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك**»، وجاء في بعض الأحاديث وهي حسنة -إن شاء الله-: **أن استلام الحجر الأسود سبب من أسباب**

التكفير؛ فإن كان المقصود بالتبرك أن ينال الإنسان سبب من أسباب التكفير فلا بأس، أما أن يكون شيءً آخر فهذا يطالب صاحبه بالدليل.

إذن الكيفية لابد أن يكون عليها دليل.

وهنا مسألة، بعض الناس ربما رأى رجلًا صالحًا أو يظنه صالحًا أو يكون له مكانة ومنزلة تجد أنه يسلم عليه ويحرص على أن يتمسح به، أو يمسح جلبابه تجد من الناس من يفعل هذا قد يسلم على شيخ، أو إمام الحرم، أو ما شاكل ذلك ويتمسح به إن استطاع، والسؤال لما تفعل هذا يا عبد الله؟ يقول هذا رجلٌ صالح فأنا أتبركُ به.

قلنا: ما الدليل؟ قال الدليل أنه مسلم وكل مسلم فيه بركة أليس كذلك؟ في الصحيح **«إن من الشجر لما بركته كبركة المسلم»** إذن كل مسلم فيه بركة، إذن أنا التمس البركة مما ثبت شرعًا أنه فيه بركة.

فنقول: أحسنت حين قلت أن المسلم فيه بركة بنص الحديث، ولكن بقيَّ عليك أن تأتي بدليل على هذه الكيفية التي فعلت، كما تطلب الدليل في الأول اطلب الدليل في الثاني، بركةُ المسلم بركةٌ ذاتية غيرُ متعدية تتفاوت بحسب الإيمان؛ وكلما كان الإنسان أكثر إيمانًا كلما كانت بركته أعظم، لكن لم يأتِ في الدليل أن هذه البركة متعدية تنال من مسح أو التصق بجسد هذا المسلم ما جاء دليلٌ على هذا.

قال بعض الناس بلى قد جاء الدليل ألم تنظروا في الصحيحين وغيرهما من الأحاديث المتواترةِ أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يتبركون بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجسده، بشعره، بعرقه، ببصاقه، بنخامته، باللباس الذي لبس، بالنعال التي انتعل، بالأناء الذي كان يشرب منه، إلى غير ذلك؟

قلنا: نعم، وهذا لا شك أنه أمرٌ مشروع، والأدلة عليه كثيرة، ونُشهد الله أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَبارَكٌ صفاتًا وأفعالًا، ومَبارَكٌ ذاتًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فللنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصية وهي أنه مباركٌ بركة ذاتية متعدية؛ بحيث أنها تنال من مسه أو مس شيئًا لامسه أو لبسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأحاديث في هذا كثيرة، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا توضأ ازدحم الصحابة لنيل شيءٍ من وضوئه، إذا حلق شعره يكاد الصحابة أن يتقاتلوا كلٌ يريد أن ينال من شعر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا لا شك أنه مشروع.

ولكن استدلال هذا المستدل بما فعل الصحابة مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو من أي أبواب الأدلة أو الاستدلال؟ بالقياس أليس كذلك؟

هؤلاء قاسوا غير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الصالحين على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أليس كذلك؟

والسؤال: هل هذا القياس قياسٌ صحيح أو غير صحيح؟ أُعيدُ السؤال هل يمكن أن نجعل غير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمثابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى نقيس عليه؟

ما هو القياس؟ إلحاق فرعٍ بأصلٍ في علةٍ جامعة، لابد أن يشتركا أو يحصل اشتراك بين الفرع والأصل في العلة أليس كذلك؟ فمن الذي هو كالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصلاح والتقوى حتى يصح القياس؟

يا الله العجب! من أُناس يزعمون أنهم يعظمون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم يجعلونه كآحاد الناس، مثله مثل أي شخص آخر نتمسح بالناس كما نتمسح بالنبي ولا فرق.

أما أهل السنةِ حقًّا فعندهم من تعظيم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،والوقوف عند حدود ما أنزل الله ما يجعلهم يقولون: هذا حكمٌ خاصٌ بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يشتركُ معه فيه غيره، وبالتالي كان هذا قِياسًا فاسدًا؛ ويدل على فساده أنَّ إجماع الصحابة قد انعقد على أنَّ هذا الفعلَ خاصٌ بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يشاركه فيه غيره.

أرأيت أحدًا من صغار الصحابة فَعَلَ هذا التبرك مع أحدٍ من كبار الصحابة؟ يعني: هل رأيتَ من مثل عبد الله بن عمر، وابن عباس مع من فعل هذا مع أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي؟ كانوا إذا مشى مسحوه جسده، أو إذا توضأ أخذوا وضوئه، وتمسحوا به؟!

الجواب: لا؛ ولن تجد.

إذًا هذا حكم خاص بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإجماع الصحابة، ثم أيضًا هو حكم خاص به بإجماع التابعين، فما كان أحد من التابعين قط يفعل هذا مع أحد من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهل تعلمون أحدًا في الأمة بعد نبيها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصلح من الصحابة؟ أهناك أحد يداني أبا بكر وعمر وعثمان وعلي وإخوانهم من الصحابة من يدانيهم في التقوى؟ والله ما كان ولا يكون مثلهم، هذه عقيدتنا في الصحابة أليس كذلك؟ ومع ذلك ما كان أحد يفعل ذلك.

إذن دل ما سبق على أن التبرك بالأشخاص أمر خاص بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا يُفعل مع أحد من هذه الأمة قط.

[ثالثًا]: وهو أن يُعتقد أنَّ البركة تُنال من غير الله؛ فمن اعتقد أن هذا الشيء مبارك وهو مبارك بالنص والكيفية ثابتة، لكنه يعتقد أن البركة إنما يعطيها هذا الشيء الذي تبرك به، فنقول هذا من الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، لأن البركة -كما قد تعلمنا- من الله ولا تمنح من غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إذن التبرك الممنوع التماس البركة مما لم يثبت شرعًا أن فيه بركة، أو بكيفية لم ترد، أو باعتقاد أن البركة توهب من غير الله.

والسؤال ما حكم التبرك الممنوع؟

الجواب: **أن حكم التبرك الممنوع ينقسم إلى ثلاثة أقسام:**

أولًا: أن يعتقد المتبرِكُ أن ما تَبرك به يمنح البركة من ذاته هو الذي يفيض بالبركة وهو الذي يعطي البركة إذا شاء، مثال ذلك: ما يفعله القبوريون حين يتمسحون بقبور الأولياء مع اعتقادهم أن الولي أو السيد هو الذي يعطي البركة.

ولو تأملت لوجدت هذا المثال فيه اجتماع الصور الممنوعة الثلاثة:

١/ لم يأتِ في الدليل أن في القبور بركةً تلتمس، ما جاء دليل أن القبر فيه بركة تلتمس أي قبرٌ كان.

٢/ لم يرد في الدليل أن التمسح أو تعفير الوجه أو الجسم بتراب القبر أو التمسح بسياج القبر أو بالحديد المحيط به أو بجدار القبر وسور والمشهد أن فيه هذه الكيفية واردة، وذلك لم يرد.

٣/ ما يعتقده كثيرٌ منهم أن صاحب القبر هو الذي يمنح ويتفضل بالبركة.

إذن اجتمعت هذه الظلمات الثلاث بعضها فوق بعض بهذه الصورة؛ فهذا لا شك أنه شركٌ أكبر.

ثانيًا: أن يُعتقد أنَّ لما تَبرك به أرواحٌ، أو ما قد يقولون روحانيات قد يتبرك بعضهم بشجرة، أو بسارية، أو حتى بقبر، ويزعم أنَّ لهذه الشجرة أو الحجر أو السارية أو القبر أن له

أروحًا ترفع الحاجات إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فنقول هذا أيضًا شركٌ أكبر من جنس شرك المشركين الأولين.

[ثالثًا]: هي ألا يَعتقد أن البركة تُعطى من غير الله إنما هي سبب، وإنما هذا التبرك سبب، ولكن هي تُمنح من الله، كأن يتبرك ببابٍ من أبواب المسجد، أو سارية، أو بشخصٍ صالح، أو ما شاكل ذلك وهو يعتقد أنَّ البركة من الله وهذا مجرد سبب؛ فنقول هذا شركٌ أصغر؛ لأنَّه اتخذ سبب لم يجعله الله سبب لا شرعًا ولا قدرًا.

إذن هذه خلاصةٌ مركزة في موضوع التبرك مشروعه وممنوعه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾[النجم:١٩] الآيات.

أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب أيةً وحديثًا، ثم عقب على هذا باستنباط مسائل كثيرة بلغت اثنتين وعشرين مسألة من المسائل المستفادة من هذا الباب.

أما الآية فآية النجم، والظاهر أنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنما أورد أولها، وفي بعض الطبعات أكملوا الآيات، والظاهر أنَّ المؤلف إنما أراد أولها لأنه قال: (الآيات)، يعني: أكمل الآيات.

يقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾[النجم:١٩:٢٠].

﴿أَفَرَأَيْتُمُ﴾ يعني: أخبروني عن هذه الأصنام الثلاثة التي هي أعظم الأصنام عند المشركين هل هذه الأصنام كانت تخلق وترزق وتدبر؟ حتى يصح أن يُتعبد بها وأن يُتقرب إليها. والجواب معلومٌ عندهم فهذا مسلك من مسالك إثبات التوحيد ونقضٍّ الشرك وهو: بيان ضعف الآلهة ونقصها وعجزها وله نظائر كثيرة في النصوص.

وقال بعض أهل العلم: إنَّ هذه الآية متعلقةٌ بما قبلها: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾[النجم:١٨] ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾[النجم:١٩].

وهذا استفهام استنكاري يتضمن التهكم بهم والسخرية بهم.

محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لما عُرِج به إلى السماء رأى من آيات ربه الكبرى، فهل هذه الأصنام وأمثالها لها من الآيات كما لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حتى يصح أن تكون شريكةً مع الله عَزَّوَجَلَّ كما تعتقدون؟

والجواب: أيضًا معلوم، ليس لها من هذه الآيات الكبرى، إذن عبادتها باطلة.

هذه الأصنام الثلاثة هي أشهرُ الأصنام عند العرب وأكبرها:

هي اللات، قيل: إن هذه الكلمة مشتقة من اسم الجلالة (الله)، أو من اسمه سبحانه (الاله)، إما من (الاله) أو (الله)، وقرأ الجمهور بالتسهيل.

وقيل: أن اللات اسم فاعل من لت، يلت، وهذا ما يشهد له قراءة أو رواية رُويس عن يعقوب الحضرمي، فإنه قرأ بالتشديد مع المد المشبع ﴿أفرأيتم اللآتَّ﴾.

أمَّا الأول فإنه دليل على أن المشركين كانوا يلحدون في أسماء الله يشتقون من أسماء الله أسماءً لأصنامهم، قال بعض أهل العلم: أصلُ اشتقاقهم كان تسمية هذا الصنم باسم الجلالة (الله)، لكنَّ الله صرفهم عن ذلك حتى كان هذا اسمًا مُختصًا بالله عَزَّوَجَلَّ لم يتسمّى به غيره، وهو اسم الجلالة: الله.

وعلى الثاني: فهو يشير إلى سبب عبادة هذا الصنم هذا الصنم أو الحجر، أو الصخرة -كما سيأتي بيانه- كان في الطائف وكانت العرب قاطبه تعظمه لكن أكثر الناس تعظيما له هم ثقيف أهل الطائف، وأصل ذلك أن كان رجلًا صالحًا كان يجلس على صخرة يلت عندها السويق للحاج وللفقراء يلت أي: يخلط، السويق: هذا الطعام الذي هو من الطحين يلته يعني: يبله بالماء أو بالزيت أو بالسمن حتى يساغ عند الأكل.

رجلٌ صالح فلما مات أتى الشيطان الناس فسوَّل لهم تعظيمه فما كان منهم إلا أن عظموا هذا القبر وعبدوه، ثم تطور الأمر حتى عبدوا الصخرة التي كان يجلس عليها أو الصخرة التي كانت بجوار القبر على ما يذكر أهل العلم.

فالشاهد في هذا الدليل على أن الصالحين عُبدوا وعلى أن الأحجار عُبدت وكل ذلك لا فرق فيه في الحكم الشرعي هذا شرك وهذا شرك.

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾[النجم:١٩].

العزى أيضًا مشتقة من (العزيز)، عزى أنثى الأعز، اشتقوا هذا الاسم على ما ذكر أهل العلم من العزيز.

وهذا الصنم أو هذا الوثن كان أيضًا من أشهر الأصنام عند أهل الجاهلية، وكانت العرب قاطبة تعظمه، وأكثرهم تعظيمًا له قريش، وهو أقرب الأصنام من مكة، كان هذا الصنم قريبًا من السيل بين مكة والطائف.

قيل: إنه كان شجرات ثلاث من شجر السمر، شجر السمر شجر معروف، كان شجرات عظيمة وعليها بناء، بنوا عليها بناء فوق هذه الثلاث شجرات وجعلوا على هذا البناء أقمشة وستائر ونحو ذلك.

وقيل أنه كان صنم وكانت هذه الشجرات هي حريمه، كان له حرم من تعظيم المشركين لهذا الصنم جعلوا له حرمًا كحرم مكة، لا يصاد عنده ولا يعضد شوكه، وكان هذا الشجر أو كانت هذه الشجرات في حريم الصنم، ولأجل هذا عظموها لتعظيم، هذا الصنم.

وقيل إنه تلف الصنم عُبدت هذه الأشجار.

الشاهد أنه مما قد عُبد الشجر ولم يفرق النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين قبر يُعبد أو بين حجر وشجر أوبين صنم، كله شركٌ بالله.

أما مناة فإنها كانت بالمشلل قرب قديد، قديد بين مكة والمدينة وهي إلى المدينة أقرب، قريبة من الجحفة يعني بنها وبين الجحفة حوالي ست وعشرين ميلًا، وهي جهة البحر بينها وبين البحر حوالي خمسة أميال.

الشاهد أن مناة كانت صخرة على قول، وكانت صنمًا على قولٍ آخر، وهي أيضًا من الأصنام التي عظمتها العرب قاطبة وأكثرهم تعظيمًا لهذا الصنم الأوس والخزرج أهل المدينة.

الشاهد أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بين في هذه الآيات أن هذه الأصنام أصنام باطلة لا قيمة لها:﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾[النجم:٢٣]، ليس لها قيمة وليس لها من الأمر شيء، مع ما وقعوا فيه من الظلم مع ما وقعوا فيه من القسمة الجائرة، ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم:٢١-٢٢]

كان أهل الجاهلية يعتقدون أن هذه الأصنام بنات لله كما ذكر هذا ابن عطية وغيره من المفسرين، يعتقدون أنها بنات لله كما اعتقدوا في الملائكة أنها بنات الله.

يا لله العجب! ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل:٥٧].

هم جعلوا لهم الأفضل وهو البنين والله جعلوا نصيبه البنات؛ البنات التي يحتقرونهنَّ ويأنفون هن وإذا أبقوهن، أبقوهن على هون: ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[النحل:٥٩]، يعني: يدفنوا هذه البنت حية ويتخلص ويرتاح، يعني البنات الإناث عند أهل الجاهلية كانت شيئًا محتقرًا، ثم هم يضيفون ذلك إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أو وهو توجيه ثانٍ في الآية: كانوا يعتقدون أن هذه الأصنام إناث، ومع ذلك جعلوها شريكةً مع الله، سبحان الله العظيم!!

الأصنام كانوا يعتقدونها إناثًا وهذا ظاهر في العزى ومناة، بل حتى اللات على القول بأنه: اسم فاعل لكنه كان مؤنث عندهم، بدليل ما جاء في ((البخاري)) قصة الحديبية أن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما قال عروة ابن مسعود: (إني أرى أناسًا سيفرون عنك) يخاطب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، غضب أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال له: (امصص بظر اللات)، وهذا دليل على أنهم كانوا يعتقدون أن اللات كانت أُنثى.

إذن كيف تعتقدون هذا الشيء؟! أولًا: تعتقدون أن مع الله شريك، ثم هذا الشريك الذي تعتقدونه هو أصلًا عندكم ماذا جنسه؟ محتقر! ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾[النجم:٢٢]، ضيزى: يعني جائرة غير عادلة، وهذا دليل على أن المشركين ما قدروا الله حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الشاهد هو: أن من جملة ما كان المشركين يفعلونه مع هذه الأصنام هو التبرك، كانوا يتبركون بهذه الأصنام بل بكل صنم، حتى ذكر أهل التاريخ أن كان لكل واحد من العرب في بيته صنم أو أكثر، آخر شيء يفعله إذا أراد الخروج من بيته لسفر أو غيره هو أنه يتبرك ويتمسح به، وأول شيء يفعله إذا عاد إلى بيته هو أنه يتمسح ويتبرك به، وهكذا في الأصنام التي كانت في جوف الكعبة أو حول الكعبة وبلغت ٣٦٠ صنمًا. كانوا يتمسحون ويتبركون بها حتى كان يوم الفتح كان يطعن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صدور هذه الأَصنام فتسقط، ثم أمر بها فأُخرجت من المسجد وأُحرقت.

الشاهد: أن من جملة أفعال المشركين التبرك بالأصنام والأوثان فمن شابههم فيكون قد وقع في فعل الشرك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله؛ اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «الله أكبر، إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون﴾[الأعراف: ١٣٨] لتركبن سنن من كان قبلكم» رواه الترمذي وصححه.

هذا حديث أبي واقد الليثي وهو حديثٍ صحيح وصفه ابن القيم رضي الله عنه في ((إغاثة اللهفان)) بالثبوت، وقال الترمذي: حسنٌ صحيح، وصححه ابن حبان وصححه الألباني وغيرهم من أهل العلم، فهو حديث صحيح مُخرج عند الترمذي، وأحمد، والنسائي في ((الكُبرى))، وابن حبان والطبراني وغيرهم في كثير من كتب السنة.

حديث أبي واقد الليثي، أبو واقد: اختلف في اسمه؛ فقيل: الحارث بن عوف، وقيل: عوف بن مالك، وقيل: عوف بن الحارث، وهو من بني الليث في كنانة، واختلف في إسلامه، قيل: إنه أسلم قديمًا، بل قيل: إنه من أهل بدر، والأقرب والله أعلم أن إسلامه متأخر كان من مسلمة الفتح، وهذا هو الذي رجحه الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((الإصابة)).

الشاهد أنَّ أبا واقد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يحكي لنا قصة حصلت لهم مع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في مسيرهم إلى حُنين، وكان ذلك عام الفتح سنة ثمانٍ للهجرة، وهو أنهم مروا بسدرة، السدرة هي: شجرة النبق وهي شجرة معروفة، وجاء عند أحمد وغيره «**مروا بسدرة خضراء عظيمة**» أيام الجاهلية كان عند المشركين سدرة شجرة عظيمة، لما مرو بهذه تذكروا تلك، كانوا يفعلون عندها ثلاثة أشياء كلها عبادة:

أولًا: العكوف عندها يمكثون ويعكفون عندها تقربًا لها والتماسًا للبركة كما سيأتي، وهذا كان من أعمال المشركين ولهذا قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] فهذا من فعل أهل الشرك.

ثانيًا: أنهم كانوا يعظمون هذه السدرة كتعظيم الله.

ثالثًا: أنهم كانوا يتبركون بها من وجهين:

١/ أن البركة تنالهم إذا عكفوا عندها تنزل عليهم البركات من هذه الشجرة.

٢/ أنهم كانوا ينيطون بها أسلحتهم ينيطون: يعلقون ولذلك كانت تسمى ذات أنواط، إذا وضعوا أسلحتهم وبقية أسلحتهم عليها فإنها تكون أقوى وأمضى.

حينئذٍ لما مروا بهذه السدرة الخضراء العظيمة قالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم يعني للمشركين ذات أنواط!

وهذا يدلك على أنه ربما يكون في الرجل الصالح بل العالم ما يخفى عليه من الحق ومن مسائل العلم؛ هؤلاء أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخارجين للجهاد في سبيل الله، ومع ذلك وقع منهم ما وقع مما أنكره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا يدلك أيضًا على أن المنتقل من الباطل إلى الحق لا يؤمن أن يبقى في قلبه من الباطل السابق؛ فينبغي أن يراعي الإنسان هذا في نفسه وفي غيره.

ونبه إلى هذا المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في مسائل الباب، **«قالوا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط»**.

انتبه إلى أن أبا واقد قال في الحديث **«ونحن حدثاء عهد بجاهلية»** هذا يبين لك العذر للذي وقع منهم هذا القول، وإلا فكبار الصحابة ومتقدموهم ما وقع منهم هذا الأمر.

«قالوا: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط» اختلف العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ في الفعل الذي فعله هؤلاء الصحابة حينما طلبوا هذا الطلب ما حكمه؟

القول الأول: قال بعض أهل العلم إن الصحابة تضمن كلامهم أن يسأل النبي ربه أن يجعل الشجرة مباركة حتى يعلقوا بها أسلحتهم، فهم طلبوا أن يسأل النبي ربه فإذا جعلها الله مباركةً كانت مباركة وهذا توجيه مال إليه بعض أهل العلم ومنهم المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في بعض أجوبته كما ((الدرر السنية)).

القول الثاني: إن الذي وقعوا فيه هو من شعب الشرك الأصغر، وكأن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يميل إلى هذا كما في مسائل الكتاب، فإنه قد ذكر في مسائل الباب أن الشرك منه كبيرٌ وصغير؛ لأنَّ الصحابة لم يرتدوا بسؤالهم، ما كان فعله شركًا أكبر فطلبه شركًا أصغر كأن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يميل إلى هذا في مسائل هذا الباب.

القول الثالث: أن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وقع منهم شركٌ أكبر، الذين طلبوا هذا الطلب، وإنما لم يرتدوا ولم يكفروا للعذر الذي جاء في هذا الحديث، وهو كونهم حدثاء عهدٍ بجاهلية، ومال إلى هذا بعض أهل العلم ومنهم سماحة الشيخ ابن باز في تعليقه على ((فتح المجيد)).

الشاهد: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عظم الأمر وأغلظ في الجواب، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما ذكر المؤلف **«الله أكبر»**، هذه ليست رواية الترمذي، في رواية الترمذي قال: **«سبحان الله»**، أما عند أحمد وغيره جاء لفظ التكبير، وكلا الأمرين كان يفعله النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا استعظم أمرًا، كان يعظم الله وينزهه، قال: **«سبحان الله»**، أو قال: **«الله أكبر، قلتم كما قال بنوا إسرائيل لموسى اجعل لنا إله كما لهم آلهة!»** ثم قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لتركبن سُنن** -أوسَنن يجوز لك الوجهان- **من كان قبلكم»**.

هذا القدر من الحديث جاء معناه فيمن حديث أبي سعيد، وسيأتينا قريبًا إن شاء الله في باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لتتبعن سُنن أو سَنن من كان قبلكم»**.

الشاهد أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عظم الأمر وأغلظ في الجواب، وقال: إن هذا السؤال يضارب حديث بني إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة.

فدل هذا على أن التبرك الممنوع من فعل أهل الشرك، لأن ما يفعله المشركون عند أو مع هذه السدرة أنهم كانوا يتبركون بها.

وبالتالي فمن تبرك بشجرٍ أو حجرٍ أو نحوهما من قبرٍ وبناءٍ وغير ذلك فإنه يكون قد وقع في الشرك، وقد يكون شركًا أكبر أو أصغر في الحال على ما مضى تفصيله.

.

١٥

١٥- باب ما جاء في الذبح لغير الله

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ

باب

ما جاء في الذبح لغير الله

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (باب ما جاء في الذبح لغير الله)، أي: من الوعيد، فإن الذبح لغير الله من أفعال المشركين التي كانت لها عندهم حظوة ومكانة، فكانوا يكثرون من الذبح لأوثانهم وكانوا يعتبرون هذا من أحسن الأعمال عندهم، بل ربما كان الفارق بين المتدين وغيره هو هذا العمل، كونه يذبح ويكثر من نحر الذبائح لأوثانهم.

والمشركون لهم ولعٌ شديد بهذا، ومن قرأ في تاريخ الأمم السابقة وجد صدق ذلك، فإنهم كانوا ينوعون في أداء هذه العبادة لأوثانهم بأشكال شتى وفي أزمنة متعددة قد يخصون مواسم، وقد يخصون أحوالاً للذبح، ومن ذلك ما أبطلته الشريعة من العتائر، فالعتيرة: الذبيحةُ التي كانوا يذبحون لأوثانهم في الشهر المعظم عندهم ألا وهو رجب، وكانوا إذا ذبحوا الذبيحة بين يدي الصنم ربما لطخوا رأسه أو شيئًا من جسده بدم هذه الذبيحة حتى تكون أكثر تقريبًا لهم عند هذا الوثن.

فالشاهد أنَّ الذبح لغير الله عبادة أثيرةٌ عند المشركين فجاء الإسلام بالنهي عن هذا الذبح لغير الله والأمر بأن يكون الذبح له وحده لا شريك له، إن كان الذبح لغير الله شركًا بالله، فإن الذبح لله توحيد وعبادة عظيمة يجتمع فيها التقرب إلى الله وتعظيمه وإظهار الافتقار إليه، والإنفاق في سبيل الله، وإحسان الظن به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهي عبادة عمليةٌ قلبية يجتمع فيها الإيمانُ الباطن والإيمانُ الظاهر، يتقرب الإنسان لله جَلَّ وَعَلَا بذبح بهيمة الأنعام في العبادات المقررة شرعًا؛ كالهدي، والأضحية، والعقيقة، وكذلك في الفدية، أو في ذبح النذر، كل ذلك عبادة محبوبة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالله عَزَّ وَجَلَّ يحب أن يراق الدم تعظيمًا له، وتقربًا إليه جَلَّ وَعَلَا، ولذلك شرع ذلك في العبادات السابقة.

إذًا الذبح لله توحيد والذبح لغيره شرك.

الذبح لله شعيرة وعنوان وعلامة الموحدين، والذبح لغيره علامة وشعيرة المشركين، والغالب أنَّ المشركين قديمًا وحديثًا تتنوع مقاصدهم في الذبح إلى تقرب، ورغبة، ورهبة، وتعظيم، قد يذبحون تقربًا إلى وثنهم سواء كان صنمًا، أو شجرًا، أو كان وليًّا صالحًا أو نبيًّا،

فإنهم يعتقدون أنهم إذا أراقوا الدم في سبيل هذا المعبود عندهم فإن هذا يرضيه، فبالتالي فإنه يرفع الحوائج إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

هو دين المشركين سواء كانوا من المتقدمين أو كانوا من المتأخرين، وهذا الذي يفعلوه رغبة وقد يفعلوه رهبة، كأن يكونوا خائفين من جنٍّ يصيبونهم بأذى، فيذبحون دفعًا لشرهم، وهذا مما يقع فيه المشركون في القديم وفي الحديث أيضًا، ربما كان من هؤلاء من إذا ابتنى بيتًا جديدًا خاف من أذية الجن فتجده يذبح إذا وضع أساسات البيت للجن، يُهِلُّ باسمهم ويقصدهم بالذبح وربما لطخ أساسات البيت بهذا الدم، أو إذا انتهى البيت ذبح الذبيحة على عتبة الباب وجعل الدم يسيل عليها حتى يرضى هؤلاء الجن فيكفونهم شرهم، ولربما إذا ذهبوا إلى أحد السحرة أو الدجالين المشعوذين يطلبون منهم حاجةً من الحاجات أو يدفعوا عنهم سببًا من أسباب الضر في زعمهم، أمروهم بذبح شاة سوداء أو ديك أسود للجن والشياطين فيفعلون، فيقعون في حمئة الشرك.

وقد يكون هذا للتعظيم، الذبح تعظيمًا هذا مما يجب أن يخص الله عَزَّوَجَلَّ به، فإذا فُعِلَ في حق غيره كان هذا شركًا، من الناس من إذا أقبل زعيم أو رجل من الكبراء عليهم فإنهم إذا دنا منهم ذبحوا شيئًا من الإبل أو الشياه تزلفًا وتقربًا إليه وتعظيمًا له، وهذا لا شك أنه شرك بالله جَلَّوَعَلَا، تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ بالذبح فصرف هذه العبادة لغيره شرك.

إذًا هذه بعض مقاصد المشركين بالذبح، والموحدون على منأى من ذلك وبُعْد.

وتفصيل القول في الذبح مما يهم المسلم حتى يكون على بينة من هذا الأمر العظيم.

الذبح في الجملة له أحوال:

أولا: أن يكون الذبح باسم الله لله، يعني: أن يُهِلَّ بسم الله عند الذبح، فيقول: بسم الله، ويقصد التقرب لله، وهذا لا شك أنه توحيد اجتمع فيه العبادة والاستعانة، يتحقق المسلم بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ **[الفاتحة:٥]** وعند أبي داود وغيره أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لما نحر أضحيته قال: «**بسم الله والله أكبر اللهم هذا منك ولك**» فانظر كيف أنه جمع بين الذبح بسم الله والتقرب إلى الله، اللهم هذا منك ولك أتقرب به لك يا الله.

إذًا الذبح باسم الله وهذا لا بد منه إما على الشرطية أو الوجوب على خلاف بين أهل العلم لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾[الأنعام: ١٢١] ولقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٨] وفي الصحيحين من حديث رافع رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه» فاشترط النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لحل الذبيحة أمرين:

١/**أن يُنهر الدم**، فلا تكون الذبيحة ميتة بأن تضرب على رأسها أو تصعق بالكهرباء أو تغرق في بركة ماء، كل هذا يجعلها ميتة محرمة، لا بد من نهر الدم، لا بد أن يكون هناك ذبح، قال: «ما أنهر الدم، وذكر اسم الله عليه»، إذًا لا بد من الأمرين.

٢/**لا بد من قول: بسم الله**، أما قول: الله أكبر، فهذا مستحب وليس بواجب.

الشاهد: أن هذا النوع الأول أن يكون الذبح باسم الله يراد به التقرب إلى الله يذبح باسم الله لله.

ثانيًا: أن يذبح باسم الله لغير الله، أن يقول عند الذبح بسم الله ولكن القصد هو التقرب لغير الله، لولي، لصنم، لعيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، للحسين، لفاطمة، لولي صالح، للجن، لأي أحد سوى الله جَلَّوَعَلَا، فهذا لا شك أنه شرك أكبر في العبادة.

ثالثًا: أن يذبح باسم غير الله لله، وهذا وإن كان صورة ربما لا تقع لكن نذكرها تتمة للقسمة، أن يُسمي باسم عيسى أو بسم كوكب أو بسم جني والقصد أنه يتقرب إلى الله فهذا أيضًا شرك أكبر شرك في الاستعانة.

رابعًا: أن يذبح باسم غير الله لغير الله أن يذبح ذاكرًا اسمًا غير الله جَلَّوَعَلَا والقصد أن يكون التقرب لغير الله أيضًا، وهذا ظلمات بعضها فوق بعض، شرك في العبادة وشرك في الاستعانة.

[خامسًا]: أن يذبح باسم الله لغرض مشروع أو مباح، أن يذبح وليس القصد أن يتقرب إلى الله بإراقة الدم إنما مقصوده أن يطعم ضيفًا أو أن يطعم أهله اللحم أو أن يتصدق باللحم على الفقراء، فهذا جائز أو مستحب أو ربما كان واجبًا بحسب الأحوال.

لكن ثمة فرق بين هذه الحال والأربعة السابقة، فذلك أن الذبح في الأحوال السابقة كان إراقة الدم هو الشيء المقصود واللحم تبع، وأما في هذه الصورة الأخيرة فاللحم هو

المقصود والذبح تبع، وبالتالي اكْتُفِيَّ بأنه يذكر اسم الله جَلَّوَعَلَا؛ لأن ذكر اسم الله على الذبيحة يطيب اللحم، ويزكيه، ويجعل فيه البركة، فالله جَلَّوَعَلَا بذكره تتنزل البركات جَلَّوَعَلَا.

إذًا إلى هذه الأقسام السابقة ينقسم الذبح.

وأود أن أنبه ها هنا إلى مسألة مهمة وهي ضرورة أن يستشعر الإنسان هذه العبودية العظيمة التي يحبها الله جَلَّوَعَلَا إذا قام بذلك بعض الناس، إذا جاء العيد وأراد أن يضحي ربما كان جلُّ القصد والاهتمام إنما هو باللحم، وهذا لا بأس به أن يتوسع الإنسان في هذا اليوم وأن يفرح بفضل الله جَلَّوَعَلَا عليه وبما يمن عليه من هذه البهيمة، ولكن ثمة شيء أعظم إذا فاته فاته باب عظيم من أبواب الإيمان، ألا وهو أن يستشعر أنه يعظم الله جَلَّوَعَلَا بهذا الذبح، هذا هو المقصود الأسمى في هذه العبادة وهذا ما لا ينبغي أن يغفل عنه الإنسان.

الشاهد: أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقد هذا الباب ليبين لنا أن من أنواع الشرك الذبح لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمن أراد أن يسلم عند ربه جَلَّوَعَلَا وألا يكون من المشركين الذين هم من أصحاب النار الخالدين فيها فليحذر هذا العمل وليكن ذبحه لله رب العالمين لا شريك له.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣] الآية.

وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب أورد آيتين وحديثين: أما الآية الأولى، والآية الثانية فهما متقاربتان في الدلالة على المقصود، الأولى يقول الله جَلَّوَعَلَا فيها: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ﴾[الأنعام: ١٦١ – ١٦٣].

والشاهد من الآية قوله تعالى: ﴿ وَنُسُكِي ﴾، فالنسك هو الذبح على الصحيح، وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وجماعة من أهل العلم، ويشهد لذلك قول الله سبحانه: ﴿ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾[البقرة:١٩٦]، والنسك فسره النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه ذبح شاة.

إذًا الآية دليل على أن الذبح عبادة يجب صرفها لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ووجه الدلالة من عدة أوجه:

أولا: قوله تعالى: ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ واللام للاستحقاق، إذًا الذبح لله لا يجوز أن يصرف لغيره.

ثانيًا: أن الله تعالى قرن بين الذبح والصلاة، والصلاة من أعظم العبادات، وبالتالي فالذبح كذلك عبادة لله جَلَّوَعَلَا.

[ثالثًا]: وهو أنه قال سبحانه: ﴿ لا شَرِيكَ لَهُ ﴾ وبالتالي من تقرب بالذبح لغير الله فقد جعل مع الله شريكًا ووقع في الشرك.

إذًا هذه الآية تدل على أن الذبح لله توحيد، وأن الذبح لغير الله شرك، من فعله اتخذ مع الله شريكًا جَلَّوَعَلَا.

وقل مثل هذا في الآية الأخرى –آية الكوثر-: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾[الكوثر:٢] ووجه الدلالة على أن النحر والذبح عبادة وأن صرف ذلك لغير الله شرك، أيضًا من أوجه:

أولا: كونه قَرَنَ بين الصلاة والنحر.

ثانيًا: أنه أمر بالنحر فدل هذا على أنه عبادة محبوبة لله، قال: ﴿ وَانْحَرْ﴾.

[ثالثًا]: أنه خصَّ هذا الأمر بالله، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾[الكوثر:٢] يعني: لربك، فدل هذا على أن النحر يجب أن يكون لله، ولا يجوز أن يكون لغيره، كما أن الصلاة وبقية العبادات يجب أن تكون لله، ولا يجوز أن تكون لغيره.

إذًا دلت هذه الأدلة على أن الذبح عبادة، ومتى ما كانت عبادة، كان صرفها لغير الله شركًا، وهذه قاعدة مضطردة تنبه لها، وهي: **أنَّ كل ما ثبت أنه عبادة فإن صرفه لغير الله شرك.**

الصلاة لله عبادة؟ نعم، إذًا ما حكم الصلاة لغير الله؟ شرك، ما الدليل؟ أن الصلاة عبادة فصرفها لغير الله شرك، إذًا هما أمران متقابلان، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النساء:٣٦]، متى ما ثبت أن العمل عبادة فإن صرفه لغير الله شرك، وهذه قاعدة مضطردة.

فإذا قال لنا قائل: ما الدليل على أن الذبح لغير الله شرك؟

قلنا: أدلة، أبرزها أنه قد ثبت أنَّ الذبح عبادة إذًا فصرف العبادة لغير الله شرك، كل ما ثبت أنه عبادة كان صرفه لغير الله شركًا، ناهيك عن أن الدليل كما سيأتي قد جاء صريحًا كما سيأتي معنا بعد قليل -إن شاء الله- في حديث طارق بن شهاب التصريح بأن الذبح لغير الله شرك.

إذًا يتلخص لنا أن هاتين الآيتين دليلان صريحان على أن الذبح لله عبادة، وبالتالي فالذبح لغيره شرك وهذا هو المقصود من إيراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهما.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: حدثني رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأربع كلمات: «لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثًا، لعن الله من غير منار الأرض» رواه مسلم.

هذا حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ المخرَجِ في ((صحيح مسلم)) وغيره، وفيه بيان أربع ذنوب عظيمة ومتوعد عليها بلعنة الله عَزَّوَجَلَّ، واللعن هو: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، وهذا دليل على أنَّ هذه الذنوب الأربعة من الكبائر والموبقات، -نسأل الله السلامة والعافية-:

أول ذلك: الذبح لغير الله، **«لعن الله من ذبح لغير الله»**، ووالله إنه لجدير وحقيق بلعنة الله عَزَّوَجَلَّ، حينما يعمد إلى عبادة اختص الله عَزَّوَجَلَّ بها فيصرفها لغيره، هذا ما ظنه برب العالمين حينما يعمد إلى حقه فيصرفه لغيره، هذا ما قدر الله حق قدره، لو كان الله في قلبه عظيمًا التعظيم الذي يليق به ما فعل ذلك.

إذا هو جدير بلعنة الله سبحانه، وهذا هو الشاهد من إيراد الحديث.

وجاء هذا اللفظ أيضًا من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عند أحمد وغيره بإسناد صحيح، بل قال ابن القيم: على شرط البخاري، في حديث طويل وفيه: **«لعن الله من ذبح لغير الله»**.

أما الأمور الثلاثة الباقية فهي:

[الأمر الأول]: **أن يلعن الإنسان والديه**، نسأل الله العافية، إما بأن يلعن ذلك صريحًا وهذا لا يفعله إلا من عتى وتمرد نسأل الله العافية، أو أنه يلعن أبا الرجل فيلعن ذاك أباه، فيكون متسببًا في ذلك.

الأمر الثاني: «**لعن الله من آوى محدثًا**» من أحدث حدثًا لله عَزَّوَجَلَّ فيه حق ثم لجأ إلى إنسان ليحميه ويمنع قيام حق الله عَزَّوَجَلَّ عليه، فإن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد لعنه في هذا الحديث.

والأمر الأخير: «**لعن الله من غير منار الأرض**»، هذه الحدود والعلامات التي تكون بين أرضك وأرض جارك من تلاعب فيها بزيادة أو نقصان يدخل حق غيره في حقه فإنه متوعد بلعنة الله عَزَّوَجَلَّ أيضًا.

وهنا سؤال: قد يقول قائل: إنَّ قرن الذبح لغير الله بأمور ليست شركية كالأمور السابقة فهي كبائر، ألا يدل على أن الذبح لغير الله مجرد كبيرة ولا يصل لحد الشرك؟

والجواب: أن اشتراك المنهيات في قدر مشترك -هو التحريم، هو الذم، هو الوعيد- لا يدل على الاستواء في الحكم، انتبه لهذه القاعدة.

فالأربعة المذكورة ها هنا اشتركت في هذا القدر وهو أن من فعل شيئًا من هذه الأمور الأربعة فإنه ملعون يلعنه الله جَلَّوَعَلَا لكن لا يدل ذلك على أن الحكم في الكل واحد، فاللعنة قد تقع على كافر، وقد تقع على عاصي والنصوص في هذا كثيرة.

إذًا وقوع هذه المنكرات أو المحرمات في حديث واحد لا يدل على الاستواء في الحكم.

وخذ مثالاً على هذا، لا أظن أنه يُختلف فيه، ما ثبت في الصحيحين بقوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، أول شيء قال: «**الشرك بالله**»، ثانيًا: «**السحر**» ثم انظر في البقية: «**قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، التولي يوم الزحف، أكل مال اليتيم، أكل الربا**»، لاحظ معي، هذه الأمور تعتبر كبائر، والتي في الأول كان بالنص الشرك، ومع ذلك اشتركت في قدر مشترك هو أنها موبقة، كلها موبق يوبق الإنسان -عياذًا بالله- في عذاب الله، ولكنَّ كون هذه موبقة وهذه موبقة لا يدل على الاشتراك، فالشرك يوبق صاحبه في عذاب الله، والكبيرة توبق صاحبها في عذاب الله، مع الاختلاف في قدر مميز وفارق بين هذا وهذا.

إذًا هذا باختصار ما يتعلق بحديث علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن طارق بن شهاب؛ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب» قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «مر رجلان على قوم لهم صنم، لا يجوزه أحد حتى يقرب شيئًا، فقالوا لأحدهما: قرب، قال: ليس عندي شيء أقرب، قالوا له: قرب ولو ذبابا، فقرب ذبابًا فخلوا سبيله فدخل النار، وقالوا للآخر: قرب، فقال: ما كنت لأقرب أحد شيئًا دون الله عَزَّوَجَلَّ، فضربوا عنقه فدخل الجنة» رواه أحمد.

هذا الحديث فيه كلام من جهة رفعه كما فعل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، المؤلف جعل هذا الحديث من حديث طارق بن شهاب يرفعه إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ثم عزا ذلك إلى الإمام أحمد، ويبدوا والله أعلم أنه قد تابع هذا ابن القيم في كتابه ((الجواب الكافي، أو الداء والدواء))، وذلك أن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورد هذا النص معزوًا إلى الإمام أحمد.

أولا: هو ليس في المسند الذي بين أيدينا، هو عند أحمد في الزهد، وهل وقف ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ على نسخة فيها هذا الحديث مرفوع إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أو كان وهمًا منه، الله أعلم.

المقصود أن هذا الذي بين أيدينا هو عند أحمد في ((الزهد))، ورواه غيره أيضًا وكل ذلك لم يكن مرفوعًا إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إنما كان مما حدَّث به طارق ابن شهاب عن سلمان الفارسي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ موقوفًا عليه من قوله، وهذا الذي عند أبي نعيم في ((الحلية)) والبيهقي في ((شعب الإيمان)) وابن أبي شيبة في ((المصنف))، وغيرهم من أهل العلم الذين خرجوا هذا الأثر، فالذي يظهر والله أعلم أنه موقوف على سلمان.

وعلى كل حال حتى لو كان موقوفًا على سلمان فما فيه لا يقال إلا عن توقيف؛ لأن فيه أن أحدهما دخل الجنة والآخر دخل النار، وهذا أمر غيبي لا يقوله الصحابي إلا عن توقيف.

فالحديث سواء كان مرفوعًا أو موقوفًا فإن حكمه حكم الرفع، وهو أثر صحيح خرجه أحمد في الزهد وغيره بإسناد صحيح.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشى على أنه مرفوع، أسقط ذكر سلمان ونسب الحديث إلى رواية طارق بن شهاب عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وطارق بن شهاب البجلي اختلف العلماء فيه، فمنهم من قال إن له رؤية ورواية عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنهم من قال إن له رؤية دون أن تكون له رواية يعني ما سمع من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنهم من قال إنه لا رؤية له ولا رواية، والصحيح: أن له رؤية وليس له رواية.

وثبت عنه بإسناد صحيح كما قال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((الإصابة)) قال: رأيت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغزوت في عهد أبي بكر، فيدل هذا على أن طارقًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من الصحابة لثبوت الرؤية له، وبالتالي إذا ثبت أن هذا الحديث مرفوع إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما ذكر المؤلف فإنه يكون من مراسيل الصحابة، ومراسيل الصحابة مقبولة على الراجح.

فهذا الحديث وإن كان مرفوعًا إما أن يكون من مسموع طارق، أو يكون من مراسيل الصحابة، فهو على كل حال مرفوع ومقبول.

الشاهد: أن هذا الحديث فيه قصة يخبر بها سلمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أو النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إن كان هذا مرفوعًا وهو أن كان فيمن قبلنا رجلان مرَّا بقوم لهم صنم، وعندهم قاعدة وشرط لا يمر أحد بهذه الطريق إلا إذا قرَّب شيئًا لهذا الصنم، وهذا يدلك على عظم شأن الأصنام في نفوس المشركين يعظمونها تعظيمًا عظيمًا يريدون أن يتقرب إليها بكل وسيلة، وبكل طريق، وهل كان هذان الرجلان مفترقين، يعني مرة جاء الأول وبعد ذلك جاء الثاني، أو جاء معًا؟ جاء عند البيهقي في ((الشعب)) أنهما كانا معًا، فقال لهما: (قربا شيئًا)، فقالا: (ما كنا لنشرك بالله شيئًا)، وهذا يدلك على أن الذبيح لغير الله شرك، قال: قربا ما شئتما ولو ذبابًا، فنظر أحدهما إلى آخره وقال لصاحبه -هكذا عن البيهقي-: ما تقول؟ قال: ما كنت لأشرك بالله شيئًا.

التوحيد عزيز عند أهله، ما كنت لأشرك بالله شيئًا، مهما يكن، لا يمكن أن أفعل الشرك، سبحان الله العظيم، هذا ذو إيمان عظيم، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر: **«أن ثلاثًا من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان»**، ومنها: **«أن يكره أن يعود في الكفر بعد إذا أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»**، حينما قال ذلك قتلوه فدخل الجنة، وأما الآخر لما قالوا له: قرب شيئًا ولو ذبابًا، جاء عند البيهقي أنه قال بيده على وجهه ثم أخذ

ذبابًا فرماه إلى الصنم، فمر، ثم مات بعد ذلك فدخل النار، -نسأل الله السلامة والعافية-، وقع في الشرك.

وجاء عند ابن أبي شيبة أنهم لما قالوا له: قرب ولو ذبابًا، قال: إيش ذبابة؟! يعني استسهل الأمر، قال: الذبابة أمرها سهل، (إيش): يعني أي شيء، استسهال واستصغار للأمر، فأخذ هذه الذبابة ورماها إلى الصنم، اكتفى المشركون بهذا، ما أرادوا شيئًا أكثر من هذا، وهذا يدلك على أن المقصود عمل القلب حتى عند المشركين، وإلا ما قيمة هذه الذبابة لا تساوي شيئًا، يعني ما ذبح بعيرًا أو شاة وإنما فقط رمى هذه الذبابة هذه الحشرة الحقيرة التي هي من أتفه وأحقر الحشرات، ومع ذلك اكتفوا بهذا ورأوا أن هذا تعظيم وتقرب لهذا الصنم، فتركوه يمر، فما كان بعد ذلك إلا أن مات فدخل النار؛ لأنَّه أشرك بالله.

إذًا هذا يدلك على أنَّ الذبح لغير الله شرك، وأنَّ صاحبه متوعد بالنار، إذا كان هذا -يا أيها الإخوة- في ذباب لا قيمة له، فكيف بهؤلاء القبوريين الذين يستسمن أحدهم الذبيحة سنة كاملة وإذا قيل له في ذلك، قال: هذه للسيد، هذه للشيخ، هذه للولي، يسمنها ويطعمها ويعتني بها أكثر مما يعتني بالأَضحية التي يتقرب بها إلى الله، ثم جاء إذا مولد السيد ذبحها مبتهجًا يتقرب بذلك إلى هذا الوثن الذي يعبده مع الله جَلَّوَعَلَا، ما الفرق بين حال هذا وحال المشركين الأولين؟

والله لا فرق، بل ربما يكون حاله أعظم، واهتمامه بهذه الذبيحة أكثر.

إذًا الذبح لغير الله شرك، ومن وقع في هذا فقد نقض توحيده، ولا فرق في ذلك بين أن يكون الإنسان راغبًا أو راهبًا أو خائفًا إلا أن يكون مكرهًا.

نواقض الإسلام ليس فيها فرق بين الجاد والهازل ولا حتى الخائف إلا أن يصل إلى درجة الإكراه أن يكون مكرهًا، فالله جَلَّوَعَلَا خفف عن هذه الأمة ما استكرهوا عليه.

وها هنا مسألة قد تستشكل في هذا الأثر أو في هذا الحديث وهي أن الظاهر من حال هذا الرجل الذي دخل النار أنه كان مكرهًا فكيف يدخل النار وهو مكره؟ الجواب عن هذا: في كلام أهل العلم، فيه أقوال وتوجيهات عدة منها:

[التوجه الأول]: أن هذا الرجل كان كافرًا أصلا وإنما حرم التوفيق للإسلام، وبالتالي يكون دخوله النار؛ لأنه في الأصل كافر، لكن هذا ضعيف؛ لأنَّ الحديث جاء فيه أنه دخل

النار في ذباب، قوله: (في ذباب)، تقوم مقام التعليل، يعني: العلة في دخوله النار هي هذه الذبابة التي تقرب بها، ولو كان مشركًا أصلا ما قيل فيه دخل النار في ذبابة.

التوجه الثاني وهو قوي: أن الإكراه على الكفر لم يكن فيه رخصةٌ في الأمم السابقة إنا كان من الآصار التي رفعت عن هذه الأمة، بمعنى: كان واجبًا على المسلمين في الأمم السابقة أن يصبروا وأن لا يقعوا في الشرك ولو ظاهرًا حتى لو كانوا سيقتلون إنما جاءت الرخصة لهذه الأمة أن الإنسان يقول أو يفعل الكفر إذا كان مكرهًا بشرط طمأنينة القلب: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾[النحل:١٠٦]، وبالتالي فإن هذا الإنسان يكون قد وقع في الكفر لم يكن عنده رخصة كان يجب أن يصبر على القتل.

ويشهد لهذا أمور:

أولا: ما جاء في سورة الكهف، بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾[الكهف:٢٠]، ثم قال: ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾[الكهف:٢٠]، مع أنهم يمكن لو كان عندهم رخصة أن يعودوا إلى ملتهم في الظاهر وقلبهم مطمئن بالإيمان، لكن الذي جاء في الآية أنهم لو عادوا إلى الملة بكل حال، فالنتيجة لن يفلحوا إذًا أبدًا.

ثانيا: ويشهد لهذا أيضًا ما خرج ابن ماجة وغيره من طرقٍ عدة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله قد تجاوز عن هذه الأمة الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**».

الشاهد: أنَّ في هذا تخصيص لهذه الأمة –أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وهذا القول له وجاهة لا تخفى.

القول أو التوجيه الثالث: أنه أعني هذا الرجل الذي دخل النار لم يكن مُكرهًا أصلا، إنما قيل له قرب فقرب، المعنى: إما أنه كان له مندوحة أن يرجع ولا يمر بالطريق وبالتالي يكتفي شرهم، ولا يقال: لم الثاني أيضًا ما رجع؟ فيقال: هؤلاء القوم أخذتهم الحمية لدينهم؛ لأنه أظهر العِداء لما هم عليه، قال: (ما كنت لأقرب شيئًا لغير الله)، وجاء في بعض الروايات (فأبى) أظهر الإباء، أظهر العصيان، فقتلوه.

أما ذاك كان يمكن أن يرجع فلا يكون مُكرهًا.

أو يقال: أنه قد انشرح صدره بالكفر -عياذًا بالله-، في البداية قال:(ما عندي شيء أقرب)، ثم لما سهلوا له الأمر، ويؤيد هذا ما جاء في الرواية الأخرى قال: (إيش ذبابة)، يعني: المسألة سهلة، فأخذ هذه الذبابة فرماها إلى الصنم، فلم يكن مُكرهًا.

على كل حال التوجيهان الثاني والثالث هما الأقرب في توجيه هذا الأثر.

١٦

١٦- بابٌ لا يذبحُ لله بمكان يذبح فيه لغير الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بابٌ

لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

عقّب المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد الباب الماضي، فيما جاء في الذبح لغير الله، عقّب بهذا الباب، الذي وسمه بقوله: (بابٌ: لا يُذبح لله في مكانٍ يذبح فيه لغيره)، أو لا يَذبحُ، يجوز أن تكون لا ها هنا نافية متضمنةً للنهي، ويجوز أن تكون ناهية لا يَذبح، يعني: لا يجوز للمسلم أن يذبح لله في مكانٍ يذبح فيه لغيره.

المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الباب الماضي، نبه على المحرم قصدًا، ونبه عقيبه على المحرم وسيلةً، بمعنى: الذبح لله في مكانٍ يذبح فيه لغيره، وسيلةٌ للوقوع في الذبح لغير الله عَزَّوَجَلَّ، وبالتالي الشرك به سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

فالأول: هو المحرم على جهة القصد، والثاني: محرمٌ لأنه وسيلةٌ للأول.

صورة هذه المسألة التي بيّن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُإنها صورةٌ منهيةٌ عنها، هي: أن يذبح الموحد لله في مكانٍ يذبح فيه المشركون لآلهتهم، أو كان المشركون يذبحون فيه لآلهتهم، إذًا متى ما كان في الماضي المشركون يذبحون لآلهتهم، أو أوثانهم، أصنامهم، ثم زال ذلك، فإنَّ الشريعة تمنع من أن يذبح فيه، وإن كان قد زال ما كان من مظاهر الشرك، وأشنع من ذلك وأفظع، أن يُذبح لله في مكانٍ لا يزال المشركون يذبحون فيه لغير الله، ولا شك أن هذا الأمر محرم.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ استدل على التحريم، بآيةٍ وحديث سيأتي الكلام عنهما -إن شاء الله-.

والشريعة في منعها لهذا الأمر، كان ذلك منها لأسباب:

أولًا: أن الذبح لله في مكانٍ يذبح فيه المشركون لآلهتهم فيه، إغراءٌ بالشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، فإذا رأى الأغمار والجهّال مسلمًا يذبح في هذا المكان، فإنَّ هذا قد يدعوهم إلى أن يفعلوا مثل فعله، فيقعُ في الشرك، حيث يظنون أنّ الذبح لهذا الصنم أمرٌ جائز، بدليل أن

فلانًا المسلم يفعله؛ لأنَّ صورة الفعل واحدة بين ذبح المسلم لله، وذبح المشرك للوثن، الصورة واحدة وإنما الاختلاف في النية والقصد، وهذا مما لا اطلاع عليه.

إذًا صار الذبح لله في مكانٍ يذبح فيه لغيره، ذريعةً للوقوع في الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا فكان منع ذلك متعينًا.

ثانيًا: أنَّ الذبح لله في مكانٍ يذبح فيه لغيره، فتحٌ لذريعة الشر، والواجب سد ذرائع الشر، وذلك أنَّ الذبح لله في هذا المكان، ربما يكون ذريعةً؛ لأن يوسوس الشيطان للإنسان، أنّ هذا الصنم الذي يُذبح له، أو كان يُذبح له أهلٌ أن يتقرب له، ولا يخفى أن الشيطان له خطوات، وأن له وساوس في النفوس، وبالتالي فينبغي الحذر من ذلك.

وقد يوسوس الشيطان لما هو دون ذلك، وهو اعتقاد أفضلية هذا المكان، وأنه من الأفضل أن يذبح الإنسان في هذا المكان لله، فيكون هذا فتحًا لذريعة البدعة.

إذًا سدًا لذريعة الشرك أو البدعة، منعت الشريعة من الذبح لله في مكانٍ يذبح فيه لغيره.

[ثالثًا]: وهو أنّ الذبح لله في مكانٍ يذبح فيه لغيره، فيه تعظيمٌ لأماكن الكفر وشعائر الكفر، وفيه شدٌ لظهور المشركين، وتكثيرٌ لسوادهم، ولا شك أنَّ الذي يجب أن تُعَظَم شعائر الله: ﴿**وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾**[الحج:٣٢]**. والواجب أن يغاظ الكفار، لا أن تشد ظهورهم: ﴿**وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ**﴾**[التوبة:١٢٠]**، ولا شك أن المشركين إذا رأوا مسلمًا يرتاد هذا المكان، الذي اعتادوا أن يذبحوا فيه لغير الله، فيشاركَهُم في صورة الفعل، لا شك في هذا إعزازًا لهم وهذا أمرٌ ينبغي تركه.

[رابعًا]: وهو أن الذبح لله في هذا المكان، ربما يكون سببًا لإساءة الظن بالمسلم، فإذا رآه الصالحون ظنوا أنه يفعل كالمشركين، فيتقرب لغير الله بالذبح، والواجب أن يدفع الإنسان عن نفسه الريبة.

[خامسًا]: وهو أن الذبح في هذا المكان، فيه مشابهةٌ للمشركين في صورة الفعل، وهذا أمرٌ في حد ذاته محرم، ولو لم يقترن بهذا نية ولا قصد؛ لأنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من تشبه بقومٍ فهو منهم**»، ولا يخفى كل عاقل أن المشابهة في صورة الفعل، ذريعةٌ للمشابهة في الباطن، المشابهة في الظاهر ذريعةٌ للمشابهة في الباطن، فيتدرج الأمر شيئًا فشيئًا، حتى يصل

الأمر إلى أن يوافقه في القصد، ولا شك أن أبواب الشر ينبغي إغلاقها؛ ولأجل هذا منعت الشريعة من مشابهة المشركين، ولو في صورة الفعل أو الهيئة.

الإيمان والتوحيد أمرٌ عظيمٌ عزيز، ولا يجوز للمسلم أن يجعل أعزَّ شيٍ عنده نهبًا ينتهبه كل طارق وكل وسيلةٌ للشر، ولا شك أنَّ الفتن خطافة، والشُبه مضلة، ولا ينبغي أن يعرض الإنسان نفسه للشر، بأن يأتيَّ إلى هذا المكان الذي هو مظنة الشرك، أو يفعل فيه الشرك بالفعل، ثم يشابه المشركين في هذا الأمر، هذا أمرٌ ربما يوقع في النفوس ما يوقع، وربما يجر الإنسان إلى شرٍ عظيم، والبعد عن المشركين لا سيما في أماكنِ تعبداتهم، لا شك أنه مقصدٌ شرعيّ، فإن الدخول عليهم ومخالطتهم، ومشاركتهم، ولو في الظاهر ربما تؤدي إلى شرٍ عظيم.

حدثنا أحدهم أنه دخل معبدًا فيه صنمٌ عظيم لبوذا أراد أن يتفرج، وكان الصنم عظيمًا، والناس حوله يتعبدون ويعكفون، يقول: والله وقع في نفسي شيء، احتجت إلى أيامٍ عدة أدافع وأجاهد نفسي، حتى يزول ما وقع في نفسي، وقع في نفسي شيءٌ من الرهبة والتعظيم لهذا الصنم الكبير، فلا ينبغي للإنسان أن يعرض إيمانه للفتنة؛ بل ينبغي أن ينأى وأن يبتعد لا سيما في هذا الزمان، الذي هو آخر الزمان، حيث تشتد الفتن والشبهات، ينبغي على المسلم أن يحذر، وأن ينأى بنفسه عن مواطن العطب:

إن السلامة من سلمى وجارتها ألا تحلُ على حالٍ بواديها

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقول الله تعالى: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ﴾[التوبة:١٠٨]، الآية.

هذه الآية من سورة التوبة، فيها نهي الله سبحانه نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن الصلاة في مسجد الضرار، والنهي له نهيٌ لأمته صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أمَّا مسجد الضرار فإنه مسجدٌ مؤسسٌ على قصد الكفر والإغرار بالمسلمين، فهو مؤسسٌ على أساس رديءٍ خبيث، فنهى الله جَلَّوَعَلَا نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن الصلاة فيه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾[التوبة:١٠٧]، هذا هو مسجد الضرار، وكان موقعه في جهة قباء، ولا يعلم عينه -ولله الحمد-، لكنَّه في جهة قباء، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾[التوبة:١٠٧].

ذلكم هو أبي عامرٍ المنافق الفاسق، الذي هرب من المدينة ولحق بالشام، وأوصى أتباعه أن يبنوا هذا المسجد فيتحصن به، حتى إذا قدم من الشام بالعدد والعتاد، فإنهم يُغيرون على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فكانوا يترقبون مجيئه في هذا المسجد، ﴿وَإِرْصَادًا﴾ يعني: ترقبًا لمن حارب الله ورسوله من قبل، وهم مع ذلك يتزينون بزينة الخير ويتحلون بذلك، وهو أنهم إن أرادوا إلا الحسنى، لكن ذلك لا يخفى على العليم الخبير سبحانه، والله يشهد أنهم لكاذبون ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ﴾[التوبة:١٠٨].

نهى الله جَلَّوَعَلَا نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن القيام والصلاة والتعبد في هذا المسجد، مما كان مؤسسًا على هذا الأغراض الخبيثة.

ووجه الدلالة من هذه الآية، على من البحث بصدده، أنّ القياس الصحيح يقتضي تحريم الذبح لله في مكانٍ يُذبح فيه غيره؛ لأنَّ الله جَلَّوَعَلَا، نهى نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن الصلاة في مسجدٍ مؤسسٍ على الكفر والمحادة لله ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فكذلك الشأن في هذا المكان الذي أُعِدّ للكفر، لا يجوز للمسلم أن يذبح، وأن يتعبد فيه بالذبح لله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إذًا استدلال المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ كان من جهة القياس، وهو قياسٌ صحيحٌ ظاهر، فدلّ هذا على أنه لا يجوز الذبح لله في مكانٍ يُذبح فيه لغيره.

وفي الآية من الفوائد: أن العبرة بالحقائق دون الألفاظ، القوم زعموا أن هذا مسجد، وسموه مسجدًا، وزعموا أنهم يتعبدون فيه لله، وأنهم أرادوا حسنًا، لكن ذلك كله لا يؤثر في حقيقة الحال، فالعبرة بالحقائق لا بالألفاظ، فهو مسجد ضرار وإن سموه مسجدًا أرادوا به الحسنى، فالمسلم مطالبٌ باليقظة والنظر في الحقائق والمعاني، وعدم الوقوف عند الألفاظ والمباني، والله أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن ثابت بن الضحاك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: نذر رجل أن ينحر إبلا ببوانة، فسأل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟»، قالوا: لا. قال: «فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟»، قالوا: لا. فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم»، رواه أبو داود، وإسناده على شرطهما.

هذا الحديث الثاني حديث ثابت بن الضحاك الخزرجي الأنصاري، من فضلاء الصحابة ومن أهل بيعة الرضوان رضوان الله عليه، خرَّجَهُ أبي داود في سننه بإسنادٍ صحيح، كما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنه على شرط الشيخين)، وسبقه إلى هذا شيخ الإسلام ابن تيمية في ((الاقتضاء))، قال: (إنه صحيحٌ على شرط الشيخين)، وصححه غير واحدٍ من أهل العلم، وأبو داود رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورد في ((سننه)) ثلاثة أحاديث في معنى هذا الحديث، هذا واحدٍ منها، والآخر حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أن امرأة أتت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسألته سؤالين، الثاني منهما **«أنها نذرت أن تنحر إبلًا بمكان كذا وكذا، كان للجاهلية فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لصنم؟ يعني: كان يذبحون هناك لصنم؟ قالت: لا، قال: لوثن؟، قالت: لا، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أوفِ بنذرك»**.

والحديث الثالث: حديث ميمونة بنت كردم الثقفية، أن أباه في حجة الوداع، سأل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: **«يا رسول الله: إني نذرت إن رزقني الله ولدًا ذكرًا أن أنحر كذا وكذا، على رأس ثنيةٍ في بوانة»**، والظاهر والله أعلم أن ذِكْرَ بوانة ها هنا يدل على أن هذا الحديث، وحديث ثابت قصةٌ واحدة، وقد يُحتمل أن يكون هناك تعددٌ في القصة، يعني: هذه قصةٌ أخرى، لكنَّ الأقرب والله أعلم أنهما قصةٌ واحدة.

الشاهد: أنه قال: هذا إنه نذر أن ينحر كذا وكذا، قال الراوي: أُراه قال: خمسين من الإبل، أو الشاة في رأس ثنيةٍ ببوانة، فسأله النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أكان به وثنٌ من أوثان الجاهلية؟»**، وفي رواية بعدها لأبي داود قال: **«أو عيدٌ من أعيادهم؟ فقال الرجل: لا، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أوفِ بما نذرت به لله»**.

إذًا هذه ثلاثة أحاديث متواردةٌ على معنًى واحد، هو صريح في إثبات الحكم الذي عقد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابًا من أجل إثباته، ألا وهو تحريم الذبح لله في مكانٍ يذبح فيه لغيره، ذلكم أن هذا الرجل نذر أن ينحر إبلًا بموضعٍ معين، وهذا يدل على جواز تخصيص النذر ذبحًا كان أو غيره بمكانٍ معين، نذر هذا الرجل أن ينحر إبلًا ببوانة، (بوانة) موضع قيل: إنه أسفل مكة دون يلملم التي هي ميقات أهل اليمن، وقيل: إن بوانة هضبة بعد ينبع، قريبةٌ من ساحل البحر.

أيًّا كان الأمر، هذا الرجل نذر أن ينحر هذه الإبل في هذا الموضع.

هنا توجه له النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسؤالين، وهذا يدل على أنَّ على المفتي أن يستفصل من المستفتي، فالمبادرة إلى الجواب مع وجود الإجمال أو الاحتمال، ليست المسلك الرشيد، المسلك الرشيد هو أن يتبين الإنسان قبل أن يجيب، وأن يستفسر، وأن يستفصل حتى يجيب على بينة.

فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أكان فيه وثنٌ من أوثان الجاهلية يعبد؟»**.

الوثن: كل ما عُبِدَ مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كان هذا على صورةٍ آدمي، أو حيوان، أو لم يكن، على خلافٍ في ذلك، سيأتي تحقيقه -إن شاء الله- في محله.

سأل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكان في الماضي وليس في الحاضر؟ لأنَّ الأمر فيما يبدو والله أعلم كان متأخرًا، بعد أن زالت مظاهر الشرك، ودانت الجزيرة ومواضع الشرك فيها بالتوحيد، وذلك كان كما يدل على هذا حديث ميمونة السابق، على أنه كان في حجة الوداع.

إذًا الأمر كان قد زال لا يوجد هناك الآن أصنام، ولا أنصاب، ولا أشجار تعبد من دون الله جَلَّ وَعَلَا ، ومع ذلك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هل كان في الماضي في أيام الجاهلية، التي كانوا يعالمون فيها بالشرك؟ أكان فيها ثمة وثنًا يعبد من دون الله؟ فقالوا للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا، يعرفون المكان، عرفوا أنه لم يكن هناك وثن.

وذلك أمَّا المشركون من عاداتهم؛ بل من عباداتهم الأثيرة عندهم كما قلنا في الدرس الماضي: أنهم كانوا يقربون القرابين، وينسكون الذبائح، ويتقربون بها ثمة بين يدي أصنامهم وأوثانهم يتقربون بها إلى هذه الأصنام، أو إلى الأشجار والأحجار التي يعبدونها، لربما لطخوا

هذه الأصنام بدم هذه الذبائح والنسائك؛ فلأجل هذا قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أكان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يعبد؟ فقالوا: لا**».

سأل السؤال الثاني: قال: «**أكان فيها عيدٌ من أعيادهم؟**».

ضابط العيد هو: اسمٌ للزمان الذي يكون فيه اجتماعٌ مع أعمال، وربما خُصَّ هذا بمكان معين، وربما لم يخص، اسمٌ للزمان الذي يعتاد يومٌ من أسبوع، أو يومٌ من شهر، أو يومٌ من سنة، يعاوَد على الناس، اسمٌ للزمان الذي يُعتاد فيكون فيها اجتماع، يحصل اجتماعٌ للناس اجتماعٌ عام مع وجود أعمال يعملونها، إمّا من جهة العادات، وإما من جهة العبادات.

وقد يكون هذا مخصوصًا بمكان، وقد يكون أمرًا مطلقًا غير مخصوصٍ لمكان.

فكان أهلُ الجاهلية لهم أعيادٌ كثيرة، والناظر في كتب التاريخ يجد أنها قد حفلت، بذكر كثيرٍ من أعياد هؤلاء المشركين وما كانوا يفعلون من ذلك، وعلى رأس ما كانوا يفعلون في هذه الأعياد، وهذه المجتمعات أنهم كانوا يذبحون الذبائح فيتقربون بها إلى آلهتهم، فقالوا: لا، ما كان ثمة عيدٌ من أعياد الجاهلية هناك، هنا قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أوفِ بنذرك**»، ثم عقَّب على هذا بقاعدةٍ عامة، فقال: « **فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما يملك ابن آدم**».

النذر، ومباحثه، ومسائله محل الكلام فيها إن شاء الله الدرس القادم؛ لأنَّ الباب القادم في مسألة النذر -إن شاء الله-.

الشاهد: إن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بنى حكمه بالإذن بوفاء هذا النذر بجواب الناس له، بأنه لم يكن هناك عيد، ولم يكن هناك وثن، قال: «**أوفِ بنذرك**»، هذا يدل على أن الذبح لله؛ لأنَّ الرجل كان سيذبح لله، نذر لله دل هذا على أن الوفاء للنذر، أو عفوًا أن الذبح لله في مكانٍ كان يذبح فيه لغيره، أمرٌ محرم، ووجه الدلالة من جهتين:

[الوجه الأول]: أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ذكر الحكم عقيب الوصف، وهذا مشعرٌ بالعلية، كما هو مقررٌ في أصول الفقه، الوصف ها هنا خلو المكان من أمرين:

[الأمر الأول]: أن يكون فيه وثنٌ من أوثانهم.

[الأمر الثاني]: أن يكون فيه عيدٌ من أعيادهم.

لما ذكر الوصف عقّب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بذكر الحكم، وهو «**أوفِ بنذرك**»، مشروعية الوفاء النذر، إذا وجد الوصف، الذي هو خلو المكان من هذين الأمرين.

[الوجه الثاني]: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر حكمًا عامًا بعد سبب، والسبب مندرجٌ في الحكم العام، إذا كان الحكم العام قد ورد على سببٍ معين، فإنه مندرجٌ فيه قطعًا على هو مقررٌ في أصول الفقه، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أي شيءٍ قال: «**فإنه لا وفاء لنذر لمعصية الله**»، لأي سببٍ قال هذا الكلام؟ بسبب السؤال عن الذبح في هذا المكان، فلما بيَّن له أنه لا يوجد فيه وثن ولا عيد، قال: إنه يجوز وفاء النذر ها هنا؛ لأنَّه لا ليس معصية، فدلَّ هذا على أن الذبح، على أن نذر الذبح في مكانٍ فيه وثن أو عيد معصية، قال: «**فإنه لا وفاء لنذرٍ في معصية الله**».

إذًا الذبح لله في مكانٍ يذبح فيه لغيره معصيةٌ لله، وهذا هو الذي مراد إثبات من إيراد هذا الحديث.

إذًا الخلاصة والشاهد: أن المسلم مطالبٌ بأن ينأى بنفسه عن مواطن الريبة، وعن أسباب حصول الشر، ومن أعظم ذلك أن يذبح الله في مكانٍ يذبح فيه لغيره، وأنت -يا رعاك الله- إذا تأملت هذا الباب وما فيه، تبين لك أن قاعدة سد الذرائع أصلٌ أصيل في الشريعة، لا سيما إذا تعلق الأمر بجناب التوحيد، فإن الشريعة الإسلامية أسهل الشرائع وأيسرها في المعاملات، لكنها أشد الشرائع وأحزمها إذا تعلق الأمر بالشرك وذرائعه، ولذلك سدت الشريعة أبوابًا كثيرة، يمكن على احتمال أن يوصل إلى الشر من خلالها.

والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ عقد بابين، سيأتي الكلام فيهما -إن شاء الله- عن هذه القاعدة العظيمة والمهمة، وهي قاعدة سد الذرائع.

وإن مما يؤسف له أن كثيرًا من أعداء الحق في هذا الزمان، يكثرون من الطعن في هذه القاعدة العظيمة، التي هي من محاسن الشريعة والله، يكثرون من الطعن فيها، ومن التهوين من شأنها، يريدون أن تُفتح الذرائع والأسباب لحصول الشر؛ حتى يسهل الوقوع فيه، وحتى يكون الولوج إليه أمرًا يسيرًا، يكون هذا سببًا يتقوى به على إيصال الشر للناس، سواءً تعلق بعقائدهم، أو تعلق بأخلاقهم، أو تعلق بعبادتهم.

فعلى المسلم لا سيما طالب العلم، أن يتنبه إلى تتبع هذا المعنى العظيم، في دلائل الشريعة في الكتاب والسُنة، حتى يكون على علمٍ راسخ بهذا الأصل الأصيل.

بقيت **مسألةٌ أخيرة**: وهي هل يدخل في هذا الحكم الذي ذكرناه، أن يذبح المسلم في المسالخ المعاصرة، التي يرتادوها الكفار، فيذبحون فيها ذبائحهم؟

بمعنى: كثيرٌ من الدول في الغرب أو الشرق تمنع أن يذبح الإنسان في أي مكان شاء؛ بل لا بد أن يكون الذبح في أماكن مخصوصة في مسالخ، وعليها إشرافٌ طبي ونحو ذلك، وأظن هذا معلومٌ، هذا المكان يذبح فيه في الغالب أهل البلد من الكفار، إذا كان هناك مسلم محتاج إلى أن يذبح هل يجوز له أن يأتي إلى هذا المسلخ التي وضعته البلدية، ويأتيه الكفار فيذبحون؟

الجواب: أن الغالب من أحوال هذه المسالخ، أنه لا يكون فيها الذبح بقصد التقرب لغير الله، إنما هم يذبحون ليأكلون لا ليتقربون إلى معبوداتهم، إذا كان كذلك، فإن ذبح المسلم في هذا المكان لا بأس به، لا بأس به سواءٌ كان يذبح تقربًا لله كأضحية، أو وفاءٌ للنذر، أو عقيقة، أو كان يذبح لأجل اللحم، كل ذلك لا بأس به إن شاء الله، إذا لم يكن هذا المكان قد أُعِدّ للشرك بالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، أي: للذبح لغيره.

١٧

١٧- بابٌ من الشرك النذر لغير الله

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بابٌ

من الشرك النذر لغير الله

لا يزال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوالي ذكر الأبواب التي يعقدها لبيان ما يضاد التوحيد، فبيّن فيما مضى أن التبرك والذبح لغير الله عَزَّوَجَلَّ أنه من جملة ما يضاد التوحيد، وجاء الآن ببيان أن النذر لغير الله عَزَّوَجَلَّ من الشرك، و(من) ها هنا تبعيضية، يعني: من أنواع الشركِ الشركُ في النذر، فمن نذر لغير الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يكون قد وقع في الشرك المنافي للتوحيد.

النذر في اللغة قيل: إنه من الإيجاب، أو الوعد، أو الإبلاغ فيما فيه تخويف.

ومهما يكن فإن النذر في الشرع هو: إيجاب المكلف على نفسه ما لم يجب شرعًا.

وإن شئت فقل: هو التزام قربة لم تتعين.

وإن كان هذا التعريف الثاني ليس بجامع.

والكلام في أن النذر لغير الله شرك يُحتاج معه إلى التقديم لبيان شيءٍ من أحكام النذر، حتى يكون الأمر واضحًا.

النذر -كما علمتَ- أن يوجب المرء على نفسه شيئًا لم يوجبه الله عليه، وتختلف أحكامه باختلاف أحوالٍ ذكرها الفقهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، من ذلك:

[الحال الأولى]: النذر المطلق: وهو أن ينذُرَ الإنسان، وإن شئت فقل ينذِرُ الإنسان، لأنَّ نَذَرَ من باب ضَرَبَ ومن باب قَتَلَ، نَذَرَ ينذِرُ ونَذَرَ ينذُرُ؛ فمن نذر نذرًا مطلقا لله بأن قال: لله علي نذرٌ، أو: نذرٌ لله عليّ، وما شاكل ذلك من هذه العبارات، فهذا يسمى عند أهل العلم: (نذرًا مطلقًا)، والمقصود بأنه مطلق يعني لم يُسمّى، لم يذكر ما هو الشيء المنذور، والحكم في هذا أنَّ فيه كفارة يمين لما ثبت في ((صحيح مسلم)) عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «كفارة النذر كفارة يمين».

الحال الثانية: نذر أمرٍ مباح، إذا قال الإنسان: لله عليّ أن أركب دابتي؛ أو: نذرٌ عليّ أن أذهب إلى السوق، وما شاكل ذلك من هذه الأمور المباحة، فإن أهل العلم يقولون: إنَّ المكلف الناذر مخيرٌ بين فعل ما نذر، وبين أن يكفر كفارة يمين.

الحال الثالثة: النذر المكروه، إذا نذر الإنسان شيئًا مكروهًا كأن يقول مثلا: نذرٌ عليّ أن أُطلق، الطلاقُ الأصل فيه أنه مكروه، وقد يختلُف الحكم فيه بحسب الحال، لكنَّ الأصل فيه أنه مكروه، قال أهل العلم: هو مخير بين أن يفيَّ أو يكفر كفارة يمين، والمستحب في حقه أن يكفّر ولا يأتي بفعل المكروه.

الحال الرابعة: أن يَنْذُرَ الإنسان شيئا محرمًا، وذلك بأن يقول مثلا: نذرٌ عليّ أن أسرق. أو: عليّ نذر أن أشرب خمرا، أو: لله عليّ أن أضرب فلانا ولا يستحق الضرب، وأمثال ذلك من هذه الأمور المحرمة، فإنَّ هذا لا شك أنه محرمٌ ولا يجوز له أن يفيَّ بهذا النذر بإجماع العلماء، بالإجماع الوفاء بهذا النذر محرم، وسيأتي الدليل عليه من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصيه»**.

الحال الخامسة: نذر الطاعة، يسمى عند الفقهاء: نذر التَّبَرُّر، التبرر: يعني تقرب وتنسك، وهذا النذر له حالتان:

الأولى: أن يكون نَذْرا مُنَجَّزًا، والمقصود بكونه منجزا يعني: غير معلق، غير مقيد، لم يقيد بشيء، كأن يقول الإنسان: لله عليّ أن أصلي ركعتين، نذرٌ عليّ أن أفعل عمرة وما شاكل ذلك، والواجب في هذه الحال ولا شك أنه يجب عليه أن يفيَّ بهذا النذر لقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«من نذر أن يطيع الله فليطعه»**.

فمن نذر ما هو قربة، ما هو طاعة، أصبح في حقه أمرًا واجبًا وإن كان من قبل لم يكن واجبا، وهذا في الجملة متفقٌ عليه، والجمهور على أنَّ أي طاعة تجب بالنذر، وذهب بعض أهل العلم إلى أنَّ ما كان أصله واجبًا فإنه يكون النذر موجبا للوفاء به، وأما ما لم يكن أصله واجبا فإنه لا يجب الوفاء به، ويُجْزِئ فيه كفارة يمين؛ فلو نذر مثلا أن يعتكف، فذهب هؤلاء العلماء وهذا قولٌ مشهور عند الحنفية أنه لا يلزمه الوفاء، والصواب مع الجمهور، وذلك لأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لم يقيد الحكم في الحديث بشيء، وإنما قال: **«من نذر أن يطيع الله فليطعه»**.

الحال الثانية: في نذر الطاعة هي أن ينذر الإنسان نذرا معلقا، وإن شئت فقل: أن يُنْذُرَ نذر المجازاة، وهذا يقع كثيرا من الناس، وذلك أن يُعَلِقَ النذر بأمرٍ يرجو حصوله ويأمل حصوله، كأن يقول: لله عليّ إن نجحت في الامتحان أن أصوم ثلاثة أيام، نذرٌ عليّ إن

شفى الله مريضي أن أتصدق بمائة ريال، وما شاكل ذلك، هذا يسمى نذر المجازاة أو النذر المعلق.

والحكم في هذا أنه متى ما حصل الأمر الذي علق عليه النذر، فإنه يجب عليه أن يفيَ بهذه الطاعة، يجب عليه أن يفعل الشيء الذي نذره، وإذا لم يفعل فلا شك أنه عاصٍ لله عَزَّوَجَلَّ إلا إذا تعذر عليه ذلك، فيكفيه أن يكفر كفارة يمين، إذا نذر هذا النذر، ثم مَرِضَ مرضًا لا يُرجى بُرؤه، وكان قد نذر صوما مثلا، فنقول: يجزئه أن يكفر كفارة يمين لقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**كفارة النذر كفارة يمين**».

إذن هذا هو النذر، وهذه جملة أحكامه.

ويبقى بعد ذلك البحث في مسألة، وهي: أن النذر له جانبان:

جانب انعقاد وجانب وفاء.

أما الوفاء بالنذر فإن الحالات السابقة قد بينت حكمه، ومن ذلك أنه إذا نذر طاعةً لله عَزَّوَجَلَّ منجزة كانت أو معلقة، فإنه يجب عليه أن يفي بذلك.

أما عن ابتداء النذر، يعني أن ينشئ الإنسان النذر، فما حكم ذلك؟

ثبت في ((الصحيحين)) من حديث أبي هريرة ومن حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نهى عن النذر وقال: «**إنه لا يردُّ شيئًا، وإنما يستخرج به من البخيل**»، وفي رواية قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ : «**إنه لا يأتي بخير، إنما يستخرج به من البخيل**»، وفي رواية ثالثة قال: «**إنه لا يقدم شيئًا ولا يؤخر، وإنما يستخرج به من البخيل**»، هذه روايات ثلاث ثابتة في الصحيحين.

إذن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نهى عن النذر، وبالتالي فإن إنشاء النذر أمرٌ منهيٌّ عنه، وعامة أهل العلم على أنَّ النهي ها هنا للكراهة، فالنذر مكروهٌ كراهة تنزيه عند عامة أهل العلم، وبعض أهل الحديث حكم بتحريمه، وبعضهم توقف، ومن ذلك ما في ((الاختيارات)) لشيخ الإسلام ابن تيمية، فإنه توقف في حكم النذر، يعني هل هو محرمٌ أم لا؟ والأصل فيه كما يقول شيخ الإسلام وغيره أنه أمرٌ مكروه، بل ذكر شيخ الإسلام أنه لا يعلم نزاعًا في أن إنشاء النذر أمرٌ مكروه لنهي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وهنا مسألة وهي: ما هو الأمر المكروه في النذر؟ أهو المعلق والمنجز، أو هو المعلق فقط؟

قال بعض أهل العلم: ومنهم ابن دقيق العيد، إنَّ الذي نهى عنه نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما هو النهي المعلق الذي يسمى نذر المجازاة، وأما النذر المطلق الذي ليس بمعلق، أن يقول لله عليّ أن أصوم أو أتصدق أو أصلي، فهذا ليس داخلا في النهي، إنما النهي مخصوصٌ بنذر المجازاة.

وعُلِّلَ هذا بأمور:

أولًا: أنَّ هذا النذر قد يصاحبه اعتقادُ أنَّ النذر سببٌ لجلب الخير أو دفع الضر، ولا شك أن هذا منفيٌ بحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالنذر ليس سببا لا لجلب ولا لدفع، ألم يقل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لا يرد شيئا! ألم يقل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنه لا يأتي بخير! ألم يقل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنه لا يقدم شيئا ولا يؤخر!

إذًا من اعتقد أنه سبب كما يفعله غالب من يقع أو يفعل هذا النذر هو ما نذر إلا لأجل يريد أن يُقَرِّبَ الشيء الذي يرجوه، أليس كذلك؟ يظن أنه بهذا النذر يستجلب هذا الشيء، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيّن أنه ليس بسبب، لا لدفع شر ولا لجلب خير.

ثانيًا: أن هذا النذر فيه شوبٌ من سوء الظن بالله جَلَّ وَعَلَا، ووجه ذلك أن هذا الناذر حقيقة الأمر أنه اعتقد أن الله جَلَّ وَعَلَا لا يمن عليه بما يرجو إلا إذا وعد أن يتطوع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مع أن شأن الله أعظم من ذلك، فالله أكرم الأكرمين، فهو يتفضل ابتداءً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا يُعلق فضله على أن يعد العبد ربه أن يفعل له كذا وكذا.

[ثالثًا]: وهو أن في هذا النذر شوبًا من سوء الأدب مع الله عَزَّ وَجَلَّ، كأن الناذر يقول: لن أطيع حتى تعطيني يا الله كذا وكذا؛ كأن الناذر لسان حاله يقول هذا الأمر، ولا شك أن هذا غير لائق في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والأظهر والله أعلم، أن كلا النوعين مكروه، سواء أكان نذر للطاعة، نذر مجازاة أو نذرا منجزا، كلاهما مكروه.

أما كراهة النذر المعلق فلما علمت آنفا.

وأمّا المنَجَّز فإنَّ كراهته من جهة أن الإنسان يوجب على نفسه شيئا لم يوجبه الله عَزَّوَجَلَّ عليه، ويُخشى ألا يفي بما عاهد الله عليه، وكم الذين نذروا فلم يوفوا؟ ولا شك أن هذا يعرض الإنسان لذنبٍ عظيم، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[التوبة:٧٥-٧٧].

إذن لم يورد الإنسان نفسه هذا المورد الخطر؟ فترك النذر سواء كان نذر مجازاة أو نذرا حتى منجزا، لا شك أنه هو الأسلم من الوقوع في هذه الورطة.

إذن عندنا خمس حالاتٍ للنذر نضيف إليها **حالة سادسة** يذكرها الفقهاء، وفيها بحث طويل من كتب الفقه، ألا وهي:

نذر اللجج والخصومة، وسميَّ بذلك: لأن هذا النذر سببه غالبا اللجج والخصومة، وهذا النذر يقول الفقهاء هو الذي ينشأ عن واحدٍ من أمور:

[الأمر الأول]: **أن يريد الناذر أن يحمل نفسه على شيء** فيقول مثلا: إن لم أفعل كذا فإن لله عليّ أن أفعل كذا، يعني: يريد أن يحمل نفسه على أن يترك أمرًا منكرًا يأتيه، أو أن يفعل شيئا مطلوبا منه كأن يزور رحما له، ولكن لدنيا تشغله، فيريد أن يحمل نفسه على ذلك، فيقوم بهذا النذر، يقول: إن لم أفعل كذا، فلله عليّ كذا.

[الأمر الثاني]: هو **أنه يريد أن يمنع نفسه من شيء**، فيقول: إن فعلت كذا، فلله عليّ كذا.

الأمر الثالث: **التصديق**، يريد أن يحمل الناس على تصديق كلامه، إن لم يكن كلامي صحيحا، فنذر عليّ أن أتصدق بكذا.

[الأمر الرابع]: **التكذيب**: يريد أن يكذب الناس شيئا سمعوه، فيقول مثلا: إن كان ما يقول فلانٌ صحيحا، فنذر عليّ أن أفعل كذا وكذا.

هذا النذر فيه بحث طويلٌ عند أهل العلم، والراجح -والله تعالى أعلم- أنَّ الناذر مخيرٌ بين فعل ما نذر، وبين أن يكفر كفارة يمين، وفي هذا حديثٌ لكنَّ إسناده ضعيف، وفي هذا

فتاوى لبعض أهل العلم، ومن جهة النظر أنَّ هذا النذر يجري مُجرى اليمين، فيكون له حكمه، والله تعالى أعلم.

مهما يكن من شيء، النذر بكل أحواله، سواءً كان مُنَجَزًا أو كان نذر مجازاة فإنه لا يصدر إلا عن طاعة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فالذي نذَر نذْر مجازاة هو وإن كان من جهةٍ أمرًا فيه كراهة، إلا أنه من جانبٍ آخر لا يفعله الإنسان إلا وهو يعتقد أن الله عَزَّوَجَلَّ قادر على أن يبلغه ما يرجو، وإن نذر نذرا منجزا، فإنه يتلمس السبل التي يظن أنها تقربه لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهو في الأول والثاني لا يفعل ذلك إلا على ذلٍ لله سبحانه ورجاءٍ ومحبةٍ وخضوعٍ له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فكان النذر بكل أحواله طاعةً لله عَزَّوَجَلَّ.

لأجل هذا كان النذر عبادة لله عَزَّوَجَلَّ، إنشاؤه والوفاء به، ومتى ما كان طاعة لله، كان صرفه لغير الله شركا، وذلك لأن القاعدة المعلومة بالضرورة في دين الإسلام أن كل ما ثبت أنه عبادة فإن صرفه لغير الله شرك: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النساء:٣٦]، ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[يوسف:٤٠]، فالعبادة حقٌ خالصٌ لله جَلَّوَعَلَا.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورد في هذا الباب آيتين وحديثا، تدل هذه الأدلة على أن النذر عبادة لله عَزَّوَجَلَّ، وبالتالي تبيّن لنا الحكم إذن، وهو أن صرف هذه العبادة لغير الله شركٌ به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقول الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾[الإنسان:٧].

هذه الآية الأولى، بيّن الله عَزَّوَجَلَّ فيها سبب نعيم أهل الجنة: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[الإنسان:٥-٦]، ما السبب؟ ما هو السبب الذي بلغهم هذا المنزل العظيم وهذا الفضل الكبير؟ قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[الإنسان:٧-٨].

إذن ذكر الله جَلَّوَعَلَا إن هؤلاء المنعّمين إنما بلغوا ما بلغوا بسبب طاعتهم لله عَزَّوَجَلَّ، وماذا كانت الطاعة الأولى التي ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ في هذا السياق؟ الوفاء بالنذر، فدل هذا على أن النذر عبادة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإذا ثبت أن النذر عبادة كان صرف ذلك لغير الله

شركًا، ولا حظ كيف أن النذر ها هنا قُرِن بعبادات عظيمة، وهي الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ والإنفاق للمسكين واليتيم، والإنفاق على الأسير، وكل ذلك طاعات لله عَزَّوَجَلَّ، فالنذر إذا طاعة لله، ومتى كان طاعة لله، كان صرفه لغير الله شركًا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:
وقوله:﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِن نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِن نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾[البقرة:٢٧٠].

هذه الآية كسابقتها في أن النذر عبادة، دلت كما دلت التي قبلها على أن النذر عبادة، وإذا كان النذر عبادة، فإن النذر لغير الله شرك، هما أمران متقابلان، ما كان عبادة لله فضده شركٌ بالله.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِن نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِن نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾[البقرة:٢٧٠]، وجه الدلالة من الآية:

أولًا: من جهة قَرْنِ النذر بالإنفاق، ولا شك أن الإنفاق في سبيل الله عبادة وطاعة، وبالتالي كان النذر أيضًا عبادةً وطاعة.

ثانيا: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾[البقرة:٢٧٠]، ولا زم ذلك المجازاة، يعني إذا كان الله عَزَّوَجَلَّ يعلم هذه الأعمال، فاللازم من هذا العلم ماذا؟ أنه يجازي عليه؛ فمن نذر لله عَزَّوَجَلَّ جازاه الله سبحانه من فضله، وإن نذر الإنسان لغير الله عَزَّوَجَلَّ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يجازيه بعدله، لأنه يكون قد أشرك مع الله عَزَّوَجَلَّ فاستحق العقوبة، فدل هذا إذن على أن النذر عبادة إن فُعلت لله عَزَّوَجَلَّ كانت توحيدًا، وإن فُعلت لغيره كانت شركًا.

والنذر لغير الله شأن المشركين، قديمًا وحديثًا، فكان المشركون قديما ينذرون لأصنامهم، والمشركون حديثا أيضا ينذِرون لآلهتهم ومعبوداتهم وأوثانهم؛ وهذا جليّ واضح لمن عرف حال القبوريين المشركين، الذين يحرصون أشد الحرص إن نزلت بهم النوازل، أو طمحت نفوسهم إلى ما يرجون، فإنه أبلغ الأشياء عندهم في تحقيق ما يرجون أو دفع ما يخشون أنهم يَعْمَدُون إلى قبور الأولياء والصالحين، فينذرون لأصحابها، ويتنادون فيما بينهم: قبر فلان يقبل النذر، إذا كان عندك مريض أو أردت قضاء دين، فليس عليك إلا أن تعمد إلى الولي الفلاني، إلى سيدي فلان، اذهب إليه، فإن قبره يقبل النذر، وقل بقلبٍ خالص توجهتَ به لصاحب القبر، قل له: يا سيدي فلان نذر عليّ لك، إن حصل كذا أن أُوقِدَ الشموع حول قبرك، أو أذبح شاةً سمينة لك.

وربما يجعله كما جعله المشركون الأولون سببا للشفاعة والتقريب إلى الله، يقول له: يا سيدي فلان، إن شفى الله مريضي، قد يقول هذا: إن شفى الله مريضي فلك عليّ أن أفعل لك كذا وكذا؛ يريد أن يكون بتقربه إليه سببا في أن يشفع له عند الله، فيقضِ الله له الحاجات كحال المشركين الأولين.

ولربما زاد بعضهم على ذلك فاعتقد أن الولي هو الذي يفعل، إن قضيت لي كذا فنذرٌ لك عليّ أن آتي إلى قبرك من مكان بعيد مشيا على الأقدام، فهذا ولا شك لا يشك من شم للإسلام رائحة أنه شركٌ أكبر، وأنه صرف خالص حق الله لغيره.

فحذارِي من هذا الأمر، فإنك عن نذرت فالله يعلم نذرك، وسيجازيك على فعله، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي الصحيح عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيَّ الله فلا يعصه».

قال: (في الصحيح)، يعني: في ((صحيح البخاري))، فقد تفرد بإخراجه البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ، وهذا الحديث أصلٌ في الباب: **«من نذر أن يطيع الله فليطعه»**، (فليطعه) هذه الصيغة تدل على وجوب الوفاء بالنذر إن كان المنذور طاعةً لله؛ وعليه فمن نذر طاعة لله فإنه واجب عليه أن يوفي بهذا النذر.

وهذا من عجيب الأمور، يقول الخطابي في ((شرحه على صحيح البخاري)) عن باب النذر: (إنه بابٌ غريب في العلم، وهو أن يكون الشيء منهيًا عنه، فإذا وقع، وقع واجبا)، وهذا فعلا شيء غريب في مسائل الشريعة، أن ابتداء النذر منهي عنه، والوفاء به واجب.

الشاهد أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوجب في هذا الحديث على من نذر طاعة لله عَزَّوَجَلَّ أن يوفي بها، وهذا دليلٌ على أن الله يحب هذا الفعل، لأن الأمر الشرعي في الشريعة لا يكون إلا لواجبٍ أو مستحب، وما العبادة إلا الواجبات والمستحبات.

إذن هذا دليلٌ على أن النذر عبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبالتالي كان النذر لغير الله شركا.

وبالتالي حذارِي يا أيها المسلم ويا أيتها المسلمة، حذارِ من النذر، فكم من الناس من نذروا فلم يوفوا، تأتي أسئلة كثيرة، أن المرأة –وهذا كثيرٌ في النساء– أنها تنذر إن أُصيب ابنها أنه إن شفاه الله عَزَّوَجَلَّ أن تصوم يوما وتفطر يوما، وهذا شيء قد مر بي وسمعته من بعض السائلين، ثم إذا حصل الذي رجته وبدأت الصوم صبرت على هذا أسبوعا أو أسبوعين، أو شهرا أو شهرين، ثم قالت: الأمر أصبح عليّ صعبا.

فيا أمة الله، ويا عبد الله، ما الذي ألجأك إلى هذا الأمر الضيق، لمَ؟ لمَ تُلزم نفسك شيئا ما ألزمك الله عَزَّوَجَلَّ به؟ والحديث واضح وصريح: **«من نذر أن يطيع الله فليطعه»**، ليس هناك حل، متى كنت قادرا على فعل الذي نذرته، أما مع العجز، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها، والمسألة مسألة دين، كل إنسانٍ يعني أدرى بنفسه، والإنسان يُدَيَّنُ بينه وبين الله جَلَّوَعَلَا كان يستطيع أو لا يستطيع، لكن متى كان الإنسان يستطيع الصوم، وكان قد نذر الصوم، فعليه أن يوفيَ بهذا النذر: **«من نذر أن يطيع الله فليطعه»**.

إذن كان الأولى بالإنسان ألا يقع في هذا الأمر الذي يحرجه، فهو إن فعل وجد في نفسه من الصعوبة والتعب ما وجد، وإن ترك ذلك وقع في معصية الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا خذ بوصية الرؤوف الرحيم بأمته صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الذي نهاك يا عبد الله ويا أمة الله عن النذر، وأخبرنا أنه لا يقدم شيئا ولا يؤخر شيئا.

قال: **«ومن نذر أن يعصيَ الله فلا يعصه»**، ليس لك يا عبد الله إن نذرت شيئا فيه معصية لله عَزَّوَجَلَّ أن تفعله، فالنذر أولا للمعصية محرم، والوفاء به محرمٌ آخر؛ وبالتالي لا يجوز بالإجماع أن يفي الإنسان بالمعصية التي نذرها، أو بالنذر الذي فيه معصية.

ويبقى بعد ذلك مسألةٌ محل بحثها في كتب الفقه وفي دروس الفقه وهي: هل يُلزمُ بكفارة، أو أنه يتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ من هذا النذر ولا يلزمه شيء؟

في المسألة قولان عند أهل العلم، والجمهور على أنه لا يلزمه شيء إلا أن يتوب إلى الله من ذلك، لأنه قال: **«ومن نذر أن يعصيَ الله فلا يعصه»**، ولم يزِد على هذا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

والمشهور في مذهب الإمام أحمد واختاره جماعة من السلف، أنه يلزمه مع تركه الوفاء بالنذر أن يكفر كفارة يمين، لما جاء عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: **«لا نذر في معصية،**

وكفارته كفارة يمين»؛ وهذا الحديث له طرق، وفيه بحث طويل من جهة ثبوته، ضعفه جمعٌ من أهل العلم، بل قال النووي: (اتفق العلماء على ضعفه وعلى عدم الأخذ به).

لكن كلامه فيه نظر، فمن أهل العلم من صحح هذا الحديث، هذا الحديث صححه الطحاوي، واحتج به الإمام أحمد، وصححه أيضًا غير واحدٍ، ومنهم الشيخ ناصر الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

على كل حال لا شك أنَّ الأحوط والأبرأ للذمة، أنَّ الإنسان إن نذر معصية فالأحوط في حقه أن يكفر كفارة يمين، والله تعالى أعلم.

١٨

١٨- بابٌ

من الشرك الاستعاذة بغير الله

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بابٌ

من الشرك الاستعاذة بغير الله

عقد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابًا جديدًا لبيان أحدِ الأعمال والعقائد التي تضادُّ التوحيد وبها يُعرف التوحيد، لن تعرف التوحيد حتى تعرف ما يضاده.

وهذا الذي جرى عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من النصيحة للمسلمين ومن محبة الخير لهم، أنه يبين ويبلغ ويفصح عن حقيقة التوحيد وعما يضاده، وهذا شأن المسلم ولاسيما العالم أنه يحب الخير لنفسه ويحب الخير لإخوانه، ويسعى أيضًا في أن ينجو إخوانه، جزى الله المؤلف وإخوانه من العلماء عنا خير الجزاء.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (بابٌ: من الشرك الاستعاذة بغير الله).

الاستعاذة: طلب العوذ والعياذ، هما مصدران للفعل عاذ يعوذ ،كما تقول: صام يصوم صومًا وصيامًا، كذلك عاذ يعوذ عوذًا وعياذًا، والألف والسين والتاء على الأصل الغالب للطلب.

فالاستعاذة: طلب العوذ أو طلب العياذ.

والعوذ والعياذ هو: الالتجاء والتحصن والتحرز والاعتصام.

وعليه فالاستعاذة طلب التحرز والتحصن والالتجاء.

والأصل في هذا الباب أن استعاذة المسلم إنما تكون بالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وذلك أن الله سبحانه هو الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو الذي يدبر كل شيء، وهو الذي على كل شيء قدير، وعليه: فهو القادر سبحانه على أن ينجيَّ الإنسان مما يخاف منه، فالله جَلَّ وَعَلَا هو الرب الذي يربي العباد والذي يدير شؤونهم، فلمن يكون اللجوء إن لم يكن إليه؟ والله عَزَّوَجَلَّ هو الملك والمالك لعباده جَلَّ وَعَلَا والعباد كلهم عبيدٌ مملوكون له، فإلى أين يهربون ويلجؤون إن لم يكن لمالكهم سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، كما أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الإله الحق الذي يألهه العباد والذي يفتقرون إليه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ من حيث كونه مولاهم، ومحبوبهم، ومعبودهم

جَلَّ وَعَلَا هو الذي يرجونه، وهو الذي يطلبونه، وهو الذي يقصدونه، فبمن يلجؤون وإلى من يعوذون، إذا لم يكن ذلك بإلههم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إذن لما كان الله جَلَّ وَعَلَا هو الرب، الإله، الملك جلَّ في علاه استحق أن يكون مَعَاذَ المسلمين، فالاستعاذة إذن عبادة يتقرب بها المسلم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ووجه كونها عبادة من جهتين:

أولاً: من جهة الأمر بها في كتاب الله جَلَّ وَعَلَا وفي سنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

ألم يقل الله سبحانه: **﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾[الفلق:١]**، **﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾[الناس:١]**، **﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾[الأعراف:٢٠٠]**، إلى غير ذلك من النصوص التي فيها الأمر بالاستعاذة بالله جَلَّ وَعَلَا ، وقد مر معنا في دروس سابقة أن الأمر الشرعي يدل على أن المأمور به عبادة.

لأن الله عَزَّ وَجَلَّ لا يأمر شرعًا إلا بما يحب، وما أحبه سبحانه ورضيهُ لعباده هو العبادة، أليست العبادةُ اسمًا جامعًا لكلِ ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال؟

إذن الاستعاذة بالله عبادة.

ثانيًا: أن الاستعاذة هي طلب العوذ، والطلب هو الدعاء والاستغاثة.

وبالتالي فالاستعاذة نوعٌ من أنواع الدعاء، هكذا قرر علماء التوحيد أن الاستعاذة نوع من أنواع الدعاء، وذلك لأن الاستعاذة فيها طرفان: الأول: الطلب وهو الجهة الظاهرة يكون في الاستعاذةِ سؤال وطلب ودعاء، ففيها جانبٌ ظاهر هو هذا الجانب.

وفيها جانب آخر باطن وهو لجوء القلب وركونه وطمأنينته بمن استعاذ وهذا جانبٌ باطن.

الشاهد: أن الاستعاذة فيها طلب وفيها سؤال وفيها دعاء، وعليه فأدلة الدعاء تشمل بعمومها الاستعاذة، وبالتالي فتكون الاستعاذة عبادةً لله جَلَّ وَعَلَا.

وعليه فمتى ما كانت الاستعاذة عبادةً فإن صرفها لغير الله شرك، وهذا الذي أراد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن ينبه في هذا الباب عليه، قال: (من الشرك الاستعاذة بغيرِ الله تعالى):

(**من**) تبعيضية، من أنواع الشرك أن يستعيذ الإنسان بغير الله جَلَّ وَعَلَا.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورد في هذا الباب آيةً وحديثًا يدلان على أن الاستعاذةَ عبادة، وأن التوجه بهذه العبادة لغير الله منكرٌ عظيم بل هو شرك بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لكن تنبه هنا يا رعاك الله إلى أن علماء التوحيد يطلقون أن الاستعاذة بغير الله شرك هذا في مقام الإطلاق والإجمال والتحذير.

وأما في مقام التفصيل والتحرير فإن هذا المقام فيه تفصيل، وذلك أن الاستعاذة بغير الله جَلَّوَعَلَا الأصل فيها أنها شركٌ أكبر، وقد تكونُ شركًا أصغر، وقد تكون جائزة.

[القسم الأول]: أما كون الاستعاذة بغير الله شركًا أكبر فذلك يكون في الأحوال الآتية:

أولاً: أن تكونَ الاستعاذةُ الباطنةُ بغير الله اقترن بها الاستعاذة الظاهرة أو لم يقترن، متى ما كان المعول في اللجوء والاعتصام والتحرز وركون القلب على غيرِ الله جَلَّوَعَلَا كان هذا ولا شك شركًا أكبر.

ثانيًا: أن تكون الاستعاذةُ بالظاهر بميت سواءً اقترن بها التعلق القلبي أو لم يقترن، لو اقترن بها التعلق القلبي فإن هذا ضلالٌ فوق ضلال، وشركٌ فوق شرك، فمتى ما استعاذ الإنسانُ بميت، جاء إلى قبر ميت وقال: يا سيدي فلان أعوذ بك من العدو الفلاني، أو أعوذ بك من النار، أو غير ذلك مما الميت قادرٌ عليه لو كان حيًا أو مما لا يقدر عليه، وذلك لأننا قد علمنا أن الاستعاذةَ من جنس الدعاء وإن كان بينهما فارقٌ دقيق لعله يأتي التنبيهُ على ذلك -إن شاء الله-.

الاستعاذةُ تجوزُ بصفةِ الله، وأما الدعاءُ فلا يجوزُ أن يتوجه إلى الصفة إنما يتوجه إلى الموصوف.

الشاهد أن الاستعاذةَ ثانيًا إذا كانت بميت ظاهرةً أو باطنة، أو ظاهرةً فقط فإنها شركٌ أكبر.

ثالثًا: أن تكون الاستعاذة الظاهرة بغائب اقترن بها التعلق القلبي أو لم يقترن، كأن يقول إنسانٌ مخاطبًا وليًا بعيدًا عنه في بلدةٍ أخرى يقول: يا سيدي فلان أنت معاذي بك أعوذ، فإن هذا لا شك أنه شركٌ أكبر.

رابعًا: أن تكون الاستعاذة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله: لو أتى إنسان ولو إلى شخصٍ حاضر فقال له: أعذني من النار، أعوذ بك من النار، فإن هذا لا شك أنه شركٌ أكبر لأن الذي يُعَوِّذ الإنسان ويعيذه من النار إنما هو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ

إذن هذه أحوالٌ أربع تكون فيها الاستعاذةُ شركاً أكبر: أن تكون الاستعاذة القلبية معلقة بغير الله، أو أن تكون معلقة بميت، أو أن تكون معلقة بغائب، أو أن تكون فيما لا يقدر عليه إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

القسم الثاني: أن تكون الاستعاذة شركاً أصغر:

وهذا يكون في حالتين:

الأولى: أن يقع التفاتٌ قلبيٌ عند الإنسان بغيرِ الله، نعم يعتمد على الله ويركن بقلبه إليه ويجعل محترزة الذي يحترز به هو جنابه جَلَّوَعَلَا ولكن هناك شعبة من التعلق القلبي بغير الله، وهذا شركٌ أصغر.

الثانية: أن يكونَ في الاستعاذةِ تسويةُ غيرِ اللهِ باللهِ في اللفظ:كأن يقول أعوذ بالله وبك، أو أنت معاذي والله، أو الله معاذي وأنت ونحو ذلك مما فيه تسويةٌ بين الله عَزَّوَجَلَّ والمخلوق في اللفظ، فهذا أيضًا شركٌ أصغر من جنس قول القائل ما شاء الله وشئت.

القسم الثالث: أن تكون الاستعاذة بغير الله جائزة،

وضابط ذلك: أن تكون الاستعاذة بالظاهر بحيٍ حاضرٍ قادر، انتبه لهذا الضابط فإنه يجمع أمورًا.

أن تكون الاستعاذة بالظاهر لا بالباطن، فالقلب معتمد على الله لا غير، إنما هناك طلبٌ تلفظٌ سؤالٌ في الظاهر فقط، تعوذٌ بالظاهر بحيٍ لا ميت، حاضر لا غائب قادر، أي ما تطلبه -ما ترجو أن يُعيذَك هذا المخلوقُ فيه- أن يكون شيئًا مما هو في مقدور البشر في الجملة لا أن يكون فيما لا يقدر عليه إلا الله.

قد يقول قائل ما الدليل على ما ذكرت؟

الجواب: دلت أدلة من السنة على جواز ما ذكرت خذ منها:

أولاً: ما ثبت عند الإمام أحمد في ((المسند)) بسندٍ حسنٍ «**أن صفية رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا بعثت طعامًا إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو في بيت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، تقول عائشة**

رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا فأخذتني رِعدةٌ حتى استقلني أفكل -يعني أصابتها رعدة واضطراب من عظيم ما نابها من الغيرة- تقول: فضربت الطعام فانكسرت القصعة، فنظرت إلي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعرفت في وجهه الغضب، فقالت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أعوذ برسول الله أن يلعنني اليوم».

لو تأملت يا رعاك الله وجدت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا استعاذت بسؤال ظاهر بحي وهو النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو حاضر عندها، كان ذلك في أمر يقدر عليه وهو ألا يلعنها وهذا أمرٌ مقدور له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم ينكر عليها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك.

ثانيًا: ثبت في ((صحيح مسلم)) من حديث أبي مسعودٍ البدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أنه كان يضرب غلامًا له فقال الغلام أعوذ بالله فلم يزل يضربه، ثم قال وقد أبصر النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما جاء مصرحًا به عند عبد الرزاق في ((المصنف))- قال: أعوذ برسول الله فتوقف أبو مسعود فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لله أقدر عليك منك عليه».

الشاهد أن هذا الغلام قال: أعوذ برسول الله، فدل ذلك على أن الاستعاذة بالمخلوق الحي القادر أنها أمرٌ جائز، هذا الحديث إنما كان بمحضر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما ذكرت لك- هذا الغلام رأى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاء عند ((مسلمٍ)) أيضًا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان ينادي أبا مسعود من خلفه ويقول: «اعلم أبا مسعود»، وأبو مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من شدة غضبه ما كان يسمع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكرر عليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اعلم أبا مسعود».

فبالتالي هذا الرجل حينما قال أعوذ برسول الله استعاذ بمن؟! برجلٍ حاضرٍ يراه.

ثالثاً: ما ثبت في ((صحيح مسلمٍ)) أيضًا أن المخزومية التي سرقت وجيء بها إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جاء عند مسلم: «فعاذت بأم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا»، أم سلمة مخزومية مثلها، فعاذت بها؛ يعني: لجأت إليها طلبت منها أن تشفع لها عند رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألا يقام عليها الحد فقال النبي: صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «والله لو كانت فاطمة لقطعت يدها».

الشاهد أن هذه المرأة ماذا فعلت؟! عادت بأم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، فعاذت بإنسان حي حاضر قادر.

رابعًا: ما ثبت في ((الصحيحين)) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر الفتن فقال: «**ستكون فتنٌ القاعد فيها خير من القائم**...- إلى أن قال- **فمن وجد معاذًا أو ملجأً فليعذ به**» يعني: ليتحصن وليتحرز به.

هذه أدلة تدلك -يا رعاك الله- على أن الاستعاذة متى ما كانت بحيٍ حاضرٍ قادر ولم يكن فيها تعلق قلبي أنها حينئذ تكون أمرًا جائزًا.

هذا تفصيل ما يتعلق بهذا الموضوع، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[الجن:٦].

هذه الآيةُ من سورة الجِن، فيها بيانُ شيءٍ مما كان الجِنُّ قبل إسلامهم يفعلون مما هو مضادٌ للتوحيد.

وذلك أنَّ هؤلاءِ النفر من الجِنّ لما أسلموا عدَّدوا أشياء كانوا يقعون فيها قبل الإسلام، من ذلك أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا﴾[الجن:٣]، ومن ذلك أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾[الجن:٤]، ومن ذلك: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾[الجن:٧]، ومن ذلك ما بين أيدينا: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[الجن:٦].

هذه الآية فيها قولان لأهل التفسير:

[القول الأول]:﴿فَزَادُوهُمْ﴾: يعني زاد الجِن الإنسَ رهقًا.

والقول الثاني:﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾: أي: زاد الإنسُ الجِنَّ رهقًا.

والآية تحتمل المعنيين.

أما على الأول وهو أنَّ الجِن زادت الإنس رهقًا، فالرهق ها هنا فيه قولان:

الأول: زادوهم خوفًا ورعبًا وذعرًا.

والثاني: زادوهم إثمًا، ووجه ذلك أن تفسير الآية كما رُويَّ عن ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما من السلف رضوان الله عليهم، أنه كان أهل الجاهلية من المشركين يستعيذون من

الجِن، فكان أحدهم إذا نزل في سفر بمكان قفر، قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه.

فلما رأى الجِن أن الإنس يخافونهم، ويتوجسون منهم، زادوهم خوفًا ورعبًا، وهذا عقوبة يُعاقبهم الله ﷻ بها على شِركهم، سَّلط هؤلاء الجِن على هؤلاء المشركين، فزادوهم خوفًا.

أو أنهم ازدادوا، زُيِّن لهم فعلهم، فازدادوا وأوغلوا في الشِرك، فازدادوا إثمًا.

[والقول] الثاني: أن الإنس هم الذين زادوا الجِن رهقًا، ومعنى رهقًا هنا: يعني طغيانًا وتعاليًا، وذلك أنهم رأوا أن الإنس يخافونهم، ويرتعدون منهم، فزادهم هذا عُتوًا، وتجبرًا، وطغيانًا.

والآية كما ذكرت تحتمل المعنيين.

الشاهد أن هذه الآية دلتنا على أنَّ من فعل المشركين الاستعاذةُ بغير الله، وذلك بأنهم كانوا يستعيذون بغائب، وذلكم هو الجِن، فإن الجِن في حق الإنسان غائبون، لا يراهم، ولا يدركهم الإنسان، وبالتالي فإن الاستعاذة بهم شركٌ بالله جَلَّوَعَلَا وهذا كان شأن أهل الجاهلية، فدلَّ هذا على أن ما قرره المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ صحيح، فالاستعاذة بغير الله شِرك.

ومن هذا ما يفعله بعض الذين قلَّ حظهم من الإيمان والتوحيد، أو عُدِموا هذا الحظ في هذا الزمان، فإنهم يستعيذون بالجن كثيرًا، يخافونهم إذا ساروا في الليل، أو نزلوا مكانًا قفرًا، أو حلُّوا بمنزلٍ جديد، فإنك تجدهم يستعيذون بالجِن، وربما لَبِسوا وألْبَسُوا شيئًا من التمائم التي تحتوي على استعاذات شِركية بهؤلاء الجِن، فهؤلاء فعلوا ما كان يفعله سلفهم من المشركين الأولين، أنهم كانوا يستعيذون بغير الله جَلَّوَعَلَا.

فهذا مما ينبغي أن يحذَرَه المسلم، وكون الجِن قد يستجر المسلم بشي، ربما لو دعاه أو استعاذه في شيء فحصل له مطلوبه، ربما أوقعه ذلك في فتنة، فظن أن ذلك يحقق المطلوب، وأنه لو استعاذ الإنسان بغير الله، أو لجأ إلى غير الله، أو استغاث بغير الله أنَّ هذا جائز، بدليل أنه حصلت الفائدة وحصل المطلوب، ولا شك أن هذا أمر باطل، وعلى المسلم أن يتنبه.

فالقاعدة عند أهل العلم هي أن حصول المقصود لا يدل على الجواز ولا المشروعية، فقد يحصل الأمر من الشيء الذي يطلبه الإنسان بقدر الله جَلَّوَعَلَا، وبقضائه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وإن كان السبب محذورًا، فحصول الشيء المطلوب لا يدل على أن السبب مشروع.

فالإنسان قد يستعمل السحر فيحصل على مطلوبه، قد يسرق فيحصل على مطلوبه، قد يقتل فيحصل على مطلوبه، أفهذا دليل على أنَّ القتل والسرقة والسحر حلال؟ لا.

إذًا حصول المطلوب لا يدل على الجواز والمشروعية، بل هذا من الفتنة التي يُعاقب الله عَزَّوَجَلَّ بها من تعلقت قلوبهم بغير الله عَزَّوَجَلَّ، استمتاع الجِني بالإنس، والعكس صحيح ثابت لا شك فيه، قال جَلَّوَعَلَا : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[الأنعام:١٢٨]، استمتاع الجنيِّ بالإنسيّ، هو: أنه يحصل له تعظيم، ويحصل له طلب وسؤال وتفخيم من شأنه من قِبل الإنسيّ، وهذا يستمتع به الجنيِّ، والعكس صحيح، يستمتع الإنسيّ بالجنيِّ.

فالجِنيُّ قد يلبي للإنسي شيئًا من حاجته، وقد حقق له شيئًا من مطلوبه، ولكن هذا وذاك لا يدل على أنَّ هذا الأمرَ مشروع، فعلى الإنسان أن يتنبه لهذا الأمر.

وكم ترِدُ هذه الشُبهة على بعض الجُهَّال، والمطلوب أن يكون عند الإنسان فِقهٌ في الشريعة، الواقعات ليست دليلًا على المشروعية، والله عَزَّوَجَلَّ أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن خولة بنت حكيم رَضِيَٱللَّهُعَنهَا قالت: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقول: «مَنْ نَزلَ مَنزِلاً فقال: أَعُوذُ بِكَلِماتِ اللّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ، لَمْ يضرَّه شَيءٌ حتَّى يرْحِلَ مِنْ منزِلِهِ ذلكَ» رواه مُسلم.

هذا حديثُ خَولة بنت حكيم السُلمية رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، كانت فاضلةً صالحة، وكانت تحت عثمان بن مظعون رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، حدَّثت عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بذكرٍ أخبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن من نزل منزلًا: يعني حلَّ بمكان، أي منزلٍ كان، فإن هذا الحديث يدل بعمومه على أنه إن نزل في مكانٍ في الحضر، أو نزل في مكانٍ في السفر حصل له هذا

الأمر، وهو أنه إذا قال: «**أَعُوذُ بِكَلِمات اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ**»، فإنه لا يضره شيء بإذن الله الكوني حتى يقوم من هذا المكان.

لكن تنبه أنه لابد أن يجتمع ويتواطأ القلب مع اللسان عند هذا الذكر، أما أن يقول الإنسان ذلك بلسانه وقلبه غافل، أو قلبه غير مستيقن، فلا شك أنه لا يحصل له المقصود.

فإذا نزلت بمكان فعليك أن تحرص على هذا الذكر، وهو أن تقول: «**أَعُوذُ بِكَلِمات اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ**»، وهذا الذِكر جاء أيضًا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أذكار المساء، جاء في صحيح مسلم كما أن هذا في مسلمٍ أيضًا، أن رجلًا من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبره أنَّه ما نام ليلته، وذلك أن عقربًا لدغته، فقال له النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَمَا إِنَّكَ لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْت أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرُّكَ شَيء**» يعني لم يضره شيءٌ من أذى هذه العقارب، والحيات وأمثالها.

وجاء عند أحمد وغيره بإسناد صحيح أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَن قَالَ حِينَ يُمسِي، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يُصِبْهُ حُمَّة إلى أن يُصبح**» حُمة: يعني لم يُصبه شيء من ذوات السموم.

فإذا قال الإنسان ذلك، جاء في بعض الأحاديث هذا الذكر مرة، وجاء في بعض الأحاديث هذا الذِكر ثلاث مرات، فيقولها الإنسان حين يُمسي ثلاث مرات، أما ذِكر النزول في مكان ما كما هو في هذا الحديث فإنما جاء ذكره مرةً واحدة.

الشاهد أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن لنا أن الاستعاذة هاهنا إنما كانت بالله جَلَّ وَعَلَا وهذا هو التوحيد، وخلافه شِرك، المسلم يقول: (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ)، والذي يُعيذك -يا عبد الله- من شر المخلوقات، إنما هو الله جَلَّ وَعَلَا.

إذًا الإيمان يقتضي أن تستعيذ بهذا الرب العظيم القدير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا كان ذلك كذلك، كان الاستعاذة بغير الله من شر ما خلق شِركًا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذا الحديث فيه فوائد:

أولًا: أنَّ الاستعاذةَ بصفات الله استعاذةٌ بالله في الحقيقة، كما قال هذا شيخ الإسلام وغيره، وذلك أنَّ هذه الصفات إنما تقوم بالله جَلَّ وَعَلَا فإذا ذُكرت في مقام الاستعاذة، كان المقصود الاستعاذة بالله جَلَّ وَعَلَا.

وقد يُعَبِّر بالصفة والحكم عائدٌ للذات، يعني: حينما يقول الإنسان: إنني أرجو وجه الله بهذا العمل، أو عليك أن ترجوَ وجه الله عَزَّوَجَلَّ، ما المقصود؟ أنك ترجوا الله جَلَّوَعَلَا؛ لأن الله هو الموصوف بالوجه، كذلك إذا استعذت بكلمات الله فإنَّ الاستعاذة عادت في الحقيقة إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الكلمات لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يتكلم، والكلام من صفاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

[ثانيًا]: أن كلمات الله تنقسم إلى قسمين:

كلمات شرعية.

وكلمات كونية.

أما الشرعية: فمنها وحي الله عَزَّوَجَلَّ الذي يُنْزِله على أنبيائه ورسله، ومنه هذا القرآن، ومنه: التوراة، والإنجيل، والزبور، إلى غير ذلك.

وأما كلمات الله الكونية: فهي الكلمات التي بها سبحانه يخلق، وبها يُدبر، وبها يأمر كونًا، وبها ينهى كونًا: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[النحل: ٤٠].

وما كلمات الله في هذا الحديث؟ يعن:ي ما الكلمات التي استعاذ بها النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أهي كلماته الشرعية والكونية كما قالت طائفة؟ أو هي الكلمات الشرعية كما قالت طائفة؟ أو هي الكلمات الكونية كما قالت طائفة؟

الجواب: الأقرب والله أعلم أنَّ ما استعاذ به النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هو كلمات الله الكونية، وهذا الذي حققه شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ في مواضع من كتبه، وكذلك تلميذه ابن القيم في ((شفاء العليل))؛ لأنَّ التأثير في الكونيات راجعٌ إلى كلمات الله الكونية: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[النحل: ٤٠].

فكل ما في هذا الكون فإنه خاضعٌ لتدبير الله عَزَّوَجَلَّ الذي يكون بكلماته الكونية، فكلمات الله الكونية هي التي لا يجاوزها بَرٌ ولا فاجر، فهذا هو الأقرب والله تعالى أعلم.

قال: من قال: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ»، التامات: يعني الكاملات التي لا نقص فيهنَّ ولا عيب بوجهٍ من الوجوه، فكلام الله عَزَّوَجَلَّ كلامٌ كامل، لا يعتريه نقص كما

يعتري كلام الآدميين، إنما كلمات الله عَزَّوَجَلَّ هي الكلمات الكاملات من كل وجه، كما أنها هي الشافيات الكافيات.

﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾: يعني من شر كل ما خلق مما فيه شر، وذلك أن المخلوقات فيها خيرٌ وشر، إلا ما كان خيرًا محضًا كالأنبياء، والملائكة فإنهم لا شر فيهم، أما بقية الناس وبقية البشر فإن فيهم خيرًا وشرًا، وقد يزيد الخير، وقد يزيد الشر.

وليس المقصود أعوذ بكلمات الله التامات من شر كل مخلوق، لوجود استثناء وهو أن من مخلوقات الله ما لا شر فيه.

أيضًا تنبه -رعاك الله- إلى أن الشر ها هنا هو الراجع إلى مخلوق الله ومفعوله، لا إلى خلقه وفعله، وذلك أن الشر ليس إلى الله جَلَّوَعَلَا ليس إلى ذاته، وليس إلى صفاته، وليس إلى فعله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، إنما يكون الشر في مفعوله وفي مخلوقه.

إذًا تنبه -رعاك الله- إلى هذا الأمر الدقيق، فإبليس مثلًا شر، ومن الذي خلقه؟

الله جَلَّوَعَلَا الشر رجع إلى مخلوقٍ له، ومفعوله المنفصل عنه، أما فعل الله الذي قام به، الذي هو الصفة -صفة الخلق- فإنها خيرٌ محض، لا شر فيها بوجهٍ من الوجوه.

خَلْقُ الله لإبليس خير، والمخلوق الذي هو إبليس شر، بمعنى إبليس من حيث هو شر، وفيه شر، أما خلق الله عَزَّوَجَلَّ له فإن هذا خيرٌ محض، ومصلحة كاملة؛ لأنه ترتب على وجود إبليس خير، فكان فعل الله عَزَّوَجَلَّ خيرًا ومحمودًا.

فلما وُجد إبليس، وُجد أشياءٌ كثيرة مما يحبها الله جَلَّوَعَلَا: وُجدت التوبة، وُجد الجهاد، وُجدت المجاهدة، وُجد شيءٌ كثير مما يحبه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فكان إيجاد الله، وخلق الله لإبليس خيرًا، وإن كان إبليس الذي هو المخلوق شرًا.

إذًا تنبه إلى هذه الإلماحة ومحلها مباحث القدر، لكن هذا فقط إيجاز يتعلق بهذه المسألة لمناسبة هذا الحديث لهذا الموضوع.

إذًا الذي فيه الشر ليس هو صفة الله، وليس هو خلق الله الذي هو فعله، إنما الشر في مفعوله ومخلوقه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

١٩

١٩- باب

من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

(المجلس الأول)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بابٌ

من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

فيقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بابٌ من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره**)، هذا الباب باب مهم بل في غاية الأهمية، وذلك أن هذا النوع من الشرك وهو دعاء غير الله أعظمُ شركٍ للمتقدمين وأكثر شرك للمتأخرين، بل قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنه أصل شرك العالم) وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولذلك نجد أن الأدلة التي جاءت في النهي عن دعاء غير الله أعظم بكثير من الأدلة التي نهت عن السجود لغير الله، أو الركوع لغير الله، أو الذبح لغير الله.

هذا النوع من الشرك فيه من الخطورة والانتشار والشبه ما فيه، حيث إن من الناس من يتورع عن أن يذبح لغير الله، أو يسجد لغير الله، ولكنه لا يتورع عن أن يدعو غير الله، شأن هذا الموضوع شأن عظيم، وعلى طالب العلم بل على المسلم أن يعتنيَّ به لكثره الانحراف في هذا الموضوع ولكثرة الشبه التي يطرحها المشركون.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**من الشرك**)، من -كما علمنا سابقًا- تبعيضيه، يعني: من أنواع الشرك أن يستغيث لغير الله.

الاستغاثة: طلب الغوث، الألف والسين والتاء للطلب.

والغوث هو: إزالة الشدة، وبالتالي فالاستغاثة طلب إزالة الشدة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**أو يدعو غيره**)، الدعاء في اللغة هو: الطلب، وخص في العرف بطلب الأدنى من الأعلى.

أمر مع استعلا وضده دعا   وفي التساوي فالتماس وقعا

فدعاء الأدنى للأعلى، أو طلب الأدنى من الأعلى، هذا في العرف يسمى: دعاءً.

والعلاقة بين الدعاء والاستغاثة العموم والخصوص المطلق:

فكل استغاثة دعاء وليس كل دعاء استغاثة، ذلك أن الاستغاثة دعاء مخصوص وهو الدعاء من المكروب، من كان في كرب وشدة فإن دعاءه يسمى: استغاثة، وأما الدعاء فقد يكون من مكروب وقد يكون من غيره.

إذًا هذه العلاقة بين الدعاء والاستغاثة.

وبالتالي فإن عطف المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الدعاء على الاستغاثة هو من باب عطف العام على الخاص، كما جاء من قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾[الحج:٧٧].

الدعاء تكاثرت الأدلة على وجوب إخلاصه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[غافر:١٤]، وهذا هو ديدن وشأن أهل التوحيد: ﴿لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾[الكهف:١٤]، فإذا نزلت النوازل وادلهمت الخطوب على الموحد الصادق في إيمانه، فإنه لا يلجأ إلا لله العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[الأنبياء:٨٣]، نادى ربه ما نادى غيره، ما نادى شجرًا، ولا حجرًا، ولا وليًا، ولا نبيًا، ولا ملكًا، ولا جنيًا، نادى ربه هذا هو التوحيد، بل هذا لب التوحيد، هذا لب العبادة.

ومن توجه بهذه العبادة العظيمة التي هي أعظم العبادات وأفضلها لغير الله جَلَّ وَعَلَا فإنه قد يكون قد وقع في الشرك العظيم، أشرك مع الله وكفر بالله، فإن لم يكن هذا شرك فليس على وجه الأرض، إذا لم يكن دعاء غير الله شركًا، فليس على وجه الأرض شرك.

ولو تأملت -يا رعاك الله- كتاب الله، وسنة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لوجدت الأدلة متظافرة على الأمر بدعاء الله وحده، وعلى النهي عن دعاء غيره، وعلى وصف دعاء غير الله بأنه ضلال، بل شرك وكفر، والأدلة في هذا بالعشرات، لا أقول هذا مبالغة بل الأمر كما أقول وأكثر، دل على ما ذكرته لك من الأمر بالدعاء لله وحده، والنهي عن دعاء غيره، ووصف دعاء غيره بالضلال والشرك والكفر مجموعات من الأدلة، خذ -يا رعاك الله- منها طرفًا:

أولًا: الأدلة التي فيها وصف دعاء غير الله بأنه شرك وكفر باللفظ الصريح الواضح.

ثانيًا: الأدلة التي فيها إثبات أن الدعاء عبادة، وإذا ثبت أنه عبادة كان صرفه لغير الله شركًا.

ثالثًا: الأدلة التي فيها وصف الدعاء بأنه من الدين، والدين العبادة بمعنى فصار صرفه لغير الله شركًا.

رابعًا: الأدلة التي فيها وصف دعاء غير الله بأنه ظلم، وهذا هو الظلم الأكبر: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣].

خامسا: الأدلة التي فيها وصف دعاء غير الله بأنه شطط؛ مبالغة في الضلال والبطلان والكذب.

سادسًا: الأدلة التي فيها وصف دعاء غير الله بأنه ضلال.

سابعًا: الأدلة التي فيها التوعد بالهلاك والعذاب لمن دعا غير الله.

ثامنًا: الأدلة التي فيها الأمر بدعاء الله وحده.

تاسعًا: الأدلة التي فيها النهي عن دعاء غير الله.

عاشرًا: الأدلة التي فيها إثبات أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الجدير بالدعاء، وهو الحقيق بالدعاء وهو الذي لا يليق الدعاء بغيره.

عشرة أنواع من الأدلة تحت كل نوع ما شاء الله من الأدلة.

دعونا نأخذها نوعًا نوعًا:

أولًا: الأدلة التي فيها أن دعاء غير الله شرك وكفر: تأمل -يا رعاك الله- واسمع بقلب طالب للحق يقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[المؤمنون:١١٧]، إذًا من دعا غير الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يكون قد كفر بنص كتاب الله، تأمل قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾[فاطر:١٣].

هذا الوصف ينطبق على من -يا أيها الكرام-؟ من الذي ينطبق عليه وصف: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾؟ من الذي له المُلك الحقيقي، والذي له المِلك الحقيقي؟ أليس هو الله عَزَّوَجَلَّ.

إذًا هذا وصف ينطلق على كل من سوى الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ* إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[فاطر:١٤-١٣]، إذًا أشركتم مع الله إن دعوتم غيره.

تأمل قول الله جَلَّ وَعَلَا : ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾[الرعد:١٤]، تخيل إنسان واقف أمام الوادي يمد يده هكذا، هل سيصل إلى الماء؟ سيشرب؟ لو جلس مائة سنة هكذا ما ينتفع: ﴿وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾، سبحان الله ضلال وكفر وشرك مع عدم نفعه، وما هو ببالغه.

ثم قال: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ﴾، ما هو دعاء الكافرين؟ أهو دعاء الله وحده؟ أم دعاء غير الله مع الله؟ دعاء غير الله مع الله، وصفه الله بأنه دعاء المسلمين؟ وصفه بأنه دعاء المؤمنين؟ لا والله وصفه بأنه دعاء الكافرين.

تأمل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾[الجن:٢٠]، ما المقابل بأن يدعو الله وحده؟ أن يدعو معه غيره وهذا ما وصفه الله بقوله ﴿وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾[الجن:٢٠]، إذًا هو شرك.

تأمل قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾[العنكبوت:٦٥]، إذا ركبوا في السفينة وهاجت بهم، وأصبحوا في كرب ما هو الدين الذي يخلصه المشركون بكل وضوح يدعون الله يا الله يا الله فقط: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[العنكبوت:٦٥]، يشركون في الذي أخلصوه قبل قليل وهو الدعاء، إذًا دعاء غير الله شرك.

ثانيًا: أدلة تدل على أن الدعاء عبادة: وإذا ثبت أن الدعاء عبادة كان صرفه لغير الله شركًا، وإلا فما هو الشرك، إذا لم يكن التوجه به عبادة لغير الله الشرك ما هو الشرك؟ تأمل قول الله جَلَّ وَعَلَا عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة مريم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾[مريم:٤٨]، في هذه الآية ذكر للدعاء،: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾[مريم:٤٨]، انظر، ثلاثة.

ثم في الآية الثانية ماذا قال: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[مريم:٤٩]، إذًا هذه الآية تفسيرها الآية التي قبلها ما هي العبادة؟ الدعاء، ما هو الدعاء العبادة، آية تفسر الأخرى.

تأمل قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾[الأحقاف:٥].

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾[الأحقاف:٦]، ما هي هذه العبادة؟ ما ذُكر قبل قليل وهو الدعاء، أخرج الترمذي والإمام أحمد من حديث النعمان ابن بشير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**الدعاء هو العبادة**»، ثم تلا قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠].

والحديث حديث صحيح، صححه الترمذي، والنووي، والسخاوي، والألباني، وقال ابن حجر: (إسناده جيد).

أترون لفظًا أصرح وأوضح من هذا الحديث فيه إثبات أن الدعاء عبادة؟ أي لفظ أصرح من هذا اللفظ؟ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول بكلام عربي مبين: الدعاء هو العبادة، ليس مخ العبادة حديث أنس فيه ابن لهيعة وهو ضعيف، لكن هذا أوضح وأدل، الدعاء هو العبادة يعني أفضل أنواع العبادة.

فسر هذا ما أخرجه الحاكم في إسناد حسن عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا موقوف عليه، قال: «**أفضل العبادة هو الدعاء**»، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ﴾[غافر:٦٠] الآية.

إذًا ثبت عندنا بالدليل القطعي أن الدعاء عبادة، إذًا من دعا غير الله أشرك، قاعدة مضطردة في الشريعة

ثالثًا: الأدلة التي فيه أن الدعاء من الدين أو أنه دين وهذا وجه الدلالة فيه كوجه الدلالة السابقة فالدين والعبادة شيء واحد: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[العنكبوت:٦٥]، يعني مخلصين له الدعاء هذا الذي يخلصونه في السفينة، إذًا من صرف هذا الدين لغير الله فقد أشرك.

رابعًا: الأدلة التي فيها إثبات أن دعاء غير الله ظلم: ﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[يونس:١٠٦]، الله أكبر، نهيٌّ من الله: لا تدعُ من دون الله من لا ينفعك ولا يضرك، والسؤال: هذا الوصف ينطبق على

من؟ ما رأيكم في الأصنام ينطبق عليها؟ لا تنفع ولا تضر؟ نعم، ما رأيكم في الأشجار والأحجار ينطبق عليها؟ نعم، ما رأيكم بالأولياء والصالحين والأنبياء، والملائكة والجن أينطبق عليها هذا الوصف أيضًا أم لا؟ إي والذي نفسي بيده لا أحد يملك النفع والضار إلا الله جَلَّ وَعَلَا.

ألم نسمع قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث ابن عباس وأعلم يا عبد الله هذا أمر مهم لأبد من أن تعلمه: «**وأعلم أن الأمة اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وأعلم على أنهم لو اجتمعوا على أن يضروك لن يضروك بشيء إلا بشيء قد كتبه الله عليك**»، إذًا الأمر كله من الله وإلى الله.

اعلم إن الأمة ليس صالحًا ولا وليًا ولا بل كل الأولياء، وكل الأنبياء وكل الصالحين، وكل الملائكة، وكل الجن، لو اجتمعوا على أن يوصلوا لك شيئًا من النفع والله ما يوصلوا إلا إذا جعلهم الله مجرد سبب، واسطة، وسيلة فقط لإيصال النفع إليك، لكن النفع في الحقيقة إنما كان ممن يملكه وهو الله جَلَّ وَعَلَا.

إذًا ﴿**وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ**﴾حذار من ذلك لأنك لو فعلت ذلك ما النتيجة؟ ﴿**فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ والظلم ها هنا بدلالة الأدلة الأخرى هو الظلم الأكبر يعني الكفر: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾**[لقمان:١٣]**.

خامسًا: الأدلة التي فيها وصف دعاء غير الله بأنه شطط: ماذا قال مسلمو الجن؟ ﴿**لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا**﴾**[الكهف:١٤]**، قال أهل العلم: أي قولًا بالغًا في الكذب والبطلان، هذا الدعاء لغير الله باطلٌ أشد البطلان، وكذبٌ أشد الكذب.

سادسًا: الأدلة التي فيها وصف دعاء غير الله بأنه ضلال: ﴿**يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ**﴾ **[الحج:١٢]**، انظر حكم الله العليم الحكيم الخبير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ**﴾، فقط الضلال؟ لا، بل و: ﴿**الْبَعِيدُ**﴾ أيضًا، ﴿**ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ**﴾، ليس ضلالًا هينًا ولا ضلالًا كبيرًا ولا ضلالًا يسيرًا، إنما والله هو ضلال بعيد، فجور عظيم، خيبة كبرى أن يدعو الإنسان غير الله، إنا لله وإنا إليه راجعون.

عجيبٌ شأن بعض الناس يلجأ إلى الأموات ويترك رب الأرض والسموات، يا لله العجب! يدعوا ميتًا ربما تقطعت أوصاله وتفتت عظامه لا يملك لنفسه شيء رهين قبره،

ويَدَعُ من بيده ملكوت كل شيء من يدبر الأمر وهو على كل شيء قدير، أي ضلال هذا والله إنه لضلال وصدق الله: بعيد.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾[الأحقاف:٥]، الجواب: لا أحد، هذا أضل الضالين، وأظلم الظالمين وأخبث الخبثاء، لا أحد أضل من هذا الإنسان الذي يَدَعُ دعاء الله وحده ويلجأ إلى غيره، ويستغيث بسواه، ويستجير باسم من عداه.

سابعًا: الأدلة التي توعد الله فيها من دعا غيره بالعذاب والهلاك: ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾[الشعراء:٢١٣]، حذاري! الله يتوعدك بالعذاب.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾[المؤمنون:١١٧]، الله العظيم الجبار الذي ينتقم من أعدائه ينتقم من المجرمين، يقول: حسابه عندي.

ما ظنك بهذا الحساب؟ ما نتيجته؟ هل هناك وعيد أشد من هذا الوعيد حينما يقول الله العليم سبحانه يقول: هذا حسابه عندي، إذًا يا ويله، ويا خسارته ويا خيبته، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما خرج الإمام البخاري من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**من مات وهو يدعو من دون الله ندًا دخل النار**» هذا كلام من يا أيها الإخوان؟ هذا كلام الذي لا ينطق عن الهوى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والله إنه لحق، من مات وهو يدعو من دون الله ندًا؛ النتيجة: دخل النار.

ثامنًا: الأدلة التي فيها الأمر من الله الذي يملك والذي هو ربك وإلهك يأمرك أن تدعوه ولا تدعوا غيره، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾[الجن:٢٠]، ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[غافر:١٤]، هذا أمر من الله قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما عند الترمذي بإسناد صحيح «**إذا سألت فاسأل الله**»، (اسأل) فعل أمر، يجب عليك إذا أردت السؤال أن تتوجه بالسؤال لمن؟ لله وحده، وإذا استعنت فأستعن بالله.

تاسعًا: الأدلة التي فيها النهي عن دعاء غير الله جل وعلا وهذه كثيرة مرت معنا طائفة منها: ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾[الشعراء:٢١٣]، ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا

مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[الجن:١٨]، في أدلة كثيرة، فيها نهي الله عن أن يدعى معه غيره، تأمل في قوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[الجن:١٨]، (أحدًا) نكرة في سياق النهي، والقاعدة عند الأصوليين: أن النكرة في تعم، وبالتالي كلمة أحد ها هنا المنفية يستثنى منها أحد؟ لا يستثنى منها أحد: ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾.

جاءت الآية بإضافة بعد ذلك إلا الأولياء؟ جاءت إلا الأنبياء؟ إلا الجن والملائكة؟ لا والله، ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[الجن:١٨]، حكم فصل لا يقبل الاستثناء عموم محفوظ شامل لكل الأفراد، والأفراد ها هنا هم: كلُّ ما عدا الله جَلَّ وَعَلَا من صغير وكبير، من صالح وطالح، ومن إنس وجن، من حي وميت، كل أحد داخل في قوله تعالى ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[الجن:١٨].

عاشرًا: أدلة فيها إثبات أن الله هو الجدير بالدعاء، وهو الحقيق أن يُدعى لأنه وحده هو الذي يملك إجابة الدعاء، تأمل قول الله جَلَّ وَعَلَا : ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ﴾[النمل:٦٢]، بالله عليكم تعلمون أحدًا سوى الله ينطبق عليه هذا الوصف؟ أتعلمون أحدًا يجيب المضطر إذا دعاءه ويكشف السوء إذا كيف يدعى غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

إذًا الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يستحق أن يجاب، هو الذي يستحق أن يدعى لأنه هو الذي يقدر على الإجابة، وبالتالي فدعاء غيره لا فائدة منه لأنه لا يملك الإجابة هو مملوك نفسه هو بحاجة إلى أن يتولاه الله عَزَّوَجَلَّ فكيف يجيبك وكيف يكشف عنك السوء؟ قال جل وعلا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة:١٨٦]، إني هو الله لا غيره، ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

إذًا الله جَلَّ وَعَلَا هو القريب لمن دعاه وهو القادر على الإجابة، إذًا لما يروم بعض الناس أن يدعو غير الله، أيطلب من هو قريب مثل الله مجيب مثل الله، أيوجد يا عباد الله؟ والله ما يوجد، هو الله وحده لا شريك له.

تأملت -يا رعاك الله-، هذا نزرٌ يسير من الأدلة التي جاءت في هذا الباب، وإلا لو تأملت كتاب الله وسنة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لوجدت مثلها وأضعافها، ولا أقول والله هذا مبالغة تركت جملة من الأدلة سوى هذه رغبة في الاختصار.

إذًا عشرة كاملة وربما أكثر أيضًا من الأنواع كلها متظافرة على إثبات أن الدعاء حق لله من صرفه لغيره فقد اعتدى على حق الله وقع في أمر عظيم.

فإذا إذا كان الأمر كذلك فإن هؤلاء الذي يلهجون بدعاء غير الله ظلموا أنفسهم نصبوا العداء لأنفسهم إي والله إنه لعدو نفسه الذي يوقع نفسه في هذه المهلكة ويعرض نفسه إلى حفرة سحيقة في النار، احذر يا عبد الله، ولا تغتر بكثرة المشركين الذين يزينون الشرك لغير الله عَزَّوَجَلَّ في الدعاء، فإن كل دليل يخالف هذا الأصل الأصيل لا يخلو أن يكون أحد أمرين:

[الأول]:**إما دليل غير صحيح.**

[الثاني]: **أو استدلال غير صحيح.**

مستحيل أن يوجد شيء يخالف هذا الأصل يخرج عن هذين:

١/إما دليل غير صحيح يأتيك فيقول: لا بأس ادعُ ليرى الله لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور**»، هكذا يقولون وهذا الكلام **مكذوبٌ مفترى** على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قبَّح الله من افترى، والله ما قاله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يوجد في شيء من كتب الحديث.

٢/أو تجد استدلالًا غير صحيح يأتي يقول: كيف تنكر دعاء غير الله، والله جل وعلا يقول: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾[القصص:١٥]!

يا لله العجب!! أنا أعجب من شأن الهوى عجيب شأن الهوى في الناس تترك عشرات الأدلة وربما أكثر من عشرات الأدلة ويستمسك بشبهة الاستدلال: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾[القصص:١٥]. يا عبد الله خاف ربك اتقِ الله، أين هذه الآية مما نحن فيه؟ هذه الآية فيها طلب من حي حاضرٍ قادر، وليس هذا ما نبحث فيه هذا استدلال في غير محل النزاع، نحن نتحدث عن أولئك الذين يدعون الأموات، الذين يهتفون باسم الغائبين الذين يطلبون من غير الله ما لا يقدرُ عليه إلا الله، أين هذا من قوله: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾[القصص:١٥]، أهذا هو الذي حصل فيه الخلاف بين أهل التوحيد وأهل الشرك؟ لا والله ما هو إلا إتباع الهوى، لكن: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾[المائدة:٤١].

عجيب! والله إن تأمل الإنسان حال بعض الناس ينتسبون إلى الإسلام ولربما عندهم سبحة طويلة يقولون في اليوم مائة أو ألف لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، لكنهم مع الأسف الشديد يقعون في دعاء غير الله عند الصغير وعند الكبير، عن الأمر المهم وغير المهم، ربما لو سقط كوب من يد أحدك قال: يا سيدي فلان وهذا والله كثير في كلامهم ونثرهم، وشعرهم، بل أعظم ما يكونون شركًا وهذا حال المتأخرين، أعظم ما يكونون شركًا إذا نزلت النوازل.

وهذا يدلك حقًا وصدقًا على أن مشركين زماننا أغلظ شركًا من شرك الأولون، الأولون إذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين، ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[يونس:٢٢]، أما هؤلاء إذا نزلت النوازل ما يعرفون الله يخلصون إن صحت العبارة الشرك، يخلصون الشرك يعني: لا يقولون إلا الشرك.

مر معنا في دروس سابقة إن كنتم تذكرون، ما وقع لأحد العلماء لما كان مع بعض الناس في سفينة فهاجت بهم فصاروا يصيحون ادعو غير الله، يا عمود الدين يا عمود الدين فلما قال لهم: ادعوا الله هموا به حتى كادوا أن يلقوه من السفينة، كيف تقول لا ندعو إلا الله؟ انظر إلى تعظيمهم ألهتهم أكثر من تعظيم الله جَلَّوَعَلَا!

تذكرون قصة المرأة التي ذكرها الشيخ رشيد رضا حينما كانت تقول: يا متبول يا متبول، قال: لم لا تدعين الله؟ قالت: لأن المتبول لا ينتظر؛ أو بعبارتها كما ذكرها الرشيد رضا: "المتبول ما يستناش!".

تذكر كلام الألوسي الذي ذكره في تفسيره حينما قال له أحد المعممين: إذا نزلت بك نازلة فإياك أن تدعوا الله، لا إله إلا الله ما أعظم هذه الكلمة، إياك أن تدعوا الله فإن الله لا يبالي بك! والله يا إخواني في تفسير الألوسي اقرؤوها ولكن عليك بالأولياء فأدعهم فإنهم يبادرون إلى إجابتك.

والله إن هذا ما وقع فيه أبو جهل ولا أبو لهب، أو بجهل وأبو لهب كانوا يقولون: هؤلاء شفعائنا عند الله ما ندعوهم إلا ليقربونا إيش؟ إلى الله زلفًا، لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك، أما هؤلاء لا والله.

شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((الرد على البكري)) ذكر أن التتار لما هجموا على الشام ما كان من هؤلاء الذي ما فهموا الإسلام إلا أن صاحوا:

يا خائفين من التتار لوذوا بقبر أبي عمر، ليس بالله، لوذوا بقبر أبي عمر، أو قالوا:

عوذوا بقبر أبي عمر ينجيكم من التتار.

ولذلك حصلت الهزيمة لكن لما عرفوا التوحيد انتصر المسلمون.

ذكر مرعي الحنبلي في ((نزهة النواظر)) أن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان مع الناصر هارون الحاكم في ذلك الزمان كان معه وأشتد الأمر لما هجم التتار على المسلمين فصاح: "يا خالد ابن الوليد"، فنهره شيخ الإسلام، وقال: قل يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين، يقول: ثم انتصر المسلمون لما كان التوحيد، رجعت القلوب إلى الله، يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين، انتصر المسلمون.

فيا أيها الإخوة شأن هذا الشرك في الأمة والله كثير، كثير من الأمة فيه، ويا عبد الله يا من بصرك الله بدينه بتوحيده بالحق الخالص عليك أن تدعوا الله وتبين، كثير من الناس يلهجون لأنه زين لهم هذا الباطل، هناك شياطين للإنس يزينون للناس هذا الشر والفساد تجده يلهج، يطرب، يغني ويتغنى، يقول مخاطبًا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

ما سامني الدهر ضيمًا واستجرت به   إلا ونلت جوار منه لم يضم

ليس لله ولكن لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في أي دهر أصيب بشيء من الضيق يجد أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي يجيبه وليس الله، بل وصل الأمر بهم إلى أن يطلبوا من غير الله تثقيل الموازين وغفران الذنوب، إي والله، يقول أحدهم:

يا رسول الله يا بهجة   في الحشر جاهًا ومقامًا

عد على عبد الرحيم الملتجي   بحمى عزك يا غوث اليتامى

وأجرني عثرتي يا سيدي في   اكتساب الذنب في خمسين عامًا

يطلب غفران الذنوب من من؟ من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كلام موجود ومكتوب ويحفظه الناس ويعتقدونه أيضًا.

والآخر يقول مُخاطبًا البدوي:

إني دعوتك يا أبا الفتيان من ... خطب أهاج القلب من حسراته

ما يعرف أحد يطلبه في كشف هذه الكربة.

ما لي سواك أرومه في كشفه ... أو أرتجي إن ضقت من وثباته

عارٌ عليك إذا ترد خويدمًا ... قصر الفؤاد عليك في حاجته

ما يعرف إلا البدوي، الله لا يعرفه أبدًا، ولا يدعوه أبدًا.

وإلى المعاصرين تجد من الناس من يلهج في أبيات مشهورة لمعاصرين لشعراء مشهورين، تجده يقول يتغنى ويطرب مع أن فيها شركًا بالله عَزَّوَجَلَّ، مساكين حق الله صرفوه لغيره، تجدهم ينشدون ما جئت بابك، يخاطب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

ما جِئتُ بابَكَ مادِحًا بَل داعِيًا ... وَمِنَ المَديحِ تَضَرُّعٌ وَدُعاءُ

أَدعوكَ عَن قَومي الضِعافِ لِأَزمَةٍ ... في مِثلِها يُلقى عَلَيكَ رَجاءُ

لا يُلقى على الله، يُلقى على من؟ يُلقى على غير الله، إنا لله وإن لله راجعون.

ويا أيها الأحبة الأمر عظيم والمقام خطير، والمسألة ليست متعلقة بدينار أو درهم أو شاة، أو بعير، إنما جنة أو نار، ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾[الشعراء:٢١٣]، ضع هذه الآية نصب عينيك .

٢٠

٢٠- بابٌ

من الشرك أن يستغيث بغير اللّٰه أو يدعو غيره

(المجلس الثاني)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بابٌ

من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

وقول الله تعالى: ﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ * وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾

[يونس: ١٠٦ -١٠٧] الآية.

فلا يزال حديثنا مُتْصِلًا بباب من الشرك الاستغاثة بغير الله أو أن يستغيث بغير الله،أو أن يدعو غيره، وقد تكلمنا في الدرس الماضي عن حكم دعاء غير الله عَزَّوَجَلَّ على جهة التفصيل، وتبين لنا بما لا شك فيه أن دعاء غير الله جَلَّوَعَلَا شركٌ أكبر، وأن هذا من أوضح ما يكون دِلالةً في الكتاب والسنة، وأن الأدلة على ذلك كثيرةٌ جدًا، كما تبين لنا أن الشرك في الدعاء يكون كذلك في ثلاث صور وهي:

١/ أن يدعو ميتًا.

٢/ أو يدعو حيًا غائبًا.

٣/ أو يدعو حيًا حاضرًا فيما لا يقدر عليه إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

ووجه كون هذه الصور شركًا هو:

[الأمر الأول]: أن التوجه بالدعاء في هذه الحالات الثلاث فيه صرف لبِّ العبادة لغير الله، وهو الدعاء، وقد تبين لنا بالدليل القطعي أنه عبادة، ناهيك عمَّا يلتحق بذلك من أنواعٍ من العبوديات؛ كالرغبة، والرجاء، والقصد، والتوكل، والتذلل، والخضوع، وما إلى ذلك، كل ذلك يصحب دعاء الداعي فيصرفه إلى هذا المدعو، وهذه ظلمات بعضها فوق بعض، وهذا ينبهك إلى أن الشرك بالله في الدعاء هو حقًا شركٌ به في الألوهية.

[الأمر الثاني]: وهو أن الدعاء في الحالات السالفة فيه اعتقاد الداعي أن المدعو عنده سلطان غيبي، وعنده قدرةٌ فوق قدرة المخلوقين، وأنه يستطيع أن يوصل النفع، أو يدفع الضر لمن يريد دون أن يكون ذلك بالأسباب المعهودة عند البشر، وهذا ما لا يكون إلا من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فعاد الشرك في الدعاء إلى الشرك في الربوبية أيضًا.

[الأمر الثالث]: يتعلق بالصورة الأولى والثانية، وهي أن الداعي اعتقد أن عند المدعو سمعًا عامًا، وعلمًا شاملًا بحيث إنه يعلم حال هذا الداعي، ويسمى دعاءه، وإلا لما دعاه من مكانٍ بعيد، ولما هتف باسمه مع البعد، فهذا يدلك أيضًا على أن الشرك في الدعاء يتضمن الشرك في باب الأسماء والصفات.

إذن يتبين لنا حقًا أن أعظم أنواع الشرك هو الشرك في الدعاء؛ لأنه يشتمل على أنواع الشرك الثلاثة:

١/ الشرك في الألوهية.

٢/ الشرك في الربوبية.

٣/ الشرك في الأسماء والصفات.

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب أربع آياتٍ وحديثًا.

أما الآية الأولى فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ * وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[يونس: ١٠٦-١٠٧].

هذه الآية تدل على أن دعاء غير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ شرك به جَلَّوَعَلَا، وذلك لأن فيها التصريح بأن الله جَلَّوَعَلَا بيده كل شيء، ويدل على هذا قوله:

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾[يونس:١٠٧]، فدل هذا على أن الدعاء حق لله عَزَّوَجَلَّ لا يجوز صرفه لغيره، وأن دعاء غيره سفه، فإن الداعي لا يدعو إلا لأنه اعتقد أن المدعو ينفعه، ويجلب له الخير، ويدفع عنه الضر، وإلا لما دعاه، والله جَلَّوَعَلَا هو الذي بيده كل شيء، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الذي يُنْعِمُ بالخير، وهو الذي يدفع الشر، وهو الذي يقدر الخير، وهو الذي يقدر الشر: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾[يونس:١٠٧] إذن لأي شيءٍ يدعو الداعي غير الله؟ والله هو الذي قدَّر الشر، وهو أيضًا الذي يقدر على أن يدفعه.

فتعين إذن أن يكون الدعاء لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا لغيره، وبهذا يتضح لك أن دعاء غير الله مهما كان المدعو صنمًا أو حجرًا، أو نبيًا أو وليًا أو ملكًا، كل أولئك دعائهم ضلال

وانحراف، ولا ينفع الإنسان في شيء؛ لأن الله جَلَّوَعَلَا هو المتصرف بكل شيء، ولذلك دعوة غيره ضلال وسفه، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾[الرعد:١٤]، الدعاء الحق إنما هو لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾[الرعد:١٤].

فدل هذا على أن من يدعو غير الله عَزَّوَجَلَّ قد أفسد دينه، وما استفاد شيئًا؛ لأنه يدعو دعاء لا يعود عليه بالنفع، هل هذا الذي دعوته من دون الله عَزَّوَجَلَّ بيده شيء؟ ليس بيده شيء، فما الفائدة إذن أن تدعوه؟ الله جَلَّوَعَلَا الأمر منه وإليه، وهو الذي بيده مقاليد كل شيء، وهو الذي يدبر الأمر جَلَّوَعَلَا، وكل ما سواه فإنه لا ينفع ولا يضر، إنما قد تكون المخلوقات أسبابًا يسخرها الله في جلب الخير أو دفع الضر أو العكس، لكن ذلك يدل على أن هؤلاء إنما هم أسباب لا غير، وأن الأمر من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وحده.

والله جَلَّوَعَلَا بين هذا المعنى في آياتٍ كثيرة، وكذا نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ومر معنا في الدرس الماضي قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إذا سألت فأسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت**» ليس نبيًا ولا وليًا، ولا نبي ولا أنبياء ولا أولياء، إنما الأمة جميعًا: «**لو اجتمعت على أن ينفعوك شيء لم ينفعوك بشيء إلا بشيءٍ قد كتبه الله، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك**».

إذن الأمر من الله وإلى الله، فالتوجه له جَلَّوَعَلَا بالدعاء هو المتعين على كل مخلوق.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ:

وقوله: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾[العنكبوت: ١٧].

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[العنكبوت: ١٧].

﴿فَابْتَغُوا﴾ فعل أمر، والابتغاء يعني: أن يُلجأ ويُرجى ويُطلب الرزق، إنما ينبغي أن يكون هذا من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ومن الابتغاء الطلب بالدعاء، فيكون طلب الرزق، وسؤاله إنما مرجعه إلى الله جَلَّوَعَلَا، ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ ومعلوم أن أكثر دعاء الداعين إنما هو في شأن الرزق، بل جُلُّ دعاء المشركين الأولين إنما يتعلق بهذا الأمر، فإنهم كانوا يكفرون

بالآخرة، ولا يؤمنون بالبعث، ولذلك دعاؤهم الذي يتوجهون به لله ولغيره إنما يتعلق بالأمور الدنيوية.

الشاهد أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقول: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ﴾ ولاحظ أنه قد قدم ها هنا الظرف، وتقديم الظرف وحقه التأخير يفيد الحصر والاختصاص كأنه قال: فابتغوا الرزق عند الله لا عند غيره، فالله جَلَّوَعَلَا هو الذي ينبغي أن يتوجه إليه، وأن يُسأل، وأن يطلب وحده لا شريك له.

﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ و(أل) ها هنا لما دخلت على هذه الكلمة المفردة، وهي لغير العهد أفادت العموم، فالمفرد المحلى بـ (أل) يفيد العموم.

فالرزق أيًا كان هو عند الله جَلَّوَعَلَا صغيرًا كان أم كبيرًا، قليلًا كان أم كثيرًا، لا يجوز أن يُطلب إلا من عند الله جَلَّوَعَلَا، لأنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الذي بيده الرزق، ومن الذي يرزق غير الله؟ ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[النمل:٦٤]، هذا استفهامٌ إنكاري يفيد إنكار اعتقاد أن يكون الرزق عند غير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[النمل:٦٤].

فدل هذا على أن الدعاء بالرزق يجب أن يكون لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا لغيره، وإذا كان ذلك في شأن الرزق، فهو في غيره أيضًا يعني أن لا يُطلب الدعاء إلا من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في أمور الدنيا أو في أمور الآخرة.

قال:﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ ووجه العطف ها هنا عطف العبادة على الابتغاء الذي يتضمن الدعاء من باب عطف العام على الخاص، فإن الابتغاء والدعاء فردٌ من أفراد العبادة، فيكون من باب عطف العام على الخاص، وبالتالي لا ينبغي أن يستشكل كون الله جَلَّوَعَلَا ذكر العبادة بعد ابتغاء الرزق فإن هذا -كما ذكرت لك- من باب عطف العام على الخاص.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف: ٥]، الآيتين.

هذه الآية من أعظم الآيات في الدلالة على أن دعاء غير الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ شرك، وأنه أمرٌ محرم منهي عنه، وأن الدعاء من حيث هو عبادة، ويدل على هذا وجوه في الآية:

أولًا: فقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ﴾[الأحقاف: ٥]، والاستفهام ها هنا استفهامٌ إنكاري، وذلك أدل على النفي من النفي المجرد، فإنَّ النفي المستفاد من الاستفهام الإنكاري مشوبٌ بنوعٍ من التحدي، من ذا الذي يجرأ على أن يقول إن هناك أضل ممن يدعو غير الله.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ﴾[الأحقاف: ٥].

إذن هذه الآية تفيد أن أضل الناس هم الذين يدعون غير الله، هذا أعظم درجات الضلال أن يوجه الإنسان الدعاء وما يصحبه من العبوديات لغير الله جَلَّوَعَلَا ، إذن هو أعظم أنواع الشرك: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ﴾[الأحقاف: ٥].

[ثانيًا]: أن دعاء غير الله شرك لأنه جعل هذا الدعاء ظلمًا، والظلم ها هنا قطعًا هو الأكبر: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣]، ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[البقرة:٢٥٤].

فقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ هذا دليل على أن دعاء غير الله عَزَّوَجَلَّ شرك: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ﴾[الأحقاف: ٥]، في قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ﴾[الأحقاف: ٥] هذا دليل على أن دعاء غير الله ضلال عظيم بل لا أضل ممن يدعو غير الله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾[الأحقاف: ٥].

[ثالثًا]: وهي قوله: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يومِ الْقِيَامَةِ﴾[الأحقاف: ٥]

وهذا فيه: ١/ رد على القبوريين الذين يزعمون أن شرك الدعاء إنما هو ما توجه به صاحبه للأصنام والأحجار والأشجار فحسب، أما الأنبياء والصالحون فلا، هكذا يزعمون، هذا هو الشرك الذي كان من المشركين الأولين فلأجل هذا تتنزل الآيات والأدلة عليه.

وليس بصحيح أن عبادة المشركين الأولين إنما تعلقت بالأصنام فقط، بل الذين بعث فيهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ منهم من كان يعبد شجرًا، ومنهم من كان يعبد حجرًا، ومنهم من كان يعبد جنًا، ومنهم من كان يعبد نبيًا، ومنهم من كان يعبد صالحين.

٢/ أنه قال ها هنا: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾[الأحقاف: ٥]، و (من) كما يقرر النحاة إنما تستعمل فيمن يعقل، أو في العاقل، والأسلم أن تقول: فيمن يعلم، وبالتالي الأصنام لا يُقال في حقهم (من)، إنما يقال في حقهم (ما)، لكنه قال ها هنا من قال: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يومِ الْقِيَامَةِ﴾[الأحقاف: ٥] وهذه قرينة أخرى، جعل الأمر مُغَيًّا إلى يوم القيامة حيث يبعث الناس يوم القيامة.

وهذا يشير إلى أن هذه الآية إنما تعلقت بمن كان حيًا في الدنيا، لكنَّه توفي ومات فهي في شأن دعاء الأموات من الأنبياء والأولياء والصالحين: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يومِ الْقِيَامَةِ﴾[الأحقاف: ٥].

ثم قال: ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾[الأحقاف: ٥]، وهذه الكلمة (غافلون) إنما تناسب أن تقال في حق الناس والبشر، لا في حق الجمادات، أن يُقال في حقها هذه الشجرة غافلة أو هذا الصنم، أو هذا الحجر غافل، هذا لا يتأتى ولا يُعرف في أساليب العرب، إنما الغفلة تتعلق بالناس والأحياء، وهؤلاء الأموات هم في قبورهم أحياءٌ حياة خاصة هي حياة برزخية، ليست من جنس الحياة الدنيوية، لها حقيقةٌ الله أعلم بها، وهم في هذه الحياة غافلون عمن يدعوهم؛ لأنَّهم بين اشتغالٍ بنعيم القبر، أو اشتغالٍ بعذاب القبر فهم عن دعائهم غافلون.

ثم يوم القيامة يكون شأن، قال: ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

أولًا: قوله: ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ يدلك على أنَّ الدعاء عبادة، والقاعدة: أن ما ثبت أنه عبادة كان صرفه لغير الله شركًا.

إذن هذا دليلٌ آخر على أن دعاء غير الله شرك.

[ثانيًا]: وقوله: ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾[الأحقاف:٦]، هذا يدلك على أن الدعاء في هذه الآية إنما تعلق بالأولياء والصالحين؛ لأنهم هم الذين يتأتى منهم أن يكفروا بماذا؟ بعبادة من دعاهم أليس كذلك؟ وبالتالي تعلقت الآية بدعاء الأولياء والصالحين، فأين في هؤلاء الذين يتوجهون إلى القبور وأهلها؟ أين فيهم عقولهم وأين فيهم قلوبهم حتى تعقل هذه البينة الواضحة؟

﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾[الأحقاف:٦] يعني: أن المدعوين هؤلاء الأولياء والصالحين يوم القيامة سوف يكفرون بهذه العبادة ويبرأون إلى الله عَزَّوَجَلَّ منها ومن عابديها: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[فاطر:١٤]، ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[مريم:٨١-٨٢].

فدل هذا على أن المدعوين سوف يكفرون بهذه العبادة، ويبروؤن إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ منها يوم القيامة.

والآية تحتمل معنى آخر وهو قولٌ ثانٍ في الآية: أن هؤلاء الداعين سوف يبرؤون من عبادتهم يوم القيامة، ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ﴾[الأحقاف:٦] يعني: الداعين كانوا بدعائهم هذا وبالعبادة التي توجهوا بها لغير الله وهي ها هنا الدعاء سوف يكفرون بها ويبرؤون منها، وهذا منهم كذب حيث إنهم سيقولون يوم القيامة: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[الأنعام:٢٣-٢٤].

فسيكذبون يوم القيامة ويتبرأون من هذه العبادة، وإن كان الوجه الأول هو الأولى والأظهر في هذه الآية، والله جَلَّوَعَلَا أعلم.

الشاهد أن هذه الآية دليل صريح على أن الدعاء يجب أن يُصرف لله، وأن دعاء غير الله شركٌ به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[النمل: ٦٢]الآية.

هذه الآية العظيمة ضمن آياتٍ عظيمات في سورة النمل من أحسن الآيات وأعظمها في بيات التوحيد، ونقض ضده: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[النمل:٥٩].

يقول الله جَلَّوَعَلَا في هذه الآية: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾[النمل:٦٢].

انظر إلى هذا الاستفهام الإنكاري: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ ولاحظ أن (إله) ها هنا نكرة في سياق الاستفهام الاستنكاري، فتعم كل إلهه، لا إله مع الله البتة مهما كان هذا الإله، والإله هو المعبود هذا الذي تعرفه العرب في لغتها، فلا معبود مع الله البتة ولو كان نبيًا، ولو كان وليًا صالحًا، ولو كان من كان لا إله مع الله ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ أنتم تقرون أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه.

إذن هذا يدل على أن هذا الدعاء لغير الله سفه وضلال، فلأي شيءٍ يُدْعى غير الله، وهو -أعني غير الله- لا يملك كشف هذا الضر لماذا يدعى مع الله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾[النمل:٦٢] لا أحد يجيب المضطر إذا دعاه البتة إلا الله، فهذا من خصائص الربوبية، والربوبية شيءٌ اختصَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به، لا يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء إلا هو سبحانه.

ولذلك تأمل معي في هذه الآيات: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾[النمل:٥٩-٦٠]، ثم قال: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[النمل:٦٠]، ثم قال: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[النمل:٦١-٦٢].

لاحظ معي كيف أن الله جَلَّ وَعَلَا جعل كونه يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء في السياق نفسه الذي بين فيه أنه هو الذي خلق السماوات والأرض، وأنه هو الذي ينزل من السماء ماء، وأنه هو الذي يجعل الأرض قرارا ويجعل خلالها أنهارًا إلى آخره.

إذن هذا يدل على أن كل ما ذكر من هذا السياق هو من خصائص الربوبية.

فدل هذا على أنه لا يجوز أن يجعل لغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ومن اعتقد أن غير الله جَلَّ وَعَلَا يكشف السوء، ويجيب المضطر إذا دعاه على أي حال لا شك أن من اعتقد ذلك فقد أشرك في الربوبية كما أن من دعا غير الله عَزَّوَجَلَّ فقد أشرك في الألوهية، وهذا دليلٌ بين كما أسلفت على أن الشرك في الدعاء أعظم أنواع الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا.

ويا لله العجب!! من أولئك القبوريين الذين يزعمون أن معبوديهم يقدرون على كل ما يقدر عليه الله، ويفعلون كل ما يفعله الله، هكذا ينصون في كتبهم فلان من الأنبياء، أو من الأولياء يعلم ما يعلمه الله، ويقدر على ما يقدر عليه الله، ويفعل كل ما يفعله الله، لا فرق عند هؤلاء بين أن تتوجه بدعائك إلى الله، أو أن تتوجه إلى غيره، بل إن حالهم يفصح عن أنهم في الأمور السهلة يدعون الله، لكنهم في الشدائد والصعاب يدعون غير الله فثقتهم بغير الله أعظم من ثقتهم بالله.

وهذا يؤكد ما تكرر في دروس سالفة أن شرك المتأخرين أعظم وأغلظ من شرك المتقدمين، هؤلاء المتقدمون يخاطبهم الله عَزَّوَجَلَّ ويلزمهم بما يعتقدون، أو كانوا يعتقدون، أبو جهل، وأبو لهب، وعتبة، وشيبة، وأمية، وأبي كانوا يعتقدون أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.

ولذلك ذكر هذا الاستفهام التقريري: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[النمل:٦٢] ثم يعود عليهم بهذا الاستفهام ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾.

فهذا يدلك على أنهم كانوا يعتقدون أن الذي يكشف السوء هو الله، ولذا كانوا يوحدون في الدعاء عند الشدائد ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[العنكبوت:٦٥].

أما المتأخرون فإنهم يمحضون الشرك، بمعنى أنهم لا يدعون الله البتة في الشدائد، إنما يدعون هؤلاء الأولياء الذين اعتقدوا فيهم وتوجهوا إليهم، يتوجهون لهم بالدعاء فقط،

وينسون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فشركهم أغلظ من شرك المتقدمين، كما أن المتقدمين كان شركهم متعلقًا بموضوع الشفاعة، وأن يكون هذا المعبود مقربًا لهذا العابد عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا أنه يرزق، ولا أنه يخلق، ولا أنه يدبر، كانوا يعتقدون أن هذه من خصائص الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يشركه فيها غيره، فأين هذه الحال من حال هؤلاء المتأخرين الذين حالهم كما وصفت لك؟ قالوه بلسان حالهم بل بلسان مقالهم، إن هذا الولي وإن هذا النبي يعلم ما يعلمه الله، ويقدر على ما يقدر عليه الله، فشركهم أغلظ من وجوه عدة –نسأل الله السلامة والعافية–.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وروي الطبراني بإسناده؛ أنه كان في زمن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ منافقٌ يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من هذا المنافق، فقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله عَزَّوَجَلَّ».

هذا الحديث حديث عبادة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ خرجه الطبراني وأحمد وغيرهما، وهو حديثٌ ضعيف، فإنَّه يدور على ابن لهيعة وهو ضعيف على قول جمهور أهل العلم كما أن في بعض أسانيده جهالة، الراوي عن عبادة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ كما عند أحمد مجهول، فالحديث الظاهر والله أعلم أنَّه ضعيف ولا يصح عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

ولكن إيراد المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ لهذا الحديث في كتابه جارٍ على جادة أهل العلم التي اتفقوا عليها، وهي أنهم يوردون على سبيل الاستشهاد والاعتضاد ما لا يصلح للاعتماد، انتبه إلى هذه القاعدة.

نقل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ في ((رده على البكري)) المعروف بكتاب: ((الاستغاثة))، نص على أن العلماء يوردون ما يصلح للاستشهاد والاعتضاد لا ما يصلح للاعتماد، يوردونه على سبيل الاستشهاد والاعتضاد وإن كانوا لا يعتمدون عليه.

وهذا الحديث أورده المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ بعد أن أورد أدلة صريحة، والأدلة سوى ما ذكر كثيرة جدًا في الكتاب والسنة، فكان ذلك على سبيل الاعتضاد والاستشهاد، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ : (فما يورد على سبيل الاعتماد لون أو نوع، وما يورد على سبيل الاستشهاد والاعتضاد نوعٌ آخر)، فهذا فقط من باب تكثير الأدلة.

وذكر ما يشهد ويَعْضُد ما دلت عليه الأدلة الصحيحة الراسخة، لاسيما وأن هذا الحديث ضعفه يسير، ابن لهيعة ليس بشديد الضعف، فضلًا عن أن يكون كذابًا، بل كان من أهل العلم، بل كان قاضيًا، لكن حصل له اختلاط، فمثل هذه الرواية التي يرويها لا شك أنها تؤيد وتعضد ما قامت عليه الأدلة الراسخة في الدلالة على أن دعاء غير الله عَزَّوَجَلَّ شرك، ولعل حرص المؤلف على إيراد هذا الحديث لأن فيه ذكر كلمةٍ عزيزة في الأدلة وهي: الاستغاثة.

و في هذا الحديث فوائد أيضًا كما سيأتي الكلام على ذلك.

وعلى كل حال تتبع كتاب التوحيد يدل على أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يبني بابًا على حديثٍ ضعيف قط، إنما -كما ذكرت في الدرس الأول أن- أحاديث هذا الكتاب أحاديث جياد صحاح إلا أحاديث معدودة، نزه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه عن حديثٍ موضوع أو متفق على ضعفه.

وأمر آخر: أنه ما بنى كتابه على حديث ضعيف، إنما يورده على سبيل الاستشهاد والاعتضاد، وهذه -كما علمت- جادة مسلوكة، بل نقل شيخ الإسلام الاتفاق اتفاق العلماء عليها، وهي أنهم يردون مثل هذه الأحاديث التي ضعفها يسير من باب الاستشهاد، بل قد يوردون ما ليس بحديث ضعيف، بل ما هو أقل من ذلك، وشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تكلم بكلامٍ طويل على هذا الحديث بحدود، أو في أكثر من خمسين صفحة في كتابه ((الرد على البكري)).

الشاهد أن هذا الحديث إن صح فيه أن بعض أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وجاء في بعض الروايات أن القائل هو أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قوموا بنا نستغيث برسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وذلك في شأن منافق كان يؤذي المؤمنين جاء في رواية ابن أبي حاتم في تفسيره أنه عبد الله بن أبي المنافق فلما ذهبوا إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال لهم: «**إنه لا يستغاث بي إنما يُستغاث بالله**» فأرشدهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى ترك الاستغاثة بالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يعني به، وأرشدهم إلى الاستغاثة بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وهذا الكلام منه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيه توجيهان عند أهل العلم.

[الوجه الأول]: المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكبار شراح كتاب التوحيد على أن قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله»** كان منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سبيل الإرشاد إلى الأكمل، وإلى تحقيق مقام الأدب مع الله، وإلى سد ذريعة الشرك بالله، وإلا فطلبهم إنما كان بشيءٍ يقدر عليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو حيٌّ قادر على أن يدفع أذى هذا المنافق بقتلٍ أو تعذيرٍ أو تأديب، فمع كونه قادرًا على ذلك لكنه أرشدهم إلى الأكمل والأفضل والقول المحقق لمقام الأدب مع الله، وهو أنهم يستغيثون بالله جَلَّ وَعَلَا يجعلون كل رغبتهم إلى الله: ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾[القلم:٣٢].

وبناء على هذا يتضح لنا وجه الجمع بين هذا الحديث إن صح مع قول الله جَلَّ وَعَلَا : ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾[القصص:١٥].

وكذلك ما ثبت في الصحيح من استغاثة الناس يوم القيامة بالأنبياء آدم فنوح إلى آخره، فتلك النصوص تدل على أنه يجوز الاستغاثة بالحي القادر، وأن ترك ذلك أكمل كما يفيده هذا الحديث إن صح.

الوجه الثاني: في توجيه الحديث وهو ما نحى إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو أنهم استغاثوا بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شيءٍ لم يكن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قادرًا على أن يجيبهم إليه، فبالتالي وجههم إلى أن يستغيثوا بالله جَلَّ وَعَلَا، نبههم إلى أن لا يستغيثوا به، إنما يجعلوا استغاثتهم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وذلك:

١/ إما لكونه كان مأمورًا أن يأخذ المنافقين بالظاهر، ولم يتبين له خلاف ذلك.

٢/أو خشية من وقوع المفسدة: **«لا يتحدث أن محمدًا يقتل أصحابه»**، أو غير ذلك.

وبناء على هذا فنهيهم عن الاستغاثة به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه يعني جارٍ على القاعدة التي سلفت أن الاستغاثة إنما يجب أن تكون بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا بغيره فيما لا يقدر عليه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والله تعالى أعلم.

٢١

٢١- بابٌ

قول الله تعالى:

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب

قول الله تعالى:

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۞ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾

[الأعراف:١٩١-١٩٢] الآية.

فقد عقد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب بعد الكلام عن أنواع مما يقدح بالتوحيد، أو ينقضه وأحسن ما شاء الله أن يحسن في هذا الترتيب؛ حيث إن هذا الباب وما بعده فيهما دلالة شرعية عقلية على حسن التوحيد وقبح الشرك، والأدلة على التوحيد وتحريم الشرك تنقسم إلى أدلة شرعية، وإلى أدلة شرعية عقلية.

ومن المهم لطالب العلم في مقام الدعوة إلى الله جَلَّوَعَلَا وبيان حقيقته، والتحذير من ضده، أن ينوع في الأدلة فيسوق ألوانًا وأنواعًا من الاستدلالات لعل الله جَلَّوَعَلَا أن يجعل هذا سببًا في هداية من شاء الله هدايته، لربما كان نوعًا منها هو المؤثر في السامع فتكون الهداية بإذن الله جَلَّوَعَلَا.

الأدلة الشرعية العقلية كثيرة تضمنها كتاب الله وسنه رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ منها:

الاستدلال على توحيد ربنا في العبادة من خلال تقرير توحيد الربوبية بما أنه الرب إذًا هو الإله.

ومن ذلك أيضًا: الاستدلال بكمال الله جَلَّوَعَلَا بما أن الله له الكمال المطلق في أسماءه وصفاته، إذًا هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

ومن ذلك: ضرب الأمثال وهي أعني الأمثال أقيسة عقلية تهدي الناظر فيها إلى الحق، والقرآن قد كثر فيه ضرب الأمثال على موضوع التوحيد وخطر الشرك.

ومن ذلك أيضًا: الاستدلال بنقص معبودات المشركين وآلهتهم وأنها ناقصة عاجزة لا تملك لنفسها فضلًا عن غيرها نفعًا ولا ضرًا، إذًا لا تستحق العبادة في بدائهي العقول.

وهذا مسلك مهم ينبغي أن يتنبه له الداعية إلى التوحيد، وهذا ما أراده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ التنبيه عليه في هذا الباب أن كل ما يُعبد من دون الله جَلَّوَعَلَا فإنه عاجز ناقص فلأي شيء

يعبد: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ﴾[النحل:١٧]، ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾[المائدة:٧٥]، هذه الجملة كافية في إسقاط الإشراك بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأمه يكفي أن تعلم يا أيها الإنسان أنه ما كان يأكلان الطعام وإذا كانا كذلك فهما محتاجان والمحتاج لا يكون إلهًا ولا يكون ربًا.

ومن ذلك قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾[الحج:٧٣]، الله يأمرنا، ويأمر جميع الناس بالاستماع إلى هذا المثل العظيم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[الحج:٧٣].

ما قدروا الله حق قدره إي والله، ما قدروا الله حق قدره حينما عدلوا غير الله عَزَّوَجَلَّ وسووا غير الله مع الله، حينما ما أخلصوا العبادة لله فدعوا غيره ولجأوا لسواه، ما قدروا الله حق قدره، ولو قدروا الله حق قدره هؤلاء المشركون ما أشركوا مع الله غيره.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب: قول الله تعالى:﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ الآية.

هذه آية عظيمة فيها بيان بطلان الشرك وأن التعلق بغير الله عَزَّوَجَلَّ ضلال وسفه، انظر إلى حال كل من سوى الله جَلَّ وَعَلَا تجده متصفًا بهذه الصفات الأربعة:

[الوصف الأول]: قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[الأعراف:١٩١]، وهذا وصف ينطبق على كل من سوى الله، كل ما سوى الله لا يملك أن يخلق، الخلق مفقود في حقه، ولو اجتمع معه كل من في الأرض لا يستطيعون أن يخلقوا شيئًا ولو كان حقيرًا ولو كان ذبابة.

إذًا من لا يخلق لا يستحق أن يعبد، بل هم أنفسهم مخلوقون: ﴿مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[الأعراف:١٩١].

[الوصف الثاني]: لاحظ أن الله جَلَّ وَعَلَا قال أولًا: (يخلق)، وقال ثانيًا: (يُخلقون)، كأن الضمير في يخلق روعي فيه: لفظ (ما) وفي يخلقون روعي فيه: معنى (ما).

فما ها هنا هي الموصولة فتعم كل من ينطبق عليه الوصف المذكور بعدها: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[الأعراف:١٩١]، ولا شك أن معناها يدل على أفراد كثيرين فناسب أن يقال: يخلقون.

هذا وصف ثانٍ يتصف به كل ما سوى الله جَلَّوَعَلَا وكل ما سوى الله جَلَّوَعَلَا، وهو أن كل ما سوى الله مخلوق، فأي عبد يدعي إلى عبادة مخلوق أليس من خلقه أولى بالعبادة؟!.

الوصف الثالث: أنه لا يستطيع لهؤلاء الذين لا يستطيعون لهم نصرًا، لا يستطيعون نصرًا لعابديهم فأي شيء يعبدون هؤلاء الذين يعبدون غير الله لا شك أنهم يطلبون تحصيل نفع ودفع ضر وإلا فما الفائدة من عبادتهم والله جَلَّوَعَلَا بين ها هنا أنهم لا يستطيعون لهم نصرًا، ليس فقط ما بل لا يستطيعون، بل ربما قال قائل: أنهم قادرون على النصر لكنهم لا يريدون، فبين الله جَلَّوَعَلَا أنهم عاجزون أصلًا فاقدون للقدرة أصلًا على أن ينصروا عابديهم ولا يستطيعون لهم نصرًا.

[الوصف الرابع]: فهو أدلُّ على عجزهم وضعفهم بل حتى هذه المعبودات لا تدفع عن نفسها شيئًا ولا تنصر نفسها فضلًا عن أن تنصر غيرها فما أخسر صفقة عابديها كل ما سوى الله جَلَّوَعَلَا سواءً كان من الأصنام، أو الأشجار، أو الأحجار، أو الأموات، أو الأنبياء، أو الأولياء والصالحين كل أولئك لا يستطيعون نصر أنفسهم، بل نصرهم إنما هو من عند الله جَلَّوَعَلَا لا غير ذلك.

ولذا سيد ولد آدم صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لما احتاج النصر لجأ إلى الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[الأنفال:٩]، النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لما كان يوم بدر رفع يديه إلى ربه سبحانه والحديث في مسلم وغيره ودعا ربه دعاءً عظيمًا واستنصر ربه وقال: «اللهم انجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض» صار يدعوا دعاءً عظيمًا حتى إن رداءه سقط عن منكبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حينها أنزل الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[الأنفال:٩].

إذًا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو سيد الأنبياء بل سيد ولد آدم ومعه سادات الأولياء الذين هم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما احتاجوا النصر سألوا من يملكه وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكيف بمن سِوَى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذًا هذا دليل بيِّن على أن عبادة غير الله جَلَّ وَعَلَا عبادة باطلة في العقل كما أنها باطلة في الشرع.

ولاحظ قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ والآية تتناول أوليًا كفار قريش والله جَلَّ وَعَلَا وصفهم بالشرك وهذا دليل على أن عبادة غير الله جَلَّ وَعَلَا شرك به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنَّ الشرك ليس محصورًا ولا مقصورًا على الشرك في الربوبية كما يزعمه عباد القبور الذي يقولون: إن من دعا لغير الله، وإن من صلى وسجد لغير الله، ومن ذبح وطاف لغير الله فهؤلاء ليسوا مشركين إن كانوا يعتقدون أن المؤثر في الكون هو الله وحده، هؤلاء الذين وصفهم الله عَزَّ وَجَلَّ بالشرك فقال في حقهم: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ كانوا يعتقدون أن المؤثر في الكون هو الله كانوا يعتقدون أنه إذا قيل لهم: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾[يونس:٣١] ، ومع ذلك وصفهم الله عَزَّ وَجَلَّ بالشرك.

إذًا عبادة غير الله عَزَّ وَجَلَّ شرك.

ثانيًا: الآية تفيد فائدة مهمة لطالب العلم وهي أن كل ما سوى الله جَلَّ وَعَلَا فعبادته باطلة وليس الأمر محصورًا على الأصنام، والأشجار، والأحجار، كما يزعم هذا من يزعمه من عباد القبور لأنه قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا﴾[الأعراف:١٩١]، و(ما) هي الموصولة التي تفيد العموم، فكل ما ينطبق عليه الوصف المذكور بعدها داخل في هذا الزجر والتقبيح؛ لأن الاستفهام ها هنا استفهام إنكاري يفيد تقبيح المشركين وتوبيخهم، كيف تعبدون من هذه حاله!

والحق أن هذا الوصف المذكور الذي أصحابه موصوفون بهذه الصفات الأربع هذا الوصف ينطبق على كل من سوى الله جَلَّ وَعَلَا، إذًا من عبد غير الله من الأصنام فعبادته باطلة، ومن عبد غير الله من الأولياء، والأنبياء، والصالحين، فعبادتهم باطلة وإلا فليخبرني هؤلاء المشركون، أينطبق على هؤلاء الذين توجهوا إليهم وعظموهم هذا الوصف أم لا؟ أهم يخلقون شيئًا؟ أليسوا مخلوقين؟ أليسوا عاجزين عن نصر أنفسهم فضلًا عن غيرهم؟

إذا كانوا كذلك إذًا كل من جعلهم شركاء مع الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يكون قد انطبق عليه الوصف في قوله تعالى: (أيشركون)، والله جَلَّوَعَلَا أعلم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[فاطر:١٣] الآية.

الآية الثانية تأييد، وتأكيد على الدلالات السابقة وهي الاستدلال على وجوب التوحيد وحسنه، والنهي عن الشرك وتقبيحه من خلال بيان عجز كل معبود سوى الله جَلَّوَعَلَا.

قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾[فاطر:١٣]، القطمير: القشرة أو اللفافة التي تغلف النواة نواة التمر، هذه اللفافة إذا كنت أريد أن أبيعها لك بكم تشتريها؟ بلا شيء، لأنها من أحقر ما يكون أليس كذلك؟ لا قيمة لها.

إذًا كل من عُبد سوى الله جَلَّوَعَلَا لا يملك شيئًا في الحقيقة حتى ولو كان هذا الشيء الحقير الذي لا قيمة له، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾[فاطر:١٣]، هذا كلام الله ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ ، كل من عبد ومن عبد من الله جَلَّوَعَلَا فإنه لا يملك شيئًا في الحقيقة وبالتالي فإنه لا يستحق أن يعبد، الذي يستحق أن يُعبد هو الذي له المِلك وله المُلك، أما من لا مِلك له فما فائدة من عبادته وماذا سيجني عابدة، وهذا وصف ينطبق على كل ما سوى الله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾[سبأ:٢٢].

والله لا يملكون شيئًا ولو ذرة ولو هذا الهباء الذي يسبح في الهواء والذي لا وزن له، ولا قيمة له لا أحد يملك شيئًا البتة، وهذه الموجودات التي في أيدي الناس لا يظننا ظانًا أن من في يده يملكها حقيقة.

ملك هذا الإنسان لمن في يديه من مال وعقار ولباس ودواب وغير ذلك مِلكٌ ناقص هو أشبه بالعارية المؤداة، وإلا فالمالك الحقيقي هو الذي يحكم في هذا المال بحكمه الشرعي والقدري وهو الله عَزَّوَجَلَّ، فما عند الإنسان من أموال هو فيها محكوم بأمر الله الشرعي لا يجوز له أن يتصرف إلا في حدود ما أمر الله به شرعًا، ولا في يجوز له أن يتصرف في هذا الماء كيفما شاء، وهو محكوم في هذا المال بأمر الله القدري، فالله جل وعلا إن شاء أن يسلبه منه في لحظة فعل سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

ثم هذا المال محدود ومؤقت، فكان فاقدًا له وسوف يكون فاقدًا له، إذا مات انتهت علاقته على هذا المال، فالذي يلمك على الحقيقة كل شيء إنما هو الله سبحانه لا شريك له، إذًا ما أحرى كل مخلوق أن يعبد الذي بيده ملكوت كل شيء، والذي له المِلك كله، والذي له المِلك كله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣].

ولاحظ أن هؤلاء الذين يُدَّعون مع الله جَلَّوَعَلَا فاقدون في هذا السياق لثلاثة أمور تدعوا العاقل إلى أن يتبين حقيقة الحال، وأن عبادته مع الله جَلَّوَعَلَاعبادة باطلة.

أولًا: أنهم ما يملكون من قطمير.

وثانيًا: أنهم لا يسمعون إن تدعوهم لا يسمعوا دعائكم لأنهم بين أموات هم في شغل في نعيم أو هلاك، أو هم ملائكة مشغولون بطاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

[وثالثًا]: أنهم غير قادرين على الإجابة لأنهم على فرض أن سمعوا لا يجيبون: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[فاطر:١٤]، لا ينبئك بحقائق الأمور إلا الخبيرُ بها العليم بكل شيء من المشاهد والغائب وهو الله جَلَّوَعَلَا، أعطاك الله حقيقة الأمر فخذه وأنت مطمئن هذا والله هو الحق، وهذه والله هي الحقيقة: ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[فاطر:١٤]، هؤلاء حقًا لا يستحقون العبادة إنما يستحقها الله جَلَّوَعَلَا وحده.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي الصحيح عن أنس قال: شُجَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم أحد، وكسرت رباعيته، فقال: «كيف يفلح قوم شَجُّوا نبيهم؟» فنزلت: (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ)[آل عمران:١٢٨].

استدل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثالثًا: بحديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقال إنه: في الصحيح وهو في البخاري معلقًا وفي مسلم موصولًا.

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم أحد أصابه والمسلمون أمر عظيم، حتى أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شُجّت جبهته، يعني جُرح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جبهته، ونزل الدم على وجهه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان يمسحه بيده، وكسرت رباعيته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الرباعية السن التي بعد الثنية. الثنية أو

الثنايا هي: الأسنان التي في الوسط للإنسان، ثنيتان في الأعلى وفي الأسفل، واللذان في جانب الثنيتين هما الرباعية وجمعها رباعيات، فلإنسان أربع رباعيات في الأعلى اثنتان، وفي الأسفل اثنتان، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كسرت رباعيته السفلى، بحيث أنه ذهب منها جزء وليس أنها قلعت بالكلية إنما كسرت جزء من رباعيته بأبي هو وأمي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا الأمر العظيم والمصاب الجلل الذي نزل بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفيد منه المسلم فوائد عدة:

أولًا: أن يعلم عظيم ما تحمله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مشاق في سبيل الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وإبلاغ دين الله إلى الناس، فيزداد المسلم محبًا لنبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثانيًا: اليقين بأن دين الله جَلَّ وَعَلَا يحتاج إلى أن يتحمل المصاب في سبيل إبلاغه إلى الناس وأن الدعوة إلى الله جَلَّ وَعَلَا يصيب أصحابها ما يصيبهم من الأذى والبلاء، فإذا علموا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو سيد ولد آدم وأحب الخلق إلى الله ومع ذلك أصابه ما أصابه، فإن السائرين على منهاجه ودربه والذين كان لهم الوراثة التامة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهم أن يجعلوا نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إسوة وسلوى لهم يتأسون به فيصبرون ويتحملون المشاق ويتسلون بما أصابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[ثالثًا]: وهو تحقيق التوحيد أن يعلم المسلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبدٌ لله جَلَّ وَعَلَا وليس معبودًا، لو كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربًا لما أصابه ما أصابه ما كسرت رباعيته ولا شج وجهه ولا سال دمه، فإن الرب لا يكون هذا وصفه، إنما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبدٌ ورسول، وكفى بهذا شرفًا له، عبدُ لا يُعبد، ورسول لا يُكذّب بل يطاع ويتبع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذًا إذا علم الإنسان مثل هذا الذي أصاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه سوف يتجنب الغلو فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وينزله المنزلة اللائقة به والتي جعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له، وأما الغلو فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن هذا من طرائق غير المتبعين له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الشاهد: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصيب بما أصيب به يوم أحد فكان يمسح الدم عن وجهه فيقول: «كيف يفلح قومًا أدموا نبيهم» وهو يدعوهم إلى الله، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران:١٢٨]، كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحقه شيء من عدم رجاء إيمانهم واليأس من إسلامهم، فقال هذا القول فأنزل الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران:١٢٨].

لاحظ أن سياق نفي وفيه نكرة (شيء)، والنكرة في سياق النفي تعم.

إذًا ليس للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيء إنما هو رسول واجبه الدعوة إلى الله، أن ينذر وأن يبشر وأن يبلغ، أما ما عدا ذلك فالأمر كله لله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران:١٢٨]، لا الإثابة ولا العقوبة، ليس لك الهداية وليس لك الإضلال، ليس لك شيء من الأمر شيء مطلقًا حتى الشفاعة لا يملكها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:٤٤]، الشفاعة إنما هي لله عَزَّوَجَلَّ لا لغيره، فدل ذلك على أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا شفع يوم القيامة إنما يشفع بإذن الله بل يشفع بأمر الله هو مأمور أن يشفع يأمره الله أن يشفع، واشفع تشفع.

إذًا ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾، اللام ها هنا (لك) لام المِلك ، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يملك شيئًا إنما الأمر كله لله عَزَّوَجَلَّ، وهذا من تأمله حقًّا تبين له حقيقة التوحيد وتبين له غربة الدين، وتبين له حال كثير من الناس الذين تعلقوا بالأولياء والأنبياء، إذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو هو أعظم الناس قدرًا وجاهًا، ومنزلة عند الله ومع ذلك الله عَزَّوَجَلَّ يقول له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾، فكيف بمن عداه!

ألا يتبصر هؤلاء الذين اعتقدوا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأن غيرهم من الأولياء والصالحين يملكون إجابة الدعاء وتنفيس الكروب، وتفريج الهموم، ومغفرة الذنوب وكلَّ ما يقدر عليه الله جَلَّ وَعَلَا هذا الذي يعقدونه، يعتقدون أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يملك لهم ويجيبهم إلى كل ما يطلبون، ولذلك تعلق دعائهم، وتعلقت رغبتهم، وتعلق رجائهم بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبغيره، مع أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفسه هو الذي أمره الله أن يقول:﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا﴾[الجن:٢١]، ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾[الجن:٢٢]، يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف:١٨٨].

هذا هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نذيرًا وبشيرًا لقوم يؤمنون، أما أن يملك نفعًا أ ويملك ضرًا فلا والله هذا كلام الله، وهذا الذي أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبلغه للناس، ليس بالذي يملك نفعًا ولا ضرًا ولا هو بالذي يعلم الغيب، فكيف بالذي هذا الذي يقرب وهو يردد:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

ليس فقط يملك النفع والضر ولا يملك الدنيا فقط، بل حتى الآخرة (فإن من جودك الدنيا وضرتها)، والله يقول: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾، (ومن علومك) بعض علومك للتبعيض، (ومن علومك علم اللوح والقلم)، لا إله إلا الله، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾[الأعراف:١٨٨].

والله إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يعلم الغيب ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب، ولو كان يعلم الغيب لما دعا على هؤلاء سيأتي معنا بعد قليل، أنه دعا على إناس من كفار قريش بأسمائهم اللهم: العن فلانًا وفلانًا سيأتون معنا، مع أنهم أسلموا بعد ذلك، ولو كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم أنهم سيسلمون ما دعا عليهم هذا الدعاء.

ما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم الغيب.

في قصة آية التيمم ما الذي حصل؟ أليس فقدت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عقدها فقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون في الصحراء لا ماء عندهم ينتظرون ويبحثون حتى اشتد الأمر على المسلمون وجاءوا يشتكون إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذهب أبو بكر إلى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعاتبها، وكان ما كان حتى أنزل الله آية التيمم، تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، والحديث في الصحيحين، تقول: «فتبعنا البعير وإذا العقد تحتهم».

إذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم الغيب لما ما أخبرهم ابحثوا عن العقد تحت البعير وانتهى الأمر لا يصيب المسلمين ما يصيبهم.

بل في قصة الإفك والحديث في الصحيحين لما شاعت قالة السوء عن عائشة الطاهرة المطهرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تكلم الناس في عرضها لما حصل ما حصل من تأخر لها عن الجيش، وجاءت بعد أن بلغ النهار مبلغه إلى قرب الظهيرة، جاءت بعد أن وجدها صفوان بن المعطل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فحصل ما حصل وتولى كبر ذلك رأس النفاق عبد الله بن أبي، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذهب إلى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في بيت أبيها وقال لها: «يا عائشة إن كنتِ بريئة فسيبرئكِ الله، وإن كنتِ ألممت بذنب فاستغفري الله فإن الله غفور رحيم»، أكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم الغيب؟! أكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستشير بعض أصحابه في

هذه الحادثة العظيمة وهو يعلم الغيب؟! حتى إنه بعد ما قال نزل الوحي عليه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَسُرَّ وضحك، وبشر عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، أكان يعلم الغيب فيفعل هذا!

لم يكن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يعلم الغيب، فكيف يقول مسلم بعد ذلك (ومن علومك علم اللوح والقلم)، يا لله العجب من إناس يتلون كلام الله جَلَّوَعَلَا، أنا أعجب من هذا الإنسان الذي يعتقد أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أو غيره من الأولياء يملك إجابة الداعيين، أتؤمن أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صادق أم لا؟ يعني حينما قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ [﴿**قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا**﴾]، أكان صادقًا وهو كذلك صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أم لا؟، فإن قال: لا، لم يكن صادقًا فقد كذبه فقد كفر بالله جَلَّوَعَلَا، وإن قال: كان صادقا إذًا لم تعبدهم؟ لم تتوجه إليه؟ أليس هذا إلا السفه وليس إلا الضلال المبين.

فعلى المسلم أن يتقي الله جَلَّوَعَلَا، أولئك الذين يتوجهون لغير الله سبحانه بالدعاء، والقصد، والرجاء، والإخبات، والتوكل، والاعتماد عليهم أن يتقوا الله جَلَّوَعَلَا، إذا كان النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليس له من الأمر شيء، إذا كان النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يملك لأحد نفعًا ولا ضرًا؟! فكيف بغيره، كيف يصدق عاقل هذه السفاهات التي يهدي بها عباد القبور الذين يقولون:

يقول أحدهم: (إذا أعياكم الأمر فعليكم بقبري لا تحملوا همًا اطمئنوا مهما يصيبكم فعليكم بأن تلجوا إلى قبري بعد موتي)!

ويقول آخر: (إذا كان يوم القيامة نصبت خيمتي عند باب جهنم فأمنع دخول من دعاني)!

هكذا يقولون، ووالله إنَّ هذا لمدونٌ في كتبهم بأيديهم.

ويقول آخر: وقد كتب هذا على لوح عند قبر في بعض البلدان يزعمون أنه قبر لنبي لله اسمه (جرجيس)، ولا يُعلم بدليل صحيح أن هذا نبي، ولا يُعلم قبر على وجه الأرض يعلم أنه ثابت قطعًا سوى نبينا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يوجد قبر على وجه الأرض يعلم أنه ثابت قطعًا لنبي إلا قبر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وكثير من العلماء على أن قبر الخليل في فلسطين هو قبره، لكن على وجه القطع واليقين ليس قبر يقطع به إلا هذا القبر لنبينا الكريم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، تجدهم يكتبون أو هكذا كتبوا يقولون:

زر حضرة ملئت نورًا وتقديسًا   واقصد نبي الهدى ذا المجد جرجيسا

ما زاره قاصد يشكو ملمته إلا   ونُفِسَ عنه الكرب تنفيسا

سبحان الله!! أصبح مثله مثل الذي قال جلَّ في علاه: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[النمل:٦٢]، والله إلا حالهم هو ما وصف الله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام:١]، ومن كانت هذه حاله والله إنه سينادي يوم القيامة لكن لا ينفعه الندم ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:٩٧-٩٨]، فليحذر المسلم فالأمر والله جلل، والأمر والله خطر على المسلم يقرأ كتاب الله جَلَّوَعَلَا ويتأمله ويصدقه هذا هو كلام الله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾، أي دليل أوضح على قبح الشرك والتعلق بغير الله جَلَّوَعَلَا ولو كان في حق أشرف الخلق صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفيه عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه سمع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: -إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر -: «اللهم العن فلاناً وفلاناً». بعدما يقول: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد» فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية.

وفي رواية: يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران:١٢٨].

أورد بعد ذلك حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وهو عند ((البخاري))، أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا بعد رفعه من الركوع -وهذا يُسمى قنوت النوازل- دعا على رهطٍ من كفار قريش كانوا رؤوس القوم يوم أحد، وكانوا من أعظمِ الأسباب لحصول ما حصل على المسلمين من مصيبة، وجاءت تسميتهم في رواية أخرى وهم ثلاثة: (صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام) الحارث هذا أخو أبي جهل، عمرو بن هشام المخزوم، ولهم رابع أيضًا وكان من سادات القوم وهو أبو سفيان، وكلهم قد أسلموا بعد ذلك وحسن إسلامهم.

لما دعا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهم باللعنة، والدعاء باللعن يعني: طلب الطرد من رحمه الله جَلَّ وَعَلَا يسأل الله العبد أن يطرد هذا المدعو عليه عن رحمته فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران:١٢٨]، وهذا سبب ثان لنزول الآية التي سبق الكلام فيها.

والصحيح أنه يجوز تعدد أسباب النزول فتكون الآية قد نزلت لهذين السببين، والأمران على كل حال متقاربان الحادثة في الجملة حادثة واحدة.

الشاهد: أن في هذا الحديث فوائد:

أولًا: أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون معه كانوا يلجئون إلى الله جَلَّ وَعَلَا في شأن دفع آل المشركين ولو كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده كل شيء، وكان قادرًا على كل شيء كما يزعم القبوريون لما كان له حاجة بهذا القنوط لكان قام على هؤلاء المشركين بقدرته

الخارقة النافذة وانتهى الأمر، لكنه كان محتاجًا إلى الله جَلَّ وَعَلَا وكان مفتقرًا إلى الله، ولذلك لجأ إلى الله.

إذا كان هذا حال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكيف بغيره؟، وإذا كان هذا حاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو حي فكيف يُلجأ إليه في طلب كشف الكروب بعد موته! أليس هذا دليلًا وبرهانًا كافيًّا لأصحاب العقول؟

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون معه ومع ذلك ما كان عندهم قدرة على حصول النَّصر، وعلى الانتقام من المشركين فلجئوا إلى الله جَلَّ وَعَلَا، فكيف بغيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكيف يُطلب هذا منه بعد موته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!.

[ثانيًا]: أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما كان يعلم الغيب، وبالتالي دعا على هؤلاء القوم بأن يلعنهم الله وأن يطردهم من رحمته، والذي سبق في علم الله جَلَّ وَعَلَا أن هؤلاء الصناديد سيسلمون وسيحصل إسلامهم، فكان ذلك هؤلاء الثلاثة جميعًا وأبو سفيان أيضًا جميعهم قد أسلموا، وحسن إسلامهم.

إذًا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يعلم الغيب.

إذًا الآية واضحة صريحة تقطع جذور الشرك من القلب: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران:١٢٨]، وإذا كان هذا في حق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ففي حق غيره من باب أولى.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفيه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء:٢١٤]، قال: «يا معشر قريش -أو كلمةً نحوها - اشتروا أنفسكم؛ لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية -عمة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً».

هذا حديث عظيم وهو أيضًا من دلائل وبراهين التوحيد.

حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مخرجٌ في ((الصحيحين))، وفيه: أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صعد على الصفا لما أَنزَلَ الله عليه: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾**[الشعراء: ٢١٤]**، صعد على الصفا، ولاحظ أن الاستجابة كانت سريعة من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ما تردد ولا تلكأ، وإنذار العشيرة الأقربين من الحكمة في الدعوة، وهذا مما ينبغي أن يُلاحظ فيها فإن دعوة الأقربين واستجابتهم فيها قوة للدعوة، فإنَّ الأبعدين إذا رأوا أنَّ الأقربين قد أسلموا اطمئنوا وأقبلوا.

ولا شك أن أولى الناس بخيرك وبرك هم الأدنى إليك فالأدنى هذه هي قاعدة الشريعة، أولى الناس ببر الإنسان وخيره هم الأدنى فالأدنى، وأي خير وبر أعظم من السعي في الهداية والدعوة إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، قام النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على الصفا، وقال: «**يا معشر قريش**»، معشر: يعني جماعة، يا جماعة قريش ينادي قبيلته ينادي جماعته صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، «**يا معشر قريش اشتروا أنفسكم**» يعني: بالتوحيد فإنه ثمن النجاة، إذا كنت تريد النجاة فأشتريها وثمنها التوحيد وجاء في رواية في ((الصحيح)): «**أنقذوا أنفسكم من النار**» وهذا لا يكون بشيء البتة إلا بتوحيد الله، وإتباع رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثم إنَّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خصص فنادى العباس، نادى عمه القريب الحبيب إليه، وهو الذي كان يحب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتى إنه كان حاضرًا على كفره يوم العقبة يستوثق لابن أخيه من الأنصار، كرر هذا الخطاب له: اشتر نفسك يا عباس انقذ نفسك من عذاب الله، فإني وأنا رسول الله لا أملك لك من الله شيئا، ولاحظ أيضًا هذه النكرة في سياق النفي، لا يملك شيئًا البتة، وهو الصادق المصدوق صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ثم خاطب عمته صفية التي هي أم الزبير ابن العوام أيضًا خاطبها بأن تشتري نفسها وأن تنقذ نفسها من عذاب الله والتعليل: أنه لا يملك لها من الله شيئًا.

ثم خاطب فاطمة سيدة نساء العالمين رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، الحبيبة القريبة إليه التي هي بضعة منه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، يخاطبها بهذا الخطاب اشتري نفسكِ لا أغني عنكِ من الله شيئًا، سليني من مالي ما شئت، المال يمكن أن يقدمه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لها أو لغيرها لكن الذي لله لا يستطيع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يفعل فيه شيئًا، وهذا فيه دليل على أن سؤال الحي الحاضر القادر جائز وليس من الشرك وأن هذه حالة مستثناه، الأصل أن السؤال والطلب لا يكون

إلا لله كما قد أخذنا وعملنا، لكن من رحمة الله أنها استثنيت هذه الحالة وكانت هذه هي صورة جائزة أن تسأل حيًا حاضرًا قادرًا، **«سليني من مالي ما شئتِ لا أغني عنكِ من الله شيئًا»**.

إذًا إذا كان هذا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو هو فكيف بغيره، وإذا كان هذا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حق قرابته، فكيف بغيرهم؟ هؤلاء أقرب الناس إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ابنته التي هي أحب الناس إليه أو من أحب الناس إليه، ومع ذلك يقول: **«لا أملك لكِ من الله شيئًا»**، فكيف بغيرهم من الناس، أليس أولى أن يكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يملك لهم من الله شيئًا.

إذًا على كل مسلم أن يعي هذا الأمر، وأيضًا على المغرورين أن يتنبهوا بعض الناس يصيبهم الغرور يقول: أنا ابن أو من أحفاد الولي الفلاني، أو من آل بيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيظن أنه بهذا قد حصل على صك يدخل به الجنة وتُغفر به الذنوب، انتبه يا عبد الله؛ هذا والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **«لا أملك لكِ من الله شيئًا»**، فكيف بك يا عبد الله؟

اتق الله وإياك من هذه، إياك من هذا الغرور فهذا والله من تلبيس وتدليس الشيطان، واعلم أن الولاية الحقيقية والقرب الحقيقي من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي ينفعك يوم القيامة إنما هو أن تكون متبعًا له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في ((صحيح مسلم)) قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ألا إن آل أبي فلان ليسوا بأوليائي، إنما وليّي الله وصالح المؤمنين»**.

فإذا كنت تروم وتطلب أن يكون لك حظ من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونصيب من القرب منه في جنات النعيم فأعلم أن هذا إنما يكون بجدك واجتهادك في إتباعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتزام سننه، لا أن تكون مغترًا وراكنًا إلى سبب آخر من نسبٍ أو وجاهه أو غير ذلك.

٢٢

٢٢- باب

قول الله تعالى:

﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

(المجلس الأول)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ

باب

قول الله تعالى:

﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[سبأ:٢٣].

فإن الإمام محمدًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقد هذا الباب عقِب الباب السابق وهو قوله: باب قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[الأعراف:١٩١].

أقول: عقد هذا الباب ليبين بطلان عبادة الملائكة، كما تبين في الباب السابق بطلان عبادة الأولياء والأنبياء، فالباب السابق ساقه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأجل بيان بطلان عبادة الأولياء والأنبياء، وهذا الباب ساقه لأجل بيان بطلان عبادة الملائكة وإذا ظهر بطلان عبادة الأولياء والأنبياء والملائكة فإن ظهور بطلان عبادة من سواهم أظهر، وذلك لأنَّ الشبهة في هؤلاء أعظم فإذا كان هؤلاء وهم الذين لهم المكانة العلية والمنزلة الرفيعة ليسوا أهلاً لأن يعبدوا مع الله جَلَّوَعَلَا، فبطلان عبادة غيرهم أوضح وأظهر.

ولا تستهن -يا رعاك الله- بسوق الأدلة والبراهين على بطلان عبادة غير الله جَلَّوَعَلَا ولا تظنن أن الفتنة بعبادة غير الله شيءٌ بعيد وشيء نادر وشيء لا يكاد يقع، الأمر بخلاف ذلك فالفتنة بالشرك عظيمة، حتى إن إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو إمام الحنفاء دعا الله جَلَّوَعَلَا أن يجنبه عباده الأصنام ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾[إبراهيم:٣٥] فمن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟

ففتنة الشرك فتنة عظيمة حتى لو كانت لا بأنبياء ولا بأولياء ولا بجن ولا بملائكة، بل بأشجار وأحجار وأصنام هي فتنة، والبلاء بها عظيم مع الأسف الشديد في هذا العصر الذي نعيش فيه وهو الذي يسمى عصر التطور والتقدم، وهو جديرٌ بذلك في أمور الحياة المادية، ومع ذلك أمم من هذه الأمم التي يُزعم أنها متطورة تعبد الأصنام والأحجار إلى هذا اليوم وهي تصنع الأصنام بأيديها ثم تخر لها ساجدة أناسٌ، لا ينقصهم تعليمٌ مادي ولا شهادات، بل ربما تجدُ أحدهم حاصلاً على أعلى الشهادات ويتسلم أعلى المناصب، ومع

ذلك تجده راكعًا خاضعًا مستغيثًا بصنم بحجر كان هو أو غيره ينحته قبل قليل ثم اتخذه إلهًا وربًا.

فالبلية بالشرك عظيمة والفتنة بها كبيرة وعلى المسلم الذي رزقه ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بفضله ومنته وحده، من رزقه حب الإسلام والانقياد لله بالتوحيد عليه أن يحمد الله، وأن يسعى في شكر هذه النعمة التي لا نعمة أعظم منها، وعليه أيضًا أن يسعى السعي الحثيث في الثبات على هذا التوحيد، ومن أسباب الثبات أن يخاف من الشرك فخوفه دافعٌ له إلى أن يتعلم ومن ثمَ أن يتحرز، وإلا فإنه إذا استهان في الأمر فما أقرب الخلل وما أقرب العطب، ثم إذا نظر إلى حال هؤلاء المشركين حِمِد الله على ما أنعم الله عليه وزاد خوفه من الله ووجله من الله وزادت رغبته إلى الله أن يقيه هذا المصرع.

واجعل لوجهك مقلتين كلاهما   من خشية الرحمن باكيتان

لو شاء ربك كنت أيضًا مثلهم   فالقلب بين أصابع الرحمن

أحمد الله يا أيها الموحد وأشكره وانطرح بين يديه جَلَّ وَعَلَا وسله الثبات وسله أن يثبتك على هذا التوحيد حتى تلقاه وادعو ربك بضراعة وبصدق أن يجنبك عبادة الأصنام وأن يقيك الشرك كله جليهُ وخفيه، سل ربك دائمًا اللهم إني أعوذ بك من أن أشرك بك شيئًا وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم.

إذا وفقك الله فثبت على التوحيد إلى أن غادرت روحك جسدك فهذه والله البشارة العظيمة أبشر بالخير وأبشر بالسعادة فمن لقيَ الله لم يشرك به شيئًا لقيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالرحمة والمغفرة حتى لو أنه أتى بتراب الأرض خطايا هكذا أخبرنا الصادق المصدوق صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكن البلية ولكن المصيبة كل المصيبة أن يموت الإنسان وقد أشرك مع الله عَزَّ وَجَلَّ غيره، حذاري يا عبد الله!

لا تستهن بهذه الأبواب، ولا تستهن بهذه النصوص، ولا تستهن بهذه الدلائل، بل تأملها وأَحْضِر قلبك عندها وافتح سمعك وعقلك لها وأحسن تدبرها وتأملها وأحفظها، ربما كانت سببًا للعصمة وسببًا للوقاية، والموفق من وفقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب

قول الله تعالى:

﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[سبأ:٢٣]

هذه الآية التي افتتح بها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب وهذا الباب فيه آية وحديثان، هذه الآية وحديثان بعدها حديث أبي هريرة وحديث النواس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وفيهما تنبيه على دليلين عقليين شرعيين هما من أحسن الأدلة وأقواها في بيان التوحيد ونقض الشرك:

الأول: الاستدلال على هذا المقام العظيم بعظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن الله جَلَّ جَلَالُهُ له الكمال المطلق وله العظمة الكاملة، وإذا كان كذلك كان حريًا أن يعبد وحده لا شريك له، الله العظيم خضعت لعظمته كلُّ الأشياء حتى السماوات والأرض، هذه الأجرام العظيمة كانت تخاف من الله جَلَّ وَعَلَا وتخضع له وتذعن له وتسبح له، حتى الملائكة ذلك الخلق العظيم الذي هو من أعظم خلق الله جَلَّ وَعَلَا، ومع ذلك هو خاضع لعظمة الله عَزَّ وَجَلَّ، كل هذا الخلق مع عظمته ومع مكانته ومع رفيع درجته ومع ذلك كلهم خاضعين لله جَلَّ وَعَلَا، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما عند أبي داوود بإسناد صحيح من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُذن لي أن أُحدث عن ملك من حملة العرش، ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام**».

انظر إلى هذه العظمة التي تتحير عندها الألباب، هذا مَلَكٌ مخلوق من ملائكة الله جَلَّ وَعَلَا، وهو بهذه العظمة الهائلة، ومع ذلك هو خاضع لله، ذليل لله، يخاف من الله، فإذا كان ذلك كذلك فالله العلي الكبير هو الجدير بالعبادة وحده لا شريك له، وهذا واحدٌ من الأمرين العظيمين اللذين تضمنهما هذا الباب.

أما الثاني: فهو الاستدلال على قُبْحِ الشرك بنقص كل من سوى الله جَلَّ وَعَلَا، فإذا كان كل من سوى الله ناقصًا عاجزًا لم يستحق أن يُعبد، وكان الذي يُخضع له ويُذعن له هو الحري بأن يُعبد وحده لا شريك له.

في هذه الآية وما بعدها من الحديثين بيان أن الملائكة لا تصلح أن تكون معبوده؛ لأنها تخاف والذي يخاف لا يصلح أن يكون ربًا ولا إلهًا.

وفيما يأتي من الحديثين أن الملائكة تُصعق إذا تكلم الله عَزَّوَجَلَّ بالوحي كما سيأتي، يأخذها صعق ورعدة وفزع عظيم، ومن كان كذلك لا يصلح أن يكون ربًا ولا يصلح أن يكون إلهًا، وبالتالي نَقْصُ هذه المخلوقات التي هي الملائكة دليل على بطلان إشراكها مع الله، وإذا كانت هذه الملائكة مع عظيم خلقتها ورفيع منزلتها لا تصلح للعبادة فغيرها من باب أولى.

إذن هما استدلالان في غاية الأهمية ينبغي أن يتنبه لهما المسلم حينما يقرأ في أدلة الكتاب والسنة.

[الاستدلال الأول]: الاستدلال على توحيد الله بالعبادة بكونه العظيم الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه.

والاستدلال الثاني: الاستدلال على بطلان الشرك بغير الله بكون كل ما سوى الله عاجزٌ بكون كل ما سوى الله عاجزًا ناقصة، وبالتالي يتجلى لنا حُسْنُ التوحيد وقبح الشرك.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ:٢٣]، فَهْمُ هذا الآية يتم بمعرفة ما قبلها قال الله جَلَّوَعَلَا وهذه الآية في سورة سبأ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ٢٢-٢٣].

هذه آيةٌ عظيمة من أعظم أدلة التوحيد، حتى إن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أشار في المسائل إلى ما ذكره أهل العلم وهو أن هذه الآية تقطع جذور شجرة الشرك من القلب، ولكن هذا لمن فتح الله عَزَّوَجَلَّ على قلبه ورُزِقَ حسن بصيرة يتدبر بها كلام الله.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [سبأ:٢٢] هذا أمر تعجيز للمشركين وفيه إقامة الحجة عليهم، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [سبأ:٢٢] ادعوهم وانظروا في حالهم والشأن أنَّ كلَّ من دُعيَّ وعُبد من دون الله إنما يُدعى لسبب لا يفعلوا هذا -أعني أن يعبد دون سبب عاقل-، بل لا بد أن يكون عنده سببٌ يدعوه إلى أن يخص هذا الشيء

بالعبادة وهذا أمر لا يكاد يخاله فيه عاقل، وهذا السبب إن تأملته وجدته لا يخلو من واحدٍ من أربعة أسباب:

إما أن يكون هذا المعبود المدعو له مِلك ومُلكٌ في هذا الكون، فنفى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ذلك عن كل ما سواه: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[سبأ:٢٢] كلُّ من تزعمونه إلهًا ومعبودًا مع الله ادعوه: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[سبأ:٢٢] والنتيجة أنهم لا يملكون شيئًا حتى مثقال ذرة هذا الهباء الذي يظهر في الهواء، إذا سلطت ضوء النافذة يظهر لك هباء، هذا هو أو هذه هي الذرة الحبة من هذا الهباء، لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ليس لهم أي سلطة ولا نفوذ أمر لا يملكون شيئًا البتة ليس لهم سلطانٌ على شيء إطلاقًا إنما المِلك والمُلك لله العظيم وحده لا شريك له.

إذن انتفى في حق هؤلاء أن يكون لهم المِلك والمُلك.

قد يقول قائل: ربما لا يكون الواحد من هؤلاء المعبودات له مِلْكُ الاستبداد -يعني ملك الاستقلال- لكن ندعوه لأن له شراكه في هذا المِلك شريك مع الله عَزَّوَجَلَّ في المُلك، فنحن ندعوه لأجل ما له من شراكة مع الله جَلَّوَعَلَا، فنفى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ذلك، وهذا هو الأمر المنفي الثاني: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ﴾[سبأ:٢٢] كل ما يُعبد من دون الله ليس لهم شركٌ ولا أي حدٍ ونصيبٍ من هذا الملكوت.

قد يقول قائل: ربما يكون أحد هؤلاء ظهيرًا لله، معاونًا لله، وزيرًا لله يستعين الله به، فلأجل ما له من هذه المكانة وهذا القدر وهذا الحق على الله أنا أعبده، فنفى الله عَزَّوَجَلَّ ذلك أيضًا فقال: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾[سبأ:٢٢] يعني: ما لله منهم من ظهير؛ يعني: معاون، الله عَزَّوَجَلَّ هو الغني وكل ما سواه فهو المفتقر إليه.

إذن ليس لهم مُلك، وليس لهم شراكة في الملك، وليس لهم أيضًا إعانةٌ لله عَزَّوَجَلَّ، ما بقيَّ إلا أنه ربما يملكون الشفاعة ربما يدلون على الله عَزَّوَجَلَّ كما يُدلي الشفيع المقرب من المشفوع عنده فيتقدمون بين يدي المشروع عنده كما يفعلون في الدنيا، لهم جاهه ومكانة عنده بحيث أنهم يؤثرون عليه ويتقدمون بين يديه بالشفاعة متى شاءوا ولا يملك المشروع عنده

ردهم لما لهم من مكانةٍ في نفسه، فنفى الله عَزَّوَجَلَّ هذا الأمر أيضًا فماذا قال؟ ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[سبأ:٢٢-٢٣]. لِمَ؟

لأن الشفاعة ملك خالص لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وحده، تأمل دومًا قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:٤٤] من أولها إلى أخرها لمن؟ (لام) المِلك والاستحقاق، الشفاعة لله وحده لا شريك له كلها، لا يمكن أن تكون شفاعة مملوكة مستحقة لغير الله جَلَّوَعَلَا، فهو الذي يملكها وهو الذي يمنحها ويتفضل بها على من يشاء.

إذن كل من سوى الله جَلَّوَعَلَا ليس له نصيبٌ في الشفاعة، إنما الله هو الذي يتفضل عليه بما يملكه وهو الشفاعة، حتى إنَّ الشافع لا يعدو أن يكون مأمورًا بالشفاعة ليس أنَّ له حقًّا وجاهًا عند الله عَزَّوَجَلَّ بحيث أنه يتقدم بين يدي الله جَلَّوَعَلَا بالشفاعة لما له من إدلال ولما له من جاه ولما له من حظوة عند الله جَلَّوَعَلَا، حذاري يا عبد الله هذا مفهوم مغلوط أَكْثَرَ الله عَزَّوَجَلَّ في كتابة من نفي الشفاعة في الآخرة لأجل أن يزول هذا المعنى من قلبك.

الشفاعة التي يعهدها الناس في الدنيا منفية لا وجود لها، الشفاعة التي تكون يوم القيامة شأنٌ آخر الشفاعة التي تكون يوم القيامة مِلك لله جَلَّوَعَلَا هو الذي يملكها ولا يجرأ أحدٌ قط على أن يتقدم بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ بها حتى يأذن له الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بل لا يجرأ على أن يتكلم بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ أحدٌ إلا إذا أذن له، بل إلا إذا أمره الله عَزَّوَجَلَّ، حتى سيد الشفعاء صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الذي له النصيب الأوفر من الشفاعة والذي له المقام العظيم عند الله جَلَّوَعَلَا، وهو نبينا محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ومع ذلك فالله عَزَّوَجَلَّ يأمره أن يشفع فيقول له: اشفع :-فعل أمر-، تُشفع.

إذن الشفاعة لله جَلَّوَعَلَا، وكل من سواه لا يملك هذه الشفاعة ولا يجوز بحال أن تتعلق القلوب به لأجل هذه الشفاعة، إنما يجب أن يتعلق قلبك بمن يملك الشفاعة وهو الله جَلَّوَعَلَا لا غير.

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ بعد ذلك: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾[سبأ:٢٣]، اختلف العلماء في المراد: بمن فُزِّع عن قلوبهم.

قالت طائفة من أهل العلم: إن هؤلاء هم المشركون يُفزع عن قلوبهم يوم القيامة، قرأ الجمهور: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾، وقرأ ابن عامر: ﴿حَتَّى إِذَا فَزَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ

يعني: الله جَلَّ وَعَلَا، قرأ هو على البناء للمعلوم، وقرأ الجمهور على البناء للمجهول، والمراد أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يُفَزع عن قلوبهم ومعنى ﴿فَزَّعَ﴾ هنا؟ يعني: أزال الفزع، انتبه!

في اللغة العربية الفعل إذا جاء على وزن فَعَّلَ فإنه يأتي على أحد ضربين:

[الضرب الأول]: إما أن يكون بمعنى: الإدخال في الشيء كنحو قولك عَلَّمَ يعني: سعى في إدخال العلم في غيره علمَ.

[الضرب الثاني]: وقد تأتي بالعكس يعني: في إخراج شيء عن شيء، كما في هذه الآية فَزَّعهُ يعني: أزال الفزع منه، جَزَّعه: أزال الجزع منه، مَرَّضَه: سعى في إزالة المرض عنه.

إذن ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ﴾ يعني: أُزيل، الله جَلَّ وَعَلَا يزيل الفزع من قلوبهم، والفزع هو: الخوف المفاجئ لما يصيبهم من الوجل والخوف العظيم في أهوال القيامة، يصيبهم فزع ثم يزيله الله عَزَّ وَجَلَّ عن قلوبهم فيقولون: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾[سبأ:٢٣] فتجيب الملائكة: ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[سبأ:٢٣].

القول الثاني: أنَّ المراد بالذين يُفَزَّعُ عن قلوبهم هم: الملائكة، وهذا الذي اختاره جماعة كبيرة من أهل العلم وهو اختيار ابن جرير، وابن كثير، وابن عطية، وظاهر تبويب البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((صحيحه)) وهو الأنسب لسياق الآية، بل وهو الذي تعهده أدلة السنة كما سيأتي معنا في أدلة الباب، ومعلومًا أنه إن أمكن تفسير القرآن بالسنة فلا ينبغي العدول عن ذلك.

إذن الصحيحُ إن شاء الله أن الذين يُفَزَّعُ عن قلوبهم إنما هم الملائكة، وسيأتي تفصيل كيفية ذلك، وسيأتي سبب ذلك في شرح الحديثين القادمين -إن شاء الله-.

قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾[سبأ:٢٣].

إذن الملائكة تخاف وتفزع وتوجل ومن كان هذا شأنه أيكون ربًا وإلهًا؟!

الجواب: لا، وهذا وجه الاستدلال من هذه الآية أن الملائكة لا تصلح لأن تكون آلهة لأنها تخاف وتفزع، ومن كان هذا شأنه لا يصلُح لأن يكون ربًا ومعبودًا.

قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾[سبأ:٢٣]، وذلك إذا تكلم الله عَزَّ وَجَلَّ بالوحي فإنهم يسمعون صوتًا عظيمًا يكون له تأثيرٌ عظيمٌ في قلوبهم فيحصُل لهم فَزَعَ، ثم إنهم

يَمُنُّ الله عَزَّوَجَلَّ عليهم بإزالة هذا الفزع يُفزع عن قلوبهم، ﴿قالوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فتقول طائفة من الملائكة لهم: ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[سبأ:٢٣].

ولأهل العلم قولان في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾[سبأ:٢٣].

الأول: أنَّ المراد أنهم: يقولون قال الله الحق، يعني: كلمة الحق منصوبة على أنها مفعول به أو أنها صفة، قالوا: قال الله القول الحقَّ.

إذن قالوا الحق يعني قالوا: قال الله الحقَّ، أو قالوا: قال الله القول الحقَّ.

وأمَّا القول الثاني: وهو ما نحى إليه ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((تفسيره)): فهو أنه أنهم يقولون ما أمرهم الله عَزَّوَجَلَّ بإبلاغه من الوحي دون زيادة أو نقصان، يقولون الحق ويبلغون الحق، ويكونون أمناء على وحي الله عَزَّوَجَلَّ الذي يأمرهم أن يبلغونه، -فهمنا هذا الوجه- ﴿قَالُوا الْحَقَّ ﴾يعني: يقولون القول الحق، وليس أن الملائكة تقول القول الباطل، إنما يقولون: الحق.

ولكنَّ الأول أولى وهو المناسب لسياق الآية لا سيما وأنَّ ظاهر قوله ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أنَّه تابعٌ لـ ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾.

وعلى التفسير الثاني: يكون كلامًا مستأنفًا وهذه فيه من البُعْدِ ما لا يخفى، فالظاهر والله أعلم وهو الذي عليه أكثر المفسرين أن ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ يعني: قال الله الحق، أو قال الله القول الحق.

في هذه الآية من الفوائد:

إثبات صفة القول لله عَزَّوَجَلَّ، **وصفة العلو، وصفة الكِبر**.

أما القول ففي قول الله جَلَّوَعَلَا ﴿قالوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ [سبأ:٢٣].

إذن الله جَلَّوَعَلَا يقول.

الله جَلَّوَعَلَا ثَبتَ في القرآن والسنة أن من صفاته: القول، والكلام، والحديث، والمناداة، والمنجاة، وكلها بمعنى واحد في الجملة على فروق دقيقة بين هذه الكلمات، لكن في الجملة المعنى واحد فالله يقول وله القول جَلَّوَعَلَا، يتصف بالقول، ويتصف بالكلام، ويتصف بالحديث، ويتصف بالمناداة، ويتصف بالمناجاة.

ومنهج أهل السنة والجماعة وهو الذي مضى عليه السلف الصالح: أن الله جَلَّوَعَلَا يقول ما يشاء، ويتكلم بما يشاء إذا شاء كيف شاء سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وأنَّ كلامه بحرفٍ وصوت، وهذا الذي لا تعرف العرب في لغتها كلامًا سواه، لا يكون الكلام كلامًا إلا إذا كان بحرف وصوت، سيأتي معنا ما يتعلق بإضافة الصوت إلى الله جَلَّوَعَلَا ضمن ما يُشرح من الحديث الذي سيمر معنا -إن شاء الله-.

وخالف في هذه الصفة من خالف من أهل البدع طائفة نفت الكلام عن الله عَزَّوَجَلَّ ونفت القول عن الله عَزَّوَجَلَّ صراحة.

وطائفة نفت الكلام عن الله عَزَّوَجَلَّ بمواربة.

طائفة قالت الله عَزَّوَجَلَّ لا يتكلم إنما كلامُ مفعول مخلوق لله جَلَّوَعَلَا الله عَزَّوَجَلَّ يخلق شيئًا اسمه الكلام مثل ما يخلق السماء والأرض والشجر والحجر كذلك يخلق الكلام.

ولا شك أن هذا من أعظم الباطل بل هذا من الكفر بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وقد أجمع السلف على كفر من قال بأن كلام الله جَلَّوَعَلَا مخلوق، ومن لطيف ما استدل به البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هذه الآية التي معنا ما بوّب به في ((صحيحه)) فقال: باب قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالوا ماذا قَالَ رَبُّكُمْ﴾[سبأ:٢٣] قال البخاري: ولم يقولوا ماذا خلق ربكم؟

وأما الذين نفوا هذا الصفة بمواربة ولم يكونوا صرحاء صراحة الأولين، فهم الذين قالوا إن كلام الله جَلَّوَعَلَا معنًى قائم بذات الله عَزَّوَجَلَّ وسموا هذا الكلام، الكلام النفسي وأنه لا يتبعض ولا يتجزأ بل هو شيء واحد.

وهذا في الحقيقة إن تأملته لم تجده الكلام الذي هو حقًا صفةٌ لله جَلَّوَعَلَا بل هو شيء آخر، وعاد قولهم إلى أن الكلام الذي هو بعض كلام الله الذي هو القرآن مخلوق، فالقرآن الذي بين دفتي المصحف كلام الله جَلَّوَعَلَا، نؤمن أن الله تكلم له وهو بعض كلام الله، وهؤلاء يعتقدون أنه مخلوق؛ لأنه عبارة عن كلام الله أو حكاية عن كلام الله، وعلى كل حال مذهبهم باطل وهذه الآية فيها ردُّ عليها كما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المسائل: (في الآية إثبات الصفات خلافًا للمعطلة).

ثانيًا في الآية: **إثبات صفة العلو**: لله جَلَّوَعَلَا قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[سبأ:٢٣]. الله جَلَّوَعَلَا اسمه: العلي، وصفته: العلو، والعلو في صفة الله جَلَّوَعَلَا ثلاثة أنواع كلها حق وكلها ثابتة له.

وله العلو من الجهات جميعها ذاتًا وقهرًا مع علو الشأن

١/له علو القدر والشأن: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[الإسراء:٤٣].

٢/وله علو القهر: فالله جَلَّوَعَلَا علا على كل شيء، يعني: قهر كل شيء، علا تأتي في اللغة بمعنى: قهر، كما قال سبحانه: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[المؤمنون:٩١].

٣/وله علو الذات هو سبحانه عالم على كل شيء وفوق كل شيء وكل شيء فهو دون الله جل وعلا الله عَجَّلَ له العلو المطلق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يا قومنا والله إن لقولنا ... ألفا تدل عليه بل ألفان

عقلا ونقلا مع صريح الفطرة الأ ... ولى وذوق حلاوة القرآن

كل يدل بأنه سبحانه ... فوق السماء مباين الأكوان

أترون أنا تاركون ذا كله ... لجعاجع التعطيل والهذيان

إذن الله جَلَّوَعَلَا له صفة العلو الذاتي على كل شيء وقد ضل في هذا طائفتان:

١/طائفة تقول: الله ليس في مكان لا داخل العالم ولا خارجه ولا فوقه ولا تحته ولا عن يمينه ولا عن شماله إلى آخر ما يذكرون.

٢/وطائفة تقول: الله في كل مكان.

وكلا الطائفتين ضلت الحق وتجنبت سواء السبيل، بل الأدلة التي لا شك فيها من جهة الشرع ومن جهة العقل ومن جهة الفطرة التي فطر الله الناس عليها كلها متضافرة على أن الله في العلو المطلق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الصفة الثالثة: صفة الكبر قال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[سبأ:٢٣] من أسمائه الكبير، الله جل وعلا له الكبر وله العظمة، بل هو أكبر من كل شيء وأعظم من كل شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإذا كان الله عَزَّوَجَلَّ أكبر من كل شيء وجب أن يكون عند عابديه أكبر من

كل شيء، ووجب أن تكون محبته في قلوبهم أكبر من كل محبه، ويجب أن يكون خوفه في قلوبهم أكبر من كل خوف، بهذا يتحققون بإيمانهم بصفة الكبر لله جَلَّوَعَلَا.

الشاهد: أن هذا الآية ردٌ صريح على الذين ضلوا في شأن الملائكة فجعلوهم شركاء مع الله أو أنهم شفعاء عند الله جَلَّوَعَلَا يملكون الشفاعة، وأنهم يشفعون بلا إذنه، رد الله جَلَّوَعَلَا ذلك عليهم في هذه الآية وفي غيرها من الآيات، ولا يخفاك أن من المشركين من كان يعبد الملائكة، بل في هذه السورة نفسها في سورة سبأ يقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾[سبأ٤٠-٤١] ثم قال الله: ﴿فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلا ضَرًّا﴾[سبأ:٤٢].

الله جَلَّوَعَلَا بين أنه ليس يملك الملائكة نفعًا ولا ضرًا لعابديهم ولا من عبدوهم يملكون لهم نفعًا ولا ضرًا، لأن ذلك بيد الله سبحانه لا شريك له.

إذن انتفى أن يكونوا شركاء مع الله جَلَّوَعَلَا في العبادة، وانتفى أيضًا أن يكونوا شفعاء مع الله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾[النجم:٢٦].

أخيرًا في قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾[سبأ:٢٣] يعني على الراجح قالوا: قال الله الحق، والحق اسم الله جَلَّوَعَلَا، والحق قول الله جَلَّوَعَلَا، ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾[ص:٨٤] ، ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾[الأنعام:١١٥].

والحق في قول الله عَزَّوَجَلَّ هو: الصدق في الأخبار والعدل في الأحكام: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾[الأنعام:١١٥].

فالله جَلَّوَعَلَا لا يقول إلا الحق سواءً كان ذلك في القول الكوني أو في القول الشرعي، فالله جل وعلا يدبر هذا الكون بقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[النحل:٤٠]، كما أنه يقول الحق سبحانه في قوله الشرعي ومنه وحيه الذي يُنْزله على رُسله، ومن ذلك هذا القرآن الذي بين أيدينا: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[الإسراء:١٠٥].

٢٣

٢٣- باب قول الله تعالى:

﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

(المجلس الثاني)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب

قول الله تعالى:

﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[سبأ:٢٣].

في الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله...».

مضى الكلام عن مفتتح هذا الباب، وهو قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[سبأ:٢٣].

أردف المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذلك حديث أبي هريرة فقال: (في الصحيح)، يعني في ((صحيح البخاري))، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خَضَعاناً –أو خُضعاناً»، يجوز الوجهان، خَضَعاناً يعني: خضوعاً، وخُضْعاناً يعني: خاضعين لعظمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إذا قضى الله الأمر في السماء».

قضاء الله جَلَّوَعَلَا دلت الأدلة على أنه ينقسم إلى قسمين:

[القسم الأول]: **إلى قضاء كوني:** ومنه قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾[فصلت:١٢].

[القسم الثاني]: **وقضاء شرعي:** ومنه قوله تعالى ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[الإسراء:٢٣].

وعدم التفريق بين النوعين يوقع في التباس، وربما في ضلال، وذلك أن ما قضاه الله جَلَّوَعَلَا كوناً فإنه واقعٌ ولابد، كل ما قضاه الله جَلَّوَعَلَا كوناً فلا يمكن إلا أن يقع.

أما ما قضاه الله شرعاً فقد يقع وقد لا يقع بحسب ما يشاء الله عَزَّوَجَلَّ، وذلك راجع إلى حكمته تَبَارَكَوَتَعَالَى، فالله جَلَّوَعَلَا قد يشاء وقوع المقضي شرعاً، وقد لا يشاء وقوعه، وذلك من حكمته تَبَارَكَوَتَعَالَى في هذا وفي هذا.

لو قلنا: إن القضاء في قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[الإسراء:٢٣]، لو قلنا: إنه هو القضاء الكوني لكان هذا ضلالاً مبيناً، بل أدى هذا إلى الوقوع في الكفر بالله سبحانه، وذلك أن القضاء الكوني، وقد علمتَ أنه لابد من وقوع المقضي فيه، يقتضي أن لا يعبد إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وعليه فكل ما عُبد فهو الله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[الإسراء:٢٣]، وهذا هو مذهب أهل الحلول ووحدة الوجود، وهذا من أعظم الكفر بالله جَلَّوَعَلَا.

إذن لابد من مراعاة التفريق، وأن القضاء في كل مقام بحسبه.

إذا قضى الله عَزَّوَجَلَّ الأمر في السماء فإن الملائكة تخضع لعظمة الله جَلَّوَعَلَا، ودل هذا الحديث على وصف الملائكة بالخوف والخضوع من الله جَلَّوَعَلَا، وعلى أن لهم أجنحة، وذلك مما دلت عليه أدلة عدة في الكتاب والسنة.

أما ثبوت الأجنحة للملائكة فهذا ما دل عليه قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر:١]، وثبت في ((الصحيحين)) من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ «أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رأى جبريل وله ستمائة جناح، سد الأفق».

وأما ثبوت الخوف والخضوع من الملائكة لله جَلَّوَعَلَا فهذا من أظهر صفاتهم في الكتاب والسنة، والله جَلَّوَعَلَا وصفهم بأنهم ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥]، وهؤلاء الملائكة طائعون لله جَلَّوَعَلَا، هم عالم غيبي بالنسبة لنا، خلقهم الله جَلَّوَعَلَامن نور، ووفقهم لطاعته حتى إنَّ أوقاتهم كلها مستغرقة في طاعة الله جَلَّوَعَلَا، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [النحل:٥] ، طائعون دائبون: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[الأنبياء:٢٦– ٢٨].

فالملائكة يتصفون بعبادةٍ عظيمة لله جَلَّوَعَلَا، ومن أجلى تلك العبادات: الخوف من الله سبحانه، حتى إنَّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رأى جبريل ليلة ما أُسريَّ به كالحلس البالي من خشية الله، الحلس يعني: كالحصير البالي من خشية الله جَلَّوَعَلَا، وهذا دليل على عظمة خوفه من الله عَزَّوَجَلَّ.

والملائكة خلق كثير، لا يحصي عددهم إلا الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[المدثر:٣١]، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر كما في ((الصحيح)) عن البيت المعمور الذي رآه لما عُرج به إلى السماء، أخبر أن جبريل أخبره أن هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، فإذا خرجوا منه لم يعودوا إليه آخر ما عليهم، لا يزور الواحد منهم هذا البيت فيتعبد فيه إلا مرة واحدة فقط، وفي كل يوم يدخله سبعون ألف ملك، وهذا يدلك أنَّ عددهم عددٌ عظيم جداً، هؤلاء الملائكة الكرام مع عظيم خلقتهم وقوتهم ومع ذلك فإنهم يفزعون ويخضعون ويخافون، وبالتالي فإنهم لا يستحقون أن يُعْبَدُوا مع الله عَزَّوَجَلَّ.

«إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان...».

«**كأنه سلسلة على صفوان**»، دل هذا الجزء من الحديث على إثبات كلام الله جَلَّ وَعَلَا، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقضي بكلامه كما تدل على هذا أدلة كثيرة، ومنها ما سيأتي في حديث النواس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويدل أيضاً على ثبوت الصوت في كلام الله جَلَّ وَعَلَا، وأن كلام الله بصوتٍ، وذلك أن هذا الحديث فيه أن الملائكة تضرب بأجنحتها خضعاناً لعظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن الصوت الذي يبلغهم كسلسلة على صفوان ينفذهم ذلك، كما سيأتي في هذا الحديث، ينفذهم: يعني يأخذ بقلوبهم ويدخل إلى قلوبهم، فيصيبهم فزعٌ عظيم، فهذا فيه إثبات كلام الله جَلَّ وَعَلَا.

وإثبات الصوت في كلام الله جَلَّ وَعَلَا، وثبوت الصوت في كلام الله دلت عليه أحاديث كثيرة، جاء في نحو أربعة عشر حديثاً عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في الصحيح وفي غيره، فيها إثبات الصوت في كلام الله جَلَّ وَعَلَا، ومن ذلك ما ثبت عند ((البخاري))، وغيره: «**أن الله تعالى ينادي يوم القيامة بصوته يسمعه من قرُب كمن بعُد: أنا الملك، أنا الديان**»، كذلك ما ثبت في ((البخاري)) وغيره: «**أن الله تعالى ينادي يوم القيامة فيقول: يا آدم، ينادي بصوتٍ، فيقول: يا آدم، أخرج بعث النار من ذريتك**».

فالشاهد أنَّ هذا الحديث فيه إثبات الصوت في كلام الله جَلَّ وَعَلَا، ويشهدُ لهذا ما علقه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في ((صحيحه)) عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورُويَّ عنه مرفوعاً أيضاً

كما عند أبي داود في ((سننه))، لكنَّ الموقوف أصح كما قال الدارقطني في ((العلل))، وإن كان موقوفاً فإنَّ له حكم المرفوع، الشاهدُ أنَّ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «**إذا قضى الله الأمر بالوحي سمعت الملائكة شيئاً، حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم وسكن الصوت قالوا: ماذا قال ربكم، قالوا: الحق وهو العلي الكبير**».

الشاهد: أنهم يسمعون شيئاً، ثم قال: «**فإذا سكن الصوت**»، فدل هذا على أن كلام الله جَلَّ وَعَلَا بصوتٍ.

ولكن تنبه يا رعاك الله إلى أن كلام جَلَّ وَعَلَا ليس ككلام المخلوقين، وأن صوت الله جَلَّ وَعَلَا ليس كصوت المخلوقين، قال الله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾**[الشورى:١١]**، ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾**[مريم:٦٥]**، ﴿**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾**[الإخلاص:٤]**، ﴿**فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ**﴾**[النحل:٧٤]**، ﴿**فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا**﴾**[البقرة:٢٢]**.

فالله جَلَّ وَعَلَا يتصف بصفات اختص بها جَلَّ وَعَلَا ، لا يماثل فيها المخلوقين، ونحن معشر المسلمين نؤمن بما جاء في الكتاب والسنة من صفات الله جَلَّ وَعَلَا على ما يليق به سبحانه، مع اعتقادنا أن صفاته لا تماثل صفات المخلوقين، كما أن ذاته جَلَّ وَعَلَا لا تماثل ذوات المخلوقين.

وهنا مسألة تتعلق بهذا اللفظ: «**كأنه سلسلة على صفوان**»، ما معنى هذا الكلام؟

السلسلة معروفة: الحديدة التي يَربط بعضها ببعض دوائر صغيرة أو كبيرة بحسب حال هذه السلسلة.

والصفوان: الحجر الصلد الأملس، وجر السلسلة من الحديد على الصخرة الملساء صوت عظيم، ويَعْظُم كلما كانت هذه السلسلة كبيرة، فالشاهد أن الحديث جاء فيه: «**كأنه سلسلة على صفوان**»، ليس المراد ههنا أنَّ صوت الله يشبه أو مثل صوت هذه السلسلة، تعالى الله عن أن يشبهه شيء من خلقه: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾**[الشورى:١١]**، إنما التشبيه ها هنا للسماع بالسماع، وليس المسموع بالمسموع، انتبه.

هذا الحديث الشأن فيه كالشأن في حديث الرؤية الذي قال فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر**»، ليس في هذا تشبيه المرئي بالمرئي، إنما فيه تشبيه الرؤية بالرؤية، يعني أنها رؤية واضحة كرؤية القمر، كذلك في هذا الحديث فيه

تشبيه السماع بالسماع، وليس المسموع بالمسموع، يعني أن لكلام الله جَلَّوَعَلَا صوت، وأنه يكون له صوت كما أن السلسلة على الصفوان لها صوت.

أو أن الصوت يوقع في قلوبهم، ويأخذ قلوبهم كما يأخذ صوت السلسلة على الصفوان، ويشهد لهذا التوجيه ما جاء في تتمة الحديث: «**ينفذهم ذلك**».

فالشاهد أن هذا التوجيه يدلك على أن ليس المقصود من هذا الحديث تشبيه الصوت بالصوت، وإنما فيه تشبيه السماع بالسماع.

وبالتالي فأهل السنة والجماعة يستفيدون من هذا الحديث إثبات الصوت لله جَلَّوَعَلَا، ويخالفون في هذا المعطلة، والإمام أحمد كما روى ابنه عبد الله في ((السُّنَّة)) أورد أثر ابن مسعود بلفظ قريب من لفظ البخاري وفيه: **أن الله عَجَّلَ يتكلم فيسمع الملائكة كسلسلة على صفوان**، قال الإمام أحمد : (هذا تنكره الجهمية).

فأهل السنة وسط، يثبتون الصوت خلافاً للمعطلة، ويعتقدون أن صوت الله جَلَّوَعَلَا لا كصوت المخلوقين خلافاً للممثلة، والله جَلَّوَعَلَا أعلم.

«...ينفذهم ذلك: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾...».

«**ينفذهم ذلك**» يعني يأخذ بقلوبهم، ويصل إلى قلوبهم.

﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾[سبأ:٢٣]، ﴿حَتَّى إِذَا﴾ تفيد في اللغة معنى: لما، إذا وجدت في اللغة: ﴿حَتَّى إِذَا﴾: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾[الأنبياء:٩٦]، فإن المعنى ماذا؟ لمَّا، لما فتحت يأجوج ومأجوج، لما فُزِّعَ عن قلوبهم.

وقلنا: إن معنى فَزَّعَ: زال الفزع، أزال الله جَلَّوَعَلَا الفزع عن قلوب الملائكة، والفزع -كما قد علمنا- هو: الخوف المفاجئ، فإنهم يقولون ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾[سبأ:٢٣]، ثم يجيب بعضهم بعضاً ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[سبأ:٢٣]، أو كما سيأتي في حديث النواس، وما سيأتي أيضاً من ذكر حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «**أن جبريل يقول : قال الحق وهو العلي الكبير، فتردد الملائكة ما قال، يقولون: قال الحق وهو العلي الكبير**».

«فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض»

«فيسمعها مسترق السمع» مسترق السمع: مفرد مضاف فيعم، يعني: مسترقو السمع من الجن، وذلك أن الله جَلَّوَعَلَا لحكمته شاء أن يكون للجن قدرةٌ على استراق السمع من السماء، هم لا يسترقون السمع من داخل السماء؛ لأن السماء محفوظة، لا ينفذون إليها: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾[الأنبياء:٣٢]، لكنهم يقعدون في مقاعد خاصة بهم دون السماء المبنية يسترقون السمع، وذلك أن الملائكة في السماء الدنيا إذا تحدثوا بما قضى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى من أمره، فإن هؤلاء الجن ربما وجدوا شيئاً من السماع أو حصل لهم شيء من السماع، فيلقونه إلى من تحتهم حتى يصل إلى الكاهن أو الساحر.

وفسر هذا سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وهو سفيان بن عيينة أحد أئمة العلماء السابقين المتوفى سنة ثمان وتسعين ومائة: **حرف يده وبدد بين أصابعه**، وفي رواية ((البخاري)) الأخرى: **«نصب يده اليمنى وبدد بين أصابعه»**، ما جعلها ملتصقة، وإنما جعلها مفرجة، فجعل الخنصر إلى جهة الأسفل وجعل الإبهام إلى جهة الأعلى، يعني أن بعضهم فوق بعض كما أن هذه الأصابع بعضها فوق بعض، فالجن بعضهم يكون فوق بعض، وبالتالي فإذا سمع من فوق شيئاً من الخبر ألقاه على الجني الذي تحته، والذي تحته يلقيه على من تحته وهكذا.

-وصفه سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه - فَيُسْمِعُ الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه.

كما علمت هؤلاء الجن يتراكبون فيكون بعضهم فوق بعض، ويلقي الأعلى على الأسفل ما سمعه حتى يوصلها الآخر منهم إلى الساحر أو الكاهن، هكذا جاءت الرواية، -وبين الساحر والكاهن فرق سنتحدث عنه إن شاء الله في وقته حينما نأتي إلى باب ما جاء في السحر، أو حينما نتكلم عن الكهان إن شاء الله-، وربما يشاء الله جَلَّوَعَلَا أن يصيب الجنيَّ الشهابُ قبل أن يُلقى إلى هذا الساحر أو الكاهن، وربما ألقاها قبل أن يصيبه الشهاب، والشهاب هو: النيزك، جسم أو شيء ناري ينفصل عن النجوم، تُرجم به

الشياطين، هؤلاء الجن يُرجَمون بهذه النيازك وهذه الشهب، وأحوال استراق السمع وإصابتهم بهذه الشهب تنقسم إلى ثلاث:

[الحال الأولى]: قبل بعثة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: كَثُرَ استراق الجن للسماع، وكان يصيبهم شيء من هذه الشهب.

والحال الثانية: لما بُعث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لم يتمكن الجن من استراق السمع، وهذا من رحمة الله جَلَّوَعَلَا وحكمته حتى لا يحصل اختلاط بين الوحي المنزل من الرحمن مع ما يوحيه الجني إلى الكهان: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾[الجن:٩]، ما تمكنوا من استراق السمع إبان البعثة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام.

الحال الثالثة: بعد وفاة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عاد إمكان استراق السمع إلى الجن، ولكن بأقل مما كان عليه الأمر في الجاهلية.

المقصود أن الله جَلَّوَعَلَا لحكمته مكن هؤلاء، وهو القادر على منعهم، لكن لله الحكمة، مَكَّن هؤلاء الجن من استراق السمع ومن نقل ما يصل إلى أسماعهم مما تلقيه أو يتذاكره الملائكة فيما بينهم من أمر الله جَلَّوَعَلَا.

وقد دل الدليل على أن الجن قد يسترقون السمع مما يقوله ملائكة السماء الدنيا، وقد يسترقون السمع بعد نزول الملائكة من السماء، يدل على هذا ما ثبت في ((البخاري)) من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا أنها قالت: قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«إن الملائكة تنزل في العنان، -وهو السحاب-، فتتذاكر ما قضى الله عَزَّوَجَلَّ من الأمر في السماء، فتسمعه الجن، فتلقيه إلى أوليائهم من الكهان، فيزيدون عليه، فيكذبون ويزيدون عليه»**.

الشاهد: أن هذا دليل على أنهم قد يستمعون ويسترقون السمع لما يُذكر في السماء، وقد يكون ذلك بعد نزول الملائكة من السماء، لأنهم ينزلون في العنان، والسحاب ليس في السماء، وإنما دون السماء: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[البقرة:١٦٤].

فيكذب معها مائة كذبة، فيقال:...

هل الذي يكذب هو مسترق السمع؟ **هذا قول لأهل العلم**.

أو الذي يكذب الساحر أو الكاهن؟ **هذا القول الثاني**، ولعله أقرب، أنه يكذب ويخلط هذا الذي بلغه من الخبر الصادق الذي سمعته الجن من الملائكة، يكذبون ويخلطون معه مائة كذبة.

فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا، فيُصدق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء».

سبحان الله العظيم! انظر إلى هذا الأمر العجيب، وكيف أن النفوس فيها تعلق بالباطل عجيب، كيف أن الجهال يغترون بسبب هذه الكلمة الصادقة الواحدة، ولا يعتبرون بكذبات كثيرة قالها هذا الساحر أو الكاهن، ما التفتوا إليها وما تذكروها، ما تذكروا إلا الكلمة الصادقة التي قالها فوقع الأمر الذي ذُكر وكان صادقاً، مع أنه ذكر أشياء كثيرة، أضعاف أضعاف أضعاف هذا الأمر الصادق، وتبين لهم أنه كان كاذباً فيها، وما قالوا هو كاذب ولا التفتوا إليه، إنما اعتبروا فقط بهذه الكلمة الصادقة الواحدة، وما التفتوا إلى تلك الكذبات.

وهذا فيه: أن النفوس قد تتعلق بالباطل، وأن أهل العلم والعقل الراجح ينبغي عليهم أن يَزِنُوا الأمر بخلاف ذلك، وبالتالي نستفيد أنه لا ينبغي أن يُغتر بضال المبتدع أو فرقة ضالة مبتدعة بسبب وجود شيء من الحق فيها، إذا كان عامة ما فيها انحراف عن جادة الحق وفيها شيء من حق، أو ربما أصاب هذا المتكلم مرة أو مرات، أو كان لهذه الفرقة موقف صحيح مرة أو مرات، لا ينبغي أن يُغتر بذلك، بل ينبغي أن يوزن حال الشخص أو الجماعة أو الفرقة في عموم أحوالها، ثم يُنظر بعد ذلك إن كانت موافقة أو مخالفة، أما لأجل موقف واحد صحيح أو كلمة أصابوا فيها نجعل منهجهم صحيحاً، لا شك أن هذا ليس مسلكاً صحيحاً، وأنَّى يكون في الفرق الضالة أو في أهل البدع الضلال الخالص؟! لابد أن يكون عند كل فرقة من فرق أهل الضلال والبدع شيء من حق، ولابد أن يكون عند كل مبتدع ضال مخرف شيء من الحق، أما أن يكون حال الفرقة الضلال المحض بحيث لا يكون فيها شيءٌ من الحق، هذا لا يكون، لابد أن يكون في كل طائفة مسلمة أو غير مسلمة ينتمي إليها أحد وأقبل إليها أحد من الناس، لابد أن يكون عندها طرف من الحق ولو قلَّ، وبسبب هذا الحق القليل تُقبِل الناس؛ لأن عندهم شيئاً من اللبس، يلبسون الحق بالباطل،

ولا شك أن هذا لا ينبغي أن يكون مانعاً من الحذر والتحذير، لا ينبغي أن يكون هذا مانعاً من الحذر والتحذير، نعم، لا يُجحد الحق، ولا يُقال: إن الحق باطل، لكن أيضاً ليس بسبب هذا الحق القليل أصبحت هذه الفرقة مُسلَّمة لا شية فيها، فينبغي أن توزن الأمور بميزان معتدل صحيح.

وتأمل فائدة ثانية -يا رعاك الله-، وهي ما يحصل لهؤلاء الجن وأوليائهم من الشدة العظيمة ومع ذلك هم صابرون عليها، يقتحمون المهلكات ويعرضون أنفسهم للهلك، يعرضون أنفسهم للهلكة بسبب أنهم يريدون أن يوفوا بما وعدوا أولياءهم عليه ويصدقون مع أوليائهم وهم على باطل وهم على ضلال، ومع ذلك هم صابرون ومصابرون، فأهل الحق أولى أن يصبروا على حقهم وأن يتحملوا الشدائد في سبيل إبلاغه وإيصاله، هؤلاء ضالون وصبروا على ضلالهم، أهل الحق أولى أن يصبروا على حقهم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن النواس بن سمعان أنه قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر».

هذا حديث النواس بن سَمعان، ويجوز أن تقول: سِمعان، يجوز في السين الفتح والكسر، والحديث الذي تسمع بَيَّضَ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمخرجه، يعني: ما ذكر من أخرجه، وقد أخرجه جمع من العلماء كابن أبي عاصم في ((السُنَّة))، والطبري في ((تفسيره))، وأبو نعيم في ((الحلية)) وغيرهم من أهل العلم، لكن التحقيق أنه ضعيف الإسناد، فإن في إسناده نعيم بن حماد الخزاعي وهو ضعيف الرواية، وكذلك الوليد بن مسلم عنعن، وفي تدليسه بحث معروف عند طلاب الحديث.

الشاهد أنَّ الحديث في ثبوته عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ نظر.

لكن يشهد لبعض ما جاء فيه أحاديث أخرى كحديث أبي هريرة -الذي مر معنا قبل قليل- وهو عند ((البخاري))، وكذلك يشهد لبعض ما جاء فيه حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا وهو في ((صحيح مسلم))، وفيه أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أخبر: **«أن الله تعالى إذا تكلم بالوحي سبح حملة العرش، فيسبح الذين يلونهم ثم الذين يلونهم حتى يسبح الملائكة جميعاً، ثم تقول الملائكة الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال**

ربنا؟، فيخبرونهم ثم يخبرون من بعدهم حتى يخبرون أهل السماء الدنيا، فتسمع الجن ذلك ثم تلقيه إلى أوليائهم ...» الحديث.

الشاهد أن في الحديث ما يشهد لبعض ما جاء في حديث النواس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ،

وعلى كل حال لعل المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ تابع ابن خزيمة في تصحيح هذا الحديث، فإنه أخرجه في ((كتاب التوحيد)) له، ولا يذكر في هذا الكتاب إلا ما صح عنده، والله أعلم.

قال: «إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي».

هذا فيه فائدة، وهي: أن الكلام صفة فعلية متعلقة بمشيئة الله جَلَّوَعَلَا لأنه قال: «**إذا أراد الله**»، حينما يريد الله عَزَّوَجَلَّ أن يوحي فإنه يوحي ويتكلم جَلَّوَعَلَا ، وليس الأمر كما قال أهل البدع: إن كلام الله جَلَّوَعَلَا شيء واحد قائم بذات الله يعني من جنس الصفات الذاتية، يعني: كحياة الله، وعلم الله، الأمر ليس كذلك، بل الله جَلَّوَعَلَا يتكلم إذا شاء بما شاء كيف شاء، جل ربنا وعز.

«إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة، أو قال: رعدة شديدة».

إذا أراد الله جَلَّوَعَلَا أن يوحي فإن السماوات يصيبها الخوف والفزع من الله.

السماوات هذه المخلوقات السبع العظيمة، التي هي من أعظم المخلوقات تخاف وتفزع من الله جَلَّوَعَلَا حتى أنه يصيبها رجفة، الرجفة: حركة واضطراب بانزعاج، والرعدة مثلها لكن أخف منها، فإذا كانت السماوات تخاف من الله جَلَّوَعَلَا، فكيف بنا يا بني آدم؟

وفي هذا فائدة، وهي: أن الجمادات قد جعل الله جَلَّوَعَلَا لها شعوراً به تتعبد لله جَلَّوَعَلَا، فالجمادات لها حياة تليق بها وتخصها، وهذا الذي قلنا إنه هو الشعور، ولأجل ذلك فهذه السماوات -كما في هذا الحديث- يصيبها الخوف والفزع والرجفة من الله جَلَّوَعَلَا، وقد أخبرنا الله جَلَّوَعَلَا أيضاً أن السماوات تسبح لله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾[الإسراء: ٤٤].

وهذا له أدلة كثيرة، جمع ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ طائفة منها، وكذلك البغوي في ((تفسيره))، فالطعام سبح بين يدي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وسمعته الصحابة، سمعته سماعاً حقيقياً، كذلك

الحجر كان يسلم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كذلك الجذع حَنَّ واستجاب أيضاً لتهدئة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له: «**جبل أحد يحبنا ونحبه**»، واستجاب لأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما قال له: «**اسكن أحد**»، في أدلة كثيرة تدل على هذا الأصل.

«فإذا سمع ذلك أهل السماوات صُعقوا وخروا لله سجداً».

هذا الحديث يدل على أنه يحصل -إن صح- للملائكة أمران:

أنهم يُصعقون يعني: يُغشى عليهم.

وأنهم أيضاً يسجدون.

إذن يخافون ويفزعون وأيضاً يُصعقون وأيضاً يسجدون.

وهذه صفات لا يمكن أن يتصف بها الرب أو الإله، إذن ليست مستحقة للعبادة، وهذا الحديث فيه أنهم يُصعقون ويسجدون، والله تعالى أعلم أي ذلك يكون قبل، فإن العطف بالواو لا يدل على الترتيب، بعض العلماء قال: إنهم يُصعقون ثم يفيقون ثم يسجدون، لكن هذا يحتاج إلى دليل، فالله أعلم كيف يكون الأمر.

«فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ».

جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أول من يفيق وأول من يرفع رأسه، وهو أعظم الملائكة وسيد الملائكة، جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ معنى اسمه: عبد الله، والله جَلَّ وَعَلَا وصفه بصفات عظيمة: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[التكوير:١٩]، هذا الوحي قوله من جهة الإبلاغ لا من جهة أنه هو الذي أنشأ هذا الكلام، بل إن هذا الوحي كلام الله، تكلم به جَلَّ وَعَلَا ابتداءً، لكنه قوله إبلاغاً: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ ماذا؟ ﴿مَكِينٍ﴾[التكوير:١٩-٢٠] ثم قال ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[التكوير:٢١]، فهو مطاعٌ وهو أيضاً له التقدم على الملائكة، وهو أمين يبلغ كما أمر الله جَلَّ وَعَلَا بدون زيادة أو نقصان.

«فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد».

أول من يرفع رأسه جبريل؛ لأنه هو الملك الموكل بالوحي، قبل بقية الملائكة يفيق جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فيكلمه الله من وحيه بما أراد، وهذا أيضاً يؤكد ما سبقت الإشارة إليه، وهو أن كلام الله جَلَّ وَعَلَا صفة متعلقة بمشيئته.

«ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عَزَّوَجَلَّ».

في هذا أنَّ جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ينزل بعد أن يسمع الوحي من الله جَلَّوَعَلَا ، وفي هذا ما يشهد بأن القرآن سمعه جبريل من الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ مباشرة، ثم بلغه إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وليس أن جبريل كما يقول المخالفون لأهل السُنَّة إنما تلقى هذا القرآن من اللوح المحفوظ، ليس الأمر كذلك، وإنما سمع وحي الله –ومنه القرآن– من الله جَلَّوَعَلَا مباشرة.

الشاهد أنه ينزل بهذا الوحي فكلما مر على سماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟، فيجيب: قال الحق وهو العلي الكبير، فكلهم يردد هذه الكلمة، كل الملائكة يرددونها، كلهم يقولون: قال الحق وهو العلي الكبير، وهذا يقولونه في مقام الثناء على ربهم تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ، وهذا دليل على عظيم إيمانهم وتعظيمهم للباري سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ حتى ينزل جبريل بالوحي حيث أمره الله فيبلغه الله من أمره الله عَزَّوَجَلَّ بإبلاغه.

الشاهد وأعود، والعود أحمد إلى حيث بدأنا وهو أن المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ أراد أن يثبت من خلال هذا الباب أن الملائكة ليسوا أهلاً للعبادة، كما أن الأولياء والصالحين والأنبياء ليسوا أهلاً للعبادة، وهذا ما دل عليه الباب الذي قبله، وإذا كان هؤلاء وهؤلاء ليسوا أهلاً للعبادة فغيرهم من باب أولى، والمستحق للعبادة هو الله عَزَّوَجَلَّ وحده لا شريك له.

وهو عَزَّوَجَلَّ أعلم.

٢٤

٢٤- باب الشفاعة

(المجلس الأول)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب الشفاعة

عقد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب المهم وهو ما يتعلق بالشفاعة وذلك لعظيم الحاجة إلى فقه هذا الموضوع، فإنَّ موضوع الشفاعة من الموضوعات التي جديرٌ بكل مسلم أن يفهمها الفهم الصحيح في ضوء الكتاب والسنة، فإنَّ الخلل في هذا المقام كان سببَ وقوع الشرك كثيرًا قديمًا وحديثًا.

فإنَّ من أعظم أسباب شرك المشركين الأولين طلبَهم الشفاعة من آلهتم قال جَلَّوَعَلَا عنهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سبحانه وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[يونس:١٨].

الشفاعة في اللغة: هي التوسط للغير في طلب خيرٍ أو دفع مضرة.

وإن شئت فقل هي: سؤال الخير للغير.

وأصل هذه المادة يدل على الضم والاقتران، فكأن الشافعَ ضمَّ صوته وسُؤله إلى صاحب الحاجة فكان شفعًا؛ أي: زوجًا في السؤال.

والمراد بالشفاعة في هذا الباب وأمثاله إنما هو الشفاعة الأخروية التي تكون يوم القيامة، وهي التي يسأل فيها الشفعاء جلب الخير أو دفع المضرة عن الموحدين يوم القيامة، هذه هي الشفاعة التي نبحث فيها في هذا الباب.

والشفاعة اختلف الناس فيها وانقسموا إلى ثلاثة طوائف:

فطائفة جفت فأنكرت بعض الشفاعة وهم الوعيدية من الخوارج والمعتزلة.

وطائفة غلت في موضوع الشفاعة حتى أشركت بالله جَلَّوَعَلَا.

وطائفة توسطت وهم أهل الإسلام الصافي هم أهل السنة والجماعة السلف الصالح وأتباعهم.

الشفاعة من تأمل ما جاء فيها فالنصوص يجد أنها جاءت تارة منفية وجاءت تارة مثبتة.

من تأمل أدلة الكتاب والسنة وجد أن الشفاعة وردت تارة منفية كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ﴾[البقرة:٢٥٤].

وتارة جاءت مثبتة، والغالب أن ترِد مثبتة في القرآن على سبيل الاستثناء: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة:٢٥٥]، ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[الأنبياء:٢٨].

كما سيأتي -إن شاء الله- فيما أَورد المؤلف.

وضابط الشفاعة المنفية يرجع إلى ما يأتي:

أولاً: الشفاعة التي يُظن أن تكون بلا إذن من الله.

ثانيًا: الشفاعة التي تُطلب للكفار.

ثالثًا: الشفاعة التي تُطلب من غير الله.

رابعًا: الشفاعة التي ظنها المشركون وهي من جنس الشفاعة الدنيوية.

كلام أهل العلم في الشفاعة المنفية يدور على هذه الأمور الأربعة.

أما الشطر الثاني وهو الشفاعة المثبتة يعني التي تقع وتحصل وتكون يوم القيامة.

فضابطها: أنها الشفاعة التي تكون بعد إذن الله، فيمن رضيَّ عنه.

إذن متى اجتمع هذان الشرطان حصلت الشفاعة أي كانت شفاعة مثبتة واقعة يوم القيامة.

شفاعة تكون إذا أذن الله عَزَّوَجَلَّ.

وتكون فيمن رضيَ الله عَزَّوَجَلَّ عنه.

والله لا يرضى إلا التوحيد وأهله، الله لا يرضى إلا عن الموحدين، أما الذين أشركوا مع الله جَلَّوَعَلَا فلا شفاعة: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[غافر:١٨].

الشفاعة في أهل التوحيد لا غير، ثبت في الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وله ألفاظ متعددة في الصحيين وغيرهما أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لكل نبي دعوة مستجابة فتعجَّل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله، من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا**»

إذن الشفاعة والتوحيد أمران مقترنان؛ بمعنى: لا تكون شفاعة إلا بالتوحيد.

وأما الشرك فهو مانع من الشفاعة لا يمكن أن يجتمعان، لا يمكن أن يجتمع أن يكون شرك وشفاعة هذا أمر لا يمكن أن يكون، حَكْمَ الله جَلَّوَعَلَا بذلك.

أما الشفعاء يوم القيامة فإنهم ثلاثة أصناف جمعهم ما جاء في ((الصحيحين)) من حديث أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، والحديث حديث الشفاعة الطويل، وفيه: «**أن الله تعالى يوم القيامة يقول: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون وما بقيَ إلا رحمة أرحم الراحمين**»

فهؤلاء الأصناف الثلاثة هما الشفعاء يوم القيامة الملائكة والأنبياء والصالحون.

وأما الشفاعات الواقعة يوم القيامة، أعني الشفاعات المثبتة، فقد درج كثير من أهل العلم على تقسيمها إلى قسمين:

[القسم الأول]: شفاعة خاصة أي بالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يشركه فيها أحد بالإجماع.

[القسم الثاني]: الشفاعة العامة، يعني: التي تكون له صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ولغيره من الشفعاء.

أما ما اختص به النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالإجماع:

[الشفاعة الأولى]: الشفاعة العظمى، وهي: المقام المحمود على الصحيح، وذلك أن يشفع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عند ربه أن يُفْصَل في القضاء بين العباد بعد أن يتأخر أولو العزم وأبو البشر آدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، حتى يقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أنا لها**» فينطلق فيستأذن على ربه ويخر له ساجدًا ويتركه الله جَلَّوَعَلَا ساجدًا ما شاء أن يتركه، ويفتح عليه بثناءٍ عليه ومحامد لم يكن يحسنها صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثم يقول الله جَلَّوَعَلَا له: «**يا محمد ارفع رأسك، وسل تُعطى، وقل يسمع، واشفع تشفع**».

الشفاعة الثانية: **الشفاعة في دخول أهل الجنة**، وذلك أن أهل الجنة إذا خلصوا من الصراط أتوا إلى الجنة، -وأسأل الله أن يجعلني إياكم منهم- فوجدوا أبوابها مُغلقة، لا تُفتح حتى يشفع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عند ربه فيأذن الله عَزَّوَجَلَّ بفتح أبواب الجنة فيدخلونها.

الشفاعة الثالثة: شفاعته صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في عمِّه أبي طالب أن يخفف عنه العذاب، فقد ثبت في ((الصحيح)) أن العباس بن عبد المطلب قال للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ فقال النبي**

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **نعم هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»**، وهذه الشفاعة مستثناةٌ من شرط الرضا عن المشفوع فيه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾[القصص:٦٨].

أما الشفاعات التي تكون له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولغيره من الشفعاء فمنها ما حصل فيه الخلاف، هل هي خاصة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم عامةٌ له ولغيره؟ لكن ميزة التي قبلها هي أنه مُجْمَعٌ على اختصاص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها، وهذه الشفاعات الذي ثبت منها ما يأتي:

[الشفاعة الأولى]: الشفاعة في دخول من لا حساب عليه الجنة، وذلك ما ثبت في حديث أبي سعيد وفي حديث غيره في ((الصحيحين)) أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما يسجد تحت العرش لربه، ويقول الله عَزَّ وَجَلَّ له ما سلف أن ذكرت، يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أمتي، أمتي»** فيقول الله جل وعلا: **«يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس في سائر الأبواب»**.

الشفاعة الثانية: الشفاعة في قوم دخلوا النار من أهل التوحيد أن يخرجوا منها، وهذه الشفاعة ثابتةٌ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما أنها ثابتةٌ لغيره.

أمَّا له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيدل على ذلك أحاديث عدة، ومنها ما ثبت في ((الصحيح)) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«يخرج قوم من النار بشفاعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُدْخَلُون الجنة يسمون الجهنميين»**.

وأمَّا في حق غيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فما جاء من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ((الصحيح)) وفيه: **«أن المؤمنين إذا خلصوا وكانوا من أهل الجنة يقولون: يا ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا، ويعملون معنا فيَحد الله جل وعلا لهم حدًا فيخرجون من النار»**.

فهذا دليل على أن الشفاعة تكون للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتكون لغيره.

هذه الشفاعة هيا معترك الخلاف بين أهل السنة والجماعة والوعيدية، إذ هي التي أشتدد إنكار الوعيدية لها، ولا شك أن الأدلة الصحيحة الثابتة الكثيرة ترد قولهم.

الشفاعة الثالثة: الشفاعة في قوم استحقوا النار ألا يدخلوها، وهذه الشفاعة توقف فيها بعض أهل العلم كابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ كما في ((تهذيب السنن))، لكن الصحيح الذي

لا شك فيه أنها ثابتة، بل ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا النوع لم ينكره إلا أهل الوعيد، فكأنه يحكي إجماع أهل السنة عليها.

ويدل عليها دليلان:

أما الأول: فما استدل به الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((فتح الباري)) من رواية عند ((مسلم)) وفيها: أنَّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لما ذكر أن الصراط يُضرب على متن جهنم قال: **«فتحل الشفاعة، اللهم سلم سلم»**.

يُشير إلى أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يقولون في ذلك المقام اللهم سلم، سلم ولا شك أن هذا دعاءٌ يتضمن شفاعة في حق من يمر على الصراط، وفيهم من استوجب النار.

أما الدليل الثاني: فعمومه قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»**، وما جاء في معناه فإنه يدل بعمومه على أن الشفاعة حاصلة لأهل الكبائر، وأهل الكبائر هذا الكلام يتضمن من دخل النار ومن لم يدخلها بعد، والله جَلَّوَعَلَا أعلم.

هذا باختصار ما يتعلق بالشفاعات الأخروية.

وعودًا على ما أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب لأجله وهو أنني ذكرت لك أن أكثر شرك المشركين في القديم والحديث إنما كان لأجل تعلقهم بالشفاعة فصرفوا العبادة لغير الله لأجل ذلك، وهم كانوا إمَّا يَصْرِفُونَ أنواع العبادات لهذه الآلهة، التي يظنون فيها الشفاعة فيذبحون، وينذرون، ويسجدون؛ لأجل أن تعطف عليهم، فتشفع لهم عند الله، أو أن يطلبوا الشفاعة منها مباشرة؛ فيسألون الأشجار، والأحجار، ويسألون الأصنام والملائكة، ويسألون الأموات أن تشفع لهم عند الله.

وهذا كان يقع فيه المشركون قديمًا من أهل الجاهلية ومن النصارى فإن من قولهم الذي اتفق المسلمون على أنه من أعظم الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ أنهم كانوا يقولون: (يا والدة الإله اشفعي لنا عند الإله)، ينادون مريم عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ، وهذا مما اتفق المسلمون على أنه شرك أكبر.

الشاهد: أنَّه لا فرق بين أن يُذبح لغير الله لأجل أن يشفع، أو أن يُدعى لأجل أن يشفع، هذه عبادة وهذه عبادة فمتى صُرفت هذه أو تلك؛ لأجل تحصيل الشفاعة فإنَّ هذا شرك بالله جَلَّوَعَلَا وهو سبب لمنعها.

ويا لله العجب! انظر إلى هذا الخذلان كيف أنَّهم قد عَظُمَ في نفوسهم طلبُ الشفاعة فطلبوها بسبب كان مانعًا لهم منها، والموفق من وفقه الله.

قد يقول قائل: إنَّ هؤلاء المشركين قصدوا تعظيم الله فقالوا إن الله عظيم، ونحن مذنبون متلطخون بالمعاصي فلا يناسب أن نسأل الله مباشرة إنما نجعل بيننا وبينه واسطة يشفعون لنا عند الله، قد يقول قائل: إن قصدهم حسن؛ فلأجل ماذا كان مشركون مخلدين في النار؟

والجواب عن هذا من وجهين:

[الوجه الأول]: سلمنا جدلاً أنهم قصدوا تعظيم الله، لكنهم من وجه آخر وقعوا في مسبة الله وتنقص حقه وقدره، فاستحقوا العقوبة على ذلك.

والوجه الثاني: أن يقال إنهم ما عظَّموا الله عَزَّوَجَلَّ ليس صحيحًا أنهم ما عظموا الله ليس صحيحًا أنهم عظموا الله، ولو عظموا الله وقدروه حق قدره ما صرفوا خالص حقه لغيره، ولما أشركوا مع الله غيره، ولوحدوا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، إنما هم شبهوا الله جَلَّوَعَلَا بملك من ملوك الدنيا يهابونه ويخافون ظلمه وسطوته فاتخذوا الشفعاء لأجل ذلك لا غير، وإلا فالواقع أن هؤلاء المشركين وقعوا في أمر عظيم؛ فقد تنقصوا عظمة الإلهية، وهضموا حق الربوبية، وأساءوا الظن برب العالمين.

الواقع أنَّ المشركين الذين اتخذوا من دون الله شفعاء، وقعوا في هضم حق الربوبية وانتقاص عظمة الإلهية، وأساءوا الظن برب العالمين، كان منهم سوء الظن بالله وصدق الله في وصفهم: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[الفتح:٦]، ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[فصلت:٢٣].

كلا والله ما عَظَّمُوا الله بل أساءوا الظن بالله.

ويدل على ذلك أمور تأملها -يا رعاك الله- فإنك تجدها حاصلة في هؤلاء المشركين أو تجد بعضها حاصلاً ولا بد، فهؤلاء المشركون:

أولاً: ظنَّوا أن الله لا يرحم حتى يرفع إليه الشافع الحوائج، ولا يسمع الدعاء ولا يجُيبه حتى يرفع إليه الشافع ذلك، وذلك سوء ظن بالله جَلَّوَعَلَا وانتقاص لعظيم علم الله عَزَّوَجَلَّ وواسع سمعه وكبير رحمته.

[ثانيًا]: أنهم ظنوا أن لهؤلاء حقًا على الله عَزَّوَجَلَّ لهؤلاء الشفعاء أن لهم حقًا على الله عَزَّوَجَلَّ، ولأجل هذا فإنه لا يمكن أن يُرد لهم طلب لهم إدلالٌ على الله ولهم حق على الله، ولذلك لا يمكنه أن يخالف شفاعتهم وهذا لا شك أن مما يدل على أنهم ما عظموا الله عَزَّوَجَلَّ؛ إذ جعلوا لهؤلاء حقًا عليه استحقوه بأنفسهم، وأنهم يُدلون على الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ إدلالاً.

[ثالثًا]: وهو أنهم قد عَظُمَ في قلوبهم التعلق بهؤلاء الشفعاء حتى إنهم صرفوا لهم لب الرجاء وعظيم الاعتماد والتوكل، حتى قال قائلهم:

إن لم تكن في ميعادي آخذًا بيدي فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم

عظم تعلقهم بهؤلاء الشفعاء، ولأجل هذا رجوهم وصرفوا لهم العبادة وتوكلوا وقصدوا هؤلاء دون الله جَلَّوَعَلَا ، وهذا لا شك أنه من انتقاص حق الله جَلَّوَعَلَا في ربوبيته، وألوهيته.

الحق الذي لا شك فيه أن الشفاعة لله جَلَّوَعَلَا مِلكًا واستحقاقًا: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:٤٤] من تأمل هذه الآية زال من قلبه كل شبهه تتعلق بهذا الموضوع، الأمر -يا رعاك الله- إنما هو من الله وإلى الله، الأمر كله راجعٌ إلى الله، الله جَلَّوَعَلَا هو الذي أراد أن يرحم عبده، ولأجل هذا أَهلَ المشفوع له للسبب الذي يستحق به الشفاعة، وأَهْلَ الشافع للسبب الذي كان به شافعًا، وحَرَّك قلب الشافع لأجل أن يشفع، وأذن للشافع أن يشفع، بل أمر الشافع أن يشفع، فقال: (له اشفع تشفع)، ثم هو الذي تفضل بقبول الشفاعة، فعاد الأمر ابتداءً وانتهاءً إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إذن حقيقة الحال أنه شفع من نفسه إلى نفسه، حقيقة الحال ما اخبر الله أَهْلَ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:٤٤].

إذن كل الإشكال كان عند هؤلاء راجعًا إلى قياس فاسد، قاسوا الشفاعة الأخروية على الشفاعة الدنيوية وهذا مَرْبَطُ الإشكال، وأنت إذا تأملت في النصوص وجدت السبب الذي كانت لأجله الشفاعة غالبًا منفية في القرآن، في نحو عشرين موضعًا تجد أنَّ الشفاعة منفية لم؟ لأجل أن يزول عن القلوب أدّنى توهم أنَّ الشفاعة التي تكون يوم القيامة عند الله هي من جنس هذه الشفاعة التي يعهدها الناس في الدنيا، الأمر ليس كذلك، انتبه! فهذا هو الفرقان بين الحق والباطل بين التوحيد والشرك.

الشفاعة التي يعهدها الناس في الدنيا في الغالب ترجع إلى ضربين:

[الضرب الأول]: **شفاعة وجاهة**، بمعنى: أن يشفع الوجيه ذو النفوذ عند ذي السلطان فيطلب منه أن يعفو عن مسيء مثلاً، وتجد أن صاحب السلطان قد يقبل مُرغمًا ربما لا يريد أن يشفع عنده أحدٌ أصلاً في هذا الموضوع فيشفع عنده على رغم عنه، ثم قد يكون لا يريد أن يعفو عن هذا، لكنه يرضى تحت وطأة هذه الشفاعة، لأجل أنه محتاج إلى هذا الرجل صاحب الوجاهة والنفوذ قد يكون تاجرًا غنيًا، قد يكون وزيرًا، قد يكون صاحب الجند فهو لا تتم مملكته إلا بأن يكون هؤلاء حوله، وأن تكون طاعتهم له؛ فلأجل خوفه من نفورهم يخضع لشفاعتهم ويقفل شفاعته.

الضرب الثاني: **شفاعة المحبة**، أن يشفع الحبيب عند محبه تجد أنه يشفع ابن السلطان، أو زوجه، أو صديقه عنده أن يعفو عن هذا المسيء، فتجد أنه يقبل بهذه الشفاعة ولو كان في الأصل لا يريد أن يعفو لأنه لا يصبر عن جفوة حبيبه فيرضخ ويأذن، أو ربما تبين له ما كان غائبًا عنه ربما أفصح له وأعلموه بأنه لا يستحق العقوبة، وبالتالي فإنه يقبل هذه الشفاعة؛ لأنه ظهر له الحق، أو ربما خوفوه بعواقب تترتب على إنفاذ العقوبة عليه، فيخاف ويقبل.

إذن تجد أنَّ الشفاعة في الدنيا عند ذوي السلطان والملك وأصحاب الأمر، تجد أنها يكتنفها ضعف في العلم، أو ضعف في القدرة، أو ضعف في السلطة لا بد أن يكون شيء من ذلك واقعًا فأنَّى يقاسوا ذلك بالشفاعة التي تكون عند الله جَلَّوَعَلَا؟

أرأيت كيف أن هؤلاء وقعوا في تشبيهٍ خاطئ حينما ظنوا أن الشفاعة عند الله من هذا الجنس؟ فالله جَلَّوَعَلَا لا يريد أن يغفر لكنه بتأثير من الشافعي يغفر، أصبح الشافع هو الذي

يحرك الله جَلَّوَعَلَا لأجل أن يقبل -تعالى الله عن ذلك-، وانظر كيف أقتضى هذا اعتقاد النقص في الله جَلَّوَعَلَا من جهة جعله محتاجًا وجعله غير غني مستغني عما سواه جَلَّوَعَلَا.

إذن رعاك الله تنبه إلى الفروق بين الشفاعة الدنيوية والشفاعة الأخروية، أي إلى الفروق بين شفاعة المخلوق عند المخلوق، وبين شفاعة المخلوق عند الخالق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هذا من أهم ما ينبغي عليك يا أيها المسلم أن تفقهه.

أولاً: الشفاعة من المخلوق عند المخلوق لا تفتقر إلى المشفوع عنده بحال، لا من جهة أمره ولا من جهة إذنه، ولا من جهة خلقة، والأمر في الشفاعة التي تكون عند الله ليس كذلك فلا أحد يجرؤ على أن يشفع عند الله جَلَّوَعَلَا حتى يأذن الله له أن يتكلم ويشفع قال سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة:٢٥٥]، الله عظيم من ذا الذي يجرؤ على أن يتكلم أو يشفع عند الله ما لم يأذن الله له أن يشفع ويتكلم؟ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة:٢٥٥].

تأمل كيف كان النفي ها هنا بصيغة الاستفهام لأنه مشوب بنوع من التحدي من ذا الذي يجرؤ على أن يكون منه ذلك؟!

ثم الله جَلَّوَعَلَا ليس فقط يأذن بالشفاعة، بل الله جَلَّوَعَلَا هو الذي يأمر بها وبالتالي لا يملك الشافعي إلا أن يُجيب أليس كذلك؟ أليس الله جَلَّوَعَلَا يقول يوم القيامة لسيد الشفعاء: (اشفع تُشفع) إذن كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان مأمورًا لا يسعه إلا أن يستجيب لأمر ربه جَلَّوَعَلَا.

[ثانيًا]: أن الشفاعة من المخلوق إلى المخلوق تستلزم حاجة المشفوع عنده تستلزم حاجة المشفوع عنده إما من جهة أنه يطلب مرغوبًا أو أنه يترك مرهوبًا، لا تجد أن المشفوع عنده يقبل الشفاعة إلا إذا كان يطلب شيء يحتاجه، إما أن يطلب ولائه ولاء الشافع وإما أنه يدفع غضب أو هجران الشافع.

إذن تجد أن الشفاعة استلزمت حاجة المشفوع عنده، والله أجل وأعظم من أن يكون كذلك بل الله جَلَّوَعَلَا هو الغني سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا يكون ذلك ولا يظن به ذلك.

[ثالثًا]: أن الشفاعة من المخلوق إلى المخلوق تتضمن افتقار المشفوع عنده، من جهة أن شفاعة الشافعي حركته إلى القبول، شفاعة المخلوق عند المخلوق هي التي حركته للقبول.

أما الشفاعة عند الله فلا يُظنُّ فيها ذلك البتة، بل الأمر بالعكس المشفوع عنده هو الذي حرك الشافع حتى يشفع، فانظر إلى الفرقان العظيم بين الرب وبين العبد، وبالتالي تعلم الخطأ العظيم الذين وقع فيه هؤلاء الذين لم يفرقوا بين الأمرين.

[رابعًا]: شفاعة الشافع في الدنيا يعني شفاعة المخلوق عند المخلوق، شفاعة ندٍ أو شريك أو معين، أما الشفاعة عند الله فإنها شفاعة عبد مأمور لا يملك من أمره شيء، ولا يقدر إلا أن يجيب ففرق بين هذه وهذه.

[خامسًا]: الشفاعة من المخلوق عند المخلوق قد تقع على كره من المشفوع عنده، قد تقع على كُرْهٍ يعني لا يريد، ولا يسمح أن يشفع عنده في هذا الموضوع فرغمًا عنه يدخل عليه الشافع ذو الوجاهة، أو المحبوب عند المشفوع عنده فرغمًا عنه يتكلم ويشفع، والله جَلَّوَعَلَا يستحيل أن يُكرهُ أحد الله لا مكرهًا له، بل هو القدير العظيم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

[سادسًا]: أن الشفاعة من المخلوق عند المخلوق يقبلها أو قد يقبلها المشفوع عنده على كُرْهٍ منه، والله جَلَّوَعَلَا لا يجوز أن يُظن فيه ذلك؛ لأنه لا مكره له جَلَّوَعَلَا، بمعنى أن المشفوع عنده من المخلوقين تجد أنه قد لا يملك من أمره إلا أن يرضخ ويقبل، -كما قلت لك سابقًا- فهو يقبل أو قد يقبل على كره منه.

وأما الله جَلَّوَعَلَا فإنه لا يظن فيه ذلك إلا الظانون بالله ظن السوء.

الشيخ لم يراجع التفريغ

٢٥

٢٥- باب الشفاعة

(المجلس الثاني)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب الشفاعة

وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ﴾[الأنعام:٥١].

مضى الكلام في الدرس الماضي عن الأصول والقواعد الممهدات لِفَهْمِ موضوع الشفاعة في ضوء الكتابِ والسنة.

والمؤلفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أوردَ في هذا الباب الأدلة التي تدل على هذا المعتقد الصحيح الذي يتعلق بالشفاعة من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثُمَّ ختم ذلك بكلامٍ حسنٍ لشيخِ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الآية الأولى: قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ﴾[الأنعام:٥١].

﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ الإنذار هو: الإعلامُ بأسباب المخافة، أو الإعلام بموضع المخافة فهو إعلامٌ مخصوص، والخطابُ لنبينا محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالله جَلَّ وَعَلَا يقول يا نبينا أنذر به؛ يعني: بالقرآن، كما قال بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وغيره.

أنذر بالقرآن أهلَ الإيمان الذين علاماتهم وسماتهم يخافون أن يحشروا إلى ربهم، وأيضا ليس لهم من دون الله جَلَّ وَعَلَا ولي ولا شفيع.

فقوله ﴿ليس لهم﴾ ليس ها هنا في موضوع النصب على أنَّها حال، والحال أنه ليس لهؤلاء المؤمنين الذين اتصفوا بالإيمان والخشية من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أنَّهم موصوفون بهذا وهو أنهم لا يتخذون من دون الله وليًا ولا يتخذون من دون الله شفيعًا.

والقرآن أمر الله عَزَّوَجَلَّ نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُنْذَّرَ الناس كلهم به، ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾[مريم:٩٧]، فأهل الإيمان وأهل الكفر يُنْذَرُونَ بالقرآن، لكن تخصيص أهل الإيمان ها هنا لأنهم الذين ينتفعون بهذا الإنذار، فالإنذار الذي ينفع هو إنذارُ أهل الإيمان الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، يخافون من الله عَزَّوَجَلَّ ويخافون المقام بين يدي الله جَلَّ وَعَلَا، ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾[ق:٤٥].

هؤلاء أولى النَّاس بالإنذار، لأنهم أعظم الناس انتفاعًا بهذا الإنذار، فلا ينتفع بالقرآن من جهة ما فيه من الإنذار وما فيه من التبشير وما فيه من أنواع العلوم إلا المؤمنون حقًّا الذين يتصفون بالخوف من الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

ومن الخوف من الله: الخوف من البعث وما يكون بعده من الوقوف بين يدي الله جَلَّوَعَلَا للحساب ثم للجزاء، وهؤلاء وصفهم أنهم: ﴿وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾[النساء:١٧٣]، يتوجهون إليه ويعبدونه ويخافونه ويرجونه، كما أنَّهم لا يتخذون من دون الله شفيعًا، يعني: من دون إذنه وأمره سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لأنهم يعلمون أن الشفاعة ملك لله جَلَّوَعَلَا كما سيأتي معنا: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:٤٤]، فلا تطمح نفوسهم إلى التعلق بهؤلاء الشفعاء من حيث انهم يعتقدون أنهم يملكون الشفاعة فيشفعون بلا إذن من الله جل وعلا، ويترتب على هذا انهم يُقصدون ويرجون ويتوكل عليهم، ليس هذا شأن أهل الإيمان هذا شان أهل الشرك.

إذن الشفيع اثنان:

١/شفيع من دون الله.

٢/شفيع من بعد إذن الله.

والفرق بينهما فرق كبير، -مر معنا في الدرس الماضي- الفرق بين الشفيع من دون الله، والشفيع من بعد إذنه، هو الفرق بين الند والشريك وبين العبد المأمور من الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

الشفيعُ من دونه إنَّما يتخذه المشركون، فمن اعتقد أنَّ أحدًا يكون شفيعًا من دون الله، فذلك لاشك أنه يكون من المشركين، أمَّا أهل الإيمان فإنهم يعتقدون أنه يكون شفيعٌ من بعد إذنه.

إذن الشفيع من دونه باطل، والشفيع من بعد إذنه ثابت.

هذا الفرقان بين حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:٤٤].

هذه آيةٌ عظيمة من تأملها، وعَقِلَ معناها قطعت كلَّ أسباب الشرك عن نفسه: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:٤٤]، أول السياق قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾[الزمر:٤٣]، هذه حقيقة المشركين أنهم اتخذوا من دون الله شفعاء، ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[الزمر:٤٣-٤٤].

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾[الزمر:٤٣]، (أم): ها هنا للإضراب، يعني: هي بمعنى: بل، واستقراء مواضع (أم) في القرآن يعني: هذا الاستفهام في القرآن يدل على أن هذا الاستفهام إنما يُساق في مقام الإنكار؛ يعني: هؤلاء اتخذوا من دون الله شفعاء، وهذا الذي لأجله أشركوا ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[يونس:١٨]، هذا الذي لأجله اتخذوا الأنداد مع الله جَلَّ وَعَلَا، ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ﴾[يس:٢٣].

إذن هم اتخذوا من دون الله شفعاء فأشركوهم مع الله جَلَّ وَعَلَا فاعتقدوا أنهم يشفعون من دون إذن الله جَلَّ وَعَلَا ، واعتقدوا أنهم يملكون هذه الشفاعة وأن حقهم على الله عظيم، ولأجل هذا فإنَّ هذه الشفاعة لا تُرد، وهم المؤثرون على الله، هم الذين يحركون إرادة الله لأجل تحقيق المطلوب أو دفع المرهوب: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ﴾[الزمر:٤٣]، أفتتخذونهم وهذه حالهم، الواقع أنَّهم لا يملكون شيئًا؛ لأن الشفاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ألم تر إلى قوله بعد ذلك: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:٤٤]، ولاحظ أمرين في هذه الآية:

أولاً: تقديم الخبر يفيد الحصر عند أهل البلاغة، فقال: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ﴾[الزمر:٤٤]، ولم يقل (قل الشفاعة لله)، وهذا يدل على أن الشفاعة كلها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم تأمل **ثانيًا**: في قوله ﴿جَمِيعًا﴾[الزمر:٤٤] كيف إن قوله ﴿جَمِيعًا﴾ أفادت استغراق ملك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى للشفاعة كلها، بحيث أنه لم يَشُذَّ عن هذا الملك لله شيئا منها، من أولها إلى آخرها بجميع أنواعها وأصنافها هي مِلك لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

ثم تأمل بعد ذلك ما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى عقبها: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[الزمر:٤٤]، كما أن له سبحانه ملك السماوات والأرض فكذلك هو الذي يملك الشفاعة، فاندرج في مِلكه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى الذي لا يَشْرَكُه فيه غيره هذه الشفاعة، لأن حقيقة الأمر أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى شفع من نفسه إلى نفسه ليرحم عبده، والشفاعة إكرام للشافع، وإلا فالله جَلَّوَعَلَا هو الذي أراد من نفسه أن يرحم هذا العبد المشفوع فيه، وليس أن الشافع هو الذي حرَّك إرادة الله وهو الذي أثر في الله.

هذا لا يكون، الله هو الواحد، والله هو الوتر الذي لا يشفعه غيره، فالفضل منه وإليه وحده لا شريك له.

إذن هذه آيةٌ عظيمة تأملها يا أيها المسلم، وأنا لك ضامن بإذن الله سبحانه وتوفيقه أنه يَخْرُج كل تعلق من قلبك بأحد من المخلوقين لأجل رجاء الشفاعة.

تأمل كثيرًا هذا الموضع العظيم: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:٤٤].

إذن لا تطلب الشفاعة إلا ممن يملكها وهو الله سبحانه وحده لا شريك له.

قد يقول قائل نحن نطلب الشفاعة من غير الله؛ لأجل أن الله تعالى مَلَكَهُم إياها.

النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وإخوانه من الأنبياء وكذلك المؤمنون وكذلك الملائكة أليسوا يشفعون عند الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة؟

والجواب: نعم.

قالوا: إذن نحن نطلب هذه الشفاعة ممن ملكهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى إياها.

والجواب: أن هذه شبهة داحضة، وذلك أن الله جَلَّوَعَلَا لم يُملك الشفاعة أحدًا، بل بيَّن لنا بيان واضح لا لبس فيه أن الشفاعة له وحده لا شريك له، إنما يأذن الله لمن يشاء في موضع معين أن يشفع، وليس هذا من التمليك في شيء، أرأيت إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذا كان يوم القيامة وطُلبت منه الشفاعة، أفيقوم شافعًا عند الله جَلَّوَعَلَا مباشرة، أم يقدم هذا بمقدمات ثم بعد ذلك يأذن الله له بالشفاعة؟

بل يأمره الله جَلَّوَعَلَا بالشفاعة، كيف يكون مالكًا وهو مأمور بأن يشفع «**اشفع تُشفع**».

ثم تأمل -يا رعاك الله- كيف أن النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما قيل له: «**اشفع تُشفع**»، ولما حدَّ الله له حدًا من أهل النار فأخرجهم منها، ثم يعيد الكرة لأجل أن يشفع إلى الله عَزَّوَجَلَّ مرة ثانية، أرأيت أنه أخذ الإذن الأول مطلقًا فقام بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ مرة ثانية فشفع عند الله جَلَّوَعَلَا ، الجواب: لا.. مرة ثانية يثني على الله جَلَّوَعَلَا ويسجد سجودا طويلا، ثم يرفع رأسه ثم يقول الله له «**اشفع تشفع**»، تكرر هذا الأمر أربع مرات كما ثبت في ((الصحيحين)).

إذن هل يُقال بعد ذلك أن هذه الشفاعة مُمُلْكَةٌ للشفعاء؟

الجوابُ: لا والله، إنَّما يأذن الله عَزَّوَجَلَّ بها في موضعٍ معين وفي محلٍ مخصوص، والله جَلَّوَعَلَا يأذن حينئذ بل يأمر حينئذ بالشفاعة.

إذًا لم يكن مالكا لها.

ثم أرأيت في حال النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الآن وهو ميت أيُطلب الشفاعة الآن! مع أن الله سبحانه إنما يأذن له بها يوم القيامة، فما معنى أن تطلبه الشفاعة وهو في البرزخ، والله جَلَّوَعَلَا لم يأذن له بالشفاعة بالبرزخ، إنما يأذن له سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يوم القيامة.

إذن هذا الطلب باطل غير صحيح، إنما يأذن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بالشفاعة يوم القيامة.

وهاهنا مسألة مهمة ويكثر السؤال عنها وهي: ما حكم طلب الشفاعة من غير الله؟

هذه المسألة فيها تفصيل، وذلك أن الأحوال لا تخرج عن ثلاث:

[الحالة الأولى]: طلب الشفاعة من حيٍّ- يعني يأتي الإنسان إلى عبد صالح، أو إلى النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما كان حيا فيطلب منه الشفاعة، **وهذه الحال فيها تفصيلٌ أيضا وذلك أن الأمر يتردد بين أمرين:**

[الأمر الأول]: فإن كان السائل يعتقد أن المسؤول مالكُ للشفاعة، بحيث إنَّه يشفعُ متى شاء بلا إذن من الله عَزَّوَجَلَّ وبلا أمر من الله جَلَّوَعَلَا ، وأن شفاعته هي المؤثرة والمحركة لإرادة الله جَلَّوَعَلَا ، وأن الله عَزَّوَجَلَّ لا يملك إلا أن يستجيب لهذه الشفاعة، لِمَا لهذا الشافع

من حق عليه، فهو له إدلالٌ على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، من اعتقد هذا في أحد وسأل الشفاعة على هذا الوجه فلا شك أنَّ هذا شركٌ أكبر.

[الأمر الثاني]: أن يسأله الشفاعة؛ بمعنى: أن يطلب من المسؤول أن يدعو الله عَزَّوَجَلَّ بأن يأذن له في الشفاعة- يعني: يسأل المشفوع له الشافع أن يدعو الله بأن يأذن له في أن يشفع فيه، فهذا لا بأس به، وهذا من جملة سؤال الحي ما يقدر عليه، هو ما اعتقد أن الشفاعة ملك له، وأنه يشفع متى شاء بأي حال شاء دون إذن من الله؟ كلا، إنما يسأله أن يسأل الله أن يأذن له في الشفاعة فيه وهذا الوجه لا حرج فيه.

وقد جاء في ((مسند الإمام أحمد)) من حديث أبي موسي الأشعري، وجاء أيضًا من حديث عوف بن مالك، وجاء أيضًا من حديث أبي موسى، ومعاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما قال «**إن الله خيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة**» حين إذن قال له أبو موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ومن معه: «**قالوا يا رسول الله ادع الله أن يجعلنا ممن تشفع فيهم**».

تلاحظ أنهم توجهوا إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بطلب أن يدعو الله أن يشفع فيهم، يعني أن يجعلهم من الزمرة الذين يشفع فيهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهذه الرواية تفسر الرواية الأخرى، التي فيها أنهم قالوا: «**ننشدك بالله والصحبة إلا جعلتنا ممن تشفع فيهم**»، وأصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أجلُّ قَدْرًا من أن يعتقدوا أن الشفاعة مِلك للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، إنما تفسير هذه الرواية ما جاء في الرواية الأخرى، وكلُّ ما جاء في الأحاديث في سؤال الشفاعة إنما يرجع إلى هذا المعنى، وهو أن يُسأل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يدعو الله عَزَّوَجَلَّ بأن يجعله شافعًا للسائل.

الحالة الثانية: سؤال الميت الشفاعة وهذا شرك أكبر، بأن يسأل الميت كان يدعو النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعد موته أو يدعو الأموات والصالحين فيقول: "اشفعوا لنا عند الله"، "يا سيدي فلان أسألك الشفاعة"، "يا نبي الله الشفاعة" هذا لا شك أنه شرك أكبر، وذلك راجعٌ إلى ما يأتي:

أولاً: أنه قد مر بنا سابقًا أن جنس الدعاء للأموات شرك أكبر، أي سؤال وأي طلب وأي دعاء يتوجه به الإنسان للميت!! هذا شرك أكبر: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِن دُونِ

اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾[الأحقاف:٥-٦]، إذا هم عبدوهم، الدعاء هو العبادة: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[فاطر:١٤].

ثانيًا: أنَ الميت لا يملك الشفاعة، لا يملك أن يشفع، لان الميت قد انقطع عمله بنص حديث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**إذا مات الإنسان أو إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث...**» وسؤال الشفاعة ها هنا ليس منها، وبالتالي يكون هذا سؤالًا لما لا يقدر عليه الميت.

ثالثًا: أنَّ الغالب على هؤلاء القبوريين المتعلقين بالأموات، أنهم يعتقدون أن الميت المسؤول مالك للشفاعة، وأن الشفاعة التي يطلبها هي من جنس الشفاعة الدنيوية، وقد أخذنا تفصيل القول في الفرق بين الشفاعة الدنيوية التي يعهدها الناس في الدنيا والشفاعة الأخروية، أليس كذلك؟

[رابعًا]: أن الغالب على هؤلاء أيضا أنه يكون ويقوم في قلوبهم من التوكل، والاعتماد، والرجاء، والرغبة في الميت ما يدخلهم في بحور من الشرك.

إذًا هذه أوجه أربعة تدلك على أن سؤال الشفاعة للأموات شرك أكبر.

الحال الثالثة: طلب الشفاعة يوم القيامة من الأنبياء، وقد ثبت في ((الصحيحين)) أن الناس إذا طال عليهم الكرب، يقول بعضهم لبعض هلموا نستشفع إلى ربنا، فيذهبون إلى آدم، فنوح، فإبراهيم، فموسى، فعيسى، والكل يعتذر والكل يذكر ذنبًا له يستحي بسببه إلا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والكل يقول: إن الله اليوم غضب غضبا لم يغضب مثله ولن يغضب بعده مثله، حتى يصلون إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقول أنا لها، وهذا السؤال والطلب، ليس كما يظن أو كما يُلَبِسُ بعض المشركين أن هذا لأنهم يعتقدون أن هؤلاء الأنبياء يملكون الشفاعة –حاشا وكلا– بل يوم القيامة يوم عظيم، تتجلى فيه عظمة الله وملكوته وجبروته، فأنَّى للناس في ذلك المقام أن تتعلق قلوبهم بمخلوق، أو أن يعتقدوا أن الشفاعة ملك لهم، إنما قولهم: (ألا تشفع لنا عند ربك)، المراد بذلك: أن تتقدم بين يدي الله جَلَّ وَعَلَا بالأسباب التي

يأذن الله بعدها بالشفاعة، يسألون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتقدم بالأسباب التي يأذن الله له بعدها بالشفاعة.

وذلك أنك إذا تأملت ما جاء في أحاديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شأن الشفاعة تجد الآتي:

تجد أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أولًا**: إذا قال: (أنا لها)، ينطلق فيستأذن على ربه، وهذا من كمال العبودية والأدب، لا يباشر الدخول على ربه، والله أعلم كيف يكون ذلك، إنما يستأذن حتى يُؤذن له.

ثانيًا: إذا وقف بين يدي الله جَلَّ وَعَلَا فانه يحمد الله جَلَّ وَعَلَا بمحامد لا تحضره في الدنيا، إنما يفتح الله عليه بها في ذلك المقام.

[ثالثًا]: ثم يخر ساجدا لله جَلَّ وَعَلَا ويدعو الله عَزَّ وَجَلَّ ساجدًا ما شاء الله.

[رابعًا]: ثم في سجوده يثني على الله جَلَّ وَعَلَا ثناء ما فتحه الله عَزَّ وَجَلَّ على أحد من قبل.

[خامسًا]: ثم يرفع رأسه بعد أن يقول الله له ذلك، «**يا محمد ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع**»، هنا أيضا قبل أن يشفع، يثني على الله، ويحمده بمحامد لم يكن يحصيها في الدنيا، قال: «**ثم أشفعُ**».

إذن هناك خمسة أسباب مُقَدِّمَة بين يدي شفاعته لربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أَفَبَعْدَ هذا يقال إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مالك للشفاعة؟ أَفَبَعْدَ هذا يقال إن الناس تتعلق قلوبهم بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جهة أنه مالك للشفاعة أو أنه يأذن إذا شاء لا بعد إذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

كلا والله.

هذا مجموع ما جاء في أحاديث الشفاعة في ((الصحيحين)) لَخَّصتُ لك ما جاء في أحاديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بعد كل هذا وبعد أن يقول الله له: «**اشفع**»، يحمد الله عَزَّ وَجَلَّ أيضا بمحامد يفتحها عليه، قال: «**ثم أشفعُ**»، (ثم) التي تدل على الترتيب مع المهلة.

إذا هذا كله إذا تأملته -يا رعاك الله- وجدت حقيقة الفرقان بين التوحيد والشرك، وبين معتقد أهل التوحيد ومعتقد أهل الشرك، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢٥٥]

قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢٥٥]، هذا بعض آية الكرسي التي هي أعظم آية في كتاب الله.

و(**من**) هاهنا اسم استفهام يراد به النفي، وقد مر بنا أن النفي إذا جاء بصيغة الاستفهام فإنه يكون مشوبًا بالتحدي، فهو أبلغ من النفي المجرد، وبهذا يتضح لنا أن الأمر عظيم، وأن الله عَزَّوَجَلَّ أجلُّ وأعظمُ من أن يتقدم أحد بين يديه بالشفاعة قبل أن يأذن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بل لا يملك أحد أن يتكلم أصلا، فضلا عن أن يشفع عند الله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود:١٠٥].

فالشأن عظيم وعظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شيءٌ لا يحيط به عقل أو خيال.

إذن الله جَلَّ وَعَلَا يتحدى الخلق، عن أن يجرؤ أحد أن يتقدم بين يدية شافعًا حتي يأذن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا يؤكد لك أن الشفاعة ملك لله جَلَّ وَعَلَا، فإذا كان أحد لا يشفع حتى يأذن الله ويأمر.

إذن الشفاعة من الله جَلَّ وَعَلَا والى الله، وإنما أراد سبحانه أن يكرم الشافع بالشفاعة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦]

هذه الآية جمعت شرطي الشفاعة المثبتة التي تكون يوم القيامة، والشرطان هما:

١/ إذْن الله للشافع أن يشفع.

٢/ رضاه عن المشفوع له.

قال عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ (كم) هذه خبرية تفيد التكثير، أي أن ملائكته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كثُر، ومع ذلك ومع ما هم عليه من جليل القدر والوصف، ومع ذلك فإنَّهم

لا يملكون أن يشفعوا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء منهم، ويرضى عن المشفوع له، وإذا كان هذا في حق الملائكة، وأنهم على جلالة قدرهم ورفيع منزلتهم ليس لهم من الأمر شيء، إنما هم مأذون لهم مأمورون بالشفاعة فكيف لغيرهم.

والمقام ها هنا يرجع إلى ضرورة استحضار ثلاثة أصول نبه عليها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمن أراد أن يضبط هذا الموضوع في ضوء الكتاب والسنة، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ ها هنا ثلاثة أصول:

أولاً: أنَّه لا شفاعة إلا من بعد إذن الله.

وثانيًا: أنَّه لا شفاعة إلا فيمن يرضى الله عنه.

وثالثًا: أنه لا يرضى إلا توحيده واتباع رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

من فهم هذه الأمور الثلاثة، خرج من قلبه كل أدران الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا في جانب الشفاعة، وتعلق قلبه بالله جَلَّ وَعَلَا وحده.

السبب الذي يوصلك يا عبد الله إلى شفاعة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشفاعة الشفعاء، هو التوحيد الخالص، لاحظ أن أبا هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهو الصحابي الجليل الفقيه، سأل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أسعد الناس بشفاعته يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ اسمع الجواب واعرف السبب، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه**».

لم يقل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسعدهم من طلبني الشفاعة، أسعدهم من تعلق قلبه بي لنيل الشفاعة، كلا.

السبب الموصل بعد توفيق الله جَلَّ وَعَلَا إلى نيل الشفاعة هو التوحيد الخالص، أن يتعلق قلبك، وأن تتعلق عبادتك بالله سبحانه وحده لا شريك له.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ:٢٢-٢٣]

هذه الآية وما بعدها مر الحديث عنهما قريبًا، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ

مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[سبأ:٢٢-٢٣]، وقلنا إن هذه الآية، قال العلماء: إنها تقطع جذور الشرك من القلب، وذلك أن كل تعلقٍ بغير الله إنما يرجع إلى واحد من هذه الأسباب الأربعة:

أولًا: أن يُعتقد في هذا المتعلق به أنه مالك للسموات والأرض وهذا منفي قطعًا، فالله هو الذي يملك السماوات والأرض.

[ثانيًا]: أو أن يكون له شراكة مع الله عَزَّوَجَلَّ في الملك، وهذا منفيٌ أيضًا.

[ثالثا]: أو أن يكون معينًا وظهيرًا لله سبحانه، وهذا منفيٌ أيضًا.

[رابعًا]: فما بقيَّ إلا أن يكون شافعًا، فيتعلق به المتعلق ويتقرب له المتقرب، لأجل أن يشفع له عند الله جَلَّوَعَلَا. فبين سبحانه أن هذا منفيٌ أيضًا.

﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾.

إذاً عاد الأمر كله إلى الله جَلَّوَعَلَا .

فحقيقة الحال: أن الله شفع من نفسه إلى نفسه ليرحم عبده، وأراد أن يكرم الشافع.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال أبو العباس:

أبو العباس هو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيميه الحراني، الإمام العلم الجليل، المتوفى سنة ٧٢٨ من هجرة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وهذا الكلام الذي يسوقه المؤلف كلام مهم ذكره شيخ الإسلام في كتابه ((الإيمان)).

"نفى الله عما سواه كل ما يتعلق بالمشركين، فنفى أن يكون لغيره ملك، أو قسط منه، أو يكون عونا لله، ولم يبقَ إلا الشفاعة، فتبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال تعالى ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[الأنبياء:٢٨].

فهذه الشفاعة التي يعتقدها المشركون هي منتفية يوم القيامة، كما نفاها القرآن

قلنا إن الله جَلَّوَعَلَا قد أكثر في كتابه من نفي الشفاعة، والمراد الشفاعة التي يعهدها الناس في الدنيا هذه منفية، هذه لا يمكن أن تكون عند الله جَلَّوَعَلَا، من اعتقد هذه الشفاعة فإنه يكون قد هضم حق الربوبية، وانتقص عظمة الإلهية، وأساء الظنَّ برب العالمين سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وأخبر النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده -لا يبدأ بالشفاعة أولًا..

يحمد قبل أن يسجد، ويحمد أثناء السجود، ويحمد بعد أن يرفع رأسه من السجود، كل هذا ثابتٌ في ((الصحيحين)).

-، ثم يقال له: «ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسل تُعطَ، واشفع تشفع».
وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال : «من قال لا إله إلا الله خالص من قلبه»، فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

ويا لله العجب! سبحان الله العظيم! ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[الزمر:٣٦] ، كيف أن هؤلاء تعلقت قلوبهم بالشفاعة تعلقًا عظيمًا، فاتخذوا السبب الذي حرمهم منها، يطلبون الشفاعة بالسبب الذي يمنعهم منها، شيءٌ عجيب!

وحقيقته: أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع، ليكرمه، وينال المقام المحمود.
فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بيَّن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص". انتهى

هذا كلام مهم ونفيس ولخصَّ لك الموضوع جملة، حريٌ أن تطالعه وأن تتأمله، وأوصيك إن كنت طالبا للفائدة، أن ترجع لموضع مهم لابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ في ((إغاثة اللهفان))، فأنه من أحسن المواضع في بيان الفرق بين الشفاعة الثابتة التي دلَّ القرآن عليها، والشفاعة المنفية التي اعتقدها المشركون في آلهتهم، والله تعالى أعلم.

٢٦

٢٦- باب

قول الله تعالى:

﴿إنك لا تهدى من أحببت﴾

(المجلس الأول)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب

قول الله تعالى:

﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية [القصص:٥٦].

عَقَدَ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب بعد أن بيَّن في الباب السابق أنَّ الشفاعة ملكٌ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فلا تُطلب إلا منه، بينها هنا أنَّ الهداية مِلْكٌ لله جَلَّوَعَلَا؛ فلا تُطلب إلا منه، وإذا كان من المشركين من أشرك لأجل طلب الشفاعة فإن منهم من أشرك لطلب هداية القلوب وغفران الذنوب من غير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فالهداية إنما يختص الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بها، وبالتالي فإنَّ من طلبها من غير الله فقد أشرك مع الله.

والمتأمل فيما جاء في شأن الهداية في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يجد أنها جاءت على أربعة أنواع؛ فصلها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((بدائع الفوائد)):

[النوع الأول]: **الهداية العامة**؛ أي أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هدى كل مخلوقٍ لما ينفعه، ولما هو مستعدٌ له: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[طه:٥٠]، فهو الذي هدى النحلة ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[النحل:٦٨] ، وهو الذي هدى النملة لعملها، وهو الذي هدى الطفل لأن يمسك الثدي ويمتص الحليب منه، وهو الذي هدى الزوجين للمعاشرة فالتناسل، وهو الذي هدى اليد، والرجل، والعين، والأذن لما خلقها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لأجله.

إذًا هذه هي الهداية العامة؛ هدى كلَّ مخلوقٍ لما ينفعه، ولما هو مستعدٌ له، وهذه هدايةٌ يختص الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بها فلا يشركه فيها أحد.

النوع الثاني: **هداية الدلالة والبيان والإرشاد والتعريف**: وهذه الهداية بمعنى أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يدل ويبين ويرشد إلى طريق الحق، وإلى الصراط المستقيم، وإلى توحيده، وإلى دين الإسلام، كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾[فصلت:١٧]، وهذه هي هداية الدلالة والإرشاد والبيان.

وهذه الهداية كما أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يفعلها، كذلك أعطاها لمن شاء من خلقه؛ فالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وإخوانه من الأنبياء، وكذا الدعاة والمصلحون، كلهم يهدون هذه

الهداية، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[الرعد:٧]، ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾[الأعراف:١٥٩]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[الشورى:٥٢].

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام؛ وهذه الهداية هي محور الحديث لهذا الباب، وهي المرادة في هذه الآية التي بوّب المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب عليها. هذه الهداية بمعنى هداية القلوب إلى الحق، وتوفيق النفوس إلى التزام توحيد الله، وما بعث الله به رسله، هذه هدايةٌ خاصةٌ بالباري سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يشركه فيها أحد، الله جل وعلا وحده هو الذي يملك هذه الهداية، وهو الذي يمنحها من يشاء: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[النور:٤٦].

إذًا هذه الهداية ليست للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضلًا عن أن تكون لغيره: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[القصص:٥٦].

وهذا هو الموضوع الذي ضل بسبب طلبه من غير الله هؤلاء المشركون؛ حيث اعتقدوا أن غير الله يملك الهداية، فطلبوها من هذه الآلهة التي اتخذوها مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

النوع الرابع: الهداية الأخروية؛ هداية أهل الجنة إلى طريق الجنة، وهداية أهل النار إلى النار -نسأل الله الجنة ونعوذ به من النار- يدل على هذه الهداية ما جاء في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[يونس:٩]، ويدل عليها أيضًا ما ثبت في البخاري من حديث أبي سعيدٍ الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا خلص المؤمنون من النار، حُبسوا على قنطرةٍ بين الجنة والنار، فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم، حتى إذا هُذبوا ونُقوا أُذن لهم بدخول الجنة**»، ثم قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو موضع الشاهد: «**فوالذي نفسي بيده، إن أحدهم لأهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا**»، هداه الله جَلَّ وَعَلَا إلى أن يسلك الطريق الذي يوصله إلى محل نعيمه ومستقره في جنات النعيم، كذلك الشأن في أهل النار- عافانا الله وإياكم منها ومن حال أهلها-، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾[الصافات:٢٣].

إذًا هذه الأنواع الأربعة، هي التي دّل استقراء القرآن على أنها أقسام وأنواع الهداية.

نعود إلى محور الحديث؛ وهو هداية التوفيق والإلهام:

قلنا إن هذه الهداية هي حقٌ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يشركه في هذا الحق غيره، ومعتقد أهل السنة والجماعة في هذه الهداية يتلخص في أربعة أمور:

[الأمر الأول]: يعتقد أهل السنة والجماعة أنَّ الهداية حقٌ لله، فهو الذي يهبها من يشاء، الله جَلَّوَعَلَا هو الذي يشاء الهداية لعباده من شاء منهم لا سواه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[يونس:٢٥]؛ فالهداية بيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ولولا أن الله هدى المهتدي ما كان ليهتدي، مهما فعل، ومهما تعلم، ومهما استعمل من رياضةٍ نفسية، ومهما سهر، ومهما جاع، لا يمكن أن يهتدي لولا أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هداه، وبالتالي فمن اعتقد أن غير الله جَلَّوَعَلَا يملك هذه الهداية فقد أشرك الشرك الأكبر، قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له»، في ((الصحيحين)) من حديث البراء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يوم الأحزاب كان ينقل التراب وهو يرتجز بأبيات ابن رواحة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تـصـــدقنا ولا صلينا

إذًا الهداية –أعني هداية التوفيق– من فروع ربوبية الله سبحانه، فكما أن الله ليس له شريكٌ في الخلق والملك والرزق والتدبير، كذلك ليس له شريكٌ في الهداية، ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾[الشعراء:٧٨].

الهداية من الله وحده لا شريك له.

تأمل في قول الله جَلَّوَعَلَا في سورة يونس: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[يونس:٣٤].

كما أن الخلق لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ فلا أحد يُبْدُع الخلق، أو يبدأ الخلق، أو يعيده إلا الله، كذلك الهداية، ولذلك عقَّب هذه الآية بقوله: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[يونس:٣٥].

﴿يَهِدِّي﴾: يعني يهتدي.

إذًا كما أن الخلق إنما هو شيءٌ اختص الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به، كذلك الهداية شيءٌ اختص الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به.

الأمر الثاني: أن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن الهداية محض فضلٍ من الله ونعمة.

الله جَلَّ وَعَلَا إذا هدى من هدى فإن ذلك راجعٌ إلى إنعامٍ وفضلٌ منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا شريك له؛ فليس للعبد حقٌ على الله، وليس للعبد حجةٌ على الله، بل لله الحجة البالغة على خلقه أجمعين، فليس الأمر راجعًا إلى معاوضة أو مقابلة، قام العبد بشيء فكان حقًا على الله أن يهديَّ هذا العبد مقابلةً ومعاوضة، كلا والله؛ الأمر محض فضلٍ من الكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[البقرة:١٠٥].

الأمر الثالث: أنَّ هداية الله جَلَّ وَعَلَا، وتفضله بهذه النعمة راجعٌ إلى علم الله وحكمته؛ فهو جَلَّ وَعَلَا يعلم المحل اللائق بنعمته، فتقتضي حكمته وضع هذه النعمة في محلها اللائق بها.

نعمة الله جَلَّ وَعَلَا لا تتعارض مع علم الله وحكمته؛ إنما يعطي الله عَزَّ وَجَلَّ هذه النعمة من علم أنه أهلٌ لها، وأنه يزكو بها، وإلا فليس الأمر راجعًا إلى محض مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يخطئ خطأً كبيرًا من يظن هذا الأمر، إنما الله جَلَّ وَعَلَا يعلم من هو المناسب واللائق بهذه النعمة، فيعطيه إياها، وهذا هو حقيقة الحكمة.

تأمل معي قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ ماذا رد الله عليهم؟ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾[الأنعام:٥٣].

إذًا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم من يناسب أن يوضع فيه هذه النعمة، فيضع النعمة حيث تقتضي حكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذه الأمور الثلاثة جمعها موضع في كتاب الله، تأمل قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ هو سبحانه لا غيره، الأمر منه وحده لا شريك له. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾[الحجرات:٧]. هذا هو الضابط الأول؛ الهداية إلى الله راجعةٌ إلى مشيئته.

ثانيًا: قال سبحانه: ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾[الحجرات:٨]؛ الأمر محض تفضلٍ وإنعامٍ من الله جَلَّ وَعَلَا، فضلًا من الله ونعمة.

[ثالثًا]: ثم قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[الحجرات:٨] هذه المشيئة كانت مقترنة بعلم الله وحكمته؛ فالله جَلَّوَعَلَا إنما هدى عن علمٍ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وهذا هو ما تقتضيه الحكمة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[الحجرات:٨].

[الأمر] الرابع: أن أهل السنة يعتقدون أن تفضل الله عَزَّوَجَلَّ بالهداية له وجهان:

الوجه الأول: أنه يبتدئ بالهداية من شاء، وهذا ما يمكن أن نسميه الهداية الابتدائية؛ يعني أن لله سبحانه لطيفةً يبتدئ بها من يشاء، ويوقعها في قلب من أحب، فتعود عليه بالهداية، ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾[الأنعام:١٢٢].

إذًا الله عَزَّوَجَلَّ يبتدئ بالهداية من يشاء، يكون الإنسان كافرًا وإذا بقلبه يهتدي إلى الحق، أو يكون مبتدعًا فيهتدي إلى السنة، أو يكون فاسقًا فيُهدى إلى الطاعة.

الوجه الثاني: وهو الهداية اللاحقة؛ يعني أن من فتح الله عَزَّوَجَلَّ على قلبه، وقذف في قلبه النور والبصيرة، فعمل الخير وأقبل على الهدى، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يجازيه على ذلك بأنه يهديه إلى حسنةٍ أخرى، فإذا عمل الثانية هداه إلى حسنةٍ ثالثة، وهكذا.

إذًا هو الذي أنعم ابتداءً، ثم جاز بعد ذلك بنعمٍ متتالية؛ لأن ربك شكور سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

تأمل في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[محمد:١٧]، ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾[الأنفال:٢٩]، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[الأحزاب:٧٠- ٧١]، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾[الليل:٥-٦] كانت النتيجة: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾[الليل:٧].

إذًا، هذه الأمور الأربعة تنتظم معتقد أهل السنة والجماعة في موضوع الهداية.

وعودًا على بدء، هذه الهداية يا رعاك الله إنما هي حقٌ لله عَزَّوَجَلَّ، لا يجوز أن يُعتقد البتة أن غير الله عَزَّوَجَلَّ يملكها، أو يمنحها، أو يعطيها من يشاء، الأمر راجعٌ إلى مشيئة الله جَلَّوَعَلَا وحده لا شريك له.

فمن اعتقد أن غير الله يهدي، فإنه قد وقع في هوةٍ سحيقةٍ من الشرك. وهذا الذي وقع فيه من وقع من عُبّاد القبور من الغلاة في الأولياء والأنبياء والصالحين؛ فإنهم اعتقدوا فيهم أنهم يكشفون الكروب، ويهدون القلوب، ويغفرون الذنوب.

ولذلك كتبهم وما أسموه بالمصنفات في الكرامات التي يزعمونها لأوليائهم طافحةٌ بهذا المعتقد مع الأسف الشديد، حتى إنك تجد أحدهم يذكر عن نفسه أنه يمكث المدد الطويلة وهو خائفٌ وجل، حريصٌ على قلبه، يخشى أن تكون منه واردة أو شاردة هنا وهناك، فيطَّلع على قلبه سيده ووليه وشيخه فيسلبه الإيمان.

حتى إنهم يذكرون أشياء من المضحكات، بل والمبكيات أيضًا؛ قرأت في بعض كتبهم أنَّ أحد هؤلاء سافر، لم يكن في البلدة التي فيها شيخه وسيده، سافر، ثم إنه بدأ يفكر في بعض الأمور السيئة، يقول: فما راعني إلا وفردة نعلة شيخي تطير في الهواء حتى أصابتني، -نعلة شيخه جاءته عبر الأثير حتى وصلت إليه وضربته، حتى يعود إلى رشده-، يقول: فتبت ورجعت عما كنت أفكر فيه من هواجس قلبي.

نعم، هكذا يعتقدون أن للأولياء قدرة على الاطلاع على ما في القلوب، فشيخه وسيده هو الرقيب، وهو المحيط، وهو العليم بكل شيء، لذلك يخاف، ويصيبه الوجل الشديد بسبب ذلك.

ناهيك عما يعتقدون من أنَّ الهداية بيد الشيخ؛ يعطيها من يشاء، ويسلبها ممن يشاء، فرجاؤهم وخوفهم في شأن الهداية متعلقٌ بهذا الشيخ، وهذا الولي، وهذا السيد، حتى إنهم قد يلبسونه الخرقة –هذا الثوب المقطع البالي- يُلبسوه إياه، أتدري لم؟ لأجل أن هذا الثوب إذا لبسه فإنه تستقر فيه الهداية وتسكن، أما إذا نُزع فإنه يُنزع منه الإيمان، لذلك هو حريص على أن يلبس خرقة الشيخ.

تجده أنه يعتقد أن شيخه هو الذي لو نظر إليه نظرة إكرام وإسعاد، فإنه يسعد؛ بل بعضهم يعتقد أنه هو لو نظر إلى الشيخ اهتدى وكانت له السعادة التامة.

ذكر بعض من كتب في كراماتهم أن أحد هؤلاء السادة والأقطاب كان إذا نظر إلى شيء اهتدى مباشرة بدون تردد، حتى إنه مرةً خرج من خلوته فصادف أن مر أمام نظره كلبٌ، فنظر إليه، فما كان إلا أن اهتدى الكلب، وصار إمامًا، وأصبحت الكلاب تتبعه، -

والله هذا كلامٌ مكتوب -، بل أصبح الناس يأتون إليه لتُقضى حوائجهم منه، حتى إنهم ذكروا أنه لما مات بكت الكلاب، وصاحت، وناحت، حتى يقول هكذا ألهم الله بعضهم فدفنه في قبر، فأصبحت الكلاب تأتي إلى هذا القبر وتعكف عنده.

تعجب والله لا من عقول تكتب هذا الكلام؛ لكن من عقول تعتقد صحة هذا الكلام مع الأسف الشديد، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[الرعد:٣٣]. فهذا -عياذًا بالله يا إخواني- من خذلان الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لهؤلاء.

ليس الله عَزَّوَجَلَّ بظلامٍ للعبيد؛ بل هو العدل الذي لا يظلم تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، لكنهم أُتُو من أنفسهم، استحبوا العمى على الهدى، ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾[فصلت:١٧] تبين لهم الحق، وقامت عليهم الحجة، آتاهم الله العقول، والأسماع، والأبصار، أنزل الله عَزَّوَجَلَّ عليهم الكتاب، أرسل إليهم الرسول؛ لكن ما الذي حصل؟ ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾[فصلت:١٧] هؤلاء كذلك.

أما الذي يوفقه الله عَزَّوَجَلَّ إلى أن يسلك الصراط المستقيم بأن يقطع العلائق بالخلائق، ويعلق قلبه بالخالق الرازق، إنه حينئذٍ يهتدي إلى الحق، إذا استمسك بحبل الإيمان والتوحيد، والإتباع الصادق للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يهتدي، يجعل الله له فرقانًا، القوم أتوا من جهة أنه لم يكن عندهم فرقان، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾[الأنفال:٢٩]، هذا الفرقان هو الذي يكون به أنه تَفْرِق بين الحق والباطل؛ ترى الصواب فتلتزمه، وترى الباطل فتجتنبه، ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾؛ هؤلاء ما فَرَقوا ولا فرّقوا بين حق الله وحق المخلوق، وبين ما اختص الله به، وبين ما يكون له وللمخلوق، جعلوا الأمرين سواء:

الرب ربٌ والرسول فعبده	حقًا وليس لنا إله ثاني
للّه حقٌ لا يكون لغيره	ولعبده حقٌ هما حقانِ
لا تجعلوا الحقين حقًا واحدًا	من غير تمييزٍ ولا فرقان

هنا الإشكال، وهنا مكمن الخطأ والخلل، أنهم ما كان عندهم فرقان يميزون به بين ما اختص الله عَزَّوَجَلَّ به، وبين ما اختص به المخلوق، وأن هناك شيئًا يشترك فيه الخالق والمخلوق؛ كهداية الإرشاد وهداية البيان.

إذًا، يا أيها الموحد! احمد الله، وسله مزيدًا من التوفيق، وسله أن يهديك إلى الحق، وأن يثبتك، فوالله إنه لمن أعظم النعم أن يهديك الله إلى الحق، وأن يجعل لك فرقانًا.

ولذلك كان من أنفع الأدعية، بل من أوجب الأدعية عليك أن تقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة:٦] ، هذه الكلمات العظيمات، وهذا الدعاء القيم الذي يقوله المسلم أقل شيء سبع عشرة مرة في اليوم والليلة، عليه أن يحسن تأمله وتدبره، وأن يحضر قلبه عندما يتلفظ به، ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، هذه الدعوة تتناول الهداية؛ هداية الدلالة، وهداية التوفيق أيضًا، تجهر وتلجأ وترفع حاجتك إلى الله صادقًا من قلبك أن يوفقك إلى العلم بالحق والتزامه أيضًا، لابد من الأمرين، وإلا فعلمك بالحق فقط دون أن تعمل به لا ينفعك، بل هو حجةٌ عليك.

فأنت بحاجة إلى الهداية دائمًا وأبدًا، وفي كل وقت، حاجتك إلى الهداية مثل حاجتك إلى النفس؛ كما أنك بحاجة إلى النفس والهواء في كل لحظة أنت بحاجةٍ إلى هدايةٍ من الله عَزَّوَجَلَّ في كل لحظة، ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، أنت بحاجة إلى أن تُهدى إلى الصراط المستقيم، وبحاجةٍ إلى أن تُهدى في الصراط المستقيم، بحاجةٍ إلى أن تهتدي إلى الإسلام، ثم بحاجةٍ إلى أن تهتدي إلى تفاصيل الإسلام، والعمل بهذه التفاصيل، ولذا كل خطوة في حياتك أنت بحاجةٍ فيها إلى هدايةٍ خاصة؛ أنت تصلي الفريضة أنت بحاجة إلى أن يهديك الله عَزَّوَجَلَّ إلى ذلك، وكم من الناس ما شاء الله لهم هذه الهداية اختصك الله عَزَّوَجَلَّ بها، ثم صلاة السنة الراتبة بعدها، هذه لا يمكن أن تقوم بها إلا إذا كان من الله عَزَّوَجَلَّ هدايةٌ خاصةٌ بها.

أرأيت كيف أنك في كل حركةٍ وسكنة بحاجةٍ إلى هدايةٍ خاصةٍ من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

بعض الناس يقول: لِمَ ونحن –ولله الحمد– مسلمون ومصلون ومهتدون ندعوا بهذا الدعاء ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة:٦]، ونكرر دائمًا هذه الدعوة، ولذلك بعضهم يفسر ذلك بقوله: ثبتنا.

واعلم –يا رعاك الله– أن التثبيت هو بعض المعنى لا كله، وإلا فأنت بحاجة إلى أن تهتدي إلى معرفة تفاصيل الحق، وتفاصيل ما يكون في الصراط المستقيم؛ لأن للإسلام وللحق تفاصيل كثيرة، وكثيرٌ من الناس يجهلها، فأنت بحاجة إلى أن يهديك الله عَزَّوَجَلَّ إلى

العلم بها، ثم أنت بحاجةٍ إلى أن يهديك الله إلى إرادة هذه التفاصيل، وإلا فلو كان في قلبك كسل أو إعراض فإنك لن تلتزم بها.

ثم أنت بحاجةٍ إلى إعانةٍ من الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ على القيام بها.

ثم أنت بحاجةٍ بعد ذلك إلى هدايةٍ من الله لأجل أن تَثْبُت على هذا الخير.

ثم أنت بحاجةٍ إلى هدايةٍ من الله ألا يضيع هذا الخير الذي فعلته بأن يُحبط بسبب سيئاتٍ تأتي منك بعد فعلك هذا الخير.

أرأيت كم أنت بحاجةٍ إلى هذا الدعاء العظيم: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة:٦]؟

يقول الله جَلَّوَعَلَا مخاطبًا نبيه محمدًا صَلَّاللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ﴿إِنَّكَ لا تَهدِي مَنْ أَحْبَبتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[القصص:٥٦].

إذا كان النبي صَلَّاللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وهو هو سيد ولد آدم، وأرفع الناس درجةً عند الله، وأقربهم إليه جَلَّوَعَلَا، أعلم الناس بالله وأشدهم له خشية، ومع ذلك لا يملك الهداية لأحد؛ لا يملكها لأحد وهو حي، فكيف يملكها وهو ميت؟ وإذا كان هو لا يملكها لأحد؛ فلا شك أن غيره من باب أولى، بل انتفى في حقه صَلَّاللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أمران، من اعتقد واستيقن بهما زال عنه كل تعلقٍ بالمخلوقين:

[الأمر الأول]: أن يكون النبي صَلَّاللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مالكًا للنفع والضُر، ومن ذلك الهداية، ﴿إِنَّكَ لا تَهدِي مَنْ أَحْبَبتَ﴾، وهذا ما بينه الله جَلَّوَعَلَا في آياتٍ كثيرة: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا﴾[الجن:٢١]، ﴿لَيسَ عَلَيكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[البقرة:٢٧٢]، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصتَ ﴾، لو اجتهدت، ودعوت، وبلغت، وهديت هداية الإرشاد، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[يوسف:١٠٣]،إذًا هو لا يملك صَلَّاللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هذه الهداية.

بل لا يملك لنفسه هو صَلَّاللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فضلًا عن غيره ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيبَ لاستَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف:١٨٨]، وظيفته صَلَّاللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وواجبه أن يكون داعيةً إلى الله، رسولًا لله، مُبَلِغًا عن الله، لا أن يكون هاديًا وملهمًا للقلوب.

الأمر الثاني: انتفاء علمه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالغيب، قال: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[النحل:١٢٥] من يهتدي ومن لا يهتدي هذا من علم الغيب الذي اختص الله عَزَّ وَجَلَّ به، وليس للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك شيء، ولذلك يخطئ خطأً كبيرًا من يردد ويطرب.

فإن من جودك الدنيا وضرتها   ومن علومك علم اللوح والقلم

اتق الله يا عبد الله، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيّن الله عَزَّ وَجَلَّ أنه لا يملك شيئًا، حتى بعض أفراد الغيب، فضلًا عن أن يكون محيطًا بالعلم أو بعلم الغيب كله، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾[الأعراف:١٨٨]، أأنت تؤمن بهذه الآية أم لا تؤمن؟ إن كنت تؤمن بها سقط قولك واعتقادك، وإن كنت لا تؤمن بها ولا تصدق بها فقد كفرت –عياذًا بالله–.

إذًا انتفى في حق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القدرة على الهداية، وانتفى في حقه علم الغيب، ومن ذلك العلم بالمهتدين.

ولذلك تأمل معي سيأتي إن شاء الله الكلام عنه، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو كان يملك الهداية لكان أعطاها لعمه أبي طالب، تدري من عمه أبو طالب؟

عمه أبو طالب هو الذي أحاطه وربَّاه منذ أن كان عمره ثماني سنوات، وإلى بعد مرور ثمان سنواتٍ من البعثة أو أكثر وهو يحوطه، وينتصر له، ويغضب له، حتى إنه كان يُفَدِّيه بنفسه وماله وولده،.

واللهِ لن يَصلوا إليكَ بجمعِهمْ	حتى أُوَسَّدَ في الترابِ دَفينا

عاد الناس كلهم لأجل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابتُلي وأُصيب بما أصيب من المصائب والنكبات، ودخل معه الشعب، وجاع معه أيضًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلو كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يملك الهداية لأعطاه إياها.

ولذلك كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعوه في كل وقت في حياته باستمرار إلا آخر لحظات حياته، كما سيأتي معنا إن شاء الله، وهو يدعوه ويكرر عليه، ويتخذ الأساليب المتنوعة لذلك، ومع ذلك ما استطاع أن يهديه، فلما مات استغفر له؛ فلم يغفر الله له، بل نهاه الله عن أن يستغفر له.

إذًا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس له من شأن الهداية شيء.

والأمر الثاني: أنه انتفى في حقه علم الغيب؛ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[النحل:١٢٥]. فلو كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم الغيب لتوقف عن هذا الاجتهاد في دعوة أبي طالب إن كان يعلم ما في اللوح المحفوظ، إن كان يعلم أنه سبق في تقدير الله أن أبا طالب لن يهتدي، فما حاجته إلى هذا البذل، وهذا الاجتهاد العظيم؟ إنما كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤمل ويرجو أن يهديه الله، أليس كذلك؟

وهذا دليلٌ أيضًا على أنه ليس له من الأمر شيء، وبالتالي تنقطع العلائق من الخلائق، وتتعلق بالواحد الخالق الرازق، هذا شأن الموحدين، هذا شأن الموفقين.

٢٧

٢٧– باب

قول الله تعالى:

﴿إنك لا تهدى من أحببت﴾

(المجلس الثاني)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب:

قول الله تعالى:

﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[القصص:٥٦]،

في الصحيح عن ابن المسيب، عن أبيه قال:

أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد الآية التي سبق الكلام عنها في الدرس الماضي، أورد هذا الحديث الذي يتضمن قصة مهمة فيها فائدةٌ وعبرةٌ لأولى الألباب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ (في الصحيح) يعني: في الصحيحين.

(عن ابن المسيب): وهو الإمام الجلّيل سعيد ابن المسيب ابن حزن المخزومي القرشي، سيدٌ من سادات التابعين وأحد أجلّاء التابعين أو أجلّهم، توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة أربع وتسعين على الصحيح، وكان أحد أفراد الدهر للعلم والعبادة وكان معدودًا من الفقهاء السبعة، فقهاء أهل المدينة، يحكي ويروي عن أبيه، وهو المسيب ابن حزن المخزومي، صحابي من أهل الشجرة، وكذلك أبوه حزن المخزومي كان صحابي أيضا، إذا سعيد تابعي وأبوه وجده صحابيان.

يروي هذا الحديث عن أبيه والظاهر والله تعالى أعلم أنه كان حاضرًا إذ ذاك، هذا هو الظاهر وليس بالمقطوع به، لكنَّ الظاهر والله أعلم أنه يحكي شيئًا حضره، ومن قرائن ذلك أنه مخزومي، وصاحبا القصة اللذان سيأتي ذكرهما وهما أبو جهل وعبد الله ابن أبي أمية أيضا كانا مخزوميين، فلعلهما كانوا في رفقة بعضهم وزاروا أبا طالب وهو على فراش المرض قبيل وفاته.

لما حضرت أبا طالب الوفاة

أبو طالب عم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهو الذي كان يحوطه ويغضب له، ولم يزل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في مَنَعَه حتى توفي هذا العم الذي كان يرعاه منذ صغره، ومعلوم ما كان عليه أبو طالب من محبة وشفقة على ابن أخيه، حتى إنه كان يغضب له وكان يعادي قومه من أجله، وابتلي بسبب هذه الوقفة مع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لكن العجيب أنه ما آمن، كان

ينهى قومه عن أذية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي نفس الوقت كان يترفع عن الدخول في الإسلام، حتى إن بعض السلف قالوا إن قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾[الأنعام:٢٦]، نزلت في أبي طالب فكان ينهى قومه عن أذية النبيصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومع ذلك كان ينأى بنفسه عن الدخول في الإسلام.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له أربعة أعمام، والعجيب أن اثنين منهم أسلما واثنان بقيا على الكفر وماتا على الكفر، أما اللذان أسلما فحمزة والعباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأما اللذان أبيَّا الدخول في الإسلام فهما اللذان كان أسمهما معبدًا لغير الله، اللذان لم يكن أسمهما معبدًا لغير الله أسلما وهذا من العجيب، أما اللذان كان اسمهما معبدا لغير الله ما أسلما، فأبو طالب اسمه عبد مناف، وأبو لهب عمه الآخر كان اسمه عبد العزّى، وكلاهما ماتا على الكفر.

قال: «**لما حضرت أبا طالب الوفاة**» الذي يظهر والله تعالى أعلم أن المقصود ليس أنه بلغت روحه الحلقوم وأنه صار في السياق، وإنما المقصود أنه قد ظهرت علامات الوفاة، يعني دنا الأجلّ وقرب الأجلّ وهذا له علامات يعرفها الناس، بدليل أن القصة فيها حديث، وحوار، وكلام وسماع وأخذ ورد، ولو كان في حال النزع لكان في شغل عن هذا.

إذن الذي يظهر والله تعالى أعلم أن هذا إنما كان بمعنى قَرُبَ الأجل ودنا الأجل وبدت العلامات التي في الغالب يعقبها الوفاة.

جاءه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل، فقال له: "يا عم، قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله"

جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أبي طالب وهو مريض وعلى فراش الموت فوجد عنده هذين الرجلّين، وجد أبا جهل رأس الكفر، فرعون هذه الأمة الذي هو عمرو بن هشام المخزومي، وكان يُكنى بأبي الحكم فكناه المسلمون بأبي جهل، و كان أشد الناس عداوة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهلك كما تعلمون في غزوة بدر.

أما الآخر فهو عبد الله بن أبي أمية المخزومي الذي هو أخو أم سلمة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكان إبَّان هذه القصة كافرًا على دين قومه، لكنه بعد ذلك أسلم وحسن إسلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، والله جَلَّ وَعَلَا أراد به خيرا وهو إن كان في هذه القصة داعية إلى الكفر،

ساعيا إلى تثبيت أبي طالب على ملة الكفر، إلا أن الله جَلَّوَعَلَا منّ عليه بعد ذلك، فأسلم بل نال شرف صحبة النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

لما حضر النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وكان عنده هذان الرجلان، ما وجد النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بُدًّا من أن يهتبل هذه الفرصة، الرجل الآن على فراش الموت فلابد إذا من محاولة، ولعلها تكون الأخيرة، في سبيل دعوة أبي طالب، كان النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ دائما ودائبًا على دعوة عمه، ولما جاءه في هذه الحال ما فقد الأمل بل جدَّ في دعوته واستعمل أحسن الأساليب وأحكم الأساليب في الدعوة.

انظر أولًا كيف أستعطفه، واستثار شفقته فقال: **« يا عم»** ، حتى يلين قلبه لما سيأتي الكلام فيه، لأنه يعلم مدى محبته للنبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقدم بهذه الكلمة التي عساها أن تلين قلبه، **«قال: يا عم قل لا إله إلا الله، كلمةً أحاج لك بها عند الله»**، ولك أن تقول كلمةٌ أحاج لك بها عند الله يعني أما أن تكون بدلًا من كلمة التوحيد، أو تكون خبرًا لمبتدأ محذوف هي كلمةٌ أحاج لك بها عند الله.

انظر ثانيًا كيف أنه سهل الأمر عليه وقال: هي كلمه قلها تنتفع بها ليس الأمر عسيرًا وليس الأمر شاقًا، إنما هي كلمة وهذا نستفيد منه درسا مهما في الدعوة إلى الله جَلَّوَعَلَا وهو ضرورة التيسير على المدعوين .

معشر الدعاة إلى الله، الله الله بسلوك هدي النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهو التيسير والتسهيل لا التعسير، النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **«إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»**، قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لمعاذ وأبي موسى رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا : **«يسرا ولا تعسرا»**.

إذن هذا نهج ينبغي أن يراعيه الدعاة إلى الله جَلَّوَعَلَا، أن يبتغوا التيسير على المدعوين، وأن يسلكوا مسلك التسهيل والتحبيب، لعلّ الله عَزَّوَجَلَّ أن يهدى القلوب.

أما التشديد والتنفير وربما لم يكن هذا مقصودًا لكن الأسلوب أحيانا يكون دون قصد سبب للتنفير عن الإسلام، حينما تأتى إلى هذا المدعو فتسرد عليه كل الأحكام الشرعية وتسرد عليه كل المطلوبات منه شرعا وتقول له: عليك أن تفعل كذا وكذا وكذا وكذا، وتسرد عليه قائمة طويلة من الأوامر ومن النواهي، فإن هذا مما سيجعل الأمر شاقا ثقيلًا عليه، إنما

ابدأ بأُسِّ الأمر وأساسه وهو كلمة التوحيد، وسهل الأمر وخفف وقل كما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**هي كلمة قلها ينفعك الله عَزَّوَجَلَّ بها**».

ثم أنظر ثالثا كيف أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حثه ورغبه في أن يسلم بقوله: أحاج لك بها عند الله، هذا فيه دافع وفيه ما يرغب ويحث على الدخول في الإسلام.

إذن المرغبات والدوافع التي تقرب الإنسان إلى الحق وتدعوه إلى الدخول في دين الله الحق، هذا مما ينبغي أن لا يُغفله الداعية إلى الله جلّ وعلا، « **كلمةً أحاج لك بها عند الله**» ، يعني أجعلها سببا لأشهد لك بها عند الله جَلَّوَعَلَا كما جاء في رواية عند البخاري: «**أشهد لك بها عند الله**».

إذن سلك النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أحسن المسالك و أحكم المسالك، و التمس أفضل الوسائل في دعوة عمه أبي طالب، واستفد هنا فائدة مهمة لا تفوتك، وهي أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أمره أن يقول (لا إله إلا الله) وهو الأمر المعلوم من الدين بالضرورة، وهو أنه لا إسلام إلا بقول لا إله إلا الله، فمن ادَّعى أنه قد آمن لكن أبى أن ينطق بلا إله إلا الله، ولا عذر له في عدم النطق، يعني هو سليم الحاسة يمكنه أن يتكلم، لكنه أبى أن ينطق بلا إله إلا الله فإنه لا يمكن أن يكون مسلمًا إلا إذا نطق بلا إله إلا الله وهذا من الإجماع المعلوم بالضرورة عند أهل العلم.

إذن لابد من التلفظ، لابد من النطق مع يقين واعتقاد وتصديق وإخلاص القلب، أما أن يكون إيمانٌ في القلب فقط فهذا لا ينفع صاحبه، بل لابد أن يصحب ذلك في ابتداء الإسلام وفي الدخول في الإسلام، لابد أن يصحب ذلك نطق بهذه الكلمة.

وها هنا سؤال، وهو كون النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ اقتصر على شهادة الوحدانية دون الشهادة بالرسالة للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ والجواب عن هذا وقد ذكرناه في دروس سابقة، وفي ما ذكر سابقا بيان أنَّ إحدى الشهادتين تتضمن الأخرى، فإن لا إله إلا الله تتضمن الشهادة للنبي محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالرسالة، وبيان ذلك أن لا إله إلا الله تعني: لا معبود حق إلا الله.

إذن هي اعتراف واعتقاد وعهد على أن يعبد الإنسان الله جَلَّوَعَلَا وحده لا شريك له، وبالتالي فلابد من إيمان بالنبي محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإلا فكيف يعبد ربه؟ لا يمكن أن تكون عبادة إلا من طريق النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

إذن تضمنت شهادة أن لا إله إلا الله شهادة أن محمد رسول الله.

ولاحظ أمرًا آخر وهو أن أبا طالب لم يكن عنده تردد في شهادة أن محمد رسول الله، إنما الإشكال كل الإشكال كان في أنه أبى الشهادة الكبرى وهي شهادة أن لا إله إلا الله، أما كونه مصدقا بأن النبي محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رسولًا من عند الله فهذا مما لا يشك فيه أبو طالب، أليس هو الذي قال:

ودعوتني وعلمت أنك صادق ولقد صدقت وكنت ثم أمينًا
ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحًا بذاك مبينًا

إذن ما كان عنده شك في الشهادة للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأنه صادق وأنه رسول من عند الله حقا، لكن البلية كل البلية كانت في أنه أبى وأستكبر من الشهادة لله جَلَّوَعَلَا بالوحدانية، أبى أن يقول لا إله إلا الله كما سيأتي معنا.

إذن هذا الذي قاله النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ له، بذل جهده وجدَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في دعوة هذا الإنسان، ولم يكتفِ بدعوته السابقة، بل حرص إلى آخر لحظة أن يقدم الدعوة، وسعى السعي الحثيث أن يهتدي عمه، والدعاة إلى الله جَلَّوَعَلَا عليهم أن يكون عندهم هذا الحرص على هداية الناس، هذا من أهم سمات الدعاة الصادقين، أنهم حريصون أشد الحرص على هداية الخلق إلى الحق.

فقالا له: أترغب عن **ملة عبد المطلب؟**

سبحان الله العظيم! انظر شؤم الصحبة السيئة، «**قالا له أترغب عن ملة عبد المطلب؟**» ذكّراه الحجة الملعونة التي كان كفر غالب الأمم بسببها، وهي تعظيم الآباء والأجداد والأسلاف والكبراء، والحمية لهم وعدم الرغبة عن مسلكهم، الرغبة في عدم الخروج عن طريقتهم لما لهم من مكانة عظيمة في نفوسهم.

هذه حجة كثيرٍ من الكفار في كفرهم فإنهم إذا قيل لهم ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ ماذا يكون جوابهم؟ ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[البقرة:١٧٠]، هذا فقط هو احتجاجهم، إذا قيل لهم آمنوا بالله جَلَّوَعَلَا وصدقوا المرسلين تكون حجتهم في القديم والحديث وفي كل زمان ومكان: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾[الزخرف:٢٣].

هذا إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ يسأل ويحاجُّ أباه وقومه: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾[الأنبياء:٥٢]؟ ماذا كان الجواب؟ ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾[الأنبياء:٥٣]، هذا الدليل وهذه الحجة لا غير، ولكنها حجة داحضة لن تنفعهم وسيندمون عليها أشد الندم وهم يتلظون في النار، -نسأل الله السلامة والعافية-، ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾[الأحزاب:٦٧].

إذن ذكّر هذان الرجلّان أبا طالب بهذه الحجة واكتفيا بها وما زادا عليها، لأنهم يعلمون عِظَّمَ وقعها في نفسه، ولاحظ الأسلوب، كيف أنهما أيضا سلكا أسلوبا فيه إغراء وفيه سعيٌّ إلى تثبيته على هذا الدين الذي هو عليه، « **أترغب عن ملة عبد المطلب؟**»، ولاحظ أنهما ما قالا له: أترغب عن ملتك، أترعب عن ملتنا، إنما ذكراه بأحب الناس إليه وهو أبوه، « **أترغب عن ملة عبد المطلب؟**»، ومعلومٌ مكانة عبد المطلب في نفس أبي طالب.

إذن حتى أعداء الله، حتى أعداء الحق عندهم سعيٌ وعندهم أساليب وعندهم همة في الدعوة إلى باطلهم، وهذا مما ينبغي ألا يغفله الدعاة إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، يعلمون المسالك والأساليب التي ينهجها أعداء الحق.

فأعاد عليه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ، فأعادا

انظر حرص النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وانظر شفقته، وانظر إلى جده وهمته، أعاد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الدعوة كررها ما اكتفى بالدعوة السابقة وما قال: إن اهتدى فلنفسه وإلا فلا يضرني قد قامت عليه الحجة، نعم قامت عليه الحجة ولكن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عنده من الرحمة والشفقة ما جعله يكرر الدعوة ويعيد عليه مرة أخرى، ولكن صادم ذلك اجتهادٌ من

أعداء الحق، فأعادا عليه مرة أخرى تلك الحجة، ذكَّراه مرة أخرى بما يجب عليه أن يبقي عليه، وأن يثبت عليه وهو ملة عبد المطلب.

إذن حتى أعداء الله جَلَّوَعَلَا عندهم نشاط، وعندهم اجتهاد حثيث، وعندهم إن صحت العبارة همٌّ دعوىّ في دعوتهم إلى باطلهم، وهذا مما ينبغي أن يعتبر به أهل الحق، إذا كان أعداء الحق وأعداء الدين الحق عندهم نشاط وعندهم اجتهاد، وعندهم تفانى في الدعوة إلى باطلهم، فينبغي على أهل الحق أن يكون عندهم من النشاط ما هو أعظم وأكبر.

لاحظ ها هنا -يا رعاك الله- كيف أنَّ أبا طالب وأبا جهل وعبد الله ابن أبي أمية، لاحظ أن كلهم كان يعرف معنى (لا إله إلا الله)، عرف الجميع أن (لا إله إلا الله) ليست كلمة تُقال باللسان لا يتبعها عمل وقبول وانقياد، عرفوا جميعا أنَّ (لا إله إلا الله) لا تعني: أنه لا خالق إلا الله ولا رازق إلا الله، كما يخطئ كثير من الناس مع الأسف الشديد اليوم، في فَهْمِ هذه الكلمة، نعم فهم هؤلاء كلمة التوحيد الفهم الصحيح، وقُبْحًا لمن كان أبو جهل وغيره من الكفار كانوا أعلم منه بـ (لا إله إلا الله).

إذن كان الكفار يعلمون أن لا إله إلا الله تقتضي إفراد الله جَلَّوَعَلَا بالتوحيد والكفر بكل ما يعبد من دون الله، والانخلاع عن كل دين سوى توحيد الله وأتباع نبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كانوا يعلمون ذلك حقا، لكن هذا العلم ما نفعهم لأن العلم وحده والتصديق وحده لا ينفع صاحبه ما لم يتبع ذلك قبول وانقياد.

فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله.

الظاهر والله أعلم أنه قال: أنا على ملة عبد المطلب، لكن عدَّل وغير بعض الرواة اللفظ، وذلك كأنه كان منه استعظاما أن يقول هذه الكلمة، أنا على ملة عبد المطلب!

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((الفتح)): وهذا من التصرفات الحسنة.

وجاء عند ((الحاكم)) اللفظ على الأصل قال: (أنا على ملة عبد المطلب).

وجاء في رواية في ((الصحيح)) قال: (على ملة عبد المطلب)، على تقدير أنا على ملة عبد المطلب، وقال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((الفتح)) :وجاء في رواية مجاهد (أنا على ملة الأشياخ)، يريد أشياخ قريش من أبائه وأجداده وأسلافه.

الشاهد أن ختام الأمر كان بأن صرَّح أبو طالب بأنه باق على دين قومه، رجح الباطل على الحق، رجح دين الشرك على دين التوحيد والإسلام، أخر المطاف أن قال هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله، هذا هو كفر أبي طالب، كان كفر إباء واستكبار.

الكفر -يا رعاك الله- أنواع:

منه كفر تكذيب.

ومنه كفر نفاق.

ومنه كفر شك.

ومنه كفر إباء واستكبار، وذلك أنه كان يعلم الحق لكنه أبى واستكبر وعاند عن قبوله.

وسببُ ذلك راجعٌ إلى أمرين:

[السبب] الأول: الحمية لآبائه ودين قومه، فإن ذلك كما أسلفت لك الحمية لهم والتعظيم لهم والتقليد لهم، كانا أحب إليه من الحق، وكانوا مستعدين لأن يتركوا كل شيء في سبيل الحفاظ عليه وهو تقليد الآباء والأسلاف، ولأجلّ هذا ثبت على هذا وقال: هو على ملة عبد المطلب، أو على ملة الأشياخ.

السبب الثاني: ما جاء مُصرحًا به في روايةٍ عند ((مسلم)) وهي: أنَّه قال للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: لولا أن تعيرني قريش فيقولون أسلم خَوَفَ الفزع؛ لأقررتُ عينك بها.

إذًا كان عنده سبب آخر دعاه إلى الكفر بالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وهذا والله من أعجب الأشياء، أنه ما أراد أن يتكلم فيه الناس، أن ينالوا عرضه وأن يشوهوا سمعته وأن يعيروه، مع أنه كان يعلم أنه لم يبقَ له في هذه الحياة إلا لحظاتٌ معدودة، فإذا تكلموا فيك سيتكلمون فيك وقد غادرت هذه الحياة، فماذا يضرك ذلك!

ومع ذلك كان حريصًا على ألا يعيره أحد، يقولون أسلم لأنه خائف؛ يخاف من عذاب الله ولأجلّ هذا أسلم.

سبحان الله العظيم، وهل الخوف من عذاب الله شيء يعير به، أو يتخوف الإنسان من إبدائه؟

إن الخوف من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ لا شك من أنه من أرفع مقامات الإيمان، ومن سُلِبَ هذا الخوف فإنه سُلِبَ الإيمان والعياذ بالله، فلابد من الخوف من الله جَلَّوَعَلَا، ومن الخوف من الله الخوف من عقابه وأليم عذابه.

الشاهدُ أنَّ أبا طالب عَلِمَ الحق يقينا ولكنه أبى وأستكبر أن يدخل في الإسلام، رفض إلى آخر لحظة والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يعيد عليه ويكرر الدعوة، ولكنَّه أبى واستكبر ورفض الدخول في الإسلام، **وهذا فيه دروسٌ وفوائد وحكم كثيرة:**

أولًا: أن تعلم عظمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأن الأمر منه وإليه جَلَّوَعَلَا، وأن الأمور كلها بيده جَلَّوَعَلَا، فالقلوب والهداية إنما هي بيده تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وبالتالي من استيقن بهذا فإنه يخرج من قلبه كل شرك بغيره، كل تعلق بالمخلوقين، الهداية من الله جَلَّوَعَلَا.

إذن على الإنسان أن يلجأ إلى الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ حتى ولو كان الذي يدعو هو أعظم الدعاة، وحتى لو كان سَلَكَ أعظم السُبل وأفضلها، وهو النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ومع ذلك لم يكن يملك الهداية، ولو كان يملكها لأعطاها لهذا الذي كان حريصًا جدًا على هدايته، لكن هذه القصة تفيدُك تحقيق التوحيد.

[ثانيًا]: أن تعلم أنَّ الإسلام والإيمان شيءٌ وراء التصديق، ليس هو تصديقًا فحسب، بل هو نُطْقٌ يتبعه انقياد وقبول لأحكام الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، ولذلك ما انتفع أبو طالب بتصديقه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

[ثالثًا]: أن تعلم خطر الصحبة السيئة، وأنها من أسباب الانحراف عن الحق فالصاحب السيئ كنافخ الكير، سيصيبك الضرر منه ولابد.

.... ولا تَصْحَبِ الأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِي

فاحذر من كل صاحب سيئ، وعليك بصحبة أهل الحق وعليك بصحبة أهل الخير فإن صحبتهم من أسباب الوصول إلى الحق.

وهذه القصة تدلنا على أن الصحيح الذي لا شك فيه هو أن أبا طالب خُتم له بخاتمة السوء، وكان خاتمة أمره أنَّه أبى وأستكبر الدخول في الإسلام؛ لأنَّه جاء في آخر الحديث أبي أن يقول لا إله إلا الله، أبى أن ينصاع للحق بعد أن ظهر له.

وبالتالي يظهر لك خطأ الذين يزعمون أن أبا طالب قد أسلم، هذا خطأ وباطل قطعا، حتى إن بعض الناس ألف في هذا بعض المؤلفات.

وهذا كله عريٌ عن الصواب، باطلٌ سندًا ومتنًا، معارضٌ للكتاب والسنة، وذلك من هؤلاء وهذا الولع الشديد والحرص الأكيد على إثبات إسلام أبي طالب لأجلِّ عظيم تعلقهم بالمخلوقين؛ فهم يعتقدون أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده الهداية، ولذلك إذا عورضوا بقصة أبي طالب، يكرون على هذا بمخالفة الحق الصريح، فيقولون لا بل هو أسلم كان هذا في البداية ثم أسلم بعد ذلك، ولا شك أن هذا باطل قطعا.

لو أسلم أبو طالب لما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ في حقه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[القصص:٥٦]، وبإجماع المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن أبي طالب، ولو كان أبو طالب قد أسلم لما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لاستغفرن لك ما لم أُنه عنك**».

ولو كان أبو طالب قد أسلم لما كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: وقد قال له العباس ، يسأل عن أخيه: « **يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: نعم هو في ضحضاح من النار**».

(**ضحضاح**) يعني :كناية عن مكان أهون من غيره في نار جهنم.

الضحضاح هو: ما قل من الماء حتى لا يكاد يبلغ الكعبين، كناية عن أنه في أهون مكان في النار التي يعذب فيه الكفار، ولو كان أبو طالب قد أسلم، لما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والحديث في ((الصحيح)): «**أهون أهل النار عذابا أبو طالب، ينتعل نعلين من نار يغلي منهما دماغه**» -نسأل الله السلامة والعافية-، هو أهون أهل النار عذابًا، يعني: من الكفار، ومع ذلك هذا عذاب -نسأل الله السلامة والعافية-.

إذن هذه القرائن وغيرها كلها تدل على أن الحق الذي لا شك فيه أن أبا طالب لم يسلم وأنه حقا أبى أن يقول لا إله إلا الله.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاستغفرن لك ما لم أنهى عنك»، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾[التوبة:١١٣].

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينئذٍ: «**لأستغفرنَّ لك ما لم أُنهَ عنك**»، وهذا كان منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يأتيه النهي من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن أن يستغفر للمشركين، مع أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما يقول بعض العلماء كأنه كان في نفسه شيء، مع أنه ما جاءه النهي، لكن كأنه كان في نفسه شيء أن يستغفر للمشركين، ولذلك قال: «**ما لم أُنهَ عنك**»، وبعد ذلك نزل قول الله جَلَّ وَعَلَا الناهي عن الاستغفار للمشركين: **﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾[التوبة:١١٣]**.

وها هنا إشكالان:

[الإشكال] الأول: أنَّ الحديث فيه أن هذه الآية نزلت بسبب هذه القصة وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها، لكن يُشكل على هذا أن الآية من سورة التوبة وهي مدنية، وهذه القصة كانت بمكة فإنَّه بالإجماع مات أبو طالب بمكة، فكيف تكون هذه القصة سببًا لنزول هذه الآية، والجواب عن ذلك بأحد أمرين:

[الأمر الأول]: إما بأن يقال: إن الآية تأخر نزولها عن سببها، وهذا لا مانع منه.

[الأمر الثاني]: أو يقال: بأنه تعددت أسباب النزول وهذا له نظائر في القرآن.

الإشكال الثاني: أنَّ النهي قد جاء مع أنه ثبت في ((الصحيحين)) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**رأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحكى نبيا ضربه قومه فأدموه، يمسح الدم عن وجهه وهو يقول :اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»، فكيف استغفر هذا النبي والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحكي هذا مقررا مع أنهم كانوا مشركين؟

والجواب عن هذا ظاهر، وهو أن النبي كان يدعو لقومه وهم أحياء بأن يتوبوا ثم تكون لهم المغفرة من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يعني: اغفر لقومي بعد أن يتوبوا، كأنه يقول: اهدهم للسبب الذي به تغفر لهم؛ والله سبحانه أعلم.

وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[القصص:٥٦]

وهذا بإجماع العلماء أن هذه الآية نزلت في شأن أبي طالب، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[القصص:٥٦] يعني: من أحببت هدايته، على أحد قولي أهل العلم في الآية، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان محبًا ولا شك لهداية أبي طالب، ولأجلّ هذا جد واجتهد في دعوته إلى آخر لحظات حياة أبي طالب.

والقول الآخر: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[القصص:٥٦] يعني: من أحببته هو.

وهذا واضح أيضًا لا إشكال فيه من جهة أن هذه محبة طَبْعِيه، والله جَلَّ وَعَلَا لا يكلف الإنسان فوق طاقته فإن محبة الإنسان للمحسن إليه أو لأبيه وأمه وأخيه وعمه ونحو ذلك، هذه محبة طبعيه ملازمة للإنسان في فطرته، ولأجلّ هذا من الصعوبة بمكان أن يدفع الإنسان عن نفسه ذلك فهذه محبة طبعيه رُخِصَّ فيها ولم يشدد على الناس فيها، مع وجوب بغض هذا الكافر لأجل كفره.

ولا إشكال في اجتماع المحبة والبغض من وجهين مختلفين، لا يعذر الإنسان في أن يترك بغض الكفار لأنهم كفار، والله جَلَّ وَعَلَا أمر و حث على ذلك ونهى عن محبتهم، ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾[الممتحنة:١]، إذن هذه محبة طبعيه مرخص فيها.

بقي الكلام في شأن أبي طالب في مسألة تتعلق به ومضى الإشارة إليها في باب الشفاعة، وهي أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشفع يوم القيامة في عمه أبي طالب أن يخفف عنه العذاب، وهذا مما قلنا إنه من الشفاعات التي أختص بها النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه على الصحيح مستثناة من شرط الرضى عن المشفوع له، كما أشرنا إلى هذا سابقا، فالأصل أنه لا شفاعة في كافر: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[غافر:١٩]، والأصل أيضًا أنه لا يخفف العذاب عن الكفار، ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾[البقرة:٨٦] بل ليس لهم إلا زيادة في العذاب، ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾[النبأ:٣٠].

لكن الشأن في أبي طالب على وجه الخصوص مختلف، فإن الله سبحانه قد شَفَّع فيه نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فخُفِف عنه العذاب -كما مر معنا في الحديث السابق-، «هو

في ضحضاح من النار ولولا أنا -يعني: شفاعتي- **لكان في الدرك الأسفل من النار»**، وهذا يدلك على خطورة أن يعلم الإنسان الحق فينأى ويستكبر.

بعضُ أهل العلم ذهبَ إلى أنَّ الكافر يمكن أن تكون فيه شفاعة لكن في التخفيف لا في الإخراج من النار، واحتجَّ هؤلاء بقصة أبي طالب وشفاعة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فيه، ولكن هذا ليس بوجيه وذلك أنه يستلزم هذا ثبوت الشفاعةِ في غير أبي طالب من الكفار وهذا مما لم يثبت فيه دليل والقاعدة العامة -كما أسلفت -هي أن الكفار لا يخفف عنهم العذاب.

بقيت مسألة وهي: هل ينتفع الكافر بشيء من حسناته؟

قبل ذلك أقول إن هذه المسألة لها وجهان:

[الوجه الأول]: انتفاع الكافر بأعماله الصالحة في الدنيا.

الوجه الثاني: انتفاعه بها في الآخرة.

والمراد بالأعمال الصالحة: ما لم يفتقر إلى نية،؛كأن يطعم مسكينا أو ينقذ غريقا أو يغيث ملهوفا وما شاكل ذلك، هل ينتفع الكافر بهذا في الدنيا؟

الجواب نعم؛ ثبت في ((صحيح مسلم)) عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنه قال: **«إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنة يُعطى بها في الدنيا ويدَّخر له في الآخرة»**.

أبشر يا أيها المسلم، الله يجازيك على حسناتك في الدنيا ويجازيك عليها أيضا في الآخرة، وكرم الله عَزَّوَجَلَّ لا حدَّ له، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بعد ذلك: **«وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل لله في الدنيا، حتى إذا لقي الله لم تكن له حسنة يجزى بها»**.

إذن الكافر يجازى على العمل الصالح الذي يعمله في الدنيا، فالطعام والشراب والهواء والمال والولد والأمن وما شاكل ذلك، هذا هو جزائه على أعماله الحسنة التي عملها في الدنيا، وبالتالي فإنه لا يحاسب على هذا القِسْط من هذه الحسنات الدنيوية في مقابل أعماله الصالحة؛ لأنَّ الكافر -كما تعلم- يجازى يوم القيامة على ثلاثة أمور

يجازى ويحاسب ويعذب على ثلاثة أمور:

١/ على كفره بالله.

٢/ وعلى معاصيه التي دون الكفر.

٣/ وعلى النعم التي ما قام بشكرها.

وذلك أن الله جَلَّوَعَلَا ما أحلّ للكافر النعم، هذا الأكل والشرب وهذه الخيرات، يتناولها الكافر ويكون عليه حسابها يوم القيامة، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[الأعراف:٣٢]، الله ما أحلها للكافر أحلها فقط للمؤمنين ولأجلّ هذا سوف يحاسب عليها الكافر يوم القيامة، لكن هذا القسط الذي قابل أعماله الحسنة لن يُجازى أو لن يُحاسب عليه.

أما في الآخرة فالنص صريح -كما قد علمت- بأنه ليس له حسنة يجزى بها، ليس له أي شيء يجازى عليه يوم القيامة.

في ((صحيح مسلم)) من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أنّها سألت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقالت: «**يا رسول الله، ابنُ جدعان؛** -تسأله عن عبد الله ابن جدعان أحدِّ رجال الجاهلية المشهورين-، **قالت: كانت له صدقات وعتاقات؛** -يعني كان يتصدق على المساكين وكان يعتق الرقاب وكان له أعمال حسنة يفعلها-، **قالت عائشة** رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: **هل نفعه ذلك؟ فقال النبي** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **لا ينفعه**».

انظر إلى هذا الحكم الجازم، لا ينفعه ولو كان ينتفع بهذا أي انتفاع ولو في تخفيف العذاب، لما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ذلك، قال: «**لا ينفعه؛ إنه لم يقل يوما: ربي اغفر لي خطيئتي يوم الدين**»، يعني: أنه كان كافرا بالبعث.

وبالتالي كان كافرا بالله جَلَّوَعَلَا ، فلا ينفعه ما قدمه في الدنيا، والأدلة على هذا كثيرة: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:٨٨]، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان:٢٣].

قال بعض العلماء إنه ينتفع بحسناته في التخفيف من عذاب النار في الآخرة، وهذا استدلوا عليه بأمرين:

١/بقصة أبي طالب. ٢/وبقصة أبي لهب.

أما قصة أبي طالب فقد اتضح لك أن تخفيف العذاب كان سببه ليس حسنته وإنما شفاعة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، فخرج حينئذ عن أن يكون دليلًا صحيحا.

بقينا في قصة أبي لهب، ما هي هذه القصة؟

في ((صحيح البخاري)) عن عروة ابن الزبير وهو أحد التابعين -ولاحظ هذا-، قال: إن أبا لهب لما مات رآه بعض أهله فسأله عن حاله فقال: (بشر خيبة، -يعني بشر حال-، غير أني سقيت في هذه وأشار إلى نقرة أو نقطة أسفل إبهامه، أو بين إبهامه وسبابته، قال: غير أني سقيت في هذه بعتق ثويبة).

ثويبة مولاة كانت له، لما جاءت إليه مبشرةً بولادة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرح فأعتقها، يقول هذا كان سببًا؛ لأني سُقيت هذا الشيء النزر اليسير من الماء.

قال هؤلاء: هذا دليل على أن العمل الصالح يخفف من العذاب.

ورفع بعض الناس سقف الاستدلال إلى أن جعلوه دليلًا على إقامة الموالد وهو دون شك أبعد وأبعد في الضعف.

هذا الاستدلال فيه نظر:

أولًا: من صاحب القصة الذي يرويها لنا؟ عروة ابن الزبير.

إذا هذا الكلام من قبيل المراسيل، فعروه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورحمه، لم يدرك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضلًا عن أن يدرك أبا لهب.

ثانيًا: أن القصة بقضها وقضيضها ما هي إلا رؤيا منامية، وباتفاق أهل العلم أنَّ الرؤيا المنامية لا تَثْبُتُ بها الأحكام، فكيف وهي معارضة لما دل عليه الكتاب والسنة.

ثم إن الذي رأى قال: رآه بعض أهله؛ من الذي رأى؟ وكيف هو حاله؟ وما مدى ثقته وضبطه؟ هذا أيضا مجهول، ما ندرى من الذي رأى، بل لا ندرى هل كان مسلما أو غير مسلم؟

إذن اتضح لنا أن الاستدلال بهذه القصة استدلالا ضعيفا لا يصح، وأن القاعدة هي أن الكافر لا ينتفع بشيء من أعماله الصالحة في الآخرة.

ختامًا يا أيها الأخوة، أعود فأكرر، ما بدأتُ الحديث به في هذا الباب، وهو:

أن التعلق في شأن الهداية يجب أن يكون بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وأنه ليس لأحد من الخلق مهما علت منزلته بل حتى لو كان أشرف الخلق، لو كان سيد ولد آدم، وهو النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه ليس له من الأمر شيء: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾[البقرة:٢٧٢]، ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[القصص:٥٦].

وكذلك ينبغي على الإنسان أن يتأمل في هذه القصة العجيبة فيعلم أن الذي ينفعه عند الله جَلَّوَعَلَا الإيمان والتوحيد وصدق الأتباع للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن النسب الشريف والقربى من الصالحين، بل القربى من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينفع صاحبه ما لم يكن إيمانا وتوحيد، هذا أبو طالب من أقرب الناس إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما انتفع بهذه القرابة، فلا يغتر مغترٌ، والله تعالى أعلم.

٢٨

٢٨- باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب:

ما جاء أنَّ سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

بعد أن بَيّن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ طائفةً من أعمال المشركين، عَقّب بذكر سببٍ هو الأهم بين أسباب الوقوع في هذا الشرك؛ ألا وهو الغلو في الصالحين.

ولاحظ أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر ها هنا ضمير الفصل (هو) هو الغلو في الصالحين أنه سببُ شركِ بني آدم وسبب تركهم دينهم، الذي هو الدين الحق الذي هو دين التوحيد.

قال : (هو الغلو في الصالحين)، والغلو عامةً مذموم، وفي الصالحين أشدُّ كراهة.

الغلو في اللغة: تدور مادته على مجاوزة الحد، ومنها غلا السعر؛ يعني: تجاوز حدَّه.

والغلو في الاصطلاح الشرعي: هو مجاوزة الحد الشرعي؛ يعني: مجاوزة ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به، وهذا عام يشمل كل القضايا الشرعية، سواءً تعلقت بالعبادة، أو تعلقت بالاعتقاد، أو تعلقت بمعاملة الصالحين؛ فالغلو في العبادة يعني: التسلط والتشدد فيها بزيادةٍ عن الحد الشرعي، أو ترك رخصة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، أو الإثقال على النفس في النوافل حتى تمل، فإنَّ المنبت لا ظهرًا أبقى ولا أرضًا قطع.

والغلو في الاعتقاد: يكون بمجاوزة الحد الذي أمر الله جَلَّوَعَلَا به؛ فالغلو في إثبات الصفات يؤدي إلى الوقوع في التشبيه، والغلو في التنزيه يؤدي إلى الوقوع في التعطيل، والغلو في إثبات القَدَّر يؤدي إلى القول بالجبر، وهكذا.

كذلك الغلو في الصالحين؛ الغلو في الصالحين مجاوزة الحد الشرعي في التعامل معهم، يؤدي إلى الوقوع في معاطب، وإلى الوقوع في أخطاءٍ عظيمة، وذلك برفعهم عن الحد الذي أمر الله عَزَّوَجَلَّ وشرع، وهو محبته في الله وتقديرهم وتعظيمهم تعظيمًا لائق بهم.

أما الزيادة على ذلك بأن يُرفعوا إلى مقام النبوة فيُعتقد عصمَتُهم، أو يُرفعوا قدرهم إلى درجة الألوهية، فيُدعون ويُعبدون مع الله، أو تُرفع درجتهم أكثر من ذلك، فيُعتقد فيهم الربوبية، وأن الخلق والرزق والتدبير يعود إليهم، فلا شك أنَّ هذا هو الشر المستطير، والأساس العظيم الذي يودي إلى عذاب الله عَزَّوَجَلَّ وأليم عقابه.

نبه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ها هنا على هذا السبب الأكثر شيوعًا في إيصاله إلى الشرك؛ وهو الغلو في الصالحين، وذلك أنَّ الشيطان يزين الشرك إلى الناس في قالب محبة الصالحين وتعظيمهم، حتى يتوصل إلى الإيقاع بهم؛ فيعبدونهم من دون الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

والغالب على المشركين هو هذا؛ أنهم غلوا في الصالحين، فعبدوهم، إما بعبادة قبورهم، أو بعبادة صورهم وتماثيلهم، فالغالب على الشرك أنه يكون بالتوجه والعبادة لقبر، هو قبرٌ يُعبد، أو صورةٌ وتمثالٌ يُعبد، هذا هو الغالبُ على الشرك.

والسبب الذي أدَّى إلى هذا وذاك إنما هو الغلو في الصالحين، فمن نصيحة المؤلف لإخوانه المسلمين عقد هذا الباب حتى يَحْذَر المسلم من هذا الطريق الذي يوصل إلى الضلال، الذي أمر الله جَلَّوَعَلَا به أن يسلك الإنسان مسلك الوسطية والاعتدال، وإعطاء كل ذي حقٍ حقه.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾[هود:١١٢]، الطغيان قريبٌ في المعنى من الغلو، يعني مجاوزة الحد أيضًا، ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾[الحاقة:١١]، تجاوز حده.

فالله جَلَّوَعَلَا أمر باستقامةٍ لا طغيان، ولا غلو فيها.

ولذلك تجد الأمر الأوامر في الشريعة، وتجد النواهي في الشريعة كلها تحذر من الغلو، ومن الطغيان، ومن التعمق، ومن التشدد؛ وذلك حتى يسلم للمرء دينه، وحتى يكون مستقيمًا على أمر الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وأمر رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، المسلم مُطالب بأن يسلك المسلك الوسط بين طرفي الغلو والجفاء:

ولا تغل في شيءٍ من الأمر واقتصد   كلا طرفي قصد الأمور ذميم

أعظم وأهم ما ينبغي ملاحظته في هذا الباب هو ما أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ التنبيه والتذكير به، وهو ما يتعلق بالغلو في الصالحين.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقول الله ﷻ: ﴿يَا أَهلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾[النساء:١٧١].

هذا أمرٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأهل الكتاب ألا يغلوا في دينهم، ويتضمن هذا نهيَّ هذه الأمة أن تفعل فِعل أهل الكتاب، فإنَّ اليهود غلوا فقالوا: عزيرٌ ابن الله، والنصارى غلوا أيضًا فقالوا: المسيح ابن الله، فكان في هذه الآية تحذيرٌ لهذه الأمة أن تسلك ما سلكه من قبلها من الأمم، لاسيما اليهود والنصارى من الغلو في النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فيرفعوه فوق الدرجة التي وضعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها، وهي أنه عبد الله ورسوله، عبدٌ لا يُعبد، ورسولٌ لا يُكذَب، بل يُطاع ويُتبع.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

في الصحيح عن ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قول الله تعالى أنه قال: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[نوح:٢٣]، قال: ((هذه أسماء رجالٍ صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم؛ أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك ونُسخ العلم عُبدت))

هذا الأثر ذكره المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ معزوًا إلى الصحيح؛ يعني إلى ((صحيح البخاري))، وهو أثر ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[نوح:٢٣]. وقد اختصر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أوله؛ فإن ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بيَّن في أوله مآل هذه الأصنام بعد الطوفان، وكيف وصلت إلى العرب، وذلك أن هذه الأصنام كانت في قوم نوح، وليس المقصود أنها كانت في الزمن الذي كان فيه نوح، بل إن نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بُعث بعد أن عُبدت، وذلك بعد وفاة هؤلاء المذكورين، إنما المقصود هؤلاء هم قومه الذين يرجع إليهم.

والمقصود أن هذه الأصنام التي عبدها قوم نوح حملها الطوفان فيما حمل؛ فألقاها على ساحل جُدة، وسفت عليها الرمال فغطتها، فجاء أساس الشر لعبادة الأصنام عند العرب،

وهو عمرو بن لُحي الخزاعي، الذي أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه رآه يجر قصبه؛ يعني أمعاؤه في جهنم —والعياذ بالله-، وذلك أنه أولُ من غَيَّر دين إبراهيم في العرب، إذ كان له رئيٌ من الجن، أمره أن يذهب إلى جدة -هذه المدينة المعروفة على ساحل البحر-، وأن يستثير هذه الأصنام ففعل، فحملها معه حتى إذا جاء موسم الحج، أمر العرب بأخذ هذه الأصنام وعبادتها، وكان الرجل ذا مكانةٍ، كان مُطاعًا في العرب فأطاعوه.

قال ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: صارت الأصنام التي كانت في قوم نوح إلى العرب، فكانت وَدٌّ، والجمهور قرأوا بفتح الواو، وقرأ نافع و أبو جعفر بضم الواو وُد، أما ودٌ فكانت لكلبٍ بدومة الجندل؛ دومة الجندل: مدينة على أطراف الشام مما يلي العراق، ولعلها هي المدينة التي في شمال المملكة في منطقة الجوف، كانت لكلب، قبيلة من قضاعة، هم الذين أخذوا هذا الصنم وذهبوا به إلى بلادهم وعبدوه هناك.

أما سواع فذكر أنه كان لهُذيل، وذكر المؤرخون أنَّ محل هذا الصنم كان برُهاط، منطقة اسمها رُهاط، قيل: أنها كانت بينبع، وقيل: أنها كانت بديار هُذيل بالقرب من مكة، وهذا أقرب أنها كانت بديار هذيل قرب مكة؛ فعبدوا هذا الوثن مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ووافقهم على هذا من والاهم من مُضر وغيرهم من القبائل.

أما يغوث فذكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان لمراد ثم لبني الغطيف؛ وبنو الغطيف من مُراد، لكن يبدو والله أعلم أن هذا الصنم كان معبودًا عند كل قبيلة مراد، ثم اختص به بنو غطيف، وهؤلاء كانوا بمنطقة اسمها الجرف أو الجوف أو الجون باليمن، ثلاثة أقوال.

﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[نوح:٢٣]،هذا يغوث.

وأما يعوق فإنه كان لهمدان، وهمدان أيضًا في اليمن، ذكر المؤرخون أن هذا الصنم كان بقرية اسمها خيوان، وأنها كانت على بُعد ليلتين من صنعاء للمُصْعِد إلى مكة.

وأما نسرٌ فكانت لحِمير لآل ذي الكلاع، آلُ ذي الكلاع من حمير، وكانت عندهم في ديارهم في اليمن.

إذًا هذه الأصنام ثلاثةٌ منها كانت في اليمن، وصنمٌ منها في شمال الجزيرة العربية، والأخير كان في الحجاز.

ثم بين رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ما كان من شأنها، وما السبب الذي لأجله عُبدت مع الله جَلَّوَعَلَا

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: هذه أسماء رجالٍ صالحين من قوم نوح، فلمّا هلكوا، أوحى الشيطان إلى قومه...

كانت لرجالٍ صالحين من قوم نوح، قلنا أن نوحًا عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ ما أدركهم؛ إنما بُعث صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بعد أن عُبدوا، وذلك بعد موتهم بمدة، وهؤلاء أناسٌ صالحون، ولأجل ذلك ولج الشيطان إلى الناس من خلال تعظيمهم، العهد كان قريبًا، وكانت الناس إذ ذاك تعظم الآباء وتعظم الصالحين، فوصل إلى مبتغاه من خلال تزيين تعظيم هؤلاء الصالحين فوق القدر الشرعي، كانوا رجالًا صالحين في قوم نوح.

بعضهم قال: —وهذا مذكورٌ في كتب التاريخ-: أن هؤلاء كانوا من بني آدم، من صلبه.

وبعضهم قال: من بني أبنائه، ولكن هذا بعيد.

والصواب ما قاله ابن عباسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، لاسيما وأنه رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: (بين آدم ونوح عشرة قرون، كلها على شريعة الحق)، ما كان الشرك فاشيًا إلا لما خطط الشيطان هذا التخطيط، ووصل إلى مبتغاه من خلال عبادة الصالحين الذين كانوا في قوم نوح. هذا أول شركٍ كان على وجه الأرض.

فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم؛ أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا، وسموها بأسمائهم

لما هلكوا يعني: ماتوا.

أوحى الشيطان إلى قومهم، ما يلقيه الشيطان في قلب ابن آدم يُسمى إيحاءً: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[الأنعام: ١٢١]. والشيطان –كما تعلمون- يجري من ابن آدم مجرى الدم.

أوحى الشيطان إليهم قذف في قلوبهم، هذه الخطة التي أحكم تخطيطها؛ وهي أن هؤلاء الآن قد ماتوا، وأنتم أصابتكم الحسرة واللوعة لفقدهم، ثم إنهم كانوا صالحين،

ستشغلكم الدنيا وتغفلون، فلأجل أن تتسلوا برؤيتهم، وتتعزوا برؤيتهم، ولا تشتاقون إليهم الشوق العظيم، يخفف عنكم ما تجدون أن تفعلوا الذي آمركم به.

وأمر ثانٍ وهو: أنكم تنشطون إذا رأيتم هذه الأنصاب ورأيتم هذه الصور والتماثيل التي تجعلونها عليها، فإن ذلك سيدعوكم إلى مزيد من النشاط؛ لأنكم ستتذكرونهم، تذكرون صلاحهم، فتجتهدون في طاعة الله جَلَّوَعَلَا، وهكذا زين لهم الشيطان هذا العمل القبيح.

وهذا يدلك على أن الباطل لا يروج على الناس إلا بأن يُذَّر عليه شيءٌ من الحق، وهذا السبب الذي لأجله يغتر الجاهلون، وإلا فالعلماء ينفذون إلى الحقائق، ويعرفون خبايا الأمور.

أمَّا الجهال فيغترون بهذا الغطاء؛ غطاء من الحق، أنتم تحبونهم ولأجل هذا لابد أن تتذكروهم، كيف تنسونهم؟ وكيف تغفلون عنهم؟ إذًا لابد من أن تفعلوا هذا الشيء، وهذا أمرٌ لا بأس به، فاغتر الجهال، وفعلوا هذا الفعل.

إذًا حذاري من أن يغتر أحدٌ بشبهة حق تروج الباطل، بل عليه أن يكون حكيمًا، وأن يعلم أن كل باطل، وأن كل إحداث، وأن كل بدعة لابد أن يكون فيها شوبٌ من حق تؤدي إلى ترويجها، وتؤدي إلى نفاقها، لكن هذا لا يجعلها حقًّا؛ بل لا تزال باطلًا، وعلى الإنسان أن يحذر.

ثم أن نعلم أن للشيطان خطوات؛ الشيطان ليس له خطوة واحدة، الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[الأنعام:١٤٢].

إذًا هو لا يصل إلى مبتغاه من خلال خطوة واحدة، يأمرك مباشرة بعبادة غير الله، كلا؛ بل إنه نفذ إلى ذلك من خلال خطوات.

ففعلوا ، فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسخ العلم عُبدت.

في ابتداء الأمر لم تُعبد هذه الأنصاب التي نصبوها.

والأنصاب هي: الحجارة التي تُنصب فتتُخذ وثنًا يُعبد.

والذي وقع من هؤلاء هو عدة أمور، كما سيأتي أيضًا في كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أولًا: عكفوا على قبورهم.

ثانيًا: نصبوا هذه الحجارة عند قبورهم، وكأنه -والله أعلم- كانت قبورهم ومجالسهم متقاربة.

[ثالثًا]: أنهم نحتوا هذه الصخور على هيئة صور وتماثيل على هيئاتهم.

فاجتمع أن كانت هذه أنصابًا وصورًا وأوثانًا وأصنامًا أيضًا، فلما كان الحال في ابتداء الأمر ما حصل شيءٌ زائد على ما كانوا عليه، إنَّما كانوا يرون هذه الصور، فينشطون في عبادة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

لكن لما هَلَكَ الجيل الأول الذين كانوا يعلمون حقيقة الحال، يعلمون السبب الذي لأجله نُصبت هذه الأنصاب في مجالسهم أو عند قبورهم، لما هلكوا وجاء جيلٌ جديد جاهل، ما يعرف السبب، عند ذلك عُبدت.

وهذا يدلك على أن فقد العلم في الناس وفي الأوطان مصيبةٌ ليس بعدها مصيبة، أساس الشر والبلاء أن يقل العلم ويكثر الجهل. والعلم لا يقل، بل لا يذهب إلا بموت العلماء، كما أخبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما في الصحيحين: **«إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا، ينتزعه من صدور الناس، ولكن بقبض العلماء، حتى إذا لم يبقي عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»**.

الشاهد أن هؤلاء الجيل الأول لما هلك جاء جيلٌ جديد.

قال :(ونُسخ العلم)، وفي بعض روايات البخاري، وبعض نسخ البخاري: (وتنسخ العلم) يعني ذهب العلم؛ العلم بالشرع، لاسيما التوحيد، بمعنى أنهم أصبحوا جهالًا بالتوحيد، ما عندهم علمٌ بالتوحيد، وعلمٌ بحقيقة الشرك وبذرائع الشرك.

أو أنه تنسخ العلم بسبب نصب هذه الأصنام والأنصاب، لا مانع من أن يكون حصل الأمر.

نُسخ أو تنسخ العلم بسبب نصب هذه الأنصاب؛ جهلوا السبب، فلأجل هذا جاءهم الشيطان بعد ذلك، وقال: إنما نُصبت هذه الأنصاب لأن هؤلاء كانوا معظَمين، كانوا يعبدونهم ويُرزقون بهم، ويستنزلون المطر بهم.

وفي بعض الروايات أنهم قالوا: ويطلبونهم الشفاعة، كانوا يسألونهم الشفاعة، يشفعون لهم عند الله.

وهذا يذكرني بما أخذناه سابقًا من أن ابتغاء الشفاعة، وطلبها من غير الله هو الغالب على شرك المشركين.

وكما قلت يحتمل أيضًا هذا الكلام أن يكون قد نُسي العلم بالتوحيد، ذهب العلماء وانتشر الجهل، وما أصبح هناك من يُذكر بالتوحيد، وما أصبح هناك من يعلم الناس التوحيد.

وهكذا -يا أيها الكرام- الشرك والبدعة إنما تنتشر في الناس إذا قلَّ المعلم، وقل الموجه، وقل من يدعو إلى التوحيد، ومن يُذكِر بالسُنة، إذا ما أصبح هناك تذكير الدروس، والكلمات، والمحاضرات، والكتب، إذا كان الناس لا يسمعون التذكير بشأن التوحيد ومفرداته، هذا التوحيد، وكذلك ما هو ضده، ومفرداته، وذرائعه، إنه حينئذٍ ينتشر الشر، وحينئذٍ تعود الأمور إلى حال الفساد بعد أن أصلحها الله جَلَّوَعَلَا: ﴿**وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا**﴾**[الأعراف:٥٦]**.

الله جَلَّوَعَلَا إذا أصلح الأرض بالتوحيد وطاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فهذه نعمة يجب الحفاظ عليها، ويجب أن يُداوَم على الدعوة، والتذكير، ونشر العلم، لاسيما في قضايا التوحيد، هذه البلاد في بعض نواحيها كان الناس على خيرٍ عظيم، وكانوا على عنايةٍ كبيرةٍ بالتوحيد، وما كان هناك مظاهرٌ للشرك، وهذا -ولله الحمد- باقٍ إلى الآن، لكن كانت العناية مختلفة.

كان الناس، الجميع، صغارًا وكبارًا، ذكورًا وإناثًا، طلاب علم وعوام، كانوا يُحفَظون الأصول الثلاثة كل يوم مرتين، بعد الفجر، وبين المغرب والعشاء، لابد، مراجعة ومذاكرة باستمرار كلما انتهوا عادوا إليها، الأصول الثلاثة تعلمك التوحيد باستمرار تكون على ذكر بالتوحيد، تكون على ذكر بنعمة الله عَزَّوَجَلَّ بالتوحيد، تكون على ذكر بخطورة الشرك، وبوسائل الشيطان في إيصاله للناس؛ لكن هذا الأمر —مع الأسف الشديد- ضَعُفَ كثيرًا في الأجيال المتلاحقة بعد ذلك.

المقصود أنَّ نشر العلم وبث العلم سدٌ مانعٌ بتوفيق الله جَلَّوَعَلَا من الوقوع فيما حرم الله، ولاسيما ما يتعلق بالشرك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن القيم: ((قال غير واحدٍ من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم قال عليهم الأمل فعبدوهم)).

إما أنهم نصبوا تلك الأنصاب على مجالسهم التي كانوا يجلسونها، أو كان ذلك على قبورهم، وربما كان كما قال بعض أهل العلم، كان هذا وهذا؛ يعني كان القبر والمجلس متقاربًا، فلأجل هذا تارةً يقال إنه نُصبت على مجالسهم، وتارةً يقال إنها نُصبت عند قبورهم، والمقصود واحد؛ فهؤلاء عكفوا على قبورهم، ونصبوا الأنصاب، وأيضًا نحتوا هذه الحجارة على هيئة صورٍ لهم فعُبدت بعد ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن عمر؛ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما عبدٌ فقولوا: عبد الله ورسوله». أخرجاه.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أخرجاه؛ مع أنه في البخاري فقط، ليس في مسلم. وفي البخاري، وأحمد، والدارمي، وغيرهم، وليس في مسلم.

الشاهد أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبه في هذا الحديث على أمرٍ عظيم؛ فقال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ فقولوا: عبد الله ورسوله**». والحديث في غاية الصحة في ((صحيح البخاري)).

فتأمل يا عبد الله، هذا نهيٌ من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي هو الصادق المصدوق، الذي هو الرسول واجب الإتباع، هو صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهانا عن إطرائه.

والإطراء: هو مجاوزة الحد في المدح؛ يعني كأنك تقول هو الغلو في المدح؛ لأن الغلو هو مجاوزة الحد.

هذا نهيٌ صريح بلفظٍ فصيح من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن إطرائه، عن أن تتجاوز الحد يا عبد الله في مدحه، لم؟

لأن هذا ذريعةٌ إلى وقوع ما يكره الله، ألا وهو الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا.

ولذلك وجدنا النبي صَلَّالَّلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ينبه على دقائق في هذا المقام، يأتيه من يقول: يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا، إذا بالنبي صَلَّالَّلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يكره هذا القول، يقول: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان».

آخر يقول: ما شاء الله وشئت، فيقول: «أجعلتني لله ندًا، قل ما شاء الله وحده».

إذًا كان النبي صَلَّالَّلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من حرصه وشفقته على أمته، ومن تعظيمه لربه حريصًا على أن يُبعد هذه الأمّة عن كل أسباب الوقوع في الشرك، ومن ذلك الإطراء له صَلَّالَّلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

حق النبي صَلَّالَّلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه يُعظم التعظيم الشرعي: بالقلب، واللسان، والجوارح.

إذا أردت أن تعرف ذلك فاعلم أن تعظيمه صَلَّالَّلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالقلب هو: أن يُعتقد أنه رسول الله، وأن يُحب المحبةً عظيمة التي لا يفوقه فيها أحد إلا ربُّ العزة سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فأعظمُ محبوبٍ عند المسلمين هو ربنا جَلَّوَعَلَا، ثُمَّ نبيه محمدٌ صَلَّالَّلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

باللسان ألا تذكر هذا النبي الكريم صَلَّالَّلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلا بحفاوةٍ وتقديرٍ شرعي، وأنت تصلي عليه صَلَّالَّلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كثيرًا، فإنك إذا عَمَّرت وقتك وعمرك بالإكثار من الصلاة على النبي صَلَّالَّلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فزت فوزًا عظيمًا، زال همك، وغُفر ذنبك.

أمّا بالجوارح فبالمسارعة إلى طاعة النبي صَلَّالَّلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مهما طرق سمعك أمرٌ من النبي صَلَّالَّلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقل: سمعًا وطاعة، وإذا طرق سمعك نهيٌ من النبي صَلَّالَّلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فانتهي مباشرة، هكذا كان الصادقون في تعظيم النبي صَلَّالَّلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهم أصحاب النبي صَلَّالَّلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثم من جاء بعدهم من السلف الصالح، هذا هو التعظيم الشرعي.

ويا لله العجب! من أناسٍ يزعمون أنهم يحبون ويعظمون رسول الله صَلَّالَّلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهم يحادّون الله ورسوله؛ يفعلون نقيض ما يأمر الله ورسوله به، ويجترحون ما نهى عنه رسول الله صَلَّالَّلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أي محبةٍ تلك يا عبد الله؟!

يا من يَعْمَدُ إلى الذي نهى عنه النبي ﷺ فيفعله.

لو كان حبك صادقًا لأطعته إنَّ المحب لمن يحب مطيع

رسول الله صَلَّالَّلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «لا تطروني»، وهو يطري النبي صَلَّالَّلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ويرفع مدحه عن القدر الشرعي، حتى ربما نسب إليه ما يختص به الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى من الصفات،

أو من الإلوهية، أو من الربوبية، وإذا نهيته ونبهته يقول: "أنت لا تحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"، "أنت لا تعظم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

أي الفريقين أحق بمحبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وموالاته؟

أهو الذي أطاع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم الذي عصاه؟

والله لو أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لنا: ادعوني، لدعوناه، بل لو قال لنا: اسجدوا لي، لسجدنا له.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

والله لو يرضى الرسول دعاءنا ... إياه بادرنا إلى الإذعان

والله لو يرضى الرسول سجودنا ... كنا نخر له على الأذقان

والله ما يرضيه منا غير ... إخلاص وتحكيم لذا القرآن

هذا الذي يرضي نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا الذي أمر به، وهذا فرضٌ لمستحيل، ويجوز فرض المستحيل وبناء نتيجةٍ عليه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾[الزخرف:٨١]، ما كان ولا يكون أن يأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالشرك، إنما كان آمرًا بالتوحيد، وإخلاص العبادة لله، وكان آمرًا بتحكيم القرآن والسنة.

لكن هذا الذي يغلو ويحاد الله ورسوله، ويعارض الله في أوامره، ويعارض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أوامره، ماذا يقال في حقه؟

ماذا يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا كان أنكر قول: يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا؟

ماذا كان ﷺ قائلًا لمن يقول:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم ... واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكم

فقط اترك أن تقول النبي ابن الله، لكن بعد ذلك قل ما شئت، ولو نسبت إليه الربوبية، بل الألوهية، لا حرج عليك.

دع ما ادعته النصارى في نبيهم ... واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

فإن فضل رسول الله ليس له قدر ... فيعـــــرب عنه ناطـــقٍ بفـــم

إلى أن يقول:

لو ناسبت قدره آياته عظما أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم

إنا لله وإنا إليه راجعون. والله شيء ما قاله في حق الله جَلَّوَعَلَا، وانظر إلى سوء الأدب مع مقام ربنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، الله ما أعطاه الآيات اللائقة بقدره، وإلا لو كان ذلك كذلك لكان إذا قيل محمد عند ميت لفز حيًا:

لو ناسبت قدره آياته عظما أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم

إلى أن يقول:

يا أكرمَ الخلْقِ مالي مَن ألوذُ به سواك عند حدوثِ الحادثِ العَمم

طُمِسَ على بصيرته؛ أصبح لا يعرف أحدًا يلوذ به عند حلول الحادث العمم، فأين الذي قال: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[النمل:٦٢]؟

ما عرفته؟!

ثم يقول:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

يعني: أنه يعلم اللوح المحفوظ، بل غلا بعضهم حتى جعل النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يعلم كل ما يعلمه الله.

ذكر شيخ الإسلام في كتابه ((الاستغاثة)) عن بعض أهل زمانه أنه كان يقرر، بل صنف مصنفًا في أنَّ النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يعلم كل ما يعلمه الله، ويقدر على كل ما يقدر عليه الله، وأنه يُستغاث به في كل ما يُستغاث به لله.

أهذا استجابة لأمر النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لا تطروني»؟! بل والله لم يستجب، **أولًا**.

وثانيًا: نقض الشهادتين.

١/نقض لا إله إلا الله حينما عبد النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مع ربه جَلَّوَعَلَا.

٢/نقض شهادة أن محمدًا رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، كيف ذلك؟

أولًا: أبى وعاند واستكبر عن أن يستجيب للنبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وثانيًا: أن هذه الشهادة لمحمدٍ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأنه رسول الله في حقيقة ما يعتقدون وقعت على معدوم، كيف هذا؟ يعني هؤلاء كانوا يعتقدون أن من اسمه محمدٌ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

هو رسول الله؛ لكن من هو هذا الذي يعتقدونه رسول الله؟ هو الذي يعلم الغيب، وما في اللوح المحفوظ، ويملك الدنيا والآخرة، وهو الذي يفرج الهموم، وينفِسُ الكروب، وهو الذي في قبره ينقذ الغريق، ويطفئ الحريق، بل ويغفر الذنوب، ويهدي القلوب، ويفعل كل ما يفعله الله، هذه الشخصية بهذه الصفات هل لها وجود؟

لا وجود لها، إنما إن كنتم تريدون محمدًا بن عبد الله بن عبد المطلب الذي هو رسول الله حقًا –بأبي هو وأمي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فهذا ليس هو الذي وصفتم.

هذا من هو؟ هو الذي قال لنا بلسانه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنما أنا عبدٌ فقولوا: عبد الله ورسوله»**.

هذا هو رسول الله، ومن اعتقد أنه رسول الله أتى بشهادة أن محمدًا رسول الله لهذا، وليس لذاك الموهوم الذي خلعوا عليه من الصفات ما أخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكون هو الذي اعتقدوه رسولًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إذًا انظر كيف أخرجهم غلوهم في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هذا المنعطف الخطير، وهو أنهم نقضوا شهادتهم لهم بأنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أما الغلو فيمن بعده، الأمر لم يقف عند حدِّ الغلو في النبي؛ بل تسلسل عند كل صالح، بل ربما كان لطالح أيضًا، فأصبحوا يعظمون من يزعمونهم أولياء، ومن يزعمونهم صالحين، وإن كانوا في الحقيقة خلاف ذلك.

قرأت في كتاب ((البداية والنهاية)) لابن كثير في ترجمة أحد المعظمين عند هؤلاء، والذي كان يعتقد وحدة الوجود، يعني: أنه هو والله جَلَّ وَعَلَا شيءٌ واحد، بل هذا الكون كله هو الله. ذكر أنه بعض تلاميذه كان يحتفظ بشيءٍ من بوله وعذيرته؛ يتبرك بها، يتبرك بالبول، ولعله يتبخر بالعذرة. أرأيت غلوًا كهذا الغلو؟!

وهذا أمرٌ واقعي يا إخواني، ولا نتكلم عن شيءٍ خيالي؛ بل والله واقع، والمدون في كتبهم، والمطالع لأحوالهم يجد هذا وأضعافه وأضعافه.

كم تجد في كتب هؤلاء من يقول: من حج قبر فلان مراعيًا حقه عارفًا قدره كان له كأنما حج بيت الله مائة مرة؟ إذا حججت إلى هذا القبر، ولذلك تجد حرصهم على شد الرحال إلى قبور أوليائهم!

ثم حدَّث ولا حرج عن ما يحصل من منكراتٍ عظيمة تنقض الشهادة لله عَزَّوَجَلَّ بأنه الإله الحق، بل بأنه الرب الحق سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فالمشتكى إلى الله.

أساس الشر والبلاء ها هنا هو الغلو، هو مجاوزة الحد الشرعي، والمسلم واجبٌ عليه أن يتقي الله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا﴾[هود:١١٢].

.... قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

بيض المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ لمخرج هذا الحديث. والحديث عند ((النسائي))، ((وابن ماجة))، وغيرهما بإسنادٍ صحيح.

قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو».

هذا نهيٌ من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن الغلو، قال: «**إياكم والغلو**» يعني احذروا الغلو، فإن الغلو أمرٌ محرم ومنكر، يجب أن يجتنبه المسلم.

ثم بَيَّن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ السبب الذي جعله يحذرنا هذا التحذير المؤكد؛ أنه كان السبب في هلاك من قبلنا.

والعجيب أن أناسًا يقرئون مثل هذا الكلام، بل ويتلون كتاب الله، وينظرون فيما كان من حال قوم نوحٍ وغيرهم، ويقرئون في التفسير، ومع ذلك يصرون على ما هم عليه؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ:

ولمسلمٍ عن ابن مسعودٍ؛ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثًا.

قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**هلك المتنطعون**».

لاحظ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كرر هذا الكلام ثلاث مرات؛ حتى يرسخ المعنى في نفوس المؤمنين.

«**هلك المتنطعون**». المتنطعون يعني: المتعمقون؛ يعني الذين يبالغون في الأمور، فيكون في المعنى قريبًا من الغلو.

ذكر بعضهم أن التنطع هو: التقعر في الكلام، والإتيان بوحشي الكلام، أو بالتفاخر في الإعراب عند العوام والجُهال.

ولا مانع أن يكون المعنى شاملًا لهذا ولهذا.

«هلك المتنطعون» يعني: أهل الغلو والمبالغة، وكذلك الذين يتشدقون ويتقعرون في كلامهم.

وهل هذا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعاء أو إخبار؟

إذا قلنا أنه دعاء فواضح، وإذا قلنا إنه إخبار فإنه إخبارٌ يتضمن الدعاء، أو شئت أن تقول: هو دعاءٌ بصيغة الإخبار، ولعل من أولى من يدخل في هذا الحديث أهل البدع الذين يتكلفون ما لم يؤمروا بالبحث فيه، الذين يتعمقون في أشياء ما كُلفوا بالخوض فيها؛ كأهل الكلام الذين يخوضون ويتعمقون في مباحث الصفات أو في مباحث القدر، أو في غيرها حتى خرجوا إلى مخالفة سَنَنِ السلف الصالح، ولا شك أن هذا كله مما نهى عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والله تعالى أعلم.

٢٩

٢٩- بابٌ

ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح:

فكيف إذا عبده؟

(المجلس الأول)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب:

ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله

عند قبر رجل صالح

فكيف إذا عبده؟!

بعد أن بين المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ خطر الغلو في الصالحين على عقيدة المسلم، بيَّن في هذا الباب صورة من أخطر صور الغلو تأثيرًا على الاعتقاد، وذلكم هو الغلو في قبور الصالحين، فعقد لأجل التنبيه والتحذير هذا الباب والذي بعده أيضا، وهذا منه نصيحة لإخوانه المسلمين رحمه الله عليه وجزاه عنا خير الجزاء.

التغليظ في من عبد الله عند قبر رجل فكيف إذا عبده؟

هذا التبويب يدلنا على فائدتين:

[الفائدة] الأولى: لزوم سد الذرائع إلى الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا، وذلك أنَّ التحذير والتشديد بل اللعنة قد ثبتت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في من عبد الله عند قبر، وذلك لأنه ذريعة إلى الوقوع في الشرك.

الفائدة الثانية: التحذير من الشرك من باب أولى، وذلكم أنه إذا كان قد ثبت هذا التغليظ في حق من عبد الله عند قبر، فكيف إذا توجه بالعبادة لصاحب القبر؟

لا شك أن هذا أشد وأغلظ.

صورة المسألة: أن يتعبد إنسانٌ لله عند قبر رجلٍ صالح بأي نوع كانت أنواع التعبد، وذلك رجاء حصول البركة له، أو لاعتقاد أفضلية هذا المكان وأنه أفضل وأكثر أجرًا من غيره، هذا هو محل البحث في هذا الباب.

أن يقصد الإنسان إلى أن يعبد الله عند قبر، وهذا قد جاء فيه الوعيد من لدن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يا أيها الأخوة جاء بدين الحنيفية، فقد قطع صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كل ذرائع الشرك وكل وسائله القولية والعملية، والناظر في سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدرك هذا

بأدنى تأمل، فقد نهى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن أمور دقيقة؛ لأنها ربما تؤدي إلى حصول الشرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

شريعة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أسهل الشرائع وأيسرها في المعاملات لكنها أشد الشرائع في جانب حماية جناب التوحيد، وهذا ظاهر لمن تأمل الكتاب والسنة.

وقد أورد المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ في هذا الباب أربعة أحاديث، كلُّها تدور على النهي عن اتخاذ القبور مساجد وعن البناء على القبور، وهذان الأمران قد تكاثرت وتواترت بهما الأحاديث عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

الأمر الأول: النهي عن البناء على القبور، وهذا يشمل صورتين:

[الصورة] الأولى: أن يُبنى على القبر مسجد، يؤسس مسجد فوق القبر فيكون القبر في داخله، في وسطه أو في طرفه.

الصورة الثانية: أن يُبنى على القبر قبة أو نحوها، وإن لم تُجعل مسجدًا فهذا كله مما نهت عنه الشريعة، بل نهت عما هو أقل من ذلك، وهو أن يُرفع القبر مجرد ارتفاع زائدًا عن المعتاد، قال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كما في ((صحيح مسلم)): «**ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ألا تدع صورة إلا طمستها ولا قبرا مشرفا إلا سويته**».

الأمر الثاني: النهي عن اتخاذ القبور مساجد، وهذا أكثر ورودًا وتصريحًا في الأحاديث، واتخاذ القبور مساجد هذا الذي نهى عنه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ له صور:

[الصورة الأولى]: أن يُصلى على القبر، بمعنى: أن يقوم الإنسان عند قبر فيصلي عليه ويسجد عليه، هذا اتخذه مسجدًا، سجد عليه فكان مسجدًا موضع سجوده، ولا شك أن هذا أشدُّ وأخطر الصور، والغالب بل لا يكاد يتصور أن يفعل هذا أحدٌ إلا وهو يعبد صاحب هذا القبر، لا أنه يعبد الله عند القبر، لكن نذكر هذه الصورة من باب البيان وحصر القسمة.

الصورة الثانية: أن يصليَّ إلى القبر، بمعنى: أن يجعل القبر في قبلته فيصليَّ إليه، وهذا أيضا داخل فيه معنى اتخاذ القبور مساجد الذي نهى عنه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهذا الذي فهمه السلف الصالح ففي ((المصنف)) بإسناد صحيح عن عمر بن دينار التابعي الجليل رَحِمَهُٱللَّهُ أنه سئل عن الصلاة عند القبور فقال رَحِمَهُٱللَّهُ: «**بلغنا عن رسول الله**

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أنه لعن من اتخذ القبور مساجد»**، فدل هذا على أن هذا من مفهوم اتخاذ القبور مساجد عند السلف.

وعلق البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((صحيحه)) ووصل ذلك ابن أبي شيبة وعبد الرزاق بإسناد صحيح، أن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رأى أنسًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يصلى إلى قبر، وكان أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ غافلا لا يدري أنه قبر، فصاح به وناداه وهو يصلى: (القبر القبر)، حتى إن أنسًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ظن أنه يريد القمر، يقول: (فرفعت بصري إلى السماء أظن أنه يقول القمر)؛ فقال: (إنما أقول القبر، لا تصلي إليه)، فكان بعد ذلك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إذا كان مع بعض أصحابه يأخذ بأيديهم فيتنحى عن القبور ثم يصلي.

إذن الصلاة إلى القبور أمر منهي عنه، وثبت هذا صريحا في سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في ((صحيح مسلم)) : **«لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها»**.

الصورة الثالثة: أن يصلى عند القبر؛ بمعنى أن يصلى في المقابر، في أفنائها، وفي داخل سورها، وفي محيطها، فإن هذا أيضا داخل في مفهوم النهي عن اتخاذ القبور مساجد، والصلاة -يا أيها الأخوة- في المقابر أي صلاة كانت ذات ركوع وسجود -باستثناء صلاة الجنائز فإنها في المقابر جائزة- إنما نتحدث عن الصلاة المعهودة التي هي ذات ركوع وسجود، هذه لا تجوز في المقابر بالإجماع.

نقل الإجماع على هذا ابن حزم، وشيخ الإسلام ابن تيمية و غيرهما من أهل العلم، ويدل على هذا قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما خرجه الخمسة إلا النسائي بإسناد جيد: **«عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: كل الأرض مسجد إلا المقبرة والحمام»**.

وتنبه -يا رعاك الله- إلى أن ضابط المقبرة هو: المكان المحاط الذي يوجد فيه قبر فأكثر، متى ما وجد قبر واحد في هذا المكان كان مقبرة، وهذا هو الصحيح.

أما قول من قال إنه لا يكون مقبرة إلا بوجود ثلاثة قبور فأكثر، هذا قول لا دليل عليه، ثم إن العلة المحظورة المخوفة في القبور الثلاثة موجودة في القبر الواحد، فدل هذا على أن المكان إذا كان فيه قبر كان مقبرة، وكانت الصلاة فيه منهي عنها من لدن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الصورة الرابعة: هي أن يبنى مسجد على قبر؛ هذا المثال أو هذه الصورة مشتركة بين اتخاذ القبور مساجد وبين البناء على القبور، بمعنى: أن يموت ميت فيدفن في محل ثم يُبنى مسجد فوق هذا القبر، يؤسس مسجد لأجل القبر، والغالب على أهل هذا الفعل أنهم يفعلون ذلك رجاء بركة القبر، وحتى تفيض الفيوضات من هذا القبر على المصليين، فهذا أيضا يصدق عليه أنه اتخاذٌ من القبور مساجد، من فعل هذا اتخذ القبر مسجدًا فدخل في نهى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن اتخاذ القبور مساجد، -وستمر بنا الأحاديث في هذا الباب إن شاء الله-.

الصورة الخامسة: أن يموت ميت فيدفن في المسجد، لاحظ أن هذه الصورة عكس الصورة السابقة، الصورة السابقة هي أن القبر متقدم ثم بُنِيَّ المسجد عليه، أما في هذه الصورة فالمتقدم المسجد، وأُدخل الميت فدفن في داخل القبر، فهذا أيضا من اتخاذ القبور مساجد.

والقاعدة الشرعية: -يا أيها الأخوة- أنهما اثنان لا يجتمعان، مسجدٌ وقبر، هذه قاعدة مطردة في الشريعة، ومتى ما وجد أحدهما فالسابق هو الذي له الحكم، بمعنى لو كان الذي تقدم زمنا هو القبر فالواجب إزالة المسجد وإبقاء القبر في محله؛ لأن الحكم للأسبق، ولو كان الذي تقدم هو المسجد لكان يجب نبش القبر وإخراجه من المسجد؛ لأنَّ الحكم للأسبق.

إذن هذه صورٌ خمسٌ لمعنى قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك**» وما جرى مجري هذا الحديث وسيمر بنا إن شاء الله طائفة منها، وهذه خلاصة أقوال المحققين من أهل العلم في هذا المقام.

أشير ها هنا إلى بعض ما قيل، وبعض ما شُغِّبَ به على هذا الحكم الذي بينه علماء أهل السنة والتوحيد، قالوا:

أولا: إنَّ النهى عن الصلاة في المقابر وإليها إنما هو خشية ملابسة النجاسة، فإذا أُمن وضمن عدم ملابسة النجاسة فلا حرج أن يصلى الإنسان حينئذٍ في المقبرة أو إلى القبور؛ قالوا العلة هي عدم ملابسة النجاسة.

والجواب عن هذا: أن هذه العلة غير صحيحة، بل العلة خوف ملابسة النجاسة المعنوية لا الحسيه، نجاسة الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وليس المقصود أن ها هنا نجاسة ينبغي

على الإنسان أن يتوقاها، وبالتالي فإذا جزم أنه بعيد عن النجاسة فإنه لا حرج لأن الحكم يدور مع علته وجودا وعدما ليس الأمر كذلك.

قالوا: إن هذا الميت يخرج منه صديد وهذا الصديد نجس، وبالتالي فإنه قد يلامس الإنسان شيء منه إذا سجد أو ربما لامس ثيابه، فلأجل هذا نهت الشريعة عن الصلاة في المقابر، والأمر ليس كذلك.

أولا: لا دليل على أن هذا الصديد نجس.

وثانيا: هل ما يخرج من الميت هو شبيهٌ بالفوار الذي يصعد إلى فوق أو ينزل إلى تحت؟

ينزل إلى تحت، إذن إذا كان هناك نجاسة فإنها تكون في الأسفل لا في الأعلى، والإنسان إنما يلامس ويلابس التراب الأعلى.

- قالوا: لعل هذه المقابر تنبش وبالتالي تخرج الأتربة التي في الداخل.

فيقال: **[أولا]**: هذه صورة نادرة وحمل أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصور النادرة، أمر لا ينبغي -كما هو مقررٌ في أصول الفقة-.

وثانيا: هذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينهى عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، ويلعن أهل الكتاب لفعلهم هذا، وقبور الأنبياء بالإجماع لا تنبش، فلم توجد هذه العلة وبالتالي زال ما ذكروه، إنما العلة سد الذريعة إلى ملابسة وملامسة النجاسة المعنوية ألا وهي نجاسة الشرك.

أمَّا بالنسبة لبناء المساجد على القبور، أو الدفن في المساجد، وهذا من مفهوم اتخاذ القبور مساجد، فإن بعض الناس قد يُلَبِسَ ببعض الشبه، ولابد لطالب العلم ولابد للموحد أن يعرف هذه الشبهة وكيف الجواب عليها، حتى لا يلتبس عليه الأمر، لبس بعضهم بعدة أمور لكني أذكر أهم ذلك وهو شبهتان:

الأولى: شبهة ادَّعوها في شأن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حيث قالوا أنها كانت تصلي في بيتها وفيه ثلاثة قبور، وبالتالي كانت الصلاة في المكان الذي فيه قبور جائزة ولا حرج فيها.

والجواب عن هذا الذي قالوا: أنه غير صحيح، بل هو نوع من التلبيس، فليس بصحيح ما ذكروا من أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت تخالط القبور، بمعنى تصحوا وتنام وتأكل وتشرب وتجلس بين القبور؟

هذا مالا يتصوره عاقل بل ولا يفعله عاقل، أن إنسانا يعيش في وسط القبور.

إنما الأمر هو أن القبور الثلاثة: (قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقبر أبي بكر وعمر)، كانت هذه القبور منفصلة عن المكان الذي كانت فيه عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، ولذلك لما دخل القاسم ابن محمد ابن أخت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عليها، سألها أن تريه قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكشفت الستر فأرته إياه.

فدل هذا على أن قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبيه إنما كانت في مكان معزول عن حجرة عائشة أو محل عائشة الذي تجلس فيه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، والدليل ظاهر في أنها كشفت السِتْر فرأى القبر، والقاسم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ورحمه بالتأكيد كان يصل رحمه ويزور عمته، مرات ومرات ومع ذلك لم يرَ القبر حتى طلب في هذه المرة أن يشاهد القبر، فدل هذا على أنه مكان معزول، ليس هو المكان الذي كانت فيه عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

ولذلك كانت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قبل دفن عمر إذا أرادت حاجة من المكان الذي فيه القبور دخلت وهي غير محجبة لأنها في بيتها، فلما دفن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ما كانت تدخل هذا المكان إلا وقد جمعت عليها ثيابها، وهذا من حيائها وأدبها وحشمتها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

وها هنا فائدة في فعل القاسم ابن محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تدلك على أن السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ ما كانوا يأتون إلى قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيدعون ويصلون ويذكرون الله، إذ لو كان ذلك كذلك لكان القاسم قد رأى القبر وما احتاج إلى أن يطلب مشاهدة قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ما كان من شأنهم وما كان من سبيلهم أنهم كانوا يتوجهون إلى القبر ويعكفون عنده كما يفعل عباد القبور.

ويؤكد ما سبق ما ثبت بالإسناد الصحيح في ((طبقات ابن سعد))، عن الإمام مالك ابن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي هو عالم هذه المدينة أنه قال: (قُسمت حجرة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا باثنين، فَقِسْمٌ كان فيه قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبيه، وقِسْمٌ كانت فيه عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وبينهما جدار)، وضِعَ جدار بين المكان الذي كانت فيه عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا والقبور وبالتالي فهو مكان معزول، لا يمكن أن يقال إنه المكان الذي كانت تعيش فيه عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

هذه شبهة أولى واتضح لك بطلانها.

الشبهة الثانية التي زعموها هي: تلبيسهم بصورة قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا المسجد، قالوا: كيف تمنعون من أن تكون القبور في المساجد وهذا قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مسجده والصلاة فيه جائزة بالإجماع، وبالتالي فيجوز أن نقيس على هذه الصورة غيرها، فيجوز أن نبني القبور على المساجد أو أن ندفن الأموات في المساجد.

والجواب عن هذا: أن يقال إن هذا القائل إما أنه جاهل لم يفهم ما حصل ولا وجه ما حصل، أو أنه مُلبس يريد أن يلبس الحق بالباطل.

بيان ذلك: يكون بذكر مقدمة ممهدة لمعرفة ما الذي حصل وكيف أصبح الوضع كما نراه اليوم؟

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما توفي اختلف الصحابة في محل دفنه، فاتفقوا بعد مداولة ووجهات نظر على أن يدفن في المكان الذي توفي فيه فرفع الفراش وحفر في المكان الذي قُبِضَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه، و دفن ثمَّ، وكان ذلك منهم لأمرين:

[الأمر] الأول: ما حدثهم به أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما ثبت من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند ((الترمذي)) و((أحمد)) بأسانيد يشد بعضها بعضا، وهو أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أنه: **«ما من نبي يقبض إلا دفن حيث قبض»**، فاستجابوا لأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودفنوه في هذا المحل.

الأمر الثاني: أنهم خشوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إذا دفنوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في البقيع، يعني: في العراء أن يكون في هذا شُبْهة، فيتخذُ الجهال قبره مسجدًا، كما سيأتي معنا إن شاء الله في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، (ولولا ذلك لأبرز قبره، غير أنه خَشي أو خُشي أن يتخذ مسجدًا).

إذن لهاتين العلتين دُفن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث مات، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُفن في حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

استمر الأمر على هذا في عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية، حتى جاء بعد ذلك عهد الوليد بن عبد الملك.

لاحظ أنه قد حصلت توسعتان: توسعة في عهد عمر، وتوسعة في عهد عثمان، وما حصل أي تغيير على هذا الواقع، لم يحصل أي لمس لحجرة عائشة أو حتى حجرة غيرها من

أمهات المؤمنين، وكانت حجرات أمهات المؤمنين محيطةً بالمسجد إلا من الجهة الغربية، يعني هذه الجهة ما كان فيها، وإلا الباقي الجهة الجنوبية والجهة الشمالية والجهة الشرقية كان فيها حُجَر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتي كان فيها من فيها من أمهات المؤمنين.

حتى جاء الوليد بن عبد الملك فبنى جامع دمشق، ثم بدا له أن يوسع مسجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأمر عامله على المدينة وهو عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ أن يوسع مسجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، على أن يتضمن ذلك هدم حجر أمهات المؤمنين، وحصل كما تُحدِّثُنا كتب التاريخ، حصل ما حصل من أخذ ورد ومداولات في هذا الشأن إذ كانت رغبة فقهاء التابعين من أهل المدينة أن تبقي حُجَرُ أمهات المؤمنين على ما هو عليه، لكن أبى الوليد ذلك، حتى إنه لما هدمت تلك الحجر باستثناء حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فلها شأن خاص، لما هدمت تلك الحجر، ما رؤيَّ يوم كان الناس فيه يبكون مثل ذلك اليوم.

المقصود أن هذا الأمر نُفذ، هدمت الحجر المحيطة بالمسجد ووسع المسجد من جميع الجهات لكنهم لم يخرجوا إلى الجهة الشرقية، حيث انتهى ما يتعلق بتوسعة المسجد من الجهة الشرقية، إلى حد حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وما الذي حصل في حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؟

حصل الآتي:

هدم عمر رَحِمَهُ اللَّهُ حجرة عائشة وبناها بناء محكمًا أقوى من الأول، ثم إنه ومن معه من أهل المدينة وعلمائها بنوا جدارا مخمسا بعد حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكان هذا يعنى ابتداء التوسعة سنة إحدى وتسعين على الصحيح، وانتهى البناء سنة ثلاث وتسعين يعني: استمر البناء ثلاث سنوات.

بنوا هذه الحجرة ثم بنوا عليها جدارا مخمسا، في هذه الجهة الشمالية كان الضلعان على شكلا مثلث، فهو جدار خماسي، الضلع المخمس هكذا، الضلع المثلث في الجهة الشمالية، وأرادوا بذلك أمرين:

أولا: أن لا تجعل صورة الحجرة كصورة الكعبة.

وثانيا: حتى لا تكون صورة المصلي في الخلف صورة المصلي إلى القبر، الذي هو في داخل الحجرة، وبالتالي جعل الأمر على هذه الصورة، واستمر الوضع على هذا الحال حتى جاء عهد الظاهر بيبرس سنة ستمائة وثمانية وستين فوضع جدار خشبي يسمي الدرابزين،

هذه كلمة فارسية، ثم لما احترق المسجد بعد ذلك وضع الجدار المشجر الحديدي في عهد قايتباي أحد الحكام المماليك، سنة ثمانمائة وستة وثمانين وهذا الجدار الحديدي لعله هو الموجود، الذي يبدو والله أعلم أنه ما حصل تغيير لهذا الحديد إلى هذا الوقت، هذا هو الحديد الذي تراه باللون الأخضر.

إذن هذا الحديد أحاط بحجرة عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا وما خلفها أيضا، فما خلف الحجرة بعض حجرة فاطمة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، كل ذلك أدير عليه هذا الحديث المشجر الذي تراه اليوم.

إذن قبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أحيط بجدران ثلاثة:

١/جدار حجرة عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا.

٢/جدار عمر المخمس والذي يمكن أن ترى طرفًا منه من زاوية من هذا الجدار المخمس إذا كنت في الجهة الشرقية.

٣/ ثم بعد ذلك هذا الجدار الحديدي.

وحصل ما أخبر به ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ:

ودعا بأن لا يجعل القبر الذي ... قد ضمه وثنا من الأوثان
فأجاب رب العالمين دعائه ... وأحاطه بثلاثة الجدران

هذه هي الجدران الثلاثة.

إذن بناء على كل ما سبق أعود إلى الشبهة السابقة فأقول:

إن قبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ليس في مسجده، إنما هو في بيت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، وبيت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا محل مستقل عن المسجد، ليس جزء من المسجد، بيان ذلك:

أن الذي حصل هو أن المسجد التصق بالبيت أصبح أكثر اتصالا به ولم يكن كذلك فيما مضى، يعني أصبح البيت ملتصقا بالمسجد، بمعنى أن المسجد يحيط به من الجهات الثلاث باستثناء الجهة الشرقية، فنهاية المسجد تنتهي عند حجرة عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا من تلك الجهة، وبالتالي فلا يكون قبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالمسجد، وبالتالي فإنه تزول هذه الشبهة.

قد يقول قائل: ولكننا نرى بقعة في الجهة الشرقية من القبر، هناك مسافة حدود ثلاث أو أربعة أمتار، وهذا يدل على أن القبر في المسجد.

الجواب عن هذا: أن تعلم أنه لم يكن لهذه البقعة وجود مدة اثني عشر قرنا، ما كان لهذا المكان وجود، بمعنى كان المسجد ينتهي إلى حد جدار الحجرة الغربي ولم يكن في الجهة الشرقية شيء، حتى كانت التوسعة العثمانية التي كانت سنة ألف ومائتين وسبعة وسبعين، يعني هذا المكان عمره تقريبا مائة وستين سنة فقط، وأما ما قبل ذلك فإنه لم يكن لهذه البقعة وجود، إنما كان في الجهة الشرقية كان هناك جدار حجرة عائشة ثم خلفه مباشرة جدار المسجد، ولم يكن هناك أي بقعة يمكن أن يتعبد فيها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم نقول وجد هذا المكان ومع ذلك هذه الصورة لم تختل، لا يزال قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجرة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وحجرة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا مكان مستقل عن المسجد، وجه ذلك:

أن الأمر قد يشتبه على الناظر، لكن حقيقة الحال مختلفة فالمسجد توسع حتى أحاط بالقبر من جميع الجهات لا أقل ولا أكثر، وهذا لا يخرج البيت على أن يكون بيتا، وعن أن القبر لا يزال في البيت لا في المسجد.

أسهل لك تصور الأمر، أرأيت لو أن لإنسان أرضًا وبجواره أرضٌ لشخص، يعني زيد عنده أرض وعمرو له أرض بجواره، ثم إن عمروً اشترى الأراضي المحيطة بأرض زيد، فهل نقول إن أرض زيد أصبحت جزء من أرض عمرو، أو نقول أنها محاطة بها فقط؟

كذلك الأمر في قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توسع المسجد فأحاط بحجرة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا من جميع الجهات، وهذا لا يخرج القبر عن أن يكون في بيت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

قد يقول قائل: وهل نقول بالتالي إنه يجوز إذا دفن إنسان في حجرة ثم توسع المسجد أن يتكرر هذه الصورة؟ نقول لا نوافق على هذا، لما؟

[أولًا]: لأنه لا يجوز أن يدفن أحد في مكان مبنٍي أصلا، الواجب أن يدفن الإنسان في المقابر كما هي السنة العملية للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن بعده من أصحابه فالأمة مجمعة على ذلك وبالتالي هذه الصورة لا يمكن تصورها.

أمَّا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فله شأن خاص، وهو أن الأنبياء يدفنون حيث يموتون، وحيث دفن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا المكان جاز دفن غيره معه تبعا، ولذلك دفن أبو بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في ذلك المكان.

إذن ليس لهؤلاء وجه من الصحة البتة.

[ثانيًا]: -وهذا وجهٌ مهم انتبه له-، كل مسجد فيه قبر لا يخلو من أحد أمرين:

[الأمر الأول]: إما أن يكون المسجد بُنِيَّ من أجل القبر.

[الأمر الثاني]: أو يكون القبر أُدخل من أجل المسجد.

لابد من وجود أحد هذين الوصفين المؤثرين في الحكم، أما مسجد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يكن شيءٌ من ذلك فيه قط.

لا المسجد بني من أجل القبر، ولا القبر أدخل من أجل المسجد.

إذن أصبح حكم مسجد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حكما خاصا، لا يُقارن بغيره.

[ثالثًا]: أن الإجماع قد انعقد على صحة الصلاة في المسجد النبوي، والإجماع حجة مستقلة فيستثنى من عموم النهي و يبقى ما عاداه على الأصل وهو النهي، لا سيما وأن قبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توقيفي والمسجد توقيفي، قبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توقيفي، لا يمكن العبث فيه بالإجماع، والمسجد توقيفي لا يمكن تغيير محله بالإجماع، وأما بقية المساجد فإن الأمر فيها ليس كذلك.

[رابعًا]: دخول القبر في هذه الصورة التي تشتبه على بعض الناس كان تبعا لا قصداً:

١/ أدخلت الحجرة لا القبر فدخل القبر تبعا للحجرة وليس هو المقصود، المقصود إدخال الحجرة.

٢/ الحجرة دخلت تبعًا لبقية حجر أمهات المؤمنين، ولم تكن هي المقصودة بالذات، إنما كانت كبقية الحجر التي كانت بجوارها فدخل تبعا لذلك.

٣/ أن دخول هذه الحجر أصلا ما كان لأجل إرادة القبر قط إنما كان لأجل إرادة توسعة المسجد وهذا بخلاف حال المساجد التي فيها قبور فإن أصحابها ما فعلوا ذلك إلا لأجل القبر إما إدخالا له في المسجد، أو بناء للمسجد عليه.

[خامسًا]: أنك إذا تأملت وجدت أن الذين حصل منهم هذا الفعل وكان هذا في عهد التابعين:

١/ ولم يكن في المدينة إذ ذاك أحد من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قط، ما كان في المدينة أحد من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين صحبوه وعرفه سنته.

٢/ كان هؤلاء السلف رَحِمَهُمُٱللَّهُ يتوقون أشد التوقي أن يوسعوا المسجد من الجهة الشرقية، لما؟ كل ذلك خشية أن يصبح القبر في المسجد، ولذلك لماذا حصلت التوسعة أصلا؟ أليس لأجل التخفيف على المسلمين، طيب ما الذي يمنعه أن يتوسعوا شرقا؟

ما كان هناك شيء، كان بعد القبر يعني بعد المسجد من تلك الجهة كان مكان يسمي البلاط كانوا يصلون فيه الجنائز.

كان يمكن أن يضموه إلى المسجد فيستفيدوا من مسافة ويوسعوا على المسلمين، لكنهم في جميع هذه العصور ما فعلوا ذلك، المسلمون كانوا يتوقون التوسعة شرقا، كل ذلك لم؟ لأجل أنهم لا يريدون أن يكون قبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ داخل المسجد.

[سادسًا]: هؤلاء يستدلون بفعل حدث بعد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بثمانين عاما، فأين فعله هو صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

ألم تمت خديجة، وابنه إبراهيم، وعمه حمزة، وأصحابه، وأحبابه رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ أجمعين، أين دفنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ للأموات في المساجد أو بناء المساجد على القبور في المدينة أو في مكة أو في غيرهما؟ لما ما فعل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ذلك؟

يا لله العجب! يدعون الاستدلال بفعل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ويحتجون بفعل حصل بعد ثمانين سنة من وفاة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

[سابعًا]: أين فعل الصحابة وأين فعل السلف الصالح؟ هل ثبت عن صحابي قط أنه قاس غير مسجد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عليه فدفن قبرًا في مسجد، أو بنى مسجدا على قبر؟ أين فعلوا هذا؟ أين التابعون؟ لماذا لما كانوا يأتون إلى هذا المسجد ويزورونه ينقلون هذه الصورة في أماكنهم؟ ولم يثبت قط في عهد القرون الثلاثة المفضلة أن قبرا أدخل في مسجد، أو أن مسجدا بني على قبر.

هذا عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُٱللَّهُ بعد أن انتهت التوسعة عزل عن إمارة المدينة، وعاد إلى الشام، وهو النبيل ذو الجاه والمال، لماذا ما نقل هذه الصورة فنفذها في الشام؟! ما فعل هذا -رَحِمَهُٱللَّهُ و رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ- فدل ذلك على أن الذي حصل في هذا المسجد شيء لا يقاس عليه وهذا من ما قدره الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وشاءه.

ولعل في ذلك أو بالتأكيد في ذلك حكمة بالغة لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

٣٠

٣٠- باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح: فكيف إذا عبده؟

(المجلس الثاني)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب
ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله
عند قبر رجل صالح
فكيف إذا عبده؟

في الصحيح عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا؛ أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: «أولئكِ إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنو على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور، أولئكِ شر الخلق عند الله».

فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

بدأ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب بما ثبت في الصحيحين، قوله: (في الصحيح)؛ يعني: في ((الصحيحين)).

عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

وهاهنا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لعله من حكمة الله أن الذي يروي هذا الحديث كان عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا التي هي صاحبة الحجرة التي توفي فيها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودُفِنَ فيها، فهي من أفقه الناس بهذا الباب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وأرضاها.

تحدثت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنَّ أم سلمة؛ وهي: أم المؤمنين هند بنت أبي أمية المخزومي، حدثت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مريض في فراش المرض وكانت تسليه بمثل هذا الحديث، وجاء في ((الصحيحين)) عن عائشة أن أم سلمة وأم حبيبة كلاهما كانتا تحدث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الحديث.

إذًا عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا تارة أسندت الحديث إلى أم سلمة، وتارة أسندت الحديث إلى أم سلمة وأم حبيبة.

ذكرتا أو ذكرت لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كنيسة رأتها بأرض الحبشة، بل إنها ممن هاجر إلى الحبشة، وهذه الكنيسة جاء في ((الصحيحين)) أن اسمها: مارية بتخفيف الياء على اسم جارية رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذه الكنيسة رأتها الصحابيتان الجليلتان أم سلمة وأم حبيبة، فذكرتا لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما فيها من الصور، وفي بعض روايات

الصحيحين ذكرتا من حسنها؛ يعني :كانت الكنيسة ذات بناء حسن، وما فيها أيضًا من الصور.

ها هنا أخبرنا النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن «**أولئكِ**» إذا كان الحديث موجهًا إلى أم سلمة فيكون الحديث هكذا «**أولئكِ**»، أما إذا كان الحديث عامًّا «**أولئكَ**».

«أولئكِ كان إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور، أولئكِ شرار الخلق عند الله»

هذا الحديث فيه فائدة وهي: أنَّ كل مكانٍ يُصلى فيه ويسجد فيه فإنه يسمى مسجدًا، فهو من التسمية اللغوية، لا من التسمية الاصطلاحية، وذلك أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سمى تلك الكنائس التي يصلي فيها هؤلاء مسجدًا في هذا الحديث باعتبار أن المسجد هو ما يُسجَد فيه وما يُصلى فيه، وهذا ينطبق على الكنيسة وعلى غيرها مما يصلى فيه.

الشاهد من الحديث أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وصف هؤلاء بأنهم شرار الخلق عند الله، ولم يعلل بهذا التعليل لكونهم عبدوا غير الله، إنما فقط لكونهم بنوا على قبور الأنبياء والصالحين المساجد، وصوروا كذلك تلك الصور، فإذا كانوا بهذين الفعلين شرار الخلق عند الله، فكيف إذا توجهوا لهؤلاء المقبورين بالعبادة، لا شك أن الأمر في شأنهم أشد وأشد، ثم نقل رَحِمَهُٱللَّهُ كلمة حسنة عن ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ ذكر في ((إغاثة اللهفان)) أن هؤلاء جمعوا بين فتنة القبور وفتنة التماثيل.

وجُلُّ شرك العالم، جل الشرك الذي يكون في هذه الأرض راجع إلى هذين الأمرين:

الشرك إما بقبر يعبد.

أو بتمثال يعبد.

وأول شرك وقع في الأرض وما تسلسل بعده وإلى هذا اليوم كله راجع إلى هاتين الفتنتين: إما فتنة القبور، وإما فتنة الصور والتماثيل.

فالصور سواء كانت مجسمة، أو غير مجسمة فتنة عظيمة وذريعة ووسيلة إلى وقوع الشرك بالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ولأجل هذا نهى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن التصوير، وبيَّن أن أشد

الناس عذابًا يوم القيامة المصورون، وما ذلك إلا لأن هذا التصوير وسيلة وذريعة إلى وقوع الشرك كما حصل قديمًا وكما يحصل حديثًا.

الشاهد أن هذا الحديث فيه دلالة على ما بوّب عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو ما كان منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من التغليظ على من عَبد الله عند قبر رجل صالح، فما بالك يا عبد الله إذا عُبد هذا الرجل الصالح، فمن أعظم المنكرات اتخاذ هذه الوسائل التي تؤدي إلى الوقوع في الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهما عنها، قالت: لما نُزِلَ برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَفِقَ يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، فقال: -وهو كذلك-: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»؛ يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خُشِيَّ أن يتخذ مسجدًا. أخرجاه.

هذا الحديث الثاني وهو أيضًا من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، ومُخرج أيضًا في ((الصحيحين))، وفيه بيان ما جرى له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فداه أبي وأمي- من الشدة العظيمة التي لقيها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اللحظات الأخيرة من حياته، وما ذلك إلا لأن الأجر مضاعف له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تلك اللحظات يعالج أمرًا عظيمًا، حتى إنه ثبت عنه في ((الصحيح)) أنه كان يضع يده في إناء فيه ماء، ثم يأخذ منه ويمسح وجهه ويقول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا إله إلا الله إن للموت لسكرات»**.

وفي هذا الحديث طفق صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بمعنى: جعل يطرح خميصة على وجهه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والخميصة كساء مخطط له أعلام كان يطرحه على وجهه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شدة ما يصيبه، ثم إذا اغتم كشفها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو قد عالج أمرًا عظيمًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهذه اللحظات الحرجة التي هي آخر لحظات حياته المباركة صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما كفَّ فيها عن الدعوة إلى التوحيد، وعن التحذير من ضده، منذ أن بُعث صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلى آخر لحظات حياته، والشغل الشاغل له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيان التوحيد والدعوة إليه، والتحذير من ضده، فاعتبروا يا معشر الدعاة إلى الله.

لما كان في تلك اللحظات التي تصفها عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هذه الوصية وهذا التنبيه وهذا التحذير؛ حتى تحذر الأمة؛ لأنه خشي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يصيب هذه الأمة ما أصاب من قبلها، خشي أن يتخذ قبره وثنًا يعبد مع الله جَلَّ وَعَلَا.

وفي ((مسند الإمام أحمد)) بسند صحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا الله بهذا فقال: **«اللهم لا تجعل قبري وثنًا لعن الله قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا للحديث: **«لعنة الله على اليهود والنصارى»**.

اللعنة من الله: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ومن العباد الدعاء بذلك، فهم إذا دعوا على أحد باللعنة فالمراد أنهم يسألون الله أن يطرده عن رحمة الله.

والأولى بالمسلم أن يتجنب لعنة المعين الحي الذي لم يمت على الكفر حتى ولو كان كافرًا في حياته إلا ما تحقق من موته كافرًا.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في ((الوصية الكبرى)): أكثر أهل السنة يكرهون لعنة المعين.

والشاهد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إما أنه دعا على اليهود والنصارى، أو أخبر بلعنة الله عَزَّ وَجَلَّ لهم، وهذا يدلك على أنهم وقعوا في أمر عظيم فما هو؟

جاء التعليل منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك فقال: **«اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**.

إذًا هذه هي العلة التي لأجلها استحقوا لعنة الله جَلَّ وَعَلَا ، فمن وافقهم في هذه العلة كان له النصيب من هذه اللعنة، فليحذر العاقل **«اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»** وهذا يدلك على أن اتخاذ القبور مساجد شأنه عظيم، بل هو من الكبائر، بل هو من أكبر الكبائر، ومن أعظم المسائل والذرائع الموصلة إلى الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا.

ومضى معنى بيان ما هو المراد باتخاذ القبور مساجد؟ وقلنا: إنه يشمل:

١- الصلاة عليها؛ على القبور أو الصلاة عليه؛ يعني: القبر.

٢- الصلاة إليه؛ تجعله أمامك لقبلتك.

٣- الصلاة عنده؛ وذلك يشمل الصلاة في المقابر.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها مقابر»**، ما معنى لا تتخذوها مقابر؟ يعني لا يصلى فيها، لم؟ لأن الشأن في المقابر أنه لا يصلى فيها، وهذا كان مستقرًّا في أذهان المخاطبين أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٤- أن يُبنى مسجدٌ على قبر؛ يدفن الميت ثم ينشأ ويؤسس مسجد فوقه وعليه.

٥- أن يُجعل القبر داخل المسجد.

هذه الصور كلها يشملها وصفُ اتخاذ القبور مساجد.

ثم بيَّنت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا السبب الذي دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن يذكر هذا الكلام، فقالت: **«يحذِّر ما صنعوا»**.

إذًا فلتحذر أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولتأخذ بوصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي هي من أثمن الوصايا وأغلاها، فإنها من الوصايا الأخيرة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **«يحذِّر ما صنعوا»**.

قالت: **«ولولا ذلك لأُبرِز قبره»**، أبرز من الإبراز، يعني: الظهور؛ يعني لولا هذه الخشية من أن يُتخذ قبره مسجدًا لكان قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل بقية القبور، دفن في المقبرة، لكنه خَشيَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو خُشِي، خَشِي هو، أو خُشِي؛ يعني خَشي الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن يُتخذ قبره مسجدًا، ولم يكن ليقع هذا في عهد أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكنَّ ذلك غير مأمون بعد ذلك، وأنت إذا تأملت في أحوال الناس اليوم حمدت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على أن حَفِظَ الله قبر نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يكن بارزًا، وإلا فخبرني كيف سيكون الحال.

قالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : **«غير أنه خُشي أو خَشي أن يُتخذ مسجدًا»**، وحصل أن كان دفن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيته، وهذا كما قلنا: مُعللٌ بعلتين وهما:

١/ ما ثبت أنَّ الأنبياء يدفنون حيث يموتون.

٢/ ما يتعلقُ بسدِّ ذريعة الشرك.

خَشي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكذلك أصحابه من أن يُتخذ قبره مسجدًا، فدفن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا المكان المحفوظ، في بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فما أمكن أن يُخلَص إليه، ولم يحصل ولله الحمد أن أُتخذ قبره مسجدًا، ولم يكن قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وثنًا، كان محفوظًا

في حياة عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، ثم بعد وفاتها أُغلق هذا المكان بالكلية، فما أمكن لأحد أن يصل إليه، وسدُّ الباب تمامًا.

ثم بنيت تلك الجدر –التي أخبرتك عنها بالأمس-، ثلاثة جُدر تحيط بالقبر الشريف، فلا يمكن الوصول إلى قبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ البتة، حفظ الله قبره صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

ودعا بأن لا يجعل القبر الذي ... قد ضمه وثنا من الأوثان

فأجاب رب العالمين دعاءه ... وأحاطه بثلاثة الجدران

حتى اغتدت أرجاؤه بدعائه ... في عزة وحماية وصيان

هذا ما كان منه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في هذه الوصية التي نقلتها لنا عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ :

ولمسلم عن جندب بن عبد الله، قال: سمعت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قبل أن يموت بخمس، وهو يقول: «إني أبرأ من الله أن يكون لي منكم خليلٌ؛ فإن الله قد اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا؛ لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإن من كان قبلكم».

هذا حديث جندب بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ مخرج في ((صحيح مسلم))، وفيه مسألتان:

إحداهما: تتعلق بتوحيد الأسماء والصفات.

والأخرى: تتعلق بتوحيد الألوهية.

وبالتالي فهذا الحديث فيه ردٌّ على طائفتين ضالتين مخذولتين:

إحداهما: معطلة الصفات، والرد عليهم بإثبات صفات الله جَلَّوَعَلَا ومنها ما ثبت في هذا الحديث من إثبات الخُلَّة لله جَلَّوَعَلَا.

والشق الثاني من الحديث فيه ردٌّ على طائفة مخذولة هي أول من أدخل الشرك والتعلق بالقبور بهذه الأمة، وهم سبابة الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ ، والردُّ عليهم بالشق الثاني، فإن دين هؤلاء هو البناء على القبور واتخاذها مساجد، هذا دأبهم وهذا ديدنهم.

يقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في هذا الحديث مبينًا براءته من أن يكون قد اتخذ أحدًا من أصحابه خليلًا.

الخليل: فعيلٌ كصديق؛ بمعنى: مفاعل من الخلة، والخلة أعلى درجات المحبة، سميت بذلك؛ لأنها تتخلل إلى حنايا القلب والجسد، فلا تدع خَلْةً ولا فُرْجَةً في الجسم إلا دخلته، وفي هذا أنشد بشار بن برد:

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلا

فأعلى درجات المحبة هي الخلة، فالله جَلَّوَعَلَا اتخذ نبيه محمدًا صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خليلًا كما اتخذ نبيه إبراهيم خليلًا، وكذلك النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ اتخذ ربه خليلًا، فالخلة ثابتة في حق الله جَلَّوَعَلَا من الطرفين، هو اتخذ نبيه محمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خليلًا، وكذلك نبيه محمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ اتخذ ربه خليلًا، ولذلك برئ أن يكون له أحدٌ من البشر خليلًا، فإن هذه الرتبة لا تقبل المشاركة، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يتصف بصفاته العلية على ما يليق به، ومن ذلك: صفة المحبة وما قرب منها في المعنى.

والثابت في النصوص لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ:

١/ صفة المحبة.

٢/ صفة الود.

٣/ صفة الخلة.

فالله جَلَّوَعَلَا متصف بالمحبة، فهو يحب، كما أنه يُحَب، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ **[المائدة: ٥٤]**.

كذلك من صفاته الود، ومن أسمائه الودود، والصحيح: أن هذا الاسم يجمع بين كونه اسم فاعل واسم مفعول، فهو ودود يَوَدُّ، وودود يُوَدُّ، يحب ويود عباده، ويوده عباده.

وكذلك صفة الخلة لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، والذي نعلمه من النصوص أن هذه الصفة تعلقت باثنين فحسب، هذا ما ورد إلينا في النصوص.

الخلة تعلقت بالخليلين بإبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم، الله جل وعلا اتخذ إبراهيم ومحمدًا عليهم الصلاة والسلام خليلين.

وهاهنا أنبه إلى أن بعض الناس يقول: إبراهيم خليل الله، ومحمد حبيب الله.

وهذا غلط وفيه عدم إنزال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منزلته، وكأن إبراهيم على هذا أرفع درجة من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والصواب: أن إبراهيم خليل الله، وكذلك النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خليل الله، والخلة كما قد علمت أرفع درجات المحبة.

وأنبه أيضًا إلى ضرورة لزوم النص ولزوم الأدب بهذا المقام:

أما لزوم النص فبأن لا يضاف إلى الله جَلَّ وَعَلَا من الصفات إلا ما ثبت، وبالتالي فلا يجوز أن يضاف إليه من درجات المحبة ما لم يثبت وهذا أيضًا الذي يقتضيه الأدب حتى في شأن معاملة العبد لربه، فليس لأحد أن يضيف إلى الله درجة الصبابة، أو التتيم، أو العشق مثلًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

كذلك ليس لأحد أن يعامل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بذلك، بعض الناس يقول: أنا أعشق الله، أو ربما تسمى عاشق الله، أو عاشق إلهي، هذا غلط ولا يجوز، بل على الإنسان أن يلزم مقام الأدب لاسيما وأن إطلاق العشق في هذا المقام فيما يتعلق بالله جل وعلا باطل، ولا يجوز؛ لأن العشق محبة مع شهوة، وهذا لا شك أنه يتنافى مع مقام العبودية، ومن قاله ما قدر الله حق قدره.

إذًا في هذا الحديث إثبات هذه الصفة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على ما يليق به على حد قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[الشورى:١١]، فالله يحب، والله يود، والله يتخذ خليلًا، ولكن هو في هذا لا يماثل المخلوقين، لله جَلَّ وَعَلَا من هذه الصفات ما يليق بالمخلوقين، ونقطع أن ذلك لا يماثل صفات المخلوقين.

قال: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يموت بخمس، وهو يقول: «إني أبرأ من الله أن يكون لي منكم خليلٌ؛ فإن الله قد اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا؛ لاتخذت أبا بكر خليلًا».

وهذا فيه فضيلة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنه لولا هذا المانع وهو كونه اتخذ ربه خليلًا لكان خليله من الناس أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا يدلك على أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحب أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه، ولا شك أنه جدير بهذه الرتبة وذلك لأنه أفضل البشر على

الإطلاق بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فلولا هذا المانع الذي منع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكان خليله من الصحابة أبا بكر.

«ألا وإن من كان من قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك».

هذا هو الشق الثاني من الحديث، وفيه الرد على عباد القبور: **«ألا وإن من كان من قبلكم»**، من الأمم ولاسيما ما كان من أهل الكتاب، اليهود والنصارى، وهذا شأنهم قديمًا، وهذا أيضًا شأنهم حديثًا.

فمن شأنهم قديمًا وحديثًا أنهم يدفنون في الكنائس والبيع، وأماكن العبادة.

إضافةً إلى وضع الصور المعلقة أو التماثيل المنصوبة لهؤلاء المعظمين، وذلك كله من أسباب لعنة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وغضبه.

خشي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تسلك أمته هذا المسلك الذي كان فيمن قبلنا: **«كانوا يتخذون قبور أنبيائهم»**، وفي رواية: **«وصالحيهم مساجد»**، ثبت في ((مسلم)): **«وصالحيهم»** أيضًا.

وهاهنا قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك»**؛ ولاحظ -يارعاك الله- كيف استعمل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ها هنا صيغتين من صيغ النهي، وهذا يدلك على أنه أمر محرم مؤكد التحريم، كان يكفي أن يقول: لا تتخذوا القبور مساجد، لكنه أكدَّ بعد ذلك بصيغة أخرى فقال: **«فإني أنهاكم عن ذلك»**، وهذا النهي المؤكد فيه مزيد من حرصه وشفقته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونصحه لهذه الأمة أن تقع في هذا المنكر العظيم وهو أن يُتخذ، أو أن تتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فقد نهى عنه في آخر حياته، ثم إنه لعن -وهو في السياق من فعله- والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يُبْنَ مسجدٌ.

هذا الكلام ينقله الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتاب ((اقتضاء الصراط مستقيم))، وبالمناسبة هذا الموضوع ما يتعلق بالقبور وما يكون عندها من

البدع ((اقتضاء الصراط مستقيم))، بالإضافة إلى ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم، هذان الكتابان من أحسن الكتب لبيان وتجلية هذا الموضوع.

ينبه شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن هذا الأمر كان موضع اهتمام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى إنه نبه عليه قبل أن يموت بخمس ليال، ثم لم يزل يؤكد ويكرر ذلك حتى وهو في السياق؛ يعني حتى وهو في لحظات النزع كما مر معنا في حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا لما نُزِل برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يعني لما نزل إليه ملك الموت؛ يعني كان في اللحظات الأخيرة في لحظات النزع، في لحظات خروج الروح، في هذه اللحظات الشديدة، ومع ذلك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يؤكد على خطورة اتخاذ القبور مساجد، وأن هذا من أسباب لعنة الله جَلَّ وَعَلَا .

بل أضيف أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان ينهى عن هذا مبكرًا، ثم قبل موته بخمس، ثم في اللحظات الأخيرة من حياته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يعيد ويكرر ويؤكد.

فأين قلوب؟ وأين عقول هؤلاء الذين هم من أشد الناس حرصًا على البناء على القبور عن هذه الأحاديث العظيمة، حتى إن بعض هؤلاء المخذولين ألف كتابًا في استحباب البناء على القبور، واتخاذها مساجد، إي والله، لم يكتفِ بالإباحة بل جعلها أمرًا مستحبًّا!

وماذا عن هذه الأحاديث التي بلغت حد التواتر، والتي أدرجت في الكتب المؤلفة في الحديث المتواتر؟

قال هذا وأمثاله من المخذولين: إن كل هذه الأحاديث شاذة.

أحاديث مخرجة في الصحيحين، وفي السنن، وفي المسانيد، وفي المصنفات، وفي المستخرجات، وفي كل كتب الحديث، وفي أعلى درجات الصحة، ومخرجة عن عدد من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كل تلك رُمي بها عرض الحائط وما التفت إليها، وكما يقولون بجرة قلم: أحاديث غير مقبولة، وما المعول عليها هنا ليس شيء إلا الأهواء فقط، الهوى هو الذي حكم على هذه الأحاديث بأنها شاذة لا يُعمَل بها، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فقد نهى عنه في آخر حياته، ثم إنه لعن -وهو في السياق- من فعله والصلاة عندها من ذلك وإن لم يُبْنَ مسجدٌ، وهو معنى قولها: «خشي أنه يتخذ مسجدًا»، فإن الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا.

وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدًا، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجدًا كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا».

هذا تنبيه لطيف نقله لنا الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يريد أن ينبه القارئ إلى أن معنى النهي عن اتخاذ القبور مساجد لا يختص فقط ببناء مسجد على قبر، بل حتى الصلاة على القبور، وإليها، وعندها داخل في مفهوم اتخاذ القبور مساجد.

وذكر لطيفة هاهنا وهو أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما وجه هذا الخطاب، وأول من يتوجه إليه هذا الخطاب هم أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يتصور في حق أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبنوا مسجدًا على قبره بجوار مسجده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا أمر بعيد تصوره؛ يعني: إذا كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيدفن في بيت عائشة، فيبنى مسجد آخر بجوار مسجد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس بينهما مسافة، هذا أمر معقول؟!

وإذا قدر فرضًا أن الصحابة ما كانوا يعلمون أنهم سيدفنونه في بيت عائشة، وإنما في البقيع أيضًا ليس إلا خطوات يسيرة بين المسجد والبقيع، فكون النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينهاهم عن أن يتخذوا القبور مساجد، ولاسيما ما يتعلق بالأنبياء والصالحين، فإن هذا لا يعني أن يكون تحذيره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم فيما يتعلق ببناء المسجد عليه فقط، نعم هذا داخل في مفهوم اتخاذ القبور مساجد وهو أشنع ما يكون.

لكن أيضًا يشمل ذلك أن يصلى إليها أو عندها، وأشد من ذلك أن يصلى عليها.

وهذا يؤكده ما ذكرته في ابتداء حديثي وهو أن المسجد في اللغة: كل ما يُسْجَدُ فيه، ولذلك قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**جعلت لي الأرض مسجدًا**»، يعني محل سجود، فكل الأرض، أي مكان تمشي فيه فهو مسجد.

لكنه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ استثنى كما عند الخمسة إلا النسائي بأسانيد جيدة استثنى المقبرة والحمام، قال: «**كل الأرض مسجد إلا المقبرة والحمام**»، هذان ليسا موضع سجود، وليسا موضع صلاة.

وبالتالي فلا ينبغي أبدًا أن تظن أن نهيه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن اتخاذ القبور مساجد لا يدخل فيه الصلاة عليها، أو إليها، أو عندها.

هذا الذي أراد التنبيه عليه.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولأحمد -بسند جيد- عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «إنَّ من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد».

رواه أبو حاتم في صحيحه.

هذا آخر ما ختم به الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ولم يزل جزاه الله خيرًا يعيد ويؤكد ويورد وينوع في الأحاديث التي مضمونها واحد ومؤداها واحد ولكن تكثير الأحاديث، وتكثير الأدلة في بيان التوحيد من الحكمة في الدعوة والعلم، ولذلك من أحسن ما يكون لطالب العلم والداعية إلى الله جَلَّ وَعَلَا أن يكثر الأدلة وينوعها، لعل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يفتح لهذه الأدلة القلوب.

هذا الحديث الذي خرجه الإمام أحمد بسند جيد -كما قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ- فيه بيان أن من شرار الخلق عند الله جَلَّ وَعَلَا صنفين:

الصنف الأول: الذين تُدْرِكهم الساعة وهم أحياء، وذلك أن هذا الصنف لا خير فيه البتة، فإن الله جَلَّ وَعَلَا قبيل قيام الساعة يرسل ريحًا فتقبض روح كل مؤمن، ولا يبقَ على وجه الأرض إلا الكفار حتى أخبر النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن ذاك الوقت، وذاك الزمان أنه لا يبقَ من يقول: لا إله إلا الله، لا يوجد من يوحد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وجاء أيضًا أنه لا يوجد تذكير بالله، ولا أمر بالمعروف، ولا نهي عن المنكر، حتى لا يبقَ على وجه الأرض من يقول:

الله الله، من يذكر بالله على النصب، على الإغراء، لا أحد يذكر بالله، لا أحد يقول: اتقِ الله، لا يبقَ على وجه الأرض من يقول: الله الله.

إذًا هذا الصنف الأول وهو جدير بهذا الوصف أن يكون من شرار الخلق عند الله جَلَّوَعَلَا.

والصنف الثاني: الذين يتخذون القبور مساجد، ولاحظ- يا رعاك الله- هذا القِران بين الصنفين، كأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرِنُ بين نتيجة ووسيلة:

النتيجة: الكفر.

والوسيلة: اتخاذ القبور مساجد.

إذًا على المسلم أن يحذر وأن يخاف، وأن يتنبه، فالشريعة شددت وأكدت كثيرًا في موضوع القبور، وهذا معنى لا ينبغي أن يغيب عن بالك يا أيها المسلم.

٣١

٣١- باب

ما جاء في أنّ الغلو في الصالحين

يصيرها أوثاناً تُعبد من دون الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ
باب
ما جاء أنَّ الغلو في قبور الصالحين
يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله

هذا بابٌ جديد من الأبواب التي يتابع المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إيرادها في هذا الكتاب العظيم، والتي تتعلق بموضوع غاية في الأهمية ألا وهو: الغلو في القبور.

وهذا من الشيخ فيه أبلغُ نصيحة لهذه الأمة، فإنَّ من أنصف وتأمل في أدلة الشرع وجد أن الغلو في قبور الصالحين من أعظم المنافذ التي تؤدي إلى وقوع الشرك بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ولأجل هذا تكاثرت أحاديث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في النهي عن هذا الأمر العظيم، وسدِّ كلِّ ذريعة تؤدي إلى الرتوع في هذا المرعى الوخيم، وليت أنَّ الدعاة إلى الله جَلَّوَعَلَا يتبصرون ويتأملون في هذا المقام فتكاثرُ الأحاديث عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في سدِّ الذرائع والنهي عن كل ما يُوصل إلى الشرك بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ حتى إلى آخر لحظات حياته صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في هذا عبرة للدعاة وأيُّ عبرة، من جهة ضرورة العناية بما كان يعتني به النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وإعطاء ذلك الأولوية على ما سوى ذلك مما يدعى إليه.

وإني لأعتقد جازمًا أنَّ من أسباب انتشار الشرك في هذه الأمة ضَعْفَ كثيرٍ من الدعاة في العناية بالدعوة إلى التوحيد، والتحذير من ضدِّه حيث انشغل كثيرٌ من الدعاة –مع الأسف– عن هذا الأمر العظيم بغيره مما هو أقل أهميةً منه، وهذا يحتاج منا معاشر طلاب العلم إلى التواصي فيما بيننا، كلُّ الأمور تتقاصر أمام التوحيد وما يمسُّ جنابه، لابد أن تكون هذه حقيقة ماثلةً أمام عينك يا أيها الداعية ويا طالب العلم فاشحذ ذمتك واجتهد واحرص على ما كان يحرص عليه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله** عَزَّوَجَلَّ)، وكلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ صحيح، فإنَّ الغلو في قبور الصالحين ربما صيَّرها؛ يعني: جَعَلَهَا أوثانًا تُعْبَدُ من دون الله، وربما جعل هذا الغلو القبور وسيلة إلى أن تعبد من دون الله، وكلا الأمرين واقع عند قبور الأولياء والأنبياء.

وذلك أن أنواع المنكرات التي تقع عند القبور:

إما أن ترجع إلى ما هو شرك أكبر.

وإما أن ترجع إلى ما هو دون ذلك.

من الناس من يغلو في قبور الصالحين فيجعلها محلاً لدعائه لأصحابها، يدعو أصحاب القبور، أو ينذر لأصحاب القبور، أو يذبح لصحاب القبور، أو يعظم أصحاب القبور تعظيمًا مثل تعظيم الله جَلَّوَعَلَا، وكل ذلك لا شك يجعل هذه القبور أوثانًا تعبد من دون الله.

وقد يكون الغلو في أمور دون ذلك: من المنكرات، والمحدثات، والكبائر، والشرك الأصغر، ومن ذلك: رفع القبور، والبناء عليها، وتجصيصها، وإنارتها، والكتابة عليها، أو عبادة الله جَلَّوَعَلَا عندها كالصلاة عندها أو الصدقة عندها أو ما شاكل ذلك؛ لاعتقاد أن هذا المكان العبادة فيه لله أفضل، وكل هذا ولا شك ذريعة تُصَيِّر ويؤول الأمر في هذه القبور إلى أن تكون أوثانًا تعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

ومضى الحديث في الفرق بين الأوثان الأصنام، وقلنا: إن التحقيق إن الأوثان أعم من الأصنام، وأن الأصنام أخص من الأوثان، وذلك أن الأصنام هي ما نصب على صورة ما فيه حياة من إنسان أو حيوان، وأمَّا الوثن فيعم ذلك وغيره.

فالأصنام أوثان، وكذلك الأشجار والأحجار والأبنية التي تعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ تسمى أوثانًا، ويدل على ذلك أن قوم إبراهيم كانوا يعبدون الأصنام، ومع ذلك قال في حقهم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾[العنكبوت:١٧]، فدل هذا على إن الأصنام يطلق عليها أوثان.

والأمر على كل حال في هذا يسير.

والمقصود أن هذا الباب ينبه فيه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ القارئ إلى العناية بسد الذريعة فيما يتعلق بالقبور، وأنَّ الواجب عدم الغلو فيها أو في أصحابها، والشريعة جاءت بالوسطية والاعتدال في كل شيء، ومن ذلك: التعامل مع الصالحين؛ فالواجب التوسط في ذلك وعدم الغلو أو الجفاء، إنما يُنْزَلُونَ منزلتهم اللائقة بهم، ويعاملون بما يستحقون من التبجيل والاحترام والمحبة.

وأما أن يبالغ في ذلك حتى يُوصَل إلى أن يعطوا شعبة من الألوهية، وأن يقصدوا من دون الله عَزَّوَجَلَّ فهذا لا شك أنه من الغلو، والغلو في الشريعة ممقوت و مضى الحديث في هذا، وما من أمْرٍ أمَرَ الله عَزَّوَجَلَّ به إلا كان للشيطان حرصٌ فيه من جهتين: إما من جهة الغلو فيه أومن جهة التقصير عنه، ولا يبالي الشيطان بأيهما فاز من العبد، فعلى الإنسان أن يحذر، وأن يكون مرابطًا على ثغور جوارحه وقلبه حتى لا يقع منه إفراطٌ أو تفريط، أو غلو أو تقصير، لا سيما في هذه المسائل المهمة التي تمس جناب التوحيد، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

روى مالك في الموطأ؛ أنَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

هذا الحديث أورده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ معزوًا إلى ((موطأ الإمام مالك))، والإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ روى هذا الحديث مرسلاً، فإنه أخرجه من طريق زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهذا إسناد رجاله ثقات، غير أنه مرسل فعطاء تابعي ثقة رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وأخرج البزار هذا الحديث بلفظ قريب من طريق زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولفظه: **«اللهم إنِّي أعوذ بك أن يتخذ قبري وثنًا»**.

اختلف العلماء في ترجيح إحدى الروايتين على الأخرى، منهم: من رجح الوصل، ومنهم من رجح الإرسال، يعني منهم من قال: إنَّ القول في الحديث رواية من أرسل فيكون الحديث بهذا ضعيفًا، ومنهم من يقول: إن القول قول من وصل؛ لأن معه زيادة ثقة فهي مقبولة.

وعلى كل حال مهما رجحنا في هذا الحديث فإن هذا الكلام ثابت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون شك، فإن هذا الكلام الذي جاء في هذا الحديث ثابت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حديث أبي هريرة خرجه الإمام أحمد وغيره بإسناد صحيح وفيه: **«اللهم لا تجعل قبري وثنًا»**، دون كلمة (**يعبد**)، ومعلوم أن الوثن يُعبد.

الشاهد أن هذا كان منه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ دعاء بأن يجنب الله قبره الذي سيؤول إلى ظنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فيه؛ أن يكون وثنًا يتوجه له بالعبادة، وأجاب الله عَزَّوَجَلَّ دعاء نبيه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فحفظ قبره عن أن يكون وثنًا يعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

فأجاب رب العالمين دعاءه ... وأحاطه بثلاثة الجدران

حتى اغتدت أرجاؤه بدعائه ... في عزة وحماية وصيان

وإنْ وقع شيء فإنه يقع في المسجد، ولا يقع عند قبر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فبين من يُحْدِّثْ وبين قبر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حواجز وجدر -كما أخذنا هذا سابقًا-.

وفي هذا الحديث فوائد:

أولاً: كل ما يتوجه إليه بالعبادة فإنه وثن.

[ثانيًا]: إنَّ وقوع الشرك في هذه الأمة أمر ممكن خلافًا لمن يقوله المتعلقون بالقبور الذين يزعمون أن الشرك لا يمكن أن يقع في هذه الأمة، أرأيت دعاء النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؟ أكان في شيء مستحيل الوقوع؟ أو ممكن الوقوع؟ يعني حينما قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«اللهم لا تجعل قبري وثنًا»**، أكان يدعو بشيء ممتنع أصلاً؟ لا يمكن وقوعه كالجمع مثلاً بين النقيضين؟ أو أنه أمر يمكن وقوعه؟

لا شك أنه كان يدعو في شيء يمكن وقوعه، ويسأل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ربه ألا يقع، وهذا يدلك على أن الشرك ممكن الوقوع، وبالتالي على الإنسان أن يحذر من الوقوع فيه.

[ثالثًا]: وهي أنَّ قبر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لو قُدِّرَ أنه عبد من دون الله جَلَّوَعَلَا كان اسمه وثنًا، وبالتالي تتنزل فيه النصوص التي جاءت في الأصنام والأوثان، وبالتالي يكون في هذا ردٌّ على القبوريين الذين يزعمون أن وصف الأوثان إنما يختص بما كان عليه أهل الجاهلية من هذه الأحجار والأشجار والأصنام المنصوبة على هيئة ما فيه روح وليس ذلك راجعًا إلى القبور، هذا الحديث رد بليغ عليهم.

[رابعًا]: أن قبر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لو قدر أنه عبد كان كان وثنًا، وبالتالي فكل قبر سواه فإنه يشمله هذا الحكم، إذا كان قبر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وهو هو عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، لو عُبد كان وثنًا، فكيف بقبور غيره صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من الناس؟ لا شك أنهم دخلوا في الحكم، أو أنهم أولى بهذا الوصف، أو أن هذه القبور أولى بهذا الوصف، وهي أن تكون أوثانًا تعبد

من دون الله، وهذا مع الأسف الشديد ما وقع في هذه الأمة في طول العالم الإسلامي وعرضه إلا من رحم الله، أعني أنه اتُخذت قبور الأولياء والصالحين أوثانًا تُعبد من دون الله.

ومن يعرف واقع الناس يدرك حقيقة هذا الواقع المؤلم الذي يقع مع الأسف الشديد، وقد أحسن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((إغاثة اللهفان)) في وصف غلو هؤلاء في قبور الصالحين، وأوصيك بالرجوع إلى هذا الكتاب العظيم، فإنه من أحسن المواضع في بيان خطورة الغلو في قبور الصالحين.

وصف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يقع من هؤلاء وهو أنَّهم يبذلون الغالي والرخيص والنفيس في سبيل الحج إلى قبور الأولياء والصالحين وشدِّ الرحال إليها، يبذلون في ذلك ما لا يبذلونه في الحج إلى البيت العتيق، ويرجون من الثواب في ذلك ما لا يرجونه في حج بيت الله سبحانه، فيجدّون السير ويواصلون المسير ليلاً نهار حتى إذا بدت أعلام قبر الصالح الذي يرجونه ويرومونه، نزلوا عن دوابهم تعظيمًا وتقديرًا لصاحب القبر، وسجدوا شكرًا لله على ما من عليهم به من هذا الفضل.

ثم ساروا بأدب، وربما جثّوا على ركابهم، ثم حبوا حبوًا حتي يصلوا إلى هذا القبر، فإذا قَرُبُوا منه صلوا ركعتين تحية للقبر، ثم بعد ذلك حدِّث ولا حرج عما يقع من أمور عظيمة تتفتت لها أكباد أهل التوحيد، فهذا صائح، وهذا باكٍ، وهذا هاتف، وهذا داعٍ مستغيث، وهذا متمسح، وهذا مرتمٍ متلطخ بتراب القبر، أو متشبث بحيطانه وستره، -فإن لله وإليه راجعون-.

وهذا -يا أيها الأخوة- بلاء عظيم، ومن يعرف الواقع يدرك أن الذي أقول ما هو إلا نقطة من بحر كم الذين يشدون الرحال كل سنة إلى قبور الأولياء والصالحين؟

بل ربما إلى قبور الفُجّار، بل ربما إلى قبور متوهمة لا حقيقة لها يذهبون إليها بالآلاف المؤلفة، ويدعون ويستغيثون.

هذا يدعو يا ابن علوان، وهذا يدعو يا سيدي عبد القادر، وهذا يدعو يا سيدي أحمد البدوي، وهذا يدعو يا سيدي المرسي أبو العباس، وهذا يدعو الحسين، وهذا يدعو فاطمة، وهذا يدعو كذا، وهذا يدعو كذا، أمر عظيم وبلاء كبير وقع فيه كثير من الناس وهم مع الأسف الشديد يظنون أنهم يحسنون صنعًا، يقولون: لا إله إلا الله صباح مساء، وهم

ينقضونها صباح مساء، فالأمر في ذلك والله يا أيها الإخوان عظيم، ويحتاج ممن بصرهم الله جَلَّوَعَلَا أن يتقي الله وأن يبذل ما يستطيع في سبيل البيان والإبلاغ والدعوة والإنكار لهذا المنكر الفظيع، والله المستعان.

بقيَّ أن نعلم أن في هذا الحديث: إثبات صفة الغضب لله جَلَّوَعَلَا، اشتد غضب الله جَلَّوَعَلَا على هؤلاء الذين يغلون في القبور ويتخذونها مساجد، وقد مر بنا معنى اتخاذ القبور مساجد هؤلاء لا يغضب الله عليهم فحسب، بل إن الله جَلَّوَعَلَا يشتد غضبه عليهم يغضب غضبًا عظيمًا، وهذا يدلك على أن هذا الغلو وهذا الاتخاذ لهذه القبور مساجد من أعظم المنكرات ومن أشنع المحرمات التي يبغضها الباري سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وأهل السنة والجماعة يقولون بما نطقت به الآيات والأحاديث من إثبات الصفات لله جَلَّوَعَلَا فالله يغضب كما أخبر، وكما أخبر عنه نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وغضبه لائق به، وكما أنه هو في ذاته ليس كمثله شيء، فكذلك هو في صفاته ليس كمثله شيء، فغضب الله عَزَّوَجَلَّ غضب لائق به، لا كغضب المخلوقين.

والمحرفة والمعطلة أوَّلوا هذه الصفة، فقالوا:

الغضب ها هنا بمعنى: الانتقام، لا نثبت الغضب لله إنما نقول الغضب بمعنى الانتقام، والعجيب في شأنهم أنهم فروا من شيء فوقعوا في مثله وما صنعوا شيئًا، يعني هم فروا من إثبات الغضب لله خوفًا من التشبيه، فوقعوا في التشبيه أيضًا، فإنه إذا كان المخلوق يغضب فالمخلوق أيضًا ينتقم، وإذا كانوا يزعمون أنهم لا يعرفون من يغضب إلا المخلوق، فإننا نقول تنزلاً معهم: ونحن لا نعرف من ينتقم إلا المخلوق، فماذا صنعتم سوى أنكم انتهكتم حرمة الدليل؟

ثم إنَّ الدليل صريح في الفرق بين الغضب والانتقام، فالله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿ **فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ** ﴾**[الزخرف:٥٥]**، والأسف ها هنا في هذه الآية بمعنى: الغضب، فدل هذا على أن الأسف شيء يعني: الغضب، والانتقام شيء آخر.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولابن جرير بسنده عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾[النجم:١٩]،قال: كان يلت لهم السويق، فمات، فعكفوا على قبره.

هذا الأثر أخرجه ابن جرير الطبري في ((تفسيره)) من طريق سفيان الثوري، عن منصور بن المعتمر، عن مجاهد بن جبر الإمام المفسر الجليل الذي هو أعلم الناس بتفسير كتاب الله جَلَّوَعَلَا فسَّر في هذا الأثر قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ﴾[النجم:١٩]، فسر اللات: بأنه رجل كان يلت السويق، وكما سيأتي معنا في أثر ابن عباس للحاج.

هذا رجل صالح، وجاء عند أبي حاتم أنه كانت له بعض الكرامات يعني كانت تظهر على أيديه أمور تدل على أنه رجل صالح، فمن ذلك أنه -أعني من صلاحه وأعماله الخيرة- أنه كان يُطْعِم الناس، كان يتصدق، وكان يكرم، كان يلت السويق، والسويق طعام مصنوع من القمح أو الشعير المطحون، ولته يعني: خلطه، اللت يعني: الخلط، يخلطونه بالسمن أو بالزيت أو الماء حتى يساغ في الأكل.

كان يلت السويق، ولكنه لما مات غلوا فيه وفي قبره حتى عبد من دون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

فأراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ينبه على أن الغلو في الصالحين وفي قبورهم يصيرها أوثانًا من دون الله، هذا هو الأصل من الوثن الذي هو اللات الذي كان في الطائف، وكان من أعظم الأصنام والأوثان عند العرب، الأصل فيه أنه رجل صالح مات فغلوا في قبره ثم غلو في الصخرة التي عند قبره حتى أصبح وثنًا عظيمًا -مع الأسف الشديد-، إذًا الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا من دون الله.

ومجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ جاء عنه في تفسير ﴿اللَّاتَ﴾ قولان، وهذان القولان عليهما أهل العلم في تفسير هذه الكلمة.

[القول]الأول: أن اللات هو اسم فاعل، والأصل فيه اللآتّ ثم خفف، وعلى التشديد مع المد المشبع، جاءت قراءة عشرية هي قراءة رويس عن يعقوب الحضرمي: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّآتَ وَالْعُزَّى﴾[النجم:١٩]، لات: يعني اسم فاعل من لت يلت.

والجمهور قرأ بالتخفيف، وعلى كلا القراءتين فالمراد أن اللاَّتُ أو اللآتَ هذا الأصل فيه الشدة، ثم خفف، هو ذاك الرجل الصالح الذي كان يلت السويق للحاج.

و[القول] الثاني: وهو أيضًا قد جاء عن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا الاسم مشتق من اسم الجلالة الله أو الإله على خلاف بين أهل العلم فيكون هذا من إلحادهم في أسماء الله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾[الأعراف:١٨٠]، ومن الإلحاد أن يُشتق للأصنام من أسماء الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أسماء.

وبعض أهل العلم جمع بين الأمرين فاللّاتُ الأصل، ثم اشتقوا من هذا الاسم للمناسبة وللقرب اشتقوا له من اسم الله جَلَّوَعَلَا فحصل منهم الأمران، والله جَلَّوَعَلَاأعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكذا قال أبو الجوزاء، عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: كان يلت السويق للحاج.

هذا الأثر بالمعنى السابق،

أبي الجوزاء وهو أوس الرابعي، تابعي ثقة يروي عن ابن عباس معنى ما جاء في أثر مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا أنه قال: «لعن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج». رواه أهل السنن.

هذا الحديث أخرجه أهل السنن أخرجه الخمسة: أحمد وأصحاب السنن الأربعة وغيرهم.

والحديث فيه النهي عن ثلاثة أمور:

[الأول]: نهي النساء عن زيارة القبور.

الثاني: النهي عن اتخاذ القبور مساجد.

الثالث: النهي عن إسراج القبور.

والأمر الثاني مضى الحديث فيه، وعلمنا ما معنى اتخاذ القبور مساجد وما يدخل فيه، وأيضًا علمنا بعض الشُبَّه التي يتشبث بها أهل البدع، وعلمنا الجواب عنها أيضًا، ولعلنا ذكر أو لو لم نذكر أن ممن تشبثوا به أن هذا المسجد النبوي المبارك كان في أصله يعني: في أرضه قبور ثم بني المسجد عليها، وبالتالي يجوز اتخاذ القبور مساجد؛ هكذا قالوا.

ولا شك أن هذا كلام باطل أعني استدلالهم استدلال باطل، وذلك أن الذي ثبت في الصحيحين أن الرقعة التي أُنشأ عليها مسجد النبي ﷺ كانت عبارة عن ثلاثة أشياء:

[الجزء الأول]: كان حائطًا يعني بستانًا لبني النجار، والنبي ﷺ ثامنهم، طلب منهم أن يحددوا سعرًا حتى يشتري منهم هذا البستان لكنهم أبوا أن يأخذوا عليه أجرًا إلا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الجزء الثاني: كان عبارة عن خِرَبْ، أمر النبي ﷺ فسويت بالأرض، وأما البستان فقطعت نخله، ثم صفت في قبلة المسجد.

و[الجزء] الثالث: كان عبارةً عن قبور المشركين، كان مقبرة، كان قُبِرَ فيها مشركون فأمر النبي ﷺ بالقبور فنبشت؛ يعني: استثيرت وأخرج ما فيها من رفات، ثم سويت بالأرض.

فهم صَدَقُوا أنَّ الأصل في هذا المكان أنه كان فيه قبور، ولكن النبي ﷺ ما بنى المسجد حتى نبشت القبور، والقبر إذا نبش زال حكمه، والحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا، فهذا هو الوجه الأول في الرد عليهم أن يقال:

أن النبي ﷺ ما بنى المسجد حتى نبش القبور.

وبالتالي يكون الوجه الثاني في الرد عليهم هو أن يقال:

أن هذا الحديث دليل عليكم لا لكم أفرأيتم نبش النبي ﷺ للقبور؟ ما الفائدة منه وما معناه؟ لو كان يجوز أن يتخذ المسجد على القبور إذًا يكون هذا فعلاً لغوًا لا

فائدة منه، ولا شك أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصان فعله عن ذلك، فدل هذا على أنه إنما أزال آثار هذه القبور؛ لأجل أنها علةٌ مانعة من بناء المسجد هناك.

وتشبث بعضهم أيضًا بشبهة أخرى وهي أنهم قالوا: إنه دلت السنة على جواز صلاة الجنازة على القبر، وبالتالي فتجوز الصلاة الأخرى، التي هي ذات الركوع والسجود بجامع أن الكل صلاة.

ولا شك أن هذا من الفجور في الاستدلال أين هذه الصلاة من تلك؟

إنما منع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الصلاة المعهودة ذات الركوع والسجود؛ لأنها هي التي تكون ذريعة ويُتوصل بها إلى عبادة صاحب القبر يكون ركوع، ويكون خضوع، ويكون سجود، وبالتالي تكون ذريعة لوقوع الشرك، أما صلاة الجنازة فليس فيها شيء من ذلك.

ثم إن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تكاثرت عنه وتواترت عنه الأحاديث في النهي عن اتخاذ القبور مساجد وعن الصلاة إليها فما بال هؤلاء يضربون النصوص بعضها ببعض وليس أنهم يألفون ويوفقون بينها، وهل هذا إلا فعل أصحاب الأهواء، فدل هذا على أن الصلاة ذات الركوع والسجود محرمة في المقابر وعلى القبور من باب أولى يعني: عند القبور وفي المقابر أو عليها من باب أولى، وأما صلاة الجنازة فإن العلة منتفية فيها فجازت للحاجة، والله تعالى أعلم.

أما **الأمر الأول** الذي جاء في هذا الحديث وهو: لعنة الزائرات للقبور فإن الحديث صريح في النهي عن زيارة النساء للقبور: **«لعن الله زوارات القبور»**، أو: **«لعن الله زائرات القبور»**، وهذا المعنى جاء فيه الحديث عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من رواية ثلاثة من الصحابة:

١/ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا كما في هذا الحديث.

٢/أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

٣/ حسان بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

جاء الحديث من روايتهم الثلاثة بهذين اللفظين:

١/ **«لعن الله زَوارات –أو زُوارات– القبور»**.

٢/ «لعن الله زائرات القبور».

وهذا يدلك على أن هذا الفعل ليس محرمًا، بل كبيرة من الكبائر، من الكبائر زيارة النساء للقبور؛ وذلك -لأننا قد علمنا -أن حد الكبيرة ما تُوعد عليه بوعيد خاص من لعنة أو عذاب، أو غضب من الله، أو ما شاكل ذلك، وهذا الحديث جاء فيه اللعنة للزُوارات أو زَوارات أو زائرات القبور فدل هذا على أنه منكر ولا يجوز، لكن اعترض على هذا الاستدلال بأمرين:

[الأمر الأول]: أن الحديث فيه: **«لعن الله زَوارات القبور»**، وبالتالي هذا يدل على إن النهي إنما تعلق بالإكثار من زيارة القبور، أما التي تزور القبور أحيانًا فإنه لم يأتي في حقها نهي وبالتالي فيجوز، والواجب عن هذا الإيراد من وجوه:

[الوجه الأول]: أن الحديث جاء بلفظ **«زوارات»**، وجاء بلفظ **«زائرات»**، وإعمال الدليل أولى من إهماله، أعني أن الجمع بين الروايتين أولى من ترجيح إحداهما على الأخرى، فإننا لو قلنا: إن الممنوع هو الزيارة مطلقًا فإننا نكون قد جمعنا بين اللفظين فتنهى المرأة عن زيارة القبور، وإن أكثرت كان التحريم في حقها أشد.

وهذا أولى من أن نقول: إن النهي إنما تعلق بالإكثار؛ لأننا في هذه الحالة سنلغي لفظة: **«زائرات القبور»**

[الوجه الثاني]: قال بعض أهل العلم، وهذا توجيه حسن من شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن المبالغة ها هنا والتكثير تعلقت بالنساء لا بالزيارة، يعني تعلقت بالزائرات وليس بالزيارات، ويكون ما جاء في هذا الحديث على نَسَقِ ووزن ما جاء في قوله تعالى: ﴿ **جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ** ﴾**[ص:٥٠]**، وذلك أنَّ جنات عدن تفتح أبوابها مرة واحدة، لكن التكثير عائد إلى الأبواب فقال: ﴿**مُفَتَّحَةً**﴾ وليس مفتوحة.

الوجه الثالث: أن بعض أهل العلم ضبط هذا اللفظ ومن أولئك السيوطي، ضبطوا هذا اللفظ بـ (زُوَّارات)، وليس (زَوَّارات)، و(زُوُّرات): جمع زوَّارة بمعنى: زائرة، وليس ذلك من صيغ المبالغة، إنما زوَّارة بمعنى: زائرة، وبالتالي فيتحدَّ معنى (زُوُّرات) مع (زَائرات).

[الوجه الرابع]: يدلك على أنه لا يمكن حمل الحديث على معنى التكثير في الزيارة هو أن يقال: الحديث دل على أنَّ زيارة النساء سواءً قلنا: على قلة أو كثرة منكرٌ عظيم، بل يقتضي اللعنة يعني مسألة ليست هينة، كبيرة من الكبائر، ولا تُعَلِّقُ الشريعة أمرًا منكرًا بهذه

المثابة على شيء غير منضبط؛ بمعنى ما هو الحد الفارق بين القلة والكثرة؟ حتى نقول للمرأة يجوز لكي أن تزوري كذا وكذا من المرات؛ لأن هذا من القلة، ولا يجوز أن تزور كذا وكذا من المرات؛ لأنَّ هذا من الكثرة، ما هو الحد؟ حتى نعرف الحلال من الحرام، بل من الكبيرة؟

الجواب: أننا لا يمكن أن نضبط هذا الأمر، والناس في هذا تتفاوت آراؤهم، من الناس من يرى قد أن عشرة زيارات أو نحوها في السنة كثير، ومن الناس من يرى أن مائة أو ألف زيارة هي الكثير، وتسعمائة قليل.

إذًا ما الذي يمكن أن نضبط به هذا الأمر المنكر؟ هذا من الأمر الذي يتعذر أن يضبط بحسب آراء الناس، وبالتالي فلا يمكن أن نقول: الشريعة قد علقت هذا الأمر العظيم على مثل هذا الشيء الذي لا ينضبط.

الأمر الثاني الذي اعُترض به على منع النساء من زيارة القبور أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قال: «**كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها، فإنها تذكركم الآخر**»،

قالوا: هذا الحديث فيه وجهان يدلان على جواز زيارة النساء للقبور:

*__أما الأول__: فهو في قوله: «**فزوروها**» فهذا الحديث ناسخٌ لنهي النساء عن زيارة القبور، والجواب عن هذا بأن يقال:

[الوجه الأول]: ثبوت النسخ فرع عن معرفة التاريخ، أليس كذلك؟

يشترط العلماء للحكم بالنسخ معرفة التاريخ فلابد أن يثبت عندنا بالدليل الصحيح أن قوله ﷺ: «**فزوروها**» متأخر، وقوله: «**لعن الله زوارات القبور**» ماذا؟ متقدم وهذا أمر متعسر ما عندنا دليل يعلمنا بالمتقدم والمتأخر، وما الذي يدرينا ربما يكون قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لعن الله زوارات القبور**» هو المتأخر.

[الوجه الثاني]: أنَّ النظر الأصولي في هذين الحديثين يقتضي القول بأن النهي الخاص للنساء مقدمٌ على الأذن العام للرجال الذي دخل فيه النساء تغليبًا، النهي الخاص للنساء أقوى في الدلالة من دخولها في الدليل العام في قوله «**فزوروها**» خطاب موجه إلى الأصل للرجال ودخل النساء في ذلك تغليبًا، ولا شك أن دِلالة النص المتعلق بهن مُقدمةٌ على دلالة النص الذي دخلت فيه النساء تغليبًا.

وبالتالي فإن ذلك يقتضي تقديم حديث: «لعن الله زوارات القبور» على قوله: «فزوروها».

[الوجه الثالث]: أن هذا الحديث استدل به أهل العلم على استحباب زيارة الرجال للقبور، أليس كذلك؟

ولو قلنا إن النساء حكمهن حكم الرجال؛ لاقتضى هذا أن تكون الزيارة في حق النساء مستحبة ولا قائل بهذا من الأئمة المعتبرين، لا أحد من العلماء يقول: إن الزيارة في حق النساء مستحبة، إنما غاية الأمر أن تكون عند هؤلاء إما مباحة وإما مكروه، أو على القول الصحيح محرمة، أما أن تكون مستحبة فهذا لا قائل به، وهذا يدلك على أن هنَّ لا يدخلن في قوله: «فزوروها».

الوجه الرابع: أن السنة العملية من عهد أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فما بعد هي أن زيارة القبور من شأن الرجال لا النساء، فما كُنَّ يعهدن، أو ما كان يعهد أن النساء يزرن المقابر، وهذا يدلك على أن فقه السلف هو أن زيارة القبور من شأن الرجال لا من شأن النساء، بل أخرج ابن أبي شيبة عن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: (وجدنا أضل الناس زائرات القبور)،فهذا يدلك على أن السلف كانوا يرون أن زيارة النساء للقبور أمر منكر.

[الوجه الخامس]: أن النظر في المقاصد الشرعية يدل على أن الناس لا يدخلن في هذا الحديث في قوله: «فزوروها»، وذلك أنَّ الشريعة جاءت بأمر النساء بالقرار في البيوت فكيف مع وجود الفتنة بهن ومنهن.

أما الفتنة بهنَّ: فإن خروج النساء لا شك أن فيه فتنة للرجال، قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان»، فلو أنه أبيح للنساء أن يدخلن إلى المقابر التي هي محل الموعظة والتذكر والتفكر فيما يصير الإنسان، وإذا بالرجل يرى هذه المرأة تروح، وهذه المرأة تغدو، وهذه تمر بين يديه، وهذه ربما وقفت أمامه، وهذه ربما احتكت به إذا كانت المقبرة ضيقة، فبالله أي تَذكرٌ حينئذ وأي تفكر؟

أما الفتنة منهنَّ: فمعلوم ما عليه النساء من الضعف وقلة الصبر في الغالب، فإذا دخلت المقبرة فشاهدت ها هنا قبر أبيها، وها هنا قبر ابنها، وهناك قبر أخيها، وفي المكان الرابع قبر أمها ما المضمون أن تفعل؟ إذا كان الرجل القوي ربما يتماسك وربما يكون منه

شيء من البكاء، فكيف الحال بالنسبة للنساء؟ فحدَّث ولا حرج مما يكون منهن من صياحٍ وعويل، فدل هذا على أن هذه الحال بالنسبة للنساء أمر لا ينبغي أن يدخل في هذا الحديث.

وأعجبتني كلمة لابن الحاج المالكي في كتابه ((المدخل)) ذكر فيها في المجلد الأول من كتابه المدخل، ذكر أن الخلاف إنما يكون أو يتصور فيما مضى حينما كانت النساء على ما كنت عليه من الحشمة والحجاب والعفاف، أمَّا في هذا الزمان، ولاحظ أنه يتكلم عن عهده متوفى سنة ٧٣٧ ليس في هذا الزمن، يقول: (وأما في هذا الزمان فمعاذ الله أن يقول من عنده علم بل من عنده مروءة وغيرة على الدين إن هذا جائز)، وما الذي نقوله نحن في هذا الزمان؟!

***الثاني**: من استدلالهم بالحديث هو قولهم إن قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«فإنها تذكركم الآخرة»**، حكمة تصلح للرجال والنساء يعني كما أن النساء بحاجة إلى تذكر الآخرة فالنساء أيضًا بحاجة على تذكر الآخرة.

قلنا: سلمنا بأن هذه حكمة تصلح للاثنين، ولكن عرض هذه المصلحة مفسدة متحققة أو مظنونة، والقاعدة أنه إذا تعارضت مصلحة مع مفسدة فإنه تدرء المفسدة بترك المصلحة، فدرء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

الأمر الثالث والأخير في الحديث: هو: النهي عن إسراج القبور يعني وضع القناديل عليها، يعني وضح السرج، (السرج: يعني القناديل) يكون النهي إذًا عن إضاءتها وعن إنارتها، وهذا لا شك أمر منكر؛ لأنه يترتب عليه:

أولاً: وقوع ذريعة إلى تعظيم صاحب القبر.

[ثانيًا]: وهو أنه تحصل التوهمات وتحصل التهيئات، وربما تُنسج الأساطير مع وجود هذه الإضاءة، وربما يظهر شيء من الظل فَتَعْظُم الفتنة بالقبور حينئذ.

أخيرًا الحكم على هذا الحديث:

الحديث فيه كلام من جهة ثبوته ومدار الخلاف على رجل في الإسناد هو: أبو صالح، واخْتُلف فيه هل هو أبو صالح مولى أم هانئ وكان اسمه بذام أو بذان، أو هو وهذا أكثر أهل

العلم على تضعيفه أو هو أبو صالح ذكوان السمان الذي هو ثقة مشهور من رجال الصحيح.

اختلف أهل العلم في ذلك، منهم من رجح الأول وهم الأكثر، وعليه فالحديث عندهم ضعيف.

ومنهم من رجح الثاني فالحديث عندهم ثابت.

وعلى كل حال الحديث حسنه وأثبته جماعة من أهل العلم ومنهم الترمذي، ومنهم البغوي، ومنهم ابن حبان صححه، وقال الحاكم: (حديث تداولته الأئمة)، وكذلك أثبته شيخ الإسلام ابن تيمية، وكذلك ابن القيم، ومن المعاصرين الشيخ أحمد شاكر، وغيرهم من أهل العلم.

وعلى كل حال الحديث فيه -كما ذكرت لك- ثلاثة أمور، أليس كذلك؟

أمران منهما لهما شواهد فالمعنى صحيح لا شك فيه، وذلك:

[الأمر الأول]: النهي عن اتخاذ القبور مساجد.

[الأمر الثاني]: نهي النساء عن زيارة القبور.

يبقى فقط الأمر الثالث وهو النهي عن إسراج القبور، وهذا يستدل بضعف الحديث، يستدل عليه:

أولاً: بأنه ذريعة بوقوع الشرك فيُنْهى عنه لأجل ذلك.

ثانيًا: يُنْهى عنه لأجل أنه أمر محدث وبدعة إذ وجد المقتضي لفعل ذلك بعهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزال المانع ولم يفعل، فيكون فعله إحداث وابتداع.

[ثالثًا]: وهو فيه إضاعة للمال، والله جَلَّ وَعَلَا كَرِهَ لنا إضاعة المال.

والله عَزَّ وَجَلَّ أعلم.

٣٢

٣٢- باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد، وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

(المجلس الأول)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب ما جاء في حماية المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جناب التوحيد، وسدِّه كل طريق يوصل إلى الشرك

فهذا الباب الذي عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تتويجٌ وخلاصةٌ للأبواب القريبة الماضية؛ التي تعلقت بالقبور، فإنَّ الذي يجمعُ كلَّ الأدلة التي مرت وغيرها مِمَّا يتعلق بأحكام الشرع في شأن القبور، والاحتياط فيها؛ مرجعُ ذلك كلُّه إلى هذا الذي بَوَّبَ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب عليه، وهذه قاعدةٌ من قواعدِ الشريعة العظيمة: ألا وهي قاعدةُ سدَّ الذرائع، فالمعنى الذي يجمع ما مضى وغيره مما يُرجع إليه هو: سدُّ الذرائع إلى الشرك.

وقد أحسن المؤلف ما شاء الله أن يحسن في رصف حروف هذا الباب، مع انتقاء الأدلة على ما بوَّب عليه، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذو عنايةٍ فائقة بهذا الموضوع، ولذلك بوَّب بابين متشابهين، هذا الباب الذي بين أيدينا أحدها، والآخر هو الباب قبل الأخير في هذا الكتاب؛ حيثُ عَنْوَنَ له المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (**باب ما جاء في حماية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمى التوحيد وسده طرق الشرك**)، فالمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُبْدِئ ويعيد ويؤكد ويكرر هذا الأصل الأصيل في الشريعة؛ لاسيما إذا تعلق بجناب التوحيد.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**باب ما جاء في حماية المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جناب التوحيد**).

المصطفى هو: المصَفى من الشيء، وهو: خلاصتُه وصفوته.

والأصلُ في وصف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمصطفى هو ما أخرج الإمام مسلم في ((صحيحه)) من حديثِ واثلة بن الأصقع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريشٍ بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»، فهو المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي هذا يقول أبو طالب في أبياته الشهيرة كما في ((سيرة ابن هشام)) وغيرها:

إذا اجتمعت يومًا قريشٌ لمفخرٍ   فعبدُ منافٍ سرُّها وصميمُها

وإن حصلت أشرافُ عبدِ منافِها   ففي هاشم أشرافُها وقديمُها

وإن فخرتْ يومًا فإنَّ محمدًا هو المصطفى من سرِّها وكريمها

فالنبي الكريم محمد بن عبد الله هو المصطفى من العرب، وجنس العرب أفضل من غير هذا الجنس من أجناس البشر.

إذًا هو صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المصطفى، وهو السيد الكريم سيد ولد آدم صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

هذا النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان حريصا على حماية جناب التوحيد، وجناب الشيء جانبه؛ قالوا لفناء الدار جنابها؛ لأنَّ هذا الجناب يحيط بالدار، ويكون حولها.

إذًا النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حَمَى حِمَى التوحيد من جميع جوانبه، وسدَّ كل الذرائع التي تُكَدِّرُ صفوه سواء كانت قولية أو عملية، كل ما يخدِّش هذا التوحيد أو ينقصه أو ينقضه فقد بينه النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ البيان التام.

وهذه القاعدة الأصيلة في الذريعة وهي: قاعدة سدِّ الذرائع؛ المراد بها: منع كل ما يؤدي إلى المحظور وإن لم يكن في أصله محظورًا، وهذا قد قامت عليه أدلة كثيرة في الكتاب والسنة، وشواهده فيهما من الكثرة بحيث يتعذر جمع ذلك، وقد أورد بان القيم رَحِمَهُٱللَّهُ في كتابه ((إعلام الموقعين))؛ أورد من شواهد هذه القاعدة في الكتاب والسنة تسعة وتسعين شاهدًا، والأدلة أكثر من هذا، ولكنَّه أراد أن يقف عند هذا العدد.

ومن دلائل هذه القاعدة قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام:١٠٨]؛ فقد نهى الله جَلَّوَعَلَا عن سبِّ آلهة المشركين، وإن كان هذا في أصله ليس محظورًا لكن قد يكون طريقًا لوقوع المحظور وهو أن يتجرأ هؤلاء على سبِّ الله جَلَّوَعَلَا؛ فمنع الله جَلَّوَعَلَا من هذا السبِّ لآلهتهم.

وقل مثل هذا في قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾[البقرة:١٠٤].

فالشاهد في هذا أن أدلة إثبات قاعدة سد الذرائع إلى الشرع وما إليه كثيرة.

ومن فِقْهِ هذه القاعدة أن تعلم أنه كلما كان الشيء أعظم تحريمًا كانت عناية الشريعة بسدِّ الذريعة إلى الوقوع فيه أعظم وأكثر.

ولذلك تأمل معي مثلًا في جريمة الزنا كيف أنها لما كانت من عظائم الجرائم في الشريعة تكاثرت الأدلة على سد الأبواب والنوافذ التي توصل إلى هذه الجريمة؛ فتجد الشريعة منعت من سفور المرأة، منعت من سفرها بلا محرم، منعت من الخلوة بالنساء أو الاختلاط بهن، أو الدخول عليهنَّ في أوامرَ ونواهي شتى كلها تدور على هذا المعنى؛ كلها تؤدي إلى سد الذريعة إلى الوقوع في هذه الجريمة.

انظر مثلًا إلى وقوع التشاحن والتباغض بين المسلمين؛ كيف لـمَّا كان أمرًا عظيم الضرر وممنوعًا في الشريعة أشد المنع؛ سدت الشريعة الذريعة إليه في أبواب شتى تتعلقُ بالبيوع أو تتعلق بمسائل النكاح، أو ما يتعلق بمسائل اللهو، أو غير ذلك، كثيرٌ من أبواب الشريعة الممنوعة في شأن المعاملات والبيوع؛ إنما منعت لسد الذريعة إلى هذا الأمر، ومن ذلك بيع الرجل على بيع أخيه، وسومه على سوم أخيه، وكثير من مسائل الربا، ونهيُ المسلم على أن يخطب على خطبة أخيه، وكذلك نهي الشريعة عن بعض اللهو الذي يؤدي إلى حصول البغضاء والشحناء ؛ كالنرد، والشطرنج وما إلى ذلك.

إذًا كلما كانت المعصية في الشريعة أعظم؛ كلما وَجَدَتَ أنَّ مسائل سد الذريعة أكبر.

وإذا طبقنا هذا على ما يتعلق بالشرك الذي هو أكبر جريمة على وجه الأرض؛ وجدت أنَّ القاعدة ظاهرة جلية تمام الظهور والجلاء، تلاحظُ أنَّ الشريعة في سدِّ الذرائع إلى الشرك كبيره وصغيره قد جاءت عليها أدلةٌ كثيرة؛ أعني جاءت الأدلة بسد الذرائع إلى الشرك في نواحٍ كثيرة.

خذ مثلًا فيما يتعلق بالقبور؛ مرت معنا مسائل شتى فيها، تجد أن الشريعة نهت عن اتخاذ القبور مساجد، نهت عن البناء على القبور، نهت عن أن تكون القبور مُشْرِفة؛ يعني: مرتفعة، نهت عن تجصيص القبور، نهت عن إنارة القبور، نهت عن إرخاء الستور على القبور، نهت عن الكتابة عليها، نهت في أوامر كثيرة في الشريعة كلها لأجل سد الذريعة في الوقوع في الشرك.

تأمل في جناب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ تجد نهي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ عن إطراءه كما مر معنا: **«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم»**، تجد أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: نهى عن أن يُتخذ قبره عيدا، تجد أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ينكر على من قال: ما شاء الله وشئت،

تجد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما مضى من الكلام في حديث: «**إنه لا يستغاث بي؛ إنما يستغاث بالله**»، تجد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَرِهَ من أصحابه أن يقولوا في حقه: (يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا)، أو أنهم يصفونه بأنه: (أفضلنا فضلًا، وأعظمنا طَوْلًا)، ويقول: «**قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان**».

تجد الشريعة تنهى عن أشياء كثيرة؛ كالتصوير فيخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أشد الناس عذابًا المصورين، تجد أنَّ الشريعة جاءت بالنهي عن التشبه بالكفار: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»، ولاحظ ما يندرج تحت هذا الباب.

تجد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها؛ لأجل سد الذريعة إلى مُشابهةِ المشركين التي هي ذريعة إلى الوقوع في الشرك بالله.

حدثني بالله أتجد أن هذا الأمر يكاد يخطر على بال المصلي عند طلوع الشمس أو عند غروبها أنه يَفْعَلُ الفعل الذي يفعله عُبَّاد الشمس أو عُبَّاد الشيطان يفعلون هذا الأمر، لكن مع ذلك جاءت الشريعة بالتشديد على هذا الأمر خشية الوقوع فيه ولو بعد أمد، لأن الشيطان ليس له خطوة واحد وإنما عدة خطوات، ولذلك التساهل في ذريعة الشرك يؤدي إلى الوقوع فيه ولو بعد حين.

مر معنا في تفسير قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[نوح:٢٣]؛ كيف وقع الشرك بهؤلاء الصالحين؟ أكان واقعًا في نفس الوقت أو بُعَيْده لما ماتوا؟

أو كان هذا بعد أمد طويل بعد أن انتهى جيل من الناس؟

إذًا لا ينبغي التساهل في هذا المقام.

وأنت إذا تأملت طريقة السلف الصالح وما مضى عليه الأئمة الأعلام وفقهاء الإسلام؛ وجدت عنايتهم الشديدة بهذه القاعدة الأصيلة استفادوها وأحسنوا تعلمها من لدن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما عند ابن سعد بإسناد صحيح كما قال الحافظ في ((الفتح))؛ بلغه أن الناس تنتاب الشجرة التي بايع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابةَ تحتها، فتوعدهم على ذلك ثم إنه بعث إليها فقطعها، شجرة بويع تحتها النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجاء ذكرها في القرآن: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[الفتح:١٨]؛ ومع ذلك عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقوم بقطعها خشية الفتنة بها.

لما فتح المسلمون تُسْتر؛ أرسلوا إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما عند ابن أبي شيبة في ((المصنف))، أرسلَ أبو موسى إلى عُمر أنهم وجدوا ميتًا في تابوت لم تأكله الأرض ولم تأكله الهوام، فأرسل إليه عمر أنه نبيٌّ من الأنبياء، ويقال إنه دانيال، وأمره أن يذهب هو وواحد معه فقط فيحفرون له قبرًا لا يعلمه أحد خشيةَ الفتنة به، والقصة جاءت في مغازي ابن إسحاق أنهم لما فتحوا تُسْتَر وجدوا هذه الجثة، فحفروا ثلاثة عشر قبرًا، ثم دفنوه في واحدٍ منها في الليل، ثم طمروا تلك القبور جميعًا حتى لا يهتدى إلى عين القبر، مع أنَّ هذا الكلام كان في عهد قوة التوحيد، في عهد أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتابعيه، ومع ذلك كانوا أهل حزم وجد في سد أي ذريعة توصل إلى الشرك.

إذًا على دعاة التوحيد وطلبة العلم السائرين على نهج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسبيل السلف الصالح أن يفقهوا هذه القاعدة وأن يعملوا بها، فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان حريصا عليها أشد الحرص في كل لحظات حياته وإلى آخر لحظات حياته، إلى اللحظات الأخيرة وهو يسدُّ كل ذريعةٍ توصل إلى الشرك، لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد؛ يُحذر ما صنعوا.

ولا يَهُوِّلَنَّكَ يا طالب العلم ما يشغب به أعداء الحق وأهل الشر والفتن؛ حينما يشغبون على هذه القاعدة الأصيلة التي توارد جميع أطياف الضلال والانحراف من المتعلقين بالقبور، أو الذين ينهجون نهج العلمانية، أو العقلانية والتنوير، أو غير ذلك، تراهم يتواردون على الطعن أو القدح في هذه القاعدة، وعلى ذمِّ أهل السنة لعنايتهم بهذه القاعدة ويقولون: إنّكم أسأتم الظنَّ بالمسلمين، وشددتم على المسلمين، وضيقتم الخناق على المسلمين، ومنعتوهم من مساحةٍ من الحلال؛ لأجل سد الذريعة إلى الوقوع في الحرام.

لا يهولنك يا طالب العلم ذلك فدونك سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيرته، اقرأ تأمل وانظر كيف كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريصا كل الحرص على سد أي ذريعة توصل إلى الشرك، والقوم ليس حرصهم على هدم هذه القاعدة وإضعاف العناية بها إلا لأجل أنها هدمت انفتح الباب عندهم إلى إيصال الشر البدع والفساد والشرك إلى المسلمين، لأن هذه

القاعدة تحمي حِمى التوحيد، وتحول دون أن يقرب جناب التوحيد، فإذا انهدم هذا السور وهذا الجناب فما أسهل الوصول إلى التوحيد وتفكيك عراه، فإن الراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

فالحرص الحرص يا طلبة العلم ويا ومعشر الدعاة على العناية بهذا الأمر العظيم، فإنَّ التوحيد والعقيدة الصحيحة أثمن ما يملكه الإنسان، فإذا فقده فقد خَسِرَ خسرانًا مبينًا، وأنت إذا كنت تملك جوهرة ثمينة قيمتها الألوف المؤلفة فأنت لا ترميها على قارعة الطريق، أو تجعلها مبتذلة في كل مكان، بل تحافظ عليها وتجعلها في مكانٍ وثيق وأمين، خشية أن تذهب عنك.

التوحيد والإيمان أعظم من كل جواره الدنيا، فالله الله بالحرص والجد والعناية بالحفاظ على هذا التوحيد، والحيلولة دون كل ما يخدش فيه، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾[التوبة:١٢٨] الآية.

هذه الآية العظيمة التي جاءت في خاتمة سورة التوبة؛ يمتن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيها على الناس ببعثة هذا النبي الكريم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولاشك أن بعثة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من أعظم نعم الله على الناس جميعا منذ بعثته صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[آل عمران:١٦٤]؛ نعمة، وأي نعمة! ورحمة وأي رحمة! ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء:١٠٧]،

النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعثه الله لغايةٍ عظيمة وحكمة بالغةٍ، أن يكون سببًا في إخراج الناس من الظلمات إلى النور: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[إبراهيم:١].

فالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعثته أعظم نعمة وأكبر رحمةٍ امتن الله عَزَّوَجَلَّ بها على الناس، يقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾[التوبة:١٢٨]؛ تعرفونه، تعرفون

نسبه، وتعرفون حاله، وتعرفون خُلقه، تعلمون يقينًا صدقه، وأنه لم يكن ليكذب على الله عَزَّوَجَلَّ، ولاشك أن أحوال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من دلائل نبوته، والعقلاء يستدلون على صدق المتكلم بحاله، فإذا كانت حاله وسمته وخلقه تشهد بصدقه حكموا بذلك، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن شخصًا غريبًا على الذين بُعِث فيهم، بل كانوا يعرفونه وكانوا يدركون مدى صدقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى إنهم كانوا يلقبونه بالأمين.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾[التوبة:١٢٨]؛ يشق عليه كثيرًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشيء الذي يتعب المسلمين ويشق عليهم؛ لأنه: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨].

رؤوف: كثير الرأفة.

رحيم: كثير الرحمة صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا يعلمه ويتيقنه كلُّ من اطلع على طرفٍ من سنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأي شفقة تلك الشفقةُ، وأي رحمةٍ تلك الرحمةَ التي كانت من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تجاه أمته، لقد كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حريصًا أشد الحرص على هذه الأمة، بذل كل ما يستطيع في سبيل دعوتها، وفي سبيل هدايتها، حتى إنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما ترك شيئًا يُقرِب إلى الله إلا بينه، ولا شيئًا يُباعد عن الله إلا حذر منه، برأفة ورحمة ولطف منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ما ألطف قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في قول أبي هريرة عند ((أبي داوود)) و((النسائي)) وغيرهما: «**إنما أنا لكم مثل الوالد أعلمكم**»، أترى ألطف وأرحم وأحرص وأشفق من الوالد في التعليم؟!

هذا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخبرنا أنه لنا مثل الوالد يعلمنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك ما ترك لنا شيئا نحتاجه في أمور ديننا إلا بينه لنا، في ((صحيح مسلم)) قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما بعث الله من نبي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وأن يحذرهم من شر ما يعلمه لهم**»؛ فإذا كان هذا شأن كل نبي فكيف بسيد الأنبياء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك يقول أبو ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**ما تركنا رسول الله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **إلا وكل طائر يقلب جناحيه في السماء قد آتانا منه علما**»، كل طائر في السماء ما ترك النبي

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيان حكمه بالنسبة لهذه الأمة، فالصغير والكبير، والدقيق والجليل مما يحتاجه الناس بينه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم بيان، وكان ذلك منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل شيء، حتى كيف يقضي الإنسان حاجته، ولذلك اليهودي يسأل سلمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة)، يعني: حتى كيف يقضي الإنسان حاجته؟، فيجيب سلمان رضي الله عنه: أجل، ثم يذكر وصايا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوصايا المتتالية في هذا الشيء الدقيق جدا؛ حتى كيف يلبس الإنسان حذاءه، كيف يأكل وكيف يشرب، وكيف ينام، وكيف يقوم من نومه، كل ذلك بينه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البيان الدقيق.

فإذا كان هذا البيان من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأمور الدقيقة؛ فكيف بأشرف الأمور، وكيف بأهم الأمور، وكيف بأعظم الأمور، ألا وهو ما يتعلق بتوحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا شك ولا ريب أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بيَّن الأمر، وجلَّى المقام، وأقام الحجة، ما ترك شيئا يقرب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ويزيد من توحيده إلَّا بينه، ما ترك شيئا يخدش في هذا التوحيد أو يقدح في صفوه إلا بينه وحذر منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذًا أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ينبه بإيراد هذه الآية على أن من رحمته وحرصه ورأفته وشفقته بهذه الأمة صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ سدَّ كل ذريعة توصل إلى الشرك، وهذا مقدمة لما سيأتي بعد ذلك من الحديثين الذين أوردهما المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٣٣

٣٣- باب ما جاء في حماية المصطفى جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

(المجلس الثاني)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب

ما جاء في حماية المصطفى صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ جناب التوحيد، وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «لا تجعلوا بيوتكم قبورا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا عليَّ؛ فإن صلاتكم تبلغني» رواه أبو داوود بإسنادٍ حسن، ورواته ثقات.

تتمة عن الكلام عن الباب الذي بدأنا الحديث عنه في الليلة الماضية، أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وهذا الحديث كما ذكر المؤلف حديثٌ حسن، ورواته ثقات، وقال شيخ الإسلام وكذلك ابن القيم: (رواته ثقاتٌ مشاهير)، وذكر ابن عبد الهادي في ((الصارم)): أنَّ الحديث له طرق يرتقي بها إلى درجة الصحة.

هذا الحديث فيه ثلاث مسائل:

[المسألة الأولى]: نهي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن جعل البيوت قبورا، وهذا يُستفاد منه فائدتان:

[الفائدة] الأولى: أنه ينبغي للسلم أن يحرص على أن يعطر بيته بطاعة الله سبحانه بالصلاة، وتلاوة القرآن، وما إلى ذلك من أنواع العبادة، ويشهد لذلك ما ثبت في ((الصحيحين)) من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا»**، بل أخبر النبي كما عند البخاري: **«أن خير صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة»**.

إذن النوافل الأفضل أن يصليها المسلم في بيته، وليُبْشر بما يحصل له في بيته من الخير والبركة بسبب طاعة الله عَزَّوَجَلَّ في هذا البيت.

كذلك تلاوة القرآن أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أخبر كما في ((صحيح مسلم))، قال: **«لا تجعلوا من بيوتكم مقابر فإن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة»**، ومع الأسف الشديد كثيرٌ من بيوت المسلمين تجد فيها من المشكلات والتباغض وأسباب الشحناء التي تقع بين أفراد الأسر بسبب قلة ذكر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وقلة التعبد لله عَزَّوَجَلَّ

في البيوت، مع ما تحتويه هذه البيوت غالبًا من معاصي ومنكرات، فعلى المسلم أن يلاحظ هذا الأمر في نفسه، وفي غيره من أهل بيته، وهو أن يكون له حظٌ ونصيب من العبادة، من صلاة، من تلاوة لكتاب الله، من ذكر لله جَلَّوَعَلَا في بيته، حتى يكون بيته منيرًا، تتنزل عليه البركات والرحمات، ويفر منه الشيطان.

الفائدة الثانية: أنَّ الحديث أفاد أنَّ القبور والمقابر ليست محلًا للصلاة، فإنَّ هذا هو المستقر في أذهان الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، ولأجل هذا أمرهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ألا يجعلوا بيوتهم قبورا، فإنهم يعلمون أن القبور ليست محلًا للصلاة، فلا ينبغي تشبيه البيوت بها، وهذه مسألة مضى الحديث فيها، وقلنا أنه لا يجوز الصلاة في المقابر أو عند القبور، وهذا ما صح عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ النهي عنه كما في هذا الحديث وكما في حديث ابن عمر السابق، وكما في قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«كل الأرض مسجد إلا المقبرة والحمام»**، وعلى هذا مضى السلف الصالح رَحِمَهُمُٱللَّهُ.

وقد أورد ابن حزم في ((المحلى)) آثارًا عن أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في النهي عن الصلاة في المقابر أو عند القبور، وقد أورد الآثار عن عمر، وعلي، وابن عمر، وأنس، وابن عباس، وأبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وأرضاهم كلها فيها النهي عن ذلك، ومن يضاهي هؤلاء الأخيار في علمهم وتقواهم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وأرضاهم؟

فلا يغرنك ولا يهولنَّك ما تجده في كلام بعض الفقهاء المتأخرين من الترخيص في ذلك، أو وصف هذا الفعل بأنه مكروه كراهة تنزيه، فالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حذَّر من هذا الأمر، واحتاط فيه غاية الاحتياط، وهكذا السلف الصالح من أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ و رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ من الصحابة ومن بعدهم كان هذا الأمر مستقر في أذهانهم ما كانوا يصلون في المقابر، ولا كانت محلًا للتعبد.

وعلى كل حال كل كلام لأحد من الناس فإنه معروض على الكتاب والسنة.

وكل إنسان سوى ما استدرك   يؤخذ من كلامه ويترك

ما منا إلا راد ومردود عليه إلا صاحب ذاك القبر صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما قال الإمام مالك رَحِمَهُٱللَّهُ.

أما المسألة الثانية الواردة في هذا الحديث وهي: نهي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أن يُجعل قبره عيدا، العيد فيه معاودة واعتياد، وهو: كل ما يُقصد ويُعتاد مجيئه من زمان أو مكان.

أما الزمان ما يعتاد تكرره من أوقات معينة؛ كالعيدين.

وأما المكان فما يعتاد المجيء عنده في أزمان مخصوصة، أو هيئاتٍ مخصوصة، لأجل التعبد هناك أو غيرِ ذلك.

ويدلُ على ذلك -ما مر بنا سابقًا- من حديث ثابت بن الضحاك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، حينما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شأن من نذر أن ينحر إبلا ببوانه، قال: «**فهل كان فيها عيد من أعيادهم**».

ولأجل هذا من الأعياد المكانية عند المسلمين: منى، وعرفات، ومزدلفة، ومكة؛ هذه أعيادٌ مكانية للمسلمين؛ لأنهم ينتابونها ويعتادون المجيء إليها على هيئة مخصوصة، فيتعبدون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هناك.

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن أن يُجعل قبره عيدًا، وهذا كما قرر علماء التوحيد يشمل صورًا منها:

[الصورة الأولى]: تَكْرَارُ المجيء لزيارة قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن هذا داخلٌ في اتخاذه عيدًا، وقد أورد إسماعيل القاضي الجهضمي المالكي في كتابه ((المبسوط))، وهو كتاب حافل فيه روايات كثيرة عن الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبعضها ليس في الكتب التي نقلت عن مالك، كـ((المدونة))، لكنه كتاب مفقود، ولكن نُقلت عن هذا الكتاب نقولات في كتب المالكية وغيرهم، من ذلك هذا الأثر عن الإمام مالك وهو آثرٌ مهم، فيه أنه سُئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أناس من أهل المدينة لم يرجعوا من سفر ولا يريدون سفرًا، يأتون إلى قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كل يوم مرة أو مرتين، ويسلمون على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سُئل الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هؤلاء فقال: (**ما أدركنا على هذا أهل الفقه عندنا في بلدنا، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، قال: أكره ذلك إلا لمن أراد سفر أو جاء من سفر**).

وهذا أثر مهم عن الإمام مالك بن أنس إمام هذه البلدة الطيبة، مدينة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو من أفقه الناس بما يتعلق من أحكام تتعلق بقبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو مسجده.

[الصورة الثانية]: أن يُعتاد المجيء إلى قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هيئة مخصوصة وكيفية معهودة، كما يفعله بعض الناس، فإن لهم طقوسًا يفعلونها عند قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويجتمعون عليها، ولا شك أنَّ هذا أمرٌ منكر، وداخلٌ في اتخاذ قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عيدا، وفي ((مصنف عبد الرزاق)) أن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رأى أناس اجتمعوا عند قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنهاهم عن ذلك، وحدثهم بحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تجعلوا قبري عيدا**».

الصورة الثالثة: قصد قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأجل الدعاء عنده، وهذا أيضًا داخل في معنى اتخاذ قبره عيدا، وهذا ما فهمه السلف الصالح رَحِمَهُمُ اللَّهُ، كما سيأتي معنا في أثر الحسين بن علي زين العابدين رَحِمَهُ اللَّهُ فإنه رأى رجلًا يأتي إلى فرجة -يعني كوة- في جدار عند قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيدعو عنده، فنهاه رَحِمَهُ اللَّهُ عن ذلك، وحدثه بما حدثه به أبوه الحسين عن جده علي عن جده الأعلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيما ذكر قريب مما بين أيدينا، وفيه النهي عن اتخاذ قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عيدا، هذا مما فهمه السلف في جعل قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عيدا.

[الصورة الرابعة]: وهو يُفهم أيضًا مما سبق، شد الرحل إلى قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بمعنى أن يسافر الإنسان والقصد أن يسافر الإنسان إلى المدينة، والقصد ليس زيارة المسجد، وإنما زيارة قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاث مساجد، المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**».

فهذه صورٌ أربع لمعنى قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تجعلوا قبري عيدًا**».

أما السلام على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قبره فإن هذا مُرخصٌ فيه كما نصَّ عليه جمهور أهل العلم، ومنهم الإمام مالك، والإمام أحمد، وأبو داوود السجستاني، وابن حبيب من المالكية، وعامة أهل العلم، ومما استُدل به عليه ما ثبت عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه كان إذا قَدِمَ من سفر، ،أو أراد سفرًا أتى عند قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: (السلام عليك يا

رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتِّ)، ثم ينصرف، وهذا أثر صحيح عنه، بل قال ابن عبد الهادي: (إنه مجمع على صحته عنه).

فهذا القدر لا بأس به أن يأتي الإنسان متأدب دون صخب أو رفع صوت حيث يأتي قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم يسلم هذا السلام المشروع ثم ينصرف، فلا وقوف طويل، ولا دعاء، ولا شيءٌ من هذا القبيل، هذا القدر لا بأس به كما نبه جمهور أهل العلم.

إذن نستطيع أن نقول إتيان قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكون على وجهين:

[الوجه الأول]: مشروع.

[الوجه الثاني]: وغير مشروع [ممنوع].

أما المشروع: أن يفعل الإنسان كما كان يفعل ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو أنه إذا قدم من سفر أو أراد سفر أتى القبر وسلَّم السلام الذي ذكرته لك.

وأما **الممنوع** فإنه يشمل صورًا:

[الصورة الأولى]: أن يأتي الإنسان إلى قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأجل أن يدعوه ويستغيث به وهذه هي الطامة الكبرى، هذه هي المصيبة الكبرى.

ودعوة الأموات تبطل العمل وتسلخ الإيمان خاب من فعل

هذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله عَزَّ وَجَلَّ لأحد مات عليه.

على الإنسان أن يحذر من ذلك، وهذا النبي الذي يجيء هذا المسكين إلى عند قبره يستغيث به ويسأله، عاش حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناهيًا ومحذرًا لهذا الفعل القبيح، والله إنه ليكرهه، والله لا يرضاه البته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

والله لو يرضى الرسول دعاءنا إياه بادرنا إلى الإذعان
والله لو يرضى الرسول سجودنا كنا نخر له على الأذقان
والله لا يرضيه منا غير إخلاص وتحكيم لذا القرآن

فيا من تَدَّعِي حب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليك بأن تفعل ما يحبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليك أن تترك ما يكرهه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذه العلامة الصادقة على أنك محب صادق لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الصورة الثانية: أن يأتي إلى حيث القبر لقصد الدعاء عنده يأتي إلى المواجهة مثلًا ثم يقصد أن يدعو الله هناك؛ لأنه يظن أن هذا أدّعى وأقرب للإجابة –وهذا كما ذكرته قبل قليل– داخل في مفهوم جعل قبره عيدا.

إذن لا شك أنه فعل محدث وفعل مبتدع، **ويدل على ذلك أمران:**

[الأمر الأول]: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يثبت عنه قط أنه إذا أراد الدعاء أتى إلى قبر فدعا، ولم يثبت عنه ذلك حثًا بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يثبت عنه ذلك تقريرًا منه لفعل أحد، ولو كان هذا مشروعًا لفعله.

إذن وُجد المقتضي، وزال المانع ولم يفعل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدل هذا على أنه أمر محدث مبتدع.

[الأمر] الثاني: إجماع السلف الصالح على عدم فعل هذا الأمر، ولو كان أمرًا مشروعًا لبادروا إليه، فأين أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذا الفعل لو كان مشروعًا وهم أحرص الناس إلى الخير، وأحرص الناس على أن يستجاب دعائهم، وما فعلوا ذلك البتة، ما كانوا يقصدون أن يأتوا عند قبر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأجل الدعاء وهو بين ظهرانيهم وعندهم، وليس بينهم وبينه إلا خطوات، ما كانوا يفعلون هذا.

بل عامتهم ما كانوا يأتون القبر البتّه، فعند عبد الرزاق في ((المصنف)) لما أورد أَثَرَ ابن عمر من طريق نافع عن ابن عمر أنه كان إذا أراد سفرًا أو قَدِمَ من سفر أتى فسلم، عند هذا الأثر قال عبيدالله بن عمر بن حفص بن عمر بن الخطاب الذي هو ابنُ ابنِ أخي عمر قال: ما بلغنا عن أحد أنه فعل ذلك إلا ابن عمر من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذن ما كان أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأتون إلى القبر فيدعون عنده، وأخرج القاضي إسماعيل في ((المبسوط)) عن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: أنه كره من جاء مُسَلِمًا إلى النبي فيقف فيدعو، وإنما يسلم فينصرف.

إذن الذي ينبغي على المسلم أن يفعله، أن لا يقصد عند قبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيدعو.

هذا هو **المشروع**، وهذا هو **الممنوع** في زيارة قبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بقيت المسألة الثالثة: وهي في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**»، وهذا منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعليل لترك اتخاذ قبره عيدًا؛ بمعنى: الشيء الذي تطلبونه من صلاتكم عليَّ عند قبري حاصلٌ مع صلاتكم عليَّ مع البُعد، فلا حاجة لكم إذاً إلى اتخاذه عيدًا، «**وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**»، وعند ((النسائي)) بإسناد صحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام**».

إذن حيثما كان الإنسان فصلى على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلَغُه ذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعُرِضَ عليه ذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما دل على هذا ما خرجَّ أبو داوود وغيره عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه ذكر يوم الجمعة، وأخبر أنه من خير أيامكم، ثم قال: «**فأكثروا علي فيه من الصلاة فإن صلاتكم معروضة علي، قالوا: يا رسول اللَّهِ وكيف تعرض عليك وقد أرمت** -يريدون: بَلِيْتَ- **قال: إن اللَّه حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**».

الشاهد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أن صلاة المؤمنين تُعرض عليه، وقد يكون هذا مُفسرًا في حديث الملائكة السياحين، وقد يكون شيء آخر فالله أعلم كيف يكون، لا علم لنا بتفاصيل أو كيفية عرض هذه الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إن لم يكن ذلك إبلاغًا من الملائكة.

المقصود أن الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحصل المقصود منها بفعل ذلك ولو على البعد، فلا حاجة إذن إلى أن يُتخذ قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عيدًا.

وعن علي بن الحسين؛ أنه رأى رجلاً يجيء إلى فُرْجَةٍ كانت عند قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيدخل فيها فيدعوه، فنهاه، وقال: ألا أحدِّثُكم حديثًا سمعته من أبي، عن جدِّي، عن رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورا؛ فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم» رواه في المختاره

أما هذا الأثر الذي يروي فيه علي بن الحسين عن أبيه عن جده عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه يشتمل على ما اشتمل عليه الحديث السابق، إلا أن فيه أن يبلغه السلام عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الحديث الأول فيه: أن الذي يبلغه الصلاة عليه.

والحديث الثاني فيه: أن الذي يبلغه السلام عليه.

وهذا الحديث حديث حسن أيضًا، وفيه: أن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وهو زين العابدين، وكان من سادة أهل بيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى قال الزهري: (ما رأيت هاشميًا أفضل منه)، كان من أفاضل أهل بيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رأى رجلًا يأتي إلى فرجة أو كوة في جدار عند قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيجلس هناك فيدعو، فنهاه رَحِمَهُ اللَّهُ عن ذلك، وحدثه بحديثٍ سمعه عن أبيه الحسين، عن جده علي، عن جده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفيه الأمور التي سبق ذكرها.

والشاهد في هذا الأثر: أنَّ من فَهْمِ السلف للنهي عن اتخاذ القبر عيدا، النهي عن قصد قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للدعاء.

وجاء قريبٌ من هذا الأثر عن ابن عم زين العابدين، وهو: الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فقد أخرج القاضي إسماعيل في رسالته في ((فضل الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)) وكذلك سعيد بن منصور، وغيرهما: (**أنه كان يتعشى في بيت فاطمة،** - بيت فاطمة مجاور لحجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - **فرأى سهيل بن أبي سهيل جاء إلى قبر النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فدعاه، وقال: هلم إلى العشاء، فقال: لا أريده، قال: ما جاء بك إلى قبر النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**؟ قال: جئت مُسلِمَا، قال: إذا دخلت إلى المسجد فسلم عليه**»، ثم أخبره بحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تتخذوا قبري عيدا، لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**».

فهذا الأثر فيه أيضًا أن الحسن بن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان ينهي أيضًا عن اتخاذ قبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عيدا، ومن حكمة الله جَلَّوَعَلَا أن تجد هذه الآثار البينة النافعة عن سادات أهل بيت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الذين هم أقرب الناس إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ نسبًا، والذين هم من أعلم الناس بحقه، وأعظم الناس قيامًا بتعظيمه، التعظيم الشرعي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فإذا كانوا هم مع قربهم من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ينبهون وينهون عن اتخاذ قبره عيدًا، إذن على غيرهم أن يتبع سبيل السلف الصالح، الذي قامت شواهد سنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عليه.

بقي معنا أمرين أود التنبيه عليهما، وقد جاء في مسائل هذا الباب فيما ذكره المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[الأمر الأول]: قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ (**المسألة الرابعة: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص، مع أن زيارته من أفضل الأعمال**).

انظر إلى كلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن زيارة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من أفضل الأعمال، وقارن هذا الكلام بما ينسجه عليه أهل الفتن والشر والبدع من أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان لا يَقْدُر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حق قدره، أو أنه كان يحرم زيارة قبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فانظر كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ الواضح البين في أن زيارة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يعني: زيارة قبره من أفضل الأعمال، إنما الذي يُنهى عنه هو زيارة القبر على وجه المخصوص وهو الوجه المبتدع الممنوع لا الوجه المشروع، فهذا شيء مما يبين لك أن كثيرًا مما ينسج ويدعى ويلصق بالشيخ محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أو بعلماء التوحيد عمومًا، أن هذا من الأكاذيب الباطلة التي يروج لها أهل الضلال لأجل صد الناس عن دعوة التوحيد، والله المستعان.

[الأمر الثاني]: قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**كونه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في البرزخ تُعرض عليه أعمال أمته في الصلاة والسلام**).

هذه المسألة وهي عرض الصلاة عليه وهو في البرزخ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ويدل على ذلك -ما ذكرته لك-، وهو حديث أبو داوود وفيه أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**إن صلاتكم معروضة علي فقالوا: يا رَسُول اللَّهِ وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أَرِمْت قال: إن اللَّه حرم على الأرض أجساد الأنبياء**».

وهذا الحديث صحيحٌ إن شاء الله، وإن كان أُعلَّ بأكثرٍ من علة، ومن أوسع من تكلم عنه، و دافع عنه ابن القيم في ((جلاء الأفهام)).

المقصود أن هذا الحديث فيه ثبوت عرض خاص على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والله أعلم بكيفيته، قد يكون هو إبلاغه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قبل الملائكة الموكلين بهذا الأمر، وقد يكون غير ذلك، والله أعلم بهذا الأمر كيف يكون.

وهذا يجرنا إلى التنبيه على مسألة ثانية وهي: عرض الأعمال عموما صالحا وفاسدها على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهذا ما يتشبث به من يتوجهون إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند قبره، أو بعيدًا عنه بالدعاء والاستغاثة، يقولون: النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعرض الأعمال عليه، ونحن نسأله بأن يستغفر الله لنا، ويستدلون على هذا بحديث أخرجه القاضي إسماعيل المالكي، عن بكر بن عبدالله المزني، عن النبي أنه قال: **«تحدثون ويحدث لكم، فما رأيت من خير حمدت الله وما رأيت من شر استغفرت لكم»**، قالوا هذا الحديث فيه أن الأعمال عمومًا تعرض على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيستغفر للمسيء فنحن نسأله وهو في قبره الاستغفار والشفاعة.

والجواب عما ذكروا من وجوه:

[الوجه الأول]: أن هذا الحديث ضعيف، فهو حديث مرسل، والمرسل من قسم الحديث الضعيف، فإنه مروي عن بكر بن عبد الله المزني، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهذا كما ترى ليس بمتصل، فهو ضعيف.

الوجه الثاني: أنَّ الذي دل الدليل الثابت عليه أن الأعمال تعرض على الله عَزَّوَجَلَّ، وليس على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يدل على هذا ما خرج الإمام مسلم عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أن الأعمال تعرض على الله كل اثنين وخميس»**.

[الوجه الثالث]: أنَّ الدليل قد دل على أن ذا العلم والخبرة بذنوب عباده هو العليم الخبير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا غيره: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾[الإسراء:١٧].

الوجه [الرابع]: أنَّ النبي وهو في حياته ما كان يعلم كل شيء، ومن ذلك ما كان عليه المنافقون: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[التوبة:١٠١]، فأعيانهم وأعمالهم وهو حيٌّ

كان يجهلها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكيف يعلم كلَّ الأعمال من الأبرار والفجار وهو ميتٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الوجه [الخامس]: أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في قبره نجزم أنه لا يعلمُ كل شيء، وذلك أنه قد مات وانقطعت حياته الدنيوية، وإنما هو في حياة برزخية، الله أعلم بها، ولو كان يعلم ما تعمل أمته من بعده، لكان محيطًا بعلم كل شيء من أعمال الناس، وهذا العلم الواسع الشامل لأعمال الناس هو مما اختصه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به.

[الوجه السادس]: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينادي يوم القيامة الرسل ويسألهم أي شيء أُجبتم، فيقولون: ﴿**قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا**﴾**[المائدة:١٠٩]**، ولو كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم وهو في البرزخ ما تعمل أمته لكان يعمل ما الذي أجيب به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ماذا يقول لربه جَلَّ وَعَلَا يوم القيامة، يقول: ﴿**وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ**﴾**[المائدة:١١٧]**،

إذن الذي يعلم ذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

كذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الصحيحين في حديث الحوض حينما يُذاد أناس من أمته، فيسأل عن ذلك صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو يقول: «**أمتي أمتي، فتقول الملائكة: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**»، ولو كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على إطلاع على أعمال أمته، لكان يعلم ما أحدثوا.

الوجه [السابع]: أننا لو سلمنا صحة الحديث فإن ما يكون في البرزخ هو ما يرجع إلى الأمر الكوني لا إلى الأمر الشرعي.

وبالتالي فإن سؤال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في قبره لا يؤثر شيئًا، التأثير إنما يكون في الدنيا؛ لأنَّ ذلك راجع إلى الأمر الشرعي، لو سُئل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو أو يستغفر، لشُرع له بالأمر الشرعي أن يُجيب، لكن ما يكون في البرزخ، هذا لا دليل على أنَّ الأمر الشرعي متعلق به، إنما يتعلق به الأمر الكوني، وبالتالي أصبح هذا السؤال لا فائدة منه.

الوجه [الثامن]: أن يقال أن الحديث إن صح؛ فيه أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعرض عليه الأعمال، وأما القَدْرُ الذي يستدلُ من أجله هؤلاء بالحديث فهو السؤال والدعاء والاستشفاع، وهذا قدْرٌ ما دل عليه الدليل إن صح بوجهٍ من الوجوه، فأين الدليل في

الحديث على أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُشرع سؤاله الاستغفار؟ وأين حثه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو أخبر بهذا الحديث أن نسأله أن يستغفر لنا؟ لم يكن شيءُ من ذلك.

[الوجه التاسع]: لو صح هذا الحديث فليُبشر الذي يسأل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه لن يكون له في هذا الحديث نصيب، لأنه بسؤاله النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته يكون قد أشرك، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يستغفر للمشركين: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾[التوبة:١١٣].

إذن ليس من المشروع بالحال أن يُدعى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأي دعاء كان، بل هذا من المنكر، بل هذا من الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

٣٤

٣٤- باب ما جاء أنّ بعض هذه الأمّة يعبد الأوثان

(المجلس الأول)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبدُ الأوثان

هذا الباب الذي عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابٌ يدل على فقهٍ من الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عظيم، وذلك أنه بعد أن أورد تلك الأبواب التي دلت على أنواعٍ من نواقض التوحيد وقوادحه، أراد أن يرد على شبهة يثيرها عباد القبور، وداعية التوحيد ينبغي أن يعتني بإزالة الشُبَّه التي تحول دون وصول نور التوحيد.

فإن الإنسان قد يتعجب حينما يرى كيف كانت أدلة التوحيد وما يبين الشرك ويحذر منه كيف أنها ظاهرة وكثيرة وواضحة في القرآن والسنة، ومع ذلك لا ينتفع بها كثيرٌ من الناس، هؤلاء تجدهم من قراء القرآن بل ربما من حفاظه، ومن الذين ربما يقرؤون في كتب حديث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فما بالهم لا ينتفعون ولا يتعظون، والسبب في ذلك هو أنه قد حالت الشُبَّه بينهم وبين الانتفاع بما يقرؤون، هذه الشُبَه حاجز وحائل بينهم وبين الحق ولذلك يقفون على مشارف الحق، ولكنه لا يصل إليهم، لأن هذه الشبه تحول بينهم وبين هذا الحق، ولذا إذا كُسرت هذه الحواجز وهذه الحوائل وصلهم الحق، وانتفعوا بأنوار الوحي التي بينت التوحيد وجلت ضده.

إذن لابد من بيان الشبه التي يتشبث بها الضالون ويلبس بها الملبسون، لابد من كشفها حتى ينتفع الناس بالحق، تجدهم يقرؤون آيات وأحاديث كثيرة تحذر من الشرك، لكنهم لبس عليهم، فظنوا أن هذه النصوص لا تتناول الواقع الذي هم واقعون فيه، فإذا أُزيلت عنهم غياهب هذه الشبه تبصروا وانتفعوا وزالت عنهم الغشاوة.

هذه شبهة بين أيدينا أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يكشف زيفها وهي أنَّ من عباد القبور ومن مزيني الشرك للأمة من يقول إن الشرك لا يقع في هذه الأمة، وبالتالي فإن كلما يقع من الضالين من عبادة للأموات بالدعاء والذبح والنذر والطواف وما إلى ذلك كله هذا ليس شركًا وليس كفرًا؛ لأن هذه الأمة لا يمكن أن يقع من أفرادها الكفر والشرك، فانظر كيف كانت هذه شبهة، تحول بين فئة من الناس، وبين الوصول إلى الحق.

أراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ينبه على هذا وأن يكسر هذا الحاجز الذي يحول بين الناس وبين الانتفاع بما يذكر من الآيات والأحاديث.

باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان.

الأوثان مر بنا تعريفها وقلنا أن الوثن هو: كل ما يعبد من دون الله، ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾[العنكبوت:١٧]، وهذه الأوثان تتنوع قد تكون أصنامًا، وقد تكون أحجارًا وقد تكون أشجارًا وقد تكون قبورًا وقد تكون صلبانًا، فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر عديًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن يلقي عنه الصليب الذي كان يعلقه، وسماه وثنًا.

إذن بعض هذه الأمة سيعبد الأوثان.

والناس في هذا الموضوع طرفان ووسط:

طرفٌ يقول: إنَّ الأمة كلها عبدت الأوثان وارتدت وكفرت بالله إلا نزرًا يسيرًا هم من يتبنى هذا القول فقط، وهؤلاء الخوارج الذين كفروا هذه الأمة قاطبة، أو كفروا هذه الأمة أكثرها، وربما سلوا السيف على أمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم تزل الأمة من قديم وإلى اليوم تتجرع الغُصص وتذوق الحنظل بسبب هذه الفئة الضالة التي جلبت الشرور العظيمة على هذه الأمة.

وطرف آخر يقول: إن الشرك والكفر والردة لا تقع في هذه الأمة البتة، فمهما وقع فإنه ليس شركًا، وهؤلاء القبوريون، وهم الذين اعتنى المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالرد عليهم.

والوسط هم أهل الحق، هم أهل التوحيد والسنة، الذين يقولون: إن الشرك ممكن الوقوع من الناس وأن بعض هذه الأمة قد وقع في ذلك، وهذا ما دل عليه الدليل الشرعي والدليل الحسي الواقعي كما سيأتي الكلام عن ذلك -إن شاء الله-.

عُبَّاد القبور يقولون إن الشرك لا يقع في هذه الأمة، وتشبهوا في هذا بالشبه، من أبرز تلك الشبه:

حديث خرجه الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((صحيحه)) وهو قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الشيطان أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن بالتحريش بينهم**»، أيس يعني: يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، وجاء عند ((الترمذي)) بحذف كلمة جزيرة العرب: «**إن الشيطان أيس أن يعبده المصلون**»، هكذا.

قال هؤلاء هذا حديث صحيح وصريح في أن الشرك لا يقع من هذه الأمة، وبالتالي هذه الأمور التي تنكرونها هذه ليس شركًا؛ لأن هؤلاء الذين تقع منهم هذه الأمور يشهدون أن لا إله إلا الله ويتبعون النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وبالتالي فلا يمكن أن يقع منهم الشرك مهما فعلوا، متى ما دخل الإنسان في الإسلام فإنه لا يخرج منه البتة، هكذا يقولون.

والجواب عن هذه الشبهة من وجوهٍ كثيرة، منها:

[أولًا]: أنَّ الحديث ليس فيه أن الشيطان قد أيس، وهل الشيطان معصوم؟، ليس بمعصوم، وبالتالي فإنه أيس ولم يكن هذا الذي يأس منه أمرًا صحيحًا إنما وقع في نفسه لما رأى الخير ينتشر والفتوحات الإسلامية ودخول الناس في دين الله أفواجًا وقع في نفسه اليأس من أن يعبده المصلون، ولا يلزم من هذا أن يكون الذي يأس منه أمرًا صحيحًا في الواقع.

بل لو يأس الصالحون وليس الشيطان، فلا يلزم أن يكون الشيء الذي يئسوا منه صحيحًا، ولذلك أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن الرسل أنهم: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾[يوسف: ١١٠]ماذا قال الله؟ ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾[يوسف: ١١٠]، فلا يلزم من وقوع اليأس من الشيطان أن يكون هذا الذي يئس منه أمرًا ممتنعًا فهو لا يعلم الغيب وليس بمعصوم.

[ثانيًا]: أن يقال إن (أل) في قوله: المصلون للاستغراق فتفيد العموم، وهذا يقتضي أن المسلمين المصلين جميعًا لا يمكن أن يقعوا في الشرك، وهذا صحيح، فالله جَلَّوَعَلَا قد حفظ هذه الأمة من أن ترتد عن بكرة أبيها، هذا لم يقع ولن يقع إن شاء الله.

[ثالثًا]: أن يقال إن (أل) ها هنا عهدية، فالمقصود أن الشيطان أيس أن يعبده المصلون حقًا، الذين قاموا بعبادة الله عَزَّوَجَلَّ ومنها الصلاة على وجهها الصحيح، والصلاة كما أخبر الله إذا أقيمت على وجهها الصحيح تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأي منكر أعظم من الشرك، ورأس أولئك أصحاب النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فهؤلاء الذين استمسكوا بالعلم والعمل على الوجه الصحيح، فإن الله جَلَّوَعَلَا يوفقهم بأن يثبتهم على التوحيد والسنة.

[رابعًا]: أن هذا الذي ذكروا من أن الشرك لم يقع في الأمة، أمرٌ باطلٌ بنص حديث رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأحاديث النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يمكن أن تتناقض وسيمر معنا

إن شاء الله في هذا الباب، ما أخبر به أو بعض ما أخبر به النبي ﷺ، من أن بعض هذه الأمة ستشرك بالله، وأنها ستعبد الأوثان وأنها ستلحق بالمشركين، أحاديث صحيحة ثابتة في الصحيحين، وبالتالي لابد من الجمع بين النصوص.

القول بأن الأمة جميعًا لا يمكن أن يقع من كل فرد منها الشرك بالله، هذا أمر لا يمكن أن يكون مدلول هذا الحديث، وإلا تناقضت أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

خامسًا: كيف يقال إن الشرك لا يقع من هذه الأمة، أو على الأقل لا يقع في جزيرة العرب وقد خرج المتنبئون الكذابون كمسيلمة والأسود وغيرهما في وسط جزيرة العرب، فهل يقولون إن هؤلاء ومن اتبعوهم ممن كانوا مسلمين أنهم ما كفروا ولا ارتدوا.

سادسًا: ماذا يقولون عن الذين كانوا مسلمين، ثم ارتدوا بعد موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقاتلهم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن معه من الصحابة؟ ماذا يقولون في هذه القبائل العربية التي كانت في جزيرة العرب وارتدت والأخبار فيهم تطفح بها كتب الحديث من الصحاح والسنن والأسانيد وكتب التاريخ وغيرها؟ أفينكرون هذا كله فيقولون أن من دخل في الإسلام لا يمكن أن يخرج منه البتة مهما فعل!

سابعًا: ماذا هم قائلون في أولئك الزنادقة الذين خرجوا في عهد أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما بعد ذلك العهد، كالذين خرجوا في وقت علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فألَّهوه فحرقهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالنار، وخبر في البخاري وغيره، أأولئك يقولون فيهم أنهم لم يرتدوا عن الإسلام بذلك؟ وأولئك القرامطة الذين كانوا في وسط الجزيرة، أو كانوا عفوًا في الجزيرة في شرقها في البحرين، كانت مملكتهم هناك وبلغوا من فجورهم وكفرهم وإلحادهم أن غزوا بيت الله الحرام، وأسالوا الدماء عند الكعبة بل وقلعوا الحجر الأسود وأخذوه معهم، أفيقال في هؤلاء الملاحدة إنهم لم يرتدوا؛ لأنهم كانوا في جزيرة العرب؟

ثامنًا: عجيبٌ شأن هؤلاء في كونهم يزعمون أنهم يتبعون المذاهب الفقهية بل ويتعصبون لها، فماذا هم قائلون فيما حُشِيَت به كتب الفقه من باب حكم المرتد؟ كل كتب الفقه في جميع المذاهب الفقهية المعروفة قد دُون فيها هذا الباب، باب حد المرتد، باب حكم المرتد، باب الردة، -عافاني الله وإياكم-، والمرتد هو الذي كان مسلمًا فوقع في ناقض من نواقض الإسلام، أكانوا يبوبون هذه الأبواب عبثًا؟

تاسعًا: عجيبٌ أمر هؤلاء قالوا إن الشرك لا يمكن أن يقع ولا يمكن أن يرتد أحد من هذه الأمة، ولاسيما من كان في جزيرة العرب، ثم نجدهم أو نجد منهم من كفَّر أهل التوحيد، وكفَّر علماء التوحيد لما قاموا بالدعوة إلى التوحيد، وبينوا الشرك وحذروا منه وإذا بفئامٍ من هؤلاء كفَّروا علماء التوحيد، وكفَّروا أهل التوحيد وألفوا المؤلفات في ذلك، فأين هو قولكم حينما قلتم إنَّ الشرك لا يقع إلى من ينتسب في هذه الأمة؟

إذن هذه الأجوبة وغيرها كثير كافيةٌ في بيان خطأ هذا الاستدلال وضلال هذا القول، بل الشركُ والكفرُ موقن الوقوع، ولذلك خافه الصالحون على أنفسهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو إمام الموحدين، وأفضل البشر بعد نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع ذلك خاف على نفسه من الوقوع في الشرك، فقال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ **[إبراهيم:٣٥]**، فمن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟

لكن حاشا وكلا أن يقال أن هذا واقع من جميع الأمة، إنما يقع هذا من أناسٍ ما رفعوا رأسًا باتباع الكتاب والسنة، واتبعوا أهواءهم فضلوا عن الحق، ووقعوا في ما دل الكتاب والسنة على أنه كفر بالله عَزَّوَجَلَّ، فهؤلاء قومٌ أرادوا الضلال فمكنهم الله عَزَّوَجَلَّ منه، وقد بُيِّن لهم: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ **[فصلت:١٧]**.

إذًا الأمر الحق الذي لا شك فيه أن الكفر والشرك أمر ممكن الوقوع وأن من وقع فيه فإنه قد أوقع نفسه في الظلال، ورمى نفسه في حفرة من السعير والعياذ بالله، إلا أن يتداركه الله برحمته ويتوب، وليس أن التكفير والحكم بالشرك أن هذا حمًى مباحًا لكل أحد، إنما دل الدليل على أنه كفر بالله، والذي يقال فيه ذلك.

الكفر حق الله ثم رسوله ... بالنص يثبت لا بقول فلانِ
من كان رب العالمين وعبده ... قد كفراه فذاك ذو كفرانِ

إذن باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبدُ الأوثان.

هذه (الأمة) هي: أمة الإجابة، وليس المقصود أمة الدعوة، فإن أمة الدعوة هذه التي تشمل كل من تناوله أو من تناولتهم بعثة أو دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ليس هؤلاء هم المقصودين؛ لأن ذلك معلومٌ بالضرورة إن من لم يكن مستجيبًا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أمة الدعوة فإنه من عبدة الأوثان، فذكر هؤلاء أو إرادة هؤلاء من تحصيل الحاصل، إنما المراد أن

من أمة الإجابة الذين شهدوا بأن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من سيقع في الشرك وسيعبد الأوثان كما أخبر بهذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا الباب يورث المتأمل فيه الخوف والوجل والحذر والحرص، حتى لا يكون من هؤلاء فإن المقام خطير، والخسارة في هذا الشأن خسارة عظيمة، خسارة لا يمكن أن تستدرك والمعافى من عافاه الله والموفق من وفقه الله.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾[النساء:٥١].

هذه الآية التي أوردها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب، ووجه إيرادها في أن الله جَلَّ وَعَلَا أخبرنا أن اليهود الذين كفروا بالله عَزَّ وَجَلَّ عبدوا الجبت والطاغوت، وأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذه الأمة ستتبع سنن من كان قبلها، وهم اليهود والنصارى كما سيأتي معنا إن شاء الله.

إذن إذا كان من اليهود من عبد الأوثان ومن هذه الأمة من سيتبع سنن اليهود والنصارى، إذن سيكون في هذه الأمة من يعبد الأوثان، وهذا استدلال صحيح.

وإيراد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الآية يدل على فقهٍ كان عليه رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾[النساء:٥١].

ما وصف هؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب؟

أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ عنهم أنهم: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾[النساء:٥١]. هذه الآية ثبت في ((مسند أحمد)) بإسنادٍ صحيح، أنها نزلت في كعب بن أشرف اليهودي، الذي قال له كفار قريش مَنْ على الهدى نحن أو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟، فقال: أنتم خير من محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾[الكوثر:٣]، وأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾[النساء:٥١].

وجاء عند ابن أبي حاتم أنها نزلت في كعبٍ وأيضًا في حيي بن أخطب، وأن كليهما أجاب بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومَنْ معه أن هؤلاء الكفار من مشركي العرب أنهم خير من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، فبين الله عَزَّوَجَلَّ بطلان هذا القول.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾[النساء:٥١].

انظر إلى الأسلوب الذي يدل على أنَّ حال هؤلاء حالٌ عجيبة، مع كونهم أوتوا نصيبًا من الكتاب، عندهم علم، لكنهم ما انتفعوا به، وهذا يفيدك على أن العلم وحده ليس كافيًا في حصول الهداية ما لم يكن توفيقٌ من الله جَلَّوَعَلَا، ولذا مَنْ أتاه الله حظًا من العلم من طلبة العلم عليهم ألا يغتروا، عليهم أن يلجؤوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ بصدق أن يثبتهم وأن يوفقهم وأن يبصرهم بالحق ويعينهم على التزامه، وإلا فمجرد العلم أو الذكاء ليس بكافٍ:

هتف الذكاء وقال لست بنافعٍ إلا بتوفيقٍ من الوهاب

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾[النساء:٥١]، عجيب أمرهم حينما جاءهم العلم وهم اليهود، عندهم علم لكن ما عملوا به ولا انتفعوا به.

﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾[النساء:٥١]، أكثر كلام المفسرين يدور على أن الجبت هو: الساحر أو الصنم أو الكاهن.

والناظر في كلام السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ في تفسير هذه الكلمة وغيرها يلحظ المسلك الذي يسلكه كثيرٌ من السلف وهو أنهم يفسرون الكلمة بمثالٍ لها لا أنهم يضعون حدًا جامعًا مانعًا، فكل ما يُعبَدُ من هذه المعبودات ويصرف له حق الله جَلَّوَعَلَا، ويُنسب له ما يختص به ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإنه داخلٌ في كلمة الجبت وإن كان الأصل في هذه الكلمة أنها تطلق: على ما لا خير فيه.

قال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾[النساء:٥١].

الطاغوت أكثر السلف فسروا هذه الكلمة بأنها: الشيطان، وجاء هذا عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في ((صحيح البخاري)) تعليقًا، ووصله غيره، وقال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ بإسنادٍ قوي، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان)، وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: الطاغوت كل ما عُبِدَ من دون الله، ومراده رَحِمَهُ اللَّهُ دون شك أنه كل ما عُبِدَ من دون الله وهو راضٍ، وذلك أن كل من عبد غير الله، فإنه يُقالُ في حقه إنه اتخذ طاغوتًا.

وأما من جهة المعبود فلا يقال فيه إنه طاغوت إلا إذا كان راضيًا بذلك، أما إذا لم يكن راضيًا فإنه لا يقال في المعبود أنه طاغوت، وإلا فعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والصالحون قد عُبِدُوا من دون الله جَلَّ وَعَلَا ولا يقال في حقهم إنهم طواغيت باتفاق أهل العلم.

إذن هؤلاء يؤمنون بالجبت والطاغوت.

ولعل أدق تعريفٍ للطاغوت هو تعريف الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: أنه كل ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاع، وذلك أنَّ أصل المادة في الطاغوت يرجع إلى الطغيان وهو: مجاوزة الحد، ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾[الحاقة:١١]، فالذي يتجاوز به العبد حدَّه هذا هو الطاغوت، سواء كان معبودًا وهذا يشمل كل من عُبِدَ من دون الله وهو راضٍ، أو ترشح للعبادة، لو دعا الناس إلى عبادة نفسه ولم يستجب له أحد فإنه طاغوتٌ أيضًا.

وكذلك قلنا هو الذي تجاوز به العبد حده من معبودٍ أو متبوع ؛كالعلماء ونحوهم، أو مطاع؛ كالأمراء ونحوهم، فهؤلاء إن أحلوا ما حرم الله أو حرموا ما أحل الله فأُطيعوا على ذلك فإنهم يكونون طواغيت.

الشاهد أنَّ هؤلاء يؤمنون بالجبت والطاغوت، وأيضًا يقولون ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾[النساء:٥١]، هؤلاء لأنهم اشتركوا مع المشركين في الكفر بالله وبرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صار المشركون أحب إليهم وأقرب إليهم وأهدى في نظرهم من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه مع أن هؤلاء يعلمون أنه على الحق، يعرفونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما يعرفون أبناءهم، لكن الغشاوة غشاوة الهوى حالت بينهم وبين الاعتراف بذلك، -نسأل الله السلامة والعافية-، ﴿ ويقولون لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾[النساء:٥١]، قال الله سبحانه: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾[النساء:٥٢]، وهذا شأن اليهود باءوا بغضب الله وباؤوا بلعنة الله، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾[المائدة:٦٠].

هذه الآية الثانية التي استدل بها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي أيضًا في شأن أهل الكتاب الذين ذموا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه، وقالوا هم شر الناس، وقالوا أن دينهم هو شر الأديان، قال سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ * قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾[المائدة:٥٩-٦٠].

إذن أنتم يا أيها الذين تزعمون أننا نحن شر الناس وأن ديننا شر الأديان، أنتم أعظمُ شرًا وضلالاً وإفكًا، هؤلاء هم المقصودون في هذه الآية، هؤلاء اليهود الذين ذموا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ونقموا منه ومن أصحابه أن آمنوا بالله وحده وآمنوا بالرسل وآمنوا بالكتب أن هؤلاء حينما وصفوهم بذلك الواقع يشهد أنهم شر مكانًا، بكتهم الله عَزَّوَجَلَّ ووبخهم على قولهم، عارٌ عليكم كيف تقولون هذا وأنتم موصوفون بهذه الصفات.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾[المائدة:٥٩].

مثوبة يعني: جزاءً، كلمة المثوبة أصل المادة فيها ثاب يثوب، إذا رجع إلى الشيء فإنه يكون قد ثاب إليه، وهكذا الجزاء، جزاء العمل يعود على عامله.

والغالب أن كلمة المثوبة تَرِدُ في شأن جزاء الحسنات لكن قد ترد في جزاء السيئات ومن ذلك هذه الآية، جزاهم الله عَزَّوَجَلَّ على إفكهم وبغيهم وضلالهم بالآتي:

أولاً: باءوا بلعنة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، والأدلة في كتاب الله جَلَّوَعَلَا وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، كثيرة في وصفهم باللعنة، وأن الله جَلَّوَعَلَا قد لعنهم، ﴿مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾[المائدة:٦٠].

[ثانيًا]: باءوا بغضب من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

[ثالثًا]: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾[المائدة:٦٠]، مسخ منهم من مسخ قردة وخنازير، وهذا مسخ حقيقي، قلبهم الله جَلَّوَعَلَا حقيقةً إلى قردة وخنازير، هؤلاء القوم المخصوصون الذين عناهم الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[البقرة:٦٥]، جزاهم الله عَزَّوَجَلَّ على الإثم العظيم الذي وقعوا فيه، وهو تحايلهم على محارم الله عَزَّوَجَلَّ جزاهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى على ذلك بأن جعلهم قردة وخنازير.

١/ وهؤلاء الذين قلبهم الله عَزَّوَجَلَّ إلى ذلك ليسوا جميع اليهود إنما طائفة منهم هم الذين وقع منهم مقتضى ذلك، هذا أولاً.

٢/ يخطئ بعض الناس حينما يظن أن القردة والخنازير إنما يعني القردة والخنازير الذين هم موجودون في هذه الدنيا، أن أولئك هم اليهود الذين قلبوا أو سلالتهم وهذا غير صحيح، بيَّن خطأه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، يعني هذا الفهم بيّن النبي أن الله عَزَّوَجَلَّ ما مسخ قومًا فجعل لهم ذرية، والقرود والخنازير كانوا موجودين من قبل، قبل هذا المسخ، لكن هؤلاء أناس قلبهم الله عَزَّوَجَلَّ عقوبة على فعلهم وإفكهم إلى ذلك، روي عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه قلب الشباب قردة وقلب الشيوخ خنازير.

الشاهد أنَّ هؤلاء قومٌ مسخهم الله عَزَّوَجَلَّ ثم إنهم هلكوا وانقطعوا.

[رابعًا]: الشاهد في إيراد المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ هذه الآية، قال: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾[المائدة:٦٠].

هذه الآية قرئت بقراءات كثيرة أنهاها أبو حيان في تفسيره ((البحر المحيط)) إلى نحوٍ من عشرين قراءة لكنها كلها شاذة إلا قراءتان هما القراءة المتواترة قراءتان فقط.

قال الجمهور: وعَبَدَ الطاغوت، فعل ومفعول والفاعل محذوف يعني: هم، هم الذين عبدوا الطاغوت.

وقرأ حمزة الكوفي أحد القراء السبعة، قرأ (وعَبُدَ الطاغوتِ)، مضاف ومضاف إليه، (وعبُد) بضم الباء قيل: إن هذه الكلمة جمع عابد وهو جمعٌ سماعيٌ قليل، الذي يأتي على هذا الوزن.

وقيل إن (عبُد) بمعنى عابد.

وبالتالي فيكون عبُد الطاغوت إما عبَّاد الطاغوت أو عابدوا الطاغوت أو عابد الطاغوت إما أن تكون جمعًا وإما أن تكون كلمة مفردة، وعلى هذا فتكون هذه الكلمة معطوفة على القردة والخنازير.

وأما على قراءة الجمهور وهي أن هذه الكلمة فعلٌ (عبد) فإنها تكون معطوفة على الأفعال التي قبلها، ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾[المائدة:٦٠]، لكنَّ الفرق أن الضمائر مختلفة، فالضمير في الأفعال الثلاثة السابقة يرجع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وأما في هذا الفعل فإنه راجعٌ إلى هؤلاء اليهود الذين عبدوا الطاغوت، وإنما قال (عَبَدَ) ولم يقل (عَبُدَ) لمراعاة لفظ مَنْ الذي ذُكِر قبل ذلك.

الشاهد أن هذه الآية فيها أن من أهل الكتاب وهم اليهود من عبد الطاغوت، وأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن من هذه الأمة مَنْ سيتبع أهل الكتاب.

إذن وقوع الشرك في هذه الأمة ممكن والله عَزَّوَجَلَّ أعلم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾[الكهف:٢١].

هذه الآية في سورة الكهف: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾[الكهف:٢١]، فيها أن مما كان في الأمم السابقة الذين أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باتباعهم أنهم اتخذوا قبور الصالحين مساجد والغالب أن هؤلاء من النصارى، كما يذكرهم كثير من المفسرين، وأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذه الأمة سيكون فيها من يتبع سَنَنَ من كان قبلنا، فهذا وجه إيراد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهذه الآية يحسنُ الوقوف عندها من جهة أن من الناس من يزعم أنها دليلٌ على جواز اتخاذ القبور مساجد فيقولون كيف تنكرون، كيف تنكرون على الذين يتخذون القبور مساجد إما بأن يبنوا مسجدًا على قبر أو يدفنوا ميتًا في مسجد؟ كيف تنكرون على ذلك وقد دل القرآن على جواز ذلك؟ أ لم تسمعوا إلى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾[الكهف:٢١].

ولا شك أنَّ هذا الاستدلال من أضعف الاستدلالات وأوهنها، يا لله العجب!! كيف تُقابل الأحاديث المتواترة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النهي عن اتخاذ القبور مساجد، بمثل هذا الاستدلال الفاسد الكاسد.

والجواب عن هذا الإيراد أو عن هذه الشبهة:

أولاً: أن هذه الآية ليس فيها إلا ذُكْرُ عزم طائفةٍ من الناس، جاء وصفهم بأنهم الذين غلبوا على الأمر يعني :كانوا أهل النفوذ والسلطة، أنهم سيتخذون على قبور هؤلاء الفتية الصالحين مسجدًا ولا شيء أكثر من ذلك، ليس في الآية ما يدل على مدحِ هؤلاء ولا على الحث على أن نفعل مثلما فعلوا، إنَّما فيها أن هؤلاء أرادوا وعزموا على أن يتخذوا على قبورهم مسجدًا، وذلك أنهم رأوهم أناسًا صالحين وفُتِنوا بهم وبصلاحهم فأرادوا أن يتخذوا على قبورهم مسجدًا.

ومن أهل التفسير: من قال إن هؤلاء كانوا قومًا مشركين.

ومن أهل التفسير من قال: أنهم لم يكونوا من المشركين بل كانوا قومًا مؤمنين.

وعلى كلا القولين فإنه لا وجه للاستدلال.

أما كونهم كانوا كافرين فالاستدلال ساقط من أصله.

وأما إذا كانوا قومًا منتسبين إلى دين سماوي ؛كالنصارى مثلاً فإنه لا عصمة لأحدٍ بعد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، عزموا على هذا وأخطأوا فيما قالوا، فماذا كان؟ أكان فيه النبي يُحتج بفعله ويحتج بعزمه، لم يكن في ذلك شيء من هذا البتة.

فدل هذا على أن هذا الاستدلال غير صحيح.

على أن في الآية ما يُشْعِرُ أن هذا الفعل ليس صوابًا، لأن الله جَلَّ وَعَلَا وصف هؤلاء بأنهم الذين غلبوا على أمرهم، لم يقل قال أهل العلم، لم يقل قال الصالحون، إنما قال: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾[الكهف:٢١].

والحال والواقع أن الغالب على أهل النفوذ والسلطة أن يكونوا جُهالاً بل وأن تغلبهم الأهواء وتقع منهم الأخطاء، وبالتالي كيف يكون فعلهم أو عزمهم حجة، لاسيما وأنَّ في الآية ما يُشْعِرُ أنهم قالوا هذا القول على سبيل المراغمة للذين قالوا ماتوا أنهم يسدون عليهم الكهف وينتهي أمرهم، ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ ، هنا قال هؤلاء:

﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾[الكهف:٢١]، كأنه كان على سبيل العناد والمراغمة لأولئك الذين طلبوا أنهم يدفنونهم في كهفهم ثم يبنون على كهفهم وينتهي أمرهم وتنتهي الفتنة بهم.

[ثانيًا]: اتفق أهل العلم على أن خير ما فُسِّر به كتاب الله عَزَّوَجَلَّ هو سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد الكتاب، هذا محل اتفاقٍ بين العلماء، فإذا كان في هذه الآية إجمال لا ندري ما التحقيق في شأن الذين غلبوا على أمرهم، أكانوا صالحين أم هم طالحون، أكان فعلهم صوابًا أم غير صواب، دعونا نرجع في هذا البيان إلى سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بحثنا ووجدنا أن الشيخين في صحيحيهما أخرجا من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ومر بنا الحديث في أول حديثٍ قبل ثلاثة أبواب، (باب ما جاب من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجلٍ صالح، فكيف إذا عبده)، مر بنا في هذا الحديث أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حدَّثت عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها حدثت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن كنيسة رأتها بالحبشة، وفي رواية في ((الصحيحين)) أن الذي حدَّث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم سلمة وأم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، حدثا عن كنيسة رأتها أو رأتاها في الحبشة يقال لها: مارية، وما فيها من التصاوير وما كانت عليها من الحُسن، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: -واسمع يا رعاكِ الله-: «**أولئكِ كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك التصاوير**».

السؤال الآن:

وازنوا بين ما جاء في الآية وما جاء في الحديث، أليس هذا هو هذا؟!

مات رجلٌ صالح فبُنِيَّ على قبره مسجد، فالذي جاء في الحديث هو هو الذي جاء في الآية.

ماذا كان موقف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك؟ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أولئك أو أولئكِ شرارُ الخلق عند الله**».

إذن هذا الفعل الذي جاء في الآية، ما الحكم الذي دل عليه الحديث؟

جاء أنه صواب أو خطأ؟

جاء أنه خطأ، وجاء أنه باطل، وبالتالي فكيف يستدل بعد ذلك بهذه الآية والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بيَّن الأمر وفصله، وأنَّ هؤلاء الذين يفعلون هذا الفعل وكانوا يفعلون هذا الفعل شرار الخلق عند الله؟

فكيف إذا ضممنا إلى هذا الأحاديث التي هي بالعشرات في نهي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن البناء على القبور أو عن اتخاذها مسجدًا؟

أفلا يقال بعد هذا أن هذه الآية دليلٌ على اتخاذ القبور مساجد، -حاشا وكلا-.

والله تعالى أعلم.

٣٥

٣٥- باب ما جاء أنّ بعض هذه الأمّة يعبد الأوثان

(المجلس الثاني)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: ((لتتبعنَّ سَنَنَ من كان قبلكم، حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه))، قالوا: يارسول الله، الهود والنصارى؟ قال: ((فمن؟!)). أخرجاه.

أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، والمؤلف عزا هذا الحديث بهذا اللفظ إلى الشيخين في صحيحيهما، وهذا اللفظ الذي أورده المؤلف ليس هو اللفظَ الذي أورده الشيخان، وإنما الحديث في الصحيحين بلفظ: قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما من حديث أبي سعيد، قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب اتبعتوهم.فقلنا: يا رسول الله، آليهود والنصارى؟ قال النبي** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **فمن؟**»

وهذا الحديث أورده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بلفظ «**حذو القذة بالقذة**» وقفت عليه في مسند الإمام أحمد، لكن من حديث شداد بن أوس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ليحملن شرار هذه الأمة على سنن من كان قبلهم حذو القذة بالقذة**»، ولكن هذا اللفظ فيه إسناده شهر بن الحوشب، وهو كثير الأوهام كما تعلمون.

ولعل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تابع في عزو هذا اللفظ إلى الشيخين، تابع شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((اقتضاء الصراط المستقيم))، فإن الذي يظهر لي والله أعلم أن المؤلف اقتطع هذا الباب من ((اقتضاء الصراط المستقيم))، وظهر ذلك من خلال تتبع ما في الاقتضاء مع ما في هذا الباب، من ذلك عزوه الحديث للصحيحين بهذا اللفظ وهو كذلك عنده شيخ الإسلام، وكذلك ما سيأتي من حديث ثوبان أورده رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه بهذا اللفظ وزاد الزيادة التي عند البرقاني أيضًا باللفظ نفسه.

فالذي يبدو والله أعلم أنَّ هذا الوهم في عزو اللفظ إنما جاء بكونه نقل بالواسطة والله أعلم.

وعلى كل حال من أراد التحقق من الألفاظ في هذا الكتاب من حيث صحة اللفظ إلى المخرَّج، فعليه بكتاب حفيد المؤلف الذي هو ((التيسير))، فإن الشيخ سليمان بن عبد

الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحب ((تيسير العزيز الحميد)) كانت له عناية بتتبع ألفاظ كتاب التوحيد، وبيان اللفظ الصحيح المنسوب إلى المخَرج من غيره.

وعلى كل حال لعل المؤلف كان ينقل بعض أبواب هذا الكتاب من بعض الكتب، ولربما كتب بعض الأحاديث من حفظه، ومن الذي يسلم من الوهم والغلط!

المقصود: أن هذا الحديث الذي بين أيدينا حديث صحيح ثابت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جاء عنه من رواية عدد من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو قد جاء كما رأيت من حديث أبي سعيد، وجاء أيضا عند ((البخاري)) عن حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وفيه أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«لا تقوم الساعة حتى تتبع أمتي سنن من كان قبلها، قالوا: كفارس والروم، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فمن الناس إلا أولئك؟»**

وهذا الحديث فيه ذكر فارس والروم، وفي الحديث الذي بين أيدينا ذكر اليهود والنصارى، والجمع بينهما كما نقل الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((الفتح)) من قول بعض أهل العلم أن اتباع هذه الأمة في الدين أصولًا وفروعًا كان لليهود والنصارى، وفي شأن الحكم والسياسة كان لفارس والروم، والله تعالى أعلم.

أيضًا جاء هذا الحديث بلفظ قريب مما أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أو ما جاء في حديث أبي سعيد، جاء من رواية ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا كما عند الحاكم والبزار وغيرهما بإسنادٍ حسن وفيه زيادة، وهي قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«حتى لو كان من أحدهم أن ضاجع أمه بالطريق لكان من أمتي من يفعل ذلك»**، إلى هذه الدرجة أو إلى هذا الحد تكون المتابعة لهؤلاء، والله المستعان، كما جاء أيضًا من حديث غيرهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

المقصود أنَّ هذا المعنى ثابت في روايات عدة عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أصل في هذا الباب، أصلٌ في إثبات ما أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إثباته في هذا الباب، والرد على الشبهة التي أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كشفها في هذا الباب، وهي شبهة القبوريين الذين يزعمون أن الشرك لا يقع في هذه الأمة.

فهذا الحديث فيه إثبات أن هذه الأمة سيكون منها من يتبع اليهود والنصارى فيما ضلوا فيه، ومن ذلك لا شك ما يكون من اتباعهم في شأن الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا.

وهذا الحديث من أعلام نبوة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث وقع ما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأنت إذا سرّحت طرفك في أحوال المسلمين في أمورهم المختلفة، وجدت اتّباع ما عليه أهل الكتاب والتشبه بهم في العقيدة من جهة الغلو في الصالحين، والبناء على القبور، واتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا، ووقوع أنواع الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتحريف الكلم عن مواضعه، وتعطيل صفات الله جَلَّ وَعَلَا، في أمور شتى يعلمها من يتبع هذا الأمر.

وإن نظرت إلى التشبه بهم في العبادات، وجدت أنه قد دخل على كثير من المسلمين الإحداث في الدين من قِبَلِ التشبه بهؤلاء الكفار.

وإذا نظرت إلى الأخلاق والعادات فحدِّث ولا حرج، وليس عليك إلا أن تنظر في بيوتات المسلمين وطرقاتهم لتعلم مقدار ما عليه كثير من المسلمين من التشبه باليهود والنصارى في الملبس والهيئة والعادة والكلام، وما إلى ذلك، والله المستعان.

فحصل ما أخبر به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان كما قال.

أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث بقوله: **«لتتبعن سنن من كان قبلكم»**، ولاحظ كيف أن هذا الفعل أُكِّد بثلاثة مؤكدات:

أولًا: اليمين المقدرة.

[ثانيًا]: اللام.

[ثالثًا]: النون.

كل ذلك يدل على أن هذا واقع لا محالة من هذه الأمة.

والمقصود هو مجموعها لا جميعها، انتبه لهذا.

مجموع الأمة سيكون منهم اتباع اليهود والنصارى، وليس أنها جميعًا من كل فرد من أفرادها سيقع ذلك، إنما في الجملة سيقع اتباع اليهود والنصارى منها، قال: **«لتتبعن سنن من قبلكم»**، قرئ هذا اللفظ بالفتح والضم، (سَنن)، و(سُنن)، والأشهر الفتح، هذه الكلمة إذا قُرِأت بالفتح فهي كلمة مفردة، بمعنى: الطريق.

وإذا قرأت بالضم (سُنن) فهي جمع سنة، والسنة هي: السبيل والطريقة أيضًا.

فهما معنيان متقاربان.

وأكد النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن هذا الاتباع سيكون اتباعًا دقيقًا، شبرًا بشر، وذراعًا بذراع.

وفي اللفظ الذي بين أيدينا **«حذو القذة بالقذة»**، الحذو هو: القطع، والقذة هي: الريشة التي توضع في السهم، فكانوا إذا صنعوا وبروا السهام فإنهم يضعون ريشة للنسر أو للصقر أو ما إلى ذلك، وهذه الريشة تكون سببًا في استقامة السهم إذا رُمي، كانوا يضعون قذتين؛ يعني: كانوا يضعون ريشتين، ولا بد لباري السهم أن يجعل إحدى الريشتين مطابقة للأخرى، وإلا فإنه ما انتفع، لا بد أن تكون إحدى الريشتين مثل الأخرى تمامًا، ولأجل هذا أطلقت العرب هذا المثل فقالوا: حذو القذة بالقذة، هذا يطلق على الشيئين يكونان متطابقين تمامًا.

إذا أخبر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنه سيكون هناك مطابقة تامة لما يقع من اليهود والنصارى في الجملة.

وأخبر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن هذا الاتباع والتشبه والمطابقة لأحوالهم تصل إلى الحد الذي لو قُدر فيه دخول أحدهم جحر ضب، لكان من هذه الأمة من يدخل جحر الضب كما فعلوا.

الضب هو: الحيوان الزاحف المعروف، وجحره هو غاره، وهو شيء صغير لا يُتصور أن يدخله إنسان، لكن جرت عادة العرب على أن يذكروا الأمر المستحيل من جهة المبالغة، إذا أرادوا أن يبالغوا في حكاية شيء، فإنهم يذكرون أمرًا مستحيلًا.

والمقصود أن هذه المشابهة والمتابعة تصل إلى الحد الذي ربما لا يتصور وقوعه، وجاء كما سمعت في حديث ابن عباس مرفوعًا: **«حتى لو كان منهم من يضاجع أمه في الطريق لكان من هذه الأمة من يفعل ذلك»**، نسأل الله السلامة والعافية.

إذن هذا الأمر الذي أخبر به النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أمر واقعي حقيقي ليس خياليًا، وتأكد ذلك من حيث الواقع، فهو شاهد على صحة ما أخبر به النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولمسلم عن ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الله قد زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها....

هذا الحديث حديث ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهو كما قال المؤلف مخرج في ((صحيح الإمام مسلم))، وفيه ذكر آية من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التي خَصَّ بها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أخبر النبي الصادق المصدوق صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ الله زوى لنبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الأرض.

زوى يعني: جمع، والمعنى: أنَّه طوى له الأرض حتى أصبحت في نظره صغيرة، فرأى مشارقها ومغاربها، وأخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ ملك هذه الأمة سيبلغ ما زُويَّ له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها.

وكان ما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك أن الإسلام توسع وانتشر -والحمد والمنة لله- في عهد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم في عهد أصحابه، ثم في عهد التابعين فمن بعد، توسع الإسلام شرقا وغربا، ولاحظ أن: اتساع الإسلام كان بالنسبة للجزيرة التي منها نشأ، كان من جهة المشرق ومن جهة المغرب أكثر مما كان من جهة الشمال والجنوب؛ لأنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر بهذا ذكر المشروق والمغرب، فكان كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وأعطيت الكنزين**»، المقصود بالإعطاء؛ إعطاء أمته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن حصول هذه الغنائم وهذه الكنوز إنما كان في عهد أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في عهد عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ولم يكن هذا في عهده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن ذكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أُعطيه، لأن الإعطاء كان لأمته التي هو قائدها، وهو نبيها، وهو سيدها، لا سيما وأن إعطاء الأمة هذه النعمة إنما كان بسببه هو صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبتركة اتباعه والإيمان برسالته، فصحَّ أن يُضاف هذا الإعطاء إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أُعطيَّ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الكنزين الأحمر والأبيض، يعني: الذهب والفضة.

والمراد: أنه نالت هذه الأمة الأموال والمكاسب والخيرات والغنائم التي كانت عند فارس والروم.

والغالب على مال كسرى والفرس هو: الفضة، وهذا هو الكنز الأبيض.

والغالب على كنز الروم وقيصر هو: الذهب، وهذا هو الكنز الأحمر.

وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة بعامة

هذا سؤال من النبي الرؤوف الرحيم بهذه الأمة، سأل ربه جَلَّوَعَلَا لهذه الأمة ألا يهلكها بسنة بعامة.

وكلمة (بعامة) جاءت في بعض نسخ كتاب التوحيد بهذا اللفظ بإثبات الباء، وجاءت في بعض النسخ بحذف الباء (بسنة عامة)، وهكذا كان الأمر في الأصل، يعني في صحيح مسلم، فإن نُسَخَ صحيح مسلم جاء في بعضها (بسنة بعامة)، وجاء في بعضها (بسنة عامة)، وهكذا في بقية المصادر التي خرجت هذا الحديث.

وعلى كل حال المعنى واحد، والباء كما يقول أهل اللغة ها هنا زائدة.

سأل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ربه ألا يهلك هذه الأمة بسنة عامة.

السنة يعني: الجدب وانقطاع المطر، سأل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ألا يهلك هذه الأمة بالعطش، وسيأتي معنا أن الله جَلَّوَعَلَا استجاب ذلك، وأنه لم يكن هناك -والحمد والمنة لله- جدب عام لجميع أقطار الأمة الإسلامية، إنما كان يكون جدب في مكان ورخاء ومطر في مكان آخر.

«وألا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم

السؤال الثاني أو الطلب الثاني الذي سأل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ربه هو: «**ألا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم**»، وسيأتي الكلام عن هذه القطعة فيما يأتي من الحديث إن شاء الله.

وإن ربي قال: يا محمد ، إذا قضيت قضاء فإنه لا يُرد

أجاب الله عَزَّوَجَلَّ نبيه صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بما بينه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في هذا الحديث، وهو أن الله تعالى إذا قضى قضاء فإنه لا يرد.

وهذا القضاء -يا رعاك الله- هو: القضاء الكوني.

والقضاء الكوني هو في معنى: المشيئة، فما قضى الله كونًا، فإنه واقع ولا بد، ولا يمكن أن يُغالَب الله عَزَّوَجَلَّ في قضائه الكوني، إذ من ذا الذي يغالب الله من خلقه!

فالله إذا قضى أمرًا وقع ولا بد، ومن هذا القضاء ما جاء في كتاب الله جَلَّوَعَلَا في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[الإسراء:٤]، فهذا قضاءٌ كوني متى قضاه الله عَزَّوَجَلَّ فإنه لا بد من وقوعه.

والمقضي كونًا قد يكون: محبوبًا لله، وقد يكون: مبغوضًا لله.

فالإفساد الذي قضاه الله عَزَّوَجَلَّ في شأن بني إسرائيل مبغوض لله غير محبوب، لكنَّ الله جَلَّوَعَلَا قد يقضي ما لا يحب؛ لأنه يفضي إلى ما يحب.

إذن المقضي كونًا ينقسم إلى قسمين:

إما أن يكون محبوب لذاته لله جَلَّوَعَلَا .

وإما أن يكون محبوبًا لغيره.

وثمة قضاءٌ آخر، هو: القضاء الشرعي، وهو في معنى: المحبة، والإرادة الشرعية، ومن هذا الباب قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[الإسراء:٢٣]، فهذا القضاء لا يلزم وقوعه، قد يقع وقد لا يقع، لكنه محبوب لله عَزَّوَجَلَّ ولا بد.

إذن القضاء الشرعي ملازم للمحبة، والقضاء الكوني ملازم للوقوع.

ما قضاه الله كونًا لا بدَّ من وقوعه، سواءً كان محبوبا لله في ذاته أو غير محبوب، وما قضاه شرعًا فإنه محبوبٌ لله جَلَّوَعَلَا قطعًا، ولكن قد يقع وقد لا يقع، فلما قضى الله جَلَّوَعَلَا شرعا ألا يُعبد إلا إياه لم يكن هذا واقعًا من جميع الناس، من الناس من استجاب وهم الأقلون، ومن الناس من أعرض وهم الأكثرون، فدل هذا على أنَّ المقضي شرعًا قد يقع وقد لا يقع.

وهذا الذي بين أيدينا في الحديث، وهو القضاء الكوني، لأن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيّن فيما أخبر عن ربه أنه عَزَّوَجَلَّ إذا قضى قضاءً فإنه لا يرد، وهذا هو القضاء الكوني.

وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكها بسنة عامة

هذا من فضل الله وله الحمد والمنة، قضى الله قضاء كونيًا لا يتخلف وهو أن هذه الأمة لا تُهلك بالجدب والقحط وقلة المطر جميعًا، إنما قد يكون القحط في ديار دون ديار، وفي أماكن دون أخرى.

وألا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا

الأمر الأول الذي سأله النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه أجابه الله جَلَّ وَعَلَا بلا قيّد.

أما الثاني فكان الجواب جوابًا مقيدًا، وهو في شأن استئصال شأفة هذه الأمة، أجاب الله عَزَّوَجَلَّ نبيه أن لا يسلط على هذه الأمة عدوًا من خارجها؛ يعني: من سوى أنفسها، من كفار خارجين عن هذه الأمة، لا يتسلطون على هذه الأمة فيستبيحون بيضتها.

المقصود بالبيضة: يعني مجتمع المسلمين وموضع اجتماعهم وقوتهم، والعرب تقول: (بيضة الدار) لوسطها ومعظمها.

والمقصود بذلك أن الله جَلَّ وَعَلَا وعد ووعده لا يُخلف أنه لا يسلط عدوًا على هذه الأمة من الخارج فيستبيح سلطانها ويقضي على موضع إمامتها، وخلافتها، وقوتها، إلا إذا وُجد أمر، قال: (حتى): ولاحظ أن حتى هنا هي للغاية، إذا بلغ الأمر أن بعض هذه الأمة قتل بعضًا، وسبى بعضها بعضا، حينئذ فإن الأمر مخوف، فلم يكن وعدٌ من الله جَلَّ وَعَلَا لهذه الأمة، إن كان من هذه الأمة تسلط على بعضها ألا يكون هناك تسلط من الكفار، بل يمكن أن يقع ذلك أن يتسلط الكفار على المسلمين فيستبيحون بيضة الإسلام، وهذا ما وقع مع الأسف الشديد في مراتٍ متكررة في التاريخ، ومن نظر في التاريخ عرف ذلك.

ومن أشهر تلك الوقائع: ما حصل من تسلط التتار على المسلمين حينما غزوا بلاد المسلمين، حتى وصلوا إلى بيضة الإسلام وعاصمة الإسلام بغداد، وحصل ما حصل من القتل العظيم، الذي كانت جثث المسلمين فيه؛ كالتلال في بغداد، وحتى أن الميازيب، ميازيب بغداد كما قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ سالت دمًا في الأزقة، وكان ذلك سنة ست

وخمسين وستمائة للهجرة، استمر تسلط هؤلاء التتار على بغداد في أيام معدودة في حدود أربعين إلى ستين يومًا، بلغ قتلى المسلمين ألفي ألفي قتيل، أي كما نقول بلساننا المعاصر مليوني قتيل، ولم يسلم من ذلك كما يقول ابن كثير إلا أهل الذمة من اليهود والنصارى، أو من أمَّنَه الوزير ابن العلقمي الذي كان سبب دخول التتار على المسلمين.

الشاهد أنَّ هذه مقتلة عظيمة، لكن متى حصلت؟ لما فشا بين المسلمين الإحن البغضاء والفتن، وسُلت سيوف بعض المسلمين على بعض، حينئذ حصل الذي شاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدره.

وهكذا حصل في بعض البلاد الأخرى في الأندلس حصل على المسلمين ما حصل، حتى استولى الكفار على بلاد الأندلس.

كذلك في الحروب الصليبية حصل على المسلمين ما حصل، وفي عصرنا الحديث استولى الكفار على بعض بلاد المسلمين في فلسطين وفي غيرها، في وقائع تدل وتشهد على أن المسلمين نِيْطَ نصرهم بتحقق أمرين، لا نصر ولا عز لهم إلا باجتماعهما:

أولًا: تحقيق التوحيد والاتباع لله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا**﴾ متى؟ ﴿**يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا**﴾**[النور:٥٥]**.

[ثانيًا]: حصول الاجتماع وعدم الفرقة والاختلاف، كما أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربه في هذا الحديث، إذا اختلفوا وتقاطعوا وتقاتلوا، فإن لا وعد لهم بالنصرة والعزة والتمكين، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾**[الأنفال:٤٦]**، تصبحون ضعفاء لا قيمة لكم بين الأمم، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ورواه البّرقاني في صحيحه وزاد: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين

البرقاني هو: تلميذ الدار قطني، وشيخ الخطيب البغدادي، توفي سنة خمسة وعشرين وأربعمائة، منسوبٌ على برقان، قرية من قرى الشرق في خوارزم.

هذه الزيادة كما ذكرها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخرجها البرقاني في صحيحه، ولك أن تقول في مسنده، ولك أن تقوله في مستخرجه، وكل ذلك مستعمل عند أهل العلم.

وهذا الكتاب في حد علمي مفقود إلا قطعة يسيرة في أوراق معدودة وجدت.

والحديث كاملًا بما سبق وبهذه الزيادة خرجَّه إضافة إلى البرقاني أبو داود في ((سننه)) وكذلك الإمام أحمد في ((مسنده)) وغيرهما، فهي زيادة صحيحة.

قال: **«وإني أخاف على أمتي الأئمة المضلين»**، هذا من كلام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يخبر أنه يخاف على هذه الأمة الأئمة المضلين.

والأئمة المضلون هذا الوصف يشمل طائفين:

١/ ضُلَّاَل الحكام.

٢/ ضُلَّاَل العلماء

وما دخل الشر والشرك والبدعة على هذه الأمة إلا من خلال هاتين الطائفتين، من خلال الأئمة المضلين، حكامًا أو علماء، والأمر كما قال ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوءٍ ورهبانها

فالحكام من أهل الشر والبدعة والشرك، يحملون الناس على الضلال، كما حصل في عهد الإمام أحمد من فتنة خلق القرآن التي لا تخفاكم، ولها نظائر في التاريخ الإسلامي.

وأما العلماء علماء السوء، الأئمة المضلين، فهؤلاء أكثر، وتأثيرهم أعظم، هؤلاء الذين يزينون الشر، ويزينون الضلال، ويزينون مخالفة الكتاب والسنة، ماذا يقول الإنسان عن تأثيرهم على الناس؟! لا سيما على الجهال والأغمار.

هؤلاء يحسِّنون الشرك، هم الذين يقولون للناس أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: إذا أعيتكم الأمور فعليكم بالقبور.

هم الذين يقولون للناس إنهم يعلمون الغيب، حتى إنهم يعلمون أهل الجنة من أهل النار.

هم الذين يأمرونهم بالغلو على الصالحين، والبناء على القبور، واتخاذها مساجد.

هم الذين يحسنون لهم التبرك الممنوع، ولبس التمائم، وفعل البدع والمحدثات.

هؤلاء هم أئمة الضلال.

والله جَلَّوَعَلَا لحكمته، جعل في الناس أئمة خير، وجعل في الناس أئمة شر: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[سورة السجده:٢٤]، هؤلاء أئمة الخير، وقال في الشق الآخر في فرعون وجنوده، ويشمل ذلك من على شاكلتهم: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾[القصص:٤١].

إذن خاف النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على أمته الأئمة المضلين؛ لأن الشرور والمفاسد إنما تكون بتسلطهم وتزينهم على هذه الأمة، والواقع أكبر شاهد.

فهل للشرك والبدع وأنواع الضلالات، هل لها أن تنتشر بين الناس لولا هؤلاء الذين يخطبون ويتكلمون ويكتبون ويدِّرسون وينشرون مع الأسف الشديد؟

هؤلاء فسادهم عظيم مع وجودهم وكثرتهم في كل زمان ومكان، لا كثرهم الله.

هؤلاء محل خوف النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على هذه الأمة، وجاء في مسند أحمد بإسناد قوي أن النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان**»، هذا من أخوف ما خافه النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ على هذه الأمة.

منافق، لكن المصيبة أنه عليم اللسان، عنده لسان وعنده أسلوب، وعنده وسيلة جذب للناس، فإذا تكلم وإذا خطب أثر، والمصيبة أن كثيرًا من المسلمين لا سيما في العصور المتأخرة جهال بدينهم، والجهال يخدعهم بريق الألفاظ، دون أن يغوصوا إلى الحقائق المعاني فيكشفون الحقيقة عن الزيف، وبالتالي يكثر التأثر بهم ويكثر الفساد بهم، والله المستعان.

وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة

صدق رسول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهذا الحديث كما قال الشيخ سليمان في شرحه على كتاب التوحيد، كل قطعة منه دليل على شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وذلك لأن كل قطعه منه قد وقعت كما أخبر النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

أخبر النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن السيف إذا وقع في هذه الأمة لم يرفع إلى يوم القيامة وكان ما أخبر به لما سُل السيف على هذه الأمة منذ عهد عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ لم يرفع ولن يرفع إلى أن يشاء الله، وقتلى المسلمين بفعل من ينتسبون للإسلام أكثر من قتلى المسلمين الذين قتلوا بفعل غيرهم، فتأثير الخوارج والبغاة ومن تأول، أو القتال الذي حصل بسبب التغلب، أو الحرص على السلطة بين المسلمين على مدار التاريخ شيء كثير جدًا، فالسيف إذا وقع على هذه الأمة من داخل هذه الأمة، وإذا وقع عليها من داخلها، تسلط الكفار كما مر بنا عليها من خارجها فلا يرفع ذلك إلى يوم القيامة.

ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان

هذا هو موضع الشاهد من الحديث، ولأجله أورد المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ هذا الحديث بطوله في هذا الباب.

أخبر النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنه لن تقوم الساعة حتى يلحق حيٌ من أمته صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالمشركين، وحتى يعبد فئام من هذه الأمة الأصنام.

فئام يعني: مجموعة، والحي هو: القبيلة.

وجاء عند أبي داود: «**حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأصنام**».

وما المقصود بقوله صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بلحوق حي أو قبائل من هذه الأمة بالمشركين؟

هل المراد أنهم يرتدّون فيكونون قد لحقوا بالمشركين حكمًا، وهم في أماكنهم.

أو أن المقصود أنهم يلحقون بالمشركين واقعًا فينتقلون إلى ديارهم ويسكنونها.

أو أنهم يجمعون بين هذا، وبين الردة عن دين الله جَلَّوَعَلَا.

الأقرب والله أعلم هو: أنهم يلحقون بهم ويسكنون ديارهم؛ لأن المعنى لو كان هو الأول وهو أنهم يرتدون لكان ما ذُكر بعده في معناه فيكون شبيها بالتكرار، والتأسيس كما عند الأصوليين أولى من التأكيد، فذكر معنى جديد أولى من تأكيد معنى آخر ذُكر، وبالتالي فيكون هذا الحديث دليلًا على أن سُكنى بلاد الكفار أمر مذموم شرعًا، إلا لمصلحة شرعية معتبرة.

الشاهد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أن من هذه الأمة من سيقع في الشرك، سيعبد الأوثان والأصنام، وكان ما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحدث ولا حرج عمن ينتسبون للإسلام ويقولون لا إله إلا الله، وربما صلوا وصاموا وزكوا وحجوا، ولكنهم عند القبور، وبعيدًا عنها يتوجهون إلى الأموات، يدعون ويستغيثون، وينذرون ويذبحون ويطوفون، فإنا لله وإنا لله راجعون.

وقع ما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودونك تلك المشاهد، ودونك تلك القباب، ودونك تلك الأضرحة التي تعج بها بلاد المسلمين إلا ما قل وما رحم الله سبحانه، فهذا من علامات النبوة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث كان كما أخبر وهذا ردٌ بالغ على أولئك الذين ذكروا الشبهة السابقة، وهي أن الشرك لا يقع في هذه الأمة، وأن من دخل في الإسلام لا يرتد. يا لله للعجب! ماذا نصنع ب هذا الحديث؟ وأين هؤلاء عما ثبت في الصحيحين أيضًا عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس عند ذي الخلصة**».

ونساء دوس وهي: قبيلة في جنوب الجزيرة العربية.

أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها لن تقوم الساعة حتى تضطرب ألياتهن؛ يعني: أردافهن عند ذلك الوثن الذي هو طاغية دوس، واسمه: ذو الخلصة.

أين هؤلاء عما جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أحاديث كثيرة، في ثبوت أن من هذه الأمة من سيكفر ويرتد، ألم يُخرِج الإمام مسلم في ((صحيحه)) عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً، ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا**».

أين هم عن حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو ثابت في ((الصحيحين)) لما ذكر الدجال وأنه يجوب الأرض إلا المدينة، فإن على أنقابها ملائكة يحرسونها، أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث أنها «**ترجف ثلاث رجفات**»، فيخرج من المدينة التي هي أعظم المدائن والتي يرجع إليها الإيمان في آخر الزمان، قال: «**فيخرج منها كل كافر ومنافق**»، وهي المدينة، فماذا يُقال عن غيرها!!

إذن هذه الأدلة وغيرها كثير دليل على بطلان تلك الشبة التي يروج لها عباد القبور.

وفي هذه الأحاديث أيضًا ما يُورث المسلم الخشية والخوف والوجل، فإن الشرك مَخُوف، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أن الجنة أقرب إلى أحدنا من شراك نعله، والنار مثل ذلك، هذا دليل على أن الأسباب التي توصل إلى الجنة سهلة ويسيرة والأمر كذلك إلى النار.

على المسلم أن يحذر، وأن يخاف، وأن يلجأ إلى الله جَلَّ وَعَلَا بالصدق أن يجنبه الشرك وعبادة غيره.

وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي

سيكون كما أخبر النبي أناس يزعمون أنهم أنبياء، رؤوس أولئك هذا العدد الذي ذكره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم ثلاثون، وهذا العدد فيه أنه سيكون هناك دجالون ثلاثون، كلهم يدعي أنه نبي، وليس فيه الحديث أن كل من يدعون هذه الدعوى ثلاثون، إنما هؤلاء الثلاثون هم الأبرز والأشهر، أو الذين لهم أتباع والله تعالى أعلم.

وهذا قد كان فكم الذين على مدار التاريخ في القديم والحديث ادَّعوا النبوة، من مسيلمة الذي كان صاحب اليمامة، وأخوه الأسود العَنَسِي الذي كان في صنعاء، والى هذا العصر ككذاب قاديان، غلام أحمد القادياني في الهند، وغيرهم، الذين يدعون أنهم أنبياء بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والأمر المقطوع المعلوم من الدين بالضرورة أن النبي محمد بن عبد الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم الأنبياء والمرسلين، فلا نبي بعده، كما نطق بهذا الكتاب، وكما نطق بهذا حديث رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن أثبت نبوة لأحد بعد النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو كافرٌ بإجماع المسلمين؛ لأنه مكذب للقرآن وخاتم النبيين، ومكذب لحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي تكاثر عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من أنه لا نبي بعده.

ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى».

هذا ختام الحديث وفيه هذه البشارة من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الخير باقٍ في الأمة، وأن الحق مستمر في هذه الأمة، ستبقى طائفة والطائفة هي: الجماعة من الناس على الحق ظاهرة لا يضرها من خذلها ولا من خالفها حتى يأتي أمر الله.

وأمر الله يأتي قبيل قيام الساعة، حيث يرسل الله عَزَّوَجَلَّ ريحًا طيبة تأخذ أرواح المؤمنين، فلا يبقى على وجه الأرض إلا شرار الأرض.

هذه الطائفة التي ستبقى مستمسكه بالحق، هي التي قامت حقًا وصدقًا بتوحيد الله واتباع رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالت بما قال به القرآن وبما قالت به سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اتبعوا الكتاب والسنة في كل صغير وكبير، لم يقولوا ولا يعتقدوا ولم يعملوا إلا ما قام عليه برهان من الوحي، هؤلاء هم أهلُ السنة والجماعة، هم السلف الصالح وأتباعهم، هم أهل الحديث يعني: أهل السنة والجماعة.

ليس المقصود بأهل الحديث الذين يشتغلون بعلم الحديث، وإنما وصف أهل الحديث هو مرادف لوصف أهل السنة والجماعة، الذين قام اعتقادهم وقامت عبادتهم على مقتضى سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هؤلاء هم أهل الحق الذين سيبقون ولن يضرهم مخالفة المخالفين، ولا خذلان المخذلين.

٣٦

٣٦- باب

ما جاء في السحر

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب:

ما جاء في السحر

هذا البابُ من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ استكمالٌ لما جرى عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الكتاب من بيان: نواقض وقوادح التوحيد.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (باب ما جاء في السحر).

السحر في اللغة: اختلف العلماء في تفسيره، وقد ذكروا أشياء في التعريف اللغوي لهذه الكلمة، من أشهر ما ذكروا أنَّ السحر هو:

ما خَفيَّ ولَطُف ودقّ سببه، ومنه سمي: السَحْر؛ لأنّه تخفى فيه الأشياء: السَحْرُ آخر الليل.

وذكر بعض اللغويين أنَّ أصل هذه الكلمة في اللغة يرجع إلى: صرف الشيء عن وجهه، وذكروا غير ذلك في كلام كثير عند أهل اللغة.

أمَّا في الاصطلاح: فالناظر في كلام أهل العلم في حدِّ السحر يجدُ أنهم اختلفوا إلى ثلاث طرائق:

[المسلك الأول]: منهم من لا يعرف السحر؛ وذلك لكثرة أنواعه التي تدخل تحت هذا اللفظ، وليس بينها قدر جامع مشترك، ولأجل هذا فإنَّ هؤلاء يذكرون أمثلةً للسحر، ولا يحدُّونه بحد.

ومن أولئك: الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الجزء الأول من كتابه ((الأم)) حيث إنه قال: السحر اسمٌ جامع لمعانٍ مختلفة.

وهكذا استظهر غيرهم من أهل العلم، ومن المتأخرين العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في: كتابه ((أضواء البيان)).

المسلك الثاني: هو ذكر تعريفٍ عامٍ للسحر.

من هؤلاء من يقول: إنه مزاولة النفس الخبيثة لأقوالٍ و أفعالٍ تكون منها أمور خارقة.

ومنهم من يقول في تعريف السحر: إنه اجتلابُ معونة الشيطان بالتقرب إليه.

المسلك الثالث: فهو تعريفه بذكرِ أمثلةٍ له فيُجعل التعريف بالمثال.

ومن هؤلاء ابن قدامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في كتابه ((الكافي))، وكما أيضاً في كتابه ((المغني)) فإنه عرف السحر: بأنه عُقَد ورُقى وعزائم تُؤثر في القلوب، والأبدان، فتُمرض وتَقتلُ وتُفرِّق بين الرجل وزوجه.

هذه مسالك أهل العلم في تعريف السحر.

ومن أهم ما ينبغي علينا أن نعرفه السحر هو حكم السحر، وهل هو حقيقة أم لا؟

أمَّا كون السحر له حقيقة فإنَّ هذا مذهب أهل السُنة والجماعة، بل مذهب عامة الأمم لم ينكروا في عمومهم أنَّ للسحر حقيقةً، وأنّ له تأثيرًا حقيقيًّا، وذلك أنه: بمعاونة الشياطين يكون بهذا السحر تأثيرٌ على المسحور بإمراضه، سواءاً تعلق ذلك: بعقله فربما أصاب عقلة بأذى حتى ربما أوصله إلى حدِّ الجنون، وربما أصاب بدنه فأمرضه، وربما قتله، وربما أذاه في علاقاته من جهة نفسانية فيكون بسببه وقوع الفرقة والبغضاء بين الزوجين، أو عدم القدرة على مباشرة الزوجة وما إلى ذلك.

هذا هو الحق الذي لا شك فيه أن للسحر حقيقةً وأن له تأثيرً حقيقيًّ، ولكنَّ ذلك إنما هو بإذن الله الكوني ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾**[البقرة:١٠٢]** وهذا هو الإذن الكوني المرادف: للمشيئة.

وخالف بعض الناس في ذلك وهم: المعتزلة، ووافقهم على هذا بعضهم كـ ابن حزم و الجصاص الحنفي ذهبوا إلى: أنَّ السحر ليس إلا تَخْيِّيلاً للعين، يحصل تخييل للعين بحيث إنّها ترى الشيء على خلاف حقيقته.

والصواب الذي لا شك فيه هو قول عموم الناس من أهل السُنة وغيرهم، ويدل على هذا أدلة كثيرة:

[الدليل الأول]: قول الله جَلَّوَعَلَا ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾**[البقرة:١٠٢]**، فدلت هذه الآية على أن السحر يكون بسببه أثرٌ يُفرَق به بين الرجل وأهله، وهذا دليل على أنّ له تأثيراً حقيقي.

[الدليل الثاني]: قول الله جَلَّوَعَلَا ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾[الفلق:٤]، والنّفاثات في العُقد: هنَّ السواحر التي يسحرنّ وينفثن في العقد فيكون التأثير بإذن الله الكوني، ولولا أنّ للسحر حقيقة وتأثيراً ما كانت الاستعاذة من السواحر.

[الدليل الثالث]: قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المخرج في ((الصحيحين)) «**من تصبح بسبع تمراتٍ من عجوة العالية لم يصبه في ذلك اليوم سمٌ ولا سحر**»، وفي رواية: «**لم يضره سُمٌ ولا سحر**».

ولاحظ أنَّ هذا الحديث فيه:

أولاً: حثٌ من الوقاية من ضرر السحر، فدل على أنَّ له ضرراً حقيقياً.

ثانياً: إثباتُ الضرر لم يضره، إذن هو تأثيرٌ حقيقي.

ثالثاً: قرنه بالسُم، والسُم تأثيره تأثير حقيقي، فدل هذا على أنَّ للسحر حقيقة.

الدليل الرابع: ما ثبتَ أيضاً في ((الصحيحين)) من قصة سحر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سُحر -ولعله يأتي معنا إن شاء الله الكلام في هذا على وجه التفصيل- غير أنّ سِحر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان في شيءٍ مخصوص لم يُؤثر في عقلة ولا في قلبه، وحاشاه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، إنَّما كان هذا السحر من جنس الأمراض التي تُصيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وذلك جائزٌ في حقهم.

والسِّحر الذي أصيب به النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تعلّق بشأن خاص هو ما يتعلق أمر النساء حيث كان يُخيل إليه أنه يأتي أهله والواقع أنّه ما أتاهم، حتى إنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فرج عنه ذلك ودله على موضع السحر وأنه كان في مُشطٍ ومشاطة في جُفِّ طلعة ذكر في بئر ذي أروان، فلما استُخرج ذلك نَشِطَ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعاد كما كان عليه من قبل، فدل هذا على أن للسحر حقيقة.

[الدليل الخامس]: وهو الواقع المشاهد الذي لا ينكره إلا مكابر، فإنَّ النَّاس تعرف في أحوالها وفي أحوال الآخرين من أصيب بهذا السحر فمنهم من رُبط عن أهله، ومنهم من وقع في نفسه بغضاءُ لأهله، ومنهم من أصابه أذىً في عقله، ولكن لما استُخرج السحرُ وأُتلف عاد هذا الإنسانُ إلى ما كان عليه من عافية، فدل هذا على أنَّ الأمر حقيقي ولا يمكن إنكاره، وصدق الخطابي رَحِمَهُٱللَّهُ حينما ذكر أنّ إنكار حقيقة السحر جهل. قال:

(إنكار حقيقة السحر جهلٌ) نعم الأمر كذلك، جهل بأدلة الشرع، وجهل بالواقع المحسوس، فالسحر إذن حقيقة وله تأثير.

أما المخالفون فإنهم استدلوا عن هذا بما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به عن سحر سحرة فرعون حيث قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾[الأعراف:١١٦]، ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾[طه:٦٦]، قالوا فهذا دليل على أن السحر ليس إلا تخييلاً للعين.

والجواب عن هذا أن يقال:

نحن لا ننكر أن من السحر ما هو تخييل للعين، ولكن لا دليل في الآيتين وما جرى مَجْراهما على أنَّ السحر كله محصور في تخييل العين، إنما غاية الأمر أن في هذا الدليل وأمثاله ما يدل على أن سحر سحرة فرعون كان من هذا النوع، ولكن لا دليل على أن السحر كله من هذا النوع سحرهم كان من هذا النوع ووراء ذلك نوع آخر لم يكن من صنعتهم وهو السحر الحقيقي المؤثر في العقول والأبدان.

ثم أنه يقال لهم أيضاً: إذا أمكن أن يكون في السحر تأثيراً على العين فما المانع أن يكون بسببه تأثيرٌ على غيره من أعضاء الإنسان؟ إذا أثر السحر في العين فما المانع من أن يؤثر في القلب والعقل وبقية الأعضاء؟

إذن الصحيح الذي لا شك فيه أن السحر منه ما هو حقيقة، ومنه ما هو تخييلٌ للعين حيث يُؤَثِّرُ على البصر حتى ترى الشيء على غير وجهة.

أما حكم السحر: فالناظر في كلام أهل العلم يجد أن لهم مسلكين في المسألة:

منهم من يطلق أنَّ السحر كفر بالله عَزَّوَجَلَّ وهؤلاء جمهور أهل العلم.

ومسلك آخر لطائفة أخرى هو أنهم يفصلون فيقولون:

من السحر ما هو كفر وما كان بإعانة الشياطين.

ومنه ما ليس بكفر إنما هو فسوق ومعصية وظلم وهو ما لم يكن بإعانة الشياطين، وممن نحى بهذا المنحى الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((الأم)).

والذي يظهر والله تعالى أعلم أنه لا خلاف حقيقياً بين القولين، ليس هناك خلاف حقيقي بين هذين المسلكين، فإن أهل العلم الذين أطلقوا أن السحر كفر بالله جَلَّوَعَلَا إنما مرادهم السحر الذي نطقت به الأدلة، وهو يكون بإعانة الشياطين، ولا يريد هؤلاء

الإطلاقات الأخرى التي تطلق على السحر وليست بإعانة الشياطين، فهم لا ينازعون أن هذه ليست كفراً، وإنما يعتبرون إطلاق السحر عليها من قبيل التجوز.

وأما الذين فصّلوا فقالوا:

من السحر ما هو كفر وهو ما كان بإعانة الشياطين.

ومنه ما يرجع إلى غير ذلك؛ كاستعمال الأدوية والعقاقير وخواص الأشياء من دُهاناتٍ وتدخيناتٍ وما إلى ذلك.

ومنهم ما يكون عن طريق ما يسمى بخفة اليد وما إلى ذلك، فهذه لا تدخل تحت حد السحر.

أمَا السحر بالمعنى الأول أو بالإطلاق الأصلي بما تعلق بإعانة الشياطين فإنّ ذلك كفر لا شك فيه، ويدل على هذا جملة من الأدلة:

[الدليل الأول]: قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢]إلى آخر السياق، ووجه الدلالة من هذه الآية من وجوه :-

[الوجه الأول]: في قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ ، فإنَّ معنى ذلك كما قال أهل التفسير: إن الله جَلَّوَعَلَا ردّ على اليهود زعمهم وإفكهم أن سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان يتعاطى السّحر، وبالتالي فيكون معنى الآية ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ لأنه لم يتعاطى السحر. فدل على أن السحر كفر.

أو وما سحر سليمان وبالتالي ما كفر.

فدل هذا على أن تعاطي السحر كفر بالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وهذا واضح.

الوجه الثاني: في قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾[البقرة:١٠٢] قال أهل الأصول: إنّ تعقيب الحكم بالوصف مُشعِرٌ بالعلية، يعني أنها هذا الوصف المذكور هو علة الحكم، الله جَلَّوَعَلَا حكم على الشياطين بالكفر فما العلة؟ أنهم يُعلمون الناس السحر، ومعلومٌ بلا خفاء أن تعليم الشيء لا يكون كفر إلا إذا كان هذا الشيء كفراً، فدل هذا على أنّ السحر كفرٌ.

الوجه الثالث: في قول هاروت وماروت: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[البقرة:١٠٢]، يعني يحذران من أراد تعلم السحر بأنّ من تعلم السحر فقد كفر، وهذا واضح جلي في الآية..

وقد ذكر ابن جرير بإسناده الصحيح عن ابن جُرَيج رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الآية أنه قال: (**لا يجترئ على السحر إلا كافر**).

الوجه الرابع: في قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾[البقرة:١٠٢] يعني: من استبدل الإيمان بالله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بالسحر فإنه ليس له عند الله جَلَّ وَعَلَا من خلاق يعني من حظٍ ونصيب، وظاهر هذه الآية كفر من تعاطى السحر؛ لأنّ الكافر هو الذي ليس له عند الله عَزَّوَجَلَّ في الآخرة من حظ ولا نصيب.

الوجه الخامس: في قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾[البقرة:١٠٣]، فإنّ هذا السياق يدل على أنّ هؤلاء كفروا؛ لأنّ من كان مؤمناً لا يُقال في حقه ولو أنه أمن واتقى لكان خيرا له؛ لأنه مؤمن أصلاً.

فدل هذا على أن من تعاطى السحر كفر.

إذن هذه –يا رعاك الله– وجوه خمسة ثلاثة منها نصٌ في الحكم بأن تعاطي السحر كفر، ووجهان الظاهر من الآية فيهما أن تعاطي السحر كفر.

أما الدليل الثاني: في قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾[طه:٦٩]، –وهذه الآية سيأتي ما أراد المؤلف رحمه الله لها–، وقد دل الاستعمال الغالب في القرآن على أن نفي الفلاح إنما يُعلّق على ما هو كفر، ويدل على هذا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إنه لا يفلح الكافرون﴾،[المؤمنون:١١٧] فدل هذا على أنّ الذي يُحكم عليه بعدم الفلاح إنما هو الكافر.

وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[يونس:٦٩–

٧٠]، فدل هذا على أنّ غالباً ما جاء في القرءان من نفي الفلاح إنما تعلّق بالكفر والكافرين، فهذا وجه صريح بأن تعاطي السحر كفر.

[الدليل] الثالث: هو ما ثبت في ((الصحيحين)) من قول النبي ﷺ: «**اتقوا السبع الموبقات أو اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر**» فهذا كما قال أهل العلم دليلٌ على أن السحر كفر وشرك بالله؛ لأنّ هذا العطف الشرك والسحر هو من باب العطف الخاص على العام.

والبخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بوّب باباً في ((صحيحه)) قال: بابٌ من الموبقات الشرك والسحر، وأورد تحته الحديث بهذا اللفظ «**اجتنبوا الموبقات: الشرك بالله، والسحر**» فقط، ولم يذكر ما عدا ذلك، وهل كان هذا منه؛ لأنها رواية عن النبي ﷺ بهذا القدر؟ أو أنّ هذا اختصار من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؟

استظهر الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذه الرواية اختصار من البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأنه رأى أن القدر الذي هو مخرج من الإسلام من هذه الأمور السبع إنما هو هذان الأمران: الشرك، والسحر.

*[ثبت عند أبي يعلى وغيره بإسناد صحيح كما قال الحافظ ابن كثير، وجيد كما قال المنذري وابن حجر، عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «**من أتى كاهنًا أو ساحرًا أو عرافًا فسأله فصدقة فقد كفر بما أنزل على محمد** ﷺ».

قال ابن حجر: (ومثله لا يقال بالرأي)].

[الدليل الرابع]: ما ثبت عن جمعٍ من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ من قتل السحرة وسيأتي الكلام عن ذلك مفصلاً -إن شاء الله-.

وأنت -يا رعاك الله- إذا نظرت وجدت أنَّ الساحر ليس بزانٍ ثيّب وليس بقاتل نفس، فما بقيَّ إلا أنه تاركٌ لدينه مارقٌ منه، وهؤلاء الثلاثة هم الذين جاء الترخيص بقتلهم في الإسلام كما ثبت هذا عن النبي ﷺ في ((الصحيحين)): «**لا يحل من دم أمرئ مسلم إلا بثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»، فدل هذا على أن قتل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لهؤلاء الصحابة دليل على أنّ السحر كفر بالله عَزَّوَجَلَّ.

[الدليل الخامس]: وهو واقع السحر. والذي لا يشك فيه أحد أن السحر الذي يكون عن تعاطي، أو عن تعاون وإعانة الشياطين هو كفرٌ بالله جَلَّ وَعَلَا هذا أمر لا يشك فيه من يعرف حال السحرة، وبيان هذا بتقديم المقدمتين:

[المقدمة] الأولى: أنّ السحر لا يكون إلا بإعانة الشياطين حيث إنّ بين نفس الساحر الخبيثة ونفس الشيطان الخبيثة توافق يُنتج عنه تضامن وتعاون.

المقدمة الثانية: أنّ الشياطين لا تُعين الساحر إلا إذا كفر بالله عَزَّوَجَلَّ حيث إنّ الشيطان لا أرب له في إعانة هذا الساحر إلا لتحقيق غاية عنده يلتّذ بها، وهي إغواء بني آدم، وهذا له مقابل هو أشبه كما يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أشبه بالرشوة، يدفع الساحر هذه الرشوة؛ ليحصل على إعانة الشيطان له، كما يدفع من يدفع من الظالمين الرشوة لأحد؛ ليقتل، أو يؤذي، أو يُمكّن من فاحشة وما شاكل ذلك.

هذه الرشوة هي: الكفر بالله عَزَّوَجَلَّ وهذا الكفر قد يكون باعتقاد، وقد يكون بقول، وقد يكون بفعل.

فإما أن يُؤمر الساحر من قِبل الشياطين باعتقاد أن لما يسمونه بالأرواح العلوية وهو الكواكب، أو للأرواح السفلية وهي الشياطين أن لها تأثيراً مستقلاً في مجريات هذا الكون، واعتقاد هذا كفر بالله عَزَّوَجَلَّ.

أو بأن يكون هذا الكفر بالقول بأن يؤمر الساحر بأن يستغيث بالجن والشياطين أو أن يَسُب الله أو رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو الدِّين أو ما شاكل ذلك من هذه النواقض القولية .

أو أن يكون كفره بفعل كأن يؤمر بإهانة المصحف، أو رميه في الحُش، أو كتابته بدم الحيض، أو بكتابته منكساً أو ما شاكل ذلك بما فيه إهانة لكتاب الله جَلَّ وَعَلَا أو غير ذلك من أسباب الكفر الفعلية.

إذن يتلخص لنا أنَّ السحر:

أولاً: لا يكون إلا عن طريق الشياطين.

ثانيا: الشياطين لا تُعين الساحر إلا إذا كفر بالله جَلَّ وَعَلَا فإذا كان ذلك كذلك كان السحر كفراً؛ لأنه لا يكون إلا بالكفر بالله عَزَّوَجَلَّ وهذا ظاهر كما ترى.

إذن هذه أوجه وغيرها أيضاً يدل على أنَّ السحر الذي هو عن طريق عامة الشياطين أنه كفر بالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وسيأتي في كلام المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ ما يبين الموضوع أكثر.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾[البقرة:١٠٢]

هذه قطعة من آية البقرة وقد مضى الحديث فيها، والظاهر من هذه الآية هو: أنَّ الساحر كافر؛ لأنه هو الذي ليس له عند الله في الآخرة من خلاق؛ يعني: من حظ ونصيب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾[النساء:٥١].

قال عمر: ((الجبت من السحر والطاغوت من الشيطان)).

وقال جابر: ((الطواغيت: كهان، كان ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد)).

هذه الآية مضى الكلام عنها في درس قريب، فيها بيان الله جَلَّ وَعَلَا عن حال طائفة من اليهود، وهي أنهم يؤمنون بالجبت والطاغوت.

وفسّر الجبت عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كما علّق ذلك البخاري في ((صحيحه)) ووصله عبد الرازق وغيره بإسناد قوي كما قال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسر: الجبت بالسحر، وفسر الطاغوت بالشيطان.

ونقل عن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ تفسير الطواغيت بالكهان.

وسيأتي باب خاص لموضوع الكهان نتحدث فيه بالتفصيل -إن شاء الله- عن موضوع الكهان.

الشاهدُ أنَّ السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ جاء عنهم في روايات كثيرة تفسير الجبت بـ: السحر والساحر، ودل هذا على أن تعاطي السحر من شأن اليهود لا من شأن المسلمين، فهذا دليل أيضاً على أنّ الساحر كفر بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن النصوص قد دلت على أنه من شأن الكافرين.

وما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به في هذه الآية من أن اليهود يؤمنون بالسحر حق لا مرية فيه، فإن أكثر الناس ولعاً على الإطلاق بالسحر هم اليهود وهذا معلوم من حالهم قديماً وحديثاً، فإنّ للسحر مكانة عظيمة عندهم وله في ذلك مؤلفات بلغت حد التقديس عند هؤلاء اليهود، ولم يزالوا يتعاطون هذا الأمر استفادوه من الأمم القديمة من الكلدانيين والبابليين وقدماء المصريين، وزودا عليه ما أوحى الشيطان إليهم حتى إنهم أصبحوا سادة هذا الباب، فأبرعُ وأكثر النَّاس اشتغالاً به هم اليهود –عليهم من الله ما يستحقون–، وتأثر بهم من تأثر من غيرهم حتى دخل فيه بعض المنتسبين لهذا الدين مع الأسف الشديد.

وحذاري يا أيها الفضلاء حذاري من المواقع والفضائيات التي تروّج للسحر، فإن هذه الوسائل الحديثة قربت لكثير من الناس ما كان بعيداً، وهذا أمر مؤسف أصبح الوصول إلى السحرة من خلال هذه الوسائل أمرًا قريبًا جداً ليس بين الإنسان وبينه إلا ضغطة زر كما يقولون، فكم هي المواقع التي هي بالآلاف وربما أكثر تجده يكتب أو تجدها تكتب موقع الشيخة الروحانية فلانة، أو موقع الشيخ الروحاني فلان، وهو والله الشيخ الشيطاني وليس الروحاني.

وتدخل إلى هذا الموقع –وأسال الله أن لا تدخله– تجد أنه يذكر لك الخيارات ماذا تريد؟ ماذا تريد أن نقدم لك من خدمات؟ تريد إعانة على رزق؟ تريد محبة؟ تريد صرفاً؟ تريد ربطاً؟ تريد عطفاً؟ اطلب وتمنى ونحن نحقق لك، ويضحكون على عقول السفهاء ويأكلون أموال الناس بالباطل.

وهنا تزل أقدام مع الأسف الشديد من ضعاف الإيمان وضعاف العقول، فهذا تجده قد أُغلق في وجهه بابٌ من أبواب العمل فيأتي يبحث عن مخرج عند هؤلاء السحرة، وتلك تخشى على زوجها أن يتزوج عليها فتلجأ إلى هؤلاء السحرة، وثالثة تريد أن تؤذي ضرَّتها فتلجأ أيضاً إلى هؤلاء السحرة ، ورابع غبي يريد أن يحافظ على ابنته في زعمه فيلجأ إلى السحرة لأجل ربطها، وهكذا دواليك في أمور كثيرة يلجؤون فيها إلى السحرة حتى إننا وجدنا بعض الأطفال والصبيان والفتيات من يدخل إلى هذه المواقع المشبوهة ويتعامل مع أهلها، وقد يبدأ الأمر بحب استطلاع أو مزاح ولكنه ينتهي بشر وبيل.

وهذا أيضًا يقال في بعض القنوات الخبيثة التي تُروّج لهذا الإفك بل لهذا الكفر فحذاري أيها المسلم من الوقوع في هذا الأمر، فإنَّ الأمر في هذا والله عظيم، فقد ثبت عند أبي يعلى وغيره بإسناد صحيح كما قال الحافظ ابن كثير، وجيد كما قال المنذري وابن حجر، عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أنه قال: «**من أتى كاهنًا أو ساحرًا أو عرافًا فسأله فصدقه؛ فقد كفر بما أنزل على محمد** صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ».

قال ابن حجر: (ومثله لا يقال بالرأي).

وأضف هذا إلى أدلة القول بأن السحر كفر.

الأمر ليس سهلاً ولا يسيراً والذي يتعرض لمثل هذه الأمور الرديئة فليعلم أنه يُعرض إيمانه إلى الزوال والعياذ بالله.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ:

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ؛ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: يا رسول الله وما هنَّ؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرمها الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات».

هذا الحديث في ((الصحيحين))، -ومضى الكلام فيه-: اجتنبوا السبع الموبقات، لك أن تقول: الشركَ بالله والسحرَ على البدلية.

ولك أن تقول: الشركُ بالله والسحرُ على أنّ الشرك خبرٌ لمبتدأ محذوف.

هنَّ: الشرك بالله بالسحر إلى آخره.

ومضى الكلام في أنّ العطف في قوله: «**والسحر**» هو من باب عطف الخاص على العام.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن جُندب مرفوعًا : «حد الساحر: ضربه بالسيف». رواه الترمذي، وقال: «الصحيح أنه موقوف»

هذا الحديث حديث جُندب، وهو: جُندب بن كعب، وقيل: ابن زهير ابن عبد الله الغامدي الأزدي، المعروف بجُندب الخير.

ووهِم بعض الناس فظنه جُندب بن عبد الله البجلي، بينما هذا جُندب بن كعب، وقيل جندب بن زهير الأزدي، جندب الخير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ .

روى عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حديثا، والصحيح: أن المرفوع إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من هذا الحديث ضعيف، فإن فيه: إسماعيل بن مسلم وهو ضعيف.

وضعف الحديث مرفوعًا الإمام البخاري، والترمذي

ن وغيرهما من أهل العلم الصحيح.

والصحيح كما قال الترمذي، وكما قال الذهبي، وكما قال غيرهما الصحيح: وقفه على جُندب.

ولهذا قصة وهي أنه وقف على ساحرٍ يتعاطى بعض هذه المخاريق فما كان منه إلا أن اخترط سيفه وقطع رقبة هذا الساحر وحدّث بهذا الحديث: (حد الساحر ضربة بالسيف) أو (حد الساحر ضربه بالسيف) بهذا وبهذا قُرِأ الحديث، يعني لك أن تقول: حد الساحر ضربةٌ بالسيف، ولك أن تقول: ضربه بالسيف.

فهذا فيه أنَّ السحر كفر بالله جَلَّوَعَلَا؛ لأن الصحابي لم يكن ليجترئ على هذا إلا فيما هو ردّه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة قال: كتب عمر بن الخطاب: «أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر.

هذا الأثر عن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ نسبته إلى البخاري غير دقيقة، كتابة عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ إلى عمَّاله ثبتت في البخاري، ولكن اللفظ الذي في البخاري كتابته لهم أن يفرقوا بين المجوس ومحارمهم، فإنّ أهل هذه الديانة كان أحدهم يتزوج امرأة من محارمه؛ كأمه أو أخته– والعياذ بالله–، فأمر عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عمّاله بالتفريق بين هؤلاء المجوس وبين محارمهم.

لكن جاء في غير البخاري بإسناد صحيح عند أحمد وعبد الرزاق وغيرهما أنه كتب لهم أيضاً أن اقتلوا كل ساحر وساحرة.

قال بجالة بن عبَده –تابعي كبير مشهور تميمي بصري– قال: فقتلنا يومئذ ثلاثة من السواحر، وهذا أيضاً فيه قتل السحرة، وفيه أيضاً: أن هؤلاء السحرة كفار.

قال ابن قدامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومثل هذا الأثر اشتهر ولم يُنكر، فكان إجماعاً) يعني: من الصحابة.

فكيف إذا انضم إلى هذا فعل غير عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ مر معنا فعل جُندب الأزدي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ وسيمر معنا أيضاً غيرهما.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وصح عن حفصة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها، فقُتِلت.

هذا عند مالك في ((الموطأ)) بلاغاً، ووصله عبدالرزّاق وغيره.

وفيه: أنّ حفصة بنت عمر أمَّ المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا أمرت بقتل ساحرةٍ؛ سحرتها كانت جارية لها، فهذا فيه أيضًا ما يؤيد ما ثبت عن عمر، وعن جندب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكذلك صح عن جندب.

كما مر معنا في الحديث السابق هو جندب الأزدي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال أحمد: ((عن ثلاثة من أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)).

يعني: صح قتل السحرة عن ثلاثة من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم:

١/عمر. ٢/حفصة. ٣/جُندب.

وأضف إليهم ثلاثة أيضاً:

٤/عثمان. ٥/ابن عمر. ٦/ قيس بن سعد ابن عباده رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

عمر، وابنه، وابنته، وخليفته- يعني: عثمان-، هؤلاء أربعة.

أضف إليهم جندبًا، وقيس بن سعد بن عبادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

هؤلاء ستة من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا بقتل السحرة.

وهذه المسألة عند أهل العلم وهي حدُّ الساحر وهل يستتاب أم لا؟

مر معنا الحديث الذي فيه ضعف والأثر عن جُندب بن كعب، وعن عمر (اقتلوا كل ساحر وساحرة)، إضافة إلى أفعال الصحابة؛ فدّل هذا على أن الواجب قتل السحرة.

وقوله: (حد الساحر) فيه وجهان:

[الوجه الأول]: إذا كان السحر لم يصل إلى حد الكفر، لكنه مؤذي فإن هذا ينطبق عليه وصف الحد اصطلاحاً.

فالحد اصطلاحاً هو: القتل على بعض المعاصي التي تثبت في عقوبتها القتل، ويترتب على هذا أمور منها أن الحدود كفّارات لأصحابها.

فإذا كان القتل للساحر حداً فهذا يكون فيما إذا كان السحر ليس كفرا، لكن يتعاطى الإنسان سبباً من الأسباب المؤذية كبعض العقاقير والتدخينات المؤذية الخافية التي لا يعلمها إلا الأفراد من الناس من هؤلاء الخبثاء.

ومثل هذا ينطبق عليه أنه حد؛ لأنّ حكم هؤلاء المؤذين أنهم في حكم الصائل الباغي الذي لا يدفع شره عن المجتمع المسلم إلا بقتله، فصح أن ذلك القتل حد.

[الوجه الثاني]: أما إذا كان القتل عن رِدّةٍ، ومعلوم عند الفقهاء التفريق بين القتل حدّاً وبين القتل رداً، فهذا حكم وهذا حكم.

فإن كلمة الحد ها هنا التي مرت معنا فالحديث أو الأثر لا يراد بها الاصطلاح المعروف عند الفقهاء، إنما يراد بكلمة الحد ها هنا: العقوبة، يعني: عقوبة الساحر ضربه أو ضربةٌ بالسيف فهذا هو الحق الذي لا شك فيه.

أما الساحر الذي يتعاطى السحر الكفري أو الذي يؤذي بسحره إن كان دون ذلك أنه يجب قتله كما وقع من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ولا يُشكل على هذا ما أخرج البيهقي وغيره عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنها قد سحرتها جارية لها فأمرت بها فباعتها ولم تقتلها.

وتوجيه ذلك بأحد أمرين:

[الوجه الأول]: إما أن يقال أن سحر هذه الجارية لها لم يكن عن طريق الشياطين فرأت أن تكون عقوبتها بأن تبيعها.

الوجه الثاني: أن يكون الأمر قد ترددت فيه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا يعني: لم يستبن أمرها عند عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا هل كان عن طريق الاستعانة بالشياطين، أو إذا كان ذلك بخلاف ذلك؟ ومع الاحتمال ما كان لها أن توقع ذلك.

وقد ذكر نحو من هذا الكلام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((الأم)).

المسألة الأخيرة وبها أختم هل يستتاب الساحر قبل قتله؟ أم لا يستتاب؟

[القول الأول]: أكثر العلماء على أنه لا يستتاب، لظاهر فعل لأصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: (اقتلوا كل ساحر وساحرة) ونفّذ هذا الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وكذلك التابعون كما جاء في أثر بجالة قتلوا في ذلك اليوم ثلاثة سواحر، وكذلك فعل جُندب ، وكذلك فعلت حفصة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وكذلك غيرهم ممن ذكرت فظاهر أحوالهم أنهم ما استتابوهم.

القول الثاني: أنهم يستتابون، فإن تابوا قُبِلَ منهم وأن لم يتوبوا قُتلوا، وهذا ما مال إليه الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((الأم)).

القول الثالث: أنَّ حكمهم حكم الزنادقة بحيث إنه يُرجع في أمرهم إلى رأي الحاكم الشرعي الذي يُراعي المصلحة الشرعية، فإن رأى أنَّ المصلحة الشرعية في قتله –يعني الساحر– قتله وإلا استتابه، فإن تاب عفى عنه وإن لم يتب قتله، والله تعالى أعلم.

٣٧

٣٧- باب بيان شيء من أنواع السحر

(المجلس الأول)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب

بيان شيء من أنواع السحر

بعد أن بين المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الباب الماضي السحر حكماً وحقيقةً وحدًا، ناسب أن يعقد هذا الباب الذي هو تفصيل لسابقه بيان شيء من أنواع السحر، فإنه قد مر بنا بالباب السالف أنّ السحر اسم عام يضم أنواع مختلفة، يجمعها أمران:

الأول: أن فيها تأثيراً خفيًّا على النفوس.

والثاني: أنَّ فيها خداعاً للنفوس.

ما فيه تأثير وما يكون تعاطيه بخفة وخداع هو الذي جعل أهل العلم يُطلقون على أنواعٍ شتى هذا الاسم ألا وهو السحر، فمن السحر ما هو شرك بالله عَزَّوَجَلَّ، إذ لا يكون إلا بحصول الشرك، وهذا هو السحر إذا أُطلق بالحقيقة الشرعية الخاصة.

وهناك أنواع أخرى تدخل في كلمة السحر بالمعنى العام لا بالحقيقة الخاصة التي يترتب عليها أمران:

الحكم بالكفر.

وإقامة الحد الشرعي على ما مضى بيانه.

من تلك الأنواع التي تدخل بالمعنى العام ما يرجع إلى استعمال بعض الأدوية وخواص الأشياء والتدخينات التي يُلَبِس ويخدع بها أهل هذا الصنف، كالذين يطلون أنفسهم بأنواع من الدهانات ثم يدخلون النار فلا تؤثر فيهم هذا يسمى سحرا، لكنه ليس السحر بالمعنى الشرعي الخاص الذي قد تعلمناه.

هناك أيضاً السحر الذي هو تخييل للعين، يعني يستعمل أصحاب هذا النوع طريقة في إشغال أعين الناس وأبصارهم بشيء ما ثم يفعلون بخَفاء شيئًا آخر.

ومن ذلك أيضا ما يسمى في عصرنا الحاضر بخِفة اليد حركاتٌ وتصرفات يصنعونها بسرعة وذكاء يتدربون عليها ويكون لهم فيها نوع رياضة ويطلق عليها وتسمى أيضًا سحراً.

إذن هناك أصنافٌ شتى لما يُطلق عليه أنه سحر، منه ما يكون كفراً ومنه لا يكون كذلك.

وطالب العلم بحاجة إلى أن يعرف الفرق بين هذه الأنواع حتى يُنزِّل كلَّ نوعٍ منزلته، وحتى يُحْكَم على كل نوع بالحكم الشريعي المناسب له، فإنّ بعض الناس ربما أطلق أو عمم فوقع بسبب ذلك شيء من الالتباس بل التعدي على الشرع.

والقرافي المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((الفروق)) عقد مسألةً أشار فيها إلى أهمية هذا الأمر وهو التفريق بين أنواع السحر وإنزالُ كل نوع منزلته الشرعية، وكان يشتكي بقلة من يعتني بهذا الأمر، وهذا الموضوع يرجعُ إلى أصل مُهم ينبغي على طالب العلم بل على المسلم أن يراعيه ألا وهو ضرورة معرفة حدودِ ما أنزل الله، حدودُ ما أنزل الله على رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا معرفته من أهم المهمات، ومن أنفع العلوم، ومن أهم العلوم، والعا لم حقًا هو الذي يعرف حدودَ ما أنزل الله على رسوله بحيثُ إنّه لا يُخرِج شيئاً منها ولا يُدخل شيئاً فيها، لا يُخرج شيئاً هي منه منها، ولا يُدخل فيها شيئاً ليس منها فيها، فهذا من الأمور المهمة هذه الحدود التي جاءت في النصوص والتي يتعلق بها أحكام من جهة التحليل والتحريم، ومن جهة المدح والذم لابد على المسلم أن يحيط علماً بها هذا هو العلم حقاً، ومن ذلك هذا الذي بين أيدينا، ما هو السحر؟ ما أنواعه؟ ما الذي يترتب على كل نوع من أحكام؟ هذا الذي رام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيانه في هذا الباب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف عن حيان بن العلاء، حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن العِيافة والطَّرق والطِيرة من الجبت».

هذا الحديث الذي أورده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا السياق شيء نادر في كتاب التوحيد، من النادر أن يسوق المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديثا بإسناده.

هذا الحديث فيه بحث من جهة إسناده فإن فيه حيان بن العلاء، أبو العلاء فيه كلام يسير، والأقرب والله أعلم أن الحديث ثابت قد صححه المنذري، وحسنه شيخ الإسلام ابن تيمية، والنووي، وجود إسناده ابن مفلح، والشوكاني، وغيرهم من أهل العلم، والحديث أخرجه الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأبو داوود وغيرهما من أهل العلم.

(قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر)، وهو غُندر الإمام العلم الثقة الثبت.

(عن عوف)، هو بن أبي جميلة البصري المعروف بعوف الأعرابي وهو ثقة، خرج له الجماعة.

(عن حيان بن العلاء)، ويقال: ابن مخارق أبو العلاء وهذا الذي فيه الكلام يسير وثّقه بعض أهل العلم وقالوا لا بأس به، وبعضهم ضعّفه.

يروي عن (قطن ابن قبيصة) وهو تابعي صدوق.

(وأبوه) قبيصة ابن مخارق البصري صحابي جليل نزل البصرة ﷺ وأرضاه.

هذا الحديث فيه بيان أنَّ من الجبت ثلاثة أمور: العِيافة، والطَّرق، والطِيرة.

أمَّا الجبتُ فمر بنا فيما مضى أنَّ الأصل في هذه الكلمة هو إطلاقها على ما لا خير فيه، وتنوعت كلمات السلف في تفسير هذه الكلمة بين أن يكون الجبت هو الشيطان أو السحر أو الشرك أو الأصنام، والمعنى المناسب منها لهذا الحديث هو أنّ الجبت هو السحر.

أما هذه الأمور الثلاثة فهي من السحر كما أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، و(من) ها هنا إما أن تكون تبعيضية؛ يعني: من أنواع السحر هذه الأمور الثلاثة.

أو أنّ (من) ها هنا لابتداء الغاية يعني هذه الأمور منشأها من السحر.

أما الأمر الأول: فهو (**العِيافة**) والعِيافةُ هي: الزجر، تقول: عِفت الطِّير أعِيفها عِيافةً يعني: زَجَرْتها، فهو زجر الطير، وذلك أن العرب في الجاهلية كانوا أهل ولع بالتطير، فكان أحدهم إذا خرج من داره يريد سفراً أو تجارةً أو ما إلى ذلك فإنه يتأمل طيراً في السماء وينظر في ممره، ويستدل بذلك على عاقبة ما هو مُقْدِمٌ عليه، فإذا لم يجد شيء طائراً ووجد طائراً ساكناً في محله زجره، يعني: أثاره وطيره حتى يطير، ثم بعد ذلك ينظر في ممر هذا الطير، فإن كان يمر من جهة الشمال إلى جهة اليمين بالنسبة لهذا الزاجر سمى ذلك الطائر: (سانحاً) واستبشر بذلك و اعتقد أن العاقبة حميدة.

أما إذا طار هذا الطائر من جهة اليمين إلى جهة الشمال فإنه يسميه: (بارحاً) ويتشاءم بذلك، ويعتقد أن مآل الأمر الذي هو مقدم عليه الخيبة والخسران، فيرجع ولا يقدم، هذا هو الذي أسماه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: العِيافة.

وبين العِيافة والطِيَرة وهي التي جاءت في هذا الحديث أيضا عموم وخصوص من هذا الوجه، كل من الأمرين عام من وجه وخاص من وجه.

أما العيافة فإنها أعم من الطيرة من جهة أنه يكون بها تشاؤم وتفاؤل.

أما الطيرة فالغالب في استعمال هذه الكلمة أن تكون في التشاؤم.

وفي مقابل ذلك في الطيرة أعم فإن العيافة مختصة بالطيور، وأما الطيرة فإنها أعم من ذلك، قد تكون بالطيور من جهة ممرها، من جهة ألوانها، من جهة أسمائها، من جهة أصواتها، وقد تكون بغير الطيور من حيوانات، وعاهات، وألوان، وأرقام، وأمكنة، وأزمنة إلى غير ذلك.

وباب الطيرة باب سيأتينا عن قريب -إن شاء الله- بعد بابين أو ثلاثة نتحدث فيه إن شاء الله بالتفصيل عن أحكام الطيرة، ولكن بمناسبة ما ذُكِر ها هنا فإن الطيرة أمر محرم، وإذا عَظُمت في النفس حتى كان سببا للإقدام أو الإحجام فإنّها تكون شركاً على ما سيأتي بيانه إن شاء الله.

إذن هذه هي العيافة، وهذه هي الطيرة.

ووجه إطلاق السحر على هذين الأمرين هو ما فيهما من تأثير خفي على النفوس، فإن العِيافة والطِيرة كلاهما مؤثران على النفوس بحيث يحصل انقباض أو انشراح أو إقدام أو إحجام، وكل ذلك من تأثير هذه الأمور التي لا أصل لها ولا حقيقة لها، فجامعت السحر من هذه الجهة، من جهة ما فيها من تأثير خفي على النفوس.

وقد قلنا أن المعنى العام الذي ترجع إليه أنواع السحر هو ما في هذه الأنواع من تأثير خفي على النفوس، أو ما فيها من خِفة وخِداع.

وبالتالي صحّ وصف العِيافة ووصف الطِيرة بأنها سحر بالمعنى العام لا بالمعنى الخاص الذي وصفناه بأنه شرك أكبر مخرج من الملة، فهذا القدر لا يصل إلى هذا الحد .

أما الأمر الثالث: فهو الطَّرق، وللطَّرق تفسيران عند أهل العلم:

أحدهما: ما أورد المؤلف مما سنقرئه إن شاء الله من كلام عوف رحمه الله من أنه الخَط في الأرض، إذن هذا هو **التفسير الأول**: الطرق هو الخط في الأرض، وسُمي الخط في الأرض طَرقاً؛ لأنّ الذي يرسم أو يخط على الأرض كأنه يرسم فيها طُرقاً، فسمي ذلك ماذا؟ طرقا؛ وصفة ذلك: أن أهل الجاهلية كانوا يأتون إلى الكهان والمشعوذين فيطلبون منهم أن يخطوا لهم إذا أرادوا الإقدام على زواجٍ أو سفرٍ أو تجارةٍ أو ما شاكل ذلك، طلبوا من هذا الكاهن أن يخط لهم في الأرض، فيأخذ عودا ينكت به في الأرض أو بإصبعه بحيث أنه يرسم خطوطاً كثيرة، يرسم خطوطاً كثيرة على التراب لا يحيط بها العد، يرسمها هكذا بطريقة عشوائية، ثم يأتي بعد ذلك على مهل فيمسح خطين خطين، ثم يُنْظَرُ فيما بقي، فإن كان الذي بقيَّ خطان كان هذا علامة على النجاح، استبشر صاحب الشأن بهذا وأقدم واعتقد أن هذا إعلام له بما في الغيب، وأما إن كان الذي يبقى فهو خط واحد فإنه يتشاءم بذلك؛ لأنه يراه علامة الخَيبة، ولأنه يستطلع بهذا إلى ما في الغيب، وأن الذي في الغيب هو أن يكون على الإنسان خسارة، وبالتالي فإنه يحجم ولا يُقدم.

إذن هذا نوع من الكِهانة مما سيأتي الكلام فيه إن شاء الله على وجه التفصيل في الباب القادم ما جاء في الكهان.

أما التفسير الثاني: فهو أنّ الطَّرقَ هو: الضرب بالحصى، وذلك أن الطَّرقَ في اللغة يطلق ويراد به الضرب، ومن ذلك سميت المطرقة، مطرقة الحداد أو مطرقة النجار سميت مطرقة، لأن بها الضرب، وهذا الذي قاله لبيد بن ربيعه:

لعمرك ما تدري الطَّوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وروي هذا البيت:

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى

وهذا البيت ذكر أمرين مما كان أهل الجاهلية يتعاطون:

الأول: الضرب بالحصى.

والثاني: العِيافة -التي ذكرناها قبل قليل-.

الشاهد أن هيئة هذه الصورة وهي الضرب بالحصى أنه تُأخذ حصيات حجارة أو نحوها ثم يُضرب عليها، وقد يُأخذ غير الحصى؛ كالوَدع -الذي مر بنا سابقا- فيُضرب

عليها، ثم يزعم هذا الكاهن المشعوذ الدجال بعد أن يتأمل في هذا الذي ضَرب عليه سيكون كذا، أو لا يكون كذا، ستتزوج، وتنجح، ترسب، تسافر تفيد من سفرك فائدة أو تخسر، أو يموت فلان إلى غير ذلك.

إذن على كلا التفسيرين الطَّرق نوع من الكِهانة فيه ادّعاء علم الغيب، وهذا لا شك أنه منكر عظيم -وسيأتي الكلام فيه على وجه التفصيل إن شاء الله-، وظاهرٌ ما في هذا النوع من تأثير خفيٍ على النفوس، فصحَّ وصف ذلك بأنه من السحر.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال عوف: ((العيافة: زجر الطير، والطَّرق: الخط يخط بالأرض)).

والجبت -قال الحسن- ((رنة الشيطان)).

إسناده جيد.

(قال عوف): هو ابن أبي جميلة العبدي الملقب: بعوف الأعرابي، والإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقّب على روايته هذا الحديث بذكر هذا التفسير من عوفٍ الذي هو أحد رواة هذا الحديث

(قال الحسن) يعني: البصري، رنة الشيطان.

الرنة في اللغة: الصوت الحاد.

فما المراد برنة الشيطان؟

لاحظ أن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ يفسر الجبت بهذه الكلمة رنة الشيطان.

أهل العلم أمام هذه الكلمة لهم ثلاثة مواقف أو أربعة:

الموقف الأول: أنهم يتوقفون في هذه الكلمة كما فعل الحفيد الشارح الشيخ سليمان بن عبد الله في ((التيسير)) أنه لما ذكر هذه الكلمة في التيسير قال: لم أقف فيها على كلام.

والموقف الثاني: أن بعض أهل العلم فسّروا هذه الكلمة بأمرين:

فسّروا رنة الشيطان:

بالنِّياحة.

وبالغناء.

وهذا جاء فيه بعض الآثار عن السلف لكن ليس في تفسير الجبت، إنما في رنة الشيطان، ذكروا أنّ من رَنة الشيطان نياحة النائحة أو الغناء.

أما [الموقف] الثالث: فهو أن رنة الشيطان يعني: دعاؤه وتسويله، فهو يوسوس ويدعوا ويملي لمن يطيعه حتى يعصي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

فعاد الأمر إلى أنّ الجبت هو: الشيطان، رَنته يعني: دعاؤه، ودعوته، وتسويله ووسوسته وما إلى هذه المعاني.

والأقرب والله تعالى أعلم، بل هذا الذي لا أرى فيه غيره ولا أشك فيه، أن هذه الكلمة رنة تصحيف، وأن الكلمة في أصلها إنه الشيطان؛ لأنّ الحجة في هذا ظاهرة من ثلاثة وجوه:

أولاً: أن الذي في مسند الإمام أحمد والذي بين أيدينا منقول عن المسند، الذي في المسند (قال الحسن: الجبت إنه الشيطان)، أو قال الحسن في الجبت إنه الشيطان، وقد راجعت المسند في طبعات عدة ولم أجد فيه إلا هذه الكلمة إنه الشيطان.

وثانياً: أن الذي نقله الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الإمام أحمد، فإنه ساق هذا الحديث بإسناده في تفسير سورة النساء، والذي ذكره إنه الشيطان وليس رنة الشيطان، ومعلوم أن ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أعظم الناس عناية بمسند الإمام أحمد، وقد راجعت تفسيره في طبعات مختلفة وكلها متفقة على إنه الشيطان.

[ثالثًا]: أن هذا التفسير هو المعروف عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الجبت، وهذا ما ذكره غير واحد من المفسرين عند تفسير كلمة الجبت، فالذي لا أشك فيه والعلم عند الله تعالى أن هذه الكلمة صُحفت، صحفت من (إنه) إلى (رنة)، ومعلومٌ أن كتابة الألف قد تأتي بصيغة رسمها قريبٌ من الراء، فلعله اشتبه الأمر ولا أدري على من، هل على المؤلف أو على من نقل عنه المؤلف، فصار رنة الشيطان.

وعلى كل حال الأمر يسير، إن قلنا إنَّ الصواب إنه الشيطان أو إنه رنة الشيطان فالأمر راجع إلى الشيطان.

والمعنى أن الشيطان هو الذي يوسوس ويُسول للناس هذه الأمور من العيافة، والطرق، والطيرة، فالشيطان مبدأ ذلك.

و(من) ها هنا للابتداء الغاية هو من ذلك هو مبدأه هو الذي يقذف هذه التصورات والتصديقات الباطلة والذي يقذفها في نفوس من استجاب له، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه المسند منه

يعني أنّ أبا داود ومن ذكر إنما رووا الحديث المرفوع القطعة المرفوعة إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دونما بعد ذلك وهو تفسير عوف أو الحسن رحمة الله عليهما.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال:قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبةمن السحر، زاد ما زاد» رواه أبو داود، بإسناده صحيح.

هذا الحديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا حديث صحيح، كما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقد صححه شيخ الإسلام ابن تيمية، وكذلك النووي، وكذلك الذهبي في كتابه ((الكبائر))، وغير هؤلاء حديث صحيح إن شاء الله.

وفيه يُخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن من اقتبس يعني: حصّل وتعّلم شبعة من السحر.

الشعبة: الجزء؛ يعني: من حصّل طرفاً من علم النجوم فقد حصّل طرفا من السحر زاد ما زاد.

ومعنى قوله (زاد ما زاد): أنه كل ما أوغل في تعلم هذا العلم -علم النجوم- فانه يكون قد أوغل في السحر، كلما إزداد تعلم في العلم إزداد في إثم السحر.

والمراد بهذا الحديث علم النجوم الذي هو علم التأثير لا علم التسيير، انتبه.

علم النجوم قسمان: **علم تأثير ، وعلم تسيير**.

وسنتحدث عن هذا إن شاء الله على وجه التفصيل في باب قادم خاص بهذا الموضوع.

لكن يقال على وجه الإيجاز أن المراد ها هنا بعلم النجوم يعني: علم التأثير، وعلم التأثير يرجع إلى أمرين، وهذا الذي كان يتعاطاه من يتعاطاه من أهل الجاهلية من الكفار والمشركين والى هذا العصر.

الأول: هو الاستدلال بحركات الأفلاك والنجوم واجتماعها وافتراقها على المغيبات.

والثاني: اعتقاد تأثير الأفلاك في مجريات هذا الكون، يعني أن لهذه الكواكب ولهذه النجوم ولهذه الأقمار أن لها تأثيراً وتدبيراً لهذا الكون.

وكلا النوعين شرك بالله عَزَّوَجَلَّ وكفر به.

ووجه إطلاق السحر على هذا النوع هو:

ما فيه من تأثير خفي على النفوس، فإن أرباب هذا الصنف ومن يتعاطاه ومن ينساق له تتأثر نفوسهم به ويبنون عليه تفاصيل ومواقف وأمور كثيرة بناءاً على هذا الذي وقر في نفوسهم، وهو لا شك شيء باطل لا حقيقة له.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وللنسائي من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «من عقد عُقدةً ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وكل إليه».

هذا الحديث فيه بحث من جهة ثبوته فإن الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((ميزان الاعتدال)) أعله بعلتين:

[العلة] الأولى: أحد رواته فإنه ليّن وهو عبّاد بن ميسرة.

والعلة الثانية: الانقطاع من جهة أن الجمهور يرون أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة.

والحديث جاء من طريق عبّاد، عن الحسن، عن أبي هريرة، وأظن أنه مضى الكلام في هذا الموضوع وعلمنا أن الجمهور يرون أنّ الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يسمع من أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ولذلك ضعّف هذا الحديث الذهبي وغيره من أهل العلم، ومن المعاصرين الشيخ ناصر رحمة الله تعالى على الجميع.

وبعض أهل العلم حسّن هذا الحديث فابن مفلح في ((الآداب)) نقل كلام الذهبي ثم قال: (كذا قال، ويتوجه أنّ الحديث حسن)، وذلك أن من أهل العلم من رأى أن الحسن قد سمع من أبي هريرة، ومن أهل العلم من قال: عبّاد بن ميسرة لا بأس به.

وعلى كل حال هذا الحديث فيه أمران:

الأول: ما يتعلق بالنفث في العقد وهذا يشهد له كتاب الله: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾[الفلق:٤]، وما جاء في تفسير هذه الآية من كلام كثير للسلف.

وأما الشق الثاني: في الحديث وهو: «من تعلق شيء وكل إليه» فيشهد له ما مر بنا من حديث عبد الله بن عُكَيْم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهذا يتقوى بذاك وذاك يتقوى بهذا.

على كل حال هذا الحديث فيه كما ذكرت أمران:

الأول: أن من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك.

لاحظ معي أن هذا الحدث فيه التنصيص على النوع الذي هو سحرٌ بالحقيقة الشرعية الخاصة.

هذا الحديث هو الحديث الوحيد من الأحاديث الخمسة الذي أوردها رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب فيها ذكر هذا النوع الذي هو السحر بالحقيقة الشرعية الخاصة التي قلنا إن حكمها أنها كفر وشرك؛ لأنها لا تكون إلى بالشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

وذلك أن هذا النوع هو الذي يفشو ويكثر عند السحرة؛ كلبيد بن الأعصم وإخوانه من اليهود ومن سار على نهجهم من السحرة في القديم والحديث، وذلك أن هؤلاء السحرة يعقِدون خيوطا يرمون بذلك عقد السحر وعدم انحلاله، ومع هذا العقد فأنهم يتلون رُقى وعزائم وتعويذات يتقربون بها للشياطين ويستعينون فيها بالشياطين، ويضيفون إلى هذا النّفث، وقلنا إن النفث مرتبة بين النفخ والتفل، إخراج الهواء مع شيء من الريق.

وذلك كما ذكر أهل العلم أنَّ نفس الساحر نفس خبيثة، فإذا نفث خرج من نفثه هذا النفس الخبيث، وهذا الريق الخبيث الذي خرج من نفس خبيثة فتكيّف ذلك واتفق واقترن مع روح الشيطان الخبيثة فتكيف ذلك بكيفية الله أعلم بها، فحصل بسبب ذلك أذىً للمسحور بإذن الله الكوني لا بإذن الله الشرعي، يجتمع ويتوافق ويقترن ويتعاون روح إنسية خبيثة مع روح شيطانية خبيثة في كيفية الله أعلم بها يَنتج منها حصول السحر وأذى المسحور.

فهذا هو العقد الذي جاء في هذا الحديث، وهو المراد بقول الله عَجَّلَ: ﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾[الفلق:٤]، يعني: السواحر اللاتي يعقدن وينفثن في هذه العقد التي عقدنها.

والمقصود أن هذا الحديث فيه بيان أن هذه كيفية للسحر الذي هو السحر، وهذا ظاهر كما لا شك فيه من سَحَرَه أشرك، وقد علمنا الأوجه التي كان بسببها السحر شركاً أكبر.

[الثاني]: أما قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ومن تعلق شيء وكل إليه»** فهذا حق لا مرية فيه، وذلك أن من تعلق قلبه وتعلقت جوارحه بالله جَلَّ وَعَلَا وإن الله عَزَّوَجَلَّ كافيه، وإن الله عَزَّوَجَلَّ مغنيه، وإن الله عَزَّوَجَلَّ ناصره: **﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[الزمر:٣٦]**، بلى والله، والله جَلَّ وَعَلَا كافٍ كل من آوى إليه ولجأ إليه واعتصم به ووثِق به، الله عَزَّوَجَلَّ كافيه، والله عَزَّوَجَلَّ متوليه، ومن يضره إذا كان الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يتولاه؛ أما من تعلّق بغيره فليبشر بالخسارة والخيبة، فأي نجاح وفلاح لمن تخلى الله عَزَّوَجَلَّ عنه ووكله إلى غيره، فكيف إذا كان ذلك التعلق بالشرك وبأهل الشرك -عافاني الله وإياكم من ذلك-.

٣٨

٣٨- باب بيان شيء من أنواع السحر

(المجلس الثاني)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن ابن مسعود ؛ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ألا هل أنبئكم ما العَضْهُ؟ هي النميمة القالة بين الناس» رواه مسلم.

هذا الحديث الرابع في هذا الباب الذي عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان شيء من أنواع السحر، هذا الحديث حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وخرّجه الإمام مسلم في ((صحيحه))؛ سأل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه سؤالًا، وهذا نهج نبوي تكرر في جملة من الأحاديث، وذلك أن يستفتح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كلامه بتوجيه سؤال لأصحابه، ليستدعي اهتمامهم.

سأل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابة هل يدرون ما العَضَّهُ؟

والعضه اختلف في ضبط هذه الكلمة فقيل: إن هذه الكلمة بفتح العين وسكون الضاد (العَضْه)، على وزان (الوجه).

وقيل إنها بكسر العين وفتح الضاد (عِضَه) على وزان (زِنَه) و (عِدَه)، والأول أشهر.

ثم أجاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه عن هذا السؤال، وجاء هذا الحديث عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما عند البخاري في ((الأدب المفرد)) وفيه أنهم قالوا: «الله ورسوله أعلم».

أما في حديث ابن مسعود فإن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بادر بالجواب، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تفسير العَضْه: إنها النميمة، ثم زاد الأمر بيانًا حيث بين هذه النميمة من جهة أثرها، فقال: (القالة بين الناس).

فالعضه بتفسير النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث هو النميمة.

والنميمة: نقل الكلام بين الناس على جهة الإفساد.

وفسر بعضهم النميمة: بأنها إفشاء السر الذي يترتب على إفشائه اضطرابٌ وقطيعة.

وأصل العَضْهِ قيل: إنه الكذب والبهتان؛ وإنما سميت النميمة عَضْهًا؛ لأنها لا تنفك غالبا من كذب، الغالب أنَّ النّمام يضيف إلى نقله وحديثه شيئًا من عنده، سميت النميمة حينئذ بأنها العضه.

وقيل إن أصل العضه في اللغة هو: السحر، وقال ابن قتيبة في ((تأويل مختلف الحديث)): (إن قريشًا كانت تسمي السحر عضهًا)، وهذا ما جاء في كلام عكرمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ

عند تفسيره قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾[الحجر:٩١]، قال: (كانت قريشٌ تسمي السحر عضينًا).

ويشهد لهذا ما خرج الطحاوي في ((مشكل الحديث)): عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي هو راوي الحديث الذي بين أيدينا، قال: (كنا في الجاهلية نسمي السحر عضْهًا، وما أُراه فيكم اليوم إلا القالة).

والقالة في كلامه، وفي كلام النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الذي سبق، يعني: الكلام الذي يقال ويُنْقل بين الناس، ويحصل بسببه فتنه واضطراب، وهذا أثر من آثار النميمة، وهذا هو الأقرب والله أعلم وهو ظاهر صنيع المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ فإن إيراده هذا الحديث ضمن باب ما جاء في بيان شيء من أنواع السحر، دليلٌ على أنه يرجح أنَّ أصل العَضْهِ هو السحر، وهذا ما استظهره الشارح الحفيد رَحِمَهُٱللَّهُ.

ووجه الشبه بين السحر والنميمة من جهتين:

من جهة الطريقة.

ومن جهة الأثر.

أما الطريقة: فإن السحر –كما مر معنا –فيه خفاء، فإنه عُرِّفَ كما جاء معنا: أنه ما خفي ولطف ودق سببه؛ وكذلك النميمة، فإن الساعي بها يذهب في الغالب في خفية إلى من ينم إليه، ثم يفشي له شيئًا كان ينبغي إخفاؤه.

أما من جهة الأثر: فإنَّ السحر من أعظم آثاره هو التفريق بين الناس، والله **جَلَّوَعَلَا** قال في سحر هاروت وماروت: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾[البقرة:١٠٢]، وأما التفريق في النميمة فإنه أظهر ما يكون من الآثار، فإن أثر النميمة في التفريق شيء لا يخفى على أحد، ولذلك وقع عند الطحاوي في ((مشكل الآثار)) في هذا الحديث أنه قال: «**هو النميمة الفارقة بين الناس**»، ووقع عن الدارمي في هذا الحديث أنه قال: «**هي النميمة التي تفسد بين الناس**»، وعند البخاري في ((الأدب المفرد)) بإسناد حسن –كما أسلفت– من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**هل تدرون ما العضه ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: نقل الكلام من بعض الناس إلى بعض ليفسد بينهم**».

إذن هذا أثر ظاهر كأثر السحر أو لعله أشد.

وقد نقل ابن عبد البر في ((بهجة المجالس)) عن يحيى بن أبي كثير أنه قال: (يفسد النمام والكذاب في ساعة، ما لا يفسده الساحر في سنة)، ولا شك أن هذا من أظهر ما يكون وما يشاهده أجهل الناس، وأعماهم، فهل وقعت المفاسد من جهة تَقْطُعِ الصلات وانقلابها إلى عدوات، بسبب أكثر منه من النميمة؟!

لا شك أنها من أعظم ما يكون أثرًا في التفريق بين الناس، والنميمة لو لم يرد في النصوص تحريمها، لكان ما فيها من دنو، أو دناءة وسقوط كافيًا للنفوس الشريفة وذوي المروءات كفًا عنها؛ لو لم يكن في الشريعة ما يدل على تحريمها، بل وأنها من الكبائر لكان ما فيها من دناءة، كافيًا لأهل النفوس الحية صدًا عنها، وأي قبح، وأي دناءة وسقوط، أعظم من أن يكون الإنسان رسولا للشيطان يفرق بين الأحبة؟

لا شك أن هذا من أبغض ما يكون!

وقد قالت العرب: (النميمة مرعى اللئام)، أصحاب النفوس اللئيمة الخسيسة هم الذين يحومون ويجولون في فناء النميمة، أما أهل النفوس الكبيرة، والأخلاق الرفيعة، فإنهم يرأبون بأنفسهم عن ذلك.

أقول: لو لم يرد في النصوص تحريمها، لكان ما فيها من دناءة، كافيا في التنفير عنها؛ فكيف والأدلة قد تكاثرت على أن النميمة منكرٌ عظيم، وكبيرةٌ من كبائر الذنوب، وصاحبها مُتَوَعَدٌ بعدم دخول الجنة، أليس النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قال: **«لا يدخل الجنة قتّات»**؟ يعني: نمام، وما حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حين أخبر النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن صاحبي القبرين اللذين أخبر أنهما يعذبان فيه، قال: أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة؛ وأما الآخر كان لا يستبرئ من بوله.

وهذا يدلك -يا رعاك الله- على أن النميمة منكر عظيم، ويكفي أن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شبهه بالسحر، ولم يكن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد أنه لا سحر إلا النميمة؛ إنما هذا الحديث في أسلوبه وبيانه على وزان الحديث الآخر، الذي خرجه الإمام مسلم في قوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أتدرون من المفلس؟ قالوا: من لا دينار عنده ولا درهم، فقال النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن المفلس الذي يأتي يوم القيامة، وقد ضرب هذا، وشتم هذا»**،

إلى آخر الحديث، ليس مراد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن فاقد المال لا يعد مفلسًا؛ لكنه أراد أن يبين أن المفلس من الحسنات يوم القيامة أجدر وأولى أن يكون مفلسًا.

كذلك في هذا الحديث أراد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يبين أن النميمة تشبه السحر وتؤثر تأثيره وكفى بهذا زاجرًا عنها، كون النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يشبهها بذلك فيه أبلغ زاجر عنها؛ فعلى المسلم أن يتنبه إلى هذا الأمر العظيم، لا من جهة أن يكون نمامًا، ولا من جهة أن يكون سمّاعًا للنميمة، فإن النميمة المذموم فيها اثنان:

المبلِّغ، والمبلَّغ؛ الناقل، والمستمع.

أما المبلَّغ فقد علمت ما فيه، وأما المستمع فإنه لا شك أنه مذموم، وقبيح ،كيف يرخي سمعه لهذا الإنسان الذي ينقل السوء إليه، ويبثه ما يثير الحقد في قلبه وهو يسمع له منصتًا ومتقبلا؟!

لا شك أن هذا أمر لا يجوز شرعًا، والله جَلَّوَعَلَا قد نهى عن ذلك فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾[القلم: ١٠]؛ فلا ينبغي للمسلم أن يرخيَّ سمعه لهذا النمام الذي ينقل إليه، بل ينبغي عليه أن يزجره ويذكره بالله وأن يقول له: اعلم يا هذا أنك بين أمرين: أن تبوء بإثم النميمة إن كنت صادقًا، أو تبوء بإثم النميمة والكذب والبهتان إن كنت كاذبًا فاتق الله وكف!

لاسيما أن الغالب، أن من ينقل إليك لا يريد لك الخير، وقد قالت العرب: (مبلّغ السوء كباغيه).

وقال أبو العتاهية:

من جعل النمام عينًا هلكا مُبلِغُك الشر كباغيه لكا

هذا الذي نم لك لا يريد لك الخير، بل ربما سينُم عليك، على الإنسان أن يتنبه إلى هذا الأمر العظيم.

واعلموا يا طلاب العلم أنَّ أقبح خُلُق يكون عليه طالب العلم، هذا الخلق القبيح وإننا مع الأسف الشديد نتذوق الثمار المُرة لهذه التصرفات الخسيسة في هذا الزمن مع الأسف الشديد؛ فهذه الفتن الصمّاء العمياء التي وقعت وتقع بين طلاب العلم، والدعاة وأهل السنة، ما كانت لتكون لولا وجود هؤلاء السعاة الذين هم سعاة بالشر ونقل الكلام ولَغُهم

وطربهم، في أن يتنقلوا بين المجالس ينقلون الكلام من هذا إلى هذا، يا فلان، يا شيخ، أما شعرت أن فلانًا قال فيك كذا وكذا، أما سمعت أنه قال في شريطك أو محاضرتك أو كتابك كذا وكذا؟

هدفه لفساد قلبه إيغار الصدور وإثارة الأحقاد، وأن يُشْعل أوار الفتنة بين أهل الخير وطلبة العلم، وهذا واقع مؤسف مع الأسف الشديد.

والأغراض مختلفة منهم من يريد أن يتزين عند من ينقل إليه كأنه يقدِّم الولاء، والطاعة ومهر المحبة إليه، حينما ينقل إليه ما يسمعه في مجالس غيره، وهو يعلم أن هذا لن يزيد الأمر إلا فتنة، واضطرابًا، وعداوة، وشحناء.

أو ربما كان يريد شيئًا في نفسه ليصفيَّ حساباتٍ، أو يحقق مآرب، أو يقتصَّ فيما يظن من هذا الذي يَنُمُّ عليه.

وعلى كل حال مهما كان الغرض، ومهما كان السبب، لا ينبغي لطالب العلم أن يقع في هذا المرتع الوخيم، وفي ((صحيح مسلم)) من حديث عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما ذكر العهد الذي أخذه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصحابة، في رواية مسلم، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أخذ علينا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العهد كما أخذ على النساء؛ ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا من إملاق، ولا يَعْضَهُ بعضنا بعضًا**».

ضع مثل هذا الحديث نصب عينك يا أيها المسلم، وعلى الأخص يا طالب العلم احفظ لسانك إلا عن الخير.

إن لم تكن داعية إلى الألفة، وإلى الأخوة، واجتماع الكلمة على الخير والحق، فلا تكن سبب التفريق؛ فكم من صداقات، وكم من علاقات، وكم من محبات، وكم من أخوة صادقة قد تقطعت وانقلبت إلى عداوات، وإلى شر عظيم، بسبب هذا النقل، وبسبب هذا السعي من هذه النفوس المريضة.

ويا لله العجب! انظر لهذه الكلمة من قول ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿**مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ**﴾[القلم:١١]، انظر إلى صيغة المبالغة، هناك اجتهاد وسعي، يسعى سعيًا حثيثًا حتى يوصل ينقل الكلام، وكان في غنى عن ذلك والله؛ لولا هذا المرض الذي في النفوس، هذا اللسان ينبغي أن يحجر، إلا عن ذكر الله، وعن الكلام في الخير؛ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في

الحديث الصحيح: «من صمت نجا»؛ وأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أنه «لا يكب الناس على وجوههم، أو قال على مناخرهم في النار إلى حصائد ألسنتهم».

تنبه يا عبد الله إلى ذلك واعلم أن الأمر عظيم، وأن دماء المسلمين، وأموالهم، وأعراضهم، حرام حرمة عظيمة كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجة الوداع؛ فاتق الله في نفسك، واتق الله في إخوانك، واتق الله في الدعوة التي تتأثر تأثرًا سلبيًّا بسبب هذه التصرفات القبيحة، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولهما عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن من البيان لسحرًا»

هذا حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ووَهِم المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ حينما جعل الحديث عند الشيخين، إنما الحديث عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في ((البخاري))، وأما في مسلم، فإنه جاء من حديث عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر عنه عمار، لما خطب فأوجز، فقيل له: يا أبا اليقظان إنك خطبت فأبلغت وأوجزت فهلّا تنفست! -يعني: أبطأت، وأطلت قليلًا-، فقال: إني سمعت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إن طول صلاة المرء وقصر خطبته من مئنة فقهه فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة، وإن من البيان سحرًا».

أما هذا الحديث الذي بين أيدينا أخرجه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في ((صحيحه)) في موضعين وفيه أنه جاء إليه رجلان من المشرق فخطبا كل واحد خطبة، وتكلم كلمة، فعجب الناس من بيانهما، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن من البيان لسحرًا»، أو قال:« إن بعض البيان سحر».

وهذا الحديث فيه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيان أن بعض البيان سحر.

والبيان: هو الفصاحة، وعُرِفَ بأنه: إخراج المعنى من حيز الخفاء إلى حيز التجلي.

ووجه تسمية أو وصف بعض البيان بأنه سحرٌ أنَّ البيان العالي، والبلاغة، والفصاحة تؤثر في النفوس تأثيرًا يشبه تأثير السحر، فإن البيان العالي ربما أظهر الشيء على غير حقيقته حتى يخيل للإنسان الأمر على غير وجهه، فالبيان قد يخرج المحق في صورة المبطل، والمبطل في

صورة المحق، وقد يجعل القبيح حسنًا، وقد يجعل الحين قبيحًا وهذا أمر معلوم لا شك فيه، وفي هذا يقول ابن الرومي:

فِي زُخْرُفِ الْقَوْلِ تَزْيِينٌ لِبَاطِلِهِ وَالْحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ بعض تغيير
تَقُولُ: هَذَا مُجَاجُ النَّحْلِ تَمْدَحُهُ وَإِنْ ذَمَمْتَ تَقُلْ: قَيْءُ الزَّنَابِيرِ
مَدْحًا وَذَمًّا وَمَا جَاوَزْتَ وَصْفَهُمَا سحر الْبَيَانِ يُرِي الظَّلْمَاءَ كَالنُّورِ

إذن البيان فيه تأثير خفي وشديد على النفوس فهذا وجه وصفه، أو تشبيهه بالسحر.

واختلف العلماء هل هذا الحديث فيه ذم للبيان أو مدح له:

[القول الأول]: أكثر العلماء على أن هذا الحديث إنما سيق لمدح البيان، لا لذمه.

ووجه ذلك أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ امتن على العباد بتعليمهم البيان، فقال: ﴿الرَّحمنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[الرحمن:١-٤]، والنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قد كان حاز أعلى درجات الفصاحة، والبلاغة، والبيان، فإنه قد أوتي جوامع الكلم ولا يخفاكم حديث العرباض رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «**وعظنا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ موعظة بليغة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون**» فكانت البلاغة، والفصاحة، والبيان، طوع شفتي رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

إذن هذا مدح وثناء على البيان.

وأما القول الثاني: فإنه يرى أن هذا الحديث إنما سيق مساق الذم، وذلك لما في البيان من تكلف والتكلف مكروه في الجملة، ثم إن البيان قد يستعمل في نصرة الباطل، وإخفاء الحق، وتعزيز الظالم، وهضم المظلوم، فكان هذا من النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ذمًا له، والإمام مالك رَحِمَهُٱللَّهُ كأنه يميل إلى هذا فقد أخرج هذا الحديث في ((موطئه)) تحت باب: (ما يكره من الكلام إلا من ذكر الله)؛ ظاهر هذا أنه يرى أن هذا الحديث مسوق مساق الذم.

والأظهر والله تعالى أعلم أن الحديث إنما فيه بيان الواقع، فالواقع أن البيان يؤثر تأثيرًا شبيهًا بتأثير السحر.

أما كونه مذمومًا، أو ممدوحًا، فهذا يختلف باختلاف حال المُبَيِّن، ماذا أراد ببيانه وكلامه، هل أراد نصرة الحق، ودفع الظلم، وبيان السنة والخير؟ حينئذ يكون البيان ممدوحًا؛ لأنه أضحى حينئذ سلاحًا للخير.

أو أراد خلاف ذلك، أراد أن يكون البيان سببًا لنصرة الباطل، وتقوية الظالم، وإخفاء الحق، فحينئذ يكون مذمومًا وهذا كما ذكرت أظهر والله تعالى أعلم.

ولا يخفى أن البيان سلاح ذو حدين كما يقال، في قديم الزمان وحديثه فالناس تعرف في واقعها، ويعلم الناس في دنياهم كيف أن البيان والفصاحة، كانت سببًا في نشر الخير والإقبال على الهدى، والرجوع عن الغواية والاهتداء إلى الحق.

من الناس -أعني من دعاة الحق- من أتاه الله فصاحة، وبيانًا، وبلاغة، وقدرة على إيصال المعنى الحق بصورة محببة للنفوس، تُقْبِلُ على سماعها وهذا لا شك، إن وظف هذه النعمة التي آتاه الله إياها في الدعوة إلى الإسلام ونشر الخير، لا شك أنه حينئذ سيكون مفتاحًا للخير، وبابًا من أبواب النور، التي يشع منها إلى الناس.

والعكس صحيح، كم انتشر الشر والفساد، والخرافة، والكفر، والإلحاد والمذاهب، البدعية، انتشرت بسبب قدرة الدعاة على الفصاحة والبيان! وأنت تشاهد وتلاحظ هذا إلى اليوم كثير من دعاة الشر، والبدع، والضلال، أو المجون، والفسق، والمذاهب الردية، إنما يسلكون هذا المسلك، ويمتطون هذا السلاح إلى قلوب الناس وإلى عقولهم، فيصورون القبيح في صورٍ حسنة، وأغلب الناس أغمار ليس عندهم إلا الوقوف عند زخارف القول، دون أن يغوصوا إلى الحقائق والأعماق ومرامي الكلام.

فالمقصود أن إخبار النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن من البيان سحرًا، دليل على أن هذا المقام مقام جلل، وذو خطر، وينبغي أن يُتعامل معه بحذر، فليس كل متكلم يكون مصيبًا، وليس كل مبين يكون مريدًا للحق، فينبغي للمستمع والمتلقي أن يعرف، وأن يكون على حيطة من أمره، وأن يأخذ بالثقة في أموره، ولا يغامر، لا سيما في أهم القضايا والمسائل وهي قضية الدين.

أيضا على الدعاة إلى الحق أن يتنبهوا إلى هذا الأمر فأن من أحسن وأقوى ما يستعينون به بعد عون الله عَزَّوَجَلَّ وتوفيقه حسن البيان، والقدرة على الفصاحة، فإن الناس تُقبل على من يستميل قلوبها، ويهز مشاعرها، ويحسن إيصال الكلام الذي يريده بأسلوب حسن أخّاذ.

دعاة إلى الحق لا ينبغي أن يوصلوا حقهم في صورة مهزوزة؛ أشهى الطعام إن قدمته في إناء متسخ قبيح لا تُقبل النفوس على الأكل، أليس كذلك؟ وأقبح الطعام أو أردؤه لو قُدِّمَ في صورة حسنة مزخرفًا، ومحسنًا، ومزينًا، فإن النفوس قد تُقبل عليه مع أنه قد يكون ضارًا.

إذن هذا من أحسن وأهم ما ينبغي أن ينتبه إليه من يريد أن يكون داعية للحق إمامًا في الهدى.

٣٩

٣٩- باب ما جاء في الكهان ونحوهم

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب

ما جاء في الكهان ونحوهم

بعد أن عقد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ البابين السالفين المتعلقين بالسحر وبعض أنواعه، ناسب أن يعطف عليهما هذا الباب المتعلق بالكُهَّان والكِهانة.

الكُهَّان جمع كاهن، وهذه الكلمة تجمع على كُهَّان وعلى كَهَنَة.

والكَهانة، ويجوز أن تقول الكِهانة حدُّها الذي يجمع الصور التي تدخل تحتها، هو ادَّعاء علم الغيب، فكل ما يرجع إلى هذا المعنى فهو داخلٌ في معنى الكَهانة، وهذا له صور في القديم والحديث.

مر معنا في الباب السالف من تلك الصور: ادعاء علم الغيب، عن طريق زجر الطير، أو عن طريق الخط في الأرض، أو عن طريق ضرب الحصى.

وقد يكون عن طريق ادَّعاء وصول هذا العلم -علم الغيب- عن طريق الجن.

وقد يكون هذا عن طريق النظر في النجوم، وقد يكون هذا عن طريق ما يسمى بعلم الحرف والطلسم، وقد يكون هذا كما هو في عصرنا الحاضر عن طريق ما يُسمى البروج، وقد يكون هذا عن طريق ما يسمى قراءة الكف، وقد يكون هذا عن طريق ما يسمى القراءة في الفنجان، إلى غير ذلك من صورٍ كثيرة تختلف باختلاف الأزمان والأمكنة، لكنَّها ترجع إلى حقيقة واحدة ألا وهي ادَّعاء علم الغيب.

وما يدعيه هؤلاء الدجالون الكهنة من الغيب الذي غاب عِلّمه عن بن آدم، راجع في الجملة إلى ثلاثة أشياء:

[الأمر الأول]: أن يكون ما يَدَّعون من الغيب الذي يذكرون راجعًا إلى استراقِ السمع، وقد مر معنا ما يتعلق باستراقِ السمع في باب ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾[سبأ:٢٣]، وقلنا إن الشياطين تترصد في السماء وقد تسمع كلمةً مما يقضيه الله عَزَّوَجَلَّ في السماء، يسمعونها من الملائكة الذين يتحدثون بها فيتنقلونها بينهم حتى تصل إلى الساحر أو الكاهن، كما جاء في حديث أبا هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عند ((البخاري)).

والأمر الثاني: أن يكون ما يخبرون به عن هذه المغيبات راجع إلى ما يخبرهم به الجن، من أمور غائبة عن الناس، كشيء ضائع، أو متاع مسروق، أو ما شاكل ذلك، وذلك أن الجن لهم قدرة على الطيران والجولان والتقصي عن مثل هذه الأمور، فربما اطلعوا عن علم شيء من هذه الأشياء التي بإمكانهم أن يصلوا إلى علمها، ثم يخبرون وليهم الكاهن.

أما الأمر الثالث: فهو أن يكون ما يخبرون به راجعًا إلى تخمين وحزر، يعني: إلى كذب لا حقيقة له، وليس لهم سببٌ صحيح، وهذا هو الغالب عليهم، فالكهان المشعوذون العارفون الدجالون أهل الكذب دون شك: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾[الشعراء: ٢٢١-٢٢٣].

فهم أهل كذب وأهل إفك وتدجيل، حتى الذي يخبرون به مما يلتقطونه عن مسترقي السمع من الجن يخلِطون معه الكذب الكثير، فهم أهل كذب ودجل في الغالب.

وأما عن العلاقة بين السحر والكَهانة والفرق بين الساحر والكاهن:

فإن بين السحر والكَهانة اجتماعًا وافتراقًا، يلتقي الساحر والكاهن ويلتقي السحر والكهانة في شيء ويفترقان في شيء.

أما التقائهما: فإنهما يلتقيان من جهة الاستعانة بالجن والشياطين، كما مر معنا في حديث أبي هريرة السالف: «حتى يلقيها إلى الساحر أو الكاهن».

أما اختلافهما: فإنَّ الكاهن إنما يتعلق به إخبارا.

وأما الساحر فيتعلق به تأثيرًا.

الكهانة ترجع إلى إخبار، الكاهن يخبر سيكون كذا، سيموت فلان، ستنتهي الحياة سنة كذا وكذا، يخبرون عن أشياء يراد العلم بها.

أما السحر فشأنٌ آخر، السحر فيه تأثير، فيه إيصال أذى لمسحور أو من يراد سحره، فيه سحر عطف، جلب حبيب، أو صرف تبغيض، أو أذية لإنسان عن طريق الجن، أو ما شاكل ذلك.

إذن السحر فيه تأثير، والكهانة فيها إخبار؛ هذا الفرق بين الأمرين.

أما حكم الكاهن فهو الذي لا شك فيه ولا ريب، أن الكاهن الذي يدعي علم الغيم الذي استأثر الله عَزَّوَجَلَّ به فلا شك أنه كافر، وهذا مما لا يجوز أن يُختلف فيه، كاهن يدعي أنه يعلم الغيب الذي أخبر الله أنه استأثر به لا شك أنه كافر بالله عَزَّوَجَلَّ.

وذلك أن :

أولاً يدعي مشاركة الله عَزَّوَجَلَّ فيما يختص به، ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[النمل:٦٥]، ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[الكهف:٢٦]، إذن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي استأثر بعلم الغيب، فكان هو وحده لا شريك له علام الغيوب.

وأمر آخر: أنه مُكَذِّبٌ لكتاب الله الذي أخبر باستئثار الله عَزَّوَجَلَّ بعلم الغيب.

إذن كل من ادعى علم الغيب الذي استأثر الله عَزَّوَجَلَّ به بأي وسيله كان ذلك فإنه يكون حين إذن كافرا بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

هذا باختصار ما يتعلق بموضوع الكهانة وسيأتي أيضا أبواب هي من فروع هذا الموضوع تتعلق بالتنجيم وما إليه وسيزداد الكلام في ذلك في محله إن شاء الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنه قال: «من أتى عرافًا فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يومًا».

هذا الحديث عزاه المؤلف كما ترى إلى الإمام مسلم وهذا العزو ليس بصحيحً بل إن اللفظ الذي أخرجه الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((صحيحه)) مخالف لهذا اللفظ الذي بين أيدينا من جهتين:

أولا أنه ذكر أربعين ليلة، والذي في الكتاب عندنا أربعين يومًا، والأمر في هذا يسير، ولكن الأمر المهم أن هذا الحديث فيه «**فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوما**»، وعزو الإمام لهذا الحديث إلى مسلم لعله تابع فيه غيره من أهل العلم، فإن ابن الأثير في ((جامع الأصول))، وكذلك النووي في ((رياض الصالحين)) وغيرهما، ذكروا هذا الحديث بهذا اللفظ معزوا إلى الإمام مسلم، فلعل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تابع أحد من هؤلاء في هذا العزو.

أما الذي جاء في صحيح مسلم فهو قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»**، والعراف من جنس الكهان، وسنتكلم عن الفرق بين الكاهن والعراف فيما يأتي إن شاء الله.

وهذا الحديث بهذا اللفظ جُمع فيه بين السؤال والتصديق، والصواب أن الحكم المذكور وهو: **«لم تقبل له صلاة أربعين يوما»** هو اللفظ الصحيح المبني على السؤال كما جاء في رواية الإمام مسلم.

أما التصديق فقد جاء في حديث أبي هريرة وغيره مما سنتكلم عنه، وأورد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ذلك في الحديث الثاني وما بعده فيه حكم آخر: **«من أتى عرافًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذن الصحيح أن الوعيد بعدم قبول الصلاة أربعين يومًا مترتب على مجرد مجيء الكاهن وسؤاله.

وأما مجيئه وسؤاله وتصديقه، فإنه يترتب عليه الوعيد الآخر وهو: **«فقد كفر بما أنزل على محمد»** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعلى كل حال المجيء إلى الكهان فيه ثلاث أحوال:

١/ مجيء اختبار وامتحان.

٢/ ومجيء إطلاع.

٣/ ومجيء تصديق.

وكل حالة لها حكم:

[الحال الأولى]: مجيء اختبار وامتحان، فيأتي العالم إلى كاهن لكي يختبره ويمتحنه ويكشف حاله، فهذا لا بأس به، وقد يتعين وليس داخل في الحديث الذي بين أيدينا، ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيحين من إتيان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابن صياد وهو كاهن يهودي دجال، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إني خبأت لك خبيئًا. فقال: الدخ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اخسأ فلن تعدُ قدرك»** هذا ليس داخلاً فيما نحن فيه، إذن هذا إتيان اختبار وامتحان.

[الحال الثانية]: إتيان الاطلاع، يأتي إنسان إلى كاهن يريد أن يستطلع كما يقولون باللسان المعاصر، حب استطلاع، يريد فقط يتفكه، يضحك، وما شاكل ذلك، ينظر ماذا عند هذا الكاهن دون أن يصدقه فهذا الذي يتنزل عليه حديث مسلم **«لن تقبل له صلاة أربعين يوما»**.

إذن هذا أمرٌ منكر ومحرم، وفاعله عاصٍ لله ورسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: **«يا رسول الله، إن كنا نأتي في الجاهلية الكهان، فقال النبي** صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **فلا تأتهم»**؛ نهى النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن إتيان الكهان، ففاعل ذلك آثم بعصيانه الله ورسوله.

ثم يترتب عليه أيضًا وعيدٌ خاص وهو أنه لا تقبل له صلاة أربعين ليلة أو أربعين يومًا، كما عندنا هنا أو في بعض الروايات في خارج صحيح مسلم.

ومعنى ذلك أنه يجب على هذا الإنسان أن يصلي ومع ذلك لا ثواب له في صلاته، ولا يطالب بالإعادة بالإجماع كما قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((شرح مسلم)).

إذن يصلي ولا ثواب له في هذه الصلاة، عقوبة على ما اجترح من هذا الإثم وهو أن يأتي إلى هؤلاء الكهان فيعرض نفسه للفتنة ويعرض إيمانه للنزول.

أما الحال الثالثة: فهو أن يأتي إلى هذا الكاهن فيسأله فيصدقه، فهذا الذي يتنزل عليه حديث النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **«فقد كفر بما أنزل على محمد»** صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومما أنزل على محمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[النمل:٦٥]**.

إذًا هذا لم يصدق، بل كفر وكذب بما أَنزَل الله على رسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأدلة التي تدل على استئثار الله عَزَّوَجَلَّ بعلم الغيب.

وقد يقول قائل: ماذا أنت قائل فيما خرَّج الإمام أحمد في ((المسند)): **«من أتى عرافًا فصدقة لم تقبل له صلاة أربعين يومًا»**، هذا الحديث فيه ترتيب الوعيد على بطلان ثواب الصلاة أربعين يومًا على التصديق؛ وهذا يتنافى مع التقرير السابق.

قلنا إن من **«صدق»** هذا فيه وعيدٌ آخر، وهو أنه كفر بما أنزل على محمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فماذا نصنع بهذه الرواية؟

الإجابة عن هذا أن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخرج هذا الحديث عن يحيى بن سعيد، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن صفية بنت عبيد، عن بعض أزواج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا هو الإسناد، وبعض أزواج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا، وكما أيضا في حديث مسلم السالف الذكر والله أعلم أن المراد حفصة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا كما بين هذا بعض الحفاظ ومنهم أبو مسعود الدمشقي، وكذلك الحميدي في ((الجمع بين الصحيحين))، وأقر هذا ابن الأثير في ((جامع الأصول)).

المقصود أنك إذا نظرت إلى هذا الإسناد وجدت ظاهره الصحة، ولكن عند جمع الروايات تجد أنَّ هذا الحكم فيه نظر، وذلك:

[أولاً]: أن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ روى هذا الحديث عن يحيى بن سعيد، وقد روى هذا الحديث عن يحيى بن سعيد بهذا الإسناد جمع من الثقات منهم محمد بن المثنى كما عند مسلم، ومنهم صدقة بن الفضل، ومنهم أبو بكر بن خلاد، ومنهم على بن المديني، كل هؤلاء ذكروا هذا الحديث بدون لفظ **«فصدقه»**.

[ثانيًا]: أن عبد الله بن رجاء تابع عبيد الله بن عمر في الرواية عن نافع بدون هذا اللفظ.

[ثالثًا]: أن الروايات الأخرى من غير حديث حفصة أو بعض أزواج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترتيب الكفر على من صدق، وقد جاء هذا من حديث أبي هريرة وسيمر معنا، ومن حديث عمران وسيمر معنا، وأيضا من حديث جابر، وأيضا من حديث عمر، وأيضا من حديث أنس، وأيضا من حديث واثلة، وإن كان الإسناد في ذلك ضعيف أو ضعيفًا جدًا كما ثبت أيضًا من قول بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وسيأتي معنا، كل أولئك كان حديثهم مرتبًا على شيء واحد وهو أن من صدق هذا العراف كفر بما أنزل على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

رابعًا: أنه قد وقع عند ((الطبراني)) من حديث بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ترتيب الإتيان إلى العراف فقط أنه لن تقبل له صلاة أربعين يومًا، وهذا يؤيد رواية مسلم، فأصبحت رواية حفصة ورواية أخيها ابن عمر كلاهما متفقان على أن من أتى فسأل مجرد سؤال، جاء مجرد

إتيان لهذا الإنسان يستطلع، فانه يعتبر قد باء بهذا الإثم وهو أنه «**لا تقبل له صلاة أربعين يومًا**».

الخلاصة أنَّ الصحيح والأقرب والله تعالى أعلم أن ها هنا وعيدين:

[الوعيد] الأول: على مجرد السؤال والاطلاع، وهو لا تقبل له صلاة أربعون يوما أو أربعين ليله كما جاء في صحيح مسلم.

الوعيد الثاني: أن من صدق هذا الكاهن يتنزل عليه حديث فقد كفر بما أنزل على محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

نأتي الآن إلى مسالة مهمة وهي: نريد تلخيص القول في حكم من يأتي إلى هذا الكاهن، وما معنى قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فقد كفر بما أنزل على محمد**» صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

[القول الأول]: ذكر جمع من أهل العلم أنَّ الإتيان إلى الكاهن أو العراف وتصديقه كفر أصغر، ورأى هؤلاء أن الحديث حديث مسند الإمام أحمد عن بعض أزواج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والذي فيه «**فسأله فصدقه**»، هذه الرواية مقيدة للرواية المطلقة: «**من أتى عرافًا أو من أتى عرافًا فسأله**» هذه مطلقة، وفيها تقيد أو لها تقيد في رواية «**فصدقه**»، وبالتالي فإن من أتي فصدق يبوء بوعيدين:

أنه لا تقبل له صلاة أربعين يومًا.

وأيضا أنه يكفر الكفر الأصغر.

ولماذا قالوا إنه كافر كفرًا أصغر؟

قالوا لأنه لو كان كافرا كفرا أكبر لم يكن عدم قبول الصلاة محددًا بأربعين يومًا، بل كان لا يقبل له صلاة مطلقًا حتى يتوب إلى الله جَلَّ وَعَلَا، فلأجل هذا قالوا إن تصديق الكاهن هو كفر أصغر.

القول الثاني: هو أن تصديق الكاهن كفر أكبر، ورأى هؤلاء أن الروايات التي فيها التصديق، الروايات الصحيحة التي فيها لفظ التصديق، إنما ترتب على ذلك فيها «**فقد كفر بما أنزل على محمد** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» لا سيما وأن هذا هو المناسب لهذا اللفظ «**كفر بما**

أنزل عل محمد» صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وذلك أن هذا الإنسان اعتقد أن غير الله يشارك الله في علم الغيب، وهذا لا شك أنه كفر أكبر.

القول الثالث: يذكر في كتب أهل العلم وهو التوقف، ويروي هذا عن بعض الأئمة، وهذا القول إما أن يُحْمَلَ على أن القائل لا يدري أهو كفر أكبر أو أصغر، وبالتالي لا ينبغي أن يُقال أنه قول ثالث، لأنه ليس عنده علم.

أو يقال إن قائل هذا القول أراد السكوت عن التفصيل والبيان ليكون أردع في النفوس.

بل تحكي ما حكى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فهو أوقع في النفوس عند العامة والناس بدلاً أن تقول هذا كفر أصغر، ربما يخفف هذا حدة الأمر في نفوس الناس، لكن أطلق ما جاءت به النصوص، وبالتالي فهذا راجع إلى الحكمة في الدعوة وليس قولاً ثالثًا.

والذي يظهر لي والله تعالى أعلم أن يقال أن القولين الأولين يرجعان إلى اتفاق، فإن القائلين بأن تصديق الكاهن كفرٌ أصغر أجزم أنهم لا يريدون تصديقه في أنه يعلم الغيب الذي استأثر الله به إنما أن لدى هذا المُصدق شبهة، وهي أن هذا الكاهن أو العراف أخبر بما وصله علمه عن طريق الجن، وما أخبر به الجن سمعوه من الملائكة، وما سمعه الملائكة خرج عن حيز كونه غيبًا، ما أصبح الآن غيبًا استأثر الله به، وبالتالي وجود هذه الشبهة تذرع عن هذا المصدق الحكم بالكفر الأكبر.

وأما إذا كان هذا المصدق يُصَدِق أن أحدًا غير الله يشارك الله الذي استأثر به وهو علم الغيب مطلقًا، فهذا مما لا يختلف في كفره، بل هذا من الأمر المعلوم بالضرورة أنه كفر بالله جَلَّوَعَلَا، فكل من شارك الله عَزَّوَجَلَّ في صفة اختص بها فهو كافر كفر أكبر بالاتفاق، فعاد الأمر إلى اتفاق بين القولين، فأصحاب القول الأول نظروا إلى شيء، وأصحاب القول الثاني نظروا إلى شيء آخر، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ:

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «من أتى كاهنًا فصدقة بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ». رواه أبو داود.

هذا الحديث حديث أبي هريرة وهو صريح في الحكم الذي ذكرته لك بأن من كفر هو الذي صدق هذا العراف، والحديث كما ذكر الشيخ رواه أبو داود، بل رواه الخمسة أحمد والترمذي والنسائي في ((السنن الكبرى)) وابن ماجة وغيرهم.

والحديث جاء من رواية أبي تميمة الهجيمي عن أبي هريرة ولم يسمع منه، ولكن يشهد له الحديث الآتي ولو كان فيه أيضًا انقطاع، فإنه جاء من طريق خِلَاسٍ عن أبي هريرة وأيضا هذا فيه انقطاع، لكن كثرة المتابعات والشواهد لهذا الحديث يقطع الناظر فيها بأن هذا الحديث وهذا اللفظ ثابت عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون شك، وقد ذكرت لك طائفة من هذه الروايات عن أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قبل قليل، فالحديث صحيحٌ إن شاء الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وللأربعة والحاكم - وقال: صحيحٌ على شرطهما - عن...:

«من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

بيَّض المؤلف لاسم الراوي: فقال: (عن...) وما ذكر الراوي وهو أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، والحديث ليس عند الأربعة، ولعله أراد الذي قبله.

والفرق بينه وبين الحديث السابق أن فيه إضافة: الكاهن.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفًا.

مر بنا هذا الأثر غير مرة، كررناه عدة مرات في الدروس السابقة، وفيه ذِكْرُ أيضا الساحر، ابن مسعود أضاف أيضا الساحر، والأثر جيد كما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه إتيان الكاهن والعراف والساحر، فمن صدقهم فقد كفر بما أنزل على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعا «ليس منا من تطير أو تُطير له، أو تكهن أو تُكهن له، أو سحر أو سُحر له، ومن أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». رواه البزار بإسناد جيد.

هذا الحديث في شطره الثاني موافق لما قبله، وأما الجديد فيه فهو شطره الأول، (من تكهن أو تكهن له، أو تطير أو تطير له، أو سحر أو سحر له).

(تكهن) فعل: الكهانة، أما (تُكُّهن له) يعني: فعلت لأجله، يعني جاء إلى كاهن فسأله أو طلب منه أن يخبره بشيء غيبي، هذا الذي يقال فيه تُكهن له؛ وكذلك في تُطير له، وكذلك في سُحر له، يعني يطلب فعل هذه الأشياء، من فعل ذلك فإنه ليس منا، هكذا أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا وعيد وترتيب مثل هذا الوعيد على معصية قرينة على أن هذه المعصية كبيرة من الكبائر.

والأصل أن كلمة (ليس منا) يراد بها: ليس من المؤمنين الإيمان الواجب، انتبه، ليس بلازم أن يكون (ليس منا) أن يكون ليس مسلم أصلا، إنما (ليس منا) يعني ليس مؤمنًا الإيمان الواجب، وذلك أن الإيمان الواجب يقتضي فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه.

وننبه هنا إلى مسألة مهمة، إن هذا الحديث جمع ثلاث معاصٍ، ما هي؟

الكهانة والسحر والتطير.

وأنت تلحظ أن الحكم فيها مختلف؟ السحر مضى الكلام فيه، والكهانة هي التي نتكلم فيها، والطيرة سيأتي فيها بابٌ يفصل فيه إن شاء الله.

والطيرة لا تصل إلى حد السحر ولا تصل إلى حد الكَهانة، بل الأمر فيها دون ذلك فإن من تطير، ولم يترتب على ذلك -تطير يعني: تشاؤم- ولم يترتب على ذلك شيء فإن هذا أمر منكر ومحرم، فإن ترتب على هذا تركًا أو فعلاً فإن هذا يعتبر شركًا أصغر.

إذن حكم كل واحد من هذه الأمور الثلاثة يختلف عن الأخر؛ فكيف جُمع بينها في حديث تضمن وعيدًا واحدًا؟

القاعدة يا رعاك الله -وتنبه إلى هذه القضية- في جملة من أحاديث الوعيد، اجتماع أفعال متعددة تحت وعيد واحد لا يدل على التساوي في الحكم الخاص، بمعنى قد يأتي الدليل جامعًا لأعمال عدة تشترك في قدر مشترك من الوعيد، لكن هذا لا يعني استواء هذه الأعمال في الحكم الخاص، أضرب لك مثالاً: قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«اجتنبوا السبع الموبقات»** وذكر الشرك بالله والسحر، وهذان لهما حكم خاص وهو الكفر، وذكر أشياء دون ذلك، أليس كذلك؟ ذكر قذف المحصنات، ذكر التولي يوم الزحف؛ السؤال: قذف المحصنات والتولي يوم الزحف هل هما في حكم الشرك والسحر؟

الجواب: لا؛ لكنَّ الكل يشترك في شيء واحد وهو أن هذه الأمور موبقة، وإن كان مقدار الإباق يتفاوت، إذن بينها قدر مشترك وبينها قدر فارق.

قل مثل هذا في الأحاديث التي بين أيدينا، كلها تشترك في أن من وقع فيها لم يكن مؤمنًا الإيمان الواجب، ربما كان في بعض ذلك أو في بعض هذه الأمور المذكورة قدر زائد على ذلك، وهو أن يصل إلى الشرك أو الكفر الأكبر.

إذن كل واحدة من هذه الأمور لها حكم خاص وإن اشتركت في أنها من الأمور المنكرة ومن الأمور المتوعد عليها، والله أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

رواه الطبراني بإسناد حسن من حديث ابن عباس؛ دون قوله: «ومن أتى...» إلى آخره.

ورُوِيَّ مرفوعًا إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أما الموقوف على ابن عباس فالإسناد فيه جيد، وأما المرفوع فضعيف أو ضعيفٌ جدًا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال البغوي: «العراف الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك».

وقيل: هو الكاهن، والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

وقال أبو العباس ابن تيمية: العراف اسم للكاهن والمنجم والرمّال ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق.

الآن وصلنا إلى التفريق بين الكاهن والعراف، أو بين هاتين الكلمتين وغيرها كالمنجم والرمال وما إلى ذلك، في هذا الموضوع اختلاف طويل، وكلام كثير وأنت قد سمعت بعضه، ويمكن أن نذكر مُحَصلة لهذا فنقول:

إن العلماء مختلفون في هذه المسألة:

فمنهم من يرى: أن الكاهن هو العراف وأن العراف هو الكاهن، ولا فرق.

ومنهم من يرى: كما ذكر أبو العباس تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن العراف أعم، كل من ادعى علم الغيب فهو عراف، يدعي معرفة الغيب.

ثم بعد ذلك هناك تسميات مفصلة، من ذلك الكاهن الذي يدعي أن معرفة الغيب عن طريق مسترقي السمع، هناك رمال عن طريق الخط في الرمل إلى غير ذلك.

والأقرب والله تعالى أعلم أن يقال أن كلمة العراف والكاهن من الكلمات التي إذا اجتمعت افترقت وإذا افترقت اجتمعت.

إذا نظرت إلى مجرى كلام أهل العلم واستعمالاتهم تصل إلى هذه النتيجة، أن العراف والكاهن إذا أطلق أحدهما دون الآخر فإنه يشمل الآخر، وإذا ذكرا معًا يفترقان، ولعل الأقرب في ذلك ما ذكر الراغب الأصفهاني في كتابه ((الذريعة)):

أن الكاهن من يخبر عن الأمور المستقبلة.

وأما العراف فمن يخبر عن الأمور الماضية.

الذي يقول سيكون كذا وكذا، سيحصل كذا وكذا، هذا كاهن.

وأما العراف فالذي يخبر عن أمرٍ ماضٍ، كالذي يخبر عن محل شيء مسروق، هذا في أمرٍ مضى، أمرٍ انقضى، سُرق وانتهى الأمر فهو يخبر عن شيء ماضٍ.

لعل هذا أقرب وأضبط ما يقال في هذا الأمر، والله أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن عباس - في قوم يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم: ((ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق)).

هذا الأثر الذي ختم به المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب وبه نختم إن شاء الله هذا الدرس، أثر بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا هذا خرجه عبد الرزاق في ((المصنف)) وغيره بإسناد ثابت عنه رضي الله عنه، وأخبر فيه أن الذين يتعاطون ما يسمي بأبي جاد ليس لهم عند الله من خلاق، وهذا يؤيد أن من أتى هؤلاء الكهان، والعرافين فصدقهم فقد كفر بما أنزل على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كفرًا أكبرا، فإن هذا اللفظ إنما يستعمل غالبًا في هذا (ليس له عند الله من خلاق، أو ليس له من خلاق) يعني ليس له من حظ ونصيب عند الله جَلَّ وَعَلَا.

ومراده بـ(أبي جاد): الحروف الأبجدية التي ترتيبها كما تعلمون (أبجد هوز حطي كلم سعفص قرشت ثخذ ضظغ)، استعمال هذه الحروف قد يكون ممنوعا، أو قد يكون مشروعا أو جائزًا:

أما كونه ممنوعًا: فهو ما جاء في أثر ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وذلك أن الكهان والعرافين يستعملون هذه الحروف فيما يسمونه بعلم الحرف أو علم الحروف، وذلك أنَّهم يدعون أن كل حرف من هذه الحروف يقابله عددٌ من الأعداد، وهذه الأعداد لها خواص واتصال بالأفلاك والنجوم السماوية، وبالتالي فإنه إذا جاء أحد هؤلاء إنسان يسأل عن شيء ما متى سيكون؟ متى سيحصل كذا؟ متى سيموت فلان؟ متى سيولد قائد كذا؟ متى تنتهي الحياة؟ إلى آخره، فيأتون فيذكرون هذه الحروف بكميات، يعني يسألون عن الاسم مثلاً، يسألون عن اسمه أو نحو ذلك، يأخذون هذه الحروف ويجعلون مقابلها الأعداد المعلومة عندهم، فيجعلونها في جدول ثم يقومون بطريقة حسابية، إما بطريقه مائلة أو بطريقة مستقيمة أو بطريقة معترضة، يقسمون ويطرحون ويجمعون، بكيفية معلومة وفيها كتب مؤلفة مع الأسف الشديد في هذا، ثم بعد ذلك يخلصون إلى نتيجة، أنه سيكون كذا وكذا.

ولا شك ولا ريب أن هذا من الكهانة المنكرة التي فيها ادعاء علم الغيب، الذي استأثر الله عَزَّوَجَلَّ بعلمه، ولا شك أن هذا كفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا هو الاستعمال الممنوع.

أما الاستعمال الجائز: فهو استعمال هذه الحروف الأبجدية في نحو التقسيم، أو ذكر الفقرات، يقال: ألف كذا، باء كذا، كما يستعمله الباحثون وطلاب العلم، أو استعمال ذلك فيما يسمى: حساب الجُمل، وذلك أن كثيرًا من أهل العلم يستعمل هذه الطريقة إذا أراد أن يضبط تاريخًا أو يضبط شيء من الأشياء، كلمة أو نحوها يضبطها، أو جملة يضبطها بهذه الطريقة من أجل تسهيل الحفظ لا غير، وطريقة حساب الجمل هي: أنهم يجعلون مقابل كل حرف من هذه الحروف الأبجدية رقمًا، ألف يقابلها واحد باء يقابلها اثنان وهكذا إلى عشرة، ثم الحرف الحادي عشر يكون عشرين ثم ثلاثين أربعين خمسين، المهم إلى أن ينتهي الأمر إلى الألْف، تنتهي كمية هذه الحروف عند الألف، ثم بعد ذلك يأتي من يريد كما ترى في بعض النظم، يريد أن يؤرخ التاريخ الذي انتهى فيه هذا النظم أو عدد الأبيات، فيجعل الحروف التي في أوائل كلمات البيت أو كلمة منها بالذات في الحروف يجمعها في كلمة معينة، فأنت إذا جعلت مقابل لكل حرف منها العدد الذي يقابلها فإنك تستخلص حينئذ هذا التاريخ.

على كل حال يعني هي طريقة يعني كانت مشهورة في السابق، وهي الآن قليل من يستعملها، مثل هذا لا شك أنه جائز ولا بأس به.

الخلاصة –يا أيها الإخوة– من هذا الدرس:

أن موضوع ادعاء علم الغيب والكهانة وما يرجع إليها بلية كبرى في هذا العصر، لا سيما مع هذه الوسائل الحديثة في التواصل، فإنها قد قربت البعيد مع الأسف الشديد، كثيرٌ من الشباب والفتيات يخوضون غمار هذه الأشياء التي تعود عليهم بالشر الوبيل، كم تلك المواقع التي يعج بها هذا النظام أو هذه الشبكة –الإنترنت-: حظك معنا، أو حظك في برجك، أو تلك المجلات التي في أخرها الأبراج يذكرون فيها ما يذكرون من سعود أو نحوس، أنت مولود في أي برج؟ أنت في برج الجدي! إذا ستفوز بجائزة مالية هذا الأسبوع، ستقابل صديقًا، ستفارق من تحب إلى غير ذلك، مع الأسف الشديد.

مواقع كثيرة انتشرت وفشت والوصل إليها من أسهل ما يكون بضغطة زر، موقع الشيخ الروحاني فلان، موقع الشيخة الروحانية أم فلان ماذا تريد؟ بين يديك، اطلب وتمنى،

تريد معرفة الغيب؟ تريد جلب حبيب؟ تريد تحصيل مال؟ ما عليك إلا أن تتواصل معنا ونحن نوصلك إلى ما تريد، أصبح هذا الأمر أمرًا كثيرًا وفاشيًا.

ومن لا علم عنده ولا معرفة ومن ضعف إيمانه يتساهل في مثل هذا الأمر.

على من شرح الله صدره ونور بصيرته وآتاه علمًا أن يقوم بواجب النصيحة والبيان، وأن يبيِّن للناس ومن حوله من أسرة وقرابة، أن هذا الأمر مجازفة وتلاعب بأغلى ما يملك الإنسان وهو دينه، فحذاري يا عبد الله.

والله أعلم.

٤٠

٤٠- باب ما جاء في النشرة

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب

ما جاء في النُشرة

عن جابر؛ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سُئل عن النُشرة، فقال: «هي من عمل الشيطان» رواه أحمد -بسند جيد - وأبو داوود، وقال: سُئل أحمد عنها؛ فقال: ابن مسعود يكره هذا كله.

وفي البخاري عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجلٌ به طبٌ أو يُؤَخَّذ عن امرأته؛ أيُحل عنه أو يُنَشَّر؟ قال: «لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم يُنهى عنه». انتهى.

ورويَ عن الحسن أنه قال: «لا يحل السحر إلا ساحر».

قال ابن القيم: «النُشرة حل السحر عن المسحور وهي نوعان:

أحدهما: حلٌ بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يُحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب، فيُبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية، والتعوذات، والدعوات، والأدوية المباحة؛ فهذا جائز».

هذا الباب باب النُشرة وقد ناسب بعد أن تكلم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن السحر وبعض أنواعه، وما يقرب منه وهو الكهانة، ناسب أن يعقد هذا الباب الذي جعل موضوعه النُشرة.

والنُشرة: حل السحر عن المسحور وعلاج من أصابه مسٌ أو جنون، سُميت النشرة بذلك؛ لأنها تَنْشُر عن المصاب ما خامره من داء؛ يعني: كأنها ترفع وتحلُ ما عقده الساحر، فلأجل هذا سُميت نُشرةً.

والنُشرة فصل الخطاب فيها ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الكلام الذي سمعته وهو مدونٌ في كتابه ((أعلام الموقعين))، وذلكم أن حكم النُشرة فيه تفصيل، الشخص الذي

أُصيب عافاني الله وإياكم من ذلك بسحر أو مس أو جنون مداواته وعلاجه هو ما يُسمى بالنُشرة، والحكم فيها فيه تفصيل.

فالنشرة تنقسم إلى: نشرة ممنوعة، ونشرة غير ممنوعة.

أما غير الممنوعة فإنها تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: النشرة المستحبة، وهي التي يكون فيها العلاج بآيات الكتاب وأذكار وأدعية النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وما فيه أسماء الله وصفاته، ومضى معنا ما يتعلق بالرقية الشرعية، ويدخل في هذا أيضًا ما جاء عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من الأدوية الناجعة لهذه الأمور لذلك التصبح بسبع تمرات عجوة وجاء هذا الحديث في الصحيحين مطلقًا: **«من تصبح بسبع ثمرات عجوة لم يصبه في ذلك اليوم سم ولا سحر»** وجاء عند مسلم: **«من تصبح بسبع ثمرات مما بين لابتيها»** يعني من عجوة المدينة اللاباتان: الحرتان واقم، والوبرة، يعني الشرقية والغربية.

المقصود أن تكون من عجوة المدينة فهذا أبلغ في الشفاء.

أخبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن **«من تصبح»** يعني أكل على الريق كما يقولون **«لم يصبه في ذلك اليوم سم ولا سحر»**.

كذلك من هذه الأدوية النبوية اغتسال من أُصيب بعين بغُسالة العائن إذا عُلم العائن الذي أصاب بعينه إنسانًا، فإنه يؤمر بأن يغتسل وأن يغسل داخلة إزارِه (يعني ملابسه التي لامست جسده الملابس الداخلية) ثم إذا غُسلت غُسل بها بهذه الغسالة التي تبقى في الإناء، يغتسل بها من أصيب بهذه العين، فإنه يبرأ إن شاء الله.

إذن ما ثبت من أدوية شرعية فإنه يعتبر من النُشرة المستحبة.

أما النشرة الجائزة فيكون الاستطباب في شأن هذه الأدواء بشيء لم يرد؛ لكن ضابطه أن يكون بما لا محظور فيه وأن يُعلم نفعه بالتجربة.

إذن عندنا أمران تُستعمل أدوية لا محظور فيها، يعني ليس فيها محظور من جهة الشرع وثبت بالتجربة نفع ذلك، فهذا لا بأس به وهو من جنس الطب، والأصل في التطبب الجواز.

والغالب على هذا النوع أن يكون باغتسال على هيئة مخصوصة كما عرف ذلك -أعني النُشرة- كثير من أهل العلم، من ذلك قول يحيي بن سعيد وقد خرجه ابن عبد البر في ((التمهيد)): «ليس في نشرة الإنسان بما يُجمع من نبات وطيبٍ فيغتسل به من بأس».

كذلك عرف النشرة القاضي عياض في ((المشارق)) وكذلك الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة ((الفتح)): بأن النشرة تطببٌ باغتسال على هيئة مخصوصة، عُلمت بالتجربة فمثل هذا لا بأس به وسيأتي إن شاء الله ذكر أمثله له.

أقول الغالب على النُشرة الجائزة أن تكون من هذا الجنس، وإذا تأملت في كلام كثير من العلماء وجدته يدور على هذا المعنى، ولأجل هذا الاشتراك الحاصل في معنى النُشرة حصل الالتباس في شأن النُشرة، فظن من ظن أنَّ النشرة هي بكل حال في كلام العلماء حل السحر بسحر مثله، فأجازوا حل السحر بسحر.

ولا شك أن هذا منكر ولا محرم بل شديد التحريم ولا يجوز بحال.

وهذه مسألة كثُر فيها اللبس والخوض من بعض المعاصرين، وبعضهم حمل لواء القول بجواز هذا الأمر، وهو أن يُلجأ إلى ساحر؛ لأجل أن يفك السحر بسحر آخر، هذه مسألة فيها التباس وفيها خلط وخبط كثير، ولا شك أن اللجوء إلى السحرة لأجل أن يسحروا سحرًا يفك سحرًا قبله، لا شك أن هذا منكرٌ عظيم فلا يجوز ويدل على هذا أمور، انتبه لها.

أولاً: ما بين أيدينا من هذا الحديث الذي هو حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سُئل عن النشرة التي هي حل السحر فقال: «هو من عمل الشيطان» هكذا في رواية أبي داوود، وعند أحمد «من عمل الشيطان» يعني: هذا الفعل وهو حل السحر بمثله من عمل الشيطان، ولا شك أن في هذا تحذيرًا بليغًا وتنصيصًا على التحريم، وأن حل السحر بسحر مثله أمر منكر ولا يجوز شرعًا.

وهذا الحديث الذي بين أيدينا حديثٌ صحيح، جود إسناده ابن مفلح وحسنه الحافظ، وهو أعلى من الحسن كما نص على هذا الشيخ ناصر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((السلسلة))، واستدرك على الحافظ قال: بل هو صحيح، رجاله رجال الصحيحين إلا عقيل بن معقل وهو رجلٌ ثقة، الحديث صحيح ثابت عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

ثانيًا: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: وهذا قد مر بنا في حديث عمران في الباب الفائت، قال: «**ليس منا من تكهن أو تُكهن له، أو سحر أو سُحر له**» وهذا الحديث كما قد علمت حديث حسن جيد خرجه البزار والطبراني وغيرهما، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قال في أمر ليس منا من فعله هذا دليل على أنه محرمٌ بالغ التحريم.

ثالثًا: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قال: «**إن الرُقى والتمائم والتولة شركٌ**» وهذا الحديث قد مر بنا قبل أبواب وعلمنا أن مراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**إن الرقى شرك**» يعني: الرقى الشركية، ولا شك أن هذه النُشرة السحرية هي من جنس الرقى الشركية أو مقيسة عليها، فهي بكل حال داخلة في هذا الحديث.

[رابعًا]: قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اجتبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر**» إلى أخر الحديث، ها هنا أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باجتناب السحر مطلقًا، ولم يفصل بين حال وحال، لم يقل إلا في حال فك السحر إنما أمر باجتناب مطلق، فوجب على الإنسان أن يستجيب لأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[خامسًا]: ما ثبت عن ابن مسعود ومر بنا غير مرة من قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**من أتى عرافًا أو ساحرًا أو كاهنًا فسأله فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أُنزل على محمد**» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقلنا إنه أثر له حكم الرفع، فمثله لا يقال باجتهاد.

سادسًا: ما ثبت عن جمع من الصحابة فمن بعدهم من النهي عن هذه النُشرة، ومن ذلك ما قد سمعت قبل قليل من كراهة ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لذلك، وأنت خبير بأن مصطلح الكراهة الغالب في استعمال السلف أن يراد به التحريم، كذلك ثبت في ((مصنف عبد الرزاق)) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سُئل عن النشرة فقال: «**هي من عمل الشيطان**».

حدّثَ من قوله بما حدّثَ به من روايته، فهو روايته ورأيه أيضًا.

كما ثبت أيضًا عند ((أبي شيبه)) بإسناد صحيح عن إبراهيم النخعي قال: كانوا – والمراد أصحاب ابن مسعود– كانوا يكرهون الرقى والتمائم والنشرة.

فهذا كله مما يؤيد ويعضد القول بأن هذه النُشرة السحرية منكر ولا يجوز، ولذلك أيضًا الأثر الذي عن الحسن وقد سمعته «لا يحل السحر إلا ساحر»، كذلك سئُل كما في ((المصنف)) عن النشُرة فقال: «**هي من السحر**» أو قال «**هي سحر**»، كذلك ما ثبت

من الكراهة عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كذلك ما جاء عن مجاهد وغيرهم من السلف -رحمه الله تعالى عليهم-.

[سابعًا]: أن الله تعالى قد نهى عن الجلوس في المجالس التي فيها كفر ومنكر، ولا شك أن مجالس السحرة هي من أوائل ما يدخل في ذلك ألم يقل الله جل وعلا: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[النساء: ١٤٠].

فلا شك أن حضور الإنسان مجلس السحرة منكر من أصله، حتى لو حضره غير طالب ولا سائل.

[ثامنًا]: أن القول بجواز حل السحر بسحر مثله، نقل الإجماع على المنع منه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما هو في الجزء التاسع عشر في حدود صحيفة إحدى وستين من ((مجموع الفتاوى))، حيث قال: (إن المسلمين وإن اختلفوا في التداوي بالمحرمات كالميتة والخنزير، إلا أنهم لا يتنازعون في أنه لا يجوز التداوي بالشرك والكفر)، والسحر ولا شك أنه شرك وكفر.

فدل هذا على أن هذا الأمر منكر لا يجوز بالإجماع الذي نقله شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

[تاسعًا]: أن يقال إن القول بجواز فك السحر بفعل ساحر أنه يتناقض مع ما مر بنا من إجماع الصحابة على قتل كل ساحر وساحرة مر بنا أن هذا قول ستة من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ولم يأتِ عن غيرهم ما يخالف قولهم، وبعث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى عماله أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، فكيف يا ترى؟ سيُقال أقتلوا كل ساحر ثم يُقال أذهبوا إلى السحرة فسلوهم أن يفكوا عن المحتاجين والمصابين والمتضررين السحر أليس هذا تناقضًا؟

القول بجواز ذلك يقتضي الإبقاء على السحرة أو الإبقاء على بعضهم ضرورة، وإلا كيف يمكن اللجوء إليهم، فدل هذا على أن هذا القول منكر ولا يجوز، لمنافاته ما ثبت بالإجماع بفعل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وقولهم.

[عاشرًا]: أن يُقال إن هذا القول ذريعة لبقاء السحر وانتشاره فإنه إذا عُرف ساحر يتعامل بالسحر ويتمتم بالعزائم والرقى الشركية، ويستغيث بالجن والشياطين إذا أُمسك لأجل أن يقام فيه حد الله، فإنه سيقول مهلاً، انتظروا -هداكم الله- أنا ساحر طيب، أنا ساحر أقوم بوظيفة جليلة وهي أني أساعد المحتاجين، فليس لكم أن تتناولوني بضرر، بل ينبغي أن تكرموني، ربما يُطالب بأن يُجرى له مرتب شهري بل وأن تُفتح معاهد له يدرس فيها هذا العمل الجليل، وتحت هذه المظلة يمُرر ما شاء من هذه الشعوذات وهذه المنكرات العظمى.

ولا شك أن هذا القول يترتب عليه ما يترتب من مفاسد، وسد الذرائع أصل شرعي، قامت عليه دلائل كثيرة في الكتاب والسنة.

هذه عشرة كاملة تدلك على أن القول بجواز حل السحر بسحر مثله منكر ومحرم ولا يجوز بحال.

إياك أن تغتر بمن ينادي بخلاف ذلك.

قد يقول قائل: وما الذي استدل به من أجاز هذا من أدلة؟

فالجواب على هذا أن يقال إن أقوى ما اسُتدل به على هذا القول أمران:

[الاستدلال الأول]: الضرورة قالوا إن حل السحر بمثله منكر ومحرم ونتفق معكم على ذلك، ولكن الضرورة تُلجئنا إليه ماذا نصنع؟ هو كأكل الميتة، الميتة محرمة ويجوز عند الاضطرار تناولها، قول كلمة الكفر أمر محرم وعند الضرورة يجوز النطق بها فلنجعل ذهابنا إلى السحرة واستعانتنا بعملهم من هذا الجنس تدعوا إليه الضرورة، والضرورات تبيح المحظورات.

[الاستدلال الثاني]: بأثر سعيد بن المسيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقد سمعته وهو أنه قد سُئل عن الرجل به طب، طب يعني سحر، كلمة طب من الأضداد، فالداء طب والدواء طب، كأن العرب تفاءلوا من هذا اللفظ بحصول الشفاء بعد وقوعه، المهم أنه سُئل عن رجل به طب أي سحر أو يُؤخذ عن امرأته أي يُحبس عن إتيانها وجماعها، فهل يحل عنه أو يُنَشَّر؟ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**لا بأس بذلك إنما يريدون به الإصلاح أو النفع**» أو كما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا الأثر قد علقه الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ ووصله غيره كابن عبد البر في ((التمهيد)) بإسناد صحيح، وجاء عند ابن عبد البر بلفظ قريب: «**سُئل عن الرجل به**

سحر أو يؤخذ عن امرأته فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنما نهى عما يضر وأما ما ينفع فلم يُنهَ عنه».

قالوا: هذا سعيد بن المسيب تابعي فقيه جليل قال بجواز هذا الأمر.

إذن هذا دليل على الجواز.

والجواب عن هذين الاستدلالين فيما يأتي:

أولاً: الجواب عن الاستدلال بالضرورة:

[الوجه الأول]: نقول إنه لا تُسلم كل إصابة بالسحر تقتضي الاضطرار، بخلاف حال الجائع الذي لو لم يأكل لتحقق هلاكه صح ولا لا؟ لكن يمكن أن يكون مسحورًا وكثير من الناس -نسأل الله السلامة والعافية لنا ولهم-، أصيبوا بالسحر نالهم فيه ما نالهم من مشقة لكنهم أحياء ويعيشون.

إذن أصبح هؤلاء ها هنا قياس مع الفارق.

[الوجه الثاني]: أن يُقال لا يُسَلَم بصحة هذا القياس أن نقيس النُشرة على أكل الميتة لم؟ لأن العلماء متفقون على أنه متى ما أمكن الاستغناء بالحلال عن الحرام في دفع الضرورة فلا يجوز حينئذٍ اللجوء إلى الحرام، أرأيت إنسان أوشك على الهلاك فوجد لحمين أحد اللحميين ميتة والأخر لحم مذكى، أيجوز أن يقول أحد أنه يجوز أن يأكل من الميتة لأنه مضطر؟ أجيبوا يا جماعة؟ لا يجوز، لم؟ لوجود مدوحة عن الحرام وهو الحلال.

والسؤال: هل يوجد ممدوحة من الحلال في شفاء هذا المريض بهذا الداء العضال؟

الجواب: أي والله الجواب في قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ﴾[الإسراء:٨٢]، في التعاويذ والرقى النبوية، في اللجوء إلى الله عَجَّلَ بصدق، في ذلك مندوحة عن هذا الأمر المنكر، وفي النقل السابق الذي ذكرته لك عن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلمة لطيفة قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد أغنى الله المؤمنين بما أنزل عليهم عن الشرك وأهله)، إنما المصيبة عند كثير من الناس من الاستعجال أو ضعف اليقين، وإلا لو كان اليقين عند الرقية بكتاب الله يقينًا صادقًا كاملاً، فليبشر الإنسان بالشفاء فإن وعد الله لا يتخلف.

لكن المصيبة أن من الناس من يرقي بالقرآن نفسه أو غيره على سبيل التجربة، دعنا نجرب لعله ينفع أو وهو متردد، عنده ثقة ويقين بحبة الدواء أو بما هو منكر كتميمة شركية أو تعازيم تأتيه من السحرة، أكثر من ثقته ويقينه بكلام الله جَلَّوَعَلَا، ومن ها هنا يؤتى الإنسان.

الرقية بكتاب الله، بالأدعية الثابتة الرقية الشرعية، كما قد علمنا سابقًا سيف والسيف بضاربه، سيف ماضٍ قوي؛ ولكن إذا كان اليد التي تحمل هذا السيف ضعيفة أيقتل هذا السيف ويصيب؟ لا.

إذن لا بد من صدق الراقي ويقين المرقي وصحة المرقي به، إن اجتمعت هذه الأمور الثلاثة فبإذن الله الشفاء حاصل، انتبه لها:

١/صدق الراقي ٢/ويقين المرقي ٣/وصحة المرقي به.

إذن نحن لا نُسلم بأن الاضطرار وأحكامه شيء يمكن تنزيله على هذه الصورة لوجود المخرج الشرعي.

الوجه الثالث: أن يُقال إن الذهاب إلى السحرة لأجل أن يعقدوا سحرًا يحُل سحرًا آخر، مفسدة متحققة في سبيل مصلحة موهومة، وهذا بخلاف حال من كاد أو يكاد أن يموت من الجوع فإن استعماله أو إن أخذه وتناوله من الميتة يتحقق به بإذن الله دفع الاضطرار وليس كذلك هذه الصورة التي بين أيدينا.

الإتيان إلى السحرة والتعامل معهم مفسدة متحققة في انتهاك للأدلة السالفة، هذا أمر مُحقق، أما الثمرة والمصلحة فإنها موهومة، لمَ؟ من الذي يضمن أن فعل هذا الساحر لا بد وأن يأتي بنتيجة نافعة؟ السحرة متفاوتون، ربما يحاول هذا الساحر أن يحُل هذا السحر ولكنه لا يصنع شيئًا ولا يفعل ذلك؛ لأن سحر الساحر الأخر أقوى منه وشيطانه أقوى من شيطانه، وبالتالي فإنه لا يمكنه أن يصنع شيئًا، وكم جرب هؤلاء الذين ضَعُف إيمانهم فذهبوا إلى هؤلاء كم جربوا وما انتفعوا.

إذن هي مصلحة متوهمة وليست متحققة.

[الوجه الرابع]: يُسأل هذا الذي يجيز حل السحر بسحر آخر، أأنت ضامن أن هذا الساحر الذي لجأت إليه سوف يسعى لنفعك؟ أفيه من التقوى والصلاح والصدق ما يجعلك

تثق به؟ أليسوا أهل فجور وكذب؟ أليسوا ممن تتنزل عليهم الشياطين؟ فهم أفاكون كذابون ما يدريك يا عبد الله؟ ربما يماطلك يريد أن يتطاول الزمان وهو ما يصنع شيئًا لأجل أن يأكل مالك وهم أكله للمال بالباطل.

وما يدريك لعله يسعى في حل هذا السحر وفي نفس الوقت يعقد سحرًا آخر حتى تكون على ارتباط به دائم.

إذن أين هذا من تناول الإنسان لميتة يتحقق بها يعني بهذا الأكل بإذن الله عَزَّوَجَلَّ دفع المفسدة.

[الوجه الخامس]: يتعلق بالنطق بكلمة الكفر، هل أُبيح النطق بكلمة المكفر مطلقًا أو بقيد؟ انظر ماذا قال الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الشأن: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[النحل:١٠٦]، لا بد ويجب أن يكون قلب هذا الإنسان الذي نطق بكفر يدفع عن نفسه القتل، أن يكون قلبه مطمئنًا بالإيمان، والسؤال: هل هذا الأمر متحقق في ذهاب الإنسان إلى الساحر ليحل عنه السحر؟

الجواب: أن الواقع يُنبئ أن الذهاب إليه مما يضعضع الإيمان وربما يزيله، يأتيه هذا المسكين المسحور وهو محطم القلب مكسور الفؤاد مهزول النفس، يسأله ويستلطفه أن يدفع عنه هذا الأذى الذي أصابه، فيكلمه الساحر باستعلاء ويزين له أنه سيحل عنه فعله وسيفعل وسيفعل، وربما أمره بالشرك بالله عَزَّوَجَلَّ فأطاعه وما أكثر أولئك ذهبوا إلى هؤلاء السحرة فأمروهم أن يذبحوا خروفًا أسود أو ديك أسود، وربما أمره بل شدد عليه ألا يُذكر اسم الله عند الذبح بل ربما أمره أن يذكر اسم جن من الجن أو شيطانًا من الشياطين.

فانظر كيف كان الذهاب إليهم ذريعة إلى فقد الإيمان، فانتفى أو يكاد ها هنا الشرط الذي بينه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حال الاضطرار: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[النحل:١٠٦].

إذن هذه أوجه خمسة تبين لك أن القول بقياس هذه المسألة على حالة الاضطرار من حيث جواز الأكل من الميتة أو نطق كلمة الكفر، أن هذا قياس ليس بصحيح.

[ثانيًا]: أما الاستدلال بأثر سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه أضعف وأضعف، ويتبين لك هذا من وجوه:

[الوجه الأول]: أن أثر سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع جلالة قدره ليس بحجة في نفسه، هو قول عالم من العلماء وإمام من الأئمة، نعم، ولكنه ليس بحجة وكلا أهل العلم يُستدل له وليس يُستدل به.

[الوجه الثاني]: كلام في نفسه ليس بحجة فكيف وقد عارضه من هو مثله وفي مرتبة؟! إذا قال المبيح: قال سعيد؛ قلنا: قال الحسن؛ رجل في مقابل رجل، وعالم في مقابل عالم.

إذن لماذا كلامه حجة وليس كلام المانع حجة؟

[الوجه الثالث]: كلامه ليس بحجة وعارضه من هو مثله بل من هو أكثر منه كما ذكرت لك قبل قليل، هذا الحسن وهذا مجاهد وهذا أحمد وهؤلاء أصحاب ابن مسعود، بل هذا ابن مسعود وهذا جابر وغيرهم كثير، فهم أكثر منه، واحد يقابله جمع فقولهم أقرب للصواب ولا شك.

الوجه الرابع: أن يُقال ليس كلامه حجة فكيف وقد عارضه من هو مثله بل أكثر منه بل من هو أفضل منه، هؤلاء أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابن مسعود وجابر ينهون عن هذا الأمر ويقولون من عمل الشيطان، ويكرهونه، فكيف يكون كلامه حجة؟

[الوجه الخامس]: أن كلام سعيد في نفسه ليس بحجة وعارضه من هو مثله أو أكثر منه أو أفضل منه، فكيف وقد عارض سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! أيكون حجة بعد ذلك؟

[الوجه السادس]: هو أنه ما جاء عن سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ حرفٌ واحد في أنه أراد النُشرة بفعل ساحر، ما أراد النشرة السحرية، ومن قال بخلاف ذلك فعليه الدليل، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما عند ابن عبد البر: (إنما نهى عما يضر وأما ما ينفع فلم يُنهى عنه)، والسؤال هل السحر يضر أم لا يضر؟ أيضر أديان الناس أيضر إيمانهم أم لا يا جماعة؟ أي والله يضر.

إذن ليس داخلاً في كلام سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قطعًا.

الوجه السابع: أن يُقال أضعف الإيمان أنَّ كلام سعيد يحتمل، يحتمل أنه أراد النُشرة الجائزة ويُحتمل أنه أراد النُشرة السحرية، ومع الاحتمال يبطل الاستدلال.

[الوجه الثامن]: وهو يُقال إن حمل كلام سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أنه أراد النشرة الجائزة أولى، لم؟ لأمرين:

[الأمر الأول]: لأن هذا ما يقتضيه إحسان الظن به رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإذا كان إحسان الظن بآحاد المؤمنين شيئًا مطلوبًا فكيف بهذا الإمام الجليل؟ وكل من عرف حال السلف، فإنه يقطع بأنهم من أبعد ما يكونون عن أن يبيحوا هذا النوع من المنكر الذي يترتب عليه مفاسد لا تُحصى.

والأمر الثاني: أن حمل كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ما يوافق كلام غيره من السلف أولى من حمله على ما يخالف كلامهم، وقد ذكرت لك أن النُشرة عند جمع من السلف يراد بها التطبب بما لا محذور فيه مما ثبت بالتجربة نفعه، والغالب أنه يدور على الاغتسال بهيئة مخصوصة.

من أمثلة ذلك: ما جاء عن ليث بن أبي سُليم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه وصف في علاج السحر أن يُؤتى بماء فيقرأ عليه آيات السحر، نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾[يونس:٨١] إلى غير ذلك، ثم ينفث بهذه الآيات في الماء ثم يشرب منه ويغتسل فإنه ينتفع بذلك إن شاء الله، أو يقول بما قال الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا بأس بالنشرة العربية ووصف هذا رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه يخرج إلى عضاة يعني (شجر له شوك صغير فيأخذ من ذات اليمين ويأخذ من ذات الشمال من كل الشجر ثم يضعه في إناء، ويصب فيه الماء ويقرأ عليه ثم يغتسل منه، فإنه ينفع في فك السحر.

كذلك ما جاء عن وهب بن منبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه أمر بأن يؤخذ سبع ورقات من السدر فتدق بين حجرين ثم يصب عليها الماء في إناء ثم يقرأ عليه ثم يغتسل ويشرب منه فإنه نافع في فك السحر، ولا سيما في رجل يُؤخذ عن امرأته.

بل جاء في كتاب ((الطب النبوي)) للمستغفري كما نقل هذا الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((الفتح)) عن أحد العلماء وهو نصوح بن واصل رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه فسر النُشرة في كلام سعيد، سُئل عن هذه النشرة ماذا أراد سعيد؟ فانظر كيف فسر هذا الشيخ العالم الراوي هذه النُشرة قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن يخرج إلى البساتين فيأخذ من ورده شيئًا ثم يضعه في إناء ماء ثم يغليه أو

يغلي هذا الماء تحت النار، حتى إذا فتر اغتسل منه وشرب فإنه ينفع في فك أو في حل السحر.

هل ترى أن العلماء فهموا من أثر سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يذهب الإنسان إلى ساحر ليكفر الساحر بالله وليتمتم بالعزائم الشركية لكي يستغيث بالشياطين لأجل أن يفكوا عنه السحر؟ أفهموا هذا يا جماعة؟ لا والله ما فهموا هذا.

إذن الصحيح الذي لا شك فيه -يا أيها الأخوة- أن حل السحر بسحر مثله أمر منكر، ولا يجوز.

والله تعالى أعلم.

٤١

٤١- باب ما جاء في التطير

(المجلس الأول)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب

ما جاء في التطير

فإن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن تكلم عن السحر وبعض أنواعه وعطف على ذلك ما يقرب منها، وما يُحل أو ما يتعلق بحله، رجع إلى شيء أشار إليه في باب بيان بعض أنواع السحر وهو ما مر بنا من إخبار النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«أن العيافة والطيرة والطرق من الجبت»** وبيّنا أن الطيرة تشبه السحر من جهة تأثيرها على النفوس، هذا أوان الكلام عن الطيرة.

الطيرة هي: التشاؤم، ومعنى ذلك: ظنٌ سيء يقوم بالقلب ناشئٌ عن سبب متوهم لا حقيقة له، هذه هي الطيرة وهذا هو التشاؤم.

المتطير يتوقع السوء بسبب لم يجعله الله سبب، فهو إذا رأى شيئًا أو سمع أو لاحظ شيئًا ما يتعلق بمكان أو زمان أو غير ذلك توقع السوء، والله جَلَّوَعَلَا ما ربط بين هذا الشيء الذي توجس منه وبين ما توقعه، إنما هو شيء يقع في نفسه لا حقيقة له فلم يجعل الله عَزَّوَجَلَّ ما يكون من سعود أو نحوس، لم يجعل ذلك راجعًا إلى هذه التوهمات التي يوسوس بها الشيطان ويقذفها في قلب ضعيف الإيمان.

والأصل في تسمية الطيرة يرجع إلى ما كان عليه العرب، فإنهم كانوا أهل ولع شديد بالتشاؤم من أشياء كثيرة ولا سيما من الطير، كانوا يتشاءمون من الطير، من أسمائها، فإذا مر غراب قالوا: وقعت غربة، وإذا مر عُقاب قالوا: تحصل عقوبة، أو بألوانها فإذا شاهدوا طائرًا أسودا تشاءموا، أو بحركاتها وممرها كما مر معنا ذلك في الزجر، وقلنا إن العيافة زجر الطير وإثارته عن مكانه ثم تأملُ حركته بعد ذلك، فإن جاء من جهة اليمن كان سانحًا وإن جاء من جهة الشمال كان بارحًا وإن جاء من جهة الأمام كان نطيحًا وغن جاء من الخلف كان قعيدًا.

فربما تشاءموا ببعض هذه الأحوال وتيمنوا أو سروا بها، وتفاءلوا ببعضها، وربما كان العكس عند بعضهم، لكن الغالب أنهم كانوا يتشاءمون من البارح ويتفاءلون بالسانح، وربما

تشاءموا أيضًا بأصواتها فإذا سمع أحدهم صوت الغراب أو صوت البومة فإنه يتشاءم، وربما تشاءم بنوعها إذا نزلت بقربه هامة أو بومة أو وقعت على بيته قال: إنها نعت إلى نفسي وقرب أجلي، فضاقت نفسه بذلك.

المهم أن هذا شيء كثير عندهم وعند جميع الأمم فمقل ومكثر، والله جَلَّ وَعَلَا قد أخبرنا في كتابه عن حال بعض الأمم من جهة تطيرهم كما سيمر معنا إن شاء الله بل قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن الله ما حكا التطير إلا عن أعداء الرسل) ما جاء التطير منسوبًا إلى أحد في القرآن إلا عن أعداء الرسل، كما أخبر الله جَلَّ وَعَلَا مما سيأتي في قوم فرعون أو في ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾[يس:١٣] وكذلك في شأن ثمود حينما قالوا لصالح: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾[النمل:٤٧].

كذلك أهل الجاهلية حينما قالوا للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾[النساء:٧٨].

إذن هذه أربعة مواضع في القرآن فيها نسبة التطير إلى أعداء الرسل.

أما أهل الإيمان وأهل التوحيد الصادق والذين تمسكوا بالعروة الوثقى، وعَظُم توكلهم على العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإنهم أبعد ما يكونون عن الوقوع في هذه الرعونات، فإن أهل التوحيد أهل إحسان للظن بالله العظيم واعتماد وثقة به جَلَّ وَعَلَا.

ولذلك مر معنا في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب أنهم «كانوا لا يتطيرون» من صفات أهل الإيمان والتوحيد أنهم كانوا لا يتطيرون، ولذلك جاءت الشريعة بالتشديد في شأن التطير، وهذا أمر ظاهر لمن تأمل الكتاب والسنة، مر معنا قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ليس منا من تكهن أو تُكهن له، أو تتطير أو تُتطير له»، يتطير يكون منه التشاؤم أو يُتطير له.

تذكرون أنه قد مر بنا حينما تكلمنا عن العيافة أن بعض القبائل كان لهم مزيد عناية واختصاص بها، فبعض الناس يذهب إليهم، إلى هؤلاء الذين لهم معرفة يسمون العرافين، ويطلب منه أن يتطير له أن يثير الطير، ثم بعد ذلك يعطيه النتيجة ويعقب بعد ذلك قراره يسافر أو لا يسافر يتزوج أو لا يتزوج يتاجر أم لا.

وهذا مما أنكرته الشريعة، وبينت تحريمه وفي ((صحيح مسلم)) لما سأل معاوية بن الحكم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن منا أناس كانوا يتطيرون! قال ذلك شيء يجدونه في نفوسهم، فلا يصدنهم**» يعني هذا شيء لا يتجاوز أن يكون توهمًا في النفس لا حقيقة له في الخارج ولا تأثير له في الأشياء، فلا ينبغي أن يسترسل الإنسان معه، التطير باب إلى الشرك وسنتحدث عن ذلك إن شاء الله في محله.

التطير سوء ظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، التطير ضعفٌ في التوكل، التطير تسلطٌ من الشيطان على ابن آدم، التطير رعونة وسخف لا حقيقة له، التطير هموم وأحزان، صاحب التطير الذي استولى هذا الأمر على نفسه كئيب، كسيف البال، مهموم حزن باستمرار، دائمًا تجده يتأمل في الأشياء ويتوقع السوء من أي شيء، لو رأى ذا عاهة تشاءم ورجع إلى بيته، يمشي في طريقه فيشاهد حادث السير فيقول: هذا يوم نحس، يعطيه إنسان يا سمين فيقول يأس ومينٌ، يسمع شيئًا لا يعجبه فيتطير، يرى شيئًا لا يعجبه يتطير، يصاب برفيف للعين أو طنين للأذن فيتشاءم.

وهكذا هو في هموم وأحزان باستمرار، ومن عجيب هذا الشأن أن من استولى التطير والتشاؤم على قلبه تجد أن الشرور أسرع إليه من السيل إلى منحدره، سبحان الله العظيم!

الذي يستولي عليه التشاؤم ما أكثر ما يقع عليه هذا الشيء أو هذا السوء الذي كان يتوجس منه، بخلاف أهل الإيمان الكامل الذين لا يلتفتون إلى هذه الأمور ولا يلقون لها بالاً يمضون بعزم وثبات وثقة بالله جَلَّ وَعَلَا لا يلتفتون إلى هذه الترهات، تجد أنهم سالمون بتوفيق الله عَزَّوَجَلَّ من ذلك وهذا له سبب وهو ما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء**» المؤمن ظن بالله أحسن الظن وأعتمد ووثق وتوكل وفوض إليه فأعقبه ذلك أن نجاه الله عَزَّوَجَلَّ من المكاره وأتاه الله السعادة والطمأنينة.

أما ذاك الذي أساء الظن بالله وضعف توكله عليه، جزاه الله من جنس سوء ظنه: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ:٢٦]، فعلى المسلم أن يقطع هذه الوساوس عن نفسه، وأن لا يمكن لها طريقًا إلى قلبه، وليحرص على أن يعالج ما وقع منه نفسه أول بأول، فإن منع المبادي أولى من قطع التمادي، وهكذا كان السلف الصالح رَحِمَهُمُ اللَّهُ يحرصون على أن يقطع أي وسيلة لتسلل هذه السخافات والوساوس إلى النفوس.

ذكر عكرمة مولى بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ : «**أن ابن عباس كان جالسًا فمر غرابٌ يصيح فقال أحد الحاضرين: خيرٌ خيرٌ، فالتفت إليه وقال: لا خير ولا شر**» ما علاقة الخير والشر بمرور هذا الطائر أو صوته؟

وكذلك طاووس رَحِمَهُٱللَّهُ كان في سفر، فمر طائر يصيح فقال: «**خير، قال: وأي خير في ذلك؟ لا تصاحبني**»، أعطاه درسًا عمليًا على ترك الالتفات إلى هذه الأمور، المسلم محسنٌ الظن بالله سعيد قدر استطاعته في هذه الحياة لا يلتفت هذه المنغصات التي لا حقيقة لها والتي ما جعلها الله عَزَّوَجَلَّ لها علاقة بنزول المكاره، لماذا يغم الإنسان نفسه؟ ولماذا يفقد الثقة وحسن الظن بالله جَلَّوَعَلَا؟ والله المستعان.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ:

وقول الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:١٣١].

هذه الآية في شأن قوم فرعون قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾[الأعراف١٣٠-١٣١]، يعني نحن الجديرون الحقيقون بها نحن أهلها، نحن نستحق هذا الأمر، والمراد الحسنة الدنيوية من مطر وخصب ونبات الزرع وما إلى ذلك، ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:١٣١] لا يعلمون أن موسى وأهل الإيمان معه لا علاقة لهم بهذا الذي أصابهم، بل الخير كل الخير فيما جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام موسى وإخوانه، ولو عقل هؤلاء وعلموا لأدركوا هذا يقينًا: ﴿لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:١٣١].

والله جَلَّوَعَلَا بين هنا ﴿طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾[الأعراف:١٣١] وفي هذه الآية كلام كثير عند أهل التفسير والأقرب والله تعالى أعلم أن المعنى أن هذا الذي أصابهم وتشاءموا بسببه راجعًا إلى تقدير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي عاقبهم بسبب كفرهم وإعراضهم عن الله، ما أصابهم مما تشاءموا به ونسبوه ظلمًا وزورًا إلى موسى ومن معه هذا في الحقيقة بتقدير الله عَزَّوَجَلَّ وكان عقوبة منه سبحانه على بغي هؤلاء الكفار، وصدهم عن سبيل الله جَلَّوَعَلَا

فهذا الأقرب في معنى قوله تعال: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾[الأعراف:١٣١]، وكأن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد من إيراد هذه الآية أن يبين أن التطير ليس من شأن أهل التوحيد، إنما هو من شأن أهل الشرك فعلى المسلم أن يحذر من ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾[يس:١٩] الآية.

كذلك هذه الآية بيّن الله عَزَّوَجَلَّ فيها رد الرسل الذين أرسلهم الذين أرسلهم الله عَزَّوَجَلَّ إلى أهل القرية الذين ذكرهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في سورة ياسين: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾[يس:١٣] إلى أن قال جل وعلا: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ* قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾[يس١٨:١٩] أئن ذكرتم تتطيرون؟

إذا ذكرناكم بالله جَلَّوَعَلَا ودعوناكم وبلغناكم أمر الله ونهيه؟ قلتم إنكم تتطيرون؟ ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾.

وقول الرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾[يس:١٩] هو من باب القصاص في الكلام، لما نسبوا الطيرة إليهم تشاءم القوم بهم: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾[يس:١٨]، ردوا عليهم وقالوا إنه لا علاقة لنا بما وقع في نفوسكم نحن بُراء من ذلك، فالواقع أن هذا الذي أصابكم راجع إليكم: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾[يس:١٩] هو شيء في نفوسكم كان ثمرة لكفركم، وإعراضكم عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أما نحن فلا علاقة لنا به وليس لكم أن تنسبوا هذا إلينا قالوا: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾[يس:١٩].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر» أخرجاه.

زاد مسلم «ولا نوء ولا غول».

هذا الحديث حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مخرج في ((الصحيحين))، وأنبه هنا على ما جاء في آخر كلام المؤلف من أن مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ زاد في ((صحيحه)): «ولا نوء ولا غول»، وهذا إن أراد به المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هاتين الكلمتين وردتا في مسلم بغض النظر عن كون ذلك كان في حديث واحد أو سياق واحد أو لم يكن فالكلام صحيح فهذا اللفظ من كلام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وارد في صحيح مسلم، أما إن كان المراد أن مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُأورد هذا النص بهذا اللفظ في حديث عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هكذا فهذا ليس بصحيح.

وذلك أن الذي في مسلم زيادة في رواية أبي هريرة وهي قوله: «ولا نوء ولا صفر».

وجاء من حديث جابر أيضًا عند مسلم أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ولا غول ولا صفر».

إذن عندنا روايتان أبي هريرة زاد في رواية عند مسلم: «ولا نوء ولا سفر»،

وجابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهذا حديث آخر ولكن المعنى واحد قال: «ولا غولَ ولا صفر».

فتحصل من هذا: أن نفي النوء ونفي الغول ثابت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ((صحيح مسلم))، ولكنه في حديثين مفرقين وليس بهذا السياق.

ولعل السبب راجع إلى وهم حصل أو انتقال للبصر إلى التبويب الذي بوبه النووي، والمشهور أن هذا التبويب الذي بين أيدينا لصحيح مسلم إنما هو من صنع النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لعله انتقل النظر إلى التبويب، فظَنَّ أن هذا لفظ الحديث، فإن التبويب الذي جاء قبيل هذا الحديث فيه باب: لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر ولا نوء ولا غول.

فلعله سبق النظر إلى التبويب، فظن أن هذه زيادة في الحديث وإنما هذه قطعة من التبويب.

أقول لعل السبب هو ذلك والله عَزَّوَجَلَّ أعلم.

الخلاصة أن هذا من كلام النبي صَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفي النوء ونفي الغول.

هذا حديث عظيم فيه تنصيص على أمور بعضها راجعٌ إلى ما نحن فيه وهو باب التطير قال صَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا عدوى»**.

العدوى: انتقال المرض من المريض إلى الصحيح.

وقوله صَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ها هنا **«لا عدوى»**.

هل أراد به نفي العدوى من أصلها؟

أو أراد نفي ما كان يعتقده أهل الجاهلية من أن المرض أو بعض أنواعه تنتقل بنفسها باستقلال عن مشيئة الله؟

التحقيق والجمع بين النصوص يرجح الثاني يعني لم يكن هذا من النبي صَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفيًا عن أن هناك أسبابًا تؤدي إلى انتقال المرض، هي العدوى ينتقل المرض بسبب هذا السبب وهو مخالطة المريض، فالعدوى واقعة من جهة التسبب لا العدوى التي كان يعتقدها أهل الجاهلية من أن المرض ينتقل بذاته دون مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وذلك أن النبي صَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي قال هذا الحديث، وهو أيضًا الذي قال صَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«فِر من المجذوم فرارك من الأسد»**، والحديث صحيح علقه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في ((صحيحه)) ووصله غيره، فالنبي صَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بالابتعاد عن المجذوم، المجذوم الذي أُصيب بالجذام، وهو: مرض يصيب الإنسان فيؤدي إلى تأكل أعضائه، -نسأل الله السلامة والعافية-، وهذا ربما انتقل بسبب المخالطة فأمر النبي صَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالابتعاد عن ذلك.

كذلك ثبت عنه في ((الصحيح)) صَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«لا يُورد ممرض على مُصح»**، ما معنى هذا الكلام؟ يعني أن صاحب الإبل المريضة لا يُورد إبله -لا يدخلها- في إبل مُصح، يعني: من إبله صحيحة سليمة ما فيها مرض، من ابتلي بأن كان في إبله مرض

ليس له أن يأتي بها فيدخلها في إبل إنسان إبله صحيحة، لأجل أن لا يكون هذا سببًا في أن تصاب الإبل الصحيحة.

كذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى من كان في بلد وقع فيه طاعون أن يخرج منه، أو إذا كان خارجًا عنه أن يدخل إليه.

هذه النصوص وغيرها تدل على أن العدوى تقع ولكن بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يعني هي سبب من جملة الأسباب، ليس أن المرض ينتقل بذاته، إنما ذلك بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والله جَلَّ وَعَلَا جعل للأشياء أسبابًا، القرب أو الوقوع في النار يؤدي إلى حصول الإحراق.

إذن القرب كان سبب للإحراق، تناول السم سببٌ للمرض أو الموت والهلاك، هذا مجرد سبب، والله جَلَّ وَعَلَا ربط الأشياء بأسبابها، ربط حصول الحرق أو حصول الهلاك بأسباب.

كذلك الشأن في هذه الأمراض بعضها جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لها أسبابًا للانتقال الخُلْطة أو الملاصقة والمجاورة أو نقل الدم مثلاً أو الريق أو إلى ما شاكل ذلك، أو كان ذلك بالمعاشرة بين الرجل والمرأة كما هو واقع في شأن الأمراض العصرية -نسأل الله السلامة والعافية منها-.

المهم أن هذا أمر واقع لا يمكن إنكاره ولا يمكن أن تأتي الشريعة بما يخالف الواقع، خذ هذه حقيقة مُسَلَمة لا يمكن أن تأتي الشريعة بما يخالف الواقع، والطب والواقع والمشاهدة كلها تشهد بأن هناك أنواعًا من الأمراض بالمخالطة تنتقل ولكن انتقالها كان بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إذن أهل الإيمان يجمعون بين الأمرين:

بين إثبات مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وإثبات الأشياء التي جعلها الله أسبابًا.

وبالتالي تبين لنا أن قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا عدوى**» ليس إنكارًا أو نفيًا لوجود العدوى أصلاً، لا، إنما هو نفيٌ لما كان يعتقده أهل الجاهلية في هذا الشأن.

قد يقول قائل: وماذا أنت قائل فيما ثبت عن بعض الصحابة كعمرو وابنه وسلمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ من أنهم أكلوا مع مجذومين؟

الجواب عن هذا أن يُقال: إنَّ الخلطة بهؤلاء المصابين سبب؛ ولكنَّ السبب قد يكون له مانع، السبب كل سبب يقابله مانع، إن وجد المانع فإن أثر السبب يزول أو يضعف صح ولا لا؟ يعني هناك أمراض لها أسباب ويمكن أيضًا أن يكون لها مانع مَصْل يأخذه الإنسان أو ما يسمونه تطعيم أو علاج أو جرعة أو ما إلى ذلك هذا يعتبر مانع لتأثير هذا السبب.

التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ إذا عَظُم في النفس كان أحد الموانع من وقوع هذا المرض وانتقاله، وبالتالي ففعل هؤلاء الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ يُوجّه على:

أنه كان في الخلطة تحقيق مصلحة رأوها، مع عظيم توكلهم واعتمادهم على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فبطل أو عطل تأثير السبب.

إذن على هذا يوجه هذا الأمر من عظم توكله على الله وكان في خلطته لهذا المريض مصلحة شرعيه معتبرة فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من رحمته قد يعافيه من تأثير هذا السبب، وقد يُصاب إذا شاء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ذلك وهذا من قدر الله جَلَّوَعَلَا.

وبالتالي أضحى عندنا في الشريعة مسلكان:

مسلك الأخذ بالأسباب وهذا ما دل عليه حديث: «**فر من المجذوم فرارك من الأسد**» وإلى أخره.

وهناك مسلك آخر: وهو أن يسلكُ الإنسان مسلك التوكل والاعتماد على الله عَزَّوَجَلَّ ويقتحم هذا الأمر معتمدًا على الله عَزَّوَجَلَّ لتحقيق هذه المصلحة، وهذا يرجى له أن لا يصاب.

قد يكون بعض هؤلاء المرضى يحتاجوا إلى زوجة تخالطه، وخادم يخدمه، وممرض يمرضه، فمثل هؤلاء في بقائهم بالقرب من صاحب هذا المرض تحقيق مصلحة في حصول شفاءه أو بقاء حياته أو تخفيف ألمه، ومثل هؤلاء إذا توكلوا على الله عَزَّوَجَلَّ واعتمدوا عليه وفوضوا الأمر إليه فيرجى إن شاء الله أن لا يصيبهم شيء من هذا الأثر.

ثم قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ولا طيرة**» وهذا الذي هو محل البحث ها هنا ومناسبة إيراد هذا الحديث بل مناسبته إيراد هذا الباب هو ما في التطير من منافاة التوحيد الواجب على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله في آخر أو في الكلام عن آخر هذا الباب.

وهل قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا: «**لا طيرة**»، (لا) ها هنا للنهي، أو للنفي؟

أختلف العلماء في ذلك والأقرب والله أعلم أن (لا) هنا للنفي، وهذا أبلغ من أن تكون للنهي؛ لأنها تتضمن النهي وزيادة هذه الزيادة هي الدِلالة على أن هذا أمر لا حقيقة له ولا تأثير له، وبالتالي أصبح أبلغ من أن تكون لا للنهي.

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا عدوى ولا طيرة ولا هامة**».

الهامة اختلفوا في تفسيرها إلى قولين:

[التفسير] الأول: أن الهامة طير من طير الليل، وبعضهم نصَّ على أنها البومة، البومة طائر معروف أليس كذلك؟ كان أهل الجاهلية يتشاءمون بها فإذا نزلت بالقرب من الإنسان أو على سطح بيته قالوا: نعت إلى نفسي، تشاءموا بذلك أن الموت قد قرب، فنفى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذلك، وعليه فيكون نهيه أو نفيه للهامة من باب عطف الخاص على العام.

الخاص (لا هامة) والعام (ولا طيرة) ، يعني ذكر صورة خاصة ذكر صورة خاصة وهي الهامة.

التفسير الثاني: أن الهامة نفيها نفي لاعتقاد جاهلي كان عليه الكفار سابقًا، وهو أن الميت إذا قُتل بغير حق يقولون إن هناك طائرًا يطير حول قبره، وربما قالوا: إنه يخرج من عظامه يُصبح طائرًا يطوف ويدور على قبره ويقول: اسقوني، اسقوني؛ حتى يُأخذ بثأره ثم بعد ذلك يذهب وينصرف.

هذه الخرافة كان يعتقدها أهل الجاهلية كأن مرادهم من بثها وإشاعتها حث أهله على الأخذ بثأره، بيّن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذه خرافة لا حقيقة لها، وبالتالي كان هذا موضوعًا آخر بعيدًا عن موضوع الطيرة.

قال: «**ولا صفر**» أيضًا اختلف العلماء في تفسير صفر ها هنا إلى قولين.

الأول: أن صفر داءٌ يصيب البطن وهذا ما نص عليه البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه قال باب لا صفر وهو داء يصيب البطن، وكأن الأمر والله تعالى أعلم أن أهل الجاهلية كانوا يعتقدون

أن هذا المرض ينتقل بنفسه، ولذلك كانوا يرون أنه شديد العدوى حتى كانوا يصفونه بأنه أعدى من الجرب.

فبالتالي يكون هذا نفيًا لأمر خاص بعد أمر عام وهو (لا عدوى).

إذن أصبح قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا هامة**» راجعًا إلى «**لا طيرة**» وأصبح قوله لا صفر راجعًا إلى «**لا عدوى**».

أما التفسير الثاني: فهو أن صفر هو الشهر المعروف شهر صفر ثاني الأشهر الهجرية.

واختلفوا بعد ذلك في هذا النفي الوارد في الحديث إلى قولين:

الأول: أن النفي إنما كان لتشاؤم أهل الجاهلية من شهر صفر، فكانوا يتشاءمون من أزمنة ومنها شهر صفر يتشاءمون منه، فبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذا أمر متوهم لا حقيقة له، عقيدة جاهلية لا حقيقة لها، فعاد نفيه لصفر إلى نفيه للطيرة، عاد إلى نفيه الطيرة.

أما التفسير الثاني: على أن صفر هو الشهر المعروف ما يرجع إلى النسيء الذي كان يستعمله أهل الجاهلية وهو الذي جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾[التوبة:٣٧]، وذلك أنهم كانوا يؤخرون النسيء يعني التأخير، كانوا يؤخرون شهر محرم إلى شهر صفر، لأجل الغزو إذا أرادوا أن يغزو في شهر محرم وهو عندهم شهر محرم معظم لا يجوز القتال فيه، قالوا نجعل شهر محرم في وقت شهر صفر، وبالتالي يجوز لنا أن نغزو في هذا الوقت.

وهذا من التلاعب الذي كان عليه أهل الجاهلية، وبالتالي يكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد نفى هذا التصرف في هذا الحديث؛ هكذا قيل.

وهذا التوجيه فيه من البعد ما فيه.

كأن الأقرب والله تعالى أعلم أن هذا راجعٌ إما على تشاؤمهم في شهر صفر، أو أن يكون هو المرض الذي ذكره غير واحد من أهل العلم ومنهم البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ.

أما الزيادة فيها قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ولا نوء**».

والنوء فيه كلام يختص بباب خاص نتكلم عنه إن شاء الله تعالى على وجه التفصيل في محله إن شاء الله.

أما «**الغول**» فالغول على ما ذكروا نوع من أنواع الجن والشياطين.

وبعضهم يقول: هي سحرة الشياطين، وسميت بذلك لأنها تتغول للمسافرين يعني: تتراءى لهم وتضلهم عن الطريق، وربما أهلكتهم.

وهل مراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفي حقيقة الغول؟ أو أراد نفي تأثير الغول، يعني نفي وجود شيء اسمه الغول من الشياطين أو نفي هذا التأثير الذي كانوا يعتقدون من أن هذه الشياطين تتراءى لهم وتضلهم عن الطريق الصحيح وربما كانت سببًا في موتهم؟

الثاني هو الأقرب.

والله تعالى أعلم.

٤٢

٤٢- باب ما جاء في التطير

(المجلس الثاني)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهما عن أنس قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل». قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة».

هذا الحديث الذي بين أيدينا، وهو مخرج في ((الصحيحين))، فيه ذكر ثلاثة أمور:

١/ العدوى.

٢/ الطيرة.

٣/ الفأل.

أما الأولان فجاء الحديث بنفيهما، وأما الثالث فقد جاء الحديث بإثباته.

وقد مر بنا الكلام عن العدوى والطيرة، وعلمنا أن نفي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للعدوى لا يراد به نفي انتقال المرض بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومشيئته، إنما المراد نفي ما كان يعتقده أهل الجاهلية بأن من الأمراض ما ينتقل بذاته، ويؤيد هذا المعنى ما ثبت في ((الصحيحين)) من أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما تحدث بحديث لا عدوى، قال له إعرابي: يا رسول الله هذه الإبل تكون على الرمل كالظباء -يعني: جيده نشيطة-، فيجرب منها جمل فلا تلبث أن تُجَرِّبَ جميعاً، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فمن أعدى الأول؟».

لاحظ أن النبي لم ينفي أن الجمل الأول قد تسبب في جَرَبِ البقية، إنَّما بيَّن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ما وقع إنما كان بتقدير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فجرب الأول كان بتقدير الله، وجرب البقية كان بتقدير الله، وإن كان البقية قد أصيبوا بسبب معلوم؛ وهو الجمل الأول؛ أما الأول فقد يكون له سبب معلوم وقد لا يكون له سبب معلوم.

المهم أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث لم ينفِي وجود العدوى؛ إنما بين أن ذلك واقع بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أما قوله: ((لا طيرة)) فمر بنا أن الطيرة التشاؤم، وهذا النفي من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهي وزيادة؛ كما قد علمنا، ففيه النهي عن التطير، وبيان أن الظن تأثيري هذا الذي تُطير به في وقوع النحس والسوء أمر غير صحيح، ومضى الكلام في هذا الأمر على وجه التبسيط، لكن بقي ها هنا التنبيه على ما قد يُظن أنه معارضٌ لهذا الحديث؛ ألا وهو قول النبي

صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الشؤم في ثلاثة»** وفي رواية: **«إن كان الشؤم في شيء ففي ثلاثة: المرأة، والدار، والفرس»**، وفي رواية: **«الدابة»**.

ولاحظ أن هذا الحديث مخرج في ((الصحيحين)) من حديث ابن عمر ومن حديث سهل بن سعد، كما جاء في كتب السنة من حديث أبي هريره وابن جابر، إذن رواه أربعة من أصحاب النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه، وبالتالي فإن إنكار من أنكره كعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا اجتهادا منها، فإنها أنكرت على أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تحديثه بهذا الحديث على إنه من كلام النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إقراراً؛ إنما بينت أو ظنت أن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما قال هذا الحديث حكاية عن حال الكفار؛ أنه هكذا كان يقع في نفوسهم، ولم يرد تقرير الشؤم في هذه الأمور الثلاثة.

ولكنَّ ذلك غير صحيح؛ لا يمكن أن يخطأ هؤلاء الصحابة الإجلاء.

إذاً الحديث ثابت عن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على جهة الإثبات.

واختلف أهل العلم في توجيه هذا الحديث، ولا يخرج ما قيل في التوجيه عن رأيين:

الرأي الأول، القول بالنسخ.

[الرأي] الثاني: القول بالجمع.

أما القول بالنسخ: فقال بعضهم إن حديث: ((لا عدوى ولا طيرة)) ناسخ لحديث (إنما الشؤم في ثلاثة) وبعضهم عكس.

ولا شك أن القول بالجمع مقدم على القول بالنسخ؛ بل القول بالنسخ ضعيف لا ينبغي أن يُلتفت إليه، وذلك أنه قد ثبت في ((الصحيحين)) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«لا عدوى ولا طيرة والشؤم في ثلاثة»**.

إذن لا يمكن أن يكون الحديث حديثاً واحداً وفيه ناسخ ومنسوخ.

إذن القول بالنسخ ضعيف بالمرة.

يبقى القول بالجمع؛ وقد قيلت أقوال عدة، الأقوى والأقرب والله تعالى أعلم أن يقال:

هذا الحديث يتحدث ويتكلم عن الشؤم لا التشاؤم.

عندنا أمران: عندنا التشاؤم هو: الطيرة؛ وهو ما نفاه الحديث أولاً.

وعندنا الشؤم، وهذا ما جاء إثباته.

إذاً لا يمكن أن يكون الشؤم هو التشاؤم؛ لأنه لا يمكن أن يثبت ما نفي، لا يمكن أن يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا طيرة» أي لا تشاؤم؛ ثم يثبت التشاؤم؛ هذا غير وارد.

إذاً النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتحدث عن الشؤم؛ والشؤم في كتب اللغة هو: الشر.

إذاً النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول الشر في ثلاثة أمور.

ومعنى هذا الحديث أن الله جَلَّ وَعَلَا جعل للخير أسباباً، وجعل للشر أسباباً؛ ومن أهم أسباب الشر التي تلحق الإنسان؛ هذه الأمور الثلاثة، والحديث جاء على سبيل ذكر الغالب؛ وإلا فالشر قد يكون بمقارنة غير هذه الأمور الثلاثة؛ لكن الغالب أن يناله البلاء والشر والمصائب من قبل هذه الأمور الثلاثة؛ لأنه لا ينفك عنها غالباً، لا ينفك الإنسان غالباً عن زوجة يأوي إليها، وعن دار يسكنها، وعن دابة يستخدمها؛ فقد يبتلى الإنسان بكدرٍ في حياته من قبل هذه الأمور الثلاثة التي هي من أقرب الأمور إليه، فيبتلى الإنسان لامرأة سيئة الخلق تكدر عليه حياته وتنغص عليه معيشته، أو يقتل بدار ضيقة يضيق صدره بسببها أو أن له جيراناً سيئين فيضيق صدره ويتكدر حاله، أو يبتلى بدابة عسرة أو كثيرة الأعطاب والأمراض.

إذاً غالب ما يرد على الإنسان إنما هذه الأمور الثلاثة وقد يبتلى بغيرها؛ قد يبتلى بابنٍ عاق تناله أنواع الشرور بسببه، لكن في الغالب أنه يناله من هذه الأمور الثلاثة.

الحديث يتحدث عن الشؤم؛ بيّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذه أسباب ثلاثة لوصول الشر إلى الإنسان بمقارنتها؛ هذا لا إشكال فيه ولا تعارض بينه وبين الطيرة أو التشاؤم التي جاء نفيها في الشطر الأول من الحديث.

نأتي الآن إلى الأمر الثالث من الحديث وهو الفأل:

الفأل هو: الاستبشار بمسموعٍ أو مرئي، يعني أن يحصل على الإنسان استبشار وفرح وسرور ورجاء بسبب كلمة يسمعها أو شيء يراه يدخله الأمل والرجاء بسبب ذلك؛ فهذا لون والطيرة لون آخر، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصل بين الأمرين لما بينهما من التمايز؛ الطيرة

والتفاؤل يجتمعان في التأثير عن النفس ولكن بينهما بون شاسع، فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرق بينهما لأن بين هذا وهذا فارق كما فرق النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين الرقية المشروعة والرقية الممنوعة في نظائر كثيرة في الشريعة.

إذاً النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفى وحذر من الطيرة؛ وأثبت التفاؤل بل بيّن أن هذا أمر مستحب؛ لأنه يعجب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا شك أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُعجب إلا بأمر حسن.

والحديث جاء في الصحيحين عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وجاء أيضاً في حديث أبي هريرة؛ في حديث أنس الذي بين أيدينا أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإعجابه بالفأل؛ وفي حديث أبي هريرة بين النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن خير الطيرة الفأل؛ قال: **«وخيرها الفأل»**، لما سئل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الفأل؛ فسره بمثال له وهو: الكلمة الصالحة يسمعها الإنسان.

وهذه الكلمة وصفت في الصحيحين في مجموع الروايات:

بالكلمة الطيبة.

والكلمة الصالحة.

والكلمة الحسنة.

والمعنى متقارب؛ يعني أن يسمع الإنسان كلمة طيبة فينشرح صدره لذلك ويستبشر؛ كأن يكون يريد سفراً فيسمع من ينادي يا راشد، أو مريضاً فيسمع من ينادي يا سالم، فيبتهج بذلك ويتفاءل ويستبشر؛ فهذا هو ما جاء في الحديث عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذا الحديث الذي فيه إعجاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالفأل؛ فيه إبانة عن غريزة جعلها الله عَزَّ وَجَلَّ في النفوس.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جبل النفوس البشرية على محبة أشياء؛ فهي تحب رؤية المناظر الأنيقة والرياض النضرة والألوان الحسنة؛ تستلذ بالمطعوم الطيب وتبتهج بالرائحة الطيبة وما إلى ذلك؛ فهذا من هذا الجنس كون الإنسان يسمع كلمة حسنة؛ فيستبشر بها هذا مما يُدخل عليه الفرح والسرور والنشاط ولا يضر في إيمانه بشيء ولا يتأثر إيمانه وتوحيده بذلك؛ إن هذا أمر حسن؛ بل هذا هو الكمال؛ وهذه هي حال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان له أكمل الأحوال البشرية صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذا الفأل لا يعدو أن يكون استبشاراً وانشراح صدرٍ وتفاؤل وإمداداً للأمل بسبب شيء يسمعه أو شيء يراه وهذا له شواهد كثيرة في سنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهذا ما ثبت في ((صحيح البخاري)) بقصة الحديبية؛ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أقبل سهيل بن عمرو ليفاوض النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصلح؛ قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سهل عليكم من أمركم**»؛ من أين أخذ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا التفاؤل؟ من اسم الرجل؛ أقبل رجل اسمه سهيل؛ فهذا لا يعدو أن يكون فرحاً واستبشاراً تغدو النفس على إثره أكثر نشاطاً وجدية في الأمور وبالتالي تقبل على أمرها في شأن الدين أو من أمر الدنيا وهي منشرحة النفس.

ولاشك أن الإنسان لا يمكن أن يؤدي الحقوق التي عليه لله أو للخلق أو للنفس إلا وهو منشرح النفس؛ إلا وهو طيب الخاطر؛ أما المغبون أو المتكدر أو المتضايق والذي نفسيته سيئة كما يقال فإنه في الواقع لا يعبد الله عَزَّوَجَلَّ على الوجه الأكمل؛ ولا يؤدي الحقوق الواجبة عليه على أحسن حال.

إذاً الشريعة تدعو أن يكون الإنسان منشرح الخاطر دائماً؛ ومن تلك الأسباب أن يتعاطى الأشياء التي تؤدي إلى حصول هذه الحالة الحسنة؛ ولذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتفاءل بالكلمة الطيبة، كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب الحلواء والعسل، كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب الرائحة الطيبة وكان أطيب الناس ريحاً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يحب الشراب الحلو البارد.

إذاً كل هذه أسباب تؤدي إلى راحة في النفس وانشراح في الخاطر؛ وبالتالي لا حرج في تعاطيها؛ شرط أن يقف الأمر عند هذا الحد؛ بمعنى مشروعية الفأل لا تتجاوز هذا القدر؛ وهو أن يحصل عرضاً سماع أو رؤية ما تبتهج أو تستبشر به النفس فينشرح صدره وخاطره لذلك ويأمل الخير ويحسن الظن في الله جَلَّ وَعَلَا.

أما أن يكون هذا الذي تفاءل به هو الذي يعتمد عليه في الإقدام أو عدمه؛ فهذا يجعل الفأل من جنس الطيرة؛ انتبه لهذا.

[الحالة الأولى] فرق أن يكون الإنسان قد خرج من بيته؛ فسمع كلمة حسنة فاستبشر وقال: إن شاء الله وقال هذا يوم خير، سمع كلمة بشارة، فوز، طِيب إلى آخره فاستبشر؛

فمضى في عمله وهو ماضٍ عليه أصلاً؛ لكنه انشرح لذلك وأكمل عمله؛ وهذا أمر حسن لا حرج فيه.

الحالة الثانية: أن يخرج الإنسان وهو يترقب مثلاً طائراً بلون حسن؛ أو طائراً يمضي من جهة اليمين؛ وفي نفسه إن رأى هذا الشيء الذي يستبشر به وإلا رجع؛ وما عمل الذي أراد؛ هذا نقول وقع فيما هو من جنس الطيرة الممنوعة؛ (إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك)؛ أو يدفعك إلى الشيء أو يحجزك عن الشيء فهي من الطيرة الممنوعة.

ولذلك قد علمنا من شأن العيافة أن أهل الجاهلية؛ كانوا يستثيرون الطير؛ فإن طار إلى جهة اليمين وسموه سانحًا فإنهم يبنون على هذا المضي وإلا قعدوا وما عملوا.

إذاً هذا يدلك على أن التفاؤل لو زاد عن حده فأصبح هو الذي يعتمد عليه الإنسان في مضيه في الأمر؛ فإنه قد يكون وقع في أمر محذور، لو خرج إنسان مثلاً من بيته وقال الإشارات كلها خضراء؛ فإنني سوف أسافر وإن كانت حمراء رجعت؛ نقول هذا أمر منكر ومحرم ولا يجوز.

هذا إذاً ما كان من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بيانه أن خير هذه المؤثرات هو الفأل؛ يعني ما يستبشر به الإنسان من قول أو مرئي شيء يراه وبيّن الحديث في بعض الروايات أن هذا مما كان يعجب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والله أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولأبي داود من بسندٍ صحيح عن عقبة بن عامر قال: ذُكرت الطيرة عند رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «أحسنها الفأل ولا ترد مسلماً، إذا رأى أحدكم ما يكره فليقل اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك».

هذا الحديث فيه بحث من جهة ثبوته من جهتين:

أولاً: نسبة هذا الحديث إلى عقبة بن عامر وهم؛ قد وقع في هذا الوهم بعض من تقدم الشيخ محمد رحمه الله تعالى؛ كالنووي، وابن القيم وغيرهما.

والصواب أن الحديث من حديث عروة بن عامر قيل: القرشي، وقيل الجهني.

وقد اختلف في صحبته كثير من أهل العلم؛ رأوا أنه تابعي ولا يصح له صحبة ونص على هذا المزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجماعة؛ من أنه لم يثبت له صحبة من وجه يصح.

وبعض أهل العم أثبت له الصحبة.

وبعضهم قد وقف في ذلك.

إذًا على القول في ثبوت صحته فالحديث متصل.

وعلى القول بأنه تابعي فالحديث مرسل.

ثانيا: الحديث في إسناده حبيب بن أبي ثابت وهو على كونه ثقة جليلاً كثير التدليس والإرسال؛ وقد نص الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((التهذيب)) على أن روايته عن عروة بن عامر الظاهر أنها منقطعة؛ يعني لم يسمع عن عروة بن عامر.

إذاً فيه الحديث نظر؛ لكن الشيخ صححه، وتقدمه أيضا في هذا التصحيح النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((رياض الصالحين)) وغير واحدٍ من أهل العلم.

وعلى كل حال الحديث فيه التنبيه على أنَّ الطيرة أمرٌ منفي وأنَّها لا تردُ مُسلماً؛ والنهي والنفي والتحذير من الطيرة أمرٌ قد تكاثرت فيه الأحاديث في ((الصحيحين)) وغيرهما وكونها لا ترد مسلماً فيه إشارة إلى أن حال أهل الشرك على خلاف ذلك، ويشهد لهذا المعنى ما ثبت في ((صحيح مسلم)) من حديث معاوية بن الحكم للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«ومنا أناس يتطيرون قال ذلك شيء يجدونه في أنفسهم فلا يصدنهم -أو قال- فلا يصدنكم».

فالشاهد أن هذا مثل هذا.

ويبقى فقط ما يتعلق بالشطر الأخير من الحديث وهو أن مما يدفع به الإنسان عن نفسه هو هذا الدعاء: (اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت...إلى آخره) والحسنة والسيئة هنا هي: الحسنة الدنيوية والسيئة الدنيوية؛ يعني: لا يأتي بالخير ولا يدفع الشر إلا أنت يا الله، فكان الملاذ والمفْزع إلى تحقيق توحيد الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، هكذا الإنسان لا يدفع عن نفسه وساوس الشيطان إلا إذا اعتصم بحبل وثيق من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ وتوحيده.

أقول إن هذا الذكر مما يحافظ عليه الإنسان إذا وقع على نفسه شيء من ذلك موقوف على ثبوت الحديث عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ:

وعن ابن مسعود مرفوعًا: «الطيرة شرك؛ الطيرة شرك، وما منا إلا ولكن يذهبه الله بالتوكل» رواه أبو داوود والترمذي وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود.

هذا حديث ابن مسعود مرفوعاً إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**الطيرة شرك، الطيرة شرك**»، هذا القدر ثابت عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وفيه بيانُ حكم الطيرة؛ وهذا موضعُ يحتاج إلى تفصيل.

الطيرة لها أحوال، وكل حال لها حكمها:

[الحال الأولى]: من تطير بشيء لاعتقاده أن هذا الذي تطير به هو الذي يعطي الخير أو يعطي الشر بذاته فهذا شرك أكبر؛ مشاركةٌ لله عَزَّوَجَلَّ في ربوبيته.

[الحال الثانية]: من تطير بشيء لاعتقاده أنه سبب لنزول الشر؛ مجرد سبب؛ وإلا فالأمر راجع إلى الله عَزَّوَجَلَّ وتقديره؛ فهذا شرك أصغر وعلى هاتين الحالتين يتنزل قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**الطيرة شرك**».

أما كون هذه الحال الثانية شرك أصغر؛ فذلك أن هذا المتطير، اعتقد أن هذا الشيء سبباً والواقع أن الله جَلَّوَعَلَا لم يجعله سبباً في نزول البلاء، والقاعدة أن من اتخذ واعتقد سبباً لم يجعله الله سبباً لا شرعاً ولا قدراً؛ فإنه قد يكون أشرك الشرك الأصغر.

بأنه يتطير ويبني على هذا التطير رجوعه عن العمل ورده عنه، هذا ما أردت قوله إنه شرك أصغر.

إذا بنى على هذا التطير أنه ترك العمل؛ وما أقبل فإنه يكون قد وقع في الشرك الأصغر؛ وهذا ما سيؤيده ما يمر معنا إن شاء الله؛ (إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك).

والحال الثالثة: أن يتطير ولكنه يمضي في عمله؛ تنقبض نفسه ويضيق صدره ويبقى متوجساً منتظراً أن مكروهاً ينزل به؛ وهذا محرم لأنه سوء ظن بالله جَلَّوَعَلَا وقبول لوساوس الشيطان، ولا شك أن هذا أمر لا يجوز.

الحال الرابعة: أن يقع في نفسه خاطر ولكنه يدفعه بتوكله على الله عَزَّوَجَلَّ وإحسان ظنه به؛ فهذا قدر معفو عنه؛ وهذا الذي جاء فيه: **«وما منا إلا»** يعني الغالب أن كل أحد يعتريه هذا الخاطر، يقع في نفسه شيء وقد خرج من بيته فرأى ذا عاهة، حادثاً، أو منظراً قبيحاً؛ وقع في نفسه شيء من الضيق ثم دفعه وتوكل على الله ﷻ فزال الذي في نفسه ومضى إلى عمله؛ هذا لا يضره إن شاء الله؛ (**إن الله تجاوز عن أمتي ما تحدثت به إلى أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل**).

إذا عندنا في حكم الطيرة أربع أحوال:

قد تكون الطيرة شركاً أكبر.

وقد تكون شركاً أصغر؛ إذا كف عن العمل وما كان ينوي القيام به لسببها.

وقد تكون أمراً محرماً.

وقد تكون أمراً جائزاً عن التفصيل ما قد سمعنا.

بقي البحث في الشطر الأخير من الحديث: **«وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل»**.

اختلف الحفاظ في كونه كلام من قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو هو مدرج يعني من قول ابن مسعود.

وقد ذهب كثير من أهل العلم أو أكثرهم إلى أن هذا القدر مدرج؛ والترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((جامعه)) وكذلك في ((العلل الكبير))؛ حكى عن شيخه الإمام البخاري، والبخاري حكى عن شيخه سليمان بن حرب أن هذه اللفظة مدرجة من قول ابن مسعود **«وما منا إلا»**؛ أي: وما منا إلا من يعتريه ذل.

سكت ابن مسعود عن بيان الأمر وحذفه لعلم السامعين به واتكالاً على معرفته له **«وما منا إلا»**.

وحذف ما يعلم جائز.

وفيه أيضا أدب لطيف وهو عدم التصريح بما يقبح.

وذهبت طائفة من أهل العلم إلى أن هذا الأمر أيضا مرفوع إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل الذي تقدمه؛ وهذا ما اختاره ابن القطان الفاسي وتابعه ما هو عليه من المعاصرين الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ إذ إنه صحح هذه اللفظة مرفوعة إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والأقرب هو الأول، بل نص الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((النكت)) على أن القول بإدراج هذه اللفظة أمر متعين.

فالمهم أن الأقرب والأصح أن هذا ليس من كلام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما وصف الطيرة بأنها شرك ليس من المقبول أن يقال إنه يقول إنه يقع في هذا الأمر؛ حاشاه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبعد الناس عن التطير، وأكمل الناس إيماناً وتوكلاً و إحساناً بالظن لله عَزَّ وَجَلَّ ومن عداه لا يخلو من وقوع شيء في نفسه ولكنه يدفع بتوفيق الله عَزَّ وَجَلَّ وبالاعتصام به جَلَّ وَعَلَا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولأحمد من حديث ابن عمرو: «من ردته الطيرة عن حاجته؛ فقد أشرك». قالوا فما كفارة ذلك؛ قال: «أن يقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك».

هذا الحديث يؤيد الضابط السابق الذي ذكرناه، فمن ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك؛ على التفصيل الذي مر معنا.

وهذا الحديث فيه بحث من جهة ثبوته فإن في إسناده ابن لهيعة وفيه كلام معروف.

لكن هذا الحديث جاء من رواية ابن وهب عنه وكذلك من رواية عبد الله بن يزيد المقرئ عنه، وطائفة من أهل العلم تقوي ما رواه العبادلة عنه، يعني: تقوي الإسناد الذي فيه ابن لهيعة وقد روى عنه العبادلة: عبد الله بن وهب، وعبد الله بن يزيد المقرئ، وعبد الله بن المبارك، إضافة إلى جماعة من الرواة.

ولأجل هذا صحح هذا الحديث غير واحد من أهل العلم ومنهم الشيخ الألباني رحمة الله تعالى على الجميع.

الشاهد أن الحديث فيه بيان ضابط كون الطيرة شرك.

وأيضا فيه ذكر كفارة من يقع في هذا الأمر.

من وقع في هذا الأمر وأراد أن يُكّفر أو أن يدفع ما في نفسه فليدعو بهذا الدعاء: اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك؛ يعني: لا يأتي الخير إلا من قبلك يا الله.

كما أن الطير الذي يتطير به كثير من الناس ما هو إلا مخلوق من مخلوقاتك يا الله.

إذاً هو لا يملك جلب خير أو لا يملك جلب شر؛ إنما الأمر كله إليك يا الله ولا إله غيرك.

فجمع هذا الدعاء والذكر بين إثبات التوحيد العلمي وبين إثبات التوحيد العملي؛ بين تثبيت المعرفة والإثبات؛ وإثبات توحيد القصد والطلب؛ وهذا -كما أسلفنا- خير ما يلجأ إليه الإنسان إذا ما أصابه الشيطان بهذه الوساوس التي لا حقيقة لها.

والله أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولـه من حديث الفضل بن العباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك».

هذا الحديث قال فيه (وله) يعني الإمام أحمد في ((المسند)) من حديث الفضل بن العباس عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ والحديث ذكر الشارح الشيخ سليمان رَحِمَهُٱللَّهُ في ((التيسير)) أنه وجد بخط المصنف تعليقاً على هذا الحديث؛ أنه قال إن في إسناده رجلاً مختلفاً فيه، كما أن فيه انقطاعا؛ يعني: ذكر أن الحديث قد أعل بعلتين:

الأولى: أن في إسناده رجلاً مختلفاً في توثيقه وهو محمد بن عبد الله بن عُلاثة وهذا الرجل قد ضعفه طائفة من أهل العلم، وقد وثقه طائفة، والحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال في ((التقريب)) إنه صدوق يخطئ.

أما العلة الثانية: فهي الانقطاع؛ لأن محمد بن عبد الله بن عُلاثة روى هذا الحديث عن مَسلمة بن عبد الله الجوهري عن الفضل بن العباس.

والصحيح: أنه لم يسمع منه؛ لم يسمع مسلمة من الفضل وبالتالي فإن الحديث فيه انقطاع.

لكن يشهد له الحديث الذي قبله؛ فإنه يدور في المعنى نفسه.

والله تعالى أعلم.

٤٣

٤٣- باب ما جاء في التنجيم

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب

ما جاء في التنجيم

أي: من الذم والوعيد.

والتنجيم: مصدرٌ للفعل نَجَّم يُنجِّم.

والتنجيم يطلق على تعاطي علم النجوم المذموم.

وذلك أن علم النجوم منه ما هو مذموم، ومنه ما هو غير مذموم.

وهذا الباب الذي عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتعلق ببيان حكم هذا التنجيم الذي صار علما على القسم المذموم من علم النجوم.

والمنجم هو: من يتعاطى التنجيم، وهو من جنس الكهان والعرافين.

وتأصيلاً للموضوع يقال: إن علم النجوم ينقسم إلى قسمين:

[القسم الأول]: علم تأثير.

[القسم الثاني]: وعلم تسيير.

فأما علم التأثير: فإنه ينقسم إلى [نوعين]:

[النوع الأول]: تأثير عملي.

[النوع الثاني]: وتأثير علمي.

وبيان ذلك فيما يأتي.

[النوع الأول]: **علم التأثير العملي**: هو اعتقاد أن للنجوم والكواكب العلوية تدبيرًا لهذا الكون، أو هي كما يقول أرباب هذه الصناعة: ما يكون على وجه الأرض من مجرياتٍ وأحداث إنما هي انفعالٌ لفعل النجوم والكواكب.

وهذا دين الصابئة المشركين الذين بُعث إليهم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولم يزالوا موجودين إلى هذا العصر، توجد قلة في بعض البلدان من هؤلاء الصابئة الذين يعتقدون أن النجوم والكواكب مدبراتٌ لشئون هذا الكون مع الله جَلَّ وَعَلَا، فكما أن الله يدبر شئون الكون كذلك هذه الكواكب، ويتبع هذا إشراكهم بها مع الله في العبادة، حيث أنهم يرجونها ويخافونها ويتقربون إليها بأنواع العبادات.

وأصل عبادة الأصنام بعضه راجعٌ إلى ذلك، فالأصنام إنَّما هي تماثيل يتذكر بها العابدون معبوداتهم السماوية أو الأرضية، الأرضية: يعني ما يعبدونه من الأولياء والصالحين ينصِبون أنصابًا، ويجعلون أصنامًا تُمثل هؤلاء الصالحين.

كذلك بالنسبة للمعبودات السماوية، يجعلون هياكل وأبنية وبيوتًا يصورون فيها صورًا لهذه الكواكب والنجوم، أو يجعلون لها صنمًا فيتقربون إلى هذا الصنم؛ لأنه يُمثل الكوكب، وهم يعتقدون أيضًا أنَّ روحانيات هذا الكوكب، وهي الشياطين في الحقيقة ربما خاطبتهم ولبت رغباتهم، فجمع هذا الشرك بين الشرك في الربوبية، والشرك في الألوهية.

النوع الثاني: **علم التأثير العلمي**، وذلك يرجع إلى استدلال أصحاب هذا الدجل، استدلالهم بحركات النجوم والكواكب واقترانها وافتراقها، استدلالهم بهذا على الحوادث المستقبلة الغيبية، يعني يزعمون أن ظهور هذه النجوم والكواكب، أو خفائها، أو اقترانها، أو افتراقها، أو سيرها في الأفلاك، أنَّ هذا به تُعرف أمور الغيب، فإذا ظهر النجم الفلاني فإنَّ هذا يدل على أنَّ ملِكًا سيموت، أو عظيمًا سيولد، أو أنه ستقوم حرب، أو ستحصل هزيمة، أو ما شاكل ذلك.

فهذا علم تأثيرٍ علمي يرجع إلى الاستدلال بشأن أمور الغيب التي لم تقع، ويستدل على وقوعها بحركة النجوم وما إلى ذلك.

ولا شك أن هذين النوعين شركٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أما الأول: فشركٌ ظاهرٌ في الربوبية، فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يدبر الأمر، وهو الملك السيد المتصرف في شئون هذا الكون وحده لا شريك له.

وأما الثاني: فإنه على الصحيح إشراكٌ مع الله عَزَّوَجَلَّ في علم الغيب، فالله جَلَّوَعَلَا عنده علم الغيب، ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النحل: ٦٥].

وفي ((صحيح البخاري)) من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «مفاتح الغيب خمسٌ لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم أحدٌ ما في غدٍ إلا الله»، إلى آخر الحديث.

إذًا كل من زعم أن غدًا سيكون كذا من أمور الغيب، أو الأسبوع القادم، أو الشهر القادم، أو خلال هذه السنة سيحصل كذا وكذا من الأمور المستقبلة، فإنه بهذا أدعى مشاركته مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في علم الغيب، والله جَلَّ وَعَلَا تفرد بعلم الغيب.

إذًا هذان النوعان لا شك أنهما شركٌ أكبر.

وقد جمعهما شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المجلد الخامس والثلاثين من مجموع الفتاوى، عرف علم النجوم بما يجمع هذين النوعين، قال: (علم النجوم هو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأفلاك السماوية، وتمزيج الأفلاك السماوية بالحوادث الأرضية)، قال هذا أو كلمة قريبة منها، والمراد كما ذكرت لك ما يزعمه هؤلاء من أن ما يكون على ظاهر هذه الأرض، وما يكون في هذا الكون، إنما هو انفعالٌ لفعل هذه الكواكب.

ثمة [نوع] ثالث يرجع إلى التأثير العلمي، لكنه ليس شركًا أكبر، إنما هو شركٌ أصغر، وهو ما يزعمه أرباب هذا الدجل من أن الأمور التي وقعت كان وقوعها بسبب تأثيرٍ من هذه الكواكب، وهذه البروج، وهذه النجوم على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الفاعل حقيقةً لكن هذه أسباب، وما يذكرونه في هذا الباب إنما هي وهميات، ما جعل الله عَزَّوَجَلَّ هذه الكواكب أسبابًا لحصول هذه الأمور، كما يزعمون مثلاً أن الذي يولد في البرج الفلاني يكون هادئًا بتأثيرٍ أو بسببٍ من هذا البرج، والله جَلَّ وَعَلَا هو الذي جعله كذلك، والذي يولد في البرج الفلاني يكون انفعاليًا أو غضوبًا، والذي يولد في البرج الفلاني تكون حالته كذا وكذا، فهؤلاء جعلوا سببًا لأمرٍ لم يجعله الله عَزَّوَجَلَّ سببًا، لا من جهة الشرع ولا من جهة القدر، فكان هذا شركًا أصغر كما مر معنا غير مرة.

لاحظ رعاك الله أن علماء الإسلام لا ينفون أن يكون شيءٌ من هذه النجوم، والشمس، والقمر، وما إلى ذلك، أن يكون لها سببٌ ما على شيءٍ مما يكون على وجه الأرض، هذا قدرٌ لا ينكره أهل العلم، والشريعة لا يمكن أن تنكر شيئًا واقعًا، انتبه لهذه القاعدة جيدًا، الشريعة لا يمكن أن تنكر أمرًا واقعًا، وبالتالي ربما يجعل الله عَزَّوَجَلَّ شيئًا مما يكون في الأجرام السماوية يجعله سببًا لشيءٍ يقع على وجه الأرض.

فالشمس مثلاً سببٌ لكثيرٍ من الأمور التي تقع على وجه الأرض من جهة ما يتعلق بإنضاج الثمار، من جهة ما يتعلق بحصول انتفاع بهذا الضوء، أو الحرارة للكائنات الحية، أو ما شاكل ذلك.

أو من جهة مثلاً أن يكون هناك سببٌ من القمر في حصول المد والجزر.

وقد يكون سببًا شرعيًا، كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الشمس والقمر: «**إنهما لا ينخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ يخوف بهما عباده**»، فهما إذًا سبب لحصول التخويف، سببٌ لحصول الخوف من العباد.

وإذا كان الأمر كذلك فهذا القدر لا شك أنه ليس داخلاً فيما نتحدث فيه، نحن نتحدث عن جعل هذه الأجرام السماوية سببًا لشيءٍ، والحقيقة أنه ليس سببًا، إنما هو شيءٌ يتوهمه هؤلاء في عقولهم، أما ما جعله الله عَزَّوَجَلَّ سببًا فنحن لا ننكر ذلك، ولا يعد اعتباره سببًا قادحًا في التوحيد، مع أننا نعامل هذا السبب معاملة بقية الأسباب، فأهل السنة والجماعة في نظرتهم إلى الأسباب يعتقدون أنه لا يوجد سببٌ يستقل بالأمور، بل لابد من اجتماع أسباب، ولابد من زوال المانع، وكل ذلك يكون بتقديرٍ من الله عَزَّوَجَلَّ.

إذًا هذه ثلاثة أحوالٍ لعلم النجوم المذموم، في حالتين منها يكون الحكم أن تعاطي هذا العلم شركٌ أكبر، وفي حالة منها يكون تعاطي هذا العلم شركًا أصغر.

وعلى كل حال توارد وتكاثر عن أهل العلم، بل هم مجموعون على هذا أن هذا العلم علمٌ مذموم، ما يزعمونه من علم النجوم الذي هو علم التأثير لا شك أنه مذمومٌ بإجماع أهل العلم، وفي هذا يقول القحطاني رَحِمَهُ اللَّهُ في ((نونيته)):

علم النجوم وعلم شرع محمدٍ ... في قلب عبدٍ ليس يجتمعان
ألها دليل سعادة أو شقوة ... لا والذي برأ الورى وبراني
من قال بالتأثير فهو معطلٌ ... للشرع منتحلٌ لقول ثان

فالله جَلَّوَعَلَا ما جعل هذه الكواكب أسبابًا مؤثرة في تدبير هذا الكون، ومن شواهد هذا قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قال الله جَلَّوَعَلَا على أثر مطر نزل، قال الله عَزَّوَجَلَّ: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك**

مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب»، وسيأتي الحديث عن هذا قريبًا في الباب القادم إن شاء الله.

وكذلك فيما يتعلق بالاستدلال بما يكون في السماء على ما يكون في الأرض من أمور الغيب، لا شك أن هذا دجل، بدليل ما كان يعتقده أهل الجاهلية من أن الشمس أو القمر إذا خسفتا أو كسفتا فإنَّ ذلك يدل على أن عظيمًا يولد، أو أن عظيمًا سيموت، فبيَّن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطلان هذا الوهم، وقال: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته**»، فدل هذا على أن ما يزعمون من هذا التأثير العلمي أنّ هذا باطلٌ لا شك في بطلانه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال البخاري في صحيحه: قال قتادة: ((خلق الله هذه النجوم لثلاثٍ: زينةً للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به)). انتهى.

هذه كلمةٌ حسنة من قتادة بن دعامة السدوسي التابعي الجليل الثقة الثبت رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والمتوفى سنة ثمان عشر ومائة، أو سبعة عشر ومائة.

هذه كلمة حسنة تلقاها أهل العلم عنه بالقبول، فالنجوم من الحكم التي ظهر لنا في شأنها هذه الأمور الثلاثة، هذا ما ظهر لنا من خلال كتاب الله جَلَّ وَعَلَا، وقد يكون لها حِكَمٌ الله أعلم بها، لكن ما ظهر لنا في القرآن والسنة من شأنها راجعٌ إلى هذه الأمور الثلاثة، كما قال القحطاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إن النجوم على ثلاثة أوجه ... فاسمع مقال الناقد الدهقان
بعض النجوم خلقن زينة للسما ... كالدر فوق ترائب النسوان
وكواكبٌ تهدي المسافر في السرى ... ورجوم كل مثابرٍ شيطان

إذًا هذه ثلاث حكم، هذا ما يجب أن يعتقده أهل الإسلام في النجوم.

أولاً: أنها زينةٌ للسماء.

وثانيًا: أنها رجومٌ للشياطين، والمقصود بهذا -كما سبق أن درسنا هذا الأمر- أنه ينفصل عن النجوم الشهب التي يُرمى بها سراق أو مسترقوا السمع من الجن، وقد جمع الله

عَزَّوَجَلَّ هاتين الحكمتين في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥].

إذًا هاتان حكمتان جمعتهما هذه الآية.

وأما الحكمة الثالثة: فبينها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في قوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، فهذا الذي يجب أن يعتقده الإنسان في هذه النجوم، فمن جاوز ذلك إلى ما وراءه مما يتعلق تفاصيل التأثير، أو علم النجوم من جهة التأثير كما فصلناه، فلاشك أنه قد أخطأ، وضل السبيل، وتكلف شيئًا لم يحط به علمًا بل أضاع نصيبه؛ لأنه أضاع عمره في شيءٍ لا ينفع، بل في شيءٍ قد يضره في دينه.

هذا العلم الذي يزعمون علم التأثير لو سلمنا جدلنا أنه لا مفسدة تترتب عليه، لكن في الواقع أنه لا فائدة ترجى من وراءه، ليس هناك أي ثمرة من وراء هذا العلم، إذا علم الإنسان فيما يزعم أن سقوط النجم الفلاني أو ظهوره سببٌ في حصول كذا وكذا، فكان ماذا؟ أيستطيع أن يصنع شيئًا بعد هذا؟

الجواب: لا، بقية العلوم فيها فائدة، إذا تعلم الإنسان علم الطب كان هذا سببًا في حصول الشفاء، إذا تعلم علم الحساب مثلاً فإنه يستطيع أن يقسم التركات ويستفيد من هذا في أمور حياته، لكن إذا علم أنه سيكون كذا وكذا فما الثمرة؟ أيستطيع أن يقلب الموت إلى حياة مديدة؟ أيستطيع أن يقلب الهزيمة إلى نصر؟ أيستطيع أن يقلب العداوة إلى صداقة؟ أيستطيع أن يفعل شيئًا؟

الجواب: لا، إنما هو صائر ومحكومٌ بقدر الله جَلَّوَعَلَا.

لكن المصيبة كل المصيبة أنه صار يخاف زُحل، والمسلمون يخافون ربَّ زُحل، صار يرجو المشتري، والمسلمون يرجون رب المشتري، صار يخضع للشمس، والمسلمون يخضعون لرب الشمس، هذا إن سلمنا أن هذا العلم له حقيقة وله أثرٌ من صواب، لكن الحقيقة أن هذا كله كذبٌ ودجل، ولا حقيقة له.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية جَلَّوَعَلَا أنه تكلم مع بعض هؤلاء المنجمين، فأقسم له بالله أحدهم أنهم يكذبون مائة كذبة في سبيل أن يصدق كلمةٌ واحدة قالوها، والناس -

كما قد تعلمنا هذا في دروسٌ سابقة- يتشبثون بهذه الكلمة الصادقة؛ لأجل ما في النفوس من إتباعٍ للهوى، وتسلطٍ من الشيطان على هؤلاء الجهال الأغمار مع الأسف الشديد.

المقصود أن هذه العلوم الفاسدة الكاسدة التي ترجع إلى تعاطي الكهانة، أو الضرب والطرق، والزجر، أو التنجيم، أو ما إلى ذلك، كل ذلك من أوهام يتخيلونها أو يخيلونها، ويحوونها إلى الجهال، فيتبعونهم على هذا الباطل، وهذا كل مصادمٌ لشرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

علم النجوم وعلم شرع محمدٍ   في قلب عبدٍ ليس يجتمعان

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه، ذكره حربٌ عنهما.

ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق.

هذه المسألة راجعة إلى القسم الثاني، كل ما سبق كان يتعلق بالقسم الأول وهو علم التأثير، هذا الذي ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تعلم منازل القمر وأنه رخص فيه أحمد وإسحاق، وكذلك هذا منصوص مجاهد وإبراهيم النخعي، وغيرهم، بل هذا قول جمهور أهل العلم، أنه لا حرج في تعلم ذلك، وقد يكون هذا مشروعًا من جهة الاستحباب، وقد يكون هذا واجبًا في بعض الأحوال على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

علم التسيير: هو معرفة حركات النجوم والكواكب ومواقعها للانتفاع بذلك، إما بمعرفة مكانٍ أو معرفة زمان.

يعني فائدة علم التسيير الذي هو أحد شقي علم النجوم، وهذا ليس مذمومًا بل هو مباح، وقد يكون مشروعًا، فائدته ترجع: إما إلى معرفة زمان، وإما إلى معرفة مكان.

أما معرفة الزمان: فإن أهل الشأن والمعرفة بهذا الأمر يستدلون بظهور القمر في منزلٍ معين على أن الفصل الفلاني، فصل الشتاء، أو فصل الخريف قد دخل، يستدلون بحركة الشمس وأنها إذا كانت في البرج الفلاني فإن الفصل الفلاني قد دخل، وبالتالي فإنهم يبنون على هذا مصالح ترجع إليهم، كأن يكون هذا الوقت هو الذي يزرع في النبات الفلاني، ويحصد فيه النبات الفلاني، ولا يزرع فيه النبات الفلاني؛ لأن المطر سينزل فيفسد، أو أن المطر لن ينزل، كما جرت عادة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى في كونه.

وقد يكون هذا استدلالاً على ما كان، كأن يستدل بالنجوم على الاتجاهات، فإذا عرف الإنسان مثلاً أن النجم المسمى بالقطب أنه يكون في جهة الشمال، فإنه إذا وضعه أمامه فإنه سيتجه إلى جهة الشمال.

والناس في السابق لاسيما العرب كانوا لهم عناية فائقة بهذا العلم، وهذا أمرٌ شائع في جميع الأمم، لكن العرب كانت حاجتهم إلى ذلك عظيمة؛ لأنهم يعيشون في صحاري يحتاجون فيها إلى الاستدلال على الاتجاهات وإلا تاهوا، فكان لهم عناية بهذا العلم وهو علم التسيير، كذلك حينما يُبحر الإنسان فإنه في السابق لا يجد وسيلة يهتدي بها في ظلمات البحر إلا من خلال معرفته بهذه النجوم، فيعرف الاتجاهات.

وبالتالي فالاستدلال بهذه النجوم على زمانٍ أو مكان هذا أمرٌ قال جمهور أهل العلم بأنه جائزٌ ولا حرج فيه.

وأما الذين ذموا ذلك، ونقل هذا -أعني عدم الترخيص في تعلم منازل القمر- عن قتادة وعن سفيان بن عيينة، وهذا فيما يظهر والله أعلم يمكن أن يُخَرَّج على أحد وجهين:

الأول: أنهم أرادوا ما يرجع إلى علم التأثير لا إلى علم التسيير.

والثاني: أنهم أرادوا الانشغال بذلك عما هو أولى منه.

هذا القدر من العلم فيه قسطٌ مفيد، وفيه تدقيق كثير وتفاصيل شتى لا حاجة بها، كثيرة التعب كما يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ قليلة الفائدة، والانشغال بها قد يضيع الوقت على الإنسان في استثماره فيما هو أولى منه، ولا شك أن انشغال الإنسان بالمفضول عن الفاضل بخسٌ في الحظ والخير، ولذلك من أساليب الشيطان الذي في شأن الذي لا يستطيع أن يضله عن الحق إلى الضلال، فإنه ربما أشغله بالمفضول عن الفاضل.

المقصود أن هذا القدر المقطوع والصواب فيه، أنه لا حرج على تعلم الإنسان معرفة ما يتعلق بالكواكب والنجوم، لأجل أن ينتفع بذلك في أمر دينه، أو أمر دنياه، وربما يكون هذا الأمر مشروعًا إما استحبابًا أو وجوبًا، بمعنى لو قدر أن إنسانًا لن يستطيع أن يعرف القبلة إلا من خلال استدلاله عليها بالأجرام السماوية، فأصبح علمه بذلك واجبًا؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، كذلك مثلاً فيما يتعلق بمعرفة الزوال، فإن هذا لابد منه، فإذا

قدر أنه لا يعرف دخول وقت الظهر إلا بمعرفة الزوال صار العلم بذلك في حقه واجبًا، وإن كان هذا في هذه الأزمنة المتأخرة أصبح قليل الفائدة مع وجود هذه الأجهزة الحديثة.

ذكر هنا أن قتادة وابن عيينة لم يرخصا في تعلم منازل القمر، وأن أحمد وإسحاق بل الجمهور أجازوا ذلك.

منازل القمر: هي المواقع التي ينزلها القمر كل ليلة، وذلك أن القمر عند أهل علم التسيير له ثمانيةٌ وعشرون منزلاً تظهر للناظر من فوق سطح الأرض، إذا نظر إلى القمر فإنه تظهر له هذه المنازل، كل ليلة ينزل منزلاً منها، هذه التي تسمى منازل القمر، وفي الليلتين الأخيرتين التي هي التاسعة والعشرين والثلاثين لا يظهر فيها الضوء غالبًا؛ لأن ما تراه إنما هو المساحة المنيرة من ظهر القمر، والتي تكون إذا انعكس عليها ضياء الشمس.

وذلك أن القمر يدور ويسير حول الأرض خلال الشهر، أليس كذلك؟

إذا قدرنا أن الدائرة، وهو يسير في دائرة أشبه بالبيضاوية، وليس بدائرة محكمة، إنما هو أشبه بالدائرة البيضاوية كما يقول أهل الفلك، الدائرة ٣٦٠ درجة، فإذا قسمناها على ٣٠ فإنه يصبح اثنا عشر درجة، كل يومٍ يمشي القمر هذا المقدار المحدد، هذا المقدار المحدد يسامت من السماء نجمًا أو مجموعة نجوم، يسامت من السماء كأنه أصبح نازلاً عند هذه النجوم، ولاشك أنها فوقه بكثير، لكن الناظر إليها يرى أنه أصبح في مسامتت هذه النجم كأنه نزل عندها، وفي اليوم التالي ينتقل فيصبح مسامتًا إلى مجموعة من النجوم أخرى، هذه هي التي تسمى منازل القمر.

والعرب سموا هذه المنازل الهنعة، والهقعة، وسعد السعود، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد الأخبية، والدَبران، والثريا، إلى أخر ما ذكروا من الثمانية والعشرين منزلاً، هذه هي المقصودة بمنازل القمر، فكل ليلةٍ للقمر منزلٌ ينزله، يعني موقعٌ من السماء أثناء سيره يكون فيه مسامتًا لمجموعة من النجوم التي تسمى النجوم الثوابت، وهذه يتصورون أشكالاً لها، يرسمونها على شكل أشكال، يعني يربطون بينها بخطوط وهمية في عقولهم، فيصبح شكلها على شكلٍ معين.

كذلك الشأن فيما ذكرناه غير مرة في البروج، البروج هي: المواقع التي تنزلها الشمس خلال السنة، الشأن فيها كمنازل القمر، لكن في حق الشمس تسمى عند أهل الفلك

تسمى بروجًا، وفي حق القمر تسمى منازل، وهذه هي البروج الاثني عشر، وكل ثلاثة بروجٌ منها تمثل فصلاً من الفصول الأربعة، وهي التي جُمعت في قول الناظم:

حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان
ورمت عقرب بالقوس جديًا فملا الدلو بركة الحيتان

إذا حفظت هذين البيتين فإنك تستطيع معرفة فصول السنة، فالبداية تكون بالحمل، حمل الثور جوزة، هذه الثلاثة هي الربيع، وبعد الربيع ينتقل إلى الصيف، وبعد الصيف ينتقل إلى الخريف، وبعد الخريف ينتقل إلى الشتاء، وهكذا دواليك، يسير الأمر بانتظام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا في الحقيقة الباب من أخذ منه طرفًا فإنه يزيده إيمانًا ويقينًا بالله العظيم، وبصفاته جل وعلا: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[يونس: ٥]، هذا كله من الحق الذي خلق الله عَجَّلَ السماوات وما فيها، والأرض وما فيها من أجله جل وعلا، وكذلك في قوله جل وعلا في سورة يس، ومنازل القمر جاءت في القرآن في موضعين: في سورة يونس كما قد سمعت، وفي سورة يس: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾[يس: ٣٩].

العرجون: هو العذق، عذق النخل الذي يحمل الشماريخ، الشماريخ يكون عليها الرطب، سبحان الله إذا قدم وكبر -يعني تقدم به الوقت- فإنه ينحني، والهلال إذا وصل إلى الليلة المؤخرة، أو آخر ظهور له قبل أن يولد من جديد، فإنه يشبه العرجون القديم.

ولاحظ هذه الدقة في هذه الكلمة، العرجون ينحني باتجاه النخلة، كذلك الهلال سبحان الله العظيم طرفاه المنيران يتجهان جهة الأرض، بعكس الهلال الوليد فإن طرفاه تكون على غير اتجاه الأرض، وهذا أدق ما يكون في الجملة حينما قال: ﴿حَتَّى عَادَ﴾ رجع ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾.

المقصود أن إحاطة الإنسان بشيءٍ من هذا العلم أنه أمرٌ حسن، وقد ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((شرح العمدة)) عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، أنه أجاز تعلم منازل القمر، بل أخبر عن نفسه أنه تعلم ذلك من أهل مكة، وكان الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ له عناية بمثل هذا الأمر.

وعلى كل حال أخذ طرف من هذا العلم يفيد الإنسان دون شك.

والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثلاثةٌ لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدقٌ بالسحر»، رواه أحمد وابن حبان في صحيحه.

هذا الحديث حديث أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقد خرجه الإمام أحمد وابن حبان وغيرهما، وفيه بحثٌ أيضًا من جهة ثبوته، ففيه رجل اسمه أبو حُريز، عبد الله بن الحسين، وهذا فيه كلام، قال فيه الذهبي في ((الميزان)): (فيه شيءٌ)، قال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (صدوقٌ يخطأ)، والحديث له شاهد عند أحمد من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ولكن فيه أيضًا علة وهي أنه من طريق العوفي.

وعلى كل حال هذا الحديث حسنه جماعةٌ من أهل العلم، والشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورده في ((صحيح الترغيب)).

المقصود أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر إن صح الحديث أنه لا يدخل الجنة هؤلاء الثلاثة:

[الأول]: مدمنٌ خمرٍ، مدمنٌ: يعني مستمرٌ ولا ينفك عن شرب الخمر أبدًا، هذا هو المدمن، فهو مستمرٌ على شربها حتى وفاته، لم يتب إلى الله عَزَّوَجَلَّ منها.

والثاني: قاطعٌ لرحمه، يعني قرابته.

والثالث: مصدقٌ بالسحر، وهذا وجه إيراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هذا هو الشاهد من هذا الحديث، ولأجله أورد هذا الحديث في الباب.

وجه ذلك أن التنجيم شعبةٌ من شعب السحر، ولعلكم تذكرون ما مر بنا من قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من اقتبس شعبةً من النجوم فقد اقتبس شعبةً من السحر، زاد ما زاد»**، هذا الذي قصد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من إيراد هذا الحديث في هذا الباب، فلاشك أن علم التنجيم إن صحت تسميته علمًا، أن هذا داخلٌ في السحر من الوجه الذي ذكرناه سابقًا من جهة أن السحر ما خفي ولطف ودق سببه، وفيه تأثيرٌ خفيٌ على النفوس، وهذا

شأن أيضًا في التنجيم، وهو من جهة أخرى داخلٌ في حكم الكهانة، والكهانة والسحر حكمهما متقاربٌ إلى حد كبير، كما مر بنا تفصيل ذلك.

لكن قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا إن صح مصدقٌ بالسحر، لابد من التفصيل فيه:

من صدق أن للسحر تأثيرًا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فلا شك أنه ليس داخلاً في هذا الحديث مر بنا أن للسحر تأثيرٌ بإذن الله الكوني، أليس كذلك؟ وهذا ما أثبته الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾[البقرة: ١٠٢].

إذًا ما المقصود بهذا الحديث؟

الذي يظهر والله تعالى أعلم أنه يراد به أحد أمرين:

[الأمر] الأول: أن يكون المراد بالسحر هاهنا هو التنجيم، فيكون قد توعد بعدم دخول الجنة من صدق المنجم في ادعائه علم الغيب، أو أن لهذه الأجرام السماوية تدبيرًا لهذا الكون.

و**[الأمر] الثاني**: أن يقال: إن السحر هو السحر بحقيقته العرفية التي تعلمناها، والتي فيها معاونة من الشياطين، فمن صدَّق بهذا السحر تصديقًا يؤدي إلى إشراكٍ مع الله عَزَّ وَجَلَّ، كأن يعتقد هذا المصدق والمتعاطي للسحر والمؤمن به أن الشيطان له مشاركةٌ مع الله عَزَّ وَجَلَّ في ربوبيته، أو في أسمائه وصفاته، أو أن لهذا الساحر مشاركةٌ مع الله عَزَّ وَجَلَّ فيما يختص به من الربوبية والصفات، فلا شك أنه داخلٌ في هذا الذم.

إذًا لابد من التفصيل في هذا الجزء من الحديث، وهو قوله: «**ومصدقٌ بالسحر**».

لكن لنا وقفة هنا مع هذا الحديث وأمثاله، أولاً:

مر بنا سابقًا قاعدة وهي: دخول أمور عدة تحت وعيدٍ واحد لا يدل على استواءها في الحكم، مر بنا قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، ذكر الشرك، وذكر قذف المحصنات، وهل هما سواء؟ بين هذا وهذا قدرٌ مشترك، وهو أن هذا موبق وهذا موبق مع قدر مميز فارق بين هذا وهذا، فهذا شركٌ وهذا معصية، كذلك الشأن هنا إن قلنا: بصحة هذا الحديث فلا شك أن إدمان الخمر، وقطيعة الرحم من المعاصي، أما تصديق السحر على القدر الذي وصفته لك قبل قليل فلا شك أن هذا شرك، لكن اجتمع الكل تحت حدٍ معين وهو قوله: «**لا يدخل الجنة**»، هذا وعيد وهو: «**لا يدخل الجنة**».

نأتي الآن إلى الوقفة الثانية:

ما معنى هذا الحديث؟ تكرر هذا اللفظ في أحاديث عدة عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**لا يدخل الجنة قاطع**»، «**لا يدخل الجنة قتات**»، عندنا هذا الحديث الذي بين أيدينا، فما المراد بعدم الدخول؟

هذا الحديث وأمثاله من أحاديث الوعيد لابد من أن يعلم الإنسان في شأنها أمرين:

انتبه لما أقول، **أولاً**: ما معنى الدليل؟ وما معنى الوعيد الذي جاء فيه؟

وثانيًا: ضم هذا الحديث إلى غيره من الأحاديث والنصوص بحيث يُفهم فهمًا واحدًا معها، أُفصِّل هذا:

أولاً: لابد أن تعرف ما مراد النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بوعيده، عندنا هذا الحديث: «**لا يدخل الجنة**»، لا يدخل الجنة وعيدٌ توجه به النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في هذا الحديث إلى قدرٍ هو معصية، وإلى قدرٍ هو شرك، ولا يمكن أن يستويا هذا وهذا.

الذي ذهب إليه بعض أهل العلم:

أن هذا الحديث محمولٌ على شأن المستحل الذي يستحل إدمان الخمر، الذي يستحل قطيعة الرحم، فلا يدخل الجنة دخولاً مطلقًا.

ولا شك أن هذا التوجيه توجيهٌ ضعيف، وقد أنكره الإمام أحمد وغيره من أهل العلم، وذلك أن الاستحلال من حيث هو كفر، فأصبح قوله: «**مدمنُ خمرٍ**» لغوًا لا أثر له في الحكم، بمعنى لو استحل الخمر ولم يشرب منها قطرةً ما حكمه؟ حكمه أنه كافر، ولا يلزم كل من كان مدمنًا للخمر أن يكون مستحلاً، كذلك من استحل قطيعة الرحم ولم يقطع رحمه، فإنه يكفر بذلك، على كل حال هذا التوجيه ليس بوجيه.

أما التوجيه الصحيح فالقول: بأن المنفي في هذا الحديث في حق القاطع، وفي حق مدمن الخمر، وفي حق القتات وما إلى ذلك، المراد بذلك نفي الدخول المطلق لا نفي مطلق الدخول، إذًا نفي دخول الجنة إن جاء في الأحاديث وعيدًا على معاصٍ فالمراد نفي الدخول المطلق، وإن جاء في وعيدٍ في حق كفار فالمراد مطلق الدخول.

مثلاً في قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ**﴾[الأعراف: ٤٠].

ما المراد بعدم الدخول هنا؟ مطلق الدخول.

ما الفرق؟

الدخول المطلق: يعني الدخول الكامل، يعني من أول وهلة دون أن يسبق هذا بعذاب،.

أما مطلق الدخول: يعني عدم الدخول أبدًا، لا يدخل أبدًا، ولا يلج هذه الجنة أبدًا، هذا في حق الكافر، وأما العاصي فإنه متوعدٌ بعدم الدخول مع أول الداخلين، وإذا لم يكن مع أول الداخلين أين سيكون؟

إذًا هذا وعيدٌ بدخول النار؛ لأنه إذا لم يدخل الجنة سيكون في النار.

ومعتقد أهل السنة أن العصاة دخولهم النار دخولٌ مؤقت لا دخولٌ مؤبد، يدخلون النار دخولاً إلى مدة يشاءها الله، ثم يخرجون منها.

إذًا المنفي هنا الدخول المطلق لا مطلق الدخول.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾، المنفي مطلق الدخول، يعني لا يدخلونها أبدا، فإن الله عَزَّوَجَلَّ حرم الجنة إلا على نفسٍ مؤمنة، حرمها على هؤلاء الكفار، هذا الأمر الذي لابد أن تفهمه **أولاً**.

الأمر الثاني: ضم هذا الحديث إلى غيره، فتفهم النصوص كنصٍ واحد، بمعنى فهمنا الآن أن المراد من هذا الحديث أنه متوعدٌ بدخول النار دخولاً مؤقتًا، وعدم دخول الجنة الدخول المطلق، لكن هل هذا ضربة لازب، واجبٌ أن يكون هذا في حق كل واحدٍ يقع في هذا الأمر؟

الجواب: أننا حتى نحكم على هذا الأمر لابد أن نجمع بين الأدلة، ونؤلف بينها، فلما نظرنا في الكتاب والسنة وجدنا أن هذه النصوص نصوص الوعيد في حق العصاة مطلقاتٍ لها أدلةٌ مقيدة، فنفهم هذا الحديث على أنه حديثٌ مطلق وله تقيدٌ في الشرع، ما هو هذا التقيد؟ التقيد قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[النساء: ٤٨]، فأصبح هذا الوعيد يمكن أن تجعل بجواره قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[النساء: ٤٨]؛ لأن هذا حق وهذا حق، والحق لا يمكن أن يتناقض.

إذًا لا يدخل الجنة إلا أن يشاء الله عَزَّوَجَلَّ، من أين فهمنا لا يدخل الجنة؟

من الحديث.

ومن أين أتينا بـ (إلا أن يشاء الله)؟

من قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[النساء: ٤٨].

لو لم يشأ الله العفو عن هذا العاصي، وأراد تعذيبه، فما المراد بهذا الوعيد؟ هل سيخلد في النار خلودًا مؤبدًا؟

الجواب: أن النفي هنا نفيٌ للدخول المطلق لا لنفي مطلق الدخول، وهذا معروفٌ في مجاري كلام العرب، فإنهم قد ينفون الشيء لانتفاء شيءٍ مهمٍ فيه، انتبه إلى هذا.

أضرب لك مثلاً في شأن الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا، ثم ختمها بقتل ذاك العابد فأصبحوا مائة، لما نزلت ملائكة العذاب ماذا قالت حينما اختصمت مع ملائكة الرحمة؟ قالت: ما عمل خيرًا قط، والسؤال هل الملائكة تكذب؟ لا، لا يمكن أن تخبر بخلاف الواقع، لا يمكن أن تكذب، والواقع أن هذا الرجل عمل عملاً صالحًا، أليست الهجرة إلى البلاد التي فيها الصالحون عملاً صالحًا؟ الجواب: نعم، إذًا كيف يوجه هذا النفي، ما عمل خيرًا قط؟ يحمل على الغالب؛ لأنه قد انتفى شيءٌ مهم من الواجبات ما فعله، فصح النفي على هذه الصيغة، ما عمل خيرًا قط، والواقع أنه عمل بعض الخير، أراد الخير، أراد التوبة، وسعى إليها.

فدل هذا على أن هذا أسلوبٌ مستعملٌ عند العرب، وتنزيل كلام ربنا جَلَّوَعَلَا ورسوله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في محله هو الفقه يا أيها الإخوة، ولأجل الإخلال بهذا ضل من ضل من الفرق، وهدى الله عَزَّوَجَلَّ أهل السنة إلى الحق المحض، لما أخذت الخوارج والوعيدية طرفًا من النصوص واعرضوا عن طرف ضلوا، وهكذا لما أخذت المرجئة طرفًا وضلت عن طرف ضلت، لكنَّ أهل السنة والجماعة -ولله الحمد والمنة- هداهم الله عَزَّوَجَلَّ للجمع، والتأليف بين النصوص، فأمنوا بها جميعًا وقالوا بها كلها، بذلك حاذوا السعادة والتوفيق وإصابة الحق ولله الحمد.

٤٤

٤٤- باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب:

ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (باب: ما جاء في الاستسقاء بالأنواء)

وهذا الباب الخاتم للأبواب المتتالية المتقاربة في موضوعها، والتي تناول فيها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يتعلق بالسحر والكهانةِ وما يُشبهُ ذلكَ في تأثيره على ما مضى بيانه.

قال: الاستسقاءُ بالأنواء.

الاستسقاء المراد به هنا: نسبة السُقيا، يعني: نسبة إنزال المطر إلى الأنواء.

والأنواءُ جمع نوء مصدرٌ للفعلِ (ناء: ينوء)، من ذلك قول الله جَلَّ وَعَلَا: أعني بهذا الفعل: ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ [القصص:٧٦]، ومن ذلك ما جاء في الصحيح من قصةِ وفاة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «كُلما أراد أن ينوء» يعني: أن ينهض.

فناء: ينهضُ ويقوم، ناء، ينوء: أي ينهض ويقوم.

وقيل: إن هذه كلمة من الأضداد، فتقال: على جهةِ النهوض وتُقال على عكسها.

والمرادُ بالأنواء: هو سقوطُ النجمِ وغروبهُ.

وتوضيح ذلك: أن الأنجم أو النجوم التي تكون في السماء إذا غاب نجمٌ منها وغيابه يكون في الفجر، إذا غاب من جهة المغربِ؛ فإنه يظهرُ في تلك الساعة نجمٌ آخر عند الفجر من جهة المشرق يسمى رقيبَهُ، كأنه يراقبه، حتى إذا غرب فإنه يظهر ويشرق ويصعد، فكانت العرب تَنسِبُ نزول المطر إلى هذا الأمر وهو غروب النجم من جهة المغرب وظهور النجم الآخر الذي هو رقيبه من جهة المشرق، يقولون إن هذا يُنسَبُ إليه إنزال المطر، وهذا الأمر يتكرر كل ثلاثة عشرَ يوما.

تذكرون منازل القمر التي تكلمنا عنها في درس أمس هذه المنازل للقمر تنزلها الشمس أيضا، ولكن الشمس تمكث في المنزلة الواحدة ثلاثة عشر يوما تقريبا بعكس القمر الذي يمر بهذه المنزلة في اليوم، أما الشمس فتنزل هذا المنزل ثلاثة عشرَ يومًا، في كل ثلاثة عشر يوما؛ فإنه يغيبُ نجمٌ ويظهر آخر، فمثلا يقولون إذا غرب النَثرة أو النُثرة ظهر رقيبه وهو سعد الذابح، يعرفون هذا من خلال المطالعة ومن خلال المشاهدة.

المقصود أن أهل الجاهلية كانوا ينسبون السقية التي تكون لهم إلى هذه الأنواء، فإذا نزل المطر قالوا: سقينا بنوء كذا وكذا، أو صدق نوء كذا وكذا، فهذا الذي أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقد هذا الباب لبيان ذمه وفساده.

قال: باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء، يعني: من الذم والنهي عن هذا الأمر.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[الواقعة:٨٢].

هذه الآية سيأتي ذكرها ضمن حديث قادم وأؤجل الكلام إلى هذا الموضع إن شاء الله. وهذا شيء نادر في كتاب التوحيد، أن يكرر المؤلف دليلا في الباب نفسه هذا شيء نادر، ومن ذلك هذا الموضع في هذا الباب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن أبي مالك الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»، وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»، رواه مسلم.

هذا حديث أبي مالك الأشعري وفي الصحابة ثلاثة يُكنون بهذه الكنية، وهذا أحدهم وهو الحارث بن الحارث الأشعري، وعلامته أنه تفرد بالرواية عنه أبو سلَّامَ الحبشي.

هذا الصحابي يروي عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن ثمة أربع خصال لا تدعها هذه الأمة التي هي أمة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والمراد أمة الإجابة بكل تأكيد، هذه الخصال وصفها النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأنها من أمر الجاهلية.

والجاهلية أمران أو نوعان:

جاهلية مطلقة.

وجاهلية نسبية.

أما الجاهلية المطلقة: فإنها الحال التي كان عليها الناس قبل بعثة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. وانتهت ببعثته وسميت تلك الفترة بالجاهلية؛ لأن السائد في ذلك الوقت

في الناس هو الجهلُ، وأعظم الجهل الذي كانوا فيه جهلهم بالله عَزَّوَجَلَّ وبحقوقهم وبحقوقه على عباده.

أما الجاهلية النسبية: فإنها تكون بعد بعثة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكان دون مكان وزمان دون زمان وأشخاص دون أشخاص، والمراد بذلك بقاء شيء من خلال الجاهلية وخصالها فإذا كانت الجاهلية المطلقة قد انتهت فإنه قد بقت بقية من أخلاقها وخلالها وخصالها.

أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذه الخصال باقية في الأمة، والمراد أنها باقية في مجموعها لا في جميعها، ليس المراد أن هذه الخصال واقعة من كل فرد فرد من هذه الأمة بحيث يكون ذلك واقعا من جميعها، المراد أن هذه الخصال واقعة في مجموع الأمة يعني موجودة في الأمة في الجملة، يوجد في الأمة من فيه هذه الخصال وقد يقل هذا في وقت أو مكان، وقد يكثر.

هذه الخصال وصفها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما ترى بأنها من أمر الجاهلية، ولاشك أن هذا الوصف وصف ذم ومعيب، كل ما كان منسوبا وموصوفا بالجاهلية فلاشك أنه مذموم ومعيب، ومن ذلك قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾[الأحزاب:٣٣].

إذن هذا منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تنفير عن الوقوع في هذه الخصال.

الخصلة الأولى: الفخر بالأحساب:

والأحساب جمع حسب، والحسب هو: الشرف الثابت للآباء، والمراد أن يتشرف الإنسان ويفخر على غيره بتعداد ما كان عليه آباؤه وأجداده من المفاخر والشرف والسؤدد، فيفخر على الناس ويتعالى عليهم بهذا الأمر، ولا شك أن هذا أمر مذموم، إذا كان الإنسان مذموما بفخره بعمله فكيف بفخره بعمل غيره؟ لا شك أنه أولى بالذم وهذا أمر قد نهت عنه الشريعة؛ قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما خرجه أبو داود والترمذي وأحمد بسند حسن، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالأحساب، مؤمن تقي أو فاجر شقي، الناس من آدم وآدم من تراب، لينتهين أقوامٌ عن فخرهم بالأنساب أو ليكونن أهون على الله من الجعلان**».

الجعلان: جمع جُعَلْ، وهو حشرة قذرة تشبه الخنفساء.

هؤلاء الذين يفخرون على الناس بأحسابهم وأنسابهم، ويغفلون عن أن الناس مشتركون في أصلهم، كلهم من آدم وآدم من تراب:

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء

فإن يكن نسب يفاخرون به ... من بعد ذا فالطين والماء

لينتهين هؤلاء أو ليكونن أهون على الله عَزَّوَجَلَّ، يعني يكونن بهذه منزلة وهذا القدر الحضيض النازل السافل الذي هو يكونون فيه مشبهين بهؤلاء الجعلان.

كذلك أخرج الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من حديث عياض بن حمار المجاشعي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**إن الله قد أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد ولا يبغي أحدٌ على أحد**».

هكذا حال المسلم أن يكون متواضعا لينا هينا بل أن يكون ذليلا لإخوانه المسلمين كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ **[المائدة: ٥٤]**.

لا أن يكون شامخا بأنفه متعاليا بنسبه وحسبه وأصله وفصله، فإن هذا من سخف العقل، ناهيك عما فيه من ضعف الإيمان.

أما [الخصلة الثانية] الطعن في الأنساب: والطعن في الأنساب فُسِرَ بأمرين:

[الأمر] الأول: أنه القدح فيها من جهة ثبوتها، يعني أن يُشكك في أنساب الناس بأن يقال: فلان ليس بصحيح أنه ينتسب للقبيلة الفلانية، أو أن الأسرة الفلانية ليس بصحيح، أو في نسبتها إلى القبيلة شك، فهذا طعن في أنساب الناس.

والأمر الثاني: هو القدح والعيبُ والذمُّ لأنساب الناس وقبائلهم وأسرهم وعوائلهم بأن يُقال آل فلان فيهم كذا وكذا، والقبيلة الفلانية معيبةٌ بكذا وكذا من الصفات الذميمة.

كل ذلك داخل في الطعن في الأنساب، ولا شك أن هذا الأمر فيه ما فيه من البغي، وفيه ما فيه من الغيبة، وفيه ما فيه من إثارة الأحقاد، والواجب أن يكون المسلمون متعاونين متحابين متآلفين.

[الخصلة الثالثة]: الاستسقاء بالنجوم، والمراد بذلك كما ذكرت لك نسبة نزول المطر إلى الأنواء.

وهذا الأمر -أعني نسبة نزول المطر إلى الأنواء- له حالتان:

الحالة الأولى: يكون الحكم فيها الكفر الأكبر، وذلك إذا نسب نزول المطر إلى الأنواء على جهة الإيجاد والفعل، بمعنى أن يعتقد حينما يقول القائل مطرنا بمطر كذا يعتقد أن الذي أنزل هذا المطر إنما هو هذا النوء أو هذا النجم لا ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولا شك أن هذا شرك أكبر وهذا ما وقع فيه طوائف من المشركين وقد ذكرنا في درس البارحة وقلنا إن الصابئة كانت تعتقدُ أن الكواكب والنجوم مدبرة لهذا العالم وأن ما يكون منها إنما هو انفعال لفعل هذه الكواكب يعني ما يكون من الكائنات التي تكون في هذا الكون إنما هو انفعال لفعلها، لا شك أن هذا شرك أكبر في الربوبية.

[الحالة] الثانية: أن ينسب هذا الفعل -أعني نزول المطر- إلى الأنواء لا على أنها الموجدة ولا على أنها الخالقة ولا على أنها الفاعلة، إنما يكون ذلك على جهة السببية.

وهذا هو الذي كان عليه أهل الجاهلية الذين بقت هذه الخصلة من خصالهم في هذه الأمة، وذلك أن الغالب على المشركين مشركي العرب قريش وغيرها الغالب على هؤلاء أنهم كانوا يعتقدون أن الله عَزَّوَجَلَّ هو المنزل للمطر: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ **[العنكبوت:٦٣]**.

فدل هذا على أنهم كانوا يعتقدون أن الله هو الذي ينزل المطر جَلَّوَعَلَا بقوته وحوله.

فدل هذا على أن هذه الخصلة التي تبقى هي هذه النسبة التي فيها ما فيها من الشرك الخفي وهو نسبة النعم إلى غير الله عَزَّوَجَلَّ على ما سيأتي بيانه إن شاء الله في الحديث القادم إن شاء الله.

[الخصلة الرابعة]: فهو النياحة، والنياحة: رفع الصوت بندب الميت، والغالب أن يتبع ذلك قول ما لا يحل وفعل ما لا يحل، وتوعد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ النائحة التي تنوح بهذا الوعيد، وإن كانت النياحة مذمومة ومنهيًّا عنها في حق المرأة وفي حق الرجل، لكن لما كانت النياحة في الغالب إنما تكون من النساء أخبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الحديث بهذا اللفظ قال: «**النائحة التي ماتت قبل أن تتوب**».

وهذا الحديث فيه أن الكبائر تُكفر بالتوبة وهذا موضع إجماع من أهل العلم، أن من وقع في كبيرة فتاب إلى الله عَزَّوَجَلَّ منها فإن الله يغفر له ذلك، كذلك إذا وقع في صغيرة من باب أولى، بل كذلك إذا وقع في كفرٍ أكبر فتاب إلى الله عَزَّوَجَلَّ منه فإن الله عَزَّوَجَلَّ يكفر

عنه ذلك: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾[الأنفال:٣٨]، ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[المائدة:٧٤].

فدل هذا على أن كل الذنوب صغيرها وكبيرها تكفر بالتوبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الوعيد الأكيد الذي يدلك على أن النياحة ذنب عظيم وهو أن الله جَلَّ وَعَلَا يجعل سربالا لها القطران.

القطران: مادة تُستخلص من بعض الأشجار ثم تغلى ثم يطلى ويدهن بها الإبل.

والسربال هو: القميص أو الثوب كما أخبر الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾[النحل:٨١]، هذه المادة مادة شديدة الاشتعال، يعني إذا اشعل فيها النار فإنها تكون شديدة التوهج والعياذ بالله.

وظاهر الحديث والله أعلم أن هذا العذاب التي تُعذب النائحة به هو أنها تطلى بالقطران حتى يكون كالثوب لها والله عَزَّ وَجَلَّ أعلم كيف يكون الأمر، كذلك يُجعل لها درعٌ من الجرب.

والجرب: مرض يصيب الإنسان بحكة شديدة، والدرع: نوعٌ من الثياب وهو من قُمص النساء، فهذا لا شك أنه وعيد يدل على أن النياحة من الذنوب العظيمة -عافاني الله وإياكم من ذلك-.

المقصود من هذا الشاهد من الحديث إخبار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذه الخصلة وهي الاستسقاء بالنجوم خصلة كانت في الجاهلية وبقيت في هذه الأمة وستبقى في هذه الأمة، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهما عن زيد بن خالد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: صلى لنا رسول الله صلاة الصبح بالحديبية، على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب».

هذا الحديث حديث زيد بن خالد الجهني المدني الصحابي المشهور.

حديث جليل وهو أصلٌ في هذا الباب، أخبر فيه أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صلى لهم صلاة الفجر، المقصود: صلى بهم وأتى بقوله: لهم؛ لأن المصلي إذا كان إماما فإنه يصلي لنفسه ويصلي لمن خلفه أيضا.

قال: على إثر سماء.

والمراد بالسماء ها هنا المطر، وسمي المطر سماء على عادة العرب في تسمية الشيء باسم ما يكون مجاورا له أو سببا له، وذلك لأن المطر ينزل من السماء، يعني: من العلو، وكان هذا المطر في الليل، فلما أصبح النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصلى بهم انصرف فقابلهم بوجهه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وقال لهم: **«أتدرون ماذا قال ربكم؟»** لا شك أنهم لا يعلمون لأنهم لا يُوحى إليهم، لكن هذا فيه أسلوب حسن في التعليم، طرح السؤال على المتعلم لأجل تشويقه واستثارة انتباهه، **«قالوا: الله ورسوله أعلم»**.

وهكذا المسلم لا ينبغي له أن يتكلف ما لا علم له به، يفوض العلم إلى من يعلمه؛ **«قالوا: الله ورسوله أعلم»**. فأخبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بما قاله الله جَلَّوَعَلَا، قال: **«أصبح من عبادي»**، لاحظ معي أن هذا الحديث فيه إثبات أن صفة الكلام لله جل وعلا صفة فعلية اختيارية، وذلك أن ظاهر الحديث أن الله تكلم بهذا الكلام بعد نزول المطر وحصول كلام العباد الذي به انقسموا إلى مؤمن وكافر، بخلاف قول أهل البدع الذين قالوا إن صفة

الكلام صفة ذاتية قائمة بالذات قديمة قدم الذات، لا شك بأن هذا قول باطل، بل الله يتكلم إذا شاء بما شاء كيف شاء جَلَّوَعَلَا.

قال الله جَلَّوَعَلَا-وهذا القدر أو هذه القطعة من الحديث حديث قدسي من كلام الله جَلَّوَعَلَا، تكلم الله به حقيقة وأخبرنا بهذا الصادق المصدوق عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ-: **«أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر»**.

الناس على إثر هذا المطر انقسموا إلى فريقين:

عباد الله، وكل الناس عباد الله أصبحوا على إثر هذا المطر قسمين:

قسم مؤمن هو الذي نسب النعمة إلى الله جَلَّوَعَلَا.

وقسمٌ كافر وهو الذي جحد نعمة الله جَلَّوَعَلَا ونسبها إلى غيره.

قال: **«أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»**.

إذن هذا الحديث فيه من الإيمان نسبة النعم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وشكره عليها. والنعم كلها صغيرها وكبيرها ظاهرها وباطنها إنما هي من فضل الله عَزَّوَجَلَّ على العباد: **﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[النحل:٥٣]**، **﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾[إبراهيم:٣٤]**.

أما الذين كانوا من الموصوفين بالكفر فهو أنهم نسبوا هذا الفضل ونسبوا هذه النعمة إلى غير الله جَلَّوَعَلَا، نسبوها إلى هذه الأنواء وإلى هذه النجوم والكواكب فاستحقوا أن يوصفوا بوصف الكفر.

والسؤال هنا: هل الكفر في الحديث كفر أكبر أم هو كفر أصغر؟

قال بعض أهل العلم: إنه يشمل الأكبر والأصغر، فمن قال هذا القول على أن النوء هو الذي أنزل المطر فذلك في حقه كفر أكبر.

وأما من كان يعتقد أن الله عَزَّوَجَلَّ هو المنزل للمطر ولكنه في قوله فقط نسب ذلك إلى النوء فهذا كفرٌ أصغر.

وقال بعض أهل العلم بل هذا الحديث إنما تناول أو إنما تعلق بالكفر الأصغر، فالوارد في الحديث إنما هو ما كان كفرا أصغر فقط، ولا يدخل في هذا الحديث ما إذا كانت النسبة نسبة إيجاب، نعم لا شك أنه كفر أكبر لكنه ليس المراد في الحديث وهذا الأقرب، والله تعالى أعلم.

وذلك لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر بهذا القول –كما في الحديث الذي مر بنا قريبا– أخبر أن هذا سيكون باقيًا في الأمة، ولاشك أن أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما يقع فيها غالبا ما هو من هذا الجنس.

أما ما كان من الشرك الأكبر والكفر الأكبر فإن هذا إن وقع فإنما يكون شاذا –أعني في نسبة المطر إلى النجوم– وأما الذي يقع كثيرًا فهو ما كان من هذا الجنس الذي هو شركُ وكفر أصغر، ناهيك عن أن لفظ الحديث لا يساعد على أن المراد هو الكفر الأكبر، وذلك أن الحديث مساقه مساق نسبة النعمة لا الإيجاد، بدليل أن الأولين ماذا قالوا؟

هل قال أمطرنا الله؟ أنزل الله علينا؟ إنما قالوا ماذا؟ مطرنا بفضل الله ورحمته.

والآخرون هل قالوا أمطرنا النوء؟ أنزل علينا النوء؟ لا، إنما قالوا: مطرنا بنوء كذا وكذا.

فدل هذا على أن المقام مقام نسبة للنعمة وليس مقام ذكر الموجد.

فدل أن هذا الحديث إنما تعلق بهذه الصورة، ولاشك أن نسبة النعم إلى غير الله عَزَّوَجَلَّ أن هذا من الكفر الأصغر والشرك الخفي في الألفاظ، وهذا ما سنفصله إن شاء الله عند الكلام عن باب قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[النحل:٨٣].

لا شك أن من جنس جحد نعمة الله سبحانه، ألا تنسب النعم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما تنسب إلى غيره ولو بمجرد القول.كما قال بعض السلف في تفسير الآية السالفة: كان البحر هادئا، وكان الملاح حاذقا، وما شاكل ذلك من هذه الألفاظ التي تكثر في كلام الناس مع الأسف الشديد.

الواجب أن تنسب النعم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالقلب وباللسان وبالجوارح، أما نسبتها إلى غير الله عَزَّوَجَلَّ فإن هذا لا شك أنه من جحود نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا انضاف إلى هذا أنه ما نسب إليه ليس بسبب أصلا، كان هذا سببا إضافيا لكونه شركا أصغر، لأنه اعتقد سببا ما لم يجعله الله سببا لا شرعا ولا قدرا.

وهذا الحديث فيه تنبيه على أمر مهم ينبغي أن نستفيده ألا وهو قول الإنسان -مجرد قول- مطرنا بمطر كذا وكذا مع اعتقاده أن الله عَزَّوَجَلَّ هو المنزل للمطر بقوته وبمشيئته جَلَّوَعَلَا ومع ذلك جاء وصف هذا القائل بأنه كافر، فكيف يكون الحال بشأن من استغاث بغير الله وصرف لب العبادة لغيره؟

أرأيتم لو أن هذا الإنسان قال يا أيتها الأنواء أغيثيني ما رأيكم أيكون كافرا؟ إذا كان مجرد قوله مطرنا بنوء كذا كفرا؛ إذا قال يا أيتها الأنواء أغيثيني، المدد المدد، ما رأيكم؟ أليس هذا أولى بالكفر؟

وماذا لو قال: يا سيدي فلان يا صاحب القبر أغثني، أليس هذا كفرا؟

ما الفرق بين الصيغة الأولى والصيغة الثانية؟ لا فرق.

فأين عقول القبوريين؟ أين هم عن هذا الوحي والنور المحمدي الذي جاء به النبي صَلَّى‌ٱللَّهُ‌عَلَيۡهِ‌وَسَلَّمَ من عند ربه، مجرد قول فيه نسبة نعمة إلى غير الله، لم يقم فيها الإنسان بواجب الأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ، كان واجب الأدب يقتضي منه أن ينسب النعمة إلى الله وَعَجَلَّ، فلم يفعل ونسبها إلى غيره بلفظه فقط فوصفه الله عَزَّوَجَلَّ بأنه كافر، ونقل هذا إلينا النبي صَلَّى‌ٱللَّهُ‌عَلَيۡهِ‌وَسَلَّمَ، فكيف بالذي صرف العبادة لغير الله أصلا؟

لا شك بأنه أولى بهذا الوصف، بل إن كفره أكبر وليس كفرا أصغر.

هناك وجه آخر أيضا يؤيد أن المقام يتعلق بنسبة النعم وشكرها وليس إيجادها وهو ما سيأتي في سبب نزول قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[الواقعة:٨٢]، والذي سيأتي إن شاء الله معنا في أثر ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، فإن فيه أن الناس بعد أن نزل مطر قال الله عَزَّوَجَلَّ: «أصبح عبادي شاكر وكافر»، فلاحظ هنا أنه ذكر الشكر فدل هذا على أن المقام مقام الشكر وليس مقام نسبة الإيجاد، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهما من حديث ابن عباس معناه، وفيه: قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآيات:﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[الواقعة:٧٥] إلى قوله: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾[الواقعة: ٨٢].

هذا الأثر نسبه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الشيخين والصحيح أنه ليس في البخاري وإنما في مسلم فقط، وفيه بيان سبب نزول هذه الآيات من سورة الواقعة، وذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ لما نزل مطر فانقسم الناس، قال بعضهم مطرنا بفضل الله، وقال آخرون: صدق نوء كذا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: «أصبح من عبادي شاكر وكافر»، فنزلت هذه الآيات؛ وتفسير هذه الآيات يطول به المقام، وقد جرت عادتنا على أننا نعلق على ما يتعلق بالباب فقط ويهمنا هنا أن نعرف تفسير آيتين من هذه الآيات:

الأولى قول الله تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾[الواقعة:٧٥].

اختلف العلماء اختلافا طويلا في هذه الصلة ﴿لا أقسم﴾ وهذا قد تكرر كثيرا في القرآن، والأقرب والله أعلم أن (لا) ها هنا صفة تفيد التوكيد، والتوكيد ههنا هو بالتكرار، فإن هذه اللفظة (لا) تقوم مقام تكرار الكلام، كأنه قال في غير القرآن أقسم بمواقع النجوم .. أقسم بمواقع النجوم، ولا شك أن التكرار يفيد التوكيد.

لعل هذا أقرب ما يقال في ذلك.

﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾[الواقعة:٧٥].

اختلف المفسرون في مواقع النجوم إلى أقوال:

فمنهم من قال: أن مواقع النجوم انتثارها يوم القيامة.

وقيل: إن مواقع النجوم منازلها -على ما مضى شرحه وبيانه-.

وقيل: إن مواقع النجوم يعني مطالعها ومغاربها عنى الله بذلك مطالعها ومغاربها.

الشاهد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أقسم بمواقع النجوم -وهذا هو التفسير الأقرب- أن النجوم هي نجوم السماء، وهذا الذي عليه أكثر المفسرين، بل أن القول الصحيح الذي لاشك فيه لدِلالة سبب النزول.

وقال بعض أهل العلم: إن النجوم ها هنا نجوم القرآن.

والمراد بنجوم القرآن: آجال نزوله، تعلمون أن القرآن ما نزل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دفعة واحدة، إنما نزل منجما، فرقه الله عَزَّوَجَلَّ لحكمة بالغة ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾[الإسراء:١٠٦].

فأقسم الله عَزَّوَجَلَّ بنجوم القرآن، يعني آجال نزوله، فإنه نزل شيء بعد شيء، وهذا له حكمة بالغة أرادها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأحبها.

المقصود أن القول الأول هو الأقرب.

وبالتالي فمواقع النجوم:

إما أن يقال إنها منازلها.

وإما أن يقال إنها مطالعها ومغاربها وهذا هو الأقرب.

وقيل إن ذلك انتثارها يوم القيامة.

والله عَزَّوَجَلَّ له أن يقسم بما يشاء من خلقه، وإقسامه بشيء من خلقه فيه تفخيم وتعظيم هذا المخلوق.

أما المخلوق فهو ليس له إلا أن يقسم إلا بالله جَلَّ وَعَلَا، وهذا -أعني القسم والحلف بغير الله جَلَّ وَعَلَا- منكر يجب على المسلم أن يتوب إلى الله منه وأن ينكره من غيره لأنه من الشرك، إذا قال: وحياتك أو والكعبة، أو قال: والنبي، لا شك أن هذا من المنكر الذي يجب أن يتقي الله المسلم في نفسه وأن يتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ منه. قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت»، قال عليه الصلاة والسلام «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»**.

أما الآية الثانية التي تهمنا هنا فهي آخر السياق الذي أراد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ الاستدلال به وهو ما مر بنا في أول الباب: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾[الواقعة:٨٢].

اختلف المفسرون في تفسير قول الله جَلَّ وَعَلَا﴿رزقكم﴾.

فقيل: إن الرزق ههنا هو القرآن لأنه فضل من الله ونعمة، وإذن فسرنا النجوم أولا بنجوم القرآن.

والقول الثاني: هو أن الرزق هو ما يتفضل الله به عَزَّوَجَلَّ به، ومن ذلك المطر، وهو ما يشهد له سبب نزول الآية.

ومعنى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾[الواقعة:٨٢]:

اختلف العلماء في هذه الكلمة هل المراد بالرزق ههنا الشكر أو أن ها هنا حذفا؟

قال بعض أهل العلم: إن ههنا حذفا وهو المضاف: **وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون**، وأكثر المفسرين على هذا.

وقيل: الرزق ها هنا لا حاجة لإضمار شيء قبله، إنما هو تجعلون رزقكم يعني تجعلون الرزق الذي رزقتموه منسوبا إلى غير الله جَلَّوَعَلَا وهذا المراد بقوله: ﴿أنكم تكذبون﴾، فدل هذا على أن نسبة المطر إلى الأنواء نسبة كاذبة وافتراء ليس بصادق، إنما الصدق والحق والإيمان أن تنسب الرزق وتنسب الأمطار إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وقيل: إن الرزق ها هنا هو الحظ والنصيب، وهذا الذي قاله الحسن رَحِمَهُٱللَّهُ: تجعلون حظكم ونصيبكم من نعمة الله عَزَّوَجَلَّ ورزقه أنكم تكذبون بها فتنسبونها إلى غيره.

والخلاصة: أيها الكرام أن الواجب في شأن الأمطار كما هو الواجب في نعم الله جَلَّوَعَلَا أن تنسب إلى الله سبحانه، وأن يشكر هو وحده عليها، وهذا مع الأسف الشديد قد وقع في خلافه كثير من الناس.

اليوم تسمع على ألسن كثير من الناس نسبة المطر إلى المرتفعات الجوية والمنخفضات الجوية والكتل الباردة وما شاكل ذلك، ولا تكاد تسمع نسبة ذلك إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وهذا لا شك أنه داخل في هذا المعنى الذي نتحدث عنه، لا تجوز هذه النسبة، الواجب أن تنسب النعم إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ولا إشكال في أن يقال أن ذلك راجع إلى سبب، فالشريعة كما ذكرنا لا تعارض أمرا واقعا، والله عَزَّوَجَلَّ قد يخلق الأشياء بأسبابها، لكن المهم والمقدم هو أنه تنسب هذه النعم أولا إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

بقيت مسألة أخيرة: وهي حكم من قال: مطرنا بنوء كذا، ومراده في نوء كذا بمعنى أنه يريد أن يذكر الظرفية أن يذكر الظرف الذي كان فيه نزول المطر، هل يجوز أن يقول هذا أم لا؟

الباء قد تأتي ظرفية كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ﴾[الصافات:١٣٧-١٣٨]، يعني وفي الليل، فالباء قد تأتي ظرفية؛ فمن ها هنا قال بعض أهل العلم وهذا نص الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((الأم)):

أن القائل لو قال: مطرنا بنوء كذا وأراد في نوء كذا، قال إن هذا ليس بكفر، وغيره من الكلام أحب إلي.

يرى رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا اللفظ ليس ما جاء في الأدلة من الذم والتحذير ووصف هذا بأنه كفر، لكنه يرى أن استعمال غير ذلك من الألفاظ أولى وأحرى.

والتحقيق في هذه المسألة والله تعالى أعلم أن يقال:

إنَّ اللفظ بقرائن الأحوال إذا دل على احتمال هذا اللفظ لهذا المعنى فإنه لا شك أنه لا يكون كفرًا.

إذا دل اللفظ مع قرائن الأحوال على أن هذه النسبة نسبة ظرفية يعني: أن الباء نسبة ظرفية فإن هذا لا شك لا يكون كفرًا.

ولكن مع ذلك ينبغي أن يُوجه القائل إلى ترك استعمال اللفظ الذي فيه إيهام، فنقول له إذا قال مطرنا بنوء كذا ماذا تريد؟ قال أريد أننا مطرنا في نوء كذا يعني مطرنا في الوقت الذي ناء فيه هذا النجم أو ظهر فيه هذا النجم أنا فقط أقول إن هذا هو الوقت الذي مطرنا فيه. فنقول: لا بأس، المعنى الذي أردته صحيح، لكن الأولى بك أن تتكلم بلفظ ليس فيه أدنى التباس، فقل: مطرنا في نوء كذا وينتهي الإشكال.

وهذه قاعدة يا أيها الأخوة أن الألفاظ التي تستعمل استعمالا باطلا وقد تستعمل استعمالا صحيحا ينبغي النصيحة والتوجيه بترك استعمالها أخذا بالثقة وعملا بالاحتياط، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»**.

الخلاصة التي نريد أن نصل إليها أن نسبة الأمطار إلى الأنواء والكواكب والنجوم وما إلى ذلك تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن تكون النسبة نسبة إيجاد، فهذا لا شك أنه كفر أكبر.

[القسم الثاني]: أن تكون النسبة نسبة نعمة إلى غير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والباء باء السببية، فهذا كفر أصغر وشرك خفي على ما جاء في الأدلة، إذا ما اعتقد أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي أنزل [المطر].

[القسم الثالث]: أن يكون مراده الظرف يعني أن تكون الباء ههنا ظرفية فنقول إن هذا ليس بكفر أكبر ولا أصغر، لكن الأولى استعمال اللفظ الذي لا لبس فيه فقل: مطرنا في نوء كذا وكذا، والله عَزَّوَجَلَّ أعلم.

٤٥

٤٥- باب قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً﴾ الآية.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ

باب

قول الله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾

[البقرة:١٦٥] الآية.

فإنّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ انتقل من هذا الباب إلى الكلام عن أهم العبادات القلبية التي لا يكون التوحيد إلا بها، وبدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالكلام عن عبودية المحبة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمحبة لا تُعَرَّفُ بأكثر من لفظها؛ لأن المعاني الكلية معلومة بالبداهة ولا يزيدها التعريف إلا غموضا، محبة الله عَزَّوَجَلَّ هي لب العبودية وروح الإيمان وساق شجرة الإسلام وأعلى مراتب الإحسان، وهي أساس كل خير وكل نعيم في الدنيا والآخرة، فهو من ثمرات هذه المحبة محبة الله جَلَّ وَعَلَا حقيقة العبادة، فإنّ الإله هو المعبود عن محبة وخضوع وتعظيم.

أَلَه أو أَلِه يأله أُلوهةً وإلهية بمعنى: عبد، وذل، وخضع محبةً وتعظيمًا، فالدين كله راجع إلى هذا الأصل العظيم ألا وهو محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وإذا فهمت هذا فهمت السبب الذي لأجله قال خليل الرحمن عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما أفل الكوكب: ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾[الأنعام:٧٦]، لم يقل لا أعبد أو لا أخاف أو لا أرجو الآفلين، قال لا أحب الآفلين، لأنّ المحبة هي لب العبودية، ولما أفل الكوكب كان هذا دليلاً على أنه ليس ربًا، وبالتالي لا يكون إلهاً ولا معبودًا، فهو لا يستحق أن يُعبد وبالتالي قال لا أحب الآفلين.

وهذا المقام العظيم كان نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسأل الله ربه أن يبلِغه إياه، فكان من دعائه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك وحب العمل الذي يقربني إلى حبك**».

والمحبة في الجملة من حيث هي تنقسم إلى قسمين:

[القسم الأول]: محبة مشتركة.

[القسم الثاني] : محبة خاصة.

أما المحبة المشتركة فيمكن أن نجعلها في ثلاثة [أنواع]:

[النوع] الأول: المحبة الطبيعية:

وهي محبة ما يميل إليه الإنسان بحكم الطبع من مطعومٍ أو مشروبٍ أو زوجٍ أو ما شاكل ذلك، وهذا أمرٌ لا محظور فيه، وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب الحلواء والعسل، ويحب الشراب الحلو البارد، ويحب الدُّبَاء، ويحب من الثياب ما كان أبيضًا، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**حُبِّب إليَّ من دنياكم الطيب والنساء**».

النوع الثاني: محبة الإجلال والإشفاق.

محبة الإجلال؛ كمحبة الولد لوالده، ومحبة الإشفاق؛ كمحبة الوالد لولده.

النوع الثالث: محبة الأنس وذلك كمحبة الإنسان لأُلّفٍ يألفه وزميل يزامله في دارٍ أو عملٍ أو سفرٍ أو ما شاكل ذلك.

هذه المحبة المشتركة يعتورها الأحكام التكليفية الثلاثة:

١/ الاستحباب.

٢/ الإباحة.

٣/ التحريم.

أما كونها مباحة فإنّ ذلك مشروطٌ بثلاثة شروط:

[الشرط الأول]: أن تكون هذه المحبة مأذونا بها شرعًا، بمعنى أن يكون هذا المحبوب قد أذن الله وأباح محبته، وبالتالي فإنّ ما حرم الله عَزَّوَجَلَّ لا تجوز محبته، كمحبة الخمر ومحبة الخنزير ومحبة الفاحشة وما إلى ذلك.

[الشرط] الثاني: ألا تكون هذه المحبة مشغلة عما يحبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يجب أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ وما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ هو المقدم، وبالتالي فهذه المحبوبات والتي يهواها الإنسان لا يجوز أن تبلغ إلى أن تُشغل الإنسان عن محبوب الله جَلَّ وَعَلَا.

[الشرط] الثالث: ألا تبلغ هذه المحبة إلى أن تكون مساوية لمحبة الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن الذي يجب كما سيأتي بيانه إن شاء الله أن يكون الله ورسوله أحب إلى المرء من كل ما سواهما.

إذن هذه هي المحبة المشتركة وهذا الحكم حين يكون الإباحة.

أما إذا كانت هذه المحبة غير مأذون فيها.

أو أشغلت عما يحبه الله.

أو بالغ الإنسان فيها حتى وصلت إلى أن تكون في مصافّ محبة الله ورسوله، **فإنها حينئذ تنتقل إلى أن تكون محبة محرمة.**

أما إذا استعمل الإنسان هذه المحبوبات وطوعها لأجل أن تكون سببًا لنيل محبة الله جل وعلا فأحبها لأنها تبلغه إلى محبة الله **كانت في حقه مستحبة.**

إذا كان يحب الطعام لأجل أنه سوف يقوى به جسده ليقوى على طاعة الله جل وعلا كانت هذه المحبة في حقه مستحبة وهكذا.

إذن هذا هو القسم الأول وهو المحبة المشتركة.

أما القسم الثاني: فهو المحبة الخاصة: هذه المحبة هي محبة العبودية، محبة العبودية هي: المحبة التي تقتضى تمام الذل والخضوع وكمال الطاعة والإيثار على الغير، هذه المحبة اختص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها ولا يجوز أن تُصرف لغيره، ولا يجوز أن يشركه فيها غيره، ولذا قلنا هذه هي المحبة الخاصة يعني التي يختص الله عَزَّوَجَلَّ بها، وهي التي أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيانها والكلام عنها حينما عقد هذا الباب، وهذا هو لب العبودية كما ذكرت لك وأساس الدين، وما أُسست عليه هذه الملَة والدِّين كله إنما هو مراد لتحقيق هذه المحبة لله سبحانه لا شريك له فيها.

هذه المحبة ضلَ فيها أناس أخطأوا فيما يتعلق بمحبة الله جَلَّوَعَلَا:

ممن أخطأ في هذا الباب:

أناسٌ نفوها؛ كبعض ضلال المتكلمين الذين نفوا أن يحب العبد ربه جَلَّوَعَلَا، وقالوا إنما تكون المحبة للثواب أو النعمة التي يمن الله عَزَّوَجَلَّ بها.

أما أن يكون هو سبحانه محبوبًا لعبد من عبده فإنّ هذا لا يصح، وهذا كان منهم لضلال في عقولهم وقسوة في قلوبهم.

يا لله العجب! كيف حُرم هؤلاء أعظم ما جاء به هذا الدين وأعظم لذة يلتذ بها المؤمن، فإن القلوب لا تطمئن إلا بمحبة الله في الدنيا، ولا تقرُّ أعينها إلا برؤية الله عَزَّوَجَلَّ في الآخرة.

ممن ضلَّ في هذا الباب أيضًا:

أُناس أخرجتهم رعونتهم وعدم انضباطهم بضوابط الشرع، أخرجتهم إلى دعاوى تُنافي الأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ، بل تُنافي مقام العبودية، فإن من ضُلاّل أهل البدع من كان يزعم أنه لأنه يحب الله عَزَّوَجَلَّ فالله عَزَّوَجَلَّ يحبه، وبالتالي فإنه تنحل عنه التكاليف، وبالتالي فإنه لا تضره الذنوب لأنه يحب الله وكان حبيبا لله، وهؤلاء فيهم شبهةٌ من أهل الكتاب الذين قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه.

أما الصنف الثالث فهم الذين جاء ذكرهم في هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾[البقرة:١٦٥]، هؤلاء هم الذين أشركوا مع الله عَزَّوَجَلَّ في هذه المحبة الخاصة، هؤلاء الذين أحبوا معبوداتهم كحب الله جَلَّوَعَلَا، بل ربما أحبوهم أعظمُ من محبة الله، ولا شك أنّ هذا حال المشركين أجمعين قديمًا وحديثًا فإنهم ما توجهوا بالعبادة لمعبوداتهم إلَا لأنَّ هذه المعبودات أضحت في قلوبهم في مصافِّ ربنا جَلَّوَعَلَا من حيث المحبة ولذلك فإنهم تمسكوا بهذه المعبودات أشد التمسك، حتى إنهم هانَ عليهم أن تُضرب رقابهم وأن تُسال دمائهم في سبيل تمسكهم بعبوديتهم لهذه المعبودات.

ومن علامات أن هؤلاء أشركوا في هذه المحبة مع الله جل وعلا بل ربما غلبت هذه المحبة التي صرفوها للمعبودات محبة الله؛ أنك تجد أحدهم يغار على حرمة من يعبد أعظم مما يغار على حرمة الله جَلَّوَعَلَا، بل ربما انتفض وأجلب بخيله ورجله إذا تعدى أحد على جناب السيد أو الولي الذي يعبده، بينما تراه لا يُحرك ساكنًا إذا انتهكت محارم الله جَلَّوَعَلَا.

من علامات هذه الشَركِة في المحبة، بل ربما تقدُم محبة الأولياء والمعبودون عند هؤلاء على محبة الله، أنك تجد أحدهم يسهل عليه أن يحلف بالله كاذبا، لكنه لا يجرؤ على أن يحلف بمعبوده كاذبًا، وهذا دليل على أنّ هذه المحبة قد بلغت في قلبه مبلغًا عظيما حتى وقعوا في صميم الشرك –والعياذ بالله– بسبب ذلك.

إذن هؤلاء الذين أُريد بيان حالهم في هذا الباب.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾[البقرة:١٦٥] هؤلاء هم المشركون طائفة من البشر ضلوا الطريق، عموا عن الهدى، فكان من شأنهم أنهم يجعلون لله أندادًا يعني: مثلاء ونظراء يحبونهم كحب الله.

اختلف أهل التفسير في هذه الآية: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾[البقرة:١٦٥]:

[الوجه الأول]: فمنهم من قال: يحبون -يعني هؤلاء المشركون- يحبون آلهتهم كما يحبون الله، محبة آلهتهم في نفوسهم تُضارع محبة الله.

والوجه الثاني: أن هؤلاء المشركين يحبون آلهتهم كحب المؤمنين لله.

والوجه الأول أولى ولا شك.

ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾[البقرة:١٦٥].

كذلك اختلف العلماء في هذا القدر من الآية، واختلافهم هاهنا مبني على اختلافهم في الشطر الأول، والصوابُ:

أنّ معنى الآية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من محبة المشركين لله، وهذا هو الأقرب.

وقيل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾من محبة المشركين لآلهتهم والصواب كما ذكرت لك الأول.

إذن هؤلاء المشركون يحبون الله، وبالتالي فإنهم تصدر منهم عبوديات لله جَلَّوَعَلَا، لا يظنّن ظانٌ أن المشركين الذين بُعث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيهم وقاتلهم وكفرهم، لا يظنَّن ظانٌ أنهم ما كانوا يعرفون الله، أو أنهم ما كانوا يعبدونه، كلا.

بل كانوا يصلون، وكانوا يحجون، وكانوا يتصدقون، وكانوا يطوفون، وكانوا يذبحون، كانوا يتقربون إلى الله عَزَّوَجَلَّ بأنواع القُرب، ولكن كان شركهم من جهة أنهم أحبوا غير الله كمحبة الله، ساووا بين الله عَزَّوَجَلَّ ومعبوداتهم، لا والله ما ساووهم بالخلق والرزق والتدبير، إنما ساووهم بالمحبة والإجلال والخوف والتعظيم.

ولذلك يقولون يوم القيامة: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:٩٧-٩٨]، هكذا يخاطبون معبوداتهم التي أشركوها مع الله جَلَّوَعَلَا.

إذن هؤلاء المشركين كانوا يحبون الله جَلَّ وَعَلَا لكن هذه المحبة ما نفعتهم، لم؟ لإشراكهم، ولذلك سِيّان في الحكم ألا يحب الإنسان الله جَلَّ وَعَلَا أو أن يحبه ويحب غيره معه كمحبته، كل ذلك لا ينفع الإنسان، وكل ذلك كفر بالله جَلَّ وَعَلَا.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾[البقرة:١٦٥]، كيف لا يكون ذلك ومحبة المؤمنين محبة خالصة.

أما محبة المشركين فإنها محبة مدخولة، ولذلك فإنّ المعبودات والآلهة أخذت حصة من هذه المحبة فكانت ضعيفة.

أما محبة أهل الإيمان فإنها محبة كاملة توجهت إلى محبوب واحد وهو الله جَلَّ وَعَلَا فكانت المحبة الخالصة أقوى من المحبة المشتركة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾[التوبة:٢٤]، إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[التوبة:٢٤]. الآية.

المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورد في هذا الباب آيتين وحديثين مرفوعين كلاهما من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأورد أثرين عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا:

الآية الأولى آية البقرة وسبق الحديث عنها.

أما الآية الثانية فهي آية التوبة: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾[التوبة:٢٤]، يعني حصلتموها واكتسبتموها: ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾[التوبة:٢٤]، ثمانية أشياء ذكرها الله جَلَّ وَعَلَا لأنها أحب ما يكون للإنسان، ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[التوبة:٢٤].

هذه الآية نزلت في حق أناس من المسلمين أسلموا ولم يهاجروا؛ لأجل تعلقهم بواحد أو أكثر من هذه الأمور الثمانية المذكورة، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ هذه الآية في عتابهم: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾[التوبة:٢٤]، لما لم يقدموا ما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ على ما تحبه أنفسهم وما تهواه قلوبهم أتاهم هذا الوعيد، ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾[التوبة:٢٤] يعني:

انتظروا عقوبة الله عَزَّوَجَلَّ التي تحل بكم؛ دل هذا على أنّ المحبة لا تكون صادقة إلا إذا كان عليها برهان، هذه الآية محنة كما كانت الآية الأخرى التي هي شقيقتها محنة.

هذه الآية نظير الآية الأخرى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[آل عمران: ٣١].

إذن هذان برهانان على صدق المحبة لله جَلَّوَعَلَا، من كان مدعيا لمحبة الله، فإنه مطالب بأن يأتي بالدليل عليها.

والدليل أمران:

الأول: تقديم ما يحبه الله جَلَّوَعَلَا على ما تحبه نفسه ويهواه قلبه.

والدليل الثاني صدق الاتباع للنبي محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

أما محبة تخلوا من هذين فإنها دعوى لا ترقى لأن تكون محبة صادقة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾[آل عمران: ٣١].

إذن لابد من موافقة الله عَجَّلَ فيما يحب؛ وهذا الذي يدركه العقلاء جميعا، الناس لا تعرف محبة إلا يتبعها طاعة للمحبوب وموافقة له وإلا فإنها غير مقبولة.

تعص الإله وأنت تزعم حبه ... هذا لعمرى في القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته ... إنّ المحب لمن يحب مطيع

****

ومن لو نهانيَ من حبه ... عن الماء عطشان لم أشرب

****

قالت: لطيف خيالٍ زارني ومضى ... بالله صفه ولا تنقص ولا تزد
فقال: خلفته لو مات من ظمأٍ ... وقلت: قف عن ورود الماء لم يرد
قالت: صدقت الوفا في الحب شيمته ... يا برد ذاك الذي قالت على كبدي

الناس لا تعرف المحبة إلا وعليها دليل وبرهان، وهو موافقة المحبوب وطاعته، وإلا فإنها محبة كاذبة أو محبة مدخولة ضعيفة.

إذن علامة الحب الصادق لله جَلَّوَعَلَا طاعة الله وطاعة رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وبالتالي من كان دائماً وأبداً في كل مقام يقدم ما تهواه نفسه على ما يحبه الله، دائمًا إذا تعارض عنده الأمران قدم محبة ما يحب على محبة ما يحب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهذا لا يكون مسلمًا، هذا يكون مشركًا.

أما الذي يكون تارةً وتارة، تارةً يقدم ما يحبه الله وتارةً يقدم ما تحبه نفسه فهذا يكون عاصيًا.

أما المؤمن كامل الإيمان الذي أتى بالقدر الواجب الذي لا تبرأ الهمة إلا به، فهو الذي يقدم دائما ما يحبه الله جَلَّوَعَلَا على ما تحبه نفسه عند التعارض؛ هذا ما بينته هذه الآية.

هذه الآية ليست تنفى محبة الإنسان لهذه الأمور محبة طبيعية، إنما تنهى وتأمر المؤمن بأن ينأى بنفسه عن أن يكون مُقَدِّمًا لما يحب على ما يحبه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، يجب أن يكون المقدَّمُ دائمًا ما يحبه الله وليس ما يحبه الإنسان.

ولذلك المحبة من حيث أحكامها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

محبة نافعة.

ومحبة ضارة.

ومحبة بين هذين.

أما المحبة النافعة تنقسم إلى ما يأتي:

أولاً: محبة الله.

وثانياً: المحبة في الله.

وثالثاً: محبة ما يحبه الله وما يقرب إلى محبة الله.

هذه المحبة النافعة.

أما المحبة الضارة فإنها:

أولا: المحبة مع الله.

وثانيا: محبة ما يبغضه الله.

وثالثاً: المحبة التي تُشْغِلُ عما يحبه الله.

إذن لو تأملت محاب الناس النافعة والضارة لوجدتها تدور على هذه المحابّ الستة.

أما التي بين هذين النوعين فهي المحبة الجائزة المباحة، وهي التي مضى الحديث فيها وقلنا إنها المحبة المشتركة، فهذه الأصل فيها كما ذكرنا الجواز، وقد تكون مستحبة، وقد تكون محرمة على ما مضى بيانه، والله عَزَّوَجَلَّ أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن أنس؛ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين». أخرجاه.

هذا الحديث رواه أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ومخرّج في الصحيحين، وجاء معناه أيضا عند البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده**».

هذا الحديث دليل على وجوب محبة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، على وجوب أن تعظم محبة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى تكون أعظم المحابّ على الإطلاق إلا محبة الله، ولا يكون الإنسان محققا للإيمان الواجب إلا بذلك، فإنّ نفي الإيمان في أمر دليل على أنّ متعلقهُ من الأمر الواجب، وبالتالي فإنّ التقصير في ذلك أمر محرم لا يُنفى الإيمان إلا في ترك شيءٍ واجب «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**».

ولاحظ أنه قال: «**أحب**» إذًا المحبة ما يحبه الإنسان طبعا أمر جائز مأذون فيه بشرط أن يكون دون محبة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وها هنا سؤال: هذا الباب معقود للكلام عن محبة الله، فما بال الشيخ قد أتى بحديث يتعلق بمحبة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

والجواب: أنّ في هذا نكتتين:

الأولى للدلالة على أن محبة الله عَزَّوَجَلَّ تقتضي محبة ما يحب، ومن ذلك محبة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنّ الله يحبه عليه الصلاة والسلام، بل إنّ الله جل وعلا قد اتخذه خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، والخلة أرفع من أصل المحبة، أرفع وأعلى درجات المحبة هي الخلة، وهذه التي اختص الله جَلَّ وَعَلَا بها الخليلين إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم.

ونكتة ثانية: أنه إذا كانت محبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجب أن تعظم في القلب إلى هذا القدر، أن يكون هو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أعظم في القلب محبة من أعظم المحبوبات التي هي محبة الوالد، والولد والناس أجمعين، فكيف بمحبة الله جَلَّ وَعَلَا؟ يجب أن تكون في القلب أعظم من ذلك وأعظم، أليس كذلك؟

إذن هذا فيه من دلالة التنبيه على ضرورة تعظيم محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في النفوس.

إذن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واجب على أمته أن يكون أعظم محبوب من البشر على الإطلاق، حتى أن يكون أحب من الوالد الذي هو سبب الحياة، ومن الولد الذي هو قطعة من الفؤاد، ومن الناس أجمعين، بل حتى أن يكون أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه وهذا ما جاء دخوله في قوله: **«والناس أجمعين»**.

فالناس: عموم، وأجمعين: عموم، ويدخل في ذلك نفسه التي بين جنبيه، وهذا ما جاء التنصيص عليه في ((صحيح البخاري)) من حديث عبدالله بن هشام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: **«كنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو آخذ بيد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال عمر: والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل أحد إلا من نفسي. قال: والذي نفسي بيده** –انظر إلى هذا القسم من لدن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– والذي نفسي بيده **حتى أكون أحب إليك من نفسك. قال: فوالله لأنت الآن أحب إلي من نفسي. قال: الآن يا عمر»** يعني الآن بلغت درجة الإيمان الواجب.

إذن هكذا يجب أن يكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قلوب المؤمنين أجمعين، والشأن كما ذكرت لك سابقا أن يكون على المحبة دليل وبرهان، ومن علامات محبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشوق إلى لقائه ورؤيته، ومر بنا ما جاء في ((صحيح مسلم)) قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إن من أشد الناس حبا لي قوم يأتون من بعدى ما رأوني، ودوا لو رأوني بأهلهم ومالهم»**.

- من علامات محبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسارعة إلى طاعته والدقة في اتباعه.
- من علامات محبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تقديم سنته وحديثه وأمره على كل ذوق وعرف وعادة وعقل وهوى.

▪من علامات محبة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن تطرح الآراء أمام حكمه وقوله عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

▪من علامات محبة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الوقوف عند سنته وعدم الزيادة عليها وعدم الإحداث في شريعته.

▪من علامات محبة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الدفاع عنه والسعي في نشر سنته عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

▪من علامات محبة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كثرة الصلاة والسلام عليه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ فإن من أحب شيئا أكثر من ذكره.

هذه نبذة تتعلق بمحبة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وهذا كما علمنا فرع عن محبة ربنا جَلَّوَعَلَا.

كيف لا يُحب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هذه المحبة العظيمة والله جل وعلا يحبه أعظم محبة؟

كيف لا يُحب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وقد أمرنا الله بمحبته كما في هذا الحديث؟

كيف لا يُحب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وهو الذي أحسن إلينا بفضل الله جَلَّوَعَلَا أعظم إحسان: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[آل عمران:١٦٤].

كيف لا يُحب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وهو الذي قد جمع الكمال البشري في خَلقه وخُلقه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، فإنّ له الكمال في سجاياه وفى خلاله وفى صفاته عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ والنفوس السوية مجبولة على حب الكمال؟

إذن لهذا وغيره يجب وجوبا أن يُحب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أعظم محبةٍ يتصورها الإنسان، إلا محبة الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فإنها يجب أن تكون في القلوب أعظم.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ:

ولهما عنه قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار».

لهما يعني: للشيخين البخاري ومسلم، عنه يعني: عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

هذا حديث عظيم فيه بيان كيف تحقيق المحبة الصادقة، قال أهل العلم المحبة الصادقة التي تكون لله جَلَّوَعَلَا لا تتم إلا بتكميلها وتفريعها ودفع ضدها. انتبه.

لا تُحَصِّل في قلبك المحبة التي أمر الله عَزَّوَجَلَّ بها والتي هي قدر واجب لا يكون الإيمان الواجب إلا به إلا باكتمال هذه الأمور الثلاثة وهي التي جاء التنصيص عليها في الحديث.

أولا: تكميلها، بمعنى: أن يكون الله ورسوله أحب إلى المرء مما سواهما، ولاحظ أنه قال: (مما سواهما) ليفيد التعميم، فيجب أن يكون الله ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أحب إليه من كل شيء على الإطلاق كما مضى بيانه.

ثانيا: تفريعها، بمعنى: أن يأتي بما يتفرع ويلزم على محبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ومن ذلك المحبة في الله ولله ولأجل الله، وهذا ما جاء التنصيص عليه في الحديث وأن يحب المرء ما يحبه إلا لله.

انتبه .. فثمة فروق من لم يتنبه إليها فإنه سيقع في خطأ عظيم.

فَرْقٌ بين محبة الله أصلاً والمحبة له فرعاً والمحبة معه شركاً.

كثير من الناس مع الأسف الشديد خلطوا بين هذه الأمور فأخطأوا خطأ عظيما، هذه المحبة التي جاءت في الأمر الثاني في هذا الحديث المحبة لأجل الله عَزَّوَجَلَّ وفى جَلَّوَعَلَا، وهذه المحبة فرع عن محبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لأننا كما قلنا إن المحبة الصادقة تستلزم موافقة المحبوب، والله جَلَّوَعَلَا يحب عباده المؤمنين، فمن يحبه عليه أن يحب هؤلاء المؤمنين؛ الله يحب الأنبياء، ويحب الملائكة، والله عَزَّوَجَلَّ يحب من كان مستقيما على طاعته، يحب التوابين، يحب المتطهرين، يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا، إلى آخر ما جاء في النصوص.

محبتك الصادقة لله تقتضى أن توافق الله فيما يحب، والمحبة في الله جَلَّوَعَلَا لها شأن وأي شأن، في ((صحيح مسلم)) عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أنّ الله تعالى ينادى يوم القيامة: أين المتحابين في جلالي، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي**».

في الصحيحين ذكر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ شأن السبعة الذين يظلهم الله ﷻ في ظله، ومنهم «**رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه**» قال الله جَلَّوَعَلَا في الحديث القدسي الصحيح: «**وجبت محبتي للمتحابين فيّ والمتآخين فيّ والمتزاورين في**

والمتجالسين فيّ» المحبة في الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يحب الإنسان أخاه لا لأمر دنيوي، لا لغرض مادي، إنما يحبه لأنه مستقيم على طاعة الله، فهو يحب فيه طاعته لله جَلَّوَعَلَا، وهذا دليل على صدق المحبة لله جَلَّوَعَلَا.

[ثالثًا]: دفع الضد وهذا ما جاء التنصيص عليه في قوله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ**«وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»** سِيّان عند المحب الصادق بين الكفر والوقوع في النار، كما أنه يكره هذا يكره هذا، كما أنه يمتنع عن هذا أشد الامتناع لِمَ؟ لأنّ المحب الصادق الذي أخلص محبته لله وأعظم محبته لله أنار الله عَزَّوَجَلَّ قلبه بالإيمان، فانكشفت أمامه محاسن الإسلام، وانكشفت أمامه قبائح ضده وهو الشرك والكفر، ولذلك فإنه كان أعظم ما يكون بغضا للكفر، وإذا كان مُبغضاً للكفر والشرك أبغض من قام به الكفر والشرك فإن من أبغض شيئا أبغض من اتصف به.

إذن أن يبغض الكفر ويبغض الكافرين وهذا من صميم ملازم محبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا يمكن أن يكون الإنسان مُحباً لمحبوبه ولعدوه معاً لا تتأتّى هذه المسألة.

إذا صافى صديقك من تعادي   فقد عاداك وانقطع الكلام

إذن الأمر كما قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ:

أتحب أعداء الحبيب وتدعي   حبا له ما ذاك في إمكان

لا يتأتى ذلك إن كنت صادقا في محبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فمن لوازم ذلك أن تكون مُبغضاً لضد ما يحبه الله جَلَّوَعَلَا، وأن تكون موافقا لمحبوبك فيما يبغضه، الله يبغض الكفر والكافرين إذن عليك أن تكون موافقا لربك سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيما يبغض، وهذا من أجل المهمات، أن توجه محبتك وبغضك في ضوء ما يحب الله عَزَّوَجَلَّ ويبغض، بل الله جَلَّوَعَلَا ما أعطاك هذا الشعور شعور المحبة الذي جعله في قلبك وقذفه في جبلتك إلا لأجل أن تحب ما يحب، كذلك الشأن في البغض، ما جعل فيك هذا الشعور إلا لأجل أن تُبغض ما يُبغض.

إذن المحبة في الله عَزَّوَجَلَّ والبغض في الله عَزَّوَجَلَّ هذا من صميم لوازم محبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي رواية: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى...» إلى آخره.

هذه الرواية عند البخاري فحسب، وفيها النفي المذكور لكنه أبلغ من الرواية التي قبله، لأن النفي في هذه الرواية كان من طريق المنطوق، والنفي فيما قبلها كان من طريق المفهوم ، والمنطوق لا شك أنه أقوى من المفهوم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: ((من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله؛ فإنما تُنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبدٌ طعم الإيمان -وإن كثرت صلاته وصومه - حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئا)). رواه ابن جرير.

هذا الأثر حسن الكلام، جزل الألفاظ، لطيف المعنى، لكنه ضعيف الإسناد، ففي إسناده ليث ابن أبي سليم وهو ضعيف، لكن معناه صحيح لا شك فيه، وقد جاء عند أبي داوود بإسناد حسن إن شاء الله قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان»** وهذا الأثر في معنى هذا الحديث.

والمقصود أنّ من التفريع على محبة الله جَلَّوَعَلَا أن يحب الإنسان في الله وأن يبغض في الله

وما الدين إلا الحب والبغض والولاء   كذاك البراء من كل غاو ومعتدي.

والنصوص التي جاءت في التنصيص على وجوب هذا الأمر كثيرة لا تخفى، ومن فقه ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وهذا ما أشار إليه المؤلف في المسائل فيه معرفة الصحابي بالواقع، صاحب رسول الله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ يعرف واقعه، لأنه يعيش فيه، ولأنه ينظر إلى أحواله نظر المستبصر، ذكر في آخر هذا الأثر أنه (قد صارت عامة مؤاخاة الناس في أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئا)، يعني: لا ينفع أهله شيئا مع الأسف الشديد.

هذه المحبة التي تبنى على غير الرباط الوثيق الذي هو المحبة في الله ولله لا تجدى على أهلها ولا تنفعهم شيئا، بل إنها تكون عليهم وبالاً عظيماً: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾[الزخرف:٦٧]، فدل هذا على أن كل محبة لم تبنى على هذا الأصل الأصيل العظيم فإنها لا تنفع صاحبها شيئا، ولأجل هذا على المسلم أن يتبصر، وأن يتنبأ وأن يعيد النظر في علاقاته وصداقاته ومزاملاته ومرافقاته لكي تبنى على أساس صحيح ينفع الإنسان في الدنيا، وينفع الإنسان في الآخرة، لا أنفع من المحبة في الله، ولا أضر من المحبة في غير الله.

ولاحظ كيف يصف ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الحال في وقته، وهذا يقارن فيه بين ما كان أو ما عاشه في آخر حياته وبين ما كان عليه الأمر في عهد الخلفاء الراشدين، فضلاً عما كان عليه الأمر في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سبحان الله! وقد صارت عامة مؤاخاة الناس في أمر الدنيا في ذلك الوقت، فكيف لو أدرك زماننا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ!

ماذا تظنون أنه يقول؟ فإنا لله وإنا إليه راجعون.

إذا كانت عامة مؤاخاة الناس في هذا الزمان الصالح فإن الأمر قد ازداد سوءاً مع الأسف الشديد في هذا الزمان المتأخر، صارت عامة مؤاخاة الناس في أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئا. الله المستعان.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾[البقرة:١٦٦]، قال: المودة.

هذه الآية في سورة البقرة: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾[البقرة:١٦٦].

الأسباب فسرها ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُماوكذلك جاء هذا التفسير عن مجاهد وقتادة أنها المودات.

وقيل: إن الأسباب ها هنا هي الأعمال أو القرابات.

والأقرب والله تعالى أعلم أنّ المودة تفسير بالمثال، وإلا في المعنى أعم كما قال ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ إنّ كل ما ذكر في تفسير هذه الآية صحيح، والمعنى الجامع أنه تقطعت كلُّ أسباب

العلاقات، فإنّ العلاقات بين الناس لا شك أنها لا تُبنى إلا بأسباب، قد تكون لمحبة، قد تكون لمصالح، قد تكون لقرابة، قد تكون لزمالة في عمل، وما إلى ذلك.

الشاهد أن الله جَلَّوَعَلَا بين في هذه الآية أن المودات والصلات التي كانت بين الناس ولم تُبنى على المحبة في الله عَزَّوَجَلَّ ولأجله سبحانه فإنها سوف تتقطع يوم القيامة وتضمحل وتتلاشى، بل تنقلب إلى عداوة وهذا ما بينه الله جَلَّوَعَلَا في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾[الزخرف:٦٧].

٤٦

٤٦- باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

(المجلس الأول)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب قول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥].

فلا يزال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوالي في الأبواب التي عقدها ببيان بعض العبادات القلبية التي هي من عِماد الإيمان، ومن صميم العلم بالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

مضى الكلام عن عبادة المحبة، وعطف الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عليها بعبادة الخوف من الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

الخوف من الله سبحانه عبادةٌ عظيمة، وركنٌ من أركان الإيمان القلبي، وركيزةٌ لسير العبد إلى ربه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

وقد أمر الله جَلَّ وَعَلَا بخوفه جَلَّ وَعَلَا أن يخافه عباده، كما قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾[آل عمران:١٧٥]، ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[النحل:٥١]، وأثنى الله جَلَّ وَعَلَا على القائمين بهذه العبادة: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن:٤٦]، ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[الأعراف:١٥٤]،والخوف من الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ شأنه عظيمٌ عند أهل الإيمان.

والخوف ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

مشروع.

وممنوع.

ومباح.

أما الخوف المشروع: فهو الخوف من الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، هذا الخوف خوف إجلالٍ وتعظيم؛ فالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ متصفٌ بصفاتٍ يقتضي العلم بها الخوف العظيم منه جَلَّ وَعَلَا، فالله متصفٌ بالعزة، والقدرة، والقوة، والجبروت، والغضب، والبُغض، والانتقام، وأمثال هذه من الصفات، وكلها إذا تأملت وجدت أنها تورث في القلب خوفًا عظيمًا من العظيم جَلَّ وَعَلَا.

وأعظم سببٍ للخوف من الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ هو العلم به، والقاعدة في هذا الباب:

أنه كلما عَظُم العلم بالله سبحانه فإنه يَعْظُم الخوف منه، كلما كان الإنسان أكثر علمًا بالله سبحانه لأسمائه، وصفاته، ونعوت جلاله، فإنه سيكون أكثر خوفًا من الله جَلَّ وَعَلَا؛ ولذلك قال ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كفى بخشية الله علمًا). ونادى أحد السائلين الشعبي رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال: أفتني أيها العالم، فقال: إن العالم من يخاف الله. وشاهد هذا في كتاب الله، قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر:٢٨]، ولذا كان نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جامعًا بين كمال العلم بالله عَزَّ وَجَلَّ وشدة الخوف منه سبحانه، ففي الصحيحين قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فوالله لأنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية».

وفي ((السُنة)) لابن أبي عاصم، والطبراني وغيرهما أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مررت ليلة أُسري بي بجبريلَ كالحلس البالي من خشية الله»، جبريل المَلَك المعظم، الذي أتاه الله عَزَّ وَجَلَّ من عظم الخلقة الشيء العظيم، ومع ذلك كان بسبب خشيته من الله جَلَّ وَعَلَا المبنية على علمه بالله سبحانه، قال: «كالحلس البالي من خشية الله»، الحلس: هذا الكساء الرقيق الذي يوضع على ظهر الدابة، ويوضع عليه السرج.

فكلما كان الإنسان أعلم بالله سبحانه، كلما كان أعظم خشيةٍ له جَلَّ وَعَلَا.

ومن أسباب الخوف أيضًا من الجليل العظيم سبحانه: علم الإنسان بل يقينه بوعيد الله جَلَّ وَعَلَا، فإن الله سبحانه قد ذكر في كتابه، وهكذا نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد ذكروا أنواعًا من الوعيد الذي يطير له فؤاد المؤمن به، ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾[الزمر:١٦].

كيف لا يخاف المؤمن وهذا الوعيد ماثلٌ بين عينيه في كتاب الله، ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾[المزمل: ١٢-١٣].

ومن أسباب الخوف أيضًا: علم الإنسان بتقصيره في جنب الله جَلَّ وَعَلَا؛ فإن العبد مهما ظنَّ في نفسه الظنون، وأنه قد فعل وفعل، فإنه في جانب حق الله عليه لا شك أنه مُقَصِّرٌ تقصيرًا عظيمًا، بل لو أن الله جَلَّ وَعَلَا حاسبنا على الواجبات التي قمنا بها لكنا جديرين بالعقاب؛ لأننا ما وفيناها حقها من كمال الإخلاص، وصدق المراقبة، وتحسينها وفق هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الوجه المطلوب.

فكيف إذا انضاف إلى هذا ذنوبٌ وآثامٌ عِظام؟ فكيف إذا انضاف إلى هذا تقصيرٌ عظيم في أداء شكر الله جَلَّوَعَلَا على نعمه؟

إذًا لا مُعَول إلا على رحمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ومن أسباب الخوف من الله سبحانه: الآيات التي يخوف الله جَلَّوَعَلَا بها عباده؛ آياتٌ حسية يراها الناس يخوف الله بها من أراد بهم خيرًا، ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾**[الإسراء:٥٩]**، وفي ((الصحيحين)) قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، يخوف الله بهما عباده**».

إذًا هذه نبذةٌ من أسباب الخوف من الله جَلَّوَعَلَا.

ويتبعُ هذا الخوف تفاصيل راجعةٌ إلى هذا الأصل من تلك التفاصيل التي هي من أنواع الخوف المتفرعة عن الخوف من الله جَلَّوَعَلَا:

[أولاً]: الخوف من إثم السيئة؛ فإن الإنسان يخشى تبعات ما اجترحته يداه، يخاف من هذا الإثم الذي تحمله فوق ظهره، وفي ((الترمذي))، و((أحمد)) وغيرهما أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عاد شابًا من الأنصار وهو في سياق الموت، فقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**كيف تجدك؟ فقال: والله يا رسول الله إني لأرجو الله، وأخاف ذنوبي، فقال النبي** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **ما اجتمعا في قلب المؤمن في هذا الموطن إلا أتاه الله ما يرجو، وأمَّنه مما يخاف**».

ثانيًا: الخوف من الوقوع في السيئة؛ إما حالًا والمرء جاهل، أو مستقبلًا، ولذا فإن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علم صِديق الأمة دعاءً جليلًا، علمه أن يدعو الله سبحانه بهذا الدعاء: «**اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئًا وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**». قال ابن أبي مُليكة التابعي الجليل كما علقه الإمام البخاري رَحِمَهُٱللَّهُ في ((صحيحه)): قال: (**أدركت ثلاثين من أصحاب النبي** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **كلهم يخشى النفاق على نفسه**).

ثالثًا: الخوف من عدم قبول الحسنة؛ أهل الإيمان الصادق يعملون، ويجتهدون، ويبذلون قُصارى ما يستطيعون، ومع ذلك فإن قلوبهم تَرْجُف خوفًا من الله جَلَّوَعَلَا ألا تُقبل حسناتهم، وأن تُرد في وجوههم، هذا الخوف ليس ناشئًا من سوء ظنٍ بالله، حاشا، إنما ذلك لخوف التقصير في أداء الحسنة، وهذا ما جاء في قول الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا

وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[المؤمنون:٦٠]، فسر هذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرجل يصلي، ويصوم، ويتصدق، ويخشى ألا يُقبل منه.

رابعًا: **الخوف من سوء الخاتمة**؛ وهذا الخوف قصم ظهور الصالحين، فلا شيء كان يعظُم في نفوس المؤمنين من أمورٍ مستقبلة مثل سوء الخاتمة، وأن يحور الإنسان بعد كوره، وأن ينقلب على عقبيه -والعياذ بالله- في آخر لحظات حياته. هذا موضعٌ جليل، يخشى الإنسان أن يُخذل في تلك اللحظات الحاسمة التي يُختم له بها.

ومثل هذا الخوف -يا أيها الإخوان- إنما هو منزلةٌ مصاحبة للمؤمن، ليس هو منزلةً مؤقتة تكون في بُرهة، وفي وقتٍ من الأوقات ثم تنقضي، كلا الخوف من الله وما يتبع هذا الخوف يجب أن يكون منزلةً مصاحبةً للمؤمن من أول حياته إلى آخرها، هذا إذا أراد أن يسلم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذا هو الخوف المشروع، هذا هو العبادة التي يحبها الله جَلَّ وَعَلَا.

واعلم -يا عبد الله- أن هذا الخوف منضبطٌ عند أهل العلم بضابط؛ فلا يكون الخوف مشروعًا إلا به، ألا وهو: أن ينضم إليه الرجاء في الله، وإلا فإن الخوف المجرد ليس عبادة، بل هذا ولوجٌ إلى دهليزٍ مظلم، ألا وهو القنوط من رحمة الله جَلَّ وَعَلَا، ﴿إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[يوسف:٨٧]، ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾[الحجر:٥٦]، إنما يكون الخوف عبادةً صحيحةً مُثابًا عليها متى ما اجتمع إليها الرجاء، أمَّا خوفٌ مجرد فإنه لا ينفع صاحبه، وأما رجاءٌ مجرد فإنه لا ينفع صاحبه، إنما ينتفع الإنسان بخوفٍ مشوبٍ برجاء، ورجاءٍ مشوبٍ بخوف.

وهذا ما دلت عليه أدلة كثيرة؛ من ذلك ما أثنى الله عَزَّ وَجَلَّ به على عباده المؤمنين: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾[الإسراء:٥٧]، بل هذا ما مُقتضى ما أخبرنا به الله جَلَّ وَعَلَا عن نفسه في آيات كتابه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾[الحجر:٤٩، ٥٠]، ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾[غافر:٣].

إذًا لو تأملت في جملةٍ من النصوص وجدت أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجمع في وصف نفسه بين ما يقتضي اقتران العبادتين.

إذًا لا بد أن يكون خوف الإنسان خوفًا مشوبًا ومقترنًا برجاءٍ من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بحيث لو قُدِّر أنه قيل إن كل الناس سيدخلون الجنة إلا واحدًا لخاف أن يكون هو، ولو قُدِّر أن يقال إن كل الناس سيدخلون النار إلا واحدًا لرجى أن يكون هو.

إذًا لا بد من خوفٍ مع رجاء، ولابد من رجاءٍ مع خوف.

وهذا الموضوع موضوعٌ طويل، ويحتاج إلى تفصيل، لكن بما أننا وصلنا إليه فلابد من إثارة مسألةٍ يذكرها أهل العلم في هذا المقام؛ ألا وهي: مسألة تغليب أحد العبادتين على الأخرى، أو أن يكون الأمران متساويان. هذا موضع بحثٍ طويلٍ عند أهل العلم:

فمن أهل العلم:

من رجح أن يكون الخوف أغلب في القلب من الرجاء مطلقًا.

ومنهم من رجح أن يكون الرجاء في القلب هو الأغلب مطلقًا.

ومنهم من فصل؛ فرجح أن يكون الخوف هو الغالب في حال الصحة والسعة، وأما في حال المرض أو الشعور بدنو الموت فيُغَلَّب الرجاء على الخوف.

ومنهم من قال: المشروع أن يتساوى الأمران دائمًا في كل وقت؛ وهذا هو الأقرب، المشروع أن يكون الخوف والرجاء سواءً.

وفي هذا يقول مطرف بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لو وُزن خوف المؤمن ورجاؤه لكانا سواءً، لا يزيد أحدهما على الآخر).

ويشهد لهذا ما سبق من الأدلة، لاسيما ما جاء في حديث الشاب الذي قال للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وهو في سياق الموت، قال: **«والله إني لأرجو الله وأخاف ذنوبي»**، فدل هذا على أن هذا الرجل جمع في ذلك الموضع الذي هو عند دنو الأجل، جمع بين الخوف والرجاء، وكانا سواءً، وأقره النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على ذلك؛ بل إنه ذكر الوعد الذي سمعت: **«لا يجتمعان في قلبٍ مؤمن في هذا الموضع إلا أتاه الله ما يرجو وأمَنَّه مما يخاف»**.

لاسيما وأن غلبة أحد الأمرين على الآخر لا يُؤْمن معه الوقوع في أحد محظورين:

إما الأمن من مكر الله، وهذا إذا غلب الرجاء.

وإما القنوط من رحمة الله، وهذا إذا غلب الخوف.

لكن لاحظ -يا رعاك الله- أمرًا ألا وهو أن المشروع للمؤمن أنَّه إذا علم من نفسه تَسَاهُلًا، وعدم انضباطٍ بحدود الشريعة، وعدم حرصٍ وجد على أداء ما فرض الله جَلَّ وَعَلَا فإنه ينبغي حينئذٍ أن يضرب نِيَاطَ قلبه بسياط الخوف.

وإذا علم منها قنوطًا ويأسًا فينبغي أن يدمن النظر في الأدلة التي تدل على سعة رحمة أرحم الراحمين.

إذًا هذا علاجٌ مؤقت إلى أن يستقيم الحال، ويستقيم السير إلى الله جَلَّ وَعَلَا بجناحي الخوف والرجاء، والله أعلم.

هذا هو النوع الأول؛ ألا وهو الخوف المحمود.

أما النوع الثاني: فإنه الخوف الممنوع؛ والخوف الممنوع على درجتين:

الأولى: هي الخوف الشركي.

والثانية: الخوف الذي هو معصية.

إذًا تارةً يكون الخوف الممنوع شركًا أكبر، وتارةً يكون معصيةً لله سبحانه.

أما ضابط الشرك الأكبر المتعلق بالخوف؛ فإنه خوف السر من غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

انتبه: خوف السر متى ما تعلق بغير الله سبحانه، فإن هذا ولا شك شركٌ أكبر.

خوف السر هو: أن يخاف الإنسان من غير الله، أن يصيبه بسوء من غير مباشرة؛ يعني: أن يخشى من غير الله أن يصيبه بضرر بدون سببٍ ظاهر، وهذا لا شك أنه إشراكٌ مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الألوهية، وفي الربوبية.

إشراكٌ مع الله عَزَّ وَجَلَّ في الألوهية؛ لأنه صرف عبادةٍ واجبةٍ لله جَلَّ وَعَلَا لغيره.

أما كونه شركًا في الربوبية فإن الذي وقع في نفسه هذا الاعتقاد لا شك أنه صرف ما اختص الله عَزَّ وَجَلَّ به لغيره؛ فالله جَلَّ وَعَلَا هو الذي يفعل ما يشاء، وهو مالك المُلك، وهو مُدبر كل شيء، متى ما اعتقد الإنسان أن غير الله سبحانه يمكن أن يُوقِعَ ما يشاء بأمرٍ خفي، وسلطانٍ غيبي، دون سببٍ ظاهر معروفٍ بين الناس، وما هو معهودٌ من المخلوقين، إنما عن طريق هذا الأمر الخفي السري، ولأجله سُمي خوف السر، فإنه يستطيع أن يفعل ما يشاء، حتى إنه يستطيع أن يَطَّلع على ما في القلب، فيضل صاحب هذا القلب، أو أنه يمنع عنه الولد، أو أنه يقطع عنه المطر، أو أنه يُنزِل عليه صاعقةً من السماء، كل ذلك لا شك

أنَّه بدون سببٍ معهود، وبالتالي كان شيئًا لا يقدر عليه إلا الله؛ فمن اعتقده في غيره قد أشرك مع الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا النوع من الشرك واقعٌ قديمًا وحديثًا:

أما في القديم فمن ذلك ما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن طوائف من المشركين الذين كانوا يعتقدون هذا في آلهتهم، ومن ذلك قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾[هود: ٥٤]، قالوه لهودٍ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هؤلاء اعتقدوا في معبوداتهم أنها تنزل المكروه مع البُعد، ومن غير مباشرة، وبغير سببٍ ظاهر.

كذلك الحال في المشركين المعاصرين في هذه الأزمنة المتأخرة، حيث إنهم يعتقدون في معبوداتهم التي اتخذوها مع الله جَلَّوَعَلَا من صالحين، وسادات، وأولياء، وأنبياء، يتوجهون إليهم في قبورهم ومقاماتهم، يخافونهم خوفًا عظيمًا، وتَوْجَلُ قلوبهم منهم وجلًا كبيرًا، مع أنهم في قبورهم، وبينهم وبين هذا الخائف قدرٌ كبيرٌ من التراب، مرهونون في محبسهم هذا، ومع ذلك فإنه يخافوا منهم، حتى إنه حريص على أن يحافظ على خلجات قلبه، يخشى أن يلتفت القلب يمينًا أو شمالًا، فيَطَّلِعَ السيد والولي عليه فيسلبه الإيمان. هكذا يعتقدون -مع الأسف الشديد-.

وذكر الشارح الحفيد الشيخ سليمان في ((التيسير)) قصةً عن هؤلاء القبوريين، وهي: أنَّ شخصًا استدان مبالغ ضخمة من التجار، وهو وهم كلهم على هذا الاعتقاد، ثم إنه ماطلهم ولم يعطهم حقهم، فلما أرادوا أن يهموا به، ما كان منه إلا أن لجأ إلى قبرٍ معروف في مدينةٍ ذكرها، فلما استعاذ بالقبر وصاحبه توقفوا وما استطاع منهم أحدٌ أن يخطو خطوةً واحدةً تجاهه؛ لخوفهم من صاحب القبر أن يُنزِّل بهم سوءًا.

إذًا هذا لا شك أنه شركٌ أكبر.

والشرك -كما قد تعلمنا يا أيها الإخوة-، هو اعتقاد مشاركٍ لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فيما اختص به جَلَّوَعَلَا. وهؤلاء قد وقعوا في هذا، بل ربما زاد خوفهم من غير الله على خوفهم من الله. ربما تجد أحدهم لو ذُكِّر بعذاب الله وأخذه الشديد ربما تساهل ولم يرعوي، وأكمل طريقه في الغي والظلم، لكن إذا ذُكِر ببأس الشيخ وشدة السيد الولي فإنه يخاف ويرتعد، كما تكلمنا عن هذا في درس أمس، لو قيل له: احلف بالله شديد العقاب سبحانه، فإنه يمكن

أن يحلف كاذبًا؛ لكن لو قيل له: احلف بالشيخ، فإن قواه تخر ولا يستطيع أن يكمل الحلف؛ لعظيم خوفه من هذا الولي.

فلا شك أن هذا شرك ما وصل إليه كفار قريش، كفار قريش كانت أقصى أيْمانِهم أن يحلفوا بالله، أما هؤلاء فلا يثق الناس بأيمانهم إلا إذا كانت بغير الله، مما يعظمون من هذه المعبودات –مع الأسف الشديد– لأنهم لا يجرئون خوفًا من أصحابها على أن يحلفوا كاذبين.

أما النوع الذي يندرج تحت هذا القسم، وهو الخوف الممنوع، فهو الخوف الذي هو معصية.

الخوف الذي هو معصية: هو كل خوفٍ منع مما أوجب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إذا كان الخوف من غير الله جَلَّ وَعَلَا أدَّى إلى ترك واجب، أو فعل محرم، فإن هذا لا شك أنه معصية؛ كأن يترك الإنسان الجهاد خوفًا من أعداء الله إذا وجب عليه، أو يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا وجب عليه خوفًا من الناس، أو أنه يُشارك غيره في معصية الله خوفًا منهم.

لا شك أن هذا من الخوف الممنوع الذي يوقع صاحبه في معصية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بل ربما كان هذا نوعًا من الشرك الخفي حيث إنه قَدَّم ما يرضاه غير الله على ما يرضاه الله جَلَّ وَعَلَا، وهذا من جنس الشرك الخفي.

هذا أمرٌ قد عمت به البلوى –مع الأسف الشديد–، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يعفو وأن يغفر.

وخذ هذه قاعدةً –يا رعاك الله–: كلما عَظُم خوفك من الله جَلَّ وَعَلَا قلَّ خوفك من غيره، كما أنك كلما عَظُمت محبتك لله قلت المحبوبات عندك، كما أنك كلما عَظُم رجاؤك في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قل رجاؤك في غيره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المجلد الثامن والعشرين من ((مجموع الفتاوى))، قال: (إن الخوف من غير الله لا يكون إلا من مرضٍ في القلب).

تأمل هذا: الخوف من غير الله لا يكون إلا من مرضٍ في القلب. ثم نقل عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه شكا إليه رجلٌ خوفه من أحد الولاة، فقال له كلمةً عظيمة، قال له: (لو

صَحَحت لم تخف أحدًا) يعني: لو صح قلبك وقوي إيمانك لن تخف من أحدٍ دون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لكن هذا الخوف الذي وقع في قلبك إنما هو ثمرةٌ لضعف الإيمان.

وقد جرت عادة الله جَلَّوَعَلَا في خلقه أنه لا يخاف أحدٌ أحدًا خوفًا غير شرعي إلا سُلِط عليه، ولا يحب أحدٌ أحدًا حبًا غير شرعي إلا عُذِّب به، ولا يرجو أحدٌ أحدًا رجاءً غير شرعي إلا خُذل من قِبله، هذه عادةً جارية الواقع المشاهد فيها أكبر دليلٍ على صحتها.

المسلم واجبٌ عليه أن يعظم خوفه من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإذا كان كذلك لا شك أنه لم يُقَدِّم على خوفه من الله عَزَّوَجَلَّ خوف أحد.

وما أحسن ما قال الفُضيل بن عياض الإمام الجليل رَحِمَهُٱللَّهُ، قال كلمةً عظيمة تُكتب بماء العين، قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**من عرف الناس استراح**) من عرف الناس فعلم أنهم لا ينفعون ولا يضرون استراح، فلم يحمل لهم همًا، ولا كان في قلبه من خوفهم كقدر قُلامة ظفر؛ لأنهم لا يضرون، الأمر كله لله.

كذلك إذا علم أنهم لا ينفعون لم يتزين لهم، ولم يرائِهم، ولم يُسَمِّع لأجلهم، ولم يتذلل لهم؛ لأنهم لا ينفعون، الأمر كله لله جَلَّوَعَلَا.

وفي حديث ابن عباسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك**»، القضية انتهت، محسومة، «**رفعت الأقلام، وجفت الصحف**».

إذًا لأي شيءٍ يحمل الإنسان همًا لهذه المخلوقات، المؤمن الصادق لسان حاله كما قال الشاعر:

ألا ليت الذي بيني وبينك عامر … وبيني وبين العالمين خرابا

إذا صح منك الود فالكل هين … **وكل الذي فوق التراب تراب**

هذا عن الخوف الممنوع.

أما عن الخوف المباح، –وهو القسم الثالث–؛ فإنه: الخوف الطبيعي الذي تقتضيه الجبلة الإنسانية؛ كخوف الإنسان من سَبُع يعدو عليه، أو خوف الإنسان من عدوٍ صائل، أو خوف الإنسان من حيةٍ أو عقربٍ، أو ما شاكل ذلك، فإن هذا القدر قدرٍ معفوٌ

عنه، وليس داخلًا لا في الخوف المشروع، ولا في خوف الممنوع، ولا تبعات على الإنسان فيه، ولا يغض ذلك من قدره.

ألم يقل الله جَلَّوَعَلَا في حق الكليم موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾[القصص:٢١] مع أن أنبياء الله جَلَّوَعَلَا وصفهم الله جَلَّوَعَلَا بقوله: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾[الأحزاب:٣٩]، فكيف بموسى ر الذي هو من أولي العزم من الرسل؟ فدل هذا على أن هذا الخوف ليس داخلًا فيما تكلمنا عنه من الخوف الممنوع، وأن هذا القدر لا حرج فيه، ولا لائمة على الإنسان فيه.

نعود إلى الآية التي بوَّب المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ هذا الباب عليها.

قال: باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾[آل عمران:١٧٥]، وتتمة الآية: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥].

ولاحظ يا رعاك الله أن الله جَلَّوَعَلَا علق ثبوت الإيمان على الخوف من الله جَلَّوَعَلَا، وهذا عند أهل العلم محمولٌ على حالتين:

[الحال الأولى]: أن يكون الإيمان هو أصله؛ يعني إن كنتم مؤمنين أصلًا، وهذا المنهي عنه هو الخوف الشركي الذي هو خوف السر، فلا تخافوهم خوف السر، ﴿وَخَافُونِ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥]، يعني: إن كنتم مسلمين، ولستم كفارًا؛ فيُشترط في صحة الإيمان التخلي عن خوف السر.

والحال الثانية: أن يكون الإيمان في قوله: ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥]، هو الإيمان الواجب، وإن شئت فقل: أن يكون كمال الإيمان الواجب، وهذا يكون إذا قلنا به فإن المنهي عنه في قوله: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ﴾ يعني: الخوف الذي هو معصية، وليس الخوف الذي هو شرك.

إذًا هكذا يُفهم قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وقد اختلف المفسرون رَحِمَهُمُٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾[آل عمران:١٧٥]، اختلف المفسرون في هذه الآية إلى قولين:

[القول] الأول: أنَّ معنى الآية: إنما ذلكم الشيطان يخوفكم أولياءه، يعني: يخوفكم من أوليائه، ومعلومٌ أن الشيطان جعل الله عَزَّوَجَلَّ له قدرةً على أن يوسوس في صدور الناس، وكل ابن آدم معه قرينٌ من الجن، وبالتالي فإن من شأن هؤلاء الشياطين أنهم يوسوسون في قلوب المؤمنين وصدورهم أن يخافوا أولياءهم، ولا شك أن هذه الوسوسة لا تؤثر إلا فيمن كان ضعيف الإيمان، أما من كان قويَّ الإيمان، فإنَّ هذه الوسوسة لا تُؤثر فيهم شيئًا، ولا يبالي أهل الإيمان القوي بهذا التخويف شيئًا.

ولذلك انظر -يا رعاك الله- إلى حال أنبياء الله ورسله، لما كان أولياء الشياطين الذين هم شياطين الإنس، كانوا يخوفون الأنبياء من معبوداتهم وآلهتهم، ماذا كان ردُّهم؟ هذا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول: ﴿وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾[الأنعام:٨٠] لما خوفوه بآلهتهم صارحهم وأعلنهم بأنه لا يبالي، ولا يخاف من هذه المعبودات.

كذلك الحال مع المشركين في عهد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حينما قال الله عَزَّوَجَلَّ في شأنهم: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾[الزمر:٣٦]، ومع ذلك فإن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم يبالي بهم؛ لعظيم خوفه من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

والقول الأول هو قول جماهير أهل العلم، وهو المروي عن ابن عباسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، ومجاهد، وكثيرٍ من أهل العلم.

أما [القول] الثاني: فهو ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾، يعني يُوقِع الإخافة في قلوب من يكون وليًا له، وبالتالي فإنَّ مفهوم هذه الآية أنَّه لا سلطان له في إخافة أقوياء الإيمان، إنَّما ذلكم الشيطان يوقع الخوف في قلوب من يُذعن للشيطان، ويسوس قياده له، وينصاع له، فيكون وليًا له.

أما أهل الإيمان، فإنه لا سلطان عليهم، وبالتالي فإنه لا يخوف -يعني الشيطان- أهل الإيمان؛ لأن الله حكم أنه لا سلطان له على الذين آمنوا.

لكنَّ القول الأول -كما ذكرت لك- هو الأقرب، وهو الذي عليه جماهير أهل العلم.

والمقصود -يا أيها الإخوة- أن هذه الآية قد دلت على وجوب الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الله تعالى نهى عن الخوف من غيره، وأمر بالخوف به، أو الخوف منه وحده لا شريك له: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

كما أن الآية قد دلت على أن الخوف من غير الله جَلَّ وَعَلَا إنما يصاحب القلوب المريضة، التي تستجيب للشيطان، أما أهل الإيمان الصادق فإنهم لا يبالون بهذا التخويف من الشياطين وأوليائهم.

٤٧

٤٧- باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

(المجلس الثاني)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾[التوبة:١٨]، الآية.

أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ آية التوبة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾[التوبة:١٨].

والشاهد الذي لأجله أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية هي قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾، وهذا الأسلوب أبلغُ أساليب القصر، أعني ما جاء في هذا الشطر من الآية وهو النفي والإثبات.

قال: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾، والمعنى أنه جعل خشيته لله عَزَّوَجَلَّ خالصة، لم يخشى أحداً البتة إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد علمنا الفرق بين الخوف والخشية، وقلنا أن الأقرب أن الخشية أخص من الخوف، فبينهما عموم وخصوص، ومن أشهر ما ذُكِّر في الفرق:

أن الخشية خوف مقرون بعلم وتعظيم، بعلمٍ بالمخوف، وتعظيم له.

أما متى كان خوفاً مع جهل بالمخوف أو مع عدم تعظيمه وإنما مع احتقاره مثلاً فإن هذا لا يعد خشية.

وقال بعض أهل العلم:

إن الخشية أبلغ الخوف فهي أخص من هذه الجهة، يعني أعلى درجات الخوف يسمى خشية.

فمهما يكن من شيء فالخشية ترجع في الجملة إلى معنى الخوف، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أثنى في هذه الآية على اللذين حققوا الخشية لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، بل إنهم أخلصوا هذه الخشية له جَلَّ وَعَلَا.

ولاحظ كيف كان الاقتران في هذه الآية بين الخشية والعمل، وهذا يدلك على أن الأعمال الصالحة يؤثر بعضها في بعض، بين الأعمال الصالحة تصادق وتلازم لاسيما إذا تعلق الأمر بالعبادات القلبية، وعلى الأخص ما يتعلق بعبادة الخوف فإن ذلك يقترن إن كان خوفاً شرعياً مع العمل الصالح، والله جَلَّ وَعَلَا قرن في صفات هؤلاء المؤمنين الذين هم أهل لأن

يعمروا مساجد الله بين عملهم الصالح وخشيتهم لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ، وهم آمنوا بالله واليوم الآخر وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة.

كذلك الأمر في اقتران الخوف بالعلم، الخوف يقترن بالعمل كما قد علمت، كما أنه يقترن بالعلم، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[الأعراف:١٥٤].

وعلمنا الفرق بين الخوف والرهبة، فالرهبة خوف مقرون بتحرز وهرب، وكل أحد يخاف، أو كل ما يُخاف فإنه يُهرب منه، إلا الله سبحانه فإنه إذا خافه العبد هرب إليه جَلَّ وَعَلَا، قال سبحانه: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾[الذاريات:٥٠]. كذلك قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾[الأعلى:١٠].

إذن الخوف مقرون بالعمل، كما أن الخوف مقرون بالعلم، ومر بنا ما يدل على هذا صريحاً لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر:٢٨].

وهذه الآية آية عظيمة وفيها مباحث شتى، قال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾[التوبة:١٨]، إنما أداة من أدوات الحصر، والمعنى أن الذين هم أهل لعمارة مساجد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هم هؤلاء، ليس المقصود أنه لا يعمر مساجد الله إلا هؤلاء، إنما المقصود أن الذين هم أهل لعمارة المساجد هؤلاء لأن عمارتهم تنفعهم.

وأما الذين لم يتصفوا بالصفات الخمس الواردة في الآية، فإنهم ليسوا أهلاً لعمارة المساجد، وإن عمروها فهي ليست عمارة حقيقية، لأنهم لا ينتفعون بها.

وعمارة المساجد وبيوت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال بعض أهل التفسير: إنها عمارة حسية.

وقال بعضهم: إنها عمارة معنوية.

وقالت طائفة ثالثة: إنها تشمل الأمرين، وهذا أقرب.

العمارة الحسية بابتنائها وإصلاحها وتشييدها، كذلك العمارة المعنوية، التي هي بالجلوس فيها، وذكر الله سبحانه والصلاة وتلاوة القرآن، فإن هذه هي العمارة المعنوية للمساجد ولا شك أن العمارة المعنوية أولى من العمارة الحسية، والآية الأقرب والله أعلم أنها تشمل الأمرين.

مَن هؤلاء الذين هم أهل بعمارة المساجد؟

هؤلاء الذين حصلوا هذه الصفات الخمس:

آمنوا بالله واليوم الآخر، لاحظ أنه لم يذكر الإيمان برسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ، كذلك لم يذكر الإيمان بالملائكة والكتب والرسل، وذلك لما قد مر بنا في دروس سالفة من أن أركان الإيمان، بل جميع ما يندرج في هذا الدين فإنه مُتضمنٌ في الإيمان بالله، وكذلك إذا أفرد فإنه يشمل في المعنى جميع ما يدخل في هذا الدين أصولاً وفروعاً، أركاناً وعبادات، وقد يُفرد بعض ذلك لأجل فائدة أو تحقيق مصلحة أو لحكمة يعلمها الله جَلَّوَعَلَا.

ها هنا ضم إلى الإيمان بالله الإيمان باليوم الآخر، وهذا كثير في القرآن، كثير ما يقرن بين الإيمان بالله واليوم الآخر، وذلك أن الإيمان باليوم الآخر باعث عظيم على العمل الصالح، فإن تذكر الإنسان يوم الجزاء والحساب، تذكره الدار الآخرة التي فيها المأوى نعيماً أو عذاباً، تذكره ذلك دافعاً، وحاث له على أن يستقيم على شرع الله والإيمان بالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

وذكر بعد ذلك الصلاة والزكاة قال: ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾[البقرة:١٧٧]، وذلك لأن هاتين العبادتين أعظم العبادات، والغالب أن من سمحت نفسه بأدائهما الغالب أنه في غيرهما أطوع يؤدي غيرهما إنما من قصَّر في هذين فالغالب أنه يقصر فيما سواهما.

ثم ذكر الخشية، وهذا هو موضع الشاهد في هذه الآية التي أوردها المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾[العنكبوت:١٠] الآية.

هذه آية العنكبوت يذكر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فيها طائفة من الناس، حتى نكون على بينة من حالهم، وأن نحذر أن نكون مثلهم، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾[العنكبوت:١٠].

في الله، (الفاء) هذا الحرف يفيد معنى السببية، يعني بسبب الإيمان بالله، لأجل الإيمان بالله، ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾[العنكبوت:١٠]، والمؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ قال الآية، يعني: أكمل الآية، ﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ

﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾[العنكبوت:١٠-١١].

هذه الآية في حق أناس كان فيهم نفاق، وذلك أنهم كانوا بمكة فأسلموا، لكن فتنوا بالكفار، مسهم شيء من الأذى والابتلاء بسبب هؤلاء الكفار، ها هنا وقعوا في امتحان، أضحى عندهم شيء من المعارضة والمقارنة بين أذية هؤلاء، يفتن من قبل هؤلاء المشركين، أوذي في الله ناله شيء من الأذى يزيد أو ينقص، ثم قارن هذا بعذاب الله عَزَّوَجَلَّ الذي ينتظره إن أعرض عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فكان من هؤلاء أنهم قدموا خشيتهم من الناس على خشيتهم من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فخسروا خسارة لا ربح بعدها، أوذوا بسبب إيمانهم بالله فقدموا خوفهم وخشيتهم من المخلوقين على خشيتهم من الخالق، فكان أن دفعوا عذاب ساعة بعذاب الأبد، نسأل الله السلامة والعافية.

لكن هؤلاء ما أظهروا كفرهم وردتهم للمؤمنين كانوا يداهنون أهل الإيمان، لكن حقيقة الحال أنهم ركنوا إلى الكافرين، ولذلك إذا قضى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بنصر المؤمنين فإنهم يأتون إلى المؤمنين ويقولون إنا معكم نريد أن نصيب مما تصيبون من نتائج هذا الظفر كالغنيمة ونحوها، فبين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أن هؤلاء وإن خفي حالهم على المخلوقين، فإنه لا يخفى على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾[العنكبوت:١٠].

ثم حكم الله جَلَّوَعَلَا بأنه قدر هذا الأمر حتى يعلم علم الظهور، علم أهل الإيمان الذين إذا ابتلوا ثبتوا، وعلم ظهور حال المنافقين الذين لما ابتلوا ما ثبتوا، نكصوا على أعقابهم، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾[العنكبوت:١١].

هذا العلم يرعاك الله الذي جاء في هذه الآية وهو الذي يأتي في نظائر لها في القرآن، المراد به ليس العلم القديم، إنما هو علم الظهور، وذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ علم الأشياء بعلمه القديم الذي هو صفة ذاتية لا تنفك عن الذات، علم الله كل شيء أزلًا وأبداً.

وهناك علم آخر وهو علم الله عَزَّوَجَلَّ بالشيء وقت حصوله.

إذن الله ﷻ يعلم الشيء قبل حصوله، ويعلم الشيء إذا حصل.

والثواب والعقاب يتعلق بأي العلمين: بالثاني.

الله جَلَّوَعَلَا لا يعاقب أحد على العلم القديم، إنما يعاقب على علم الظهور هذا العلم الذي يتجدد.

المقصود أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بين في هذه الآية حال هؤلاء وحالهم يشبه ما جاء في الآية الأخرى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾[الحج:١١]، على حرف يعني: على طرف، مثل الطرف هذا، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾[الحج:١١] والنتيجة: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾[الحج:١١]، نسأل الله السلامة والعافية.

الله جَلَّوَعَلَا من حكمته أنه يبتلي أهل الإيمان، في هذه السورة التي نحن فيها (العنكبوت)، قدم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بمقدمة عظيمة ينبغي للمسلم أن يقف أمامها متأملاً، قال سبحانه: ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[العنكبوت:١-٣] حكمة من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أنه يبتلي أهل الإيمان، حتى يميز الله الخبيث من الطيب.

والناس يختلفون في هذا الابتلاء، بحسب ما يشاؤه الله تَبَارَكَوَتَعَالَى، من الناس من تكون فتنة عظيمة، ومن الناس من تكون فتنته دون ذلك، ربما إذا أسلم الإنسان بعد كفر فتن وأوذي وابتلي بأهله، بأصدقائه بأناس من ذوي الجاه والمنصب، لأجل أن يردونه، يرهبونه أو يرغبونه، ربما ابتلي بشيء من الأذى في جسده أو الأذى في عرضه، تشاع عنه قالة السوء، ربما ابتلي بأقل من ذلك كسخرية واستهزاء.

وها هنا يمتاز أهل الإيمان الصادق من الكاذبين، أهل الإيمان الصادق كما مر معنا غير مرة: «وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»، لا يمكن أن يرجع إلى الظلام وقد نور الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى قلبه، هنيئاً لأهل الصدق، هنيئاً لأهل الإيمان الصادق.

وأما أولئك الذين في قلوبهم مرض وغش ودغل، فإنهم لا يثبتون عند الامتحان، وهكذا الشأن فيمن استقام على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، ربما يكون الإنسان سادراً في غيه، واقع في معاصي الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى فيمُن الله عَزَّوَجَلَّ عليه بأن يسلك طريق الاستقامة، وها هنا قد يبتلى وقد يفتن وقد يؤذى من أهله، من زوجه، من أولاده، من أصدقائه، وحينئذ يكون

في وسط هذا الامتحان، فإما أن ينجح فيفوز برضا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإما أن يعود إلى ما كان عليه -عياذاً بالله- من معصية الله وحينئذ يكون قد فشل في هذا الامتحان.

إذن المؤمن الصادق هو الذي خشية الله في قلبه أعظم من كل خشية.

قد مر بنا أن تجريد التوحيد يقتضي أن تقل المخوفات في قلب العبد، وأن يوحد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالخوف، كلما عظم إيمانك وتوحيدك كلما قلت المخوفات في قلبك: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾[الأحزاب:٣٩].

هكذا ينبغي أن يكون أهل الإيمان، فإن نالهم مسٌ من أذى أو شيء من العذاب بسبب إيمانهم فالواجب حينئذ الثبات، هذه حقيقة الإيمان، وهذا هو حقيقة التوحيد، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾[التوبة:١٣].

أين توحيدك أين إيمانك؟ إذا كنت تخشى المخلوق أكثر من الخالق، ومن حكمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن هذا الابتلاء غالباً ابتلاء مؤقت يزول بعد حين، لكنه يحتاج إلى شيء من الصبر ثم يأتي الفرج، الله جَلَّوَعَلَا قرن الفرج بالصبر، امتحان يصبر عليه الإنسان ما شاء الله عَزَّوَجَلَّ أن يصبر، ثم تكون العاقبة خيراً كثيراً، إذن الأمر كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لو صححت لم تخف أحداً) لو كان إيمانك وتوحيدك صحيحاً وقلبك سليماً فإنك لا تلتفت إلى أحد من المخلوقين، ولا تبال بهم إنما حصول خوف من غير الله جَلَّوَعَلَا علامة وأمارة على مرض في القلب.

ولاحظ أننا نتحدث عن الخوف الممنوع بكل ما سبق وما سيأتي كلامنا عن الخوف الممنوع.

أما الخوف المباح الذي تقتضيه الجبلة وهو ما أسميناه الخوف الطبيعي فإن هذا غير داخل فيما نتحدث فيه، كلامنا عن الخوف الممنوع الذي لا تقتضيه الجبلة، إنما يخاف الإنسان خوفاً يؤدي به إلى الوقوع في الشرك أو إلى الوقوع في المعصية على ما مضى تفصيله، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعاً: «إن من ضعف اليقين، أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لما يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره».

هذا الحديث، حديث صحيح معنى لكنه ضعيف الإسناد، وفيه لطيفة، قال: إن من ضعف اليقين، يصح أن تقول إن من ضُعف اليقين على لغة تميم.

واليقين أعلى درجات الإيمان، أعلى درجات الإيمان اليقين وهذا اليقين واجب على المسلم، ومر بنا حينما تكلمنا في دروس قديمة ما يتعلق بشروط لا إله إلا الله، اليقين الواجب على المسلم، اليقين المتعلق بأمر الله، واليقين المتعلق بوعد الله، واليقين المتعلق بقدر الله:

- **اليقين المتعلق بأمر الله** أن يكون يقين بأن أمر الله عَزَّوَجَلَّ حق.
- **واليقين المتعلق بوعد الله** يقين يقتضي اعتقاد أن وعد الله صدق.
- **واليقين المتعلق بقدر الله** عَزَّوَجَلَّ يقتضي اعتقاد أن قدر الله عَزَّوَجَلَّ عدل.

إذن من علامات وأمارات ضعف هذا اليقين ما جاء في هذا الحديث، من ذلك:

[أولًا]: أن يرضي الإنسان الناس بسخط الله –وهذا سنتحدث عنه بعد قليل إن شاء الله، في الدليل القادم–.

أما الثاني فهو أن يحمد العبد المخلوق على رزق الله.

والثالثة أن يذم المخلوق على ما لم يؤته الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وهذه لطيفة مهمة ينبغي أن يلحظها الراغب في تحقيق التوحيد، كيف ألا يحمد الإنسان من وصله الخير والرزق من قِبَله؟

الجواب: أن المقصود بهذا الكلام هو أن يكون التفات القلب ومشاهدة النعمة وملاحظة الفضل كل ذلك متعلق بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وذلك أن النعمة حقيقة إنما هي من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، قال جَلَّوَعَلَا: **﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[النحل:٥٣]**، **﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ﴾[الإسراء:٢٠]** من ماذا **﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾[الإسراء:٢٠]**.

إذن الذي خلق هذا الرزق هو الله، والذي من بهذا الرزق هو الله، والذي حرَّك قلب هذا المخلوق فأوصل لك هذا الرزق هو الله عَزَّوَجَلَّ.

إذن الأمر في الحقيقة من الله وإلى الله.

إذن ماذا عن المخلوق الذي جاءني الرزق من طريقه؟

هو في الحقيقة سبب ووسيلة لا غير، حقه عليك المكافأة والشكر، أما المكافأة في قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الصحيح: **«من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تظنوا أنكم قد كافأتموه»**، والشكر في قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا يشكر الله من لا يشكر الناس»**.

إذن المخلوق حظه وحقه ونصيبه لا يتجاوز هذا الأمر.

أما أن يكون هناك التفات من القلب إلى المخلوق، واعتقاد أن المنة له، وأن الإنعام من قبله، وأنه هو الذي طوقه بالفضل، هذا لا شك أنه من ضعف اليقين والإيمان، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال كما في الصحيحين: **«إنما أنا قاسم، والله يعطي»**، وفي رواية عند البخاري **«الله المعطي وأنا قاسم»**، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقسم، يعطي بأمر الله عَزَّوَجَلَّ ما منّ الله به وأعطى، لا أقل ولا أكثر.

إذن الحمد الحقيقي المطلق، والمنة المطلقة، والفضل المطلق، ممن كان؟

أمن المخلوق أم من الخالق؟

أرأيت لو جاءك هدية من قبل رجل غني أو أمير وأرسله مع سائقه أو خادمه ماذا تصنع؟ أتقول لهذا الخادم: يا أيها الخادم، إن إحسانك قد أغرقني وإني لا أستطيع مكافأتك على هذه المنة العظيمة التي قدمتها إلي! أهكذا يقال ؟

لا غاية الأمر أن يقال له جزاك الله خيرا، أشكرك على ما فعلت.

ولكن اعتقاد هذا الإنسان أن الذي أوصل إليه الخير إنما هو صاحب هذه الهدية.

هذا المثال يبين لك أن المخلوق لا يتجاوز حال هذا الخادم، وأن المنعم الحقيقي إنما هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو الذي أعطى، ولذلك الحمد التام والشكر الكامل، واعتقاد المنة والتفضل يجب أن يتوجه به العبد إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وإذا كان ذلك كذلك حصل الأمر الآخر، وهو أنه لا يغضب إذا منعه مخلوق شيئاً من الرزق، لأن المانع في الحقيقة هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، عدم وصول الرزق كان قدراً من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذن ما الفائدة أن يغضب الإنسان على مخلوق؟ يعني أنا أطلبك شيئاً من الرزق، شيئاً من المال، فتمتنع أو تعتذر، فأصب كما يقولون جام غضبي عليك وأسب وأشتم وأغضب وأزمجر، على ماذا؟ هو في الحقيقة ليس منه شيء، الأمر إنما كان من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذن من كان يعتقد حقيقة وصدقاً اعتقاداً كاملاً أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الرزاق، وأن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يقدر الأقوات، فإنه حينئذ لا يغضب من مخلوق لم ينله خير من قِبله لأنه لا يتجاوز أن يكون مجرد وسيلة أو سبب أو واسطة، والأمر كله راجع إلى راجع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولذلك رزق الله عَزَّ وَجَلَّ لن يوصله إليك أو يسرع به إليك حرصك والعكس صحيح، الأمر كله إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

لا يعني هذا ألا يبذل الإنسان السبب في الرزق أو في طلب الرزق، لكن الذي ينبغي أن يكون أثناء طلبه لهذا الرزق وبذله هذا السبب قد تعلق قلبه بالمنعم الأول الله عَزَّ وَجَلَّ، هو الأول والآخر، فالأمر كله منه وإليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولذلك سيأتي معنا إن شاء الله في الباب القادم أن التوكل قد عُرّف بأنه: حركة بلا سكون وسكون بلا حركة، يبذل الإنسان حركة وجهداً، يبذله بلا تقاعس ولا تكاسل، ولكن مع هذا فإن قلبه ساكن مطمئن معلق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يضطرب، يعلم أن الأمر كله لله جَلَّ وَعَلَا.

على أن الإنسان قد يرزق ببذل كثير، وقد يرزق ببذل قليل، وقد يرزق بلا سبب منه، أليس كذلك؟ ربما يموت قريب فيرث هذا الإنسان، هل بذل سبباً؟ ما بذل سبباً، ما كان من شيء، ومع ذلك ساق الله عَزَّ وَجَلَّ إليه هذا الرزق.

إذن الذي يجب والذي يتعين على كل مسلم أن يكون قلبه معلق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا؛ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس؛ رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله؛ سخط الله عليه وأسخط عليه الناس» رواه ابن حبان في صحيحه.

هذا الحديث، حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا حديث حسن لا بأس به إن شاء الله، وخرجه ابن حبان في صحيحه وهو عند غيره كالترمذي وغيره ولكن بألفاظ مقاربة.

المقصود أن هذا الحديث فيه بيان قاعدة جعلها الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في قدره، وهي المعاملة بنقيض المقصود الفاسد، بمعنى أن من التمس رضا الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بسخط الناس فإن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يجازيه على ذلك بأن يرضى عنه، وأن يرضي عنه الناس، وهذا جزاء على عمله الصالح.

أما المعاملة بنقيض المقصود الفاسد، ففي حال العكس، وهو أن يرضي الناس بسخط الله.

(الباء) ها هنا باء معاوضة، يعني كأنه يشتري رضا الله عَزَّوَجَلَّ برضا الناس أو العكس يشتري رضا الناس بسخط الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وبئست الصفقة حينئذ.

من فعل هذا، قدم ما يتعلق بسخط المخلوق على سخط الخالق جل وعلا، فإنه سيبوء بخسران وإثم، ويكون واقعاً في عظيمة من العظائم، ثم إنه لن يحصل على ما كان يلتمس ويطلب، التمس يعني: طلب، هو كان يطلب وجوه الناس ورضاهم لا يسخطوا عليه، لكن النتيجة أن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ سيجعل قلوبهم ساخطة عليه، وذلك عقوبة منه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ على ما صدر منه من تقديم محاب المخلوقين على محاب الله، ورضا المخلوقين على رضا الخالق سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

المسلم الصادق الذي كمل توحيده وإيمانه هو الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، هو الذي الله عَزَّوَجَلَّ في قلبه أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء، ورضاه عنده أهم من رضا كل أحد، يعتقد أن الله جَلَّوَعَلَا هو الذي مدحه زين وذمه شين، ولذلك فإنه لا يبالي

بالمخلوقين إذا تعارض ما يحبه الله مع ما يحبه المخلوق، أو ما يسخطه الله مع ما يسخطه المخلوق، دائماً عنده -ولا تردد عنده في ذلك عنده- تقديم ما يحبه الله على ما يحبه المخلوق، لا يماري ولا يداهن في شيء يبغضه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وضعيف الإيمان من قل حظه من خوف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو الذي يداهن في هذا الأمر، ربما وافق من يقع في معصية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من أجل أن يدفع سخطه عنه، بل ربما شاركه فيما هو عليه من المعصية لأجل ذلك، وهذا يبشر بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سيقلب قلوب الخلق عليه، شاء أم أبى سيعاقب بنقيض قصده، فلا هو بالذي استفاد ما يتعلق برضا المخلوقين، ولا هو الذي فاز برضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وإن من المؤسف أن حال كثير من الناس لاسيما في هذه الأعصار المتأخرة أنهم -مع الأسف الشديد- يداهنون في دين الله جَلَّ وَعَلَا ، ولا يبالون الوقوع في مساخط ربنا جَلَّ وَعَلَا في سبيل أن يدفعوا عن أنفسهم سخط المخلوقين، لأجل أن يُقبل المخلوقون عليهم.

ربما تجد من يسكت عن الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر وهو يعتقده معروفاً أو منكراً، وذلك لئلا يحرك ساكناً من الناس، ربما يذهب إلى المسجد ويرى الناس أو يرى من الناس من هو جالس لا يصلي في المسجد وقد أقيمت الصلاة، لا يتكلم بحرف واحد فيذكر ويأمر وينهى، لم يا ترى هذا الأمر؟

الجواب: أنه التمس رضا الناس، لكن مع الأسف الشديد بسخط الله جَلَّ وَعَلَا، مع أنه لو قُدر أنه ناله شيء من الأذى فإن الواجب عليه أن يصبر كما مر بنا آنفاً.

والغالب أن من يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويسلك في هذا المسلك الصحيح بمعنى أن يكون أمره بالمعروف بمعروف ونهيه عن المنكر بمعروف، الغالب أن من يفعل ذلك لا يناله شيء، وإن ناله شيء فالغالب أنه لا يتجاوز كلمة، ربما يسمع كلمة، لكنه يربأ بنفسه في ظنه عن أن يُؤذى في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولو بكلمة، وربما مع هذا باء بسخط الله عَزَّ وَجَلَّ، فهذا من الأمر المشكل والمحزن.

في الحقيقة يا أيها الإخوان ما انتشرت كثيراً من المنكرات في عالم المسلمين، ولا حصل تقصير في أداء الواجبات إلا بأسباب، ومن أعظمها عدم مراعاة هذا الأمر، وهو تقديم رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على رضا المخلوقين.

وإذا كان هذا مما يخاطب به كل مسلم، فالدعاة إلى الله وطلبة العلم مطلوب منهم هذا الأمر أكثر من غيرهم، عليهم أن يجردوا التوحيد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن يقدموا رضا الله عَزَّ وَجَلَّ على رضا المخلوقين، وألا يداهنوا في دين الله سبحانه، وألا يماري من كان واقعاً في معصية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دون أمر ونهي وبيان وتبليغ، هذا من المهمات يا طلاب العلم، بل إننا مع الأسف الشديد ربما رأينا من يخالط ويداهن وربما يشارك فيما يعتقد أنه باطل وأنه ظلم لعباد الله عَزَّ وَجَلَّ لأجل أن يكسب وجوه الناس، ولأجل أن لا يذمه فلان وفلان، وهذا في الحقيقة مرجعه إلى ضعف التوحيد.

القاعدة التي قلناها يا أيها الإخوان أن كل من عظم خوف الله عَزَّ وَجَلَّ في قلبه فإنه تقل المخوفات في قلبه، بل إنه لا يخشى إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولو غضب أهل الأرض جميعاً فإنه لا يبالي.

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

هكذا لسان حال المؤمن الموحد الذي كمل خوفه وخشيته من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

.

الشيخ لم يراجع التفريغ

٤٨

٤٨- باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

(المجلس الأول)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب قول الله تعالى:

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[المائدة:٢٣].

هذا الباب قد عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ للكلام عن عبودية التوكل على الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، والتوكل مقام عظيم من مقامات الدين، بل هو نصف الدين، فالدين عبادة وتوكل، ﴿ فاعبده وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود:١٢٣]. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[هود:٨٨]، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥].

والمتوكلون أحباب الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، والتوكل شرط الإيمان وشرط الإسلام: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾[يونس:٨٤].

والتوكل على الله أوسع مقامات الدين من حيث أهلها، وذلك أنّ التوكل يكون من كل أحد، من المسلم ومن الكافر، ومن أهل السماوات ومن أهل الأرض، ومن الإنس ومن الجن، حتى الحيوانات والطيور، كل مخلوق فإنه يتأتى منه التوكل على الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، كما أنّ التوكل على الله من أوسع المقامات الإيمانية من حيث تعلق هذا المقام بصفات الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ

عبوديةُ التوكل يتعلق بصفات كثيرة ونعوت جليلة للباري سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فيتعلق بصفة العلم والقوة والقدرة والمشيئة والرحمة والرأفة والمحبة وغيرها من صفات الله جل وعلا.

إنها عبادةٌ جليلة القدر إذا خلا منها القلب ترَحَّل عنه الإيمان وإن ضعف فيه ضعف الأمان، التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ له شأن، وأي شأن.

وحقيقة التوكل أنها مؤكدةٌ من شيئين:

من اعتماد وتفويض إلى الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

ومن بذل للسبب.

التوكل الحق إنما يكون مجموعاً من هذين الأمرين، أمر على الجوارح، وأمر يتعلق بالقلب.

أما الذي على الجوارح فهو بذل السبب، وأما الذي على القلب فإنه الاعتماد والتفويض إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وإذا أردنا أن نفصل هذا المقام أكثر فإننا نقول إنّ التوكل على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يتعلق أو ينبني على ثلاثة أشياء:

[الأمر] الأول: تحقيق توحيد المعرفة والإثبات؛ هذا التوحيد العلمي الذي مر بنا في دروس خلت أنه يشمل توحيدي الربوبية والأسماء والصفات، لا يمكن أن يكون هناك توكل لمن هو فاقد لهذا التوحيد، أول أساسٍ في قيام هذه العبودية تحقيق هذا التوحيد، إفراد الله جَلَّوَعَلَا في ربوبيته وفي أسمائه وصفاته، لا يمكن أن يكون متوكلا إلا من كان معتقدا بأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الرب المالك، السيد المتصرف المدبر، الذي له الخلق والرزق والتدبير، وأيضا أنه المتصف بصفات الجمال جَلَّوَعَلَا.

ولذلك نقل الإمام ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ عن شيخه ابن تيمية قوله: إنّ ثلاثة لا يتأتى منهم التوكل، ثلاثة لا يتأتى منهم التوكل، لا يجيء منهم أن يتوكلوا: الفيلسوف، والقدري النافي، والجهمي المعطل.

وأنى يتأتى التوكل من فيلسوف يعتقد أنّ الله جَلَّوَعَلَا لا يعلم الجزئيات، إنما يعلم الأمور كليةً؟ وأنى يتأتى التوكل من قدري يعتقد بأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يعلم الأشياء حتى تقع؟ وأنى يتأتى التوكل من قدري يعتقد أنه يقع في هذا الكون ما لا يشاؤه الله؟ وأنى يتأتى التوكل من جهمي يعتقد أنّ الله تعالى معطل عن صفات الكمال؟

إذًا هذا هو الأساس الأول الذي ينبني عليه صرح التوكل على الله جَلَّوَعَلَا.

الأمر الثاني: بذل السبب، والسبب لابد أن يكون سببا مشروعا، لابد ألا يكون سبب ممنوعا، بمعنى: بذل المستطاع في تحقيق المراد في ضوء ما أباحته الشريعة؛ هذا هو السبب المشروع، هذا هو السبب الذي هو الركن الثاني من أركان التوكل، لابد في تحقيق التوكل من بذل السبب.

وها هنا يخطأ كثيرون حينما يظنون أن هناك تنافرًا بين التوكل وبذل السبب، لا شك أن هذا خطأ كبير، فإن حكمة الله جَلَّوَعَلَا وشرعه وقدره اقتضت ربط الأشياء بأسبابها،

وبالتالي فإنّ بذل السبب في تحقيق المراد لا شك أنه مما دلت عليه الشريعة ومما أبانته سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ألم تسمع إلى قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا**»، تذهب في الصباح الباكر وهي جائعة ثم تعود بعد ذلك وقد شبعت.

ألم ترَ أن اللّه أوحى لمريم وهزي إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أن يحنيه من غير هزها إليها ولكن كل شيء له سبب

إذًا من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ وقدره وشرعه أن ربط الأشياء بأسبابها، وإذا كان سيد المتوكلين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي قد بلغ الغاية في التوكل والاعتماد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كان يبذل السبب بلا تقصير، أليس هو الذي لبِس صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم أحد درعين، أليس هو الذي اتخذ السبب المعلوم يوم الخندق، أليس هو الذي أتخذ السبب المعلوم يوم بدر، أليس هو الذي اتخذ دليله يوم خرج للهجرة، أليس هو الذي كان يرصد قوت أهله لسنة، أليس هو الذي إذا أراد السفر أعد الزاد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أكان هذا قدحًا في توكله؟ حاشا وكلا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذا ما ينبغي التنبه له، وهو أن السبب من حقيقة التوكل، لا أنه شيء منافٍ للتوكل، ولكن تنبه هنا إلى أن المتوكل في شأن السبب لابد أن يجمع بين اتصال وانفصال.

أما الاتصال فاتصال الجوارح بالسبب، وانفصال القلب عن ذلك، بمعنى: أن التوكل فيه بذل للسبب من جهة الجوارح، يبذل ويعمل ويجد ويكدح بلا أي تقصير أو فتور، أما القلب فإنه غير ملتفت للسبب، القلب معلق بالمسبِب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إذًا هذا أمر لا بد من التنبه له، ولذا نقل الحافظ بن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الجزء الرابع من ((فتح الباري)) أنه عرف التوكل أنه قطع النظر إلى الأسباب بعد بذل الأسباب.

والعلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((المدارج)) نقل عن بعضهم تعريف التوكل بأنه اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب، والمعنى أنه اضطراب بالجوارح بمعنى أنّ التوكل يقتضي حركة دؤوب وجد باجتهاد بالجوارح، ومع ذلك القلب ساكن لا يضطرب، لأنه واثق

بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا يلتفت إلى الأسباب، حسب الأسباب أن لا تتجاوز عن هذا القدر، وهي أن تكون أسبابا مبذولة بالجوارح دون أن يكون هناك التفات من القلب إليها.

[الأمر] الثالث: الذي ينبغي عليه التوكل هو عمل القلب، ولذلك عرف الإمام أحمد رَحِمَهُٱللَّهُ التوكل بأنه عمل القلب، وهذا العمل مركب من اعتماد وتفويض إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وثقة وحسن ظن به جَلَّوَعَلَا.

لا بد من أن يكون المتوكل إن شاء أن يكون متوكلاً صادق التوكل لا بد أن يكون محسنا الظن لقدر الله جَلَّوَعَلَا، معتقداً أن خيرة الله له خير من خيرته لنفسه، وأن تدبير الله له خير من تدبيره لنفسه.

فوض الأمر إليه   هو أولى بك منك

هذا هو المتوكل وهذا المقام سهل بالكلام، لكن تحقيقه أمر يحتاج إلى مجاهدة، فرقٌ بين من يتصور التوكل وبين من يقوم به التوكل، من يعرف أن يكون عليه أن يثق بالله هذا سهل ومتيسر والكل حاصل منه ذلك، لكن العبرة والشأن إنما هو بأن يقوم ذلك الاعتماد والثقة والتفويض حقيقة بالقلب، والمحك والامتحان عن الشدائد.

حقيقة التوكل الذي عماده وركنه الأعظم عمل القلب -الذي سمعت-، إنما تظهر هذه الحقيقة عند الشدائد، عند الامتحانات العصيبة التي يمر الإنسان بها في هذه الحياة، ها هنا يظهر الحال على وجه الحقيقة، إن كان حقا متوكلا معتمداً على الله عَزَّوَجَلَّ أم أنها كانت دعاوى يدعيها، والله المستعان.

هذا المقام قد أخطأ فيه طوائف من الناس، التوكل على الله ضل في شأنه أقوام، وضلوا الطريق وتجاوزا الصواب.

[الصنف الأول]: الذين أشركوا في توكلهم على الله الشرك الأكبر، قوم قد أخطأوا خطأً عظيماً في شأن التوكل حينما جعلوا مع الله غيره متوكَلاً عليه، وحد ذلك وضابطه هو ما يأتي:

ضابط التوكل الشركي الذي من قام به أنه يكون قد أشرك مع الله ﷻ الشرك الأكبر هو:

أولًا: أن يتوكل على الأموات مطلقاً.

وثانيا: أن يتوكل على الغائبين مطلقاً.

وثالثا: أن يتوكل على حاضر حي فيما لا يقدر عليه إلا الله.

إذًا من وقع في واحد من هذه الصور فقد أشرك مع الله عَزَّوَجَلَّ الشرك الأكبر.

فلذلك أولئك الذين تعلقت قلوبهم بالقبور والأضرحة والأولياء، الذين عظم اعتمادهم وتوكلهم عليها فاشركوها مع الله عَزَّوَجَلَّ هؤلاء ينبغي أن يستيقظوا من غفلتهم، هذا الشيء الذين هم واقعون فيه لا شك أنه يوردهم دار البوار- عافاني الله وإياكم من ذلك-.

هؤلاء تجد أحدهم معتمدا ومتوكلا على الإله المعبود الذي يتوجه إليه بالعبادة، ومع ذلك يتوكل عليه، لذلك تجدهم يصيحون يا سيدي فلان إني متوكل عليك يا ابن علوان، على الله وعليك، أنا فوضت الأمر لله وإليك، انظر كيف جعله شريك مع الله عَزَّوَجَلَّ بهذا الاعتماد والتفويض! نسأل الله السلامة والعافية، وهذا لا شك أنه أمر عظيم، هذا الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله عَزَّوَجَلَّ، حذاري يا عبد الله من أن تقع فيه وتخسر الدنيا والأخرة.

الصنف الثاني: الذي وقع في الشرك الأصغر، وذلك بأن يكون وقع منه نوع التفات واعتماد بقلبه على مخلوق فيما يقدر عليه، هذه شعبة من الشرك، هذا نوع من الشرك الخفي، هو لم يتوكل على ميت، ولم يتوكل على غائب، ولم يتوكل على شيء فيما لا يقدر عليه غير الله، إنما عنده توكل على الله عَزَّوَجَلَّ ومع ذلك وقع في نفسه شيء من الاعتماد والالتفات لمخلوق.

فهذه شعبة من الشرك ونوع من الشرك الأصغر، وهذا -والله المستعان- شيء يكثر ويقع فيه كثير من الناس شعروا أو لم يشعروا، كثير من الناس في شأن الرزق تجد عنده التفات في قلبه إلى الوظيفة إلى الراتب الذي يأتيه، أو يكون قد احتمى بأحد بشأن دفع أذى من شخص أو نحو ذلك، تجد عنده شيء من الالتفات إليه.

وقلنا إنّ التوكل عمل القلب، فلا بد إذًا من أن يكون القلب أخلص توكله واعتماده على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بحيث لا يكون منه الالتفات إلى غيره، وهذا المقام يحتاج من المسلم أن ينظر فيه إلى نفسه، وأن يتأمل حاله، وأن ينقب في قلبه لعله واقع في ذلك وهو لا يشعر.

[الصنف الثالث]: ما يقع من بعض الناس حينما يتركون بذل الأسباب، وظنهم أنهم بهذا يكونون متوكلين، قد علمنا قبل قليل أنّ هذا غلط وأنّ هذا ليس من التوكل الشرعي، بل إنّ هذا مخالف لسنة الله التشريعية وسننه الكونية وحكمته جَلَّوَعَلَا كما أنه مخالف لهدي النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهدي أصحابه، الميزان الذي ينبغي أن توزن به الأحوال إنما هو سنة النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ثم سنة أصحابه، ونحن نعلم قطعا ويقينا أن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه كانوا أعظم المتوكلين، ومع ذلك فإنهم كانوا يبذلون السبب.

والحقيقة أننا نقول إنّ هذا غلط من بعض الناس حينما يزعمون أنهم يتركون الأسباب، والواقع أننا نتحدث عن الشيء الذي يذكرونه ويزعمونه، والا فالحقيقة لا يمكن لأحد أن يتخلى عن الأسباب، حتى إنّ ابن القيم رَحِمَهُاللَّهُ في ((المدراج)) ذكر أن ترك الأسباب مطلقا أمرا مستحيلا علقاً وشرعاً وحساً.

في العقل والشرع وفي الحس يستحيل أن يدع الإنسان الأسباب بالكلية، ووهم هم يقعون فيه، يظنون أنهم تركوا الأسباب لأجل اعتمادهم على الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، والواقع أنهم لا يمكن أن يدعوا الأسباب، بل التوكل نفسه سبب من الأسباب، أليس كذلك؟ التوكل من أعظم الأسباب في تحقيق المطلوب والهرب من المرغوب، ولذلك كيف يدعي إنسان أنه متوكل مع تركه الأسباب؟ هذا أمر لا يمكن أن يقع.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُاللَّهُ في ((المدارج)) في الجزء الثاني عن بعض هؤلاء المتواكلين الذين يظنون أنهم متوكلون، ذكر عن أحدهم قصة وأنه كان مسافرا في الفيافي والقفار، ولا يأخذ معه زاداً بدعوى أنه متوكل، ولكن من عجيب أمره أنه كان يحمل معه خيطًا وإبره وركوة، ركوة يعني إناء صغير، وقيل له في ذلك كيف تزعم أنك تعتمد على الله ولا تأخذ بالأسباب وتأخذ معك هذه الأمور؟ فقال هذا لا يقدح بالتوكل، فإني لا أملك إلا ثوباً واحداً وربما انشق وبالتالي تظهر عورتي إذا صليت فأنا بحاجة إلى الإبره وخيط كي أخيط الثوب، وأنا بحاجة إلى هذه الركوة كي أتوضأ.

فانظر كيف أن هذا الإنسان قد تناقض، وأنه وإن ادعى أنه تارك للأسباب، فإنه في الحقيقة لم يستطع أن يتخلى عن الأسباب، بل سفره وذهابه، لابد أنه كان يطلب فيه شيء، وهذا الذهاب في حد ذاته بذل للسبب.

ذكر بعضهم أنّ أحد هؤلاء المتواكلين توهم أنّ التوكل يكون بترك أخذ السبب، وكان هذا الإنسان يقطن في أحد الأربطة التي يسكنها الفقراء، وكان أهل الخير يأتون بالطعام كل يوم ويطوفون على الغرف وطعمون أهلها ما تيسر، هذا الإنسان أغلق بابه وقال أنا متوكل على الله ورزقي سيأتيني دون بذل للسبب.

ففعل هذا ومر أصحاب الطعام اليوم الأول ورأوا الباب مغلق، فظنوا أن الرجل غير موجود، فذهبوا وبقي الرجل يومه من دون طعام، فجاء اليوم الثاني والباب مغلق، مر القوم والباب مغلق فمروا، ظنوا أنّ الرجل غير موجود، فزاد جوع الرجل فلما كان اليوم الثالث وقد بلغ الرجل منتهى الجوع شعر بقدومهم سمع صوتهم قادمون فكان أن تنحنح ففطن هؤلاء إلى أنه موجود فدخلوا عليه وأطعموه، فقيل له بعد ذلك كيف وجدت الرزق؟ أيُحتاج معه لبذل السبب؟ قال لا بد من بذل السبب ولو بالنحنحة.

هذا الحقيقة يكذب على نفسه من يزعم أنه متوكل على الله عَزَّوَجَلَّ وقد ترك بذل السبب المشروع، وعندنا قيد مهم ها هنا وهو لا بد أن يكون السبب مشروعا، وإلا فالذين يرومون تحصيل أغراضهم بأسباب غير مشروعة هل يقال في حقهم أنهم متوكلون؟

حاشا وكلا، الذي يريد أن يحصل على الغنى عن طريق الرشاوى أو السرقة أو الربى هل يقال في حقه أنه متوكل؟ لا شك أنه ليس بمتوكل بل هذا أتى بضد التوكل. التوكل على الله جَلَّوَعَلَا عبادة، وهذا الذي وقع فيه معصية بل كبيرة.

الصنف الرابع: هو حال من يقصرون التوكل على أدنى الأشياء ويفوت التوكل على الله في عظائم الأمور؛ وهذا أيضا من الأخطاء الشائعة، بعض الناس إذا سمع كلمة التوكل ظن أنّ القضية مقصورة على شيء معين، وهو التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ في شأن الرزق، في شأن الدراسة، في شأن الزواج، وكثير من هذه الأمور، وهذا حسن طيب.

ولكن الخطأ ها هنا هو أنه يغفل على أنّ التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ فيما هو أهم من هذه الأمور هو أولى وأعظم وأشرف، التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ في عبادته جَلَّوَعَلَا لا شك أنه أعظم، ولذلك أحوج الناس إلى التوكل في عُباد الله سبحانه، الصائم الذي يصوم أو يريد أن يصوم، والمصلي الذي يريد أن يصلي، والقائم الذي يريد أن يقوم، والداعي الذي يريد أن

يدعي، والمحتسب الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وطالب العلم الذي يريد أن يطلب العلم، هؤلاء مطالبون بالتوكل على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في هذه الأمور أعظم من غيرها.

ولذلك أنبياء الله جَلَّوَعَلَا كانوا أعظم الناس في التوكل بشأن الدعوة والبلاغ والبيان، وقالوا: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾[إبراهيم:١٢]، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾[النمل:٧٩]، هكذا يُخاطب نبينا جَلَّوَعَلَا ويأمر نبيه محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أنت على الحق المبين فتوكل على الله وادعوا إلى الله.

شتان من توكل على الله في هداية قلبه وهداية الخلق، ومن يتوكل على الله عَزَّوَجَلَّ في شأن رغيف، هذا توكل وهذا توكل وكله خير، ولكن شتان بين توكلين.

إذًا هذا من المقامات التي نحتاج التي يُذكر بشأنها، وهي أنّ التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ في شأن الهداية والإيمان والتوحيد والثبات على الدين هذا من أهم الأمور، وإنه ليقطع الغرور وتعلق القلب بغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

[الصنف الخامس] ما يقع من بعض الناس من أخطاء لفظية، فإن صادفت شيئاً يقع في القلب كان هذا خطأ إلى خطأ، أما إن لم يكن شيء واقع في القلب لكنه عرض على اللسان فقط، فهذا خطأ، وينبغي لهؤلاء أن يتنبهوا لذلك، وذلك أن بعض الناس يقول: يا فلان الأمر عليك، أو: على الله وعليك، وأريد أنه وكله في الأمر لا يريد أنه يعتمد في قلبه ويفوض الأمر إليه كما هو يفوضه إلى الله، ولكنه أخطأ في هذه التسوية بين الله عَزَّوَجَلَّ والمخلوق في اللفظ.

فهذا من الأمور التي ينبغي التنبه لها، وسيأتي إن شاء الله باب خاص بشأن هذا النوع من الشرك الخفي في الألقاب.

وبالتالي يحسن أن نقف وقفه مع قول الإنسان أنا متوكل عليك عندنا ها هنا ألفاظ:

أولًا: قول الإنسان: أنا متوكل عليك.

ثانيا: قول الإنسان: أنا متوكل على الله ثم عليك.

ثالثا: قول الإنسان: أنا متوكل على الله وعليك.

عندنا ثلاث ألفاظ.

أما اللفظ الثالث، فهو قول الإنسان: أنا متوكل على الله وعليك، لا شك أنه لا تجوز هذه التسوية، وسنتكلم عن هذا إن شاء الله بالتفصيل في الباب الخاص بذلك.

نأتي الآن في اللفظين الأولين: قول الإنسان: أنا متوكل على الله ثم عليك، أو أنه يقول أنا متوكل عليك، بعض أهل العلم رخص في ذلك من جهة أنّ المتكلم يريد التوكيل لا التوكل، يعني في لسان العامة هو لا يريد التفويض القلبي والاعتماد بفؤاده، إنما يريد فقط أنه وكله في هذا الشأن.

ولكن الصواب أنّ هذا اللفظ خطأ وان كان لم يخطئ بقلبه، لكن مجرد هذا اللفظ لا يجوز، ويجب أن ينهى عنه، لأن التوكل عبادة، ولا يجوز للإنسان أن يتوجه بالعبادة ولو لفظا لغير الله جَلَّوَعَلَا، ولذلك نقول لهذا الإنسان قل: أنا متوكل على الله ووكلتك، أو: أنا أوكلك.

التوكيل شيء والتوكل شيء آخر، التوكيل إقامة الإنسان غيره مقامه في شيء من الأشياء، يعني ينيب الإنسان غيره أن ينفذ شيء ما؛ هذا هو التوكيل، هذا هو التوكيل، أما التوكل فشيء آخر، التوكل كما علمنا عبادة لله عَزَّوَجَلَّ والعبادة لا يجوز أن تُصرف لغير الله عَزَّوَجَلَّ ولو بمجرد اللفظ، ولذلك هذا من الأمور التي ينبغي أن ينبه عليها الناس، إن قال أنا قصدي حسن نقول الحمد لله أن قصدك حسن، ولكن يبقى أن تُصوب اللفظ الذي أنت عليه، وبذلك ينتشر الخير ويقل الشر.

٤٩

٤٩- باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

(المجلس الثاني)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب

قول الله تعالى:

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[المائدة:٢٣]

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الأنفال:٢] الآية.

فقبل أن نتكلم عن هذه الآية التي سمعناها، ينبغي أن نُقدم بالكلام على الآية التي بوب المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب عليها، ألا وهي قول الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[المائدة:٢٣] هذه الآية مقولٌ للرجلين اللَّذين هما من الذين يخافون، وأنعم الله عليهما وكانا من قوم موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

وسياق الآية أن موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قال لقومه: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾[المائدة:٢١]. فكان جواب بني إسرائيل قالوا: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾[المائدة:٢٢].

هنا قال رجلانِ من بني إسرائيل من قوم موسى من المؤمنين، ﴿قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ ، وصفهم الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بالخوف منه جَلَّوَعَلَا، وهذا هو الأقرب في أقوال أهل التفسير، ﴿قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أنعم الله عليهما بالتوفيق، وبقول كلمة الحق في ذلك الموضع: ﴿قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[المائدة:٢٣].

هذه الآية وجدت إن تأملت فيها فوائد:

أولاً: فيها الدليل على وجوب التوكل، ووجوب إخلاص التوكل على الله، وذلك من وجهين:

[الوجه الأول]: من تقديم الجار والمجرور، وعلى الله فتوكلوا، ومعلوم في لغة العرب أنّ تقديم المعمول الذي هو هنا الجار والمجرور يفيد الحصر، أي معنى الآية فتوكلوا على الله لا غيره، فتوكلوا على الله لا غيره.

والوجه الثاني: أنّ الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بين في هذه الآية أنّ تحقيق التوكل شرط في الإيمان، قال ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، لاحظ (إن) هنا الشرطية، وجواب الشرط محذوف للعلم به، إن كنتم مؤمنين فتوكلوا عليه، هذه الآية دليل صريح على وجوب التوكل على الله سبحانه، وإخلاص هذا التوكل له جَلَّوَعَلَا.

[ثانيًا]: الجمع بين بذل السبب، وتفويض الأمر إلى الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ والاعتماد عليه، ألم تر إلى أن الآية كان فيها أولا حث على بذل السبب: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾[المائدة:٢٣]، ثم كان الاعتماد على الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾[المائدة:٢٣]، ابذلوا ما تستطيعون بحزم وعزم، ومن ثم يكون الاعتماد والتفويض إلى الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وهذا يؤكد ما ذكرناه سابقاً من أنّ بذل السبب والتوكل أمران مقترنان لا متنافران.

والآية فيها مباحث كثيرة، ولكن الشاهد في هذا الموضع بيان أنّ التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ عبادة واجبة، ونظير هذه الآية قول الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[التوبة:٥١]، فإنّ فيها إيجاب التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ وحصر وقصر هذا التوكل على الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:
وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الأنفال:٢] الآية.

هذه الآية في مطلع سورة الأنفال ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال:٢]،هذا هو موضع الشاهد من الآية.

الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وصف المؤمنين حقاً بهذه الصفات الخمس العظيمة:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[الأنفال: ٢-٣].

والحكم بعد ذلك من العلي العظيم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كان: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[الأنفال: ٤].

الشاهد أنّ من صفات أهل الإيمان حقًّا الذين حققوا الإيمان، أنهم يتوكلون على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ، فدل هذا على فضيلة عبودية التوكل لله سبحانه. وأيضا على وجوب الإخلاص في التوكل، ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي يتوكلون عليه لا على غيره.

وبالتالي فإنه لا يجوز بحال أن يتوكل الإنسان على غير الله سبحانه، كما أنه لا يجوز له أن يصلي لغير الله، كما أنه لا يجوز له أن يسجد لغير الله، كما أنه لا يجوز أن يطوف بمحلٍ إلا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والطواف لا يكون عبادةً إلا إذا كان ببيت الله.

الشاهد أنّ التوكل عبادةً شأنها شأن بقية العبادات التي يجب إخلاصها لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولا يجوز الإشراك فيها مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النساء: ٣٦].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ومن اتبعك من المؤمنين﴾[الأنفال: ٦٤].

هذه الآية اختلف المفسرون فيها، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾[الأنفال: ٦٤]، خطاب للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال: ٦٤]، قال بعض أهل التفسير:

وهذا القول الأول: حسبك الله وحسبك المؤمنون، وهذا قول بعض أهل التفسير وقلة من المتقدمين.

القول الثاني: يا أيها النبي حسبك الله وحسب المؤمنين، يعني: الله حسبك وحسب المؤمنين.

وهذا القول الثاني قول أكثر أهل التفسير، وهو الصواب الذي لا شك فيه.

يا أيها النبي حسبك الله وحسب المؤمنين الله، فالله جل وعلا حسب نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكذلك هو حسب أصحابه.

الحسب هو: الكفاية والنصرة، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حسب نبيه والمؤمنون؛ يعني هو كافيهم وهو ناصرهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقلنا إن هذا هو الصواب الذي لا شك فيه، لدلالة الأدلة على ذلك.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال:٦٢]، هذه الآية على وزان الآية التي بين أيدينا ففيها لما ذكر الحسب قصره على الله عَزَّوَجَلَّ فإن حسبك الله، لكن لما جيء إلى التأييد، فإنّ التأييدَ يكون من الله عَزَّوَجَلَّ بنصره وكذلك يكون من المؤمنين، يسخرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيكونون مؤيدين للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال:٦٢].

إذن هذه الآية تدل على أنّ الحسب إنما هو شيء مقصور ومحصور على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يجوز أن يكون حسباً إلا هو جَلَّ وَعَلَا.

وقل مثل هذا في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة:٥٩]، لما ذكر الحسب قصر على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أما الإيتاء، فإن الله عَجَلَّ يؤتي من فضله، وكذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤتي في حياته، فهو يؤتي العلم ويؤتي الخير ويؤتي المال قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[الحشر:٧]، فدل هذا على أنّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤتي، وإيتاءه يليق به، والله عَجَلَّ يؤتي وإيتاءه يليق به، أما الحسب فكما قال ربنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿وقالوا حسبنا الله ورسوله﴾، إنما كان الحسب مختصاً بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا الذي يقوله المسلمون كافة في الكلمة العظيمة كلمة الاعتماد والتفويض التي سيأتي الحديث عنها إن شاء الله، يقول فيها المسلمون كافة: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾، لا يقولون حسبنا الله ورسوله، لا يقولون حسبنا الله والمؤمنون، إنما يقولون ماذا ! حسبنا الله فقط، ولا يُشركون مع الله عَزَّوَجَلَّ غيره في هذه الكلمة، فدل هذا على أنه لا يجوز أن يكون حسب لأحد إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذه الآية الشاهد من إيرادها في كتاب التوحيد، بل في هذا الكتاب المتعلق بالتوكل، أنه لما كان الله عَزَّوَجَلَّ وحده حسب المؤمنين، لما كان الله عَزَّوَجَلَّ وحده حسب المؤمنين وجب أن يتوكل عليه وحده، لما كان الله عَزَّوَجَلَّ حسب المؤمنين وحده، وجب أن يكون التوكل عليه وحده، لو كان يجوز أن يكون غيره حسباً لجاز أن يُتوكل عليه، لكن لما كان الحسب مقصوراً ومختصاً بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وجب بناءاً على ذلك أن يكون التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ.

إذن هذا ما جاءت به الآية دليل على وجوب إفراد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بالتوكل.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق:٣].

كذلك الأمر في هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق:٣] يعني: كافيه وناصره، وهذه الآية فيها بيان الثمرة والغاية التي تكون من التوكل على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى فإنّ من توكل على الله فليبشر أن الله عَزَّوَجَلَّ كافيه وناصره، فماذا يريد بعد ذلك؟ وإذا كان الله عَزَّوَجَلَّ هو المتولي أمرك، إذا كان الله عَزَّوَجَلَّ كافيك وناصرك، إذا كان الله عَزَّوَجَلَّ هو حسبك فلن يضرك شيء، ولو أنك كنت في وسط السباع المفترسات، بل لو كادك أهل الأرض والسموات، لن يضرك ذلك شيئاً؛ لأنّ القوي القدير الغني سُبْحَانَهُوَتَعَالَى هو الذي يتولاك وهو الذي ينصرك، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء، وكل شيء ففي قبضة يده وفي سلطانه وتحت تدبيره، فأي شيء يُخيفك وأي شيء يتسلط عليك بالأذى والله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يتولى أمرك.

أرأيت لو أنّ رجلاً، قال له ملك من الملوك: أنت في كفالتي، وأنت تحت رعايتي، فامضِ ولا تبالي بأحد. كيف يكون حاله؟ سيكون مطمئناً مرتاحاً لا يبالي بأحد، أليس كذلك؟ هذا وهو ملكٌ في حقيقته مملوك، مملوك لله جَلَّوَعَلَا، ولا يستطيع أن يدبر شيئاً إلا بمشيئة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى فكيف إذا كان العبد الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يتولى أمره، وهو الذي حسبٌ له سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؟ لا شك أن حاله سيكون حال المطمئن الساكن، الذي لا يخاف أحداً ولا يبالي في الحق أحداً، لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى إن كان حسبك فإنه جَلَّوَعَلَا سيتولى أمرك، وسيكفيك كل ما يسوؤك.

لكن الشرط هو أن تكون قد حققت التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ ومن هنا يؤتى من يؤتى، قد يقول بعض الناس من أين أُتيت؟ وأنا قد توكلت على الله عَزَّوَجَلَّ لكن سُلط عليَّ؟ الجواب: راجع نفسك، ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾[آل عمران:١٦٥]، ونحن نُشهد الله عَزَّوَجَلَّ على أنّ ما أخبرنا به حق وصدق: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾[النساء:٨٧]، فمن توكل على الله عَزَّوَجَلَّ فهو حسبه قطعاً لا شك في ذلك ولا ريب، لكن الإشكال إنما هو في تقصير الإنسان في تحقيق الشرط، شرط أن يكون ربنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَى حسب عبده أن يكون محققاً للتوكل.

والتوكل كما قلت لك في الدرس السابق، التوكل حقيقته وقيامه بالقلب شيء وتصور معناه شيءٌ آخر، كثير من الناس يعلم ما هو التوكل، ممكن أن يشرحه ويفسره ويتكلم فيه بالساعات، لكن هذا الشيء وكونه يقوم بالتوكل حقيقةً فيكون معتمداً ومفوّضاً وواثقاً بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ومحسناً الظن به جَلَّوَعَلَا، هذا أمر لا يُوفق إليه إلا الخُلّص من عباد الله.

كما مر بنا في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، قال عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ: «وعلى ربهم يتوكلون»، هذا مقام لا يبلغ الدرجة العليا منه حقيقةً إلا كُمَّل المؤمنين، إلا الذين حققوا التوحيد: حققوا التوحيد الواجب وارتقوا إلى تحقيق التوحيد المستحب، والله المستعان

قال رَحِمَهُٱللَّهُ:

عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: ((حسبنا الله ونعم الوكيل؛ قالها إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ حين ألقي في النار، وقالها محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حين قالوا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فزادهم إيمانًا، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل)) رواه البخاري.

هذا الأثر عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا مخرَّج في ((صحيح البخاري)) وغيره وهو يبين فضيلة هذه الكلمة العظيمة، وأن أعظم الناس توكلاً على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وهما الخليلان عليهما الصلاة والسلام -إبراهيم ومحمد- أنهما قالا هذه الكلمة وقت الشدة، فكان من الله عَزَّوَجَلَّ الفرج.

قال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: حسبنا الله ونعم الوكيل، هذه الكلمة العظيمة التي يلهج بها أهل الإيمان وشأنها وقت الشدائد عجيب، وأثرها لا يعلمه إلا من قالها بصدق ورأى أثرها بتوفيق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

هذه الكلمة قالها إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ حين ألقي في النار، وجاء في رواية عند البخاري، عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنها كانت آخر كلمة تكلم بها قبل أن يقذف في النار، قال حسبي الله ونعم الوكيل، وكان أن جاء الفرج من عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[الأنبياء:٦٩].

كذلك الحال في خليل الله محمدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حينما قال الناس: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾[آل عمران:١٧٣]، وذلك أنّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه معه كانوا في طريق عودتهم بعد أحد وقد أصابهم ما أصابهم في هذه المعركة مما تعلمون، كانوا في طريقهم عائدين إلى المدينة، فبلغهم خبر وهو أن المشركين أرادوا أن يعودوا إليهم ليستأصلوا شأفة المسلمين، وما كان من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه إلا أن قالوا: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[آل عمران:١٧٣]، ثم إنهم تقدموا من أجل أنهم يريدوا أن يلاقوا هؤلاء المشركين، حتى وصلوا إلى حمراء الأسد، أو المكان القريب من المدينة من الجهة الجنوبية، فلما بلغ المشركين ذلك، قذف الله عَزَّوَجَلَّ الرعب في قلوبهم، فانصرفوا راجعين إلى مكة، وسلم الله المؤمنين من هذا الأمر، وانقلبوا بنعمة من الله وفضل.

فالشاهد أنّ هذه الكلمة كلمة عظيمة فيها تحقيق التوحيد لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيها تحقيق التوحيد العلمي، وفيها تحقيق التوحيد العملي، فيها تحقيق توحيد المعرفة والإثبات، وفيها تحقيق توحيد القصد والطلب.

والتوكل عبادة تَقْرِنُ وتمزج بين الأمرين، فيها كما قد تعلمنا في درس أمس، أنّ الركن الأول الذي يقوم عليه بناء التوكل، تحقيق التوحيد العلمي، أو توحيد المعرفة والإثبات، الذي يجمع توحيدين الربوبية، والأسماء والصفات، ولذلك لو تأملت في قول الله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾[الفرقان:٥٨]، فانظر كيف أنّ التوكل كان على هذا الرب العظيم، وهذا وصفه أنه حي لا يموت، ولذلك كلما عَظُمَ هذا التوحيد في قلبك، كان التوكل عندك عظيماً، والعكس بالعكس.

ثم في هذه العبادة تحقيق لتوحيد الألوهية يعني توحيد العبودية، وذلك بأن يقوم بقلب الإنسان من حسن الظن بالله جَلَّوَعَلَا والثقة به، والتفويض والاعتماد عليه، وهذه عبادة جليلة كما ترى، وهذا هو التوحيد العملي، فاقترن الأمران بهذه العبادة، عبادة التوكل، ولذلك قلنا إنّ هذه العبادة، إنما يقوم بها المحققون، لا يقوم بها على وجهها الكامل إلا المحققون بالإيمان.

وهذه الكلمة تشتمل على جزأين:

حسبنا الله.

ونعم الوكيل.

[الشطر الأول]: (حسبنا الله) يعني: كافينا وناصرنا، إقرارٌ بأنّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو من بيده الكفاية والنصرة جَلَّوَعَلَا.

والشطر الثاني: (ونعم الوكيل)، ولاحظ أنّ مخصوص (نِعْمَ) محذوف للعلم به، ونعم الوكيل هو، ونعم الوكيل الله، فالله نعم الوكيل جَلَّوَعَلَا.

والوكيل هو من إليه التفويض.

ولاحظ معي أنّ هذه الكلمة (ونعم الوكيل) فيها بيانٌ أنّ الله عَزَّوَجَلَّ وكيل عباده فالتوكيل يكون إليه وهذا شيء آخر.

كنا نتكلم قبل قليل عن التوكل عليه، والآن نتكلم عن التوكيل إليه، وكلاهما ثابت في حق الله جَلَّوَعَلَا كلا الأمرين ثابت، التوكل والتوكيل.

ولاحظ الفرق الدقيق بين الأمرين، التوكل الأصل في معناه: الاعتماد، والتوكيل الأصل في معناه من جهة اللغة هو: التفويض، وإن كان الأمران مقترنين في حق الله عَزَّوَجَلَّ الأمران في حق الله مقترنان، فالله جَلَّوَعَلَا إليه التفويض وعليه الاعتماد، أما في حق المخلوق فالأمر مختلف، أما التوكل فإنه لا يصح أن يكون متعلقاً بالمخلوق على ما فهمنا هذا في درس أمس، لأن حقيقة التوكل والركن الأعظم في التوكل إنما هو الاعتماد القلبي، وهذا لا يجوز أن يتوجه به العبد إلا لمولاه جَلَّوَعَلَا.

أما التوكيل فإنه مختلف، التوكيل تفويض، ولذلك يُفوض المخلوق فيما يليق به، كما أن الله عَزَّوَجَلَّ يُفوض إليه ما يليق به، ولذلك جاءت النصوص بصحة توكيل المخلوق، وعدم التوكل على المخلوق، انتبه إلى الفرق.

التوكيل جائز قلنا التوكيل تفويض، أن يفوض أحد غيره في أن يقوم مقامه، أفوض إنسان غيره في أن يقوم مقامه في أمر من الأمور، وهذا أمر سائد.

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكّل علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن يذبح بقية هدْيِه، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكل عروة بن الجعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في شراء شاة في القصة المعروفة.

إذن هذا التفويض لا إشكال فيه، وليس فيه أي شائبة أو قدح في التوحيد، بل الغالب أو مما يكثر أن يكون الموكِّلُ أرفع درجة من الموكل صح ولا لا، يكثر أن يكون الموكِّل أرفعُ درجة من الموكَّل، وبالتالي فإنه لا إشكال في أن يُوكل المخلوق، لا إشكال في ذلك.

أما في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يوَكَّلُ بمعنى: يفوض إليه كل شيء، فالتوكيل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمعنى التفويض هو تفويض العاجز من كل وجه، الفقير من كل وجه إلى القدير العظيم الغني الذي له الغنى المطلق، فتوكيل العبد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تفويضٌ لأمره كله؛ لأنه يعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم بما يصلحه وأقدر على إصلاح شأنه، فخيرة الله له خير من خيرته لنفسه، ومشيئة الله عَزَّوَجَلَّ له خيرٌ من مشيئته لنفسه.

ولو أردنا أن نقرب فهم هذا الأمر في شأن التفويض، تفويض العبد لمولاه جَلَّ وَعَلَا وعلا تأمل معي في حال طفل صغير في أرض مخافة مع أبيه، كيف سيكون حاله من جهة تفويض أمره إلى أبيه، المقام مقام خوف، والمكان مكانٌ مُخيف، وهذا الطفل معه أبوه، كيف ترون هذا الطفل يصنع؟ أليس يفوض أمره إلى أبيه ويلقي المقاليد كلها إليه، يفعل هذا أم لا!

نعم لأنه يعلم أنّ أباه لو تخلى عنه الآن لهلك، يعلم أنّ أباه أعلم بالمصلحة، يعلم أنّ أباه قادر على أن يحميه، يعلم أن أباه يحبه ويريد له الخير ولا يمكن أن يخذله، أليس كذلك؟ ولذلك تجده متمسكاً به، مطيعاً له، مهما وجهه توجه، هذا مجرد شيء يقرب لك الصورة والأمر بين المخلوق وخالقه أعظم من ذلك بكثير.

المؤمن حقًا حينما يُوكل أمره لربه، ويُفوض شؤونه إليه جَلَّ وَعَلَا حاله أعظم بما لا مقارنة، مع حال الطفل مع أبيه.

إذن هذا الأمر المهم الذي ينبغي أن يلاحظه من أراد أن يكون من أهل التوحيد والتفريد.

ولاحظ معي أيضا أنّ أمر التوكيل ثابت من الجهتين، فالله عَزَّوَجَلَّ موَكِّلٌ، والله عَزَّوَجَلَّ موَكَّلٌ، العبد يوكِّل الله جَلَّوَعَلَا، والله جَلَّوَعَلَا يوكِّل عبده، كلا الأمرين ثابت.

ولكن ليس التوكيل كالتوكيل، ولا الموكَّل كالموكِّل.

توكيل العبد لربه هو تحقيق للربوبية، وقيام بالعبودية، أما توكيل الله عَزَّوَجَلَّ لعبده وهذا حق وثابت، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿**فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ**﴾**[الأنعام:٨٩]**، إذن الله عَزَّوَجَلَّ موكِّل عبده أو عباده، لاحظت هذا توكيل الله عَزَّوَجَلَّ لعبده هذا توكيل أَمْرٍ وتعبيدٍ وإحسانٍ وإكرامٍ واجتباء.

إذن شتان بين التوكيل والتوكيل، ﴿**فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ**﴾، يعني أقمناهم وكلفناهم وأمرناهم بأن يقيموا شريعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى في أرضه وبين عباده.

إذن هذا يختلف عن توكيل العبد لربه، توكيل العبد لربه، توكيل فيه ذل وافتقار وتعبد لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى

أما بالنسبة لتوكيل الله عَزَّوَجَلَّ لعبده الأمر فيه مختلف، الله عَزَّوَجَلَّ هو الغني، توكيله لعبده لا عن حاجة منه وحاشا، الله عَزَّوَجَلَّ هو الغني المستغني عن كل ما سواه، وكل شيء فمفتقر إليه **جَلَّوَعَلَا** ، الأمر يا رعاك الله مختلف إنما توكيل الله عَزَّوَجَلَّ لعبده إنما هو أمر وتكليف، ولذلك جاءت النصوص في هذا كما سمعت.

وكما أيضا ثبت في صحيح البخاري أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**إن الله وكّل بالرحم ملكاً، فيقول الملك يا رب نطفة، يا رب علقة، يا رب مضغة**» إلى آخر الحديث. الشاهد أنّ الله عَزَّوَجَلَّ يُوكل عبده، ولكنه توكيل مختلف.

إذن علمنا بهذا أنّ التوكيل ثابت من الجهتين: الله عَزَّوَجَلَّ يوَكِّل، والله عَزَّوَجَلَّ يوَكَّل، الله عَزَّوَجَلَّ يوكل عبده ، وكذلك العبد يوكِّل ربه، ولكن هناك فرق بين التوكيل والتوكيل، وبين الموكَّل والموكِّل.

الشاهد أنّ هذه الكلمة كلمةٌ يتمثل فيها تحقيق عبادة التوكل على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى حينما يقول الإنسان : حسبنا الله ونعم الوكيل، كلمة يعبر بها الإنسان عن اعتماده وتوكله على ربه جَلَّوَعَلَا وهذه كلمة كما قد علمنا كلمة يشفع قولها في الشدائد وهي من أبواب

الفرج التي لا ينبغي أن يغفلها المسلم، وله في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسوة حسنة، وله في الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أسوة حسنة.

في كل أمر شديد من أمر الدنيا، أهل الإيمان على لسانهم تجري هذه الكلمة، ويكون لها أثر ووقع في قلوبهم أيضا.

تذكرون قصة الثلاثة الذين تكلموا في المهد، لحديث مطول عند مسلم، وهذا الشاهد جاء مختصراً عند البخاري، وفيه قصة ذلك الطفل الذي كان يرضع من ثدي أمه، فمرت تلك الفتاة التي كانوا يضربونها ويقولون سرقتي وزنيتي ، وهي لا تزيد على أن تقول: حسبي الله ونعم الوكيل.

إذن هذا مما لا ينبغي أن لا يغفله المظلوم، ويُبشر بفرج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إن ظلمت فأجعل هجراك حسبي الله ونعم الوكيل، بل حتى إذا أهمك أمر الآخرة، فإنّ مما يخفف الأمر، ويعين بعون الله عَزَّوَجَلَّ وتوفيقه ، ومما يعين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على تخفيف هذا الأمر على عبده أن يقول الإنسان، حتى في شدائد الآخرة : حسبي الله ونعم الوكيل.

الشاهد هذا ما خرجه الترمذي في ((جامعه)) والإمام أحمد بإسناد صحيح من رواية عدد من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«وكيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن، وأحنى جبهته ينتظر الإذن، متى يُأمر بالنفخ فينفخ»**.

صاحب القرن يعني :صاحب الصور وهو إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ التقم الصور الذي هو القرن وينتظر الإذن، متى يؤمر من الله عَزَّوَجَلَّ بالنفخ فينفخ، فأشتد الأمر على أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **«قالوا: وكيف نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا، قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا»**.

٥٠

٥٠- باب قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

(المجلس الأول)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب

قول الله تعالى:

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

[الأعراف:٩٩].

هذا الباب الذي بوب عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[الأعراف:٩٩].

بوب المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب بعلاج مرضين قد يعرضان للقلوب:

المرض الأول: الأمن من مكر الله وهذا ما قدَّم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الدليل عليه في هذه الآية التي سمعت.

أما المرض الثاني: فهو القنوط من رحمة الله، ودليله سيأتي إن شاء الله في الآية التي تأتي بعد هذه الآية.

ومعلومٌ أنّ كلا هذين المرضين ينتجان عن عدمٍ أو ضعفٍ للخوفِ والرجاء، فإن الأمن من مكر الله ثمرة لعدم أو ضعف الخوف من الله، والقنوت من رحمة الله ثمرة لعدم أو ضعف الرجاء في الله.

الخوف من الله مضى الحديث فيه، وبقي الكلام عن الرجاء.

الرجاءُ هو ملاحظة سعة الرحيم سبحانه، والطمع في فضله جَلَّ وَعَلَا، وحسن الظن به؛ هذا هو الرجاء ملاحظة العبد سعة رحمة الرحيم جل في علاه والطمعُ فيما عنده، وحسنُ الظن به هذا هو الذي يُعبر عنه بالرجاء.

وقد جاء في الأدلة ثلاثة ألفاظ تدل على هذا المعنى:

اللفظ الأول: الرجاء: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾[الإسراء:٥٧]، في أدلة كثيرة.

واللفظ الثاني: هو الطمع: ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾[المائدة:٨٤].

و[اللفظ]**الثالث**: الرغبة: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾[التوبة:٥٩]، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[الأنبياء:٩٠].

هذه ثلاثة ألفاظ متقاربة تدل على معنى الرجاء في الجملة.

أما عن الأسباب التي تدعوا القلب إلى أن يرجوا الله جَلَّوَعَلَا فذلك سببان:

[السبب] الأول: حسنُ التعبدِ لله جَلَّوَعَلَا بأسمائه التي تدل على معاني الرحمة، والكرم، والمحبة، والأمر كما قال النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: (أكثر أسماء الله تعالى تدعوا القلب إلى محبة الله) فالله جَلَّوَعَلَا هو الرحمن، الرحيم، الرؤوف، الكريم، البر، الودود، جل في علاه.

تأمل العبد وتعبده بهذه الأسماء يكسبُ القلب الرجاء في ربنا جَلَّوَعَلَا.

وفي ((صحيح مسلم)) يقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «لولم تذنبوا لذهب الله بكم ولأتى بقومٍ يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم».

إذن مغفرة الله عَزَّوَجَلَّ ورحمته شيءٌ عظيم لا يحيط به فكر: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾[الأحزاب:٤٧]، قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: (ما أعطى أحد عطاءاً خير من حسن ظنه بربه)، كيف لا والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقول كما في الصحيحين: «أنا عند ظن عبد بي»، وزاد أحمد وابن حبان: «فليظن بي ما شاء».

ظُنَّ بربك يا عبد الله ما تعتقد أنه أهلٌ له، وستجد ربك جَلَّوَعَلَا مجيبًا لما ترجو.

وما أحسن ما قال سفيان الثوري رَحِمَهُٱللَّهُ وقد عزم رجاءه في ربه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ قال: (لو خيرت بين أن يحاسبني أبي أو يحاسبني ربي لاخترت ربي؛ ربي أحسن لي من أبي، ربي خيرٌ لي من أبي) وصدق.

إذن هذا سببٌ أول يدعوا القلب إلى رجاءٍ عظيم الرحيم سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

أما السبب الثاني: فإنه مطالعة النصوص وأدلة الرحمة والمغفرة التي كثر ورودها في الكتاب، والسنة قال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الزمر:٥٣]، وباجتماع هذين السببين وحسن تأمل الإنسان فيهما فإنه يصل لتوفيق الله جَلَّوَعَلَا إلى تحقيق هذه العبودية.

يبقى أن ننظر في متعلق الرجاء ما الذي يرجوه الإنسان، الرجاء متعلق بأمرين:

الأول: رجاءٌ قبول الحسنة، والإثابة عليها يرجوا الإنسان أنّ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يقبل حسناته ويثيبه عليها وهذا ما دلت عليه أدلة كثيرة ومنها أدلة تحث العباد على أن يلاحظوا ذلك الأمر ألم تر إلى قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في هذه العبادة العظيمة التي نحن فيها - الشيء بالشيء يذكر- قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**»، «**من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**»، «**من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**».

الاحتساب ها هنا هو الذي نتحدث عنه وهو رجاء قبول الحسنة والإثابة عليها.

[الثاني]: فإنه رجاء مغفرة السيئة والعفو عنها، وذلك من أدلة قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿**وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**﴾**[الشعراء:٨٢]**، فالمسلم الصادق في إيمانه يطمع أن يمن الله جَلَّوَعَلَا عليه بأن يتجاوز عن سيئاته، ويعفو عن زلاته.

إذن هذا هو الرجاء الشرعي ولكن تنبه يارعاك الله إلى أنّ الرجاء الشرعي لا يكون كذلك إلا باجتماع أمرين لن يكون الراجي راجيًا إلا حققهما:

أما [الأمر] الأول: أن يكون رجاءه مشوبًا بالخوف، وهذه المسألة تكلمنا عنها سابقًا وقلنا إن الرجاء والخوف من المختلفات التي تجتمع في القلب، بل لابد من اجتماعها في القلب، لابد أن يجمع الإنسان الرجاء والخوف حتى يكون سيره إلى الله جَلَّوَعَلَا سيراً صحيحًا، وإلا فإن هذا السير يكون معتلًا، وسيميلُ الإنسان إلى جانب من جانبي العقد والخلل: إما القنوط وإما الأمن من مكر الله.

إذن لابد من اجتماع الأمرين: ﴿**وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا**﴾**[الأنبياء:٩٠]**.

ولو تأملت بالأدلة لوجدتها تدل على هذا الأمر حتى في أدلة الرجاء الخاصة، وحتى في أدلة الخوف الخاصة، تأمل معي مثلًا قول الله جَلَّوَعَلَا لإبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لاحظ كيف كان الجزم في ابتلاء الأشياء أو الأفعال التي ذكرها أو أضافها إلى الله جَلَّوَعَلَا: ﴿**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**﴾**[الشعراء:٧٨-٨٠]**، لاحظ كيف كان الجزم في هذه الأفعال، لكن لما كان المقام الآتي متعلقا بالرجاء لاحظ كيف كان رجاءً مشُوباً بالخوف قال: ﴿**وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**﴾**[الشعراء:٨٢]**.

في مقابل هذا تأمل في قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في وصف المؤمن الصادق قال: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾[ق:٣٣]، لاحظ أنه كيف علق الخشية باسم الله الرحمن وهذا يدلك على أن المطلوب يكون خوفًا ممزوجًا برجاء فأنت تخافُ رحمانًا عظيم الرحمة سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إذن المطلوب أن يجمع الإنسان بين الخوف والرجاء في كل الأحوال، في المسرة وفي حال الشدة، في حال الصحة وفي حال المرض، في حال الذنب وفي حال الطاعة، في كل أحواله يجب أن يكون جامعًا بين الخوف والرجاء، وهذا هو حال المتقين من عباد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هذا الأمر الأول الذي ينضبط به الرجاء ويكون رجاءً شرعيًا.

أما الأمر الثاني: فهو أن يكون الرجاء مقترنًا بالعمل؛ وهذا موضعٌ يغلط فيه كثيرٌ من الناس، فهم يغلطون ويخلطون بين الرجاء والإرجاء؛ الرجاء الشرعي الذي يكون عبودية حقيقية يقوم بها المؤمن هي الرجاءُ الذي يقترن به العمل الصالح، وما عدا ذلك فإنه أماني لا تغني عن الإنسان شيء في مقام الرجاء.

ولذلك تأمل في قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾[البقرة:٢١٨]؛ يعني: أولئك الذين يستحقون أن يكونوا راجين وليس غيرهم، من الذي حقًا يمكن أن يوصف بأنه راجٍ لله عَزَّوَجَلَّ الذي قام بالأعمال الصالحة، الذين آمنوا، والذين هاجروا، وجاهدوا في سبيل الله، أولئك وأولئك فقط هم الذين يرجون رحمة الله جَلَّوَعَلَا قال سبحانه: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف:١١٠]، هذا هو الرجاء الشرعي وما سواه كما قلنا فإنه أماني وأوهام.

إذن هذا هو مقام الرجاء؛ وإذا جمع الإنسان بين المقامين وكانا مستويين في قلبه، وكانت المحبة غالبة عليهما، لذلك يكون قلبه قلبًا حيًا قائمًا بالمصالح التي أمرها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بها.

نأتي الآن إلى الآية التي أوردها المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ ونتكلم عن المرض الأول الذي يعتل به القلب وهو مرض الأمن من مكر الله جَلَّوَعَلَا قال سبحانه: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[الأعراف:٩٩].

والمعنى أَفَهُم حالهم أنهم مصرون على معصية الله جَلَّوَعَلَا ثم أنهم يأمنون مكر الله جَلَّوَعَلَا ، ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا أنفسهم وفاتهم حظهم من رحمة الله جَلَّوَعَلَا.

ابتداء السياق قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٧-٩٩].

الأمن من مكر الله جَلَّوَعَلَا دليلٌ على انعدام أو ضعف الخوف من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وذلك أن أهل الإيمان الصادق عندهم خوفٍ من مكر الله جَلَّوَعَلَا، وهذا الخوف سببه أحد أمرين:

إما استرسالٌ.

وأما عُجبٌ.

وكلاهما من البلاء.

الأول: استرسالٌ في المعصية، فيغفل الإنسان عن ربه جَلَّوَعَلَا فيأمن من مكر الله.

والجانب الأخر جانب العُجب، أن يُعجب الإنسان بعبادته وقيامه بالطاعة، فيغتر، فيوكل إلى نفسه -والعياذ بالله-، فيكون آمنًا من مكر الله، ومن وكله الله سبحانه إلى نفسه فقد مُكر به -والعياذ بالله-.

والمؤمنون المتقون يخافون من هذا المقام خوفًا عظيما وذلك الخوف يرجع إلى أحوال وصور:

أولا: يخافون أعظم الخوف من أن يكون ذنبهم ومعصيتهم لله جَلَّوَعَلَا سببًا في أن ينسوا الله جَلَّوَعَلَا فينساهم، والله جَلَّوَعَلَا توعد من نسيه أن ينساه، ومن نسيه الله قطع توفيقه عنه وخذله والعياذ بالله ووكله إلى نفسه؛ ومن كان كذلك كانت له الخسارة وكانت حاله إلى دمار.

ثانيًا: يخاف المؤمن المتقي أن يكون بسببِ ذنبه ومعصيته قد مُكر به من جهة أن يُبتلى فلا يصبر فيفتن والعياذ بالله.

[ثالثًا]: أن تأتيه النُذُرُ وأن تأتيه العبر فلا يتعظ، ولا يكون قلبه حيًا متيقظًا، فبالتالي فإنه يخذل والعياذ بالله بعد أن يستدرج، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾[الأنعام:٤٢]، جاءتهم العبر، جاءتهم النذر لعل وعسى أن يحصل منهم تضرع إلى الله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام:٤٤-٤٥]، فقامت عليه الحجة وبلغته النِّذارة والبِشارة وجاءته العبر فلم يتعظ، فإنه يخشى أن يمكر الله عَزَّوَجَلَّ به.

إذن هذا المكر من الله جَلَّوَعَلَا بعبده مسببٌ عن المعصية والسيئة، وأعظم أن يكون مسببًا عن الكفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

والمكرُ تعريفه هو: الإيقاع بالخصم بكيفية خفية.

واعلم -يارعاك الله- أن المكر منقسمٌ إلى قسمين:

[القسم الأول]: مكر ممدوح.

[القسم الثاني]: مكر مذموم.

أما الممدوح فإنه المكر بمن يستحق.

وأما المكر **المذموم** فهو المكر بمن لا يستحق.

إن كان إيقاع المكر بمن يستحق كان مكرًا ممدوحًا.

وإن كان إيقاع المكر بمن لا يستحق كان مكرًا مذمومًا.

والله جَلَّوَعَلَا يتصف من القسمين بالممدوح، ويُنزه عن المذموم.

المكر المذموم الذي يكون فيه إيقاعٌ بالخصم بكيفية خفية، إذا كان بمن لا يستحق، كان متضمنًا كذبًا أو ظلمًا، أو كان متضمنًا كليهما، والله جَلَّوَعَلَا يُنزه عن ذلك الله سبحانه بكماله منزه عن كل نقص وعيب جَلَّوَعَلَا.

أما المكرُ بمن يستحق فهذا المكر مكرٌ يلاحظ فيه أنه مدح؛ لأن هذا المكر اجتمع فيه ثلاثة أمور:

أولًا: اجتمع فيه الدلالة على عدل الله جَلَّ وَعَلَا والعدلُ ممدوحٌ أم مذموم؟ ممدوح لأن مكر الله جَلَّ وَعَلَا لمن يستحق المكر عقوبة وإيقاع العقوبة في محلها مدح أو لا؟ إيقاع العقوبة في محلها مدح.

إذن هذا مكرٌ ممدوحٌ من الله جَلَّ وَعَلَا.

ثانيًا: هذا المكر الممدوح الذي كان بمن يستحق دليلٌ على قدرة الله، حيث إنه جَلَّ وَعَلَا يفعل ما يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا رادَّ لأمره، فالله على كل شيءٍ قدير، وهذا مدحٌ في حق الله جَلَّ وَعَلَا.

[وثالثًا]: أنّ في هذا المكر دليلًا على حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الله له الحكمة البالغة، بحيث أنه قابل مكر الماكرين بمثله، بل بما هو أعظم منه وهذه حكمة ولذلك الله جَلَّ وَعَلَا أخبر عن نفسه بأنه خَيْرُ الْمَاكِرِينَ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[الأنفال:٣٠]، ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾[يونس:٢١].

قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾[الرعد:٤٢].

لاحظ هذه الآية العظيمة التي فيها تسلية للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين، يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[الرعد:٤٢]؛ يعني الذين قبل كفار قريش؛ كفار قريش أرادوا المكر بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ألم يقل الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾[الأنفال:٣٠].

إذن كانوا يمكرون بالنبي .صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾[الرعد:٤٢]؛

ما أعظم هذه الآية، كيف أنها تعطي المؤمنين طمأنينة وسكينة ورجاء في الله جَلَّ وَعَلَا.

وجه ذلك: أنّ الله تعالى أخبر أن الله له المكر جميعًا، وبالتالي فإنّ مكر غيره كالعدم، المكر الذي يقع هو مكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أما مكر هؤلاء فإنه لا يقع، ولا ينفع، والله جَلَّ وَعَلَا يجعله مُضمحلًا، هنا جاء الجواب قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾[الرعد:٤٢]؛ وبالتالي إنه سيستدرجهم ويوقعهم من حيث لا يشعرون.

ولذلك تأمل في قوله الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾[النحل:٢٦]، هذا من حكمة الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فإذن مكر الله جَلَّوَعَلَا صفة مدحٍ وصفة كمال، لأنه واقعٌ بمن يستحق، هذا المكر واقعٍ من الله جَلَّوَعَلَا بمن يستحق، ولذا أهل السنة والجماعة يثبتون هذه الصفة كما وردت، بمعنى:

تضاف هذه الصفة إلى الله جَلَّوَعَلَا مطلقة أو مقيدة؟

تضاف لله جل وعلا مقيدة؛ بما ورد؛ الذي ورد أن الله عَزَّوَجَلَّ يمكرُ بمن يستحق كالذين يمكرون بدين الله وبأوليائه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وهذا أحسن المكر وهذا صفة كمال لله جَلَّوَعَلَا.

أما إطلاق أنّ المكر صفة لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ هكذا دون تقيد، لا شك أنه مخالفٌ للنصوص وفيه نسبة ما لا يجوز، فهذه الصفة صفة مقيدة تُضاف لله عَزَّوَجَلَّ كما وردت ولا يشتق منها اسمٌ لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

وهذا الموضع موضعُ اختلاف بين أهل السنة والجماعة ومخالفيهم حيث إنّ أهل البدع أبو إضافة هذه الصفة لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ كما أخبر، وشأنها كشأنُ بقيت الصفات التي من هذا الجنس، يعني الصفات المنقسمة التي يضاف إلى الله عَزَّوَجَلَّ منها الممدوح لا المذموم، ومن ذلك معنى المكر، من ذلك الكيد، من ذلك الاستهزاء، من ذلك الخداع، وما إلى هذه الصفات، تضاف إلى الله عَزَّوَجَلَّ كما وردت.

أما المخالفون فإنهم لا يثبتونها لله جَلَّوَعَلَا، وإنما تقرأ في بعض الكتب التي ألفت على هذا النهج تجد أنهم إذا جاءوا بهذه الصفات فيقولون من باب المشاكلة، أي أنها لا تضاف حقيقة إلى الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

ولا شك أن هذا باطل وموضوع المشاكلة كما مر معنا في دروسٌ ماضية، هذا مبحث من مباحث العلم البديل للعلوم البلاغية، وهو: أن يُسمى الشيء بلفظ غيره، لوقوعه في محله حقيقة أو تقديراً، فالله جَلَّوَعَلَا لا يمكر عند هؤلاء، لكن جعل هذا من باب المجاز، وكان هذا على سبيل المشاكلة نقصد أنّ هذا لا شك أنه مسلكٌ مخالف لمسلك أهل السنة والجماعة، والصواب إثبات هذه الصفة لله جَلَّوَعَلَا كما وردت.

إذن الله جَلَّوَعَلَا يمكرُ بمن يستحق سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ومن ذلك مكره بالكفار الذين يعاندون الحق ويعادون دين الله، ويمكرون برسوله، ويمكرون بأوليائه، الله عَزَّوَجَلَّ يمكر بهم فيوقع بهم، ويوصل إليهم العقوبة من حيث لا يشعرون: ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾[النحل:٢٦].

وهذا القدر لابد أن يكون في القلب، كل إنسان فإنه يخشى أن يمكر الله عَزَّوَجَلَّ به، لا من جهة أنّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لا يحب عباده المؤمنين ولا يكرمهم ولا يتفضل عليهم، كلا؛ إنما ذلك مما يُخشى أن يكون عقوبة على الذنوبِ والمعاصي؛ فالذنوب والمعاصي لها آثار، ويخشى أن يكون من آثارها أن يمكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بمن يسترسل بها في هذه المعاصي ولا يبادر بالتوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، على ما وصفنا قبل قليل ربما يقع الإنسان في معصية، وينظر في نفسه فلا يرى عقوبة معجلة، فيدعوه هذا إلى الاغترار ويدعوه هذا إلى الاسترسال، يظنُ أن تأخر العقوبة ربما كان من عدم تأثير السيئة وأنها عديمة الأثر، وغفل هذا المسكين على أنّ الذنب مؤثرٌ ولابد، لكن لحكمة الله جَلَّوَعَلَا قد تتقدم العقوبة وقد تتأخر العقوبة، فإنَّ المكر بالعاصي أنه يسترسلُ في المعصية اتكالًا على عدم رؤية العقوبة، وهذا من أهم ما ينبغي على المسلم أن يتنبه له، وما أكثر الغفلة عنه.

أود أن أنبه ها هنا إلى مسألة مهمة، وهي أنّ بعض الناس إذا وصل لهذا المقام فإنه قد يتكلم عن مكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى الذي يُضاف إليه، قد يتكلم عنه بكلامٍ قد لا يكون فيه مراعاة مقام الأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يقدُر المتكلم الله حق قدره، بعض الناس إذا وصل إلى هذا المكر حذّر من مكر الله عَزَّوَجَلَّ بالعبد، وأن الله عَزَّوَجَلَّ قد يوقع بالإنسان بلا سبب.

وقد يستدل على هذا بأن الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾[الأنفال:٢٤]، بل ربما يستدل بقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إنّ العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى يكون بينه وبينها ما إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها».

ولذلك تجد الذي هو يُخطئ في فهم هذه الأدلة، ويقع في قلبه هذا الظن يعامل ربه معاملة من يريد أن يوقع بعباده ولا يريدُ أن يهديه ويبيِّن لهم، وهذا لا شك أنه من ضعف الإيمان بالله، ومن ضعف تعظيم الله.

اعلم يا عبد الله أن الله جَلَّوَعَلَا هو البر الرحيم، الكريم الشكور، إياك أن تظن أن ربك جَلَّوَعَلَا إذا أقبلت إليه أعرض عنك، إياك أن تظن أنك إذا عملت الحسنة جزآك عليها بأن وجهك إلى السيئة، إياك أن تظن أنّ الله عَزَّوَجَلَّ يجازيك على إيمانك وحسناتك بأن ينقلك من المسجد إلى الكنيسة، أو من الإسلام إلى الردة!

إياك أن تظن هذا في ربك.

الله جَلَّوَعَلَا أخبر وهو جَلَّوَعَلَا الذي لا يُخلف وعده أخبرنا أنه من أقبل إلى الله عَزَّوَجَلَّ أقبل الله إليه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد:١٧]، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل:٥-٧]، هذا هو الكريم، وهذا هو الرحيم، وهذا هو الشكور جَلَّوَعَلَا يشكرُ حسن عبادته فيثيبه عليها بحسنة بعدها.

ماذا عن هذه الأدلة التي سمعناها: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾[الأنفال:٢٤]؟

اعلم -يا عبد الله- أن هذا إنما هو بسببٍ من الإنسان، فيكون ذلك عقوبة من الله جَلَّوَعَلَا وليس أنّ الإنسان يُقبل على الله بالعمل الصالح فيجازيه الله على ذلك بأن يحول بينه وبين الهداية، حاشا وكلا، هذا لا يجوز أن يقال في حق الله.

بعض الناس ربما إذا تكلم في هذا الأمر، والمسألة لها خلفية عقدية ترجع إلى عدم تعليل هؤلاء أفعال الله جَلَّوَعَلَا بالحكمة البالغة، عند طائفة من أهل البدع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يجوز أن يفعل كل شيء، ولذلك يجيزون أن الله جَلَّوَعَلَا يُنعِّم في أعلى الجنان ألد أعدائه، ويعذب في أسفل سافلين أحب أوليائه إليه، ولا فرق بين هذا وهذا سوى أنه أراد هذا ولم يُرد هذا!

أما أهل السنة والجماعة يقولون: إن الله قادرٌ على كل شيء، والله على هذا قدير، ولكنه لا يفعله، لأنه لا يليق بموجب أسمائه وصفاته، لا يليق بكماله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو لا يفعله لأنه يتنافى وحكمته.

أما إزاغته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والحيلولة بين الإنسان والإيمان وبسببٍ من الإنسان، ولذلك تأمل معي قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[الصف:٥]، ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[الليل:٨-١٠]، ثم انصرفوا جاءتك العقوبة الآن هذا هو المكر، قال جَلَّ وَعَلَا : ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[التوبة:١٢٧]، ليس أنهم أقبلوا إلى الطاعة والخير، والإيمان، وعبادة الله فصرف الله قلوبهم، حاشا وكلا، إنما لأنهم انصرفوا عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مكر بهم فأوقع هذا الانصراف في القلوب فخُذلوا والعياذ بالله.

أما حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي سقته قبل قليل، فأحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفسر بعضها بعضًا، وإنما يبين بعضها بعضًا، والواجب الجمع والتأليف بينها وليس أن تأخذ طرفًا وتترك أخر؛ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين هذا في حديثٍ آخر.

ففي الصحيحين من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إنّ الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار».

فإذن ذاك الذي يعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع هذا عمله مغشوش، في قلبه خبيئة سوء، عنده رياء كان يعمل العمل الصالح فيما يبدوا للناس، إذن كان يُظهر شيء ويخفي شيء آخر، فمثل هذا حريٌ أن يُمكر به -والعياذ بالله-.

أما الصادق في طاعة الله ﷻ فلا يكون ذلك أبدًا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأنه أخبر بهذا وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾[الليل:٥-٧].

٥١

٥١- باب قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

(المجلس الثاني)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾[الحجر:٥٦].

فإن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقد أورد الدليل الذي يعالج أحد خللي القلوب: حيث أورد الدليل على النهي والذم من الأمن من مكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في إيراده قول الله جَلَّ وَعَلَا ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[الأعراف:٩٩]، فقد علمنا أنّ الأمن من مكر الله هو عدم الخوف من استدراج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وابتلاءه، دون أن يشعر الإنسان، هذا هو الأمن من مكر الله.

والخلل الثاني: هو القنوط من رحمة الله، وهذا الذي أورد عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾[الحجر:٥٦].

وذلك أنّ الواجب على المسلم كما تكرر معنا غير مرة أن يجمع بين الخوف والرجاء في قلبه باعتدال، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر، حتى يستقيم سيره إلى الله جَلَّ وَعَلَا الواجب أن يُرجى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رجاء مشوبًا بخوف، وأن يخاف خوفًا مشوبًا برجاء، فالله جَلَّ وَعَلَا هو المرجو مع شديد انتقامه، وهو المخوف مع سعة رحمته، ولذا فإنه لم يؤمن الصالحين، ولم يقنط المسرفين.

الداء الثاني: هو القنوط من رحمة الله جَلَّ وَعَلَا وهو الذي جاء ذمه والتنفير منه في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾[الحجر:٥٦].

هذه الآية فيها قصة، وهي حلول ضيف إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عليه وهم الملائكة الكرام، حينما نبهنا الله عَزَّوَجَلَّ عن خبر ضيف إبراهيم، وأنهم بشروه بغلام عليم، وهو إسحاق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، هنا قال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾[الحجر:٥٤]، لاحظ أنه جاء الاستفهام مرتين، وهذا الاستفهام ليس لاستبعاد أو إنكار أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ برحمته قد قدر الإنعام على إبراهيم بهذا الولد على كبره، فإنه يعلم بقدرة الله عَزَّوَجَلَّ ورحمته ما هو أعظم من ذلك.

لكن هذا الاستفهام كان مسوقًا مساق التعجب، تعجب أنه مع كبر سنه وسن زوجه، فإن الله سبحانه قدر أن يكون له الولد، فها هنا الملائكة عليهم السلام قالوا: ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾[الحجر:٥٥]، نبهوا إلى أن الواجب ألا يقنط

الإنسان من رحمة الله جَلَّوَعَلَا، فأجاب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ببيان أنه لم ولا يقنط من رحمة الله جَلَّوَعَلَا ، فقال: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾[الحجر:٥٦]، فهذا دليل على أنّ القنوط من رحمة الله جَلَّوَعَلَا ليس من شأن أهل الإيمان والتقوى، إنما هو من شأن من زل وضل وانحرف عن الطريق المستقيم، ذلك أنّ القنوط من رحمة الله جَلَّوَعَلَا فيه ارتكاب ما نهى الله عنه.

فإنّ الله جَلَّوَعَلَا قد قال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾[الزمر:٥٣].

أيضًا القنوط من رحمة الله جَلَّوَعَلَا يتضمن الجهل بالله، وسوء الظن به، الجهل بالله وسوء الظن به جاء هنا من جهتين:

الأولى: من جهة اعتقاد ضعف قدرة الله عَزَّوَجَلَّ عن تحقيق المرجو، أو دفع المرهوب، وإلا لو اعتقد الإنسان أنّ الله على كل شيء قدير، وأن قدرته كاملة جَلَّوَعَلَا فلا يُعْجزه شيء، إذًا لأي شيء يقنط، ولأي شيء ييأس؟

والأمر الثاني: أنه وقع في اعتقاده تحجير رحمة الله عَزَّوَجَلَّ وأن رحمة الله سبحانه أضعف من أن يحقق الله عَزَّوَجَلَّ بها مرجوه أو يدفع ما يخاف منه، فلأجل هذا كان القنوط من رحمة الله جَلَّوَعَلَا شأن الضالين لا شأن المؤمنين، الواجب أن يعظم في قلب المسلم الرجاء في الله، والطمع فيما عنده، وحسن الظن به جَلَّوَعَلَا كيف لا يكون ذلك وقد علم العبد أن ربه هو الرحمن الرحيم، الذي وسعت رحمته كل شيء، هو الذي قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأعراف:١٥٦].

كيف يقنط المؤمن من رحمة ربه، وهو الذي من أسمائه اللطيف والبر والكريم والشكور والودود جَلَّوَعَلَا كيف يقنط من رحمة ربه من علم أنه جل في علاه خلق مائة رحمة، وجعل منها تسعة وتسعين يوم القيامة، كيف يقنط من رحمة ربه من علم أن رحمته جَلَّوَعَلَا غلبت غضبه، كيف يقنط من رحمة ربه من قال: (أنا عند ظن عبدي بي، فليظنّ بي ما شاء) كيف يقنط من رحمة ربه من قال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[الزمر:٥٣].

كيف يقنط من رحمة ربه من وعد بأن يكفر الزلات، وأن يعظم الأجور ويرفع الدرجات؟ كيف يقنط من رحمة ربه من يعبد هذا الكريم العظيم الذي قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾[الأحزاب:٤٧]، **هذا** ابن مسعود ﷺ يقول: (ليغفرنّ الله يوم القيامة مغفرة ما خطرت على قلب بشر)، إذاً كيف يقطع الإنسان طمعه ورجائه في هذا الإله الرحيم الكريم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إذًا على المسلم أن يتق الله، وأن يتأدب مع الله، وأن يقدر الله عَزَّوَجَلَّ حق قدره، وأن يحذر من سوء الظن بالله جَلَّوَعَلَا لكن حذاري من الاغترار، ومن الاسترسال، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أجمع العارفون على أنّ الرجاء الشرعي لا يكون إلا مع العمل)، إذا الرجاء بلا عمل هو غرور وأمان، وأما من كان جادًا وصادقًا في رجاء الله جَلَّوَعَلَا، فهو من شمر عن ساعد الجد في طاعة المولى سبحانه، والبعد عن معاصيه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[البقرة:٢١٨]، ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف:١١٠].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا؛ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سئل عن الكبائر؛ قال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله».

هذا الحديث خرجه البزار والطبراني وغيرهما، وفيه بحث من جهة ثبوته، من جهة أن في إسناده رجلًا هو شبيب بن بشر، الحديث من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وشبيب هذا مُختلف فيه، وثقه ابن معين، وقال أبو حاتم: (إنه لين الحديث)، وقال الحافظ بن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((التقريب)): (صدوق يخطئ).

وعلى كل حال الحديث قال فيه الهيثمي: (رجاله موثقون)، وحسنه الزين العراقي في كتابه ((المغني))، وكذلك الشارح الحفيد الشيخ سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وأما الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره فإنه نظر في إسناده، وقال: (فيه نظر)، والأقرب أنه موقوف على ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا.

وعلى كل حال إذا ثبت رفعه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو كان موقوفًا فهو في كل حال له حكم الرفع إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذا الحديث فيه ذكر ثلاث كبائر:

الشرك الذي هو أكبر الكبائر على الإطلاق، وكيف لا يكون ذلك كذلك، والشرك بالله سبحانه تنقُّصٌ من عظمة الربوبية، وهدمًا لحق الألوهية، وسوء ظن برب العالمين جَلَّ وَعَلَا، لذلك كان أعظم ذنب، وأكبر جريمة على وجه الأرض على الإطلاق.

أما الكبيرة الثانية والثالثة فهي ما نحن فيه: الأمن من مكر الله، واليأس من روح الله.

رَوح الله: الرَوح بفتح الراء، هو التفريج والتنفيس من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويكون من الإنسان يأس، واليأس قطع الرجاء وانعدامه، ينعدم الرجاء في هذا الإنسان من فرج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع أنه قريب، فرج الله جَلَّ وَعَلَا قريب، لكن الإنسان يعجل، وهو في معنى القنوط من رحمة الله، اليأس من روح الله بمعنى القنوط من رحمة الله على ما سنفصله إن شاء الله قريبًا، وليس من جديد في هذا الحديث إلا ذكر الكبائر، وموضوع الكبائر أظن أننا أخذنا طرفًا منه في دروس سابقة، ولكن لا مانع من التذكير بأهم معالمه.

عندنا في موضوع الكبائر لابد من ملاحظة أربعة أمور:

[الأمر] الأول: هل الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر؟

الجواب: نعم، دل على هذا الكتاب والسنة والإجماع، ويكفي في الدلالة على هذا قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾**[النساء:٣١]**، السيئات ها هنا يتعين أن تكون هي: الصغائر؛ لأنه ذكر الكبائر قبلها.

الشاهد أن الذنوب تنقسم إلى كبير وإلى صغير.

والأمر الثاني هو: هل الضابط للكبيرة هو الحد أو العد؟

يعني هل تنضبط الكبائر بالحد فهي محدودة، أو بالعد فهي معدودة، ولاحظ أننا نتحدث عن الكبائر، وذلك بأنه إذا استبان لنا ما الكبيرة استبان لنا بالتالي ما الصغيرة، لأنّ الصغيرة هي ما كان دون الكبيرة.

قال بعض أهل العلم: إنّ الكبائر منضبطة بالعد، واختلفوا، قيل: الكبائر ثلاث، وقيل أربع، وقيل سبع، وقيل هي سبعين، وقيل هي سبعمائة، وقيل غير ذلك، وهذا مسلك ضعيف.

والصواب: أنّ الكبيرة منضبطة بالحد.

وما جاء في بعض الأدلة من ذكر أشياء كما تبين الأدلة في هذا الحديث أنها ثلاثة، ففي غيرها غير ذلك هذا محمول عند أهل العلم على أن أجوبة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت مناسبة لمقتضى الحال، أجاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ضوء المناسب للحال الذي كان يُجيب أو يتحدث فيه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[الأمر] الثالث: ما ضابط، أو ما حد الكبيرة؟

اختلف العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ ها هنا اختلافًا طويلًا جدًا، والأقرب والله تعالى أعلم أن يقال: إنّ الكبيرة كل ذنب توعد الله عَزَّوَجَلَّ عليه بوعيد خاص، ومرادنا بقولنا "وعيد خاص": هو أن يتوعد الله عَزَّوَجَلَّ على ذنب ما بمال أو عذاب أو لعنة أو دخول أو حرمان من جنة، أو الوصف بأنّ الفاعل ليس منا، وما شاكل ذلك.

هذه نماذج للوعيد الخاص، أما ما لم يرد فيه وعيد خاص، فإنه يكون من الصغائر لا من الكبائر.

وهذا الضابط هو أقرب ما يمكن أن يقال، وهو الذي اختاره، وقال معناه جمع من المحققين من أهل العلم كابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، والإمام أحمد، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وغيرهم من أهل العلم رضي الله عنهم ورحمهم، إذا هذا أقرب ما يمكن بأنه ضابط الكبيرة.

[الأمر الرابع]: هل يقترن بالصغيرة ما يصيرها كبيرة؟

الجواب: نعم، نص على هذا أهل العلم الذنب الصغير قد يقترن به ما يرفعه، ويعظمه حتى يُلحقه بالكبائر، وذلك بأن يقترن بالصغيرة:

١/ لا مبالاة بها، أن يقترفها الإنسان دون أن يبالي، ودون أن يكترث، ويكون متساهلًا إبَّان فعله لها.

٢/ المجاهرة بها، والمجاهرة بها أمر عظيم بل قد تكون المجاهرة من حيث هي ذنبًا أعظم من الذنب نفسه.

٣/ الإصرار عليها، الإصرار على السيئة يصيرها إلى أن تكون كبيرة، وقد أخرج اللالكائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره وإسناده قال عنه ابن مفلح: (إنه صحيح) عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: (**لا صغيرة مع الإصرار**)، الإصرار على الذنب، بمعنى المداومة، وعدم الترك، الترك الذي يصحبه توبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منه، إنما يدمن المعصية ويداوم على المعصية، هذا هو الإصرار، وهذا يُصيّر الصغيرة كبيرة.

بالتالي على المسلم حتى ينجو من هذه النكبة أن يحذر أشد الحذر من أن يكون مُصرًا على صغيرة، وإنه إن زلت قدمه عليه أن يبادر إلى التوبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مما اجترحته يداه.

إذًا هذه نبذة عن الكبائر.

والمقصود أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو ابن عباس على الخلاف في الحكم على الحديث جاء في هذا الحديث عن الأثر التنصيص على أن الأمن من مكر الله، والقنوط أو اليأس من روح الله أن هذا من الكبائر، وكفى بهذا تحذيرًا وتنفيرًا من هذين الذنبين العظيمين.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن ابن مسعود قال: «أكبر الكبائر الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله»، رواه عبد الرزاق.

هذا أثر ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أخرجه عبد الرزاق، وابن جرير في ((تفسيره))، وقال فيه الحافظ ابن كثير في ((تفسيره)): (إنه صحيح إلى ابن مسعود بلا شك)، وفيه تنصيص على أنّ من الكبائر هذه الأمور الأربعة:

الشرك، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله.

والجديد في هذا الأثر هو أنه جاء فيه ذكرُ لفظين متقاربين: القنوط، واليأس.

فما وجه التفريق؟ أو ما وجه إيراد هاتين الكلمتين في هذا الأثر؟

لأهل العلم ها هنا اجتهادات في التفريق بين القنوط واليأس، من أهل العلم من ذهب مثل ابن الأثير في كتابه ((النهاية))، وكذلك العسكري في ((فروقه))، وغيرهما من أهل العلم ذهبوا إلى أن بين اللفظين عمومًا وخصوصًا، فإنّ القنوط أشدُّ اليأس، وبالتالي فبينهما عموم وخصوص، فكل قنوط يأس، وليس كل يأس قنوطًا.

وبعض أهل العلم رأى أن بين اللفظين تباينًا، علاقة بينهما التباين، فالقنوط هو: استبعاد حصول المرجو، وأنّ اليأس: استبعاد زوال المكروه.

وعلى كل حال مهما يكن من شيء فلا شك أنّ اللفظين متقاربان، وقد يوضع الشيء محل الشيء إذا كان قريب منه كما قال أهل العلم.

المقصود -أيها الأخوة- أنّ القنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله ذنب ينبغي بل يجب على كل مسلم أن يتنأى وأن يتباعد عنه، وليعلم أن هذا القنوط من رحمة الله قد يكون متعلقًا بأمر الآخرة، وقد يكون متعلقًا بأمر الدنيا.

أما فيما يتعلق بأمر الآخرة، فإن سبب هذا القنوط راجع إلى أحد أمرين:

الأول: الاسترسال في المعاصي، والغرق في بحارها المظلمة، وبالتالي فينتاب من كانت هذه حاله -نسأل الله السلامة والعافية- شعور باليأس الشديد، وأنه لا أمل له، ولا سبيل من نجاة له، وهذا موضع ينشط فيه إبليس، فيصور لهذا الإنسان بأن نيل رحمة الله عَزَّوَجَلَّ شيئًا بعيدًا عنه، معنى هو متلطخٌ به، ومع ما عليه قلبه من إدمان للمعاصي واقتراف المحرمات، إذًا ليستمر في هذه المعاصي، وليأخذ حقه من الاستمتاع، إن صح أنه استمتاع، وإلا فالحق أنه وبالا عليه، ثم بعد ذلك ينتظره المآل الوخيم عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

إذًا الاسترسال في المعاصي قد يكون سببًا للوقوع في القنوط من رحمة الله جَلَّوَعَلَا.

الأمر الثاني: المبالغة في الخوف، وطغيانه على الرجاء بمعنى أن يكون عند الإنسان خوف لكنه مبالغًا فيه، في مقابل أن رجائه في الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ضعيف أو منعدم، وبالتالي فأنه يقع في القنوط من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ ولابد.

وبالتالي علاج هذه المشكلة هو بأن يداوي الإنسان نفسه بأضداد ما وقع فيه، فإذا كان الغالب عليه الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ حتى وصل إلى حد القنوط ينبغي عليه أن يُروح عن نفسه بالنظر إلى سعة رحمة أرحم الراحمين جَلَّوَعَلَا وبالتالي يستقيم سره، إذا كان انقطاع طمعه في مغفرة الله عَزَّوَجَلَّ بسبب ما وقع فيه من المعاصي فلينظر إلى الأدلة التي تدل على أن الله غفور رحيم: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾[الرعد:٦].

الله جَلَّوَعَلَا لا يتعاظمه ذنب، ولا يمكن أن يُعتقد فيه جَلَّوَعَلَا أنّ الذنب لعظمه فهو أكبر من قدرة الله على مغفرته، هذا ظن لا يجوز أن يكون لمسلم.

إذاً معالجة الأدواء إنما تكون باتخاذ الأسباب التي هي ضدٌ لها، وكل إنسان ينبغي أن يكون طبيب نفسه.

أما الشق الآخر من القنوط فهو ما يتعلق بأمر الدنيا، وكم من الناس من هو واقع في ذلك مع الأسف الشديد، تجد أنه يُبتلى باليأس في شأن معاشه بسبب أنه حاول مرة واثنتين، وربما ثلاث مرات أو أربع، فوجد الأبواب في وجهه مغلقة، تجد أنه ينكسر، ويضمحل تفاؤله، ويصاب بهذا القنوط، ويجلس في هم وغم، ويقول لا سبيل لطلوع الفجر، ولا سبيل من انقضاء هذه الحال البائسة إلى فجر مُشرق يُبشر بالخير، وهذا لا شك أنه أيضًا من سوء الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفرج

إذن على الإنسان أن يعظم رجائه في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويعظم تعظيمه له جَلَّ وَعَلَا وأنه لا يعجزه شيء، وأنه على كل شيء قدير، وأنه لا يتعاظمه شيء، وأنه الذي إذا شاء شيئا فإنما يقول له كن فيكون، لكن على الإنسان أن يُلِّحَ على السؤال، الله عَزَّوَجَلَّ يحب من عبده هذا الإلحاح في السؤال، وليعلم أنّ خيرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له خيرا من خيرته لنفسه.

أيضا من هذه الجوانب التي لابد من التعريج عليها، التي هي من ضمن الصور اليأس والقنوط ما يُصاب به بعض الناس حينما ينظر إلى تكالب الأعداء على أمة الإسلام، وما هو واقع على المسلمين من ويلات ومصائب، وإنه قد يتسلل إلى نفوس البعض شيئًا من اليأس والقنوط، واستبعاد انتصار هذه الأمة ورجوعها إلى عزها ومجدها.

وهذا أيضا لا شك أنه قنوط ممقوت، يجب أن يُستبعد تماما من النفوس المؤمنة، الشريعة ربّت اتباعها على التفاؤل، وعلى الأمل، وعلى الرجاء، وهذا ما نطقت به أدلة كثيرة في كتاب الله، وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الله عَزَّوَجَلَّ قد وعد، والله لا يخلف الميعاد، فقال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾[الأنفال:١٨]، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾[النحل:١٢٨].

إذًا لا ينبغي أبدا أن يتسلل اليأس إلى القلوب المؤمنة أو الشك في وعد الله عَزَّوَجَلَّ إنما ذلك ينبغي أن يكون دافعًا إلى مزيدًا من النشاط والجد في إصلاح الخلل الذي وقع في هذه النفوس المؤمنة، ولأجله فقط تأخر النصر، وتأخر التقدم لهذه الأمة، وإلا فلو رجعت هذه الأمة إلى سابق تمسكها بدينها لرجعت إلى سابق عزها دون شك، وأصبحت متبوعة لا تابعة، لأصبحت أعز الأمم، وأرفعها قدراً، وأعزها شأنا، لكنها ابتليت بما ابتليت به بسبب هذا البعد عن الاستقامة على طاعة الله، والاستجابة لأمره وأمر رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومع ذلك فالله عَزَّوَجَلَّ فضله أوسع، ورحمته أكبر ما ينبغي للإنسان إلا أن يصبر ويجد ويجتهد.

كذلك الدعاة إلى الله طلبة العلم لا ينبغي عليهم البتة أن يصيبهم اليأس والقنوط والتشاؤم في مستقبل الدعوة، ومستقبل إقبال الناس على الخير، وينبغي أن يكونوا دائما متفائلين، ودائما مؤملين للخير، وأنّ الخير قادم، وأنّ الفضل من الله عَزَّوَجَلَّ مقبل، وبالتالي فإنه يدعوهم إلى أن يجدوا ويجتهدوا في دعوة الناس، والصبر على ما يلاقون في سبيل دعوتهم، وليبشروا أنّ لهم حظًا من معية الله عَزَّوَجَلَّ الخاصة التي تقتضي النصرة منه جَلَّوَعَلَا والتأييد.

قال جَلَّوَعَلَا لدعاة التوحيد العظماء اللذان هما موسى وهارون عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾[طه:٤٦]، هذه معية خاصة تقتضي نصرًا من الله عَزَّوَجَلَّ، وتأييدًا وتوفيقًا، وبالتالي فمن كان الله عَزَّوَجَلَّ معه فإنه لا يخزى، لا ينبغي أبدًا أيضًا أن يصاب الدعاة والمصلحون بيأس من الخير، ومن إقبال الناس هذا كله من تسويل الشيطان، ومن وسوسته في صدور الناس، يجب أن يدفع ذلك بضده.

والله تعالى أعلم.

٥٢

٥٢- باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

(المجلس الأول)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بابٌ

من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

فلا يزال الشيخ الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوالي في تبويب الأبواب التي تشتمل على العبوديات التي يقوم عليها ساق الإيمان، ومن ذلك هذا الباب الذي بين أيدينا، وهو الذي يتعلق بالصبر على أقدار الله المؤلمة، وذلك أنّ الصبر له من الإسلام محل جليل، حتى ذكر بعض السلف أن الصبر من الإسلام بمنزلة الرأس إلى الجسد.

الصبر في اللغة هو: الحبس.

وفي الشرع هو: الصبر على المأمور، والصبر عن المحظور، والصبر على المقدور.

إذًا حقيقته في المعنى والاصطلاح الشرعي ترجع إلى هذه الأمور الثلاثة:

صبرٌ على المأمور.

وصبرٌ على المحذور.

وصبرٌ على المقدور.

وتفصيل ذلك أن الصبر ينقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة:

الأول: الصبر على طاعة الله سبحانه، سواء كانت هذه الطاعة واجبة أو مستحبة، فأنه لا قيام بالطاعة ما لم يكن ثمة صبر.

النوع الثاني: الصبر عن معصية الله سبحانه، فما من يحبس الإنسان نفسه ويحجزها عن مقارفة الإثم، وعن الانهماك فيما حرم الله جَلَّ وَعَلَا، فإنه لم ينفك عن الوقوع فيها، لاسيما مع قوة الداعي إليها.

والنوع الثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة، وهذا هو موضع البحث في هذا الباب، وما أورده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أدلة إنما يختص بهذا النوع وهو الصبر على أقدار الله المؤلمة.

والصبر من حيث هو بأجزائه الثلاثة له في الإسلام شأن وأي شأن، الصبر خلق كريم، إنما تستقيم حياة الإنسان ودينه، وحسن مآله بهذا الصبر، قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (وجدنا خير

عيشنا بالصبر)، وقال بعض السلف: (لو كان الصبر رجلًا لكان رجلا كريما)، كيف لا يكون ذلك كذلك، وأهل الصبر هم أهل معية الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة:١٥٣]، فهنيئًا للصابرين الذين خصهم الله جَلَّوَعَلَا بمعيته الخاصة، والتي مقتضاها نصره وإعانته وتأييده، فمن كان الله معه فما الذي فاته.

وأهل الصبر أيضًا هم أهل المعونة جاءتهم أعظم معونة من الله جَلَّوَعَلَا قال سبحانه: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾[البقرة:٤٥].

الصبر خير ما يعطى للإنسان في هذه الدنيا، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما ثبت عنه: «وما أعطي عبدا عطاءا ولا أوسع من الصبر»، والحديث في الصحيحين.

الصبر هو الذي يقود الإنسان إلى أن يكون من أهل البشارة والفلاح والفوز: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة:١٥٥]، الصبر مآله الجنة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[العنكبوت:٥٩-٥٨].

لا جنة إلا بالصبر، ولذا تقول الملائكة يوم القيامة لأهل الجنة، يقولون لأهل الجنة: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[الرعد:٢٤]، ويكفي الصبر فضلًا أنّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يقول في ذلك اليوم العظيم: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[المؤمنون:١١١]، يكفي والله فضلًا وشرفًا لهذه العبودية هذا الفضل العظيم سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

إذا كان الصبر بهذه المثابة فلا شك ولا ريب أنه من أهم الأمور، ومن أعظم العبادات.

وقد أجمع المسلمون على أنّ الصبر بأنواعه الثلاثة أمر واجب، والصبر كما علمت عبادة، وبالتالي لا يكون عبادة إلا إذا كان لأجل وجه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، تلك الثمرات العظيمة للصبر إنما ينالها المخلصون في صبرهم: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾[الرعد:٢٢]، هؤلاء هم من يفوزون بما سبق.

واعلم يا عبد الله أنّ الصبر لا يكون إلا بمعونة من الله جَلَّوَعَلَا ولذا من ظن أنه يمكن أن يصبر دون أن يصبره الله عَزَّوَجَلَّ فإنه واهم، ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾[النحل:١٢٧].

لكن بذل جهده، وحاول واستعان بالله، فإن الله عَزَّوَجَلَّ سيجعله ينال هذه الرتبة المنيفة، قال صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما في الصحيحين: «ومن يتصبر يصبره الله» لا تظنن أنّ الصبر مرتبة لا يمكن الوصول إليها، بل أنها أمر متيسر لمن يسر الله عَزَّوَجَلَّ عليه، عليك أن تُخلص ثم أن تجتهد وتحاول، وأبشر فإن الله عَزَّوَجَلَّ سيبلغك هذه المرتبة.

الصبر كما قد علمت ينقسم إلى الأقسام الثلاثة التي سمعت، واختلف العلماء في هذه الأقسام أيها أفضل؟

والأقرب -والله تعالى أعلم- أنّ الصبر على الطاعة والصبر على المعصية أعظم وأفضل من الصبر على الأقدار المؤلمة.

ذلك أنّ الصبر على الطاعة وعلى المعصية صبرٌ اختياري، أما الصبر على أقدار الله المؤلمة فإنه صبرا اضطراري، بمعنى: أنّ الإنسان لا ممدوحة عنده إلا أن يصبر، فهو مضطر إلى هذا الصبر، فإما أن يصبر طاعة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيفوز بالأجر، أو أنه سيتحمل ما يأتيه، ولا شيء في يديه يدفع هذا القدر المؤلم.

إذاً الصبر على الطاعة وعلى المعصية أفضل.

لكن يبقى بعد ذلك أي النوعين أفضل من الأخر، هل الصبر على الطاعة أفضل من الصبر على المعصية؟ أم الصبر على المعصية أفضل من الصبر على الطاعة؟

قال بعض أهل العلم إنّ الصبر على المعصية هو الأفضل، ذلك أن الداعي إلى المعصية أعظم، حيث إن الداعي إلى المعصية هو الشهوة والهوى، وبالتالي فإن الإنسان يحتاج إلى مجاهدة عظيمة حتى يصبر عن المعصية، ولذلك قال أهل العلم: (لا يصبر على المعاصي إلا الصديقون).

أما ترك الطاعة فإنما يدعو إليه الكسل والبطالة، ولا شك أنّ الهوى والشهوة أعظم تأثيرًا في النفس من الكسل والبطالة، فكان الصبر عن المعصية أعظم من الصبر على الطاعة.

وقالت طائفة من أهل العلم: بل الصبر على الطاعة أعظم من الصبر على المعصية، ذلك أنّ جنس فعل الطاعة أفضل من جنس ترك المعصية، فلما كان ذلك كذلك كانت الوسيلة المؤدية إلى الأعظم أعظم، وبالتالي كان الصبر على الطاعة أفضل من الصبر عن المعصية.

والتحقيق في هذا هو ما حرره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((طريق الهجرتين))، وهو التفصيل، فالصبر على الطاعة العظيمة أعظم من الصبر عن المعصية الصغيرة، كما أنّ الصبر عن المعصية الكبيرة أعظم وأفضل من الصبر على الطاعة الصغيرة؛ صبر الإنسان على أداء الصلاة، والجهاد في سبيل الله، وصوم رمضان والحج، لا شك أنه أفضل من الصبر عن معصية صغيرة، كما أنّ صبر الإنسان عن مواقعة كبيرة من كبائر الإثم والفواحش أفضل من صبره على أداء صلاة الضحى أو قيام الليل مثلا، هذا هو التحقيق في هذه المسألة، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[التغابن:١١].

قال علقمة: ((هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله؛ فيرضى ويُسلم)).

هذه الآية أول ما استدل عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإنما يستبين الاستدلال بمعرفة ما قبلها، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[التغابن:١١].

المصيبة كل ما يؤلم، سواء تعلق بأمر حسي، أو أمر معنوي؛ كفقد الولد، وحصول الجدب، ونزول المرض، أو السحر، أو العين، كل ذلك من المصائب.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[التغابن:١١]، إذن الله ها هنا هو الإذن الكوني، والإذن ينقسم كما جاء في النصوص يعني باستقراء النصوص ينقسم إلى قسمين:

إذن شرعي.

وإذن كوني.

أما الإذن الشرعي فهو الذي جاء في نحو قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[يونس:٥٩]، هذا هو الإذن الشرعي، وهو مقتضي لمحبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للأمر المأذون فيه.

أما الإذن القدري فهو الذي جاء في هذه الآية وأمثالها كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[البقرة:١٠٢].

والإذن هو الإرادة، بينهما تقارب كبير بالمعنى، والإذن الشرعي قريب في المعنى من الإرادة الشرعية، والإذن الشرعي قريب في المعنى من الإرادة الكونية، وقد سبق أن تكلمنا عن الإرادة بقسميهما.

قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[التغابن:١١].

إذن الله يعني إرادته الكونية ومشيئته، لا يقع شيءٌ في هذا الكون إلا إذا شاءه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الله جَلَّوَعَلَا له الحكمة البالغة فيما يقدره من المصائب.

إذًا كل مصيبة تقع ينبغي على الإنسان أن يعلم أن الله جَلَّوَعَلَا قد شاءها، ومشيئته لها مسبوقة بكتابته لها في لوح محفوظ، وعلمه جَلَّوَعَلَا لها بعلمه السابق الذي هو صفة ذاتية ملازمة للذات.

إذًا كل المصائب فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي قدرها وشاءها، إذًا ليس لك يد في دفعها يا عبد الله، إنما شأنك، وإنما واجبك، وإنما وظيفتك هي فيما يتعلق بك، وهي في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[التغابن:١١].

سيأتي معنا في كلام علقمة رَحِمَهُٱللَّهُ (هو رجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من الله فيرضى ويسلم)، يعني لو أنه نزلت هذه المصيبة علم الإنسان أنها من الله.

وهذه الكلمة علم أنها من الله تترجم عن الإيمان بالقدر.

إذًا ما جاء في هذه الآية من قوله جل وعلا: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾[التغابن:١١]، هو من العام الذي أريد به بعض أفراده، يعني لم يرد جميع أفراد وأجزاء وشعب الإيمان، إنما أريد ركن من أركانه، وشعبة من شعبه، ألا وهي الإيمان بالقدر، من حقق الإيمان بالقدر فإن الله عَزَّوَجَلَّ يهدي قلبه، ثمرة ذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ يهديه ويثبته، ويطمئن قلبه جزاء على هذه الحسنة، وبذلك نعلم أن جزاء الحسنة الحسنة بعدها، والله جَلَّوَعَلَا كريم شكور يثيب على الحسنة بحسنة أخرى.

إذًا من كان منه الإيمان بالقدر، والإيمان بالقدر يقتضي إيمان العبد بعلم الله عَزَّوَجَلَّ وكتابته لكل ما يجري في هذا الكون في لوح محفوظ، ومشيئته لكل شيء من الذوات ومن الأفعال ومن الصفات، ثم خلقه جَلَّوَعَلَا لكل شيء، الله خالق كل شيء.

إذًا متى حقق الإنسان الإيمان بالقدر، يعني الإيمان بهذه الأمور الأربعة، فإنّ الله جل وعلا يرزقه الهداية، قال: (فيعلم أنها من الله فيرضى ويُسلم)، يرزقه الله عَزَّوَجَلَّ الرضا بالقدر، وهذه درجة أرفع من درجة الصبر، وسنتكلم عنها لاحقًا إن شاء الله.

ويرزقه التسليم، قال: (يرضى ويسلم)، أي أنه يستسلم لله جَلَّوَعَلَا فلا ينازعه في أقداره، وهذه حقيقة المسلم الذي استسلم لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وسلِم لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى

إذًا وعد الله ذاك العبد الطائع الذي آمن بالله جَلَّوَعَلَا أولا.

وحقق الإيمان بالقدر ثانيًا، أن يرزقه الطمأنينة والهداية، وذلك متضمن أن يكون راضيًا مسلمًا لأقدار الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وقال بعض أهل العلم أن معنى قوله: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[التغابن: ١١]، يدل على ما هو أعم من هذا المعنى الخاص الذي هو الرضا والتسليم، يعني أنه يدل على حصول الهداية التامة للعبد، فكان من ثمرات الرضا والصبر والتسليم أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يوفق العبد لأن يكون مهتديا يعني مستقيما على طاعة الله جَلَّوَعَلَا.

إذًا من أسباب الهداية، ومن أسباب الثبات عليها صبر الإنسان ورضاه بأقدار الله جَلَّوَعَلَا، والعكس بالعكس، من سخط فله من الله السخط، ولازم ذلك حصول البلاء والخذلان، والعياذ بالله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «اثنان في الناس هما بهم كفرٌ: الطعن في النسب، والنياحة على الميت».

هذا الحديث الذي خرجه الإمام مسلم رَحِمَهُٱللَّهُ في صحيحه، فيه بيان خصلتين مضمومتين، وصفهما النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأنهما من خصال الكفر، والمعنى أنهما خصلتان

تقومان في النفس، وتوجدان منهم، وحكم هاتين الخصلتين أنهما من الكفر، والكفر المراد ها هنا هو: الكفر الأصغر لا الأكبر.

والأدلة ينبغي أن يُجمع بينها، وأن يؤلف بينها، لا أن يؤخذ بدليل، ويُعرض عن غيره من الأدلة.

والجمع بين الأدلة يقتضي أن هاتين الخصلتين هما من الكفر الأصغر إلى الأكبر، والأدلة متواردة متكاثرة على انقسام الكفر إلى أكبر وإلى أصغر، كما أنّ الإسلام له شعب، فإن الكفر له شعب، وبالتالي لا يلزم من وجود شعبة أو أكثر من شعب الكفر أن يكون الإنسان كافرًا بالله عَزَّوَجَلَّ، يعني قام به حقيقة الكفر الذي هو الخروج من الإسلام، كما أنه لا يلزم وجود شعبة أو أكثر من شعب الإيمان أن يكون الإنسان مؤمنا ما لم يقم به أصل الإيمان.

بمعنى: دلت الأدلة على أن من شعب الإيمان إماطة الأذى عن الطريق، هل إذا أماط كافر الأذى عن الطريق أصبح الآن مؤمنا؟ لا، لم؟ لأنه ما قام به أصل الإيمان، كذلك الحال في شعب الكفر لا يلزم من وجودها في الإنسان أن يكون كافرا باللهسُبْحَانَهُوَتَعَالَى الكفر الأكبر، كأن يكون ممن وقع فيه شيء من هذه الخصال من هاتين الخصلتين؛ لأنه لم يكن به حقيقة الكفر، يعني: لم يقم به الكفر الأكبر.

هاتان الخصلتان المهمتان اللتان حذر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من وجودهما في هذه الأمة:

الأولى منهما: الطعن في الأنساب، وقد مر بنا الكلام على هذا الأمر، وقلنا أن الطعن بالأنساب قد يكون بنفيها، وقد يكون بعيبها، انتبه.

قد يكون بنفيها؛ كالذين يطعنون في أنساب الناس التي ثبتت لهم واشتهرت عنهم، فلان ليس من القبيلة الفلانية، والأسرة الفلانية لا تنتمي إلى الفخذ الفلاني، وكل ذلك من البغي على عباد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

أو أن يكون ذلك بعيبها بأن يشتغل الناس بعيب الناس في قبائلها وأنسابها، القبيلة الفلانية فيها كذا وكذا، والعائلة الفلانية موصوفة بكذا وكذا، يشتغل الإنسان بعيب الناس في أنسابها، هذا أمر قبيح مذموم بل كبيرة من كبائر الذنوب، بل خصلة من خصال الكفر -عفانا الله وإياكم من ذلك-.

أما الخصلة الثانية فهي المناسبة والشاهد من إيراد هذا الحديث في هذا الباب، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والنياحة على الميت**».

النياحة على الميت: رفع الصوت بتعداد شمائل الميت وخصاله على جهة التسخط، كأن يقول أو تقول: واعضداه، واكاسياه، وا كذا، وا كذا، هذا هو النياحة، وهو أمر قبيح عظيم القبح لأنه يشتمل على قلة الأدب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعدم الرضا والصبر على أقداره المؤلمة، وقد مر بنا في درس سابق قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المخرج عند مسلم: «**النائحة التي لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها** -أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- **قميص من قطران ودرع من جرب**»، وهذه حال بئيسة تدل على أن هذا الذنب ذنب عظيم.

وهذا مع الأسف الشديد من خصال الجاهلية التي لا تزال باقية في هذه الأمة مع الأسف الشديد، فإنّ النياحة كانت من ديدن أهل الجاهلية، وكانت من الأمور المشتهرة عندهم، كانوا ينوحون لا سيما النساء على الموتى، ويُضيفون إلى هذا الدعاء بالويل والثبور، وهذا كله من ضعف الإيمان، أو من عدم الإيمان -نسأل الله السلامة والعافية-.

لكن أنبه ها هنا إلى تنبيهين بما يتعلق بالنياحة على الميت، **أنبه إلى تنبيهين**:

الأول: أنه ليس من النياحة البكاء المجرد، بكاء الإنسان بدمع عينيه، إذا تجرد من نياحة ورفع صوت، وقول ما لا يحل وتسخط في القلب، إذا عري من ذلك هذا القدر لا بأس به، بل قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ (إنه أمر حسن)، والدليل على هذا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما مات ابنه إبراهيم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**إنّ القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزنون**».

وفي الصحيحين لما كان ابن بنت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجود بنفسه رُفع إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وروحه تقعقع كأنه في شل، فتردد ترددًا عظيمًا، فما كان من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أن دمعت عينه، فقال له سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما هذا يا رسول الله؟» فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هذه رحمة يجعلها الله في قلب من شاء من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**».

إذاً هذا القدر لا بأس به، وليس من النياحة بشيء.

الأمر الثاني أنّ ذكر كلمات تتعلق بالميت إذا اجتمع فيها أمران، أن تكون صادقة، وألا يكون فيها رفع بالصوت، وأنت خبير بأنه بالتأكيد لا يجتمع مع هذا تسخط قدر الله جَلَّوَعَلَا فإنّ مثل هذا لا بأس به إن شاء الله، ونص على هذا جمع من المحققين من أهل العلم كالإمام أحمد وغيره، بمعنى: أنه لو قال إنسان في حق ميت كلمات صادقة على سبيل الشوق والحزن على هذا الميت لا على سبيل التسخط على هذا القدر، فإنّ هذا القدْر ليس من النياحة.

ويدل على هذا مسألة عند البخاري من أن فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما توفي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**يا أبتاه أجاب ربا دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل منعاه**»، وفي مسند الإمام أحمد بسند حسن أن أبا بكر رضي الله عنه لما توفي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان خارج المدينة، فلما وصلها دخل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكشف عن وجهه الشريف، ووضع فمه بين عينيه، يعني قبله، وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وا نبياه، وا خليلاه، وا صفياه**»، إذا هذا القدر ليس داخلا في النياحة على الميت، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولهما عن ابن مسعود مرفوعًا «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا دعوى الجاهلية».

هذا الحديث مُخرج في الصحيحين من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس منا**»، ليس منا بمعنى ليس من المؤمنين الإيمان الواجب، وهذا اللفظ على التحقيق من الألفاظ التي إذا جاءت في سياق دل هذا على أن المذكور فيه كبيرة من الكبائر، كما حقق هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره من أهل العلم، يعني ما جاء في الأحاديث فيه ليس منا من فعل كذا فأعلم أنّ هذا الفعل كبيرة من الكبائر.

إذًا فهذا الحديث الذي بين أيدينا فيه ذكر ثلاث كبائر من كبائر الذنوب، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس منا من ضرب الخدود**»، والمراد بذلك كما هو واضح يعني في حال نزول المصيبة، فإن من الناس نسأل الله العافية والسلامة، بل إذا نزلت بهم مصيبة فقد

صوابه، وصار يضرب نفسه، ويخدش جلده، وهذا لا شك دليل على ضعف إيمانه بالقدر، ودليل على قلة تسليمه لأمر الله ﷻ الكوني، فهذا لا شك أنه أمر منكر، ولا يجوز.

ومثله أيضا الخصلة الثانية: «**وشق الجيوب**».

الجيب: فتحة الثوب من أعلى، وهي التي يدخل منها الرأس، يعني هذا هو الجيب الذي تلبس الثوب فيدخل الرأس، إذا لبست الثوب يدخل رأسك منه، هذا يفعله ضعاف الإيمان بالقدر، إذا نزلت المصيبة ابتلوا بموت حبيب، أو سرقة مال، أو احتراق بيت، أو نزول أي مصيبة من المصائب، تجدهم يشققون ثيابهم من اللوعة والأسى التي أصيبوا بها، ولو أنهم حققوا الإيمان بالقدر، والصبر على أقدار الله المؤلمة لما كان منهم ذلك.

وهذه من الأمور التي ينبغي التواصي فيها، فإن المصيبة من الله عَزَّوَجَلَّ شأنها شأن النار، التي تصهر المعدن، فإما أن يظهر التبر والذهب الخالص، وإما أن يظهر الزيف، المصيبة إذا نزلت وقدرها الله جَلَّوَعَلَا إما أن يرتفع الإنسان إذا كان ممن يصبر على أقدار الله، وإلا والعياذ بالله ربما خُسِّف به فنزل إلى أسفل السافلين، حتى ربما يصدر منه ما يكون سببًا لكفره بالله جَلَّوَعَلَا، وإن لم يصل إلى هذه الدرجة، فمنهم من يصل إلى درجة قريبة منها ربما طعن في حكمة الله وفي قدره وفي عدله، قد تجد من الناس من إذا نزلت بهم المصيبة: "يا رب لم فعلت هذا؟ يا رب ماذا فعلت؟ حتى تنزل بي هذه المصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون، كيف يجرأ عبدٌ على أن يخاطب مولاه بهذا الخطاب، هذا لا شك أنه أمر عظيم، وما أكثر ما يقع هذا لاسيما النساء.

نذكر أنّ امرأة توفي ولدها، وكانت بعد ذلك تلبس على رأسها شيئا مثل الغطاء، لا تريد أن تنظر إلى السماء، تقول عياذًا بالله: ما وجدت إلا ابني؟

نسأل الله السلامة والعافية.

ومن الناس من يقول مثل هذا أو نحوه أو قريبا منه.

إذًا هذا كله لا شك أنه أمر عظيم، ومُنكر كبير يجب أن يتوب صاحبه إلى الله عَزَّوَجَلَّ منه.

والمخرج من هذا أن يحقق عبودية الصبر على أقدار الله المؤلمة، ومما يعينك يا عبد الله على تحقيق ذلك شهود أمور:

[الأمر الأول]: أن تشهد فضل الله عَزَّوَجَلَّ عليك بهذه المصيبة، فإنها سببًا لتكفير سيئاتك، وأعظم بهذا فضلًا وأجرًا، ربما لو أُتيت كل النعم، ثم قارنت ذلك بتكفير سيئة واحدة لو كنت تعقل، كان تكفير هذه السيئة أفضل وأعظم عندك إن كنت تعقل، ولذلك لما توفي العباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أصاب ابنه عبد الله صحابي جليل ابن عباس، أصابه هم عظيم حتى إنّ الناس ما استطاعت أن تتقدم إليه وتعزيه، حتى وقف عليه أعرابي فأنشده أبياتًا كان منها قوله:

خير من العباس أجرك بعده والله خير منك للعباس

فاستعاده ابن عباس، قال أعد، قال:

خير من العباس أجرك بعده والله خير منك للعباس

فسُر عنه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فأقبل الناس أفواجًا يعزونه.

[الأمر الثاني]: شهود الإنسان سبب المعصية، وأنها ما كانت لتقع لولا أن ذنبًا حصل من الإنسان: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[الشورى: ٣٠]، ولاحظ هذا العموم في الآية فإنه يشمل كل مصيبة سواء كانت جليلة أو حقيقة.

الأمر الثالث: أن تشاهد فيها قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنّ ما قدره الله عَزَّوَجَلَّ نافذًا شئت أم أبيت، لذا إن لم تسلم اختيارًا أسلمت أو سلمت اضطراراً، يعني الأمر قد نزل وانتهى، وبالتالي لا تزد همًا إلى همك، فإنك لن تصنع شيئًا إذا أصابك ما أصابك من نفور، وأصابك ما أصابك من اضطراب على قدر الله عَزَّوَجَلَّ كل ذلك لن يقدر شيئا، فالذي حكم هو الله المدبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الأمر الرابع: أن تشاهد في هذا الأمر حكمة الله عَزَّوَجَلَّ ورحمته، فإن الله عَزَّوَجَلَّ له في تقدير الأمور حكمة ورحمة لكن هذا لا نعلمه، ويؤمن به إلا أهل الإيقان، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة: ٥٠].

إذًا أهل الإيمان عندهم أن قدر الله عَزَّوَجَلَّ عليهم يعني حكمه شرعًا كان أو قدرًا هو أحسن ما يكون، وأحسن ما يقع، إذا أنت لا تدري يا عبد الله عقبى هذه المصيبة، لعل الله عَزَّوَجَلَّ أن يخلفك خيرًا كثيرًا من ورائها.

لعل عتبك محمودٌ عواقبه فربما صحة الأجساد بالعلل

أما الأمر الثالث في هذا الحديث فهو الدعاء بدعوى الجاهلية، سياق الحديث قرينة تدل على أن المراد بدعوى الجاهلية هنا إنما هي النياحة، وذلك أنّ النياحة كما أسلفت كانت مما يتميز به أهل الجاهلية؛ لأنهم أهل الجاهلية، فسمى ذلك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعوة الجاهلية، لأنهم كانوا ينوحون رجالًا ونساءً على موتاهم.

وقال بعض أهل العلم: إنّ دعوى الجاهلية تشمل هذا، وما هو أعم منه.

وكل دعوى للجاهلية فإنها داخلة في مضمون هذا الحديث ومعناه.

ومن ذلك أن يكون ثمة اعتزاء لأمور ما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ بها من سلطان، كاعتزاء وتعصب لطائفة أو بلد أو نسب أو ما شاكل ذلك، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما اشتجر بعض من الحيين الكريمين الأنصار والمهاجرين، فقال رجل ها هنا يا للأنصار، وقال رجل ها هنا يا للمهاجرين، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اجتمع عليهم وقال: **«أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم»**!

إذًا كل اعتزاء وتعصب إلى فئة أو طائفة لا شك أنه داخل في ذلك، ومن هذا دعوى وتعصب بعض المتمسكة، وبعض طلبة العلم، وبعض الدعاة من حيث تعصبهم إلى حزب من الأحزاب، أو جماعة من الجماعات حتى إنهم يبنون الولاء والبراءة على الانتماء إلى هذا الحزب أو ذاك.

من ذلك أيضًا ما يقع فيه بعض الناس من التعصب إلى عالم من العلماء، أو شيخ من الأشياخ حتى أنه يجعله محور الولاء والبراء، وميزانًا للقرب من الحق، أو البعد عنه، يدور على ما دار عليه هذا العالم أو الشيخ، وبالتالي فأنه يقبل الآخرين أو يردهم بحسب قربهم من هذا الشيخ، أو بعده عنه، ولا شك أنّ هذا كله تعصب مذموم قبيح يجب على المسلم أن يتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

الرجل الوحيد الذي يجب أن يكون الولاء والبراء عليه اسمه محمد بن عبد الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا هو نبينا، ورسولنا، وسيدنا عليه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، هذا الذي يجب أن يكون هو الميزان الذي يوزن به الناس، من كان إلى سنته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقرب فهذا الذي ينبغي أن يكون إلينا أقرب، ومن كان من سنته أبعد هذا الذي ينبغي أن يكون عنّا أبعد.

والله أعلم.

الشيخ لم يراجع التفريغ

٥٣

٥٣- باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

(المجلس الثاني)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أنّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا أراد الله بعبده الخير؛ عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر؛ أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة».

حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خرجه الترمذي وحسنه، وصححه الطحاوي وغيره من أهل العلم.

وهذا الحديث فيه بيان أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعل هذه الدنيا محلًا لتكفير سيئات المسلم، ذلكم أنّ الله جَلَّ وَعَلَا من رحمته ولطفه بعباده، جعل الأسباب التي تُكفر بها السيئات واقعة في الدور الثلاثة:

في الدنيا.

وفي البرزخ.

ويوم القيامة.

والأسباب التي تُكفر بها الذنوب والسيئات في الدنيا عدة:

أعظمها توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم التوبة إلى الله.

وكذلك الاستغفار.

وكذلك الأعمال الصالحة: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:١١٤].

كذلك الحدود المقدرة شرعًا، فإنها كفارة للأسباب التي أوجبتها.

ومنها أيضًا المصائب الدنيوية، وهذا هو محل الحديث في هذا الباب.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا أراد بعبده خيرًا، الله جَلَّ وَعَلَا من صفاته الإرادة، وقد علمنا سابقًا أنّ الإرادة في صفات الله عَزَّ وَجَلَّ نوعان:

[النوع الأول]: إرادة شرعية، وهذه تقتضي المحبة.

[النوع الثاني]: وإرادة كونية، وهي في معنى المشيئة.

والإرادة في هذا الحديث هي من النوع الثاني، أراد جَلَّ وَعَلَا إرادة كونية.

(إذا الله أراد الله بعبده خيرًا عجل له العقوبة في الدنيا)، ذلكم أن الناس لا يخلون من ذنوب، والذنوب مؤثرةٌ ولابد، ولو لم يكن من تأثيرها إلا اسوداد القلب وإلا ضياع العمر، وكان الذي ينبغي أن يُستغل هذا العمر والوقت في طاعة الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

إذًا الذنوب والسيئات مؤثرة ولابد، هذه الذنوب والسيئات تُسجل على ابن آدم وتُكتب عليه سيئات وذنوبا، فإذا أراد الله بعبده الخير، فإنه يصب عليه البلاء، ويُذيقه من المصائب حتى تكون هذه المصائب سببًا لتكفير السيئات؛ كالثوب الذي يصاب بالأوساخ فيغسل تارة بعد تارة حتى يبقى نظيفًا، كذلك المسلم من رحمة الله جَلَّوَعَلَا أنه جعل هذه المصائب التي تصيبه مكفرات للسيئات التي يجترحها.

ولا شك ولا ريب أنّ هذه المصائب إن تأمل الإنسان فيها، وجد أنها تشتمل على فوائد وحكم ومنافع لابن آدم، لو عقل لشكر الله جَلَّوَعَلَا عليها: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[النساء:١٩]، وهذه النعمة التي تنال الإنسان بسبب المصائب في الدنيا ترجع إلى أمور عدة:

أولًا: أنّ هذه المصائب سبب لتكفير السيئات، وذلكم أنّ الأدلة قد تواترت وتكاثرت، وأجمع العلماء على أنّ المصائب الدنيوية سبب لتكفير السيئات، ومن الأدلة على ذلك ما ثبت في ((الصحيحين)) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: أنّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**ما يصيب المسلم من هم ولا حزن ولا نصب ولا وصب ولا غل ولا أذى إلا كفر الله عَزَّوَجَلَّ من خطاياه، قال حتى الشوكة يشاكها**» إلى هذه الدرجة، هذا الألم اليسير الذي يُصاحب هذا الأمر وهو أن يُشاك الإنسان بشوكة، فإن الله جَلَّوَعَلَا يجعل ذلك سببًا لتكفير السيئات.

ولما نزل قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾[النساء:١٢٣]، بلغ ذلك من المسلمين مبلغًا عظيمًا، شق عليهم الأمر كثيرًا، كما ذكر أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ والحديث مخرج في ((صحيح مسلم)) فبلغ ذلك النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فقال لهم: «**سددوا وقاربوا، واعلموا أنه لا يصيب المسلم نصب ولا مصيبة، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياه**».

إذًا هذا أمر قطعي، دلت عليه الأدلة الشرعية الكثيرة، أنّ المصائب الدنيوية مهما دقت، فإنها سبب لتكفير السيئات، وهذه السيئات على قول جمهور أهل العلم، هي: الصغائر، يعني أنّ ما تكفره المصائب الدنيوية إنما هو الصغائر من الكبائر.

أما الكبائر تحتاج في تكفيرها إلى التوبة.

ثم إنّ تكفير هذه المصائب والسيئات يتفاوت ويختلف بحسب عظمها أو خفتها، كلما عظمت المصيبة كانت أكثر تكفيرًا للسيئات، وكلما خفت كانت دون ذلك.

المقصود أنّ كل مؤلم يصيب الإنسان في الدنيا سواء تعلق بأمر حسي أو أمر معنوي، فإنه سبب لتكفير السيئات قطعًا، كما دلت على ذلك الأدلة الكثيرة، وبالتالي لا ينبغي للإنسان أن يُغفل التفاتةُ إلى هذا الأمر العظيم الذي يجعل هذه المحنة منحة، فالله جَلَّ وَعَلَا قدر المصائب ليطهر بها من المعائب، وهذه نعمة وأي نعمة.

ولذلك كان الصالحون يتفقدون أنفسهم ويعودون باللائمة عليها، إذا طال عليهم وقت لم يصبهم فيه أذى، يعني لم يناهم شيء من المرض، لم ينزل بهم شيء مؤذٍ، فإنهم يبدؤون يتفقدون أنفسهم، يخشون أنهم لبغض الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخّر عنهم هذه الأسباب التي يكفر بها عن الخطايا، فإذا نزل بهم شيء من ذلك، اطمأنوا وسكنوا، إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، حتى إذا لقي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإذا بسيئاته قد كفرت.

ثانيًا: وهو أنّ المصيبة الدنيوية، سبب للصبر، والصبر أجره عند الله عظيم، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر: ١٠]، قال بعض السلف: كالماء المنهمر، ثواب عظيم لا يقدر قدره إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، فإذا صبر المسلم على هذه المصيبة كانت هذه فائدة كبرى له، وهي تحصيل هذا الأجر العظيم، قال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[البقرة: ١٥٥-١٥٧].

ثلاث فوائد وجوائز ينالها الصابرون، كل واحدة منها خير من الدنيا وما فيها.

إذًا كم في أعطاف المصائب من نعم جزيلة من المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثالثًا: أنّ المصائب التي تصيب الإنسان ويعلم الإنسان أنها مُسَببة عن الذنوب والمعاصي، لأنّ المسلم في نظره إلى هذه المصائب يرى أنها مسببة عن الذنوب والمعاصي: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[الشورى:٣٠]، وهذا الدليل دليل عام كما ذكرت لكم، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هذا دليل عام يشمل كل المصائب دقيقها وجليلها)، أي مصيبة تقع فليعلم الإنسان أنه إنما أوتي من سيئاته، فإذا أدرك ذلك وأيقنه، بادر إلى التوبة إلى الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

والتوبة أمر محبوب إلى الله جَلَّ وَعَلَا، وأهلها أهل محبته سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾[البقرة:٢٢٢]، فصارت المصيبة سببًا لحصول هذا الأمر العظيم، وهو التوبة إلى الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، قال سبحانه: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم:٤١]، يؤبون، يعودون إلى الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، للتوبة النصوح، فكان في أعطاف المصيبة هذه الفائدة الكبيرة.

رابعًا: حصول الاستكانة لله جَلَّ وَعَلَا والذل والخضوع، وهذا أمر محبوب لله جَلَّ وَعَلَا وهو من حكم تقدير المصائب، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[المؤمنون:٧٦]، الله جَلَّ وَعَلَا يحب من عبده إذا نزلت به النازلة أن يرجع إلى الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالخضوع والتذلل له تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، يترك الكبر والغرور ومشاهدة النفس ومطالعة إحسانه، يترك كل ذلك، ليعود عبدًا ذليلًا لمولاه سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

خامسًا: الدعاء والتضرع والأنين والابتهال إلى الله جَلَّ وَعَلَا، وكل ذلك ولاشك عبادات جليلة لها من الثواب الشيء العظيم، ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[المؤمنون:٧٦]، ذم الله هؤلاء على هذا بخلاف حال أهل الإيمان، فإنهم يرجعون إلى الله جَلَّ وَعَلَا بالتضرع والدعاء والسؤال والإثبات وهذا كله من الله عَزَّ وَجَلَّ بالمحل العظيم.

الله سبحانه يحب من عبده أن يدعوه وأن يسأله وأن يتضرع إليه، وأن ينطرح بين يديه، وكل ذلك كان من أسبابه، المصائب الدنيوية.

إذًا أنت إذا تحولت بذهنك وعقلك في هذه الأمور وغيرها من النعم التي يقدرها الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مصاحبة لنزول المصائب، علمت أنّ تقدير الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ خير، وأنه إذا

قدر على عبده شيئًا منها فإنه أراد به خيرًا، وذلك أمر يختص بالمؤمن الذي هو قائم بحق الإيمان والعبودية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أما غيره فإنّ المصيبة قد تكون سببًا يُخسف به في شأنه، كما قلنا هذا في درس البارحة وهو أن المصيبة كالنار، النار التي توقد تحت المعدن، فيخرج إما التبر الخالص وإما الزغل والغبش الذي يُطرح ويرمى، المصيبة إما أن ترفع صاحبها، وإما أن تنزل بصاحبها، ذلك أنّ من الناس من إذا أصابته المصيبة وقع في الأمر الذي يبغضه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ربما وقع في صغيرة، وربما وقع في كبيرة، وربما وقع في كفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والعياذ به: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾[الحج:١١]، نسأل الله السلامة والعافية.

المصيبة قد تنزل بالإنسان، وتكون سببًا لأن يُعاقر المعصية، من الناس من إذا ابتُلي بهموم وغموم، دعاه شيطانه، وسولت له نفسه أن يخرج عن ذلك بأن يعاقر الشراب المحرم، أو يتناول المخدرات، ويقول أنا أهرب من هذه الهموم وهذه الغموم، إذا صارت هذه المصيبة عليه صارت في حقه شرًا -عياذًا بالله-، وبعض الناس إذا نزلت به المصيبة، ربما وقع في أمر عظيم من اعتراض على قدر الله جَلَّوَعَلَا وسوء أدب في معاملته، وهذا مما يؤسف له، يقول: يا رب ماذا صنعت حتى تفعل بي هذا؟

أو تجد بعض الناس إذا رأوا مصابًا يقولون: فلان ما يستأهل! هذه كلمة قبيحة ومنكرة، اتق الله يا عبدالله، إن هذه الكلمة لازمها أن الله عَزَّوَجَلَّ أصابه بشيء لا يستحقه فكان ظالمًا، -تعالى الله عن ذلك-، الله جَلَّوَعَلَا لا يظلم أحدًا، الله جَلَّوَعَلَا حرم الظلم على نفسه، وجعله بين العباد محرمًا.

من الناس من نزلت به المصيبة وقع في فتنة أعظم من كل ذلك، وهي أنه -والعياذ بالله- قد يلجأ للدعاء والتضرع لغير الله سبحانه فيدعو الأموات وأصحاب القبور، يزعم أنه يفر من المصيبة بذلك، وهو لا يدري أنه وقع في أعظم مصيبة على الإطلاق إنه يفزع إلى الأموات (يا سيدي) ينادي صاحب القبر، المدد ... المدد أنا في ورطة لا ينقذني إلا أنت، وهذا من أعظم ما تُنتجه هذه المصائب في حق من لم يرد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به خيرًا، إنه

يشرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيكون حاله أسوأ من حال مشركي قريش الذين كانوا في الشدائد وعند الملمات والمهمات يخلصون الدعاء لله جَلَّوَعَلَا أليس كذلك؟

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[العنكبوت:٦٥]، لكن متى انتهى ذلك رجعوا إلى شركهم: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[العنكبوت:٦٥]، أما هؤلاء المتأخرون الذين فحش شركهم -والعياذ بالله- حتى زاد على حال الأولين، تجده لا يعرف الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عند الشدة، تجده أعظم ما يكون شركًا عند المصيبة، ما مسني الدهر، ربما تجده ينشد: ما مسني الدهر غيمًا واستجرت به، يخاطب النبي □ وهو ميت ﷺ:

ما مسني الدهر ضيمًا واستجرت به   إلا ونلت جوارًا منه لم يضم

ما عرف دعاء الله ولا اللجوء إلى الله، إنما لجأ لغيره، وهذه مصيبة كبرى، ربما تكون من أسباب هذا الأمر وهو وقوع المصائب.

إذًا تلك الثمرات إنما هي مما يختص به المسلم، وأما من عداه فإن المصائب في حقه ربما لا تزيده إلا ارتكاسًا وخذلانًا -والعياذ بالله-.

أما الكافر الأصلي فإنّ المصائب التي تنزل به، فإنه لا ينتفع بها في تكفير السيئات، إنما هذا الأمر مختص بالمسلم، ولذلك لو رجعت إلى كل الأحاديث التي تتعلق بهذا الموضوع وفي الصحيحين منها جملة وفي غير الصحيحين من الكتب بقيتها، كلها تجدها متعلقة بالمسلم أو المؤمن، أما الكافر فإنها عقوبة يعجلها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الدنيا، ولذلك أخير النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنّ الله جَلَّوَعَلَا إذا أراد بعبده شرًا، أمسك عليه ذنبه، لم يعطه هذه النعم ولم يكفر عنه من خطاياه بسبب ذنبه، يعني بسبب ما اجترحته يداه من الذنوب والسيئات والكفر والإعراض حتى يوافي بذلك يوم القيامة، هو يوافي بهذه الذنوب يوم القيامة، يجدها كاملة ويعاقب عليها كاملة -عياذًا بالله-.

والكافر في الأخرة، يجازى على ثلاثة أصناف:

[الصنف الأول]: على كفره بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

[الصنف الثاني]: يجازى على سيئاته التي هي دون الكفر سواء كانت تركًا لواجب، أو فعلًا لمحرم، السيئات من حيث هي تنقسم إلى قسمين: قد تكون تركًا لواجب بلا عذر، وقد تكون فعلًا لمحرم.

والكافر إذا لقي الله جَلَّوَعَلَا جازاه وعاقبه على كل واجب أوجبه لم يأت به هذا الكافر، كل صلاة يمضي وقتها ولم يصلها سيحاسب عليها، كل يوم من رمضان مر ولم يصم فإنه سيجازى عليه، وكذلك كل شربة خمر أو كذبة أو غيبة أو نظرة أو سرقة أو زنا -والعياذ بالله-، كل ذلك سيجازى عليه.

وبين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى في ذلك وهو أنّ الإنسان الكافر -عياذًا بالله- سيجازى يوم القيامة على كفره وعلى ما دونه: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ*وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ*وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ*وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾[المدثر:٤٣]، إذًا هو يجازى على الكفر ويجازى على ما دونه أيضًا،

أما الصنف الثالث: فهو أنه يعاقب على عدم شكر الله عَزَّوَجَلَّ على النعم، هذه النعم الدنيوية، الماء والطعام والهواء والأمن والرخاء والولد والمال وإلى آخر ذلك، هذه النعم الدنيوية إنما أباحها الله عَزَّوَجَلَّ لأهل الإسلام؛ لأنهم بتوحيدهم لله عَزَّوَجَلَّ يقومون بشكرها، أما الكافر فإنها لم تبح له، لذلك تأمل في قول الله عَزَّوَجَلَّ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[الأعراف:٣٢]، حلال للذين آمنوا، أما غير الذين آمنوا ليست حلالًا لهم، وإن كانوا يشتركون، الكل يتناولها في الدنيا، لكن في الآخرة خالصة يوم القيامة، ستكون لأهل الإيمان فقط، لكن لن ينعم بها الكفار في الآخرة.

إذًا هي النعم سوف يجازى عليها هذا الكافر أيضًا لأنه لم يقم بشكرها، وأعظم شكر لها توحيد الله عَزَّوَجَلَّ والإيمان به وبرسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

إذًا من أراد الله عَزَّوَجَلَّ به شرًا أمسك عنه ولم يُنزل به هذه المصائب، وبالتالي لا تحصل له تلك الفوائد ومنها تكفير السيئات، حتى يلقى الله عَزَّوَجَلَّ فيجازيه على هذه السيئات كاملة موفورة.

وهنا مسألة: وهي قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «وإذا أراد الله بعبده شرًا».

الله عَزَّوَجَلَّ قد يريد بعبده الشر كما جاء في هذا الحديث، ولكن تنبه -يا رعاك الله-، الشر إنما يضاف إلى مفعول الله لا إلى فعله، فعل الله الذي يقوم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا لا شر فيه البتة، بل كله خير، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والشر ليس إليك»، الشر لا ينسب إلى ذاته، ولا ينسب إلى صفاته، ولا ينسب إلى أفعاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إنما يكون الشر في المفعول، في المقدَّر، في المخلوق، وهو شر أراده الله عَزَّوَجَلَّ لغيره لا لذاته، الله لا يريد الشر لذاته، يعني لكونه شرًا قدره، لا، لكن قدر هذا الأمر الذي هو شر لأنه يترتب عليه خير يحبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إذًا هو مرادٌ لغيره لا لذاته.

الشر الذي يقدره الله عَزَّوَجَلَّ كله ليس شرًا محضًا، إنما هو شر من وجه وخير من وجه، فالله عَزَّوَجَلَّ إنما قدره لأجل هذا الخير الذي فيه، فيكون تقديره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له، يريد به هذا الخير، إذًا هو مرادٌ لغيره لا لذاته، وهذا مبحث يرجع إلى باب (الصفات والقدر) وتفصيله في ذلك المحل كما تعلمون.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي له الرضا، ومن سخط فله السخط» حسنه الترمذي.

لك أن تقول: «فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السَخط»، ولك أن تقول: «ومن سخط فله السُخط».

هذا الحديث خرجه أيضًا الترمذي، وحسنه أيضًا الترمذي، ورواه أيضًا عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، لكنه أيضًا حديث مستقل ليس تابعًا للحديث السابق.

هذا الحديث فيه إخبار النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء، ولك أن تقول: عِظم، ولك أن تقول: عُظم، إنّ عُظم الجزاء أو إنّ عِظم الجزاء مع عظم البلاء.

هذه القطعة من الحديث تجرنا للحديث عن موضوع يتعلق بالمصائب وثمراتها ونتائجها.

هل هذا الحديث يفيد أنّ الإنسان يثاب على المصيبة، إضافة إلى كونها سببًا لتكفير السيئات؟ هل يثاب الإنسان على المصيبة أم لا؟

هذا الموضوع التحقيق فيه أنّ المصائب تنقسم إلى قسمين:

الأمور المؤذية المؤلمة أو النوازل التي تنزل بالإنسان، تنقسم إلى قسمين:

[القسم الأول]: أمور مؤذية أو مصائب هي نتيجة لعمل صالح، يعني أن تكون مُسببة عن عمل صالح، وهذه يثاب عليها الإنسان دون شك: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[التوبة:١٢٠]، إذًا بين الله عَزَّوَجَلَّ أن ما ينشأ عن الأعمال الصالحة من أمور مؤذية فإن الإنسان يثاب على ذلك: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾[النساء:١٠٤]، وهو الثواب.

إذاً ما ينال الإنسان من تعب ومشقة بسبب صيامه، أو بسبب وضوئه في الليلة الباردة، أو بسبب ذهابه في شدة الحر إلى بيوت الله، أو ما يلقاه المجاهد في سبيل الله إلى غير ذلك من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى غير ذلك من الأعمال الصالحة، هذه يثاب عليها الإنسان قطعًا إذا كان مخلصًا لله.

القسم الثاني: المصائب والمؤذيات التي ليس للإنسان يد فيها، هذا هو محل البحث الذي نريد أن نبحث فيه الآن، كأن يصاب الإنسان بفقد ولد أو حبيب، أو يصاب بمرض أو عين، أو يصاب بحريق بيت أو فقد مال أو خسارة تجارة، إلى آخر ذلك.

نحن اتفقنا قبل قليل على أن هذه المصائب سبب للتكفير، لكن نريد الآن هل هي مع ذلك ترفع الدرجات وتنيل الإنسان المثوبات أم لا؟

هذا الموضوع هو محل اختلاف بين أهل العلم، واختلف العلماء فيه إلى قولين:

القول الأول: أنّ المصائب الدنيوية ليست سببًا للثواب، إنما تكون من حيث هي سببًا لتكفير السيئات، لكن أن يكون ذلك أيضًا سببًا للثواب هذا لا يكون، إنما لو صبر الإنسان يثاب على الصبر لا على المصيبة، قالوا: قاعدة الشرع قد دلت على أنّ الثواب لا يكون إلا على أمر وجودي، بمعنى: لا يكون إلا عن عمل صالح فعله الإنسان أو تولّد من فعله، أو كان هذا هو السبب له.

أما أمر لا يد للإنسان فيه، لا سبب للإثابة لأجله، وهذا القول اختاره جماعة من أهل العلم ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتلميذه ابن القيم، وروى معنى ذلك عن أبي

عبيدة بن الجراح رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وقال الحافظ رَحِمَهُٱللَّهُ فيما روي عنه: إسناده جيد كما في ((الفتح))، وروي أيضًا عن غيره من الصحابة.

إذًا هذا هو القول الأول وهو أنه لا ثواب على المصيبة.

والقول الثاني: وهو أنّ المصائب سبب للثواب.

إذًا إذا نزلت المصيبة، فإنه يكون بسببها الآتي:

أولًا: سبب للتكفير.

ثانيًا: سبب للثواب.

إن صبر أثيب ثوابًا ثانيًا.

إذًا من حيث نزول المصيبة من حيث هو هذا سبب مقتضٍ للثواب، وهذا القول نسبه النووي رَحِمَهُٱللَّهُ في ((شرحه على مسلم)) إلى جماهير العلماء، وجاء عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن المريض يثاب على مرضه، فكأنه يميل إلى هذا القول رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه.

واستدل هؤلاء في هذا الحديث الذي بين أيدينا، **«إن عظم الجزاء مع عظم البلاء»**.

واستدلوا أيضًا بما خرج الإمام مسلم رَحِمَهُٱللَّهُ من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أنّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **«لا يصيب المسلم مصيبة حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها خطيئة ورفعه بها درجة»**.

نلاحظ أن العطف بالواو ها هنا يقتضي أنّ المصيبة ترتب عليها الأمران:

التكفير، والثواب.

لكن يُكدر على هذا ما جاء في رواية أخرى عند مسلم فيها العطف بـ(أو)، كفر الله عنه بها خطيئة أو رفعه بها درجة، وهذا محل بحث طويل عند أهل العلم، هل هذا شك من الراوي يعني حصل عنده شك، أقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الأول؟ أو قال الثاني؟

أو كان من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من قوله أراد به التنويع؟ بمعنى أن تكون المصيبة سببًا لتكفير الخطايا لمن عنده ذنوب، فإن لم تصادف هذه المصيبة ذنبًا كانت سببًا لرفع الدرجة؟

على كل حال الذي يظهر لي -والله تعالى أعلم-، أنّ المصيبة إذا نزلت بالإنسان يكون حال صاحبها واحدًا من اثنين:

إما أن يكون صابرًا.

وإما أن يكون جازعًا ساخطًا.

فإن كان صابرًا فهذا محل اتفاق، أنه صار مثابًا؛ لأنه صابر، فيكون الثواب حاصلًا له لكن بسبب الأمر الموجود الذي بدر منه وهو الصبر وهذا لا خلاف فيه.

أما إذا كان جازعًا ساخطًا فإنه لا يمكن أن يقال إنه مع هذه الحال يكون مُثابًا، بل الدليل قد دل على أنه يكون آثمًا.

سمعت قبل قليل قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ومن سخط»**، أقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **فله الثواب**؟ أم قال: **«فله السخط»**؟

إذًا لا يمكن أن يكون ساخطًا ومثابًا في نفس الوقت.

وبالتالي يمكن أن تقرر المسألة في هذه الصورة وهي أنّ الثواب إنما يتعلق على الأمر الوجودي المصاحب للمصيبة وهو الصبر.

والخلاف إنما يظهر ويتحقق إذا تصورنا حالة هي وسط بين الصبر والجزاء، وهذا مما يصعب في الحقيقة تصوره أن يكون هناك حالة فيها الإنسان لا صابر ولا جازع، وهذا في الحقيقة إن تُصور فإنه يكون محل الخلاف، يثاب من أهل العلم من قال ومنهم من قال لا يثاب، وإن كان والذي يبدو لي -والله أعلم- أن تصور ذلك فيه ما فيه وأنّ المصيبة في الغالب لا تخلو من هاتين الحالتين، والله تعالى أعلم.

أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث أن **«عِظم الجزاء مع عظم البلاء»**، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر كما في الصحيح: **«من يرد الله به خيرًا يُصب منه»** ولذلك كان أعظم الناس مصيبة وابتلاء، الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، سُأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما عند أحمد وغيره بإسناد صحيح: **«من أعظم الناس بلاءً؟ قال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل»**، يُبتلى المرء على قدر إيمانه، فمن كان في إيمانه صُلبًا، شُدد عليه، ومن في إيمانه ضعيفا خفف عليه، أو كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذًا عظم الجزاء مع عظم البلاء وكلما ارتفعت درجة الإنسان، كلما كانت المصيبة في حقه أعظم، حتى إنّ المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يوعك كما يوعك الرجلان، تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كما في الصحيحين: **«ما رأيت أحدًا اشتد به الوجع كما اشتد برسول**

الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، وذلك لأنه أعظم الخلق منزلة ومكانة عند ربه، فلذلك عظم بلاءه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليعظم أجره عند ربه عَزَّوَجَلَّ.

والله جَلَّ وَعَلَا إذا أراد بعباده خيرًا ابتلاهم، ثم تكون النتيجة بعد ذلك، أنّ من رضيَّ فله الرضا، ومن سخط فله السخط، وجزاءه يكون وفاقاً، أهل الرضا الذين رضوا عن الله عَزَّوَجَلَّ في تقديره، فإن الله جَلَّ وَعَلَا يرضى عنهم، والذي يسخط ربه جَلَّ وَعَلَا في تقديره فإن الله عَزَّوَجَلَّ يسخط عليه.

والرضا والسخط من الله جَلَّ وَعَلَا صفتان فعليتان، والله جَلَّ وَعَلَا يرضى إذا شاء ويسخط إذا شاء عَزَّوَجَلَّ.

وهذا الموضع من الحديث يجرنا أيضًا للكلام عن مسألة الرضا بالقدر، وهذه مسألة مهمة، هل الرضا واجب؟ أو ليس بواجب؟

عندنا درجتان: صبرٌ، ورضا.

هناك درجة أرفع كما يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ هي: درجة الشكر أن ينتج عن المصيبة شكر الله عَزَّوَجَلَّ والفرح بها، وهذه لعباد الله عَزَّوَجَلَّ الأخيار المتقين، كما قال عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ و رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (أصبحت وما لي في سرور إلا في مواضع القضاء والقدر).

دعونا الآن نتحدث عن الدرجة الثانية، قلنا الصبر واجب، الدرجة الثانية هي درجة الرضا أرفع من الصبر، أهي واجبة أم لا؟

انتبه إلى أنّ الرضا له طرفان:

الطرف الأول: الرضا عن قدر الله عَزَّوَجَلَّ القائم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني تقديره الذي هو فعله، وهذا واجب بالاتفاق، يجب على كل إنسان أن يرضى عن فعل الله، عن تقدير الله، ولا يسخط فعله جَلَّ وَعَلَا ولا يعترض على فعله جَلَّ وَعَلَا ، بل يعتقد أن في تقدير الله عَزَّوَجَلَّ الخير كل الخير، وأنّ فيه الحكمة كل الحكمة.

أما الطرف الثاني فهو محل البحث وهو: الرضا بالمقدور، الرضا بالمصيبة، يعني نزلت به مصيبة، فقد ماله، سرق بيته، هل رضاه بهذا الذي نزل به أمر واجب أم لا؟

قبل أن نسترسل، ما الفرق بين الصبر، والرضا؟

قال العلماء كعمر بن عبدالعزيز، وابن المبارك وغيرهما من أهل العلم، الفرق بينهما:

أنّ **الراضي** لا يتمنى تغيير الحالة التي هو عليها.

وأما **الصابر** فإنه بخلاف ذلك.

الصابر حبس نفسه، الصبر هو الحبس، حبس قلبه عن اعتقاد ما لا يحل، وحبس لسانه عن قول ما لا يحل، وحبس جوارحه عن فعل ما لا يحل، لكنه يتمنى أن هذه المصيبة تزول.

أما **الراضي** فإنه لا يتمنى زوال الأمر الذي قدره الله عَزَّوَجَلَّ له.

قد يقول قائل: هل في هذا منافاة للأمر الجبلي وهو الشعور بالألم؟

الجواب: لا، لا يعني هذا أن الراضي لا يشعر بالألم، لأنه بشر وإنسان، ولكن كما قال العلماء: (كم من أجساد محشورة بالألم وقلوب محشورة بالرضا)، يمكن أن يجتمع الأمران يكون في جسده متألمًا ولكن في قلبه راضٍ وساكن ومطمئن، هذا القدر الذي هو الرضا بالمقدور، هل هو واجب أم لا؟

ذهب بعض أهل العلم إلى: أنه واجب، كابن عقيل الحنبلي وغيره من أهل العلم، واستدلوا بهذا الحديث، (فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط).

وذهبت طائفة من أهل العلم إلى: أنه مستحب وليس بواجب.

الواجب الصبر يحبس نفسه عما لا يحل.

أما أن يرضى بالمصيبة فهذه الدرجة أعلى وأرفع فهي مستحبة لا واجبة، لأنه لم يأت في الدلة دليل على إيجابها، إنما جاء الثناء والمدح بمن قام بها، وهذا ما اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وجماعة من أهل العلم، وهذا هو فيما يظهر الأقرب.

وإلا لو قيل بإيجاب الرضا لكان في هذا تكليفًا بأمر عظيم، يشق على أكثر الناس، وبالتالي فيكون الأمر والله تعالى أعلم أنّ الرضا بالمقدور أمر مستحب ومن جاهد نفسه فوصل إليه فليبشر بالخير الجزيل ونيل رضا الله عَزَّوَجَلَّ.

وبالتالي فإن هذا الحديث بناء على هذا القول يُوجه إلى أن الرضا والسخط الذي تعلق بتقدير الله لا بالمقدور، يعني: من رضيَّ بتقدير الله وفعله فله الرضا، ومن سخط ذلك فله السخط.

www.salehs.net الشيخ لم يراجع التفريغ

٥٤

٥٤- باب ما جاء في الرياء

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب ما جاء في الرياء

هذا بابٌ عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ للكلام عن الرياء.

والرياء: مصدر راءى يُرائي رياءً ومُراءاةً.

والمرادُ به: أن يعمل الإنسان العمل الذي لله لغيرِه، أي: أن يتقرب الإنسان بالعمل لله سبحانه ولغيرِه، فالمرائي أراد بعملهِ غير وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خالصًا، إنما أراد تحصيل مدح الناس وثنائهم وبُلوغَ الرئاسةِ والتصدُّرِ فيهم.

والرياءُ داءٌ عُضال، وهو من أعظم غوائل النفس ومكائدها الباطنة، والبليةُ بهِ عظيمة، والكلام فيه له شأن، وقد تكاثر في الأدلة بالتنبيه والتحذير فيما يخصه، والأمر بضده إلَا وهو الإخلاص.

الرياءُ ينقسم إلى قسمين:

القسمُ الأول: هو الرياء الأكبر، وهذا رياءُ المنافقين: وهو الرياء الذي يقعُ في الأعمال كُلها، في أصل الدين، وفي فرعِه، وهو الذي جاء في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ**﴾**[النساء:١٤٢]**، وهذا لا شك أنه شركٌ أكبر.

القسمُ الثاني: هو الرياء الأصغر وهو الذي يقع من المسلم في بعض الأعمال، فيريد بها وجه الله ﷻ ويريد بها أيضًا أن يتصنع للخلق، وأن يُحمد ويُثنى عليه، وهذا ليس بشركٍ أكبر وإنما هو شركٌ أصغر، على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

وقد كان ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذا دقة حينما عبَّر عن هذا النوع بقولهِ: (يسير الرياء)، وذلك أن الرياء الكامل هو رياء المنافقين، أما الذي قد يقع من المسلم فإنه يسيرٌ منه وطرفٌ منه.

الرياءُ -كما سبق أن ذكرت- البَلية به عظيمة، والخطر في شأنهِ عظيم ويظهرُ هذا من وجوة:

أولًا: أنه قد جاء في النصوص وصفُ هذا الأمر بأنه من الشرك بالله ﷻ، واعظِم بهذا خطورةٍ وتحذيرًا، فقد سماه النبي ﷺ **الشرك الخفي**، كما سيأتي معنا في حديث أبي سعيد ﷺ، وسماه النبي ﷺ **بشرك السرائر**، كما في حديثِ محمودَ بن لبيب ﷺ، وسماه النبي ﷺ **بالشرك الأصغر**، كما في حديث شداد بن أوس، وكذلك في حديث محمود بن لبيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وكلاهما عند الطبراني.

إذًا هو: الشرك الخفي، هو الشرك الأصغر، هو شرك السرائر.

وبالتالي الأمرُ فيه عظيم، فإن وصفه بأنه شرك مؤذنٌ بأنه أكبر من غيره من الكبائر.

[ثانيًا]: أنَّ الرياء محبطٌ للأعمال وهذا الحكم في الجملة، وإن كان سيأتي إن شاء الله تفصيلًا لذلك، وذلك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شَرَطَ في قبول الأعمال والإثابة عليها الإخلاص له ﷻ، فالإخلاصُ والرياء ضدانِ لا يجتمعان، متى وجدَ الرياء زال الإخلاص، وبالتالي كانت الأعمال حَابطةٌ -عياذا بالله-.

شرطُ قبول السعي أن يجتمعَا   فيه إصابة وإخلاص معا

فالعاملُ الذي يعمل وقد خالط عمله الرياء فإنه ما استفاد شيءَ، ولذلك قال بعض السلف: "قُل من لا يُخلص لا يتعب"فإن عمله وتعبه لا فائدة منه، إن أردت أن تُحصِّل ثمراتِ عملك فعليك بالإخلاص لله ﷻ، أن تُريد به وجهه لا سواه.

وإذا كان ذلك كذلك تبين لك أيضًا خطر الرياء.

ثالثًا: وهو صعوبة التخلص من الرياء، فإنَّ الرياء دافعه دافعٌ قوي، إذ إنَّ الذي يحُثُ ويدفع إليه شهوة خفية كامنةٌ في النفوس، ألا وهي: **حبُ المدحِ والرئاسة**، ولذلك فإن الرياءَ يعرضُ للصالحين، للعلماء، للعُباد، ولا يكاد يسلمُ منه إلا الصدِّيقون، فمسالكه خفية وطَرائقه دقيقة، له أشكالٌ وله ألوان، رُبما تتصور من إنسان في صورٍ حسنة وفي حقيقتها السُم الزُعاف.

إذًا هذه الأوجه وغيرها تدل على أن الرياء هو خطر عظيم، وأن على المسلم أن يكون حذرًا أشد الحذر منه، والله المستعان.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[الكهف:١١٠].

هذه الآية آية عظيمة فيها الأمر بالإخلاص لله ﷻ وهذا يتضمنُ أو يستلزم ترك الرياء: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف:١١٠].

المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورد شطر الآية وأراد منك أن تُكملها وما بعدها؛ ليستبين لك وجه الشاهد، وجه الشاهد: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف:١١٠]، **ووجه الدلالة ها هنا من جهتين:**

[الوجه الأول]: في قوله سبحانه: ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾[الكهف:١١٠]؛ فإن العمل الصالح هو: **المُقيد بالسُنة الخالصُ من الرياء**.

وبالتالي فإن هذه الآية فيها زجرٌ وتحذير من الرياء، لا يكون العملُ صالح إلا باجتماع هذين الأصلين، وإن شئت فقُل اجتماع هَذين الركنين ألَا وهما: **الإخلاص لله والمتابعة لرسولِه ﷺ**.

الوجه الثاني: تأكيدٌ لما قبله، وهو في قولِه تعالى: ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف:١١٠]، والرياء –كما قد سمعت– شرك بالله.

إذًا الآية فيها النهي عن الرياء، **وكل دليل جاء فيه النهي عن الشرك فإنه يتضمن النهي عن الرياء.**

في هذِه الآية فوائد:

١/قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾[الكهف:١١٠] إذًا النبي ﷺ بشرٌ لا يختلف عن البشر، ولا يتميز عن البشر من جهة كونهِ بشرًا، من هذه الجهة لا فرق بين النبي ﷺ وغيره، ومن خالف في ذلك فقد كذب صريح الآية: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾[الكهف:١١٠].

إنما الفرق في قولِه تعالى: ﴿ يُوحَى إِلَيَّ﴾ الفرق أنه ﷺ نبيٌ ورسول، وبالتالي ليس له من الربوبية شيء، وليس له من الإلهية شيء، وليس له من خصائص الإله العظيم سبحانه شيء.

٢/﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[الكهف:١١٠]، الإله: هو المعبود، معبودكم يجب أن يكون واحدًا وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

٣/ ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾[الكهف:١١٠]، هذه الآية استدل بها السلف رحمهم الله على رؤية الله عَزَّ وَجَلَّ الآخرة، وربنا سبحانه يُرى في الآخرة في موضعين: في عَرصات القيامة وفي جنات الخلد- أسأل الله جل وعلا ألّا يحرمنا رؤيته-.

٤/﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف:١١٠]، لاحظ أنه لَما جاء النهي عن الشرك عُلِّق ذلك بصفة الربوبية، قال: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ﴾[الكهف:١١٠]، وهذا فيه دليلٌ على منهج ومسلك أهل السُنة في أدلة التوحيد وذلك أن الربوبية دليلٌ على الألوهية، كأنه قال لأنه ربكم وجب أن تعبُدوه وحده ولا تُشركوا به شيءً.

٥/ثُم لاحظ الفائدة الأخيرة وما أحسنها وما ألطفها وذلك في قولهِ جل وعلا: ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف:١١٠]، كلمة (أحدا) هنا نكرة في سياق النهي، وقد تعلمنا في أصول الفقه أن النكرة في سياق النهي تُفيدُ العموم، وبالتالي في هذه الآية النهي عن الإشراك مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأي أحد.

وبالتالي كان فيها ردًا على أهل الشرك الحديثين والقدماء، الذين زعموا أن الشرك إنما هو ما كان فيه التقرب إلى الأصنام والأوثان.

بمعنى: أنك إذا جئت ونهيتهم عن الإشراك في العبادة مع الله عَزَّ وَجَلَّ واستدلالات عليهم بما جاء في الكتاب والسُنة قالوا: نعم هذه الآيات نزلت في كفار قريش وأمثالهم، وهم كانوا يتقربون إلى هُبل ومناة واللات.

إذًا هذه أصنام من تقرب إليها أشرك، لكن نحن لا نفعل ذلك نحن نتقرب إلى النبي والولي، وبالتالي لا تتنزلُ علينا هذه الأدلة.

هذه الآية ردٌ صريحٌ واضحٌ عليهم، الله عَزَّ وَجَلَّ نهى عن أن يشرك معه أيُ أحد إنسًا كان أم جنا، وليًا كان أم نبيًا، حجرًا كان أم شجرا، أي أحد فإنه داخل في قوله تعالى: ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف:١١٠].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» رواه مسلم.

هذا الحديث الذي خرجه الإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ في ((صحيحهِ))، حديثٌ قدسي يرويه نبينا محمد ﷺ عن ربه، والحديث القدسي كالقرآن من جهة أن لفظه ومعناه من الله ﷻ، كما أن القرآن تكلم الله به حقيقةً، فكذلك الحديث القدسي تكلم الله به حقيقةً، فلا فرق بين القرآن والحديث القدسي من هذه الجهة.

إنما الفروق بينهما من جهات أخرى:

أولًا: الفرق بينهم من جهة التعبد؛ القرآن مُتعبد بتلاوته بخلاف الحديث القدسي.

ثانيًا: القرآن مُتحدًا بهِ، تحدى الله ﷻ به الخلائق، وأما الحديث القدسي فلم يكن في شأنهِ ذلك

[ثالثًا]: من جهة الأجر ومن جهة الثواب، فإن في تلاوة القرآن ما ليس في قراءة الحديث القدسي، وبالتالي فإنهما يفترقان من هذه الجهة.

إلى فروقٍ أخرى بين القرآن والحديث القدسي.

الشاهد: أن النبي ﷺ يروي عن ربهِ ﷻ هذا الحديث العظيم الذي ينبغي أن يضعه كل مسلم نصب عينيه، قال سبحانه: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**».

الله ﷻ لغناه التام ولكماله المطلق لا يقبلُ أن يُشرَكَ معه أحد، فإما أن تكون العبادةُ له خالصة وإلا فإن الله ﷻ يرد العمل ويحبط ثوابه ولا يقبل منه شيئا، «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك**» لاحظ أن "أفعل التفضيل" ها هنا ليست على بابها؛ فليس لشركاء الله الذين يتقرب أو الذين يزعمهم المشركون غنًى، إنما هذا للدِلالة على غنى الله ﷻ المطلق على حد قول الله سبحانه: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾[الفرقان:٢٤]، مع أن أهل النار ليس معهم ولا لهم خير.

الشاهد: أن الله ﷻ أخبر أنه أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عِمَل عملًا صالحًا مما يُتقرب به إلى الله لكنه أشرك معه غيره فإن الله جل وعلا يتخلى عن هذا العمل، قال:

«**تركته وشركه**» يترك الله جل وعلا العامل والعمل، **وبالتالي فإن هذا الدليل صريحٌ في حبوطِ العمل الذي دخله الرياء.**

وجاء عند أحمد في روايتهِ لهذا الحديث: «**فأنا منه بريء وهو للذي أشرك، فليطلب منه ثوابًا**»، يعني: أن يطلب هو من الذي أشرك. إذًا ليذهب إليه وليطلب منه ثوابًا.

أما ربنا الغني ﷻ فإنه لا يُثيبُ على عملٍ مشوب قصد به هو سبحانه وغيره، وهذا من المواضع المهمة التي تحتاج إلى تنبه، **وذلك أن أحوال الرياء من حيث اقتضاء الحبوط للثواب وعدم ذلك ترجع إلى ما يأتي:**

[النوع الأول]: الرياء المحض، وهو الذي لا قصد للإنسان فيه للدار الآخرة، يعني: لا يريد وجه الله بالعمل ولا يريد تحصيل الثواب الأخروي إنما أراد الرياء فقط، قصد التصنع للمخلوق فقط، قام يصلي مثلًا؛ لأجل أن يُحمد ويُمدح ويُثنى عليه لا غير، لا التفات عنده لنيل الثواب من الله ﷻ **وهذا معلوم بالضرورة أنه عملٌ حابط.**

وهل يُتصور وقع ذلك من مسلم، أو أن هذا لا يكون إلا من مشركٍ منافق؟

بعض أهل العلم كابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذهب إلى أن هذا العمل يمكن أن يُتصور وقوعه من مسلم في الأعمال التي تظهر كالحج والصدقة والزكاة وما إلى ذلك، لكن لا يُتصور وقوعه من مسلم في الأعمال التي فيها خفاء كالصيام أو صلاة الإنسان في جوف بيته وما إلى ذلك، المقصود أن هذا النوع من الأعمال حابطٌ قطعًا.

النوع الثاني: هو الرياء اللاحق بأصل العمل، بمعنى: قام بالعمل أصلًا ودافعه إرادة وجه الله ومُراءة الخلق، قام يصلي ويريد أن يُثاب وأن يؤدي الفريضة التي أوجبها الله عليه، ويريد أيضًا مع هذا أن يُحمد ويُثنى عليه ويراه الناس ويُشيرون إليه بالأصابع فيقولون عابد، هذا القصد كان مقارنًا لأصل العمل، يعني: ما ابتدأه إلا وهو يريد هذين الأمرين، قلنا هذا يسمى الرياء اللاحق بأصل العمل، وهذا النوع من الأعمال حابطٌ بلا شك، بل قال بن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنه لا يعلم عن السلف خلافًا في ذلك، وإن كان بعض المتأخرين قد خالف في هذا، ولكنهم محجوجون بالإجماع المتقدم ومحجوجون بالأدلة الصريحة الواضحة.

من ذلك: هذا الحديث الذي بين أيدينا أَلَمْ يقل الله ﷻ: «**من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»، وأضف إلى هذا ما خرج النسائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((سُننه)) بإسناد

جيد كما قال بن رجب أن «**رجل جاء إلى الرسول ﷺ وقال يا رسول الله الرجل يريد الغزو للأجر والذِكرِ ما له** -يعني ما الذي يحصله هو يريد الغزو والقصد أمران. ما هما؟ أجر وذكر (ذكر يعني أن يذكره الناس فيثنون عليه ويحمدونه)- **فقال النبي ﷺ لا شيء له فأعاد الرجل السؤال، فأعاد النبي ﷺ الجواب فكرر السؤال ثالثًا فأجاب النبي ﷺ ثالثا بقوله: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وأُبتغي به وجهه**».

هذه قاعدةٌ رصينة تنسحب على جميع الأعمال وهي التي لا ينبغي لمسلم أن يغفلها: **إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وأُبتغي به وجهه.**

والسؤال هذا العمل الذي صاحبه الرياء في أصلهِ أكان خالصًا؟

لم يكن خالصًا، وبالتالي: فإنه غير مقبول أي: أنه حابط لا ثواب فيه، ويا ليت أن العمل الذي دخل فيه الرياء يكون حابطًا فحسب إنما هناك عقوبة عظيمة تترتب على الشرك بالله ﷻ، الذي علمنا أنه شركٌ أصغر، إذًا هذا النوع حابط أيضًا بلا شك.

النوع الثالث: هو الرياء الطارئ، بمعنى: أنه ابتدأ العبادة وهو مخلصٌ فيها لله، ثم طرأ عليه واردُ الرياء وهذه الحالة لها صورتان:

[الصورة]**الأولى**: أن يكون هذا الوارد خاطرًا فدفعه فذهب، قام يصلي ثم تنبه إلى أن هناك إنسان يحبه أو يقدره أو يطمع فيه ينظرٌ إليه، فبدأ يحسن الصلاة وبدأ يُطبق السُنة كاملة في ذلك، ثم إنه تنبه وتعوذ من الشيطان وترك هذا الالتفات والتصنع للمخلوق، فإن هذا لا يضره بلا شك، خاطرٌ ورد فدفعه لا يضره إن شاء الله.

الصورة الثانية: أن يطرأ فيسترسل معه العامل، يعني: إذا طرأ عليه في أثناء العمل بقيَّ معه إلى انتهائه، **هذا موضع اختلف فيه العلماء.**

[القول الأول]: إن هذا الرياء الطارئ لا يضر في قبول العمل؛ لأن ابتدأه كان لله خالصًا.

[القول الثاني]: إن هذه الصورة يكون فاعلُها ارتكب معصية غير أن العمل ثبت ثوابه له، لأن العبرة بالأصل.

القول الثالث: أنه حابط أيضًا مثله مثل الصورة التي قبلها.

وهذا القول هو الأقرب والله تعالى أعلم؛ وذلك لأن الأدلة التي سبقت لم تفرق في ورود الرياء على العمل بين ما كان في أصلهِ وبين ما كان طارئ عليه، «**إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وأبتغي به وجهه**».

هل هذا العمل الذي خالطه الرياء في وسطه واستمر إلى نهايته هل هو خالصٌ لله؟

الجواب لا، وبالتالي فإنه يكون حابطًا أيضًا.

لكن تنبه هنا إلى من أهل العلم كابن جرير الطبري وغيره من أهل العلم قالوا: **إنَّ محل الخلاف ومحل البحث ها هنا هو في عمل يرتبط أوله بأخرهِ.**

أما ما كان مما لا يرتبط أوله بأخره؛ فإنه لا يَرِدُ فيه الخلاف ما معنى هذا الكلام؟

يعني: الخلاف إنما نتصورهُ في عمل واحد له ابتدأ وانتهاء؛ كالصلاة كالصوم يرائي في صيام اليوم والعمل لا يكون صياماً إلا من أول اليوم إلى أخرهِ فيه إمساك، الصلاة من التكبير إلى التسليم، الحج منذ أن يُحرم إلى أن يطوف طواف الوداع.

أما الأعمال التي لا يرتبط أولها بأخرها كقراءة القرآن، فإنَّ كُل آية بمثابة العبادة المستقلة، الذكر، التسبيح، كلُّ تسبيحة بمثابة العبادة المستقلة، وبالتالي: **ما مضى والإنسانُ مخلصٌ فيه فإنه مُثابٌ عليه وما ورد عليه الرياء فما بعد فإنه يكون قد راءى فيه، وبالتالي فهو حابط، فتنبه إلى محل الخلاف أو محل البحث في هذه المسألة.**

[النوع الرابع]: الرياءِ اللاحق، بمعنى: قام الإنسان بالعمل مخلصًا ثُم حصلَ الرياءُ بعد ذلك، وهل هذا متصور؟ هل يُمكن أن يرائي الإنسان بعمل قد مَضَى وانتهى؟

الجواب: نعم، كأن يقوم الليل ثم أنه إذا أصبح تحدَّث بما عمل، "البارحة الله المستعان الواحد يعني قام وصلى ما كتب الله له، والمراد أن يُعجب الناس به وأن يُصدر في المجالس وأن تكون له الكلمة؛ لأنه إنسان عابد، والغالب أن مثل هذا نيته في الأصل مدخوله لكن لنتصور ولنَقُل إنه كان مخلصًا، هذه الصورة من أهل العلم من قال إنها: من الرياء، ومنهم من قال إنها لا تدخل في مسائل الرياء بل هذه من: **مسائل السمعة**، وإن شأت فقُل: التَسميع.

واختلف العلماء في التفريق بين الرياء والتسميع و في الصحيحين قال النبي ﷺ: «**من راءى راءى الله به، ومن سمع سمع الله به**»، وعند حبان عن أنس رضي الله عنه بإسناد صحيح «**أن النبي ﷺ كان في دعائهِ** -والدعاء طويل- **قال: أعوذ بك من السُمعةِ والرياء**».

إذًا عندنا أمران: شيء اسمه: **سمعة**، وشيء اسمه :**رياء**.

السمعةِ أو التسميع أكثر من رائيته فرّق بينهما ويبدو لي والله أعلم أنه هو الفارق الصحيح:

أنَّ الرياء: يكون مقارنًا للعمل وهذا ظاهر من اللفظ؛ هو يعمل ويريد أن يُرى عمله رياء، فيهِ رُؤية.

أما السُمعة أو التسميع فإنَّها ما كان لاحقًا بعد العمل؛ لأنَّ الأمر الآن لا يعدو أن يكون سماعًا بالعمل، يعني: يَسمع خبرًا أو يُسمع خبر العمل، فهو يتحدث بالعمل بعد ذلك لأجل أن يُحمد ويُثنى عليه وهذا يقع مع الأسف الشديد، كثيرًا من الناس لا يصبر أو لا يُطيق أن يصبر على كتم عملٍ في السابق، ولذلك تجدهُ يتفننُ في الحديث حتى يصل إلى أن يتكلم عن عملٍ عمله سابقًا.

المقصود سواء سمينا [هذا النوع] رياءً أو تَسميعًا ما حكمها؟

اختلف العلماءُ أيضًا في هذه المسألة منهم من قال: إنَّ هذا الأمر ليس محبطًا للعمل؛ لأنَّ الدليل قد جاء على أن الدليل قد جاء على أن الرياء هو المحبط وهذا ليس برياء، إنما هذه معصية يُعاقب عليها، أما العمل فالثواب ثابتٌ فيه.

وقال بعض أهل العلم إن هذا العلم حابطٌ أيضًا؛ لأن حكمهُ حُكم الرياء ولا فرق بينه وبين الرياء، والله جل وعلا لا يقبلُ من العمل إلا ما كان خالصًا.

وقال بعضُ أهل العلم: إن المقام مخوفٌ محتمل، يعني يخشى على مَن سَمّع أن يكون عملهُ حابط.

بل والذي يبدو والله تعالى أعلى وأعلم من خلال التأمل في قول النبي ﷺ (ومن سَمَعَ سمعَ الله به) الذي يبدو أن هذا هو وعيد، والمراد :بأن يُسَمعَ الله به أنه يفضحهُ على رؤوس الأشهاد يوم القيامة- نسأل الله السلامة والعافية-ومثلُ هذا لا يتناسب أن يكون معه إثابةٌ على العمل، عملٌ كان سبابًا لأن يُسَمعَ بصاحبهِ يوم القيامة ما يتناسب معه أن يكون معه ثواب، فالذي يبدو والله أعلم أنَّ هذا التسميع يوصل العمل إلى حدِّ الحبوط، ولا يُستغرب أن يكون شيء متأخر مُحبطًا لشيء متقدم، فإن الردة المتأخرة محبطه للأعمال المتقدمة إذا

قاربت الموت، كذلك المعاصي والسيئات دلة الأدلة على أنها مؤثرة إحباطًا أو إضعافًا للثواب بالنسبة للحسنات المتقدمة عليه.

إذًا لا يبعُد أن يكون التسميع مؤثرًا في حبوط العمل الذي تقدم من الإنسان.

إذًا هذه هي الأحوال الأربع التي تتعلق بحبوط الأعمال بالرياء وإن شأت فقُل بالرياء والتسميع.

[والنوع الرابع]أنبهك فيها ونفسي، إلى [ثلاث تنبيهات]:

[التنبيه الأول]: أنَّ عِلَم الإنسان بهذا الحكم يحفزهُ إلى أن ينظُر إلى عمله الصالح كرأس مال، ينبغي أن يحافظ عليه الإنسان وهذا قَلَّ من يلتفت ويتنبهُ إليه، بمعنى: أن عملك الصالح ينبغي أن تحافظ عليهِ أعظم من حفاظك على جوهرةٍ ثمينة تمتلكُها، هذه أعمالٌ صالحة قمت بها لله عَجَّلَّ حافظ عليها، أُحافظ عليها من ماذا؟ أُحافظ عليها من أن يَرِدَ عليها ما يُحبطها أو يُبطلها أو يُنقصُ ثوابها، وهذا يشتملُ على أمرين:

أولًا: التَسميع.

وثانيًا: المعاصي والسيئات.

وذلك بأنَّ صبر الإنسان على العمل الصالح بعد فعلِه، وهذا من أدق أنواع الصبرِ على الطاعة، أن يصبر الإنسان على الطاعة بعد فعلها، بأن يصبر على كتمانِها وعدم إشهارها، وأيضًا يصبر نفسه على ألا يقعُ في معصية تكون سببًا في حبوطِ عمله أو نقصان أجره.

التنبيهُ الثاني: [النوع الرابع] لا يتعلقُ بها صورةٌ آخرى، وهي أن يظهر العملُ دون إظهار، بمعنى رُبما انهى الإنسان العمل الصالح وهو مخلصٌ لله جل وعلا، لكن بغير فعلٍ منه ولا إرادةٍ منه ظهر العملُ للناس، صورتنا التي نبحثُ فيها قبل قليل تتعلقُ بعملٍ أظهره هو للناس، وسُمّعَ هو للناس، ومثلُ هذا أراد به تحصيل الثناء والمدح.

أمَّا إذا كان ذلك بغير فعلٍ منه، اطلع عليه إنسان أثناء أداءه للعمل، شاهده وهو يتصدق أو لاحظه وهو يقوم الليل، فاشتهر الخبر فبلغه ذلك، هذا وإن فرح به فإنه لا يضره إذا كان فرحهُ بظهورِ فضل الله عَجَّلَّ وكتمان عملهِ السيء، فهو يرجو أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُعامله بذلك في الآخرة، يكتُم ويستر عليه أعماله السيئة ولا يظهر إلا عمله الصالح، وقد جاء في

صحيح مسلم سؤال النبي ﷺ عن هذه الصورة، وهي أنه سؤل ﷺ عن الرجل يعمل العمل فيُحمد عليه، قال النبي ﷺ: «**تلك عاجلُ بشرى المؤمن**».

[**التنبية الثالث**: وهو أن بعض الناس يقول أنا أُظهر عملي الصالح الذي قد عَمِلته لأجل أن يُقتدى بي فيه ما رأيكم؟

هل هذا يدخل في مسائل الرياء والتسميع أو لا يدخل؟

الذي يظهر والله أعلم، أن ذلك ليس من مسائل الرياء والتسميع ولا يَردُ هذا أصلًا، يعني: يقول أنا أخبرت الناس بأن والله حصل كذا وكذا مني لأجل أريد أن أحفزهم، وأدفعهم لكي يعملوا، وربما يعمل أمامهم بأجل ذلك فهذا فيما يبدو والله أعلم ليس من مسائل الرياء، ولكنَّ المقامُ مقام مَخُوف، فأوصيك يا رعاك الله بأن توغل في هذا الموضوع برفق، فإنَّ القلب يتقلب، والنيةُ تتغيرُ في الدقيقة الواحدة بل في اللحظةِ الواحدة، رُبما يبدأُ الإنسانُ هذا الإظهار وهو لا يريد من الناس مدحًا وثناء بل إنما يُريد تحفيزهم ودعوتهم إليه، لكن ما أسرع أو رُبما يُسرع إليه تغيرٌ في النية، فالمقام على كل حال مَخوف، وكل إنسان حَجيجُ وطبيبُ نفسه

وعن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعا: «أَلَا أُخبركم بما هو أخوفُ عليكم عندي من المسيح
الدجال، قُلنا: بلى، قال: الشركُ الخفي، يقوم الرجل فيُصلي فيُزينُ صلاتهُ لِمَا يرى من نظر الرجل».

هذا الحديث فيه تسميتُ النبي ﷺ الرياء: بالشرك الخفي، وفي الحديثِ أن النبي ﷺ خاف الرياء على كُمّلِ المؤمنين وهم أصحابه، فماذا يُقال عمن بعدهم؟ أو ما لا يُقال عن أهل هذه العصور المتأخرة التي ضَعُف فيها الإيمان وضَعُف فيها التوحيد! والله المستعان.

لا شك أن المخوف علينا معشر هذه الأزمان الشرك الأصغر والشرك الأكبر أيضًا كلاهما والله مَخُوف، المقصود أن أمرًا يخافه النبي ﷺ على أصحابه الذين هم أكمل الناس إيمانًا وتوحيدا لحريٌ أن يخافه الإنسان على نفسه، ولاحظ أن النبي ﷺ ذكر أن الرياء أخوف عنده عليهم من المسيح الدجال.

أتدري من المسيح الدجال؟ إنه أعظم فتنة خلقها الله ﷻ منذ خلق آدم إلى قيام الساعة، هذا الفتنة العظيم الذي كان النبي ﷺ يستعيذُ بالله ﷻ منه ويعلم أصحابه أن يستعيذُ بالله منه داخل الصلاة وخارجها، بل كان يُعلمهم ذلك كما يُعلمهم السورة من القرآن.

المسيح الذي سُمي بالمسيح:

إمَّا لأنه يمسح الأرض خلال أربعين يومًا يجوبها كلها.

أو أنه ممسوح العين اليُمنى كما أخبر النبي ﷺ في شأنه.

وهو أيضًا دجال من: الدجل وهو الكذب والتدليس.

فهو جمع هذين الوصفين مسيحٌ دجال، هذه الفتنة العظيمة التي يجعلها الله ﷻ علامة من العلامات الكبرى للقيامة، ومع خطرها العظيم الخوف منها، ومع ذلك فالرياء أخوف عند النبي ﷺ منه؛ لأنه ذو مسالك دقيقة خفية رُبما تخفى هذه المسالك على الإنسان نفسهِ، ولو تكلمنا عن مسالك الرياء الخفية لطال الأمر، لكن على الإنسان أن يُحاسب نفسهُ محاسبة الشريك الشحيح في هذا المقام وذلك أنَّ الأمر والله عظيم، الإنسان في عبادته يُعامل الإله والرب الغني ﷻ الذي لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا ليس فيه أي شائبةٍ في قصد غيرهِ.

فَسر النبي ﷺ الشرك الخفي بمثال له، هو لا ينحصر في هذا المثال لكنه مثالٌ شائع وإلا فبقية الأعمال على هذا المنوال: «**وهو أن يقوم الرجل فيصلي فيُزين صلاته لما يرى من نظر الرجل**»، يقوم يُصلي وإذا بإنسان يَعْظُم في عينه ويريده أن يَعْظُم في عينه فيُحسن الصلاة، يقرأ قراءة حسنة بصوت حسن، ورُبما يتخشع ورُبما حاول أن يبكي، ورُبما أطال الركوع أو السجود، المقصود أنه يُزين هذه الصلاة لا لشيء إلا لأجل أن يُثني عليه هذا الإنسان ويمدحهُ، ولو أن الإنسان عَقل لرأى أن هذا الأمر لا فائدة منه، ثم ماذا؟ سَل نفسك هذا السؤال، مدحك وأثنى عليك ثُم ماذا؟ ما هي النتيجة؟ ما هي الثمرة وراء ذلك؟

الحقيقة لا شيء، الذي مدْحه زين وزمه شين هو الله ﷻ، الذي بيدهِ أن يُثيبك هو الله ﷻ، الذي بيدهِ النفع على الحقيقة هو الله ﷻ هؤلاء الخلق جميعًا ليس منهم شيء ولا إليهم شيء، كل الذي فوق التراب تُراب، ولذلك تذكر تلك الكلمة الثمينة التي قالها

الفُضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**من عرف الناس استراح**)، لم يتصنع لهم، ولم يقصدهم بشيء، ولم يلتفت إليهم، ولم يراءهم، ولم يُسمع لهم، لأنهم في الحقيقة لا يُقدمون ولا يؤخرون، ولا ينفعون ولا يضرون، (واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك).

الموضوع ينبغي أن يُنظر إليه إن كان الإنسان يُريد الخير لنفسه من هذه الجهة.

الشيخ لم يراجع التفريغ

٥٥

٥٥- باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بابٌ: من الشرك إرادة الإنسان من عمله الدنيا.

فيقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بابٌ من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا؛ من الشرك؛ يعني: من أبعاده ومن أنواعه؛ والشرك والعمل ها هنا يراد بهما شيء خاص؛ شرك خاص؛ وعمل خاص.

أمَّا الشرك فإنه الشرك الأصغر؛ هذا هو لبُ ما يتعلق بالموضوع من الشرك فالذي يرد على المسلم من هذا الموضوع وهو: إرادة الإنسان بعمله الدنيا؛ إنما هو متعلقٌ بأحد نوعي الشرك وهو الشرك الأصغر.

كذلك العمل هنا: هو العمل الأخروي؛ يعني: العمل الصالح الذي يراد به وجه الله ﷻ والدار الآخرة؛ فهذا هو المقصود.

أما العمل الدنيوي الذي ليس من أعمال البر ليس من الحسنات ليس من الصالحات فإنه لا حرج على الإنسان أن يقصد به الدنيا؛ كأن يتاجر أو يزرع أو يصنع أو يفعلَ ما شاكل ذلك فإن هذا لا حرج بأن يكون قصد الإنسان فيه الدنيا.

إذاً بحثنا هو في العمل الأخروي؛ العمل الصالح من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا.

والفرق بين هذا الباب وما قبله، تذكرون أن الباب السابق كان في الرياء، الفرق بين الموضوعين هو:

أن هذا الذي بين أيدينا الآن يريد صاحبُ هذه الإرادة؛ إرادة الدنيا يريد نيل شيء من حطامها بالعمل الصالح.

أما المرائي فإنه لا يريد شيئاً من الدنيا إنما قصده معلقٌ بثناء الناس ومدحهم وأن يعظم في أعينهم سواء جاءهُ شيء من نعيم الدنيا أو لم يأتي، هو لا يلتفت إلى هذا هو يريد أن يراه الناس فتكون له في قلوبهم مكانة ومنزلة وينال المدح والثناء.

أما الذي نتحدث عنه الآن فهو لا يهتم لكلام الناس؛ فهو لا يريد منهم ثناءً ولا مدحاً، ولا تقدم في قلوبهم إنما يريد شيئاً من الدنيا؛ أن يحصل مالاً؛ أن يحصل وظيفة؛ أو أن يترقى في المراتب الدنيوية وما شاكل ذلك.

وإن كان الأمران يشتركان في أنهما من موارد الشرك الأصغر ومن أسباب الهبوط والخسران.

إرادة الإنسان بعمله الصالح الدنيا، هذه المسألة تتفرع إلى حالتين:

الحالة الأولى: تمحضُ الإرادة الدنيوية؛ بمعنى: أن يعمل الإنسان العمل الصالح؛ ولا قصد ولا التفات في قلبه البتة إلى نيل ثواب الله ورضاه، أو نيل شيء من الثواب الأخروي؛ إنما يريد فقط نيل شيءٍ من الدنيا؛ يصلي أو يصوم أو يحج؛ و لا التفات عنده ولا إرادة له إلى نيل شيءٍ من الدنيا.

وهذا لا شك أنه عمل حابط وأن هذا القصد لا يكاد يصدر من مسلم؛ وبالتالي من كان لا يريد بالعمل الصالح إلا الدنيا فعمله حابط مردود عليه ولا شك؛ دل على هذا ما بين أيدينا الآية الأولى التي ستأتي معنا إن شاء الله وهي آية هود: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[هود:١٥-١٦].

كذلك آية الشورى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾[الشورى:٢٠].

وكذلك آية الإسراء: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[الإسراء:١٨-١٩].

هذه ثلاثُ آيات يؤيدُ بعضها بعض ويصدِّقُ بعضها بعض؛ تدل على أن من كان قصده الدنيا ولها يعمل؛ فإنَّه ليس له في الآخرة من نصيب، ومن كان يريد الآخرة ولها يعمل؛ فإن عمله مقبول، وهو مثاب من الله سبحانه وتعالى.

بقيت آية رابعة والشيء بالشيء يذكر؛ وهي آية النساء: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[النساء:١٣٤]، هل هذه الآية على نَسَقِ الآيات الثلاث السابقة أم لا؟

اختلف المفسرون رحمهم الله في ذلك:

[القول الأول]: أنها تدل على ما دلت عليه الآيات السابقة من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة.

والقول الثاني: أنها لا تدل على ما دلت عليه الآيات السابقة؛ وإنما هذا الآية فيها تنبيه وتحذير لقاصر الهمة الذي همته الدنيا؛ ولا يطمح إلى ما فوقها، نبهته هذه الآية إلى أنه ينبغي أن يكون عالي الهمة فيطلب خيري الدنيا والآخرة؛ وذلك أنَّ الدنيا والآخرة بيد الله ﷻ وهو قادرٌ على أن يعطيهما معاً؛ فينبغي للإنسان على أن يكون عنده همة لنيل الدنيا والآخرة؛ حتى يكون من الرابحين لا من الخاسرين وهذا القول اختاره ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولعله الأقرب في تفسير الآية.

عوداً على بدأ اتضح لنا أن من كان مراده الخالص في العمل الصالح إنما هو الدنيا فلا شك في أن عمله حابطٌ مردود؛ وهذا مما لا ينبغي أن يُختلف فيه.

الحال الثانية: فهي حالة تشريك النيتين؛ النية الدنيوية والنية الأخروية، فما حكم ذلك؟

قبل أن أسترسل أنبه إلى أننا نتحدث عن نية دينية ونية دنيوية، وبالتالي فليس داخلاً في هذا نيتين أو نيتان صالحتان؛ بمعنى: من عمل عملاً من الأعمال لصالحة يريد به أكثر من نية صالحة فهذا ليس من موضوعنا الذي نبحث فيه.

وهذا بابٌ عزيزٌ شريف لا يقصده إلا صادق الطلب عالي الهمة غزير العلم؛ وهو أن يدخل إلى عمل صالح فينوي فيه نيتين فأكثر وبالتالي يخرج بعبادتين فأكثر؛ كأن يذهب مثلاً إلى المسجد ونيته أن يصلي صلاة الجماعة ونيته أيضاً أنه إذا جلس استغفرت له الملائكة؛ ونيته أيضا أنه يغض طرفه عن النظر في الحرام ويكفُّ آذاه عن الناس؛ ويحفظ لسانه عن الوقوع في الغيبة، لاحظ أن هذه ثلاث نيات، وربما ينوي الإنسان أكثر من ذلك؛ فيكون هذا الذكي في عمل الآخرة قد خرج من عبادة واحدة بعبادات شتى.

كذلك أن ينوي الصوم فرضاً كان أو نفلاً وينويَّ مع ذلك حصول العفاف وكبح جماح شهوته؛ وهي التي أرشد إليها النبي ﷺ في قوله: «**يا معشر الشباب من أستطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**».

المقصود أنَّ هذا ليس داخلًا في موضوعنا.

نحن نتحدث عن إنسان يريد عبادة فينوي فيها نيتين: نية بإرادة وجه الله ﷻ والدار الآخرة ونية يريد بها نيل شيء من حطام الدنيا، اختلف العلماء رحمهم الله في هذه الحال:

[القول الأول]: إن ورود أدنى نية أو طرف من إرادة دنيوية في عمل صالح يبطل العمل الصالح بالكلية، وابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مال أو انتصر إلى هذا في كتابه ((المحلى)) حتى إنه ذكر أن من توضأ ونوى بوضوئه العبادة والتبرد فإنه لا يجوز له أن يصلي بهذا الوضوء؛ لأنه وضوء باطل، واستدل على هذا بقول الله ﷻ ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾[البينة:٥]، فلمّا كان هذا الإنسان نيته غير خالصة فإنَّ عبادته حابطة.

قال وماذا إذا توضأ فأراد العبادة وأراد تعليم غيره أيصح أن يصلي بهذا الوضوء أم لا؟ قال: نعم يصح؛ لأن قصد تعليم الناس أمرٌ أُمِر به شرعاً وبالتالي فإنه لا حرج عليه في ذلك.

القول الثاني: أن تشريك نية دنيوية مع نية أخروية لا يؤثر في العمل إثابة أو إنقاصاً أو إحباطاً؛ وانتصر لهذا القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جماعةٍ من أهل العلم، واستدل أصحاب هذا القول بأن الشريعة قد رخصت بنية دنيوية في عمل صالح، ولا فرق بين أن تكون هذه النية الدنيوية تابعة أو متبوعة غالبةً أو قاصرة؛ ومن تلك الأدلة قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾[البقرة:١٩٨]، هذه الآية في شأن التجارة في الحج، يعني: أن يحج الإنسان ونيته تحصيل العبادة وأيضا أن يتاجر أثناء الحج، الله جل وعلا قال: ﴿ليس عليكم جناح﴾[البقرة:١٩٨]، قال أيضا من تلك الأدلة قول النبي ﷺ: «يا معشر الشباب من أستطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم».

قال وهذه نية غير نية العبادة وهذا الاستدلال في هذا الدليل الثاني فيه نظر؛ فإن نية الإعفاف نية مطلوب بها وليس نية دنيوية.

على كل حال هذا هو القول الثاني في هذه المسألة.

القول الثالث: وهو ما ذهب إليه أكثر أهل العلم؛ وهو النظر في النية؛ فإن كانت النية الدينية هي الباعثة الغالبة فإنَّ العمل صحيح مقبول، لا بد أن تكون النية الدنيوية تابعة لا متبوعة وأن تكون غير غالبة؛ ويجب أن تكون النية الدينية هي الباعثة؛ يعني: هي التي تدفع للعمل الصالح وهي أيضا الغلبة هي القصد الأكبر لا القصد الأصغر متى ما كانت النية

الدينية هي الباعثة الغالبة المتبوعة لا التابعة؛ فبالتالي إن هذا لا يؤثر لأن العبرة كما تقول القاعدة: بالغالب والنادر لا حكم له.

والتحقيق في المسالة هو: أن يقال إن الأحوال في هذا الباب ليست على نمط واحد بل فيها تفصيل؛ وذلك يظهر في الأحوال التالية ولعل هذا هو الصواب في هذه المسألة والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلم.

لكن قبل أن نسترسل لا بد أن نستصحب في هذا الباب أصلاً مُحْكماً في الشريعة؛ دلت عليه أدلة كثيرة؛ وهي: أن الإخلاص أساسُ قبول العمل الصالح؛ وأن القبول وعدمه مرتبطٌ بوجود هذه النية الخالصة وجوداً وعدماً، فالله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[البينة:٥]، والنبي ﷺ يقول: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرئ ما نوى؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله؛ ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**».

ومر بنا تلك القاعدة النبوية العظيمة وهي قول النبي ﷺ: «**إنَّ الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا وأبتغي به وجهه**».

إذن استحضر هذا قبل أن نتكلم عن هذه الأحوال الآتية:

الحال في تشريك النيتين ترجع إلى ما يأتي:

الحال الأولى: قصدُ ما هو من ضرورات العمل بمعنى: أنه حاصلٌ قُصِّدَ أو لم يقصد مثال ذلك: أن يتوضأ وهو يريد العبادة والتنظف أو التبرد؛ التنظف أو التبرد حاصل شئت أم أبيت أليس كذلك؟ فمثل هذا لا يضر ولا يؤثر في الثواب لا إحباطًا ولا إنقاصًا؛ فإن لا ضرر في أن تُقصد العبادة بما هي عليه أن تقصد بضرورتها؛ مثلُ هذا لا ضرر فيه ولا حرج فيه، كذلك مثلا: أن ينوى الإنسان الصوم وحصول الحمية يريد أن يحتمي أو أن يخفف وزنه هذا حاصل إذا صمت شئت أو لم تشأ؛ وبالتالي إن هذا لا يؤثر إن شاء الله.

هذه هي الحالة الأولى وفيها يظهر ضعف قول ابن حزم ومن معه أن قصد التبرد مع الوضوء يبطل العمل الصالح.

لكن هنا مسألة: ما الأفضل أن ينوي الإنسان العمل الصالح بهاتين النيتين أو ينوي النية التعبدية فقط؟ لا شك أن قصد النية التعبدية وحدها أفضل، لكن بحثنا يتعلق بالرد

والحبوط، أما الرد والحبوط فإن قصد ما هو من ضرورات العمل وما هو كائن حاصل ولا بد لا يؤثر.

الحال الثانية: قصد ما أذن الشرع في قصده تصريحاً أو تلميحاً؛ بمعنى: إذا كانت الشريعة أذنت في قصد شيء دنيوي في العمل الصالح فإن هذا لا يؤثر في الثواب من جهة الرد أو الحبوط؛ مثال ذلك: قول الله ﷻ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾[البقرة:١٩٨]، كون الإنسان يحج وهو يريد في سيره من الحج نيل رضا الله ﷻ؛ ومع ذلك يريد التجارة، أخذ معه بضاعة ويريد أثناء تنقله بين المشاعر وفي تلك العرفات المباركة يريد أن يتاجر، الشريعة ها هنا أباحت له ذلك، وبالتالي فمن ضرورة إباحة ذلك أن لا يكون هذا مؤثراً على العمل من جهة الحبوط أو الرد.

مثال آخر قال النبي ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبه»، بمعنى: أنه في الجهاد الشرعي إذا قتل الإنسان قتيلا من أعداء الله فإنه يجوز له أن يأخذ سلبه وهو ما عليه سلاحه، لاحظ أن النبي ﷺ قال هذا الحديث يوم حنين وبالتالي فمن ضرورة ذلك أن الصحابة سوف يقصدون هذا الأمر؛ بل ما قال النبي ﷺ هذا القول إلا لأجل أن يقصد الصحابة ذلك فيكون دافعاً وباعثاً لهم على مزيد من الجد والاجتهاد في قتال أعداء الله.

ولذلك لما سمع أبو طلحة ذلك قتل عشرين من الكفار فأخذ أسلابهم.

إذاً قَصدُ ما هو مشروع به شرعاً؛ هذا لا يؤثر رداً أو إحباطاً للعمل الصالح.

وبالتالي يتضح لنا أن ما استدل به القرافي ومن معه الذين قالوا بالقول الثاني؛ أنه أمر مخصوص، استدلوا بشيء جاءت الأدلة الشرعية على جواز قصده.

لكنَّ البحث فيما لم يأتِ دليل على قصده فتعميم الحكم على جميع الأحوال فيه نظر.

الحال الثالثة: قصد أمر دنيوي لم يأتِ في الشريعة الإذن به؛ وهذه الحال هي الحال التي عمت بها البلوى ويُحتاج إلى التذكير والمذاكرة في شأنها؛ وهي: أن يقصُد الإنسان في عمله الصالح نيل شيئاً من حطام الدنيا والشريعة لم تأتِ بالإذن في شأنه. مثال ذلك: أن يحج ويريد التكسب بحجه وليس في حجه.

عندنا فرق بين مسألتين: أن تحج وتريد التكسب في الحج؛ يعني: أثنائه، بأن تتاجر مع كونك حاجاً، هذا قلنا أذن الشرع فيه.

إنما بحثنا الآن أن يتكسب بالحج؛ كأن يحج عن غيره والقصد مع القصد الأخروي؛ القصد أن يأخذ دراهم عن هذا الحج، أو أن يتعلم العلم الشرعي؛ والقصد نيل الشهادة؛ أو نيل المكافأة التي تعطى في الجامعة، أو أن يؤم والقصد نيل المكافأة التي تدفع للإمام أو نيل المسكن الذي يُعطاه، وكذلك الشأن في الآذان أو غير ذلك من الصور الكثيرة، فما حكم ذلك؟

الذي يظهر والله تعالى أعلم أن الأدلة الشرعية المحكمة حتى التي قالت صريحة على أن الإخلاص شرط قبول العمل الصالح؛ وإرادة الدنيا قادحة في هذا الإخلاص فهل مؤثرة في هذا العمل إما بإحباط الثواب وإما بإنقاصه؛ بحسب دخول هذه النية الدنيوية في العمل.

ونقل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المجلد السادس والعشرين من ((مجموع الفتاوى)) عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: (لا أعلم أحداً كان يحج عن غيره بشيء، وليس الارتزاق بأعمال البر من شأن الصالحين).

وذلك أنَّ العمل الصالح يجب أن يكون القصد فيه إرادة وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا غير، وبإرادة الدنيا مع العمل يكون الإنسان قد أخلَّ بهذا الشرط؛ فهذا من الأمور التي تحتاج أن يتنبه لها المسلم، واسترسل شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد هذه الكلمة إلى الكلام عن مسألة الحج وقال: وعليه إذا ينبغي للإنسان أن يحج عن غيره بقصدين:

[القصد] الأول: أنه يستعين بهذا المال على الوصول إلى تلك البقاع المشرفة؛ يحجُ عن غيره ومراده أن يصل إلى مكة، وأن يشبع نهمة نفسه من رؤية الكعبة والطواف بها والدعاء يوم عرفة إلى غير ذلك.

القصد الثاني: أنه يريد أن يبرئ ذمة أخيه المسلم الذي يكون عليه حجٌ واجب بأصل الشرع أو بالنذر، فهو يريد أن يبرئ ذمة أخيه المسلم.

هكذا ينبغي للإنسان أن يحج عن غيره.

أقول أن الأدلة الشرعية قد جاء فيها جملة تشهد لهذا القول:

من ذلك: قول النبي ﷺ كما عند أحمد: **«واتخذ مؤذناً لا يؤخذ على أذانه أجرا»**، كذلك قول النبي ﷺ: **«اقرؤوا القرآن ولا تغلوا فيه ولا تجفوا عنه ولا تأكلوا به ولا تتكاثروا به»**، كذلك قول النبي ﷺ: **«من تقلد قوساً على تعليم القرآن قلده الله به قوساً**

من النار يوم القيامة»، كذلك قول النبي ﷺ: **«من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يرح رائحة الجنة يوم القيامة»**.

إلى غير ذلك من هذه الأدلة التي تشهد لهذا القول وأن الأعمال الصالحة يجب أن يكون القصد فيها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الحال الرابعة: قصد نيل شيء من الدنيا ليكون وسيلةً لأداء العمل الصالح، وهذا مَخْرَجٌ في شأن الحالة السابقة ولا يحتاج المسلم معه إلا أن يصحح نيته بمعنى: أنه ينوي ويأخذ شيئاً من الدنيا لتكون الدنيا وسيلةً لتحصيل العمل الصالح.

فرق شاسع بين من كانت الدنيا قصدَه والدين وسيلته؛ وبين من يكون الدين قصده والدنيا وسيلته.

الحالة السابقة التي هي الحالة الثالثة: ما الذي كان مقصوداً؟ الدنيا. وما الوسيلة؟ الدين. توظف إماماً أو مؤذناً لأجل المال أراد تحصيل المال؛ أما هنا فهو أراد الدين أراد العمل الصالح وأخذ الدنيا لتكون وسيلة له لأداء هذا العمل الصالح؛ فهو توظف إماماً وأخذ المسكن لأجل أن يكون المسكن معيناً له لإداء الإمامة على أكمل وجه؛ بحيث يكون قريبا من المسجد أخذ المكافأة ليتفرغ ليؤدي هذه الإمامة؛ أخذ مكافأة طلب العلم أو الارزاق التي تفرض لطلاب العلم، لأجل أن يستعين بهذا المال على الطلب فيتفرغ له، لأنه لو ذهب إلى السوق لكي يعمل فأنه لا يطلب العلم أو لن يتفرغ تفرغاً كاملًا، إذاً كانت الدنيا وسيلة لتحصيل الدين ومثلُ هذا لا حرج فيه.

وهنا قاعدة لطيفة ذكرها شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في ((الاختيارات)) قال: (والمشروع أن يأخذ الإنسان ليحج لا أن يحج ليأخذ)، وعمم هذا في جميع المسائل أن يؤخذ ليأُم وليس أن يأُم ليأخذ، أن يطلب العلم يأخذ ليطلب العلم وليس أنه يطلب العلم ليأخذ، فإنَّ من أخذ ليطلب فإن هذا لا حرج عليه فيه، أما من طلب ليأخذ قال شيخ الإسلام: (فإن هذا الأشبه أنه ليس له في الآخرة من نصيب).

إذاً هذه خلاصة لموضوع إرادة الإنسان بعمله الصالح الدنيا؛ وبها أرجو أن يكون الموضوع قد تحرر في نظرك والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:
وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ۞ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[هود:١٥-١٦].

هذه الآية مضى ما يتعلق بها وبقي فيها مسألتان:

[المسائلة] الأولى: أن أهل العلم اختلفوا في هذه الآية نازلة فيمن؟

[القول الأول]: إنها نازلة في الكفار؛ من كان يريد الحياة أولئك هم الكفار.

[القول الثاني]: أنهم أهل القبلة.

القول الثالث: وعليه الأكثر أنها عامة في جميع الناس الكفار وأهل القبلة.

وإذا قلنا أنها عامة أو في أهل القبلة فالاستدلال بها في شأن إرادة الإنسان الدنيا بعمله الصالح ظاهرة؛ هذا لا إشكال فيه.

وأما على القول بأنه في شأن الكفار؛ فإنَّ ذلك أيضاً ظاهر وذلك أنَّ الكفار زُين في أعينهم شأن الحياة الدنيا؛ قال ﷻ: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾[البقرة:٢١٢].

وإن قلنا بهذا: فإن الاستدلال بها في شأن المسلم أيضاً مستقيم وذلك أن من شابه الكفار في خصلة من خصالهم ناله شيءٌ من الذنب الوارد في حقهم؛ وبالتالي فتكون الآية دليلًا على ما يتعلق بالمسلم أيضا والله تعالى أعلم.

أما المسألة الثانية: فهي ما جاء عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن هذه الآية نسختها آية الإسراء: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾[الإسراء:١٨].

قال آية الإسراء هذه ناسخة لآية هود التي معنا؛ ومراد ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا من نسخها هنا ليس النسخ الاصطلاحي المعروف عند المتأخرين؛ لعلكم تذكرون في دروس أصول الفقه أننا أخذنا أنَّ مصطلح النسخ عند المتقدمين أعمُّ من النسخ عند المتأخرين؛ فإنهم يريدون النسخ الاصطلاحي ويريدون كل ما يرد على الدليل من مخصص أو مقيد؛ سواء كان النسخ عندهم للآية يعني لحكمها بالكلية، أو كان لبعض حكمها الذي هو: تقيد

أو تخصيص، هذا كله عندهم داخل في معنى النسخ ومراد ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ هذا أن آية الإسراء مخصصة لآية هود، تأمل معي في آية هود الله عَزَّ وَجَلَّ أخبر أنه يعطي الدنيا من قصدها: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾[هود:١٥].

تريد الدنيا الله سيعطيك الدنيا ولكن ليس ثمة أجر أخروي.

لكن في آية الإسراء تخصيص لهذا وذلك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أرجع ذلك الإعطاء إلى مشيئته قال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لمن نريد ﴾[الإسراء:١٨] إذاً ليس هذا حاصلاً لكل أحد بل هذا راجع أيضا لمشيئة الله قد يعطي الله عَزَّ وَجَلَّ مريد الدنيا وقد لا يعطيه، انتبهتم لهذا: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها﴾[الإسراء:١٨]، وانتهى لا ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لمن نريد﴾ إذاً المسألة راجعة إلى مشيئة الله فقد يعطي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مريد الدنيا وقد لا يعطيه وبالتالي فإنه لا الدنيا استفاد ولا الآخرة استفاد.

فالأمر إذًا راجع إلى مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومشيئته مقترنة بحكمته.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: في الصحيح : عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إنْ أُعطِي رضي، وإن لم يُعطَ سخط.

تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش.

طوبى لعبدٍ آخذٍ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرةٍ قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يُشفَّع)).

هذا الحديث أخرجه الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في ((صحيحه)).

وفي هذا الحديث فوائد منها:

أن الإنسان قد يكون عبداً للدنيا وهذه العبودية قد تصلُ إلى حد الشرك الأكبر وقد تكون شركاً أصغر؛ أمَّا كونها شركاً أصغر ففي حق المسلم الذي معه أصل التوحيد، ولكن

دخلت عليه شعبة من شعب الشرك، وذلك يرجع إلى ما جاء في الحديث؛ يعني الضابط إلى حصول هذا الشرك الأصغر إن أعطي منها يعني: من الدنيا رضى، وإن لم يعطَ سخط.

إذًا من كانت الدنيا ترضيه أو تسخطه فإن فيه شعبةً من شعب التعبد أو العبودية للدنيا؛ قد يكون عبداً لأثمانها وقد يكون عبداً لأساسها، وهذا من عجيب الأشياء أن يكون الإنسان عبداً لثوبه وذلك أن النبي ﷺ قال: «**تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم**» هذه أثمان وقد تكون من الأثاث، تعس عبد الخميصة وهي: كساء عند العرب لونه أحمر أو أسود مخطط له أعلام معروف عندهم، والخميلة هي: القطيفة سواءً كانت ثوباً أو كانت فراشاً يُجلس عليه؛ وذلك أنه إذا كانت الدنيا إن جاءته رضيَّ وإن لم تأته سخط على ربه وقدره، فهذا -والعياذ بالله- صار عبداً للدنيا.

وأما كونها شركاً أكبر فإنها تكون كذلك في حق الكفار، وذلك أننا قد علمنا كما سبق أن الله ﷻ قد شاء أن تكون الدنيا مزينة في نظرهم وفي قلوبهم: ﴿**زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**﴾[**البقرة:٢١٢**]، قال الله ﷻ في شأن المنافقين: قال ﷻ: ﴿**فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ**﴾[**التوبة:٥٨**].

فهذا هو حال هؤلاء الكفار الذين شركهم بالدنيا شرك أكبر تعلق قلوبهم بها تعلق عظيم، حتى أنها أصبحت مزاحمة لمحبة الله ﷻ وإرادة طاعته فمثل هؤلاء لا شك أن هذه العبودية في حقهم شرك أكبر؛ أما المسلم فقد يكون واقعا في شرك أصغر وربما يكون كثير من الناس كذلك.

قال النبي ﷺ: «**تعَّسَ**» ويجوز لك أن تقول تَعَسَ؛ تَعَّسَ يعني: ناله التعاسة، والتعاسة الشقاء والهلاك، والنبي ﷺ يدعو على من كانت هذه حاله، كان من أهل هذه الأصناف الذين تعبدت قلبوهم للدنيا دعا عليه النبي ﷺ بالتعاسة والشقاء ودعا عليه بعد ذلك دعوة اشتملت على ثلاثة أشياء: «**تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش**».

تعس نالته التعاسة، وانتكس. الانتكاس: الرجوع بعد الخير إلى الشر، وبعد الهدى إلى الضلال، ويتضمن ذلك اضطراب الأمور عليه.

قال: إذا شيك فلا انتقش. والمعنى: أنه إذا نزلت عليه البلايا والمصائب لم تزل تستمر معه وتتفاقم في حقه، ومثَّلَ لهذا ﷺ بأنه إذا شيك يعني إذا أصابته شوكة فلا انتقش يعني:

فلا خرجت هذه الشوكة؛ لأن الإنسان إذا أصيب بالشوكة فأنه ينتقش أي: أنه يسعى في إزالة هذه الشوكة بالمنقاش؛ المنقاش: هو الآلة لتي يستعملها الإنسان في إزالة الشوكة إذا دخلت الجسم، إذا شيك فلا انتقش يستمر عليه اضطراب والألم–نسأل الله السلامة والعافية–.

هذه حال من كانت الدنيا هي المقصود والغاية والتي يسعى لها لغياته، وعلامة ذلك أنه يرضيه عن ربه وجودها ويسخطه على ربه وقدره فقدها.

ثم أبان النبي ﷺ الصورة المقابلة لذلك وهي صورة المخلص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (طوبى)؛ طوبى قيل هي: الجنة، وقيل: هي شجرة في الجنة، والأقرب والله أعلم هي أعم من ذلك، أن طوبى مؤنث أطيب.

إذًا هو إخبار أو دعاء من النبي ﷺ أن من كانت حاله كما أخبر أن يناله أو تناله أطيب الأحوال وأطيب الأشياء.

طوبى لعبد؛ هذا العبد مخلص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يريد إلا وجهه؛ ولذلك فإنه يخرج في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جهاداً، الجهاد الشرعي الذي فيه نصرة للدين وفيه قمع لأعدائه؛ وليس الجهاد البدعي الذي قصده وغايته غير شرعية والذي فيه سلُّ السيف على أمة محمد ﷺ والذي ينتفع به أعداء الله لا أولياء الله، بل هؤلاء قد يكونون عذابًا على المسلمين.

المقصود هو الجهاد الشرعي الذي تتحقق فيه الشروط الشرعية ويحصل به المقصد الشرعي؛ وهذا الإنسان يريد وجه الله عَزَّ وَجَلَّ حتى إنه لا التفات إلى نفسه وحاله ورفعة مكانته، حاله أنه ساع في رضا الله عَزَّ وَجَلَّ وذلك أنه لا يهتم بنفسه؛ رأسه وشعره أشعث غير مهذب غير مرتب وقدمه مغبرة؛ دليل على أنه مجتهد في طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والاجتهاد في نيل مرضاته عَزَّ وَجَلَّ ولا يبالي في أي مكان كان.

إن طلب منه أن يكون في الحراسة استجاب؛ لأنه يريد طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ وطاعته في طاعة الأمير الشرعي؛ وإن كان في الساقة يعني: في آخر الجيش كان في الساقة ولا يبالي؛ بأن يكون في المتصدرين وفي إمرة الكتائب أو ما شاكل ذلك، وهو مع ذلك غير معروف خفي؛ من الأتقياء الأخفياء حتى إنه لا يعرفه أحد لو طلب الإذن من الكبراء والأمراء لم يأذنوا له لأنه

لا يلتفت إليه؛ وأنه لو شفع في شأن أحد فإنه لم يشفع أيضاً لأنه غير معروف، وهذا كله من علامات تحقيق الإخلاص.

هذه الصورة مقابلة للصورة السابقة، التي فقد أهلها الإخلاص لله ﷻ وقصده والسعي إلى مرضاته جل وعلا وحده لا شريك له.

٥٦

٥٦- باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أرباباً

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب: من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أربابًا من دون الله.

فإن الإمام محمدًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ بَوبَ هذا الباب الذي وسمه بقوله: بابٌ من أطاع العلماء والأمراء بتحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله، فقد اتخذهم أربابًا من دون الله.

هذا الباب عقده الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأجل بيان أنَّ من لوازم التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، أن تكون الطاعةُ كلُّها لله سبحانه، وأن تكون طاعة غيره مُنْدرجةً في طاعته ﷻ.

وقد ذكر كما ترى أداة شرط وفعله وجوابه، من أطاع العلماء والأمراء أو غيرهم، ما ذكر الشيخ ها هنا إنما هو على سبيل التمثيل، لأن أكثر ما يقع الخلل في هذا الباب -أعني في باب الطاعة- إنما هو من جهة المخالفة في طاعة العلماء أو في طاعة الأمراء، ولو أطاع غيرهم أيضًا في هذا الشأن وهو في تحريم ما أحل الله أو في تحليل ما حرم الله، فجواب الشرط: فقد اتخذهم أربابًا من دون الله.

وقد نزع في هذا التبويب إلى الآية الآتية مع حديث علي ﵁ وأرضاه.

وإن مما لا شك فيه أن طاعة الله ورسوله ﷺ أوجب الواجبات على المسلم، والله تبارك وتعالى عبادته هي طاعته، وطاعته هي عبادته، لا فرق في معاملة العبد لربه بين الطاعة والعبادة بخلاف معاملة غيره، فإن الأمر فيه تفصيل؛ فإن الطاعة أوسع من العبادة على ما يأتي بيانه إن شاء الله.

أما في حق ربنا ﷻ وما يعامل العبد به ربه، فإن الطاعة والعبادة أمران مترادفان، فالطاعة هي العبادة والعبادة هي الطاعة.

والدين إنما هو طاعة الله ورسوله ﷺ ، والأمر في طاعة الله ورسوله ﷺ في كتاب الله في عشرات المواضع، وكذلك الشأن في أحاديث النبي ﷺ.

إذن الواجب لمن أراد أن يكون محققًا توحيده أن تكون طاعته الكاملة لله ورسوله ﷺ، وغيرهما إنما يطاع في طاعة الله جل وعلا.

والمقصرون والمخالفون في بعض الطاعة أصناف، منهم:

[الصنف الأول]: أهل البدع والكلام الذين قصروا في طاعة الله ورسوله ﷺ حيث أنهم اعتمدوا قواعد زعموها عقلية، وهذا هذياناتٍ وفلسفاتٍ منطقية قدموها على كلام رسول الله ﷺ فخرجوا إلى أنواعٍ من البدع وتعطيل صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

[الصنف الثاني]: المتعصبون للمذاهب الفقهية، فإن البلية بالتعصب للمذاهب الفقهية بلية كبرى عمت وطمت، فإن من الناس من يتعصب لمذهبه ولإمامه بحيث إنه لو تليت عليه الآيات والأحاديث المخالفة لما كان عليه هذا الإمام أو ما تقرر في مذهبه، فإنك لا تجد منه انقيادًا للحق، إنما يركب الصعب والذلول لأجل أن يتأول أو يُضَّعف أسانيد أو دلالات هذه النصوص، والمهم أن يسلم المذهب، وأن يسلم قول الإمام، وهذا لا شك أنه قدحٌ عظيم في شأن التوحيد من جهة طاعة الله ورسوله ﷺ.

الصنف الثالث: وهم أتباع المشايخ والطرق والأحزاب والجماعات الذين جعلوا لهم إمامًا لا يتقدمون عن قوله ولا يتأخرون، لسان حالهم يقول: إنه معصوم وإن الحق يدور مع قوله وموقفه، ولذلك فإنه عنه لا يتزحزحون حتى لو قامت الأدلة والبراهين على خطأ هؤلاء، وهذه بليةٌ قديمة حديثة، شاهدُ هذا الخلل في الطاعة ما تراه من أحوال بعض هذه الجماعات والأحزاب والطرق التي بينت لها أخطاؤها بالدليل والبرهان منذ عشرات السنين ولا تزال مصرة على السير على النهج الذي وضعه الإمام والقائد والزعيم، وهذا ولا شك أنه خلل كبير في باب الطاعة.

[الصنف الرابع] من المقصرين بل من أصحاب التقصير الشديد في باب الطاعة وهم أهل السياسات الجائرة، والعلمنة الفاجرة الذين يقدِّمون أقوال البشر وقوانينهم على كلام رسول الله ﷺ، فتجد من فلتات كلامهم وكتاباتهم إرادةٌ إلى التحاكم إلى الطاغوت، وقد أُمِرُوا أن يكفروا به وتجدُ في إعطاف ما يقولون ما يخبر عن خبيئة نفوسهم وهي أنهم ينظرون إلى الشريعة الإسلامية بأنها شريعة قاصرة عن أن تستوعب أحكام السياسة أو الاقتصاد أو الأسرة، يرمونها تصريحًا أو تلميحًا بأنها لا تستطيع أن تواكب ما عليه هذا العصر.

ولذلك يغرسون في نفوس الأغمار والناشئة بأنَّ شأن الشريعة الإسلامية، إنما هو أن تنظم علاقة الإنسان بربه ﷻ فحسب، أما شئون الحياة والمعاش فإنه لا علاقة للشريعة بها.

ولا شك أن هذا ظلم وجور وبهتان على الشريعة، فإن هذه الشريعة الإسلامية المحمدية لا شك أنها شريعة جاءت منظمة لعلاقة الإنسان بربه، وعلاقة الإنسان بنفسه، وعلاقة الإنسان بغيره، وعلاقة الإنسان بالحياة، انظر إلى أطول آيةٍ في كتاب الله، في أي شأنٍ كانت؟ أليست آية المداينة، أليس هذا شأنٌ من شؤون المال والاقتصاد.

إذن شريعة النبي ﷺ التي أنزلها الله ﷻ عليه جاءت كاملة منظمة لكل الشئون على الإطلاق، لم تدع شيئًا من الأشياء على هذا الإطلاق وفي هذا العموم، إلا وقد نظمته تنظيمًا بديعًا يعود بالسعادة على الفرد وعلى المجتمعات، من تنظيم سياسة الدول وإلى كيف يلبس الإنسان حذاءه، مرورًا بأحكام العبادة والنكاح والطلاق والصناعة والزراعة وكلّ شئون الحياة.

إذن من الجور العظيم زعمُ أن هذه الشريعة قاصرة عن أن تنظم أمور معاش الناس، هؤلاء وغيرهم كانوا مقصرين في شأن طاعة الله ورسوله ﷺ، ومقدمين طاعة غيرهما على طاعتهما، ولا شك أنَّ هذا خللٌ عظيم، قد يكون فسقًا وقد يكون كفرًا بحسب حال هذا المخالف.

وما سيأتي إن شاء الله من الكلام عن الأدلة التي أوردها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ والآثار ما يبين هذا الباب بجلاء إن شاء الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: توشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر!

هذا أثر لطيف اللفظ حسن المعنى، وإن كان لم يوقف عليه بهذا اللفظ، لم يقف على إسناد له بهذا اللفظ، وإن كان قد نقله جمع من أهل العلم وكأن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تابع في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه ذكره بما يقرب من أربعة مواضع في ((مجموع الفتاوى))، وكذلك ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((الطرق الحكمية)) وفي ((زاد المعاد)) و((الصواعق المرسلة)) وفي ((إعلام الموقعين)).

المقصود أن هذا اللفظ مشهور في كتب أهل العلم، وإن كان لم يوقف له على إسناد، وما زُعِمَ من وجود إسناد له هذا فيما أعلم وهم، ذكر بعض الفضلاء أن له إسنادًا في ((مجموع الفتاوى)) في المجلد السادس والعشرين لابن تيمية، ولكن هذا وهم هذا الإسناد كان لأثرٍ لابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وجاء لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لفظ قريب مما بين أيدينا، وذلك ما خرجه ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ في ((جامع بيان العلم وفضله)) من قوله رضي الله عنه: **(تراهم سيهلكون أقول قال رسول الله ﷺ: ويقولون نهى أبو بكر وعمر)**، كما أخرج أثرًا قريبًا أيضًا من هذا في نفس الموضع، فهما أثران أحدهما صحيح والآخر فيه ضعف في إسناده شريك ابن عبد الله وهو ضعيف.

المقصود أن هذا الأثر ربما يكون موجودًا في بعض الكتب -أعني إسناده- ربما يكون موجود في بعض الكتب التي لم تصل إلينا والله أعلم.

المقصود أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إنما قال هذا القول في شأن مسألة التمتع في الحج، ولسنا بصدد البحث في هذه المسألة، لكننا مع هذا الأثر الذي يدلُّ على وجوب أن يُقدَّمَ قول الله ورسوله ﷺ على قول أي أحد حتى لو كان في منزلة علية، حتى لو كان قول أبي بكر وعمر، ومعلومٌ أن منزلتهما عند المسلمين في منزلة السمع والبصر، ومع ذلك شدد النكيرَ رضي الله عنه على من قدم قولهما على قول الله ورسوله ﷺ .

وفي هذا: أن من المشروع أن يغلظ على من عارض كلام الله ورسوله ﷺ بكلام أي أحد مهما علت منزلته.

هذا هو الحق الذي يجب أن يكون، يجب أن يحفظ للنصوص الشرعية، وللآيات والأحاديث يجب أن يحفظ لهما قدرهما ومكانتهما بحيثُ لا يجوز أن يتجرأ عليهما أحد.

وفي الأثر أن من عارض ولم يُقبل ولم يُذعن بكلام الله ورسوله ﷺ ، فإنه متوعد بعذاب يصيبه، وهذا ما أخبرنا به عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣].

كل من عارض كلام الله ورسوله ﷺ واستكبر ولم يَنْقَد فليبشر بالعذاب المعجل قبل العذاب المؤجل إلا أن يتوب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، في صحيح مسلم أن النبي ﷺ كان يأكل ومعه رَجَلٌ فقال له وقد كان يأكل بشماله، قال له: «**كل بيمينك، قال: لا أستطيع، قال**

لاستطعتَ، ما منعُه إلا الكبر»، يقول الراوي: فما رفع يده بعد ذلك إلى فيه، يعني: شلت يده، بسبب أنه استكبر عن طاعة الرسول ﷺ.

إذن حذاري أن يتردد أو يتأخر إنسان في طاعة الله ورسوله ﷺ، إنه يوشك أن يعاجله الله ﷻ بالعقوبة وهذا مما ينبغي أن يأخذه المسلم على محمل الجد وأن يتنبه له غاية التنبه، لا يجوز بحال أن يُعارض كلام رسول الله ﷺ، وأولى من ذلك أن يُعارض كلام الله ﷻ بكلام أي أحد كائنًا من كان حتى لو كان إمامًا يشار إليه، أو عالمًا أو رجلاً صالحًا تقيًا؛ لأن النبي ﷺ هو إمام كل مسلم وهو الذي سيسألُ عنه كل أحد عليه الصلاة والسلام.

كل إنسان سيسأل عن هذا النبي الكريم ﷺ في موضعين عظيمين:

[الموضع الأول]: في القبر فيما يقال للميت ماذا كنت تقول في هذا الرجل الذي بُعِثَ فيكم.

الموضع الثاني: في عرصات القيامة، ﴿**ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين**﴾، الرسول المرسل إلينا اسمه محمد بن عبد الله ﷺ.

إذًا على كل إنسان أن يعد جوابًا لهذا السؤال، كان مقبلاً على طاعة الله ورسوله ﷺ أم أنه مقصرٌ، أم أنه مدبر معرض، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، الآية. أتدري ما الفتنة؟ الفتنة هي الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

هذا الأثر العظيم عن الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ رواه عنه تلميذه الفضل بن ضياء، وكذلك تلميذه أبو طالب كلاهما رويا هذا الأثر عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو يرسم لنا منهجًا واجبًا على كل من استطاع الوصول إلى الحق، فإنه لا يجوز له أن يقلد في خلافه، يقول: (عجبت لمن عرف الإسناد وصحته)، هذا في شأن من هو متأهل لمعرفة الحق والصواب بحيث أنه يمكن أن ينظر في الأحاديث وفي أسانيدها وفي عللها، وبالتالي فهو يمكن

أن يتحقق من الحق وأن يصل إليه من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ ، كيف يدع هذا ويذهب إلى أقوال العلماء!

ومَثّلَ بإمام جليل من أئمة المسلمين المقدمين، وهو سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتوفى سنة إحدى وستين ومائة وكان إمامًا جليلاً وله مذهب متبوع وله طلاب، ومع ذلك يقول كيف لإنسانٍ يمكنه أن يعرف الحق، كيف لا يسعى إلى الوصول إلى الحق، ويدع ذلك إلى اتباعاً قول فلان أو فلان من أهل العلم، وإذا كان هذا في حق هؤلاء الأئمة الأجلاء فكيف فيمن ترك الكتاب والسنة واستعاض عنهما بأقوال أهل بدع أو ضلال، أو ربما من الكفار أو الملاحدة.

وأعجبتني كلمة لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((الصواعق)) تعليقًا على كلمة ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا التي سمعتها آنفًا، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (رضي الله عن ابن عباس ورحمه فكيف لو رأى الخلف اللذين نعرفهم وهم يتركون كلام الله ورسوله ﷺ ويأخذون بقول أرسطو وأفلاطون وابن سينا والفارابي والجهم بن صفوان والبشر المريسي، وأبي الهبيل العلاف)

إذا كان الذي يترك الحق يترك نور الوحي من الكتاب والسنة إلى قول الصحابة وأهل العلم والأئمة مذمومًا فكيف بمن ترك هذه الأدلة إلى قول غيرهم من الضالين، لا شك أنه أحق بالذنب.

ثم بيّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الدليل على وجوب اتباع الحق هو ما جاء في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣].

ولاحظ هنا أن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسر الفتنة بالشرك، وهذا أحد أقوال ثلاثة من أقوال أهل التفسير في هذه الآية:

منهم من فسر الفتنة: بالضلالة.

ومنهم من فسر الفتنة: بالابتلاء في الدنيا.

ومنهم من فسر الفتنة: بالشرك، وهو قول السبكي ومقاتل، واختاره كما ترى الإمام أحمد رحمة الله تعالى على الجميع.

الشاهد أن من أعرض عن كلام الله ورسوله ﷺ وتقصّد إلى مخالفته، والاستكبار على اتباعه، فإنه متوعد بهذا الوعيد الشديد؛ أن تصيبه فتنة أو يصيبه عذاب أليم.

ولاحظ ها هنا، أن الفعل (يخالفون) مع أنه متعدد بنفسه، الأصل أن يقال فليحذر الذين يخالفون أمره، لكنه عدّى الفعل ها هنا بحرف (عن) وذلك لأن الفعل ها هنا أُشرِبَ معنى الإعراض فكأنه قال: فليحذر الذين يعرضون عن أمر النبي ﷺ أن تصيبه فتنة أو يصيبهم عذاب أليم.

إذن ليست كلُّ مخالفة هي ما نتحدث عنه ولو كانت عن خطأ أو اجتهاد.

إنما الحديث عن خطأٍ ناتجٍ عن إعراض واستكبار، هذا الذي يدور عليه هذا الوعيد الشديد.

وفي هذا الأثر: أنَّ على المسلم أن يجتهد في الوصول إلى الحق ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأن يبذل جهده في أن يصل إليه ولا يعني هذا أن لا يستعين بأقوال أهل العلم وأن يرجع إلى فتاويهم وأن يسألهم، بل هذا هو الواجب عليه إن كان لا يستطيع الوصول إلى الحكم باجتهادٍ منه، إذا كان ضعيف العلم واجبه أن يسأل أهل العلم، لأنَّ الله ﷻ أمرنا بذلك، وكذلك أمرنا رسوله ﷺ: **«هلا سألوا إذ لم يعلموا إنما شفاء العلم السؤال»**.

وبالتالي فمن كان جاهلاً فإنه يسأل أهل العلم ويعمل بمقتضى أمرهم، لكن دون أن يَنْصِّبَ له شيخًا أو عالما لا يتجاوزوا قوله.

هناك فرقٌ بين التعلم وبين التعبد، العلماء وسيلة للتعلم، أما التعبد فإنه يرجع إلى مقام الألوهية، يتعبد الإنسان لله ﷻ، والتعبد هذا إنما يكون بكلام الله ورسوله ﷺ ، أقوال العلماء ومذاهبهم لا يستغنى عنه الإنسان للوصول إلى الحق؛ بمعنى: هذه المذاهب والفتاوى والأقوال، إنما هي بمثابة النجم الذي يستدل به الإنسان على القبلة فإذا عاين الإنسان الكعبة هل يحتاج أن ينظر إلى النجم!! لا يفعل هذا عاقل.

إذن من وقف على الحق ووصله الدليل من الكتاب والسنة، فإنه لا يحتاج ثمة أن يرجع إلى كلام أحد، المهم أن يتحقق من صحة الدليل ومن صحة الاستدلال، أن تكون آية أو يكون حديثًا صحيحًا، ثم أن يتحقق من المعنى بأن لا يفهم المعنى فهمًا خاطئًا، ثم بعد ذلك فليشد يده بهذا الدليل ولا يبالي بأحد ولو خالف في ذلك أهل المشرق والمغرب، وإن كان

الدليل ولله الحمد من الكتاب والسنة منصورًا، ولا يمكن ألا يكون على هذا، أو ألا يكون ثمة قائل بهذا الدليل من أهل العلم، هذا مستحيل، لابد أن يكون قد قيل بهذا القول وإنما يعلمه من يعلمه أو يجهله من يجهله.

لكن قد يقول قائل: وما يفعل مَنْ سأل وبحث وتبين له أن في المسألة خلافًا، وما أكثر المسائل الخلافية، ماذا أصنع، يقول هذا الإنسان: أنا ليس عندي حصيلة علمية أتمكن بها من الترجيح بين الأقوال والوصول إلى مراد الله ورسوله ﷺ، هذا شيخ يقول حلال، وهذا شيخ يقول حرام، هذا يقول إنه واجب وذاك يقول إنه ليس بواجب، إذن كيف أصنع؟

نقول الواجب عليك الآتي:

أولاً: أن يكون قصدك الوصول إلى الحق، جرد قصدك ورغبتك في الوصول إلى الحق، وأبشر بالخير فإنك ستهتدي إلى الحق، ألم يقل الله ﷻ:﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾[النحل:١٠٤]، مفهوم المخالفة: من آمن بالله ورسوله ﷺ وبالآيات والأحاديث وأذعن إلى الحق فليبشر بأن الله ﷻ سيهديه إلى الحق.

ثانيًا: عليه أن يبذل ما يستطيع في معرفة الحق.

ثالثًا: فإن كان لا يستطيع فعليه أن يراجع من يثق في دينه وعلمه فيسأله.

فإن اختلف العلماء عليه فعليه **رابعًا**: أن يرجح بين المختلفين بالأعلمية أو بالتقوى والورع، وهذا لا يحتاج أن يكون الإنسان عالمًا حتى يميز بين عالمٍ وعالم، أو أن هذا أعلم من هذا، أرأيت أحوال الناس كيف أنهم يميزون بين الأطباء، إذا مرض الإنسان –طفلٌ مثلاً– فإنه يحرص على أن يعرضه على أفضل الأطباء، وتجد أنه بالتسامع، بقرائن الأحوال، يدرك أن هذا الطبيب أفضل، وهذا لا يحتاج أن يكون الإنسان طبيبًا حتى يدركه، كذلك الشأن في باب العلم.

فإن قال: لا أستطيع حتى هذه لا أستطيعها والكل عندي سواء، والكل عندي سواء.

نقول وهو **الخامس** اذهب إلى من تثق بدينه وعلمه من العلماء أو طلاب العلم وقل له رجحلي بين هذه الأقوال وخذ بقوله وبذلك تكون قد عملت بقول الله ﷻ: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[النحل:٤٣]، (هلا سألوا إذ لم يعلموا؟) وبذلك يصل الإنسان بتوفيق الله ﷻ إلى الحق، والله أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[التوبة:٣١]،

قال: فقلت له: إنا لسنا نعبدهم، قال: «أليس يحرمون ما أحلَّ الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه»، فقلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم»، رواه أحمد والترمذي وحسنه.

هذا حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه ، وهو الذي انتزع منه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ التبويب على هذا الباب، والحديث كما سمعت خرجه الإمام أحمد والترمذي، والمؤلف ذكر أن الترمذي قد حسّنه، والواقع أنه حسنه ولكن عَقّب عليه، بأن فيه عطيف بن أعين، وذكر ما يدل على ضعفه، وهذا الرجل فيه ضعف، ضعفه الدارقطني والحافظ ابن حجر وغيرهما من كثير من أهل العلم على ضعفه.

وهذا الحديث من جهة الثبوت فيه بحث طويل واختلاف طويل بين أهل العلم، منهم من ضعفه، ومنهم من حسنه، ومن أولئك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((كتاب الإيمان))، وغيرهم إلى العلماء المعاصرين منهم من حسن هذا الحديث.

وقد جاء عن حذيفة رضي الله عنه تفسير لهذه الآية قريب من هذا الحديث الذي بين أيدينا، خرج ذلك ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((تفسيره)).

وهذا الحديث إن صح عن رسول الله ﷺ فإنه يبين لنا مسألةً مهمة تتعلق بموضوع الطاعة في شأن التحليل والتحريم، وهذا الباب ينبغي أن يُحْكِّمَهُ المسلم وعلى الأخص أن يُحْكِّمَهُ طالب العلم لأنه من المزالق، أعني: أن من لم يُحْكِّم هذا الباب وفق منهج أهل العلم الأثبات وطريقة أهل السنة والجماعة، ربما أخطأ وضل، بل ربما وقع في التكفير بغير حق، كما وقع فيه مَنْ وقع مِنْ مَنْ لم يلزم طريقة أهل السنة والجماعة من تناول هذه المسألة.

أذكر أن أحدهم وهو ممن له كتابات مشهورة بين بعض الناس ذكر "أن النساء اللائي يتبعن الموضة أو ما يسمى المودة أنهن كافرات بالله عز وجل مشركات، لأنهن أطعن الكفار"،

وهذا لا شك أنه خطأٌ كبير وخللٌ كبيرٌ أيضًا في فهم منهج أهل السنة والجماعة، وهذا تكفير لا يجوز، وذلك أن الخلل ها هنا جاء من عدم التفريق بين الطاعة والعبادة.

الطاعة والعبادة إذا تعلقت بحق الله ﷻ، -فإننا كما قد علمنا- أنهما كلمتان مترادفتان.

أما في حق غيره سبحانه فإن الأمر يختلف، الطاعة أوسع من العبادة، فليس كل طاعة عبادة، وهذا المقام فيه تفصيل فانتبه له.

مسألة الطاعة ومتى تكون شركًا، ومتى لا تكون شركًا، فيها التفصيل الآتي:

الطاعة قد تتعلق بالاعتقاد وقد تتعلق بالعمل.

إذن عندنا ها هنا حالتان:

الحالة الأولى: الطاعة في الاعتقاد، وهذه الحالة تتفرع إلى ثلاث صور:

الصورة الأولى: فهي أن يطيع الإنسانُ من جهة الاعتقاد بأنْ يعتقد أن غير الله ﷻ يسوغ له أن يحلل أو يحرم برأيه وهواه فيطاع على ذلك، وبالتالي فهو يطاع على ذلك، ولا شك أن هذا شرك بالله ﷻ، وذلك فإن التحليل والتحريم حق لله ﷻ، لا يجوز أن يشاركه فيه غيره، كما قال ذلك ربنا ﷻ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾[التوبة:٣١].

ولاحظ ههنا أن هؤلاء النصارى الذين جاءت فيهم هذه الآية، قد اختلف الحال عندهم بينما يتعلق بعيسى عليه السلام، وبينما يتعلق بأحبارهم ورهبانهم.

الأحبار يعني: العلماء، واحد الأحبار، الحَبْرُ، و يجوز كسر ذلك حِبْرٌ، لكن الأكثر على الفتح حَبر: عالم، الأحبار هم العلماء، والرهبان: هم العباد.

وهناك اتخاذٌ لعيسى عليه السلام ربًا؛ اتخاذ عيسى عليه السلام ربًا كان باعتقاد الربوبية فيه، والتقرب إليه بالإلهية.

أمَّا في حق الرهبان والأحبار فإنما كان اتخاذهم أربابًا من جهة طاعتهم في التحليل والتحريم، حيث إنهم يحللون ما حرم الله، أو يحرمون ما أحل الله، وهذا هو الشرك وهو الذي كانوا به متخذين الأحبار والرهبان أربابًا ولذلك جاءت من رواية عند ابن جرير لأثر حذيفة رضي الله عنه لما جاء لتفسير هذه الآية، قال: والله إنهم ما صلوا لهم ولا صاموا لهم، ولكنهم كانوا

يحرمون لهم الحلال فيحرمونه، ويحلون لهم الحرام فيستحلونه، هذا هو الذي كانوا به أربابًا مع الله ﷻ.

إذن من اعتقد هذا الاعتقاد وأن أحدًا يجوز أن يشارك الله ﷻ في حق التحليل والتحريم، فلا شك أنه قد اتخذه ربًا مع الله ﷻ وهذا شرك أكبر.

الصورة الثانية: أن يطيع غير الله ﷻ في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله اعتقادًا، يطيعه من جهة الاعتقاد؛ بمعنى: أن يقول له في شيء حرمه الله إنه حلال، فيعتقده حلالاً أو يقول له في شيء أحله الله إنه حرامًا، فيعتقده حرامًا فهذا أطاع في شأن التحليل أو التحريم من جهة الاعتقاد وهذا يحصل من طائفة القبورية الذين غلوا في مشايخهم الذين اتخذوهم أربابًا بل اتخذوهم أيضًا آلهة، فإنهم يعتقدون أن الشيء الذي يقول فيه هذا الشيخ إنه حرام، فإنه حرام وإن كان الله أحله، وما قال فيه الشيخ إنه حلال فإنه حلال وإن كان الله ﷻ حرمه.

ولا شك أنَّ هذا شركُ أكبر لله ﷻ، لو أن هذا الشيخ قال لمريده إن الخبز حرام، مع أن الله أحله، فاعتقد التلميذ والمريد أن الخبز حرام، نقول: قد اتخذ هذا ربًا مع الله فأشرك، أو قال له إن الخمر حلال، وهو يعلم أن الله ﷻ قد حرمها، فاعتقد أن الخمر حلال بناء على طاعته لهذا الشيخ، فيكون قد اتخذه ربًا مع الله فأشرك.

ويدل على هذا الحكم قول الله ﷻ: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ **[الأنعام: ١٢١]**.

قال أهل العلم: إن أطعتم هؤلاء المشركين في تحريم ما أحل الله ﷻ، فإنكم حينئذٍ تكونون مشركين.

والآية على المشهور في سبب نزولها تتعلق في قول المشركين: إن الميتة حلال؛ لأنها في زعمهم قد قتلها الله ﷻ، فهي أولى بالحِلِّية مما يقتله الإنسان، كيف تجعلون المُذّكى والمذبوح حلالاً والميتة حرامًا، مع أنَّ الله ﷻ هو الذي قتلها، إذن هي أولى أن تكون حلالاً، مع أن الله ﷻ قد بين في كتابه أن هذه حرام، فبيّن سبحانه في هذه الآية أن من أطاع المشركين في ذلك، والخطاب موجه للصحابة: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ

لَمُشْرِكُونَ﴾[الأنعام: ١٢١]، فدل ذلك على أن اعتقاد تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله ﷻ لا شك أنَّ هذا شرك أكبر.

الصورة الثالثة: هي اعتقاد أنَّ غير الله ﷻ يجوز أن يُطاع في معصية الله، فلو أمر أحدٌ أحدًا بمعصية الله كأن يأمر سلطان أو متنفذٌ غيره بمعصية الله ﷻ فيعتقد أنه يجوز أن يطيعه على ذلك فهو يعمل هذا الأمر المحرم وهو يعتقد أنه يجوز أن يفعله طاعة لهذا الآمر، وهذا لا شك أنه أيضًا شرك أكبر.

إذن الطاعة تعلقت في أمرٍ اعتقادي في هذه الصور الثلاث لا شك أنها شرك أكبر.

أما من جهة العمل فإن هذه الحال تتفرع إلى صورتين:

الصورة الأولى: أن يُؤْمر الإنسان بالشرك فيفعل الشرك، يطيع في الفعل الشركي فيكون مشركًا، قال له العالم أو قال له الأمير أو قال له ذو النفوذ: اسجدُ للصنم، أو ادعو الأموات ففعل، الآن أطاع من جهة العمل فعل الشرك فيكون بهذا مشركًا.

الصورة الثانية: أن يطيع في فعل معصية، وهذه معصية، كأن يقول له: اسرق أو اشرب الخمر، فيطيع وهو يعتقد أن هذا حرام، لكنه يطيعه لا من جهة الاعتقاد، وإنما من جهة العمل، أُمِرَ أن يعصي فعصى مع اعتقاده أنه عاصٍ ومع اعتقاده أن هذه الطاعة لا تجوز، لكنه يرجو بره أو يزعم أنه يكتفي شره مثلاً، ولا يكون بهذا معذورًا فهذه الحالة تكون معصية.

إذن لابد من النظر في هذا الموضوع بهذا التفصيل، وإن لم يكن مفصلاً لهذا يكون قد وقع في الخطأ.

هذا الحديث أخبر فيه النبي ﷺ أن طاعة العلماء الذين هم الأحبار أو العباد وقد يكون ذلك في غيرهم أيضًا كما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التبويب، ربما يكون أميرًا وربما يكون غير هؤلاء، لا شك أنَّ من أطاعه في ذلك من جهة تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله، لا شك أنَّ هذا يكون شركًا على التفصيل الذي سبق.

وبذلك يتبين لنا أن الواجب على المسلم أن يخلص طاعته لله ورسوله ﷺ من جهة التحليل والتحريم، ومن جهة العمل أيضًا فإنه بذلك يسلم من الشرك ويسلم من الفسق، ويحقق توحيده لله ﷻ.

الواجب على المسلم أن يكون مذعنا موطنًا نفسه على الاستجابة السريعة العاجلة لأمر الله ورسوله ﷺ، وأن يحذر أشد الحذر من معارضة أمر الله ورسوله ﷺ بأي نوع من أنواع المعارضة، لا يعارض الآيات والأحاديث، لا بقول شيخ ولا بعرف ولا بعادة ولا بأحوال الزمان، ولا بغير ذلك من الأعذار الواهية، إنما يكون مستجيبًا ومقبلاً، فهذا من علامات الإيمان وهذا هو المحك الذي يظهر به المؤمن الصادق من غيره، والإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حدَّث مرة بحديث عن رسول الله ﷺ فقال له أحد جلسائه أتقول بهذا الحديث؟ فغضب الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقال له: أتراني خرجت من كنيسة؟ أترى في وسطي زُنارًا -يعني علامة كانت معروفة في أهل الكتاب في ذلك الزمان- حتى أروي عن رسول الله ﷺ حديثًا ولا آخذ به؟ بلى على الرأس وعلى العين.

هذا هو الاتباع الصادق لهؤلاء الأئمة، يخطئ من يظن أنه يتبع الإمام حينما يأخذ بقوله المخالف للحق من الكتاب والسنة، الإمام ربما يكون معذورًا ليس أحد معصومًا وليس أحد قد أحاط بكل حديث رسول الله ﷺ، العالم مهما كان رفيع الدرجة في العلم لابد أن يفوته شيء من حديث رسول الله ﷺ، وبالتالي فإنه إذا قال قولاً خالف فيه الحق فجاء هذا التابع لهذا الإمام أو من ينتسب إليه أو من يتقلد مذهبه، فخالف الإمام واتبع الحق هو في الحقيقة متبع للإمام لا مخالف له، نعم هو خالفه في جزئية، لكنَّه وافقه في القاعدة العامة، وهذا أقرب إلى الاتباع.

الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال كلمة عظيمة تكتب بماء العين، قال:

(أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لأحد كائنًا من كان)، هذا إجماع قطعي، وإن كان قد قاله الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهو لسان حال جميع الأئمة، منها الأئمة الأربعة وغيرهم.

أما هذا الذي يقول أنا أتبع هذا الإمام ولا أخرج عن قوله أبدًا، أختار واحد من الأئمة الأربعة مثلاً وبالتالي فإنني لا يمكن أن أخرج عن قوله أبدًا لا شك أن هذا أمر مُحدثٌ في دين الله، وليس عليه آثارة من علم، وليس عليه دليل من الكتاب والسنة، إنما الذي يجب أن يكون مبتغاك وأن يكون قصدك هو طاعة الله ورسوله ﷺ ، وكل ما سوى ذلك فإنه

يكون مطرحًا أمام كلام الله ورسوله ﷺ ، وهذا إجماع الأئمة الأربعة بل إجماع الأئمة جميعًا، وفي هذا يقول الناظم:

وقول أعلام الهدى لا يعمل ... بقولنا بدون نصٍ يقبل
فيه دليل الأخذ في الحديث ... وذاك في القديم والحديث

اسمع قول الأئمة الأربعة:

قال (أبو حنيفة) الإمام ... لا ينبغي لمن له إسلام
أخذًا بأقوالي حتى تُعرضا ... على الكتاب والحديث المرتضى
و(مالك) إمام دار الهجرة ... قال وقد أشار نحو الحجرة
كل كلام منه ذو قبول ... ومنه مردود سوى الرسول
و(الشافعي) قال إن رأيتم ... قولي مخالفًا لما رويتم
من الحديث فاضربوا الجدارا ... بقوليَ المخالف الأخبارا
و(أحمد) قال لهم لا تكتبوا ... ما قلته بل أصل ذلك فاطلبوا
فاسمع مقالات الهداة الأربعة ... واعمل بها فإن فيها منفعة
لقمعها لكل ذي تعصب ... والمنصفون يكتفون بالنبي

٥٧

٥٧- باب قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيدًا﴾[النساء: ٦٠]. الآيات.

فهذا الباب الذي عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بعد الباب الذي سبقه، كان منه ترتيب حسن من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث إن بين البابين علاقة، وذلك أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد أن يبين حقيقة الكفر بالطاغوت، والطاغوت- كما مر بنا في دروسٍ سابقة- أصحُّ تعريف له هو تعريف ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **كل ما تجاوز به العبد حده، من معبود أو متبوع أو مطاع.**

أما المعبود فمضى الكلام عما يتعلق به في الأبواب المتقدمة.

وأما المتبوع والمطاع فأراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ينبه إلى ما يتعلق بهما في هذين البابين، وذلك أن تجاوز العبد بأحدٍ حده يكون اتخاذًا للطاغوت من هذه الجهات الثلاثة:

أن يجعله معبودًا أو متبوعًا أو مطاعًا تجاوز به الحد الواجب شرعًا.

وكل واحد من هذه الأمور الثلاثة فيه تفصيل، هذا تعريف عام لكن ثمة تفصيل.

أما المعبود فلا شك أن كل عبادة لغير الله فهي تجاوزٌ للحد، لكن علمنا أن إطلاق وصف الطاغوت على المعبود لا يكون إلا في حالتين:

[الحالة]الأولى: حالة الرضا بالعبادة؛ يعبد وهو راضٍ.

الحالة الثانية: حالة الترشح، يترشح للعبادة ويرى أنه أهل لها وإن لم يعبد، ففي هذه الحالة نقول إن هذا طاغوت.

أيضًا في حالة المعبود ليس له إرادة كالأشجار والأحجار والأصنام، فإنما تسمى طواغيت.

الحالة الثالثة: فهو أن يعبد المعبود دون الله عَزَّ وَجَلَّ وهو غير راضٍ كعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والملائكة والجن المسلمين والأولياء الصالحين وما إلى ذلك، فيما لا يسمى المعبود في هذه

الحال طاغوتًا، وإنما يقال إن العابد اتخذ طاغوتًا مع الله، أما المعبود فلا يسمى طاغوتًا في هذه الحال.

إذن المعبود له ثلاثة أحوال: اثنتان منها يطلق على المعبود فيها أنه طاغوت، والحال الثالثة لا يقال فيها عن المعبود إنه طاغوت.

أما المتبوع فإنه العالم الذي يُتْبَعُ قوله، وأما المطاع فإنه الأمير وذو السلطان الذي يطاع أمره، وإنما يكون هذا وذاك طاغوتين فيما إذا تعلق الأمر بتحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله، على الوجه الذي علمته في الباب السابق.

أو من جهة تنزيل أمره وقوله منزلة الكتاب والسنة في إرجاع مسائل التنازع إلى هذه الأقوال.

إذن هاتان حالتان يكون فيها المتبوع أو المطاع طاغوتًا:

[الحالة الأولى]: إذا أحل ما حرم الله أو حرم ما أحل الله.

[الحالة الثانية]: جعل قوله وحكمه مرجوعًا إليه بمنزلة الكتاب والسنة الذين يحكم بهما وواجب أن يحكم بهما -على تفصيل في هذا إن شاء الله سيأتي-.

إذن هذا الباب أراد المؤلف به أن يبين أن تحكيم شرع الله ﷻ توحيد، وأن تحكيم غير شرع الله إما أن يكون ناقضًا لهذا التوحيد أو قادحًا في هذا التوحيد.

وبالتالي واجب على جميع المسلمين أن يجعلوا شرع الله الذي جاء في الكتاب والسنة هو المرجع عند التنازع وهو الذي يجب أن يحكم به، وذلك أن الله ﷻ كما أنه المعبود ﷻ الحق، كذلك هو الذي يجب أن يكون حكمه نافذًا في خلقه؛ كما أن حكمه الكوني نافذ، فكذلك يجب أن يكون حكمه الشرعي نافذًا؛ الله ﷻ هو الحكم وإليه الحكم، كما قال النبي ﷺ حين خرج أبو داود وغيره: «**إن الله هو الحَكَم وإليه الحُكْم**»، فالحكم يجب أن يكون إلى الله ﷻ ولا يجب أن يكون لغيره حكمٌ: ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ**﴾[الأنعام:٥٧]، ﴿**أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا**﴾[الأنعام:١١٤]، ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ**﴾[التين:٨].

إذن الحكم يجب أن يكون لله كما أن الطاعة -وقد علمنا ذلك- يجب أن تكون لله ﷻ.

الله ﷻ أنزل هذا القرآن لا لغرض التعبد والتدبر فحسب، هذا من مقاصد القرآن ولا شك، لكن ليس الأمر مقصورًا على ذلك، بل يجبُ أن يكون أيضًا المرجع عند التنازع، يجب أن يكون هو المُحَكّم مع سنة النبي ﷺ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾[النساء:١٠٥]، لِمَ؟ ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ﴾[النساء:١٠٥].

إذن يجب أن يكون التحكيم لكتاب الله ولسنة رسوله ﷺ.

هذه قضية من صميم العقيدة الإسلامية يجب أن يعتقدها كل مسلم، الحكم لله، والطاعة لله، وعلى جميع الخلق أن يلتزموا حكم الله ورسوله ﷺ ، وإلا فإنهم يكونون على شفا هلكة، من لم يلتزم حكم الله ورسوله ﷺ فإنه يكون قد ضل ضلالاً بعيدًا، كما هو الشأن في هذه الآية التي معنا.

وأنبه هنا إلى أنَّ مفهوم تحكيم شرع الله ﷻ أوسع مما يظنه بعض الناس؛ بعض الناس يظن أن تحكيم الشريعة أو أن حاكمية الشريعة مخصوصةٌ بمسائل فرض النزاعات وهذا من حاكمية الشريعة، وليس هو حاكمية الشريعة؛ بمعنى: كما يجب أن يكون الشرع هو المحكم في جرائم المسلمين، وسرقة السارقين، كذلك يجب أن يكون شرعُ الله ﷻ هو المحكم في هُتاف الهاتفين، والمستغيثين بالأموات، والناظرين للقبور، والطائفين بالأضرحة، يجب أن يكون حكم الله ﷻ.

يجب أن يكون الكتاب والسنة محكمًا فيما تنازع الناس فيه في مسائل الأسماء والصفات، فإن من الناس من اتخذ طواغيت استعاذوا بها عن الكتاب والسنة، أرجعوا هذه المسائل الجليلة إليها، أرجعوا إلى قواعد زعموها عقلية وسفسطاط زعموها منطقية، وهذيانات زعموها فلسفية، وتركوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وراءهم ظهريا.

يجب أن يكون شرع الله، يجب أن يكون كلام الله وكلام رسوله ﷺ ، هو المُحْكَّم في العبادة، فيجب أن يعبد الله بما شرع الله ورسوله ﷺ ، لا أن يحكم الإنسان أحدًا من الخلق سوى رسول الله ﷺ ، فيجعل قوله هو لذي يجب الرجوع إليه، ولو استبان له كلام الله ورسوله ﷺ ، ومراد الله ورسوله ﷺ فإنه لا يبالي، بل المرجع إلى قول الإمام وقول المذهب فحسب، وما سوى ذلك ولو كان آية أو حديثًا فإنه لا يلتفت إلى ذلك، هذا كله من ترك تحكيم الشريعة.

إذن تحكيم الشريعة مفهوم أوسع مما يظنه بعض الناس، يجب أن يُحَكْمَ شرع الله سبحانه وتعالى في كل قضية جلت أو دقت.

هذه الآية التي معنا من سورة النساء، وهي التي عَنوَنَ بها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب في سياق يدور معناه على قضية التحكيم والطاعة.

تأمل معي -يارعاك الله- فإنها آيات عظيمة يجب أن يعيها كل مسلم ومسلمة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[النساء:٥٩]. لاحظ معي هنا كيف أن الفعل (أطيعوا) تكرر في أمر الله وفي أمر رسوله ﷺ، وهذا يفيد أن حكم النبي ﷺ واجب الطاعة استقلالاً؛ بمعنى: ما جاء الأمر فيه من الكتاب والسنة فعلى الرأس وعلى العين، وما جاء الأمر فيه من الكتاب فحسب، فعلى الرأس وعلى العين، وما جاء الأمر فيه من السنة فقط، فعلى الرأس وعلى العين، فلا فرق عندنا معشر المسلمين بين أن يثبت الحكم بآية وحديث، أو آية أو حديث، كل ذلك مقبول وكل ذلك واجب الطاعة والاتباع.

بخلاف قول بعض الضالين الذين يزعمون أنهم قرآنيون، والحق أنهم كافرون بالقرآن مكذبون لكتاب الله، حينما يزعمون أنهم لا يأخذون إلا بالقرآن، وأما ما انفرد به شيء من سنة النبي ﷺ فإنه لا يُلتفت إليه ولا يُرجع إليه، ولا شك أن هذا المذهب مُكذبٌ لكتاب الله وكُفر بالكتاب والسنة.

ثم قال: ﴿وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ولاحظ ها هنا أنه لم يُعِد الفعل (أطيعوا)، ذلك أن أولي الأمر بالتحقيق في هذه الآية تجمع صنفين: الأمراء والعلماء.

قال ﴿وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ولم يعد الأمر (أطيعوا)، ليبين لك أن طاعة أولي الأمر ليست طاعة مستقلة، بل يجب أن تكون تابعة للكتاب والسنة.

وبالتالي فكل حكم لولي أميرًا أو سلطانًا أو عالمًا فإنه لا يُقبل إذا كان مضادًا للكتاب والسنة، قال النبي ﷺ: «**إنما الطاعة في المعروف**»، فطاعة أولياء الأمر لا يجوز أن تكون نافذة في معصية الله سبحانه وتعالى، قال النبي ﷺ: «**على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ما لم يؤمر بالمعصية، فإن أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[النساء:٥٩].

إذن هذا هو الذي يجب من كل مؤمن بالله ورسوله ﷺ أن يرد التنازع، ومواضع التنازع، وأحوال التنازع إلى الكتاب والسنة.

وقد أجمع العلماء على أن الرد إلى الله هو: الرد إلى كتابه، وأن الرد إلى رسوله ﷺ بعد وفاته هو: الرد إلى سنته، هذه هي زبدة الإيمان، وحقيقته في هذا الباب أن يكون المُحَكّمُ وأن يكون المرجع في مواضع التنازع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، في كل قضية صغيرة أو كبيرة.

وإننا لنشهد الله على أن كل أمر من الأمور سواء تعلق بأمر الدين أو الدنيا، سواء تعلق بكبار المسائل أو صغارها، سواء تعلق بأمور الاقتصاد أو الحدود، أو أحوال الأسرة وأحكامها، وما شاكل ذلك كل ذلك له حكم في الكتاب والسنة قطعًا، إما أن يكون فيه حكم في دليل خاص، أو يكون له حكم في دليل عام، أو يكون له حكمه راجعًا إلى قاعدة شرعية أو مقصد شرعي.

مستحيل -وهذا ما يجب أن يجزم به- يستحيل أن يكون شيء من الأشياء خاليًا عن حكم الله ورسوله ﷺ ، هذا من أبعد المحالات كل المسائل والقضايا والأمور والنزاعات وغير النزاعات لله ولرسوله ﷺ فيها حكم، والشريعة تستوعب هذه الأمور مهما استجدت المستجدات، لكن طبيبُ ذلك العالم الرباني الذي يعرف كيف يُنَزِّلُ المسائل على أدلتها بحيث يُحَسِّنُ تحقيق المناط والبلية حينما يتولى ذلك من ليس بذلك أهلاً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[النساء:٥٩].

ما أعظم هذه الجملة؛ لأنها دلت على أن التحكيم شرط في الإيمان- وقد علمتم أن الشرط: ما يلزم من عدمه العدم-.

إذن من لم يلتزم حاكمية الله، وردَّ التنازع إلى الله والرسول ﷺ فإنه يكون قد انطبق عليه هذا الحكم، لم يكن مؤمنًا بالله واليوم الآخر، لم يكن مؤمنًا بالله ورسوله ﷺ.

قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[النساء:٥٩].

ثم جاء موضع الشاهد: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيدًا﴾[النساء:٦٠].

لاحظ هذا الأسلوب الحسن، قال: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون﴾[النساء:٦٠] هذا في اللغة يسمى: أسلوب تعجيب، أعجِب بمن هذه حاله، انظر إلى هؤلاء ﴿ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾[النساء:٦٠].

الزعم كلمةٌ من مثلث اللغة يقال: زَعْمٌ وزِعْمٌ وزُعْمٌ، الأكثر زَعم.

الزعم في اللغة قد يأتي وهذا الأكثر بمعنى: القولُ الكاذب، هذا زَعمُ أو زَعْمَ فلان يعني: هذا كذب، ومنه قول الله ﷻ: ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾[الأنعام:١٣٦]، ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾[الأنعام:١٣٦]، يعني: بكذبهم وإفكهم، هذا هو الأكثر.

وقد يستعمل فيما هو أرفع شأنًا من هذا، وهو في القول الذي تحوم حوله الشكوك، أمر مشكوك فيه، يقال زعم فلان كذا، ولم يجزم بكذبه، لكن الأمر مشكوك فيه.

وقد يستعمل هذا الكلم فيما هو أرفع من ذلك، وهو القول الذي تحال فيه العهدة إلى قائله، وهذا واقع أيضًا في كلام أهل اللغة، وقد أكثر سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((الكتاب)) من هذه الجملة، فهو يقول: زعم الخليل كذا، زعم الخليل كذا، فهو يريد أنه قول ليس أنه قول ليس كذبًا إنما هو قول يحيل عهدته على قائله.

وقد يستعمل فيما هو أرفع من ذلك، وهو القول الحق، ويشهد من هذا ما جاء في ((صحيح مسلم)) من قصة الأعرابي الذي جاء للنبي ﷺ وكان فيما قال: أنه آتانا رسولك فزعم أنك تزعم أن الله أرسلك، هذا قول الرسول أن النبي ﷺ يزعم أن الله أرسله، فهذا الزعم قول حق، قد تستعمل هذه الكلمة في القول الحق.

الشاهد أن هذا القول الذي نسبه الله ﷻ إلى هؤلاء المنافقين وطائفة من المفسرين نقلوا الإجماع على أن المقصود في هذه الآية إنما هم المنافقون ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون﴾[النساء:٦٠]، والزَعْمُ ههنا هو: القول الكاذب هم يقولون قول لم يسبقوا فيه، يزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك.

ومعلوم أن الإيمان بالكتب من أركان الإيمان، وأن من كذب بالكتاب الواحد مما أنزل الله ﷻ فلا شك أنه كافر بالله ﷻ، وغير مسلم، وميزة ما أنزل الله على نبيه ﷺ على بقية الكتب إنما هو الاتباع.

أما بقية الكتب فيؤمن بها ويُصدق بها لكن لا يُعمل بها ولا تُتبع، الاتباع والعمل أمر خاص بما أنزل على النبي ﷺ ، وهذا في حقنا معشر أمة محمد ﷺ، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾[النساء: ٦٠].

انتبه ها هنا إلى هذه الكلمة المهمة: يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت.

الطاغوت في مجال التنازع هو: كل ما جُعِل عديلاً للكتاب والسنة؛ بمعنى: أنه ينزل منزلة الكتاب والسنة في الرجوع إليه ووجوب الإذعان إلى حكمه، ما كان كذلك فهو طاغوت، سواء سُمِي قانونًا أو دستورًا أو سوالف بادية، أو ما شاكل ذلك، كلُّ ما نُزِّلَ منزلة القرآن والسنة في وجوب الرجوع إليه أصبح بمثابة القرآن والسنة، مُنزَّلٌ منزلة القرآن والسنة فإنه طاغوت، وهؤلاء يريدون أن يتحاكموا إلى هذا الطاغوت لا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وسيأتي معنا إن شاء الله في آخر الباب ذكر سببين أوردهما المؤلف في نزول هذه الآية.

أعود فأقول إن قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾ يدلك على أنَّ كفرهم راجعٌ إلى عدم التزام الحكم أو التحاكم إلى الكتاب والسنة، انتبه هذه المسألة مهمة.

إذن القوم -أعني المنافقين- كان الخلل عندهم أنهم يريدون عندهم رغبةٌ، وعندهم انشراح صدرٍ، وهذا يدل دِلالةً بينة على أنَّهم لم يلتزموا حكم الله ورسوله ﷺ، وعدمُ التزام حكم الكتاب والسنة، يثمرُ التحاكمَ إلى غير الكتاب والسنة، وهذا آوان تفصيل هذه المسألة:

التحاكم، ولاحظ أنني أقول: التحاكم، هذه مسألة تختلف عن مسألة الحكم، إذن عندنا مسألتان: مسألة تحاكم، ومسألة حكم، نحن نبحث الآن في **التحاكم**، هذه المسألة لها أحوال ثلاث:

الحال الأولى هي: عدم التزام الكتاب والسنة، بمعنى: تحاكمٌ إلى غير الكتاب والسنة مع عدم التزام الكتاب والسنة، وهذا له صور:

منها: أنه يتحاكم إلى غير الكتاب والسنة لأنه يستكبر ويأنف من التحاكم إلى الكتاب والسنة، وهذا عدم التزام بحكم الكتاب والسنة- نحن مر بنا في دروس سابقة معنا كلمة الالتزام التي يذكرها أهل العلم في مثل هذا الموضع، الالتزام هو: أن يعتقد الإنسان أنه مخاطب وملزم وواجب، يعتقد أنه واجب عليه وأن عليه أن يفعل، بغض النظر أقام بهذا بالفعل أو لم يقم، المهم أن هذه قضية عقدية، يعتقد أنه ملزم وواجب عليه ومخاطب بكذا وكذا- هذا لا يلتزم التحاكم إلى الكتاب والسنة حيث أنه يرى أنه أكبر وأرفع من أن يرجع إلى الكتاب والسنة، أو أنه يعتقد أن الشريعة لا تعطيه حقه، أو يعتقد أن الشريعة قاصرة عن أن تحكم في مثل هذه المسائل، هذه القضايا يقول من مسائل المنازعات التجارية لا للشريعة ولهذه المسائل، فهو يترك التحاكم إلى الكتاب والسنة؛ لأنه يرى أن الشريعة قاصرة عن ذلك، الشريعة مسؤولة أو شأنها أن تتعلق أو أن تتكلم عن أحكام الصلاة والصيام.

أما أن تكون حاكمة بين الناس فيما يتنازعون فيه فهذا ليس شأنها، هذا من عدم التزام التحاكم إلى الكتاب والسنة.

أو يتحاكموا إلى غير الكتاب والسنة، وهو يعتقد أنه أحسن من التحاكم إلى الكتاب والسنة، يمكن ولا بأس لا يجوز أن أتحاكم إلى الكتاب والسنة لكن الأحسن والأفضل هو أن نرجع إلى زبالات الأذهان إلى قانون من قوانين الكفار، هذا أفضل وأحسن.

ومن ذلك أيضًا وهو لا يبعد عن الأول وهو في حكمه أن يقول الرجوع إلى الكتاب والسنة أحسن وتحكيمهما أفضل، ولكن يجوز أن نتحاكم إلى غيرهما لا مشكل.

كل ذلك من عدم التزام التحاكم إلى الكتاب والسنة ولا شك أن هذا كفر بالله جل وعلا، في هذه المسائل يتنزل قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

هذه المسائل جميعًا يجب أن يكون الحكم فيها لله ﷻ: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

الحالة الثانية: أن يكون ملتزمًا بالتحاكم إلى الكتاب والسنة ولكنه يتحاكم إلى غيرهما لشهوةٍ أو لسببٍ أو لآخر، يعتقد وجوب ولزوم أن يتحاكم إلى الكتاب والسنة، لكنه يتحاكم إلى القوانين الوضعية مثلاً؛ لأنه يرى أنها سوف تحكم له بأكثر مما تحكم له به

الشريعة، فطمحت نفسه إلى هذا العرض الزائل من الدنيا، مع اعتقاده أنه عاصٍ لله ﷻ وأنه يخالف الواجب عليه.

فنقول هذا له حكم غيره من العصاة، هذه المعصية كغيرها من المعاصي وإن كانت كبيرة وعظيمة وضلالاً مبينًا، لكنها لا تصل إلى حد الكفر بالله ﷻ؛ لأنَّ مناط التفكير في مسائل التحاكم يعودُ إلى عدم التزام التحاكم للكتاب والسنة، انتبه.. هذا منزلق ربما يخطئ فيه من يخطئ فيقع في هفوة التكفير بغير وجه حق، تنبه إلى هذا الأمر.

الحال الثالثة: حالة الاضطرار، وذلك كأن يكون مسلمٌ يسكن بلدًا من بلاد الكفار، ولا حكم للشريعة هناك، ولا محكمة شرعية ثمة، اعُتدي عليه أُخِذَ ماله، سرقت سيارته، ماذا يفعل؟ أيترك حقه يذهب هكذا أمام نظره أو ربما اعتُدِي عليه بالضرب، يترك الناس تعتدي وهو لا يحرك ساكنًا، لا شك أن الشريعة لا تأتي بهذا، هذه حالة اضطرار، ومثل هذه الحالة أفتى علماؤنا بجواز الرجوع إلى المحاكم التي تحكم بقوانين **ولكن بشروط**:

أولاً: أن يكون الضرر محققًا، يعني: ليست القضية قضية أوهام أو توقعات أو تصورات إنما هناك أمرٌ واقعيٌ محقق، فمثل هذا وقع على الإنسان في شأنه ضرر، وقاعدة الشريعة: الضرر يُزال.

ثانيًا: ألا يوجد حلٌ لهذا الإشكال إلا الرجوع لهذه المحاكم، لا يوجد محكمة شرعية، لا يوجد مجالس للتحاكم في الجالية المسلمة ويكون حكمها ملزمًا، بعض البلاد ربما يوجد فيها شيء من ذلك، يوجد مجالس للتحكيم، يتحاكم المتخاصمان من المسلمين إلى هذه المجالس ويُحكَم فيها بمقتضى الشريعة، فمثل هذا واجب أن يَرجِع إليه ولا يجوز أن يَرجِع إلى الأحكام الوضعية.

[ثالثًا]: أن يأخذ حقه الذي جعلته له الشريعة فقط، لو أن في مقتضى قانونٍ ما، يجوز أن يُحكم بأن تأخذ يا أيها المظلوم أكثر من حقك، ولو أنه رُجِعَ إلى الله في هذه الشريعة لأخذت حقك فقط، هذا القدر الزائد لا يجوز لك أخذه، يجب أن تأخذ حقك فقط.

وبالتالي كان الرجوع إلى هذه المحكمة لإرادة الحصول على حكم الشرع، ولكنك رجعت إليها لأنه لا سبيل لك غيرها، فأنت مضطر، فمثل هذه الحال باجتماع هذه الشروط

الثلاثة فإنه يجوز إعمالاً لقواعد الضرورة في الشريعة الرجوع أو التحاكم إلى غير شرع الله ﷻ، ولكن عند التحقيق عاد الأمر إلى أخذ ما تحكم به الشريعة.

قال ﷻ: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾[النساء:٦٠]، نعم، أُمِرْنا أن نكفر بالطاغوت، ألم يقل الله ﷻ: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[البقرة:٢٥٦].

إذن لا توحيد ولا إسلام ولا إيمان ممن لم يجمع بين الأمرين، لو آمن بالله فقط لا ينفعه، بل لابد أن يضم إلى ذلك الكفر بالطاغوت، وهذا هو شطر كلمة التوحيد التي هي أساس الإسلام ومفتاح الإيمان، وذلك أن (لا إله) هي التي تترجم عن الكفر بالطاغوت، كما قد أخذنا هذا في الدروس السابقة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾[النساء:٦١]، ولاحظ هذه الجملة تدل على أن بلية المنافقين رجعت إلى قضية الالتزام القلبي، لماذا؟ عندنا قرينتان:

القرينة الأولى: في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾[النساء:٦١]، والصدُّ: إعراضٌ يشوبه في الغالب استكبار إعراضٌ صدَّ عن كذا يعني: أعرض عنه، في الغالب أن يكون هذا الإعراض مع شيء من الاستكبار فالقول أوتوا بأمرٍ، أوتوا من جهة أمرٍ قلبي عقدي.

والقرينة الثانية قوله تعالى بعد ذلك: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾[النساء:٦٣]، إذن الأمر رجع إلى أمر في القلب، وليس راجع إلى أمرٍ في العمل، إنما هو أمر في القلب، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾[النساء:٦١-٦٢].

سبحان الله!! كل أحد يمكن أن يدَّعي أنه مصلح وأنه يريد الخير ويريد الإحسان ويريد الإصلاح حتى المنافقون أساس الشر والبلاء ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ حتى إبليس، ألم يقل الله ﷻ عنه: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾[الأعراف:٢١]، سبحان الله العظيم!!

حتى فرعون أكبر الطغاة على الإطلاق يقول: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[غافر:٢٩].

إذن ليس كل من ادعى أنه مصلح وأنه يريد الخير، ليس كل من ادعى ذلك يكون صادقًا، فشر الناس من ادّعوا هذا.

إذن العبرة أن يعرض القول على المحك والميزان الذي توزن به الأشياء والأقوال وهو كلام الله ورسوله ﷺ.

والشرع ميزان الأمور كلها وشاهد لفرعها وأصلها

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[النساء:٦٢-٦٤]هذه حقيقة الإيمان بالرسول ﷺ ، أن يكون مطاعًا وأن يكون متبعًا وأن يكون محكمًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا * فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ﴾[النساء:٦٤-٦٥].رجعنا مرة أخرى إلى قضية التحاكم إلى شرع الله: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء:٦٥].

نفى الله ﴿ومن أصدق من الله قيلاً﴾، نفى الله الإيمان عمن يتحاكم إلى الرسول ﷺ ، بل والله هذا لا يكفي ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ ، يزول من قلبهم كل تلون وكل تردد وكل حرج من حكم الله ورسوله ﷺ ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ويذعنوا إذعانًا.

هذه حقيقة الإيمان، هذه حقيقة الطاعة، هذا حكم محكٌ وامتحانٌ للمؤمنين.

٥٨

٥٨- باب قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (المجلس الثاني)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[البقرة:١١].

هذا إخبارٌ من الله ﷻ عن المنافقين إذْ لا يزال الحديث متعلقًا بهم، وقد علمت أن الآية السابقة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ نزلت في المنافقين بالاتفاق.

وهذه الآية أيضًا في المنافقين، قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[البقرة:٨-١١].

ووجه إيراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الآية في هذا الباب هو: أن من الإفساد في الأرض تركَ تحكيمِ شرع الله ﷻ وتحكيمَ غيره هذا من الإفساد في الأرض، وهذا دأبُ المنافقين، فإنهم أبعد الناس عن تحكيم شرع الله، وأقرب الناس إلى تحكيم غير شرع الله.

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾[البقرة:١١]، كأن هذا الخطاب وكأن هذه نصيحة توجه بها بعضُ أصحاب هؤلاء المنافقين أو أقربائهم المؤمنين رغبةً في دعوتهم إلى الحق رجاء إيمانهم.

﴿لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ الإفساد هو: السعي في الفساد، إفساد يعني: أن يسعى الإنسان في فساد شيء، والغالب أو يقع كثيرًا أن يكون الإفساد واقعًا على شيءٍ صالحٍ في الأصل، يقال إنه: أفسده، يعني: صيره فاسدًا بعد أن كان صالحًا.

والفساد هو: كل ما فيه ضرر وقد يكون شيئًا حسيًا وقد يكون شيئًا معنويًا.

ولا شك أنَّ الفساد الحسي ثمرةٌ للفساد المعنوي، والفساد ها هنا هو الفساد المعنوي وذلك أنَّ أعظم الفساد هو معصية الله ﷻ ومحادة أمره وعدم الاستجابة لدعوته، أي فساد أعظم من هذا الفساد أن يفعل الإنسان ضد الحكمة التي لأجلها خُلِق: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]، فجاء هذا المخذول بضد ما أُمِرَ به فكان فعله فسادًا.

والمنافقون لا شك أنهم مفسدون، أفسدوا أنفسهم ويسعون في إفساد غيرهم، فهم مفسدون بكل حال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾[البقرة:١١]، ولاحظ أنه لم يعين هذا الشيء الذي أفسدوا فيه وذلك؛ لأن فروع الفساد التي تكون من المنافقين كثيرة جدًا حتى كأنهم حازوها جميعًا، ولذلك جاءت الآية بهذا الإطلاق: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾[البقرة:١١].

وأقبح ما يكون الإفساد حينما يعود على -كما قلت قبل قليل- على شيء صالح، والله ﷻ جعل هذه الأرض صالحة خلقها أول مرة ﷻ صالحة مباركة قال ﷻ: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾[فصلت:١٠]، ﷻ جعلها أرضًا صالحة، أرضًا مباركة، فجاءها الإنسان الذي لم يستجب لله ﷻ بما يفسدها، وأول الإفساد هو الإفساد المعنوي بمعصية الله ﷻ، فيتبعه على ذلك ثمرته، وهو الفساد الحسي، وذلك ثمرة للفساد المعنوي، ألم يقل الله ﷻ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم:٤١].

إذن الله ﷻ قدّر بإرادته الكونية أن يكون الفساد الحسي في الأرض ثمرةً للفساد المعنوي، كل ما يذوقه ويلمسه الناس ويشكون منه من فساد في الأرض، كارتفاع درجة حرارة الأرض أو ما يسمى بالاحتباس الحراري، قلة نزول الأمطار، قلة الغذاء في بعض الأماكن، الرياح العاصفة، الأعاصير، البراكين... إلى غير ذلك من هذه الأمور التي يشتكيها الناس من صور الفساد في الأرض كلها راجعة إلى هذا السبب، وهو الفساد المعنوي بعصيان الله ﷻ وتنكب الطريق الذي دعا إليه أنبياءه ﷻ، والله ﷻ مع ذلك يلطف بعباده ويمهلهم ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما جعل على ظهرها من دابة، الله ﷻ من لطفه ومن رحمته يلطف بعباده ويمهلهم لعلهم يعودون إلى رشدهم.

الشاهد أن هؤلاء الناصحين توجهوا بالنصيحة إلى هؤلاء المنافقين: ﴿لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾[البقرة:١١]، ماذا كان الجواب؟ كان الجواب بالنقض: ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[البقرة:١١].

وهذا من عجيب الأمر في حال هؤلاء المنافقين، يا لله العجب!! فسادهم لا يخفى على ذي لُب، وإذا بهم يحكون ويخبرون عن أنفسهم أنهم على الضد تمامًا، بل نلاحظ أنهم

أتوا بالجملة الاسمية التي تفيد معنى الدوام، لم يخبروا عن أنفسهم بأنهم مصلحون، كما كان كلام الناصحين لهم، ﴿لا تُفْسِدُوا﴾ كانت الجملة فعلية، لكنهم أجابوا بجملة اسمية يخبرون عن أنفسهم بأننا مصلحون دائمًا، في طول حياتنا وفي طول أمرنا وعرضه نحن مصلحون، ولاحظ أيضًا ما بلغوا فيه من المكابرة حينما أتوا بهذا الحرف الذي يفيد القصر: ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[البقرة:١١]، يعني: قصروا أنفسهم على الإصلاح، لا شأن لنا ولا شيء عندنا سوى أننا مصلحون!

يا لله العجب، وهذا ضد حالهم بالضبط، هم بحقيقة الأمر مفسدون ومع ذلك يدعون أنهم مصلحون، سبحان الله العظيم!! مع أن فسادهم لا يخفى على أحد، وجاء الرد من كتاب ربنا سبحانه عليهم: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ﴾[البقرة:١٢]، ولاحظ كيف أن القصر ها هنا جاء أقوى من القصر الذي زعموه لأنفسهم، ألا وهو بتعريف: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾[البقرة:١٢]، فهذا التعريف يفيد قصرًا أقوى من القصر الذي زعموه لأنفسهم، يعني: أنهم هم المفسدون في الحقيقة، ولاحظ كيف أُكِّد هذا القصر بضمير الفصل، ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾، (هم) هنا ضمير فصل يفيد معنى: التأكيد، فكان الجواب أو الرد على كلامهم بالنقض أيضًا، يعني: أخبر الله ﷻ أن حالهم على ضد ما كانوا يزعمون.

إذن نستفيد من هذه الآية أن أهل النفاق دأبهم وديدنهم وشأنهم هو الإفساد في الأرض ودعواهم الإصلاح، الإصلاح ضدُ الإفساد، يعني: السعي في صلاح الأشياء فهم يزعمون أنهم دائبون على الإصلاح، هم يصلحون أنفسهم، يصلحون غيرهم، يصلحون الأرض، مع أن الواقع هو أن هؤلاء واقعون في ضد ذلك.

وبهذا أيضًا يتأكد لنا ما ذكرناه في درس أمس، وهو أنَّ أهل النفاق بل أنَّ كل مبطل يمكن أن يَدَّعي لنفسه الإصلاح، كما قلنا عن إبليس وعن فرعون وعن المنافقين في قولهم السابق، ماذا قالوا؟ ماذا كانوا يريدون؟ قلنا قولهم هذا يدل على هذه القاعدة التي ذكرتها لك: يزعمون أنهم يريدون إحسانًا وتوفيقًا، هكذا ينسبون إلى أنفسهم، نحن لا نريد إلا الخير، لا نريد إلا إحسانًا وتوفيقًا، وهنا يقولون إنما نحن مصلحون.

إذن القاعدة التي يجب أن يتنبه لها المسلم فيها أن كل مُبْطِّلٍ لا يتمكن من ترويج باطله إلا بإخراجه مزخرفًا مموهًا محسنًا، وبالتالي يغتر به الأغمار، وإلا فلو خرج به على صورته الحقيقية لو جاء بالباطل كما هو، فإن النفوس لا تُقبل عليه؛ لأن الباطل المجرد أمرٌ مخالفٌ للفطرة، ولذلك نفوس أكثر الناس تعرض عنه، إذن كيف يصنع هؤلاء، تجدهم ماذا يفعلون؟ يزخرفونه ويزينونه ويلونونه، حتى يخرج في صورة حسنة بهيجة، والجاهل لا تجد عنده إلا أنه يغتر بالظواهر، لا ينفذ إلى الحقائق، تجد أنه يقف عند حدود هذه الزخارف فيغتر بها وينصاع وينساق إلى ما يُدْعى إليه.

والغالب أن أهل الباطل يضيفون إلى هذا شيء آخر، وهو: أنهم يخرجون الحق في صورة قبيحة، فقل لي بربك كيف ستكون النتيجة حينما يظهر الباطل في صورة حسنة، ويقابل هذا أن يظهر الحق في صورة قبيحة، ويظهر أهل الحق أيضًا في صورة قبيحة!

هذا هو حال أهل النفاق دائمًا تجدهم يسعون في إخراج الحق في صورة كريهة، يقدحون في أمر الله ﷻ من جهة أنه معارض للحكمة، يقدحون في قدر الله ﷻ من جهة أنه معارض للعدل، يقدحون في خبر الله ﷻ من جهة أنه معارض للعقل، وهكذا دواليك في طريقهم للإفساد يخرجون الحق مشوهًا في مقابل أنهم يخرجون الباطل مموهًا مزخرفًا.

وشاهد هذا في كتاب الله، قول الله ﷻ: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ**﴾ ماذا؟ ﴿**زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ**﴾**[الأنعام:١١٢]**.

إذن الوسيلة التي يسعى بجد واجتهاد شياطين الإنس والجن في ترويج الباطل بها هو: زخرف القول، يخرجون الباطل في صورة حسنة جميلة.

وفي المقابل يخرجون الحق في صورة سيئة، باطلة، ومن هذا الباب إعراضهم عن تحكيم الله ﷻ، يقولون نحن في زمن التطور، نحن في زمن التطوير، نحن في زمن التنوير، نحن في زمن التجديد. إذن لابد أن نواكب العصر"، هذا الذي يفعلون مع الأسف الشديد.

قالوا رُقِيًّا فَقُلْنَا لِلْحَضِيْضِ نَعَمْ تُفْضُوْنَ مِنْهُ إِلَى سِجِّيْن مُؤْتَصَدُ
عَصْرِيَّةٌ عَصَرَتْ خُبثًا فَحَاصِلُهَا سُمٌّ نَقِيْعٌ وَيَا أَغْمَارُ فازْدَرِدُوا
مَوْتٌ وَسَمُّوْهُ تَجْدِيْدَ الْحَيَاةِ فَيَا لَيْتَ الدُعَاةَ لَهَا في الرَّمْسِ قَدْ لُحِدُوا

يزعمون أنهم أهل التطوير والتجديد وهذا لا يتناسب معهم أن يُرجع إلى الخلف، هؤلاء الذين يدعون إلى تحكيم الشريعة والوقوف عند حدود الله، يزعمونهم أو يرسمونهم أو يصورونهم بأنهم ظلاميون، يريدون إرجاعنا إلى العصور الوسطى أو العصور الحجرية، ونحن في هذا الوقت المتقدم في هذا الزمان المتطور، هكذا يصنعون في شأن تحكيم شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، تحكيم أمر الله سبحانه وأمر رسوله ﷺ، إذن هذا دأبهم قديمًا ودأبهم أيضًا حديثًا.

إذن هذا هو فيما يبدو والله أعلم سبب إيراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية في هذا الباب والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقوله:﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾[الأعراف:٥٦].

هذه الآية قريبة في المعنى من الآية السابقة، وفيها النهي عن الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾[الأعراف:٥٦]، وعلمنا أن هذا الفساد يشمل الفساد الحسي بالظلم، بالتعدي على الناس، بإفساد مصالح الأرض وخيراتها.

والنوع الثاني وهو الأهم، وهو الأصل، وهو الأساسُ لما قبله: وهو الإفساد فيها بمعصية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالكفر، بالشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ، بمعاقرة المنكرات وفعل الفواحش والكبائر، كل ذلك من الإفساد في الأرض.

يذكرهم ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآية بأن الأرض قد أصلحها عَزَّ وَجَلَّ، ولماذا يعودون عليها بالفساد وهي صالحة، وهذا فيه تأنيب لهم كيف يسعون إلى شيء سليم وصالح فيفسدونه؟ هذا دليل على إمعانهم في الشر، إنما يعمدون إلى شيء صالح فيفسدونه، وهذا مما نهى ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه.

ووجه الشاهد: من إيراد هذه الآية- كما سبق- أن من الإفساد في الأرض الإعراض عن تحكيم شرع الله عَزَّ وَجَلَّ، وأن يُنَزَّل غير شرع الله منزلته، وأن يُسَوَّى بينه وبينه وأسوأ منه أن يُفَضَّلَ على شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كل ذلك ولا شك من الإفساد في الأرض.

ويا لله العجب!! كيف يدعُ هؤلاء الذين بخسوا أنفسهم حظها من الخير، كيف يدعون العذب النمير ويدعون الصافي الزلال، والخير المحض، ويستبدلون به زبالات أذهان، واجتهادات باطلة خاسرة، يستعيضون بهذه القوانين وهذه الدساتير عن شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي هو الخير كله، والذي هو الحق كله!

الله ﷻ هو الذي خلق الخلق، إذن هو الذي يعلم ما يصلحهم، ولذلك أنزل ﷻ في كتبه وأرسل رسله ببيان ما يُحافظ على صلاح هذه الأرض لكي تبقى صالحة مباركة كما خلقها الله ﷻ، لكن هؤلاء مع الأسف الشديد أتوا بضد ذلك، إذا كان الله ﷻ هو الخالق، إذن هو العالم بما يصلح الناس، إذن في أحكامه ما يصلح حال هذه الأرض، لا تستقيم أحوال الناس إلا بالاستقامة على شرع من خلق الناس وخلق هذه الأرض التي يعيشون فيها، ولو لم يكن إلا أن الشواهد الواقعية الحسية التي تدل على أن شرع الله ﷻ هو الذي تصلح به أحوال الناس، لو لم يكن إلا هذا ردًا على هؤلاء المنافقين الذين يعرضون عن تحكيم الله ﷻ، لو لم يكن إلا ذلك؛ لكفى به ردًا عليهم.

ونحن نرى ونقرأ ونشاهد في هذا العصر كيف أن بعض بلاد الكفر أصبحت تتلمس الاستفادة من بعض الأنظمة الشرعية في شأن المصرفية الإسلامية مثلاً بعد أن لاقوا ويلات النظام الربوي، وكيف عاد عليهم بالفساد العريض، أصبحوا الآن يتلمسون في بعض جهاتهم، يتلمسون الاستفادة من الأنظمة الإسلامية في شأن الاقتصاد والمال، لعلمهم أنَّ هذا الذي تصلُح به أحوال الناس، لا شك أن كل منصف نظر في أحكام شرع الله ﷻ لا يملك إلا بالإذعان والإقرار بأنَّ هذا هو الحق المحض، وأن أحوال الناس لا تستقيم إلا به.

إن جئت إلى أحكام الأسرة، إن جئت إلى أحكام الاقتصاد، إن جئت إلى سياسة البلاد، جئت إلى ما يتعلق بالحدود وما إليها، إلى غير ذلك من أحكام الشريعة العامة الشاملة لكل شيء، والله لا يجد المنصف من غير المسلمين إلا أن يذعن بأن هذا هو الحق، وأنه لا يمكن إلا أن يكون شرعًا منزلاً من الخالق العليم الخبير الحكيم ﷻ.

مرة كنت أُحدِّثُ أحد الكفار في مجلس ضمَّني به في بعض البلاد، كنت أحدثه عن شيءٍ من نظام الإسلام وجمال الإسلام وروعة الإسلام وحسن الإسلام، وذكرت بعض الأمثلة التفصيلية وكان هذا الرجل عاقلاً أخرج ورقة وقلم وصار يكتب معي ما أقول، يقول أريد أن أفكر وأتدبر في هذا الشيء الذي تتكلم فيه، وأثناء كلامي توقف ونظر إليَّ وقال: "كل هذا الخير عندكم وتقصرونه على أنفسكم"، أُعجِب وأُدهِش بهذا التنظيم البديع الدقيق في ديننا، كيف تحفظونه أو تقصرونه على أنفسكم دون أن تشيعون ودون أن تدعون ودون أن تبلِّغون ذلك؟ كل هذا الخير عندكم وتقصرونه على أنفسكم؟

فالمقصود أن هذا الذي قاله هو لسان حال ومقال كثير من هؤلاء الذين هم خارج الدائرة الإسلامية إن لم يغلب عليهم هواهم، وإلا فإن الحق أبلج، واضح في الشمس المشرقة، هذا الدين ظهور الحق فيه كظهور الشمس في رابعة النهار، لا يمكن لإنسان أن يتجاهل ذلك أو أن يخبر بخلاف ظهور هذا الحق فيه إلا إذا غُلِبَ على هواه مع الأسف الشديد والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾[المائدة: ٥٠]الآية.

هذه الآية أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها باستفهامٍ إنكاري، يخاطب فيها بهذا الاستفهام الإنكاري هؤلاء المنافقين وأضرابهم: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة: ٥٠].

الجاهلية هي: كل ما خالف الإسلام؛ لأن مبنى ذلك على الجهل.

أما الإسلام والحق والدين الذي أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنه قد أنزله الله عَزَّ وَجَلَّ بعلمٍ كما أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنزله بعلمه.

إذن دين الله عَزَّ وَجَلَّ مبنيٌ على العلم، فكل ما عارضه وكل ما خالفه حقيقته جهلٌ محض.

ولذلك أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن حكم غيره هو حكم الجاهلية، وهذا حق لا ريب فيه، كل ما كان خلاف شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنه حكم جاهلي، والعاقل لا شك أنه لا يطلب الجهل، لا يطلب الظلام، لا يريد الظلم، إنما يطلب العلم ويطلب النور ويطلب الحق، إذا كان يريده فليس أمامه إلا أن يستزيد بحكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ يعني: يريدون.

ثم بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن حكمه هو أحسن الأحكام: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾[المائدة: ٥٠]، لكن هذا لا يدركه ولا يقر به إلا الذين يوقنون، الذين بلغوا الدرجة العظيمة من الإيمان، عند هؤلاء حكم الله عَزَّ وَجَلَّ أحسن الأحكام، وهذه الآية تعم الحكمين القدري والشرعي، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ يعني: قدرًا وشرعًا.

لا شك أن كل ما يقدره الله ﷻ من أحكامه القدرية لا شك أنه أحسن ما يمكن أن يقع.

والله ﷻ قدَّره لعلمه أن الحكمة فيه تقدير الله، وفعله وخلقه مقرونٌ بالحكمة، والله ﷻ يفعل بإرادته ومشيئته المقترنة بالحكمة، ولذلك أهل الإيقان يعلمون ذلك، فعندهم كل شيء قدَّره وحكم به سبحانه قدرًا وكونًا فإنه أحسن ما يمكن أن يقع، لو أصاب الإنسان حادث فإنه يحمد الله ﷻ عليه؛ لأنه في ظنه وعقيدته أنه أحسن ما يمكن أن يقع عليه في هذه اللحظة، هكذا عقيدته كل مسلم بلغ درجة الإيقان.

كذلك الشأن في الأحكام الشرعية عند أهل الإيقان والإيمان الصادق، حكم الله الشرعي أحسن الأحكام.

إذن الله ﷻ لا حكم أحسن من حكمه، كما قال الله ﷻ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾[التين:٨].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((حديثٌ صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسنادٍ صحيح)).

هذا الحديث فيه بحثٌ وكلامٌ طويل من جهة ثبوته عن النبي ﷺ، وقد صححه كما سمعت النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه قال: (إنه حديث صحيح رويناه في كتاب ((الحجة)) بإسناد صحيح)، والحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ((فتح الباري)) أورد هذا الحديث لكن من طريق أبي هريرة، لا من طريق عبد الله بن عمرو، وقال: (رجاله ثقات، ونقل تصحيح النووي ولم يتعقبه).

وفي مقابل هؤلاء طائفة من أهل العلم ضعفوا هذا الحديث ولم يثبتوا إسناده للنبي ﷺ، وابن عساكر قال في هذا الحديث: (إنه غريب).

ومن أحسن ممن رأيته تكلم عن إسناده من جهة ثبوته وعدمه ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((جامع العلوم والحكم))، فإنه تعقب النووي في تصحيحه وقال: (إن تصحيحه بعيد)، وذلك أن الإسناد فيه نعيم بن حماد الخزاعي وهو على جلالة قدره بالعلم والسنة إلا أنه ضعيف الرواية، وكذلك اضطرب في هذا الإسناد يعني: في روايته لهذا الحديث، مع وجود أيضًا انقطاع في الإسناد، ولذلك ضعفه، وضعفه غير واحد من أهل العلم.

على كل حال إن ثبت هذا الحديث عن النبي ﷺ أو لم يثبت، فالمعنى صحيح ولا يستشكل، فإنَّ هذا الحديث في معناه يدل على ما دل عليه قوله تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء:٦٥].

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به» المقصود: أنه يجب أن يحب ما أُمِر به من كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

أوامر الكتاب والسنة يجب على المسلم الذي يريد أن يكون مؤمنًا الإيمان الواجب، وقد علمت أن هذا النفي "لا يؤمن أحدكم"، أو "لا يؤمن من فعل كذا" أخذنا في دروس سابقة أنه يدل على أن فاعل ما ذُكِر قد نقص إيمانه الواجب، فهو لا يؤمن الإيمان الواجب، وليس المقصود أنه لا يؤمن أصلاً يعني هو فاقد لأصل الإيمان، إنما هذا قدحٌ في قدرٍ أرفع وأعلى من أصل الإيمان وهو الإيمان الواجب، وقلنا أن الذي اختاره جماعة من المحققين، ومنه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ورود هذا اللفظ دليلٌ على أن موضوعه يعني: ما جاء فيه هذا الذم بقوله «لا يؤمن» دليلٌ على أن هذا المذكور من الكبائر، وهو من العلامات التي يُعرف به أو تُعرف بها الكبيرة من الصغيرة.

المقصود أن الواجب على كل مسلم أن يحب أمر الله وأمر رسوله ﷺ ويقبلُ على ذلك ويسلم تسليمًا.

ولا يستشكل أيضًا قوله في الحديث «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»، فكلمة الهوى ها هنا لا تشكل؛ لأن الأصل في كلمة الهوى أصلاً هو: الميل، هوي كذا فهو يهوى يعني: مال، وإن كان الغالب في الاستعمال أن يكون مذمومًا، الغالب

أنه إذا ذُكِرَ الهوى أن يكون في معنىً مذموم، ولذلك ما جاء الهوى في كتاب الله ﷻ قط إلا مذمومًا.

لكن قد يرد في بعض الأحاديث والآثار الهوى في بهذا المعنى وهو: بمعنى المحبة أو بمعنى الميل، ومن ذلك هذا الحديث الذي بين أيدينا، ومن ذلك أيضًا قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كما في ((صحيح البخاري)) لما نزل قول الله ﷻ: ﴿**تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ**﴾**[الأحزاب:٥١]**، قالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تخاطب النبي ﷺ: «**ما أرى ربك إلا يسارع في هواك**»، ومعنى كلامها: أنها ترى أن الله ﷻ يكرم نبيه ﷺ بأن يمن عليه ويمنحه ويعطيه ما يحب ﷺ، فتلاحظ أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا استعملت ها هنا هذه الكلمة وقطعًا هي لا تريد المعنى المذموم، لأن النبي ﷺ لا شك أنه يُجّلُ عن نسبة المعنى المذموم إليه، إنما المراد: الميل، المراد: المحبة.

وقل مثل هذا في قول عمر رضي الله عنه في شأن أسارى بدر لما اختار النبي ﷺ ومال إلى قول أبي بكر رضي الله عنه فيه وهو أنه لا يقتلهم بخلاف قول عمر رضي الله عنه، قال رضي الله عنه :(فهويَّ النبي ﷺ ما قال أبو بكرٍ ولم يهوى ما قلت)، ما معنى هذا؟ يعني: أنه مال وأحب ورغب في قول أبي بكر رضي الله عنه ولم يحب ما قلته.

إذن الهوى ها هنا ليس هو المعنى المذموم الذي جاء ذمه في كتاب الله ﷻ، ومنه قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ**﴾**[القصص:٥٠]**.

إذن الواجب على كل مسلم أن يحب أمر الله ورسوله ﷺ ، وأن يحب حكم الله ورسوله ﷺ ، بخلاف حال المنافقين الذين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم فإنهم يعرضون، يصدون صدودًا، لا يحبون حكم الله ورسوله ﷺ، فهذا من القدر الواجب الذي لا يسامح فيه الإنسان، لابد أن يحب أمر الله، ولابد أن يحب حكم الله ﷻ، حتى لو كان يشعر أن فيه عليه مشقة، ربما تكون بعض أحكام الله ﷻ فيها شيء من المشقة، لكنَّها مشقة محتملة، كأن يتوضأ الإنسان مثلاً في جو بارد، تجد أن فيه بعض المشقة عليه، فلا يمتنع وجودُ الشعور بهذه المشقة مع محبة هذا الذي أمر الله ﷻ، لاسيما إذا استشعر المسلم أن له في هذه المشقة التي يجدها مزيد من الأجر من الله سبحانه وتعالى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومةٌ، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد؛ -عرف أنه لا يأخذ الرشوة -، وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود؛ لعلمه أنهم يأخذون الرشوة، فاتفقا أن يأتيا كاهنًا في جهينة؛ فيتحاكما إليه؛ فنزلت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾[النساء:٦٠].. الآية.

أورد المصنف في هذا الموضع في آخر الباب هذا الأثر في سبب نزول الآية التي صدَّر بها الباب، ولا أدري سببَ هذا التأخير، تأخير إيراد سبب النزول للآية التي قدمها، المقصود أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورد هذا السبب، وسببًا بعضه أيضًا، وإن كان المذكر في كتب التفسير أكثر من ذلك، يعني لو نظرت في كتب التفسير لوجدت أربعة أو خمسة من أسباب نزول هذه الآية، ومنها ما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

هذا الأثر أثرٌ مرسل؛ لأنَّ الذي يرويه لنا هو الشعبي، وهو تابعي عامر بن شراحيل الشعبي الحميري التابعي الجليل الذي لقي جمًا غفيرًا من أصحاب النبي ﷺ، حتى أنه ذكر عن نفسه أنه لقي أكثر من خمسمائة من أصحاب النبي ﷺ، ومع ذلك فإنه ما لقيَّ النبي ﷺ، فالأثر مرسل، وعلى كل حال صح السبب أو لم يصح فالعبرة بعموم اللهو لا بخصوص السبب.

في هذا الأثر فوائد:

[الفائدة الأولى]: أن تعلم أن المنافق أسوأ حالاً من اليهودي، ألم تر أن اليهودي رَغِبَ في تحكيم النبي ﷺ وأما المنافق فلم يرغب، تلاحظ أن اليهودي علم أن النبي ﷺ لا يأخذ الرشوة،- والرشوة من مثلث الكلام رِشوة ورَشوة ورُشوة والأشهر بالكسر-، وفي مقابل ذلك المنافق أعرض ولم يُرد ذلك، حتى أنهم تحاكموا إلى كاهنٍ في قبيلة جهينة.

الفائدة الثانية وهي أن الكهان عند العرب كانوا يرجعون إليهم لغرضين:

[الأمر] الأول: لمعرفة أو بما يزعمون أنهم يريدون معرفة الغيب؛ لأنَّ الكاهن -كما قد علمنا- هو: الذي يخبر أو يزعم الإخبار بالأمور المستقبلة.

والأمر الثاني: أنهم كانوا يحكمون بين الناس، يتحاكمون إليهم ويذعنون إلى حكمهم.

الفائدة الثالثة: أن الدنيا قد تجر إلى الكفر، لاحظ كيف أن هذا الإنسان من أجل رغبته في تحصيل حطام دنيوي ما رَغِبَ أن يحتكم إلى النبي ﷺ، إنه يعلم أنه مبطل وأنه يفوته هذا الحظ من الدنيا، ولذلك لما أعرض عن تحكيم رسول الله ﷺ باء بالخسران، ونزل فيه هذه الآية العظيمة، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾[النساء: ٦٠].

إذن هو كاذب ليس بمؤمن، فالدنيا أمرها خطير ربما لو استرسل الإنسان معها وأفل معها ولم يُزَّمَ نفسه بالاستجابة والاحتكام لأمر الله ورسوله ﷺ، ربما هذا الهوى يهوي به والعياذ بالله في أودية صفيقةٍ من الضلال والخسران- نسأل الله السلامة والعافية-.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهم: نترافع إلى النبي ﷺ، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف، ثم ترافعا إلى عمر، فذكر له أحدهما القصة، فقال للذي لم يرضَ برسول الله ﷺ: أكذلك؟ قال: نعم؛ فضربه بالسيف فقتله.

هذا سبب آخر في نزول هذه الآية التي معنا، وهذا السبب سببٌ مشهور في كتب العلماء، والروايات فيه عدة، ولا يخلو شيء منها من مقال، وإن كان بعض أهل العلم ومنهم الشارح الحفيد الشيخ سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ذكر أن شُهرة القصة تغني عن إسنادها.

المقصود أنَّ هذا الأثر إن صح فيه أيضًا ما يدل على أن الاحتكام إلى غير شرع الله عَزَّ وَجَلَّ هو شأن المنافقين كما دلت عليه الآية، وأنَّ من الإيمان الواجب ومن التوحيد اللازم أن يُحتكم إلى أمر الله ورسوله ﷺ ، هذان رجلان اختصما، قال أحدهما: نحتكم إلى رسول الله ﷺ ، والآخر قال: نحتكم إلى كعب بن الأشرف وهو اليهودي المعروف الذي هو من أشراف بني النضير، يهودي من المدينة.

فيبدو أن الأخذ والإعطاء بينهما توصل إلى عمر رضي الله عنه، فلما مَثَلَا بين يديه، كان أن حدثاه بما حصل منهما، فقال للذي أبى أن يحتكم إلى النبي ﷺ: هو كذلك؟ أراد أن يتحقق منه، فلما أكد له أنه قد فعل ما كان منه إلا أن سل سيفه وضرب به عنقه، وذلك يدلك على أن هذا الرجل إما أن يكون منافقًا أظهر نفاقه، والأصل في المنافق الذي يستر نفاقه، أنه يُحكم عليه بالظاهر، "لا يتحدث الناس أن محمدًا ﷺ يقتل أصحابه"، فإن أظهر كفره فإنه

آمن بما يقتضيه هذا الإظهار، وإن كان مسلمًا فإنه يكون قد ارتد بالإعراض والصدود عن تحكيم النبي ﷺ، ففعله يدل على أنه كان مستكبرًا عن حكم النبي ﷺ.

وبقيت مسألة ربما تُستشكل، وهي: أن المعلوم المتقرر في الشريعة أن إقامة الحدود من شأن الحكام، ولكننا نلحظ ها هنا إن صحة القصة أن عمر رضي الله عنه الذي تولى قتل هذا الرجل، وتباينت وجهات نظر أهل العلم في توجيه هذه القصة، والذي يلوح لي والله أعلم: أنَّ عمر رضي الله عنه كان وزيرًا للنبي ﷺ ، وكان من أقرب الناس إليه، بل لا يفوقه في القرب من النبي ﷺ إلا أبو بكر، وهو أعلم الناس أو من أعلم الناس بما يرضاه النبي ﷺ أو لا يرضاه، فكأنه رضي الله عنه قد علم أن النبي ﷺ يرضى منه هذا الفعل، فنزل علمه برضاه منزلة رضاه بالفعل، وكان منه ذلك رضي الله عنه إن صحت القصة وفي القصة كلامٌ من جهة ثبوتها.

الشيخ لم يراجع التفريغ

٥٩

٥٩- باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات

(المجلس الأول)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بابُ من جحد شيئًا من الأسماء والصفات.

فهذا الباب الذي بين أيدينا فيمن جحد شيئًا من الأسماء والصفات، **يعني: من أسماء الله ﷻ وصفاته**، هذا الباب من الأبواب القليلة التي تناولت موضوع الأسماء والصفات في كتاب التوحيد؛ معنا هذا الباب، وسيأتي إن شاء الله معنا أيضًا بابان قادمان.

وكأن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ رأى أنَّ موضوع الأسماء والصفات قد كُتِبَ فيه مؤلفات كثيرة، من العهد الأول منذ القرون الأولى، ولم يزل يكتب فيه إلى وقت المؤلف، لكن الشيء الذي تشتدُّ الحاجة إلى التأليف فيه هو موضوع توحيد العبادة، ولأجل هذا جعل جلَّ الأبواب متناولةً هذا الموضوع.

من جحد شيئًا من أسماء الله ﷻ وصفاته، يعني: ما جاء في ذلك من الذم والتحذير؛ لأن هذا المسلك مما ينقض به التوحيد، أو ينقُص به التوحيد.

فإن جحد الأسماء والصفات قد يكون مما ينتقض به الإيمان والتوحيد، وقد يكون دون ذلك، لكنه لا شك مما يخدش في التوحيد، ومما يقدح في كماله الواجب.

وقبل الكلام عن جحد الأسماء والصفات، لا بد من التمهيد لذلك بذكر مقدمة تبين منهج أهل السنة والجماعة في هذا الباب العظيم أعني باب أسماء الله ﷻ وصفاته.

والكلام في هذا يمكن أن نجعله في أسس متتالية:

أما الأساس الأول: فهو أن أهل السنة والجماعة يعتقدون ثبوت ما أثبت الله لنفسه، وما أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات، هذا هو المسلك الرشيد، هذا هو المنهج الحق، هذا هو النور بين ظلماتٍ تارةً تأخذ جانب الغلو والتعطيل، وتارة تأخذ جانب الغلو الآخر والتمثيل.

أما هذا المسلك الذي سلكه أهل السنة والجماعة، مسلك متوسط جمع الحق كله، وجمع الخير كله.

أهل السنة والجماعة يعتقدون أنَّ ما جاء في الكتاب والسنة من أسماء الله ﷻ وصفاته، فإنه ثابت له حقيقة؛ لأنَّ ما جاء في الكتاب والسنة هو الحق الذي لا ريب فيه، والله ﷻ

بيّن أن كتابه حق، وأن ما فيه حق، وكذلك سنة رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى حقٌ لا ريب فيه، ولا شك فيه، ولا يعتوره خطأٌ بحال من الأحوال.

إذن متى ما ثبت أن الله ﷻ قد ثَبَتَ له شيء من الأسماء والصفات، فإنه يجب علينا أن نعتقد ذلك، والله ﷻ ما أخبرنا بهذا إلا لأجل أن نعتقده، وإلا فما فائدة الإخبار به؟!

إذن فنحن نعتقد بثبوت ما جاء في الكتاب، والسنة من أسماء الله وصفاته.

ولاحظ هنا أن أهل السنة والجماعة لا يفرقون فيما ثبت بين الكتاب والسنة، ما ثبت في الكتاب والسنة من الأسماء والصفات، فمقبولٌ يجب اعتقاده، وما ثبت في الكتاب فقط فمقبول يجب اعتقاده، وما ثبت في السنة فقط، فهو أيضًا مقبول يجب اعتقاده، لا يفرق أهل السنة والجماعة بين الأدلة من حيث الأخذ بها، فالأدلة القطعية قد دلت على أن الكتاب حجة، وعلى أن سنه النبي ﷺ أيضًا حجة: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾[**الحشر:٧**].

وفي سنة النبي ﷺ أهل السنة والجماعة أيضًا لا يفرقون بين الأحاديث، العبرة عندهم: ثبوتُ الدليل، ثبوتُ الحديث، ثبوتُ السنة، أما أن نشترط شيئًا زائدًا على ذلك، كأن تكون السنةُ متواترة، وإلا فإننا لا نقبلها في باب الأسماء والصفات لا شك أن هذا مسلك خاطئ مخالف لما كان عليه الصحابة، والتابعون، وأتباعهم.

ليست العبرة عندنا تواتر الحديث، العبرة عندنا ثبوت الحديث، متى ما ثبت الحديث، ولو من طريق الآحاد، فإنه مقبول عند أهل السنة والجماعة ولا شك؛ لأن الأدلة لم تدل على إثبات هذا الشرط، الله ﷻ يقول: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ**﴾[**الحشر:٧**]؛ إذن متى ثبت عندنا أن هذا نص قاله رسول الله ﷺ إذن لا يجوز للإنسان أن يتردد في قبول هذا الحديث عن النبي ﷺ.

أمَّا المسلك الذي يقول: نحن لا نقبل من الحديث في باب الأسماء والصفات إلا ما جاءنا من طريق المتواتر وإلا فإننا لا نقبله؛ هذا مسلك مبتدع لا دليل عليه من الكتاب والسنة، وليس عليه أثرٌ من فعل السلف الصالح، إذن هو مردود، ولا عبرة به.

أهل السنة والجماعة، يثبتون يعني: يعتقدون ثبوت ما جاء في الكتاب والسنة من صفات الله جل وعلا، إذا أثبت الله لنفسه اسمًا، اعتقدنا أن هذا اسم الله، وسمينا الله به، إذا

سمى الله نفسه بالرحمن، والرحيم، والكريم، والعليم، ليس لنا إلا أن نتلقى هذا بالقبول، ونعتقد أن هذا اسم ثابت لله ﷻ، هو الذي سمى به نفسه، ليس الخلق هم الذين سموا الله تعالى- حاشا وكلا- بل هي أسماء لله سمى هو بها نفسه، ولذلك في حديث الهم، يقول النبي ﷺ: «**أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك**».

إذن أسماء الله هي أسماء له بتسميته إياها –يعني هو الذي سمى نفسه بها- لا أن الخلق هم الذين أنشأوا تسمية الله سبحانه وتعالى بها.

هكذا الشأن أيضًا في صفات الله سبحانه وتعالى، نعتقد أن كل صفة جاءت في الكتاب والسنة فإن الله ﷻ متصف بها حقيقة، إذا أخبرنا الله ﷻ أنه يحب وأنه يبغض وأنه يغضب، وأنه يرضى وأنه استوى على العرش، وأن له وجهًا وأن له يدين وأن له قدمًا، يجب علينا أن نعتقد ذلك، هذا شيء أخبرنا الله به، هذا شيء أخبرنا به النبي ﷺ.

إذن، ليس لنا إلا أن نقول: على الرأس، وعلى العين، نعتقد موجب ذلك، دون تردد.

وإذا كان ذلك كذلك، فإنه سيتضح لنا أنَّ هذا الإثبات الذي أثبته أهل السنة والجماعة هدى بين ضلالتين:

ضلالةٌ اتجهت **جهة التمثيل**؛ فجعلت ما يثبُت لله ﷻ من الصفات من جنس ما يثبت للمخلوقين.

وطائفة أخرى هي التي نحت نحو **التعطيل**، فقالت إن ما ثبت في الكتاب والسنة من صفات الله ﷻ ليس من حقيقته، الله لا يتصف به حقيقة، حسنًا؛ إذن ما هذا الذي جاء في النصوص؟

قالوا: هذا مجازات، استعارات، كنايات، سمِّها ما شئت ولكن لا تقل إن الله يتصف بها حقيقة؛ وهذا الجانب هو الذي أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يتحدث عنه في هذا الباب، هؤلاء الذين جحدوا أسماء الله وصفاته.

أهل السنة والجماعة وسط بين الطائفتين، قال ﷻ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]؛لاحظ أن هذه الآية أمُّ الباب، انتبه!

هذه الآية العظيمة هي **أم الباب في الأسماء والصفات**، بمعنى: كل كلام أهل السنة والجماعة تقريبًا في هذا الباب –باب الأسماء والصفات- يدور على هذه الآية: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[الشورى:١١]؛ لاحظ أنها تشتمل على شقين:

الشق الأول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، رد على أهل التمثيل.

والشق الثاني: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾؛ رد على أهل الجحد، والتعطيل.

إذن أهل السنة والجماعة كانوا في اعتقادهم وسطًا، يثبتون أن الله عز وجل متصف بالصفة لا كاتصاف المخلوق.

ولذلك لخص لنا هذا المنهج المجانب لهاتين الطائفتين المنحرفتين عن الحق الإمام نعيم بن حماد الخزامي رحمه الله حينما قال –وهذه كلمة عظيمة تلقاها عنه أهل السنة والجماعة بالقبول- ؛ يقول: "من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن [أنكر] ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه".

إذن هذا هو المنهج الوسط، وهذا أثر عظيم وأثر حسن ثابت عنه، قال عنه الذهبي: رويناه بأصح إسناد.

فهذا المنهج يبين لك أن أهل السنة والجماعة طريقهم اختطوه بين هاتين الطائفتين المنحرفتين.

الأساس الثاني: **أهل السنة والجماعة يعلمون معاني نصوص الصفات في ضوء لغة العرب.**

إذن متى أخبرنا الله عن نفسه بثبوت صفة له فإن أهل السنة والجماعة يعلمون معنى هذه الصفة في ضوء لغة العرب؛ لماذا؟ لأنَّ الله سبحانه وتعالى أنزل هذا الكتاب، لأجل أن يتدبر: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾[ص:٢٩]، ولم يقل الله عز وجل إلا آيات الصفات، إذن كل القرآن مما يجب أن يتدبر المسلم، حتى نصوص الصفات؟! نعم، حتى نصوص الصفات؛ يجب على الإنسان أن يتدبرها، وأن يعلم معناها، فإذا أخبرنا الله عز وجل بأنه على العرش استوى، نحن هنا بين أمرين:

[الأمر الأول] **إما أن نقول**: إنَّ كلمة (استوى) كلمة غامضة، مجهولة المعنى، مثلها مثل الطلاسم، والألغاز، والكلام الأعجمي، الذي لا يعلم له معنى، ولا يُدرك له فائدة.

[الأمر الثاني]: أو أن نقول: إنَّ هذه الكلمة (استوى) كلمة عربية، ولها مفهوم في لغة العرب فنحن نفهم هذه الكلمة في ضوء لغة العرب، فـ(استوى) عند العرب، استوى على: علا على الشيء وارتفع عليه، ولذلك يقول الله ﷻ: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾[الزخرف:١٣]، قال عن سفينة نوح: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾[هود:٤٤]، أي شخص يفهم لغة العرب سيفهم أن قوله: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ أنها: علت وارتفعت على الجبل المسمى الجودي.

إذن، أي المسلكين هو المسلك الصحيح؟

أن نقول: إن نصوص الصفات الواردة في الكتاب والسنة كلامٌ لا معنى له، أنزله الله فقط من أجل أن نتعبد له بتلاوته، أما أن نفهم، فلا.

أو نقول إنها من جملة آيات القرآن التي يجب أن تدخل تحت قوله تعالى: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾[ص:٢٩]، وتدخل تحت الذم في قول الله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾[المؤمنون:٦٨]، ما رأيكم؟ أي المسلكين هو المسلك الصحيح؟

لا شك أنه المسلك الثاني.

دعونا ننظر ماذا كان يفعل أصحاب النبي ﷺ، بل دعونا ننظر ماذا حثنا النبي ﷺ، نظرنا فتشنا في سنة النبي ﷺ وجدنا أنه يقول: «**وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم**»؛ لاحظ معي، ما معنى يتدارسونه؟ يعني: يحاولون أن يفهمون وأن يتدبروا معانيه.

نظرنا في فعل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وفعل التابعين مع الصحابة وجدنا مجاهدًا التابعي الجليل رَحِمَهُ اللَّهُ تلميذ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: (عرضت القرآن على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ثلاث عرضات، أقفه عند كل آية منه) –يعني: من القرآن–.

السؤال الآن:

أقال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: إنني أقفه عند كل آية، إلا آيات الصفات؟ أقال هذا مجاهد؟

ما قال هذا؛ إذن كان رَحِمَهُ اللَّهُ يسأل ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن آيات الصفات كما يسأله عن غيرها من آيات الصفات، لم يقل: كنا إذا مررنا بآيات الصفات أغلقنا أعيننا، وأسماعنا، وقلوبنا، عن أن نتدبر معناها، لم يقل هذا، كما هو الحال عند طائفة من

أهل البدع الذين يقولون إن آيات الصفات مجهولة المعنى؛ أنزلها الله في القرآن، ولكن لا يعلم معناها إلا هو.

فإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:٥]، إذا قال إنه سبحانه قال عن نفسه: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[المائدة:٥٤]، إذا قال: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾[المائدة:١١٩]؛ إذا قال: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[الفتح:٦]؛ إذا قال إن له يدين، إذا قال إن له وجهًا، إذا قال إن له كلَّ هذه الصفات؛ فإن هذه الآيات آيات مجهولة المعنى، لا نفهمها، ولا نعقلها، لا شك أن هذه دعوى باطلة، ولوازمها لوازم خطيرة، إذ يستطيع كل إنسان حينئذ أن يقول: إن غير آيات الصفات أيضًا مجهولة المعنى، لماذا آيات الصفات فقط هي المجهولة؟ حتى غيرها، يعني: ممكن أن يأتينا شخص فيقول: حتى قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾[البقرة:١١٠]، مجهول المعنى، ﴿كُتِّبَ عليكم الصيَّام ﴾ هذا كلام فقط نتلوه نكسب به أجر لا نفهم له معنى!

لا شك أن هذا يقوض الشريعة بالكلية هذا يسقط دين الله ﷻ بالكلية، لذلك كان هذا القول قولاً غاية في البطلان، ولوازمه ذات خطر عظيم.

إذن أهل السنة والجماعة يدركون معنى نصوص الصفات في ضوء لغة العرب، لكن القدر الذي يفهمونه من الصفة هو: معناها في أصل اللغة، دون أن يعلموا كيفية الصفة، وهناك فرق بين الأمرين. وهذا هو الأساس الثالث الذي معنا.

الأساس الثالث: أهل السنة والجماعة، يحذرون في هذا الباب -باب الأسماء والصفات-، من التكييف والتمثيل.

إذن أهل السنة، والجماعة يرون أن هناك محذورين يجب اجتنابهما، وتركهما، والابتعاد عنهما، أشد ما يكون الابتعاد، لا يجوز بحال حينما نثبت لله ﷻ الصفة، أن نبالغ، ونغلو حتى نصل إلى حد التكييف والتشبيه.

ما هو التكييف، وما هو التشبيه؟

التكييف: هو حكاية الكيفية، يعني: الكنه والحقيقة، نحن إذا ذكرنا صفة من الصفات، قد نفسرها ببيان كيفيتها نقول مثلًا: نزل فلانٌ بالدرج، أو نزل من المصعد، أو نزل من الجبل، لاحظ الآن هذه صفة، أنا أصفه الآن بالنزول، وربما أزيد فأقول: نزل بسرعة،

ننزل ببطء، كلمة "بسرعة" هذه ما هي؟ هذا هو التكييف، حكاية الكيفية، فأنا أذكر حقيقة وأذكر كنهًا.

حين أقول: إن الإنسان يستوي على الدابة، يستوي على الجمل أو الخيل بكيفية معينة، يستوي على السيارة بكيفية معينة، يستوي على الباخرة بكيفية معينة، أصف هذه الكيفية وأحكيها.

أنا الآن جمعت بين ذكر الصفة والتكييف، من أين لي أن أعرف الكيفية؟ كيف عرفتها؟ من خلال مشاهدتها؛ لأني أشاهد الإنسان وهو يستوي على دابة، أو باخرة، فإنني حينئذ أستطيع أن أحكي هذه الكيفية، وإذا كنت ما رأيته بعينه هذا الذي أحكي عنه، لكني أستطيع أيضًا أن أحكي الكيفية، من خلال معرفة كيف استوى من هو مثله، يعني أنا رأيت مثيله، رأيت نظيره، وقست هذا على هذا، وبالتالي فإنني أستطيع أن أذكر وأحكي الكيفية.

لو انعدم عندي هذان الأمران؛ لو لم أرى إنسانًا يستوي على دابة، أنا ما رأيت، أو لم أر هذا الشخص المعين الذي أريد أن أصفه، لكن لم أرى أيضا مثيلا له يستوي على دابة، أسألكم: هل أستطيع أن أحكي الكيفية؟ لا يمكن، لماذا؟ لانعدام الوسيلة.

يبقى عندي شيء ثالث: ممكن أن شخصًا رأى فيفسر لي، يعلمني، يخبرني، يقول: استواء الإنسان على الدابة، هو أن يجلس بكيفية معينة، وتكون رجله نازلة، يبدأ يحكي لي كيفيته.

إذن هذه ثلاث طرق، لا تستطيع أن تتكلم بعلم عن شيء غائب عنك، إلا إذا وُجِّدَ عندك واحد من هذه الطرق:

١/أن ترى الشيء.

٢/ أن ترى مثيلًا له.

٣/ أن يأتيك عنه خبر صادق.

ليس هناك طريق رابعة.

السؤال الآن: هل رأينا الله ﷻ؟ أجيبوا يا جماعة؟

ما رأينا الله؛ قال النبي ﷺ كما في ((صحيح مسلم)): «تعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا».

رؤية الله ﷻ بالنسبة للناس، تكون في الآخرة في موضعين:

١/ عرصات القيامة. ٢/ جنات النعيم -أسأل الله أن يجعلني وإياكم من أهل هذه الرؤية-.

هل رأينا مثيلًا لله حتى نقيس؟ تعالى الله عن ذلك! ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:١١].﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥].﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[الإخلاص:٤].﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾[النحل:٧٤].﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾[البقرة:٢٢].

إذن ما بقي عندنا إلا الوسيلة الثالثة، أجاءنا خبر عن النبي ﷺ بحكاية كيفية الصفة؟

لا، النبي ﷺ كان يخبرنا بالصفة من حيث الثبوت، لا من حيث الكيفية، هل لما تلا علينا النبي ﷺ يعني: على أصحابه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:٥]، قال إن هذا الاستواء بكيفية كذا وكذا؟

لا، إنما اكتفى النبي ﷺ بإخبار الأمة أن ربه ﷻ استوى.

كذلك النبي ﷺ حينما حدَّث أصحابه كثيرًا في عشرات المرات، حدَّثهم أن الله إذا بقيَّ ثلث الليل الآخر فإنه ينزل إلى سماء الدنيا، قال: «ينزل» واكتفى، أزاد على هذا حكاية الكيفية؟ لم يفعل النبي ﷺ.

إذن، أي كلمة منا في تكييف صفة لله ﷻ فإنها بالتالي هل ستكون كلامًا بعلم، أم بغير علم؟ بغير علم، والله ﷻ نهى أشد النهي عن أن نقول عليه بغير علم: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:٣٣].إذن القول على الله بغير علم لا شك أنه منكر عظيم.

إذن لا يجوز للمسلم أن يتحدث عن كيفية اتصاف الله ﷻ بالصفة؛ لأنه ما رأى الله ﷻ ، ولم يرأى مثيلًا له، ولم يأت خبر لا في الكتاب ولا في السنة عن كيفية ثبوت هذه الصفة.

إذن أهل السنة والجماعة، اعتقادهم: **ثبوت الصفة دون تكييف الصفة، فهم يحذرون من حكاية الكيفية، وينفون علمهم بها.**

نحن لا نعلم كيفية صفات الله ﷻ ولذلك، الذين يخوضون في هذا الباب لا شك أنهم قد أخطأوا خطأ عظيمًا.

أخرج اللالكائي في كتابه ((السنة)): عن الإمام المحدث الجليل عبد الرحمن بن مهدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه بلغه عن رجل أنه يخوض في شيء من التكييف والتشبيه، فدعاه؛ فلما أقبل عليه بدأ يتكلم معه إن الله كذا وكذا، فقال له قف يا بني! دعنا أولاً نتكلم عن المخلوق، ثم نتكلم عن الخالق، قد أخبرنا النبي ﷺ عن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه له ستمائة جناح سد بها الأفق، قال: قد علمت جناحين، فركب لي ثالثًا، ولن أسألك عن خمسمائة وسبعة وتسعين جناحًا.

يقول: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ له كم جناح؟ له ستمائة جناح، قال: أنا أعقل شيئًا له جناحان، أتصور، لكن شيء له ثلاثة أجنحة هذا ما أدري كيف شكله، كيف سيكون، أين سيكون الجناح الثالث؟ ولن أسترسل معك فأقول وأين الرابع، والخامس، والسادس، والمائة، والستمائة، سأعفيك ولكن أخبرني أين الجناح الثالث سيكون؟ كيف هيئته؟

فقال الرجل: "لئن جهلنا صفة المخلوق، فنحن بكيفية صفة الخالق أجهل" أدرك الرجل خطأه وتراجع عن ذلك.

إذا كان المخلوق جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ مخلوق من مخلوقات الله، ومع ذلك نحن نجهل كيفية صفته، وكنه ذلك، وحقيقته وهيئته على وجه التحديد، نحن لا ندرك ذلك فكيف نروم طلب علم كيفية صفة الخالق ﷻ!

هذا شيء لا يمكننا الوصول له، ولذلك هؤلاء الذين يثقون بعقولهم كثيرًا فيرفعونها عن حدها، إلى درجة أنها تخوض في شيء من أمور الغيب، أخطأوا خطأ كبيرًا.

الغيب: ما غاب عنا، والعقل ليس له القدرة أصلًا على الوصول إليه، يجب أن نعرف أنَّ العقل له حدٌّ، فخوضه فيما فوق حده خطأ.

وبالتالي فإن العقل يقول: إن العقل ليس له في مسائل الغيب دخول، العقل هو الذي أخبرنا أن العقل ليس له في مسائل الغيب دخول؛ لأنه شيء فوق إدراكه.

أخرج ابن بطة في ((الإبانة)): أن رجلًا جاء إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا جاء بابن له وقال إن الفكرة قد أتعبته، والحيرة قد غلبت عليه، يعني: عنده ابن مسكين، يفكر تفكيرًا أبعد من حدود العقل، يخوض في مسائل الغيب حتى وقع في هوة عظيمة من الحيرة، والشك، والوسوسة؛ فطلب منه أن ينصح هذا الابن.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : تعال يا ابن أخي، وأخبرني ما هذا السواد الذي تراه هناك؟

قال: فلان.

قال: أحسنت؛ فما هو السواد الذي وراءه؟

قال: لا أدري.

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فكما جعل الله لعيون الأبصار حدًا محدودًا من دونها حجابٌ مستور، فكذلك جعل لبصائر القلوب حدًا محدودًا من دونها حجابٌ مستور.

الغيب شيء لا يستطيع العقل أن يخوض فيه؛ لأنه فوق إدراكه ونحن هناك أشياء قريبة جدا منا، كانت دليلًا، وبرهانًا علينا، وحجة قائمة علينا، في أننا عاجزون.

وصدق فينا قول الله ﷻ: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء:٨٥]، هل فينا أرواح؟ فيك أنت وأنت وأنا أرواح؟ فينا روح؟ هي أقرب شيء إلينا، أليس كذلك؟ وبها نكون أحياء وبانتزاعها نكون أموات، والسؤال: حدد لي كيفيتها.

ما هيئتها؟ ما لونها، ما مادتها؟ ما طولها؟ ما عرضها؟

هل تستطيع أن تخوض في شيء من هذا؟ وهي أقرب شيء إليك فإذا كنا عاجزين عن إدراك هذا الشيء الذي هو مخالط لنا وحالٌّ في أجسادنا، فكيف نروم أن نعرف كيفية صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا شك أن هذا مسلك خاطئ.

المحظور الثاني: **التمثيل أو التشبيه**: التمثيل والتشبيه كلمتان متقاربتان، وإن شئت فقل: متطابقتان أحيانًا، ومتقاربتان أحيانًا، يعني من الكلمات التي إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت اجتمعت.

التمثيل: هو الذي جاء نفيه في النصوص في آيتين في قوله تعالى:﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:١١]؛ ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾[النحل:٧٤].

أما التشبيه: جاء في لسان السلف، من عهد ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وإلى هذا العصر ولم يزل أهل السنة والجماعة ينفون التشبيه، وسمعت قبل قليل القاعدة الذهبية التي قالها نعيم بن حماد رَحِمَهُٱللَّهُ (من شبه الله بخلقه فقد كفر)، ثم قال: (ليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه).

التمثيل: هو أن نقول أن صفة الله كصفة المخلوق، الله ينزل كنزول المخلوق، والله يستوي كاستواء المخلوق، ولله وجه يشبه وجه المخلوق؛ لا شك أن هذا مسلك باطل وخاطئ، وتكذيب لكتاب الله؛ وأجمع المسلمون على أن من مثّلَ صفات الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بصفات خلقه فإنه قد كفر؛ كذَّب قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:١١].﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥].﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[الإخلاص:٤].﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾[النحل:٧٤].﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾[البقرة:٢٢]،وغيرها من الآيات التي دلت على ذلك.

إذن، كلا هذين المحذورين يجب على المسلم أن يجتنبهما، بل أن يقطع الطمع، أن ييأس من الوصول إلى ذلك، الله عَزَّوَجَلَّ لا يحاط به: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[طه:١١٠].

الله عَزَّوَجَلَّ أعظم، وأكبر من أن يحاط به علمًا؛لأنه الكبير، الواسع، العظيمعَزَّوَجَلَّ.

الأساس الثالث: أن أهل السنة والجماعة يجتنبون التعطيل والتحريف.

التعطيل: هو النفي، أن يقول الإنسان إن الله عَزَّوَجَلَّ لا يستوي على العرش، إن الله عَزَّوَجَلَّ لا ينزل إلى السماء الدنيا، إن الله عَزَّوَجَلَّ لا يأتي ولا يجيء يوم القيامة لفصل القضاء، هذا يسمى تعطيل، يسمى نفيًا.

والتحريف: وسيلة التعطيل، يعني: لا يوجد أحد من المنتسبين إلى الملة ينفي نفيًا صريحًا صفة ثابتة في القرآن، أو في سنة متواترة، ربما ينفي شيئًا جاء في حديث آحاد للخطأ في المنهج كما ذكرت قبل قليل وهو أنه يقول: لا نقبل في باب الأسماء والصفات إلا حديث متواتراً وبالتالي فإن حديث الآحاد في هذا الباب غير مقبول، وهذا منهج خاطئ كما قد علمنا.

ولذلك ربما يكون من هؤلاء المعطلة قائل: إن هذه الصفة ننفيها عن الله -عَزَّ وَجَلَّ- لعدم ثبوتها؛ فهي عنده في زعمه ثابتة في حديث لا يقبل في باب الاعتقاد، يعني: في حديث آحاد.

أما في آية أو حديث متواتر، فلا يجرؤ أحد منتسب للإسلام أن ينفي ذلك، لأنه سيكفر مباشرة، لأنه سيكذب الله ورسوله ﷺ.

إنما عامة التعطيل، يكون بوسيلة؛ بمركب يركبه الإنسان، فيصل به إلى التعطيل، هذا المركب اسمه: التحريف، وإن شئت فقل: اسمه التأويل، يعني: صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر بقرينة تُزعم، يزعمون أن هناك قرينة دلت على هذا الصرف.

وبالتالي هذا الذي عطل الصفة تجده يأتي إلى قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:٥]، الآية صحيحة في ثبوت استواء الله ﷻ على العرش، الله لا يستوي، نحن ننزه الله عَزَّ وَجَلَّ عن هذه الصفة ، سبحان الله!

إذن هذه الآية التي بين أيدينا، ما معناها؟ يقول: هذه الآية مؤولة، لها معنى آخر خلاف ظاهرها، وهذا المعنى هو "استولى"، ليس استوى بمعنى: استوى، لا استوى هنا بمعنى: استولى.

قال النبي ﷺ والحديث في الصحيحين، وبروايات كثيرة بلغت العشرات، عن عشرات من أصحاب النبي ﷺ إثبات صفة النزول لله تبارك وتعالى: **«إن الله -تعالى- ينزل إذا بقي ثلث الليل إلى السماء الدنيا فيقول...»** الحديث.

يقول: إن الله تعالى لا ينزل، حسنًا هذا الحديث ما معناه؟ يقول: الذي ينزل أمره وليس هو، أو الذي ينزل ملك من ملائكته، وليس هو.

هذا المسلك اسمه مسلك التحريف، أو التأويل، وهو في حقيقته يؤول إلى التعطيل؛ لأن الله أثبت شيئًا هو نفاه، وأثبت صاحبنا هذا شيئًا آخر، ليس هو الشيء الذي أثبته الله عَزَّ وَجَلَّ لنفسه، وبالتالي فإنه يكون قد أخطأ حينما أوّلَ هذه الصفة.

والسؤال الآن: لماذا يعمدُ بعض الناس إلى هذا التأويل أو التحريف؟ لماذا لا يثبت الشيء الذي أثبته الله لنفسه؟

الجواب: لأن عنده شبهه تقول: إن هذه الصفة على ظاهرها تفيد التشبيه، تشبيه الله ﷻ بالمخلوق.

وبالتالي أنا لا يمكن أن أشبه الله بخلقه، للاحتمال التشبيه أو لأن الظاهر من الآية هو التشبيه أنا مضطر تنزيها لله ﷻ أن أؤول أو أحرف هذه الآية حتى تستقيم لي قاعدة ليس كمثله شيء.

والعجيب أننا نجد أن النبي ﷺ لما تلا على الأمة قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:٥]؛ هل وقف وقفة وقال للصحابة: انتبهوا إياكم أن تعتقدوا أن الله يستوي حقًا فإنكم إن حملتم الآية على ظاهرها تكونون قد شبهتم؛ هذه الآية لها معنى آخر، هل وقفتم على شيء يثبت أن النبي ﷺ قال هذا؟ لا ولن تجدوا، لو بحثتم من اليوم حتى مائة سنة.

السؤال الثاني: هل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما تلقوا هذه الآية من النبي ﷺ ونقلوها إلى التابعين، إنما كانوا يدرسونهم ويعلمونهم، حينما كان ابن عباس يعلم مجاهد أقال له انتبه، أنت تقرأ قوله – تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:٥]؛ ولكن احذر أن تعتقد أن الله يستوي حقيقة، فإنك لو اعتقدت ذلك شبهت الله بخلقه؟! أفعل هذا ابن عباس؟! أفعل هذا واحد من الصحابة؟ الجواب لا.

السؤال ثالث: التابعون، فعلوا هذا مع أتباع التابعين؟ ما فعلوا هذا.

الذين من بعدهم حتى انخرمت تلك القرون الفاضلة، النيرة؛ هل ثبت عن واحد منهم فقط، أنه حذر الأمة من أن تقع في هوة التشبيه؟

والتشبيه ما حكمه ؟ كفر! من شبه الله تعالى بخلقه فقد كفر.

ما وجدنا النبي ﷺ ، ولا الصحابة، ولا التابعين، ولا أتباع التابعين، ولا أئمة الهدى من بعدهم، فعلوا هذا.

إذن ألا يدل ذلك على أن هذا مسلك خاطئ؟ ولو كان هذا مسلكًا صحيحًا لكانوا أولى به، هل نحن أغير على كتاب الله منهم؟ هل نحن أعلم بالله منهم؟ هل نحن أفقه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ منهم؟

إذن لا شك أن هذا المسلك مسلك باطل.

٦٠

٦٠- باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات

(المجلس الثاني)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بابُ من جحد شيئًا من الأسماء والصفات.

كنا في درس أمس قد تكلمنا عن بعض الأسس التي قام عليها اعتقاد أهل السنة والجماعة في باب أسماء الله وصفاته، وذلك تمهيدٌ للباب الذي بين أيدينا وهو: من جحد شيئًا من الأسماء والصفات.

وقفنا عند الكلام عن أن أهل السنة والجماعة يحذرون في شأن صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من التعطيل والتحريف، وفهمنا ما المراد بالتعطيل؟ وما المراد بالتحريف؟

وهذا الموضوع من الأهمية بمكان، فإن المسلم قد يطالع شيئًا من الكتب في التفسير أو في غيره، فيقع عنده شيء من الالتباس، حينما يرى أن صفات الله عَزَّ وَجَلَّ قد تأول وقد تحرف.

وهذا المسلك لا شك أنه مسلك خاطئ.

الله جل وعلا خاطبنا في هذا الكتاب الكريم، وهكذا نبيه ﷺ في سنته الغراء، كان الخطاب خطابًا مفهومًا معلومًا في لغة العرب، ولأجل هذا أُمرنا بتعقل القرءان، الله عَزَّ وَجَلَّ بين علة جعله عربيًا لأجل أن يُعقل: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[يوسف:٢]، والأصل أن الخطاب على ظاهره حتى يردَّ دليل على خلاف ذلك، لا سيما في شأن من يريد بالمُخَاطَبِ بالخير والإبانة والهداية، والله عَزَّ وَجَلَّ بين هذا في القران فقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[النساء:٢٦].

إذن الله عَزَّ وَجَلَّ، أراد بنا الخير وأراد لنا البيان والهداية، ولأجل هذا لا بد أن يكون الخطاب خطابًا واضحا ومعلوما ومفهوما، ولا بد أن يكون أيضًا على ظاهره، وإذا كان الخطاب على خلاف ظاهره، وظاهره يفيدُ ضدَّ ما يدل عليه ظاهره فإن هذا من التعمية، ومن الإلغاز، بل ومن الإضلال، هذه مسلمة لا ينبغي أن يختلف فيها.

إذن الواجب على المسلم إذا سمع أية أو حديثا فيهما شيءٌ من ذكر صفات الله، الواجب أن يعتقد أن الله متصف بهذه الصفة حقيقة على ظاهرها وهذا الذي أراد الله عَزَّ وَجَلَّ منا أن نعتقده، إذا سمعنا مثلًا قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:٥]، فإن الواجب علينا أن نعتقد أن الله عَزَّ وَجَلَّ بعد خلق السماوات والأرض استوى على العرش،

والاستواء معلوم في لغة العرب ألا وهو: العلو والارتفاع على الشيء، استوى على: علا وارتفع على الشيء.

هذا القدر هو الذي يجب علينا أن نثبته وأن نقف عنده، إذا زاد الإنسان على ذلك، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:٥]، نحن نثبت ذلك لكن كيف استوى؟

انتبه: بأن هذا السؤال محذور، قد علمنا في الدرس السابق على أن المسلم عليه أن يحذر من التكييف و التمثيل أو والتشبيه.

وقد سُئل الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا السؤال، قيل له: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، كيف استوى؟

فأطرق رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعلاه الرحضاء يعني: العرق، وذلك لعظمة هذا السؤال، ما كان يظن أن أحد يجرؤ على طرح مثل هذا السؤال في حق الله عَزَّوَجَلَّ، ثم رفع رأسه وقال: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة).

الاستواء غير مجهول، يعني: معلوم في لغة العرب ما هو.

والكيف غير معقول بالنسبة لنا؛ لأننا ما رأينا الله، ولا رأينا كيف يستوي حتى نحدِّث أو نحكي هذه الكيفية.

والإيمان باستواء الله واجب، لأن الله عَزَّوَجَلَّ أخبرنا بذلك، وتصديق الله فيما قال حتمٌ واجب.

والسؤال عن الكيف بدعة، وهذا ميزانٌ عام في جميع صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فلا يُقال كيف وجه الله، وكيف يد الله، وكيف غضب الله، لقلنا في ذلك كله ما قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صفة الاستواء.

هنا، قال لنا قائل: نحن مضطرون إلى أن نحمل هذه الصفات على خلاف ظاهرها، يعني: إذا ورد علينا قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:٥] أو ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[الفتح:٦] أو ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[المائدة:٥٤]، إلى أمثال ذلك من الصفات. نحن مضطرون إلى أن نحملها على خلاف ظاهرها، قلنا: ولم كان هذا الاضطرار؟ قال: لأن ظاهر هذه الصفات يقتضي التشبيه، والله منزه عن مشابهة خلقه، إذن يتعين علينا أن نؤول هذه الصفات ونحملها على خلاف ظاهرها، لتنزيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن مشابهة المخلوقات.

انتبه: هذه الشبهة هي أساس البلاء، وهي أساس الشر، حينما يظن الإنسان أن في كتاب الله ما يُوهم ظاهره خلاف الحق، بل ما يُوهم ظاهره الكفر بالله ﷻ، لأن التشبيه قد علمنا أنه كفر، من شبه الله بخلقه قد كفر.

إذن كتاب الله جل وعلا الذي أنزله هدى ونورًا مبينا وبشرى للمسلمين، صار سببًا لإضلالهم؛ لأن كثيرًا من ظاهرها الضلال، بل ظاهرها الكفر، وهذه قاعدة ومقدمة في غاية الخطورة، يخطئ خطأ عظيمًا من ظن أن ظاهر نصوص الصفات يقتضي التشبيه.

التشبيه مرضٌ يقع في النفوس التي لم تعظم الله ﷻ حق التعظيم، النفوس التي لم تقدر الله ﷻ قدره، وإلا فلا يمكن البتة أن يُخبر الله عن نفسه بما ظاهره الباطل، ولا يمكن أن يكون النبي ﷺ مخبرًا عن ربه بما ظاهره الباطل، هذا أمر مستحيل، ولا يكون هو من يستوعب لوازم ما يقول وهو مسلم.

إذن من الخطأ البين هذا الأمر، يجب أن تجزم ببطلان هذه المقالة السيئة، لا يوجد شيء البتة في الكتاب والسنة ظاهره التشبيه.

وأنَّى يكون ذلك وهذه الصفات مضافة إلى العظيم ﷻ، والصفة تناسب الموصوف هذا أمر يدركه جميع العقلاء، وإذا كان الموصوف وهو الله ﷻ ليس كخلقه ﷻ ليس كمثله شيء.

إذن لا بد أن تكون صفاته ليست كصفات المخلوقين، وهذا أمر مُسلمٌ وواضح في النصوص في الكتاب والسنة.

وإني لأعجب أشد العجب أن يقول قائل إن ظاهر نصوص الصفات تقضي التشبيه، هذه صفة مضافة إلى الله، فكيف تقتضي التشبيه!

انظر إلى عظمة الله ﷻ، وإلى عظمة صفاته ﷻ، فكيف تجرؤ بعد ذلك أن تقول ظاهر النص الذي جاء فيه هذه الصفة أنها توهم التشبيه، حينما يقول قائل وقد قيل من بعض الذين أخطئوا في هذا الباب، قالوا: إن إثبات اليد لله ﷻ يقتضي التشبيه؛ لأن اليد لا تُعقل إلا في المخلوق، فنحن ننزه الله ﷻ عن هذه الصفات.

ماذا نصنع في هذه النصوص التي فيها إثبات اليد لله ﷻ، كقوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح: ١٠].

قالوا: الأمر سهل ما علينا إلا أن نركب مركب ذلولًا سهلًا، يسمى: التأويل، نؤول هذه الصفة وانتهى الإشكال، نقول اليد يعني: القدرة، أو اليد تعني: النعمة، أول بما شئت والباب مفتوح، وقل ما شئت، واعبث بما شئت، فالأمر سهل.

المهم أن لا تثبت لله صفة اليد، لم؟ لأن اليد إذا أضفتها لله أوهمت المشابهة بالمخلوقين، سبحان الله العظيم!

أي تشبيه هذا لمن عَظَّمَ الله ﷻ أولا.

وآمن بالنصوص في الكتاب والسنة كما نزلت [ثانيًا].

اليد التي أضافها الله إلى نفسه يدٌ تليق به، لا كأيدي المخلوقين، ثم إنها موصوفة في النصوص بصفات تقطع عروق التشبيه من القلب، ألم ترَ أن الله ﷻ وصف هذه اليد التي أضيفت إليه بصفات لا يمكن أن يكون شيء من المخلوقين متصف بما يقرُب منها، ألم يقل الله ﷻ: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[الزمر:٦٧]

بالله عليكم! أريتم يدًا في المخلوقين تطوي السماوات أو تقبض الأرض؟

إذن كيف يجرؤ الإنسان فيقول: إننا إذا أضفنا اليد إلى الله ﷻ وقع عندنا لبس، أن تكون يد الله تشبه يد المخلوقين؟ أيقول هذا من عظَّم الله حق تعظيمه؟

ثم إننا نقول أيضًا: حينما تقول نحن لا نعقل في الشاهد من له يدٌ إلا وهو مخلوق، فنقول لك إذًا ماذا نصنع بهذه الآية؟ تقول: نؤولها، نقول يد الله يعني: قدرة الله، فنقول: أنت ما صنعت شيئًا أنت خرجت مما تزعم أنه تشبيه إلى ما يلزمك فيه التشبيه، لأنك إذا قلت إن اليد لا نعقلها إلا في مخلوق، فإننا نقول: والإرادة لا نعقلها إلا في مخلوق.

إذن أنت لم صنعت شيئًا سوى أنك عبثت بالنصوص وحرفتها عن وجهها، وإلا فما تقوله في اليد لازمٌ عليك في الإرادة، فإن قال لنا: لا، لا يلزمني لأني أقول أن الإرادة لائقة بالله لا كإرادة المخلوقين، فماذا نقول حينها؟ وكذلك اليد التي نثبتها لله لائقة به لا كيد المخلوقين.

إذن لا حاجة إلى أن تُحرِّف الكلم عن مواضعه، آمن بما أخبرك الله به تنتهي القضية، سلم وأذعن وسيهديك الله للحق كما قلنا القاعدة البينة :آمن تهتدي.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾[النحل:١٠٤]، مفهوم المخالفة: أن الذين يؤمنون بآيات الله يهديهم الله.

إذن الحق يا أيها الإخوة الجدل ها هنا ليس جدلًا عقليا، الإشكال أن هناك نقص في الإيمان، القضية قضية إيمانية، ولذلك تأمل قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾[غافر:٥٦].

إذن لا بد من إعادة هؤلاء المخطئين إلى الإيمان بالله، والتعظيم له ﷻ.

ثم إننا نقول أيضًا: إذا كان ظاهر نصوص الصفات يقتضي التشبيه، فإن لازم ذلك أن يكون الله ﷻ مدح نفسه بما ظاهره الذم.

التشبيه أو ما يقتضي التشبيه ذم أو مدح في حق الله؟!

حينما تكون الصفة المضافة لله تقضي مشابهته للمخلوقين، أهذا في حقه مدح أم ذم؟ هذا أعظم ذم.

مقتضى كلام هؤلاء أن الله أراد أن يمدح نفسه بأن له إرادة، فذمَّ نفسه ليمدحها، فهمتم هذا اللازم المهم؟

من المهم أن تفهمه، لازم كلام جميع المؤولة أن الله ﷻ ذم نفسه ليمدحها، أراد أن يمدح نفسه ويثني على نفسه بأن له إرادة، فذكر ما ظاهره الذم وما يفهم منه الناس الذم وما يفهم منه الناس النقص في حقه؛ لأجل أن يمدح نفسه، هذا وهو الذي لا أحد أحب إليه المدح منه ﷻ.

قال النبي ﷻ: «**لا أحد أحب إليه المدح من الله**» ولذلك أثنى على نفسه، وهل هذا يا إخوان يفعله من هو أجهل الجاهلين أن يمدح نفسه بذمها، فكيف بالحكيم العليم ﷻ! كيف تقولون هذا؟ هذا لا يمكن أن يرد لا يمكن أن يقوله أحد، بل الله ﷻ أثنى على نفسه بما ظاهره المدح والثناء، كل صفات الله فهي صفات عُلا بالغة في العلو والحسن غايته، ومن قال خلاف ذلك فقد ظن بالله ظن السوء، وظن السوء أمره خطير-سيأتي الكلام فيه لاحقًا إن شاء الله-.

ثم إننا نقول أيضًا لو كان ظاهر نصوص الصفات يقتضي التشبيه، والتشبيه نقص وعيب في حق الله ﷻ، نسألك يا أيها القائل بهذا سؤال، فنقول: هل كان النبي ﷺ يعلم أن الحق فيما أولتم إليه أم لم يكن يعلم؟

يعني: أكان النبي ﷺ حينما بلغ الأمة قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:٥] يعلم أن معنى استوى: استولى أم لم يكن يعلم؟

ما عندهم إلا واحد من اثنين: إما يعلم أو لا يعلم.

فإذا قال إنه لا يعلم وأنتم علمتم، إذن أنتم أصبحتم أعلم بالله من رسوله ﷺ، وهذا تكذيب لقوله عليه الصلاة «**أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية**» والحديث في البخاري.

إذن لا مناص لكم من أن تقولوا إنه كان يعلم.

إذن هذه واحدة، **خذها عندك وأمسكها لا تذهب**.

نطرح سؤالًا ثانيًا: فنقول أكان النبي بليغًا فصيحًا قادرًا على البيان والإيضاح بأن يخبر الناس، فيقول: يا معشر الناس يا معشر المسلمين انتبهوا، إنَّ قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:٥] بمعنى: استولى. عنده قدرة على أن يُفْصح أو ليس عنده قدرة؟!

إن قلت يا أيها المؤول: إنه ليس عنده قدرة بل كان عيًيا —وحاشاه– فهذا قدح في حكمه الله أولًا، حيث أرسل رسولًا لا يستطيع أن يبلغ ولا يستطيع أن ينصح ولا يستطيع أن يبّين، ولا شك أن هذا أمر خطير، ولا يقول به المسلم.

ثم ثانيًا هو قدح في النبي ﷺ، فقد اتهمه بالعجز عن البيان، وبالتالي فما فائدة إرساله؟ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[إبراهيم:٤].

ونحن نشهد أن النبي ﷺ أبلغ الناس، وأفصح من نطق بالضاد، وأعظم الناس قدرة على البيان، كيف وهو الذي أُوتيَّ جوامع الكلم ﷺ.

إذن لا مناص للمؤول من أن يقول إنه كان قادرًا على أن يفصح ويبّين.

إذن هذه ثانية أمسكها عندك.

نطرح سؤال ثالثًا فنقول للمؤول: ماذا تقول أكان النبي ﷺ حريصًا على هدايتنا، يريد بنا الخير، ويريد لنا الفلاح أم لا؟

إن قلت لا، لا يريد بنا الخير، ولا يريد لنا الهداية، فإنك تكون قد وقعت في حفرة عميقة من الضلال؛ لأنك قد تكون كذبت قول الله ﷻ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨].

إذن لا مناص من أن يقول إنه كان حريصًا علينا، رحيمًا بنا، يريد بنا الهداية.

إذن اجتمع في النبي ﷺ ثلاثة أمور مُسَلَّمَة لا شك فيها:

١/أنه كان أعلم الخلق بالله. ٢/أفصح الخلق. ٣/أحرص الناس على هداية الناس.

والسؤال الآن: مع اجتماع هذه الأمور الثلاثة ما الذي منع النبي أن يقول في الصفات ما قلتم يا معشر المؤولة؟!

إنَّ كل عاقل منصف لا يجد إلا أن يُذعن بأنه يستحيل مع وجود هذه الأمور الثلاثة أن يسكت النبي ﷺ عن البيان بأن هذه الآيات على خلاف ظاهرها.

وهذا ما لخصَّه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أبيات حسنة يقول:

فسل المعطل عن ثلاث مسائل ... تقضي على التعطيل بالبطلان

التعطيل في باب الصفات الذي وسيلته التأويل هذه الثلاثة أسئلة تقضي عليه.

ماذا تقول أكان يعرف ربه ... هذا الرسول حقيقة العرفان

[أم لا وهل حاز البلاغة كلها ... فاللفظ والمعنى له طوعان]

أم لا وهل كانت نصيحته لنا ... كل النصيحة ليس بالخوان

فإذا انتهت هذي الثلاثة فيه ... كاملةٍ مبرأة من النقصان

فلأي شيء عاش فينا كاتمًا ... للنفي والتعطيل في الأزمان

بل مفصحا بالضد منه حقيقة ... الإفصاح موضحة بكل بيان

ولأي شيء لم يصرّح بالذي ... صرحتم في ربنا الرحمن

ألعجزه عن ذاك أم تقصيره ... في النصح أم لخفاء هذا الشان

حاشاه بل ذا وصفكم يا أمة ... التعطيل لا المبعوث بالقرآن

إذًا الخلاصة التي أريد أن أصل إليها: أن تأويل نصوص الصفات وحملها على خلاف ظاهرها مسلك خاطئ باطل، بل الواجب أن نؤمن ونرتقب صفات الله، بما أخبر به على ما يليق به دون أن نكيف ذلك، مع اعتقادنا أن هذه النصوص تليق بالله ﷻ لا تشبه المخلوقين على حدِّ قوله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

فإن قال لنا قائل: أنا لا يزال في نفسي شيء حينما أضيف إلى الله ﷻ يد أو وجه أو قدم؟ وما جاء في السنة، أو أضيف على الله المحبة أو الغضب، كما جاء في القرآن، أجد في نفسي حرجًا من ذلك، إن إثبات ذلك لربنا ﷻ يجعله مثل المخلوقين عنده صفة مثل ما عند المخلوقين.

نقول: لو تأملت فيما سبق لزال عنك الشك.

ومع ذلك تنبه يا رعاك الله إلى جواب آخر لعله يفتح الأمر المغلق عليك، ألا وهو: أن تعلم أن وجود قدر مشترك في الصفة لا يعني المشابهة والتماثل، وجود قدر مشترك من الصفة بين الشيئين لا يعني أنهما متشابهان.

أضرب لك مِثالًا: حينما أقول كلمة رأس، انتبه.

كلمة رأس هذه يمكنني أن أضيفها إلى الإنسان فأقول: رأسُ إنسانٍ، أصبحت صفة له حقيقة أم لا؟ حقيقة

رأس الفيل، صفة حقيقة في الفيل أم لا؟ نعم.

رأس النملة، صفة حقيقة في النملة أم لا؟ نعم.

رأس الجبل، صفة حقيقة في الجبل؟ نعم.

رأس الإبرة؟ صفة حقيقة في الإبرة؟

إذن عندنا كام رأس الآن عندنا خمس رؤوس، رأس إنسان، وفيل، ونملة، وجبل وإبرة.

أسألكم سؤال: هل الرؤوس ها هنا متماثلة باعتبار أن الصفة واحدة أضيفت إلى ذوات مختلفة؟ واقتضى هذا المشابهة، أيقول هذا عاقل!

أيقول عاقل: إن رأس الجبل مثل رأس الإبرة، مئة بالمائة سواء، هنا رأس وهنا رأس أيقول هذا عاقل، أيقول عاقل أن رأس الفيل ما شاء الله كأنه رأس نملة، أيقول هذا عاقل؟

ألم تشترك هذه الذوات في صفة واحدة؟

قلنا انتبه: الاشتراك حصل في قدر مشترك، مع وجود قدر فارق، والذي يفهم هذه القضية يزول عنه أي إشكال.

عندنا أمران: قدرٌ مشترك وقدرٌ فارق، الذي بين هذه الذوات من الصفة قدرٌ مشترك رأس ورأس، لكنَّ الحقيقة والكنّه والكيفية قدر فارق مميز، كل ذات تميزت بصفة تختلف عن الصفة الأخرى، ولذلك لما اشتركت في صفة ما تماثلت.

وإذا كان هذا حاصلًا بين المخلوقات، فلأن يكون ذلك حاصلًا بين المخلوق والخالق من باب أولى.

أعيد: إذا كان مخلوق ومخلوق اشتركا في صفةٍ واحدة، ومع ذلك ما حصل التشابه، فلأن يكون هذا بين الخالق والمخلوق من باب أولى.

يعني: هذا الذي أشكل عليه الأمر هل يسمح أن نقول له ألك وجه؟

سيقول: بالتأكيد.

فنقول: إذن ما شاء الله وجهك مثل وجه القرد، أيقبل؟

أليس لك وجه وللقرد وجه؟ إذن بينكما تماثل، يقبل؟ لا يقبل، لا ينبغي لك أن تقول هذا، وجهي لا يشبه وجه القرد؛ لأن وجهي يليق بي والقرد وجهه يليق به.

أقول: إذا كان ذلك بينكما، وكلاكما مخلوق، فكيف بين المخلوق والخالق!!

كيف تقول إذا أثبتنا وجه لله عَزَّوَجَلَّ، كما قال عَزَّوَجَلَّ هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال هذا، ليس نحن الذين أضفنا هذه الصفة، ألم يقل الله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٧]، إذن لله وجه أم لا؟ هو أضاف إلى نفسه، فكيف تقول إننا إذا أضفنا الوجه لله عَزَّوَجَلَّ نكون قد شبهنا، ثم أنَّى يكون ذلك يا عبد الله؟!

وجه الله وجهٌ عظيم موصوف بالجلال والإكرام، كيف تقول هذا!!

والله عَزَّوَجَلَّ حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه، كيف تقول هذا!!

ولله عَزَّوَجَلَّ وجه له نور وبهاء، وهل للمخلوق شيء من ذلك!

إذن أعيد فأقول: وجود قدر مشترك في الصفة بين ذاتين ليس هو التمثيل الممنوع.

متى يكون التمثيل الممنوع؟ حينما يكون الاشتراك في القدر الفارق. يعني: في الكيفية، والكنّه، والحقيقة.

فإن قال قائل: وجه الله كوجه المخلوق؟ نقول هنا؟ أنت مثلت، أنت شبهت والتشبيه منكرٌ عظيم بل كفر بالله، لكن حينما نقول لله وجه يليق به وللمخلوق وجه يليق به، فإنه يكون بريئًا من التشبيه والتمثيل.

إذن هذا من الأمر المهم الذي ينبغي على كل مسلم أن يُذعن له، وأن يعتقده في حق صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وبذلك إن شاء الله تزول هذه الإشكالات التي ترد على موضوع الأسماء والصفات.

وقد أحسن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما قرر في ((طريق الهجرتين)) فيما يتعلق في فهم هذه القاعدة المهمة، وهي: قاعدة القدر المشترك، والقدر الفارق.

قال: (هذه عقدة الناس فمن حلها فما بعدها أيسر منها).

من يفهم هذا الموضوع المهم وهو قدر مشترك ووجود قدر فارق يزول عنده الإشكال، ولذلك تأمل معي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ هذه صفة لله وهي الشهادة: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾[آل عمران:١٨].

الله عَزَّ وَجَلَّ في هذه الآية أثبت الشهادة لثلاثة: لذاته العلية عَزَّ وَجَلَّ، وللملائكة، وأولي العلم.

الآن دعنا في الملائكة وأولي العلم، هل شهادة الملائكة وأولي العلم متفقة في الحقيقة والكمنه والكيفية أم مختلفة بحيث الذوات؟

فأولوا العلم يشهدون شهادة تناسب ذواتهم، والملائكة يشهدون شهادة تناسب ذواتهم، وذات الملائكة ليست مشابهة لذوات أولي العلم.

إذن حصل قدر مشترك هو: كلمة شهادة، وحصل قدر فارق وهو: الحقيقة والكنه والكيفية.

إذا كان هذا ثابتًا بين مخلوق، فلأن يكون هذا ثابتًا بين المخلوقين والخالق من باب أولى.

الله عَزَّ وَجَلَّ أثبت هنا قدر مشترك مع ثبوت القدر الفارق، فلله كشهادة تليق به لا كشهادة المخلوقين؛ لأن الله قال ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾[الشورى:١١]،﴿هل تعلم له سميا﴾ ﴿ولم يكن له كفوًا أحد﴾[الإخلاص:٤].

ثبوت القدر المشترك لم يكن منا، الله هو الذي أثبته.

تأمل قول الله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[غافر:٣٥].

الله ﷻ أضاف ها هنا الصفة الواحدة إلى ذاتين إلى ذاته العلية وللذين آمنوا وهي: صفة المقت، المقت: أشد البغض، والله ﷻ يمقت، والذين أمنوا أيضًا يمقتون، من الذي أثبت ذلك؟ الله الذي أثبت هذا، أنه يمقت، والمخلوقون يمقتون، فهل كان هذا تمثيلًا، أيقول هذا مسلم؟

مع ذلك نحن نعتقد ونثبت أن مقت الله لا كمقت الذين آمنوا، لله مقت يليق به، وللمخلوق مقت يليق به.

خذ مثلًا: قال ﷻ: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[القصص:٧٧].

إذن الله ﷻ يحسن، والمخلوق يحسن، هناك قدر مشترك في أصل الصفة وهي: الإحسان مع ثبوت قدر فارق، فإحسان الله ﷻ يليق به لا كإحسان المخلوق، وللمخلوقين إحسان يليق بهم لا كإحسان الله، وبذلك أثبتنا الصفات ونزهنا الله عن مشابهة المخلوقين.

إذن منهج أهل السنة والجماعة إثبات لا يُبالغ فيه حتى يصل إلى درجة التمثيل، وتنزيه لا يبالغ فيه حتى يصل إلى درجة التعطيل والتحريف، إنما هو منهج وسط يلخصه قول الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

لاحظ أن: قاعدة القدر المشترك والقدر الفارق موجودة في هذه الآية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ دلت على: ثبوت القدر الفارق، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ دلت على: ثبوت القدر المشترك.

ولحكمة يعلمها الله، وقد تكون ما أقول: إن الله أضاف إلى نفسه في هذا الموضوع صفتين لا يكاد يخلو منهما حي السمع والبصر، مع أن السمع ليس كالسمع، ولا البصر كالبصر، ولا السميع كالسميع، ولا البصير كالبصير، لله سمع وبصر، وللمخلوق سمع وبصر، الله قال ها هنا: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]، وهو الذي قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[الإنسان:٢]. إذن ثبتت الصفة له ﷻ وثبتت الصفة للمخلوق مع أن الله ليس كمثله شيء.

٦١

٦١- باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات

(المجلس الثالث)

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بابٌ: من جحد شيئا من الأسماء والصفات

لا نزال في هذا الباب الذي عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضوع الأسماء والصفات وقلت -في الدرس قبل الماضي- إن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ خصَّ موضوع خص هذا الموضوع في كتابه في ثلاثة أبواب:

١/هذا الباب الذي بين أيدينا[بابٌ: من جحد شيئا من الأسماء والصفات].

٢/باب قول الله تعالى: (ولله الأسماء الحسنى).

٣/وباب قول الله تعالى: (وما قدروا الله حق قدره).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ : بابٌ من جحد شيء من الأسماء والصفات، أي ما حكمه؟

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيرًا في تبويبه كثيرا على نهج الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((صحيحه))، وأنت خبير بأن مثل هذا التبويب الذي بين أيدينا قد أكثر منه البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((الصحيح)).

لا شك أن من جحد شيء من أسماء الله وصفاته، أي: عطَّلها وأنكرها لاشك أنه يكون كافرا بالله ﷻ، هذا هو الحكمُ من حيثُ الأصل، ذلك أنَّ جحد شيءٍ من أسماء الله وصفاته هو في حقيقته تكذيب للكتاب والسنة، وهذا كفر باتفاق العلماء، ومر بينا غير مرة قول معين بن حماد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف به نفسه فقد كفر".

وجحد أسماء الله وصفاته إرث من إرث المشركين، وبئس الإرث وبئس المورِّث، ذلك أن جحد شيء من الأسماء والصفات هو في حقيقته من ظن السوء بالله ﷻ، وهذا ما كان عليه أهل الشرك، ولذلك الله ﷻ توعدهم على ذلك بوعيد شديد قال ﷻ: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾[الفتح:٦] لاحظ هذا الوعيد: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[الفتح:٦]، هذه التهديدات الأربعة مما يطير له قلبُ المؤمن خوفًا وفرقًا، من ظن بالله هذا الظن ظن الجاهلية وظن السوء فإنه مُتَوَعَدٌ بهذا الوعيد الأكيد من ربنا ﷻ، ومما يدلك على أن جحد شيء من أسماء الله وصفاته هو من هذا الظن، ظن السوء بالله

قوله ﷻ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[فصلت:٢٢-٢٣]، فدل هذا على أن هؤلاء المشركين الذين جحدوا علم الله ﷻ بما يعملون، دلت الآية على أن هذا من الظن السيئ الذي أرداهم، فدلَّ هذا على أن جحد شيء من الأسماء والصفات هو من هذا الظن الذي ورثته الفرق الضالة عن هؤلاء المشركين.

والفرقُ التي انحرفت في هذا الباب كثيرة ومتفاوتة، ظلمات بعضها فوق بعض، منها:

من جحد جميع الأسماء والصفات ولم يثبت لله شيئًا إلا الوجود بشرط الإطلاق.

ومعلومٌ عند جميع العقلاء أن الوجود المطلق ليس إلا في الأذهان وليس في الحقائق والأعيان، فهم في حقيقتهم جاحدون لله ﷻ بالكلية، ولذلك أجمع العلماء على كفر هؤلاء، ولذا لم يشفع لهم شيء من شبهاتهم، وبالتأكيد عندهم شبهات لكنها شبهات داحضة، لا ترقى لأن تدفع عنهم تكفيرهم.

ومن أولئك من كان أقل شرا فجحد صفات الله وأثبت أسماء جوفاء لا معاني تحتها، أثبتوا أسماء؛ الله عندهم سميع لكن بلا سمع، بصير بلا بصر، عليم بلا علم، وهكذا.

ودون هؤلاء وأخفُّ منهم شرًا من أثبت الأسماء وبعض الصفات، وجحد بعضا أو كثير منها، وهم في هذا بين مقل ومكثر، المقصود أن جحد شيء من أسماء الله وصفاته لا شك أنه منكر عظيم وذنب كبير يجب على كل مسلم أن يحذر منه.

الواجب أن يتلقى الإنسان ما جاء في الكتاب والسنة التي من أسماء الله وصفاته، أن يتلقى هذا بالقبول والتسليم والمحبة، وأن يتقرب إلى الله ﷻ بالتعبُّد بهذه الأسماء، هذا من المهمات ومن الواجبات التي تلزم كل مسلم ومسلمة، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾[الرعد: ٣٠] الآية

أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هذه الآية، أن من صنيع المشركين أنهم يكفرون باسم الله (الرحمن)، وهذا منهم من جملة كفرهم، من جملة كفر المشركين أن كفروا باسم الله (الرحمن)، تدل على أن من جحد شيء من أسماء الله وصفاته فإنه يكون كافرا بذلك متابعا للمشركين.

والواقع أن هذه الآية اختلف أهل العلم فيها هل المشركون كفروا بالاسم أو بالمسمى؟ هل كان كفرهم باسم الله الذي هو (الرحمن)، أو كان كفرهم بالله الذي من أسماءه الرحمن؟

قالت طائفة بما قال فيهم إمام الدعوة المؤلف رحمه الله، وظاهرٌ أن المؤلف ما أورد هذه الآية ها هنا إلا وهو يرجح أن كفر المشركين ما هو بالاسم، وليس المراد أنهم يكفرون بالمسمى.

وذهبت طائفة من أهل العلم إلى أن الكفر ها هنا كان كفر بالمسمى وهو: الله ﷻ، يعني: وهم يكفرون بالله، ومعلوم بالضرورة أن المشركين في عهد النبي ﷺ كافرون بالله.

ويبقى بعد ذلك السبب في ذكر هذا الاسم بالذات وهو اسم (الرحمن)، مما تلمسه بعض أهل العلم في حكمة ذلك:

أن المشركين كفروا بالله ﷻ وببعثة النبي ﷺ، وبآيات الله التي أُنزلت على النبي ﷺ، ولا شك أن إنزال القران وبعثة النبي ﷺ من رحمة الرحمن ﷻ، فهم قابلوا هذه الرحمة بالكفران، فناسب أن يؤتى ها هنا باسمه تعالى الرحمن.

ومهما يكن من شيء، فالذي يظهر والله تعالى أعلم أن القول الثاني أقرب.

وذلك أننا إذا نظرنا إلى سياق الآيات وجدناه يؤيد هذا القول، قال: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾[الرعد: ٣٠]، ثم قال تعالى بعد ذلك: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[الرعد: ٣٠].

لاحظ أن الشأن في التقعيد على مقالة هؤلاء التي هي الكفر بالرحمن كان بإثبات التوحيد: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾، وهذه مقدمة مُلْزِمة لهم؛ لأنهم لا ينكرون ربوبية الله ﷻ في

الجملة، فألزمهم بهذا على المدلول، كان هذا دليلًا على مدلول وهو أن الله لا إله إلا هو، قال: ﴿هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

ثم أتى بنوعين رفيعين من أنواع العبادة: وهما التوكل والتوبة.

ولاحظ أيضا كيف أنه جيء ها هنا بأسلوب القصر وذلك أن تقديم الجار والمجرور يفيد الحصر، والقصر في كلا الجملتين: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[الرعد:٣٠] يعني: أتوكل عليه لا على غيره، وأتوب إليه لا إلى غيره، فدل هذا على أن المقام رجع إلى الشأن الذي ينكره هؤلاء وهو: الألوهية، وليس الأسماء والصفات.

إذًا الأقرب والله أعلم أن قوله تعالى: ﴿كذلك أرسلناك﴾ ثم قوله: ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾.

أن قوله تعالى: ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾ حالٌ من قوله: ﴿كذلك أرسلناك﴾ يعني: أرسلناك، والحال أنهم يكفرون بالرحمن.

وعلى كل حال مهما قلنا في شأن الترجيح ها هنا، فإن مما لا شك فيه أن مشركي قريش كان يكفرون باسم (الرحمن)، سواء رجحنا أن هذه الآية أراد فيها الكفر بالاسم، أو الكفر بالمسمى، فإن مما لا شك فيه أن المشركين كانوا يكفرون باسم الله الرحمن، يدل على هذا دلالة صريحة قول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾[الفرقان٦٠].

لاحظ أنهم قالوا ها هنا ﴿وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾ وما قالوا (ومن الرحمن)؟

فدل هذا على أنهم لا ينكرون الله ﷻ وإلا لقالوا (ومن الرحمن)، لكنَّ إنكارهم رجع إلى الاسم، فلذلك قالوا: ﴿وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾ ، فدل هذا على أنهم ينكرون اسم الله الرحمن.

يدل على هذا أيضًا ما ثبت عند ((البخاري)) في قصة الحديبية والحديث طويل وفيه أن سهيل ابن عمرو لما كان يعاقد النبي ﷺ على الصلح، قال النبي ﷺ للكاتب –وهو علي رضي الله عنه–: «اكتب باسم الله الرحمن الرحيم» عند البخاري قال سهيل: والله لا أدري ما الرحمن، ولكن اكتب باسمك اللهم.

تلاحظ أنه أنكر وهو على دين قومه اسم الله الرحمن، فدل هذا على أنهم كافرون باسم الله الرحمن.

والسؤال ها هنا: هل إنكارهم هذا الاسم عن جهل أو عن تجاهل؟

قال بعض أهل العلم كان هذا الإنكار منهم عن جهلٍ، واختلفوا، قال بعضهم:

أنهم أنكروا الاسم؛ لأنهم لا يعرفونه؛ لأنه اسم عبرانيٌّ لا عربي، ليس من الأسماء العربية إنما هو عبراني، وهذا القول ضعيف جدًا، بل هذا الاسم الجليل اسمٌ عربيٌّ لا شك فيه، وصيغة فعلان في اللغة تدل على: التعظيم والامتلاء، الرحمن عظيم الرحمة وكثير الرحمة، فالاسم عربي لا شك فيه، والقوم عرب ويعرفون معنى هذا الاسم.

وقال بعضهم: إنما أنكروا؛ لأنهم ما كانوا يعرفون هذا الاسم لله، إنما عرفوه لما أو إنما سمعوا به لما تكلم به النبي ﷺ، وأما قبل ذلك فهم لا يعرفونه؛ وهذا أيضا ضعيف، بل هذا الاسم كان معروف عند أهل الجاهلية ومشهور عندهم أيضا وموجودٌ في نثرهم وفي شعرهم.

وفي الشعر المشهور المنسوب إلى حاتم الطائي:

كلوا اليوم من رزق الإله وأبشروا   فإن على الرحمن رزقكمُ غدا

ونسب هذا البيت إلى غيره، كذلك في البيت المشهور من الأبيات الجاهلية:

أَلَا ضَرَبَتْ تِلكَ الفتاة هَجِينَهَا   أَلَا قضَبَ الرَّحْمَنُ رَبِّي يَمِينهَا

إذًا كانوا يعرفوا اسم الرحمن، والشواهد على هذا كثيرة.

إذًا غير صحيح أن يقال أن الرحمن اسمٌ مجهول عندهم ما عرفوه إلا من طريق النبي ﷺ ولذا أنكروه.

وقال بعضهم: إنما أنكروه؛ لأن القوم ما كانوا يعرفون الرحمن إلا مسيلمة الكذاب لأنه -قبحه الله- تسمى بـ(رحمن اليمامة)، ولأجل هذا أنكروه، أنكروا أن يكون هذا اسم لله لأن معروف ومشهور اسم لذاك الكذاب، وهذا أيضا ضعيف؛ لأن القوم سمعوا هذا الاسم وعرفوه قبل أن يخرج مسيلمة بمدد متطاولة، فكيف يقال إنهم اشتبه عليهم الأمر فظنوا أن الرحمن إنما هو مسيلمة! هذا لا شك أيضا أنه غير صحيح.

والصواب والله تعالى أعلم: أن هذا الإنكار منهم كان عن تجاهل لا عن جهل، وكان عن تعنت منهم وعناد، والله سبحانه وتعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي صحيح البخاري؛ قال علي رضي الله عنه: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟!».

هذا الأثر عن علي رضي الله عنه أثرٌ فيه توجيه يحتاجه الدعاة إلى الله وطلاب العلم، وجاء في لفظ عند البخاري: «أتحبون أن يكذب الله ورسوله» وجاء في خارج الصحيح: «حدثوا الناس بما يعرفون ودعو ما ينكرون» هذا الأثر تذرَّع به بعض الناس للقول بأن أحاديث الصفات لا ينبغي تحديث العامة بها، يقول هؤلاء أحاديث الصفات، يعني: الأحاديث التي ورد فيها صفات الله عز وجل لا ينبغي تحديث العامة بها؛ لأن علي رضي الله عنه يقول: (حدثوا الناس بما يعقلون أتحبون أن يكذب الله ورسوله).

ولا شك أن هذا غير صحيح، وليس هذا مراد علي رضي الله عنه.

ولو سلمنا جدلا بأنه مراده، فماذا سنصنع إذًا بآيات الصفات! وهي التي تتلى على الناس آناء الليل وأطراف النهار، هل سنقول للأئمة كفوا عن قراءة الآيات التي فيها شيء من صفات الله عز وجل ؟ وكتاب الله سبحانه وتعالى مليء من ذكر هذه الصفات، هذا مما لا يمكن أن يقول به أحد، فدل هذا على أن هذا المسلك غير صحيح، بل أحاديث الصفات وآيات الصفات مما ينبغي بثه ومما ينبغي نشره ومما ينبغي أن يوصل إلى الأسماع والقلوب، فإن بذلك تحقيق التوحيد وتعظيم الإيمان في النفوس، لا شيء يوصل إلى الله عز وجل مثل طريق أسماءه وصفاته، أعظم طريق يوصل إلى الله عز وجل هذه الطريق، صاحب هذه الطريق حيزت له السعادة وهو مستلقٍ على فراشه، الذي يصل إلى الله عز وجل من خلال التعبد والتأمل في أسماء الله وصفاته، فليبشر بكل الخير، حيزت له السعادة من أطرافها.

إذًا ما الذي أراده علي رضي الله عنه؟ أراد رضي الله عنه أنه ينبغي على من يحدث الناس أن يسلك معهم مسلك الحكمة في باب الصفات وفي غير باب الصفات، بمعنى: أنه يخاطبهم بالخطاب الذي يفهمون، لا ينبغي أن يُهْجَّمَ عليهم بالمسائل هجومًا وهي تحتاج إلى ذكر مقدمات

وممهدات، تحتاج إلى تأصيل يُسبق، تحتاج إلى أن تُشرح شرحًا مسهلًا، تحتاج إلى أن يجتنب فيها بعض الدقائق التي تناسب طلاب العلم ولا تناسب العامة.

هذا كله وغيره يرجع إلى شيء واحد مجموع في كلمة واحدة وهي: الحكمة.

لابد لطالب العلم ولابد للداعية لله ﷻ من سلوك مسلك الحكمة في إيصال الخطاب الشرعي، تعلق بالصفات أو تعلق بالأحكام أو تعلق بالأخلاق أو تعلق بغير ذلك، لابد أن يتكلم بخطاب مفهوم وأن ينبه إلى الشيء الذي يحتاجه الناس ويهمهم، ليس كلُّ مسألة تصلح أن تُطرح على كل أحد.

ولذلك في مقدمة ((مسلم)) عن ابن مسعود رضي الله عنه وهي كلمة عظيمة تضارع هذه الكلمة وينبغي أن تضم إليها وألا تغيب الكلمتان عن ذهن طالب العلم الداعية إلى الله: قال رضي الله عنه -أعني ابن مسعود-: (إنك ما حدثت قوم حديث لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة).

إذًا ما قد يفعلوه بعض الناس من أنهم يرمون المسائل رميا كيفما اتفقت على أسماع الناس دون تبصرٍ في أحوالهم، هل هذا مما يليق أن يُطرح عليهم بهذا الأسلوب؟ أو ينبغي أن يُتريث ويقدم قبله بما هو أهم، ثم أنْ يؤصل الموضوع بذكر مقدمات حتى يستوعب المراد، حتى لا تختلَّ عليهم الأمور؛ معلوم أن الناس أعداء ما جهلوا:

أتانا أن سهلا ذم جهلا علوما ليس يعلمهن سهلا

علوما لو دراها ما قلاها ولكن الرضا بالجهل سهل

الإنسان ما أسهل ما يدفع ما لا يعلم، ولذلك العامة ربما يقعون في شيء من جحد أمور ثابتة في الشريعة؛ لأنها وصلتهم بطريقة فيها رعونة وعدم مراعاة للمصلحة، لاسيما في الأماكن والأزمان التي تضعف فيها أنوار السنة ويكثر فيها الجهل بالشريعة.

إذًا ها هنا يتعين على الداعية إلى الله ﷻ أن يسلك المسلك الشرعي الحكيم في الكلام عن الأمور.

العلم بالجملة ينقسم إلى أمور: ١/ محكمات واضحات. ٢/وإلى مسائل دقيقة.

المحكمات الواضحات لا إشكال فيها ولله الحمد.

أما الدقائق فإنها تنقسم إلى قسمين:

١/دقائق تهم العامة. ٢/ودقائق لا تهمهم.

الدقائق التي لا تهمهم: كالتفاريع المتعلقة بالردود على المخالفين، وهم ليسوا أهلا للخوض في هذا الباب، فمثل هذه لا ينبغي أن يُشغلوا بها، إنما يعطون تصورات عامة حتى يعرفوا الحق والباطل، ويلتزموا الحق ويجتنبوا الباطل.

أما الدقائق التي تهمهم ولاسيما إذا كان الشر قريب منهم وهم بحاجة أن يحذروا، فمثل هذه ينبغي أن تصل إليهم ولكن بالأسلوب الحكيم وبالطريقة التي يفهمونها.

العلم الذي يصل إلى الصغير لا ينبغي أن يكون في أسلوبه كالذي يصل إلى الكبير، كذلك الذي يصل إلى العالم أو طالب العلم ليس كالذي يصل إلى العامة، وهكذا.

إذًا على الإنسان الذي يروم أن يكون مُبلِّغاً لشرع الله ﷻ أن يسلك هذه الطريق الحكيمة في إيصال وسائل العلم، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه، عن ابن عباس؛ أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثا عن النبي ﷺ في الصفات؛ استنكارا لذلك فقال: «ما فَرَقُ هؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه». انتهى

أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الأثر عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا بعد أثر علي رضي الله عنه من أحسن ما يكون فإنك إن جمعت بين الأثرين اتضح لك أن ما يشغب به بعض الناس من التهويل من التحديث بأحاديث الصفات ليس صحيحًا، هذا ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وهو حبر الأمة كان يحدِّث بأحاديث الصفات، وهذا الأثر كما ترى في غاية الصحة، إسناده في غاية الصحة ولم يكن يتوقى تحديث الناس بصفات الله ﷻ الواردة في سنة النبي ﷺ.

حدَّث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا مرة بحديث جاء فيه ذكر شيء من الصفات، فكأن هذا الحديث قد استشكله هذا الرجل فارتعد، كأنه أصابه شيءٌ من الفزع والإشكال لسماع هذا الحديث، ها هنا قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ما فَرَقُ هؤلاء؟ هذه الكلمة المشهور فيها (فَرَقُ) يعني: ما الذي أفزع هؤلاء؟ وما الذي أخاف هؤلاء؟

وبعضهم يذكرُ هذه الكلمة بضبطٍ آخر (ما فَرَّقَ هؤلاء؟) أو ما (فَرَقَ هؤلاء؟) كلاهما بمعنى واحد.

الأول ما هو؟ ما فَرَقُ هؤلاء.

والضبط الثاني: ما فَرَّقَ هؤلاء أو ما فَرَقَ هؤلاء، يعني: ما فرقوا بين الحق والباطل، فاختلطت عليهم الأمور، الموفق هو الذي يكون عنده فرقان: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾[الأنفال:٢٩]، يفرق بين الحق والباطل، يبصر الهدى واضحا جليا، ويبصر الضلالة واضحة جلية.

إذًا هذا ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول:(ما فَرَقُ هؤلاء؟! يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه).

هذه المسألة مهمة، وهي: مسألة الإحكام والتشابه.

أولا: ينبغي علينا أن نعلم أن النصوص قد جاءت في الإحكام والتشابه على أنحاءٍ مختلفة:

١/ أنَّ القرآن كُلَّهُ متشابه كما قال ﷻ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾[الزمر:٢٣] القرآن كله متشابه، والمعنى: أنه يشبه بعضه بعضا، ويُصَدِّقُ بعضه بعضا، ليس فيه اختلاف أو تنافر أو اضطراب أو تناقض.

٢/ أيضًا الكتاب كله محكم، كما قال ﷻ: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾[هود:١]، والإحكام ها هنا بمعنى: الإتقان، فهو كتابٌ متقن لفظًا ومعنى.

٣/ والقرآن منه محكم ومنه متشابه- وهذا هو محور حديثنا الآن- كما أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة آل عمران: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[آل عمران:٧].

فالإحكام بمعنى: الوضوح، والمحكم بمعنى: الواضح، وهذا عامة القرآن لعامة الناس.

ومنه متشابه، والتشابه ها هنا بمعنى: الغموض، يعني: هناك أشياء يغمض فَهْمُ معناها ويخفى فهم معناها، ولكن انتبه إلى أن التشابه ها هنا تشابهٌ نسبي وليس تشابها مطلقا، بمعنى: أنه يمكن أن يكون في القرآن شيء يخفى معناه على بعض الناس في بعض الأحوال، وليس فيه شيء يخفى على كل الناس في كل الأحوال، غير موجود في القرآن ولا يمكن أن

يوجد في القرآن، لم؟ لأن الله ﷻ أمر بتدبر كتابه وذم من لم يتدبر كتابه، ألم يقل الله ﷻ: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾[ص:٢٩]؟

ألم يذم الله من لم يتدبر القرآن: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد:٢٤]؟

إذًا لا يمكن أن يكون في القرآن شيء غامض مطلقا، بمعنى: خفي ما أحد يعرف معناه، هذا مستحيل؛ إنما ممكن كلمة أو آية أنا أجهلها لقلة علمي، ولكن يمكن أن أسأل العلماء، أو أقرأ في الكتب فأعلم المعنى.

إذا هو تشابهٌ بالنسبة لبعض الناس في بعض الأحوال.

والواجب على المسلم أن يؤمن بالقرآن كله ما فهمه وما جهله، أن يُسَلِّمَ بالآيات جميعا ما كان منها محكما عنده أو وقع عنده شيء من الاشتباه، ولا يجوز بحالٍ أن يكون وقوع شيءٍ من الإشكال أو شيءٍ من الخفاء بالنسبة له بشيء من معاني القرآن سببًا لنفوره من الحق، أو طعنه في القرآن، أو وقوع ريبٍ في قلبه، هذا مسلكٌ باطل، هذا مسلك الضالين المنحرفين الذين في قلوبهم زيغ كما قال ﷻ عنهم في سورة آل عمران.

إذًا كلُّ ما جاء في القرآن يجب عليك التسليمُ به والقبول به، فهمت معناه أو لم تفهم معناه.

وثق أنك إذا آمنت وسلمت فسيفتح الله ﷻ على قلبك ما أغلق، ستفهم معنى ما جهلت، تأكد أنك إذا سلمت وأقبلت برغبة ومحبة في معرفة الحق الله ﷻ سيفتح عليك.

إذًا ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ينكر على هذا الذي يقبل ويجد رقة في قلبه وإقبال على الحق، إذا سمع شيء يفهمه ولكن إذا جاءه شيء يشكل عليه أو لم يفهمه لضعف علمه هو، أنه ربما أثار عنده شيء من الإشكال والريب! فهذا ما لا ينبغي أن يكون عليه حال المسلم.

هنا أريد أن أقف وقفة، ربما يقول قائل: أنت الآن تدعي أنه ليس بالقرآن شيء مجهول مطلقا، مجهول المعنى، ولاحظ أنا أتكلم عن المعاني ولا أتكلم عن الكيفيات، الكيفيات بالنسبة لمسائل الغيب مجهولة عندنا قطعا أليس كذلك؟ الغيب الذي تعلق بصفات الله ﷻ أو تعلق بأمور الآخرة، كيف صفة الله ﷻ؟ وكيف هي أحوال اليوم الآخر؟

هذه بالنسبة لنا مجهولة، نحن لا نتحدث عن هذه نحن نتحدث عن المعاني، وأنا أقول وأكرر ليس في القرآن شيء مجهول المعنى مطلقًا.

فإن قالوا لي كيف لك أن تقول هذا وعندنا آيات كثيرة تسمى: الحروف المقطعة في أوائل بعض السور ولا أحد يدرك معناها، ها هي من المتشابه المطلق، أليس في القرآن (ألم)، (حم)، (كهيعص)؟ فسر لي هذه الكلمات حتى تكون قاعدتك قاعدة صحيحة.

والجواب عن هذا أن يقال: نحن نتحدث عن الكلام، وكل عاقل يدرك أن المعنى إنما يطلب للكلام لا للحروف، لا يوجد عاقل يقول ما معنى هذا الحرف لا في اللغة العربية ولا في غيره، إذا قال قائل ما معنى (ألم)؟ مباشرة سأقول له: ما معنى (ب ت ث ج ح خ) ؟ أنا مستعد أن أعطي جائزة كبرى لمن يخبرني معنى: (ب)، هل يستطيع أحد، أو أن المعنى يطلب للكلام المؤلف من هذه الحروف؟ الكلمات المؤلفة من الحروف هي التي يطلب لها معنى.

أمَّا الحروف من حيث هي لا أحد يطلب لها معنى لا (أ) ولا (A) ولا (B) ولا أي شيء في أي لغة أليس كذلك؟ هل هذه الآيات نحن نقرأها على أنها كلمات أو حروف؟ يعني هل نحن نقرأ (كهيعص) (حم) (الم) أجيبوا؟ أو نقرأها ألم؟ نحن نقرأها حروف، إذا كنا نقرأها كلمة (كَهَيْعَص) لكان الإيراد وارد علينا، لكن هذا ليس بالصحيح.

إذًا هذه حروف، والحروف لا يُطلب لها معنى، إنما نحن نتحدث عن الكلام الذي يطلب العاقل له معنى، وهذا لا شيء في القرآن مجهول المعنى مطلقا، لا آيات الصفات كما تقول المفوضة ولا غيرها، هذا المسلك مسلك باطل غير صحيح، وهو: أن يقال أن نصوص الصفات من المتشابه الذي هو متشابه مطلق لا أحد يدرك معناها.

نحن نقرأ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥]، نغمض أعيننا وعقولنا عن أن تتفكر في معنى: استوى، هذه كلمة مثل الألغاز التي لا ندري ما هي هذا لا شك أنه باطلٌ غير صحيح، بل نصوص الصفات معانيها معلومة في أصل الوضع اللغوي، وكان أصحاب النبي ﷺ إذا سمعوا صفات الله سبحانه وتعالى لم يقفوا عندها، ولم يقولوا عندها هذه مجهولة، ونسلم، والله أعلم بمراده، ويمشون، أو يقعون في شيءٍ من الارتباك أو القول إنها موهمة للتشبيه- كما قلنا في تفصيل هذا في درس أمس- كل هذا من المسالك الباطلة لا شك.

هؤلاء الذين يقولون بمذهب التفويض ويزعمون أن هذه الآيات مجهولة المعنى، لماذا يقولون هذا؟ يقولون: لأنَّ ظاهرها يفيد التشبيه وبالتالي لها مرادٌ خلافُ الظاهر، ولكن نحن لا ندري ما هو ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:٥]، ألم يستوي حقيقة؟ ما معنى هذه الكلمة؟ يقولون الله أعلم ما ندري وهذا ليس بصحيح.

لماذا أنتم هربتم من إثباتها؟ قالوا لأنها ماذا؟ توهم التشبيه.

وقلنا: أن هذا باطل، بل من أبطل الباطل. أصحاب النبي ﷺ تلي عليهم القرآن من أوله إلى آخره وسمعوا حديث النبي ﷺ من أوله إلى آخره وما استشكل واحد منهم قط، وعددهم أكثر من مائة ألف صحابي، ولا واحد استشكل آية أو حديث جاء فيه شيء من الصفات، ولا يمكن لإنسان أن يقول خلاف هذا، وإن قال خلاف هذا قلنا هات الدليل ولن يستطيع.

كانوا يسمعون من النبي ﷺ وهو يخبرهم أن الله ينزل إلى السماء إذا بقي ثلث الليل الآخر، وما قال أحد قط يا رسول الله هذا الحديث مُشْكِّل، هذا يوهم التشبيه، سمعتم شيء من هذا من أحد الصحابة؟ حاشا وكلا، بل والله كان إيمانهم يزداد ويَعْظُم تعظيمهم لله عز وجل بسماعهم هذه النصوص.

في مسند أحمد من حديث أبي رزين العقيلي، والحديث فيه بحث وحسنه بعض أهل العلم، مما قال النبي ﷺ: **«ضحك ربنا من قنوط عبده وقرب غيره»** يعني: تغييره للأحوال وتفريجه للهموم، الحديث فيه: إثبات صفة الضحك لله عز وجل، ماذا كان موقف الصحابة لما سمعوا هذا الحديث، **«قال أبو رزين العقيلي رضي الله عنه: «أو يضحك ربنا؟ قال النبي ﷺ: قال: لا عدمنا من رب يضحك خيرا»** ماذا قال؟ لا عدمنا من رب يضحك خيرا، نبشر بالخير إذا كان ربنا متصف بهذه الصفة، فهذا والله يزيدنا رجاء فيه سبحانه وتعالى.

انظر إلى القلوب المؤمنة لما وصلها شيء من صفات الله عز وجل كيف أنها زكت وزاد إيمانها.

إذًا المشكلة راجعة إلى القلوب، هناك قلوب فيها مرض هي التي تستشكل وهي التي يقع فيها التشبيه أو زعم التشبيه، أما القلوب المؤمنة فهي مسلمة من هذه الأدران، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمن أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠]

هذا الأثر الذي فيه ذكر سبب نزول الآية التي صدَّر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أدلة الباب بها، جاءت من روايات متعددة، وهي موجودة بكثرة في كتب التفسير، ولكن لم أقف على إسناد صحيح موصول لها، ولكنَّه على كل حال أثرٌ مشهور في كتب التفسير، وذكر هذا السبب على وجه الخصوص مما يحتاج أن يُوقف عنده حتى يثبت هذا ثبوتًا قطعيا.

لكن على كل حال، كون المشركين أنكروا اسم الله الرحمن هذا مما لا شك فيه، وكون هذه الآية في الدِلالة على أن المشركين كافرون بالرحمن على الخلاف، هل الكفر راجع إلى الاسم أو المسمى؟ هذا مما أيضا لا شك فيه.

لأن بحثنا في سبب النزول هل يثبت هذا السبب أو لا؟ هذا موقوف على أن يثبت ذلك بإسنادٍ صحيح.

٦٢

٦٢- باب قول الله تعالى ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ الآية.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[النحل:٨٣] الآية.

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أبواب ذات موضوع جديد تتعلق بالألفاظ التي تخدش في كمال التوحيد الواجب، واجتنابها من تحقيق كمال التوحيد الواجب، قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[النحل:٨٣].

الله ﷻ بيّن في هذه الآية أنَّ المشركين كانوا يعرفون نعمة الله ومع ذلك فإنهم ينكرونها.

والأصلُ في هذا الباب: أنَّ من أنكر أن تكون النعم من الله ﷻ فإن هذا شركٌ أكبر.

وأمَّا من اعتقد أنَّ النعم إنَّما هي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولكن حصل في قلبه نوع التفاتٍ لغيره في نسبة التفضل بالنعم لغيره، وصاحب هذا ألفاظٌ تفيد هذا المعنى، فهذا من جنس الشرك الأصغر، هذا هو الأصل في هذا الباب.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[النحل:٨٣].

اختلف المفسرون في تفسير النعمة في الآية، والأقوال تعود إلى قولين رئيسين:

الأول: تفسير من فسر النعمة: بالنعم الدنيوية- ومعلومٌ عندكم وقد مر بنا في درس أصول الفقه- أنَّ المفرد المضاف يعم، فقوله تعالى هنا ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ يعني: أنواع نعمه، وهذه الآية على وِزان قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾[إبراهيم:٣٤]، والنعم الدنيوية، هذه النعم التي يتقلب فيها الناس في هذه الحياة من المآكل والمشارب والمساكن وما إلى ذلك.

ولكن قد يرد ها هنا سؤال وهو: أن القرآن قد دل على أن المشركين معترفون بأن هذه النعم إنما هي نازلةٌ من الله ﷻ وبتقديره، فكيف وُصِّفُوا بأنهم ينكرونها، ألم يقل الله ﷻ في شأنهم: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[العنكبوت:٦٣]، وأمثال ذلك من الآيات الدالة على أنهم كانوا يعترفون بأن النعم إنما هي بتقدير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكيف إذًا كانوا منكرين لها؟

الجواب عن هذا: أن المفسرين فسروا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ بتفسيراتٍ عدة، أشهرها ما يأتي:

[التفسير الأول]: أن إنكارهم لها هي أنهم يقولون في شأنها: "لولا فلانًا لما حصل لنا كذا وكذا"، ويذكرون هذه النعم؛ فهذا نوع إنكار لها.

التفسير الثاني: أنهم كانوا يقولون فيما خولهم الله ﷻ إياه من الأموال والنعم، كانوا يقولون: "هذه أموالنا ورثناها عن آبائنا، فهي لنا من طريف وتالد"، وأمثال ذلك من هذه الكلمات التي كانت تنم عن أنهم ينسبون التفضل بالنعم لغير الله ﷻ، فيعد هذا إنكارًا منهم.

[التفسير الثالث]: إن إنكارهم لها هو قولهم: إن هذه النعم كانت بشفاعة آلهتنا، كانت النعم بشفاعة آلهتنا، وهذا أيضًا فيه نسبة النعم لغير الله ﷻ، بل هذا القول منهم أخبث من سابقيه؛ لأنَّ فيه إضافةً إلى ذلك ما كانوا عليه من شرك الشفاعة؛ شفاعة الآلهة التي كانوا يعتقدون فيها، وهذا كما مرَّ بنا اعتقادٌ شركي، هو أصلُ وأكثرُ ما وقع فيه المشركون الأولون.

[التفسير الرابع]: إنَّ إنكارهم لنعمة الله سبحانه وتعالى هو: أنهم لا يستعملونها في طاعة الله سبحانه وتعالى، فُعُدَّ هذا في حقهم إنكارًا لها.

[التفسير الخامس]: إنَّ إنكارهم لها هو: أنهم يعترفون بنسبتها أو بنسبة التفضل بها إلى الله في الشدة، وينكرون ذلك في الرخاء.

هذه أشهر الأقوال التي قيلت في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾.

والأقوال الثلاثة الأولى هي الأشهر، وهي التي أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من كلام السلف ما يدل عليها، وهو السبب الذي لأجله أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية.

مهما يكن من شيء لا شك ولا ريب، أنَّ نِعَمَ الله سبحانه وتعالى يجب أن يقابلها المسلم بثلاث أشياء:

أولاً: الاعتراف القلبي بأنَّ الله سبحانه وتعالى هو المتفضل بها وحده لا شريك له، مهما أتى للإنسان من نِعَمٍ كانت بأسباب من المخلوقين، فإنَّ هذا لا يعني شيئًا من جهة أن المتفضل بالنعمة إنما هو الله سبحانه وتعالى، ولذلك كان **ركن الشكر الأول هو**: الاعتراف والإيمان والتصديق التام بأن هذه النعم تفضلٌ من الله سبحانه وتعالى وحده، وهذا أمر يقيني لا يجوز للمسلم أن يتردد في، ولذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾**[النحل:٥٣]**، كلُّ النعم إنما هي

من تفضل الله ﷻ، حتى ما كان منها واصلاً عن طريق أحدِّ المخلوقين، وذلك لا يُخْرِّجُ هذه النعمة أن تكون متفضلاً بها من قبل الله ﷻ.

ولذلك يقول الله ﷻ مذكرًا لنا بهذا المعنى: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾[النور:٣٣].

إذًا المال مال الله، والفضل منه وحده، والعبد ما هو إلا قاسم، كما قال النبي ﷺ الحديث في الصحيحين: «إنما أنا قاسم والله يعطي» وفي رواية: «إن الله هو المعطي وأنا قاسم»، فالله ﷻ هو المعطي على الحقيقة، والمخلوق ما هو إلا سبب في وصول هذه النعمة، وهذا ما عبر عنه النبي ﷺ بقوله: «وأنا قاسم».

ولعلكم تذكرون ما مر بنا في دروسٍ سابقة من أن التفات القلب لا يجوز أن يكون للمخلوق فيه حظٌ، تحقيق التوحيد يقتضي أن يكون القلب بالكلية متوجهًا في شأن النعم إلى المنعم بها على الحقيقة وهو الله ﷻ، إنما حق المخلوق وحظه من أخيه هو أن يشكر عليها: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»، هذا القدر فحسب ومكافأته على هذه النعمة حتى تزول المنة، وحتى يتفرد العبد بأن يكون عبدًا ذليلاً خاضعًا لله ﷻ وحده، يعني من تحقيق التوحيد أن الإنسان يكافئ من ناله شيء من النعمة من قبله حتى لا يلتفت إليه بقلبه، وحتى يكون التفاته بالكامل لله ﷻ.

والركن الثاني والواجب الثاني في شأن الشكر أن يتحدث الإنسان بها، وأن ينسبها إلى المنعم بها لفظًا.

وهذا أحد الأقوال التي فسر بها قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[الضحى:١١]، وبالتالي: الواجب على من أنعم الله ﷻ عليه بشيءٍ من النعم، أن يذكر هذا بلسانه أن هذا من فضل الله ﷻ، ويحمد الله ﷻ على ذلك، وبالتالي فإنه إذا سكت عن ذلك كان مذمومًا، فكيف إذا نسب ذلك بلسانه إلى غير الله؟ كيف إذا نسب التفضل بالنعمة لغير الله ﷻ؟ إذا كان مذمومًا في حال كونه كاتمًا وساكتًا وغير مبين شيء بلسانه في شأن هذه النعمة، فكيف إذا كان قد نسب التفضل بهذه النعمة لغير الله ﷻ؟ لا شك أنه يكون أحق بالذنب، وهذا الذي أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ينبه عليه، فإنَّ نسبة التفضل بالنعمة لغير الله ﷻ يقدح في تحقيق التوحيد الواجب في شأن توحيد الربوبية،

وضعف شكر الله ﷻ عليها بأن لا تنسب لله ﷻ بالكلية ضعفًا في تحقيق كمال التوحيد الواجب في شأن توحيد الألوهية.

الواجب الثالث في شأن النعم: أنّ تستعمل في طاعة الله ﷻ، إذا كان الله ﷻ هو الذي أنعم، والنعمةُ ملْكه ﷻ، فإنَّ كل إنسان يُدْرِكُ بالفطرة أن الواجب ألا يبارز الله ﷻ بالمعصية في هذه النعمة على وجه الخصوص، إنْ شئت أن تعصي الله ﷻ بنعمة من النعم فأصنع ذلك في نعمة لم تكن مُسداةً إليك من قبل الله ﷻ، أما أن يُنَزِّلَ الله النعمة عليك وشرُّك فيها يصعد إليه، هذا ما أقبحه من العبد.

إذًا هذه أمور ثلاثة ينبغي أن يلاحظها من أراد تحقيق التوحيد، أن يكون اعترافه بالكامل في قلبه بنسبةِ هذه النعمة والتفضل بها إلى الله ﷻ، ثم أنْ يلهج لسانه بهذه النسبة مع حمده وشكره ﷻ عليها، ثم أنْ يسخرها ويستعملها في طاعة الله ﷻ؛ متى ما حقق الإنسان هذه الأمور الثلاثة فليبشر بالخير، فإنَّه قد قام بالأمر الواجب عليه في شان نعم الله ﷻ.

تتمة الكلام على الآية هو في قوله ﷻ: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾[النحل:٨٣].

استُشكل في هذه الآية أن المشركين جميعًا كفار، فكيف يقال ها هنا: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾، اختلف المفسرون في توجيه هذا الجزء من الآية إلى أقوال لكن أظهر ذلك ما يأتي:

أولاً: أن يقال قوله تعالى ها هنا ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أنما هو بمعنى: أكثرهم الجاحدون، وهذا ما ذهب إليه طائفة من المفسرين من أنَّ الكفر ها هنا يراد به: الجحد، وهذا يجعل الآية على نحو قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل:١٤].

والجحْدُ ضد النفاق، كفر الجحد هو: أن يكون اللسان مكذبًا والقلب مصدقًا، والنفاق على العكس: اللسان مصدق والقلب مكذب.

فكفر الجحود كفرُ من يعلم صحة الإسلام وصِدْقَ النبي ﷺ ولكنه يأْبى الانقياد، فيكون كفره كفر الجحود. وبالتالي: أفادتنا هذه الآية أنَّ أكثر المشركين كان كفرهم عن جحود لا عن تكذيب، وأفادتنا أن بعضهم كان كفره كفر تكذيب.

ما هو كفر التكذيب؟ هو: أن يكون باطنًا وظاهرًا مكذبًا، يكون مكذبًا بباطنه وظاهره، يعني: بقلبه ولسانه بعضهم هكذا لكن أكثرهم كفرهم كفر جحود، يعلمون في قلوبهم صحة رسالة النبي ﷺ ولكنهم يأبون قَبُول ذلك ولا شك أن هذا واقع، والسيرة فيها شواهد على هذا عدة تدل على أن صناديد الكفار في عهد النبي ﷺ لم يكونوا يكذبونه، وكيف يكونوا ذلك وهم الذين يعرفونه: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾[يونس:١٦]، كانوا يعرفون صدق النبي ﷺ وأنه ما كان يكذب على الناس، فكيف يكذب على رب الناس، لكن أهواء النفوس التي كانت غالبة عليهم حالت بينهم وبين إتباعه ﷺ.

والقول الثاني: -وهذان القولان أقوى ما قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾- هو أن الله ﷻ قد علم أن من هؤلاء المشركين من سيسلم، ولكن أكثرهم سيثبتون على هذا الشرك والكفر فقال: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾، يعني سيثبتون ويستمرون على هذا الكفر، وبالتالي بعض هؤلاء ولا شك أن من المشركين من أسلم وكان من خيار المؤمنين، يعني: من أصحاب النبي ﷺ، وكثيرٌ من هؤلاء الذين أبُو أول وهلة ماتوا على الكفر واستمروا على هذا الكفر، فحق فيهم قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

هذان أقوى ما قيل في هذه الآية، وبعض أهل العلم ورويَّ عن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يعني: أن كلهم كافرون، ففسر قوله ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ بقوله :كلهم.

ولكن القولين الأولين أولين وأقرب وأظهر والله أعلم.

بقي عندنا القول الثاني في تفسير النعمة:

النعمة القول الثاني في تفسيريها: أنها النعمة الدينية وهي بعثة النبي ﷺ.

إذا تحصل لنا أنَّ النعمة في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾[النحل:٨٣].

قيل : أنها النعمة الدنيوية.

وقيل أنها النعمة الدينية التي هي بعثة النبي ﷺ، ولاشك أن ذلك من أعظم النعم التي أنعم الله ﷻ بها على أهل الأرض: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾[آل عمران:١٦٤] الآية.

وهذا القول رجحه طائفةٌ من أهل التفسير المحققين ومنهم شيخ المفسرين: ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والسؤال الآن: المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أي القولين ينحى؟

إيراد هذه الآية في هذا الباب يدل على أنه يميل إلى أي الرأيين؟

يدل على أنه يميل إلى الرأي الأول- كما سيمر معنا إن شاء الله في الآثار التي أوردها-، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال مجاهدٌ ما معناه: «هو قول الرجل هذا مالي ورثته عن آبائي».

هذا أحد التفسيرات التي قيلت وقد ذكرتها لك قبل قليل، عندما يقول: الإنسان هذا مالي ورثته عن آبائي.

لاحظ أنَّ المقام ها هنا مقام نسبة التفضل بالنعمة لغير الله، هذا هو المذموم وهذا هو المعدود من إنكار النعمة.

أمَّا إذا كان إخبارًا مجردًا كأن يقول إنسان لآخر من أين جاءك هذا المال؟ يقول: هذا ورثته عن آبائي، السياق يدل ها هنا على أن قوله لم يكن من باب نسبة التفضل بالنعمة لغير الله عَزَّوَجَلَّ.

إذًا المذموم في هذه الجملة هو ما كان راجعًا إلى هذا الضابط واحفظه الضابط ها هنا هو: نسبة التفضل بالنعمة لغير الله عَزَّوَجَلَّ.

لاحظ أنَّ هذا الرابط يربط لك جميع الأمثلة التي تُذكر، والسلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ كان كثيرا من تفسيرهم كان تفسيرًا بالمثال، يفسرون الآية بمثال لها، وهذه الأقوال لا تعني أن هذا فقط تفسير الآية من جميع الوجوه، إنما هذا مثالٌ مما يدخل في هذه الآية.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال عون بن عبد الله: «يقولون: لولا فلان لم يكن كذا».

هذا تفسير عون التابعي الجليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يقول الإنسان: "لولا فلان لم يكن كذا"، "لولا أن فلانًا أعطاني لكانت حالتي حالة"، "لولا أنَّ السائق كان ماهرًا لوقع الحادث"، تلاحظ أن (لولا) في اللغة العربية تفيد: امتناع الشيء لوجود غيره، والسياق يدل على أن

المتكلم بذلك أراد نسبة التفضل بالنعمة لغير الله، وسيأتي لنا أمثلة إن شاء الله في أثر ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في مستقبل الدرس- لعلنا نتكلم عن هذا إن شاء الله في الباب القادم في درس غدًا إن شاء الله-.

تجد أن الأمثلة التي يذكرها أهل العلم عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فمن بعده إنما تدور على هذا الضابط، وهو نسبة التفضل بالنعم لغير الله عَزَّوَجَلَّ، وبالتالي لا يجوز للإنسان أن يقول هذا اللفظ: "لولا فلان لكان كذا وكذا"، أو "لما حصل كذا"، هذا لا شك أنه أمر لا يجوز في مقام نسبة التفضل بالنعمة لغير الله، بل هذا من الشرك الخفي كما سيأتي من كلام ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

وبهذا نعلم أنه متى ما كان هذا اللفظ على غير هذا البساط وعلى غير هذا السياق، فإنه لا حرج فيه فإذا كان لبيان سبب مجرد أو لإخبار محض فإنه لا حرج فيه.

يدل على هذا ما ثبت في ((الصحيحين)) من قول النبي ﷺ **«لولا اليهود لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها»** يدل على هذا أيضًا قول النبي ﷺ كما في ((الصحيحين)) أيضًا قال لعائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: **«لولا أنَّ قومك حديثو عهد بجاهلية لهدمت الكعبة ولبنيتها على قواعد إبراهيم، ولجعلت لها بابين»، «لولا أن قومك حديثو عهد»**.

إذن أراد النبي ﷺ أن يبين السبب المانع من هذا الفعل، فهذا خارج عن محل البحث، نحن نبحث في سياق معين، ما هو؟ نسبة التفضل بالنعمة لغير الله.

وأنت إذا تأملت في هذين المثالين تجدُ أنه ليس داخلًا في ذلك.

وهكذا ما يجري في كلام الناس مما لا يرد عليه هذا المعنى الذي ذكرته لك قبل قليل كأن يقول إنسان مثلاً: "لولا أن ينقدني الناس لفعلت كذا، ولرددت على فلان"؛ "لولا أن يظن بي سوء، أو لولا أن يظن بي كذا وكذا لفعلت كذا"، هذا بيانٌ للسبب مجرد، مثل هذا لا حرج فيه إن شاء الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال ابن قتيبة: «يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا».

وهذا مثل ما ذكرت لك أخبث مما قبله؛ لأنه يجمع بين أمرين؛ يجمع نسبة التفضل بنعمة لغير الله مع الشرك في الشفاعة الذي كان عليه المشركون الأولون.

ومر بنا الكلام في الشفاعة التي كان عليها المشركون على وجه التفصيل.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال أبو العباس - بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه؛ أن الله تعالى قال: «أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافر...» الحديث؛ -وقد تقدم -: «وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به».

قال بعض السلف: «هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقًا، ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير».

الله المستعان، صدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا جار على ألسنة الكثير.

ومر بنا شيء من الكلام عن هذا المعنى الذي يتعلق بالحديث الوارد ها هنا، وهو حديث زيد بن خالد المخرج في ((الصحيحين))، ومر بنا إن كنتم تذكرون قريبًا بباب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء وقلنا: إنَّ قول القائل: "مطرنا بنوء كذا وكذا"، هذه النسبة إن كانت نسبة إيجاد وفعل، يعني: أن هذا النوء هو الذي أمطرنا بفعله ومشيئته استقلالًا فهذا لا شك أنه شرك أكبر، وإن كان على قبيل السببية؛ أنه سبب فهذا شركٌ أصغر؛ لأن ذلك لم يجعله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سببًا لا شرعًا ولا قدرًا.

المقصود أنَّ أبا العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ نبه ها هنا على أن هذا الباب بابٌ واسع، وهو نسبة التفضل بالنعم لغير الله عَزَّ وَجَلَّ، وأن الشريعة قد استقرت على ذمِّ من يفعل ذلك، مذمومٌ مكروهٌ من قام بهذا الفعل القبيح، هو أن ينسب النعمة لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم ذكر لنا مثالاً

على ما يقع ويقع جنسه كثيرًا حينما يقول الإنسان أنه قد خرج سالما من الأمواج المتلاطمة التي كادت أن تغرق السفينة "كانت الريح طيبة"، "هدأت الريح فنجونا"، أو :كان الملاح حاذقًا"، "كان السائق جيدًا"، "كان قائد الطائرة حاذقًا فنجونا"، عاد ما يتعلق بهذه النعمة وهي السلامة إلى هذا المخلوق، وهذا لا ينبغي أن يكون من عبد عرف حقيقة أن النعم إنما هي من الله ﷻ، وما هؤلاء الخلق جميعًا إلا أسباب.

وقد علمنا أنه لا يوجد سببٌ مستقل، لا يوجد شيء واحد من الأسباب ينتج شيئًا، بل لا بد لهذه الأسباب من معاونة، يعني لابد لهذا السبب من سبب آخر فأكثر يكون معينًا له، ولابد من ارتفاع الموانع جميعًا وكل ذلك بتيسير الله ﷻ وتقديره.

إذًا كيف للإنسان بعد ذلك أن يشكر ويحمد ويعترف بالنعمة لهذه الأسباب ناسيًا فضل المنعم المعطي وهو الله ﷻ!! لا شك أن هذا قبيحًا جدًا.

ذكرتُ لك مثالاً في السابق وهو: أن المخلوق ينبغي أن يعامل معاملة الوسيلة فقط.

ذكرت لك مثالاً الكل يدرك أن فاعله لا شك أنه جانب الصواب، إذا جاءتك هدية غالية من شخص مسئول، أمير أو وزير أو تاجر كبير هدية غالية، وأرسالها مع سائقه، دَّق عليك الباب وقال تفضل هذه من فلان؛ السائق ما دوره هنا؟ مجرد وسيلة فقط، مُوصِل لهذا، ساعي يسعى في إيصال هذا الأمر، غاية الأمر أن تشكره "جزاك الله خيرا، شكرًا".

أما أن تقول لهذا السائق: "أنا عاجزًا عن شكرك أنت أحسنت إلى إحسانا عظيمًا لا أستطيع له وفاء، أنت كذا أنت كذا" هل يفعل هذا عاقل؟ من الذي أعطاك؟ من الذي منحك؟ أليس ذاك، أليس ذاك الشخص الكبير، وهذا مجرد سائق وسيلة تشكره وينتهي الأمر، لكن شكرك الفعلي ينبغي أن تتوجه به إلى ذاك المعطي.

هذا مثالٌ يُقرب لك ما نريد أن نتكلم فيه، المنعم الحقيقي هو الله ﷻ، والذي أعطاك حتى هذا التاجر ما هو في الحقيقة إلا وسيلة: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ﴾[الإسراء:٢٠] مَن؟ ﴿عَطَاءِ رَبِّكَ﴾[الإسراء:٢٠]، النعمة من الله، إنَّ الله هو المعطي، هذه الحقيقة التي يجب أن تستقر في قلب الموحد إن أراد أن يكون موحدًا حقًا.

في ختام هذا الباب يلوح لي أن نستفيد فائدتين مهمتين من هذا الباب:

الفائدةُ الأولى: هي أن نعلم أنَّ التوحيد أصفى شيءٍ على الإطلاق، ولذلك يؤثر فيه ويشوش عليه أدّنى شيء، مثاله مثال مرآة صافية جدًا أدّنى شيء يؤثر فيها، لو وضعت عليها إصبعك ماذا يحصل؟ يتشوش الأمر، صفاؤه يتأثر؛ التوحيد أصفى منها، ولذلك يشوش عليه أدَّنى مؤثر.

هذه حقيقة يجب أن نعيها يا أهل التوحيد، ولذلك واجب المسلم هو أن يرابط على الثغور التي يؤتى توحيده منها، هذا واجبك في هذه الحياة؛ أن ترابط على ثغر القلب، وأن ترابط على ثغر اللسان، وأن ترابط على ثغر النظر، وأن ترابط على ثغر السمع، من ها هنا يؤتى توحيدك.

ولذلك انظر، مجرد ألفاظ تُقال مع اعترافِ القلب بأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو المنعم، ومع ذلك كان هذا من جنس الشرك الخفي، "لولا فلان، ولولا فلان" مجردُ لفظٍ يقوله لكن لا تستهن به، هذا مؤثر، هذه النقطة سوداء تُؤثر في التوحيد، ولذلك حريٌ بمن أراد أن يكون من أهل التوحيد المحققين أن يتنبه إلى هذا الأمر المهم، التوحيد صافٍ جدًا، وكلما كان الشيء صافيًا تأثر بأدنى شيء، وتشوش بأدنى شيء.

[الفائدة] الثانية: وهو أننا نجد السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يشددون -وكلامهم بالطبع مبنيٌ على أدلة الكتاب والسنة- يشددون في مثل هذه الألفاظ إلى درجة أن قول الإنسان: "هذا مالي ورثته عن آبائي"، يقولون: هذا غلط، هذا خطأ، هذا أمرٌ لا ينبغي للإنسان أن يقوله.

إذا قال: "كانت الريح طيبة، وكان الملاح حاذقًا"، مع ذلك يقولون: انتبه هذا يقدح في كمال التوحيد الواجب.

السؤال الآن: بالله عليك إذا كان هذا الشأن في مثل هذه الألفاظ التي قد لا يراها كثيرًا من الناس شيئًا، فكيف بمن يشرك بالله عَزَّوَجَلَّ؟ كيف بمن يصيح صباح مساء ينادي: "يا سيدي فلان المدد المدد"، "يا رسول الله أغثني".

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث الجلل

بالله عليكم قارنوا بين هذه الألفاظ التي ذكر العلماء أنها تخدش في كمال التوحيد الواجب، فكيف حال هذه الألفاظ إذًا ؟! حينما يقع الإنسان في هذه الألفاظ الشنيعة

أليس هذا أولى وأجدر بأن يشدد عليه؟! سيأتي معنا في أثر بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢]، يقول الأنداد مثل هذه الألفاظ: "لولا كليبة فلان لأتانا اللصوص".

"لولا البط لكان كذا"، جعله من الشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ. هذا ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والأثر أثر جيد، إسناده جيد كما سيأتي معنا إن شاء الله، فكيف لو سمع ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مثل هذه الألفاظ التي تقال: "يا سيدة نفيسة أنا في حسبك"، "يا سيدي عبد القادر من لي سواك"، "يا ابن عوان على الله وعليك".

بالله عليكم أليست هذه الألفاظ تهدم التوحيد من أصلة وتنسف الإيمان من أسه؟ أي وربي، هي كذلك.

فمثل هذا الأمر ينبغي أن نتنبه إليه، وقد جرى في عادة السلف -وسنتكلم عن هذا إن شاء الله-، أنهم يفسرون أدلة الشرك التي نزلت في الشرك الأكبر بما هو من صور الشرك الأصغر، تنبيهًا بالأدنى على الأعلى.

إذًا إذا علمنا خطورة هذه الألفاظ التي سنعتبرها قطعًا يسيره إذا ما قارناها بتلك الطوام الكبرى، إذا كانت مثلُ هذه الألفاظ حريةً بالحظر، فتلك أولى وأجدر بأن تُحْذَّرَ ممن أراد نجاة نفسه.

٦٣

٦٣- باب قول الله تعالى: ﴿ فلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الآية.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب قول الله تعالى: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢].

هذا البابُ الذي عَنوَنَ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ له بهذه الآية من سورة البقرة: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢]، هي تكميلٌ للباب السابق، وفي هذا الباب تنبيهٌ أيضًا على بعض الألفاظ التي تقدحُ في كمال التوحيد الواجب.

وقد أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية ليُعقب عليها بأثر ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير الأنداد، وأنه يَشمَلُ فيما يشمل ما يرجع إلى الشرك الأصغر، ووجه ذلك:

أنَّ قوله تعالى: ﴿أَندَادًا﴾ نكرةٌ في سياق النهي، ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾[البقرة:٢٢]، والقاعدة الأصولية: أن النكرة في سياق النهي تفيد العموم.

فالله ﷻ نهى عن التنديد عمومًا؛ التنديد الأكبر، والتنديد الأصغر.

بمعنى: نهى عن اتخاذ الأنداد فيما يرجع إلى الشرك الأكبر، ونهى عن اتخاذ الأنداد فيما يرجع إلى الشرك الأصغر.

وابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا كما سيأتي إن شاء الله، فسَّر في هذه الرواية: الأنداد بما يرجع إلى الشرك الأصغر، وهذا -كما قد علمت في درس أمس- جارٍ على قاعدة السلف في تفسير ما جاء في الشرك الأكبر يُنَزَّل ويُفسر بما يرجع إلى الشرك الأصغر، وهذا -كما علمت- من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، بمعنى: أنه إذا كان الشرك الأصغر منهيًا عنه، وداخلًا في عموم الأدلة الناهية الذَمة عن الشرك فمن باب أولى أن تكون تلك الأدلة ناهيةً ذَامةً للشرك الأكبر.

هذه الآية من فوائدها مع ما قبلها:

بيان معنى: لا إله إلا اله وأنه النفي والإثبات، التخلية والتحلية، التجريد والتفريط يقول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢١ -٢٢]. فقوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ هو في معنى: إلا الله، وقوله: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ هو في معنى: لا

إله، فَشَمِلَ ذلك النفي والإثبات الذي دل عليهما أعني النفي والإثبات كلمة التوحيد: لا إله إلا الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال ابن عباس في الآية: ((الأنداد؛ هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلانة، وحياتي...

هنا أثرُ ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وقد خرَّجه ابن أبي حاتم بإسنادٍ جيد كما قال الشارح الشيخ سليمان رَحِمَهُٱللَّهُ ، يُبيِّن لنا أن الشرك ينبغي أن يُحذر، ومن أسباب ذلك: كونه شيئًا خفيًا، وكون الشرك في هذه الأمة خفيًا ثبت عن النبي ﷺ في أحاديث عدة عند أحمد والحاكم من رواية غير واحدٍ من أصحاب النبي ﷺ، وذلك أنَّ له أنواعًا وألوانًا، ويكونُ في القلب، ويكون في اللسان، ويكون في الجوارح، فهو إذًا أمرٌ في غاية الدقة فكان حريًّا أن يحذره المسلم.

أخبر ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنَّ الشرك أخفى من هذا المثال العجيب، النملةُ إذا سارت على رملٍ ناعم لا يكاد يُلحظ أثرها، فكيف إذا مشت على صخرةٍ صماء؟ فكيف إذ كانت سوداء؟ فكيف إذا كان ذلك في ظلمة الليل؟

إذًا الأمر في غاية الخفاء، وشركٌ هذا شأنه كيفَ النجاةُ منه إلا بتوفيق من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يُعيذني وإياكم من الشرك صغيره وكبيره، خفيه وجليَّه-.

المقصود أنَّ ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا بيَّن أنَّ الشرك شيءٌ خفي حتى أنه يأتي في ألفاظٍ يكثر ذكرها على الألسن، وكثيرٌ ممن ينطق بها لا يتنبه إلى ما هي محشوةٌ فيه من الشرور والذم والنهي.

ومن ذلك:

وهو أن تقول: "والله وحياتكِ يا فلانة، وحياتي".

الحلف بغير الله كالحلف بالحياة، أن يقول الإنسان: وحياتكَ، وحياتكِ، هذا لا شك أنه من الشرك على ما سيأتي تفصيله بعد قليل إن شاء الله.

وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص.

- عندك كلبة؟ نعم، الذي بخط الشيخ كما قال الشارح كُليبة، والذي عند أبي حاتم كلبة، ولا أدري لماذا اختار المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لفظة كُليبة.

المقصود أن المثال فيه: لولا كلبة أو كُليبة فلان لأتانا اللصوص، ولا البط في الدار لأتانا اللصوص؛ لأنَّ البط وكذلك الكلب وما إلى ذلك من هذه الحيوانات، إذا دخل الغريب فإنها تُصدر أصواتًا فيتنبه الناس، وهذا راجعٌ إلى ما سبق الكلام عنه من أن نسبة التفضل بالنعمة لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا من الشرك الخفي الذي جاء النهي عنه، وقد سبق الحديث في ذلك.

وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت.

قول: ما شاء الله وشئت؛ عقد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ له بابًا خاصًا، وسنتكلم عنه إن شاء الله في محله، وهو من جملة شرك الألفاظ التي نبه عليها ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وقول الرجل: لولا الله وفلان.

هذا لفظٌ آخر يتعلق بـ "لولا"، عندنا في "لولا" محظوران:

[المحظور الأول]: أن يقول الإنسان: لولا فلانٌ لحصل كذا، أو لولا فلانٌ ما حصل كذا، وذلك على سبيل نسبة النعمة لغير الله جل وعلا، سواءٌ كان ذلك في جلب منفعة أو في دفع مضرة- ومضى الحديث في ذلك-.

المحظورُ الآخر: وهو أن يقول الإنسان: لولا الله وفلان لكان كذا وكذا، هذا الأمر لا شك أنه لا يجوز، بل فيه من التنديد والتشريك ما فيه؛ وذلك: أنَّ الواو في لغة العرب تدل على: التشريك والتسوية، ولا شك أنَّ هذا أمرٌ لا يجوز أن يكون الله عَزَّ وَجَلَّ والمخلوق في سياقٍ يدل على التسوية بينهما، فهذا تشريكٌ وتنديدٌ لا يجوز؛ مجرد هذا اللفظ لا شك أنَّه من الشرك الأصغر.

أمَّا إذا قام في القلب اعتقاد هذه التسوية فهنا قد وقع هذا المتكلم الذي قصد هذه التسوية في هوةٍ سحيقة كانت من الشرك الأكبر لا من الشرك الأصغر.

إذًا لا يجوز أن يقول الإنسانُ: "لولا الله وفلان".

لكن يجوز أن يقول: "لولا الله ثم فلان"، وذلك: أنَّ (ثم) تفيد الترتيب مع المهلة، وهذا يجعل العبد في رتبةٍ دون رتبة الخالق ﷻ فيكون تابعًا لذكر الله ﷻ في هذا السياق.

وبذلك يتضحُ الفرق الواضح بين: (الواو)، و(ثم)؛ استعمال (الواو) في هذا السياق لا يجوز، لكن استعمال (ثُمَّ) لا بأس به، أن يقول الإنسان: "لولا الله ثم فلان"، هذا لا بأس به. "لولا الله ثم جودة السيارة"، أو "لولا الله ثم حِذق السائق لكان كذا وكذا"، هذا أمرٌ لا بأس به، ولا يضر قائله، وإن كان الأكمل أن يقول الإنسان: "لولا الله وحده:.

إذًا عندنا في هذا المعنى درجتان: درجة كمالٍ، ودرجة جواز.

أما درجة الكمال فأن يقول الإنسان: لولا الله وحده.

ودرجة الجواز أن يقول: لولا الله ثم فلان، وأما لولا الله وفلان، فإنَّ هذا ممنوع.

وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها فلانا ، هذا كله به شرك)) رواه ابن أبي حاتم.

الذي بخط المؤلف كما ذكر الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا تجعل فيها فلانٌ، والذي عند أبي حاتم لا تجعل فيها فلانًا. والرفع هنا على ما ذكر المؤلف على الحكاية، والمعنى على كل حال واضح، وهو أنك لا تجعلْ فيها فلانًا، أولا تجعل فيها فلانٌ، لا تذكر هذه الكلمة حتى يكون كلامك قد وافق المعنى الأكمل الذي فيه تحقيق التوحيد، وهو: أن تفوض وتنسب الفضل لله ﷻ وحده.

لا تجعل فيها فلانا : هذا كله به شرك)) رواه ابن أبي حاتم.

هذا كله به شرك يعني: بقائله، وهذا يدلك على أنَّ القول من حيث هو شركٌ بالله ﷻ ولو لم يَقْصُد القائل، وبذلك يتضح خطأ الذين يقولون: نحن نتلفظ بهذه الألفاظ، ولكننا لا نقصُد، فنقول: لو كنتم تقصُدون التسوية لكنتم وقعتم في شيءٍ أشنع وأكبر من مجرد شرك الألفاظ الذي هو من الشرك الأصغر، مجرد هذا التلفظ أمرٌ لا يجوز.

والواجب على الإنسان أن يضبط كلامه حتى يكون موافقًا للشرع، وليس أنه يسترسل في الكلام الباطل ثم يتذرع بعد ذلك بأنه ما قصد، والنبي ﷺ في جميع الأدلة التي كان ينهى فيها عن ألفاظٍ ما، كل تلك الألفاظ كان فيها النبي ﷺ ينهى عنها نهيًا مطلقًا دون أن يكون مستفسرًا عن قصد القائل، دون أن يقول: أنت ماذا تقصد؟

إن كنت تقصد كذا؛ فنعم، وإن كنت تقصد كذا؛ فلا.

إذًا على الإنسان أن يتنبه، وأن يُلاحظ كلماته، وأن يُلاحظ ألفاظه؛ حتى تكون موافقةً لشرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبهذا يكون قد حقق التوحيد الواجب عليه. والله أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله قد كفر أو أشرك» رواه الترمذي، وحسنه وصححه الحاكم.

الشرح

هذا الحديث كما قد سمعت نسبه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى رواية عمر رضي الله عنه، وهذا وهمٌ، وإنما من رواية ابن عمر، من رواية ابن الفارق الذي هو عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

والحديث كما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حسنه الترمذي، وصححه الحاكم، وصححه جمعٌ من أهل العلم؛ كابن حبان، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وكذلك المنذري، وكذلك العراقي، وكذلك الصنعاني، وكذلك الشوكاني، وإلى المعاصرين كالشيخ ابن باز، وأحمد شاكر، والألباني، وغيرهم من أهل العلم، فهو حديثٌ صحيحٌ لا شك فيه.

والألفاظ التي جاءت في كتب الحديث المتعلقة بهذا الحديث ترجع إلى أربعة ألفاظ:

[اللفظ الأول]: «**فقد كفر أو أشرك**» كما هي رواية الترمذي، والأقرب والله أعلم أن الشك ها هنا من الراوي.

اللفظ الثاني: «**فقد كفر وأشرك**» وقد نصَّ الشُراح على أنه جاء في بعض الأصول للترمذي بالعطف بالواو، «**فقد كفر وأشرك**»، وهكذا جاء عند أحمد وغيره.

اللفظ الثالث: «**فقد كفر**» كما عند الحاكم وغيره.

اللفظ الرابع: «**فقد أشرك**»، وهذا أكثر الألفاظ، أكثر من خرَّج هذا الحديث خرَّجه بهذا اللفظ: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**».

والمقصود: أن الحلف بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا شك أنه منكرٌ عظيم، ومحرمٌ بالإجماع، كما نقل الإجماع على ذلك ابن بن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ إجماع الصحابة على المنع منه.

ولا شك أنه كذلك، بل هو أعظم من ذلك، فإنه قد ثبت أنه من الشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ كما نصَّ عليه هذا الحديث: **«من حلف بغير الله فقد كفر، أو أشرك»**، أو **«فقد أشرك»**، أو **«فقد كفر»**، أو **«فقد كفر وأشرك»**.

كذلك جاء النص على ذلك: في حديث قتيلة الجُهنية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا- وسيأتي معنا إن شاء الله في قادم الأبواب- وهو: أن يهوديًا أتى إلى النبي ﷺ فقال: "إنكم تشركون تقولون: والكعبة"، والنبي ﷺ أقره على ذلك، ونهى ﷺ عن هذ القول، وأمرهم بأن يقولوا: "وربَّ الكعبة".

ودليلٌ ثالثٌ على ذلك: وهو أثر ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا الذي مر بنا منذ قليل، ومثله لا يُقال بالرأي.

فهذه أدلةٌ ثلاثٌ تدل على أن الحلف بغير الله عَزَّ وَجَلَّ شركٌ.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الحلف بغير الله عَزَّ وَجَلَّ شركٌ أكبر متى ما قال: والنبي، وحياتك، والأمانة. فإنه يكون قد أشرك الشرك الأكبر.

لكن جمهور أهل العلم على أن الشرك هاهنا شركٌ أصغر، ويدل على هذا أمور منها:

[الأمر الأول]: أثر ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا -الذي جاءنا أو مر بنا قريبًا-، فإنه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قد جعل الحلف بغير الله في جملة أشياء الحكم فيها أنها من الشرك الأصغر، فدل هذا على أنها ليست من الشرك الأكبر.

[الأمر الثاني]: أن الحلف بغير الله قد جرى على لسان بعض كبار بعض الصحابة قبل أن ينهاهم النبي ﷺ عن ذلك، ومنهم عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ويبعُد جدًا أن يكون الذي قد جرى على لسانهم راجعًا إلى الشرك الأكبر.

[الأمر الثالث]: أن النبي ﷺ لم يُرتِّب على هذا القول ما يُرتَّب على الشرك الأكبر، فالأقرب -والله تعالى أعلم- أنه شركٌ أصغر، اللهم إلا إذا كان المحلوف به الذي هو غير الله عَزَّ وَجَلَّ، إذا كان هذا المحلوف به قد عَظُمَ في قلب الحالف كتعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ أو أشد، إذا كان

الحالف حينما حلف بغير الله ﷻ قد بلغ تعظيمه في قلبه كتعظيم الله أو أشد، فلا شك أن هذا شركٌ أكبر بلا خلاف، كما يقع ذلك كثيرٍ من القبوريين الذين يَسْهُلُ عليهم كثيرًا أن يحلفوا بالله كاذبين، لكنهم لا يجرؤون البتة على أن يحلفوا بغير الله ﷻ كاذبين، ترتعد فرائصهم إذا قيل لهم: احلفوا على كذا، وهم يعلمون من حالهم أنهم كاذبون، لا يجرؤون على ذلك؛ خوفًا من سطوة وعقاب هذا المحلوف به، لكنْ أن يحلفوا بالله ﷻ كاذبين ما أسهل ذلك على أنفسهم.

وقد حدثني -وقد ذكرت هذه القصة غير مرة لأدلك على أن هذا الأمر واقع ليس خياليًا- حدثني أحد الذين تاب إلى الله ﷻ- وأسأل الله أن يقبل توبته- تاب من الركون والاتباع لبعض الفرق الضالة، وكان شيخًا في قبيلته يقول: إذا أتاني المتخاصمان فتتوجه اليمين على المُدَّعى عليه، وأنا أعرف أنه كاذب، ولو طلبت منه أن يحلف بالله لأعطاني ما شئت من الأيمان، لكني كنت آخذ بيده فأذهب إلى مرقد السيد فلان، أو السيد فلان، إلى قبره وأقول: احلف هنا على أنك صادق، يقول: والله لا يستطيع أن يتكلم بحرفٍ واحد، ويقرُّ بالحق لصاحبه، وإذا لم يكن هذا عين الشرك الأكبر؟ فماذا هو الشرك؟

بل إنَّ كثيرًا من المشركين الأولين كان جهد أيمانهم وأعظم أيمانهم إذا حلفوا بالله ﷻ في المهمات والعظائم يحلفون بالله ﷻ، وهؤلاء يَسْهُلُ عندهم أن يحلفوا بالله كاذبين، لكنهم لا يجرؤون أن يحلفوا بغيره كاذبين؛ لأنَّ هذا المحلوف به عندهم شأنه عظيم.

المقصود أن من بلغ به الحال إلى هذه الدرجة، فلا شك أنه يكون قد وقع في الشرك الأكبر.

وبذلك يتضح لك الخطأُ الكبير الذي وقع فيه من زعم أنَّ الحلف بغير الله مكروهٌ كراهة تنزيه.

يا لله العجب!! شيءٌ يصفه النبي ﷺ بأنه شركٌ، ثم يُقال: إنه مكروهٌ كراهة تنزيه، هذا لا يتأتى في الشريعة البتة، لا يُمكن أن يكون الشيء موصوفًا بالشرك ويكون حكمه الكراهة التنزيهة، هذا أمرٌ باطل لا شك في ذلك ولا ريب.

إنما الذي لا شك فيه ولا ريب أن هذا القول خاطئ.

وقد استدل من قال بذلك ببعض الأدلة أشهرها:

قولهم: إنَّ النبي ﷺ جرى على لسانه الحلف بغير الله، ولا يمكن أن يقع الشرك في كلامه، فتعين أن يكون هذا الحديث دالًا على أنَّ تلك الأدلة الناهية حكمها الكراهة، أو دالةً على الكراهة التنزيهة.

وأشهر ما استدلوا به حديث طلحة بن عبيد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أن رجلًا أعرابيًا جاء إلى النبي ﷺ يسأل عن الإسلام، فقال له النبي ﷺ: «**خمسٌ صلوتٍ في اليوم والليلة قال: هل علي غيرها؟ قال: لا. ثم الصيام والزكاة إلى آخره، ثم قال الرجل: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، فلما ولى قال النبي ﷺ**: -على هذه الرواية التي يستدلون بها- **أفلح وأبيه إن صدق**»، والمقام مهم ويحتاج إلى أن نبسط القول فيه بعض الشيء.

هذا الحديث الاستدلال به غير صحيح وبيان ذلك:

أن العلماء مختلفون في توجيه هذه الرواية، وهذه الرواية في ((صحيح مسلم))، والحديث مخرَّجٌ في الصحيحين من حديث طلحة ﷺ، غير أن هذا اللفظ قد تفرد بإخراجه مسلٌم دون البخاري.

قال بعض أهل العلم [القول الأول]: إنَّ اللفظ في أصله: (أفلح والله إن صدق)، وإنما حصل تصحيف، وهذا القول لا شك أنه قولٌ خاطئ، وإلا لو فُتح باب ادعاء التصحيف لما أمكن الوثوق بشيءٍ من السنة.

[القول الثاني]: إن قول النبي ﷺ وأبيه، إنما جرى على لسانه لا على سبيل الحلف واليمين، وإنما أراد تأكيد الكلام، وهذا القول أيضًا غير صحيح؛ لأنَّ اليمين أي شيء يُراد بها؟ تأكيد الكلام.

إذًا ليس هناك فارقٌ إذًا بين أن يكون قول النبي ﷺ على سبيل اليمين أو على سبيل تأكيد الكلام، ثم إنَّ النهي الذي جاء عن النبي ﷺ لم يفرق بين يمينٍ يُراد بها التأكيد، أو لا يُراد بها التأكيد، فهذا القول في الحقيقة فيه نظر.

[القول الثالث]: ذهب إلى أن هذا الحديث منسوخ، والناسخ له الأدلة الناهيةُ عن الحلف بغير الله ﷻ، وهذا قولٌ وجيه، وقد أخطأ من ضعفه، بعضهم ضعفه للجهل

بالتاريخ، لا ندري ما الحديث المتقدم وما الحديث المتأخر، لكن هذا ليس بوجيه؛ لأنَّ إدراك المتقدم من المتأخر ميسورٌ لمن تأمل أدّنى تأمل.

الواقع أنَّ الحلف بغير الله ﷻ كان سائدًا في الناس، يدل على هذا: ما ثبت في ((الصحيحين)) من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه قال: «**كانت قريشٌ تحلف بآبائها، فقال النبي ﷺ: لا تحلفوا بآبائكم**». وفي ((الصحيحين)) أيضًا من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ أدرك عمر وهو في ركبٍ يحلف بأبيه فقال له النبي ﷺ: «**ألا إن الله ينهاكم على أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفًا فليحف بالله أو ليصمت**».

إذًا الحلف بغير الله كان شيئًا موجودًا، وبالتالي: النهي عنه ناقلٌ عن الأصل، الأدلة التي فيها أنهم كانوا يحلفون بغير الله هذه باقية على الأصل، والأدلة التي فيها النهي عن ذلك ناقلةٌ عن الأصل، وبالتالي فتكون هي المتأخرة الناهية؛ لأنَّ الناقل عن الأصل هو المتأخر، والباقي على الأصل هو المتقدم، وهذا واضح بأدنى تأمل.

القول الرابع: هو أنَّ هذا اللفظ شاذٌ ضعيف، وهذا أقوى الأقوال في توجيه هذا اللفظ، وانتبه! الحديث جاء كما أخبرتك في ((الصحيحين)) من طريق أبي سهيل بن مالك عن أبيه عن طلحة بن عبيد الله، الحديث واحد، والقصة واحدة، والطريق واحدة، أبو سهيل روى عنه هذا الحديث الإمام مالك ابن أنس، وإسماعيل بن جعفر، كم راوي عن أبي سهيل؟ اثنان. مالك بن أنس، وإسماعيل بن جعفر.

مالك رَحِمَهُٱللَّهُ أخرَّج هذا الحديث كما في ((الصحيحين)) وفيه قوله: ﷺ «**أفلح إن صدق**» وليس فيه: «**وأبيه**» والحديث في الصحيحين.

نأتي إلى رواية إسماعيل، إسماعيل رَحِمَهُٱللَّهُ روى هذا الحديث بلفظين، الأول: وهو عند البخاري قال: «**أفلح إن صدق**»، أو دخل الجنة إن صدق»، بهذا الشك منه رحمه الله، «**أفلح إن صدق أو دخل الجنة إن صدق**» هذا في البخاري.

في مسلم: «**أفلح وأبيه إن صدق أو دخل الجنة وأبيه إن صدق**»، ولاحظ أن مسلم رَحِمَهُٱللَّهُ قدم رواية مالك التي ليس فيها لفظ أبيه، ثم أتبعها برواية إسماعيل.

إذًا تلخص لنا أن الحديث بلفظ: «**أفلح إن صدق**» جاء من رواية اثنين، والحديث بلفظ: «**أفلح وأبيه إن صدق**» جاء من رواية واحد.

رواية: «**أفلح إن صدق**» جاءت من رواية مالك وإسماعيل بن جعفر، إذًا هما اثنان.

وأما رواية: «**أفلح وأبيه إن صدق**» فجاءت في رواية إسماعيل فقط، ولا شك أن الرواية التي يرويها اثنان مقدمةٌ على الرواية التي يرويها واحد، لا سيما والحديث واحد، والقصة واحدة، والواقعة واحدة، والطريق واحدة.

إذًا النبي ﷺ قال أحد اللفظين قطعًا، يعني لا مجال أن نقول: إن القصة متعددة، الرجل جاء وتكلم بهذا الكلام وذهب، والنبي ﷺ قال أحد اللفظين.

والسؤال: أي الروايتان أرجح؟

لا شك أن رواية مالك وإسماعيل أرجح، يدل على هذا أمور:

أولًا: توارد عليها اثنان.

[ثانيًا]: مالك أوثق وأثبت من إسماعيل.

[ثالثًا]: إسماعيل حصل عنده تردد، بخلاف مالك، مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضبط الرواية، ولذلك رواها بالجزم، ضبط فجزم. أما إسماعيل فإنه حصل عنده تردد. مرةً قال: «**أفلح إن صدق أو دخل الجنة إن صدق**»، ومرةً قال: «**أفلح وأبيه إن صدق أو دخل الجنة وأبيه إن صدق**»، بخلافِ مالك كل رواياته واحدة في الصحيحين وغيرهما، ولذلك كل من روى عن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما اختلف عنده اللفظ، وقد رواه جمعٌ من الأئمة الحُفاظ كعبد الرحمن ابن مهدي والشافعي وغيرهما، كلهم على روايةٍ واحدة وهي: «**أفلح إن صدق**».

فإذا جمعت هذه القرائن تبيَّن لك أنَّ لفظ: «**وأبيه**» شاذٌ معلول، لا يصح عن النبي ﷺ، ومن دقة الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه تجنب أخرج هذه اللفظة، ومسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنما ذكرها تابعةً للفظ الأول.

إذًا الناظر بمقتضى قواعد علم الحديث يجزم أن لفظ وأبيه في كلام النبي ﷺ هاهنا شاذٌ غير صحيح.

وجاء هذا اللفظ أيضًا: «**وأبيه**» في كلام النبي ﷺ، أو فيما يروى عن النبي ﷺ في حديثين أيضًا كلاهما شاذٌ أيضًا، وخالف فيهما الراوي رواية من هو أوثق، -وقد بسطت هذا في دروسٍ ماضية، وأدع ذلك نظرًا لضيق الوقت-.

المقصود أنه لم يثبت في كلام النبي ﷺ -ولله الحمد- أنه حلف بغير الله، أما ما وقع في كلام أصحاب النبي ﷺ من حلفٍ بغير الله فإن النبي ﷺ نهاهم عن ذلك فانتهوا، وكل ما يُروى عن الصحابة في ذلك فهو محجوجٌ بنهى النبي ﷺ.

ثم إنه يُقال فيه إنه كان قبل نهي النبي ﷺ؛ لأنه كان أمرًا فاشيًا شائعًا في الناس.

إذًا هذا هو الصحيح الذي لا شك فيه أن الحلف بغير الله منكرٌ لا يجوز، وعلى المسلم أن يتقي الله ﷻ، قال ﷺ كما في ((الصحيحين)): «**من كان حالفًا فليحف بالله أو ليصمت**».

حذاري يا عبد الله!! أن يجري على لسانك الحلف بغير الله، حتى لو كنت حالفًا بالنبي ﷺ، فإنه هو ﷺ الذي كان ينهانا عن ذلك، ولا يجوز لمسلمٍ أن يتقصد عصيان النبي ﷺ، فكيف إذا كان كلام يوقعه في الشرك والكفر بقول الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن مسعود: "لأن أحلف بالله كاذبا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقا".

الشرح

أثر ابن مسعود رضي الله عنه أثرٌ عظيم يؤكد ما ذكرته لك سابقًا من أن الحلف بغير الله منكرٌ غليظ التحريم، بل من الشرك بالله ﷻ، وهذه الكلمة عن ابن مسعود رضي الله عنه جاء نحوها من كلام ابن عباس، ومن كلام ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنهُمۡ، ومن كلام الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما نقل هذا الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((الفتح)).

والمقصود أن ابن مسعود رضي الله عنه ذكر: أنه أن يحلف بالله كاذبًا أحب إليه من أن يحلف بغيره صادقًا، لاحظ هنا أن استعمال: "أفعل التفضيل" هو في استعمالها فيما ليس محبوبًا من الجانبين، فلا هذا ولا ذاك عنده محبوب، إنما هذا لبيان أن أحد الأمرين أشنع وأشد من الآخر.

ولاحظ أيضًا أن ابن مسعود رضي الله عنه حينما يحدثنا بهذا الكلام يستحضر خطورة وشناعة الحلف بالله كاذبًا، فهو الذي روى عن النبي ﷺ ما في الصحيح من قوله ﷺ: «**من حلف على يمين يقتطع بها مال مسلمٍ هو فيه كاذبٌ لقي الله وهو عليه غضبان**».

إذًا هو يستحضر أنَّ الحلف بالله كاذبًا منكرٌ عظيم، ومع ذلك يقول: هو أهون من الحلف بغير الله صادقًا؛ قال العلماء: لأنَّ سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب، ولأنَّ حسنة التوحيد أعظم من حسنة الصدق.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن حذيفة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان» رواه أبو داود بسند صحيح.

هذا كما سبق التنبيه عليه، وسيأتي إن شاء الله الكلام عن ذلك في بابٍ خاص نفصل فيه القول بإذن الله.

وجاء عن إبراهيم النخعي: أنه يكره أن يقول الرجل: (أعوذ بالله وبك). ويجوز أن يقول: (بالله ثم بك).

الاستعاذة بالله وبغيره -مضى الكلام فيها في بابٍ سابق- وعلمنا أن الاستعاذة لها وجهان: وجهٌ يتعلق بالقلب، ووجهٌ يتعلق بالجوارح.

أما ما تعلق بالقلب فإنه لا يجوز أن يكون لغير الله عَزَّوَجَلَّ، يجب أن تكون الاستعاذة بالله عَزَّوَجَلَّ وحده.

أما ما كان بغير القلب فإنه يجوز أن يكون: ١/بحي. ٢/حاضرٍ. ٣/قادر. وقلنا عليه يتنزل ما جاء في السنة كقوله ﷺ عن الفتن: «فمن وجد معاذًا فليعذ به»، دل هذا على أن الاستعاذة هنا من باب الاستجارة وطلب ما يدفع الشر عن الإنسان، وهذا جائزٌ إذا تعلق بحيٍ حاضرٍ قادر، إذا تعلق بالناس أو بالبشر فلا بُد أن تكون الاستعاذة بحيٍ حاضرٍ قادر.

وبالتالي أثر النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يؤكد الفرق عند السلف بين العطف (بالواو)، والعطف بـ (ثم) على ما مضى الكلام فيه فيما سبق.

قال: ويقول: (لولا الله ثم فلان)، ولا تقولوا: (ولولا الله وفلان).

كما مضى؛ يجوز أن تقول: لولا الله ثم فلان، ولا يجوز أن تقول: لولا الله وفلان، وبهذا ينتهي الكلام عن هذا الباب.

٦٤

٦٤- باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بابُ ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله.

فهذا الباب وبعض ما تقدم وجملة مما سيأتي، كلُّ تلك الأبواب قائمةٌ على الحث والتأكيد على تحقيق التوحيد وعلى البعد عن كل ما يخدِّشُ فيه أو ينقص من كماله.

التوحيد أصفى شيء وأنزه شيء ولذلك يؤثر فيه أدنى خادش، فهو كأبيض ثوب يؤثر فيه أدنى شيء، والمسلم مُطالبٌ أن يحرص على سلامة توحيده وعلى سلامة قلبه فإنَّ هذا الذي سلِمَ له قلبه، هو الذي ينجو عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء:٨٨-٨٩].

والقلب السليم هو الذي أسلَمَ وسَلَّمَ واستسلم وسَلِّمَ، سَلَّمَ من غير الله عَزَّ وَجَلَّ ولم يكن فيه مشارك له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بوجه من الوجوه.

إذًا من المهم على كل مسلم يريد نجاة نفسه أن يحرص على أن يرابط على ثغور قلبه وجوارحه وأن يحرص على مجانبة كل ما يؤثر في توحيده سواء كان ذلك مما يقدح في كمال التوحيد الواجب أو في كمال التوحيد المستحب، ومن باب أولى ما ينقض التوحيد من أصله.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "بابُ من لم يقنع بالحلف بالله"؛ يقنع بمعنى: يرضى، من قَنِعَ قنعًا وقناعة من باب تَعِبَ، فهو يعني: يقنع بمعنى: يرضى، وذلك أن من لم يقنع ويرضى بالحلف بالله جَلَّ وَعَلَا فإنه قد جاء فيه ذم ووعيد- كما سيأتي معنا في هذا الحديث-.

وهذا الباب عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأورد تحته دليلاً واحدًا، وهذا قد تكرر من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بعض الأبواب، والمقصودُ أنَّ الموحد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قلبه أعظم شيء، ولذا فإنه إذا حلف له بالله فإنه من تعظيمه لهذا لمحلوف يرضى بهذا الحَلِّفَ ويجل اسم الله عَزَّ وَجَلَّ ويعظمه عَزَّ وَجَلَّ إذا ذكر له، ولذلك فأنه يرضى ويقنع إذا حلف له بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

يشهد لهذا ما ثبت في الصحيحين من أن المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال النبي ﷺ رأى رجل يسرق، النبي ﷺ يذكر أن المسيح عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «رأى عيسى ابن مريم رجلا يسرق، فقال له أسرقت؟ قال: كلا والله الذي لا اله إلا هو. فقال عيسىعَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: آمنت بالله وكذبت عيني» وعند مسلم «وكذبت نفسي».

هذا الحديث فيه: أنَّ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ كان الله عَزَّ وَجَلَّ في قلبه عظيمًا حتى إنه لما دار الأمر بين ثبوت تهمة السرقة على هذا الإنسان بدليل مشاهدة العين وبين نفيٍّ هذه التهمة والدليل الحلف بالله رجح عَلَيْهِ السَّلَامُ ما دل عليه تعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ وهو الحلف به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعاد بالتهمة على عينه وعلى ظنه، ولعله قام في قلبه عَلَيْهِ السَّلَامُ أن هذا الرجل لعله أخذ مالًا له فيه حق، أو لعله لم يكن يريد السرقة إنما أخذ متاعًا يقلبه وليس بقصد أنه يستأثر به ويستولي عليه.

المقصود أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو من أئمة أهل التوحيد العظام بل هو أحد أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام صفوة البشر كان الله عَزَّ وَجَلَّ في قلبه عظيمًا حتى إنه قال هذه الكلمة التي تدل على تعظيمه لله «آمنت بالله وكذبت عيني».

إذًا المطلوب من المسلم أن يعظم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومن ذلك:

أنه إذا حُلِّفَ له بالله فإن عليه أن يرضى، وسيأتي معنا إن شاء الله تفسير المراد بالرضا إذا حلف له.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدُق، ومن حلف له بالله فليرضَ، ومن لم يرض فليس من الله». رواه ابن ماجه بسند حسن.

هذا الحديث خرجه ابن ماجه كما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكن الذي في ابن ماجه: «ومن لم يرضَ بالله فليس من الله».

إنما قوله: «ومن لم يرضَ فليس من الله» هذا عند البيهقي في ((السنن الكبرى)) وجاء عنده أيضًا رواية أخرى موضحة وهي: «ومن حُلف له بالله فلم يرض فليس من الله»، والمعنى على كل حال واحد.

هذا الحديث حديثٌ ثابت عن النبي ﷺ حسنه المؤلف -كما رأيت-، وجود إسناده الحديث: الشارح، وقال البوصيري: (رجاله ثقات)، وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((الإرشاد الفقيه)): إنَّ إسناده جيدٌ قوي، وكذلك حسنه العراقي وابن حجر وصححه أكثر من واحد من المعاصرين ومنهم المشايخ: ابن باز، والألباني، وأحمد شاكر رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، فالحديث حديث ثابت.

هذا الحديث اشتمل على أربع [جُملٍ]:

[الجملة الأولى]: قال النبي ﷺ : «**لا تحلفوا بآبائكم**»، وسبب هذا الحديث أن النبي ﷺ سمع رجل يحلف بأبيه فقال ﷺ هذا الحديث الذي بين أيدينا، قال: أولاً «**لا تحلفوا بآبائكم**».

والنهي عن الحلف بالآباء جاء كثيرًا في السنة، ومر معنا في دروس سابقة قول النبي ﷺ الثابت في الصحيحين: «**ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله، وإلا فليصمت**».

كما ثبت أيضًا في الصحيحين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**كانت قريشٌ تحلف بآبائها، فقال النبي ﷺ «لا تحلفوا بآبائكم»**»، وثبت في صحيح مسلم من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا تحلفوا بآبائكم ولا بالطواغي**» الطواغي: جمع طاغية .

كما أخرج ابن أبي شيبة من طريق عكرمة، عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «**كنت أحدث قوماً فقلت: لا وأبي. فإذا بصوت يقول: لا تحلف بأبيك. فألتفت فإذا النبي ﷺ يقول: لو حلف بالمسيح لهلك، والمسيح خير من آبائكم**»، قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (هذا مرسلٌ يتقوى بشواهده).

المقصود أن أحاديث نهيه ﷺ عن الحلف بالآباء أحاديث كثيرة عنه ﷺ وهذه الأحاديث لا مفهوم لها عند أهل العلم، يعني: هذه الأحاديث ليس لها مفهوم مخالفة فلا تدل على أن النهي إنما يتعلق بالحلف بالآباء بحسب.

وهذا لا يعني أنه يجوز أن يُحلف بغيرهم، ليس الأمر كذلك؛ إنما هذا كان منه ﷺ جريًا على الغالب، فإن الغالب من حلف أهل الجاهلية أنه كان بآبائهم؛ لعظمتهم في أنفسهم كما مر معنا منذ قليل من قول ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : كانت قريش تحلف بآبائها، وإلا فإن النبي ﷺ قد نهى بالحلف بغير الآباء أيضًا، فأنه نهى عن الحلف بالكعبة، كما سيأتي معنا أن شاء الله في حديث قتيلة -كما سيأتي في الباب القادم-.

كما أن النبي ﷺ قال: «**ليس منا من حلف بالأمانة**» وهذا حديث صحيح خرجه أحمد وغيره.

وكذلك النبي ﷺ نهى نهيًا عامًا وأمر أمراً عامًا، أما النهي العام فقوله ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»، وجاء عند عبد الرزاق من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: «**من حلف بشيء دون الله فقد أشرك**»، كذلك جاء الأمر منه ﷺ عامة فقال ﷺ: «**من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**»، هذا أمرٌ عام للحالف أن يحلف بالله فحسب، فإن لم يكن حالفا بالله فإنه يجب عليه أن يصمت، وهذا دليل على أنه لا يجوز الحلف بغير الله ﷻ.

والحلف بغير الله مضى الكلام فيه وبيان حكمه، وأنه على التحقيق: كما قال ذلك جمهور أهل العلم أنَّ الأصل فيه شركٌ أصغر، وقد يكون شرك أكبر إذا عَظَّمَ هذا المحلوف به في قلب الحالف حتى كان مساويا لعظمة الله ﷻ في قلبه، فإنه حينئذٍ يكون شركًا أكبر.

والواجب أن يُنْكر هذا المنكر، والواجب أن لا يجوز للإنسان أن يسكت عن إنكار هذا المنكر المنتشر وهو الحلف بغير الله ﷻ، ويكون المسلم في ذلك متأسيًّا برسول الله ﷺ، فإن النبي ﷺ ما سكت عن إنكار هذا المنكر، ولك يا عبد الله في رسول الله أسوة حسنة.

النبي ﷺ لما سَمِع من حَلَف بأبيه وهو عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ نهاه ﷺ عن ذلك ،كذلك ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا كما عند الترمذي سمع رجل يحلف بالكعبة قال: «**لا تحلف بالكعبة**»، بل جاء في رواية عنه أنه قال: «**ويحك لا تحلف بالكعبة فإني سمعت رسول ﷺ يقول: من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**».

ومن لطيف ما يذكر هنا ما أخرج أبو نعيم في ((الحلية)) عن نعيم بن جرير الأسلمي التابعي رَحِمَهُٱللَّهُ أنه رجل سمع يحلف بالأمانة، رجل يقول: والأمانة. فبكى رَحِمَهُٱللَّهُ، فقال له بعض من معه: ما يبكيك؟ قال: أما سمعت هذا الرجل يحلف بالأمانة؟ ولأنَّ تُحك أحشائي حتى تدمى خير عندي من أن يحلف بالأمانة.

المقصود أنَّ على الموحد أن يعظم الله ﷻ وأن يغار على حرمات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ومن ذلك: أن لا يرضيه أن يحلف بغير الله ﷻ، وعليه أن يسعى جهده أن ينكر هذا المنكر ممن وقع فيه، والله المستعان.

الجملة الثانية: «**من حلف بالله فليصدق**».

الصدق واجبٌ في كل الأحوال فكيف إذا كان الكلام مقرونًا بالحلف بالله، والكذبُ محرمٌ في كل الأحوال فكيف إذا كان مقرونًا بكلام فيه ذكر اسم الله ﷻ.

من كان حالفًا بالله ﷻ فواجب عليه أن يكون صادقًا في حلفه.

وإنَّ من المنكرات العِظَام أن يحلف الإنسان بالله ﷻ كاذبًا، هذا منكرٌ عظيم وإثمٌ بالغ، حتى إنَّ هذه اليمين غموس -نسأل الله السلامة والعافية-.

اليمين الغموس تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار -عافاني الله وإياكم-.

وقد ثبت في البخاري وغيره أن النبي ﷺ قال: «**الكبائر: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، والقتل، واليمين الغموس**».

وضابط اليمين الغموس: أن يحلف الإنسان كاذبًا عامدًا، من حَلَفَ بالله وهو كاذب وهو يعلم أنه كاذب فليبشر بأنه وقع في هذا الإثم العظيم، وهو أنه وقع في هذه اليمين التي تدع البلاد بلاقع.

إثمها عظيم والله، وأشد ما يكون ذلك إذا كان يُقتطع بهذا اليمين مال مسلم، ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينِ صَبْرٍ، يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ**» هذا الذي يَحلِفُ على شيء مضى أنه كان كذا وكذا، "والله أنه كان كذا وكذا" وهو كاذب في ذلك؛ لأجل أن يعتذر، أو لأجل أن يتملق، أو لأجل أن يقتطع حق غيره فأنه يكون قد وقع في هذا الإثم العظيم، ومن ذلك إنه يلقى الله ﷻ وهو عليه غضبان -نسأل الله السلامة والعافية-.

إذًا هذا القدر من الحديث وهذه الجملة من الحديث تدل على أمرين:

[الأمر الأول]: على وجوب الصدق عند الحلف بالله.

[الأمر الثاني]: على حرمة الكذب أشد التحريم إذا حلف به كذب ﷻ كذبا.

الجملة الثالثة: -فهي موضعُ الشاهد من هذا الحديث- وهي: قوله ﷺ: «**ومن حُلف له بالله فليرضَ**».

هذا الحديث محمولٌ عند أهل العلم على ثلاثة محامل:

المحمل الأول: هو في الأيمان في الدعاوى، فإنه إذا توجهت اليمينُ على المُدَّعَى عليه فحلف فإن على المُدَّعِي أن يرضى؛ لأن هذا حكم الله.

الأصل في الدعاوى قول النبي ﷺ: **«شاهداك أو يمينه»** كما جاء في حديث الأشعث بن قيس رضي الله عنه في الصحيحين لما كانت بينه وبين رجل خصومه، فقال النبي ﷺ: **«شاهداك أو يمينه»**.

فإذا توجهت اليمينُ حيثُ لم يكن عند المُدَّعِي بينة؛ فتوجهت اليمين عند المُدَّعَى عليه فَحَلَفَ، فما الذي يتوجبُ على المُدَّعِي؟

أنْ يرضى بذلك؛ لأنَّ هذا حكم الله وليس له أن يَعْتَرِّضَ على ذلك، وإن كان يعتقد في نفسه أن الحق له، لكنَّ الحكم الشرعي الدنيوي هو أن عليه أن يرضى بذلك، وإن كان له حق فإنَّ الله سبحانه وتعالى سيستوفيه له إمَّا في الدنيا وإلا في الآخرة.

إذاً هذا هو المحمل الأول وهو: أن يكون قوله ﷺ: **«ومن حُلف له بالله فليرضَ»** أي: في الأيمان في الدعاوى، وهذا المحمل محملٌ صحيح، وذهب إليه طائفة من أهل العلم ومنهم المؤلف رحمه الله، فإن الشارح الحفيد الشيخ سليمان رحمه الله ذكر في ((التيسير)) أنه قد حُدِّثَ أن المؤلف رحمه الله حمل الحديث على هذا المعنى.

أما المحمل الثاني فهو: أن من حلف له بالله فليرض ولا يجوز له أن يطلب الحلف بغيره.

إذا حُلِّفَ للإنسان بالله فإن الواجب عليه أن يكتفي بذلك، ولا يجوز له بحال أن يطلب أن يحلف له بغيره، كما قد يقع ذلك مما لا يعظم الله حق تعظيمه ولم يقدره حق قدره؛ إذا كان له حق يمين على صاحبه أو على خصمه فحلف له بالله فإنه يقول: لا لا أقبل.

لابد عنده حتى تشفى غلته وحتى ترضى نفسه لابد أن يحلف بأسياده وبطواغيته، عندها يرضى، أما إذا حُلِّف له بالله فإن هذا لا يكفيه، لابد أن تحلف بالسيد ولابد أن تلحف بالشيخ ولابد أن تحلف بهذا الذي يُشْركه مع الله عز وجل، بل ربما كان تعظيمه في قلبه أكبر من تعظيم الله؛ وهذا محمل صحيح أيضًا قال به بعض أهل العلم من حُلِّفَ له بالله فعليه أن يرض وأن يكتفي ولا يجوز له أن يطلب الحلف بغيره سبحانه وتعالى.

المحمل الثالث -وهو الذي قد يتبادر عند أكثر من يطلع على الحديث- وهو: أن من حُلِّفَ له بالله؛ حلف له أخوه بالله فإن عليه أن يرضى إذا تيقن صدقه، أو ترجح له صدقه، أو لم يتبين له كذبه.

عندنا ثلاث أحوال يجب وجوباً على الإنسان إذا حُلِّفَ له بالله فيها أن يرضى وأن يصدق، وهي:

[الحال الأولى]: أن يتيقن من صدق الحالف إذا حلف له لأي سبب كان،؛كأن يعتذر له مثلاً، أو يخبره بشيء هو فيه متشكك، فحلف له بالله أنه قد كان، وهو يتيقن صدقه، فواجب عليه أن يرضى وأن يصدق.

[الحال الثانية]: إذا غلب على ظنه صدقه، ترجح في نظره صدقه، فواجب عليه أيضًا أن يصدق.

[الحال الثالثة]: إذا لم يتبن له كذبه، ما عنده قرينة فضلًا أن يكون عنده دليل على أنَّ هذا الحالف قد كَذَبَ في حلفه، حينئذ عليه أن يُصَدِّق هذا الحالف، وهذا من تعظيم الله ﷻ، وفيه ما لا يخفاك أيضًا ما فيه من إحسان الظن بالمسلم، وفي هذا من المصالح العظيمة ما لا يخفى.

وإحسانُ الظن بالمسلمين هذه من الأمور التي أضحت غريبةً عند كثير من الناس بل حتى عند بعض طلاب العلم، والله المستعان.

وبالتالي: فإننا نفهم حينئذٍ أنه إذا لم تكن هذه الأمور الثلاثة فإنه لا يجب على الإنسان أن يرضى بهذا الحلف ولا أن يصدقه، وذلك في حالِ ما:

١/إذا تيقن كَذِبَ هذا الحالف.

٢/ غلب على ظنه كذبه.

٣/ قامت عنده قرينة على أنه كاذب في حلفه؛ كأن يكون ممن عُرِّفَ وعُهِّدَ عليه الكذب؛ فحينئذٍ لا يلزمُه ولا يجب عليه أن يصدقه.

ويشهد لهذا التفصيل: الحديثُ نفسه، ألم تر أنه قد قال ﷺ: «**من حلف بالله فليصدق، ومن حُلف له بالله فليرض**» فكأنه ﷺ قال: من حلف فصدق فأنه يجب الرضا بحلفه وتصديق حلفه.

هذا الذي يبدو، توجيه هذا الحديث على هذا المحمل، وكلُّ هذه المحامل الثلاثة صحيحة، وإذا أمكن حمل النص على أكثر من معنى هو فيها صحيح، فإن حملها على ذلك هو الذي ينبغي أن يكون والله تعالى أعلم.

الجملة الرابعة: قال ﷺ: «**ومن لم يرض بالله فليس من الله**»، وعلى رواية البيهقي أو ما أورده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ومن لم يرض فليس من الله**»، وعلى الرواية الثالثة: «**ومن حُلف له بالله فلم يرض فليس من الله**»؛ هذا دليلٌ على وجوب الرضا بالحلف بالله وعلى تصديق الحالف، وأنَّ مخالفة ذلك معصيةٌ بل كبيرة من الكبائر؛ لأن ضابط الكبيرة منطبق ها هنا، فهذا وعيد خاص أنَّ من لم يرض بهذا الحلف بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فليس من الله.

هذه الجملة تُستعمل عند العرب بمعنى التبري، بمعنى: أن يتبرأ إنسان من شيء أو من أحد فإنه يستعمل مثل هذه العبارة:

إذا حاوَلْتَ في أسَدٍ فُجوراً فإني لستُ منكَ ولستَ مني

كما قال النابغة الذبياني، ومراده بأسد ها هنا يعني: قبيلة أسد فإنه كان يدافع عنها.

إذا حاوَلْتَ في أسَدٍ فُجوراً فإني لستُ منكَ ولستَ مني

يعني: أنا برئ منك وأنت برئ مني.

والمعنى: أن من فعل هذا الفعل وهو عدم الرضا بالحلف بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإن الله عَزَّ وَجَلَّ برئٌ منه، وهذا يدلك على أنَّ من وقع في ذلك فقد وقع في أثم عظيم.

إذًا الخلاصةُ التي نصلُ إليها هي: أنَّ الحلف بالله عَزَّ وَجَلَّ يجب أن يكون فيه الإنسان صادقًا، ولا يجوز أن يحلف بغيره، وأنَّ من حُلِّفَ له بالله فمن تعظيم الله ومن إقدار الله أن يرضى الإنسان بهذا الحلف، ومن لم يرض فإنه مُتوعدٌ بهذا الوعيد.

٦٥

٦٥- باب قول ما شاء الله وشئت.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بابُ: قولٌ ما شاء الله وشئت.

فهذا بابُ قول ما شاء الله وشئت، أي ما حكم ذلك؟ هل هو من الشرك الأصغر أو هو من الشرك الأكبر؟؟

أمَّا كون ذلك شركاً فهذا ما دلت عليه الأدلة ومنها ما سيأتي فيما أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الأدلة الثلاث الأحاديث التي أوردها في هذا الباب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والظاهر والله أعلم أن هذا القول قول يرجع حكمه إلى الشرك الأصغر لما يدل عليه حديث الطفيل الآتي إن شاء، الله كون النبي ﷺ كان يمنعه الحياء من إنكار هذا اللفظ دليلٌ على أن هذا ليس من الشرك الأكبر، إذ يَبْعُد أن يكون هذا القول شركا أكبر ثم لا ينكره النبي ﷺ من أول وهلة.

أما في حال ما إذا عَظُمَ في قلب المتكلم هذا الذي سوَّى بينهم وبين الله ﷻ في المشيئة، كان في نفسه معظما كتعظيم الله فلا شك أن هذا من الشرك الأكبر.

والمحذور ها هنا هو في العطف بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والمخلوق بحرف (الواو) التي: تقتضي التشريك والتسوية، ولا شك أن هذا نوعُ تنديد، لا يجوز للمسلم أن يجعل في مقام التفويض والاعتماد والتعلق، أو في مقام التعظيم أن يجعل ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والمخلوق في سياق يوهم التسوية والمشاركة، فلأجل هذا نهت الشريعة عن استعمال هذا اللفظ وعن التكلم به وهو أن يقول: الإنسان "ما شاء الله وشاء فلان"، أو أن يقول: "ما شاء الله وشئت".

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وعن قُتَيْلَة: «أن يهوديا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أراد أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت» رواه النسائي وصححه.

هذا الحديث حديث قتيلة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وهي: قتيلة بنت صيفي الجُهنية.

قال أبو عمر ابن عبد البر إنها: (من المهاجرات الأُوَل)، وقيل: (إنها أنصارية)؛ قال ابن سعد: (ولا يُعرف لها إلا هذا الحديث).

هذه الصحابية الجليلة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا روت لنا أن يهوديا جاء إلى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون.

ولاحظ ها هنا أن النبي ﷺ أقرَّه على أن هذا الذي زعم أنه واقعٌ في بعض المسلمين شرك، ولم ينكره النبي ﷺ فدَّل هذا على أنَّ الذي ذكره هذا اليهودي من الشرك.

ذكر جملتين مما كان يقوله بعض المسلمين:

[الجملة الأولى]: الحلف بغير الله، حيث إن من المسلمين من كان يقول: والكعبة، وهذا ما مضى الحديث فيه، فكان من النبي ﷺ أن أمرهم إذا أرادوا أن يحلفوا بالله فيقولون: ورب الكعبة -وهذا مضى الكلام فيه مفصلا فيما سبق-.

الجملة الثانية: فهي موضع الشاهد من هذا الحديث، وهي أن من المسلمين من كان يقول: "ما شاء الله وشئت"، فأقر النبي ﷺ على أن هذه الجملة شرك بالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

وبالتالي: أمر النبي ﷺ أن يقول القائل عند هذا السياق الذي يُراد فيه إثبات المشيئة لله ﷻ وللمخلوق، أن يكون العطف بـ (ثم) فيقول القائل: ما شاء الله ثم شئت؛ وذلك أنه إذا لم يكن عطفٌ بـ(الواو) فلم يكن هناك مساواة، ولم يكن هناك تشريك، وذلك أنَّ (ثم) في اللغة تقتضي: الترتيب مع المهلة، وبالتالي انتفى المحذور وانتفى المحظور، فجاز للإنسان أن يقول: ما شاء الله ثم شئت.

ولاحظ يرعاك الله أن هذا المقام فيه ثلاث مراحل:

١/مرحلة محرمة.

٢/ مرحلة جائزة.

٣/ مرحلة فاضلة فيها الكمال.

أما المحرم الممنوع: فهو التشريك أو العطف بـ(الواو)، كأن يقول الإنسان: "ما شاء الله وشاء فلان"، أو: "ما شاء الله وشئت"؛ هذا الذي جاء النص على أنه من الشرك بالله -سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ- فهو إذا ممنوع.

أما الدرجة الجائزة: فهي العطف بـ (ثم)، فهذه جائزة كما دل على هذا هذا الحديث الذي بين أيدينا، وكما دل عليه أيضا حديث حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنهُ -وقد مر بنا في الباب الذي قبل السابق-، وهو باب قول الله تعال: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ

﴿تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢]، مر بنا حديث حذيفة ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان»**، خرجه أبو داوود بإسنادٍ صحيح.

فهذان الحديثان يدلان على هذه الدرجة الجائزة، وهي أن يعطف الإنسان بـ (ثم) التي تقتضي: الترتيب مع المهلة، وبالتالي ينتفي التشريك وتنتفي المساواة.

أما درجة الكمال، الدرجة الفاضلة: أن يفوض الإنسان المشيئة لله ﷻ وحده، فيقولُ: "ما شاء الله وحده"، وهذا ما دل عليه حديث الطفيل الآتي، ودل عليه أيضا حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الآتي.

إذًا عندنا حديثان دلا على الدرجة الجائزة.

وحديثان دلا على الدرجة الفاضلة، فإن شاء الإنسان أن يعطف بـ (ثم) فالأمر جائز، والأكمل والأفضل أن يجعل المشيئة لله ﷻ وحده فيقولُ: "ما شاء الله وحده".

حديثُ قتيلةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كما ذكر المؤلف خرجَّه النسائي رَحِمَهُ اللَّهُ وهو حديثٌ صحيح صححه النسائي كما نقل الحافظ في ((الفتح))، وصححه الحافظ أيضًا كما في ((الإصابة))، وصححه غيرُ واحدٍ من المتقدمين والمتأخرين، فهو حديثُ صحيحٌ ثابت، وفيه فوائد:

أولاً: أنَّ معرفة الحق لا تستلزم إتباعه، وأنَّ معرفة الإيمان لا تستلزم الإيمان، العلم لا يستلزم العمل استلزام العلة للمعلول، العلم سبب والسبب لا يستلزم المسبب؛ لمِ؟

لأن ثمة موانع تمنع من تأثير الأسباب، وبالتالي ليس كل من كان عالما بالحق كان عاملا بالحق.

ولذا تأمل ها هنا كيف أنَّ اليهود علموا هذه المسألة الدقيقة، لكنَّ هذا العلم ما نفعهم، فإنهم واقعون في فظائع كبيرة، كافرون بالله، مُكذِّبون لرسل الله، ناسبون الولد لله، يحرفون كتاب الله، مع هذه الفظائع كلها يعرفون هذه المسألة الدقيقة إذا ما قارناها بتلك المسائل الكبار.

ومن شواهد ذلك أيضا: قول الله ﷻ عن أهل الكتاب، أخبر الله ﷻ عن اليهود أنهم يعرفون نبينا ﷺ كما يعرفون أبنائهم فهل استلزمت هذه المعرفة اتباعهم النبي ﷺ؟ الجواب: لا.

إذن العلم لا يستلزم العمل ولا اتباع الحق استلزام العلة للمعلول، إنما العلم سبب، والسبب قد يؤدي إلى حصول المسبب وقد يكون ثمة مانع.

ولذلك كم من الناس من يعلم كثيرًا من الحق لكنَّه لا يعمل به، بل كم من أهل العلم الذين يعملون بضدِّ ما عملوا، والله المستعان.

[ثانيًا]: أنَّ من اليهود من عَلِمَ أو عَرَفَ الشرك الأصغر، وممن يَدَّعِي الإسلام من لم يعرف الشرك الأكبر، والله المستعان؛ هؤلاء يهود عرفوا هذه المسألة الدقيقة وهي من الشرك الأصغر، وإن مما يُؤْسَّفُ له أن من المنتسبين إلى الإسلام من لم يعرف الشرك الأكبر، وحرك ترى.

[ثالثًا]: معرفة أنَّ الإنسان قد يكون له فَهْمُ ثاقب، إذا كان له هوى، وهذا ما نبه عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسائل الكتاب، قال: (فهم الإنسان إذا كان له هوى).

هؤلاء اليهود ومنهم هذا اليهودي لما كان مراده انتقاصَ المسلمين وعيبهم، قَلَّبَ وفتش بنظر دقيق حتى وجد هذا العيب وهو أن من المسلمين من يقول: "والكعبة" أو "ما شاء الله وشئت"، فدَّلَ هذا على أنَّ صاحب الهوى قد يكون عنده فَهْمٌ دقيق ونظرٌ ثاقب للأمور.

وبالتالي: فإنه لا يُنْكَرُ حينئذ في أعداء الله عَزَّوَجَلَّ من يأتي بمسائل دقيقة وأمور ملفتة؛ لأنهم أصحاب أهواء يبحثون ويجدّون في النظر، فربما أتوا بكلام صوابٍ مفيد.

رابعًا: أنَّه قد يكون العدو البغيض سببًا لخيرٍ كثير، هذا الانتقاص وهذا العيب الذي كان من هذا اليهودي كان سببًا لحصولُ خيرٍ عظيم، وهو أن تنبه المسلمون لهذه المسألة، وبالتالي فربما يُقَدِّرُ الله عَزَّوَجَلَّ حصول الخير من طريق مكروه.

رب أمر تتقيه   جر أمراً تشتهيه

خامسًا: أن الحق يجب قبوله ممن جاء به، فلا يكون ضَلَالُ المتكلم بالحق مانعًا من قبول الحق، المسلم ينبغي أن يكون رائده الحق وأن يكون مطلوبه الصواب، وبالتالي: فإنه إذا وقف عليه من أي طريق كان، من طريق أهل الحق أو من طريق أهل الباطل، فلا ينبغي أن يأنف من قبوله، ولا ينبغي أن يستكبر من إتباعه، هذا الحق الذي قاله هذا اليهودي وصل إلى المسلمين من طريق ألدِّ أعدائهم وهم اليهود، ومع ذلك فإن النبي ﷺ قد قَبِلَ الحق وأمرهم بإتباعه.

وبالتالي فينبغي على الإنسان أن يُصْلِّحَ سريرة نفسه، وأن يجد القبول للحق في نفسه، وأن يكون مطلوبَهُ دائمًا، دائما يسعى إلى الحق، وينظر إلى الحق، بغض النظر عن الطريق الذي يصل إليه الحق من خلاله، وما أحسن تلك الوصية التي أوصى بها ابن مسعود ﷺ كما خرج ذلك أبو نعيم وغيره حينما جاء إليه ﷺ رجل يستوصيه، فقال ﷺ:(اعبد الله ولا تشرك به شيئا، وزُل مع القرآن حيث زال، ومن جاءك بالحق فأقبل منه، وإن كان بعيدا بغيضا، ومن جاءك بالباطل فأردد عليه، وإن كان حبيبا قريبا).

وأنبه في هذا المقام والشيء بالشيء يذكر، إلى أنه قد يستدل في هذا المقام بحديث مروي عن النبي ﷺ وهو أنه قال: «**الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحق بها**»، وهذا الكلام كلام حسن، وصحيح، إلا أن هذا الحديث لا يثبت عن النبي ﷺ، فقد خرجه الترمذي وغيره من إسناد ضعيف، بل ضعيف جدًا، فيه: إبراهيم ابن الفضل وهو: متروك.

على كل حال على المسلم أن يكون منصفا طالبا للحق كما دل على هذا هذا الحديث، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وله أيضًا عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنَّ رجلا قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: ((أجعلتني لله ندا؟! ما شاء الله وحده)).

الشرح

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وله، أي: للنسائي، أن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا حدث: «**أن رجلا قال للنبي ﷺ ما شاء الله وشئت. فقال ﷺ: أجعلتني لله ندا؟ ما شاء الله وحده**». هذا الحديث حديثٌ صحيح صححه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((المدارج))، ووصفه في ((الجواب الكافي)) بالثبوت، وحسنه العراقي وصححه من المتأخرين جمعٌ من أهل العلم، وهذا اللفظ الذي بين أيدينا لا أعلمه في ((سنن النسائي))، إنما الذي في ((الكبرى)): «**أجعلتني لله عِدلا**»، وهكذا وهو في مسند الإمام أحمد، أما لفظ (ندا) فهذا جاء عند البخاري في ((الأدب المفرد)) بإسنادٍ صحيح، قال النبي ﷺ «**جعلت لله ندا**».

المقصود أن النبي ﷺ جاء عنه في هذا الحديث لفظان:

[اللفظ الأول]: أجعلتني لله عدلا. [اللفظ الثاني]: جعلت لله ندا.

وهذا تفسير نبوي لقول الله سبحانه : ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾[البقرة:٢٢]، ويدلنا على أن التنديد قد يكون شركا أكبر، وقد يكون شركا أصغر، فهذا اللفظ التي بين أيدينا تنديد أصغر، نوع تنديد لا يبلغ إلى التنديد الكامل الذي هو الشرك الأكبر كالاستغاثة بغير الله ﷻ والمقصود أن هذا الحديث فيه: إرشاد النبي ﷺ إلى الدرجة الكاملة الفاضلة، وهي أن يقول الإنسان: "ما شاء الله وحده"، وذلك يدل على كمال التفويض والاعتماد والتوكل على الله ﷻ.

وقد يقول قائل: النبي ﷺ أنكر ها هنا وفي حديث قتيلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وفي حديث الطفيل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه التسوية بالواو، يعني العطف بهذا الحرف، فماذا نقول في بعض النصوص التي فيها العطف بالواو: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾[آل عمران:١٣٢]، ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[النساء:١٤]، ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[النساء:٥٩]، ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾[لقمان:١٤]

هذه نصوص وأمثالها كثير، فيها العطف بحرف (الواو) بين الله والمخلوق، فكيف نجمع بين النصوص التي بين أيدينا وهذه النصوص؟

قال بعض أهل العلم: إنَّ هذه الأحاديث التي بين أيدينا ناسخةٌ للأدلة التي فيها العطف بـ(الواو)، وهذا ما نحى إليه الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ في ((شرح مشكل الآثار))، لكن هذا التوجيه فيه ما فيه، والصواب والله تعالى أعلم أن يقال:

إن ثمة فرقا بين مقامين: بين مقام الأمر والنهي، ومقام التفويض والاعتماد والتعلق القلبي، أو مقام التعظيم.

فما كان السياق متعلقا بالتفويض والاعتماد والتوكل، فالواجب ألا يكون العطف بـ(الواو)، وكذا الأمر إذا كان المقام مقام تعظيم.

أما في مقام الأمر والنهي: فلا حرج، فالله ﷻ أمر بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، والله ﷻ أمر بالشكر له والشكر للوالدين، وهذا بالتالي جاز فيه العطف بـ(الواو)، والله تعالى أعلم.

من فوائد هذا الحديث:

[الفائدة الأولى]: أنْ نعلم أن هذه الألفاظ التي فيها التسوية والتشريك بين الله ﷻ والمخلوق في المقام الذي علمت وهو مقام التفويض والاعتماد والتعلق، أو مقام التعظيم، أنَّ هذا لا يجوز؛ وهذا مع الأسف الشديد ما وقع ويقع فيه كثير من الناس، ربما وقعوا في هذا القول أو في مثله أو في ما هو أشد منه؛ كقول بعضهم: "ما لي إلا الله وأنت"، "وأنا متوكل على الله وعليك"، "وأنا في حسب الله وحسبك"، أو "مالي إلا الله في السماء وأنت في الأرض"، وأمثال هذه الألفاظ التي هي مثل اللفظ الذي بين أيدينا في الكراهة والنكارة أو أشد.

أو يكون اللفظ من ألفاظ التعظيم، كقول بعضهم: "بسم الله والوطن"، أو "بسم الله والشعب"، وأمثال هذه الألفاظ، لا شك أن هذا كله مما لا يجوز للمسلم أن يقع فيه.

الفائدة الثانية: حرص النبي ﷺ على حماية حمى التوحيد، وإبعاده أمته عن كل ما يخدش أو يؤثر في توحيدهم، وأن قاعدة سد الذرائع من القواعد الشرعية التي ينبغي إعمالها من الدعاة وطلاب العلم.

الفائدة الثالثة: أنَّ حسن النية والقصد لا يمنع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبذل النصيحة، فإن من الناس ما إذا نبه على هذه الألفاظ ونحوها قال: "أنا نيتي طيبة وقصدي حسن"، فلماذا تنكرون عليّ أو تنكرون على غيري؟ الناس نيتها طيبة ولا يريدون تعظيم المخلوق كتعظيم الله.

والجواب عن هذا أن يقال: تأمل يا رعاك الله فيه هذا الحديث، أتظن أن الصحابي الذي قال هذه الكلمة جعل النبي ﷺ مساويًا لله في التعظيم؟ يعني: حينما قال الصحابي: ما شاء الله وشئت؛ أكانت التسوية والتشريك عنده في اللفظ، أو كان هذا معنى قائما في قلبه؟ كان معظما للنبي ﷺ كتعظيم الله؟ ما هو ظننا بأصحاب النبي ﷺ؟ لا شك أن المضنون بالصحابة أن تعظيم الله ﷻ في قلوبهم أكبر من كل شيء، وبالتالي: فإنَّ هذا الصحابي إنما وقع في خطأ لفظي، شَرَّكَ في القول ونيته حسنة، وقصده طيب، بل نيته خيرٌ من نيات المتكلمين في هذا العصر، ومع ذلك أترك النبي ﷺ النصيحة؟ أترك النبي ﷺ الإنكار؟

إذن لا ينبغي أن يكون حسن القصد حاجزًا دون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الفائدة الرابعة: ما نبه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن قول: "ما شاء الله وشئت" باللفظ فقط، عدَّه النبي ﷺ تنديدًا، فقال: «**أجعلتني لله ندًا؟**» قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

"[فكيف بمن قال]:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العممِ

والبيتين بعده؟!"

بالله ماذا كان الظن بالنبي ﷺ لو سمع مثل هذه الكلمات؟ ماذا كان قوله أو ما يُظن أنه يقوله ﷺ لو سمع البوصيري أيضا في ((همزيته)) وهو يقول: يخاطب النبي ﷺ يقول:

هذه علتي وأنت طبيبي   ليس يخفى عليك في القلب داء

ماذا كان ﷺ نظنُ أنه يقول في حق من قال في مخاطبة النبي ﷺ:

فأقلني عثرتي يا سيدي في   اكتساب الذنب في خمسين عاما

ماذا كان يقول النبي ﷺ في أمثال هذه الألفاظ، وهذه الأبيات، وهذه الجمل؟ التي إذا ما قيست بكلمة "ما شاء الله وشئت" وجدت أنه لا يمكن أن تُقاس، ولا يمكن أن يقارن الفحش والشرك بين هذه الألفاظ وبين هذه الجملة.

إذن على المسلمين أن يعرفوا التوحيد، وأن يعظموا الله، وأن يتنبهوا إلى المحذورات الشرعية.

النبي ﷺ يغضب وينكر لفظًا قيل بالكلام فقط "ما شاء الله وشئت"، فيقول النبي ﷺ: «**أجعلتني لله عِدلاً؟ جعلت لله ندا؟ بل ما شاء الله وحده**»، وهذا اللفظ جاء -كما عندنا في نسخة المؤلف-: «**ما شاء الله وحده**»، وجاء أيضا: «**بل ما شاء الله وحده**»، وجاء أيضا: «**قل ما شاء الله وحده**».

الفائدة السادسة: وهي أنه إذا ما أُغلق باب الحرام ينبغي فَتُح باب الحلال، إذا ما نبه الداعية إلى الله على أمرٍ مُنْكر فإن من المستحسن، والذي ينبغي مهما أمكن أن يُبيّن المخرج؛ النبي ﷺ بيّن أن هذا اللفظ منكر؛ ومع ذلك عطف ﷺ بيان اللفظ الصواب والمخرج من هذا الخطأ، وهو أن يقول الإنسان: (ما شاء الله وحده)، وهكذا ينبغي أن تكون سيرة الدعاة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما أمكن إلى ذلك السبيل، وهو أنهم إذا نهوا عنه شيء فتحوا الأبواب المباحة أو المسنونة المستحبة، والله عَزَّ وَجَلَّ أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولابن ماجهْ، عن الطفيل -أخي عائشة لأمها - أنه قال: رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: عزيرٌ ابن الله. قالوا: وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. ثم مررت بنفر من النصارى فقلت: إنكم لأنتم لقوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، قال: هل أخبرت بها أحدا؟ قلت: نعم قال فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإن طفيل رأى رؤيا، وأخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا ما شاء الله وحده.

هذا الحديث حديث الطفيل بن سخبرة الأزدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهو أخو عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا لأمها، أخوها وأمهما أم رومان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وهو أكبر منها، وأكبر من أخيها عبد الرحمن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهذا الصحابي كما قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لا يُعرف له إلا هذا الحديث).

فمعنا إذن في هذا الباب صحابيان جليلان رويا حديثا واحدا هو الحديث الذي بين أيدينا، قتيلة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، و الطفيل بن سخبرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وهذا الحديث عزاه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى ابن ماجه، وهذا المقام فيه أو يحتاج إلى شيء من التوضيح، وذلك: أن الذي في ابن ماجه أنه أخرج الحديث من طريق سفيان بن عيينة، عن عبد الملك بن عمير، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة رضي الله عنه بلفظٍ نحو هذا بين أيدينا، ثم قال: (وبنحوه عن الطفيل)؛ ولم يسق هذا الحديث الذي بين أيدينا، فنسبته إذن إلى ابن ماجة بهذا الإطلاق فيها نظر.

إنما قريب من هذا اللفظ جدا ما أخرج الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الطفيل بلفظ قريب مما بين أيدينا.

والحديث كما قد سمعت رواه سفيان ابن عيينة، عن عبد الملك بن عمير، عن ربعي ابن حراش، عن حذيفة، وخالف في ذلك جمعٌ من الحفاظ؛ فأبو عوانة وكذلك حماد بن

سلمه وكذلك، شعبة روى هؤلاء الحفاظ الثقات الثلاثة، هذا الحديث عن عبد الملك بن عمير، عن ربعي، عن الطفيل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ورواية هؤلاء لا شك أنها أثبت وأرجح، وهذا ما رجح الحفاظ، ومنهم البخاري رَحِمَهُٱللَّهُ في ((التاريخ الكبير)).

فالحديث حديث الطفيل لا حديث حذيفة، وإنما حصل وهمٌ من سفيان رَحِمَهُٱللَّهُ في نسبته إلى حذيفة رضيَّ الله تعالى عن الجميع.

المقصود: أن هذا الحديث حديث صحيح، بل قال البوصيري في ((الزوائد)): (إنه على شرط مسلم)، وصححه وغيره من أهل العلم.

وفيه: ذكر رؤية، رؤية منامية رآها الطفيل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ، ثم لما استيقظ حدَّث بها من حدث أهله، ثم ذهب إلى النبي ﷺ وحدثه بها، فكان أن خطب النبي ﷺ ونبه إلى ما قد سمعت، ففي هذا الحديث الدلالة التي سبقت في حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُماوذلك أن الأكمل والأولى والأعقل أن يقول الإنسان في هذا المقام: (ما شاء الله وحده). وهذا هو الأكمل، ويجوز قول: (ما شاء الله، ثم شاء محمد)، أو (ثم شاء فلان أو ثم ما شئت).

وبقيت مسألة واحدة في هذا الحديث: وهو قول النبي ﷺ: **«كان يمنعني كذا وكذا»**، وجاء في بعض روايات الحديث توضيح هذا المبهم، وهو" أنه كان يمنعه الحياء ﷺ من إنكارها، ومعلومٌ من كان عليه النبي ﷺ من الحياء العظيم، حتى إنه كان أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها.

وقد يقول قائل: كيف يترك النبي ﷺ إنكار المنكر حياءً من الناس؟

والجواب عن ذلك أن يُقال: إنَّ النبي ﷺ كَرِّهَ هذا اللفظ الذي أَلِفَهُ هؤلاء الناس، ولكنه لم يوحَ إليه فيه شيء، ثُمَّ بسبب ما كان من هذه الرؤيا أوحيَّ إلى النبي ﷺ فكان منه البلاغ والإنكار.

هذا الذي يبدو في توجيه هذا الحديث والله تعالى أعلم.

٦٦

٦٦- باب من سب الدهر فقد آذى الله.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بابُ من سب الدهر فقد آذى الله.

فلا يزالُ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوالي عقد الأبواب التي فيها التنبيه، والتحذيرُ؛ عمَّا يقدحُ في كمال التوحيد الواجب ومن ذلك ما يتعلق بسب الدهر الذي يكون قادحًا في كمال التوحيد، وقد يكونُ ناقضًا لأصل التوحيد.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ باب من سب الدهر فقد آذى الله؛ الله ﷻ قد يؤذيه عباده لكنهم لا يضرونه دل على هذا الكتاب، والسنة.

أما فيما يتعلق بالأذى: فمن ذلك قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾[الأحزاب:٥٧]، وقال النبي ﷺ كما في الصحيحين: «من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله»، كما ثبت أيضاً في الصحيحين قول النبي ﷺ: «لا أحد أصبر على أذىً سمعه من الله، ينسبون له الولد وهو يرزقهم ويعافيهم»؛ فالأذى قد يكون من المخلوقِ بحق الخالق ﷻ ولكنه ليس كأذى المخلوقِ للمخلوقِ، فالله أعز شأنًا، وأرفع قدرًا، وليس كمثله شيء، وإذا كان ثمة أذى من المخلوقِ في حق الخالق فإن هذا ليس في حقه نقصًا، فإن الله ﷻ يتنزه عن كل نقص، والله أعلم بكيفية هذا الأذى.

أما الضرر فإنه لا ينال الله ولا يلحقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الضرر أشد وقعًا، وأعظم أثرًا من الأذى؛ الأذى يستعمل فيما يخف: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾[آل عمران:١١١].

الضرر لا يقع على الله، والعباد لا يضرون الله قال ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾[آل عمران:١٧٦]، وكذلك قال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني»، والحديث في ((صحيح مسلم)).

إذن العباد قد يؤذون الله، ومن ذلك سب الدهر؛ لأنه في حقيقته راجعٌ إلى من يدبره ويقلبه وهو الله ﷻ.

أما الضرر فإنه لا يكون في حقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **باب من سب الدهر**، السب معروف هو: الشتمُ، والعيبُ، والتنقيص، وهو درجات متفاوتة ولكل درجة حكمها.

والدهرُ يطلق على الصحيح على أمرين:

أولًا: على الأبد، يطلق الدهر على الأبد.

والمعنى الثاني: هو عمر الزمان أو الوقت الطويل.

إذن عمر الدنيا يعني من مبدئها إلى منتهاها هذا يسمى: الدهر، والمدة من هذا الوقت الطويل الذي هو من مبدأ الدنيا إلى منتهاها يسمى: دهرًا؛ يعني: يطلق على الزمان الطويل، ويدل على هذا قول الله ﷻ: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾[الإنسان:١]، قَالَ النبي ﷺ: «لو أحسنت إلى أحداهن الدهر ثم رأت منك ما تكره قالت: ما رأيت منك خيرا قط».

المقصود أن الدهر يطلق: على الأبد، كما يطلقُ على: عمر هذه الدنيا، عمر هذا العا لم.

ويطلق أيضا على: المدة من الزمان، لكنَّ العرب لا يستعملون ذلك إلا فيما طال فيه الوقت، ما قَصُر لا يُستعمل في حقه إنه دهر، فإنهم يقولون مثلًا: "نزلنا ها هانا دهرًا"، والمراد: وقتًا طويلًا، وهذا هو المقصود بعقد هذا الباب؛ وهذا ما هو يتعلق بالزمن سواء تعلق بعمر الدنيا، أو تعلق بالمدة المعينة من هذا الزمن فإن ذلك كله داخل في معنى الدهر.

والباب على كل حال يشمل المدة الطويلة والقصيرة، وأنه لو سب الإنسان ساعة أو يومًا فإنه داخل في حكم هذا الباب الذي نتحدث عنه.

وفي الجملة ما يرجع إلى هذا الموضوع من حيث الحكم يمكن أن يُقَّسَمَ إلى عدة أقسام:

أولًا: أنه يسبُ الدهر على أنَّه الفاعل المؤثر المدبر، يُسَّبُ الدهر على أنه هو الذي يفعل وهو الذي يؤثر، وهذا لا شك أنه شركُ أكبر.

ثانيًا: أن يسب الدهر والمراد من يدبره وهو الله ﷻ يعني: يسب إنسان الدهر وهو يستحضر أن ما يقع عليه من الشدائد والمحن التي كرهها، والتي سب الدهر والزمان لأجلها،

يستحضرُ أن هذا السب يريد به من فعل ذلك وهو الله ﷻ ولا شك أن سب الله ﷻ كفرٌ باتفاق المسلمين، وهذا معلومٌ من الدين بالضرورة.

ثالثًا: سبُ الدهر باعتباره ظرفًا ووعاءً حصل فيه ما يكره الإنسان، وهذا الذي يقع كثيرًا من الناس، لا يريد من دبره، ولا يريد أنه يتصرف ويدبر بنفسه، إنما سبه لأنه زمانٌ وقع عليه فيه ما يكره فهذا محرمٌ وليس بشرك.

[رابعًا]: الإخبار المحضُّ بشدة في الزمن بحيث لا يدل الكلام على عيب، وتنقيص وسب، أو على تلوم وقدحٍ في القدر فإذا أخبر الإنسان عن شدة في الزمان فقال: "كان ذلك اليوم علي شديدًا"، فإن هذا ليس فيه شيء هذا قدرٌ جائز وهذا قد جاء في كتاب الله في غير ما موضع قال ﷻ: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾[فصلت:١٦]، ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [القمر:١٩]، ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[هود:٧٧]، كذلك قال ﷻ: ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾[يوسف:٤٨].

فدَلَّ هذا على أن الإخبار عن شدةٍ في الوقت، أو الزمان نالت الإنسان، فيخبرُ به إخبارًا محضًا، أن هذا القدر جائزٌ لا بأس فيه كما دل على ذلك الأدلة التي سبقت.

إذن الأحكام المتعلقة في هذا الباب تعود إلى هذه الأحوال الأربع، منها:

حالان: يكون الحكم فيهما الشرك والكفر.

وحالٌ الحكم فيها: التحريم.

ورابعةٌ يكون الحكم فيها: الجواز.

وهذا الموضوع من الموضوعات التي ينبغي التنبه لشأنها لكثرة الخطأ، وكثرة الغفلة عن مراعاةِ هذا المقام العظيم الذي يتعلق بتحقيق الأدب من المخلوق للخالق سبحانه وتعالى.

مراعاة الأدب مع الله ﷻ تقضي أن يتحفظ الإنسان في كلامه؛ لأنه قد يقول قولًا يعودُ حكمه إلى ربنا سبحانه وتعالى يعني: يلزم من هذا الكلام أن تعود المسبة أو يعود القدحُ إلى ربنا سبحانه وتعالى ولا شك أن هذا من نقص التوحيد، ومن ضعف الإيمان بالله سبحانه وتعالى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[الجاثية:٢٤]. الآية.

هذه الآية في سورة الجاثية فيها كلام طويل لأهل التفسير: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[الجاثية:٢٤]، في هذه الآية أخبر الله ﷻ عن أمرين يعتقدهما طائفة من المشركين:

الأمر الأول: هو نفي البعث، واعتقاد أن لا بعث، ولا حشر، ولا جزاء، وهذا معتقدُ عامة المشركين وهذا الذي دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾.

إذن ما ثمة شيء وراء ذلك، ما هي إلا أرحام تدفع، وأرضٌ تبلع، وليس وراء ذلك شيء، لا حشرٌ، ولا بعثٌ، ولا حسابٌ، ولا جزاء.

وهذا -كما ذكرت لك- معتقد عامة المشركين، بل هذا الأمر كان أعظم ما تشدد فيه المشركون بعد قضية التوحيد، أعظم ما أنكره المشركون مما جاء به النبي ﷺ بعد التوحيد هو أمر البعث قالﷻ عنهم: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾[النحل:٣٨]، ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة:١٠].

إذن كان القوم يتشددون جدًا في نفي وإنكار البعث، فإذا مات الإنسان لا شيء وراء ذلك، ينتهي، ويضمحل، ويضلُ في الأرض ولا شيء بعد.

إذن المعتقد العام السائد لدى المشركين، وإن كانت بعض أشعار العرب وبعض منثور قولهم من إشعار العرب وبعض مأثور قولهم قد جاء فيهم إلى ما يشهد أن قلة من المشركين كانت تعتقد بثبوت البعث، لكنَّ العامة كما ذكرت لك هم على هذا المعتقد وهو ما جاء في هذه القطعة من الآية.

الأمر الثاني: هو قول الله ﷻ: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[الجاثية:٢٤]؛ هذا البيان من الله ﷻ عن حال هذه الطائفة من المشركين فيها إشارة إلى معتقد الدهرية من المشركين.

الدهرية هم القائلون: بقدم العالم، ونفي الصانع ﷻ يسمى هؤلاء بالدهرية؛ وهذا كان معتقدَ طائفة من المشركين، وطوائف من الفلاسفة وأضرابهم، يُقال عن هؤلاء إنهم الدَّهرية، وبعض الناس يقولون أنهم: الدُّهرية -بضم الدال- وهو نسبةٌ سماعيةٌ عند هؤلاء على غير قياس، والأقرب والله أعلم أنَّ القول بالدهر يسمى أهله: دَهرية.

وأما الدُّهرية فواحد الدُّهري: الذي طعن، الكبير في السن، الكبير في السن الذي مضى عليه دهرٌ طويل فإنه يقال في حقه أو يوصف بأنه: دُهرِّي.

مهما يكن من شيء سواء كان اللفظ دَهري أو دُهري فإن هؤلاء الدَّهرية -كما ذكرت لك- هم القائلون بقدم العالم ونفي الصانع، وهم طوائف، ولهم أقوال شتى، من هؤلاء:

[الطائفة الأولى]: من كان يعتقد بثبوت الخالق ﷻ لكنهم يسندون التأثير، والتدبير في الإحياء، والإماتة وجميع ما يكون في هذا الكون، ينسبون ذلك كله إلى الكواكب وحركات الأفلاك.

[الطائفة الثانية]: تعتقد بأن الله ﷻ خلق هذا الكون بما فيه، لكنه فَنِيَّ بعد ذلك، فقالوا – تعالى الله على قولهم- فأصبح هذا الكون يسير نفسه، ويدبر نفسه.

[الطائفة الثالثة]: الذين ينفون وجود الله ﷻ بالكلية، هؤلاء قولهم يضارع قول ملاحدة هذا الزمان.

كل أولئك يسمون عند أهل العلم الدَّهرية، وهو لفظٌ مولَّدة، على كل حال.

المقصود أن العرب في الجاهلية وهم الذين تنزلت هذه الآية في حقهم كانوا يعتقدون أو كان منهم من يعتقد بعقيدتين من عقائد الدهرية:

منهم من: كان يعتقد بنفي وجود الله ﷻ بالكلية وهؤلاء قلة قليلة منهم.

وطائفة أخرى: كانت تعتقد بوجود الله لكنها تنسب ما يتعلق بالإحياء والإماتة وغير ذلك من التصرف في هذا الكون إلى غير الله ﷻ إلى الدهر إلى حركات الأفلاك إلى النجوم والكواكب.

هذه بعض أقول هؤلاء الذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[الجاثية:٢٤]، فهؤلاء لاشك أنهم مشركون، وشركهم راجع إلى توحيد الربوبية، كما أنهم أضافوا إلى هذا الشرك في توحيد الألوهية قولهﷻ: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾؛ دالٌ على ثبوت هذا المعتقد عند هؤلاء.

ولا شك أنَّ هذا المعتقد كان له أثرٌ في كثير من أهل الجاهلية، وإلا لم يكونوا قائلين بالقول الذي قاله هؤلاء الدهرية بتمامه، إنما كان لهم قولٌ في غيره، ولذلك إذا تصفحت كثير

من كلام أهل الجاهلية في أشعارهم وفي خطبهم وفي غير ذلك تجد أنهم يجعلون شيئًا من التأثير للدهر وللأيام وللزمان، تجد أنهم يقولون: "عبثت به يد الدهر"، "وفعل به الدهر كذا وكذا"، وهذا كله من فروع معتقدِ أولئك الدهرية.

ها هنا سؤال وهو قد يقول قائل: ما علاقة هذه الآية بهذا الباب؟ يعني: لماذا أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية في هذا الباب مع أن الباب متعلق بسب الدهر، والآية ليس لها تطرقٌ لهذا المعنى، الآية فيها إثبات التأثير، وهذا إلى جانب التعظيم أقربُ منه إلى جانب السب، إذن لماذا أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية؟

والجواب: أنَّ إيراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذا الآية من فقه، ودقيق نظره، وذلك لأنَّ هذه الآية مقدمةٌ مُمهدةٌ لِفَهْمِ الحديث الذي سيأتي بعدها، يعني سيأتي معنا في الحديث ما يتعلق بسب الدهر، والقوم ما سبوا الدهر إلا لوجود اعتقادِ التأثير من الدهر فيما يكون، فلأجل هذا سبُّوا الدهر.

إذن سبهم للدهر قد يكون راجعًا إلى اعتقاد تأثير الدهر، وهو ما دل عليه هذه الآية التي معنا، والله تعالى أعلم.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي الصحيح: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: «يؤذني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار».

وفي رواية: «لا تسبوا الدهر، فإنَّ الله هو الدهر».

هذا الحديث نسبه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الصحيح والمراد: جنس الصحيح والحديث في الصحيحين بروايات متعددة، كما جاء في غير الصحيحين وهذا الحديث كما ترى أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحديث حديث أبي هريرة بصيغتين:

صيغة الحديث القدسي، وهذه رواية.

وصيغة حديثٍ نبوي؛ وهو قول النبي ﷺ: **«لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»**.

ولاحظ أن الحديث الأول، الحديث القدسي الذي أورده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه إثبات الأذية في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بسبِّ الدهر يدل على هذا قوله في الحديث: «**يؤذيني ابن آدم**» وهذا ما جعله المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تبويبه نتيجةً لسب الدهر.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «**يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهرُ أقلب الليل والنهار**».

معنى هذا الحديث: إخبار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن أنه يؤذيه ابن آدم؛ ذاك الذي يسب الدهر، ويسب الزمان، ويسب الوقت؛ لأنه ناله فيه ما يكره، نزلت عليه محن، نزلت عليه مصائب وشدائد، فالأجل هذا فإنه يسب الوقت والزمان الذي ناله فيه ما ناله، هذا السب للدهر هو في حقيقته ليس راجعًا إلى الوقت؛ لأن الوقت ظرفٌ وعاءٌ، عرضٌ ليس منه تصرف وليس منه تأثير، إنَّما عاد السب في الحقيقة إلى من أوقع هذه الأشياء وقدَّرها، إلى الفاعل الحقيقي وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فعاد السب إذن إلى من صرَّف الدهر، ولا شك أن هذا من المنكر العظيم الذي وقع فيه طوائف من الناس قديمًا وحديثًا.

إذن السب في حقيقته راجعٌ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه هو الذي أوقع هذه الأشياء التي دفعت هذا الذي سب الدهر إلى سب الدهر، هذا كمثلِ رجلٌ حكم عليه قاضٍ بما يكره، فقال: "لعنة الله على من قضى بهذا القضاء". وكان الواقع أن هذا كان قضاء النبي ﷺ والقاضي الذي حكم ما هو إلا مبلغٍ لقضاء النبي ﷺ، فكان الأمرُ في حقيقة الحال عَوْدُ اللعن على الذي قضى بهذا، وهو رسول الله ﷺ، والقائل بذلك لا يقصد ذلك ولا يريده، لكن هذه هي الحقيقة.

إذا كان ذلك كذلك في هذا المثل، مع أنَّ القاضي كان له نوع تأثير، وهو الإبلاغ، فكيف بالزمن والوقت الذي ليس له أي تأثيرٌ على الإطلاق؟!

إذن عاد السب لهذا السب للزمن في حقيقته إلى من تَصرَّف وقدَّر، وأمر أمرًا كونيًا بوقوع المصاعب والشدائد، «**يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهرُ، أقلب الليل والنهار**».

إذن معنى قول النبي ﷺ: «**وأنا الدهر**» يعني: أنا مدبر الدهر، ليس هذا من التأويل في شيء، هذا كلامٌ مفسر، فسره من تكلم به وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الله ﷻ أخبر أنه الدهر؛ لأنَّ هذا هو اللفظ الذي يريده ويعنيه هؤلاء المشركون عن سب الدهر لوقوع المحنة فيه؛ فأراد الله ﷻ أن يبّين لهم أن السب عائدٌ إليه؛ لأنه هو الذي دبر هذا الدهر، وقلب هذا الدهر، وهو الذي تصرَّف في هذا الدهر.

الله ﷻ من حكمته قد يوقع ما يشاء من المصائب في هذه الدنيا لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى، ومن الحكم التي جعل الله سبحانه وتعالى تقدير هذه المحن راجعًا إليها هو أن يحصل للعباد تذكرٌ وتفكرٌ، وعودة إليه سبحانه وتعالى وتوبة وأوبة، قال ﷻ: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ﴾؛ يعني: بالنعم، ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾؛ يعني: الشدائد ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الأعراف:١٦٨]؛ يرجعون إلى الله ﷻ يرجعون عن غيرهم إلى سبيل الرشد: ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الأنعام:٤٣].

إذن من حَكم إيجاد هذه المصائب في هذه الدنيا حصول التذكر، لكن هؤلاء الذين ما كَمُلَّ إيمانهم ولا عظم تعظيمهم لله سبحانه وتعالى ما لجأوا إلى الله، ولا رجعوا إلى الله، إنما ذهبوا يسبون الدهر، ويطعنون فيه ويعيبونه، فكانت حقيقة الحال عَوْدُ ذلك الطعن إلى من دَّبر وصرَّف وهو الله سبحانه وتعالى.

وهذا ما لا يشك فيه مسلم، أن الله ﷻ هو المدبر، وأن الله ﷻ هو الذي يقلِّبُ الليل والنهار، ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[المؤمنون:٨٠].

إذن كان الواجب أن يراعى مقام الأدب مع الله ﷻ، وأن يبادر الإنسان بالتوبة إلى الله حتى يرفع الله سبحانه وتعالى هذا البلاء عمن أصابه.

وهذا -كما ذكرت لك- شائعٌ واقعٌ في عالم الناس، في القديم والحديث إلا من رحم الله، فإن نظرت في أحوال العرب في الجاهلية وجدت من هذا الشيء الكثير، وإن نظرت إلى حال الناس في ظلال هذا الدين وفى المنتسبين إلى هذا الإسلام، وجدت مع الأسف الشديد شيئًا من كلام الناس لا سيما في الأوقات الشديدة وعند نزول المصائب.

كم تجدُ في كلام الناس الذمَّ والعيبَ للزمان، يقولون: "هذا زمنٌ غدار"، "هذا زمن أغبر"، "هذا وقتٌ جائر"، و"هذا زمنٌ أسود"، وربما منهم من يلعن اليوم الذي تزوج فيه، أو اليوم الذي لقي فيه فلانًا، إلى غير ذلك مما يكون في كلام الناس.

وإذا فتشت في الأشعار فحدث ولا حرج، أيضاً تزخر كتب الأدب مع الأسف الشديد بطائفة كثيرة مما يرجع إلى هذا المعنى، ومن ذلك قول المتنبي مثلًا:

قبحًا لوجهك يا زمان فإنه وجهٌ له في كل قُبح برقُع

وما بعد هذا أيضا من الأبيات كلها في ذم الزمان وقدح فيه إلى غير ذلك، ومن ذلك أيضاً قول أخر:

يا دهر ويحك ما أبقيت لي أحدًا وأنت والد سوءٍ تأكل الولد

إلى غير ذلك مما يكون فيه كلام الناس مع الأسف الشديد.

وعلى كل حال هذا الذي يسبُ الدهر لا يخلو من أمرين:

[الأمر الأول]: أن يكون واقعًا في الكفر والشرك.

[الأمر الثاني]: أو يكون واقعًا في السب المنكرِ المحرم.

أما كونه واقعٌ في الشرك بالله ﷻ فعند اعتقاد أنَّ الزمان والوقت والدهر هو الذي تصرَّف، وهو الذي أثر بمشيئته استقلال عن مشيئة الله ﷻ، وهذا لا يشك مسلمٌ أنه شركٌ أكبر.

أو أن يكون سب الدهر وهو يستحضرُ ويريد سب مدبره وهو الله ﷻ فهذا أيضاً بالإجماع أنه كفرٌ بالله ﷻ.

وقد يكون واقعٌ في منكر وكبيرة من كبائر الذنوب، حينما يسبُ الزمان والوقت وهو لا يريد مدبره وهو الله ﷻ، هذا منكرٌ ومحرمٌ ولا يجوز، ناهيك عن كونه -أعني هذا السابَّ- وفي الحقيقة حاله وقع في سُخْف ووقع في حُمْق، وذلك أنه سب من لا يستحق السب، هذا مجرد عرَض، مجرد وعاء، مجرد ظرف، في أي شيء يسب هذا الوقت؟ فدل هذا على أن سبه لازمه وقوع على الله ﷻ المصرف لهذا الزمان.

بقيت عندنا مسألة يتطرق إليها أهل العلم في هذا المقام وهي:

مسألة تسمية الله ﷻ بالدهر:

فإنَّ طائفة من أهل العلم ذهبوا إلى أن من أسماء الله ﷻ الدهر، وهذا ما ذهب إليه نعيمٌ بن حماد الخزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وطائفة من أهل العلم، ومن أولئك أيضاً ابن حزم الظاهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هؤلاء ذهبوا إلى أنَّ الله ﷻ يسمى بالدهر.

والصحيح الذي عليه جماهير أهل العلم أن الله ﷻ لا يسمى إلا بما سمى به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ والدهر ليس من هذه الأسماء.

الأسماء توقفيه، والدهر ليس منها، لكنَّ هؤلاء قالوا دليلنا على ذلك هذا الحديث الذي بين أيدينا، وهو قول الله ﷻ: **«وأنا الدهر»**، وكذلك قول النبي: ﷺ **«فإن الله هو الدهر»**.

إذن هذا دليلٌ صحيح على ثبوت هذا الاسم على الله ﷻ، هكذا قالوا.

والجواب عن هذا: أن بعض أهل العلم ذهبوا إلى أن القراءة الصحيحة للحديث القدسي هي: **«وأنا الدهرَ أقلب الليل والنهار»**، ليس **«أنا الدهرُ»** إنما: **«وأنا الدهرَ أقلب الليل والنهار»**، يعني: أنا خلال هذا الزمن، أقلب الليل والنهار، فكان الدهرُ برواية: الفتح، صار ظرف زمانٍ وليس خبر، وهذا ما حكاه الخطابي، عن أبي بكر ابن أبي داود الأصفهاني.

ولكنَّ هذا القول ضعيف ليس بوجيه، فإننا إذا قلنا تسليمًا بصحة ذلك في الحديث القدسي فماذا نحن فاعلون في رواية أخرى التي معنا وهي قول النبي ﷺ: **«فإن الله هو الدهر»**.

إذن الصحيح أن قراءة الحديث هي: **«وأنا الدهرُ»**، **«فإن الله هو الدهر»**.

والذي لا شك فيه أن الحديث له هذا التوجيه الذي علمناه قبل قليل، وهو إن قول النبي ﷺ **«وأنا الدهر»** يعني: وأنا مدبر الدهر، وأنا مقلب الدهر.

وأما زعمهم أنَّ الدهر هو اسمٌ من أسماء الله ﷻ كما في هذا الحديث، فهذا مردود من عدة أوجه:

أولًا: سياق الحديث يأبى أن يكون الدهر اسم لله ﷻ ، وذلك أن الحديث فيه أن ابن آدم ماذا يصنع؟ يسبُ الدهر؛ والواقع أن الناس قديمًا وحديثًا لا يسبون الدهر، أي: لا يسبون الله ﷻ باسم الدهر، المشركون ما كانوا يسبون الله ﷻ صراحة، وهاهم الناس بعد مجيء الإسلام لا يسبون الله ﷻ، لا يسبونه مطلقًا، هذا في عمومهم إلا من شذَّ ممن كفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وارتد فسب الله ﷻ، لكن هؤلاء لا يسبونه بهذا الاسم، أليس كذلك؟

ربما يسبُ أحدهم الله ﷻ فيلعن الرب مثلًا -تعالى الله ﷻ عما يقولون علوا كبيرا-، لكن المقصود سب هذا الاسم الذي هو اسم لله، والمراد به إيقاع السب على الله ﷻ، هذا ما كان، ولا يكون، لا يقع من الناس، فدل هذا على أنه ليس المراد أن الناس كانوا يسبون الدهر الذي هو اسمٌ لله، لم يكونوا يسبون الله باسمه الدهر.

ثانيًا: الدهر لو كان اسمًا لله ﷻ لكان المشركون مصيبين في قولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾؛ لأن المعنى حين إذن سيكون: وما يهلكنا إلا الله. وهذا عكس المراد.

الآية باتفاق أهل العلم مسوقةٌ مساق الإنكار عليهم.

إذن قولهم هذا بالإجماع منكر، قولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ منكر وباطل، ولكن إنما إذا قلنا الدهر اسمٌ لله كان كلام حق صحيح، وهذا خلاف إجماع أهل العلم.

[ثالثًا]: أن الدهر إذا نظرت إليه وجدته اسمًا جامدًا لا يتضمن حُسْنًا، فضلًا على أن يكون من أحسن الأسماء والمعاني، ومعلوم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أسماءه حسنى؛ بالغة في الحسن الغاية، وهذا اسمٌ ليس منها، لا يتضمن مجرد حسن فضلًا أن يكون متضمنًا لأحسن المعاني.

إذن هذه أوجه ثلاثةٌ تدل على أن الدهر ليس اسمًا لله ﷻ.

ولاحظ هنا ملحظًا مهمًا نسيت أن أنبه عليه في ابتداء هذا الكلام عن هذه المسألة، وهي: أن الذين قالوا إن الدهر اسمٌ لله ومنهم ما قد علمت، هؤلاء لا يريدون بالدهر الزمان، الوقت، إنما يريدون بالدهر المعنى: القديم الأزلي، انتبه لهذا.

لاحظ ما يقول شيخ الإسلام كما في المجلد الثاني في ((مجموع الفتاوى)): بإجماع المسلمين لا أحد يسمي الله ﷻ بالزمان، وهذا معلومٌ بطلانه بصريح العقل كما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هؤلاء الذين قالوا إن الله اسمه الدهر أرادوا بكلمة الدهر معنى :القديم الأزلي.

ونحن نوافق على المعنى إن كان يُراد به أن الله ﷻ هو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء، إن كان المراد هذا، فنحن نوافق المعنى، لكننا نقول إن هذا الاسم لا يجوز إثباته لله ﷻ وإن كان المعنى المراد صحيحا.

إذن الذين اثبتوا هذا الاسم لم يكونوا يريدون أنه الوقت والزمان، إنما كانوا يريدون به هذا المعنى الذي قد علمت.

وقد يقول قائل: إن هذا الحديث يوهم أن الوقت والزمان هو الله ﷿، وهذا وهمٌ وتوهمٌ قد يوسوس به الشيطان في نفوس بعض الناس، ولكن هذا باطل بالنظر إلى الحديث نفسه، وذلك أنك إذا تأملت وجدت أنَّ المقلَّب لا يمكن أن يكون هو المقلِّب، لا يمكن أن يكون المفعول به هو الفاعل، أنت إذا نظرت وجدت النبي ﷺ يحكي عن ربه ﷿ أنه قال: **«يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهرُ، أقلب الليل والنهار»**، والدهر ليس إلا الليل والنهار.

إذن الله ﷿ يقلب هذا الدهر فكيف يكون هو الدهر؟

يعني: لا يمكن أن يكون المقلِّبُ المقلَّب، ولا يكون المقلَّبُ هو المقلِّب، الله ﷿ هو الذي يقلب الدهر، وإنما قوله ﷿: **«وأنا الدهر»**، يعني أنا مدبر ومقلب الدهر.

٦٧

٦٧- باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه، وباب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه.

فهذا الباب قد عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ للكلام عن حكم التسمي بقاضي القضاة ونحو هذه التسمية -مما سيأتي التمثيل عليه إن شاء الله-.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يورد دليلًا على حكم هذه التسمية على وجه الخصوص، إنما أورد دليلًا يدل على منع التسمية: "بملك الأملاك"، ووجه إيراده لهذا الدليل وأن هذا الحديث عن النبي ﷺ يُقاس على الحكم الذي ورد فيه، وهو منع التسمية بملك الأملاك، يُقاس عليه ما يدور في فلك هذه التسمية، مما فيه غاية التعاظم، ومما فيه كذب وكبر، ومنه التسمية بقاضي القضاة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((تحفة المودود)): "إنَّ هذا محض القياس"، يعني: إنَّ هذا قياس صحيح، وكلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقياس المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قياسٌ صحيح لا شك فيه.

المقصود أن من كمال تحقيق التوحيد البعد عن التسميات التي فيها تمام الكمال وكمال التعظيم، وفيها من التعالي والتعاظم والتكبر ما فيها، فهذا التسمي فيه مشاركة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيما يختص به، فكان ذلك أمرًا ممنوعًا في الشريعة، وكان ترك ذلك من تحقيق التوحيد الواجب، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أخنع اسم عند الله عَزَّ وَجَلَّ رجل يسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله».

هذا الحديث في الصحيح، يعني: في الصحيحين، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ، والحديث جاء في الصحيحين بروايات وكذلك جاء في غيرهما، وفيه: أن النبي ﷺ أخبر أن أخنع اسم عند الله، أخنع بمعنى: أوضع وأذل، والخانع هو: الذليل الصاغر، فأخنع وأذل وأحقر اسم عند الله عَزَّ وَجَلَّ هو ملك الأملاك، ومن تسمى بذلك لا شك أنه سيكون ذليلًا عند الله، يعني: إذا كان هذا الاسم ذليلًا عند الله، فمن تسمى به فإنه سيكون كذلك عند الله عَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة، ولربما عاجله الله بشيء من ذلك في الدنيا، التسمي بملك الأملاك أمر ذليل، أراد صاحبه التعاظم والتعالي والتكبر، فعامله الله بنقيض مقصوده، فكان ذليلًا عنده يوم القيامة، وربما ناله شيء من إثم هذا الذنب في الدنيا قبل الآخرة.

أورد ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((البداية والنهاية)) في حوادث سنة ٤٣٠ عند الكلام عن آخر خلفاء بني بويه وكان اسمه العزيز، وتسمى: بملك الأملاك أو ملك الملوك، قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن بني بويه لما عتوا وتجبَروا وتسموا بملك الأملاك- يعني: تسمى الخليفة منهم بملك الأملاك-، فإن الله سبحانه قطع ملكهم وأذلهم بعد عزهم، وأعطى ملكهم غيرهم.

فهذه عقوبة لمن تسمى بهذه التسمية التي فيها تعاظم وفيها تكبر على الخلق.

إن أخنع اسم عند الله رجل تسمَّى ملك الأملاك، تسمى: يعني سمَّى نفسه.

كذلك الحكم إذا سُمِّيَ فَرَضِي، إذا سماه غيره فرضي، ويدل عليه رواية مسلم، وقد أشار إليها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (رجل كان يسمَى ملك الأملاك)، فهو إذًا تسمَى، وكذلك إذا سُمي فرضي فالحكم واحد.

تسمَى ملك الأملاك، الأملاك جمع ملك كملوك، ملك يجمع على أملاك ويجمع على ملوك، فهذا تسمى بملك الأملاك، والله ﷻ هو ملك الملوك، ومالك الممالك، هو الملك الحق ﷻ، قال النبي ﷺ في تمام الحديث **«لا مالك إلا الله»**، ولاحظ أن الحديث في شطره الأول كان فيه لفظ: المَلِك، وفى شطره الثاني كان فيه لفظ المالِك.

فالمالِك من المِلك، والمِلك من المُلك.

والفرق بين المَلِك والمالك كما قرره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((بدائع الفوائد)):

أنَّ المالك يتصرف بفعله.

وأمَّا المَلِك فيتصرف بفعله وأمره.

والله ﷻ هو المَلِك وهو المالك ﷻ.

بعض أهل العلم ذكر عند رواية مسلم -فعند مسلم روايتان:

[الرواية الأولى]: لا ملك إلا الله.

[الرواية الثانية]: لا مالك إلا الله.

بعضهم ذكر أن رواية: (لا ملك إلا الله) لعلها: لا مالك إلا الله، فتكون طريقة رسمها بوضع ألف صغيرة عند اللام بعد الميم، يعني: لا مالك إلا الله، وهذا وإن كان أمرًا محتملًا إلا أنه لا حاجة إليه، فالأمران ثابتان لله ﷻ فهو المَلِك وهو المالك ﷻ، وعلى ذلك جاءت

القراءتان المتواترتان في سورة الفاتحة، ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[الفاتحة:٤]، ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[الفاتحة:٤].

المقصود أن المُلْكَ الحقيقي والمِلْكَ الحقيقي إنَّما هو لله ﷻ.

وأمَّا ما سواه من المخلوقين فإنَّ المِلْكَ والمُلْكَ في حقهم إضافيٌّ ناقص، أمَّا المُلْكَ والمِلْكَ الحقيقي الكامل فإنَّه لله ﷻ، فالله له ما في السماوات والأرض، هو المالك لذلك على الحقيقة، كذلك هو المَلْكَ على الحقيقة ﷻ، ولذلك فإنه تبارك وتعالى ينادى يوم القيامة: «لمن الملك اليوم؟» ثم يجيب نفسه قائلاً: «لله الواحد القهار»، فالله ﷻ له المُلْكَ وهو الذي يعطي المُلْكَ من يشاء وينزعه ممن يشاء ﷻ.

إذن هذا الذي تسمَى بملك الأملاك قد وقع أولًا: في كذب عظيم، وثانيًا: قد وقع في كبرٍ وتعاظم ليس أهلا له ولا يستحقه، وكان بهذا مشاركًا لله ﷻ فيما يختصُّ به.

وبالتالي فإنه يكون قد وقع في هذا الذنب العظيم، وهو أنه قد تسمى بأخنع وأذل وأخنى اسم لله ﷻ.

والذي يُستفاد من هذا الحديث أنَّ كل اسم كان فيه أحد أمرين:

[الأمر] الأول: أن يكون فيه تعظيمٌ مبالغٌ فيه.

[الأمر الثاني]: أن يكون الاسم متضمنًا تكبرًا وتعاليًا على الخلق.

فإن ذلك مما يُنهى عنه ويكون مُحرمًا شديد التحريم، وبالتالي: فالأمر لا يقتصر على هذا الاسم فحسب، بل كل ما كان في معناه ويجرى مُجراه فإنّ له الحكم نفسه، ولذلك سيأتي معنا قولُ سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حَمْلِهِ هذا الحديث على نحو قولهم: شاهان شاه، يعني: ملك الملوك، كذلك قولهم: "سلطان السلاطين"، و"أحكم الحاكمين"، والله ﷻ هو أحكم الحاكمين.

ومن ذلك أيضًا ما بوَب عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو قولهم: "قاضي القضاة"، وأخبث منه قولهم: "أقضى القضاة"، فهذان اللفظان القياس الصحيح من هذا الحديث يقتضي المنع من هذه التسمية، فلا يجوز أن يُسمى أحدهم: قاضي القضاة، وهذه التسمية قد وقعت في كثير من البلدان وكثير من الأزمنة، وكانت منتشرة عند البلاد المشرقية.

أما البلاد المغربية فإنها كانت في عافيةٍ من هذه التسمية، كان يُسمى كبير القضاة: قاضي الجماعة.

أما عند المشرقيين فكثر فيهم التسمية: بقاضي القضاة.

ولا شك أن التسمية بقاضي القضاة أسهل وأخف من التسمية بملك الملوك أو ملك الأملاك، لكنَّها أيضًا ممنوعةٌ قياسًا على المنع الذي جاء في هذا الحديث، لما في ذلك من دِلالة هذا الاسم على تعاظمٍ وتكبرٍ لا يليق بالمخلوق، فإنَّ قاضي القضاة هو الذي يحكمُ ولا معقب لحكمه، والذي يحكم وهو خير الفاصلين ﷻ.

ولذلك كانت تسمية أحد من الناس بهذه التسمية لا شك أنها ممنوعةٌ محرمةٌ على الصحيح من كلام أهل العلم.

والأقوال في التسمية بقاضي القضاة ثلاثة: التحريم والكراهة والإباحة.

والصحيح إن شاء الله القول بالمنع والتحريم وهو اختيار جماعة من أهل العلم، وهو الذي اختاره المؤلف كما ترى وبوَب عليه هذا الباب.

أما الذين أباحوا هذه التسمية فإنهم استدلوا بقول النبي ﷺ: «**وأقضاهم علي**».

هذا الحديث عند ابن ماجة وغيره واختُلف فيه، فبعض أهل العلم حكم عليه بأنه صحيحٌ موصول، وبعضهم حكم عليه بأنه مرسلٌ ضعيف، والأقرب والله تعالى أعلم أنه صحيحٌ موصول، وفيه: أنَّ النبي ﷺ قال: «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأعظمهم حياءً عثمان، وأقضاهم علي**» قالوا: هذا دليلٌ على جواز التسمية بقاضي القضاة.

والذي يظهر والله أعلم أن هذا الاستدلال فيه نظر، فشتان بين اللفظين، بين لفظ: أقضى القضاة أو قاضي القضاة، وبين لفظ: أقضاهم علي.

فإن لفظ قاضي القضاة فيه عموم، وقد مر معنا أن الجمع المحلى بـ (أل) يفيد العموم، فهو قاضي عموم القضاة، وأمَّا أقضاهم علي فإن هذا التفضيل محصور في فئة معينة وهم أصحاب النبي ﷺ، فهو أحسنهم وأعلمهم بالقضاء وهذا لا إشكال فيه ولا حرج فيه.

ونستفيد منه: أنَّ التفضيل إذا تعلق بفئة معينة أو مكان مخصوص فإن هذا لا حرج فيه، بمعنى: إذا قيل فلانٌ قاضي المدينة، أو قاضي قضاة المدينة، قاضي قضاة المملكة، فإنَّ

هذا لا حرج فيه، إذا كان هو رئيس القضاة وكبير القضاة، وقيل في حقه إنه قاضي قضاة مكة أو المدينة، فإن الذي يظهر والله تعالى أعلم أنه لا حرج في ذلك.

ولو قيل فيه إنه رئيس أو كبير القضاة فإن هذا أحوط وأولى والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال سفيان: مثل شاهان شاه.

سفيان هو ابن عيينة، وشاهان شاه لفظٌ فارسي ومعناه: ملك الملوك أو سلطان السلاطين، وعادة أهل هذه اللغة أنهم يقدمون المضاف إليه على المضاف، فشاه: ملك وشاهان: ملوك، لكن قُدِّم على عادتهم المضاف إليه.

كذلك غير هذا اللفظ كمثل لفظ الإخشيد، الإخشيد في لغة أهل فَرْغَانة بمعنى: ملك الملوك أيضًا، ومراد سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ التنبيه على:

أنَّ المنع لا يختص بهذا اللفظ، بل كل ما اتصل به في المعنى، ووُجد فيه ما وُجد في لفظ ملك الأملاك من هذا التعالي والتعاظم والتكبر والكذب فإنه يأخذ حكمه أيضًا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفي رواية: أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه.

هذه الرواية عند مسلم، (أغيظ رجل على الله وأخبثه وأغيظه على الله)، يعني: عاد لفظ أغيظه أيضًا في رواية مسلم، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ذكر هذا اللفظ، عاد فقال: وأغيظه على الله.

والألفاظ الواردة في هذا الحديث إذا جمعتها في كتب السنة يتلخص لك منها:

أن النبي ﷺ قال في هذا اللفظ:

١/ إنه أخنع لفظ.

٢/ وإنه أخبث لفظ.

٣/ وإنه أخنى لفظ، أخنى: يعني أفحش.

٤/ كذلك جاء إنه أغيظ.

٥/ كذلك جاء إنه أكره.

هذه خمسة ألفاظ جاءت عن النبي ﷺ في هذا الحديث، وكلها تتواردُ على تأكيد المنع وتشديد التحريم على التسمي بهذا اللفظ، ويعجبُ الإنسان من وقوع الخلاف في التسمي بمثل هذه التسمية مع ثبوت هذا الحديث الصحيح الصريح في المنع من ذلك.

ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حوادث سنة ٤٢٩ أن أحد ملوك بني بويه تسمى: بشاهن شاه الأعظم ملك الملوك، فوقع شيء من الإشكال عند العامة فاستُفتي الفقهاء، فأفتى بعض الفقهاء كما نقل هذا ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بجواز ذلك، وأن هذا يمكن أن يُحمل على أنه ملك ملوك الأرض ومثل هذا لا بأس به، وذكر أن من أهل العلم من منع ذلك وتشدد فيه ومنهم الماوردي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم عقّب على ذلك بأنه الصحيح لثبوت الحديث في ذلك.

والمقصود أنَّ نهى النبي ﷺ نهيٌ عام ليس فيه تفصيل، ليس فيه أنه إذا أُريد ملك ملوك الأرض فإنه يجوز، على أنَّ هذا اللفظ في نفسه كذب لا يمكن لأحد أن يكون ملكًا لا هذا الملِك ولا غيره، أن يكون ملكًا لملوك أهل الأرض جميعًا وينفذ أمره في الأرض جميعًا، فالمنع من ذلك هو الصحيح الذي لا شك فيه لثبوت هذا المنع في حديث النبي ﷺ والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله: أخنى يعني: أوضع.

والإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقب إخراجه هذا الحديث المسند ذكر أنه سأل أبا عمرٍ الشيباني عن قوله: أخنع، فقال: أوضع.

باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب: احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك.

هذا بابٌ ثانٍ قريبٌ في الحكمة التي يرمى المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إليها من خلاله من الباب الماضي، وهو ضرورة مراعاة الألفاظ والتصوُن في الإطلاق الذي يوهم الباطل ويوهم ما لا يجوز، وربما كان فيه مُشاركةٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيما يختص به من غاية التعاظم والتعظيم، والله عَزَّ وَجَلَّ هو العظيم، والله عَزَّ وَجَلَّ هو المتكبر الذي لا يليق ذلك إلا به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

احترام أسماء الله يعني: تعظيمها، وتعظيم أسماء الله من تعظيم الله.

وإذا كان تعظيم أسماء الله يقتضي تغيير الأسماء التي تتنافى وذلك، فإنَّ تعظيم أسماء الله وتعظيم الله يقتضي ألا يُسمى بذلك ابتداءً، ألا يُسمى بأي اسمٍ يتنافى وتعظيمَ الله أو تعظيمَ أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكن إن حصل ووقع، فإنَّ تعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ وتعظيم أسمائه يقتضي تغيير الأسماء لغير ذلك؛ يعني: لأجل تعظيم أسماء الله.

ووجه المناسبة بين إيراد هذا المؤلف وكتاب (التوحيد) هو: أن تغيير الأسماء لأجل تعظيم ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا شك أن ذلك من تحقيق التوحيد ومن كمال الأدب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو العظيم والله هو المستحق للتعظيم وكلامه يجب تعظيمه وأسمائه يجب تعظيمها وهذا من الأمر المعلوم من الدين بالضرورة، ولا يُخالِّفُ في ذلك أحد من العقلاء أنه يجب أنه يُعظَم الله وأن يُعظَم كلامه وأن تُعظَم أسمائه وصفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن أبي شُريح أنه كان يُكنى أبا الحكم قال له النبي ﷺ: «إن الله هو الحكم وإليه الحكم، فقال إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين، فقال ما أحسن هذا، فمالك من الولد؟ قلت شُريح ومسلمٌ وعبد الله، قال فمن أكبرهم، قلت شُريح، قال فأنت أبو شُريح» رواه أبو داوود وغيره.

هذا حديث جيد صحيح جوَّد إسناده ابن مفلح، وصححه الشيخ الألباني وغيرهما من أهل العلم، وأخرجه أبو داوود -كما قد علمت- والنسائي وابن حِبان والبخاري في ((الأدب المفرد)) وغيرهم ممن أخرج هذا الحديث.

وفيه: أن أبا شُريح واسمه: هانئُ ابن يزيد، قيل: الكندي، وقيل: الخزاعي، وقيل: غير ذلك، صحابيٌّ جليل وَفَدَ على النبي ﷺ مع قومه، فسمع النبي ﷺ أصحابه يُكْنُونه بأبي الحكم، -يكنونه ويُكْنَى أفصح من يُكنَّى-، كانوا يُكْنُونه: أبا الحكم، فدعاه النبي ﷺ وقال: «إن الله هو الحَكَم وإليه الحُكم».

وهذا الحديث يدل على أنَّ من أسماء الله ﷻ: الحكم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾[الأنعام:١١٤]، فالحَكم من أسماء الله ﷻ، والأصح والله أعلم أنَّ الحَكم أبلغ من الحاكم.

واختُلف في الفرق بين اللفظين:

فقيل: إن الحَكم هو الذي لا يُرد حكمه بخلاف الحاكم.

وقيل: إن الحَكم هو الذي يتخصص في الحكم؛ يعني: الذي يحكم باستمرار ويُقصَّدُ في الحكم دائماً، بخلاف الذي يحكم مرةً أو مرتين أو نحو ذلك فهذا يُسمى: حاكمًا، ذكر هذا الراغب في ((المفردات)).

وقيل: إن الحَكم هو الذي يحكم بالحق، وأما الحاكم فهو الذي يحكم بالحق وبغيره.

والمقصود أن النبي ﷺ أثبت هذا الاسم لله ﷻ، «إن الله هو الحَكم وإليه الحُكم»، الحُكم لله ﷻ، قال سبحانه: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[الأنعام:٥٧]، ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[القصص:٨٨]، فالحُكم لله العلي الكبير، فالحُكم لله تبارك وتعالى.

وحكم الله ﷻ نوعان:

[النوع الأول]: حكمٌ شرعي.

[النوع الثاني]: حكمٌ كوني.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((النونية)):

والحكم كوني وشرعي ولا يتلازمان وما هما سيَانِ

يعني: لا تلازم بين ثبوت الحكم الكوني والحكم الشرعي، وبالتالي: قد يجتمع الحكمان، وقد يوجد الحكم الكوني دون الشرعي، وقد يوجد الحكم الشرعي دون الكوني، -وهذا الأمر أظن أنني قد تكلمت عنه في دروس سابقة-.

المقصود: أنَّ الحكم على الحقيقة لله ﷻ، وهذا ما أثبته النبي ﷺ في هذا الحديث.

فلمَّا قال هذا النبي ﷺ قال: (فلِمَ كُنِّيت بأبي الحكم؟) وهذا من لفظ الحديث عند أبي داوود والنسائي وغيره ولكن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يُرد ذلك في هذا الحديث.

الشاهد: أن النبي ﷺ سأله عن سبب هذا الأمر لم كُنِّيَ بهذه الكنية.

والكنية في اللغة هي: ما صُدِّر بأبٍ أو أم.

ما صُدر بأبٍ أو أم فإن هذا يقال له كنية، وهذا مما تميز به العرب عن غيرهم من الأمم، والكنية الأصل فيها: أن يُراد التكريم والتمليح.

أُكنيه حين أناديه لأكرمه ولا ألقبه والسوءة اللقب

وقال بعض السلف في قول الله ﷻ: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾[طه:٤٤]، يعني: كنِّياه، يعني: اذكرا يا موسى ويا هارون له كنيته.

المقصود أن التكنية من تكريم الإنسان، أن يُكْنَى سواءً كان له ابن أو لم يكن له ابن، حتى الصغار فإنهم لا حرج ولابأس أن تكون لهم كنية، ويمكن للإنسان أن يتكنى بابنه، ويمكن أن يتكنى بغير ابنه أيضًا.

فهذا أبوبكر وهذا أبو حفص وهذا أبو ذر وغيرهم من أصحاب النبي ﷺ تكنوا بغير أسماء أبنائهم، ويمكن أن يُكنّى الإنسان بشيء يلابسه أو يكون له به صلة بأي وجه من الوجوه، ومن ذلك: أبو هريرة، ومن ذلك: تكنية النبي ﷺ لعلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بأبي تراب.

المقصود أن النبي ﷺ سأله عن سبب هذه الكنية فقال له السبب، وهو: أن قومه كانوا إذا اختلفوا رجعوا إليه وكان مرضيًا عندهم، فيحكم بينهم ويصلح بينهم فيرضى كل فريق، فقال النبي ﷺ: ما أحسن هذا، ما هو الذي حسَّنه النبي ﷺ ؟

أهو الحكم أم الكنية؟

الذي يظهر والله تعالى أعلم أن النبي ﷺ حسَّن فعله وهو الحكم والإصلاح ودرأ الخلاف بين الناس، والذي يظهر أيضًا أن هذا الذي كان يحكم به أبو شريح رضي الله عنه إنما هو حكم الإسلام، وأن هذا كان منه بعد الإسلام، وليس أنه كان يحكم بأحكام الجاهلية، قال الشارح الحفيد الشيخ سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((التيسير)): (لا يُظنُّ بأن النبي ﷺ حسَّن الحكم بأحكام الجاهلية)، وهذا ظاهر لا لبس فيه بحمد الله.

المقصود أن النبي ﷺ قال ما أحسن هذا.

ثم سأله ماله من الولد؟!، فأجابه بأن عنده شريحًا، ومسلمًا، وعبد الله، والظاهر والله أعلم أنه ليس عنده إلا هؤلاء، فسأله النبي ﷺ عن أكبرهم فأجاب بأنه: شريح، فَكَنَاهُ النبي ﷺ: بأبي شريح، وذلك أنَّ الأكبر هو الأولى بالتكريم، الأكبر هو الأولى بالتكريم، وهذا يفاد منه: بأن الإنسان إذا أراد أن يتكنى بأبنائه فالأولى أن يقدم الأكبر منهم، وإن تكنى بغير ذلك جاز، والحمد لله.

وكون النبي ﷺ يسأل أبا شريح عن أكبرهم فيه فائدة أصولية لُغوية، وهي:

أنَّ الواو لا تقتضي الترتيب؛ لأنَّ الواو لو كانت تقتضي الترتيب لما سأله النبي ﷺ عن أكبرهم، فلما سأله عن أكبرهم دلَّ هذا على أن الواو لا تقتضي الترتيب، والله تعالى أعلم.

ثم في ختام الحديث كما في بعض روايات الحديث أن أبا شريح لما هَمَّ وكذلك قومه للرجوع، سأل النبي ﷺ عن عمل يدخله الجنة أجابه النبي ﷺ بأنه: **«لين الكلام، وبذل السلام وإطعام الطعام»**، فمن أراد الجنة فعليه بوصية النبي ﷺ.

المقصود: أنّ الحديث دل على أن من احترام أسماء الله ﷻ تغيير الأسماء لأجل هذا الاحترام ولأجل هذا التعظيم.

وهذا الموضع فيه إشكال ويحتاج إلى حل وهو: لِمَ النبي ﷺ غير هذه التسمية؟

قال بعض أهل العلم: لأنَّ الحَكم من أسماء الله ولا يجوز التسمي بأسماء الله.

ومسألة التسمي بأسماء الله التحقيق أن فيها تفصيلًا:

فأسماء الله جل وعلا منها ما يجوز التسمي به، ومنها ما لا يجوز التسمي به.

والضابط في ذلك: النظر في الاسم وما يدل عليه من المعنى فما كان من الأسماء معناه لا يصح أن يطلق إلا على الله لم يجز للمخلوق أن يتسمى به، من ذلك اسمه تعالى: العظيم، الله، ومن ذلك: الرحمن، ومن ذلك: الخالق، والخلَّاق، والمهيمن، والأحد، والصمد، والقيوم، والأول، والآخر، إلى غير ذلك من هذه الأسماء التي إذا نظرت إلى معناها تجد أنه لا يصح أن يطلق هذا الاسم على غيره ﷻ.

أمَّا ما كان من الأسماء معناه يدل على معنىً كليٍّ يتفاوت أفراده فإنه يجوز أن يطلق على الخالق ويجوز أن يطلق على المخلوق ولكلٍّ ما يليق به.

دل على هذا أن الله ﷻ تسمى: بالسميع البصير، وكذلك قال سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[الإنسان:٢].

حتى إذا أضيفت الألف واللام لا حرج ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾[يوسف:٥١]، فالعزة معنىً كليٍّ يتفاوت أفراده، فلله ﷻ عزة تليق به وتختص به، وللمخلوق عزة تليق به وتختص به، ولذلك لا حرج في إطلاق كلمة العزيز على المخلوق.

نأتي الآن إلى اسم الحكم هل هو مما يصح أن يطلق على المخلوق أو لا يصح أن يطلق على المخلوق؟

نظرنا فوجدنا أن الله ﷻ قال: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾[النساء:٣٥]، نجد أن هذه الآية فيها إطلاق الحكم على المخلوق، فدل هذا على أن تخريج فعل النبي ﷺ على هذا الأمر وهو المنع مما تَسمى من التسمية بأسماء الله لا يصح؛ لأنَّ الله ﷻ بين في كتابه صحة إطلاق هذا اللفظ على المخلوق.

أضيف إلى هذا الوجه وهو كون هذا الاسم أو هذا الإطلاق جاء في كتاب الله، كذلك في سنة النبي ﷺ الإقرارية أو التقريرية، فابن الأثير في ((أسد الغابة)) أورد من أصحاب النبي ﷺ من اسمه: الحكم، أورد ثلاثة وعشرين منهم كلهم اسمهم الحكم، والنبي ﷺ يَبْعُدُ أن يكون غير مطلع على هذه الأسماء، هؤلاء أصحابه فكيف يُقال إنه لا يعرف أسماء

أصحابه، كذلك أورد تسعةً من الصحابة اسمهم أو اسم كل واحد منهم الحكيم أو حكيم، فدل هذا على أن تخريج هذا الذي جاء في هذا الحديث على هذه المسائلة تخريج بعيد.

قال بعض أهل العلم لعل النبي ﷺ إنما كان ذلك منه؛ لأن النظر إلى الكنية وليس إلى الاسم، لأن أبا شريح كانت كنيته: أبا الحكم، وهذه الكنية قد تُوهم معنًى باطلًا وهو ثبوت المولودية في حق الله ﷻ، أي: أن يكون له أبٌ -تعالى الله عن ذلك-، والله سبحانه يقول: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[الإخلاص:٣]، ولكن هذا أيضًا بعيد، وذلك لأن من أصحاب النبي ﷺ من كانت كنيته أبا الحكم وما غيَّر ذلك النبي ﷺ.

أورد الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الطبقة الأولى في كتابه ((الإصابة)) ثلاثةً من الصحابة كلهم يُكْنى بأبي الحكم، وأورد ستةً كانوا يُكْنون بأبي حكيم، ويبعُد أن يكون النبي ﷺ لا يعلم كنيتهم، أو ألا يكون قد بلغ هؤلاء الصحابة أن النبي ﷺ غيَر كنية هانئ ابن يزيد؛ لأنَّ مثل هذه القصة العادة إنها تنتشر، فإما أن يغير الصحابة هذه الكنية، أو أن يرجعوا إلى النبي ﷺ فيستفتونه.

والذي يظهر لي والعلم عند الله تعالى أن هذا الحديث يدل على أن الأولى والأحسن والأفضل ترك التكني بهذه الكنية، وأما فعل الصحابة والذي يظهر لنا من إقرار النبي ﷺ على ذلك فإنه دليل على الجواز، والله تعالى أعلم.

٦٨

٦٨- باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول (المجلس الأول).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب: من هزل بشيءٍ فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول.

فإنَّ دين الله ﷻ مبناه على تعظيمِ الله ﷻ وإجلالِه وإكرامِه، فإنّه ﷻ ذو الجلال والإكرام المستحقُ لأن يجله عبادُه، ويكرموه في عبادته وتوحيده والتأله له ﷻ، وهذا من الأمر المعلوم من الدين بالضرورة، أنه يجب تعظيم الله ﷻ، وأن يجب إجلاله قال ﷻ: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[نوح:١٣]، قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ومجاهد وغيرهم من السلف: أي عِظَمه، مالكم لا تعظمون الله ،وقال سبحانه في سياق الإنكار على المشركين: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[الأنعام:٩١]، فالله ﷻ أهل أن يعظم وأن يجل تبارك وتعالى بأقصى ما يكون من الإجلال والتعظيم.

وهذا من الأمر المستقر حتى عند المشركين، الذين عبدوا مع الله غيره، وما وحدُّوا الله، هم ما قدروه حق قدره؛ لأنهم جعلوا معه شركاء، لكنَّ هؤلاء المشركين كان عندهم من تعظيم الله وإجلاله ما يمنعهم عن أن يقعوا في انتقاصه و الاستخفاف به صراحة، وهذا كثيرٌ منثورٌ في كلامهم كما قال شاعرهم:

استأثر الله بالوفاء وبالحمد وولي الملامة الرجلَ

وهكذا درج المسلمون على أنهم يعظمون الله ﷻ بل أنهم يراعون الأدب مع الله ﷻ في أمور دقيقة، قال عون بن عبدالله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ليعظم أحدكم ربه أن يذكره في كل كلامه حتى يقول أخزى الله الكلب وفعل به كذا وكذا)، يرى رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من الأدب ألا يُذكر هذا الاسم العظيم في هذا المقام، المقام الذي يذكر فيه الكلب، وكذلك الأمر في حق النبي ﷺ واجب تعظيمه التعظيم الشرعي، ويجب تعزيره ﷺ، قال سبحانه: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾[الفتح:٩].

وقد أجمع المسلمون قاطبة على أنَّ من خالف موجِبَ التعظيم، فنال مقام الإلهية أو الربوبية، أو مقام الرسالة بشيءٍ من الانتقاص، سواءً ما كان هذا سبًا أو استهزاءً، فإنَّه كافر بالله العظيم ﷻ، هذا إجماعٌ ضروري:

كلُّ من سب الله، أو شتمه، أو سخر بالله، أو بشيء من أسماءه وصفاته، أو بشيء من سنة النبي ﷺ، أو بذاته، أو بشيء من أحاديثه، أو بشيء من أحكامه، أو بشيء من أمور الآخرة، أو بملك من الملائكة، أو بأحد من الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، بل حتى من سخر بالمؤمنين لأجل إيمانهم، أن هذا كافر بالله ﷻ، فإن كان مسلمًا فقد ارتد، وكفره أضحى أعظم من الكفر الأصلي، ومن كان كافرًا أصليًا فإنه بهذا يزيد غلوًا في الكفر وعتوًا وتجبرًا، وينتقض عهده إن كان مُعاهدًا للمسلمين، هذا أمرٌ مجمعٌ عليه من المسلمين.

وهذا الباب الذي عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد به التنبيه والتذكير والتحذير في شأن مهم وعظيم يتعلق بناقضٍ من نواقض الدين، ألا وهو ما يكون من العبد من قول أو فعل، يتضمن انتقاصًا في حق الله ﷻ، وهذا الانتقاص يتفرع إلى السخرية والاستهزاء أو إلى السب والشتم وهذا أخبثُ وأشدُّ نكارة.

ولاحظ -يا رعاك الله- أن أهل العلم في هذا المقام يقرنون الكلام بين السب والشتم، والسخرية والاستهزاء، والعلة الجامعة بين هذا وهذا هو: وجود الاستخفاف والانتقاص لجناب الربوبية أو لجناب الرسالة أو للشريعة.

إذًا أجمع المسلمون على أن من سب الله أو استهزأ به أو برسوله ﷺ أو بشيء مما جاء به، فإن هذا كافر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالته المشهورة التي جمع فيها أشهر نواقض الدين، نصَّ في الناقض السادس على أن من استهزأ بشيء من دين الرسول ﷺ أو ثوابه أو عقابه كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ **[التوبة:٦٥]**، ثُمَّ ذكر في خِتام هذه النواقض أن جميع هذه النواقض لا فرق فيها بين الهازل والجاد والخائف إلا المكره.

إذًا هذا مقامٌ عظيم يجب على المسلم أن يتنبه له، فسبُّ الله ﷻ أو الاستهزاء به أو برسوله ﷺ، هذا ناقض من نواقض التوحيد، وكفر غليظ، -نسأل الله السلامة والعافية-.

والأدلة على ذلك كثيرة، والمقام أوضح من أن يُستدل عليه، لكن تكثير الأدلة وتكثير إيرادها مما يبيّن الأمر ويزيدُ الإنسان يقينًا بشأن هذا الأمر العظيم، الأدلة على ما ذكرت لك كثيرة، منها:

أولًا: أدلة القرآن الكريم، وأدلة القرآن يمكن أن نجعلها في قسمين:

[القسم الأول]: أدلة صريحة على أن السخرية والاستهزاء والسب، أو أي شيء يشعر بالغضِّ والاحتقار والانتقاص من جانب الربوبية والألوهية أو الرسالة أو الشريعة، أن هذا كفر بالله ﷻ مستوجب الخلود في النار.

ومن ذلك وهو أصرح ما في الباب ما أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد هذه الترجمة، وهو قول الله ﷻ:﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[التوبة:٦٥-٦٦]، هذا نص صريح على أن الاستهزاء بالله ورسوله ﷺ كفر بالله ﷻ وأن من وقع في ذلك بعد إيمانه، فقد صار مرتدًا.

ومن ذلك أيضًا وهو الدليل الثاني ما سبق هذه الآية في سورة التوبة بأربع آيات وهو قول الله ﷻ: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾[التوبة:٦١]، هو أذن كلمة سخرية، ينتقصون النبي ﷺ فيقولون إنه يرخي سمعه لكل أحد، ويستمع لكل أحد، ﴿هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التوبة:٦١].

ثم قال بعد آية: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة:٦٣]، حكم الله ﷻ على أن من آذى رسول الله ﷺ أو افتقره أو انتقصه، بأنَّ له النار خالدًا فيها وله العذاب الأليم والخزي العظيم، وإذا ثبت هذا في حق رسول الله ﷺ، فلأن يثبت في حق ربنا ﷻ من باب أولى.

ومن ذلك أيضًا وهو الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾[الأحزاب:٥٧]، وأي أذيةٍ أعظم من السخرية والاستهزاء أو السب والشتم، وقد نص شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أن القرآن ما جاء فيه أن العذاب المهين قد أُعد للكافرين، فدل هذا على أن من استهزأ بالله جل وعلا أو برسوله ﷺ فإنه كافر بالله.

والدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾[الحجرات:٢]، في هذه الآية أمر الله ﷻ المؤمنين ألا يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ، إذا كانوا بحضرته واجب عليهم أن يغضوا أصواتهم وألا يخاطبوه المخاطبة المعتادة التي تكون فيما بينهم، بل واجبٌ عليهم أن يراعوا في حقه مقام الأدب والتوقير، وإلا فإن هذا مؤذنٌ بأن أعمالهم تحبط وتزول، ومعلومٌ أن الحبوط العام الكلي لا يكون إلا بالكفر بالله ﷻ، فإذا كان مجرد رفع الصوت على صوت رسول الله ﷺ أو مخاطبته الخطاب الاعتيادي، أن هذا قد يوصل صاحبه إلى الكفر بالله ﷻ، فكيف بالسب الصريح والاستهزاء والانتقاص؟ أليس أولى وأجدر بهذا الحكم؟

أما القسم الثاني من أدلة القرآن:

فهي الأدلة التي دلت على أن الاستهزاء والسخرية بالرسل والمؤمنين لأجل إيمانهم، إنما هو شأن الكافرين لا شأن المسلمين، فمن وافقهم في شيء من ذلك كان حكمه حكمهم، من ذلك قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾[المطففين:٢٩-٣٠].

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾[هود:٣٨]، هؤلاء قوم نوح سخروا من نوح عليه السلام ومن المؤمنين.

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾[المؤمنون:١٠٩-١١٠].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[الأنعام:١٠].

إذًا هذا الشأن إنما هو شأن الكفار، وإنما هو فعل الكفار لا فعل المسلمين.

[ثانيًا]: سنة النبي ﷺ والأدلة في هذا عدة، من ذلك ما خرج أبو داود في سننه، والنسائي في سننه بإسناد قال فيه الحافظ في ((البلوغ)): رجاله ثقات، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلًا أعمى كان له أم ولد تخدمه وكانت به رفيقة، كان له منها ولد، لكنها

كانت تقع في النبي ﷺ، وتشتمه وينهاها ولا تنتهي، حتى إذا ما كانت ليلة، شتمت النبي ﷺ، فما كان منه إلا أن أخذ معولًا يعني كالسيف الصغير، فوضعه في بطنها وضغط عليها حتى قتلها، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأخبره هذا الرجل ما كان منها، فأهدر النبي ﷺ دمها.

هذه المرأة، إنما أن تكون مسلمة، وإما أن تكون كافرة أصلية يعني: يهودية أو نصرانية.

فإن كانت مسلمة في السابق، فإنها بهذا تكون قد ارتدت، فكان دمها مباحًا.

وإما أن تكون كافرة أصلية فيكون كفرها قد زاد وبلغ الغاية، وانتقض عهدها بذلك.

وقل مثل هذا في **الدليل الثاني** وهو ما جاء عند أبي داود أيضًا بإسناد جوده شيخ الإسلام في ((الصارم)) من حديث علي رضي الله عنه أن يهودية كانت تقع في النبي ﷺ، فقام رجل فخنقها حتى ماتت، فأهدر النبي ﷺ دمها.

ومن تلك الأدلة أيضًا وهو الدليل الثالث ما ثبت في الصحيحين- وأظن أنه قد مر بنا قريبًا- من أن النبي ﷺ قال: **«من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله»**، هذا الرجل يهوديٌ كان منه أنواع من الكفر، كان يهوديًا ألَّب على المسلمين، ذهب إلى مكة فحسَّن بين المشركين، وذمَّ دين النبي ﷺ، ومع ذلك فإن النبي ﷺ بعد كل ذلك، ما حث على قتله، لكنه لما هجا رسول الله ﷺ ووقع فيه، حث النبي ﷺ على قتله، فانتدب لقتله محمد بن مسلمة وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم فقتلوه.

فدل هذا على أن السخرية والنيل من رسول الله ﷺ أعظم ما يكون من الكفر، وبالتالي ينتقض عهد الكتابي به.

وقل مثل هذا في الحديث الرابع، وهو ما أخرج الشيخان، من حديث أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ دخل مكة وعلى رأسه المغفر، فلما وضعه جاءه رجل، فقال: إن ابن خطل تعلق بأستار الكعبة، فقال النبي ﷺ: اقتله، وفي رواية مسلم: اقتلوه، فقتلوه وهو متعلق بأستار الكعبة.

ابن خطل كان مسلمًا فارتد، وقتل خادمًا مسلمًا كان يخدمه، وهجا النبي ﷺ، بل كان له قينتان تغنيان بهجاء النبي ﷺ.

لاحظ هنا أن علة قتله لم تكن الردة؛ لأن المرتد كما هو معلوم في الشريعة يستتاب، أليس كذلك؟ **هذا أولًا**.

ثانيًا: كونه قتل الرجل المسلم، هذا حكمه في الشريعة، أن يُسلَّم لأولياء القتيل وهم معروفون (بنو خزاعة)، فإن شاءوا أن يقتلوه، وإن شاءوا أن يأخذوا منه الدية، وإن شاءوا أن يعفوا، لكن النبي ﷺ أمر بقتله، مع إنه كان عائذا بالحرم، متعلقًا بأستار الكعبة، ما رفع سلاحًا على النبي ﷺ، فدل هذا على أنَّ قتله مع وجود هذه الحال التي كان عليها، لأنه وقع في كفر عظيم، وهو أنه كان يهجو رسول الله ﷺ.

[ثالثًا]: فإجماع المسلين قاطبة، وخذ ما شئت من كتب الفقه واقرأ فيها، فإنك تجد التنصيص على هذا في جميع كتب الفقه، إذا فتحت باب الردة وجدت التنصيص على أن من سب الله أو رسوله، أو استهزأ بالله أو رسوله، أو بشيء من دينه، أو ثوابه أو عقابه، فإنه يكون كافرًا حلال الدفن، وأن الواجب على ولي أمر المسلمين أن يستتيبه، فإن تاب وإلا قتله، اللهم إلا في حق النبي ﷺ الذي ذهب إليه جماعة من المحققين، كشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره، أنه يقتل بلا استتابة، وهذا قول له حظ من النظر، كما بسط هذا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ)).

ولو تأملت في كتب الفقه لوجدت أنهم ينصون على أشياء ربما يستسهلها بعض الناس في هذا الزمان، هم يذكرون أشياء وفي بعض ما ذكروا ما فيه نظر وبحث، لكن المقصود أنهم كانوا يدققون كثيرًا في هذا الأمر العظيم، حتى إنك تجدهم يقولون: من قال فلانٌ أقصر من إنَّا أعطيناك الكوثر. قالوا: كَفَرَ بالله؛ لأن كلامه فيه انتقاص لهذه السورة، حتى وجدناهم يقولون: "من قال قصعة ثريد خير من العلم" يقولون: كفر، حتى وجدناهم يقولون: من قال: "مسيجد" أو "مصيحف" يقولون: كفر؛ لأنَّ هذا فيه شيء من التحقير لبيت الله أو لكلام الله.

انظر إلى هذه الدقة وإلى هذه الدرجة، كانوا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يدققون في مثل هذه المسائل، وكما ذكرت لك هذا المقام لا يُسلَّمُ بكل ما حكم فيه، لكنه يدلك على أن المقام عظيم، فكيف بهم لو رأوا ما يُقال أو يُكتب أو يُنشر في هذا الزمان، فإن من الناس ممن أجرموا وهان عليهم دينهم، وخفَّ عندهم تعظيم الله ﷻ أو انعدم، يقعون في أمور فظيعة- نسأل الله السلامة والعافية-.

ربما تسمع أو تقرأ عمن يسخر باللحية التي هي سنة رسول الله ﷺ، فتجد أنه يقول عن صاحبها: "إنه ذَقَنُ التيس"، أو تجده يسخر بالحجاب الذي يأمر به شرع الله ﷻ فتجده يقول: "خيمة متحركة"، أو تجد من يسخر بمن يأمر بالمعروف ومن ينهى عن المنكر، ويحث على الصلاة، فتجدهم يقولون: "شركة صلوا"، هذه أمور عظيمة يا أيها الإخوة، وحرك ترى، انظر إلى أنواع من السخرية والاستهزاء بحدود الله ﷻ أو بما حرم الله جل وعلا أو بما بَيّن الله ﷻ في كتابه أو في سنة رسوله ﷺ.

إذًا المقام يا أيها الإخوة، مقام عظيم، والنبي ﷺ أخبر أن الرجل ربما يتكلم بالكلمة – كلمة واحدة– لا يلقي لها بالًا يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب، أخبر النبي ﷺ أن أكثر ما يورد الناس النار الفمُّ والفرج.

إذًا على المسلم الذي يريد نجاة نفسه أن يتصون وأن يتنبه، وأن يمسك عليه لسانه، فإنه والله قد يورده الموارد

[رابعًا]: النظر؛ فإنَّ النظر الصحيح لكل مُنشد، طرفًا من العلم بالشريعة، يُدْرك أنه لا يمكن البتة أن يجتمع تعظيم الله ﷻ والاستسلام له مع الاستهانة به أو برسوله أو بدينه ﷺ مستحيل، لا يجتمعان إيمان بالله وتعظيم له ﷻ مع هذه السخرية والاستهزاء أو الانتقاص، وأعظم من ذلك سب الله أو رسوله ﷺ.

إذًا هذا مما لا يمكن للإنسان أن يخالف فيه إذا أمعن النظر في قواعد الشريعة وأصولها، لا سيما في باب الإيمان، وذلك أنَّ الإيمان مركبٌ من أربعة أشياء:

من قول القلب، وقول اللسان، ومن عمل القلب، ومن عمل الجوارح.

ولاشك ولا ريب أن هذا الانتقاص والاستخفاف من جناب الربوبية والألوهية أو الشريعة منافٍ لعمل القلب قطعًا، لا يمكن أن يَجْتَمِعَ عمل القلب الذي يتضمن محبة الله وتعظيمه والخوف منه مع هذا الأمر.

وربما أيضًا وهو كثير أو الغالب ألا يجتمع حتى مع قول القلب، وهو تصديقه وإيقانه إن كان يصدق بالله، وبصفاته ونعوت جلاله، وبالنبي ﷺ، فإن الغالب أن هذا التصديق يمنعه من الوقوع فيما يناقض ذلك.

نأتي الآن إلى تنبيهات مُهِماتٍ تتعلق بالموضوع:

أولًا: أنَّ الضابط في السب أو الاستهزاء هو: العرف، فما عُدَّ في العرف سبًا أو استهزاءً، فإنه سب واستهزاء في هذا المقام، وبالتالي يكون الحكم في ذلك بمقتضى ما يحكم به العرف، وهذا المقام لا شك أنَّ الأمر فيه متفاوت باختلاف الأزمنة واختلاف الأمكنة، فما عُدَّ في مكان استهزاء قد لا يعد في مكان آخر كذلك، ما عدُّ في زمان سبًا قد لا يكون في وقت آخر سبًا، إذًا لابد من مراعاة هذا الأمر.

وهذا المقام فيه تفاوتٌ عظيم، ليست الكلمات أو ما يرجع إلى الاستهزاء والسخرية وما إلى ذلك، ليست درجة واحدة، فمنها ما هو استهزاءٌ صريح، أو سب صريح، وبالتالي فإنه يُحكم بمقتضى هذا ولا يقبل أي دعوى بخلاف ذلك، ما كان من سب صريح أو استهزاء صريح بمقتضى العرف العام المطَّرِد، فإن هذا لا يقبل فيه الدَّعوى بخلافه، لو ادَّعى: "أني ما أردت، ما قصدت"، لا يُلتفت إلى هذا.

وثمة عبارات وجمل وكلمات، يتردد فيها النظر تحتمل أن تكون استهزاء وتحتمل ألا تكون كذلك ومثل هذا المرجح فيه النية والقصد، فمتى ما كنت النية والقصد متجهة إلى السخرية والاستهزاء كان الحكم بمقتضى ذلك، ومتى ما ادعى القائل أنه يقصد ذلك فإنه ليكون كذلك، هذا المقام يحتاج الناظر فيه أن يتريث وألا يعجل.

[ثانيًا]: وهو من المهمات أيضًا: أنَّ من الناس من يُرْجع الحكم في هذا الباب إلى الاستحلال، فيقول: "من سب الله مستحلًا" أو "استهزأ بالنبي ﷺ مستحلًا"، فإنه يكون بذلك كافرًا.

إذًا مناط الحكم عند هؤلاء، وهؤلاء طائفة كبيرة من المتكلمين، مناط الحكم عندهم ليس راجعًا إلى الاستهزاء والسخرية والسب، وإنما إلى الاستحلال.

ولاشك أنَّ هذا تأصيل باطل، وقولٌ مخالف لإجماع السلف الذي عليه أهل السنة والجماعة، بل الذي عليه دلالات الكتاب والسنة، أنَّ السبَّ أو السخرية من حيث هي مكفرٌ ناقضٌ سببٌ للكفر بحدِّ ذاتها، بغض النظر عن حال القائل، لا فرق عند أهل السنة بين أن يكون الساب أو الساخر معتقد للتحريم، أو مستحلًا، أو ذاهلًا عن اعتقاده وفي غفلة، هل هو معتقد التحريم أو الاستحلال؟، هو... لا!!، في تلك اللحظة كان ذاهلًا عن ذلك!

لا فرق عند أهل السنة والجماعة، بمجرد خروج الكلمة الآثمة من فمه يكون قد كفر بالله ﷻ لأن هذا هو الذي دل عليه القرآن صريحًا، قال جل وعلا: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾[التوبة:٦٥].

إذًا الحكم تعلق بالاستهزاء، قال ﷻ بعدها: ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[التوبة:٦٦]، لم يقل الله ﷻ كفرتم؛ لأنكم استحللتم السخرية والاستهزاء بالله ورسوله وبالإيمان.

فدل هذا على أن الحكم متعلق بمجرد الاستهزاء، كفرتم؛ لأنكم استهزأتم وليس لأنكم استحللتم، وهذا القول عند النظر باطلٌ قطعًا، لأننا لو طردنا قولهم هذا فإن ما يصح حينئذ أن نقول، إن من كذب أو اغتاب فقد كفر، والمرا:د أنه إن استحل ذلك وهذا لا يقول به عا لم.

إجماع المسلمين على أن من استهزأ كفر، يقولون من استهزأ كفر، من سب كفر، هؤلاء يأولون هذه الجملة بالاستحلال، يلزمهم إذًا أن نقول من كذب، أو اغتاب، أو زنا كفر، والمراد لو استحل وهذا لا يقول به عا لم.

إذًا المسلمون متفقون على التفريق بين الاستهزاء والسب وبين المعاصي إذا استثنينا الوعيدية كالمعاصي والكذب والغيبة والسخرية، هذه لها حكم آخر، لها حكم المعصية، فلا نقول في مثل هذا إنَّ الحكم معلق باستحلال السخرية والاستهزاء.

الاستحلال ناقض مستقل، بمعنى: من اعتقد حِلَّ وجواز سب الله ﷻ فإنه يكفر ولو لم ينطق بحرف واحد في سب الله ﷻ، فالحكم إذًا معلقٌ بالكلام من حيث هو، بالسب من حيث هو، بالاستهزاء من حيث هو.

وأما خلاف ذلك فلا شك أن هذا من أقوال أهل البدع.

هذه المسالة مخرجة عند هؤلاء على قولهم بـ(الإرجاء)، في باب الإيمان، وذلك أن هؤلاء يحصرون الكفر في الجهل والتكذيب، وسبب ذلك: أن الإيمان عندهم هو التصديق فحسب.

إذًا إذا كان الإيمان هو التصديق والكفر ضده، كان الكفرُ: الجهلَ والتكذيب.

وبالتالي فإنك تجدهم يحيلون ويرجعون جميع نواقض الدين إلى هذا الأمر، وهو ما يتعلق بالتكذيب، ما يتعلق بالجهل، ولا يجعلون الكفر كما دلت عليه أدلة الكتاب والسنة راجعًا إلى الأنواع الأربعة كما دل على هذا إجماع السلف وهو أنَّ الكفر يكون بالقول، ويكون بالفعل، ويكون بالاعتقاد، ويكون بالشك.

هكذا أجمع أهل السنة والجماعة أنَّ الكفر يكون بالقول، فمن سب، أو استهزأ بالله ﷻ، فإنه يكفر بمجرد قوله.

من دعا غير الله فإنه يكفر بمجرد دعاءه ويكون بالفعل، فمن قتل نبيًا أو لطمه، أو بال على مصحف أو رماه مستخفًا به، وهو يعلم أنه مصحف، أو سجد لقبر أو صنم، فإنه يكفر بمجرد هذا الفعل.

كذلك بالاعتقاد؛ من اعتقد مشاركة غير الله ﷻ له فيما يختص به كالإحياء والإماتة أو استحقاق العبودية، فلاشك أنه يكفر بمجرد هذا الاعتقاد.

أو يكون شاكًا شكًا مخرجًا من الملة؛ كأن يشك هل النبي ﷺ نبي صادق أم لا؟ الأمر عنده محتمل، فإن هذا لا شك أنه كفر به.

إذًا أهل السنة والجماعة يعتقدون أنَّ مناط التكفير في مسألة السب والاستهزاء والسخرية إنما هي بالقول من حيث هو، أو بالفعل إنْ دل على ذلك، إذا كان إخراج اللسان أو الغمز بالعين أو حركة باليد، والمساق والسياق يتعلق بشيء يرجع إلى جناب الألوهية أو الربوبية أو الرسالة، يعني فعل هذا سخرية واستهزاءً فإن هذا هو مناط التكفير وبه يكون كافرًا.

أمَّا إحالة ذلك إلى القلب في جميع هذه الأحوال، فهذا قول أهل الإرجاء، الله ﷻ قال: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾[التوبة:٧٤].

إذًا بمجرد الكلمة كفروا، قال ﷻ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾[المائدة:٧٣]، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[المائدة:١٧]، ما قال الله ﷻ: لقد كفر الذين اعتقدوا أن الله ثالث ثلاثة، إذًا الكفر كان متعلقًا بالقول.

ويكفي أن تتأمل في آية من القرآن يتضح لك المقام جليًا، وهو قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[النحل:١٠٦].

لاحظ معي هذه الآية تتناول الكفر بالظاهر؛ بقول كفري أو بفعل كفري، لن تتعرض للكفر الباطل، حكمت بالكفر بمجرد القول الظاهر، أو الفعل الظاهر يعني: من فعل الكفر أو قال الكفر؛ فقد كفر، يُحكم في الشريعة عليه بالكفر، ما الدليل على هذا؟

الدليل إنما استثني هذا المكره ولا إكراه على ما في القلب، الإكراه إنما يُتصور في الأمر الظاهر، في قول يُكْره على أن يتكلم بكلمة الكفر، يكره على أن يفعل الكفر.

أما أن يُكره على أن يعتقد الكفر هذا لا يتصور ولا يمكن، لا يمكن لأحد أن يُكْره أحدًا على أن يعتقد بوجود شريكٍ مع الله ﷻ مثلًا، هذا لا يمكن أن يتصور، هذا لا يمكن أن يتصور، يمكن أن يكذب عليه بلسانه لكن أن يعتقد هذا بقلبه؛ لأنه مكره هذا لا يتصور، لا إكراه على ما في القلب.

وبالتالي فإن هذه الآية قد حكمت على القول وعلى الفعل إذا كان مناقضًا للدين بأنه كفر؛ لأنَّ اللهﷻ قال: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾[النحل:١٠٦]، واستثناء المكره دليل على الكفر، فإنه كافر.

إذًا حذاري يا أيها الأخوة من هذا الأمر وهو الوقوع في مأزق الإرجاء، فإن أبواب هذا المذهب مع الأسف الشديد قد كثُرت وفُتحت على الناس في هذا الزمان، في بعض ما يكتب وبعض ما يُقال وينشر من أقوال تخالف مذهب السلف، لم تؤصل على مذهب أهل السنة والجماعة في باب الإيمان، بل إنما كان فيها تأثر بمذاهب أهل الإرجاء، فعلى الإنسان أن يضبط هذه المسائل في ضوء معتقد أهل السنة والجماعة.

الأمر الأخير الذي أحب التنبيه عليه وهو التنبيه الثالث: وهو ما يتعلق بأمر يُسأل عنه كثيرًا وهو أن بعض الناس يقول: من سب الله أو الدين -عياذًا بالله- حال الغضب، يقول يغضب فيسب الله ﷻ أو يسب الدين أو يسب الملة، أو يسب القرآن -العياذ بالله- فهل هذا بهذا معذور؟

والجواب: أن يقال إن هذا المأفون هذا المجرم الذي لم يجد شيئًا يخفف به حرة قلبه إلا جناب ربنا ﷻ فيسبه حتى يستريح ويخفف ما به، أي تعظيم وأي إيمان عند هذا الإنسان،

لاشك ولاريب أن من نطق بكلمة الكفر من سب وسخرية واستهزاء، سب شيئًا من دين الله ﷻ وهو يعلم أنه من دين الله أو سخر بشيء من دين الله وهو يعلم أنه من دين الله، أنه بمجرد هذا يكون كافرًا بالله ﷻ، متى ما كان قلم التكليف جاريًا عليه، إذا كان مكلفًا، فإنه لاشك مُؤاخذًا بذلك، وليس مجرد الغضب عُذرًا له أو دارئً عنه هذا الحكم اللهم إلا في حالة واحدة وهي أن يبلغ به الغضب إلى درجة يرتفع عنها التكليف، إذا وصل إلى درجة يكون فيها؛ كالسكران، أو كالهاذي، أو كالنائم يتكلم في نومه، كالذي سُأل أين أنت في أرض أو سماء لم يجد ما يجيب! أغلق عليه الباب البتة، مثل هذا قد يقال أن له عذرًا.

أما ما عدا ذلك من أنواع الغضب المعدودة التي تقع في الناس، فإن هذا ليس عذرًا لهذا الإنسان، على كل مسلم أن يتقي الله ﷻ وكذلك على طلبة العلم، بل على كل مسلم أن يكون عنده غيرة على محارم الله ﷻ.

وبالتالي فإنه ينهض بواجب الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتنبيه والتحذير.

بعض الناس يقول مع الأسف في بعض الأماكن في قريته أو بلده، مثل هذا الأمر قد عمت به البلوى فماذا أصنع؟ يترك الإنكار ويترك النصيحة ويترك النهي عن هذا الفعل الشنيع؛ لأنه قد كثر، يا لله العجب!! متى كان انتشار المنكر عذرًا في عدم إنكاره، بل هذا مما ينبغي أن يكون سببًا لمضاعفة الجهد في النهي والإنكار حتى يزول هذا المنكر الفاشي، المنكر إذا انتشر آذن بنزول العذاب العام.

احذر يا عبدالله من ذلك، وقم بهذا الواجب ونبه وحذر وأغلظ إذا كان المقام يستحق الإغلاظ، والحكمة وضع الشيء في موضعه.

ووضع المدى في موضع السيف في العلا

مضرٌ كوضع السيف في موضع الندى

ربما تقتضي المصلحة الإغلاق وربما تقتضي المصلحة لين القول، وعليك أن تضع كل في موضعه المناسب له.

٦٩

٦٩- باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول (المجلس الثاني).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب: من هزل بشيءٍ فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول.

وقول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾[التوبة:٦٥] الآية.

يقول المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **باب من هزل بشيءٍ فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول** ﷺ، يعني: أنَّ حُكمه كونه كافرًا، من فعَل هذا فهو كافِر.

وهذا ناقضٌ من نواقض التوحيد.

قال: **باب من هزَل** الهَزَلُّ ضدُّ: الجد، وهو بمعنى: المزاح، والمراد به في هذا المقام إذا ذُكِر الهزل بكتاب الله أو بسُنَّة رسوله ﷺ فإنَّ هذا الهزل يتضمن الانتقاص والاستخفاف.

وبالتالي، كان في معنى والاستهزاء والسخرية. هذا هو الأمرُ العظيم الذي يَرُدُّ الإنسان -عياذًا بالله- إلى الكُفر إنْ كان مُسلمًا، أو يجعلَهُ يزداد كُفرًا وغُلوًّا إنْ كان كافرًا أصليًا.

وقُلت لك سابقًا إنَّ الحُكم عند أهل العلم واحد؛ الاستهزاءُ والسبّ، والسبُّ لا شك أنَّه أشنع من الاستهزاء.

فمن هزل واستهزأ بشيءٍ من ذِكر الله، يعني: كان المهزولُ به شيئًا من ذِكر الله عَزَّوَجَلَّ، وأعظمُ من ذلك أن يكون الهَزلُ مُتعلِّقًا بجناب الربوبية أو بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ الذي هو كلام الله، أو بجناب الرسالة، أو ما تفرَّع عن ذلك من أي شيءٍ يتعلَّق بالدِّين، أو بأمور الغيب، أو الآخرة، أو الملائكة، أو الرُسُل، كلُّ ذلك حُكمه عند أهل العلم واحد.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **أو الرسول**، الأقرب أنَّ (أل) هاهنا عهدية، فهو الرسول ﷺ وغيره في حُكمه لاشتراك غيره من الرُسُل مع النبيّ ﷺ في هذا الوَصف وهو الرسالة.

أو تكون (أل) هاهنا للاستغراق، فيشمل ذلك كل رسول.

والمقصود أنَّ الحُكم واحد مهما جعلت (أل) في كلمة الرسول، فأي هزلٍ بأحدٍ من رُسُل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنَّه يُعد ناقضًا من نواقض الدين.

واستدلّ المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ذلك بآية سورة التوبة: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ﴾[التوبة:٦٥]، ويسبق هذه الآية قوله ﷻ: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا﴾[التوبة:٦٤]، الأمر هاهنا أمرٌ من جهة اللفظ والمعنى هو: التهديد، ﴿ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾[التوبة:٦٤]، ثم قال ﷻ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾[التوبة:٦٥]، والخطاب مُوجهٌ إلى النبي ﷺ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾[التوبة:٦٥]، وسيأتي الكلام عنها إن شاء الله في بيان سبب النزول.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة، دخل حديث بعضهم في بعض ...

الشرح

ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ سبب النزول لهذه الآية رواه جمعٌ من أهل العِلم، أوردَّ منه المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ رواية صحابيٍ وثلاثةٍ من التابعين.

أمَّا الصحابيُّ فهو ابن عُمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وأمَّا التابعون فهم زيد بن أسلم ومحمد بن كعب القرَضي وقتادة بن دعامة رَحِمَهُمُٱللَّهُ.

ورواية ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا رواية جيدة ثابتة، تتقوَّى بمراسيل التابعين.

والمؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيَّن أنَّه ساق الروايات مضمومةً بعضها إلى بعض، يعني ضمَّ روايات هؤلاء رضي الله عنهم ورحمهم بعضها إلى بعض.

قال: **دخل حديث بعضهم في بعض**، فهو دمج وجمَع بين الروايات وساقها مساقًا واحدًا، ويبدو والله أعلم أنَّه قد تابَع بهذا شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه ((الصارِم المسلول))، فإنَّه ذكَر الجملة نفسها وساق ما ساق المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ها هنا.

...أنه قال رجل في غزوة تبوك:
ما رأينا مثل قُرَّائنا هؤلاء أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء...

قال ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: إنَّ رجلاً في غزوة تبوك، في مَسير النبي ﷺ إلى غزوة تبوك حصلت هذه القصة؛ وهي أنَّ رجُلاً في جماعةٍ من أصحابه كان مُتكلِّمًا واحدًا، وكان البقية راضين بما يقول، فكان حُكمهم واحدًا: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾[التوبة:٦٥].

وهذا يدُلُّك على خطورة حضور مجالس المنكر، وأنَّ مجالس المنكر الحاضر فيها آثمٌ ما لم يُنكِر، لاسيما إذا كان المجلس مجلسًا يُتكلَّم فيه بالكُفر بالله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾[النساء:١٤٠].

فدلَّ هذا على إنَّ من رَضِيَّ بهذا الحديث وتابع وسكت فإنَّ حُكمه حُكم المتكلِّم.

وقد جاء في بعض روايات سبب نزول هذه الآية: أنَّ المتكلم كان واحدًا وكان البقيَّة يضحكون، يوافقون ويُتابعون على ذلك.

وجاء في بعض الروايات: أنَّ هذا الرجل المتكلِّم اسمه: وديعة بن ثابت، وقيل غيره كان أحد المنافقين.

قال: ما رأينا مثل قُرَّائنا هؤلاء.

القُرَّاء في لسان السَلَف لفظٌ يُطلَق: على العُلماء الذين جمعوا بين تلاوة القرآن والعلم بأحكامه، ويُريد أصحاب النبي ﷺ معه؛ يعني: يريد النبي ﷺ وأصحابه.

قال ساخرًا منهم مستهزئا بهم: «**ما رأينا مثل قُرَّائنا هؤلاء أرغب بطونا**» يعني: أوسع بطونًا إشارةً إلى أنَّهم يتَّصفون بكثرة الأكل فلا هم لهم إلا بطونهم.

«**ولا أكذَّب ألسُنًا**»، يعني: أنهم يكذبون في الحديث.

«**ولا أجبن عند اللقاء**»، يعني: أنهم يتصفون بالجُبن عند لقاء العدو ولا يثبتون عند اشتداد المعارك.

ولا شك أنَّ هؤلاء المنافقين وصَفوا النبي ﷺ وأصحابه بصفاتهم هم أنفسهِم، لا شك أنَّ هذه صفات المنافقين، فالأمر على ما قيل: "رمتني بدائها وانسلَّت".

هم أجدر وأحقّ بهذه الصفات الذي ذكروها وحاشا النبي ﷺ وحاشا أصحابه أن يكونوا مُتصفين بهذه الصفات المذكورة.

-يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القراء - فقال له عوف ابن مالك: كذبت؛ ولكنك مُنافق، لأُخبرنَّ رسول الله ﷺ.

قال عوف بن مالك، يعني: الأشجع رضي الله عنه وكان يسمع هذا الحديث: «**كذبت ولكنك مُنافق**».

في هذا فائدتان:

أولاً: أنَّ الكذب يجب أن يُردَّ على صاحبه مباشرة، هذا مقامٌ لا يصلُح فيه التريُّث.

كلامٌ باطل وكذبٌ وافتراء يجب أن يُردَّ على صاحبه من حينه.

ثانيًا: الإغلاظ عند قيام المصلحة. يعني: المقام ها هُنا تقتضي المصلحة فيه الإغلاظ في القول هذا كلامٌ خطير، هذا وقوعٌ في النبي ﷺ وفي أصحابه، فلا يُناسب حينئذٍ أن يتناول المنكِر هذا المنكَر بأطراف أصابعه يتساهل ويتلطَّف!

كلا، المقام يقتضي أن يغلظ في العبارة ويُشدَّد في النكير.

قال: «**ولكنك مُنافق**»، ثم أخبره أنَّه سيرفع هذا الأمر إلى النبي ﷺ، قال: «**لأُخبِرنَّ رسول الله ﷺ**».

وفي هذا فائدة، وهي: أنَّ رَفع الحديث وإبلاغ الأخبار إلى ولي الأمر إذا كان فيه درءُ مَفسدةٍ عن الإسلام والمسلمين، وكان يتضمَّن النصيحة لله ورسوله ولأئمة المسلمين عامَّتهم، فإنه ليس من النميمة وليس من الغيبة.

وهذا ما نبَّه عليه المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ بالمسألة الثالثة من مسائل الباب حيث قال:

الفرق بين النميمة والنصيحة لله ورسوله ﷺ.

متى ما كان ثمَّة ما يتهدَّد المجتمع المسلم وما يُمكن أن يُوقع المكروه للمُسلمين، فإنَّ رفع ذلك إلى الحاكم المسلم ووليِّ الأمر الذي يستطيع إنكار هذا المنكَر لا شك أنَّه ليس أمرًا مذمومًا، بل هو أمرٌ ممدوح ومن النصيحة المأمور بها.

فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه.

ذهب عوفٌ رضي الله عنه إلى النبي ﷺ ليُخبره بما كان، فوجد أنَّ الوحي قد سبقه، نزَلَت عليه هذه الآية التي سمعت من سورة التوبة.

وهذا فيه فائدتان:

أولاً: أن نعلم ثبوت صفات العلم، والسمع، والبصر، والكلام لله سبحانه وتعالى.

ثانيًا: أنَّ هذا من دلائل نبوّة النبي ﷺ، فإنَّه رسول الله حقًا، وإلَّا كيف له أن يعلم الشيء الذي غاب عنه لولا أنَّه يُوحى إليه من ربِّ العباد سبحانه وتعالى.

فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل، وركب ناقته، فقال: يا رسول الله؛ إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب، نقطع به عنا الطريق.

جاء هذا الرجُل، والأكثر في كتب التفسير أنَّه: وديعة بن ثابت، وقيل: أنَّه عبد الله بن أُبيّ، لكن ذلك غلط ليس بصحيح؛ لأنَّ عبد الله بن أُبيّ قد تخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك.

جاء هذا الرجُل ليعتذر إلى رسول الله ﷺ ويُخبره في اعتذاره أنَّ هذا الكلام الذي بلَغه لم يكونوا يقولونه على سبيل القصد أو الكراهة إنَّما هو حديثٌ من حديث الركب يخوضون، ويتكلمون بحديث المسافر.

معلومٌ أنَّ المسافر يُحب أن يتكلَّم بكلامٍ فيه فُسحة، فيه شيءٌ من المرَح، فيه شيءٌ من المزاح، فيقول: هذا الكلام "إنَّما كنا نقوله على سبيل المزاح"، أو كما نقول بلساننا المعاصر: "كانوا يُوسعون صدورهم بهذا الكلام". فهذا هو ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة:٦٥].

ولاحِظ- يارعاك الله- أنَّ الله عز وجل ما أكذَّبهُم في قولهم هذا ولا في اعتبارهم هذا، نعم كانوا يقولونه على سبيل الخوض واللعب. ولكن هذا فيه فائدتان:

أولاً: أنَّه لا فَرَقَ في هذا الباب؛ لا فرق في باب السبِّ والاستهزاء بين من يكون منه ذلك على سبيل الحقد والكراهة لرسول الله ﷺ وللإسلام، أو كان ذلك على سبيل اللعب وعلى سبيل المزاح لا فرق، الحُكم في ذلك واحد.

ثانيًا: قاعدة مهمة وهي: أنَّه لا فرق في باب الكُفر بين الجاد والهازِل. سواء قال أو فَعَل الكُفر على سبيل الجدية أو على سبيل اللعب وعلى سبيل المزاح، كلُّ ذلك الحُكم فيه واحد.

ونبَّه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آخر نواقض الإسلام على تنبيهٍ غاية في الأهمية حينما قال: (ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازِل والجاد والخائف إلا المكرَه).

إذًا كلُّ من وقع في هذه النواقض التي تُردِّي صاحبها وتخرجه عن دائرة الإسلام لا فرق في ذلك بين أن يكون مُتكلِّمًا أو فاعلاً على سبيل المزاح واللعب، أو أن يكون قاصدًا مُحققًا لما يقولُ ولما يفعل.

الحُكم في ذلك واحدٌ عند أهل العلم والدليل على ذلك هذه الآية التي بين أيدينا.

قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ.

يقول ابن عمر: **كأني أنظر إليه متعلقا بنسعة ناقة**، يعني: الزمام الذي يُزم هذه الناقة متعلِّقٌ بها مُتشبِّثٌ بها يُريد أن يلتفت إليه النبي ﷺ ويقبل منه، وكل ذلك والنبي ﷺ لا يُبالي به ولا يزيده إلا أن يتلو عليه الآية.

وإنَّ الحجارة تنكب رجليه.

والحجارة تنكب رجليه يعني: تُصيبها وتُبليها، وهو لا يُبالي بذلك هو مشغولٌ بالأهم وهو أنَّه يُريد أن يقبل منه النبي ﷺ باعتباره.

وهو يقول: إنَّما كنا نخوض ونلعب. فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿قل أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾[التوبة:٦٥]، ما يلتفت إليه وما يزيده عليه.

امتثل النبي ﷺ أمر ربّه حيث إنّ الله ﷻ أمره أن يقول هذا القول: ﴿قل أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[التوبة:٦٥-٦٦].

هذه آيةٌ عظيمة وأصلٌ مهم في هذا الباب ينبغي على كل مُسلم أن يكون له عبرةٌ منها وأن يقف أمامها مُتأملاً حاذرًا.

قال ﷻ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾[التوبة:٦٥]. هكذا اعتذروا وهذا العُذر صحيح في نفسه هم هذا الذي كان منهم وما أكْذَبَهم الله ﷻ في ذلك ومع ذلك كان عُذرًا غير مقبول: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾[التوبة:٦٥].

لاحِظ أنَّ هذا الاستفهام إنَّما كان على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾[التوبة:٦٥].

ولاحظ أيضًا أنَّ الله ﷻ ذكر عنهم أنَّهم استهزأوا بالله ﷻ مع أنَّ المرويَّ في سبب النزول لم يكُن فيه أنَّهم استهزأوا بالذاتِّ العليَّة ولا أيضًا بالقرآن،

ووجه ذلك:

[أولاً]: أنهم إنَّما ذكَر الله ﷻ هذا في حقهم من باب النزول، يعني: لما استهزأوا بالرسول ﷻ فإنَّ لازم ذلك أن يكونوا مُستهزئين بالله العظيم ﷻ، إذْ يلزمُ من الاستهزاء بالرسول الاستهزاءُ بالمرسل.

ثانيًا: يلزم من الاستهزاء بالرسول الاستهزاء بما أُرسل به وهو آيات الله ﷻ، فصحَّ إذًا أنَّهم كانوا مُستهزئين بالله، وأيضًا بآياته، وأيضًا كانوا مُستهزئين برسول الله ﷺ.

﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾[التوبة: ٦٥-٦٦]. الله ﷻ أخبرهم بأنَّ هذا الاعتذار لا حاجة إليه؛ لأنَّه لا ينفع فهو اعتذارٌ مرفوضٌ غير مقبول: ﴿ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[التوبة:٦٥]، أكدَّ الله ﷻ أنَّ القوم كفروا بوقوعهم فيما وقعوا فيه: ﴿ قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[التوبة:٦٦].

الله ﷻ على ما جرت عليه كثيرٌ من آيات القرآن جمَع بين الترهيب والترغيب، بين ما يقتضي الخوف وبين ما يقتضي الرجاء.

بيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّ ثمة مجالاً للتوبة على من كان صادقًا مع الله عَزَّ وَجَلَّ راجعًا إلى الله سُبحانه.

وبالتالي: فمن زلت به القدم فوقع في هذا المنكر الشنيع فإنَّ عليه أن يُبادر إلى التوبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والله يقبل توبة التائبين.

وقد اشتهر في كتب التفسير أنَّ من تاب الله عَزَّ وَجَلَّ عليه من هؤلاء النفر الخائضين كان مغشيّ ابن حميِّر، كان رجُلاً من جملة المنافقين لكن الله جَلَّ وَعَلَا تاب عليه اسمه على الأقرب مغشيُّ بن حُميِّر الأشجعي، فإنَّ هذا الرجُل كان معهم.

وذكرت بعض الروايات أنَّه ما تكلَّم لكنَّه كان يضحك.

وذكرت بعض الروايات أنَّه كان ينهاهم عن بعض ما يخوضون فيه، ثم إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ وفَّقه فمنَّ عليه بالتوبة فتاب إلى الله جَلَّ وَعَلَا وغيَّر اسمه إلى عبد الرحمن، وقُتل فيما نرجو شهيدًا في معركة اليمامة.

هكذا نصَّت كُتب تراجم أصحاب النبي ﷺ.

والمقصود أنَّ قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ ﴾[التوبة:٦٦]، يعني: بأن يُوفقوا إلى التوبة فيعفو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عمن وقع في هذا الإثم، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. وكان على هذه الرواية هو هذا الرجل الوحيد.

وبهذا نستفيد فائدةً لغوية وهي: أنَّ الطائفة تُطلق على الرجُل الواحد: ﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً ﴾[التوبة:٦٦]، ثمة طائفة أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنَّهم لم يُوفقوا إلى التوبة وذلك إضلالاً منه سُبحانه؛ لأنهم كانوا مُستحقين لذلك: ﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[التوبة:٦٦].

هاتان الآيتان العظيمتان في هذه السورة فيها عبرةٌ عظيمة وفيها ما يقتضي الوجل والخوف من الرتوع في هذا المرعى الوخيم.

حذاري يا عبد الله من أن تحوم حول هذا الحمى وهو أن يكون ثمَّة مزاح أو لعب أو كما يقولون بلسان اليوم "النُكت"، نُنكِّت ونُوسع الصدر ونمزح، ويكون هذا المزاح اشتمل على ذِكْر شيءٍ من آيات القرآن أو حديث رسول الله ﷺ.

امزح فيما شئت وقل ما شئت، لكن كُن على حذر من أن تتناول أو تُعرِّض بشيءٍ مما يرجع لهذا الدين، شيءٌ يتعلَّق بالآيات أو بالأحاديث أو جناب النبي ﷺ، حذاري، فإنَّ ذلك مؤذنٌ بخُسران عظيم.

فالله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾[الكوثر:٣]، الأبتر: مقطوعُ الخير.

يحكم الله سُبحانه وتعالى على أنَّ من يقع في النبي ﷺ وعلمنا أنَّه لا فرق في هذا الباب بين أن يكون الإنسان جادًا أو مازحًا، قاصدًا للطعن عن حقد وكراهة أو لم يكُن قاصدًا، لا فرق في هذا الباب البتَّة، إنَّ من كان كذلك قطَع الله سُبحانه وتعالى كما حكم ﷻ عنه الخير، وإذا قُطِع عن الإنسان الخير فمتى يكون حظه إلا الخيبة، وإلا الحرمان، وإلا الخسارة، وإلا غضب الجبَّار سُبحانه وتعالى.

ومثل هذا الذي يتساهل ويتسامح بمثل هذا الأمر ما أسرع أن يقع في ذلك، ما أسرع أن يقع في المحظور ومن حامَ حول الحِما يوشك أن يرتع فيه، هذا تنبيه، وأخصُّ به بعض طلاب العلم الذين رُبَّما تساهلوا وتسامحوا حينما يُمازحون أقرانهم بذِكْر شيءٍ من الآيات أو الأحاديث وتنزيلها على غير محلِّها على سبيل المزاح وعلى سبيل اللعب وعلى سبيل الضحك، هذا والله أمرٌ خطير ينبغي أن يُحذر.

كذلك ما يفعله بعض الشباب من الخوض، أو ذكْر بعض النكات التي تتضمَّن بعض الأحكام الشرعية، يقولون: "نحن نمزج ونُنكِّت"، ويكون في ذلك تعرُّض لشيءٍ من أحكام الشريعة تعرُّضٌ لشيءٍ يتعلَّق باللحى، شيءٌ يتعلَّق بتقصير الثياب، شيءٌ يتعلَّق بحجاب المرأة، شيءٌ يتعلَّق بتعدُّد الزوجات، شيءٌ يتعلَّق بولاية الرجُل على المرأة، شيءٌ يتعلَّق بالحدود، إلى غير ذلك هذا لاشك أنَّه أمر خطير بل هو والله أمرٌ غاية في الخطورة، وما أجدر صاحب ذلك أن يُعجِّل الله عليه العقوبة في الدنيا قبل الآخرة -نسأل الله السلامة والعافية- إن لم يتُب إلى الله جلَّ وعلا.

ويحضُرني في هذا قصةٌ لعَّل فيها عبرة وهي: ما ذكر الشيخ المحدِّث أحمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((كلمة الحق))، ذكَر قصة عاصرها وهي: أنَّ رجلاً خطَب بحضرة السلطان -سلطان مصر في ذاك الزمان- فأراد أن يتملَّق له، فقال كلمةً ما قامت له قائمةٌ بعدها -نسأل الله السلامة والعافية-، كان هذا السُلطان عن قريبٍ من يوم الجُمعة قد كرَّم

أحد الأدباء العميان- أديبٌ أعمى قد كرَّمه السُلطان-، فأراد هذا الخطيب أن يتملَّق له، فقال في خطبته: ولما جاءه الأعمى ما عبَس في وجهه وما تولَّى.

ولاحِظ ما في هذا الكلام من تعريضٍ لرسول الله ﷺ. ولما انتهت الصلاة قام والد الشيخ أحمد وهو الشيخ محمد شاكر وهو من أهل العلم، وكان إذْ ذاك وكيل الأزهر، فقال: "ياأيُّها الناس أعيدوا صلاتكم فإنَّ إمامكم قد كفَر".

هذا الحُكم قد صدَر من هذا الشيخ لمجرَّد التعريض برسول الله ﷺ. يقول الشيخ أحمد شاكر: وأقسم بالله أنِّي رأيت هذا الرجُل بعد بضع سنين وكان ذا جاهٍ وحظوة، كان رجلاً متعاليًا مُنتفخًا، أُقسم بالله أنِّي رأيته على باب أحد المساجد يتلقَّى نِعَال المصلِّين وعليه من الذلة والصغار ما الله به عليم، صدَق الله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾[الكوثر:٣].

إذًا هذا المقام حريٌ أن يُلاحظه الإنسان وأن يكون مجانبًا له تمام المجانبة، مُبتعِدًا عنه تمام الابتعاد، لا يحوم حوله البتَّة.

في مقام الهزل والمزاح تجنب، تجنب، تجنب، أيَّ شيء له مساس بذات ربنا ﷻ أو نبيِّنا ﷺ أو شيئًا من هذا الدين.

وعودًا على هذه الآية، ثمَّة مسألة مهمة تتعلَّق بها وهي:

هؤلاء الذين كان منهم من نزلت فيهم هذه الآية، هل كانوا منافقين، أم كانوا مؤمنين عندهم إيمان ضعيف ثم ارتدُّوا بسبب هذه المقالة؟

ذهب بعض أهل العلم: أنَّهم كانوا مؤمنين عندهم إيمان ضعيف ثم ارتدُّوا بما كان منهم. واستدلُّوا على هذا بقوله ﷻ: ﴿ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾[التوبة:٦٦]، إذًا كانوا مؤمنين قبل أن يكون منهم ما كان، وهذا ما نصَّ عليه المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((كشف الشبهات)). ويُفهَم ذلك من بعض كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي دوَّنه في كتابه ((الإيمان)).

وعامَّة أهل العلم على القول الأول وهو هؤلاء إنَّما كانوا مُنافقين.

والذي لا شك فيه عندي أنَّ هذا هو القوْل الصحيح أنَّ الذين كان منهم ما كان كانوا مُنافقين أصلاً.

ويدلُّ على هذا أوجه عدَّة:

أولاً: أنَّ سياق الآية وسابقها يدلُّ على ذلك. هذه الآية التي بين أيدينا: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾[التوبة:٦٥]، سبقها قول الله ﷻ: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾[التوبة:٦٤].

إذًا الله ﷻ بيَّن ها هُنا أن الكلام إنَّما كان على المنافقين صراحةً، ثم قال: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾[التوبة:٦٥].

إذًا الكلام قطعًا إنَّما تعلَّق بهؤلاء المنافقين، سألتَ من؟ المنافقين، الذين ذُكروا قبل ذلك والذين هدَّدهم الله ﷻ بقوله: ﴿ قُلِ اسْتَهْزِئُوا ﴾[التوبة:٦٤]، فدلَّ هذا على أنَّهم هم المقصودون.

ثم الآية التي بعد آية: ﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[التوبة:٦٦]، قال ﷻ: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[التوبة:٦٧]، فما قبل الآية وما بعدها دليلٌ صريح على أنَّ هؤلاء كانوا مُنافقين.

ثانيًا: هذه الآية من سورة التوبة، سورة براءة. وهي في كُلِّها مُتعلِّقة بهؤلاء المنافقين وصفاتهم.

ولذلك تأمَّلها من أولها إلى آخرها تجد أنَّ الله ﷻ يذكر من صفاتهم الشيء الكثير: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي﴾[التوبة:٤٩]، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾[التوبة:٥٨]، إلى أن جئنا إلى الآية -التي مرَّت بنا أمس-: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ﴾[التوبة:٦١]، إلى أن قال ﷻ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾[التوبة:٦٥].

فهذه السورة في مُجملها إنَّما تتعلَّق بالمنافقين وصفاتهم وما يصدُر منهم.

ثالثًا: قول الصحابيِّ الجليل عوف بن مالك رضي الله عنه «ولكنَّك مُنافقٌ»، هذا أيضًا نصٌ على أنَّ هذا القائل كان مُنافقًا. ولو كان خلاف ذلك لقال: لقد كفرت، أو يا كافر، أو قد ارتددت، لكنَّه قال: «ولكنَّك مُنافقٌ».

ومعلومٌ أنَّ أصحاب النبيِّ ﷺ كانوا يعلمون بعض المنافقين بصفاتهم، قال ﷻ: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

فالمنافق قد يُعلم، جميعهم ليسوا معلومين، لكن طائفةً منهم كانوا معلومين لأصحاب النبيِّ ﷺ بأقوالهم وغمزاتهم ولمزاتهم وحركاتهم وسكناتهم كانت تدلُّ على أنَّهم كانوا منافقين، ولذلك في صحيح مسلم قول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ولقد رأيتنا وما يتخلَّف عنها إلا مُنافق معلوم بحق». إذًا كانوا يعلمون أحوال المنافقين. ظهَر لعوف رضي الله عنه ما اقتضى لأن يصفه بهذا الوصف.

رابعًا: أنَّنا قد علمنا من كتاب الله ﷻ أنَّ السخرية والاستهزاء إنَّما هي شأنُ المنافقين، هذا ديدنهم وهذه صنعتهم أنَّهم يسخرون ويستهزئون، بدليل ما قبل هذه الآية بآيتين قول الله ﷻ: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١]، كذلك قول الله ﷻ عنه في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، فالاستهزاء ديدنهم والاستهزاء شأنهم.

هذه الأوجه وغيرها تدلُّ على أنَّ الخائضين القائلين ما قالوا في حقيقة الحال كانوا منافقين.

ويبقى بعد ذلك السؤال وهو: ما توجيه قول الله ﷻ: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]؟

توجيه ذلك على ما ذكر كثيرٌ من أهل العلم، هو: أنَّ هؤلاء المنافقين معلومٌ أنَّه كان محكومًا لهم بحُكم الإيمان ظاهرًا، كانوا مؤمنين حُكمًا، كانوا مُسلمين حُكمًا. فلمَّا كان منهم ما كان كانوا كافرين حُكمًا كما كانوا كافرين حقيقةً؛ بمعنى: الله ﷻ بيَّن في هذه الآية: ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]، قد كفرتم (حُكمًا) بعد الإيمان الذي كان محكومًا لكم به، كانوا في السابق مؤمنين حُكمًا كُفَّارًا حقيقة، فصاروا الآن كفَّارًا حُكمًا كُفَّارًا حقيقة. كانوا في السابق مؤمنين حُكمًا يعني في أحكام الإسلام الظاهرة تجري عليهم أحكام المسلمين، لكن في حقيقة الحال هم كُفَّار.

إذًا كانوا مؤمنين حُكمًا كُفَّارًا حقيقة، فصاروا بعد أن أظهروا هذا القول كُفَّارًا حُكمًا وحقيقة، هذا توجيه قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُم﴾ [التوبة: ٦٦].

ويتفرَّع على هذا أيضًا سؤال وهو: أنَّ أهل العلم مُجمِعون على وجوب إقامة حد الردَّة على من سخِر واستهزأ أو سبَّ الله ﷻ أو رسوله ﷺ أو دينه، ولكننا نجد أن النبيَّ ﷺ ما أقام الحدَّ على هؤلاء.

والجواب عن ذلك: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يرعى مصلحة الإسلام وكان يسعى في تأليف الناس على الدين لا التنفير عنه. ويدلُّ على هذا قول النبي ﷺ: «**لا يتحدث الناس أنَّ مُحمدًا يقتل أصحابه**»، لو شاع في قبائل العرب وغيرهم أنَّ هؤلاء –وظاهر حالهم أنَّهم من جُملة أصحابه– أنَّه قد قتلهم كان هذا مُنفرًا أعظم التنفير عن الرسول ﷺ وعن الاستجابة لدعوته، فراعى ﷺ هذا الأمر في هذا المقام.

إضافةً إلى هذا: ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ هذه الواقعة كانت إبَّان أمر الله ﷻ بنبيِّه ﷺ بأن يُعرِض عن المنافقين، ثم بعد ذلك جاء الأمر بالإغلاظ عليهم: ﴿**جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ**﴾**[التوبة:٧٣]**، ﴿ **مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا** ﴾**[الأحزاب:٦١]**، فكان هذا سابقًا على هذا الأمر.

ومهما يكن من شيء فالمحرر في هذا المقال كما بيَّن ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: ((زاد المعاد)) أنَّ مراعاة هذا الأمر خاص بالنبيِّ ﷺ، أمَّا بعد حياته ﷺ فلا يملك أحدٌ أن يتنازل عن حق الإسلام أو حقُّ رسول الله ﷺ في إقامة الحد. بعد وفاة النبي ﷺ صار من الواجب عند القدرة لإمام المسلمين أن يُقيم الحد على هؤلاء بعد الاستتابة.

يُأْمرُ الواقع في هذا الجُرم بالتوبة إلى الله ﷻ، فإن تاب قُبل منه على الصحيح من قولي أهل العلم في هذه المسألة، وهي مسألة السابّ ومسألة المستهزئ، اللهم إلا مسألة خاصة وهي السب أو الاستهزاء إذا نال جناب النبي ﷺ.

فالذي رجحه شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجماعةٌ من المحققين أن هذا السابّ لو تاب إلى الله ﷻ فإنَّ توبته تنفعه فيما بينه وبين الله.

أمَّا في الحُكم الدنيوي فإنَّه لابد من إقامة الحد عليه، وذلك أنَّ لا أحَد يملُك التنازُل عن حق النبي ﷺ، يعني: في حياته ﷺ تنازَل هو عن حقِّه إذْ كان يملُك ذلك، لكن بعد وفاة النبي ﷺ من الذي يملك أن يتنازَل عن حقِّ النبيِّ ﷺ، وهذا القول من القوّة بمكان، والله تعالى أعلم.

٧٠

٧٠- باب قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ الآية.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب: ما جاء في قول الله تعالى:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ الآية [فصلت: ٥٠].

فهذا البابُ قد عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لبيان أنَّ من التوحيد الواجب على كل مسلم القيامَ بشكرِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وشكرُ الله مقامٌ من مقاماتِ الإيمان العظيمة، بل هو زبدةُ الإيمان، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[الإنسان: ٣]؛ فقابل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بين الشكر، والكفر؛ فالمؤمن حقاً وصدقاً، هو القائم بشكر الله عَزَّ وَجَلَّ.

وشكر عَزَّ وَجَلَّ الله حقيقةٌ مركبةٌ من ثلاثة أركان:

الركن الأول: الاعتراف الباطنُ بنعمة الله عَزَّ وَجَلَّ، وأنّها منه بمحضِّ التفضَّل، وهذا مما لا يجوزُ لمسلمٍ أن يشك فيه، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[النحل:٥٣]، ﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ﴾[الإسراء: ٢٠]، ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾[النور: ٣٣].

قال ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰفي الحديث القدسي المخرج عند مسلمٍ في صحيحه، قال عَزَّ وَجَلَّ: «**يا عبادي كلكم جائعٌ إلا من أطعمته؛ فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته؛ فاستكسوني أكسكم**»؛ إذاً هذا هو الركن الأول؛ الاعتراف، والإقرار بالقلب أن النعم إنما هي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والعبد ليس منه شيء ولا إليه شيء، ولا يستحق على ربه شيئا.

[الركن الثاني]: القول باللسان؛ الاعتراف والإقرار باللسان وهذا يتضمن أمرين:

[الأمر] الأول: الإقرار باللسان؛ بأن النعمة من الله عَزَّ وَجَلَّ قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[الضحى:١١]، وفي حديث سيد الاستغفار: «**أبوء بنعمتك علي**»؛ يعني: أقر واعترف.

[الأمر الثاني]: الحمد، والشكر، والثناء، وهذا أدلته لا تحصى؛ فيُحمد الله، ويُشكر، ويُثنى عليه بإنعامه على عباده بالنعم التي لا حد لها ولا حصر.

[الركن الثالث]: العمل بها فيما أذن الله، وذلك لقول الله سبحانه: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾[سبأ: ١٣]؛ فيعمل الإنسان بالنعمة، في حدود ما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به؛ فإن

كان المقام مقام طاعةٍ واجبةٍ، أو مستحبة؛ فإن الشكر ها هنا يكون بأداء هذا الذى أمر ﷻ، وإن كان المقامُ ليس كذلك؛ فالواجب أن تصرف النعمة في حدود ما أباح الله ﷻ.

إذًا النعم لا يجوز التصرف فيها وفق هوى الإنسان، إنمَّا وفق إذن الله ﷻ الشرعي، وهذا المقام يتفرع إلى ما يكون واجباً ، وإلى ما يكون مستحباً، وإلى ما يكون مباحا.

أما القدر الذي لابد منه؛ فهو ألا يصرفها في معصية الله ﷻ، ومن قام بهذه الأركان الثلاثة أورثه ذلك ثمراتٍ عظيمة، **ومن أعظمها ثمراتٌ ثلاث:**

أولا: أنه يورثه ذلك محبة الله ﷻ؛ لأنه أقر، وأيقن، وأعتقد أن النعمة إنما منشأها، ومصدرها إنما مسديها هو الله ﷻ، والنفوس مجبولة على حب من أنعم إليها، فكيف بمن كلُّ النعم إنما هي منه ﷻ؟!

ثانياً: السلامةُ من كفر النعمة، وكفر النعمة لا شك أنه قادح في كمال التوحيد الواجب، وربما كان ذريعة في الوقوع في نقض أصل التوحيد.

[ثالثًا]: أن يسلم من الكبر، والغرور، والإعجاب بالنفس، وهذا ولا شك من الواجبات؛ التي القيام بها من كمال التوحيد الواجب.

إذًا أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ التنبيه على هذا الأمر العظيم؛ الذي لابدَ لكل موحد أن يلاحظه، ويرعاه، وهذا الباب تكميلٌ، وتتميمٌ لما مضى الكلام فيه قبل ثمانية، أو تسعة أبواب في باب قول الله ﷻ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾[النحل:٨٣].

هذا الباب أورد فيه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾[فصلت:٥٠]، مطلع السياق يقول فيه ﷻ: ﴿لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾[فصلت:٤٩].

﴿لَّا يَسْأَمُ﴾ يعني: لا يمل،﴿مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾يعني: من طلب الخير؛ والخير ها هنا هو: الأمر النافع في الدنيا، وكل إنسان مجبول على طلب ما ينفعه ويلائمه.

﴿الْإِنسَانُ﴾ ها هنا، هل هو اسم جنس، فيعم جميع الناس باعتباره مفرداً محلىً بـ(أل)؛ فيفيد العموم؟ أو أنَّه من العام الذي أريد به الخصوص؛ فإنه يخصُّ طائفة من البشر، وهم الكفار؟

والذي يبدو، والله تعالى أعلم؛ أنَّ الثاني أقرب؛ فالإنسان هنا هو: الكافر، ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ يعني: الكافر؛ بدليل ما سيأتي في هذه الآية مما يدلُّ على أنَّ هذا الإنسان ليس مؤمناً بالله ﷻ، قال سبحانه: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾[فصلت:٤٩-٥٠]؛ هذا دليلٌ على أن الإنسان هنا ليس مسلمًا؛ إنَّما هو الكافر، ولا شك أنَّ حال عامة الكفار، ومن تشبه بهم من المسلمين كان له حدٌ، ونصيبٌ من الذمِّ والتقبيح.

هذه الآية، اختلف المفسرون في تفسير قول الله ﷻ فيها: ﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾[فصلت:٥٠]:

[القول الأول]: إنَّ معنى قوله: ﴿هَذَا لِي﴾[فصلت:٥٠]، يعني: هذا لقدرتي، وقوتي، وحذقي، ومعرفتي بطرق المكاسب وما إلى ذلك، وممن نحى إلى ذلك ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كما أورد المؤلف، مما سنقرأه بعد قليل إن شاء الله؛ فيقول :"هذا من عندي"، يعني: هذا راجعٌ إلي؛ ففات هذا المخذول أن ينسب النعمة إلى المنعم بها، وإلى مسديها، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا قد كفر نعمة الله ﷻ؛ حيث إنه لا اعترف، ولا أقر بأنَّ النعمة إنما هي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ هو الذي تفضل بها ابتداءً.

القول الثاني: هو أنَّ قوله ﷻ: ﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾[فصلت:٥٠]، يعني: أنا محقوقٌ به، يعني: جديرٌ به، وهذا ما أورده المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أيضا؛ يعني: أنَّ هذا بسبب أن لي حقاً على الله ﷻ؛ فأنا جديرٌ بهذه النعمة، كأنه يرى أنَّ له حقاً واجباً على ربه، وفي هذا من الغرور، والطغيان، وسوء الأدب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما لا يخفى.

القول الثالث: أن قوله: ﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾[فصلت:٥٠]، اللام ها هنا: للمِلْك، كأنه يقول: "هذا المال مالٌ لي ثابتٌ دائماً أبداً لي، ولذريتي من بعدي:، ونسيَّ أن كل ما على وجه الأرض، إنما هو ملك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ففي قول هذا الإنسان ما فيه من الفخر، والبغي، ونسيان نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ويجمع هذه الأقوال على أي وجهٍ منها تَصَرَفَ التفسير، يجمع ذلك أن قائل ذلك كافر بنعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لم يقم بشكر الله ﷻ، فاته الاعتراف الباطن، والاعتراف الظاهر، وهذا ولا

شك قادحٌ من قوادح التوحيد، ولربما صار ذريعةً إلى أن يصل الإنسان إلى نقْضِّ التوحيد - عفانا الله وإياكم من ذلك -.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال مجاهد: "هذا بعملي، وأنا محقوق به"، وقال ابن عباس: "يريد من عندي".

وقوله: "إنما أوتيته على علم عندي" قال قتادة: "على علم مني بوجوه المكاسب".

وقال آخرون: "على علم من الله أني له أهل" وهذا معنى قول مجاهد: "أوتيته على شرف".

هذه الآية الثانية؛ التي أوردها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والباب قد أورد فيه المؤلف آيتين، وحديثاً طويلاً؛ هذه الآية بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها حال قارون، ومعلومٌ من قارون؛ ذاك الذى كان من قوم موسى، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾[القصص:٧٦]، هذا الرجل آتاه الله من نعمه الدنيوية الشيء الكثير: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾[القصص:٧٦].

هذا الرجل قامت عليه الحجة نُصح، وحُذِّر، وأُنذر، وقال له قومه: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص٧٦-٧٧].

كان الجواب منه بعدَّ كلِّ ما مضى، قال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾[القصص:٧٨].

ما معنى قوله ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾[القصص:٧٨]؟

اختلف المفسرون في هذا إلى قولين، والقولان مبنيان على تفسير العلم، هل هو راجع إلى علم العبد الذي هو قارون، أو هو راجع إلى علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

[القول الأول]: العلم ها هنا أراد به علمه هو؛ يعني قارون، يعني: أنا إنما بلغت ما بلغت؛ لأن عندي علما بالتجارة، وطرق الكسب؛ فأنا ذكي، وعندي خبرة، ومعرفة؛ فما وصل إلي، إنما كان بسبب هذا العلم الذي عندي؛ فهو جاحدٌ إذًا لنعمة الله ﷻعليه؛ أعاد النعمة إلى نفسه، ونسيَّ الإقرار، والاعتراف بها، ونسبتها إلى الله.

القول الثاني: أنَّ العلم راجعٌ إلى علم الله ﷻ، وعليه: فيكون معنى الآية قال إنما أوتيته على علم من الله بأني مستحقٌ لذلك؛ فالله يعلم أني استحق هذا المال، فهو يرى لنفسه على ربه حقاً واجباً.

وهذا وذاك يدلان على أن هذا الرجل لم يكن شاكرا نعمة الله، ولم يكن مقراً، ومعترفاً بباطنه، ولا بظاهره، ولا عاملاً فيها بطاعة الله ﷻ فهو كافرٌ بنعمة الله ﷻ، وهذه الآية نظير قول الله ﷻ: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[الزمر:٤٩].

لكنَّ هذا المسكين الجاحد نسيَّ أن هذه فتنة من الله ﷻ قال ﷻ: ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر:٤٩]؛ أكثر الناس لا يعلمون أنَّ التفضل بالإنعام، إنَّما هو ابتلاء، واختبار، وامتحان؛ فالله ﷻ يبتلى عباده بالسراء ،كما أنَّه يبتليهم بالضراء: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[الأنبياء:٣٥]، قال ﷻ: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾[الفجر:١٥]، ولاحظ كيف أنَّ هذا الإنسان؛ الذى خلا قلبه من تحقيق الشكر لله ﷻ وقع في أمرين:

[الأمر الأول]: ﴿ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾[الفجر:١٥]، ظن أن الله ﷻ تفضل عليه بشيء يستحقه، وما ذلَّ واعترف؛ بأن هذا محض تفضل من الله ﷻ، بل ظن أن له كرامة على الله، ومنزلة عنده؛ فهذا كان سبب إكرامه من الله ﷻ.

الأمر الثاني: أنه ظنَّ أن النعمة الدنيوية دليلٌ على المكانة، والمنزلة عند الله ﷻ، وكم يخطئ في هذا المقام من الناس، كم من الناس من يظن؛ أنَّ الإنعام الدنيوي دليل محبة الله للعبد؛ فما أُعطى من أُعطى من النعم، إلا لأنه محبوب عند الله، مرضيُّ عنه، وهذا ولا شك ليس بصحيح؛ فالدنيا يعطيها الله ﷻ من يحب، ومن لا يحب.

كما ثبت عن ابن مسعودٍ ﷺ عند البخاري في ((الأدب المفرد))، وغيره روي مرفوعا عند رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ المال يعطيه الله من يحب ومن لا يحب**»، وفى رواية «**إنَّ الدنيا يعطيها الله من يحب ومن لا يحب**».

يبتليّ الله ﷻ المؤمن، والكافر، بل يعطيهم من هذه النعم ابتلاءً، وامتحاناً؛ لكن البصير الموفق؛ هو الذى يفوز في الامتحان؛ فيقوم بهذه الأركان الثلاثة بالشكر؛ فيكون من الفائزين، وإلا فإنه يكون من المحرومين.

وفى هذا العصر، من الناس من سقط هذه السقطة؛ تجد أنه إذا نظر إلى حال الكفار، وما عندهم من تطور في العمران، وتقدمٍّ تقني، أو ما آتاهم الله ﷻمن الأمطار، والمناظر الحسنة، وما إلى ذلك؛ تجد أنه ربما وسوس له الشيطان؛ فبدأ يتشكك، هل يعقل أنهم على باطل، وهم في هذه النعم يرفلون؟ ونسيّ أنَّ هذا الأمر المهم وهو أنَّ النعمة ابتلاء، وامتحانٌ من الله ﷻ.

ولذلك هذا قارون، هذا الذى طغى، وبغى، وأفسد، وهو من أبغض العباد إلى الله ﷻ، ومع ذلك؛ فالله أتاه نعمة ما آتاها أحداً من الناس؛ فدل هذا على أنَّ النعم الدنيوية ليست معياراً، وليست مقياساً على الخيرية، والفضيلة، والمنزلة عند الله ﷻ.

المقصود أنَّ الله ﷻ لما قصَ لنا قصة قارون كان ذلك؛ لأجل أن نأخذ العبرة والعظة، وأن حال الكافر مجانبٌ لحال المسلم؛ الكافر كافر بنعمة الله ﷻ، أمَّا المسلم فهو معترف مقرٌ بنعمة الله ﷻ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى فأراد الله أن يبتليهم...».

هذا الحديث، حديثٌ طويلٌ عظيم، خرجه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما، والحديث فيه قصة كانت في بني إسرائيل، قصها علينا النبي ﷺ، والواجب في القصص الذي جاء في الكتاب والسنة أمران:

[الأمر الأول]: التصديق بذلك؛ بما أن الذي أخبرنا بهذا رسول الله؛ فالواجب الاعتقاد الجازم، والتصديق التام بأن هذه القصة قد حصلت، ولو أقسم المسلم على ذلك،

فإنه لا يحنث أن هذه القصة قد وقعت؛ لأنَّ هذا من حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، تصديقُ النبي ﷺ فيما أخبر به.

الأمر الثاني: أخذ العظة، والعبرة، الانتفاع من هذه القصة، وما فيها من الفائدة؛ لم يكن إخبار النبي ﷺ بهذه القصة على سبيل التفكه، والتندر؛ إنما كان ذلك لكي نستفيد منها، ونغترف من العبر والدروس التي اشتملت هذه القصة، وغيرها عليها.

هذه القصة حصلت في بني إسرائيل، وإسرائيل: لقبٌ ليعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، وهذه الكلمة مركبة من جزأين: (إسرا) و (ئيل).

وإسرا بمعنى: صفي، وئيل: وكل ما جاء على هذا النسق (ئيل) جبرائيل، وميكائيل، وإسرائيل؛ فإنه في اللغة العبرية، أو العبرانية بمعنى: الله؛ فإسرائيل بمعنى: صفي الله؛ اصطفاه الله عَزَّ وَجَلَّ.

وهذه القصة حصلت في بني إسرائيل؛ يعني في بعض ذريته، والحديث فيه أن الله عَزَّ وَجَلَّ أراد أن يبتلى هؤلاء الثلاثة، ثلاثة أشخاص ابتلاهم الله عَزَّ وَجَلَّ بثلاث مصائب، وعاهات أحدهم كان أقرع، والأقرع: الذي لا شعر في رأسه، والثاني أبرص، والأبرص هو الذي أصيب بالبرص؛ وهو: بياض في الجلد مستقبحٌ مستقذر، والثالث أعمى فقد بصره، ومع ذلك مع ابتلائهم الأول ابتلاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بابتلاء آخر؛ عن طريق مَلَكَ من الملائكة التي أرسلهم الله عَزَّ وَجَلَّ إلى هؤلاء الثلاثة، أراد الله أن يبتليهم.

الإرادة ها هنا هي الإرادة الكونية بمعنى: شاء.

وها هنا وقفة وبحث في هذه الكلمة، وذلك أن الرواية وقعت في صحيح البخاري لفظ: (بدا لله أن يبتليهم)، وهذا الموضع استشكل؛ لأنه قد يفهم منه إثبات البداءة، أو البداء على الله.

والبداء، والبداءة؛ بمعنى: أن يظهر ما كان خافيا غير معلوم، ولا شك أن هذا معتقد باطل، بل هو كفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذه عقيدةٌ كفرية كان يعتقدها اليهود، وتلقاها من تلقاها من أهل البدع عنهم؛ المقصود أنَّ هذا الموضع استشكل، وتوجيهات أهل العلم لهذا الإشكال ترجع إلى ما يأتي.

[التوجيه الأول]: قال بعض أهل العلم إنَّ رسم هذه الكلمة (بدا) خطأ، والصواب: (بدأ) بالهمزة المفتوحة، وهذا ما اختاره: القاضي عياض، وخَطَّأَ من جعل اللفظة بدا، وكذلك الخطابي، وذكر القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قد ضبط هذه اللفظة عن متقني شيوخه بالهمزة المفتوحة (بدأ)؛ يعني: ابتدأ الله ابتلائهم.

التوجيه الثاني: أن معنى بدا؛ يعني: قضى، ويكون بمعنى: القضاء الكوني؛ الذي هو قريبٌ في المعنى من الإرادة الكونية.

التوجيه الثالث: أنَّ معنى قوله: بدا؛ يعني: أراد.

التوجيه الرابع: يعني: أنه سبق في علم الله؛ فأراد أن يظهر ذلك العلم في الناس.

والذي يظهر، والله تعالى أعلم، أنه لا حاجة لكل هذا؛ فهذا اللفظ على الصحيح خطأ، حصل وهمٌ وخطأ من الراوي.

وبيان ذلك على وجه من الإيجاز: أنَّ هذا الحديث مخرجه واحد ليس له إلا طريق واحدة، وذلك: من طريق همام، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن عبد الرحمن بن عمرو بن أبي عمرة، عن أبي هريرة، لا يوجد للحديث إلا هذه الطريق.

عن همام روى هذا الحديث ثلاثة من الرواة:

الأول: هو شيبان بن فاروخ، وهذه رواية مسلم، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ اعتمد سياق مسلم؛ اعتمد رواية مسلم.

الثانية: رواية عمرو بن حفص.

الثالثة: رواية عبد الله بن رجاء.

أما شيبان، وعمرو بن حفص؛ فإنهما رويًا الحديث بلفظ: (أراد الله)، وأما عبد الله بن رجاء؛ فإنه رواه بلفظ: (بدا لله)، هذا اللفظ عند البخاري، والبخاري أخرجه من طريق عمرو بن حفص، ومن طريق عبد الله بن رجاء، أخرجه من رواية عمرو بن حفص؛ معلقاً في باب: لا يقول ما شاء الله وشئت، لكنَّه ما ساق الحديث كاملا، خرجه معلقاً، و قال في حديث الأقرع، والأبرص، والأعمى؛ (أراد الله أن يبتليهم)، ذكر فقط في هذا القدر، ولكنَّه في كتاب أحاديث الأنبياء أخرجه من طريق أحمد بن إسحاق، عن عمرو بن حفص، عن همام إلى آخره، ثم حول الإسناد إلى رواية عبد الله بن رجاء، وساق بعد ذلك لفظ عبد الله بن رجاء.

الخلاصة الآن عندنا لفظان لفظٌ اتفق عليه ثقتان ما هو؟ (أراد الله أن يبتليهم)، ولفظٌ تفرد به عبد الله بن رجاء، والحديث واحد، والنبي ﷺ تكلم قطعاً بلفظٍ واحدٍ من هذين، وإذا لجأنا إلى الترجيح، وهو المتحتم ها هنا؛ فإننا نرجح رواية الثقتين على رواية الثقة، لاسيما وأن عبد الله بن رجاء في حفظه شيء، قال الحافظ في ((التقريب)): (صدوق يهم قليلا)، وقال ابن معين: (إنه كثير التصحيف)، فهذا مما يجعل النفس تطمئن إلى أن المحفوظ إنما هو: أراد، وليس: بدا، وأنَّ (بدا) لفظٌ وقع فيه خطأ، والملاءمة في ذلك تعود إلى عبد الله بن رجاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا الموضع لم أرى تحقيقاً فيه كما رأيته عند الشيخ الألباني رحمه الله والسلسة الصحيحة من صدق، كانوا يذكرون لفظ الرجاء لعله حصل تغيير من أحد الرواة؛ حتى جاء الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((السلسلة الصحيحة)) عند حديث، ثلاث آلاف وخمسمائة واثنين وعشرين، من السلسة الصحيحة؛ فحقق تحقيقًا نفيسًا في هذا المقام، ورجح الذى ذكرته لك.

فالمجزوم به هو أن هذا اللفظ خطأ، وأنَّ الصواب: أراد الله أن يبتليهم.

عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى فأراد الله أن يبتليهم...»

أراد الله أن يبتليهم؛ يعني: يمتحنهم ويختبرهم، وهؤلاء الثلاثة لما أراد الله أن يبتليهم، أرسل إليهم ملكاً؛ فخاطب كلَّ واحدٍ على حدة، ووجه إليه ما يأتي من أسئلة.

«فبعث إليهم ملكًا، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: قال: لون حسن وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به. قال: فمسحه فذهب عنه قذره، فأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا...»

هذا الأول، وهو الأبرص: كان طلبه، وكانت أمنيته؛ أن يذهب الله عنه هذا اللون القبيح، وأن يعطيه الله لونًا حسنًا، وجلداً حسناً؛ فمسح عليه هذا المَلَكَ؛ فكان أن أبدله الله ﷻ جلداً حسناً، ولونا حسنا، وكان مسح الملك سبباً في حصول هذه النعمة، وإلا فإن الأمر إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والله قادرٌ على أن يعطيه هذه النعمة دون سبب، لكنَّ حكمة الله ﷻ اقتضت ذلك؛ فهذا يدل على عظيم قدرة الله ﷻ، والله على كل شيء قدير.

«قال: فأي المال أحب إليك؟ قال الإبل، أو البقر؛ شك إسحاق...»

الذي يظهر -والله أعلم-أن الأول؛ وهو الأبرص طلب الإبل، أحب المال إليه الإبل، وإسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ورعه شك؛ فذكر اللفظين، إما قال الإبل، وإما قال البقر، لكن سياق الحديث يدل على أن طلبه كان الإبل؛ لأن المَلَكَ كما سيأتي، رجع إليهم بعد ذلك، وسأل هذا الرجل أن يعطيه ناقة يتبلغ بها؛ فدل هذا على أن ماله إذًا كان الإبل ..

«قال: الإبل، أو البقر شك إسحاق؛ فأعطي ناقة عشراء؛ فقال: بارك الله لك فيها...»

الناقة العشراء هي: الحامل؛ التي بلغت الشهر العاشر، وهذه كانت معدودة عندهم، من أنفس الأموال.

«قال: فأتى الأقرع قال: أي شيء أحب إليك؟
قال: شعر حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به...»

يبدو -والله أعلم-أنهم كانوا في ذاك الوقت لا يلبسون العمائم؛ إنما كانت رؤوسهم مكشوفة؛ فكان يؤذيه ألا يكون على رأسه شعر، وربما كانوا يتعممون، لكن يظهر شيء من الشعر، هذا هو الأمر المستحسن عندهم، وهو فاقد له فحب أن يزول عنه هذا النقص.

«فمسحه؛ فذهب عنه، وأعطي شعر حسن، فقال أي المال أحب إليك؟ قال البقر، أو الإبل، أعطي بقرة حاملا، قال: بارك الله لك فيها...»

قوله: (بارك الله لك) فيها يحتمل أن يكون إخباراً من الملك، أن الله ﷻ قد جعل هذه الناقة، أو تلك البقرة ناقة، أو بقرة مباركة.

ويحتمل الكلام أن يكون دعاءً، دعا أن يبارك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لك فيها.

واستجاب الله ﷻ هذا الدعاء ابتلاءً، وامتحاناً.

«فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال أن يرد الله إليَّ بصري؛ فأبصر به الناس؛ فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال الغنم؛ فأعطى شاة والدا، وأُنتج هاذان وولد هذا...»

أُعطيَّ شاة والداً؛ الأمر يحتمل أن تكون قريبة الولادة؛ يعني: هي حامل، وقريبة الولادة، واللغة فيها أن الشيء إذا قَرُبَ من الشيء؛ فإنه يعطى حكمه، وربما كانت شاة معها ولدها حديثة الولادة، لكن إذا قارنا السياق الناقة العشراء، والبقرة الحامل يبدو -والله أعلم- أنها كانت شاة قريبة الولادة، والله تعالى أعلم.

«قال: فأي المال أحب إليك؟ قال الغنم؛ فأُعطى شاة والدة، وأُنتج هاذان وولد هذا...»

أُنتج هاذان، وبعضه يضبطه **أَنتَجَ هاذان، وولَّد هذا**، الناتج للإبل والبقر كالقابلة للبشر، الناتج يعني: الذي يقوم على توليد البهيمة؛ فكان أن ولّد، أو قام على تولّيد الناقة، والبقرة، وكذلك ولّد الأخير هذه الشاة الذي عنده، كلٌ قام على توليد ما عنده، يعني: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رزق كل واحد من هؤلاء الثلاثة ذرية لهذه البهائم؛ فأصبح عنده قطيع كبير.

«فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم...»

سبحان الله أبدل الله عَزَّ وَجَلَّ حالهم من الفقر، والمسكنة إلى هذا الغنى؛ كل واحد عنده ما يملأ الوادي من الإبل، أو من البقر، أو من الغنم ..

«قال: ثم أنه أتى الأبرص في صورته وهيئته...»

صورته، وهيئته يعني: في صورة الأبرص؛ جاء إليه في الصورة، والهيئة التي كان عليها هذا الرجل سابقا، وذلك لتذكيره، وتنبيهه، وإغرائه؛ ليجيد ويبذل واجب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليه، وجاء إليه في صورته الجسمية، وفي هيئته يعني: في لباسه، وشكله الخارجي.

«قال: ثم أنه أتى الأبرص في صورته، وهيئته؛ فقال: رجلٌ مسكين، قد انقطعت بي الحبال في سفري...»

الشرح

رجل مسكين، رجل خبر لمبتدأ محذوف: أنا رجلٌ مسكين؛ وصف نفسه بأنه ليس عنده ما يكفيه، وانقطعت به الحبال؛ يعني: الأسباب، والحبل في اللغة هو: السبب؛ ليس عنده سببٌ لكي يصل به إلى مطلوبة؛ لأنه مسكين، وبعض الرواة روى هذا اللفظ انقطعت بيَّ الحيال جمع حيلة، والأكثر على الحبال.

«قد انقطعت بي الحبال في سفري؛ فلا بلغ لي اليوم إلا بالله، ثم بك...»

«**إلا بالله، ثم بك**» انظر إلى التوحيد، هذا هو التوحيد؛ التوحيد ألا تجعل الخالق، والمخلوق في السياق على مقام واحد؛ فالمَلَك، والملائكة قائمة بتوحيد الله ﷻ، وهم من أعظم الخلق إيماناً وتوحيداً؛ ما قال الملك أنا بالله وبك؛ إنما قال: أنا بالله، ثم بك؛ فهذا مما يؤكد، ويدل على ما سبق الحديث فيه؛ أنه في مقام نسبة النعمة يجب ألا يُقْرَنَ الخالق، والمخلوق، ويعطف بحرف الواو؛ الذي يفيد التسوية؛ إنما يكون العطف بـ (ثم)؛ التي تفيد الترتيب، والمهلة.

أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال؛ بعيراً أتبلغ به في سفري...»

ما قال أسألك بالله؛ إنما أتى بهذا اللفظ؛ لكي يذكره بنعمة الله ﷻ، وليغريه بالإجابة
.

«قال: الحقوق كثيرة. فقال له...»

قال الحقوق كثيرة؛ اعتذر بعذر كاذب، كما يعتذر كثير من الناس إذا وجبت عليهم حقوق من الله ﷻ بأن هذا المال الذى عندهم يعتوره كثير من الحقوق، وبالتالي؛ فإنه لا يستطيع أن يعطيك؛ يعني: يقول لهذا الملك؛ أنا لا استطيع أن أعطيك؛ لأنك لست وحدك الذى تطلب، عندي، ملتزم التزامات كثيرة، ورفض أن يعطيَّ الحق الواجب عليه.

ولا شك أنَّ الذي يجب عليه أن يجيب هذا المسكين إذا انقطع هذا المسكين، وابن السبيل، وليس له أحد يقف معه؛ فإنه يتعين على هذا المسؤول أن يجيبه، وأن يعطيه هذا من

حق الله ﷻ في هذا المال، لكنه بخل، ورفض أن يؤديّ حق الله ﷻ عليه؛ وقع في البخل، فالكذب؛ فكفر نعمة الله ﷻ كما سيأتي .

«فقال له: كأني أعرفك.
ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً؛ فأعطاك الله ﷻ المال؟!...»

ذكره بأمرين:

الأول: أنه كان أبرص، وهذا لم ينكره، وليس عنده وسيلة لإنكاره أصلا.

أما **الأمر الثاني**: فإنه كان فقيرا، ثم أغناه الله ﷻ؛ فهذه هي التي كفر نعمة الله ﷻ فيها.

«فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر...»

ما قال هذه نعمة الله، كنت فقيراً؛ فأغناني الله، وأنعم عليَّ؛ إنَّما أعاد الأمر إلى نفسه كما قال ﷻ: ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾[فصلت:٥٠]، قال: ورثته كابراً عن كابر، النصب ها هنا بنزع الخافض، أصلُّ الكلام، ورثته عن كابرٍ عن كابر؛ فنصب بنزع الخافض؛ يعني: ورثته عن أبي، وأبي عن جدي، وهكذا...

ولا شك أنَّ هذا من عدم شكر الله ﷻ؛ كما قال ﷻ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾[النحل:٨٣]، مرّ بنا قول مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يقول (هذا مالي ورثته عن آبائي)؛ فهذا جعله الله ﷻ من إنكار نعمة الله ﷻ ..

«فقال: إن كنت كاذبا، فصيرك الله إلى ما كنت...»

«**إن كنت كاذباً؛ فصيرك الله إلى ما كنت**»، هذا نستفيد منه مشروعية الدعاء المشروط، ما دعا عليه دعاءً مطلقاً؛ إنَّما علق الأمر، إن كنت كاذباً؛ فصيرك الله إلى ما كنت، ولعل الله ﷻ استجاب ذلك، لم يأتِ في ختام الحديث، ما الذي آل إليه أمر الأبرص، والأقرع.

لكن لعل الأمر، والله تعالى أعلم؛ أنه قد أُستجيب للمَلك؛ لأنه في الحقيقة كان كاذبا.

«قال: فأتى الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما ردَّ عليه هذا؛ فقال إن كنت كاذبا؛ فصيرك الله إلى ما كنت...»

سقط هاذان في الامتحان ما نجحا، ابتلاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكنَّ النتيجة أنَّهما فشلا، وما نجحا.

وأما الثالث فهو الذي ثبته الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فرضيَّ الله عَزَّ وَجَلَّ عنه، كانت نتيجة امتحانه أن سُدد، وفاز برضى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

«قال: وأتى الأعمى في صورته، وهيئته؛ فقال، رجلٌ مسكين، وبن سبيل؛ قد انقطعت بي الحبال في سفري؛ فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك. أسألك بالله الذي رد عليك بصرك، شاة أتبلغ بها في سفري؛ فقال قد كنت أعمى؛ فرد الله إلى بصري؛ فخذ ما شئت، ودع ما شئت؛ فوالله ما أجهدك اليوم بشيء أخذته لله...»

سبحان الله! هذا الرجل صاحب إيمان؛ قام بشكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فكان منه الاعتراف، كان منه الاعتراف، أولاً بقلبه، ثم بلسانه، اعترافه بقلبه كان لأن لسانه اعترف، والألسنة مغاريف القلوب؛ فاعترف بلسان وبقلبه أنه من أنعم عليه بهذه النعمة هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، رد عليه بصره بعد أن كان أعمى، وكذلك أعطاه هذا المال، وقد كان مسكينا.

ثم قام بالأمر الثالث، وهو أنه أدى شكر الله عَزَّ وَجَلَّ عملاً: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾[سبأ: ١٣]؛ أدى الحق الذي أوجبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه؛ فقال لهذا الرجل، خذ ما شئت، فوالله لا أجهدك؛ يعني: لا أشق عليك، ولا أمنعك أن تأخذ شيئاً لله.

انظر أيضاً إلى التوحيد، وانظر أيضاً إلى الإخلاص أنه لا يجهده؛ لأجل الله لوجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ليس لأجل الثناء، وليس لأجل المدح، وليس لأجل الرياء، إنَّما كان لأجل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وجاء في رواية عند البخاري: (فإني لا أحمدك)، وليس لا أجهدك، والمعنى: أنني لا أحمدك، ولا أشكرك إن تركت شيئاً تحتاج إليه.

وفي هذا دليلٌ على كرم هذا الرجل، وفي هذا ما يدلك على فضيل الكرم، وقبح البخل.

ما الذي أدى بالأقرع، والأبرص إلى أن وقعا فيما وقعا فيه من الكذب، وكفران نعمة الله ﷻ؟ إنما كان ذلك بسبب البخل.

أما هذا الرجل؛ فكان كريماً؛ فأدَّى ما أوجب الله ﷻ عليه، وقام بشكر الله ﷻ.

والحديث فيه فوائد كثيرة:

١/ أن ذكر الغير بما يقبُح ليس من الغيبة، إذا لم يُسَمّى الشخص، إذا لم يسمى الفاعل، ذلك لم يعد غيبة؛ لأجل هذا هؤلاء الثلاثة ما ذكرت أسمائهم.

٢/ثبوت الإرث في الأمم السابقة، قال: "ورثته كابراً عن كابر".

٣/ فضيلة الرفق بالضعفاء، وأن هذا من أسباب حلول رضى الله ﷻ.

٤/ خطر وقبح البخل، وأنه يؤدى إلى مفاسد؛ لأنه بخل كذب، ولأنه بخل كفر نعمة الله سبحانه، ولأنه بخل ما أدى الحق الواجب عليه.

٥/ أنَّ الدعاء المشروط جائز، وهذا ينفع الإنسان في المواضع التي يحصل عنده فيها شك؛ فاستحقاق هذا المدعو له هذا الدعاء؛ سواءً كان دعاء له، أو دعاء عليه؛ فإن من المشروع حينئذٍ في حال الشك، أن يدعو الإنسان، ويشترط في دعائه؛ حتى يكون دعائه دعاءً صحيحا.

«فقال: أمسك مالك؛ فإنه ابتُليتم؛ فقد رضي اللّه عنك، وسخط على صاحبيك»
أخرجاه.

سخط على صاحبيك، يبدو -والله أعلم-أن قصة الأقرع، والأبرص اشتهرت؛ لذلك قال: صاحبيك، وهذا فيه فائدة لغوية: أن الصحبة تطلق في اللغة على أدنى ملابسة، وأدنى مقارنة؛ لأنَّ هؤلاء الثلاثة فيما يبدو -والله أعلم-، إنما اشتركوا في الامتحان، ومع ذلك أثبت الصحبة، فالصحبة في اللغة: تطلق على أدنى ملابسة، كما قال النبي ﷺ أيضاً: «**أنتم صواحب يوسف**»؛ فأدنى ملابسة يصح في اللغة أن يكون معها إطلاق لفظ الصحبة.

والخلاصة التي نصل إليها وجوب أن يشكر الإنسان نعمة الله ﷻ، وضرورة الحذر من كفران نعمة الله ﷻ، إما بعدم الاعتراف القلبي، أو عدم الاعتراف باللسان، أو بعدم القيام

بما أوجب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو أذن في هذه النعمة، وكلُّ شيء بحسبه؛ فالمال له شكرٌ، والجاه له شكرٌ، والعلم له شكرٌ، وغير ذلك.

كلُّ نعمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فلها شكرٌ بحسبها، والموفق الذي يقوم بشكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على كل نعمة أنعم الله عَزَّ وَجَلَّ بها عليه.

٧١

٧١- باب قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء ﴾ الآية.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بابُ قول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف:١٩٠] الآية.

فلا يزال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوالي ذكر الأبواب التي تحث على تكميل التوحيد، وتحذر من كل ما يقدح فيه، والأبواب الماضية، وهذا، وما بعدها، تجد أنَّها تدور على بيان قوادح التوحيد التي تَرْجِعُ إلى نقصٍ أو عدمٍ في شكر الله ﷻ، أو إلى نقصٍ أو عدمٍ في تعظيم الله ﷻ.

ومن ذلك هذا الباب الذي بين أيدينا، والذي ينبه فيه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أن من قوادح التوحيد ومما ينافي كماله الواجب، وقد يكون منافيًّا لأصل التوحيد، تعبيد الأسماء لغير الله ﷻ، وهذه الآية التي بوب عليها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب سيأتي الكلام عنها مفصلاً إن شاء الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك؛ حاشا عبد المطلب».

هذا الإجماع الذي نقله ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((مراتب الإجماع))، لا شك أنه إجماع صحيح، فإن العلماء متفقون على تحريم كل اسم معبد لغير الله، كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وعبد شمس، وغير ذلك مما كثر قديمًا ويكثر حديثًا، وذلك أنَّ ساق الشريعة قائمة على تعبيد الخلق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالخلق جميعًا عبيد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

كل الخلق عبيد لله ﷻ، فإما أن يكونوا عبيد لله ﷻ عبودية الاضطرار، يعني أنهم عبيدٌ لمالكهم، وسيدهم، وخالقهم، ومدَّبر شأنهم، والمتصرف فيهم بما يشاء، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما قال ﷻ: ﴿إِنْ كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ

عَبْدًا﴾[مريم:٩٣]، فجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم هم عبيد لله ﷿ هذه العبودية التي هي عبودية الاضطرار.

والمؤمنون المسلمون جمعوا إلى هذه العبودية عبوديةً أخرى، وهي عبودية الاختيار، وكلُّ الخلق إذا كانوا كذلك فواجبٌ ألا يُعَبَدُوا إلا لله ﷻ فإن من الخضوع والذل والعبودية لله ﷿ أن تُعبَّد الأسماء له تبارك وتعالى وخلاف ذلك نوع من الشرك مع الله ﷻ.

ولا شك أن مجرد التعبيد لغير الله في الاسم شرك أصغر، فإذا جُمع إلى ذلك اعتقاد أن غير الله ﷿ يستحق ما يستحقه الله ﷻ من العبادة، فهذا لا شك أنه قد ارتقى إلى الطامة العظمى وهي الشرك الأكبر، وهذا النوع من الشرك وهو تعبيد الأسماء لغير الله شيءٌ كان فاشيًا قديمًا، فأهل الجاهلية كانوا يعبدون كثيرًا لغير الله، تجد من أسمائهم؛ عبد الكعبة، وعبد الشمس، وعبد الدار، وعبد اللات، وعبد مناة، وعبد هُبل، وعبد العزى، إلى غير ذلك من هذه التسميات الشركية الكثيرة.

كذلك الشأن في أهل الأديان الأخرى؛ كالنصارى، إذْ ينتشر فيهم التعبيد للمسيح، تجدهم يسمون عبد المسيح، وفِرَقُ الضلال لا سيما من كان من المنتسبين إلى قطبي الضلال الذين هم عباد القبور، سواء كانوا من الغلاة في آل البيت، أو كانوا من الغلاة في الأولياء والصالحين، هؤلاء على إرثٍ من إرث الجاهلية، ولذلك يكثر عندهم التعبيد في الأسماء لغير الله، فتجد من هؤلاء من يسمي أو يتسمى بعبد الحسين، وعبد الحسن، وعبد الزهراء، وعبد الرضا، وما شاكل ذلك.

وفي الطرف المقابل تجد أيضا التسمية على هذه الشاكلة، تجد عبد السيد ومرادهم بالسيد يعني: الولي وليس الله ﷿ ويسمون عبد الرسول، ويسمون عبد النبي، ويسمون غلام محمد، يسمون عبد الأمير ومرادهم أمير المؤمنين علي ﷺ إلى غير ذلك من هذه التسميات.

وكلها ولا شك باطلة في الشريعة، ومحرمة أشد التحريم، بل إنها نوع من الشرك بالله ﷿ لذلك من تأمل سيرة النبي ﷺ في أصحابه، تجد أنه كان يغير الأسماء المعبدة لغير الله، اقرأ في ((طبقات الصحابة)) تجد من ذلك الشيء الكثير، وعامة ما كان يغير ﷺ الأسماء إليه كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ اسما عبد الله وعبد الرحمن؛ لأن أحب الأسماء إلى الله ﷿ عبد الله وعبد الرحمن.

ومن ذلك ما أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كعبد عمرو وعبد الكعبة، وفي ((الإصابة)) لابن حجر أربعة من الصحابة أو نحو هذا العدد، كانت أسمائهم عبد الكعبة قبل مجيء الإسلام، فغيّر ذلك النبي ﷺ وجميع هذه الأسماء غيرها النبي ﷺ إلى عبد الرحمن، ومن أولئك عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

المقصود أنَّ هذه قاعدة الشريعة وهذه سنة النبي ﷺ وذلك ألا يُعَبَّدَ إلا لله ﷻ ولو بمجرد التسمية، أمَّا إذا كان قد خالج ذلك وخالطه اعتقادُ تعظيمٍ لهذا المسمى به، فهذه هوة سحيقة من الشرك الأكبر -عافاني الله وإياكم- من ذلك.

بقيت وقفةٌ مع قول ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (حاشا عبد المطلب)، ليس مراده أنَّ التسمية بعبد المطلب جائزة، إنَّما مراده أنَّ هذا الاسم قد وقع فيه خلاف على وجه الخصوص، وصدق، الخلاف واقع في هذا الاسم.

لكنَّ الصواب الذي لا شك فيه أنه من جنس بقية الأسماء المُعَبَدَةَ لغير الله، فلا تجوز التسمية بعبد المطلب كما لا تجوز التسمية بعبد الدار أو عبد الشمس أو عبد اللات.

واحتج القائلون بجواز ذلك بأن النبي ﷺ أقرَّ هذا الاسم فإنه ﷺ كما في حديث البراء في الصحيحين قال يوم حنين: **«أنا النبي ولا كذب، أنا ابن عبد المطلب»**، قالوا فهذا إقرارٌ من النبي ﷺ بجواز هذه التسمية حيثُ سمَّى نفسه بابن عبد المطلب، إذن تجوز التسميةُ بعبد المطلب.

وثنوا باستدلال ثانٍ وهو إقرار النبي ﷺ تسميةَ عبد المطلب بن الحارث بهذا الاسم - عبد المطلب ابن ربيعه بن الحارث بن عبد المطلب- قالوا عدم تغيير النبي ﷺ هذا الاسم دليل على جواز التسمية به، وهذا الذي ذُكر غير صحيح بل هو خطأ، واستدلالٌ لا يصح.

أما الاستدلال بقول النبي ﷺ فإن النبي ﷺ كان ها هنا حاكيًا لا منشئًا، والحكاية لا تقتضي الإقرار؛ بمعنى أن هذا اسمه ﷺ وهذا الذي يُعرف به في قبائل العرب، وهذا شأن لا يستطيع تغيره، هذا اسمٌ مشهور عند العرب كافة، فلم يكن في قدرة النبي ﷺ أن يغير ذلك، فهو إذًا حكي واقعًا لا يمكن تغييره، وحاشا أن يكون النبي ﷺ منشئًا اسمًا جديدًا أو مُقرًا لاسم يمكن تغييره من هذا الجنس.

وأضف إلى هذا وجه آخر، وهو أنَّ هذا الاسم في أصله يعني فيما يتعلق باسم جد النبي ﷺ فالعبودية المذكورة ها هنا ليست عبودية الخضوع، ليست العبادة المعروفة شرعًا، إنما هذه يرادُ بها في أصل التسمية: عبودية الرق.

حيث أنه ينبغي التفريق بين الأمرين: فرقٌ بين التسمية باسم مُعَبَّدٍ لغير الله ﷻ لأنَّ ذلك فيه نوع خضوع لغير الله ﷻ الذي هو من العبودية الاصطلاحية الشرعية، وبين الوصف بالعبودية التي ترجع إلى الرق، فيجوز أن تقول: فلانٌ عبدُ فلان، يعني: أنه غلامه، أنه رقيقٌ له.

والأصل في التسمية على ما ذكرت كتب التاريخ في شأن عبد المطلب، الذي هو جد النبي ﷺ أن عمه المطلب ابن عبد مناف، الذي هو أخو هاشم ذهب إلى المدينة وأخذه من أخواله ثم عاد به إلى مكة وكان مُرْدِفًا له خلفه على دابته، فلما دخلوا إلى مكة ،كان على هيئة رثة، ما كان عنده وقت لكي يذهب فينظفه ويكسوه فكان على هيئة رثه، فسألوا هذا المطلب عن هذا الغلام الذي معه، فقال: هذا عَبْدٌ لي، استحى أن يقول أنه ابن أخيه، فأشتهر بعد ذلك بأنه عبد المطلب.

فالأصل في التسمية لم تكن تعبيدًا على نسبة العبودية لغير الله؛ إنما كان ذلك على وصف الرق.

فإذا جمعت هذين الوجهين تبين لك أن هذا الاستدلال غير صحيح.

ثم إنك لتعجب من الاستدلال بقول النبي ﷺ: **«أنا ابن عبد المطلب»**، على جواز التعبيد بهذا الاسم مع أنه قد تكلم النبي ﷺ بغير ذلك أيضًا، فإذا جاز هذا جاز هذا، وإذا مُنع من هذا ينبغي أن يُمنع هذا.

فإنه في الصحيحين تكلم النبي ﷺ باسم عبد مناف فإنه قال ﷺ كما في حديث أبي هريرة في الصحيحين، لما صاح في قريش قال: **«يا معشر قريش، يا بني عبد مناف»** وفي رواية عند مسلم لهذا الحديث: **«يا بني عبد شمس»**، كما ثبت في الصحيحين أيضًا أن النبي ﷺ قال: **«خير دور الأنصار، بنو النجار، ثم بنو عبد الأشهل»**.

إذًا لماذا خُصَّ اسم ابن عبد المطلب من بين هذه التسميات؟ والصحيحُ الذي لا شك فيه، أن النبي ﷺ كان في نطقه بهذه الأسماء يحكي الشيء الواقع الذي أصبح معروفًا ومُشتهرًا فلا يمكن تغييره والله تعالى أعلم.

إذًا يتلخص لنا أن هذا الاستدلال الأول، استدلالٌ غير صحيح، وبقيَّ الاستدلال الثاني:

وهو كون النبي ﷺ أقر التسمية بعبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وهذا قد ذكره ابن عبد البر في كتابه ((الاستيعاب))، لكن ما ذكر فيه نظر واستدرك عليه ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((الإصابة)).

وذكر أن الزبير ابن بكار وهو من أعلم الناس بنسب قريش ورجالها، ذكر أن اسم هذا الصحابي إنما هو: المطلب وليس عبد المطلب.

فالصواب أن اسمه المطلب ابن ربيعة، وليس عبد المطلب.

وبالتالي لم يكن أحد من أصحاب النبي ﷺ له اسم معبد لغير الله ﷻ والله ﷻ أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في الآية قال: «لما تغشاها آدم حملت، فأتاهما إبليس، فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة؛ لتطيعنني أو لأجعلن له قرني أيِّل فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن؛ يخوفهما، سمياه عبد الحارث، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتا، ثم حملت، فأتاهما فقال مثل قوله؛ فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتا، ثم حملت، فأتاهما فذكر لهما، فأدركهما حب الولد، فسمياه عبد الحارث، فذلك قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾[الأعراف:١٩٠]

رواه ابن أبي حاتم.

هذا الأثر عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فيه تفسير قول الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الأعراف:١٩٠] وبناء على هذا التفسير فإن من الشرك بالله ﷻ تسمية الأولاد بأسماءٍ مُعَبَّدَةٍ لغير الله، كما جاء في هذا الأثر، حيثُ جاء فيه أنَّ آدم وحواء عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ سميًا ابنهما عبد الحارث، والحارث على ما

ذكروا اسم لإبليس فكان المعنى أنه عبدُ إبليس، فجعل الله ﷻ ذلك شركًا، قال: ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾[الأعراف:١٩٠].

وهذه الآية فيها بحث طويل من جهة كون هذه الآية يراد بها آدم وحواء عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ، أو لا يراد ذلك.

والخلاف في ذلك يرجع إلى قولين:

أمَّا القول الأول: فإنه المعْنِيَّ في قوله ﷻ: ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾[الأعراف:١٩٠] إنما هو آدم وحواء عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ حيث سميا ابنهما عبد الحارث وهذا القول ذهب إليه كثيرًا من أهل العلم، بل نُسِّبَ إلى جمهور أهل العلم، بل حكى ابن جرير رَحِمَهُٱللَّهُ الإجماع عليه.

والقول الثاني: أنَّ هذه الآية لا تدلُ على وقوع آدم وحواء عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ في الشرك، بل قوله تعالى: ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾[الأعراف:١٩٠]، لا يراد بذلك آدم وحواء عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ، وإنما يراد من ذلك من كان مشركًا من ذريتهما.

استدلال القول الأول كان بحديثٍ، وآثار، وإجماع:

أمَّا الحديث، فهو حديث سمرة بن جندب مرفوعًا إلى النبي ﷺ، وهذا الحديث في معنى هذا الأثر الذي بين أيدينا قريبٌ منه في المعنى، وخلاصته: أن آدم وحواء عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ سميَّا ابنهما بعبد الحارث، لكنَّ هذا الحديث حديثٌ ضعيف، لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ، خرجه الإمام أحمد، والترمذي، والطبري، وغيرهم، من طريق عمر بن إبراهيم العبدي، عن قتادة، عن الحسن البصري، عن سمرة عن النبي ﷺ، وهذا الإسناد إسناد ضعيف وفيه عِلَلٌ عدة:

أولًا: هو من رواية عمر ابن إبراهيم العبدي، عن قتادة، وروايته عن قتادة ضعيفة مضطربة، يروي عنه مناكير، ولذلك ما رواه عن قتادة غير مقبول، كما نصَّ على ذلك الحفاظ.

[ثانيًا]: وهي أن الحديث جاء من رواية الحسن عن سمرة، وفي سماع الحسن من سمرة خلاف مشهور.

[ثالثًا]: هذا عدا أنه قد عنعن في هذا الإسناد -أعني الحسن- وكان رَحِمَهُٱللَّهُ كثير التدليس.

رابعًا: وهو أن الأسانيد الصحيحة قد جاءت عن الحسن البصري، كما قال ابن كثير في تفسير الآية بغير ذلك، وهو أنها في ذرية آدم وحواء المشركين، ولو كان عند الحسن شيء ثابت في ذلك عن رسول الله ﷺ ما كان ليعدل عنه.

[خامسًا]: وهو أن هذا الحديث اختلف في رفعه ووقفه على سمرة.

فهذه العلل تدل على أنَّ هذ الحديث قطعًا لا يصح عن رسول الله ﷺ.

أما الأثر: فَرُوِّيَّ معنى هذا الحديث عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا كما بين أيدينا في هذا الأثر.

وَرُوِّيَّ أيضا عن أُبي ابن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في إحدى طرق هذا الأثر عن ابن عباس، أن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا روى ذلك عن أُبي ابن كعب.

وعلى كل حال المروي عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في ثلاث روايات أو نحوها لا أعلمه يصح عنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

كذلك الحال في أثر أُبي ابن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وأحسنها حال أثر سمرة ابن جندب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

واحتمل ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ في ((تفسيره)) أن يكون المروي من ذلك عن الصحابة مُتلقى من قِبَلِ أهل الكتاب، **هذا عن الآثار**.

أما عن الإجماع المذكور: فإنه إجماع غير مُسلَم، وذلك أن ابن جرير رَحِمَهُٱللَّهُ القاعدة عنده أنه يجعل قول الأكثر إجماعًا، يعني: ليس الإجماع عنده قول جميع المجتهدين أو قول جميع العلماء، وكان لا يعتبر بمخالفة الواحد أو الاثنين في الإجماع، ولا شك أن هذا مخالف لقول جمهور الأصوليين من أنّ الحجة في إطباق جميع العلماء المعتبرين، وكيف يصح الإجماع من أهل العلم.

وثمة رواية أخرى عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أخرجها ابن أبي حاتم أيضا الذي روى الأثر الأول روى أيضا عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا خلافه، وأن الآية ليست في آدم وحواء عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ وإنما في ذريتهما.

أضف إلى هذا أن هذا ثابت عن الحسن البصري رَحِمَهُٱللَّهُ إضافة إلى جماعة من المفسرين سيأتي ذكرهم عند القول الثاني.

فالذي يبدو والله تعالى أعلم أن هذا الإجماع غير صحيح.

ثم يبقي النظر بعد ذلك في الآية وكونها تدل حقيقة على أنها في آدم وحواء عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ أم لا؟

الذي يظهر والله تعالى أعلم أن ذلك غير صحيح لأوجه كثيرة منها:

أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد انعقد الإجماع على أنهم معصومون من الكبائر، كما حكى ذلك المجد ابن تيمية وغيره، فكيف بالشرك بالله ﷻ.

وها هنا انفصل أصحاب القول الأول عن هذا بقولهم: إن الذي وقع فيه آدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لم يكن شرك العبادة إنما كان شرك الطاعة، وبعضهم يقول أنه شرك التسمية.

وعلى كل حال مهما يكن من شيء حتى لو لم يكن شرك العبادة، حتى لو لم يكن شركًا أكبر، فإنَّ الأنبياء معصومون من الشرك الأصغر، وإذا كانوا معصومين من الكبائر فكيف بالشرك الصغر الذي جنسه أعظم من جنس الكبائر، فإن هذا مما لا يمكن القول به.

قال بعضهم انفصالا عن هذا الإيراد أيضا إن الذي سمَّى هذه التسمية إنما هو حواء، وأما آدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ فإنه لم يسمي ذلك خروجًا من هذا الإيراد، والجواب عن هذا:

[أولًا]:أنه جواب غير صحيح، وذلك لأن الله ﷻ قال:﴿**جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ**﴾**[الأعراف:١٩٠]**.

ثانيًا: أن هذه الآية المروي فيها والذي هو العمدة عند أصحاب هذا القول، ليس فيه أن الذي سمى حواء فقط، إنما كانت التسمية من الاثنين.

أضف إلى هذا وجهاً ثالثًا: وهو أنه لو سُلِّمَ بأن حواء عليها السلام هي التي سمت فإن آدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ كان مقرًا لها.

وبالتالي فإنه لا يصح إذًا هذا الجواب.

فهذا هو الوجه الأول الذي يدل على أنه لا يصح حمل الآية على آدم وحواء.

ثانيًا: أن يقال إن الذنب الذي وقع ها هنا من آدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ إما أن يكون قد تاب منه أو أنه لم يتب منه، لا يخلو الأمر من هاتين الحالتين.

فإما إن قيل أنه لم يتب من ذلك فلا شك أنه قول عظيم، لا يمكن أن يقول به أحد، وذلك أن اتفاق العلماء على الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام- معصومون من الإقرار على

الذنوب، فكيف يقال إنهم أو إنهما أو إنه عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يتب من الشرك بالله ﷻ؟! فهذا لا يمكن أن يقال به.

أما إن قيل أنه قد تاب من ذلك، فإنه يقال حينئذٍ يبعد في حكمة الله ﷻ أن يذكر الذنب في حق النبي ولا تذكر التوبة، واعتبر في هذا ما جاء في قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل اعتبر في هذا ما جاء في آدم عليه السلام على وجه الخصوص، فقد قال جل وعلا لما بين ما وقع فيه آدم عليه السلام من أكل الشجرة قال: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[البقرة:٣٧]، ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[طه:١٢١].

إذن إذا ذكر في القرآن مما وقع من الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام- فإنه يُذكر التوبة ولابد، وها هنا لم يذكر.

ووجهٌ ثالث: وهو أن آدم عليه السلام ثبت الحديث في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه يعتذر يوم القيامة عن الشفاعة العظمى بذكر ذنبه، فإنه إذا أتاه الناس يطلبون منه الشفاعة إلى الله ﷻ يقول: «**إن الله قد غضب غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإن الله نهاني عن أكل الشجرة فعصيته، نفسي نفسي**»؛ قال العلماء: ولو أنه عليه السلام قد وقع منه هذا الذنب لكان أجدَّر بالذكر، لأن ذنب الشرك أعظم من ذنب أكل الشجرة.

ووجهٌ رابع: أن هذه الآية لو كانت في آدم عليه السلام وحواء، لورد في ذلك ذكرُ إبليس، وأنه أغواهم كما جاء ذلك في الآيات الأخرى في شأن الأكل من الشجرة، وهذا لم يحصل هنا أيضا.

أضف إلى هذا وجه خامس: وهو أنَّ المتأمل في العادة الجارية في ذكر قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجد أن المطرد هو التصريح بأسماء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حين ذكرهم أو حين بيان قصصهم، فإنك تجد التصريح بذكر أسمائهم، وها هنا ليس شيء من ذلك، ما ذكر اسم آدم ولا ذكر اسم حواء عليهما الصلاة والسلام.

أضف إلى هذا وجه سادسًا: وهو الذي يرجع إلى سياق الآيات، إلى سياق الآيات التي جاء فيها أو التي ذكر فيها هذا الاستدلال، فإن الله تعالى قد قال: في سورة الأعراف:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الأعراف:١٨٩-١٩٠].

تأمل في الوجه السادس وهو في قول الله ﷻ: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾، ولو كان المراد إشراك آدم وحواء بإبليس في التسمية لقال: جعل له شريكًا وليس شركاء.

أضف إلى هذا وجهًا سابعًا: وهو قول الله ﷻ: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الأعراف:١٩٠]، ولو كان المراد آدم وحواء لقال: فتعالى الله عما يشركان.

أضف إلى هذا وجهًا ثامنًا: وأن الله تعالى قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[الأعراف:١٩١]، ولو كان المراد الشرك بإبليس في التسمية، لقال: أيشركون من لا يخلق شيئًا وهم يخلقون، لأن الأصل في (ما) أن تقال في حق غير العاقل، وأن تكون (من) في حق العاقل ومن ذلك إبليس.

أضف إلى هذا وجهًا تاسعًا مهمًا: وهو أن المتأمل في سياق الآيات يقطع أنه لا يمكن أن يراد بها آدم وحواء: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾[الأعراف:١٩١-١٩٣]، أترى أن هذه الآيات يراد بها آدم وحواء، هذا لا يمكن أن يقال به، بل الناظر في هذه الآيات والمعتبر بما سواها من الآيات يجد أن السياق يتعلق بالمشركين وليس بآدم وحواء.

أضف إلى هذا وجهًا عاشرًا: وهو في المروي، كالذي بين أيدينا، تجد أن في هذا الذي بين أيدينا ما لا يمكن التسليم به، أترى إبليس يأتي إليهما فيقول: أنا صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة، أهذا كلام من يريد الإغواء ومن يريد الإغراء؟ لأنه لو قال ذلك فإنهما سيتذكران أن الاستجابة له إنما تؤدي إلى الشر كما حصل في شأن أكل الشجرة.

أضف إلى هذا الوجه الحادي عشر وهو: من البعد بمكان أن يصدق آدم وحواء أن إبليس عنده قدرة على أن يُخْرِجَ في رأس هذا الجنين قرنًا كقرن الآيل، الذي هو من جنس

الوعول، يعني هذا كلام لا يمكن أن يصدق به أحد، ثم من الذي يخلق، ومن الذي يكون هذا الجنين في البطن، أليس هو الله ﷻ؟ إذا قال إبليس أنه هو الذي يصنع ذلك، وصَدَّقا ذلك، كان هذا منهما شرك أكبر.

فهذا مما يدلك على أن هذا المروي لا يمكن التسليم به ولا يمكن أن يكون صحيحًا وأن المراد آدم وحواء عليهما الصلاة والسلام.

الذي يظهر والله –تعالى أعلم– أن القول الثاني، وأن المراد بهذه الآية ليس آدم وحواء، يعني في قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾[الأعراف:١٩٠] أن هذا هو الصواب، وإن كان لقول الجمهور هيبة ورهبة، إلا أنَّ الأوجه السابقة بمجموعها تدل على ضعف هذا القول، وأن الصواب مع القول الآخر، وهو الذي رُويَّ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الرواية الثانية، وكذلك هو قول الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ وقد أختاره جماعة من العلماء المحققين والمفسرين المعروفين كابن القيم وابن كثير وكذلك القرطبي، وكذلك ابن حزم، وكذلك من المتأخرين الشيخ الأمين الشنقيطي، وكذلك الشيخ العثيمين، وغيرهم من أهل العلم رحمة الله تعالى على الجميع، هذا القول الذي يبدو والله تعالى أعلم أنه هو الأقرب.

وأصحاب هذا القول افترقوا إلى فريقين:

منهم من قال: إنَّ مطلع الآية أريد بها آدم وحواء: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[الأعراف:١٨٩]، هذا في آدم وحواء، ثم بعد ذلك حصل انتقال، انتقالٌ من الشخص إلى الجنس، جنس البشر، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ من هنا فما بعد يراد بذلك جنس البشر، فلما تغشاها يعني: جامعها: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا ل...﴾ [الأعراف:١٨٩]، إلى آخره، فيكون المراد بمن أشرك هم المشركون من ذرية آدم عليه الصلاة والسلام وهذا أسلوب معروف وله نظائر في القرآن، ولولا ضيق الوقت لذكرت لكم نماذج على من القرآن.

والفريق الثاني قالوا: إن هذه الآيات ليس لها علاقة بآدم وحواء لا من قريب ولا من بعيد: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[الأعراف:١٨٩]، خلقكم من نفس واحدة يعني: من جنس واحد ومن أصل

واحد، وجعل منها زوجها ليسكن إليها يعني: من هذا الجنس، لم يكن خَلْقُ الزوجات من جنس أخر، إنما كان من الجنس نفسه حتى يحصل السكن إلى آخر ما جاء في السياق.

وعلى كل حال المقصود هو أن قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾[الأعراف:١٨٩]، لا يدل على إرادة آدم وحواء عليهما الصلاة والسلام.

مهما يكن من شيء سواء قلنا بأن هذه الآية في آدم وحواء أو ليست في ذلك، فإنَّ العبرة بعموم اللفظ وهذه هي الفائدة التي نريد أن نقطفها، وهي أنَّ من الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تسميةَ الأولاد بأسماء مُعْبَدةٍ لغيره عَزَّوَجَلَّ لا شك أن هذا منكر ولا شك أن هذا محرم ولا يجوز.

وفُسِّرَ قوله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾[الإسراء:٦٤]، كما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره، تفسير ذلك أيضا بتسمية الأبناء بأسماء معبدة لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وعلى كل حال الإشراك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أو جعل نصيب من الأولاد لغير الله عَزَّوَجَلَّ والإشراك به في ذلك، هذا له أوجه من ذلك ما مر معنا من تسمية الأبناء بأسماء مُعْبَّدةٍ لغير الله، فإن كان مجرد تسمية دون اعتقاد كان شرك أصغر، وإن ضُمَّ إلى هذا اعتقاد قلبي بتعظيم هذا الذي سمي باسمه، أو عُبِّد له فلا شك أن هذا شرك أكبر.

وثمة -كما ذكرت لك- أنواع أخرى هي أفحش وأعظم، من ذلك: اعتقاد بعض الآباء أن هذا الولد إنما هو نعمة أسداها هذا السيد، أو هذا الولي، أو هذا النبي، فلذلك فهو يجعله شريكًا مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في إيتاء هذا الولد، كما يكونُ من عبَّاد القبور، تجد أن أحدهم يصيح عند المشهد كما يقولون، أو عند القبر، يا سيدي فلان أريد الولد، يا سيدي فلان أريد الولد، تأتي الأم كذلك تصيح، أو تأتي الزوجة تصيح تنادي أنها تريد الولد، فأنظر لنا يا سيد بعين الرأفة وعين الرحمة، فإذا رُزِقَ بالابن اعتقد أنه إنما كان نعمة أنعم بها هذا الولي المقبور، وهذا ولا شك شرك أكبر ليس بعده شرك.

من ذلك أيضا مما يدخل في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ [الأعراف:١٩٠]، الإشراك مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في شان التبرك، تجد أنه عند من ضعف عنده التوحيد، أو عُدِّمَ عنده التوحيد تجد أنه أو تجد أنها تأتي بابنها بعد أن يولد إلى قبر الولي في زيارةٍ لابد منها، حتى تفيض عليه بركات السيد، وهذا يفعله كثير من هؤلاء -عياذا بالله- لابد بعد الولادة من

حمل هذا الطفل والإتيان به إلى قبر الولي، حتى يناله من بركات هذا الولي، فهذا لا شك أنه شركٌ بالله ﷻ: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾[الأعراف:١٩٠].

أضف إلى هذا أيضًا أن منهم من يَفْحُش عنده الأمر أكثر وأكثر حتى أنه يجعل نذرًا عليه أن يكون هذا الابن خادمًا للسيد، أو خادمًا للشيخ، أو خادمًا لقبر الولي، وأنه نذره لله ﷻ لكي يكون عبدًا طائعًا وخادمًا وسادنًا لهذا القبر الذي يُشرك مع الله ﷻ به.

فهذه أوجه وغيرها يفسر بها وداخلة في ما تدل عليه هذه الآية التي بين أيدينا وهي قول الله سبحانه: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾[الأعراف:١٩٠].

٧٢

٧٢- باب قول الله تعالى: ﴿ وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ الآية.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بابُ قول الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[الأعراف:١٨٠] الآية

هذا باب عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ للكلام عن موضوع من الموضوعات المهمة التي الخلل فيها يؤدي إلى قدحٍ في التوحيد الواجب، أو نقْضٍ لأصل التوحيد، وهو ما يتعلق بالإلحاد في أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ والإلحاد سيأتي بيانه، وهو درجات:

منه ما يقدح في كمال التوحيد الواجب.

ومنه ما ينقضُ أصل التوحيد.

وكتاب التوحيد الذي نتدارسه في هذه المجالس قد خصَّه المؤلف في غالب أبوابه للكلام عن توحيد القصد والطلب، ولكنه حلَّى كتابه ببعض الأبواب التي تتعلق بتوحيد المعرفة والإثبات، من ذلك هذا الباب الذي بين أيدينا، ومن ذلك باب مر بنا سابقًا وهو باب: (من جحد شيئًا من أسماء الله وصفاته).

كذلك تناول البحث في توحيد المعرفة والإثبات بعضًا مما يتعلق بأبواب أخرى كما عقده المؤلف في حكم التسمي بقاضي القضاة، كذلك ما سيأتي من الكلام عن إثبات الوجه لله عَزَّ وَجَلَّ والسؤال بوجهه سبحانه، وكذلك ما ختم به المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الكتاب وهو الباب الذي عقده للكلام عن قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[الأنعام: ٩١]، إلى غير ذلك من الأبواب التي تناولت هذا النوع من نوعي التوحيد.

ويمكن أن يُقال أيضًا إن هذا الباب له تعلقٌ بتوحيد القصد والطلب؛ يعني: بتوحيد العبادة أيضًا، وهذا تنبيهٌ لطيف أشار إليه حفيد المؤلف وتلميذه الشيخ: عبد الرحمن بن حسن في كتابه ((قرة عيون الموحدين)) الذي شرح فيه هذا الكتاب شرحًا وجيزًا، حيث أشار إلى أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد التنبيه على غَلَطِ الذين يتوسلون إلى الله عَزَّ وَجَلَّ في دعائهم بالذوات، وأنَّ الذي ينبغي أن يُتوسل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بأسمائه وصفاته.

بعض الناس يخطئون حينما يقعون في أمر محدث مبتدع وهو التوسل إلى الله ﷻ بالمخلوقين؛ بذواتهم أو بجاههم، فيقول: اللهم إني أسألك بجاه فلان، وبحق فلان، وأسألك بفلان؛ وهذا أمر مُحدث ليس عليه دليل من الكتاب والسنة، والذي ينبغي للمسلم أن يتوسل إلى الله ﷻ بهذا التوسل العظيم الذي لا توسل أعظم منه، وهو التوسل إلى الله ﷻبأسمائه وصفاته ونعوت جلاله وجماله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب قول الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

الشرح

أسماء الله جل وعلا حسنى، وهذا ما نصَّ عليه كتاب الله ﷻ في أربعة مواضع:

١/في هذه الآية التي بين أيدينا آية الأعراف.

٢/وكذلك في آية الإسراء: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[الإسراء:١١٠].

٣/كذلك الموضع الثالث في سورة (طه): ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[طه:٨].

٤/والموضع الأخير في سورة الحشر في قول الله ﷻ: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[الحشر:٢٤].

أسماء الله ﷻ حسنى، كلمة (حسنى) مؤنث كلمة (أحسن) وهي أفعل تفضيل من (حَسَنَه)، كما أن كلمة (أحسن) أفعل تفضيل من كلمة (حَسَنَ)، و (الحسنى) يعني البالغة في الحسن المنتهى، فأسماء الله ﷻ بالغة في الحسن المنتهى، فلا حسن فوق حسن أسماء الله ﷻ.

وبلوغ الغاية في الحسن في أسماء الله ﷻ يرجع إلى ثلاثة أمور:

أولًا: أنها دالة على أعظم وأقدس مُسَمَّى وهو الله ﷻ ، لما كانت هذه أسمائه، لما كانت هذه الأعلام الدالة عليه ﷻ لا شك أنها بذلك تكون أحسن الأسماء على الإطلاق.

والأمر الثاني: أنَّ أسماء الله ﷻ تتضمن أحسن المعاني وأعظم النعوت، فصفات الله ﷻ ضُمنت في أسمائه سبحانه، إذْ كلُّ اسمٍ قد دل وتضمن صفة من صفات الله تبارك وتعالى، وهذه المعاني والصفات أعظم ما يكون من المعاني، أعظم ما دلت عليه الأسماء من المعاني هي أسماء الله سبحانه وتعالى.

إذًا كانت أسماء الله حُسْنَى لأنها دالة على أعظم مُسمًّى، ولأنها مُتضمنة لأحسن المعاني.

أضف إلى هذا أمرًا ثالثًا: وهو أنها منزهة عن كل عيب وسوء ونقص، فاستحقت بذلك أن تكون أسماء حسنى، قال: ﷻ: ﴿**فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾**[الإسراء:١١٠]**، إذًا هي شيءُ يختص به الله سبحانه وتعالى ألم تر إلى حرف (اللام) ها هنا الذي يدل على الاستحقاق؟ فهي مُسْتحقة لله ﷻ لا يشركه فيها غيره، أسماء الله ﷻ بما دلت عليه من هذه المعاني العظيمة لا شك أنها أمر تفرد الله سبحانه وتعالى به، فلا يجوز أن يشاركه في هذا الكمال أحدٌ البتة.

قال سبحانه: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾**[الأعراف:١٨٠]**، هذا بابٌ عظيم، وهو باب التأمل في حُسْنِ أسماء الله ﷻ، وهذا المقام كلما تأمل فيه الإنسان ظهر له من حسن أسماء الله ﷻ ما لم يكن يعلم، وحسن أسماء الله ﷻ يظهر من وجوه كثيرة من ذلك:

النظر إلى كل اسم منها على حدة، فكل اسم منها إن تأملته وجدت أنه يدلُ على أحسن المعاني وأعظمها، واعتبر في ذلك أي اسمٍ يمر بك في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ تجد أن ما اشتمل عليه من المعاني شيءٌ عظيم يفوق الوصف.

ويظهرُ حُسْنِ أسماء الله ﷻ أيضًا **من وجه ثاني** وهو:

بالنظر إلى أن من أسماء الله ما يدل على أكثرَ من معنى، وكلها بالغةٌ في الحسن غايته، وهذا أمر عجيب أن يكون الاسم الواحد يدل على معنيين أو على ثلاثة معانٍ، أو على أربعة معانٍ كلُها حق، وكلها غاية في الحسن، وانظر في هذا وتأمل في اسم الله (الودود)، وتأمل في اسم الله (العزيز)، وتأمل في اسم الله (الحكيم) وتأمل في اسم الله (الجبار) إلى غير ذلك من أسماء الله ﷻ.

بل إن منها ما هو جامع لكل معاني الربوبية والألوهية كما تجده في قوله في الاسم العظيم (الله)، كيف كان مشتملاً على كل معاني الربوبية والألوهية، وكل نعوت الجلال والجمال.

أيضًا يظهر حُسْنِ أسماء الله ﷻ **من وجه ثالث:**

وهو بالنظر إلى اقتران بعضها ببعض، وهذا قد جاء في كتاب الله ﷻ كثيرًا، كذلك في أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ.

وأنت إذا تأملت وجدت أن كل اسمٍ منها هو أحسن الأسماء، دال على أحسن المعاني، فإذا ضممت أحدَ هذه الأسماء إلى الآخر ظهرَ لك حُسْنُ فوق الحسن، واعتبر في هذا إلى الاقتران مثلًا إلى اسميه تعالى (الغفور والرحيم) أو (العزيز والحكيم) أو (الأول والآخر) أو (الظاهر والباطن) وهذه بالذات لها شأن أخص، ويظهر الكمال وغاية الحسن فيها من وجه أظهر، وهي الأسماء التي يُطلق عليها بعض أهل العلم بالأسماء المزدوجة.

أضف إلى هذا **وجهًا رابعًا** في حُسْنِ أسماء الله ﷻ وهي:

أنك لا تجد فيها ترادفًا مطلقا، ليس في أسماء الله ما يدل الواحد منه على ما يدل عليه الآخر من جميع الوجوه، إنما تجد بعض الأسماء أعم من بعض، أو تجد بعض الأسماء أخص من بعض، وذلك مما يزداد معه يقينك بحسن أسماء الله ﷻ، فتجد أن اسمه (الخالق) يدل على معنى عام، واسمه (البارئ) يدل على معنى أخص.

وقل مثل هذا في أسماء عدة من أسماء الله ﷻ والمقام يحتاج إلى وقت أوسع لتفصيل مثل هذه المباحث.

المقصود من الأمر الذي يجب على كل مسلم أن يعتقد به وأن يصل إلى سويداء قلبه اعتقاد أن أسماء الله ﷻ حسنى بالغة في الحسن الغاية، ومن اعتقد ذلك استفاد فوائد شتى؛ من تلك الفوائد التي نستفيدها باعتقادنا بكون أسماء الله ﷻحسنى ما يأتي:

أولًا: اعتقاد أنها توقيفية؛ ومعنى قولنا أنها توقيفية يعنى: لا يُسمى الله ﷻ إلا بما سمى به نفسه، أو سماه به رسوله ﷺ، لا يُتجاوز في هذا الباب القرآن والحديث، يجب أن يقف الإنسان في تسمية ربه ﷻ عند حدود ما ورد في القرآن الكريم أو في السنة النبوية، وهذا بيّن

ظاهر من كون أسماء الله حُسْنَى، فإن العقل لا يستقل بالوصول إلى أحسن المعاني، وبالتالي فإنه يقف عند حدود ما جاء في الكتاب والسنة.

وبالتالي يظهر لك خطأ من قال من المتكلمين إنَّ أسماء الله ﷻ يمكن أن تثبت له عن طريق الاجتهاد؛ يعني ينظر الإنسان في معنىً حسن دل عليه اسم من الأسماء وبالتالي يجوز أن يُطلق على الله تعالى، وهذا لا شك أنه مذهب باطل، ويردُّه ما أخبر الله سُبحانه وتعالى عن نفسه بأن له الأسماء الحسنى، وأنَّى للعقل للعاجز الضعيف أن يصل إلى هذه الرتبة العلية! حيث يضيف إلى ربه ﷻ اسمًا يليق به ويليق بعظمته ويليق بكماله، أنَّى يكون ذلك؟ ونبينا الكريم ﷺ الذي هو أعلم الخلق بالله يقول: «**لا أُحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**».

فإذا كان أعلم الخلق به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يحيط ثناءً لله وعليه مع أنه أعلم الخلق به، ومعلوم أن الله جَلَّ وَعَلَا إنما يُثنى عليه بأسمائه وصفاته، فإذا كان لا يُحصي ثناء عليه، إذًا لا يُمكن للعباد أن يصلوا إلى معرفة ما يليق بالله جَلَّ وَعَلَا من الأسماء والصفات، وحسبهم أن يقفوا عند حدود ما جاء في القرآن والسنة.

أضف إلى هذا ما جاء في ((مسند الإمام أحمد)) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه في الحديث المعروف عند أهل العلم بحديث الهم أو حديث دعاء الهم، وهو قوله ﷺ: «**أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك**» فالحديث صريحٌ بكون أسماء الله جَلَّ وَعَلَا من تسميته هو جَلَّ وَعَلَا لنفسه لا من تسمية الخلق له.

أضف إلى هذا أن تسمية الله بما لم يسمِّ به نفسه يشملها قوله سُبحانه وتعالى: ﴿**وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾[البقرة:١٦٩]، ﴿**ولا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾[الإسراء:٢٦]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**﴾[طه:١١٠].

كل تلك الأدلة زاجرةٌ على أن يخوض الإنسان في تسمية الله جَلَّ وَعَلَا بما لم يرد في الكتاب والسنة.

هذه فائدة أولى نستفيدها من معرفتنا أن أسماء الله حُسنى.

والفائدة الثانية: أن نعلم أن أسماء الله جَلَّ وَعَلَا مشتقة لا جامدة كما يقوله ما يقوله من المتكلمين، بل كل اسم من أسماء الله جَلَّ وَعَلَا فإنه يدل على معنى، ويدل على صفة

جليلة، بل هي أحسن ما يكون من الصفات والمعاني، وذلك أن الله جَلَّ وَعَلَا لم يتسمى بـ(العزيز) إلا لأنه مُتصف بصفة العزة، ولم يتسمى بـ(القوي) إلا لأنه مُتصف بصفة القوة، وهكذا دواليك.

إذن أسماء الله جَلَّ وَعَلَا كل اسم منها يتضمن ويشتمل على معنى وعلى صفة، وهذا مما يوجب أن يعتقد في أسماء الله جَلَّ وَعَلَا.

أضف إلى هذا أمرًا ثالثًا: وهو أننا نستفيد من معرفتنا بأن أسماء الله حُسنى؛ دعاءه بها دعاء العبادة ودعاء المسألة.

أما دعاء العبادة ذلك مما رتب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على كون أسماء الله حسنى، قال: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾**[الأعراف:١٨٠]**، رتب على كون أسماء الله عَزَّوَجَلَّ حسنى؛ دعاءه بها.

إذن لما كانت حُسْنَى كان ينبغي أن يكون دعاءه بها.

أعود فأقول أن دعاء الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه يرجع إلى نوعين من الدعاء:

دعاء العبادة، ودعاء المسألة.

أما دعاء المسألة: فهو الدعاء المعروف الذي يتبادر المراد منه عند سماع هذه الكلمة أولًا، وهو: النداء، والطلب، والسؤال. فإذا دعوت الله عَزَّوَجَلَّ فادعُه بأسمائه الحسنى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا أحسن ما يكون وأبلغُ ما يكون من دعاء المسألة.

وثمة دعاء العبادة: وهو أنْ تتعبد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأسمائه، وهذا بابٌ عظيم، حَسْبُ الواحد منا إذا تكلم فيه أن يشير إليه إشارة، وإلا فإنَّ هذا باب عظيم لا يلجُ إليه إلا الموفقون السعداء، والسير إلى الله جَلَّ وَعَلَا كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((طريق الهجرتين)): **السير إلى الله من طريق الأسماء والصفات شأنه عجب وفتحه عجب، وصاحبه قد حيزت له السعادة وهو مستلقٍ على فراشه، غير متعب ولا مشدود، ولا مشتت عن سكنه، ولا مبعد عن وطنه.**

نعم الطريق إلى الله عَزَّوَجَلَّ من خلال التأمل والتدبر والتعبد بأسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته أمرٌ عظيم، لا يصل إليه إلا الموفقون من أهل العلم والعمل، أولئك الذين يتعبدون لله جَلَّ وَعَلَا بكل اسم له، ومعلوم أنَّ كلَّ اسم من أسماء الله له عبودية تخصه، فالتعبد لله عَزَّوَجَلَّ باسمه

(الغفور) يختلف عن التعبد لله ﷻ باسمه (الشكور)، يختلف عن التعبد لله ﷻ باسمه (العزيز).

وهذا الباب يحتاج المسلم أن يتأمل فيه تأملًا عظيمًا، وهو باب للسبْق والمسارعة، ومن كان حريصًا على سعادة نفسه فليحرص عليه، ولا يمكن أن تصل إليه حتى يوفقك الله ﷻ للتأمل فيما يمكنك من معرفة معاني أسماء الله جَلَّوَعَلَا وبالتالي تشمر عن ساعد الجد في التعبد لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بهذه الأسماء.

فمن علم أن الله ﷻ (شكور) فإنه يتعبد لله ﷻ بعبودية الرجاء، حيث يرجو ربه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ولا يخاف منه ظلمًا ولا هضما، إذا عمل العمل الصالح فإنه يرجو الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أن يُثيبه عليه، وإذا عمل السيئة فتاب إلى الله فإنه يرجو الله ﷻ أن يتوب عليه ويغفر له زلته.

من تبعد لله ﷻ باسمه (القوي) فإنه يعتصم بحبله ويلوذ به، يثق بقوته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ويحسن التوكل عليه؛ لأنه يعلم أن الله هو القوي، الذي له القوة التي لا تضاهى، فالله جَلَّوَعَلَا قويٌّ لا يُغلب، وبالتالي فإنه يثق بالله ﷻ ويحسن التوكل عليه، وهكذا في بقية أسماء الله جل وعلا.

إذًا هذا بعض ما نستفيده من معرفة قولنا أن أسماء الله حُسنى.

أضف إلى هذا أمرًا رابعًا وهو تنزيه أسماء الله جَلَّوَعَلَا عن أن يلحقها أي نقص أو عيب، مهما تأملت في أسماء الله وصفاته فإنك تجدها أسماء كاملة من جميع الوجوه، لا يمكن أن يلحقها أي نقص أو عيب البتة.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠]، قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ **يشتمل على معنيين:**

الأول: أن قوله ﴿فَادْعُوهُ﴾ من الدعوة بمعنى التسمية، من قولهم: (دعوته زيدًا)؛ يعني: سميته زيدًا، فيكون معنى قوله ﴿فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ يعني: سمُّوه بها.

والمعنى الثاني: فادعوه من الدعاء، الذي هو -كما قد علمت- مشتمل على دعاء العبادة ودعاء المسألة، وكلاهما مما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾.

يجب أن يُسمَّى الله بهذه الأسماء، ويُعتقدَ أنها أعلام دالة عليه، كما أنه ﷻ يُدعى بهذه الأسماء دعاء العبادة ودعاء المسألة.

وأضاف إلى هذا ابن القيم في المدارج **نوعًا ثالثًا وهو**: **دعاء الثناء**، والذي يبدو والله أعلم أنه داخل في دعاء العبادة.

قال ﷻ: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[الأعراف:١٨٠].

(**ذَرُوا**) فعل أمر، وهذه الآية؛ أعني قوله: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[الأعراف:١٨٠]، جمهور أهل العلم على أنها آية محكمة، وذهب ابن زيد في بعض المفسرين إلى أنها آيةٌ منسوخة، فإنه فَهِمَ من قوله تعالى: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[الأعراف:١٨٠]، فهم تَرْكُ التعرض لهؤلاء الذين يُلحدون في أسماء الله جَلَّوَعَلَا، وبالتالي تكون آية منسوخة بآيات القتال والجهاد.

والصواب أن الآية محكمة كما على ذلك جماهير أهل العلم.

وقوله ﷻ: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[الأعراف:١٨٠]، فيه فائدتان:

الأولى: تنبيه للمسلمين.

والثانية: تحذيرٌ وتهديد ووعيد للكافرين اللذين يُلحدون في أسماء الله جَلَّوَعَلَا.

فإنَّ هذا الأسلوب في لغة العرب يُفيد معنى: التهديد والتوعد، على نحو قول ربنا جَلَّوَعَلَا: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾[الحشر:٣]، ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[الأنعام:٩١].

فهذا أسلوب يتضمن معنى التهديد، فإنهم ينتظرهم عذابٌ وقارعة من الله جَلَّوَعَلَا.

والأمر الثاني: تحذير المسلمين من أن يكون حالهم كحال هؤلاء الملحدين في أسماء الله جَلَّوَعَلَا فينبغي على الإنسان أن يُجانب هذه الحال، وألا يكون كهؤلاء لئلا يصيبه ما أصابهم.

قال سبحانه: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[الأعراف:١٨٠]، قرأ جمهور أهل العلم (**يُلْحِدُونَ**) من (ألحد –يُلحد)، وقرأ حمزة رَحِمَهُ ٱللَّهُ بـ(يَلْحَدون) بفتح الياء من (لحَدَ، يلْحدُ)، والقراءتان معناهما واحد، لا فرق بينهما من جهة المعنى.

والأصل في اللغة أن الإلحاد هو: الميل عن القصد، ومن ذلك اللحد في القبر؛ لأنه مائل إلى شق القبر عن وسطه.

والإلحاد في أسماء الله هو كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((المدارج)): **العدول بها عن الصواب فيها**. هذا تعريفٌ وجيز رشيق لمعنى الإلحاد في أسماء الله.

الله جَلَّ وَعَلَا يحذرنا في هذه الآية من حال هؤلاء الذين ضلوا الصراط المستقيم فألحدوا في أسماء الله، وإذا تأملت في كتاب الله وجدت النهي عن الإلحاد في أمرين:

وجدت النهي عن الإلحاد في: **أسماء الله** كما في هذه الآية.

ووجدت النهي عن الإلحاد في: **آيات الله**، كما في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾[فصلت:٤٠].

وآيات الله نوعان:

١- **آياتٌ شرعية:** هي الآيات التي أنزلها الله عَزَّ وَجَلَّ على رُسله، ومن ذلك القرآن الكريم الذي بين أيدينا.

والإلحاد في الآيات الشرعية يكون بأمرين:

بتكذيبها.

وبتحريفها.

٢- **والنوع الثاني الآيات الكونية:** فكل ما تراه ببصرك من مخلوقات الله جَلَّ وَعَلَا فإنها آيات دالة على وجوده وربوبيته وألوهيته ووحدانيته، وهذه الآيات الإلحاد فيها يكون بنسبتها لغير الله، أو اعتقاد أنَّ له فيها مُشاركًا أو مًعاونا.

نعود إلى الأول لأنه هو محل كلامنا وبحثنا هنا، وهو الإلحاد في أسماء الله جَلَّ وَعَلَا قلنا هو (**العدول بها عن الصواب فيها**).

أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ يجب أن يُعتقد فيها الحق الذي أوجبه الله عَزَّ وَجَلَّ والذي جاء في شريعة نبينا محمد ﷺ، ومن ذلك تسمية الله عَزَّ وَجَلَّ بما سمى به نفسه، مع اعتقاد تضمُن هذه الأسماء المعانيَّ التي بلغت الغاية في الحسن، واجتناب كلِّ ما يُخالف ذلك، ما يُخالف ذلك هو الإلحاد في أسماء الله.

إذًا هي كلمةٌ جامعة لكل ما يُخالف الحق في باب أسماء الله وصفاته. أعيد؛ الإلحاد في أسماء الله كلمةٌ جامعة لكل ما يُخالف الحق في باب الأسماء والصفات، وهذا له أوجه كثيرة، من ذلك ما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((النونية)):

فحقيقة الإلحاد فيها الميل بـ الإشراك والتعطيل والنكران
فالملحدون إذا ثلاث طوائف فعليهم الغضب من الرحمن

[النوع الأول]: **الإلحاد بالإشراك**: هذا إلحاد الإشراك أو إلحاد التشريك، وهو: أن يُعتقد تشريك غير الله ﷻ معه فيها، ومن ذلك ما كان من المشركين الأوليين اللذين سمَّوا طواغيتهم وأصنامهم بأسماء الله جَلَّوَعَلَا اشتقوا لها أسماء من أسماء الله جَلَّوَعَلَا كما فعلوا في تسمية صنمهم العظيم (اللات) لكونهم اشتقوا له هذا الاسم من اسمه سبحانه (**الله**)، أو من اسمه سبحانه (**الإله**)، على خلاف بين أهل العلم، كذلك اشتقوا (العزى) من (**العزيز**)، واشتقوا (مناة) من (**المنان**).

إذًا هذا إلحاد بالإشراك مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها.

ومن ذلك أيضًا: ما يكون من غلاة القدريين اللذين قد يسمون سادتهم وآلهتهم وطواغيتهم بأسماء الله جَلَّوَعَلَا، بل إنهم قد يعتقدون أن المعاني والصفات التي تضمنتها هذه الأسماء يشارك هذا فيها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قد تجد منهم من يُسمي إلهه بـ(القدير)، ويعتقد أن له قدرة كقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو يسميه بـ(الرحيم) ويعتقد أن له رحمة كرحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذًا هؤلاء لا شك أن إلحادهم وشركهم أعظم من إلحاد وشرك الأولين.

النوع الثاني: **إلحاد النكران**: بمعنى إنكارُ هذه الأسماء من أصلها، ونفي تسمية الله ﷻ بها، ومن ذلك ما وقع من المشركين الأولين في اسم الله (الرحمن): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] كما مر بنا ذلك سابقًا.

ومن ذلك أيضًا: ما وقع فيه من المنتسبين إلى هذه الملة (الجهمية) اللذين نفوا أسماء الله ﷻ، واعتقدوا أن الله ﷻ لا يتسمَّى بهذه الأسماء؛ لأنه يشارك المخلوق فيها الله جَلَّوَعَلَا، فنفوا أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأولوها بمخلوقات منفصلة عن الله جَلَّوَعَلَا.

النوع الثالث: **التعطيل**: والتعطيل في أسماء الله جَلَّوَعَلَا نوعان:

أولًا: تفريغ وتعطيل الأسماء عن معانيها، واعتقاد أنها أسماء جامدة لا تدل على معاني، فالشأن فيها كالشأن في أسماء المخلوقين، ربما يُسمى بـ(صالح) من ليس صالحًا، وربما يُسمى

سعيد من ليس سعيدًا، وهذا لا شك أنه من الأمر الباطل المخالف لإجماع السلف، فأسماء الله -كما قد علمنا- متضمنة لمعاني عظيمة هي أحسن ما يكون من المعاني، وهذا الذي يُعبر عنه أهل العلم بأنها أسماء مشتقة.

وثمة صنف آخر من الملحدين إلحاد التعطيل اللذين أوّلوا ما دلت عليه الأسماء من المعاني، هؤلاء أيضًا معطلة، كما تجد في كثير من المتكلمين إذا جاءوا مثلًا إلى اسم الله (الرحمن) أوّلوا صفة الرحمة، أو جاءوا إلى اسمه تعالى (الودود) أوّلوا صفة الود، وهكذا في الأسماء التي تدل على صفات لا يُثبتونها لله جَلَّوَعَلَا، وبالتالي فإنهم ينفون معناها وهذا إلحاد تعطيل.

إذا عندنا الآن ثلاثة أنواع من الإلحاد وهي:

١/إلحاد الإشراك

٢/والنكران

٣/والتعطيل

النوع الرابع: تسمية الله عَزَّوَجَلَّ بما لم يسمي به نفسه، فكيف إذا كان ذلك نقصًا لا يليق بالله! كما فعلت اليهود -عليهم من الله ما يستحقون- حينما قالوا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ**﴾**[آل عمران: ١٨١]**.

إذًا الله جَلَّوَعَلَا لا يجوز أن يُسمَّى بما لم يسمي به نفسه. وهذا وقع فيه كثير من الناس من مختلف الطوائف، هؤلاء كما قد علمتم، وكذلك النصارى مثلًا سموا الله عَزَّوَجَلَّ (أبًا)، الفلاسفة سموه (العلة الفاعلة) أو (العلة الأولى). وانظر إلى سوء الأدب مع الله جَلَّوَعَلَا أيقال في حق الله إنه علة! - تعالى الله عما يقول الملحدون علوًا كبيرا-.

ومن ذلك أيضًا: ما يقع في لسان بعض العوام حينما يُسمون الله جَلَّوَعَلَا بما لم يسمِّي به نفسه، وقد يتضمن ذلك ما يتضمن من نسبة النقص إلى الله جَلَّوَعَلَا أو إثبات شيء من الصفات لم تثبُت له، تجد من العامة مثلًا من يدعوا فيقول: (يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، يا ديهور، يا ديهار، يا برهان، يا سبحان) في قائمة طويلة من هذه التسميات التي لم ترد في كتاب ولم ترد في سنة.

وقد علمنا أن أسماء الله جَلَّوَعَلَا توقيفية، فليس للإنسان أن يُضيف إلى الله جَلَّوَعَلَا ما لم يُضف إلى نفسه وما لم يُثبت إلى نفسه تَبَارَكَوَتَعَالَى.

النوع الخامس: الذي هو وجه أيضًا من أوجه الإلحاد في أسماء الله جَلَّوَعَلَا إلحاد التشبيه، إلحاد المشبهة اللذين جعلوا أسماء الله جَلَّوَعَلَا دالة على صفات يشابه فيها الله جَلَّوَعَلَا المخلوقين، فإذا كان اسم الله جَلَّوَعَلَا (الرحيم) يدل على صفة الرحمة، فالرحمة من جنس رحمة المخلوقين، وإذا كان الله جَلَّوَعَلَا اسمه (العزيز) فعزته من جنس عزة المخلوقين، مثل هذا في بقية الأسماء، ولا شك أن هذا إلحاد، ميل عن الحق الواجب في أسماء الله جَلَّوَعَلَا .

النوع السادس: إلحاد أهل الاتحاد، وهؤلاء أخبث هؤلاء الملحدين، وهؤلاء أضلُّ الملحدين، اللذين جعلوا كل أسماءٍ في السماوات أو في الأرض فهي لله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأنَّهم يعتقدون أن الله جَلَّوَعَلَا هو كل شيء في السماوات وفي الأرض، حتى قال زعيمهم (ابن عربي) – عليه من الله ما يستحق-: **إن الله تعالى يتسمى بكل اسم ممدوح عقلًا وشرعًا وعرفًا، وبكل اسم مذموم شرعًا وعقلًا وعرفًا.** –تعالى الله عما يقول هؤلاء الملحدون علوًا كبيرا–.

إذًا هذه خلاصة كلام أهل العلم في أوجه الإلحاد في أسماء الله جَلَّوَعَلَا.

وخلاصة ذلك أن كل انحراف عن الحق وعن الصراط المستقيم في باب أسماء الله وصفاته فإنه راجع في الحقيقة إلى الإلحاد في أسماء الله جَلَّوَعَلَا، والله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾: «يشركون».

هذا الذي أورده الملف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهَمٌ منه أو سقطُ قلم، فإن هذا التفسير الذي سمعت ليس لابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا إنما هو لقتادة، أخرج ذلك ابن أبي حاتم وكذلك ابن جرير وغيرهم من أهل العلم. تفسير الإلحاد بالإشراك هذا من تفسير قتادة وليس من تفسير ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا وهذا ما نبه عليه الشارح الحفيد الشيخ سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((التيسير)).

مضى الكلام عن معنى الإلحاد على هذا الوجه.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعنه: ((سمّوا اللات من الإله والعزَّى من العزيز))

هذا الذي يرجع أيضًا إلى الإلحاد بالإشراك، ومن ذلك تسميةُ آلهة المشركين بأسماء الله جَلَّوَعَلَا واشتقاقُ أسماء لها من أسماء الله جَلَّوَعَلَا وهذا مما أطبق عليه المفسرون في تفسير الإلحاد في أسماء الله جَلَّوَعَلَا وهو كما ترى مَرْوِّيٌ عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا لكنه مَرْوِّيٌ من طريق العوفيين، وهو مسلسلٌ للضعفاء، لكن عامة أهل العلم إذا جاءوا إلى تفسير الإلحاد في أسماء الله فمن أول ما يذكرون هذا النوع من الإلحاد في أسماء الله جَلَّوَعَلَا.

جاء ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا تفسير الإلحاد بالتكذيب، وهذا أيضًا نوع من أنواع الإلحاد كما أخرج ذلك ابن جرير رَحِمَهُٱللَّهُ في ((تفسيره)).

وعن الأعمش: «يُدخِلون فيها ما ليس منها».

يعني: يسمون الله جَلَّوَعَلَا بما لم يُسمِّ به نفسه، -كما علمت وكما سمعت-، وهذا الباب أُعيد وأؤكد على أنه ينبغي أن يُتنبه على ذلك، وينبغي أن يُنبه الناس والعامة والأدباء والصحفيين إلى مراعاة هذا الأمر، فإن من الناس من ربما قال أو كتب فنسب إلى الله عَزَّوَجَلَّ ما ليس منه، ربما تجد بعض الكتاب المعاصرين أو الصحفيين هذا مما قد يمر على بعضكم أنه إذا تكلم عن الله عَزَّوَجَلَّ أنه يقول إنه: "مهندس الكون".

انظر إلى ما في هذه الكلمة من عدم مراعاة مقام الأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ أيُقال في حق الله إنه مهندس! هذا مما تمجُّه الأسماع وترفضه القلوب المؤمنة.

إذًا الله جَلَّوَعَلَا يجب أن يُسمى بما سما به نفسه، ويكفيك يا عبد الله، تريد أن تُحصِّل أسماءً أعظم مما سمى الله بها نفسه! هذا لا كان ولا يكون.

إذًا قف عند حد ما ورد ولا تزد على ذلك، ولا تُدْخل في أسماء الله جَلَّوَعَلَا ما ليس منها.

٧٣

٧٣- بابٌ

لا يقال: السَّلام على الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بابٌ

لا يقال: السلام على الله.

فيقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بابٌ لا يقال السلام على الله، ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أنَّ من كمال التوحيد الواجب تركَ استعمالِ هذا اللفظ الذي لا يجوز أن يقال في حقه ﷻ، وكون الإنسان يُسلم على الله فيقول: "السلام على الله" هذا قولٌ لا يجوز، وتركه من تحقيق الأدبِ مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا الباب أيضًا مناسبُ للباب الذي سبقه من جهة أن فيه التنصيص على أن من أسماء الله جَلَّ وَعَلَا السلام، والباب الذي قد مضى متعلق بأسماء الله جَلَّ وَعَلَا.

قال: رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

في الصحيح عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة؛ قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان، فقال النبي ﷺ: «لا تقولوا السلام على الله؛ فإن الله هو السلام».

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الصحيح: يعني في الصحيحين، والحديث أخرجه الإمامان البخاري ومسلم في مواضع في الصحيحين وفيه: أن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أخبر أن أصحاب النبي ﷺ و رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كانوا إذا كانوا مع النبي ﷺ في الصلاة، وجاء توضيح ذلك في بعض الروايات؛ يعني: إذا جلسوا في التشهد فهذا هو الموضع الذي كانوا يقولون فيه هذا القول، كانوا يقولون: السلام على الله من عباده، السلام على فلان.

وجاء في روايةٍ في الصحيحين أنهم كانوا يقولون: السلام على الله من قبل عبادهِ السلام على جبريل وميكائيل.

وفي روايةٍ في خارج الصحيحين أنهم كانوا يُعَدِدُون من الملائكة، فهذا توضيحٌ للمبهم في قوله في هذه الرواية «السلام على فلان».

وكأن أصحاب النبي ﷺ لما لم يكن عندهم علمٌ بالشيء الذي يقولونه في هذا الموضع إذْ لم يكن قد علْمهم النبي ﷺ ماذا يقولون في هذا الموضع، ولعل هذا لحكمةٍ أرادها النبي ﷺ، فلم يكونوا يعلمون ماذا يقولون في هذا الموضع؛ كما جاء مصرحًا في رواية عند الإمام أحمد بإسناد صحيح، أنهم ما كانوا يعلمون ماذا يقولون؟ فاجتهدوا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فقالوا: **«السلام على الله من عباده، السلام على فلانٍ وفلان»**.

يعني: كانوا يعددون من الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فكأنهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لما رأوا أنَّ الصلاة مناجاةٌ بين العبد وبين ربه، رأوا أنَّه لا يناسبُ أن تُتْرَكَ الصلاة إلا بعد تحية الله عَزَّ وَجَلَّ، وتحية خواص عباده والدعاء لأنفسهم والسلام على من حضرهم من الإنس والملائكة، اجتهدوا فقالوا هذا القول، وهو أنهم كانوا: يسلمون على الله ويسلمون على خواص عباد الله، فبين لهم النبي ﷺ أنَّ هذا أمرٌ لا يجوز التفت إليهم النبي ﷺ بعد أن فرغوا من الصلاة، كما دلَّ على هذا بعض الروايات وهي مُفَسِّرةٌ لبعضها بعد أن فرغوا من الصلاة قال لهم النبي ﷺ: **«لا تقولوا السلام على الله من عباده فإن الله هو السلام»**

نهاهم وبيَّن لهم علة النهي، أمَّا النهيُّ فعن قول هذا القول وهو: السلام على الله، والعلة: أن الله هو السلام، فإذا كان ذلك كذلك لم يجوز أن يقول القائل :السلام على الله.

ووجه ذلك يرجع إلى أمور:

سبب نهيه ﷺ عن هذا النهي، سبب نهيه ﷺ عن هذا القول يرجع إلى ما يأتي:

أولًا: أنَّ هذا القول "السلام على الله" يُوهِمُ إمكانَ لحوق الآفاتِ بالله جَلَّ وَعَلَا.

وجه ذلك: أنَّ السلام يتضمن الدعاء بالسلامة، وهذا إنما يُمكنُ أن يُقال في حق من يمكن لحوقُ الآفاتِ والنقصِ والعيب به، فيناسب أن يُدْعَىَ له بالسلامة من ذلك، ولا شك أن الله جَلَّ وَعَلَا هو القدوس السلام المنزه عن كل عيبٍ ونقص، فكان النهي عن قول "السلام على الله" لأجل دفع هذا التوهم.

[ثانيًا]: أن الدعاء لشيء ما يُوهم حاجته وافتقاره، والله جَلَّ وَعَلَا هو الغني عن كل أحد، الله جَلَّ وَعَلَا مستغنٍ عن كل ما سواه، مفتقر إليه كل ما عداه، إنما يُدْعَىَ لمن يحتاج إلى أن يُنفَعَ وأن يُدْفَعَ عنه الضرر، والله جَلَّ وَعَلَا لاشك أنه سالم من ذلك، قال سبحانه في

الحديث القدسي المخرج في صحيح مسلم: «**يا عبادي إنكم لم تبلغوا ضري فتضروني، ولم تبلغوا نفعي فتنفعوني**».

فدل هذا على أن الله جَلَّوَعَلَا لا يجوز أن يُدْعى له.

ويا لله العجب! كيف يُدعى له وهو المدعو؟ وكيف يُطلب له وهو المطلوب؟ فدل هذا على أنه لفظ لا يجوز استعماله في حقه تعالى.

[ثالثًا]: وهو أن السلام اسم لله جَلَّوَعَلَا ، فكان قول السلام على الله لا وجه له، ولا يليق أن يقال في حقه؛ لأنه أضحى الكلام بمعنى: الله على الله، وهذا لا شك أنه لا وجه له ولا يليق أن يقال في حقه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فاتضح بهذه الأوجه الثلاثة أنه لا يجوز أن يُسَلَّمَ على الله جَلَّوَعَلَا، فالقول السلام على الله لاشك أنه أمرًا لا يجوز، وبعض الناس وقد سمعتم ذلك من أحدهم يقول إذا انتهى من صلاته يقول: "اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك السلام" هذه الجملة الأخيرة لاشك أنَّها أمرًا منكر ولا يجوز أن يقال قول الإنسان: "إليك السلام" هذا مخالفٌ لنهي النبي ﷺ: «**لا تقولوا السلام على الله**».

ثم إن فيه زيادةً على الوارد، ولا ينبغي للإنسان أن يتخطى الوارد إلى غيره، ولماذا لا يقف الإنسان عند حدود ما ورد عن النبي ﷺ فهو قد بين لنا أن المشروع هو أن يقول الإنسان بعد الصلاة: «**اللهم أنت السلام ومنك السلام**»، ولماذا يرومُ بعض الناس أن يزيدوا على هدى النبي ﷺ، وكان الاقتداء بالنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ داعيًا لهم إلى أن يقفوا عند حدود ما بيّن دون زيادةٍ على ذلك.

إذًا لا يجوز أن يقول إنسانٌ السلام على الله، وجه ذلك: أن الله هو السلام.

وهذا الاسم اسم ثابت لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بنص هذا الحديث، وكذلك ما ثبت في الصحيح من قوله ﷺ: «**اللهم أنت السلام**»، ناهيك عن ما جاء في كتاب الله جَلَّوَعَلَا في آخر الحشر: ﴿**السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ**﴾ **[الحشر:٢٣]**.

فهذا اسمٌ من الأسماء الحسنى الجليلة الثابتة وربنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ومعنى هذا الاسم يرجع إلى أمرين، يتضمن كل واحد منهما شيئين:

المعنى الأول: أن الله عَزَّوَجَلَّ هو المنزه عن كل عيب ونقص.

والمنزه في كماله عن أن يكون له مماثل.

إذًا تنزيه الله جَلَّ وَعَلَا يكون عن أمرين:

عن كل نقصٍ وعيب وجميع ما لا يليق به.

وكذلك ينزه في كماله عن أن يكون له مماثل جلَّ ربنا وعز.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهو السلام على الحقيقة سالم   من كل تمثيلٍ ومن نقصان

فهذا البيت جمع هذين المعنيين ولاشك أن تنزيه الله عَزَّ وَجَلَّ أمرُ واجب على جميع العباد يجب أن ينزه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد أخذنا في دروس الأسماء والصفات ما يتعلق بهذا الباب على وجه التفصيل.

وعلمنا قاعدة أهل السُنة والجماعة وأن التنزيه المجمل يدلُ على عموم كمال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا الاسمُ دالُ على هذا التنزيه المجمل، كما أنَّ نصوصًا كثيرة جاءت بالدلالة على التنزيه المفصل.

والمقصود أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى سلامٌ منزهٌ عن كل ما لا يليق به، فهو جَلَّ وَعَلَا سلام من الصاحبةِ، والولدِ، والمثيلِ، والشريكِ، والمعاون.

سلامٌ في أفعاله عن أن يلحقها كل ما يضادُ الحكمة منه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الله جَلَّ وَعَلَا سلامٌ في صفاته فلا يلحقه نقصٌ وعيب البتة، بل كل صفةٍ من صفات الله جَلَّ وَعَلَا على انفرادها هو فيها سلامٌ من كلِّ ما يضاد كمال معناها.

الله جَلَّ وَعَلَا سلامٌ في حياته من كل ما يضادُ ذلك من سنةٍ أو نومٍ أو موت، هو عَزَّ وَجَلَّ سلامُ في علمه، سلامُ من أن يعزُب عن علمه شيء أو أن يلحقه نسيانًا أو جهل.

هو سلامٌ في قدرته تَبَارَكَ وَتَعَالَى ؛ سلامٌ من كل لغوبٍ أو تعب، هو سلامٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قدرته وقيوميته من أن يلحقه أدنى نقصٍ في ذلك.

سلامٌ في سمعه وبصره من أن يلحقه أدنى ما يضاد ذلك من صمم أو بكم.

سلامٌ في ربوبيته من كل مشاركٍ أو ظهيرٍ أو معينٍ أو شفيعٍ من دون إذنه.

سلامُ في ألوهيته من كل مشارك له في العبادة جلَّ ربنا وعز.

إذًا الله جَلَّ وَعَلَا هو السلام في كل شيء حتى إن كلامه جَلَّ وَعَلَا سلام، سلامٌ من كل تناقض، سلامٌ من الكذب ومن الظلم ﴿وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلًا﴾.

إذًا كل ما يرجعُ إلى الله جَلَّ وَعَلَا ما يرجع إلى ذاته، ما يرجع إلى صفاته، ما يرجع إلى أفعاله هو فيه جلّ ربنا وعز قدوسٌ سلام، **هذا هو المعنى الأول**.

والمعنى الثاني: أنه ذو السلامِ فهو السلام وأنه ذو السلام، وهذا يرجع إلى معنيين

الأول: أنه يُسلم أولياءه.

والثاني: أنه يُسلم على عباده.

الله جَلَّ وَعَلَا يسلم من شاء من أوليائه من أن يلحقهم مكروه إذا شاء سُبْحَانَهُ، كذلك هو الذي يُسَلِّمُ على من يشاء من عباده، فهو يسلم على المرسلين، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾[الصافات:١٨١] في سورة الصافات تجد أن ربنا جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾[الصافات:٧٩]،﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[الصافات:١٠٩]،﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾[الصافات:١٢٠]،﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾[الصافات:١٣٠]،

كذلك الله جَلَّ وَعَلَا يُسَلِّمُ على أهل الجنة: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾[يس:٥٨]، وهو الصحيح من تفسير قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾[الأحزاب:٤٤] الصحيح في هذه الآية أن السلام منه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فهو الذي يُسَلِّمُ على عباده، وليس أنَّ: عباده يسلمون عليه، فهذا ما جاء الدليل على نفيه في هذا الحديث الذي بين أيدينا.

إذًا الله جَلَّ وَعَلَا هو السلام، ومنه السلام يسلم من يشاء، ويسلم على من يشاء.

إذًا هذا ما يرجع إليه معنى اسمه تَبَارَكَ وَتَعَالَى (السلام).

والنبي ﷺ بعد أن بيّن لهم هذا أرشدهم إلى الشيء اللائق الذي ينبغي أن يُقال، فأخبرهم النبي ﷺ إلى المشروع في حقهم في هذا الموضع وهذا ما لم يورده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الحديث اختصارًا قال: «فإذا صلى أحدكم» يعني: صلى حتى وصل إلى موضع التشهد «فليقل التحيات لله والصلوات» إلى آخر التشهد المعروف.

إذًا المقام مقام ثناءٍ على الله عَزَّ وَجَلَّ وليس مقام سلامٍ على الله، الذي يليق بالله عَزَّ وَجَلَّ أن يُثْنَى عليه وليس أن يُسلم عليه، السلام يكون في حق المخلوق، ولذلك المسلم في صلاته يقول: «التحيات الله».

ولاحظ أن "أل" هنا في التحيات للاستغراق، ولاحظ زيادةً في الاستغراق أنه جاء اللفظ مجموعًا ليدل على أن جميع التحيات إنما يستحقها ربنا تَبَارَكَوَتَعَالَى، والتحيات جمع تحية، والتحية تدل: معنى العظمة، والملك، والبقاء، والسلامة من الآفات، جميع هذه المعاني يجمعها قول التحيات لله، فهذه المعاني يستحقها الله عَزَّوَجَلَّ ثابتة له ثبوتًا ذاتيًا، ليس أنه اكتسبها بعد أن لم تكن له- حاشا وكلا- بل هذه أمورٌ ثابتةٌ لله تبارك وتعالى ثبوتًا ذاتيًا.

وأما المخلوق فإنه يُسَلَمُ عليه، ولذلك يُسَلَمُ على النبي ﷺ، أرشدهم النبي ﷺ إلى اللفظ المناسب اللائق بالله جَلَّوَعَلَا وهو الثناء عليه، ثم أن يُعم بالسلام لجميع العباد بعد أن يُخصَّ النبي ﷺ: «**السلام عليك أيها النبي**»، وذلك لعظيم حق النبي ﷺ على جميع المصلين، فإنهم ما صلوا ولا عرفوا الله ولا اهتدوا إلى دين الله إلا من طريق هذا النبي الكريم محمدٍ ﷺ فكان من حقه أن يُسَلَمَ عليه، ثم بعد ذلك يُسَلِمُ المصلي على جميع عباد الله الصالحين، قال ﷺ في الحديث: «**فإنكم إذا قلتم ذلك أصبتم كل عبدٍ صالحٍ في السموات والأرض**».

أصبتم بدعائكم بقولكم: السلام عليكم، النبي ﷺ ما أنكر عليهم السلام على جبريل وعلى ميكائيل أو على الملائكة كلا، إنما أرشدهم إلى ما هو أفضل وما هو أعظم لأجرهِم، وما هو أنفع أثرًا، وهو أن يُعَمَّ في السلام، فإذا قال ا لمسلم: «**السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**» أصابت دعوته كل عبدٍ صالحٍ في السموات والأرض ،كأنه سلم على جبريل، وميكائيل، وإسرافيل وخزنة الجنة، وخزنة النار، كأنه سلَّم على نوحٍ وآدم وإبراهيم وموسى وعيسى، كأنه سلم على حواريي عيسى، وعلى أصحاب موسى ونوح، وعلى أصحاب النبي ﷺ، كأنه سلم على كل الصالحين من الملائكة والإنس والجن.

وهذا من المعاني التي ينبغي أن يستحضرها المصلي إذا صلَّى في صلاته، فهذا من تحقيق الإيمان بهذا الحديث، فالنبي ﷺ أخبرنا أن قول المسلم: (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) يفيد هذه الفائدة العظيمة، وهي أنك تدعوا لكلِ عبدٍ صالح في السموات والأرض فيناله بركة ونفع هذا الدعاء.

إذًا هذا الحديث نستفيد منه فوائد:

[الفائدة الأولى]: ضرورة مراعاة مقام الأدب مع الله جَلَّوَعَلَا، يجب أن يعلم الإنسان أنه عبدٌ وأن ربه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ هو العظيم الذي يستحق كل تعظيم.

إذًا ينبغي إذا تكلم في شيءٍ يتعلق به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في مقام الإخبار، في مقام المناجاة، في مقام الدعاء، في مقام الثناء يجب عليه أن يتخير ألفاظه، وأن يتجنب كل ما يوهم ما لا يليق بالله وعظمته تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، ومن ذلك هذا اللفظُ وأمثاله، وكان من فقه خديجة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا أنها لما سَلَمَ عليها ربنا جَلَّوَعَلَا في الصحيحين: أن جبريل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ جاء إلى النبي ﷺ وأخبره أن خديجة قادمة إليه ومعها طعام، قال: «**فإذا جاءت فأبلغها أو فأقرأ عليها السلام من ربها ومني**».

إلى هذا القدر ما ثبت في الصحيحين، جاء في رواية النسائي في ((السُنن الكبرى)) أنها لما قال لها النبي ﷺ ذلك ولاحظ أدب جبريل مع النبي ﷺ حيث إنه ما سلم عليها مباشرة احترامًا وتأدبًا مع النبي ﷺ، جعل النبي ﷺ واسطةً في تبليغ سلامه هو، فلما قال لها النبي ﷺ ذلك قالت رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: «**هو السلام وعلى جبريل السلام**»، وجاء عند الطبراني في رواية هذا الحديث أنها قالت: «**الله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام**»، عرفت لكل حقه، حق الله عَزَّوَجَلَّ الثناء، وحق جبريل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ الدعاء والتسليم، فلم تخلط بين الأمرين.

وهذا من الفقه العظيم ومن تحقيقِ العبودية والأدب مع الله جَلَّوَعَلَا، وآفةُ كثير من المسلمين اليوم عدم التمييز والفرقان بين المقامين وبين الحقين، بين مقام ربنا جَلَّوَعَلَاومقام خلقه، بين ما يستحقه الخالق وما يستحقه المخلوق.

لله حقٌ لا يكون لغيره ... ولعبده حقٌ هما حقان
لا تجعل الحقين حقًا واحد ... من غير تمييز ولا فرقان

كثير من الناس مع الأسف يخلطون فيجعلون حق الله جَلَّوَعَلَا للمخلوق فيعظمون المخلوق كتعظيم الله، أو يصرفون له نوعًا من العبادة لغير الله، وهذا لاشك أنه آفة عظيمة من خطأ أعظم من هذا، الخطأ وهو عدم التمييز بين الحقين، وعدم التفريق بين المقامين.

المقصود أن هذا كان من فقه خديجة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا وأدبها مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

الفائدة الثانية: أن المشروع للمسلم المبادرة إلى إنكار المنكر إذا وصل إليه، النبي ﷺ لما سمع أصحابه يقولون هذا خلفه نما هذا إلى سمعه عليه الصلاة والسلام، فما انتظر وإنما ألتفت إليهم بعد أن فرغ من صلاته ونهاهم عن هذا المنكر، وقال لا تقولوا: (السلام على الله) وهذا أمر واجبُ وأولى الناس بالعناية به طلاب العلم والدعاة إلى الله جَلَّ وَعَلَا وهذا من تحقيق الولاية بين المسلمين: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[التوبة: ٧١].

ما حقيقة هذه الولاية؟ أول ما ذكر الله ﷻ ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[التوبة: ٧١].

الفائدةُ الثالثة: أن حسن القصد لا يمنع الإنكار، نحن نقطع ونجزم ونعتقد أن أصحاب النبي ﷺ ما دار بخلدهم قط شيء من هذه المعاني التي تلزم من قول "السلام على الله"، أليس كذلك!

وإلا فجزمًا ما كانوا ليقولون هذا اللفظ، لكنهم أرادوا تعظيم الله ﷻ، وأرادوا تحية الله ﷻ لكنهم أخطأوا في اللفظ، إذًا كانوا أهل قصد حسن ونية طيبة، ومع ذلك فإن النبي ﷺ أنكر عليهم ما قال لهم النبي ﷺ بما أن نيتكم طيبة وقصدكم حسن فلا بأس ولا مانع واستمروا على ما أنتم عليه.

إذًا حُسن القصد ما يمنع الإنكار، حُسن القصد ينفع في درء العقوبة والتأثيم بين العبد وبين الله جَلَّ وَعَلَا، لكن كون هذا الفعل منكرًا أو كون هذا اللفظ منكرًا لا يكون ذلك ممنوع الإنكار؛ لأجل أن الفاعل أو القائل أراد أمرًا حسنًا أو قصدًا طيبًا.

الفائدةُ الرابعة: أنَّ المشروع للداعية أن يرشد إلى الخير إذا نهى عن الشر قدر الإمكان، مهما استطعت فاحرص إذا أغلقت بابًا من الشر على الناس أن تفتح لهم بابًا إلى الخير، إذا نهيتهم عن المنكر أرشدهم إلى معروف ما أمكنك إلى هذا سبيلًا، ولذلك النبي ﷺ لما بيّن لهم أن هذا اللفظ الذي كانوا يقولونه وهو «**السلام على الله**» لا يجوز أرشدهم إلى ما يجوز وإلى ما يشرع وهو أن يقول المسلم «**التحيات لله**».

إذًا مهما استطعت ومهما أمكنك أن ترشد الناس إلى الخير بعد أن تنهاهم عن الشر فافعل.

الفائدةُ الخامسة: وهي في معنى قول المسلم: «**السلام عليك، أو السلام عليكم**» إذا حيَّا المسلم أخاه فقال: «**السلام عليكم**»، ماذا يريد؟

هذا الموضع اختَلَفَ فيه العلماء إلى عدة تفسيراتٍ ومعانٍ:

[المعنى] الأول: أنهم قالوا معنى قول المسلم: «**السلام عليكم**» يعني: اسم (السلام) عليكم، اسمه تعالى (السلام) عليكم، يعني: أن بركة ذكر اسم الله تتنزل عليكم، بركة اسم ذكر الله الذي هو (السلام) تتنزل عليكم، وعليه فيكون هذا اللفظُ تبركًا وذكرًا ودعاءً.

المعنى الثاني: أنَّ قول المسلم (السلام عليكم) يتضمن الدعاء، يعني: أدعوا الله أن يسلمكم، كأنه يقول: سلمكم الله، فيكون دعاءً من المسلم لأخيه بأن يسلمه الله، أدعوا السلام أن يسلمكم.

المعنى الثالث: أن يكون إخبارًا، يخبر المسلم أخاهُ بأنه يَسْلَمُ من شره فلا يؤذيه، إخبارٌ يتضمن التطمين، إذا مر الإنسان بأخيه فإنه يخبره بأن هو ليس منه اتجاهَ أخيه إلا السلام، والسلام مصدرٌ بمعنى: السلامة، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾**[الأنعام:١٢٧]**.

والأقرب والله تعالى أعلم في قوله: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ﴾**[الأنعام:١٢٧]** أنها دار السلامة من جميع الآفات، هذا أقرب ما يقال في تفسير الآية.

إذًا إذا قال المسلم: «**السلام عليكم**» يعني يخبر أن أخاه منه في سلامة فلا يناله منه أذى، وبالتالي يجيب أخوه المسلم بذلك، وهذا أقربُ ما يفسر به قول الله جَلَّوَعَلَا في إخباره سبحانه عن قصة الملائكة عن إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ في سورة هود وفي سورة الذاريات: ﴿فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ﴾**[الذاريات:٢٥]** يعني: أنت منا في سلامةٍ فأجابهم بأنه منهم كذلك في سلامة.

والأقرب والله تعالى أعلم أن جميع هذه المعاني يمكن أن تكون صحيحة، وهي جميعًا مما ينبغي أن يلاحظها المسلم ويقصدها عند سلامه على إخوانه.

وثمةَ فوائد عدة:

منها يرجع إلى مسائل فقهية، منها مثلًا: أنَّ كلام الجاهل في الصلاة لا يبطلها، ويدل على هذا أدلة وهو الصحيح من كلام أهل العلم، فها هنا أصحاب النبي ﷺ تكلموا بكلامٍ تبيّن لنا أنه لا يجوز، أليس كذلك؟

لأجل نهي النبي ﷺ كانوا يقولون السلام على الله فنهاهم النبي ﷺ وقال: (لا تقولوا السلام على الله) مع ذلك لم يأمرهم النبي ﷺ بإعادة الصلاة، فدل هذا على أن كلام الجاهل لا يبطل الصلاة.

٧٤

٧٤- باب قول اللهم اغفر لي ان شئت.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بابُ:

قول (اللهم اغفر لي إن شئت).

فلا يزال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوالي تبويب الأبواب التي تنبه المسلم على اجتناب الألفاظ التي تتنافى وتحقيقَ التوحيد.

مرَّ بنا قريبًا النّهي عن قول: السلام على الله، ومرت بنا مباحث من قبل، وسيأتي -إن شاء الله- مباحث أخرى كلُها تحثُ المسلم على ضرورةِ أن يراعيَّ الأدب مع الله جَلَّ وَعَلَا، واجتنابَ كل ما ينافي تحقيق التوحيد، ومن ذلك قول الداعي: اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت، وما إلى هذه الألفاظ، فإنَّ تعليق الدعاء بالمشيئة مما نهى عنه النبي ﷺ وذلك يرجع إلى أمور:

[الأمر الأول]: أن التعليق بالمشيئة يوهم أنَّ الداعي كالمستغني عن ربه، فكأنه يقول: اللهم أعطني إن شئت يعني وإن شئت فلا تعطني فإن الأمر ليس بذاك المهم، ولا شك أن هذا دال على فتور الرغبة، وضَعْفِ الطلب عند السائل، وهذا مما يتنافى وحالَ الاضطرار، والفقر، والإلحاح التي ينبغي أن يكون عليها المسلم في دعائه، فإن الاضطرار روح الدعاء قال: جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[النمل:٦٣].

المسلم إذا دعا ربه ينبغي أن يظهر غاية الحاجة، وتمام الافتقار إلى ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتعليق الدعاء بالمشيئة يشعر بخلاف ذلك.

أما الأمر الثاني: فهو أنَّ تعليق الدعاء بالمشيئة إنما يتأتى في خطاب من يمكن أن يُكْرَهَ على الشيء؛ بمعنى: الخطاب الذي فيه تعليقٌ بالمشيئة يوهم أنَّ المخاطب يمكن أن يأتي بالأمر عن مشيئته، ويمكن أن يأتيَّ بالأمر إكراهًا، فقول الداعي: اللهم اغفر لي إن شئت؛ يوهم أنه يقول: يا رب أنا أسألك ولا أريد أن أكرهك، فإنْ شئت أن تعطيني بإرادة منك ومشيئة وإلا فلا إكراه مني، وهذا ما جاء التنبيه عليه فيما سيمر بنا إن شاء الله، (فإن الله لا مكره له)، والتعليق بالمشيئة يوهم ذلك، فجاء عن النبي ﷺ النهي عن ذلك.

الأمر الثالث: وهو أن التعليق بالمشيئة في الدعاء يوهم أن الداعي يستعظم ما سأل على ربه، فكأنه يهون الأمر ويقول: يا ربي أنا دعوتك، فإن شئت أجب؛ كأنه يسأل سؤالاً بشيء عظيم، فربما لم يشأ الله ﷻ أن يعطيه لأجل أنه عظيم، فهو يهون الأمر ويسهله كمثل إنسان يسأل آخر شيئًا عظيمًا كأنْ يسأله مبلغًا ضخمًا من المال، فهو يُسْهِّلُ الأمر ويهون عليه، ويقول: أعطني إن شئت؛ حتى يسهل عليه الاعتذار إذا لم يعطه، وهذا المحظور هو ما جاء التنبيه عليه في قوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الحديث الذي سيأتي (وليعظم الرغبة؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه)، فلا حاجة لك أن تعلق ذلك بالمشيئة، فمهما سألت ربك، فإن خزائنه سبحانه ملأى، وهو الكريم جلّ في علاه.

الأمر الرابع: هو أنَّ تعليق هذا الدعاء بالمشيئة لا حاجة له بل لا وجه له، فمن المعلوم المتيَقن أن الله تعالى إنما يجيب، وإنما يفعل إذا شاء قال سبحانه: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾[الأنعام:٤١]، فالله يفعل بمشيئته، وعليه فتعليق الدعاء بالمشيئة تحصيل حاصل.

إذًا هذه أوجه أربعة تدلك على أنَّ من المحظور في الدعاء أن يُعلق الإنسان دعائه على المشيئة، وإنما المطلوب من المسلم أن يدعو دعاء يجزم فيه، ويعزم فيه، ويقطع فيه، وبهذا يتحقق إحسان ظنه بربه ﷻ، وهذا الأمرُ مما ينبغي أن يتنبه له، وأن ينبه عليه، فإن كثيرًا من الناس يغفلون عن هذا الأمر ذلك أنهم ربما إذا دعوا علَّقوا دعائهم بالمشيئة تجد أحدهم يقول: الله يجزيك خير إن شاء الله، الله يبارك فيك إن شاء الله، وهذا مما ينبغي أن يجتنب؛ لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة، فإن الله لا مكره له».

ولمسلم: «وليعظم الرغبة؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه».

هذا حديث النبي ﷺ الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه، وقد خرجه صاحباه الصحيحين البخاري ومسلم.

يقول النبي ﷺ ناهيًا نهيًا مؤكدًا قال: «**لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت**» ولا حظ أن هذا الدعاء إنما جاء في هذا الحديث على سبيل التمثيل؛ يعني ليس المنهي عنه التعليق بالمشيئة في سؤال المغفرة أو الرحمة فحسب، إنما كان هذا على سبيل التمثيل.

وبالتالي فكل دعاء يُنهى صاحبه عن أن يعلقه بالمشيئة سواء كان ذلك دعاء بالرحمة، أو دعاء بالمغفرة، أو في غير ذلك، وبيّن النبي ﷺ علتين لهذا النهي:

الأولى في قوله ﷺ: «**وليعزم المسألة؛ فإن الله لا مكره له**».

والثاني في الرواية التي عند مسلم وهي: «**وليعظم الرغبة؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**».

قال ﷺ «**ليعزم المسألة**» نهى النبي ﷺ عن الخطأ ووجه إلى الصواب، وهذا مما ينبغي أن يأتسيَّ به الدعاة إلى الله جَلَّ وَعَلَا المنهيَّ عنه: أن تدعوا وأن تعلق دعائك بالمشيئة، والمطلوبُ أن تدعو دعاء فيه عزمٌ قال: «**ليعزم المسألة**».

والأصل في معنى العزم في اللغة: هو الجد، ومنه أولو العزم من الرسل، والمراد أنه: يدعو دعاء فيه جزمٌ بالسؤال، وفيه قطعٌ بلا ترددٍ، ولا تعليقٍ بالمشيئة، وبهذا كما أسلفت يتحقق إحسان ظنه بربه جَلَّ وَعَلَا، وفي سنن الترمذي بإسناد صحيح أن النبي ﷺ قال: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة**» المطلوب من المسلم أن يدعو دعاء فيه جزم، وفيه إعظام الرغبة في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الرواية الأخرى، قال: «**وليعظم الرغبة**».

تعظيم الرغبة قيل: إنه أن يعظم في مسئوله؛ يعني: في مطلوبه، طلبته ينبغي أن تكون عظيمة، فلا يستثقل الإكثار، ولا يستصعب شيئًا يدعوا به الله جَلَّ وَعَلَا، فإنك مهما أكثرت فما عند الله أكثر، ومهما طلبت فإن خزائن الله ملئ، ويده سبحانه سحاء الليل والنهار ينفق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بجوده، وكرمه جَلَّ وَعَلَا، فلا يتعاظم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شيء أعطاه فالمطلوب أن يسأل

الإنسان، ولْيُكثر من سؤاله، وليعظم مسئوله ومطلوبه من ربه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ولا يقتصر أو يتخوف من أن يكون سأل شيئًا عظيمًا، كلا.

بل إحسان ظنك بربك جَلَّوَعَلَا، ورغبتك فيما عنده تكون بأن تعظم المطلوب من الله جَلَّوَعَلَا.

أرأيت لو أن إنسانًا بذل الأسباب حتى وقف أمام ملك من ملوك الدنيا، فقال له سل ما حاجتك؟ فسأله أن يعطيه قرشًا واحدًا، فما ظنكم بهذا الرجل؟ أليس سؤاله هذا دليلاً على سخف عقله؟ وألا يستحق المقت من الملك ومن الحاضرين؟ أنت تأتي إلى ملك، ثم تسأله قرشًا واحدًا؟ كان ينبغي عليك أن تسأل سؤالاً يليق بحال المسئول؟ فكيف إذا كان السؤال موجهًا إلى ملك الملوك إلى أكرم الأكرمين سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إلى الذي لا يتعاظمه شيء سبحانه، إلى الذي قال كما في الحديث القدسي المخرج عند مسلم، وقد مر بنا في عدة مواضع، وهذا حديث عظيم بل هو كتاب في الاعتقاد، قال ﷺ فيما يرويه عن ربه جَلَّوَعَلَا: «**يا عبادي لو أن أولكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم وقفوا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل واحد منكم مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئًا إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر**» المخيط الإبرة مادتها صقيلة، ولذلك لا يكاد أن يتعلق بها شيء من الماء، هذا مثال تقريبي على أن ما ينفقه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وما يسبغ به من النعم على عباده لا يُنْقِصُ شيئًا من خزائنه الملأى تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

ولذلك ادعُ ربك، وأكثر من الدعاء، وسل ما شئت، فإن الله تعالى هو الكريم الجواد الذي لا يرد من سأله تبارك وتعالى، والسائل فائز بكل حال ذلك أن نتيجة الدعاء واحدة من ثلاثة أشياء:

١/إما أن يجيبك الله عَزَّوَجَلَّ إلى سؤلك.

٢/ وإما أن يدخر لك ذلك إلى يوم تلقاه.

٣/ وإما أن يدفع عنك من الشر بمقدار ما سألت.

إذًا أنت حصلت الخير في سؤالك، ودعائك بكل حال.

هذا أحد وجهي التفسير عند أهل العلم لقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وليعظم الرغبة**».

والمعنى الآخر الذي ذكر هو: أن الرغبة هي الحرص والإلحاح، يعني ليكن دعاؤك ذا حرص عظيم، وذا إلحاح، وذا قطع، وجزم، وهذا المعنى صحيح لكن الأقرب إلى الدلالة عليه هو قوله ﷺ: «**ليعزم المسألة**».

أما المعنى الأول فهو المناسب، أو هو الأقرب أو هو الأنسب لقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وليعظم الرغبة**»، لأنه قال بعد ذلك: «**فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**».

إذًا الخلاصة التي نستفيدها من هذا الباب هو أن من الأمر المحظور الذي ينبغي أن يجتنبه المسلم أن يعلق دعائه بالمشيئة، وهذا ما دل عليه هذا الحديث الذي بين أيدينا، وظاهره التحريم؛ يعني: يحرم على المسلم أن يعلق الدعاء بالمشيئة، وهذا ما اختاره غير واحد من أهل العلم كابن عبد البر وغيره من العلماء.

وذهبت طائفة من أهل العلم إلى أن النهي ها هنا على سبيل الكراهة قالوا:

دليلنا على ذلك أن هذا النهي قد ورد عليه صارف، ومعلومٌ أن النهي إذا ورد عليه صارف، فإنه يُحمل على ما دل عليه هذا الصارف، قالوا: والصارف الذي صرف هذا النهي عن التحريم ما جاء في دعاء الاستخارة الذي رواه جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن النبي ﷺ وأخرجه الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في ((صحيحه))، وفي هذا الدعاء أن النبي ﷺ قال: «**اللهم إن كنت تعلم أن في هذا الأمر خيرًا لي في ديني، ومعاشي، وعاقبة أمري، أو قال: في عاجل أمري وآجله، فيسره لي وأقدره لي ثم بارك لي فيه**».

الشاهد أنه علق الدعاء ها هنا بالعلم، فقال: (إن كنت تعلم)، فدل هذا على جواز تعليق الدعاء بالمشيئة، فيكون النهي في الحديث الذي بين أيدينا مصروفًا إلى الكراهة، وهذا ما اختاره النووي، وتابعه عليه ابن حجر، وغيرهما من أهل العلم.

والذي يظهر والله تعالى أعلم أن هذا الاستدلال فيه نظر، وأنَّ هذا الحديث لا يردُ على الحديث الذي بين أيدينا، وذلك أن حديث الاستخارة فيه التعليق بالعلم، والذي بين أيدينا فيه التعليق بالمشيئة، وشتان ما بين الأمرين.

المسلم يعلق دعائه في دعاء الاستخارة على علم الله جَلَّ وَعَلَا؛ لأنه لا يدري هل الخير فيما يرغب، وما هو مقبل عليه أم لا؟

ولأجل هذا فإنه علق ذلك بعلم العليم ﷻ، فهو الذي يعلم إن كان في هذا الأمر خير أو ليس فيه خير، فشتان بين هذا وبين هذا.

الخلاصة: أن هذا الحديث الذي بين أيدينا في شيء، وحديث الاستخارة في شيء آخر، حديث الاستخارة تعليق على العلم، والتعليق على العلم لا يتأتى فيه شيء من تلك العلل التي مرت معنا.

قد يقول قائل وماذا أنت قائل؟ فيما جاء في ((صحيح البخاري)) أيضًا من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ كان إذا عاد مريضًا قال: **«لا بأس طهور إن شاء الله»** قالوا هذا أيضًا تعليق بالمشيئة.

والجواب: أن هذا أن يقال أصح ما يفسر به هذا الحديث أن ما في هذا الحديث إخبار على سبيل التفاؤل والبشارة، ليس من قبيل الدعاء إنما هو من قبيل الإخبار على سبيل التفاؤل، والبشارة يعني هذا الذي يقوله عائد المريض إخبار، يقول: أرجو أن يكون هذا الذي أنت فيه يؤول إلى أن يكون طهورًا لك، يطهرك الله ﷻ، يجعله كفارة تتطهر بها من الذنوب والمعاصي.

إذًا هو إخبار عن أمر مستقبلي على سبيل التفاؤل، والبشارة يستبشر بأن يكون هذا سببًا لتكفير سيئاتك، ولكي تتطهر من ذنوبك، وهذا تعليقه بالمشيئة لا بأس به.

والأصل أنَّ التعليق بالمشيئة فيه أحوال وتفصيل تارة يكون أمرًا حسنًا، وتارة يكون أمرًا قبيحًا.

يكون أمرًا قبيحًا في حال الدعاء -كما في الحديث الذي بين أيدينا-، وهو أن يدعو الإنسان فيعلق دعائه بالمشيئة.

كذلك أيضًا في شأن الأمور التي وقعت وحصلت فإن طائفة من الناس وهذا كان من طريقة بعض أهل البدع أنهم يعلقون كل شيء على سبيل المشيئة، فيقول: "أكلت إن شاء الله"، "زرت فلانًا إن شاء الله"، وهذا في الحقيقة لا وجه له؛ لأننا نعلم أن الله قد شاء، فالأمر أصبحَ معلومًا عندنا أن الله قد شاء هذا الأمر، وما الدليلُ على ذلك؟

كونه وقع، فكل شيء وقع، فإنه لم يقع إلا لأن الله شاءه.

وبالتالي فتعليق هذا الأمر الذي قد وقع، وانقضى بالمشيئة أمر لا وجه له كأن شيئًا آخر سيكون متعلقًا بالمشيئة هذا لا وجه له ولا محل له.

ولا ينبغي للمسلم أنه يخبر عن الأمور الواقعة الحاصلة بإخبار يعلقه بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأن الأمر قد شاءه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وانقضى فلماذا هذا التعليق؟

أما عند الإخبار عن الأمور المستقبلة، فإنه يحسن التعليق بالمشيئة، وهذا ما فُسِّر به قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ **[الكهف: ٢٤-٢٣]**، فإذا كنت تريد فعل شيء، أو تتوقع حصول شيء، فإنك تعلقه بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذًا هذا الذي بين أيدينا في هذا الحديث، وهذا الذي أفدناه من هذا الباب، وهذا الموضع مناسب أن ننبه فيه الإنسان على آداب الدعاء، فإن دعاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له آداب، وقد مر بنا في أعطاف الدروس الماضية الإشارة إلى شيء من ذلك، ومعلوم عند كل مسلم أهمية الدعاء، وشأنه العظيم، فالدعاء لب العبادة، الدعاء هو العبادة، الدعاء أكرم شيء على الله عَزَّوَجَلَّ، الدعاء عبادة تظهرُ فيها أنواع من العبوديات؛ كالرغبة والرهبة، الرجاء والخوف، الثقة والتوكل، تحقيق توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

إذًا إذا كان هذا حال الدعاء إذًا ينبغي على الإنسان أن يحرص عليه، وأن يُكْثِّرَ منه، وأن يراعي آداب الدعاء.

والآداب تنقسم إلى:

آداب عدمية.

وإلى آداب ثبوتية.

الآداب العدمية هي: ما ينبغي أن يجتنبه الإنسان في دعائه، وأعظم ذلك:

أن يجتنب الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذا أهم الآداب، وأعظم الواجبات في الدعاء، وهو اجتناب الشرك في الدعاء، فيكون دعاؤه خالصًا لله جَلَّ وَعَلَا يدعو الله لا غير، أما دعاء غيره، أما سؤال الأموات أو المقبورين، فإن هذا هو الجرم الأعظم.

ودعوة الأموات تبطل العمل   وتسلخ الإيمان خاب من فعل

أيضًا من الآداب العدمية: ألا يعتدي الإنسان في دعائه، فهذا مما نهت عنه الشريعة، والاعتداء في الدعاء هو: أن يسأل الإنسان ما لا يليق به قدرًا، أو شرعًا؛ بأن يسأل الإنسان

أن يكون نبيًا، أو يسأل أن يؤتيه الله ملكًا لا ينبغي لأحد من الناس أو ما شاكل ذلك هذا كله من الاعتداء الذي لا ينبغي أن يفعله الإنسان في دعاءه.

ومن آداب الدعاء الثبوتية أن يحرص الإنسان على أن يتوسل إلى الله ﷻ في دعائه بالتوسل المشروع الذي تكون الإجابة معه أقرب، ومن ذلك وهو أعظم ما يكون من أنواع التوسل: التوسل إلى الله جَلَّوَعَلَا بأسمائه وصفاته، ومن المطلوب من المسلم أن يراعي في هذا المقام أن يتوسل بالاسم الذي يناسب المقام الذي يدعو لأجله هذا الداعي، ومن ذلك أيضًا أن يتوسل إلى الله ﷻ بافتقاره إليه، وحاجته إليه، وكذلك بإيمانه وعمله الصالح: ﴿**رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾**[آل عمران:٥٣]**.

كذلك من آداب الدعاء الثبوتية: أن يحرص الإنسان أن يقدم ما بين يديه دعائه الثناء والتعظيم لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، كذلك الصلاة على النبي ﷺ فالدعاء معلق بين السماء والأرض حتى يصلى على النبي ﷺ.

ومن آداب الدعاء أيضًا: أن يحرص على اقتناص الفرص التي يكون فيها الدعاء مجابًا فيما أخبرنا به النبي ﷺ، يحرص على أن يدعو في الوقت الذي يكون الدعاء فيه مجابًا، أو في مكان الذي كان النبي ﷺ يدعو فيه، فإن هذا أدّعى، وأحرى، وأقرب للإجابة.

وبمناسبة قرب الحج، فيحسُن التنبيه على المواضع التي كان النبي ﷺ يدعو فيها، يعني من السنة أن تحرص على الدعاء في هذه المواضع، وهذه المواضع في الحج ستة مواضع:

أولاً: في عرفة يوم عرفة، فخير الدعاء دعاء يوم عرفة.

ثانيًا: في المزدلفة ليلة المزدلفة، يعني في ليلة العيد.

وثالثًا: على الصفا.

ورابعًا: على المروة.

وخامسًا: بعد الجمرة الصغرى في أيام التشريق.

وسادسًا: بعد الجمرة الوسطى في أيام التشريق.

*بعد الجمرة الكبرى في أيام التشريق، هذه ما ثبت عن النبي ﷺ أنه دعا عندها، والمطلوب من المسلم أن يفعل كما فعل ﷺ: «**خذوا عني مناسككم**».

إذًا هذه من المواضع التي ينبغي أن يحرص المسلم على أن يصيب من فضل الله عَزَّوَجَلَّ فيها ولا يعجل؛ يعني: يعجبُ الإنسان من الشخص الذي يتعنى ويتكلف فيأتي إلى الحج، ولكنَّه مع الأسف تجده دائمًا يلهث، دائمًا تجده مسرعًا كأن شيئًا يلاحقه، لا يتأنى ولا يتروى ولا يعطي كل عبادة حقها مما ورد في سنة النبي ﷺ، وهذا في الحقيقة مما يعجب الإنسان له!

بما أنك أتيت، ورُمّتَ التعرض بفضل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بأداء هذه العبادة الجديدة، فالذي ينبغي أن تحرص عليه هو أن تؤديَّ الحج قدر الإمكان على وجه الكمال بالقدر الذي يُمَكِنُك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى منه.

اعطِ كل أمر حقه لا تعجل سيما في دعاء الله تَبَارَكَوَتَعَالَى، فذكر الله ودعاؤه هذا مقصود أعظم في الحج، «**إنما جعل الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار لإقامة ذكر الله**» كما قال النبي ﷺ.

فلا ينبغي أن تخليَّ لسانك من الذكر، والدعاء في كل وقت، وفي كل حين، ولا سيما في المواضع التي جاء فيها النَّصُ عن رسول الله ﷺ قولاً، أو فعلاً، ولا سيما وأنت مسافر، والمسافر مجاب الدعاء، ولا سيما وأنت حاج، وقد جاء عند ابن ماجة، وغيره أنَّ النبي ﷺ قال: «**والحجاج والعمار وفد الله إن دعوه أجابهم، وإن سألوه أعطاهم**» -نسأل الله عَزَّوَجَلَّ من فضله-.

فائدة أخيرة: وهي أن بعض الناس قد يقول: أنا إذا دعوت فقلت إن شاء الله لا أقصد شيئًا من تلك الأشياء التي ذكرتها، فهل ينبغي عليّ أن اجتنب التعليق بالمشيئة، وأنا غير قاصد؟ ما رأيكم؟

مر بنا غير مرة التنبيه على هذا، ومن ذلك -ما كان في درس أمس-، وهو أن حسن القصد لا يمنع الإنكار، الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ لما قالوا: «السلام على الله من عباده» في التشهد -كما مر بنا أمس- أتظنون أنهم كانوا يقصُدون شيئًا من تلك المفاسد المترتبة على هذا القول؟ الجواب: لا كان قصدهم حسنًا. ما أجابوا النبي ﷺ لما قال لهم: (لا تقولوا السلام على الله من عباده) ما قالوا يا رسول الله ولكنَّ قصدنا حسن، ولا أجابهم النبي ﷺ بما أن قصدكم حسن فلا بأس، وأبقوا على ما أنتم عليه.

إذًا نستفيد من هذا قاعدة مهمة معناها جملة من الأحاديث، وهي: **أن اجتناب اللفظ الموهم مطلوبٌ ولو لم يقصده المسلم**؛ يعني: لو لم يقصد المسلم هذا المعنى السيئ بما أن اللفظ موهمٌ، فينبغي اجتنابه.

٧٥

٧٥- بابٌ: لا يقول عبدي وأمتي، وباب: لا يُرد من سأل بالله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب: لا يقول عبدي وأمتي.

فهذا الباب أيضاً يحثُ فيه المؤلف على تحقيق التوحيد؛ وذلك لتركِ استعمال هذا اللفظ الذي هو: **عبدي وأمتي**، وكذلك ما سيأتي التنصيص عليه في الحديث، وكل ذلك مما ينبغي أن يراعيه الموحد حتى يكمل توحيده، فلا يقول: **عبدي وأمتي**.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ

في الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: « لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضىء ربك، وليقل: سيدي ومولاي ...

هذا هو التوجيه الأول في الحديث، ولقد اشتمل على توجيهين:

الأول: نهيه ﷺ أن يقول الإنسان: **«أطعم ربك، وضئ ربك»**، ورواية في الصحيحين فيها زيادة جملة ثالثة وهي: **«اسق ربك»**.

نهى عن هذا النبي وأرشد بعد ذلك إلى الجائز، لما بيّن الممنوع بيّن المسموح به، وهو: أن يقول سيدي، ومولاي.

وقوله ﷺ: **«لا يقولن أحدكم أطعم ربك»**، يعني: أن يقول الإنسان لرقيق غيره: أطعم ربك يعني أطعم سيدك، وقد يجوز أن يكون المراد: أن يقول السيد معظماً نفسه متعاليا مخبراً عن نفسه بأسلوب الغائب، فيقول: أطعم ربك، يريد نفسه، هذا وهذا محتمل.

ويفيد ذلك النهي عن أن يقول الإنسان عن نفسه إنه: رب فلان؛ يعني سيد العبد الرقيق، أو أن يقول غيره عنه، مخاطباً هذا الرقيق بأن يتناول شيئاً مما يحتاجه سيده.

ولاحظ أيضا أن الأسلوب اختلف في الجملة الثانية، قال: **«وليقل سيدي ومولاي»**، أصبح الكلام الآن للعبد؛ لنفس الرقيق.

قال العلماء وهذا يدل من طريق الأولى على أن العبد منهي عن أن يقول ربي، وهذا ما جاء به مصرحاً في رواية مسلم: **«ولا يقل ربي، وليقل سيدي ومولاي»**.

إذن المنهي عنه ثلاثة:

١/السيد ونفسه.

٢/أو غيره.

٣/أو العبد الرقيق.

كل أولئك جاء النهي من لدن رسول الله ﷺ عن أن يستعملوا لفظ (الرب) مضافًا إلى السيد، وهذا يجرنا إلى حكم استعمال لفظ (الربّ) في حق المخلوق، وهذا المقام فيه تفصيل:

أولًا: أن تكون كلمة الرب محلاة بـأل (**الرب**) هكذا بالإطلاق، فهذا اللفظ لا يجوز أن يطلق إلا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فالله ﷻ هو الرب، ويدل على هذا ما في صحيح مسلم من قوله ﷺ: «**أما الركوع فعظموا فيه الرب**»، وكلمة (الرب) بالألف واللام لم تأتِ في القران، لكن جاءت في سنة النبي ﷺ في هذا الحديث.

إذاً هذه هي الحالة الأولى أن تكون كلمة (الرب) محلاةً بـأل بإطلاق هكذا (الرب) فهذه لا تجوز أن تقال إلا في حق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ثانيًا: أن تضاف كلمة (**الرب**) إلى ما لا يعقل، مثل: المتاع، والدابة.

هذه الصورة لا حرج في إطلاقها على المخلوق، بأن يقول قائلٌ: فلانٌ رب هذا المتاع، أو فلان رب الناقة.

ودل على هذا قوله ﷺ الثابت في ((الصحيح))، في شأن ضالة الإبل، لما سُئِل عنها عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، حديث في الصحيحين، قال: «**ما لك ولها معها حذائها وسقائها، ترد الماء، وترعى الشجر حتى يلقاها ربها**» يعني: سيدها ومالكها.

فدل هذا على أن إضافة كلمة الرب إلى ما لا يعقل من المخلوقين جائزة.

ثالثًا: أن تضاف كلمة الرب إلى من يعقل، أي إلى الناس، دون أن تكون محلاة بأل، فهل يجوز أن يقول إنسان فلان رب فلان، أي سيده أو مالكه، أم لا؟

بين أيدينا هذا الحديث الذي فيه نهيه ﷺ ، وهو حديث صحيح ثابت في الصحيحين: «**لا يقل أحدكم أطعم ربك**»، إذن هذا نهي منه ﷺ.

ولكن قد يستشكل معه ما جاء في كتاب الله في قصة يوسف عَلَيْهِٱلسَّلَامُحيث أنه قال للذي ظن أنه ناجٍ منهما، يعني: من الفتيين اللذين كانا معه في السجن قال: ﴿ **اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ** ﴾[يوسف:٤٢]، يعني: سيدك أي الملك، كذلك ما جاء بعد ذلك: ﴿ **قَالَ**

ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾[يوسف:٥٠]، يعني: إلى سيدك، فكيف يمكن أن نجمع بين الدليلين الحديث والآية؟

قال بعض أهل العلم: إن هذه الآية صارفةٌ للنهي الوارد في الحديث، عن التحريم إلى الكراهة، فيجوز أن يقول إنسان عن رقيق "إنَّ فلانًا ربه"، أو "خذ كذا لربك"، وما شاكل ذلك ولكنَّ هذا اللفظ مكروه؛ للنهي الوارد في ذلك، فيكون هذا الحديث دالاً على الكراهة التنزيهية.

وقال بعض أهل العلم: إن هذا اللفظ كان جائزًا في شرع من قبلنا في شريعة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو نبيٌ ورسولٌ كريم كان يجوز ذلك لكنَّ شرعنا أتى بالنهي عنه، فيكون هذا من شرع من قبلنا، والقاعدة: أن شرع من قبلنا إذا جاء النهي عنه في شرعنا لا يكون شرعا لنا، وبالتالي: فيكون هذا مما حُرم في الشريعة كما حرمت أشياء عدة في هذه الشريعة؛ سداً لذريعة الشرك، ومن تتبع ما جاء في هذا الشريعة وقارنها بما وصل إلينا علمه من الشرائع السابقة علم يقينا أنَّ شريعة النبي قد حذرت من ذرائع الشرك أكثر مما كان في الشرائع السابقة.

هذا الجواب فيه من القوة ما فيه واختاره جمع من أهل العلم ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره، لكنَّ الإشكال فيما يظهر باقٍ، وذلك أنه إذا أمكن أن يقال هذا في حق هذه الآية، فماذا يُقال فيما ثبت في الصحيحين في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة مجيء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى النبي ﷺ حيث أنه لما سئل عن علامات الساعة قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**قال: أن تلد الأمة ربها**»، أو قال: «**إذا رأيت الأمة تلد ربها**»، هكذا جاءت الرواية في الصحيحين من رواية أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والرواية مشهورة في حديث مسلم عن رواية عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**أن تلد الأمة ربتها**».

وهذا يستشكل أيضا، ولكن الاستشكال هنا أخف؛ لأن التأنيث في قوله: «**ربتها**» قد يُقال إنه يزول معه الالتباس، فإن الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يجوز أن يظن فيه ذلك، ولا يقال في حقه ذلك، أعني أن يكون الكلام بصيغة التأنيث فالالتباس ها هنا غير ظاهر، لكن الرواية الأخرى وهي كما ترى في الصحيحين قال: «**أن تلد الأمة ربها**»، أو «**إذا رأيت الأمة تلد ربها**» فهذا لفظ صريح في إطلاق كلمة (الرب) على: العبد.

قال بعض أهل العلم: يمكن أن يُجمع بين هذا وذاك أن المنهي عنه هو الإكثار من استعمال هذا اللفظ في حق السيد، أما إذا كان ذلك على ندرة فإنه يجوز، أخذاً فيما ثبت في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهذا فيه ما فيه فإن المقام مقام نهي، فما هو الضابط الذي يضبط الكثرة من القلة أو الندرة!

ومهما يكن من شيء فالذي ظهر والله أعلم، أن ما جاء في هذا الحديث من النهي عن استعمال كلمة (الرب) في حق السيد، أن النهي في ذلك للكراهة، وهذا ما ذهب إليه جمهور أهل العلم، بل حكى بعضهم الإجماع عليه.

وقول من قال: إنه يُفَرَقُ بين أسلوب الخطاب وأسلوب الغيَّبَة، فيه فيما يبدو لي ما فيه؛ وذلك أنه إذا كان النهي راجعًا في سد ذريعة الشرك، فلا يظهر لي والله أعلم فرقٌ بين أسلوب الخطاب «**ربَّكَ**» وبين أسلوب الغيبة: «**أن تلد الأمة ربها**»، إذا كان هذا موهماً لمعنى لا يجوز فذلك لا يجوز، فذلك أيضا موهماً لمعنى لا يجوز، والله تعالى أعلم.

قال ﷺ: «وليقل سيدي ومولاي»

يعني: الرقيق ينبغي أن يستبدل كلمة (ربي) بكلمة: سيدي ومولاي.

وها هنا بحثٌ في إطلاق كلمة السيد على المخلوق، فالصحيح الذي لا شك فيه أنه يجوز أن يُطلق على المخلوق إنه: سيد، ويدل على هذا الكتاب والسنه في أدلة عدة:

فقال تعالى عن يحى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾**[آل عمران:٣٩]**، وقال تعالى أيضًا في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾**[يوسف:٢٥]**.

كذلك قال النبي ﷺ عن نفسه: «**إنه سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر**»،

كذلك قال ﷺ عن أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**أنهما سيدا كهول أهل الجنة**»،

كذلك قال عن الحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**أنهما سيدا شباب أهل الجنة**»،

كذلك قال النبي ﷺ في حق سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سيد الأوس: «**قوموا إلى سيدكم**»،

كذلك قال النبي ﷺ في حق سعد بن عباده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سيد الخزرج: «**ألا تسمعون إلى ما يقول سيدكم**».

كذلك قال ﷺ لبني سلمة: «**من سيدكم؟**».

هذه نصوص كثيرة، وغيرها كثير أيضا دالة على جواز أن يُقال في حق المخلوق أنه سيد، ولكن ذلك مشروطٌ بأمرين:

أولاً: ألا يكون الذي قيل في حقه هذا اللفظ فاسقًا.

يدل على هذا ما أخرجه الإمام البخاري في كتابه ((الأدب المفرد)) بإسناد صحيح، أن النبي ﷺ قال: «**لا تقولوا للمنافق سيد، فإنه إن يك سيداً فقد أغضبتم ربكم**»، وجاء عند الإمام أحمد بسند صحيح، قال: «**لا تقولوا للفاسق سيدَنا أو سيدُنا، فإنه إن يك سيدكم فقد أغضبتم ربكم**».

ثانياً: ألا يكون اللفظ مشعرًا بشيء من الغلو.

إذا كان السياق دالاً على شيء من الغلو في هذا الذي قيل في حقة إنه: سيد فينبغي أن يمنع ذلك، دل على هذا ما ثبت عند أبي داود، وأحمد بأسناد صحيح، من حديث عبد الله بن شخّير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن بني عامر لما جاءوا إلى النبي في عام الوفود، قالوا أنت سيدنا، فقال النبي: «**السيد الله**».

بعض أهل العلم أخذ من هذا الحديث النهيَّ عن إطلاق السيد على غير الله، قالوا: هذا الحديثُ ناسخٌ للأدلة التي أباحت إطلاق كلمة السيد على المخلوق لما؟ لأنه حديث متأخر فإنه كان في عام الوفود في السنة التاسعة للهجرة، فيكون متأخراً ناسخاً للأدلة التي دلت على الجواز.

لكنَّ هذا الاستدلال غير صحيح؛ وذلك لأن شرط ثبوت النسخ معرفة التاريخ، وما الذي يُدري هذا القائل لعلَّ بعض تلك النصوص كان بعد السنة التاسعة، فثمة مدةٌ طويلة يمكن أن يكون قد قال فيها النبي ﷺ شيئًا من تلك الأحاديث .

إذن القول بالنسخ حينئذ غير صحيح.

والصواب في توجيه الحديث، أنَّ النبي لاحْظَ في هذا الكلام شيئاً من الغلو.

يدل على هذا ما جاء عند النسائي في ((الكبرى))، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن هؤلاء قالوا: «**يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا. فقال النبي: قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان**».

تلاحظ أن النبي ﷺ حسم الباب وسد الذريعة؛ لأن اللفظ كان فيه إشعار بشيء من المبالغة في المدح، فالمقام مقام تقتضي المصلحة فيه ذلك، إذْ العام عام وفود، وكثير من الذين حضروا على النبي في هذا العام كانوا حدثاء عهد بالإسلام، فكان من المصلحة أن ينهى النبي عن المبالغة في مدحه؛ سداً لذريعة الشرك.

ويؤيد هذا أنَّ حديث أنس رضي الله عنه فيه أنهم قالوا: «**يا خيرنا وابن خيرنا**» وهذا اللفظ ليس مما ينهى عنه، لا بأس أن يقول إنسان لآخر: إنك خيرنا، لكن المنهي عنه هو المبالغة في المدح؛ ولذلك نبه النبي ﷺ هذا التنبيه.

إذن الصحيح الذي لا شك فيه، أنه يجوز إطلاق لفظ السيد على المخلوق، بالشرطين السابقين.

قال ﷺ: «**وليقل سيدي ومولاي**».

المولى: كلمة جاءت في النصوص، ولغة العرب على معانٍ كثيرة، أوصلها ابن الأثير في كتابه ((النهاية)) إلى ستة عشر معنى، منها:

أنها تطلق على الرب.

ومنها أنها تطلق على السيد.

ومنها أنها تطلق على المالك.

والناصر.

والأخ.

والمعتِق.

والمعتَق. إلى آخر ما ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وينبغي أن تُنزَل هذه الكلمة في كل سياق بحسبه، وبالتالي نستفيد أنه يجوز إطلاق لفظ المولى على المخلوق، ولاحظ- يا رعاك الله- أن هذا الإطلاق جائز ما لم يكن في اللفظ ما يُشعر أن المولى ها هنا ليس المولى المطلق الذي يستحق هذا اللفظ بكماله، فهذا لا يكون إلا في حق الله عز وجل.

قال عز وجل: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ**﴾[التحريم:٤].كذلك في صحيح البخاري في قصة أحد، لما قال أبو سفيان -وكان كافراً- قال: «**اعلُ هبل، قال ﷺ: الله أعلى وأجل**»،

أمرهم النبي ﷺ أن يجيبوه بذلك، «**ثم قال: لنا العزى، ولا عزى لكم. فأمرهم النبي أن يجيبوه بقولهم: الله مولانا ولا مولى لكم**».

إذن المولى بالإطلاق على ما يقتضيه اللفظ من التمام والكمال، لا يطلق إلا في حق الله ﷻ.

أما إذا لم يكن الأمر على هذا السياق، فإنه يجوز أن يطلق على المخلوق، وأدلة هذا لا تكاد تحصى.

بقيَّ التنبيه: على أنه جاء لفظ في هذا الحديث، عند الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رواية انفرد بها عن البخاري، قال: «**ولا يقل مولاي فإن مولاكم الله**».

هذا اللفظ يخالفُ الحديث الذي بين أيدينا مما اتفق عليه الشيخان، ذلك أن ما اتفق عليه الشيخان فيه الحث على استبدال كلمة (ربِّ) بكلمة: سيدي ومولاي، والحديث دليل على جواز إطلاق كلمة (المولى) على المخلوق، وهذا اللفظ يعارض ذلك، قال: «**ولا يقل مولاي فإنَّ الله مولاكم**».

والصحيحُ: أن هذا اللفظ شاذ اختُلف فيه على الأعمش رَحِمَهُ ٱللَّهُ والصحيح أن إقحام هذا اللفظ غلط، الصحيح عدم ثبوت هذا اللفظ في حديث النبي ﷺ هذا مما ينبغي أن يُنبه عليه.

كذلك جاء في روايةٍ عند مسلم تنبيهٌ على ما يتعلق بالعلة التي لأجلها يكره استعمال كلمة (ربِّ) في حق الرقيق أو حق العبد ؛ وذلك أن هذا اللفظ الذي نهى عنه النبي «**أطعم ربك، أسقي ربك**» فيه شيء من التطاول، وفيه شيءٌ التعالي، وفيه شيء من الإذلال لهذا الرقيق.

ولهذا بوّب البخاري في ((صحيحه)) على هذا الحديث، في إحدى رواياته، أورد الحديث تحت باب: «التطاول على الرقيق» فدل هذا على أن التطاول والتعالي على عباد الله حتى لو كان رقيقا، من الخلق المذموم الذي نهى عنه شرعنا الحنيف، والله أعلم.

قال ﷺ: «ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي، وليقل فتاي وفتاتي وغلامي»

هذا الشطر الثاني من الحديث، وفيه نهيه ﷺ على أن يقول الإنسان في حق رقيقه (عبدي)، أو إذا كانت أنثى (أمتي)، وأرشد إلى استعمال اللفظ الجائز، وهو أن يقول: فتاي، أو فتاتي، أو غلامي.

وجاء تعليل ذلك في رواية عن مسلم فيها زيادة من كلامه ﷺ ، وهو قوله: «**فإنكم كلكم عبيد الله وإناثكم إماء الله**»، فهذا اللفظ مُشْعِرٌ بتعالٍ وتطاولٍ على المخلوق، وفيه أيضا ما فيه من ذريعة الوقوع في الشرك.

والذي يظهر أن هذا اللفظ أيضًا فيه تفصيل فإن الله قال في كتابه: ﴿**وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ**﴾[النور:٣٢]، كذلك قال ﷺ كما في الصحيح «**ليس على المسلم في عبده وفرسه صدقة**»، فدل هذا على أن تكلُّمَ الإنسان بلفظ العبد مضافًا إليه يقول: «**عبدي**» أن هذا مما يُنْهَى عنه.

أما إذا كان بلفظ الغيبة أو بلفظ الخطاب، دون أن يكون بلفظ المتكلم الذي يعود فيه الضمير بالعبودية إليه؛ يعني: في عبودية هذا الرقيق إليه، فالذي يظهر والله أعلم أن هذا جائز، إذا كان السياق غيرَ مشعرٍ بالعبودية التي هي ذلٌّ وخضوع، وإنما السياق يدل على عبودية الرق، فهذا يجوز أخذاً بقوله تعالى: ﴿**عِبَادِكُمْ**﴾[النور:٣٢]، وقول الرسول: «**عبده**»، والله أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بابٌ: لا يرد من سأل بالله

هذا باب أيضاً ساقه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ للحث على تحقيق التوحيد، وتعظيم الله، ومراعاة الأدب معه، فمن ذلك ألا يُردَّ من سأل بالله، كما سيأتي معنا في هذا الحديث، والحديث فيه توجيهات أربعة نأخذها واحدةً واحدة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «من استعاذ بالله فأعيذوه».

هذا هو التوجيه الأول، والحديث حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عند النسائي، وأحمد وغيرهما بإسناد صحيح، جاء التوجيه الأول بأمر منه ﷺ ، وهو: أن من استعاذ بالله فأعيذوه.

الاستعاذة: هي طلب العوذ، أو طلب العياذ.

فمن استعاذ بالله عَزَّ وَجَلَّ، فإنه يجب أن يُعاذ؛ إذا قال إنسانٌ لآخر: أعوذ بالله منك، أو أعوذ بالله أن تفعل لي كذا وكذا إذا أراد أن يُهمَّ به أو أن يبطش به فإن يجب حينئذٍ أن يُعاذ؛ وذلك لأمر النبي ﷺ بذلك: **«من استعاذ بالله فأعيذوه»**، وثبت في البخاري أنَّ النبي لما عقد على المرأة الجونية ودخل عليها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ، قالت: أعوذ بالله منك، فقال النبي ﷺ: **«قد عُذتِ بعظيم»**، وفي رواية عند البخاري: **«قد عذت بمَعاذٍ، الحقي بأهلك»**، أعاذها ﷺ لما استعاذت بالله منه، أعاذها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهذا من تعظيم العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لكن يُلحظ هنا أن هذا الحكم لا ينسحب فيما إذا كانت الاستعاذة تتعارض مع أداء حق الله عَزَّ وَجَلَّ، مثال ذلك: أن يستعيذ إنسانٌ بالله عَزَّ وَجَلَّ في إقامة حدٍ عليه، أو تعزيرٍ شرعي عليه، أو في مطالبته بحقٍ ثابت عليه، فإنه حينئذٍ لا يُعاذ، إنَّما الشأن في أمر النبي ﷺ في إعاذة من استعاذ بالله عَزَّ وَجَلَّ ما لم يتعارض ذلك مع أداء حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال ﷺ: «ومن سأل بالله فأعطوه».

هذا موضع الشاهد الذي بوّبَ عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب، يعني: أورد الحديث لأجل هذا الشاهد، قال: «**ومن سأل بالله فأعطوه**»، قال: أسألك بالله أو أسألكم بالله أن تعطوني كذا وكذا، هذا السائل سأل بعظيم، ومن تعظيم الله ﷻ أن يجاب إلى ذلك، وهذا من كمال تحقيق التوحيد، ومن كمال مراعاة جناب الربوبية، والألوهية، وملاحظة الأدب في التعبد لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، إذا سأل إنسانٌ بالله جَلَّ وَعَلَا فإنه يُجاب على ما سأل، لكن في ضوء التفصيل الذي سيأتي.

فالأحوال في شأن المسألة بالله جَلَّ وَعَلَا ترجع إلى ما يأتي:

[الحالة الأولى]: أن يسأل إنسان بالله ما له فيه حق؛ يسأل بالله شيئًا له فيه حق؛ كأن يسأل شخصًا له عنده دين أو حق، أو يسأل حقه من بيت المال مثلًا، فيقول: يا فلان أعطني بالله، فلا شك حينئذٍ أنَّ وجوب أداء حقه قد تأكد: ١/بالوجوب الأصلي، ٢/وبسؤاله بالله تعالى.

إذا جاء إنسانٌ إلى آخر له عنده حق له عند دين قال: يا فلان أسألك بالله أن تعطيني ديني فإنه يجب عليه أن يجيبه إلى ذلك، وهذا واجبٌ متأكد تأكد بسؤاله بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الحالة الثانية: أن يسأل سائل بالله شيئا فيه إثم، أو قطيعة رحم، فهنا لا يجوز أن يُجاب إلى ذلك والإثم على السائل؛ حيث إنه استسهل أن يسأل بالاسم العظيم لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في شأن أمر محرم، إذا قال قائل لآخر: يا فلان بالله عليك أعطني كأس خمر، أو أحضر لي دخاناً أشربه. فإنه لا يجوز له أن يُجيبه إلى ذلك، والإثم حينئذ على السائل، وليس على المسؤول.

الحالة الثالثة: أن يسأل سائل غيره سؤالًا يكون فيه وقوع ضرر أو مشقة عليه؛ كأن يسأله شيئا يحتاجه، يقول: أسألك بالله أن تعطيني بيتك، أسألك بالله أن تعطيني سيارتك، فإذا كانت إجابته إلى ذلك تضره، أو تشق عليه، فإنه لا يلزمه أن يجيبه إلى ذلك؛ لأنَّ قاعدة الشريعة: لا ضرر ولا ضرار.

الحالة الرابعة: أن يسأل سائلٌ غيره بالله في شأن شيء غير محرم ولا يضره أن يجيبه إليه ولا يشق عليه ذلك فإنه حينئذ أمر النبي ﷺ أن يجيبه إليه، وهذا من تعظيم الله.

وجمهور أهل العلم على أن الأمر ها هنا للاستحباب، ونقل البعض الإجماع عليه، والله أعلم.

قال ﷺ: «ومن دعاكم فأجيبوه».

إذا دعا المسلم إخوانه إلى وليمة، فإن النبي حث في هذا الحديث على إجابة الدعوة، وكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يفعل ذلك، كان إذا دُعِيَ على وليمة ولو قلت أجاب، بل إنه نهى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، عن ترك إجابة الدعوة، ففي صحيح مسلم، قال عليه الصلاة والسلام: **«من دعي فلم يجب فقد عصى الله ورسوله»**.

وهل الأمر والنهي في هذا الحديث متعلق بوليمة العرس خاصة، أم بأي وليمة كانت؟ هذا موضع خلافٍ بين الفقهاء، والجمهور على التخصيص في النهي والأمر بوليمة العرس، ومحل تحقيق هذه المسألة في كتب الفقه، والله أعلم.

قال ﷺ: «ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، وإن لم تجدوا ما تكافئوه، فأدعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه» رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح.

هذا التوجيه الرابع من رسول الله ﷺ.

أمر النبي ها هنا بالمكافأة على صنيعة المعروف، من صنع إليك ما فيه خير ومعروف وأمر نافع وصالحٍ لك، فالنبي حثَّ على أن يكافأ على ذلك فيعطى شيء مقابل إحسانه ومعروفه، فإن لم يجد الإنسان شيئاً، فالمشروع في حقه أن يدعوا له دعاء يشعر أنه بلغ مقابلة ذلك المعروف.

وأحسن وأبغُ ما يُدعى به قول: جزاك الله خيراً، يدل على هذا، ما ثبت عند الترمذي بإسناد صحيح، أن النبي قال: **«من صُنِعَ إليه معروفٌ فقال لفاعله جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء»**، وهذا الشطر من الحديث فيه فائدة لطيفة في التوحيد.

قال العلماء: المكافأة على المعروف من تحقيق التوحيد؛ وذلك أنَّ المكافأة على معروف المخلوق تَكْسِّرُ الذل الذي حصل بوصول المعروف من قبله، فيتخلَصُ بذلك من

هذا الذل، فيشعر الموحد بأنه لا منة لمخلوقٍ عليه، بل المنة لله ﷻ وحده، وهذا من تحقيق العبودية لله ﷻ، ومن كمال تحقيق التوحيد أن تحرص وأن تسعى دائماً على ألا يكون عليك منةٌ لمخلوق، ولا يكون هناك ذلٌ منك أو شيء من الخضوع ولو قلّ لمخلوق، وإنما احرص على أن يكون ذُلك وخضوعك لله ﷻ لا غير؛ ولذلك فإنك إذا قابلت هذا المعروف بالمكافأة زال هذا الشعور، وأصبحت مكافئًا للذي صنع ذلك المعروف إليك.

٧٦

٧٦- باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة، وباب ما جاء في اللو.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ

بابٌ: لا يسأل بوجه الله إلا الجنة.

عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة»

رواه أبو داود.

فهذا باب عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لبيان أنه لا يجوز أن يُسأل بوجه الله إلا الجنة، وأورد تحته حديثًا واحدًا وهو ما خرّج أبو داود رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنه ﷺ أنه قال: «لا يُسْأَلُ بوجه الله إلا الجنة»، وهذا الحديث قُرِأَ بالنفي، وبالنهي، وبالبناء للمجهول، وبالبناء للمعلوم: «لا يُسألُ»، «لا يَسألْ»، «لا يَسألُ»، «لا يَسألْ»، والحديث فيه بحث من جهة ثبوته، فإن مدار الحديث على راوي اسمه سليمان بن معاذ ويقال: سليمان بن قرم ابن معاذ، وهذا الرجل وثقه بعض أهل العلم ومنهم: الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنهما مالا إلى توثيقه.

وجماعة من أهل العلم ضعفوه، فابن معين قال: (ليس بشيء)، وكذلك ضعفه النسائي وأبو حاتم، وقال الحافظ بن حجر: (سيء الحفظ).

والأقرب والله تعالى أعلم أن الحديث ضعيف، وأن هذا الراوي ليس بقوي الحفظ، وإن كان الحديث قد قوّاه بعض أهل العلم، ومنهم الضياء المقدسي فإنه أورده في كتابه ((المختارة))، وهذا يدل على أنه حديث قوي عنده، في حين أنه ضعف هذا الحديث جماعة من أهل العلم، ومنهم عبد الحق الإشبيلي، وابن القطان الفاسي، وكذلك الشارح الحفيد الشيخ سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ مالا إلى ضعف الحديث، كذلك الشيخ الألباني، وكذلك الشيخ ابن باز –رحمة الله تعالى على الجميع- مالوا إلى ضعف هذا الحديث، الأقرب والله أعلم أن الحديث ضعيف.

ومما يستأنس به في الدِلالة على عدم ثبوت هذا النهي عن النبي ﷺ ما خرج الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾[الأنعام:٦٥] قال ﷺ: «أعوذ بوجهك» قال: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾[الأنعام:٦٥]، قال: «أعوذ بوجهك» قال: ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾[الأنعام:٦٥]، قال: «هذا أهون أو أيسر».

فالشاهد: أنك تلحظ أن هذا الحديث فيه استعاذة أن النبي ﷺ بوجه الله في شأن عذاب دنيوي، الظاهر والله أعلم أن هذا النهي الوارد في هذا الحديث ليس بصحيح، وعلى فرض صحته، **فإن هذا الحديث يدل على أمرين:**

[الأمر الأول]: على أنه لا يجوز أن يُسأل الله ﷻ بوجهه إلا الجنة، قال أهل العلم: أو ما هو لازم لها كالنجاة من النار، وذلك أن سؤال الله ﷻ إنما هو سؤالٌ عظيم فكيف إذا توسل الإنسان إلى ربه في هذا السؤال بهذه الصفة العظيمة، وهي وجه الله العظيم سبحانه، فلا يناسب أن يُسأل الله ﷻ هذا السؤال إلا فيما هو أرفع المطالب وأشرف الرغائب ألا وهو جنة عدن.

الأمر الثاني الذي يدل عليه الحديث: أنه لا يجوز أن يسأل العبد بوجه الله؛ يعني لا يجوز أن تقول لإنسان: أسألك بوجه الله أن تعطيني كذا وكذا، وذلك أنه لما كان السؤال بوجه الله مخصوصًا بسؤال الجنة، والعبد لا يملك الجنة دل هذا على أنه لا يجوز أن يسأل العبد بوجه الله سبحانه وتعالى، فإن صح الحديث فإنه يدل على هذين الأمرين.

وقد جاء عند الطبراني بإسناد حسّنه بعض أهل العلم ومنهم الشيخ الألباني رحمه الله وضعفه آخرون، وهو أنه ﷺ قال: «**ملعون من سأل بوجه الله، وملعون من سُئِل بوجه الله فلم يعطِ سائله، أو فمنع سائله**»، فهذا يشهد للمعنى الثاني، وهو أنه لا يجوز أن يُسأل العبد بوجه الله، قال: «**ملعون من سأل بوجه الله**»؛ لأنه إذا سأل العبد بوجه الله ﷻ فإنه يسأله في شيء حقير من أمر الدنيا، وهذا لا يجوز أن يُتوسل إليه بهذه الصفة العظيمة.

وأما المسئول فإن اللعنة ها هنا إنْ صح الحديث إنما تتوجه في شأن أن يُسأل هذا الإنسان شيءً للسائل فيه حق فيمتنع، أو يُسأل شيءً لا يشق عليه إجابته فيمتنع، وهذا كما فصلناه عند بحث مسألة السؤال بالله ﷻ والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:
بابُ ما جاء في اللَّوْ.

اللَّوْ؛ يعني هذا اللفظ الذي هو (لو)، ولو حرفٌ من حروف المعاني، وقد جاءت في اللغة على أنحاء منها:

[أولًا]:لو الامتناعية: التي تدل على امتناع الشيء لامتناع غيره: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء:٢٢]. امتنع فساد السماوات والأرض لامتناع وجود آلهة مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وتأتي ثانيًا: **بمعنى إن الشرطية**، ومن ذلك قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾[النساء:٩].

وتأتي ثالثًا: **بمعنى أن المصدرية**: ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾[القلم:٩].

وتأتي رابعًا: **للتقليل**، قال ﷺ: «التمس ولو خاتمًا من حديد».

وتأتي خامسًا: **للحضّ** فتقول: لو فعلت كذا يا فلان أو لو نزلت عندنا لأكرمناك.

وتأتي سادسًا:للتمني: ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء:١٠٢].

إذًا هذه من أحوال لو التي تأتي في اللغة.

تلاحظ معي هنا أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أدخل أل على حرف، ومعلوم أن (أل) لا تدخل على الحروف إنما تدخل على الأسماء.

بالجر والتنوين والنداء وأل ومسند للاسم تمييز حصل

فما وجه هذا الفعل؟

الجواب أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ نزل هذا الحرف ها هنا منزلة الاسم؛ لأنه أراد باب ما جاء في هذا اللفظ الذي هو لو، وفعله هذا قد سبقه إليه غيره من أهل العلم، ومنهم الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((صحيحه))، فإنه بوَّب بابًا قال فيه: باب ما يجوز من اللو، ولعلك تذكر الإشارة التي سبقت من أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ متأثرٌ بالإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومعتنٍ بصحيحه، ومن ذلك هذه الإشارة التي ذكرتها لك.

المقصود أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد أن يبّين أن لو تأتي في الشريعة منقسمةً فيجوز استعمالها أحيانًا، ولا يجوز استعمالها أحيانًا، ولذلك جعل الباب مبهمًا، قال: باب ما جاء في اللو، فتارة يكون استعمالها صحيحًا، وتارة لا يكون صحيحًا، وإن كان ما أورده من الأدلة قد أورد آيتين وحديثًا يدل على أنه أراد التنبيه على ما يتعلق بجانب الاعتقاد بجانب التوحيد، وذلك أنَّ الاستعمال الخاطئ لهذا الحرف وهو (لو) قد يكون قادحًا في كمال التوحيد الواجب، فكان مما يجب الامتناع عنه.

(لو) جاءت في نصوص في محمل النهي، ومن ذلك ما أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من قوله ﷺ الثابت في صحيح مسلم: «**فإن أصابك شيء فلا تقل: لو كان كذا لكان كذا وكذا**»، فهذا دليل على أن استعمال (لو) هاهنا منهي عنه، في حين أننا نجد في أدلة أخرى في الكتاب والسنة استعمالها وأن ذلك جائز لا حرج فيه: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ**﴾ **[النساء:٦٦]**.

والبخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما بوب الباب سالف الذكر أورد تحته ثمانية أو تسعة أحاديث تدل على جواز استعمال (لو)، ومما جاء في سنة النبي ﷺ من ذلك قوله ﷺ كما في الصحيحين: «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة**»، أو قال: «**عند كل صلاة**».

ومن ذلك قوله ﷺ: «**لولا أن قومكِ حديث عهدهم بجاهلية لهدمت الكعبة ولبنيتها على قواعد إبراهيم**».

ومن ذلك قوله ﷺ: «**لو كنت راجمًا أحدًا بغير بينة لرجمت هذه، وأشار إلى الملاعنة**».

ومن ذلك أيضًا قوله ﷺ: «**إنه لوقتها**» لما أخر صلاة العشاء «**لولا أن أشق على أمتي**» إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي جاءت عن النبي ﷺ وفيها استعمال لو، فكيف الجمع بين ما جاء دالًّا على النهي عن استعمال (لو)، وما دل على جواز استعمال (لو).

اختلف العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في هذا المقام:

منهم من قال: إن النهي الوارد يدل على كراهة هذا الاستعمال فقط، وذلك أن الأدلة المبيحة صارفة كل النهي عن التحريم إلى الكراهة.

ومنهم من قال: إن النهي إنما تعلق بقول القائل إذا لم يضمر ذكر مشيئة الله ﷻ، ويكون الجواز باعتبار أنه أضمر ذكر مشيئة الله ﷻ؛ يعني: إن كان يقول: لو كان كذا بمشيئة الله، أو إن شاء الله أضمر هذا في نفسه، فإن الكلام صحيح وجائز، وإن لم يفعل كان الكلام محرمًا.

ومن أهل العلم من قال: إنَّ (لو) لا يجوز استعمالها في الأمور الماضية ويجوز استعمالها في الأمور المستقبلة.

والتحقيقُ في هذا المقام أن يقال: إنَّ (لو) لها أحوال تكون أو يكون استعمالها فيها جائزًا، وأحوال يكون استعمالها فيها غير جائز.

أما الأحوال التي تكون لو فيها غير جائزة:

[الحالة الأولى]: أن يكون في استعمالها اعتراضًا على الشرع.

[الحالة الثانية]: أن يكون في استعمالها اعتراضٌ على القدر.

ويشهد لهذين ما أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من آيتي سورة آل عمران: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾[آل عمران:١٦٨]، ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾[آل عمران:١٥٤] هذا كان من قول المنافقين في غزوة أحد، وكلامهم يتضمن الاعتراض على شرع الله ﷻ وقدره، يقولون لإخوانهم إخوانهم في النسب الذين قدّر الله ﷻ عليهم أن يقتلوا شهداء في أحد، لو أطاعونا فجلسوا، فلم يجاهدوا مع رسول الله ﷺ وقد أمرهم الشرع بذلك، لو أطاعونا في ترك الجهاد ما قتلوا.

إذًا القتل الذي حصل عليهم إنما كان بفعل هذا الأمر الذي كانت المصلحة في خلافه، فكان قولهم متضمنًا الاعتراض على الشرع، كما أنه يتضمن الاعتراض على القدر، كأنهم يظنون أنه إذا فعل الإنسان شيئًا من الأشياء فإنه بذلك يدفع قدر الله ﷻ ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾[آل عمران:١٥٤]، رد الله ﷻ عليهم ذلك قال: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾[آل عمران:١٥٤].

إذًا إذا قدَّر الله ﷻ شيءً فإنه لا يمكن لأحد أن يدفع تقدير الله ﷻ إذا كان الله كاتبًا على أحد أن يموت فسواء جلس في بيته أو خرج فإنه سيموت: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[آل عمران:١٦٨].

في الآية الأخرى: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[آل عمران:١٦٨].

إن كان كلامكم صادقًا بأنَّ فعل الإنسان الذي يفعله يكون دارئً عنه الموت لكان مقتضى هذا ألا تموتوا أنتم، أليس كذلك؟! لأنهم جلسوا وما خرجوا مع رسول الله ﷺ: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾[آل عمران:١٦٨]، لكن هل يستطيعون إذا فعلوا هذا أن يدفعوا عن أنفسهم الموت، فدل هذا على أن قولهم كان متضمنًا أمرين مذمومين:

الاعتراض على الشرع، والاعتراض على القدر.

الحالة الثالثة: التي يكون فيها استعمال لو ممنوعًا أن يكون سياقها سياق تندمٌ وتحسر، ومن ذلك ما جاء في الحديث الذي سيأتي الكلام عنه -إن شاء الله- وهو قوله ﷺ: «**فإن أصابك شيء فلا تقل: لو كان كذا لكان كذا وكذا**»، هذا السياق سياق ندم وسياق تحسر، ولا شك أن الندم والتحسر، ولوّم الإنسان نفسه على الأشياء التي لم تحصل له لا شك أنه سيلقيه إلى وادي الضرر؛ لأن هذا الندم ولأن هذا الحزن يضعف القلب، ويضفي عليه الفتور في النشاط في الطاعة وفعل ما ينبغي أن يفعل، وفي أعطاف ذلك ما فيه من سوء الظن بالله ﷻ، والقدح في قدره، فهذا كله لا شك أنه أمر مذموم في الشريعة والذي جر إليه هذا الندم الذي قاد إليه هذا الكلام، "لو فعلت كذا لكان كذا وكذا".

الحالة الرابعة: أن يكون في استعمال لو احتجاجًا بالقدر على المعاصي كما قال المشركون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾[الأنعام:١٤٨]، ﴿لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾[الزخرف:٢٠].

إذًا هذا من استدلال هؤلاء المشركين بالقدر على معصية الله ﷻ، ولا شك أن هذا مسلكٌ مذموم، فالقدر يستدل به على المصائب لا على المعائب.

[الحالة الخامسة]: أن يكون استعمال (لو) فيه شيء من عدم الاكتراث بقدر الله ﷻ أو بشرعه، أو التهوين من شيء من ذلك، متى كان في استعمال (لو) شيء من ذلك

مما يدل على عدم المبالاة وعلى عدم الاكتراث بشيء من أمر الله ﷻ ومن قدره فإنه لا شك أنه يكون بذلك ممنوعًا.

أما الحال الأخرى التي تكون فيها لو جائزة:

فإنها تكون جائزة إذا كان فيها تمني للخير، أو كان المقام مقام تعليم للعلم والخير.

إذًا يجوز استعمال لو إذا كان المقام مقام تمني للخير، ولذلك تجد النبي ﷺ يقول: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي، ولا جعلتها عمرة، ولا أحللت معكم**».

أو تجد أن المقام يكون مقام تعليم للخير، وتعليم للعلم، قال النبي ﷺ: «**لولا أن أشق على أمتي**» «**لولا أن قومكِ حديث عهدهم بجاهلية أو حديث عهدهم بكفر**».

إذًا متى ما كانت لو جارية في أحد هذين السياقين فإنه يجوز حينئذ استعمالها ولا تكون داخلة في النهي الوارد في حديث صحيح مسلم كما مر بيان ذلك، وكما يظهر لك لو تأملت في أحاديث النبي ﷺ التي سمعت طرفا منها، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾[آل عمران:١٥٤] الآية.

كما مر معنا هذه الآية في قول المنافقين، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد أن ينبه المسلم في إيراده هذه الآية وما بعدها إلى أن استعمال (لو) المذموم من شأن المنافقين، ولا ينبغي للمسلم أن يتشبه بهم، فقولهم ها هنا يتضمن اعتراضًا على الشرع الذي هو الأمر بالجهاد في سبيل الله ﷻ وأنه مجلبة للهموم والأضرار والأحزان، ويتضمن كذلك اعتراضهم على قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾[آل عمران:١٦٨].

كذلك هذا القول من قول المنافقين: لو أطاعونا ما قتلوا؛ الذي حضوا إخوانهم في النسب من المؤمنين على ألا يجاهدوا، وأن يرجعوا مع من رجع إبان غزوة أحد، فكان قولهم أيضًا متضمنًا للاعتراض على شرع الله ﷻ وعلى قدره، فكان استعمالًا مذمومًا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِي الصحيح عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزن...».

في الصحيح؛ يعني: في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختصر أول الحديث وأورد الشاهد منه فحسب، وأوله قوله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير**»، ثم قال: «**احرص تعلى ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز**»، هكذا وقفت على الرواية في صحيح مسلم في أكثر من نسخة، وكذلك في مختصره، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورده بلفظ (تعجزن)، والله أعلم ربما يكون وقف على شيء من نسخ مسلم ثبت الحديث فيها هكذا.

المقصود أن هذا الحديث فيه تنبيه على أمور ثلاثة مهمة:

أولًا: الحث على الحرص، والحرص هو: بذل الأسباب الجائزة الممكنة.

إذًا من ترك استعمال الأسباب المحرمة لا يقال: إنه لم يحرص، ومن ترك ما لا قدرة له عليه، وما كان خارجًا عن طاقته لا يقال: إنه لم يحرص.

إذًا الحرص هو أن تبذل المستطاع في حدود ما أبيح، أن تبذل المستطاع في حدود ما أبيح.

وثانيًا: أن تجعل همتك في حرصك على ما ينفعك في أمر دينك وأمر دنياك، وذلك أن من الناس من يكون عنده حرص ونشاط وبذل، لكنه لا يوفق إلى ما ينفعه، تجد حرصه في الشيء الذي يضره، إما في العاجلة، وإما في الآجلة، وهذا من قلة التوفيق، ومن الخذلان والحرمان.

والأمر الثالث: أن يستعين الإنسان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا هو أساس التوفيق، فإذا لم يكن عون من الله عَزَّ وَجَلَّ للعبد فليس له إلا الخيبة والحرمان.

إذا لم يكن عون من الله للفتى   فأول ما يجني عليه اجتهاده

ينبغي على الإنسان أن يستعين بالله، والألف والسين والتاء للطلب؛ يعني أن يسأل الله أن يطلب من الله العون، وقد ثبت في حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا من دعاء النبي ﷺ: «**ربِّ أعني ولا تُعن عليَّ**».

إذًا هذه ثلاثة أمور سعادة العبد في اجتماعها:

أولًا: أن يكون ذا حرص تاركًا للعجز وتاركا للكسل، وتاركًا للمهانة ومجانبا للدعة والراحة عند الأمور المهمة.

وثانيًا: أن يكون هذا الحرص موجهًا إلى الذي ينفع الإنسان في دينه ودنياه، لا أن يكون حرصه فيما يعود عليه بالضرر في دينه ودنياه.

ومِلاكُ ذلك بالأمر الثالث: أن يكون عند الإنسان استعانة بالله ﷻ طلب لتوفيقه، طلب لمد العبد برحمة منه ﷻ ، وهذا لا شك أنه به يتحقق التوكل على الله ﷻ، فإننا قدم علمنا أن التوكل حقيقة مركبة من بذل السبب مع التفويض لله ﷻ، ومع الثقة بالله ﷻ.

إذًا من اجتمع في حقه هذه الأمور الثلاثة؛ فليبشر بالخير، فإنه يفوز بالتوفيق والسعادة، قال ﷺ: «ولا تعجَز» ولك أن تقول: «ولا تعْجِز».

والرواية على ما أورده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيها تأكيد بذكر النون «ولا تعجزن» زيادة في ماذا؟ في التأكيد، وليس مراد النبي ﷺ بالعجز ها هنا ما يرجع إلى معنى انتفاء القدرة، كأن يصاب الإنسان بمانع يمنعه من بذل الأسباب، كأن يصاب بشلل يمنعه من الحركة مثلًا، ليس المقصود أن ينهى الإنسان عن هذا العجز الذي يكون فيه امتناعٌ لبذل الأسباب، فالشريعة لا تأتي بالتكليف بما لا يُطاق.

إنما المراد بالعجز هاهنا ما يرجع إلى معنى الكسل وترك النشاط والجهد وبذل الأسباب وما يرجع إلى الدعة والركون إلى المهانة فمثل هذا هو الذي نهى عنه النبي ﷺ في قوله: «ولا تعجز».

«وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان».

إذا كان العبد مستقبلًا أمرًا فإن الذي ينبغي عليه أن يجعل همته منصرفة إلى تحقيق هذه الأمور الثلاثة: الحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله ﷻ.

أما في الأمر الذي فرط وحصل وقُضي وكان على خلاف ما يُؤمل الإنسان، أصاب الإنسان شيٌ كدر خاطره لم يكن مؤملًا عنده، هو في هذه الحالة بين أمرين:

إما أن يركن إلى (لو) التي تقوده إلى مرتع وخيم وهو الحزن والأسف واليأس والبؤس، وهذا هو الذي يريد الشيطان أن يظفر من العبد به، يريد أن يأخذه إلى هذا المكان حتى إنه إذا كان ذا بأس، ذا بؤس، وذا يأس وأسف وحزن فإنه سوف يترك النشاط في طاعة الله سبحانه وتعالى.

والشريعة حريصة على أن تكون يا عبد الله سعيدًا نشيطًا مقبلًا على الخير، قوي القلب، لأنك إن كنت كذلك عبدت الله سبحانه وتعالى على الوجه المرضي، كن سعيدًا حتى تعبد الله كما ينبغي.

أما إذا ركنت إلى (لو) حين يصيبك الشيء الذي تكره ترجع باللائمة على نفسك أو على غيرك، فتقول: "لو فعلت كذا لما كان كذا"، "ولو أني فعلت كذا كان كذا وكذا"، هذا كله لا فائدة منه بل هو حُمْقٌ في العقل، وضعف في الفكر؛ لأنه لا يعود عليك بشيء فائت أليس كذلك، إنما هو تضييع للزمان، كما فاتك الأمر الأول سيفوتك خير قادم وأنت باقٍ في حال الفوت والحسرة.

أضف إلى هذا ما يقع فيه الإنسان من هذا الحزن واليأس الذي قد يجر إلى سوء الظن بالله سبحانه وتعالى أو القدح في قدر الله جَلَّ وَعَلَا.

إذًا المطلوب من المسلم أن يدع هذا الأمر أن يدع التأسف على ما مضى واستعمال كلمة لو في هذا المقام، وهذا مع الأسف الشديد مما يقع من كثير من الناس إذا نزل بهم من شيء يكرهونه تبدأ (لو) عندهم في العمل تجد أحدهم يقول:" لو أني ما خرجت في هذا اليوم ما أصابني الحادث"، أو تجد الأب يقول لابنه:" يا ابني لو سمعت كلامي ما صار عليك كذا وكذا"، وهذا لا شك أنه أمر مخالف للواجب على العبد ليس من الأمر المرضي شرعًا أن تقول هذا القول؛ لأنه لا فائدة منه؛ ولأنه يقود إلى الشر.

علل النبي صلى الله عليه وسلم الأمر بقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«فإن لو تفتح عمل الشيطان»**، وما هو عمل الشيطان؟

عمل الشيطان أمران:

[الأمر الأول]: الاعتراض على الله سبحانه وتعالى، وذلك أن العبد في قوله: "لو كان كذا لكان كذا وكذا" لا يخلو من اعتراض على قدر الله عز وجل، وإبراز عدم إيضاح عما قضاه سبحانه وتعالى،

كذلك الحال من إبليس فإنه قد عارض الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أمره، أليس هو الذي قال: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾[الإسراء:٦١]،﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[ص:٧٦] فالعبد الذي يستعمل هذه الكلمة في هذا السياق يكون قد عمل عمل الشيطان وهو الاعتراض على الله عَزَّ وَجَلَّ يعترض عليه في قدره كما اعترض الشيطان على الله عَزَّ وَجَلَّ في أمره.

الأمر الثاني: هو أنه في استعماله هذه الكلمة في هذا السياق يقع في الحزن والإحزان من عمل الشيطان، من وظيفة الشيطان إحزان عباد الله عَزَّ وَجَلَّ، ألم يقل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾، لمَ؟ ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[المجادلة:١٠]، إذًا من عمل الشيطان الإحزان، كذلك لو من عملها أنها توقع العبد في الحزن فتحقق قول النبي ﷺ: «فإن لو تفتح عمل الشيطان».

قال بعض العقلاء: (**إذا نزل بك أمر مهم فأنظر، فإن كان لك فيه حيلة فلا تعجز، وإن لم يكن لك فيه حيلة فلا تجزع**).

هكذا ينبغي على الإنسان أن يقابل هذا الأمر الذي نزل به، قلت قبل قليل: أنه إذا نزل به الأمر المكروه هو بين نظرين:

أن يذهب إلى لو وما يتبعها من مفاسد.

أو أن يلاحظ القدر ومشيئة الله النافذة، فإن قدر الله عَزَّ وَجَلَّ نافذ شاء الإنسان أم أبى.

إذًا لا حاجة له إلى التأسف وإلى هذا الحزن، بل إن الذي ينبغي أن يرضى الإنسان بقدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا لاحظ أن مشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ نافذة، وأن له الحكمة فيما يقدر، وفيما يخلق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أداه ذلك إلى طمأنينة وإلى سكينة، وربما ارتقى إلى درجة عليا وهو الرضا وهي الرضا بقدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهذا ما عليه الكُمَّلُ من عباد الله الذين يستيقنون بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة:٥٠].

٧٧

٧٧- باب: النهي عن سب الريح.

وباب قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب:

النهي عن سبِّ الريح

فهذا الباب عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، للتنبيه على النهي عن سب الريح.

الريح والأكثر في لغة العرب تأنيثها: جندٌ من جنود الله عَزَّ وَجَلَّ، مُصرَفة، ومُدبَرة، ومأمورة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الله جَلَّ وَعَلَا يصرّفها إذا شاء كيف شاء، وسبها وذمها إضافة إلى ما فيه من ضعف العقل يستلزم سب مسخرها ومدبرها وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لأجل ذلك كان ترك ذلك من تحقيق التوحيد الواجب.

ولو أنَّ إنسانًا خطر في باله حين سب الريح، خطر في باله سب من دبّرها فلا شك أن هذه ردة صريحة، لكن الغالب أن من يفعل ذلك لا يستحضر هذا الأمر، لكن كون هذا مُستلَزماً لسبها كاف في النهي والزجر عن سب الريح فيكون الشأن في هذا الباب كالشأن في سب الدهر، وقد مر بنا تفصيل الكلام في ذلك والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن أبي بن كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا الريح؛ فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أمرت به» صححه الترمذي.

حديث أُبَيٍّ هذا قال فيه الترمذي: (حسن صحيح)، وهو كما قال حديث صحيح ثابت عن النبي ﷺ ، وله شاهد من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا في ((صحيح مسلم)) وهو أن النبي ﷺ كان إذا عصفت الريح قال: «**اللهم إني أسألك من خيرها، وخير ما أرسلت به وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت به وشر ما فيها**»، أو كما قال النبي ﷺ.

وهذا الحديث يشتمل على أمرين:

[الأمر] الأول: النهي عن سب الريح، وعلة ذلك ما قد علمت وهو أن سبها يستلزم سب مرسلها لأنه ليس منها شيء، لا يصدر عنها الفعل أو الشيء لذاتها، إنما هي مرسلة مسخرة مأمورة، وبالتالي استلزم سبُّها سبّ من أرسلها، فلأجل ذلك جاء النهي عن النبي ﷺ عن سبها.

الأمر الثاني: الإرشاد إلى المشروع، كما قد علمنا ومر بنا هذا مراراً، وهو أن النبي ﷺ في كثير من الأمور إذا أغلق الباب الممنوع فتح الباب المباح، بيَّن للناس ما هو مشروع فقال: (إذا رأيتم ما تكرهون)، إذا كانت الريح فيها أذية أو حملت برداً شديداً أو حملت حراً شديداً أو كانت قوية قلعت الأشجار والأبواب وما إلى ذلك، شرع لنا أن نقول هذا الدعاء.

وبالتالي فإننا نعلم أن الريح على نوعين:

١/ريح خفيفة معتادة غير مؤذية، فهذه لا يشرع أن يقول الإنسان عندها شيء.

٢/ وريح عاصف، ريح قوية مؤذية، لحديث عائشة قال كان إذا عصفت الريح، وفي هذا الحديث الذي بين أيدينا قال إذا رأيتم ما تكرهون، فإذا كانت الريح قوية ومخيفة فهذه هي التي يشرع فيها أن يدعو الإنسان بهذا الدعاء، وهو أن يسأل الإنسان الله **جَلَّ وَعَلَا** من خيرها ولاحظ أن هذا الحديث أضيف فيه الخير والشر إلى الريح وهذه إضافة سببية لا إضافة

استقلالية؛ يعني ليست الريح تتضمن من ذاتها الخير والشر، إنما هي سببٌ يجعلها الله سبباً للخير ويجعلها الله سبباً للشر، الله جَلَّوَعَلَا قد يجعل الريح سبباً للخير، كما قال تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾[الحجر:٢٢]، وقال سبحانه: ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشراتٍ﴾[الروم:٤٦].

قد تكون سبباً للنصر، قال الله جَلَّوَعَلَا : ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحًا﴾[الأحزاب:٩]، قال ﷺ: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور» الصبا على وزن عصا، والدبور على وزن رسول، الصبا: ريح تهب من جهة المشرق، والدبور: ريحٌ تهب من جهة المغرب.

المقصود أن الريح قد تكون سبباً للخير، وهذا ما يسأله الإنسان ربه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، أن يجعل هذه الريح سبباً لحصول الخير، له ولغيره، وقد تكون سبباً للشر، فالله جَلَّوَعَلَا قال: ﴿وفي عادٍ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾[الذاريات:٤١]، وقال تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم ريحًا صرصرًا في أيامٍ نحساتٍ﴾[فصلت:١٦]، فهذه الريح قد تكون سبباً للشر وقد تكون سبباً للبلاء، فيسأل الله أن يصرف عنه هذا الشر، ألا تكون هذه الريح سبباً لشر يناله.

إذن هذا الذي سأله النبي ﷺ ربه وهذا الذي أرشد أمته إليه، أن يسأل الإنسان ربه من خير هذه الريح وخير ما فيها؛ يعني: ما يترتب على وجودها فإنه قد يترتب على وجودها وينتج عن مجيئها وهبوبها خير أو ينتج ضد ذلك فيسأل الله أن يعطيه ثمار هذه الريح الخيرة وأن يصرف عنه ما كان بضد ذلك.

قال: (وخير ما أرسلت به)، وجاء في بعض الروايات: (وخير ما أمرت به)، وهذا يدلك على أن الريح مأمورة من الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، تستمع الأمر وتستجيب الأمر لله جَلَّوَعَلَا، هي تؤمر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فتستجيب، طائعة لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وهكذا كل ما في السموات والأرض فإنه مطيع لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

وإذا كانت الريح مطيعة لأمر من سخرها الله عَزَّوَجَلَّ له من المخلوقين، فكيف بالنسبة لمسخرها وخالقها ومدبرها فالله جَلَّوَعَلَا أخبر أنه سخر الرياح لسليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قال:

﴿تجري بأمره رخاءً حيث أصاب﴾[ص:٣٦]، فهي تستجيب لأمر سليمان بتسخير الله ﷻ، فكيف باستجابتها لأمره هو تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

إذن الريح ترسل وتؤمر وتسخر من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وهو جَلَّ وَعَلَا يسخرها ويدبرها كيف يشاء، هي جند من جنوده مطيعة له ﷻ، ولذلك يسأل الإنسان ربه جَلَّ وَعَلَا من خير ما أرسلت به ومن خير ما أمرت به، ويستعيذ بالله أن يصرف عنه شر ما أمرت به.

إذن هذا هو الذي يُشرع للمسلم في شأن الريح.

والخلاصة أن على الإنسان أن يتحفظ من كل ما يقدح أو ما يستلزم القدح في توحيده ومن ذلك أن يسب الريح فإن هذا كما قد علمت مما قد يستلزم سبَّ مرسلها، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب قول الله تعالى:

﴿يظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾[آل عمران:١٥٤] الآية.

وقوله: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾[الفتح:٦] الآية.

هاتان آيتان عظيمتان، أوردهما المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب، للدِلالة على وجوب حسن الظن بالله جَلَّوَعَلَا، وعلى النهي المؤكد عن إساءة الظن بالله جَلَّوَعَلَا، فآية آل عمران الأولى مر بنا طرفٌ من الحديث عن الآية التي بعدها، في الباب الذي قبل هذا الباب الماضي، وفيه: أنَّ من حال المنافقين أنهم يظنون بالله غير الحق، ووصف هذا الظن بأنه ظن الجاهلية.

وفي الآية الثانية في آية الفتح بيَّن الله عَجَلَّ النهي المؤكد عن ظن السوء بالله جَلَّوَعَلَا، وظن السوء وظن غير الحق بالله جَلَّوَعَلَا شيء واحد هو ظن الجاهلية، وهو شأن المشركين والمنافقين كما دلت على هذا آية الفتح، ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾[الفتح:٦].

ولاحظ أنه قد جاءت كلمة السوء مرتين في آية الفتح: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ واتفاق القراء العشرة على فتح السين في قوله ﴿السَّوْءِ﴾، وأما الكلمة التي بعدها: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾، فالجمهور أيضاً على فتح السين، وقرأ بعض القراء وهو ابن كثير وأبو عامر بضمها، ولا شك أن الأكثر في اللغة والأشهر في اللغة هو: فتح السين.

والمقصود أن ظن السوء وأن ظن غير الحق في الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى هو ظن الجاهلية، وضابطه: أن يظن بالله عَجَلَّ خلافُ ما يليق به، هذا هو ظن الجاهلية، هذا هو ظن السوء بالله عَجَلَّ، هذا هو أن يُظنَّ بالله غير الحق.

الله عَجَلَّ ما يليق به يليق بربوبيته وألوهيته ومقتضى أسماءه وصفاته، الذي يليق به كل خير، وكل إحسان وكل كمال، فمن ظن في الله عَجَلَّ خلاف ذلك فإنه يكون قد ظن بالله

وَجَلَّ ظن السوء فشابه حال المشركين وحال المنافقين، وهذا باب واسع يدخل تحته أنواع كثيرة جداً مما يقع في الناس قديماً وحديثاً.

كلام المفسرين عن هاتين الآيتين متقارب، لو رجعت إلى كلامِ المفسرين في آية آل عمران وآية الفتح لو رجعت لوجدت أنَّ كلامهم متقارب، تجد أنه قد فُسِّر ظن غير الحق أو ظن السوء بالله عَزَّ وَجَلَّ أن الله عَزَّ وَجَلَّ يجعل دين النبي ﷺ مضمحلاً وأنه لا ينصر نبيه ﷺ ، تجد أنهم يفسرون أيضاً بإنكار القدر، أو إنكار حكمة الله عَزَّ وَجَلَّ أو إنكار البعث، وكلَّ ذلك لا شك أنه داخل في ظن غير الحق في الله عَزَّ وَجَلَّ أو ظن السوء به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لكن لا شك أنَّ عموم اللفظ وعموم ما يدخل في مضمون هذا المعنى لا شك أنه أوسع من ذلك بكثير، ولأجل ذلك أورد [المؤلف] رَحِمَهُ اللَّهُ كلاماً حسناً نفيساً اختصره من كلام ابن القيم وهو أطول في كتابه ((زاد المعاد))، وهذا ما سنقرأ مختصره ثم نعود إلى أصله فنقرأه إن شاء الله.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال ابن القيم في الآية الأولى: ((فسر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله

وأن أمره سيضمحل، وفُسِّرَ بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته، ففسر بإنكار الحكمة وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله وأن يظهره الله على الدين كله.

وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح وإنما كان هذا ظن السوء؛ لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق.

فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى: بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة، فذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار...

ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامه في كتابه ((زاد المعاد)) وهو في الجزء الثالث ضمن الفوائد التي ساقها مما يستفاد من سورة أحد، كلامه في ذلك طويل والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنما اختصر هذا الكلام وأتى ببعضه ورأيت من المناسب أن نقرأ كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كاملاً فإنه من أحسن الكلام في تفسير هاتين الآيتين، بل لعلك لا تظفر بتفسير كهذا التفسير في غير هذا الكتاب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وقد فُسر هذا الظنُّ الذي لا يليق بالله بأنه سبحانه لا ينصرُ رسوله وأن أمره سيضمحل، وأنه يُسلِمُه للقتل، وقد فُسِّرَ بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره ولا حكمة له فيه، ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يُتمَّ أمر رسوله ويُظْهِرَهُ على الدين كله، وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون به ﷺ في سورة الفتح حيث يقول: (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرًا)[الفتح:٦] وإنما كان هذا ظن السوء وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظن غير الحق لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وذاته المبرأة من كل عيب وسوء، بخلاف ما يليق بحكمته وحمده وتفرده بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يُخْلفُه، وبكلمته التي سبقت لرسله أن ينصرهم ولا يخذلهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون، فمن ظن بأنه لا ينصر رسوله، ولا يتم أمره، ولا يؤيده، ويؤيد حزبه، ويعليهم، ويظفرهم بأعدائه، ويظهرهم عليهم وأنه لا ينصر دينه وكتابه وأنه يديل الشرك على التوحيد والباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبداً فقد ظن بالله ظن السوء.

لا شك أن هذا من ظن السوء، وهذا مما يجب أن يحذره المسلم، وكم يُداخل هذا الظن نفوس أناس وأناس يظنون أن الحق لم ينتصر، وأن جند الله عَزَّ وَجَلَّ لن تكون لهم الغلبة، وهذا من أبطل الباطل، ومن ظنه في الله عَزَّ وَجَلَّ فقد ظن به ظن السوء، الله جَلَّ وَعَلَا قد وعد

ووعده لا يُخلف أنَّ العاقبة للمتقين ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾[غافر:٥١]، ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾[الصافات:١٧٣]، لكن لابد من حصول الابتلاء والامتحان وتقدم هذا النصر أو تأخره أمر راجع إلى حكمة الله جَلَّوَعَلَا وليس للإنسان أن يستعجل لكن كون الحق منصوراً، هذا أمر قطعي لا شك فيه.

والحق منصور وممتحن فلا تعجب فهذه سنة الرحمن

الامتحان لابد من حصوله، لكن لابد أن تكون العاقبة للمتقين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:(فقد ظن بالله ظن السوء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله وصفاته ونعوته، فإن حمده وعزته، وحكمته وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يَذِلَّ حزبه وجنده، وأن تكون النصرة والمستقرة، والظفر الدائم لأعدائه المشركين به، العادلين به، فمن ظن به ذلك، فما عرفه، ولا عرف أسماءه، ولا عرف صفاته وكماله، وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره، فما عرفه، ولا عرف ربوبيته، وملكه وعظمته، وكذلك من أنكر أن يكون قدّر ما قدره من ذلك لحكمة بالغة، وغاية محمودة يستحق الحمد عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة، وغاية مطلوبة هي أحب إليه من فوتها وأن تلك الأسباب المكروهة المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة لإفضائه إلى ما يحب، وإن كانت مكروهة له، فما قدرها سدى ولا أنشأها عبثاً، ولا خلقها باطلاً، (ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار)[ص:٢٧]، وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص به وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلَمُ عن ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته وعرف موجب حمده وحكمته، فمن قنط من رحمته وآيس من روحه فقد ظن به ظن السوء.

ومن جوَّز عليه أن يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم، و يسوي بينهم وبين أعداءه فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه يترك خلقه سدى، معطلين عن الأمر والنهي، ولا يرسل إليهم رسله، ولا ينزل عليهم كتبه، بل يتركهم هملاً كالأنعام، فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازى المحسن فيها بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه يترك خلقه سدى، معطلين عن الأمر والنهي، ولا يرسل إليهم رسله، ولا ينزل عليهم كتبه، بل يتركهم هملاً كالأنعام، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازى المحسن فيها بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين، فقد ظن به ظن السوء).

لا شك أن كل من أنكر الحكمة والتعليل في أفعال الله ﷻ فقد ظن به ظن السوء وهؤلاء كثير من المتكلمين الذين ينكرون الحكمة في أفعال الله ﷻ عندهم أن الله سبحانه إنما يخلق وإنما يفعل وإنما يقدر لمشيئة محضة لا أنَّ ثمة حكمة من وراء ذلك يحبها الله ﷻ ويريدها.

ولا شك أن هذا من أبطل الباطل ومن ظن خلاف ما يليق بالله ﷻ، حتى إن هؤلاء جوزوا في النظر أن يعذِّب الله أحب أولياءه إليه وأن ينعم في أعلى جنة الخلد ألد أعداءه، لا فرق عندهم بين هذا وهذا، بين أن يكون أبو جهل في أعلى جنات الخلد، أو في أسفل سافلين، أو أن يكون أبو بكر رضي الله عنه في أعلى جنات الخلد أو في أسفل سافلين، لا فرق بين هذا وهذا، إنما فقط كونه أخبر وشاء أن هذا يكون وهذا لا يكون، أما أن يكون هذا غير لائقٍ بحكمة الله ﷻ وأن هذا لا يمكن أن يكون بالنظر إلى ما يقتضيه كماله سبحانه وتعالى، هذا لا التفات عندهم إليه، نعم بالنسبة إلى قدرة الله، الله على كل شيء قدير، لكن الله ﷻ، يفعل ما يفعل، ويقدر ما يقدر بالمشيئة المقترنة بالحكمة، هذا الفرق بين أهل السنة والجماعة ومخالفيهم، وأدلة إثبات الحكمة في أفعال الله ﷻ كثيرة جداً تبلغ المئات بل تبلغ الألوف.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصاً لوجهه الكريم على امتثال أمره، ويبطله عليه بلا سبب من العبد، أو أنه يعاقبه بما لا صنع فيه، ولا اختيار له، ولا قدرة، ولا إرادة في حصوله، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به، أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه ورسله، ويجريها على أيديهم يضلون بها عباده، وأنه يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته، فيخلده في الجحيم أسفل السافلين، وينعم من استنفد عمره في عداوته وعداوة رسله ودينه، فيرفعه إلى أعلى عليين، وكلا الأمرين عنده في الحسن سواء، ولا يرفع امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق وإلا فالعقل لا يقضي بقبح أحدهما وحسن الآخر، فقد ظن به ظن السوء).

هذه مسألة التحسين والتقبيح العقلي، والناس فيها طرفان ووسط:

[المسلك الأول]: أُناسٌ نفوا أن يكون للعقل إدراك لحسن الأشياء أو قبحها.

[المسلك الآخر]: أُناسٌ غلوا في هذا الأمر حتى جعلوا تحسين العقل أو تقبيحه هو الذي يقتضي الإثابة أو التأثيم.

المسلك الوسط هو: العدل في هذا الأمر، وهو أن العقل قد يدرك حسن الأشياء وقبحها ولكن الإثابة والتأثيم إنما هي مرتبطة بالشرع لا بالقدر، الله ﷻ إنما يأمر وإنما ينهى وإنما تترتب الإثابة والتأثيم على أمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا على ما يمليه العقل.

وكثير من الأقوال الباطلة التي قالها المتكلمون مبنية على هذا الأصل وهو نفي التحسين والتقبيح العقلي، عندهم لا فرق بين الصدق والكذب، لا فرق بين النكاح والسفاح كلاهما في حكم العقل سواء، الفرق أنَّ الشرع أمر بهذا ونهى عن هذا فقط.

أما أهل السنة والجماعة فإنهم يقولون إن في الصدق حُسناً تدركه العقول وإن في الكذب قُبحاً تدركه العقول، وإن كان التأثيم أو الإثابة إنما تنبني على ما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا على ما أدركته العقول.

المقصود أن هذا أيضاً راجع إلى نفي الحكمة في أفعال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

على كل حال من خلال ما سمعت وما ستسمع يمكن أن نستخلص قاعدة مهمة، وهي: أنه لا تكاد تجد مبتدعاً إلا وعنده حظ من سوء الظن بالله ﷻ فمقل ومكثر، لا تكاد تجدُّ مبتدعاً إلا وهو واقع في هذا الأمر وهو أنه ظن بالله ﷻ خلاف ما يليق به.

ولذلك فتش في أقوالهم سواءً تعلقت بباب الصفات، أو تعلقت بباب القدر، أو تعلقت بباب النبوات، أو تعلقت بباب الصحابة، أو تعلقت بباب الإيمان تجدُّ أن هذه الأقوال المخالفة للحق لابد وأن يكون فيها طرفٌ من هذا الأمر المذموم وهو أن يُظن بالله غير الحق، أن يظن بالله خلاف ما تقتضيه أسماءه وصفاته ونعوت جلاله وجماله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: (ومن ظن به أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل، وتشبيه، وتمثيل، وترك الحق، لم يُخبر به، وإنما رَمَزَ إليه رموزاً بعيدة، وأشار إليه إشاراتٍ مُلْغِزَةً لم يُصرح به، وصرح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خلقه أن يُتْعِبُوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه، وتأويله على غير تأويله، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة، والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالكشف والبيان، وأحالهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم، لا على كتابه، بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على ما يعرفون من خطابهم ولغتهم، مع قدرته على أن يصرح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، ويريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل، فلم يفعل، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان، فقد ظن به ظن السوء).

سبحان الله! هذا من البلاء العظيم الذي فشا وانتشر مع الأسف الشديد، كم تجد من قائلين وكم تجد في كتب من يقول في بعض آيات الصفات، هذه آية من الآيات الموهمة للتشبيه، يا لله العجب!! حاشا كتاب ربنا أن يكون فيه شيء موهم للتشبيه، أي موهمٌ للكفر والضلال، الله ﷻ إنما أنزل كتابه لكي يكون سبب الهداية لا لكي يكون سبب الشقاء، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾[طه:١-٢].

لكنَّ هؤلاء جعلوا كتاب الله ﷻ سبباً للشقاء، فالله يخبر ﷻ ليس في آية ولا آيتين ولا في ثلاث، بل عشرات بل مئات الآيات، يخبر فيها بما ظاهره الضلال والتشبيه، يعني بما

ظاهرها الكفر بالله ﷻ وهو الذي يأمر بتلاوة كتابة: ﴿اتل ما أوحي إليك﴾[العنكبوت:٤٥]، وهذا الأمر يتناول الصغير والكبير والعالم والجاهل والذكر والأنثى والمتعلم والأعرابي، ومع ذلك الله ﷻ يأمر الناس جميعاً أن يتلوا كتاباً ظاهره يقودهم إلى الضلال يقودهم إلى الكفر، فإذا قرأوا مثلاً قول الله ﷻ: ﴿يحبهم ويحبونه﴾[المائدة:٥٤]، إذا قرأ قول الله ﷻ: ﴿وغضب الله عليهم﴾[الفتح:٦]، إذا قرأ: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾[طه:٥]، إذا قرأ: ﴿وجاء ربك﴾[الفجر:٢٢]، تجد هؤلاء يظنون أن هذه الآيات ظاهرها تشبيه الله ﷻ بخلقه.

إذن كان لازم قولهم أن يكون هذا القرآن كتاب إشْقاء لا كتاب هداية، وهذا مخالف لصريح كتاب الله ﷻ هذا من اعتقده في كتاب الله ﷻ فقد وقع بالكفر به سبحانه، حاشا كتابَ الله أن يكون فيه شيء مُوهمٌ للضلال بل هو مبيِّن غاية البيان بل هو مبين لكل شيء جعله الله ﷻ ﴿تِبْياناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِين﴾[النحل:٨٩]نعم هذه الآيات موهمة للتشبيه عند القلوب المريضة الوسخة التي فيها أصلاً درن التشبيه، هذه التي زادها هذا القرآن عماً على عماها، أما القلوب السليمة القلوب النظيفة القلوب التي عظّمت الله ﷻ وأحسنت الظن به فإنها لا يمكن أن تظن في كتابة وفي كلامه أن فيه شيء موهماً للتشبيه.

هذه مسألة مهمة -يا أيها الإخوان- لانتشار البلاء بها وهي: أن يُقال أن في القرآن آيات موهمة للتشبيه، هذا أساس من أسس البلاء وأسس الضلال يجب الحذر من ذلك بل كتاب الله ﷻ كله هدى وكله نور وكله بيان وكله تبيان ولا يمكن أن يكون فيه شيء مسبب أو يقود إلى الضلال أين يذهب قوله ﷻ: ﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم﴾[النساء:٢٦]، أين يذهب وصف كتاب الله ﷻ بأنه هدى وبأنه نور وبأنه بيان وتبيان إلى آخره؟

إن هذا المعتقد الذي انبنى على هذا الأصل لا شك أنه انبنى على سوء ظن بالله ﷻ، وأضف إلى هذا أنه انبنى على سوء ظن برسول الله ﷺ، هذا النبي الكريم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو الذي تلا علينا كلام الله، هو الذي بلّغ هذا القرآن للأمة، أليس كذلك، كان يتلوا عليهم صباح مساء آيات الصفات، بل هو عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يخبرهم بالأحاديث، يخبرهم أن الله

تعالى ينزل إذا بقي ثلث الليل الآخر إلى سماء الدنيا، يخبرهم أن الله ﷻ يضحك، يخبرهم أن الله ﷻ يقرب إذا شاء، يخبرهم أن الله له وجه وأن له يداً وأن له ساقاً وأن له قدماً وأن له أصابع.

يخبرهم بكل هذه الأحاديث ويتلوا عليهم كل هذه الآيات، ولا مرة واحدة قال لهم استمعوا أنا أخبركم بآيات وأحدثكم بأحاديث ظاهرها الضلال والكفر والتشبيه، إياكم أن تحملوا هذه الأحاديث على ظاهرها بل يجب أن تبحثوا لها عن مخارج وتأويلات على خلاف ظاهرها، أقال هذا رسول الله ﷺ ولو مرة واحدة؟ لا والذي نفسي بيده ما قال هذا لا في حديث صحيح ولا ضعيف ولا موضوع.

ثم أصحاب النبي ﷺ تلقوا هذه الأحاديث، وتلقوا هذه الآيات وبلغوها للتابعين، ثم لم يحذروهم ولو مرة واحدة فيقولون لهم انتبهوا ثمة آيات موهمة للتشبيه حذاري من حملها على ظاهرها، هكذا التابعون لما نقلوا هذا إلى أتباع التابعين ثم جاء بعدهم فئام زعموا أن ثمة آيات وأحاديث بل أكثر صفات الله ﷻ التي جاءت في النصوص صفات لو حملتها على ظاهرها أوهمت التشبيه، أصحاب النبي ﷺ ما استشكل أحد منهم قط حديثاً واحداً أو آية واحدة من آيات الصفات ما قال أحد منهم يا رسول الله كيف تقول إن الله ينزل وكيف تقول إن الله يضحك أليس هذا موهم للتشبيه إنما أصحاب النبي ﷺ لسلامة قلوبهم ولتعظيمهم الله ﷻ وإحسانهم الظن به ما ظنوا بالله إلا كل خير وإلا كل كمال ولذلك لما سمع أحدهم قوله ﷺ: «**يضحك ربنا. قال: أويضحك ربنا؟ قال: نعم، قال لا عدمنا من رب يضحك خيراً**»، أظن هذا الصحابي بالله ﷻ غير الحق أو ظن به الحق؟ وظن به الكمال؟ وظن به الإحسان؟

إذن هذا أصل مهم ينبغي أن تتنبه له وهو أن كتاب الله كله بما اشتمل عليه من آيات الصفات وغيرها لا شك أنه جميعاً ليس فيه شيء يؤدي إلى الضلال إلا عند القلوب التي غَرِقَتْ في أوحال الانصراف عن الحق، هؤلاء نعم وهو عليهم عمى هؤلاء يزيدهم ضلال على ضلالهم أما القلوب التي سلمت لله ﷻ كانت قلوباً سليمة سَلِمَت لله وسَلْمَت لله فهذه لا يمكن أن تظن في الله أو في كلامه هذا الظن.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإن قال: إنه قادرٌ ولم يبين، وعدل عن البيان، وعن التصريح بالحق إلى ما يوهم، بل يوقع في الباطل المحال، والاعتقاد الفاسد، فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء، وظن أنه هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله، وأن الهدى والحق في كلامهم وعباراتهم. وأما كلام الله، فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه، والتمثيل، والضلال، وظاهر كلام المتهوكين الحيارى، هو الهدى والحق، وهذا من أسوأ الظن بالله، فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء، ومن الظانين به غير الحق ظن الجاهلية.

ومن ظن به أن يكون في ملكه ما لا يشاء ولا يقدر على إيجاده وتكوينه، فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن به أنه كان معطلاً من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل، ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل، ثم صار قادراً عليه بعد أن لم يكن قادراً، فقد ظن به ظن السوء).

أهل السنة والجماعة يعتقدون أنَّ الله لم يزل فاعلاً ولم يزل خالقاً، وليس أنه كان معطلاً عن الفعل والخلق، ثم بدأ في الخلق والفعل، فهذا يستلزم نسبة النقص لله ﷻ، وهذا موضوع أظن أنه سبق الكلام فيه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن ظن به أنه لا يسمع ولا يبصر، ولا يعلم الموجودات، ولا عدد السماوات والأرض، ولا النجوم، ولا بنى آدم وحركاتهم وأفعالهم، ولا يعلم شيئاً من الموجودات في الأعيان، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه لا سمع له، ولا بصر، ولا علم له، ولا إرادة، ولا كلام يقول به، وأنه لم يكلم أحداً من الخلق، ولا يتكلم أبداً، ولا قال ولا يقول، ولا له أمرٌ ولا نهى يقوم به، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه ليس فوق سماواته على عرشه بائناً من خلقه، وأن نسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنسبته إلى أسفل السافلين، وإلى الأمكنة التي يرغب عن ذكرها، وأنه أسفل، كما أنه أعلى، فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن به أنه يحب الكفر، والفسوق، والعصيان، ويحب الفساد كما يحب الإيمان، والبر، والطاعة، والإصلاح، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه لا يحب ولا يرضى، ولا يغضب ولا يسخط، ولا يوالى ولا يعادى، ولا يقرب من أحد من خلقه، لا يَقْرُب منه أحد، وأن ذوات الشياطين في القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المفلحين، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه يسوى بين المتضادين، أو يفرق بين المتساويين من كل وجه، أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات في النار أبد الآبدين بتلك الكبيرة، ويحبط بها جميع طاعاته ويخلده في العذاب، كما يخلد من لا يؤمن به طرفة عين، وقد استنفد ساعات عمره في مساخطه ومعاداة رسله ودينه، فقد ظن به ظن السوء.

وبالجملة فمن ظن به خلاف ما وصف به نفسه ووصفه به رسله، أو عطّل حقائق ما وصف به نفسه، ووصفته به رسله، فقد ظنَّ به ظنَّ السوء)

هذا هو الضابط الذي يرجع إليه الكلام المتفرق الذي ذكره

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ :(ومن ظن أن له ولداً، أو شريكاً أو أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه، ويتوسلون بهم إليه، ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه، فيدعونهم، ويحبونهم كحبه، ويخافونهم ويرجونهم، فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته ومخالفته، كما يناله بطاعته والتقرب إليه، فقد ظن به خلاف حكمته وخلاف موجب أسمائه وصفاته، وهو من ظن السوء.

ومن ظن به أنه إذا ترك لأجله شيئاً لم يعوضه خيراً منه، أو من فعل لأجله شيئاً لم يعطه أفضل منه، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه يغضب على عبده، ويعاقبه ويحرمه بغير جرم، ولا سبب من العبد إلا بمجرد المشيئة، ومحض الإرادة، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه إذا صدقه في الرغبة والرهبة، وتضرع إليه، وسأله، واستعان به، وتوكل عليه أنه يخيبه ولا يعطيه ما سأله، فقد ظن به ظن السوء، وظن به خلاف ما هو أهله.

ومن ظن به أنه يثيبه إذا عصاه بما يثيبه به إذا أطاعه، وسأله ذلك في دعائه، فقد ظن به خلاف ما تقتضيه حكمته وحمده، وخلاف ما هو أهله وما لا يفعله.

ومن ظن به أنه إذا أغضبه، وأسخطه، وأوضع في معاصيه، ثم اتخذ من دونه ولياً، ودعا من دونه ملكاً أو بشراً حياً، أو ميتاً يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه، ويخلصه من عذابه، فقد ظن به ظن السوء، وذلك زيادة في بعده من الله، وفي عذابه.

ومن ظن به أنه يسلط على رسوله محمد ﷺ أعداءه تسليطاً مستقراً دائماً في حياته وفي مماته، وابتلاه بهم لا يفارقونه، فلما مات استبدوا بالأمر دون وصيه، وظلموا أهل بيته، وسلبوهم حقهم، وأذلوهم، وكانت العزة والغلبة والقهر لأعدائه وأعدائهم دائماً من غير جرم ولا ذنب لأوليائه، وأهل الحق، وهو يرى قهرهم لهم، وغصبهم إياهم حقهم، وتبديلهم دين نبيهم، وهو يقدر على نصرة أوليائه وحزبه وجنده، ولا ينصرهم ولا يديليهم، بل يديل أعداءهم عليهم أبداً، أو أنه لا يقدر على ذلك، بل حصل هذا بغير قدرته ولا مشيئته، ثم جعل المبدلين لدينه مضاجعيه في حفرته، تسلم أمته عليه وعليهم كل وقت كما تظنه الرافضة، فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه، سواءً قالوا: إنه قادرٌ على أن ينصرهم، ويجعل لهم الدولة والظفر، أو أنه غير قادر على ذلك، فهم قادحون في قدرته، أو في حكمته وحمده، وذلك من ظن السوء به، ولا ريب أن الرب الذي فعل هذا بغيضٌ إلى من ظن به ذلك غير محمود عندهم، وكان الواجب أن يفعل خلاف ذلك).

يعني: قول الرافضة، جميعاً لا يمكن أن يقوم إلا على القول بالقدر، ولذلك هم متابعون في باب الصفات والقدر للمعتزلة، لا يمكن أن يستقيم لهم قول إلا على قول القدرية، والقدرية عندهم أن أفعال العباد خارجة عن مشيئة الله ﷻ وخلقه، ولذلك هذا الذي وقع من اغتصاب الخلافة أو ما ظنوا أو ما زعموا أنه ظلم لآل بيت النبي ﷺ ، فهذا بناء على القول بالقدر خارج عن مشيئة الله ﷻ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لكن رَفَوْا هذا الظن الفاسد بخرق أعظم منه، واستجاروا من الرمضاء بالنار، فقالوا: لم يكن هذا بمشيئة الله، ولا له قدرةٌ على دفعه ونصر أوليائه، فإنه لا يقدر على أفعال عباده، ولا هي داخلةٌ تحت قدرته، فظنوا به ظن إخوانهم المجوس والوثنية بربهم، وكلّ مبطل، وكافر، ومبتدع مقهور مستذل، فهو يظن بربه هذا الظن، وأنه أولى بالنصر والظفر، والعلو من خصومه، فأكثر الخلق، بل كلهم إلا من شاء الله يظنون بالله غير الحق ظن السوء، فإن غالب بنى آدم يعتقد أنه مبخوس الحق، ناقص الحظ وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربى، ومنعني ما أستحقه، ونفسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكره ولا يتجاسر على التصريح به، ومن فتش نفسه، وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها، رأى ذلك فيها كامناً كمون النار في الزناد، فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده).

هذا كلام مهم وينبغي أن يقف عنده الإنسان ملياً وهو أن أكثر الخلق كما ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يظنون أن ما وقع أو يقع عليهم إنما هو ظلم في حقهم فلسان حالهم لا مقالهم "ظلمتني يا رب وفعلت بي خلاف الحكمة ولم تعطني ما أستحق" هذا حال كثير من الناس وإذا أردت أن تعرف مِصداق ذلك فاقدح زنادهم عند المصائب، وانظر إلى الأقوال التي تقال.

كم من الناس إذا ما نزلت به مصيبة قال: "يا رب لم فعلت بي هذا؟ يا رب ماذا فعلت حتى تصنع بي هذا؟" أو تجد أنه يقول "فلان ما يستأهل"، نسمع هذا كثيراً فلان الذي أصيب بحادث أو بمرض يقولون "فلان ما يستأهل"، أو تجد أنه تجري على ألسنتهم أمثال داخلة في هذا الذي نتكلم عنه.

كم من الناس تجد أنه يقول مثلاً: "يعطي الحلق لمن لا آذان له"، نسمع هذا أو لا هذا داخل في هذا الأمر، ماذا تريد؟ تريد أن الله عَزَّ وَجَلَّ فعل خلاف ما تقتضيه الحكمة، يعني أن كان ينبغي أن أُعطى أنا لكن الله أعطى هذا المال وهذا الخير لمن لا يستحق ولمن لا يليق به النعمة، يعطي الحلق لمن لا آذان له.

كل ذلك دليل على خطورة هذا الأمر، ولو فتش الإنسان في نفسه ربما وجد شيئاً كامناً من ذلك، ولا يسلم إلا من أحسن الظن بالله ﷻ، هذا باب إيمانيٌّ علميٌّ ينبغي أن يراجعه الإنسان كثيراً ويفتش في نفسه كثيراً.

سوء الظن بالله ﷻ له أوجه كثيرة، وخطره عظيم، ودواخله كثيرة، ويتزين ويتشكل في صور كثيرة، ينبغي على الإنسان أن يكون فقيهاً وأن يحاسب نفسه محاسبة قوية، محاسبة الشحيح حتى يسلم من هذا الأمر.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولو فتشت من فتشته، لرأيت عنده تعتباً على القدر وملامة له، واقتراحاً عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقلٌ ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك؟

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمةٍ ... وإلا فإني لا أخالك ناجياً

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وليتب إلى الله تعالى وليستغفره كل وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليظن السوء بنفسه التي هي مأوى كل سوء، ومنبع كل شر، المركبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين، الغني الحميد، الذي له الغنى التام، والحمد التام، والحكمة التامة، المنزه عن كل سوءٍ في ذاته وصفاته، وأفعاله وأسمائه، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك، وأفعاله كذلك، كلها حكمة ومصلحة، ورحمة وعدل، وأسماؤه كلها حسنى.

فلا تظنن بربك ظن سوء	فإن الله أولى بالجميل
ولا تظنن بنفسك قط خيراً	وكيف بظالمٍ جانٍ جهول
وقل يا نفس مأوى كل سوء	أيرجى الخير من ميت بخيل
وظن بنفسك السوء تجدها	كذاك وخيرها كالمستحيل

وما بك من تقًى فيها وخيرٍ		فتلك مواهب الرب الجليل
وليس بها ولا منها ولكن		من الرحمن فاشكر للدليل

[انتهى كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ]

٧٨

٧٨- باب: ما جاء في منكري القدر (المجلس الأول).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب:

ما جاء في منكري القدر

فبعد أن بين المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قبح وسوء حال من ظن ظن السوء بالله جَلَّ وَعَلَا أعقب هذا بالكلام عن القدر، وما جاء في منكريه من الذنب والعيب ليبيّن أن من سوء الظن بالله عَزَّ وَجَلَّ إنكار القدر.

الإيمان بالقدر ركنٌ من أركان الإيمان، وأصلٌ من أصول التوحيد، وتحقيق الإيمان بالقدر يثمر ثمرات يانعة عظيمة.

من ذلك أنه **يثمر**:

أولًا: **تحقيق التوحيد**: فإن القدر من فروع توحيد الربوبية؛ لأنَّ الإيمان بالقدر يتضمن إفراد الله عَزَّ وَجَلَّ بالخلق والإعطاء والمنع وما إلى ذلك، ومن حقق توحيد الربوبية فإنه إن وفقه الله قادَهُ إلى تحقيق توحيد الألوهية.

ويثمر ثانيًا: **تحقيق الهداية، وذوق طعم الإيمان**: فإن من آمن بالقدر أدّاه هذا إلى هداية القلب، وإلى ذوق طعم الإيمان كما سيأتي معنا، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[التغابن:١١].

قال علقمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من الله فيرضى ويسلم) أي: فينال الهداية.

وتحقيق الإيمان بالقدر **يثمر ثالثًا**: **تحقيق الإخلاص لله** جَلَّ وَعَلَا: فإن من آمن أن كل شيء بقدر، وأن الناس لا ينفعون ولا يضرون، وأنه لن يصيب الإنسان إلا ما كتب الله له أدّاه هذا إلى أن يقصد وجه الله، ولا يلتفت إلى مخلوق لطلب مدْحة أو ثناء.

ويثمر رابعًا: **تحقيق التوكل على الله**، وذلك أن كل شيء بيده، وهو جَلَّ وَعَلَا مقدِّرُ الأشياء، ولا تكون إلا فيما جرى في علم الله عَزَّ وَجَلَّ وكتابته ومشيئته وخلقه، فإذا كان ذلك كذلك فلأي شيء يعتمد قلبه على غير الله؟

ويثمر ذلك خامسًا: تحقيق الخوف من الله: وذلك أن من علم أن كل شيء مكتوب، كتب الله كل شيء، حتى الهداية والضلال، حتى مقعد الإنسان من الجنة أو من النار، وفي الصحيحين أخبر النبي ﷺ أنه «**ما من مخلوق إلا وقد كُتب مقعده إما من الجنة وإما من النار**»، وإذا كان ذلك كذلك خاف الإنسان ووجِّلَ قلبه؛ لأنه لا يدرِ ما الذي كُتب في حقه في ما كَتب الله ﷻ ولذلك ما أقضّ مضاجع الصالحين شيئًا كشأن الخاتمة، وما كتب الله فيها على العبد.

ويثمر ذلك سادسًا: تحقيق الصبر: والصبر نصف الإيمان، فإن من علم أن كل شيء يصيب الإنسان فهو مكتوبٌ عليه، أدّاه ذلك إلى الصبر، وحبس النفس عن الجزع، وترك الندم ولوم النفس والجزع، فإنَّ ذلك شيئًا لا فائدة منه، فما قدر الله ﷻ فأنه كائن، شاء الإنسان أم أبى، ولن يغني حذرٌ عن قدر.

ويثمر ذلك سابعًا: تحقيق القناعة، وغنى النفس، والسلامة من الحسد:

فلأي شيء يتطلع الإنسان إلى ما في أيدى الناس؟ ولأي شيء يحسدهم على ما أعطاهم الله ﷻ من نعمه، وكل شيء فهو بتقدير الله ﷻ فمن علم ذلك قَنِعَ، وكان غنيّ النفس، سليمًا من آفة الحسد.

ألا قل لمن كان لي حاسدًا ... أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في حكمه ... لأنك لم ترضى بما وهب

هذه بعض ثمرات الإيمان بالقدر.

الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان -كما قد علمت- ودليل ذلك ما جاء في حديث النبي ﷺ الذي هو حديث جبريل المشهور، وسيأتي الكلام فيه قريبًا إن شاء الله، ففيه قد عدّ النبي ﷺ الإيمان بالقدر من أركان الإيمان، وبيّن الله جَلَّ وَعَلَا في غير ما آية أن القدر شيء ثابت: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وأصول ومعاقد باب القدر عند أهل السنة والجماعة، مرجعها إلى ثلاثة أصول، هذه لب باب القدر، وأهم مسائله:

الأصل الأول: أنَّ أهل السنة والجماعة يعتقدون أن كل ما يقع في هذا الكون من الأعيان والأفعال، فإنه راجعٌ إلى علم الله وكتابته ومشيئته وخلقه.

هذه الأمور الأربعة هي التي يسميها أهل العلم مراتب القدر، وهي التي أطبق عليها الرسل وأتباعهم.

علم كتابة مولانا مشيئته   وخلقه وهو إيجاد وتكوين

فكل شيء كائن فأنه قد سبق في علم الله الذي وسع علمه كل شيء: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾[غافر:٧].

ثم إن الله ﷻ كتب ما سبق في علمه أنه واقع كتب ذلك في اللوح المحفوظ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[يس:١٢]، هذا هو اللوح المحفوظ، محفوظ عن التبديل والزيادة والنقصان، ثم إنه لم يقع شيئًا إلا لأن الله ﷻ قد شاءه، فالمشيئة هي الموجبة للأشياء على الحقيقة، وكل شيء واقع فأنه لم يقع إلا عقيب مشيئة الله ﷻ، ولو شاء الله ألا يقع فأنه لن يقع، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

ثم أخيرًا الخلق، فكل شيء مخلوق لله ﷻ ليس ثمة موجود إلا الخالق والمخلوق، والخالق واحدٌ هو الله جَلَّوَعَلَا فما عداه فهو مخلوق ﴿الله خالق كل شيء﴾، ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديرا﴾.

إذًا الأمر كما قال أبو حازم سلمة بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنَّ الله علم قبل أن يكتب، وكتب قبل أن يخلق، فمضى الخلق على علمه وكتابته).

فكل شيء في هذا الكون لم يكن أُنُفًا، ولم يكن مُبتدأ، حاشا وكلا، بل إنه واقع وِفْقَ تقدير الله ﷻ وهذا التقدير راجع كما علمت إلى هذه المراتب الأربع: عِلْمِ الله، وكتابته، ومشيئته وخلقه.

الأصل الثاني: أن أهل السنة والجماعة لا تعارض عندهم بين إثبات مشيئة الله لأفعال العباد، وخلقه لها، وبين إثبات مشيئة العباد وأفعالهم.

تنبه -يرعاك الله- إلى أن ها هنا أربعة أمور يثبتها جميعا أهل السنة والجماعة:

[الأمر الأول]: أن كل ما يقع من أفعال العباد وتصرفاتهم وحركاتهم وسكناتهم فإن هذا واقع بمشيئة الله ﷻ حتى أن مشيئتهم مرتبطة بمشيئة الله:. ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[التكوير:٢٩]

[الأمر الثاني]: أن أفعال العباد مخلوقة لله جَلَّوَعَلَا .

أوليس قد قام الدليل بأن أفعال العباد خليقة الرحمن

من ألف وجه أو قريب الألف يحصيها الذي يعنى بهذا الشأن

فأفعال العباد مخلوقة كما أن أعيانهم وذواتهم مخلوقة، والله جَلَّوَعَلَا من حكمته أنه قد يخلق بلا واسطة ، وقد يخلق بواسطة.

خلق آدم، والجنة، والنار، وغير ذلك بلا واسطة.

وخلق حواء، وخلق المطر، وخلق النبات، وخلق البشر بتوسط أسباب مع غناه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن هذا التوسط وعن تلك الأسباب، لكنها حكمة الله، والله حكيم عليم.

ومن ذلك أفعال العباد، الله عَزَّوَجَلَّ خلقها بواسطة العباد، فهي داخلة تحت عموم قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزمر:٦٢].

الأمر الثالث: إثبات مشيئة العبد، فالعبد له مشيئة، له إرادة بها يفعل: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾[التكوير:٢٨] ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾[البقرة:٢٢٣].

وإثباتُ هذا أمرٌ ضروري، فكل إنسان يعلمُ من نفسه أن له مشيئة، وأنه يفعل وفق مشيئة.

الأمر الرابع: إثبات أفعال العباد، وأنها قائمة بهم حقيقة، فالعبد هو الذي فعل، العبد هو الذي قام، والعبد هو الذي قعد، والعبد هو الذي صلّى، والعبد هو الذي أذنب، ولذلك فإنه يتحمل مسؤولية فعله، ويكون جزاءه على فعله من عدل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[البقرة:٢٨٦]، ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النمل:٩٠].

إذًا هذه أمور أربعة يثبتها أهل السنة والجماعة، ولا يعتقدون أن ثمة تعارضًا بينها.

الأصل الثالث: أن الهداية والإضلال بإذن الله جَلَّوَعَلَا فالله عَزَّوَجَلَّ يهدي من يشاء نعمة منه وفضلا، ويضل من يشاء حكمة منه وعدلا، قال سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[الحجرات:٧-٨].

هذه الأصول الكبار يحتاج بسط الكلام فيها إلى وقت واسع، لكنَّ المهم عندي هو الإحاطة بها الآن إجمالا.

نأتي الآن على ما بوّب عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب قال: (باب ما جاء في منكري القدر).

المنحرفون في هذا الباب الذين تجاوزوا الصراط المستقيم إما إلى إفراط أو تفريط يجمعهم مسلكان أو فرقتان.

المسلك الأول: مسلك الجبرية، والمسلك الثاني: مسلك القدرية.

الجبرية: غلوا في إثبات قدر الله عَزَّوَجَلَّ حتى نفوا مشيئة العبد وقدرته وفعله، وهؤلاء درجتان:

درجة غالية، ودرجة مقتصدة.

ولا كلام لنا فيهم لأنهم ليس المقصودين في هذا الباب.

أما المسلك الثاني أو الطائفة الثانية: فإنهم القدرية، والقدرية: هم نفاة القدر، وهذا الإطلاق جاء على خلاف الغالب، الغالب أنَّ الفرقة يضاف إليها المقالة التي تثبتها لا التي تنفيها، لكن قد يقع خلاف ذلك، ومن ذلك هذه التسمية القدرية فأن هؤلاء سموا بالقدرية لأنهم نفاة القدر، وهؤلاء على درجتين:

غلاتهم ومتقدموهم: نفوا علم الله عَزَّوَجَلَّ وكتابته، وبالتالي يكونون نافين لمشيئته وخلقه، وهؤلاء نبتت نابتتهم في أواخر عهد الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بعد انقراض عهد الخلفاء الراشدين، بل وعهد معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ نشأوا في الفترة التي كانت فيها الفتنة بين ابن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وبني أمية، نشأت في البصرة، وكان أول من قال بهذا القول رجل اسمه: مَعْبد الجهني، وهؤلاء قد أجمع السلف الصالح على كفرهم، وكلُّ أدلة الكتاب والسنة ترد مذهب هذه الفئة الضالة الذين نفوا علم الله عَزَّوَجَلَّ وجعلوا الأمور أُنُفًا، يعني: مستأنفة جديدة لا يعلم الله الأشياء حتى تقع، فإذا وقعت علمها الله، فضلًا عن أن يكون قد كتبها، أو أن تكون واقعة بمشيئته، أو أنه هو الذي خلقها، وهذا معلومٌ كفرُ قائله بالاضطرار من دين الله عَزَّوَجَلَّ وهذه الفرقة قد تلاشت واضمحلت، فلا يُعرف في الفرق المعروفة المشتهرة من يقول بهذه المقالة.

أما الفرقة أو المرتبة الثانية من هؤلاء القدرية فهم: مقتصدوهم؛ الذين أثبتوا علم الله القديم، وكتابته في لوح محفوظ؛ لكنهم أنكروا عموم المشيئة وعموم الخلق.

وما معنى ذلك؟

معنى ذلك: أنهم أخرجوا أفعال العباد عن أن تكون داخلة تحت مشيئة الله ﷻ أو أن يكون الله خَالَقًا لأفعال العباد، عندهم أن الله ﷻ شاء الأشياء باستثناء أفعال العباد، وعندهم أنَّ الله خلق الأشياء باستثناء أفعال العباد، وهؤلاء هم المعتزلة ومن لف لفهم، وكلَّا الطائفتين يطلق عليهما القدرية على تفاوت في الحكم عليهما، وذلك أنَّ أهل العلم أجمعوا على كُفْرِ الفرقة الأولى بخلاف الفرقة الثانية، وكلاهما يسمى القدرية المجوسية، وأدلة بطلان حكمهم كثيرة جدًا حتى ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((تهذيب السنن)) أشار إلى أنه تصفح أدلة الكتاب والسنة الرادة على مذهب القدرية المجوسية فوجد أنها تزيد على خمسمائة دليل، كلها شاهدة على بطلان مذهب هؤلاء القدرية، ومجمع انحرافهم راجع إلى ثلاثة مسائل.

لبُّ وخلاصة انحرافهم يرجع أو ترجع إلى ثلاثة مسائل:

[الأمر الأول]: أنهم أنكروا أن تكون أفعال العباد واقعة بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والأمر الثاني: أنهم أنكروا أن تكون أفعال العباد مخلوقة الله ﷻ.

والأمر الثالث: أنكروا أن تكون الهداية والإضلال بيد الله ﷻ.

عندهم ليس ثمة شيءٌ أعان الله به المؤمنين، وهدى به قلوبهم، وخصهم به فكانوا به مؤمنين، إنما الشيء الذي هُديَّ به المؤمنون هو الشيء الذي هُديَّ به الكفار، هو لا يتجاوز هداية الدلالة والإرشاد.

أما أن يكون الله ﷻ قد خصَّ المؤمنين بشيء زائد هو هداية قلوبهم فإن هذا عندهم باطل، و يكفي في الردِّ عليهم قوله تعالى: **﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾[الحجرات:٧]**، والأدلة في إثبات هذا بالعشرات.

هؤلاء هم منكروا القدر، وحكمهم كما قد علمت أن الغلاة منهم المنكرين لعلم الله ﷻ وكتابته، هؤلاء كفار بإجماع السلف.

أما من عداهم من الطائفة التي هم دونهم، فالأصل في هذه الفرقة أنها فرقة ضالة مُتبِعة، إلا في حق من قام أو قامت عليه الحجة بعينه فأنه لا شك أن من كذب دليلًا واحًدا من الكتاب والسنة، وقامت على صاحبة الحجة، فلا شك في كفره، فكيف بعشرات أو مئات الأدلة التي يُكّذّبُ بها هذا الإنسان في حقيقة الأمر.

الخلاصة أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين في الأدلة التي ساقها في هذا الباب الرد على هؤلاء الذين أنكروا قدر الله جَلَّ وَعَلَا والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن عمر: «والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم مثل أحدٍ ذهبًا، ثم أنفقه في سبيل الله؛ ما قبله الله منه؛ حتى يؤمن بالقدر .....».

هذه قطعة من حديث ابن عمر الذي رواه عن أبيه، عن النبي ﷺ وقد خرجه الإمام مسلم في صحيحه، وهو أول حديث في كتاب الإيمان، بل هو أول حديث في صحيح مسلم، وفيه أن يحي بن يعمر، وحميد بن عبد الرحمن الحميري ترافقا حاجين أو معتمرين، وأرادا أن يسألا أحدًا من أصحاب النبي ﷺ عن المقالة التي ظهرت قبلهم في البصرة، وهي مقالة معبد الجهني وأتباعه الذين كانوا يقولون أن الأمر أُنُف؛ يعني لم يسبق الأمر في علم الله عَزَّوَجَلَّ ولم يكتب الله عَزَّوَجَلَّ شيئا إنما يعلم الله الأشياء بعد وقوعها.

فَوُفِقَ لهم عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وهو داخلٌ إلى المسجد، فاكتنفاه ثم تكلم يحي بن يعمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وبيّن له أن أناس قبلهم يقرأون القرآن، ويتقفرون العلم، يعني: يتتبعون العلم، وهذا يدلك على أنه ليس كل من طلب العلم، وقرأ القرآن يكون على الصراط المستقيم، بل إذا لم يهده الله عَزَّوَجَلَّ طالب العلم إلى سلوك الصراط السوي فأنه قد يجني عليه علمه، وقد يضل عياذًا بالله.

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى   فأول ما يجني عليه اجتهاده

العلم عند أهل العلم سببٌ للهداية، وليس أنه لا أنه ملزومٌ للهداية انتبه لهذا.

العلم ليس الهداية مرتبة عليه ترتب العلة للمعلول، العلم سبب، ولكنَّ السبب بحاجة إلى أسباب أخرى، لا يوجد سببٌ يستقل بوجود المسَبَب بل لابد من وجود أسباب أخرى، ولابد أيضًا من زوال المانع، ولابد من هداية من الله عَزَّوَجَلَّ، ولذا كم ممن كان عنده علمٌ فضل عن الصراط المستقيم -عافاني الله وإياكم من ذلك-.

المهم أنَّ ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا لما حدّثاه بخبر هؤلاء القوم القدرية بيّن براءته رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ منهم، وقال: إذا لقيت هؤلاء فأخبرهم أني بريء منهم وهم مني براء، والذي يحلف به عبد الله بن عمر أقسم بالله، هكذا الرواية في مسلم، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كأنه ساقها بالمعنى،(والذي نفس

ابن عمر بيده)، ليست هذه الرواية مسلم، نصُّ صحيح مسلم: «**والذي يحلف به عبد الله بن عمر، لو كان لأحدهم مثل أحدا ذهبا فأنفقه في سبيل الله لم يقبل منه حتى يؤمن بالقدر خيره وشره**».

شاهد هذا في كتاب الله: ﴿**وما منعهم أن تقبل نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله**﴾[التوبة:٥٤]، فهو أثبت ها هنا كفرهم؛ لأن عدم قبول أعمالهم ونفقاتهم إنما كان بسبب كفرهم بالله ﷻ، ولاشك في أنَّ من قال بهذا القول فنفى قدّر الله ﷻ لاشك في كفرهم بالإجماع، وهذه البراءة وهذا الذم الذي جاء عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قد جاء عن غيره أيضا من أصحاب النبي ﷺ الذين أدركوا هذه المقالة، ومن أولئك ابن عباس، ومن أولئك جابر بن عبد الله، ومن أولئك واثلة بن الأصقع رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

المقصود أنَّ ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عقّب على هذا بأن حدّث هذين بما حدثه به أبوه عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا من قصة إتيان جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ للنبي ﷺ وما جرى في هذا الحديث من بيان الإسلام والإيمان والإحسان، والشاهد من ذلك: أن النبي ﷺ عدَّ من أركان الإيمان: الإيمان بالقدر، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ:

ثم استدل بقول النبي ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره» رواه مسلم.

وعن عبادة بن الصامت؛ أنه قال لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك ما يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ...

هذا الحديث الثاني الذي أورده المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ ، وفيه: وصية عبادة بن الصامت رضي الله عنه لابنه واسم ابنه: الوليد، كما جاء مصرحًا به في رواية الترمذي، وهذا الحديث بيَّض المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ عند نهايته كأنه أراد أن يعزوه فلم يتيسر له، وهذا اللفظ الذي بين أيدينا عند أبي داود بسننه، ورواه الترمذي وغيره.

وفيه وصية عبادة رضي الله عنه لابنه، وهكذا كانت عادة السلف الصالح، أنهم يتخولون أولادهم بالوصية والنصيحة لا أنهم يتركون لهم الحبل على الغارب، يغفلون عنهم انشغالًا

بالدنيا، ولا يدرون في أي وادٍ يهيم أولادهم، إنما كانوا يعتنون بهم بالنصح والبيان والتوجيه، لاسيما في أهم الأمور، وهو أمر الدِّين والتوحيد والاعتقاد.

ربما تجد من الناس من ينصح ولده لكنَّ نصحه لا يتجاوز أمر الدنيا ينصحه في شأن الدراسة، ينصحه بشأن العمل، ينصحه بشأن اكتساب المال، لكن أن تكون النصيحة متعلقة بأهم الأمور على الإطلاق بشأن الدِّين، فإن هذا قليلٌ ما يتنبه له مع الأسف الشديد، وقد جاء في رواية الترمذي: أن عطاء بن أبي رباح سأل الوليد بن عبادة عن آخر وصية له أوصاك بها قبل الموت، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنه دعاني" يعني: عبادة ﷺ، فقال: "يا بني أوصيك أن تؤمن بالله، وبالقدر خيره وشره، فإنك إن لم تفعل أدخلك الله النار" هذه كانت آخر وصية أوصى بها عبادة ابنه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ و رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

المقصود أن هذا مما ينبغي أن يُستفاد منه في هذا الأثر.

قال ﷺ في هذا الحديث: (لن تذوق طعم الإيمان حتى تؤمن بالقدر)، وهذا فيه فائدة: وهي أن للإيمان طعمًا، وهذا الطعم حقيقيٌ يذوقه من يبلغُ هذه الدرجة، وهي تحقيق الإيمان، كما أنَّ للأكل طعمًا حقيقيًا يذوقه من يأكله، كذلك للإيمان طعمًا حقيقيًا يذوقه ويشرب به من يبلغ تحقيق الإيمان، وذلك بأن يؤمن بالقدر خيره وشره.

"يا بني؛ إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك ما يكن ليخطئك، وما أخطئك لم يكن ليصيبك".

هذا فيه إثبات القدر، من آمن بالقدر عَلِمَ هذا العلم، وأن الشيء الذي أصابه من سرور أو ضدِّه فإنه لا يمكن أن يتخلف قدر الله عَزَّوَجَلَّ ما أراد الله عَزَّوَجَلَّ وقوعه فسيقع شئت أم أبيت، لا يمكن أن يُخْطِأَ صاحبه، كذلك العكس الشيء الذي لم يقدره الله لك الذي وصل إلى غيرك، ولم يصل إليك، يجب أن تعلم أنه لن يصل إليك مهما فعلت.

إذًا عليك أن تركن إلى الرضا والتسليم والإذعان، وتترك الحسرة والندم ولوم النفس فإن هذا لا فائدة منه، كل شيء بقدر الله عَزَّوَجَلَّ قال النبي ﷺ كما في صحيح مسلم: «**كل شيء بقدر حتى العجْز والكَيْس**»، **أو قال الكيس والعجز**»، كل شيء حتى الذكاء والحنكة والتدبير من قدر الله، كذلك العجز والتقصير والحمق أو قلة الذكاء وقلة التدبير، هو أيضًا

قدر الله ﷻ إذًا ما على الإنسان إلا أن يبذل الأسباب، ثم بعد ذلك يفوض الأمر إلى الله ﷻ وليعلم أن تدبير الله خيرٌ من تدبيره، وأن خيرة الله خيرٌ من خيرته لنفسه.

فَوِّضِ الأمر إليه   فهو أولى بكَ منكَ

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال ربِّ!: وماذا اكتب؟

قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»

هذا المقدار من الحديث هو بعده يحتاج إلى بسطٍ أكثر لعلنا نؤجله إلى درس غد إن شاء الله، والله تعالى أعلم.

٧٩

٧٩- باب ما جاء في منكري القدر (المجلس الثاني).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنه قال لابنه: يا بنيَّ؛ إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: ربِّ! وماذا أكتب؟، قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة».

كنا توقفنا في درس البارحة عند الكلام عند حديث عبادة رضي الله عنه، وهذا الحديث فيه مسألتان:

[المسألة] الأولى: ما سبقت الإشارة إليه من أن للإيمان طعماً يُذاق، ولن يذوق طعم الإيمان إلا من حقق الإيمان بالقدَّر الذي يعلمُ أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

فيؤمنُ بقول الله عز وجل: ﴿لَن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾**[التوبة:٥١]**، فهو يعلم ويوقن بأن كل شيء يقع في هذا الكون فإنه مقدر من الله عز وجل، قد سَبَق القضاء به في علم الله وكتابته ومشيئته وخلقه، ومن كان كذلك فأنه سيطمئن وترتاح نفسه، ويدع التلوم والتحسر؛ لأنه يعلم أن قدر الله عز وجل لا مفر منه، وأن قدر الله كله خير لعبده، فعند ذلك يجد لهذا التسليم ولهذا الإيمان حلاوة يذوقها بقلبه.

أما المسألة الثانية: وهي ما أخبر به رضي الله عنه عن النبي ﷺ من قوله: **«إن أول ما خلق الله القلم، فقال له أكتب»** هذا الحديث فيه إثبات المرتبة الثانية من مراتب القدر وهي الكتابة، فالكتابة كانت بالقلم الأول الذي خلقه الله جَلَّوَعَلَا، وأجرى به المقادير وكان ذلك قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

كما ثبت هذا في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمر بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: **«كتب الله مقادير كل شيء قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال وعرشه على الماء»**، وهذا الحديث فيه مسألة جديرة بالتنبيه عليها وهي

قوله ﷺ: «إن أولَ ما خلق الله القلمَ»، أو «أولُ ما خلق الله القلمُ»، هل هذه أو هل هذا الحديث أو هل هذه القطعة من الحديث جملة أو جملتان؟

قُرأَ الحديث بكليهما، قُرِأَ على أنه جملة **«أولَ ما خلق الله القلمَ فقال له أكتب»** بفتح أول، وبفتح القلم، وعليه: فيكون إعراب (أول): ظرف؛ إعراب هذه الكلمة أنها ظرف زمان، يعني: أنه عند ابتداء خلق القلم قال الله ﷻ له أكتب، **هذا هو التوجيه الأول**.

والتوجيه الثاني: أن هذه القطعة من الحديث جملتان، وينطقُ الحديث بناءً على ذلك بضمِّ كلمة (أول) وبضم كلمة (القلم): «أولُ ما خلق الله القلمُ»، ثم ما بعده جملة جديدة مستأنفة فيكون (أول) أو فتكون هذه الكلمة مبتدأ وخبرها (القلم)، **أول** مبتدأ والخبر **القلم**.

والأقرب والله تعالى أعلم هو الأول، وهذا ما اختاره جماعة من المحققين.

يعني: أن النبي ﷺ أخبر أنه عند ابتداء خلق القلم قال الله ﷻ له: «**أكتب**»، فكتب كل شيء إلى قيام الساعة.

وعلى التقدير الثاني وهو: أنهما جملتان، وأنَّ الجملة الأولى مبتدأٌ وخبر، فليس المراد من قول النبي ﷺ: «أولُ ما خلق الله القلم» أنَّ القلمَ هو أول المخلوقات على الإطلاق، إنَّما الأولية هاهنا أوليةٌ نسبية، بمعنى: أنَّ أولّ مخلوق من هذا العالم المشهود الذي خلقه الله في ستة أيام، وهو العالم الذي نعلمه أول ما خلق الله ﷻ منه كان القلم، وذلك لأنه سببُ إيجاد هذا العالم، فتقدير المخلوقات متقدمٌ على خلق المخلوقات، فالتقديرُ سابقٌ لخلق السماوات والأرض، فلأجل هذا أخبر النبي ﷺ أنه أولُ المخلوقات، وليس قَطْعَاً يراد من هذا الحديث أنه أول المخلوقات على الإطلاق، فإن المقطوع به أنَّ الله ﷻ لم يزلْ خالقاً، لم يكن معطلاً عن الفعل والخلق، ثم ابتدأ هذا الكمال، بل لم يزل الله ﷻ فعالاً، ولم يزل الله ﷻ خالقاً، لم يزل الله ﷻ رباً، ولم يزل الله ﷻ إلهاً.

وها هنا يبحث أهل العلم مسألة أولية الخلق بين القلم والعرش، يعني أي هذين المخلوقين خُلِقَ قبل الآخر؟

اختلف السلف والعلماء في هذه المسألة إلى قولين:

[القول الأول]: إنَّ القلم أسبق خلقاً من العرش، واختار هذا جماعة من أهل العلم ومنهم ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والقول الثاني: وهو الذي عليه جمهور السلف، كما نقل هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المجلد الثامن عشر من ((مجموع الفتاوى)) أن العرش والماء مخلوقان قبل القلم، ويدل على هذا أن الحديث الذي بين أيدينا وهو حديث عبادة رضي الله عنه فيه بيانُ أنَّ الكتابة - أعني كتابة المقادير- كانت عقيب خلق القلم؛ فأن النبي ﷺ أخبر أنه «**أول ما خلق الله القلم، فقال له أكتب**»، فلاحظ التعقيب ها هنا بالفاء، فيدل على أنه عقيب خلق القلم كانت الكتابة؛ وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص في ((صحيح مسلم)) أخبر فيه النبي ﷺ بـ «**أن الله كتب مقادير كل شيء قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء**».

إذن كان العرش والماء موجودان قبل حصول هذه الكتابة، وبالتالي فيكون العرش والماء موجودان قبل خلق القلم.

ويشهد لهذا أيضاً ما ثبت في ((صحيح البخاري)) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض وكتب مقادير كل شيء**»، لاحظ معي أنَّ العطف ها هنا كان بـ (ثُمَّ) التي تدل على الترتيب والمهلة، فكان خلقُ السماوات والأرض وكتابة المقادير بعد وجود العرش والماء، فدل هذا على أنَّ العرش والماء متقدمان وجوداً على القلم.

وفي هذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والناس مختلفون في القلم الذي ... كُتب القضاء به من الديان
هل كان قبل العرش أو هو بعده ... قولان عند أبي العلا الهمذاني
والحق أن العرش قبل لأنه ... قبل الكتابة كان ذا أركان

لكن لاحظ -يارعاك الله- أن المسألة ها هنا البحث فيها يتعلق بأولية الخلق بين هذين المخلوقين وليس في الأولية المطلقة، فإن الذي عليه أهل السنة والجماعة، وهو الذي لا يشك فيه من نظر في النصوص، وعَرَفَ عظمة الله عَزَّ وَجَلَّ أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لم يزل خالقاً، فكلّ مخلوق، فالله عَزَّ وَجَلَّ قد خلق قبله مخلوقاً، والعوالم التي خلقها الله عَزَّ وَجَلَّ لا حصر لها قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل:٨]، فكل مخلوق خلق الله تعالى قبله مخلوق، والذي قبله خلق الله قبله مخلوقاً.

وهكذا فلم يزل الله ﷻ خالقاً في الأزل كما أنه لم يزل خالقاً للأبد، فإن كل مخلوق خلقه الله ﷻ فإنه سيخلق بعده مخلوقاً، وهكذا سيستمر الأمر إلى ما لا نهاية من جهة الأبد، كذلك الأمر ثابت في الأزل كما قال ابن القيم رحمه الله في ((النونية)):

بل كل فرد فهو مسبوق بفرد   قبله أبداً بلا حسبان

ونظير هذا كل فرد فهو ملحو   ق بفرد بعده حكمان

كلا الحكمين ثابتان، التسلسل في الخلق من جهة الأزل يعني من جهة الماضي، والتسلسل في الخلق من جهة الأبد يعني من جهة المستقبل، والذي يلزم أحد الأمرين لازم للآخر ولابد، وعلى كل حال المسألة فيها بحثٌ ليس هذا موضع تفصيله.

إذن الخلاصة التي نريد أن نصل إليها ثبوت مرتبة من مراتب القدر، هذا ما نستفيده من حديث عبادة رضي الله عنه -الذي بين أيدينا- وهو: أن الله ﷻ كتب كل شيء مما هو كائن قبل خلق السماوات والأرض وإلى قيام الساعة، وظاهر الحديث كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الكتابة كانت إلى هذا الحد إلى قيام الساعة، ولم تكن الكتابة لما بعد ذلك، والله تعالى أعلم.

قال رضي الله عنه: يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من مات على غير هذا فليس مني)).

من مات على غير هذا فكان مكذباً للقدر، مكذباً لعلم الله الصادق أو كتابته أو مشيئته أو خلقه أو مكذبًا لهذه جميعاً، فلا شك أنه ليس من النبي ﷺ، ليس من دينه وليس من ملته، فإن من أنكر القدر إنكاراً صريحاً لا شك في أنه ليس من الإسلام في شيء.

وفي رواية لأحمد: «إن أول ما خلق الله تعالى القلم فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة».

وفي رواية لابن وهب: قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره؛ أحرقه الله بالنار».

قال: (وفي رواية لابن وهب)، وابن وهبٍ هو: الإمام العالم الجليل عبد الله بن وهب المصري، المتوفى سنة سبعة وتسعين ومائة، وهذه الرواية موجودة في كتابه ((القدر))، فإنه أفرد باب القدر بكتاب مطبوع، وفيه: أن من لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار.

ولا شك أن من كذَّب بالقدر فهو كافر بالله ﷻ وقد توعد الله الكفار بالنار وهذه الرواية فيها مسألة: وهي إثبات الخير والشر في المقدَّرات، يعني: فيما يقدره الله ﷻ.

مسألة الشر مسألةٌ تحتاجُ إلى تفصيل، اعلم -يارعاك الله- أن هذا الموضوع منضبط عند أهل السنة والجماعة بضابطين انتبه لهما.

الضابط الأول: أنَّ الشر يضاف إلى مقدور الله ومفعوله ومخلوقه، لا إلى خلق الله وفعله؛ الله ﷻ لا يُضاف الشر إليه، لا إلى ذاته ولا إلى أسمائه، ولا إلى صفاته، أليس النبي ﷺ قد قال كما في ((صحيح مسلم)): «**والشر ليس إليك**»، ليس الشر إلى الله ﷻ البتة، بل فعله كلُّه خير، وما يضاف إلى الله ﷻ كله خير، صفاته كلها خير، وأسماؤه كلها خير، الشر لا يضاف إلى الله ﷻ البتة.

إنما يُضاف الشر إلى المقدور المخلوق لا إلى الخالق ﷻ، وذلك أنَّ المعلوم عند جميع العقلاء أن الله ﷻ إذا خلق شيئاً في شيء عاد حكم هذا الشيء إلى المخلوق لا إليه ﷻ؛ لأنَّ الصفة تتبع الذات التي وصِّفَتَ بهذه الصفة.

فإذا كان الله ﷻ خالق للأشياء، ومنها ما يكونُ شراً أو يكون قبيحاً لم يعد حكمُ هذا الوصف إلى الله ﷻ، إذا خَلَقَ الله ما رائحته قبيحة أو إذا خلق الله ما شكله قبيح؛ عادَ حكمُ القبح على ما قام به هذا القبح، وليس إلى الله ﷻ.

فالمخلوق هو الذي يُوصَّفُ بالشر يُوصَّفُ بالقبح ويتنزه الله تعالى عن ذلك، وذلك أنَّ خَلْقَ الله ﷻ لهذا القبيح خير، وجه ذلك: أنَّه يترتبُ على وجوده حكمة مصلحة وجودها خيرٌ من عدمها، ولأجل هذا خَلَقَ الله ﷻ هذا الشر، مع ملاحظة أن يراعيَّ الإنسان الأدب مع الله ﷻ فلا يضيف إليه ﷻ أيضاً الخلق للشر على جهة الإفراد، لا يقول قائل مثلا: "الله خالق الكلاب، والقردة، وخالق الكفر والمعاصي"، هكذا دون وجود حكمة في هذا الكلام، إنما يدخل هذا الشر في عموم قوله ﷻ مثلاً: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزمر:٦٢].

المقصود أن الله ﷻ إذا خلق شيئاً فيه شرٌ، فإن إيجاد هذا الشيء حكمةٌ ومصلحةٌ وخيرٌ محض؛ لأنه يترتب عليه خير عظيم.

أُقَرِّبُ إليك المسألة: كلُّ العقلاءِ يدركون أن الأشياء منها ما يراد لذاته ومنها ما يراد لغيره.

ما معنى: ما يراد لغيره؟

لو أن ابنا لرجل أصيب بمرض، أصيب مثلاً في رجله -عافاني الله وإياكم- بمرض يسري في جسده ولو لم يُستأصل هذا العضو فإن المرض سيسري؛ يعني: كأن يصاب والعياذ بالله بـ"غرغرينا" كما يقولون في الرِّجْل، لو لم تقطع الرِّجْل فإن هذا المرض ماذا سيحصل له؟ سيستمر حتى يموت هذا الإنسان.

هذا هو المعروف عند الطب، ولأجل هذا ربما تجد الأب المحب المشفق يأخذ ابنه بنفسه ويذهب به إلى الطبيب ويعاونه على مسك ابنه لأجل أن يقطع هذا الطبيب رجله. أليس كذلك؟ والسؤال هل هذا الأب غيرُ محبٍّ لابنه لا يريد له الخير؟

بل يحبه كل الحب، والدليل أنه حريص على مصلحته.

قد يقول قائل، إذن كيف يذهب به ويعينه على قطع رجله؟

الجواب أن قطع الرجل ها هنا ليس مقصوداً لذاته إنما هو مقصوداً لغيره؛ لو لم تُقطع رجله فإن المرض سيسري ويكون التلف والتقدير بإذن الله ﷻ.

إذن ارتكاب هذه المفسدة كان في حقيقة الحال مصلحة، وكان هو الحكمة، وكان هو الخير.

إذن قد يُقْصَدُ الشيء لغيره يعني لا لذاته إنما لما يترتب على وجوده، هذه الصورة تقرب لك المسألة التي بين أيدينا ولله المثل الأعلى، فالله ﷻ إذا قدّر حصول ما يكره، فإنما قدّره؛ لأنه يترتب عليه ما يحب، إذا قدّر الله ﷻ خلق إبليس، إذا قدّر الله وجود المعاصي، وجود الكفر، فإنه يترتب على وجود هذا الذي يكرهه ما يحبه الله ﷻ، فلأجل هذا أوجد الله ﷻ هذه المخلوقات التي فيها شر.

وإذا أردت أن تتوسع في فَهْمِ هذه المسألة فارجع إلى ما دونه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه العظيم ((مفتاح دار السعادة))، فإنه تكلم عن هذه المسألة بكلام نفيس، بل أشار في أحد المواضع إلى الفوائد العظيمة التي يمكن أن تُلْتمس لخلق الله ﷻ للمعاصي، لما خلق الله المعاصي وجدت التوبة التي يحبها الله ﷻ، لما خلق الله المعاصي كان ما يحبه الله ﷻ من

مغفرة الذنوب، لما وجدت المعاصي وجدت عبودية المجاهدة التي يحبها الله ﷻ، ذكر ابن القيم ما يزيد على ثلاثين فائدة لتقدير الله ﷻ للمعاصي.

إذن إذا نظرنا إلى فَعْلِ الله القائم به ﷻ فإن ما يقدِّرهُ ﷻ خير محض وحكمة محضة ومصلحة محضة.

أما الضابط الثاني فهو: أن الشر يضاف إلى المخلوق المقدَّر، ومع ذلك لا يوجد فيما يخلقه الله ما هو شرٌ محضٌ، لا يوجد فيما يخلقه الله ﷻ شرٌ محض؛ بل لابد أن يكون هذا الذي خلقه الله ﷻ وفيه شر؛ الشر فيه نسبي جزئي وليس شراً محضاً، لابد أن يكون في وجوده خير؛ ويترتب على وجوده خير.

أما أن يكون شراً من جميع الوجوه ولا فائدة تترتب على وجوده فإنه ليس في المخلوقات شيء من ذلك، لم يخلق الله ﷻ شراً محضاَ، انتبه لهذا الضابط المقرر عند أهل السنة والجماعة وله شواهد من الأدلة كثيرة.

لا يوجد ما هو شرٌ محض؛ بل ما فيه شر فإن الذي فيه شر الشر فيه نسبي جزئي، يعني ليس شراً محضاً ليس شراً كما يقولون مائة بالمائة، بل لابد أن يكون فيه شر وخير، ولأجل هذا خلقه الله ﷻ.

أما شر كامل شر محض فهذا عدم وهو غير موجود وليس في خلق الله ﷻ شيء منه.

إذن فَهْمُنَا لهذا الأمر يتضح به معنى ما جاء في هذه الرواية وهو الإيمان بالقدر خيره وشره قد يقدِّر الله ﷻ ما فيه شر، ولكنَّ هذا الشر شر في المخلوق المقدَّر وليس راجعاً إلى فعل الله الذي يقوم به، وهذا الشر أيضاً ليس شراً محضاً، بل إنما هو شر من وجه وفيه خير من وجه من حيث إنه يترتب على وجود ما هو خير، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي؛ قال: أتيت أبيَّ بن كعب، فقلت: في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله يذهبه من قلبي، فقال: « لو أنفقت مثل أحد ذهباً، ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار»، قال: فأتيت عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت؛ فكلهم حدثني بمثل حديث ذلك عن النبي ﷺ» حديثٌ صحيح، رواه الحاكم في صحيحه.

هذا الحديث كما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ خرجَّه الإمام أحمد في ((مسنده)) وكذلك هو في ((السنن))، في سنن أبي داود وابن ماجة، وهو كذلك عند الحاكم وغيرهم ممن أخرجوا هذا الحديث، وهو حديث صحيح، وفيه: أنَّ ابن الديلمي –وابن الديلمي هو: عبد الله بن فيروز الديلمي أحد كبار التابعين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه وقع في نفسه شيءٌ يتعلق بالقدر، فرجع إلى ذلك لأبي ابن كعب رضي الله عنه وطلب منه أن يحدثه بشيء لعل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يُذْهِبَ هذه الشبهة من قلبه بسببه، فأخبره بما دلت عليه الأدلة والآثار السابقة من وجوب الإيمان بالقدر، وأنَّ هذا الإيمان بالقدر به تكون حقيقةُ الإيمان، وأن لم يكن كذلك فإنه ليس بمسلم، ولا جديد في هذا الحديث إلا ما أشار المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المسائل إليه وهو: (أن عادة السلف إزالة الشبهة بسؤال العلماء)، وهذا تنبيه مهم ودرس ما أحوجنا إليه في هذا الوقت وفي هذا الزمان.

الشبهة من علاجها: الرجوع إلى أهل العلم، وهكذا فعل ابن الديلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما وقع في نفسه شيء من الشبهة في شأن القدر، وما أكثر الشبه ولاسيما في باب القدر، فرجع رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أُبيَّ بن كعب، وإلى عبد الله بن مسعود، وإلى حذيفة بن اليمان، وإلى زيد بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وكلهم يحدَّثُ بما حدَّثَ به الآخر، وكلهم يرفع ذلك إلى النبي ﷺ ، كما جاء هذا في رواية ابن ماجه.

أما الرواية التي بين أيدينا فإن الذي تحدَّث به أُبيَّ وابن مسعود وحذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ إنما هو من قولهم، والمرفوع إنما كان فيما رواه زيد عن رسول الله ﷺ.

وفي رواية ابن ماجه أن أبيَّ ﷺ لما أجابه، قال: ولا عليك أن تأتي أخي عبد الله بن مسعود، ثم أتى إلى عبد الله بن مسعود فأجابه بمثل جواب أُبيَّ، فقال: ولا عليك أن تأتي أخي حذيفة بن اليمان ثم لما جاء وحدثه بمثل حديث صاحبيه قال: ولا عليك أن تأتي أخي زيد بن ثابت.

المقصود أن ها هنا تنبيهاً مهماً يتعلق بموضوع الشبه ومنهج التعامل معها، هذا الزمان الذي نعيشه من سماته البارزة أنَّه زمن الشبهات، شبهاتٌ تتقاذف على المسلمين صِغاراً وكباراً، ذُكوراً وإناثاً، تتناول كل شيء، شُبَهٌ تتعلق بصحة الإسلام، شُبَهٌ تتعلق بسنة النبي ﷺ، شُبَهٌ تتعلق بالقرآن، شُبَهٌ تتعلق بتوحيد الله ﷻ، شُبَهٌ تتعلق بباب الصفات، شُبَهٌ تتعلق بباب القدر، شُبَهٌ تتعلق بأحكام الإسلام، شُبَهٌ تتعلق بوجود البارئ ﷻ.

إذن شُبُهَاتٌ تقذف على الناس وتهبط عليهم من الفضاء، أو تصطادهم من خلال الشبكة حتى أنها لا تدعُ أو لا تكاد أن تدع بيتاً إلا دخلته، ولأجل هذا يجد طالب العلم والداعية إلى الله ﷻ إشكالاً عند كثير من الناس، يسألون عن شبه وردت عليهم ما رأيك فيمن يقول كذا؟ وكيف نجيب عن كذا وكذا؟ ربما كانت مسائلُ كبار، إذن كيف ينبغي أن يتعامل المسلم مع الشُبَهْ إذا وردت عليه؟

تنبه -يارعاك الله- إلى وصايا ثلاث تتعلق بموضوع الشبهات والتعامل معها، فإن الأخذ بها فيه عصمةٌ من الوقوع في حَمْئَةِ الشُبهات بتوفيق الله ﷻ.

قبل أن أذكر الوصايا الشبهة أمرٌ فيه التباس، يعني: هي باطلٍ يلبسُ لباس الحق، ولأجل هذا فإنها تروج على قليلِ العلم، الشبهة باطل يلبس لباس الحق تتبهرج وتتزخرف وتتحسن في أعين من كان جاهلاً.

أما العالم الذي آتاه الله ﷻ البصيرة في الدِّين فإنه ينظر إليها بنظرٍ ثاقب بما يفتح الله ﷻ عليه من العلم فيعرفها على حقيقتها، تتعرى أمامه ولا ينخدع بها، إنما الإشكال في ورودِّها على جاهل ليس بثابت القدم في العلم.

إذن كيف ينبغي على الإنسان أن يتعامل معها؟

[الوصية الأولى]: المطلوبُ من كل مسلم أن يَنْأَى بنفسه عن الشبهات، عليك يا عبد الله أن تهرب منها وإياك أن تتساهل معها، أو أن ترخيَّ سمعك لها فإن هذا هو الموت الأحمر.

ها هنا الخطورة كل الخطورة؛ اعلم يا عبد الله أن الشبهة خَطافة وأن القلوب ضعيفة وكم من الناس من سقط في وحل الضلال بسبب أنه تساهل مع الشبهات، الشبهة مشكلة كبرى الشبهة تشبه الورم، تعرفون الورم؟ -أسأل الله أن يعافيني وإياكم والمسلمين-، الورم لا تجد أنه يبدأ شيئاً كبيراً إنما هو يبدأ شيئاً صغيراً، ثم إنه لايزال يكبر ويفشو حتى ربما إذا وصل إلى مرحلة متأخرة ربما تجد الطبيب يقول: لا أستطيع أن أصنع لك شيئاً أصبح هذا الورم منتشراً في الجسد.

كذلك الشبهة تبدأ نقطةً في القلب ثم إنها لا تزال تكبر وتتوسع حتى ربما أظلم القلب بسببها، وأنا أعرف وربما أنت تعرفون من ضلَّ وانحرف ربما ارتدَّ عن دين الله ﷻ بسبب شُبْهَةٍ واحدة.

إذن المسألة ينبغي أن يكون فيها الحزم ينبغي أن يكون فيها الجدية، لا ينبغي للإنسان أن يتساهل، يقول: أنا الحمد لله مسلم وولدت مسلماً وأسرتي مسلمة لا يمكن أن أتأثر، حذاري يا عبد الله إياك من هذه المصيدة، إياك من هذه الأحبولة التي يصطاد بها إبليس، مشكلة كبرى ولاسيما عند الشباب ما يسمى: "بحب الاستطلاع"، لماذا؟ ما الذي يمنعني أن أطالع هذه القناة ربما تكون قناة تقذف بشبه التنصير، أو تقذف بالشبه التي تطعن في دين الإسلام، أو تطعن في بعض مسائل الدين.

فيقول: أنا أستمع، هذه حرية، هذه ثقافة، هذه رغبة في أن أطالع الشيء الجديد، لماذا؟ يعني نتحجر! وإذا به لا يخرج من هذه المطالعة إلى وقد أظلم قلبه، وربما كان ذلك سبباً لانحرافه. كذلك تجده يدخل إلى مواقع، إلى معرفات، إلى حسابات، إلى مدونات في الشبكة، ويبحر ويطالع، وإذا بقلبه يتحمل من السموم تلوّ السموم التي تضعف إيمانه وتوحيده وهو لا يشعر، والنتيجة بعد ذلك أنك تجده يقع في قلق عظيم وشك كبير.

بل ربما يكون وصل إلى أن يكون على حافة بين الإيمان والكفر إن تداركه الله ﷻ فإنه يَلْطُف به ويعيده إلى حظيرة الإسلام، وإلا فإنه قد يتردى في حفرة من حفر الكفر، وانا

أتحدث يا أخواني عن أمر واقع وليس عن أمر خيالي ينبغي على الإنسان أن يأخذ هذا الأمر على محمل الجد ، وأن يأتمر بأوامر الله ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[الأنعام:٦٨]، قال جَلَّوَعَلَا في سورة آل عمران عن هذا الكتاب العظيم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾[آل عمران:٧].

هاهنا حدَّث النبي ﷺ بحديث عظيم ينبغي أن نضعه نصب أعيننا، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئكم الذين سمَّى الله فأحذروهم».

حذاري من هؤلاء.

إنَّ السلامة من سلمى وجارتها ألا تحل على حال بواديها

ابتعد وأهرب وأنجُ بنفسك عند شعورك بأن ها هنا خطر.

وها هنا شبه تقذف، تطعن في المسلَّمات والمحكمات وأصول الدين التي تعتقدها، إذن عليك:

أولاً: أن تبتعد.

الوصية الثانية: إذا قدَّر الله ﷻ ورود الشبهة عليك، وصلتك الشبهة دون بحث وتَطَلُّبٍ منك قدر الله ورودها عليك، قرأتها في رسالة "واتس" ، أو قرأتها في "تغريدة"، أو شاهدتها في قناة من القنوات، فإن عليك أن تتعامل معها تعاملك مع المرض المعدي الخطير؛ بمعنى: إياك من التساهل وإياك من التمادي وإياك من التكاسل، عليك أن تسعى مباشرة بعلاجها، هي أشبه الأشياء بالمرض الذي يحتاج أن تبادره بالعلاج قبل أن يستفحل.

والعلاج إنما هو: عند العلماء الربانيين، العلاج عند أطباء القلوب العلماء الراسخين، فعليك أن تَطَلُّبَ ذلك عند أهل العلم، وأقول الراسخين، فإن من الناس إذا وقعت الشبهة في قلبه يبادر إلى حلها وعلاجها في غير مظنة، ذلك تجد أنه إذا جاءته الشبهة تتعلق بأمر عظيم تتعلق بوجود الله أو صحة القرآن أو صحة رسالة النبي ﷺ، ليس أمامه غير أن يكتب في "جوجل"! هذا واقع أم لا؟ يظن أن هذا هو العلاج. أن أكتب في محرك البحث

"جوجل"، وأبحث؛ والله أعلم إلى أي موقع سوف يصل في بحثه، ربما يقع أو يصل إلى موقع مفيد ونافع وناصح، وربما يكون الأمر بخلاف ذلك، ربما يصل إلى موقعٍ يزيده شكاً واشتباها.

إذن الشبهة ليس علاجها في الشبكة عند الجاهل بمواقعها، ليس عند ضِعِافِ المثقفين والكُتَّاب وأمثال ذلك، العلاج ينبغي أن يكون عند العلماء الراسخين.

هذه الأمثلة التي بين أيدينا شواهد كافية ولله الحمد، هذا عبد الله بن الديلمي لما وقع في نفسه شيء إلى أين ذهب؟ أولاً سكت؟ كتم؟ ترك الأمر على ما هو عليه ولعله يفشو في قلبه ويستمر؟ أنه بادر إلى كشف ذلك، بادر إلى كشف ذلك وذهب إلى العلماء، ذهب إلى أبي ومسعود وابن حذيفة وزيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

في القصة التي مرت معنا أول هذا الباب: حميد بن عبد الرحمن الحميري ويحيى بن يعمر، ماذا فعلوا عندما ورد عليهم شبهة تتعلق بمقالة القدرية؟ ذهبوا ورحلوا إلى مكة، من العراق إلى مكة حاجين أو معتمرين، ولأجل أيضاً أن يصلوا إلى أحد من أصحاب النبي ﷺ فيكشف لهم حقيقة الحال، وجدوا عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، فسألاه عن ذلك.

أيضاً في حديث عبادة في رواية الترمذي أن عبد الواحد بن سليم وقع عنده شيء من الإشكال في مسألة القدر وصله قول القدرية، فذهب لعطاء بن أبي رباح إمام أهل مكة رَحِمَهُ اللَّهُ وسأله عن هذا، فقال اقرأ من سورة الزخرف، فقرأ حتى بلغ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ **[الزخرف:٤]**.

فبَيّن له أن هذا هو الذكر يعني: اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء، وفيه: أن فرعون من أهل النار، وفيه: كذا وفيه كذا، ثم حدّثه بما حدثه به الوليد بن عبادة بن الصامت، في الحديث الذي بين أيدينا والرواية التي معنا رواية أبي داود، المقصود أن العلماء لم يزالوا حريصين على كشف الشبه عند العلماء الراسخين، إذا ورد عليك شيء من ذلك فعليك أن تبادر إلى علاجه عند الأطباء الناصحين، أطباء القلوب، وهم العلماء الراسخون.

[الوصية الثالثة]: عليك -يارعاك الله- أن تعتصم بالمحكمات، والشبهة تبقى شبهة أبقِ الشبهة في محلها وضعها في مكانها اللائق، واعتصم بالمحكمات، عليك أن تتنبه إلى هذه القاعدة المهمة: محكمات الدين وأصوله ومسائله الواضحة الراسخة التي عليها أدلة الكتاب

والسنة ينبغي أن تكون راسخة في قلبك رسوخ الجبال، لا ينبغي أبداً أن تجعلها ضعيفة مهزوزة بحيث أن أدّنى هبة ريح تؤدي إلى أن تكون شاكاً مرتاباً.

كلا يا عبد الله، تمسك دائماً بالمحكمات، الأصول المحكمة، وهي الحق الذي أنزله الله على نبيه محمد ﷺ ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[الإسراء:١٠٥]، وبهذا تصْغُر الشبهة في عينك وتضمحل، وتضع هذه الشبه حينئذ في محلها اللائق بها، الشبهة تبقى شبهة، لكن لا ينبغي أن تهزك وأن تجعلك مرتاباً، ولذلك تنبه إلى هذا التنبيه اللطيف في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[آل عمران:٥٩-٦٠]، الممترين يعني: الشاكين.

تنبه هنا إلى أن الله ﷻ بين زيف شبهة النصارى الذين شبَّهوا ولبَّسوا بخلق عيسى عَلَيْهِ‌السَّلَامُ، فإن عيسى كلمةُ الله يعني: بالكلمة كان قال له كن فيكون، هم لبَّسُوا بهذه الشبهة، وأن اللاهوت نزل في الناسوت وأن فيه شيئاً من الإلهية بسبب طريقة خلقه، فبيّن الله ﷻ المحكم في هذا الباب، وأن خلق عيسى هو كخلق آدم ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾[آل عمران:٥٩].

ثم بين الله ﷻ أن هذا الحق ينبغي أن يكون راسخاً لا يقبل التشكيك: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[آل عمران:٦٠]، هذه مسألة مهمة.

وأوصيك بالرجوع إلى الجواب المجمل الذي أورده إمام الدعوة رَحِمَهُ‌ٱللَّهُ في كتابه ((كشف الشبهات))، فإنه في غاية الأهمية لكل طالب علم، بل لكل مسلم، وهو أنه إذا ابْتُليَّ بمن يورد عليه الشبه من أهل الشرك والبدع فعليه أن يبيّن له أن العبادة لله ﷻ، وأن الله ﷻ هو المعبود، وأن كل عبادة تصرف لغيره فهو شرك، أما هذا الذي تحدثني به فأنا لا أعرفه ولا يضرني ألا أعرف كشفه، إنما الحق هو هذا الذي أعلمه.

إذن إذا وردت عليك شبهة لا تستطيع ردها، وربما لن تستطيع أن ترد كل شبهة، إنما عليك أن تعتصم بالمحكم عندك، والشبهة ضعها في محلها لا تؤثر فيك، إن لم تستطع جوابها اليوم غداً أو بعد غد، وربما بعد سنة، وربما بعد عشر سنوات، المهم ألا تكون مؤثرة على إيمانك، المحكمات ضعها في قلبك راسخة رسوخ الجبال التي لا تقبل أن تهتز، عندها بإذن الله ﷻ تكون حرياً بالتوفيق للهداية.

أما الذي يكون قلبه مثل الإسفنجة يَتَشَّربُ كل شيء ويتقبل كل شيء، هذا الذي تجده دائماً مرتاباً حائراً شَكْاكاً لا يستقر له قرار، الذي ينبغي أن تتناول هذه الشُبَه وأن تنظر إليها، أن تجعل قلبك مثل الزجاج، الذي يرى الشُبْهَةَ بصفائه، لكنَّه يطردها بصلابته، لا يقبل دخولها على قلبه.

إذن عندنا قلبان:

١/ قلبٌ من زجاج يرى الشبهة ويعرف الباطل ولكنه لا يتسرب إليه.

٢/ وقلبٌ مثل الإسفنجة يتشرب كل ما يرد إليه، عنده استعداد لأن يأخذ بكل قول وأن يتشكك وأن يذهب كل مذهب، اليوم في قول وغداً على قول وبعد غد على مذهب وهكذا .

كل ما جاءه شخص ألحن بحجته من شخص فإنك تجده يذهب معه، يأخذ بيده ويقود معه قود النعاة، مثل هذا تجده شاكاً مرتاباً حائراً مضطرباً، وربما والعياذ بالله يعود القهقرى، وهكذا ينبغي على المسلم أن يتنبه إلى هذا الأمر العظيم.

إذن هذه وصايا ثلاث ينبغي أن نتنبه إليها في شأن الشبهات.

٨٠

٨٠- باب ما جاء في المصورين

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:
باب
ما جاء في المصورين

يعني: من الذمِّ والوعيد، وأحاديث النبي ﷺ متكاثرةٌ في تحريم التصوير وذمِّ من فعله، وهذه الأحاديث ثابتةٌ في الصحيحين وغيرهما عن جملةٍ من أصحاب النبي ﷺ ومن ذلك ما أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب؛ فقد أورد خمسة أحاديث كلّها في ((الصحيحين)) خلا الحديث الأخير فإنه في ((مسلم))، والحديث الأول من هذه الأحاديث حديث قدسي ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد من جهتين:

[الوجه الأول]: أن التصوير مضاهاةٌ لخلق الله كما سيأتي في الحديث الأول إن شاء الله، ولا شك أن هذا يتنافى وتحقيقَ التوحيد. فإن الله جَلَّ وَعَلَا هو المصور، المصور: اسمه، والتصوير: فعله: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[الحشر:٢٤]، قال ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[آل عمران:٦]، وقال ﷻ: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[غافر:٦٤]، فالله جَلَّ وَعَلَا هو المصور الذي أبدع صور مخلوقاته وفق ما اقتضته حكمته فالذي يتشبه بالمِصور سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لا شك أنه أتى بما يتنافى وتحقيق التوحيد، على اختلاف الحكم في المصور كما سيأتي الكلام عنه إن شاء الله.

والوجه الثاني: أن التصوير من أعظم أسباب وقوع الشرك فلا يخفى عليكم يا أيها الإخوة أن أول شرك وقع في الأرض وهو شرك قوم نوح؛ إنما كان بسبب التصوير، فهما فتنتان؛ أعظم ما وقع من الشرك وأكثر ما وقع من الشرك كان بسببهما: فتنةُ التصوير وفتنة القبور، وتذكرون ما مر بنا هنا في هذا الكتاب لما حدثت أم سلمة وأم حبيبة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا حدثتا رسول الله ﷺ بما رأتا من كنيسةٍ كان قد رأتها كل واحدةٌ منهما فحدثتا رسول الله ﷺ بما رأوا فيها من حُسن وتصاوير فقال النبي ﷺ: «**هؤلاء كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك التصاوير، أولئك شرار الخلق عند الله**». فدل هذا على أن الفتنة في التصوير فتنة عظيمة ربما أدّت إلى وقوع الشرك بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

قد يقول قائل: إن هذا الأمر كان موجودًا في السابق، أما اليوم في هذا الزمان في عصر التقدم والتكنولوجيا هل يُتصور وقوع الشرك بسبب الصور؟

والجواب: أن هذا قول من يجهل سنة الله الشرعية والكونية والواقع الذي يعيشه فإن الله ﷻ هو العليم بكل ما يكون وهو الحكيم في شرعه وخلقه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وقد نهانا عن التصوير كما سيأتي أدلة من جملةِ ذلك، فكان الواجب الانصياع إلى ذلك، ثم إن واقع الناس يشهد بأن التصوير لا يزال فتنة عظيمة لكثير من الناس، أفلا يرى هؤلاء أولئك النصارى الذين يركعون ويسجدون لصور المسيح، أو ما يزعمون أنه صورة المسيح، أو صورة أمه! أفلا يرون أولئك البوذيين أو الهندوس أو غيرهم من أضراب المشركين والكفار الذين يتقربون ويتعبدون لصور منصوبة أو صور مرقومة!

ثم إن النبي ﷺ قد أخبر كما في الصحيحين وغيرهما في أحاديث عدة بوقوع الشرك في أخر هذه الأمة أخبر النبي ﷺ: «**إنه لن تقوم الساعة حتى يلحق فئام من هذه الأمة بالمشركين، وحتى تعبد الأصنام وحتى تعبد اللات والعزى**»، فكيف يُستكثر بعد ذلك النهيُ عن التصوير وأنه ذريعة لوقوع الشرك –عافاني الله وإياكم– لا سيما ما كان من صور المعظمين التي تُنصب والتي تُعلق والتي تُجعل لها الأماكن الرفيعة والعالية في صور المجالس وغيرها لا شك أن هذا منكر وذريعة أوضح لوقوع الشرك –عافاني الله إياكم– من ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قال رسول ﷺ: «قَالَ اللّٰه تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ شَعِيرَةً» أخرجاه.

هذا حديث مخرج في الصحيحين، وسبب تحديث أبو هريرة رضي الله عنه به أنه دخل دارًا في المدينة فرأى في أعلاها رجلاً يصور، رأى مصورًا يصور كأنه والله أعلم كان رجلًا ينحت أو ينقش صورًا في الجدران فما كان منه رضي الله عنه إلا أن حدّث بما حدثه به رسوله ﷺ عن ربه جَلَّ وَعَلَا قال: «**مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ فلِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ شَعِيرَةً**».

لا شك أن الاستفهام ها هنا استفهام إنكاري، والمعنى: لا أحد أشد ظلمًا من هذا الذي يريد أن يتشبه بخلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يريد أن يتشبّه بفعل الله ﷻ كما أن الله ﷻ يخلق فهو

يريد أيضًا أن يخلق، لا شك أن هذا ذنب عظيم ومنكر كبير، ولذلك جاء هذا الأمر الذي هو من أمر التعجيز في قول ربنا ﷻ: «**فليخلقوا ذرة، أو فليخلقوا حبة، أو فليخلقوا شعيرة**»، الذرة: النملة الصغيرة، هل يستطيع هؤلاء أن يخلقوا الذرة التي هي من أصغر مخلوقات الله ﷻ ، بل هل يستطيعون أن يخلقوا حبة حنطة هل يستطيعون ذلك؟! لا شك أنهم لا يستطيعون ذلك وهذا الأمر أمر تعجيز يتضمن التوبيخ للفاعل لهذا الأمر، أمر تعجيزي ليس أمر تكليف على نحو قوله ﷻ: ﴿**فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ**﴾[الرحمن:٣٣]، ﴿**قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا**﴾[الإسراء:٥٠]، ﴿**فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ**﴾[الطور:٣٤]، هذا أمر تعجيزي يتضمن التوبيخ لمن فعل هذا الأمر.

وهذا الحديث من جهة قصته ومن جهة فهم الصحابي وهو أبو هريرة رضي الله عنه يُستفاد منه: أن من التصوير المحرم ما ليس له ظل؛ لأن الظاهر والله أعلم أن هذا المصور إنما كان يرسم على حيطان هذا البيت ما فيه روح، فاستدل أبو هريرة رضي الله عنه بهذا الحديث الذي يدل على تحريم التصوير، والأحاديث التي جاءت في ذم التصوير والوعيد عليه جاءت على أنواع من الوعيد.

فهذا الحديث الذي بين أيدينا يدل على أن هذا الذي يفعل هذا الفعل أظلم الناس.

كذلك جاء عن النبي ﷺ وهو أمر ثانٍ أن: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون**».

كذلك جاء ثالثًا من وعيد التصوير أن الله ﷻ: **يأمر المصور أن ينفخ الروح فيما صور من ذوات الأرواح وليس بنافخٍ ويقال لهؤلاء المصورين أحيوا ما خلقتم.**

وجاء رابعًا أيضًا أن الله جَلَّ وَعَلَا يجعل في كل صورة صورها المصور روحًا ونفسًا فيعذب بها كما يشاء ﷻ.

وجاء أيضًا وهذا أمر خامس جاء أنه يعذب حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخٍ أبدا.

ثبت في صحيح البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «**من صور صورة جعل الله يوم القيامة لها نفسًا فيعذب بها حتى ينفخ فيها وليس بنافخ أبدا**».

إذن هذه أحاديث تقتضي عند كل مسلم الخوف والوجل من الوقوع في هذا الذنب العظيم –عافاني الله وإياكم– من ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهما عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: «أشَدُّ النّاسِ عَذاباً يَوْمَ القيامةِ: الَّذينَ يُضاهُونَ بِخَلقِ اللّه»

هذا حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا وهو ثابت في الصحيحين وله روايات عدة كما أنه جاء في غير الصحيحين، وقصة هذا الحديث أن النبي ﷺ أراد الدخول على بيت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا وجاء في بعض الروايات أنه قدم من سفر فإذا بباب الحجرة عليه قِرام؛ القرام: مثل الستارة قماش يستتر به، وعلى هذا القرام تصاوير، وجاء في بعض الروايات أن هذه التصاوير كانت لأحصنة لها أجنحة، فأبى النبي ﷺ الدخول، فسألت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا ماذا أذنبت؟ فأخبرها النبي ﷺ بهذا الحديث، إذ إن «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً عِند اللَّهِ يَوْمَ القيامةِ الَّذينَ يُضاهُونَ بِخَلقِ اللَّهِ**»، ومعنى قوله: يضاهون يعني: يشابهون، المضاهاة هي المشابهة، هؤلاء الذين يضاهون –وقُرئ أيضًا بالهمز: يضاهئون– لا شك أنهم وقعوا في إثمٍ عظيم حتى إنهم كانوا كما أخبر النبي ﷺ وهو الصادق المصدوق كانوا أشد الناس عذابًا يوم القيامة.

وهل الممنوع في التصوير المشابهةُ أم قصد المشابهة؟ يعني هل الذي جاء ذمه والوعيد عليه في هذا الحديث هو أن يصور الإنسان فيكون قد وقع في تصويره المضاهاة شاء أم أبى؟ أم أن المقصود النهي عن قصد المشابهة وبالتالي من صور ولم يقصُد أن يضاهي خلق الله عَجَّلَ فإنه ليس داخلًا في هذا الوعيد؟

الذي يظهر والله تعالى أعلم هو الأول وأن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا، فالمشابهةُ تحصل بمجرد التصوير، وأما قصد المشابهة فهذا ينفصل عنه حكمُ المصور، فمن قصد أن يكون مشابهًا لله عَجَّلَ في فعله فلا شك أن هذا كفرٌ بالله عَجَّلَ.

أما من لم يقصد فإنه لا يكفر بذلك، لكن هذا الإنسان قد وقع في إثم عظيم وكبيرة من الكبائر، إذ إن التصوير ينطبق عليه وصف الكبيرة كما تدل عليه مجموع الأحاديث الواردة في هذا الباب.

وعليه فيكون قول النبي ﷺ: **«أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً عِند اللَّهِ يَوْمَ القيامةِ الَّذين يُضاهُون بِخَلقِ اللَّهِ»** على بابه من جهة ما تدل عليه أفعل التفضيل (أشد) إذا كان الإنسان قاصدًا للمضاهاة فلا شك أن هذا الإنسان أضحى كافرًا، ولا شك أن أشد الناس عذابًا هم الكفار، أما إذا لم يكن ثمة قصدٍ إنما وقع تصوير فقط، فإن قوله ﷺ **«أشد الناس عذابًا»** موجه بأحد توجيهين:

[التوجيه الأول]: إما بأنه أشد الناس من جنس من فعل ما فعل؛ يعني من جنس الفساق فهو يدل على أنه من أكبر الكبائر.

[التوجيه الثاني]: أو أن تكون (من) ها هنا مقدرة، فهو من أشد الناس عذابًا.

وهذا الجواب يُفيدك في مواضع كثيرة في أحاديث النبي ﷺ التي جاء فيها أفعل التفضيل سواء فيما يتعلق بفضائل الأعمال أو في مراتب السيئات، أو فيما يتعلق بالعذاب يوم القيامة، فإن من سَنَنِ كلام العرب أنهم يطلقون أفعل التفضيل والمعنى مقدرٌ فيه (من) فهو من أشد الناس أو من أفضل الأعمال أو من كذا وهذا له شواهد في لغة العرب كثيرة.

المقصود أن هذا الحديث يدلك على تحريم التصوير، ويدلك أيضًا على أن من التصوير الممنوع ما لا ظل له وهذه مسألةٌ ينبغي التنبه لها.

فإن التصوير قد يكون تصويرًا لشيءٍ له ظل؛ بمعنى: أن يكون على هيئة التمثال تنصب هذه الصورة على هيئة التمثال، يصور الأنسانُ إنسانًا أو حيوانًا، فيكون على هيئة تمثالٍ أو على هيئة صنمٍ أو ما شاكل ذلك، ولا شك أن هذا محرمٌ بإجماع العلماء لا شك أنَّ الصور التي تنصب أو التي لها ظل هذه محرمةٌ بإجماع العلماء.

النوع الثاني: الصور المنسوجة أو المرقومة أو التي صُنعت باليد أو التي لُونت باليد كالتي تكتب أو ترقم على الأوراق أو على الأقمشة أو على الحيطان وما شاكلَ ذلك، فهذه الصور لا شك أنها محرمةٌ في قول جماهير أهل العلم.

وذهب قلة من أهل العلم إلى أن هذا النوع من الصور ليس بمحرم إنما المحرم هو ما كان على هيئة التماثيل؛ يعني: المنصوبة التي لها ظل.

ولا شك أن هذا القول قوْل غيرُ صحيح وأصحابه محجوجون بما ثبت عن النبي ﷺ فبين أيدينا هذا الحديث الذي أنكر فيه النبي ﷺ صورةً كانت منسوجة ومنقوشة في قماش

فلم تكن على هيئة على هيئة التماثيل، فدل هذا على أن الصورة التي لا ظل لها داخلة في نهي النبي ﷺ.

ويدل على هذا أيضًا ما ثبت من حديث أبي هريرة الذي سبق معنا قبل قليل فإن أبو هريرة رضي الله عنه أنكر فيما يظهر والله تعالى أعلم صورة كانت تُرسم على الحائط، كذلك النبي ﷺ أنكر بيده وبلسانه الصور التي كانت مرسومة على جدار الكعبة من الداخل، وقد أخرج الطيالسي من حديث أسامة رضي الله عنه أنه قال: **«دخلت على رسول الله ﷺ في الكعبة، ورأى صورًا، فدعا بدلو من ماء فأتيته به، فجعل يمحوها ويقول: قاتل الله قومًا يصورون ما لا يخلقون»** قال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إسناده جيد).

فهذه الأحاديث وأيضًا غيرها يدل على أن ما لا ظل له من الصور التي ترسم باليد داخلة في حكم التصوير الممنوع.

قد يقول قائل فماذا أنت مجيب عن قوله ﷺ: **«إلا رقمًا في ثوب»** فإن هذا قد يفهم منه إباحة الصور التي تكون منسوجة أو لا ظل لها؟

والجواب عن هذا:

أن يُقال إن أحاديث رسول الله ﷺ ينبغي أن يُجمع بينه وأن يُؤلف بينها، لا أن يضرب بعضها ببعض **هذا أولًا**.

وثانيًا هذا الحديث لم يأتِ في سياق الأدلة التي دلت على تحريم التصوير، ليس سياق الحديث في تحريم التصوير، تنبه إلى هذا الملحظ فإنه مهم، إنما جاء هذا في سياق بيان أنَّ الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة، فالحديث كما عند الشيخين في صحيحيهما قال رسول الله ﷺ: **«لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة إلا رقمًا في ثوب»**، فالحديث ليس في التصوير لكنه في استعمال التصوير يعني في وجود صورة تمنع دخول الملائكة البيوت **هذا أمرٌ ينبغي أن يُلاحظ**.

نأتي ثانيًا: ما معنى قول الرسول ﷺ: إلا رقما في ثوب؟

في ضوء الأحاديث الأخرى وبالجمع بين الأحاديث يتضح لنا أن النبي ﷺ لا يمكن أن تتناقض أحاديثه، فحديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا صريحٌ في منع التصوير الذي ليس له ظل أو الذي كان منسوجًا في قماش فدل هذا على أنه ممنوع أما هذا الحديث الذي بين أيدينا

والذي أورد من أورد على تحريم تصوير ما كان باليد أورد هذا الحديث فالجواب عنه يُخَرَجُ على أحد وجهين:

[الوجه الأول]: إما أن يُقال إنَّ المراد بذلك الصور المهانة التي تُداس فلا قيمةَ لها، فهذه لا يُمنع استعمالها ولا تمنعُ دخول الملائكة، ليس هذا إباحةً لتصويرها لكن ما كان منها من هذا القبيل فلا مانع من استعماله ولا يكون مانعًا من دخول الملائكة .

[الوجه الثاني]: هو أن يُقال إن قوله ﷺ: **«إلا رقمًا في ثوب»** يعني: الصورة التي ليست من ذوات الأرواح، ما كان من الصور وهذا كان معروفًا عند العرب أنهم كانوا يصورون على الأقمشة صور الأشجار ونحوها فهذا ليس بممنوع، استثناه النبي ﷺ فالملائكة لا تمتنع من دخول بيت فيه صورة ليست من ذوات الأرواح، هذا نقوله للجمع بين الأدلة، لا نضرب أحاديث رسول الله ﷺ بعضها ببعض.

إذن الخلاصة التي نخلُص منها هي: أنَّ المحرم من الصور ما كان مُجسمًا، أو ما كان مرسومًا باليد على ورقٍ أو قماش أو حائط أو ما شاكل ذلك.

نأتي الآن إلى النوع الثالث عُرِف في العصر الحديث وهو: الصور الآلية، أو الصور التي تكون بآلة الكاميرا، أو ما يسمى بالصور الفتوغرافية، هذه الصور وقع فيها خلافٌ بين العُلماء المعاصرين لم تكن بالتأكيد معلومة عند القدماء، إنما هي الأمور التي الحُدِثت في هذا العصر، فهل تلحق بالصور التي تصنع باليد أو التي تنقش وتلون باليد؟ أو يكون لها حُكمًا آخر؟

اختلف العلماء المعاصرون في هذه المسألة إلى قولين، والأقرب عندي والله تعالى أعلم أنَّ هذه تسمى صور فتكون داخلة في عموم نهي النبي ﷺ.

لكن لا شك أنَّ الخلاف الحاصل فيها يجعل إنكارها يختلف عن إنكار ما اتفق عليه، أو ما جاء النص الواضح في تحريمه، وإني أنصحك -يا رعاك الله- أن تدع هذه الصور اللهم إلا ما دعت إليه الضرورة أو الحاجة، فإنَّ الحاجة قد تدعو إلى أن يتصور الأنسان لبطاقة أو لرخصة قيادة أو لجواز سفر أو ما شاكل ذلك، أو لبعض الدواعي الأمنية، فإنَ مثل هذا الأمر لا شك أنَّ قاعدة رفع الحرج في الشريعة تدل على أنه أمرٌ مباح إن شاء الله في حق من اضطُر إلى ذلك أو كان مُحتاجًا إليه.

والقاعدة عند الفقهاء: إنَّ الحاجة العامة تُنَزَلُ منزلة الضرورة، أما ما عدى ذلك فالنصيحة لك –يا رعاك الله– ألا تتصور لا سيما مع سهولة التصوير في هذه السنوات المتأخرة من خلال هذه الكاميرات الموجودة في الجوالات.

أقول: نبيك ﷺ يقول: **«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»** وخير دينك الورع، والسلامة لا يعدلها شيء، ولو لم تتصور هذه الصور التي يدعونها للذكرى وما شاكل ذلك فالله ﷻ لن يُحاسبك يوم القيامة، ولكن لو تصورتها فربما والله تعالى أعلم، العلم عنده سبحانه ربما تُحاسب وربما تُسأل عن ذلك، فعليك بأن تسلك مسلك الورع، وتدع هذه التصاوير ما أمكنك إلى ذلك سبيلا، أعلمُ أنَّ الأمر في هذا العصر أصبح مُشكلًا جِدًا وأصبحت هذه الصور تُلاحق الإنسان شاء أم أبى في كل مكانٍ يذهب إليه، لكن عليه أن يدفع عن نفسه ما فيه الشبهة ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهما عن ابن عباس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلُّ مصور في النار؛ يُجعل له بكل صورة صورها نفسٌ يُعذب بها في جهنم»

هذا من الأحاديث الدالة على وعيد المصورين فإن الله جَلَّ وَعَلَا يجعل بكل صورة صورها هذا الإنسان نفسًا يجعل الله ﷻ فيها روحًا فتكون سببًا لتعذيبه، يُعذب بها بكيفية الله –تعالى– أعلم بها، وهذا الحديث مما يُستدل به على أن الممنوع من التصوير هو للشيء الذي فيه روح.

أما ما لا روح فيه فلا بأس بتصويرِه، وذلك أن هذا الحديث يدل على أن الممنوع تصوير ما يُمكن أن يكون فيه نفسٌ، يعني: ما يمكن أن يكون فيه روحٌ، كذلك الحديثُ الذي مرَّ معنا أنه **«يؤمر بنفخ الروح في ما صور وليس بنافخ»** هذا إنما يتأتى في الصورة التي هي في أصلها كان فيها روح، وبالتالي ما لا روح فيه ما جاز تصويره وهذا هو الذي عليه جماهير أهل العلم.

وذهب قلة من أهل العلم إلى تحريم تصوير كل ما خلق الله ﷻ؛ فيحرم تصوير الإنسان ويحرم تصوير الحيوان ويحرم تصوير الشجر والجبال والبحر وما إلى ذلك، وهذا وجهٌ

ذكره بعض الشافعية لكنَّه غير صحيح، ويدل عليه ما جاء عند الترمذي وأبي داود من أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء إلى النبي ﷺ فامتنع عن الدخول ثم بين للنبي ﷺ علة ذلك:

فأولًا: كان عند الباب تمثالٌ.

وثانيًا: كان على الستر نقش صور.

وثالثًا: كان ثمت كلب في البيت، فامتنع جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ من ذلك ثم قال للنبي ﷺ: «مُر بالتمثال أن يقطع رأسه حتى يكون كهيئة الشجرة»، لاحظ اخبار جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه لما أصبح التمثال كهيئة شجرة فإن هذا أخرجه عن كونه صورةً دل هذا على أن الصورة الممنوعة ما كان فيه روح، ويدل على هذا أيضًا ما ثبت عند البخاري من أن رجلًا جاء إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال: إني رجل أعمل بيديَّ وأصنع هذه التصاوير، فقال له: ألا أحدِّثُكَ حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ، سمعته ﷺ يقول: «من صور صورة جعل الله لها نفسًا يُعذب به حتى ينفُخ فيها الروح وليس بنافخ أبدًا»، وإذا بالرجل يربو، ربا واصفرَّ وجهه فقال له: ويحك فإن أبيت فعليك بهذا الشجر كلَّ ما لا روح فيه.

كلَّ ما لا روح فيه هذا بدلٌ من قوله فعليك بهذا الشجر.

فدل هذا على أنَّ تصوير ما لا روح فيه أمر جائز لا مانع منه.

وذهب مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أن الممنوع من التصوير هو: تصوير ما فيه روح، أو الشجر الذي له ثمر، التصوير الممنوع عند مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ تصوير ماله روح؛ كالإنسان وبهيمة وبقية الحيوانات، أو تصوير الشجر المثمر.

أما الشجر الذي لا ثمر له فإنه يجوز تصويره عنده رَحِمَهُ اللَّهُ وكأنه نزع في هذا إلى حديث رسول الله ﷺ على ما ذكر بعض الشراح في توجيه قوله إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الحديث القدسي الذي مرَّ بنا قبل قليل قال: «فليخلقوا ذرة أو فليخلقوا حبة أو فليخلقوا شعيرة» كأنه يقول رَحِمَهُ اللَّهُ : الذرة دليل على تحريم ما له روح، والحبة والشعيرة دليل على تحريم الشجر الذي له ثمر، وهذا القول لا أعلم أحد سبقه إليه، ولا أعلم أحد تابعه عليه، ولا شك أنَّ هذا غير صحيح كما تدل على هذا الأحاديث التي ذكرتها لك قبل قليل، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهما عنه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: «من صور صورة في الدنيا؛ كُلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ».

هذا أيضًا يدل كما أسلفت لك، يدل على أن المحرم من الصور، هو الصور التي لها روح دون ما ليس لها روح؛ لأن هذا الحديث إنما يتنزلُ على هذا الجنس، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولمسلم عن أبي الهياج؛ قال: قال لي علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟: «ألا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته».

هذا الحديث الأخير في هذا الباب، وفيه أنَّ علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال لأبي الهياج وهو: حيان بن حصين الأسدي الكوفي، أحدُ التابعين رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ «ألا تدع صورة إلا طمستها»؛ الطمس هو: المحو والإزالة، هذا أمر النبي ﷺ لعلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهذا من الأوامر التي ينبغي أن يعتني أهل التوحيد بها؛ على أهل التوحيد أن يعتنوا بهذا الأمر العظيم من لدن رسول الله ﷺ فيحرصوا على طمس الصور عند الإمكان والاستطاعة.

والبلية بهذا الأمر قد عظمت فينبغي على الإنسان أن يحرص على عدم إدخال هذه الصور إلى بيته، أو عدم نصبها في بيته، كثير من بيوت المسلمين للأسف الشديد إذا دخلتها وجدت فيها تلك التماثيل، تمثالٌ لطائر أو تمثالٌ لفيل أو تمثالٌ لزرافة ينصبه في مجالسه هنا وهناك وهو فرحان وجذلان، ويظن أنه قد أتى بأمر حسن، أو تجد تلك التصاوير المعلقة على الحيطان، وهي من الأسباب التي تمنع دخول الملائكةِ البيت، ولا شك أن دخول الملائكة إلى البيوت يصحبه دخول الخير والرحمة، ويسأل كثيرٌ من الناس عن سبب وقوع المشاكل في البيوت ما فيها من ضيق للصدور أو خلافات أو ما شاكل ذلك، وربما غفل كثيرٌ من الناس عن هذا السبب، وهو أن البيوت أصبحت مأوى للشياطين لا تدخلها الملائكة بسبب هذه الصور، الذي ينبغي أن تكون بيوت المسلمين بيوتًا طيبة مستقيمة على

شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومن ذلك أن تُبعد عنها هذه الصور ولا تبقى فيها، وكان النبي ﷺ حرِيصًا على ذلك.

بوّب الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه بابِ نقضِ الصور ثم أورد حديث النبي ﷺ: «**أنه لم يكن يدع شيئًا في بيته فيه تصاليب إلا نقضه**»، التصاليب: الشيء الذي على هيئة صليب، وذكر الشُّراح رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أن إيراد هذا الحديث تحت هذا الباب يدلُ على أن الصور ذات الأرواح لها هذا الحكم، فإن وجود الصليب من أسباب عبادته كما يفعل النصارى، وكذلك الصور من أسباب وقوع الشرك فلها هذا الحكم؛ وهذا من فقه البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجاءت رواية: أنه لم يكن يدع شيء من التصاوير إلا نقضه، ولكن رواية الأكثر أنه لم يكن يدع شيئًا فيه تصاليب إلا نقضه، هذا كان يفعله النبي ﷺ بيده وهذا مما كان يأمر به.

إذن مهما استطاع الأنسان فعليه أن يأتمر بأمر النبي ﷺ.

الأمر الثاني: قال: «**ولا تدع قبرًا مشرفًا إلا سويته**»، القبر المشرف يعني: القبر العالي الذي ارتفع ترابه زيادة عما أذنت به الشريعة، فالشريعة أذنت برفع القبر عن مستوى الأرض رفعًا يسيرا، شبرا أو نحوه حتى يتميز أنه قبرٌ فلا يُوطأ ولا يُقعد عليه، وبالتالي رفع هذه القبور عن هذا المستوى المعتاد أمرٌ محرم في الشريعة.

أمر النبي ﷺ من رأى ذلك بتسوية القبور، ومعنى: تسوية القبور هنا معنى قوله: «**إلا سويته**» يعني: جعلته مساويًا للقبور المأذون بها في الشريعة.

المأذون به في الشريعة أن تكون القبور مرتفعة ارتفاعًا يسيرا، وأن تكون مسنمةً كما جاء ذلك في الأحاديث العدة عن رسول الله ﷺ.

ولاحظ -يا رعاك الله- أنه إذا كان مجرد ارتفاع تراب القبر زيادة عن المعتاد المعروف في سنة رسول الله ﷺ وعمل المسلمين أمرًا محرم وواجب الإنكار، فكيف بالبناءِ على القبور؟! كيف بجعل هذه القبور مرتفعة موضُوعًا عليها اللبن، الحجارة ، أو الرخام، أو ربما نُصب عليها قبة أو ما شاكل ذلك، لا شك أن هذا منكر أشد واجب الإنكار على من استطاع إنكار ذلك.

٨١

٨١- باب ما جاء في كثرة الحلف.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب:

ما جاء في كثرة الحلف

هذا الباب قد عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ للتنبيه على أمرٍ تركه من تحقيق كمال التوحيد، ألا وهو كثرة الحلف بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الله جَلَّ وَعَلَا عظيم، واسمه عظيم، ومن تعظيم العظيم ألا يُبتذل اسمه، ولا يُكثر من الحلف به.

وضابط كثرة الحلف يرجع إلى أن تكون اليمين لم تدعُ إليها حاجة أو مصلحة راجحة، ضابط كثرة اليمين هذا الشيء المذموم هو: أن تكون اليمين لم تدع إليها حاجة ولا تقتضيها مصلحةٌ راجحة.

والمسلم ينبغي عليه أن يلاحظ في اليمين ثلاثة أمور:

اليمين، الحلف، القسم، هذه كلماتٌ بمعنًى واحد.

والمراد بالحلف معلوم: تأكيد الكلام بذكر اسم الله عَزَّ وَجَلَّ على وجه مخصوص، هذا هو الحلف الشرعي، هذه هي اليمين الشرعية.

أعود فأقول: ينبغي على المسلم أن يلاحظ في يمينه ثلاثة أمور:

[الأمر الأول]: أن يكون حَلِفُه بالله جَلَّ وَعَلَا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من حقه على عبده ألا يُحلف إلا به، والنبي ﷺ قال كما مر معنا في دروس سابقة، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**»، كما صح عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه قال: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**».

الأمر الثاني: أنه إذا حلف بالله فعليه أن يكون صادقاً في حلفه، فإن الحلف بالله عَزَّ وَجَلَّ أمرٌ عظيم، ومن المنكر الكبير أن يُذكر اسم الله عَزَّ وَجَلَّ على أمر كاذب، والنبي ﷺ مر معنا أنه قال: «**من كان حالفاً بالله فليصدق**»، كما أنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال كما عند البخاري: «**الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس**»، وقلنا: إن اليمين الغموس هي: الكاذبة الفاجرة كالتي يحلف بها الإنسان فيقتطع بها مال أخيه المسلم،

يعني: أنه يحلف بالله ﷻ كاذباً عالماً عامداً؛ لأجل مصلحة يرجوها أو مفسدة يدفعها عن نفسه لم تبلغ حدَّ الاضطرار.

الأمر الثالث: ألا يُكثِرَ من الحلف، وهذا هو محل بحثنا في هذا الباب، إذن عندنا ثلاثة أمور على المسلم أن يراعيها في مسألة الحلف:

[الأمر] الأول: أن يحلف بالله، ولا يجوز أن يحلف بغيره.

[الأمر الثاني]: أن يحلف بالله صادقاً.

والأمر الثالث: ألا يُكثر من الحلف.

وذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أدلة الكتاب والسُنَّة ما يشهد لهذا الباب الذي عقده، وهو ما جاء في كثرة الحلف من الذم والعيب، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقول الله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾[المائدة:٨٩].

هذه الآية للمفسرين فيها ثلاثة أقوال:

[المعنى] الأول: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾[المائدة:٨٩]، يعني لا تحلفوا، أو أقلُّوا من الحلف، لا ينبغي أن تبتذل يمينك فتحلف على الصغير والكبير فيما يهم وفيما لا يهم، بل ينبغي أن يكون شأن اليمين في نفسك عظيماً، بحيث إنك لا تحلف إلا على ما يستحق الحلف، فيكون هذا مفهوم أو يكون هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾[المائدة:٨٩].

المعنى الثاني:﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾[المائدة:٨٩]، من الحنث، والحنث: هو نكث اليمين ونقضها وعدم الوفاء بموجبها، فإذا حلف الإنسان على يمين فينبغي عليه أن يبقى على موجبها وأن يفيَّ بموجبها، وهذا مقيَّدٌ بما إذا لم تظهر المصلحة في خلاف ذلك، فإن النبي ﷺ قد قال كما في الصحيحين: «**والله إني إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير**».

المعنى الثالث: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾[المائدة:٨٩]، فلا تتركوها بلا تكفير إذا حنثتم، ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾[المائدة:٨٩]، يعني: لا تتركوها بلا تكفير إذا حنثتم، ويشهد لهذا سياق الآية، فإن الله ﷻ قال: ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا

﴿أَيْمَانَكُمْ﴾[المائدة:٨٩]، فإذا حَنِثَ الإنسان فإن عليه أن يبادر إلى الكفارة، ولا يفعل كما يفعل بعض الناس حينما يُقسِمُ الأقسام ويحلف يمينه على أشياء كثيرة، ثم إنَّه لا يبالي حينما يَحْنث فيخالف مقتضى يمينه، لا يبالي بكفارة هذا اليمين، وربما مرت عليه الأيام فنسيَّ ذلك وتعلق هذا الحكم في ذمته، بل ينبغي على الإنسان أن يبادر إذا حنث في يمينه أن يبادر إلى تكفير هذه اليمين.

والله جَلَّوَعَلَا قد بيّن لنا كفارة اليمين فقال ﷻ: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ﴾[المائدة:٨٩].

إذن المعنى الذي تراه مناسباً لتبويب المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإيراده هذه الآية في هذا الباب هو لا شك المعنى الأول ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ يعني: أقلُّوا من الحلف ولا تكثروا من الحلف، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب» أخرجاه.

هذا حديث مُخرَّج في الصحيحين، قال فيه النبي ﷺ: «الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب»، ومعنى قوله ﷺ: منفقة يعني: سببٌ لرواج السلع، وذلك أن الإنسان البائع إذا حلف على هذه السلعة بأنه إنما اشتراها بكذا وكذا، أو أنها ذات جودة: "والله إنها جيدة وتصلح لكذا وكذا"، فإن هذا مما يُقنع المشتري بالشراء، فربما اشترى دون تردد، فهو مما ينفِّق السلعة ويسببُ رواج بيعها، لكن ما الفائدة إذا كان ذلك سبباً لمحق الكسب ونزع البركة؟، ما الفائدة أن يكون عند الإنسان مال كسبه من تجارته لكنه منزوع البركة؟، لا ينتفع به، -نسأل الله السلامة والعافية-، والسبب ما جاء في هذا الحديث، وهو أن اليمين منفقة للسلعة ممحقة للكسب.

وهل المراد من هذا الحديث اليمين الصادقة أم اليمين الكاذبة؟

الحديث يحتمل الأمْرَين:

[الاحتمال الأول]: قيل: إن قوله ﷺ: «**الحلف منفقة للسلعة**» يعني: الحلف الكاذب، ويشهد لهذا ما جاء في رواية عند الإمام أحمد قال فيها النبي ﷺ: «**اليمين الكاذبة منفقة للسلعة، ممحقة للكسب**»، ولا شك أنَّ اليمين الكاذبة سببٌ للبوار وسبب للشر، فإن الذي يحلف بالله عَجَلّ كاذباً قد وقع في ظلمات بعضها فوق بعض، فهو:

أولاً: قد كذب، والكذب من حيث هو محرم في الشريعة.

وثانياً: أنه ما عظمّ اسم الله عَجَلّ التعظيم اللائق به.

و[ثالثًا]: أنه قد وقع في اليمين الغموس التي تغمس في الإثم ثم في النار، -عافاني الله وإياكم من ذلك-.

ثم إذا كان هذا هو المراد فإن الاستدلال بهذا الحديث على ما بوب عليه المؤلف استدلالٌ مستقيم، ووجه ذلك: أن كثرة الحلف صادقاً تقودك إلى الحلف كاذباً، وهذا أمر معلوم بالمشاهدة، الإنسان الذي يَسْهُل عنده أن يحلف وهو صادق لكنه يكثر من ذلك، فإنه يرتاض لسانه الحلف وتعتاد نفسه على هذا اليمين، وبالتالي ربما يقع في الحلف الكاذب.

إذن يكون هذا الحديث ناهياً عن الإكثار من الحلف بالله عَجَلّ ولو صادقاً، من باب أنه وسيلة إلى ماذا؟، وسيلة إلى الوقوع في الحلف بالله عَجَلّ كاذباً.

والاحتمال الثاني في هذا الحديث -وهو قويٌ أيضاً- أن المراد: الإكثار من الحلف صادقاً في شأن البيع والشراء، لا ينبغي عليك يا عبد الله أن تكثر من الحلف، ويشهد لهذا المعنى ما ثبت عند الإمام مسلم في ((صحيحه)) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إياكم وكثرة الحلف في البيع فإنه يُنَفِّقُ ثم يمحق**» يعني: أنه سبب للرواج وسببٌ للنَفَاق؛ يعني: السلعة تمشي في السوق وتُباع والناس تقبل على شرائها، ولكن هذا لا فائدة منه لأنه يمحق البركة من هذا الكسب الذي يكسبه الإنسان من هذا البيع.

والحديث فيما يبدو-والله تعالى أعلم- يشمل الأمرين، يكون فيه النهي عن هذين الأمرين، عن أن يحلف الإنسان على السلعة كاذباً، أو أنه يكثر من الحلف بالله عَجَلّ على هذه السلعة ولو كان صادقاً.

ولا شك أن الأول أشد إثماً وأعظم جرماً، ويدل على هذا ما خرج الإمام مسلم في ((صحيحه)) من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر**

إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم: المسبل -يعني ثوبه-، **والمنان، والمُنَفِّقُ سلعته بالحلف الكاذب»** فهو لا الذي استفاد في الدنيا! فكسبه ممحوق البركة، ولا هو بالذي نجا في الآخرة؛ فإنه مُتوعَّد بهذا الوعيد الشديد الذي جاء في هذا الحديث، من نَفَّقَ سلعته بالحلف الكاذب فإنه مُتوعَّد بهذا الذي قاله ﷺ.

إذن على المسلم أن يحذر أشد الحذر من الوقوع في هذا الأمر، أو في الآخر وهو أن يُكْثِّرَ من الحلف في البيع، وهو وإن كان شيئاً مخصوصاً بقضية البيع إلا أنه ولا شك يدل على ذم هذه الحال مطلقاً، وإن كان في هذا الأمر على وجه الخصوص الأمر أشد كراهة، الإكثار من الحلف أمرٌ مكروه مذموم مطلقاً، وهو في باب البيع والشراء أشد كراهة وذماً، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن سلمان؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: أشيمطٌ زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل اللهَ بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه» رواه الطبراني بسند صحيح.

هذا الحديث حديث صحيح كما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفيه هذا الوعيد الذي جاء في شأن هؤلاء الثلاثة، وهو: أنَّ الله ﷻ قد توعدهم بهذا الوعيد في الآخرة: أولهم أشيمط زان -نسأل الله السلامة والعافية-، الأشيمط: كبير السن، فدواعي الشهوة عنده ضعيفة، ومع ذلك فإنه زانٍ واقعٌ في هذه الفاحشة الكبيرة -نسأل الله السلامة والعافية-، ولا شك أن الزنا من حيث هو أمرٌ قبيح ومنكر وكبيرة، ولكنه إذا كان من كبير السن فلا شك أنه أشد جرماً وأعظم إثماً.

والقاعدة: أنه كلما قلَّ الداعي إلى المعصية كان إثمها أعظم، هذا لا يعني أن للشاب عذرٌ في الوقوع في الزنا، بل الشاب إذا وقع في الزنا لا شك أنه وقع في كبيرة وإثمه عند الله عظيم، لكنَّ الشيخ كبيرَ السن لا شك أن إثمه عند الله ﷻ أعظم، لم؟ لأن الداعي الدافع إلى وقوعه في هذه المعصية ضعيف، فدل هذا على خبثٍ في نفسه أدّاه إلى الوقوع في هذه

المعصية، على أن نفسه قد استولى عليها الشيطان واتباع الهوى، فوقع في هذه المعصية مع ضعف ما يدعوه إلى الوقوع فيها.

كذلك الشأن في الذنب الآخر وهو الاستكبار مع الفقر، قال ﷺ: «**وعائل مستكبر**»، العائل هو: الفقير، فقيرٌ ومع ذلك يتكبر على خلق الله ﷻ، الكِبرُ قبيح من الغني، فكيف هو من الفقير؟! فلا شك أنه في حق الفقير أشدُّ إثماً وأعظم فداحة، والسبب أنه لا داعي يدعوه إلى أن يتكبر على الخلق، فكان إثمه عند الله ﷻ أعظم.

والثالث قال فيه النبي ﷺ: «**رجل جعل الله بضاعته**»، هذه الكلمة فسرها النبي ﷺ عقيب هذه الجملة مباشرة، فلا تحتاج إلى أن يجتهد إنسان في تفسيرها، وجه كونه جعل الله بضاعته، أي أنه لا يبيع إلا بيمينه ولا يشتري إلا بيمينه، أصبح الحلف بالله ﷻ على لسانه أمراً يسابق كلامه، ولا يبالي فيه ولا يبالي به، ويبذله بكل حال، ولا شك أن هذا أمر مذموم.

وهل المراد بأنه لا يشتري إلا بيمين صادقة، أو أنه لا يشتري إلا بيمين كاذبة؟

إن نظرنا إلى حديث أبي ذر ﵁ السابق فإننا نجد أن الوعيد يشبه الوعيد، فيكون هذا مما يقوي القول بأن حديث الطبراني هذا يراد به أنه لا يشتري إلا بيمين كاذبة ولا يبيع إلا بيمين كاذبة، ويحتمل أن يكون المراد: الإكثار من الحلف ولو كان هذا بصدق، لكن لا شك أنه لو كان هذا كاذباً فإن إثمه عند الله ﷻ أعظم، إذ إثم الكذب لاسيما مع ذكر اسم الله ﷻ أعظم من مجرد الإكثار من الحلف بالله ﷻ صادقاً، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي الصحيح عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم - قال عمران: فلا أدري أَذَكَرَ بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا! -، ثم إن بعدكم قوم يشهدون ولا يُستشهدون، ويخونون ولا يُؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِّمَنُ».

هذا الحديث قال فيه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في الصحيح يعني في جنس الصحيح، فهو في الصحيحين، والشاهد من الحديث أن النبي ﷺ أخبر على سبيل الذم عن شأن أناسٍ يأتون

بعد القرون الثلاثة المفضلة، وذكر أربع صفاتٍ لهم، الشاهد من الحديث فيها قوله ﷺ: «يشهدون ولا يُستشهدون»، قد يقول قائل: أين وجه الشاهد من الحديث المناسب للباب؟ فليس في الحديث شيء يناسب الإكثار من الحلف.

والجواب عن هذا أن أعيد فأقول: إن الشاهد هو قوله ﷺ «يشهدون ولا يُستشهدون».

ووجه ذلك إما بأن يكون بإيراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحديث لأجل التمهيد للحديث الذي بعده أو أن يكون مراده رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هؤلاء الذين يشهدون ولا يُستشهدون يخلطون شهادتهم بالحلف، وهذا ما حمل عليه الحديثَ بعض السلف ومنهم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنه فسَّر الحديث كما نقل أبو العباس القرطبي في ((المفهم))، قال: (رويَّ عن النخعي أن قوله: يشهدون يعني: أنهم يحلفون)، ووجه ذلك أن يقول الإنسان في شهادته: أشهد بالله أنه كذا وكذا، كان كذا وكذا، فهذه الشهادة تتضمن أيضاً الحلف، فيكون حال هؤلاء أنهم يجمعون بين الشهادة والحلف، فيكون هذا في حقهم أمراً مذموماً.

ونبقى هنا عند قوله ﷺ في شأن هؤلاء أنهم «يشهدون ولا يُستشهدون»، نتكلم عن مسألة الحلف في الحديث القادم في حديث ابن مسعود، لكن نقف مع قوله: «يشهدون ولا يُستشهدون»، ما معنى قوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ذلك؟

اختلف العلماء في توجيه هذا الحديث، فمنهم من قال:

[المعنى الأول]: إنهم يشهدون ما لم يشهدوا، يشهدون فيما لم يشهدوا، يشهدون في الشيء الذي لم يشهدوه، فمعنى قوله: «يُستشهدون» يعني: لم يكن منهم تحمَلٌ للشهادة، بمعنى أنهم يشهدون بلا علم فتكون شهادتهم شهادة زور، وهذا ما نقله الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن بعض أهل العلم، إذن «يشهدون ولا يُستشهدون» يعني: يشهدون بلا علم، يشهدون بما لم يشهدوا.

والمعنى الثاني: أنهم يشهدون دون طلب منهم، فيكون الأمر راجعاً للأداء لا للتحمل، يتقدمون يبادرون من أنفسهم فيشهدون دون أن يطلب منهم صاحب الحق أو الحاكم القاضي، دون أن يطلب منهم ذلك، وهذا مدعاة للشُبهة في حق هذا الإنسان، لماذا يبادر إلى الشهادة؟ لعل عنده هوى إما مع المشهود له أو على المشهود عليه، فكان من

الأمر المذموم مبادرةُ الإنسان بالشهادة إذا لم يحصل استدعاءٌ وطلب منه أن يشهد، متى ما طُلب للشهادة فواجب عليه أن يجيب إلى ذلك كما قال ﷻ: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ﴾ [البقرة:٢٨٣].

لكن قد يقول قائل: فماذا نصنع بما خرج الإمام مسلم في ((صحيحه)) من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الشهداء، الذي يؤتي الشهادة قبل أن يُسألها» الذي ماذا؟ «يؤتي الشهادة قبل أن يُسألها»، هذا موضع افترق فيه أهل العلم إلى أقوال ومذاهب في التوفيق بين حديث عمران وبين حديث زيد بن خالد رضي الله عنه:

من أهل العلم من سلك مسلك الترجيح، منهم من رجَّح حديث زيد بن خالد، قال هذا من حديث أهل المدينة، وحديث عمران من حديث أهل العراق، فنقدم حديث أهل المدينة لأنهم أعلم بالسُنَّة.

وقال آخرون: بل نرجح حديث عمران؛ لأنه مُخرَّج في الصحيحين، أما حديث زيد بن خالد فانفرد به مسلم.

ولا شك أن كلا المسلكين أو كلا القولين أو أن هذا المسلك وهو مسلك الترجيح مسلك ضعيف لإمكان الجمع، ولا شك أن الجمع مقدم على الترجيح.

أما الجمع بين هذين الحديثين فإنه متيسر بحمد الله، فالأصل هو ألا يشهد الإنسان إلا إذا استُشهد إلا في حالتين، وعليهما يتنزل حديث زيد بن خالد رضي الله عنه:

[الأمر] الأول: في حال الاضطرار إلى شهادته؛ بمعنى: أنه لو لم يشهد فإن الحق سيذهب عن صاحب الحق، بمعنى قد يكون لإنسان على آخر حق لكنه لا يجد دليلاً عليه أو يكون قد نسي فيذهب الحق عليه إلا إذا شهد هذا الشاهد، مثال ذلك: أن يقرَّ إنسان لآخر بدين، وسمعهما- سمع المحادثة شخص عن غير قصد، كان جالساً في المجلس-، ثم إن هذا المدين قد جحد وليس عند الدائن حجة ولا دليل ولا شاهد، وسيذهب الحق عليه لو لم يشهد هذا الشاهد، فإن هذا الإنسان يتعين في حقه أن يتقدم بماذا؟ بالشهادة لأنه لو لم يشهد فإن الحق سيضيع عن صاحبه، فيكون داخلاً في حديث زيد بن خالد رضي الله عنه.

الأمر الثاني: أن يكون هذا في حقوق الله ﷿ الخالصة أو التي فيها شائبة لحق الله، وجه ذلك: أن حقوق الله ﷿ يجب أن يُقام بها، فإذا كانت الشهادة مُتَعَلقة بحق الله ﷿ كأن تكون شهادة في مسألة حسبة، أو أن يكون الأمر فيه شائبةٌ لحق الله كالشهادة في شأن الأوقاف أو في الوصايا العامة أو في العتاق أو ما شاكل ذلك، فإن الإنسان عليه أن يبادر بالشهادة ولو لم يُسألها، وبالتالي فيكون حديث عمران في شأن الحقوق الآدمية الخالصة، وحديث زيد بن خالد في شأن حقوق الله ﷻ، وبذلك يمكن الجمع بين الحديثين، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفيه عن ابن مسعود؛ أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته».

هذا هو موضع الشاهد من الحديث، وهو ثابت في الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث ابن مسعود ؓ، وفيه ذم هؤلاء الذين يأتون بعد القرون المفضلة.

والاستشهاد بهذا الحديث أوضح من الاستشهاد بالحديث السابق، إذ هؤلاء تسبق شهادة أحدهم يمينه أو تسبق يمينه شهادته، ومعنى ذلك: أن هؤلاء القوم لا يبالون بشأن اليمين ولا بشأن الشهادة، حتى إنَّهم من كثرة ما يبذلونها يكاد أن يكون الأمر فيهما؛ كالشأن في المتسابقَين، فهذا يسبق هذا، يعني: يمينه يبذلها سريعاً وشهادته يبذلها سريعاً.

وهذا من قلة الاكتراث بعظيم المقام، فإنَّ مقام الحلف بالله ﷿ مقام عظيم، كما أن مقام الشهادة مقام عظيم، والإنسان مسؤول عن شهادته، وهذه اللامبالاة تدل على ضَعْفِ تعظيم الله ﷿، وعلى ضَعْفِ الخوف من الله ﷻ، ينبغي على الإنسان أن يتحفظ أشد التحفظ فيما يتعلق باليمين وما يتعلق بالشهادة إن رام أن يكون من محققي الإيمان والتوحيد.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال إبراهيم: «كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار».

هذا ليس أثراً منفصلاً، هذا تابع للحديث السابق، فإبراهيم النخعي رواه عن عبيدة عن ابن مسعود، ذكر الحديث الذي سمعت، ثم عقّب على روايته لهذا الحديث بقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد).

إبراهيم النخعي تابعيٌّ جليل يحكي عن حال السلف وعن تربيتهم، والرواية جاءت عند مسلم: (كانوا ينهوننا ونحن صغار عن العهد والشهادات).

الشاهد من هذا الأثر أنَّ السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ كانوا يربون أبناءهم على تعظيم هذه الأمور:

الأمر الأول: في شأن الشهادة إمَّا من جهة التحمُّل؛ بمعنى: ألا يحرص الإنسان على تحمل الشهادة ولا يقبل أن يُستشهد مخافة ألا يؤديَّ الحق، فالإنسان عرضة للنسيان وعرضة للغلط والخطأ، وربما ضاع الحق بسبب خطئك في الشهادة، فمهما أمكنك أن تبتعد عن تحمل الشهادة فافعل، اجعل ذمتك خالية عن ذلك فإنه أسلم لدينك ما لم يتعين الأمر في حقك.

إذن هذا ما يحمل عليه قوله : (كانوا يضربوننا على الشهادة).

[الأمر الثاني]: كانوا يضربوننا على الشهادة كَذِباً، يعني: ألا يبالي الإنسان فيشهد كذباً، ولا شك أن هذا أمر منكر ومحرم كما تعلمون.

الأمر الثالث: الذي حمل عليه بعض أهل العلم قوله: الشهادة هنا: اليمين، ولعل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد هذا المعنى، بعض العلماء قال وهذا مما نحى إليه الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ذكر أن اليمين قد يطلق عليها الشهادة، ونزع في هذا إلى قوله تعالى: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾[النور:٦]، المقصود أن هذا القول مما يُستأنس به في إيراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الأثر، وربما أورده لأجل أنه تابعٌ لرواية الحديث.

[الأمر الرابع]: وهو ما ذكر بعض أهل العلم من أن مراده رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الشهادة على الأمر الغيبي كالجنة والنار، يُشهَد لفلان أنه من أهل الجنة أو لفلان بأنه من أهل النار كما

يفعل بعض المتسرعين أو بعض الطوائف من أهل الأهواء، ولا شك أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد على معينٍ بأنه من أهل الجنة والنار من أهل القبلة ما لم يكن فيه نصٌ عن رسول الله ﷺ وإن كان هذا التوجيه فيما يظهر –والله تعالى أعلم– بعيد نظراً لقوله بعده: (والعهد)، فلا مناسبة بين هذا وهذا.

أما العهد فهو: أن يتحمل الإنسان شيئاً في ذمته يعاهد عليه ويعاقد عليه، فكان السلف ينهون أبناءهم عن أن يعاهد الإنسان على شيء، والسبب أنه يُخشى أن يُنقض عهده أو يَنقض عهده، ولا شك أن هذا أمر مذموم، والله جَلَّوَعَلَا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[المائدة:١]، فخشيةً من مَغبَةِ الوقوع في هذا الأمر كان السلف ينهون أبناءهم عن عدم المبالاة وإعطاء العهود والعقود، فلربما ترتب على هذا أن تتحمل ذممهم ما لا طاقة لهم به، فيقعون في المحظور.

بعض أهل العلم قالوا: إن (العهد) ههنا هي: اليمين، ، وهذا ما مال إليه ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في مقدمة ((فتح الباري))، قال: (الظاهر، والله أعلم، أنه أراد بالعهد ههنا اليمين)، وذكر أن من معاني العهد في اللغة: اليمين.

هذا قولٌ إنْ صحَّ فإنه يكون شاهداً لإيراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الأثر في هذا الباب.

مما يُستفاد من هذا الأثر: أن تلحظ الجدية في التربية التي كان عليها السلف الصالح، لم يكونوا يتركون أبناءهم سبهللا يقولون ويفعلون كما يشاءون، بل كانوا يربونهم على الحزم، على معالي الأمور، على ترك ما قد يؤدي إلى وقوعهم في أمر مذموم، ولذلك ربما وجدت شيئاً من القسوة، إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: كانوا يضربوننا، وهذا على حد قول الشاعر:

فقسى ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحمُ

ينبغي على الإنسان في أبنائه، أعني في تربيتهم أن يجمع بين الترغيب والترهيب، وأن يكون حازماً في المواضع التي تقتضي ذلك، ولو أدّى هذا إلى الضرب بخلاف ما يُرَوَّجُ له في بعض أساليب التربية الحديثة من المطالبة بإلغاء الضرب بالكلية.

هذا الأمر غير صحيح ومخالف للشرع أيضاً، فإن الضرب في محله بشروطه لا شك أنه أمر جائز، بل ربما كان أمراً متعيّناً، ومن ذلك ما أخبر به نبينا ﷺ من اللجوء إلى الضرب في

شأن الصلاة متى ما قصَّر الطفل فيها إذا بلغ سن العاشرة، قال: «**واضربوهم عليها لعشر**»، فدل هذا على أن الضرب في محله بشروطه أمر جائز وربما يكون متعيناً.

والمطلوب أن يراعي الإنسان الحكمة ومراعاة الشرع في هذا المقام، فينبغي:

أولاً: ألا يكون الضرب على كل شيء، على كل صغير وكبير، أو في حال ما إذا لم يخطئ الطفل خطئاً يستحق ذلك.

[ثانيًا]: لابد أن يكون الطفل قد بلغ المبلغ الذي يناسبه أن يُضرب، أما الطفل الصغير الذي لا يعي ما الضرب أو لم ضُرب، فلا شك أن ضربه ظلم له، وسيُعاقَب الإنسان على ذلك.

[ثالثًا]: أن يكون ضربه ضرباً غير مبرح، يعني: لا يكون ضرباً شديداً يوقع الأذى ويوقع الضرر على هذا الطفل كما يفعل بعض من قسّى قلبه وظلمت نفسه، فيضربون ضرباً كأنهم فيه منتقمون، لا أنهم مؤدِّبون.

فرقٌ بين الضرب الذي هو ضرب انتقام وتشفي، والضرب الذي هو ضرب تأديب، ضرب التأديب ليس المقصود فيه تعذيب الجسد، إنما هو رسالة يُراد لها أن تصل إلى هذا المضروب، وهو أنه قد وقع في أمرٍ لا يليق به أن يقع فيه، فيكون ضرباً يؤنب نفسه، وليس أنه يؤثر على جسده.

٨٢

٨٢- باب : ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه.

وباب : ما جاء في الإقسام على الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب:

ما جاء في ذمة الله، وذمة نبيه.

هذا الباب من سلسلة الأبواب التي عقدها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لينصح أهل التوحيد والإيمان في تحقيق التوحيد، ولذلك الألفاظ التي تركُها من كمال التوحيد، والقول بها من ضَعْفِ تعظيم الله وتوحيده، ومن ذلك: إخفار ذمة الله وذمة نبيه ﷺ.

الذمة هي العهد والميثاق، ولأجل هذا قيل عن أهل الكتاب إنهم: أهل الذمة إذا كانوا في بلاد المسلمين، ومن ذلك قول الشاعر النجاشي الحارثي يهجوا قبيلةً:

قُبَيِّلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

لاشك أنَّ إعظام الله ﷻ يقتضي أن تُعظم ذمته، فالميثاق والعهد الذي أُخِّذَّ بالله ﷻ وعلى ذمة الله، وعلى ذمة رسوله ﷺ؛ يجب أن يُوفى به تحقيقًا للتوحيد الواجب، وإخفار ذلك يعني: نقضه، لاشك أنه من ضعف تعظيم الله ﷻ ومن وهَنٍ في توحيد العبد، فلا ينبغي أن يقع فيه المسلم، وأورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ الدليل الذي يدل على هذا في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾[النحل:٩١] الآية.

هذا أمرٌ من الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾[النحل:٩١]؛ إذا أعطيتم عهد الله؛ بأن قال إنسانٌ لآخر: "لك عهدُ الله أن أأمنك على نفسك فلا أوذيك، أو أن أكون معك صادقًا، أو أن أحفظ سرك"، وما شاكل ذلك؛ فإنه يُوجِب وجوبًا أن يفي الإنسان بهذا العهد والميثاق الغليظ؛ لأنه عهد الله ﷻ، وإخفاره منكر عظيم حتى إنه لا كفارة له إلا التوبة؛ وذلك لعظمته، ليس الشأن فيه شأنًا هينًا بحيث إنه يمكن أن يُكفر بكفارة كما هي كفارة اليمين مثلًا؛ كلا هذا الذنب لا كفارة له عند أهل العلم؛ وذلك لأنَّه أمرٌ عظيمٌ وكبيرة من كبائر الذنوب، فلا تكفر إلا بالتوبة إلى الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال ﷻ في هذه الآية: ﴿وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾[النحل:٩١]؛ مر بنا ما يتعلق بالأيمان في الدرس الماضي، وهذه الأيمان التي أمر الله ﷷ بحفظها، وعدم نقضها؛ هي: الأيمان الداخلة في العهود والمواثيق، وليست الأيمان التي تتعلق بالحثِّ أو المنع؛ فإنَّ هذه يجوز عدم الإبرار بها بل يُستحب إذا ظهرت المصلحة في ذلك.

﴿وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾[النحل:٩١]؛ يعني: إذا أقسم الإنسان بالله ﷷ في عهد، أو عقدٍ عقده؛ فواجب عليه أن يفيَّ بذلك ولا ينقض يمينه.

أما الأيمان والأقسام التي تتعلق بحث النفس؛ أو منعها من أمرٍ من الأمور فإن هذه يجوز للإنسان أن لا يفيَّ بها، يجوز أن ينقض هذه اليمين ولا يفي بها مع لزوم الكفارة في حقه في تفاصيلَ عند الفقهاء، بل كما ذكرنا في الدرس الماضي إن هذا مما يستحب متى ما ظهرت المصلحة في ذلك، وقد مر معنا ما ثبت في الصحيحين من قول النبي ﷺ : «**والله إني إن شاء الله لا أحلف على يمين؛ فأرى غيرها خيرًا منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير**».

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش أو سَرِيَّة؛ أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى، وبمن معه من المسلمين خيراً، فقال: «اغزُوا بسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغُلُّوا، ولا تغدِروا، ولا تُمَثِّلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصالٍ - أوْ: خلال - فأيَّتُهُنَّ أجابوك: فاقبل منهم، وكُفَّ عنهم، ثم ادعُهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبِرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها؛ فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله تعالى، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيءٌ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا؛ فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك؛ فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا؛ فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تجعل ذمة الله وذمة نبيه؛ فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك؛ فإنكم إن تُخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله؛ فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك؛ فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا؟» رواه مسلم.

هذا الحديث؛ حديث بريدة بن الحصيب الأسلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقد خرجه الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((صحيحه))، وهو حديث طويل، وفيه مباحث شتى.

الشاهد منها قول النبي ﷺ: «وإذا حاصرت أهل حصن»؛ الخِطابُ كان من جملة وصية كان النبي ﷺ يوصي بها أمير الجيش، أو السرية.

السرية: قطعة من الجيش قيل تبلغ من المائة إلى الأربعمائة، وقيل من المائة إلى الخمس مائة، قيل من الخمسة إلى الثلاث مائة.

المقصود: أن النبي ﷺ كان يوصي أمير هذه السرية؛ أو ذاك الجيش بهذه الوصية العظيمة، ومن ذلك قال: «**إذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تجعل ذمة الله وذمة نبيه ﷺ**»؛ بمعنى: أنهم وافقوا على أن يستسلموا؛ بشرط أن يأمنوا على أنفسهم بجعل ذمة الله ونبيه ﷺ لهم في ذلك، تجعلون لهم يا معشر المسلمين ذمة الله ورسوله ﷺ مثلًا؛ أن لا يُعتدى عليهم، أن يُحفظوا في أموالهم؛ إلى غير ذلك.

ها هنا أمر النبي ﷺ: ألا يجعل الأمير لهم ذمة الله وذمة نبيه ﷺ، إنما يُنزلونهم على ذمتهم، وذمة أصحابهم، والسبب ذكره النبي ﷺ قال: «**فإنكم إن تُخفروا ذمتكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه**».

الشأن أن ذمة الله وذمة رسوله ﷺ أمرها عظيمٌ، وواجبٌ الوفاء بها، والمقام فيه جيش، وربما كان من صوابهم؛ أو من جُهَّالهم من وقع في إخفار ذلك العهد، فيكون قد وقع أمر عظيم وهو: إخفار ذمة الله وذمة نبيه ﷺ؛ مع ما في ذلك من إساءة سمعة الإسلام والمسلمين.

فالأهون إذًا أن يُلْتَزَمَ لهم بذمة المسلمين، بذمة أمير الجيش، أو أهل هذا الجيش، أما أن يُلْتَزَمَ لهم بذمة الله؛ ونبيه ﷺ فهذا أمرٌ محفوفٌ بالخطر، وقد يترتب عليه مفسدةٌ عظمى؛ ألا وهي إخفار ذمة الله، ونقض ذمة الله، وذمة نبيه ﷺ، وهذا من تحقيق التوحيد تعليمٌ من نبينا ﷺ لنا معشر المسلمين؛ على تعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ، وعلى تحقيق التوحيد له تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ، ومن ذلك أن يُعظم كل ما يرجع إلى ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ومن ذلك الذمة والميثاق والله –تعالى- أعلم.

من فوائد هذا الحديث: أن العلماء استنبطوا منه قاعدة مهمة من قواعد الشرع وهي: احتمال أدنى المفسدتين في سبيل دفع أعلاهما، يُرشِدُ إلى هذا قوله ﷺ: «**فإنكم إن تُخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه**»؛ وهذه قاعدةٌ صحيحة يدل عليها أدلةٌ كثيرةٌ في الشريعةِ.

فإن تزاحم عدد المصالح — يُقدم الأعلى من المصالح
وضده تزاحم المفاسد — يُرتكب الأدنى من المفاسد

والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب:

ما جاء في الإقسام على الله

الإقسام على الله له أحوالٌ ترجع إلى ثلاث:

[الحالة]الأولى: أن يقسم على الله ﷻ في شأن خبرٍ من خبر الله، أو خبر رسوله ﷺ، كأن يقول مثلًا: والله ليُدخلن الله المؤمنين الجنة، والله ليُعذبن الله الكفار في النار، والله لتكونن العاقبة للمتقين، إلى غير ذلك مما جاء الدليل عليه في الكتاب والسنة؛ فهذا الإقسام لا حرج فيه.

[الحال الثانية]: الإقسام على الله الذي ينشأ عن عظيم الإيمان به، وكمال حسن الظن به تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، ويدل على هذا أدلة عدة في الصحيحين وغيرهما، من ذلك ما ثبت في ((الصحيحين)) من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن الربيع بنت النضر كسرت ثنية –أي سن– جارية من الأنصار، فاشتكوا إلى النبي ﷺ فأرادوهم على الصلح –أي الأرش–، فأبوا إلا القصاص، فقال أنس بن النضر أخو الربيع: يا رسول الله؛ أتكسر ثنية الربيع، والله لا تسكر ثنية الربيع، وفي رواية في البخاري قال: «**والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية الربيع، فقال: يا أنس كتاب الله القصاص**»، ثم إن أهل تلك الجارية رضوا بالأرش، وقبلوه، عند ذلك قال النبي ﷺ: «**إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره**»؛ هذا لفظ البخاري.

وعند ((مسلم)) أن: من أقسم على الله إنما كانت أمُّ الربيع وليس أنس بن النضر.

ويدل على هذا أيضا ما ثبت في ((الصحيحين)) من حديث حارثة بن وهب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ألا أدلكم على أهل الجنة؟ كل ضعيف يُتضعف لو أقسم على الله لأبره**»، ويدل على ذلك أيضا ما ثبت في ((صحيح مسلم)) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**رب أشعث مدفوعٍ بالأبواب؛ لو أقسم على الله لأبره**».

ويدل على هذا أيضًا ما ثبت في ((صحيح مسلم)) أن النبي ﷺ أخبر كما في قصة عمر رضي الله عنه وهي مشهورة قال: «**قال يُقْدِّمُ عليكم مع أنداد اليمن أويس بن عامر– يعني**

القرني- وأخبر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ **أنه كان به برص فذهب عنه إلا موضع درهم، وأنه كان له والدةٌ هو بها برٌ، قال: لو أقسم على الله لأبره»**.

وأيضًا جاء عند الترمذي بإسناد حسن أن النبي ﷺ قال: «**كم من أشعث أغبر ذو طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك»**، أخو أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إذًا هذه أدلة تدل على أن هؤلاء الصالحين المؤمنين لو أقسموا على الله عَزَّ وَجَلَّ لأبر قسمهم، والمعنى أن الله عَزَّ وَجَلَّ يجيبهم إلى ما أقسموا، ولا يُحنثهم في يمينهم، لكرامتهم على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، كأن يقول مثلًا: والله لا يكون كذا؛ مما قد يقدره الله عَزَّ وَجَلَّ في المستقبل أو لا يُقدره، أو يقول: أقسمت عليك؛ أي ربي، أن يكون كذا وكذا، فإن هذا من الأمر الذي يرتقي إليه الكُمَّل من المؤمنين، كما جاء في هذه النصوص وغيرها.

ولكن هذا الباب ينبغي أن يتنبه المؤمن إلى أنه مرتبة مَنِيفة، لا يرتقي إليها إلا الكُمَّل، وأما من كان دونهم فلا ينبغي أن يقتحم هذا الباب، ورحم الله امرئً عرف قدر نفسه.

هذا المقام مقامٌ ناشئٌ عن حسن ظنٍ بالغٍ بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يظن أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى سوف يقع منه ما سوف يكون منه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وسوف يُقدر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الشيء الذي أَحبه ورغب إليه، لأنه يُحسن الظن بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ويعلم أن الله على كل شيء قدير، فهو يرجوا الله أن يُجيبه إلى هذا الشأن الذي أقسم على الله عَزَّ وَجَلَّ في شأنه، وبالتالي فهذا القِسم من أهله لا حرج فيه.

[الحالة الثالثة] : وهو الموضوع الذي عقد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب لأجله، وهو الإقسام على الله الذي ينشأ من سوء ظنٍ بالله، أو عدوانٍ على الخلق، أو إعجاب بالنفس واحتقار للغير، فلا شك أنَّ هذا من ضعف التوحيد، وتركه من تحقيق كمال التوحيد الواجب على الإنسان أن يحذر من هذا الأمر كما دلَّ على ذلك الأدلة التي جاءت عن النبي ﷺ ومن ذلك ما ستسمعه في ما أورد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن جندب بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله ﷻ: من ذا الذي يتألّى عليّ أن لا أغفر لفلان؟، إني قد غفرت له وأحبطت عملَك» رواه مسلم.

حديث جندب بن عبد الله البجلي ﷺ مُخرجٌ في ((صحيح مسلم))، وفيه أن رجلًا قال في شأن رجلٍ آخر: والله لا يغفر الله لفلان، وقع في هذا الأمر المذموم الخطر؛ وهو: أن أقسم على الله ﷻ أنه لا يكون كذا، أو أنه لا يفعل تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كذا، فكانت هذه الكلمة سببًا لمقت الله ﷻ له، وسببًا لحبوط عمله -نسأل الله السلامة والعافية-، إذ قال الله ﷻ: **«من ذا الذي يتألَّى»**؛ يتألى أي: يقسم ويحلف، الأليةُ هي: اليمين أو القسم أو الحلف ،كما قال كثير عزة:

قليلُ الألايا حافظٌ ليمينهِ فإن سَبَقَتْ مِنْهُ الأَلِيَّةُ بَرَّتِ

«من ذا الذي يتألَّى عليّ أن لا أغفر لفلان؟! إني قد غفرت له وأحبطت عملَك»؛ فهذا دليلٌ على أنَّ الإقسام على الله ﷻ كهذه الحال التي كانت من هذا الإنسان لا شك أنها ذنبٌ عظيم.

وجاء عند أبي داوود في ((سننه)) من حديث أبي هريرة ﷺ قصةٌ قريبة من هذه أيضا؛ وهي في شأن رجلين من بني إسرائيل كانا متآخيين، أحدهما: كان يذنب؛ رجل عاص، والآخر: قال النبي ﷺ كان مُجتهد في العبادة، فكان العابد إذا رأى ذاك المقصر يقع في الذنب ينصحه ويقول له: أَقْصِر، كُفّ، لا تفعل، وذاك الرجل يقول: خلّ عني، خلني وربي، فرآه مرة على ذنب استعظمه فقال: أقْصِر، قال: خلني وربي أبعثت علي رقيبا؟ فقال عندها وبئس ما قال: والله لا يغفر الله لك، أو: لا يدخلك الجنة أبدا.

فبعث الله ﷻ فقبض روحهما، ثم جمعهما عنده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، واجتمعا عند رب العالمين جَلَّ وَعَلَا، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهذا المذنب: ادخل الجنة برحمتي، وقال لهذا العابد الذي تألَّى على الله ﷻ قال: أكنت بي عالما؟ أم كنت على ما في يديَّ قادرا، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : خذوه إلى النار، عندئذٍ قال أبو هريرة ﷺ كلمة: أوبقت دنياه وآخرته، -نسأل الله السلامة والعافية-.

وفي ((مصنف عبد الرزاق)) بإسنادٍ رجاله ثقات من حديث ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً: «أن رجلًا كان يصلي، فلما سجد جاء رجل فوضع قدمه على عنقه، فلما انصرف قال: وضعت قدمك على عنقي وأنا ساجد، والله لا يغفر الله لك أبدا، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأدخله الله النار».

إذًا- يا أيها الأخوة- هذا المقام مقامٌ عظيم، ينبغي على الإنسان أن يحفظ فيه لسانه، وأن يحذر أن يقع في هذه الهوة العظيمة ، وهو أن يُقسِّمَ على الله عَزَّ وَجَلَّ إقسامًا ناشئًا عن سوء ظنٍ بالله عَزَّ وَجَلَّ، أو تحكم في فعله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أو اعتقاد أن الله تعالى لا يقدر على أن يغفر هذا الذنب فإن رحمته تقصر و تضعف عن ذلك، من كان منه ذلك فلا شك أنه واقعٌ في ذنب عظيم.

تبقى مسألة أخيرة وهي في قول النبي ﷺ: «قد غفرت له وأحبطت عملك».

ما هذا الحبوط؟ أهو الحبوط الكلي؟ أم الحبوط الجزئي؟

المتقرر عند أهل السنة والجماعة أن الحبوط قسمان:

[القسم الأول]:**حبوط كلي**: أي تبطل حسنات الإنسان، وأن يزول جميع ثوابه على أعماله بالكلية، وهذا لا يكون إلا بالكفر بالله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:٨٨].

[القسم الثاني]: **الحبوط الجزئي**: هو بطلان بعض الثواب لا جميعه، وهذا يكون بفعل المعاصي التي هي دون الكفر، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾[البقرة:٢٦٤].

ويدل على ذلك أيضًا قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[محمد:٣٣]؛ قال بعض أهل التفسير: أي بالمعاصي.

ويدل على ذلك جملة من النصوص الأخرى.

المقصود أن الوارد في ذلك الحديث هل هو من الأول أم من الثاني؟

اختلف أهل العلم في توجيه هذا الحديث:

منهم من قال: إن هذا القائل كان منه عملٌ آخر هو ناقضٌ من نواقض الإسلام كان السبب في حبوط عمله.

وقال آخرون: إن هذا الإنسان كان قائلًا هذه الكلمة مُقسِّما على الله ﷻ متحكمًا في علمه؛ مستحلًا لذلك؛ وهذا كفر فحبط عمله لاستحلاله.

وقيل: إن هذا كان حكم هذه الكلمة في شرع من قبلنا.

وهذه التوجيهات بادية الضعف والتكلف.

والتحقيق في هذا المقام إن شاء الله أن يقال: إن هذا الرجل كان بين أمرين:

[الأمر الأول]: إما أن يكون قوله هذا: «**والله لا يغفر الله لفلان**»؛ ناشئا عن اعتقاد أن له مكانة عند ربه ومزية وفضيلة؛ بحيث إنه يحكم على الله ﷻ فالله ﷻ يفعل ما يأمر به، ولاشك إن كان الأمر كذلك فيكون هذا الإنسان قد كفر بالله ﷻ، وبالتالي يكون حبوط عمله حبوطًا كليًا.

[الأمر الثاني]: أن يكون هذا الإنسان قد قال هذا القول عن طرفٍ من سوء الظن بالله ﷻ أو إعجابٍ بنفسه، واحتقارٍ لهذا الذي قال فيه ما قال.

وبالتالي فيكون قد وقع في ذنب عظيم، ولا يصل ذلك لحد الكفر، وعليه فيكون حبوطه حبوطًا جزئيا.

ويبقى النظر في قوله في الحديث: «**وأحبطت عملك**»، الذي يظهر والله تعالى أعلم أنَّ المراد هنا: مطلقُ العمل، لا العمل المطلق، -وقد عرفنا في دروس سابقة الفرق بين الجملتين-، فهذا قد أحبط الله ﷻ عنه جملة من أعماله، قد يكون الذي أحبط أعمال الجوارح؛ فإن الذي قرره طائفة من أهل العلم ومنهم ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((فتح الباري))؛ قرر أن العمل إذا أطلق في النصوص فإنه ينصرف لأعمال الجوارح، وربما الأمر يحتمل أن الذي أحبط هو العمل الذي أُعجب به هذا الإنسان، والله تعالى أعلم.

من فوائد هذا الحديث: أن نعلم خطر اللسان، فاللسان شأنه عظيم:

إنَّ اللسان صغير جرمه وله ... جرم كبير كما قد قيل في المثل

كما قد قال الرسول ﷺ: «**وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**»، هذه كلمة قالها هذا الإنسان فأوبقت دنياه وأخراه؛ -عافاني الله وإياكم من ذلك- الأمر خطر فربَّ كلمة يقولها العبد لا يلقي لها بالًا؛ يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق إلى

المغرب، فعلى الإنسان أن يحترس لكلامه وأن يتنبه لألفاظه، فلعله يقول الكلمة التي تكون سببا في تعاسته -عافاني الله وإياكم من ذلك-.

أيضًا من فوائد هذا الحديث: أن نعلم أن النبي ﷺ صادقٌ حين قال: «**الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك**»؛ أي أن أسباب دخول الجنة أو النار قريبة، ربما يدخل الإنسان الجنة بسببٍ لا يظن أنه يُبَلغه ما بلغ، والشأن في الطرف الآخر كذلك، وهذا مَثَلٌ تضربه العرب لقرب الشيء يقال: هذا أقرب إليك من شِراك نعلك؛ أي أن الأمر قريب جدا، فأسباب الجنة والنار قريبة جداً، ومنها هذا الكلمة التي قالها الإنسان فأوجبت سخط الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليه.

ومن ذلك أيضًا: أن نعلم خطر الغضب؛ الغضب يجمع الشر، على الإنسان أن يتنبه ويتحفظ، هذا الإنسان قال كلمة في لحظة غضب فأوردته هذا المورد العظيم.

ومن تلك الفوائد أيضًا: أن نعلم صحةَ معتقد أهل السنة والجماعة في شأن أهل الكبائر والعصاة، وأنهم تحت مشيئة الله تبارك وتعالى إن شاء عذبهم، وإن شاء عفى عنهم، فهذا إنسان يذنب ويرتكب المعاصي، ويُناصح ولا يستجيب، ومع ذلك فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ غفر له وأدخله الجنة، الله عَزَّ وَجَلَّ ذو رحمة واسعة، لا ينبغي على الإنسان أن يُحجر رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولا أن يسيء الظن بالله جَلَّ وَعَلَا، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وسعت رحمته كل شيء،﴿**وإنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرةٍ لِلنَّاسِ عَلَىَ ظُلْمِهِمْ وإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ **[الرعد:٦]**، فعلى الإنسان أن يتنبه لهذا الأمر العظيم، فلا يقع في ما وقع فيه أهل الوعيد من القنوط أو التقنيط من رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ومن تلك الفوائد أيضًا: درسٌ مهم ينبغي أن يتنبه له الدعاة إلى الله وأهل الحسبة، والآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، حذاري أن يظنوا لما كانوا في موقع التوجيه والنصح أنهم أرفع من غيرهم، وأن من سواهم مُحتقر، وكذلك أن يحذروا من الألفاظ التي تُقنِط الناس من رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، أو تجعلهم يسيئون الظن، أو تجعلهم ييأسون وبالتالي فإنهم يعبون من المعاصي عبًا، فلا ينبغي ذلك بل يجب أن يُجمع الأمر بين الترغيب والترهيب، وأن يُبيّن للناس سعة رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ إلا أنها قريبٌ من المحسنين، فينبغي على الإنسان أن يُحسن حتى يكون قريبًا من رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

هذه جملة من الفوائد التي جاءت في هذا الحديث، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي حديث أبي هريرة أن القائل رجلٌ عابد، فقال أبو هريرة: تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته.

كأن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يميل إلى أن القصتين واحدة؛ ما جاء في حديث جندب، وما جاء في حديث أبي هريرة؛ قصةٌ واحدة، والأمر على كل حال مُحتمل، لكن ليس الأمر مقطوعًا به؛ وذلك أنَّ خاتمة ما جاء في هذا الحديث الذي في الباب أن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ قد قال: «**قد غفرت له وأحبطت عملك**»، وأما الذي جاء في ختام القصة التي جاءت في حديث أبي هريرة عند أبي داوود وأحمد وغيرهما فيه أن الله عَزَّوَجَلَّ أدخل هذا الجنة، وأدخل ذاك النار.

الشيخ لم يراجع التفريغ

٨٣

٨٣- باب:

لا يستشفع بالله على خلقه

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بابٌ:

لا يستشفع بالله على خلقه

فهذا الباب عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ للدلالة على عدم جواز أن يستشفّع بالله على أحدٍ من خلقه، والخلق هنا في معنى السياق بمعنى المخلوق، وهذا واردٌ في جملة من النصوص، منها قول الله ﷻ: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ [لقمان:١١]، يعني: هذا مخلوقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي سياقٍ آخر: قد يفرق بين الخلق والمخلوق؛ فالخلقُ: فِعلُ الله تعالى القائم به، وأما المخلوق: فإنه المفعول المنفصلُ عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومرادُ المؤلفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ التنبيه على أنه لا يجوز أن يجعل العبد ربه وإلهه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شفيعًا له عند أحد من الخلق، لا يستشفع بالله على أحدٍ من خلقه، وذلك أن شأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أعظم، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يجوز أن يكون شفيعًا للمرء عند أحد من الخلق، وعلة ذلك سيأتي الكلام عنها قريبًا إن شاء الله.

وهذا الباب أورد فيه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديثا واحدا هو حديث جبير بن مُطعِم عن النبي ﷺ، وهذا الحديث خرجه أبو داودَ في ((سننه))، والإمام أحمد في ((الرد على الجهمية))، والبخاري في ((التاريخ))، وغيرهم ممن خرج هذا الحديث، وفيه بحثٌ طويلٌ من جهة إسناده، فإن طائفة من أهل العلم ضعفت هذا الحديث وقد استغربه ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((تفسيره))، وكذلك فعل الذهبيُ في كتابه ((العلو)) وإن كان قد قال في كتابه ((العرش)) خرجه أبو داود بإسنادٍ حسنٍ عنده، كذلك ألف ابن عساكر رسالة في تضعيف هذا الحديث وأُعِلَ هذا الحديث بِعلتين:

[العلة] الأولى: أن في الإسناد ابن إسحاق وهو مدلسٌ وقد عنعن ولم يصرح بالتحديث.

والعلة الأخرى: أن الحديث جاء من رواية جُبيرٍ بن محمد بن جبيرٍ بن مُطعِم بن عَدِي، عن أبيه، عن جده، وجبيرٌ هذا فيه كلام، وقد وصفه الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((التقريب)) بأنه: مقبول، ولم يتابع على هذا الحديث.

طائفة أخرى من أهل العلم قَوَّت هذا الحديث ومنهم: ابن منده فإنه قد صححه، وكذلك قال فيه ابن القيم رحمه الله كما في ((مختصر الصواعق)) خرجه أبو داود بإسناد حسن عنده، وكذلك فعل الذهبي في كتابه ((العرش))، وكذلك قال في ((نونيته)) -أعني ابن القيم-:

واذكر حديثًا لابن إسحاق الرضا ذاك الصدوق الحافظُ الرباني

ثم أورد عدة أبيات في بيانِ معنى الحديث، ثم قال:

للّه ما لقِيَ ابن إسحاق من الجهمي إذ يرميه بالعدوانِ

وانتقد ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ضعَّف هذا الحديث وانتصر لتقويته كما في ((مختصر السُنَن))، وكذلك فعل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه مالَ إلى تقويته كما في ((مجموع الفتاوى))، وانتقد في ((بيان تلبيس الجهمية)) في المجلد الثالث انتقد من ضَعّف هذا الحديث، ومهما يكن من شيء فالحديث إن سُلِمَ بضعفه فإن معناه الصحيح لا شك فيه.

قال شيخنا ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الحديثُ فيه بعض الضعفِ إلا أن معناه صحيح.

وهذا حق، فإن معنى هذا الحديث صحيح لا شك فيه، بل ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((بيان تلبيس الجهمية)) أنه ما في هذا الحديث من شيء إلا وله شاهد، يعني لم يدل على معنى إلا وله شاهد يدل عليه من غير هذا الحديث.

وهذا الحديث اختصره المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمعناه، فهو لم يلتزم بنص ما أورد أبو داود في ((سننه))، كما أنه اختصر آخرهُ كما سيأتي التنبيه عليه -إن شاء الله-، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن جُبَير بن مطعم قال:...

جُبَيْرُ بن مُطعِم هو القرشي من أشراف قريش، أسلم عام الفتح ﷺ وأرضاه.

جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله نُهكت الأنفس، وجاع العيال وهلكت الأموال.....

نُهكِت الأنفس: يعني: ضعفت وهزلت والسبب قلة الأمطار والأموال أصابها ما أصابها من الهلاك، والعيال أصابهم ما أصابهم من الجوع، فقدَّم هذه المقدمة بين يدي طلبه، وهذا يدلك على أن من المستحسن أن يُقدِّم الإنسان بين يدي طلبه ما يعطف قلبَ المسؤول إلى الجواب، فهو قدم هذه المقدمة حتى يلين قلب النبي ﷺ فيجيبه إلى سُئلِه.

فاستسقِ لنا ربك...

قال: فاستسق لنا ربك، استسقِ يعني: اطلب السقية من الله، فهو يريد أن يدعو الله رسول الله ﷺ بإنزال المطر، ولا شك أن هذا من الأمر الذي وقع متعددًا في حياة النبي ﷺ فإنهم كانوا يستسقون به عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وذلك رجاء بركته وإجابة دعائه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ومعلوم تلك القصة التي خرجها البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، حينما دخل رجل المسجد والنبي ﷺ يخطب الجمعة، فأخبره أن الأموال قد هلكت وأن العيال قد جاعوا فادعُ الله أن يغيثنا، فرفع النبي ﷺ يديه وقال: اللهم اسقنا .. اللهم اسقنا؛ أخبر رضي الله عنه أنهم سقوا إلى الجمعة الثانية حتى دعا النبي ﷺ بسؤال من هذا الرجل أو من غيره أن يصرف هذا المطر عنهم، -والحديث مشهور عندكم-.

وقد أخرج الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((صحيحه)) عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، أنه قال: ربما تذكرت قول الشاعر ورسول الله ﷺ يستسقي فما ينزل من منبره حتى يجيش كل منبر

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثِمالَ اليتامى عصمة للأرامل

وهذا من شعر أبي طالب.

المقصود أن النبي ﷺ كان أصحابه يستسقون به في حياته، يعني يسألونه ويطلبونه أن يدعوا الله عَزَّ وَجَلَّ لهم بإنزال المطر، وأما بعد وفاته عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فما كانوا يفعلون ذلك، إنما كانوا يطلبون من الصالحين ولا سيما من قرابة النبي ﷺ كما فعل عمر رضي الله عنه، إذ في ((البخاري)) أن عمر رضي الله عنه قال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك برسولك وإنا نتوسل إليك بعم

رسولك -يعني بالعباس-، فما كان من العباس رضي الله عنه إلا أن دعا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لهم، وكذلك فعل معاوية رضي الله عنه مع يزيد بن الأسود فإنه استسقى به وكان رجلا صالحا.

والمقصود أن الاستسقاء بالصالحين بعد وفاة النبي ﷺ أمر مشروع دأب عليه السلف الصالح.

أما الاستسقاء بالنبي ﷺ بعد وفاته فلا شك أن هذا أمرٌ ممنوعٌ وبدعة محدثة لا تجوز، ويدل على ذلك إجماع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عن الإعراض عن هذا الأمر مع وجود المقتضي إليه، فإنه لو كان هذا الأمر جائزًا لما عدل عمر رضي الله عنه ومعه السابقون من المهاجرين والأنصار وبقية الصحابة، ما عدلوا عن الاستسقاء بالنبي ﷺ أو الإتيان إلى قبره وهو بين ظهرانيهم، فيسألونه وهو في قبره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هذا السؤال أو غيره، إلى أن عدلوا عن ذلك بأن استسقوا بالعباس -يعني: بدعائه-، وذلك لصلاحه رضي الله عنه إضافة إلى قربه من رسول الله ﷺ في النسب، والله تعالى أعلم.

فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله.

هذه الجملة فيها أمران:

أحدهما: صحيح لم ينكره النبي ﷺ.

والآخر: أنكره النبي ﷺ.

فأما الاستشفاع بالنبي ﷺ على ربه فإن هذا لم ينكره النبي ﷺ، ومعنى ذلك: أنهم يطلبون من النبي ﷺ أن يكون شفيعا لهم عند الله بدعائه وبسؤاله، وليس بذاته، كانوا يستشفعون بالنبي ﷺ بالدعاء لا بالذات، ويدل على هذا أن الاستشفاع في كلام النبي ﷺ -وانتبه إلى هذه القاعدة- الاستشفاع بالنبي ﷺ أو بغيره في كلام النبي ﷺ أو في كلام الصحابة إنما هو استشفاعٌ بالدعاء وبالسؤال لا بالذات.

يدل هذا على أن النبي ﷺ أنكر الاستشفاع بالله على النبي ﷺ، لو كان الأمرُ أنه يُطلبُ من المخلوق بالله عَزَّ وَجَلَّ أن يجيب وهذا معنى الاستشفاع بالله على المخلوق؛ لكان هذا أمرًا جائزًا لا حرج فيه، لكنَّ الاستشفاع يتضمن: السؤال والطلب، ولأجل هذا أنكره النبي ﷺ كما سيأتي، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا يسأل المخلوق، فدل هذا على أن الاستشفاع يتضمن:

السؤال والطلب، فمعنى قولهم: (نستشفع بك على الله) يعني: بالسؤال بالدعاء بالطلب، وليس بذات النبي ﷺ بدلالة الجملة التي بعدها وإنكار النبي ﷺ ذلك.

إذن كون ذاك الأعرابي يسأل النبي ﷺ أن يستسقي لهم، ويذكر سببًا يجعل النبي ﷺ يجيبه إلى سؤله وهو أنه يستشفع بالنبي ﷺ على ربه، بمعنى أن يطلب أن يكون النبي ﷺ شفيعا عند الله ﷻ فيدعو لهم حتى يجيبهم الله ﷻ إلى هذا السؤل، هذا أمرٌ ما أنكره النبي ﷺ، وهذا جائزٌ لا إشكال فيه، وكم جاء في الأحاديث من سؤال الصحابة الدعاء من النبي ﷺ كثير من الأحاديث، جاء فيها أنهم كانوا يسألون رسول الله ﷺ الدعاء لهم أو الدعاء لذرّياتهم كما فعلت أم أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكما فعل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حين كانوا يأتون بأولادهم إلى رسول الله ﷺ فيدعو لهم ويبرك عليهم.

المقصود أن هذا القدر قدر لا ينكره أحد، ولو أنكره أحد فلا شك أنه يكون قد ضل ضلالا بعيدا، سؤال النبي ﷺ أن يدعو الله ﷻ للسائل أو لغيره هذا قدرٌ لا يجوز إنكاره.

المقصود أن هذا القدر لا حرج فيه.

إنما الإشكال في الجملة التي بعدها، قال: (وبك على الله) في رواية أبي داود في الأصل يعني في ((السنن)) التقديم، تقديم هذه الجملة على تلك مع أنها مروية أيضا بالمعنى، وأظن أنني نبهت على أن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في تأليفه لهذا الكتاب ربما كان قد كتبه من حفظه، لذلك توجد اختلافات بين المصدر الذي خرج الحديث وبين ما أورد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ كثيرا لهذا الكتاب، أو أن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ كان ينقل بالواسطة وكانت الواسطة تكتب الحديث بالمعنى، والأمر على كل حال يسير.

نأتي الآن إلى الجملة الثانية، وهي أن هذا الأعرابي استشفع بالله على النبي ﷺ أنه يجعل الله ﷻ شفيعا له عند النبي ﷺ حتى يرضى وحتى يجيبه إلى مطلوبه، وهذا القدر أنكره النبي ﷺ، وذلك أن شأن الله ﷻ أعظم، لا شك ولا ريب أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا يجوز أن يجعله الإنسان وسيلة له عند غيره، فيشفع له عند غيره، وسبب هذا المنع راجعٌ إلى أمور:

[الأمر الأول]: ما قدمت لك من أن الشفاعة تتضمن السؤال والطلب، وذلك أن حقيقة الشفاعة أن الشافع يسأل المشفوع إليه أن ينفع أو يلبيَّ حاجة المشفوع له، وبالتالي فيكون الله ﷻ ههنا سائلا ولا يجوز أن يعتقد هذا، فالله ﷻ هو المسؤول، الله ﷻ هو

الذي يُدعى، الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يطلب، الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها، فكيف يجوز أن يقال: إن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يسأل المخلوق حاجة لمخلوق آخر؟! لا شك أن هذا منكر من القول لا يجوز

الأمر الثاني: أن حقيقة الشفاعة انضمام الشافع إلى المشفوع له بعد أن كان صاحب الحاجة واحدا فردا أصبحا شفعا، فشفع كل واحد منهم الآخر، ولا شك أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يشفع أحدا ولا يشفعه أحد، بل هو الواحد الأحد سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

الأمر الثالث: أن الغالب أن تكون منزلة الشافع دون منزلة المشفوع عنده، ولا شك أن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ هو العلي، له علو القدر وله علو المنزلة، كما أن له علو الذات سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ملك الملوك قيوم السماوات والأرضين، الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الذي يجير ولا يجار عليه، كل من في السماوات والأرض عبدٌ ذليل لله عَزَّوَجَلَّ. فكيف يُجعل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ شافعا عند غيره؟ المعتاد أن يكون الشافع دون المشفوع له، يشفع الوزير عند السلطان، فأيهما أعلى منزلة؟ المشفوع عنده أو الشافع؟ لا شك أنه المشفوع عنده، وهذا ما لا يجوز أن يكون.

الأمر الرابع: وهو أن الشفاعة قد تقتضي شيئا من التذلل من الشافع عند المشفوع له وهذا أيضا ما لا يجوز أن يعتقد في حق الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

الأمر الخامس: وهو أن الشأن في الشفاعة أن تكون الحاجة بيد المشفوع عنده أو بيد الشفيع، من الذي يملك قضاء الحاجة؟ المشفوع عنده وليس الشفيع، وإلا لو كان الأمر بيد الشفيع ما احتاج إلى الشفاعة أليس كذلك؟ وكيف يجوز أن تكون الحاجة مدبرة وبيدي غير الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وهو الذي بيده ملكوت كل شيء جَلَّوَعَلَا؟

إذن هذه أوجهٌ خمسة تدلك على أنه لا يجوز بحال أن يجعل الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ شافعا للمخلوق عند غيره، وهذا ما يقع فيه بعض الناس الذين لم يقدروا الله حق قدره، والذين عظموا غيره كتعظيمه أو أشد كما حكى شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((مجموع الفتاوى)) في المجلد الأول عن بعض الشعراء وهو يخاطب النبي ﷺ بعد وفاته، فيقول:

شفيعي إليك الله لا رب غيره وليس إلى رب الشفيع سبيلُ.

يعني هو يجعل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى شفيعه فجمع ضغثا إلى إبالة، جعل سؤاله وحاجته إلى رسول الله ﷺ لا إلى الله، وزيادة على ذلك جعل الله شفيعا له إلى رسول الله ﷺ، ولا شك أن هذا منكر من القول وزور وضلال مبين.

قد يقول قائل: وماذا عن سؤال المخلوق بالله عَزَّ وَجَلَّ؟

مر معنا أنه لا حرج في أن يسأل العبد المخلوق بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إذا كان المقام يناسب هذا السؤال الجليل، أليس كذلك؟ فهل يرد على هذا ما ذكرناه في مسألة الاستشفاع بالله عَزَّ وَجَلَّ على المخلوق؟

الجواب: لا. ما ذكرناه من هذه اللوازم الفاسدة في شأن الاستشفاع بالله على المخلوق لا يلزم منها شيء في شأن سؤال المخلوق بالله عَزَّ وَجَلَّ، ثم حقيقة سؤال المخلوق بالله هو تذكيره بأن لله عَزَّ وَجَلَّ حقا عظيما عليك يا أيها المسؤول، ولأجل هذا أنا أسألك بهذا الإله العظيم الذي له عليك هذا الحق أن تجيبني إلى سؤلي، وبالتالي كان هذا أمرًا لا حرج فيه ولا يلزمه شيء من تلك اللوازم، لا يلزم من سؤال المخلوق بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يكون الله سائلا أو تكون منزلته دون منزلة المسؤول إلى غير ذلك ممن ذكرناه في مسألة الشفاعة فافترق الأمران، والله تعالى أعلم.

فقال النبي ﷺ: «سبحان الله! سبحان الله!»

سبحان: اسم مصدر منصوب على أنه مفعول مطلق، والعرب ما نطقت بهذه الكلمة غالبا إلا منصوبة مضافة، والتقدير: يسبح الله سبحانا. ما ذكر المصدر هنا، المصدر هنا: التسبيح، لكن ذكر اسم المصدر، والمعنى أنزّه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

والنبي ﷺ دلت أحاديث كثيرة أنه إذا كان استعظم شيئا سواء كان محبوبًا أو مبغوضًا سبّح أو كبّر.

تذكرون ما مر بنا من الأبواب الأولى من هذا الكتاب من الدليل على هذا الأمر، حديث ذات أنواط فإن النبي ﷺ في رواية الترمذي قال: «**سبحان الله، قلتم والذي نفسي بيده كما قال بنو إسرائيل لموسى**» إلى آخره، وفي رواية الإمام أحمد قال: «**الله أكبر**»، وهذا له شواهد كثيرة في الصحيحين وغيرهما.

لما انفلت أبو هريرة عن النبي ﷺ لأنه لم يكن متوضئًا، ولم يكن يريد أن يسلم على النبي ﷺ وهو على غير وضوء، ثم توضأ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال النبي ﷺ: «**سبحان الله إن المؤمن لا ينجس**».

كذلك مثلا ما ثبت في الصحيحين من إخبار النبي ﷺ عن أحد الأشخاص ممن كان يقاتل مع النبي ﷺ أخبره أنه من أهل النار، ثم لما نظروا في حاله بعد أن جرح وإذا به قد قتل نفسه، فلما أُخبر النبي ﷺ بذلك قال: «**الله أكبر**» هذا أمر قد استعظمه وهو أمر محبوب إلى النبي ﷺ؛ لأن فيه الدلالة على صدقه، «**الله أكبر، أشهد أني عبد الله ورسوله**»، والشواهد على كل حال كثيرة.

إذن مما يشرع للمسلم إذا استعظم شيئا أن يسبح أو يكبر، سواء كان هذا الأمر الذي استعظمه أمرا محبوبًا إليه، أو كان أمرا مبغوضًا إليه.

فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه

انظر إلى حب أصحاب محمدٍ محمدًا ﷺ و رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، كيف كانوا يحبونه؟ وكيف كانوا يجلونه؟ وكيف كانوا يتأثرون بما يتأثر به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

النبي ﷺ تأثر واستعظم مما كان يقوله هذا الأعرابي، فكان التأثير باديا لائحًا على وجوه أصحاب النبي ﷺ، وهذا دليلٌ على عظيم محبتهم وإجلالهم له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

في الصحيحين من هجرة النبي ﷺ لما أتى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النبي ﷺ باللبن الذي وضع فيه شيئًا من الماء، قدّمه إلى النبي ﷺ وقال: اشرب يا رسول الله، لاحظ هذه النكتة في كلام أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: فشرب ﷺ حتى رضيت، قال: شرب حتى رضيت. النبي ﷺ يشرب وأبو بكر يرضى، هكذا تكون المحبة لرسول الله ﷺ.

الشاهد أن النبي ﷺ تأثر من هذه المقالة حتى إن أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تأثروا من تأثره ﷺ و رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ثم قال: «ويحك أتدري ما الله؟

كلمة ويح: كلمة توجع، وتتضمن أحيانا معنى التحذير، فكأنه وقع في خطأ يستحق أن يتوجع له المتوجع. قال: ويحك!؛ وهذا يدلك على أن المقالة الفاسدة وأن الخطأ يرد من حيث كونه خطأ بغض النظر عن قصد القائل أو الفاعل، فنحن لا نشك أن قصد هذا

الأعرابي كان قصدًا حسنًا، ومع ذلك فإن النبي ﷺ لم يمنعه ذلك من أن يرد هذه المقالة الخاطئة.

«إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد...» وذكر الحديث، رواه أبو داود.

في رواية أبي داود «من خلقه» فيها هذه الزيادة: لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، والسبب في ذلك أن هذا يتنافى وتعظيم الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

فالفائدة التي نستفيدها من هذا الحديث وجوب تعظيم الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، ووجوب ترك كل لفظ يتنافى مع هذا التعظيم، أو يهضم جناب ربوبية الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

الموحد الذي يروم تحقيق توحيده، كما كررنا مرارا، وكما نصحنا وبين لنا المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عليه يجب عليه أن يراعي هذا المقام، وهو تعظيم الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، ومراعاة كلامه، فلا يقع في شيء يتنافى وكمال التوحيد الواجب، ومن ذلك أنه يجعل الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ شفيعا له عند أحد من المخلوقين، والعلة في ذلك قد علمتها.

وتتمة الحديث عند أبي داود هي أن النبي ﷺ قال: «**ويحك!، إن شأن الله أعظم، إن عرشه فوق سماواته هكذا** -وأشار بأصابعه عليه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على هيئة القبة- ».يعني أن العرش مقبب، هذه هيئته وهذا ما دل عليه أدلة أخرى في الصحيحين وغيرهما.

قال: «**إن عرشه فوق سماواته هكذا، وقال بيده هكذا كهيئة القبة وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب**»، وذكر أبو داود رواية أخرى عن محمد بن بشار أنه قال في حديثه: «**والله فوق عرشه، والعرش فوق سماواته**»، وهذا القدر أيضا مما تواترت به الأدلة من الكتاب والسنة، أن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ فوق خلقه مستوٍ على عرشه، وهذا المعنى قد دلت عليه أنواع من الدلائل في أدلة لا تكاد أن تُحصّى إلا بصعوبةٍ بالغة.

يا قومنا والله إن لقولنا ألفا يدل عليه بل ألفان
عقلًا ونقلًا مع صريح الفطرة الأولى وذوق حلاوة القرآن
كل يدل بأنه سبحانه فوق السماء مباينُ الأكوانِ
أترون أنّا تاركو كله لجعاجع التعطيل والهذيانِ

٨٤

٨٤- باب:

ما جاء في حماية النّبي ﷺ حمّى التّوحيد، وسده طرق الشرك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب

ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد، وسده طرق الشرك

هذا الباب الذي عنون له المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك، يذكرنا بالباب الذي عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وسط الكتاب تقريبًا في الباب الحادي والعشرين، فإنه أورد بابًا شبيهًا بهذا الباب، فقال: (باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد، وسده كل طريقٍ يوصل إلى الشرك)، وأورد -كما تذكرون- في ذاك الباب آيةً وحديثين؛ أورد قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾[التوبة: ١٢٨]، كما أورد حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبورا، ولا تجعلوا قبري عيدا»، والحديث الثاني: حديث علي بن الحسين عن أبيه عن جدِّه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، أن النبي ﷺ قال: «لا تتخذوا قبري عيدا» الحديث.

فهل هذا من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تأكيدٌ على هذا المعنى الذي يروم التنبيه عليه، وهو ضرورة العناية بسدِّ الذريعة إلى كلِّ ما يؤدي إلى القدح في كمال التوحيد الواجب، لاسيما والمقام مقامٌ عظيم، والخطب فيه جلل، أو أنه أراد رَحِمَهُ ٱللَّهُ التنبيه في الباب السابق على الحذر من ذرائع الشرك الفعلية، ورأسها التعلق بالقبور، وأراد في هذا الباب التنبيه على الحذر من ذرائع الشرك القولية، ورأسها الغلو في الصالحين، وأعظم الصالحين وأصلحهم هو رسول الله ﷺ، الأمر يحتمل هذا ويحتمل ذاك، وإن كان الثاني لعله أقرب.

مهما يكن من شيء فلا شك أن قاعدة سد الذريعة إلى الشر، وسد أبواب الفساد قاعدةٌ مقررة في الشريعة، دلَّ عليها أدلةٌ كثيرة من الكتاب والسنة وآثار الصحابة، وأحيلك في معرفة قدر هذا الباب إلى ما دون ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ((إعلام الموقعين))، حيث ذكر ما لا مزيد عليه في تقعيد هذه القاعدة والاستدلال عليها، حيث أورد من أدلة الشرع التي تدل على هذه القاعدة قاعدة سد الذرائع تسعةً وتسعين دليلاً، والمتأمل في موارد الشريعة يدرك أن الأدلة أكثر من ذلك.

وإذا تأملت هذا الباب -أعني ما جاء في الشريعة من سد الذريعة إلى الشر- وجدت أن الشريعة لاحظت أنه كلَّما كان المحرم أعظم كانت الذريعة المسدودة للوصول إلى هذا الشر

أكثر، كلما كان المحرم أعظم وأشنع في الشريعة وجدت أن الشريعة تعتني بسد الذريعة أكثر، ولذا انظر إلى فاحشة الزنا -عافاني الله وإياك منه-ا، تجد أن الشريعة أغلقت منافذها من طرقٍ شتى، تجد الشريعة نهت عن سفر المرأة بلا محرم، وعن الخلوة بالنساء، وعن الدخول على النساء، وقال النبي ﷺ: **«الحمو الموت»**، نهت الشريعة المرأة عن إبداء زينتها، بل أن تضرب برجلها ليعلم ما تخفيه من زينتها، في أدلة كثيرة ومباحث شتى تتعلق بهذا الباب نظرًا إلى أن هذه الفاحشة فاحشةٌ كبرى، إذًا سد الذريعة الموصلة إليها له عنايةٌ أكبر في الشريعة.

خذ مثلاً ما يتعلق بوقوع الشحناء والعداوة والإحَن بين المسلمين، كيف تجد أن الشريعة سدت أبواب هذا الأمر من طرقٍ شتى؛ نهى النبي ﷺ عن أن يبيع الرجل على بيع أخيه، أو أن يخطب على خطبة أخيه، في أمورٍ شتى، حتى إن كثيرًا من البيوع والمعاملات المالية تجد أن الحكمة إذا تأملت راجعةٌ فيها إلى ما يتعلق بسد الذريعة إلى وقوع العداوة بين المؤمنين، حتى إن الشريعة اعتنت بأدق المسائل، حتى إنها نهت عن أن يتناجى اثنان دون ثالث.

إذًا إذا تأملت هذا في مسائل الشريعة المُنْكَرة المحرمة، التي أدت الشريعة بالتحذير منها، في هذه الأبواب وغيرها، في مسائل الربا، في غيرها من المسائل، وجدت أنه كلما كان المنكر أعظم كانت عناية الشريعة بسد الذريعة إليه أكبر، وإذا كان ذلك كذلك في تلك الأبواب فكيف سيكون الحال في شأن الشرك الذي هو أعظم ذنبٍ على الإطلاق، أعظم ذنبٍ على الإطلاق أن يُشرك مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ غيره!

لاشك ولا ريب أن الشريعة اعتنت بسد كل المنافذ التي توصل إلى الشرك، سواءً كان أكبر أو كان أصغر، ولذلك مر معنا في الأبواب التي درسناها- ونحن نشارف على ختم هذا الكتاب، أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن ييسر إتمامه بعونه وتوفيقه-، تجد أنه مرت بنا مسائل شتى فيها تنبيه الشريعة على أدنى ما يخدش في توحيد المسلم، على إغلاق كل بابٍ يوصل إلى الشر ويوصل إلى الشرك، -عافاني الله وإياكم من ذلك-.

والمؤلف -عليه رحمة الله وجزاه الله عنا خيرًا- اعتنى بذلك كثيرًا في هذا الباب، وهذا لائحٌ لك إذا تأملته بابًا بابًا، تجده كان ناصحًا، كان مُجِدًا للشفقة والحرص إلى إخوانه

المؤمنين، منبهًا على كل ما يخدش أو يقدح في توحيد العبد المسلم، سواء رجع هذا إلى فعلٍ أو رجع هذا إلى قول.

وهذا الباب أعني حماية جناب التوحيد وسد الذريعة إليه، بابٌ قد أضحى مع الأسف الشديد في العصور المتأخرة، أضحى غريبًا مع الأسف الشديد، تجدُ أنَّ السهام تُرَيَّشُ عليه كثيرًا من أهل الأهواء والبدع؛ لأنهم يعلمون أنهم إذا نجحوا في إسقاط هذه الحماية، وهذا الاحتياط الذي راعته الشريعة في باب الشرك، فإنه سيسهُل إدخال البدع والمنكرات والشركيات على المسلمين.

إذًا على أهل التوحيد أن يجردوا العناية بهذا الموضوع العظيم، وهو سد الذرائع إلى الشرك، وقطع أسباب الشر والفساد والفتنة، أن يأخذوا بما جاءت الشريعة بالدِلالة عليه، أن يأتوا بما سار على هذا السلف الصالح، في ((البدع))؛ لابن وضاح: لما ذكر أن عمر ﵁ قطع الشجرة التي بويع تحتها رسول الله ﷺ، وكان الناس ينتابونها فيصلون عندها قطعها ﵁، وجاء في هذا الكتاب أنه خاف عليهم الفتنة.

لاحظ -يا رعاك الله- أن هذه القصة وقعت في الصدر الأول، من الذي كان ينتاب هذا المكان؟ كان أولئك التابعين، أولئك الذين يتربون على أيدي أصحاب النبي ﷺ، ولم تدخل بعد على المسلمين مداخل الشرك، لم تفتح على الناس بعد أبواب الضلالات والبدع التي عمت وطمت القرون المتأخرة، ومع ذلك كان الحزم، وكان الاحتياط، وكانت الجدية في العناية بأمر التوحيد، ولو وقع هذا اليوم من أحدٍ من الناس لقامت عليه الدنيا ولم تقعد.

لكن انظر إلى ما كان عليه السلف الصالح ورأسهم أصحاب رسول الله ﷺ، من فقهٍ عميق دلت عليه الشريعة في أدلةٍ لا تكاد تحصى.

التوحيد هو المصلحةُ الكبرى التي ينبغي أن تُراعى، كلُّ مصلحةٍ يتوهمها مُتوهمٌ فإنها مُطْرِحة أمام مصلحة صحاح التوحيد ونقاء الإيمان.

إذًا هذا موضوعٌ ذو شجون على طلبة العلم أن يكونوا معتنين به غاية العناية؛ لأنه من الأمر المهم الذي قلَّ الاهتمام به مع الأسف الشديد في هذه العصور المتأخرة، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن عبد الله بن الشخير قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى النبي ﷺ فقلنا: أنت سيدنا، فقال: «السيد الله تبارك وتعالى»، قلنا: وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا، فقال: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان» رواه أبو داود بسندٍ جيد.

هذا الحديث كما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخرجه أبو داود، والنسائي، وأحمد، والبخاري في ((الأدب المفرد))، وغيرهم من أهل العلم، وهو حديثٌ ثابتٌ لاشك فيه، وقد قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ((الفتح)): إن رجاله ثقات، وصححه غير واحد.

في هذا الحديث يحكي لنا عبد الله بن الشخير العامري رضي الله عنه، وهو من بني عامر بن صعصعة تلك القبيلة العدنانية المشهورة، وعبد الله رضي الله عنه من مُسلِمة الفتح، وهو والد مُطَرِف بن عبد الله بن الشخير التابعي المشهور، وهو الذي يروي هذا الحديث عن أبيه.

فيه: أنه ذكر أن قومه الذين هم بنو عامر أتوا رسول الله ﷺ، والظاهر والله أعلم أن هذا كان عام الوفود، في السنة التاسعة من الهجرة، أتوا رسول الله ﷺ فقام متكلمهم يتكلم بين يدي رسول الله ﷺ، فقال: (أنت سيدنا)، وجاء في رواية أخرى أنه قال: (أنت سيد قريش)، عندها قال النبي ﷺ: «**السيد الله**».

مسألة السيد وحكم إطلاق هذه الكلمة على المخلوق مرت بنا سابقًا، وتكلمنا عنها بالتفصيل، في: بابٌ لا يقول عبدي وأمتي، فيه قوله ﷺ: «**وليقل سيدي ومولاي**»، تكلمنا عن هذا الموضوع ولا حاجة إلى إعادة التفصيل فيه، وقلنا: إن الصحيح جواز إطلاق هذا اللفظ على المخلوق بشرطين:

[الشرط] الأول: أمانُ المفسدة.

والشرط الثاني: أن يكون من أُطلق عليه هذا اللفظ مُستحقًا لذلك.

-وارجع إلى تفصيل هذا الموضوع في ذلك الباب-.

المقصود أن النبي ﷺ لما قالوا له: أنت سيدنا، قال: «**السيد الله**»، هذه الكلمة من النبي ﷺ مرجعها إلى ما يأتي:

أولاً: إلى تواضع النبي ﷺ حيث إنه كان يكره أن يواجه بالمدح، وجاء في السنة أدلةٌ شتى في كراهة مواجهة الإنسان بالمدح.

ثانيًا: كان هذا منه ﷺ أدبًا مع ربه جَلَّ وَعَلَا، يعني كأنه يقول لهم: اجعلوا هذا المدح لمن هو أولى به وهو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فالسيادة المطلقة إنما هي لله جَلَّ وَعَلَا.

[ثالثًا]: أراد النبي ﷺ التنبيه والتحذير وسدَّ أبواب الشر، وذلك أنَّ الغلو فيه ﷺ وفي الصالحين لاشك أنَّه من أعظم أسباب وقوع الشرك، بل لم تُغيِّر أديان الأنبياء بشيءٍ مثل الغلو في الصالحين، والعام -كما قد علمت- عام الوفود، وفي الحضور كثيرٌ ممن هم حُدثاء عهدٍ بالجاهلية، فأراد النبي ﷺ أن يسد أبواب الشر والفتنة، فقطع دابر التعلقِ بالمخلوقين، ووقوع الغلو فيه، فوجههم وأرشدهم إلى أن يجعلوا مدحهم وثناءهم هذا إلى من هو أولى بكل مدحٍ وثناء إلى من لا أحد أحب إليه المدح منه جَلَّ وَعَلَا وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إذًا لعل هذه الحكم الثلاثة هي التي لأجلها أرشدهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الإرشاد، فقال لهم: «**السيد الله**».

فقالوا: (وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طَوْلاً)، الطول: هو الغنى، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿**وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ**﴾**[النساء: ٢٥]** يعني: الغنى، قال الله جَلَّ وَعَلَا في شأن المنافقين: ﴿**اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ**﴾**[التوبة: ٨٦]**، ولاشك أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى هو ذو الطول، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿**غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ**﴾**[غافر: ٣]**، الله جَلَّ وَعَلَا له الغنى المطلق، وله العظمة التامة تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

حينما قال القائل هذا القول في حق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال حينها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان**»، اختلف الشراح في توجيه هذه الجملة من كلام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والذي يظهر والله تعالى أعلم أن هذه الجملة منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اشتملت على:

١/ إباحةٍ.

٢/ وإرشادٍ.

٣/ وتحذير.

أما الإباحة: فإنها في قوله ﷺ: «**قولوا بقولكم**»، فالظاهر والله تعالى أعلم أن هذا منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذنٌ بهذا الذي قالوه، فإنه لاشك ولا ريب أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضلُهم بل أفضلُ الناس على الإطلاق عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهذا أمرٌ لاشك فيه ولا ريب، ولم ينكر النبي ﷺ إنكارًا تامًا هذا القول، وتعلمون أنه كان هديه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه كان يرد الخطأ ولا يسمح به، ومر بين يدينا قريبًا في درس أمس رده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على من قال: (فإنا نستشفع بالله عليك)، مر بنا أيضًا رده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قول من قال: (ما شاء الله وشئت)، بعبارة واضحة، قال: «**أجعلتني لله ندًا**».

إذًا كان هذا منه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذنًا بمدحه والثناء عليه بما هو حق، ولاشك أن هذا الذي ذكروه حقٌ لاشك فيه، فأفضلية النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنزلته العالية أمرٌ لا يشكُ فيه مسلم.

أما الإرشاد: فكان منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: «**أو بعض قولكم**»، يعني: كأنه يقول لهم: لو أنكم تخففتم وأنقصتم من هذا المدح لكان هذا أولى، أراد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا أن يرشدهم إلى أن ترك المدح في الوجه أولى بالمسلم، وذلك لأنه قد يترتب على مواجهة الممدوح بالمدح مفاسد، وهذا منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توجيهٌ للأمة، توجيهٌ وتربيةٌ للأمة بأن لا تُواجه الإنسان بالمدح لما يدخله عليه ذلك من العُجب، ولاشك أن العُجب يتنافى مع مراتب التوحيد العالية، المؤمن الموحد الذي حقق توحيده لا يرى نفسه بعين الإعجاب، إنما يرى نفسه بعين الإزدراء، لا يرى إلا فضل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عليه تترا، أما نفسه فإنه لا يراها شيئًا فليس منها شيء وليس إليها شيء.

أما التحذير: فجاء في قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ولا يستجرينكم الشيطان**»، معنى قوله: «**لا يستجرينكم**» يعني: لا يجعلنكم جريًا له، الجري في اللغة: يعني الوكيل أو الرسول، فالمراد أنه لا يتخذكم الشيطان وكيلاً عنه فتتكلمون بالباطل على ألسنتكم، الباطل الذي يريده الشيطان يجريه على ألسنتكم، فتنوبون منابه، وتقومون مقامه.

إذًا في هذا تحذيرٌ من الوقوع في حبائل الشيطان، ومنها ومن أعظم أسباب وقوع الشر الذي يحبه الشيطان الغلو في الصالحين، حذارِي من أن تبالغوا في المدح والثناء حتى تقعوا في

الغلو المفضي إلى الشر الوبيل، وكما ذكرت لك فإن الغلو في الصالحين أول أسباب وقوع الشرك، وأعظم أسباب وقوع الشرك.

وأنت إذا تأملت -يا رعاك الله- هذه الجملة من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وجدت أنه حقًّا عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ كان رحيمًا، كان شفيقًا، كان حريصًا علينا عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، هذا منه غاية الرحمة، وغاية الشفقة، أن حذَّر أمته من الوقوع في هذا السبب المردي الذي يوقع في أعظم جريمة على الإطلاق، وهو الشرك بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، كره منهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يبالغوا في مدحه، حتى في مثل هذه الكلمات مع أنهم ما قالوا إلا حقا، ومع ذلك النبي ﷺ ينبههم ويحذرهم أن يبالغوا.

ومر معنا فيما مضى قوله عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: **«لا تطروني كما أطرت المسيح ابن مريم، إنما أنا عبدٌ فقولوا: عبد الله ورسوله»**، كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حريصًا على سد أبواب الشر، أن تقع فتنةٌ بتعظيمه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ولو بأدق ما يكون.

في الترمذي من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أنه قال: ما كان أحدٌ أحب إلينا من رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وكان إذا قدم لم نقم إليه لما نعلم من كراهيته عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لذلك، حتى مجرد القيام لمقلاته والسلام عليه كان النبي عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ يكره ذلك منهم، فما كانوا يفعلونه.

فكيف لو سمع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ما يقع من غلوٍ عظيم فيه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في كثيرٍ من كلام الغلاة المنثور والمنظوم، إذا كان النبي ﷺ يقول لهم: **«قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان»**، وهم ما زادوا على أن يقولوا: (يا خيرنا وابن خيرنا)، كما سيأتي معنا، أو أنهم قالوا: (أنت أفضلنا فضلاً وأعظم طولاً).

كيف لو سمع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ذاك القائل الذي يقول:

لو ناسبت قدره آياته عظاما ... أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم

أو قوله:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

أو قوله في ((همزيته)):

هذه عِلتي وأنت طبيبُ ... ليس يخفى عليك في القلب داء

كيف لو سمع ذلك النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من هؤلاء الغلاة، بل هؤلاء الجفاة الذين جفوا شريعة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وسنته هؤلاء لا يرضيهم أن يقول الإنسان عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: إنه عبد الله ورسوله، كما سيأتي معنا، مع أن هذا مما حث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عليه، كما سيأتي بيانه.

لا يرضيهم إلا أن يبالغ الإنسان في مدح النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حتى يرفعه إلى مرتبة الإلوهية، بل إلى مرتبة الربوبية.

إذًا هذا توجيهٌ، وهذا نصحٌ، وهذا تنبيهٌ، وهذا سدٌ من النبي ﷺ لذريعة الشرك، وحمايةٌ منه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لحمى التوحيد، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ

وعن أنس؛ أنَّ ناسا قالوا: يا رسول الله؛ يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا، وابن سيدنا فقال: «يا أيها الناس، قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منْزلتي التي أنزلني الله عَزَّوَجَلَّ»، رواه النسائي بسندٍ جيد.

حتى حديث عبد الله بن الشخير جاءت في الرواية عند أحمد **«ولا يستهوينكم»**، فهي موافقة أيضًا لهذه الرواية التي بين أيدينا، التي هي رواية حديث أنسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، وهذا الحديث خرجه النسائي في الكبرى، والإمام أحمد، وغيرهما من أهل العلم، وهو كما ذكر حديثٌ جيد، بل قال ابن عبد الهادي في ((الصارم)): (إنه على شرط مسلم).

وهذا الحديث الذي بين أيدينا قريبٌ في المعنى من الحديث السابق، وفيه: أن أناسًا أتوا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: (يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا)، لا شك ولا ريب أن النبي ﷺ خيرهم بل خير الناس على الإطلاق، فهو خير الناس وصفًا، وحالاً، ونسبًا ﷺ.

في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: **«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريشٌ بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»**، فهذا مما لا شك فيه ولا ريب، وهو سيدهم وسيد الناس عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وهو الذي قال هذا عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، فهو سيد ولد آدم ولا فخر، هذا قاله ﷺ.

وكذلك قومه وأهله ونسبه خير نسب، وقبيلته لا شك أنها خير القبائل عند المسلمين، سوى من شذَّ من شذاذ أهل البدع، وإلا فأهل العلم على أن أفضل القبائل قبيلة النبي ﷺ وهي قبيلة قريش، فلاشك أن النبي ﷺ ابنٌ لخير الناس من جهة النسب، من جهة النسب؛ نسبه ﷺ وآباءه وأجداده وقبيلته، لاشك أنها خير قبيلة وأحسن قبيلة.

والأمر في ذلك كما جاء في حديث واثله الذي ذكرته لك قبل قليل: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل**» إلى آخر كلامه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وما أحسن ما قال أبو طالب في هذا المعنى:

إذا اجْتَمَعتْ يوماً قُريشُ لِمفْخرٍ فعبدُ مَنافٍ سِرُّها وصَمِيمُها
وإنْ حُصِّلَتْ أشرافُ عبدِ مَنافِها ففي هاشمٍ أَشْرافُها وقَديمُها
وإنْ فَخرتْ يوماً فإنَّ محمَّدًا هوَ المُصْطفى مَن سِرِّها وكريمها

المقصود أن النبي ﷺ لما سمع هذا الكلام، وهو حق من حيث هو، هذا كلامٌ حقٌ بلا شك، ومع ذلك النبي ﷺ، ومع ذلك الرؤوف الرحيم بأمته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نبههم وحذرهم، فقال: «**يا أيها الناس قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان**»، لا يوقعنكم الشيطان في مهاويه، وفي حبائله، «**إنما أنا محمدٌ عبد الله ورسوله**».

هذان الوصفان للنبي ﷺ أفضل ما وصف به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، بل هما أفضل درجةً يصلها بشر، أن تحقق فيه العبودية الخاصة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأن يكون رسولاً لله جَلَّ وَعَلَا، وهكذا كان النبي ﷺ أفضل عبدٍ لله، وأفضل رسولٌ لله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وهذا الوصف منه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهو الذي أرشد أمته إليه، أن يقولوا: عبد الله ورسوله، **فيه فائدتان:**

[الفائدة] الأولى: أنه كما كان هذا الوصف أفضل وصفٍ وصف به النبي ﷺ، فكذلك هو أسلم وصفٌ وصف به النبي ﷺ، وذلك أنك إذا تأملت وجدت أن هذا الوصف الذي فيه المدح العظيم له عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا ترتب عليه مفسدة، ولا يفضي إلى شرٍ وفسادٍ على الإطلاق، بخلاف ما قد يكون من غيره من المدائح ومن الأوصاف، ولذلك

إذا تأملت تحقق عندك باليقين أن أصحاب النبي ﷺ أعظم الناس محبةً وإجلالاً له عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومع ذلك كيف كانوا يخاطبونه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟

تأمل كتب السنة، كيف تجد أنهم إذا خاطبوا النبي ﷺ قالوا: (يا رسول الله)، قالوا: (يا نبي الله)، وبيقين نحن نعلم أنهم ما كانوا يتركون الوصف الأفضل، والوصف الأحق والأجدر الذي ينبغي أن يوصف به النبي ﷺ.

الفائدة الثانية: أن قوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**عبد الله ورسوله**» فيه ردٌ على طائفتي الضلال:

[الطائفة الأولى]: الغلاة. [الطائفة الأخرى]: الجفاة.

أما قوله: «**عبد الله**» ففيه: ردٌ على الغلاة الذين غلوا في النبي ﷺ، فرفعوه إلى درجة الألوهية بل إلى درجة الربوبية، الرد على هؤلاء أن يُقال: إنه عبد الله، فهو عبدٌ لا يُعبد عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وأما الجفاة الذين طعنوا في النبي ﷺ، ووصفوه بالشعر، ووصفوه بالكذب، ووصفوه بالسحر، وكفروا به ﷺ، فالرد عليهم في قوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ورسوله**» فهو رسولٌ لا يُكَذَب عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ثم نبه النبي ﷺ إلى أنه لا يحب أن يُرفع فوق المنزلة التي أنزله الله عَزَّ وَجَلَّ، وذلك لكمال توحيده، وكمال أدبه مع الله جَلَّ وَعَلَا، هذا درسٌ للمسلمين، درسٌ لأهل التوحيد والإيمان، أن عليهم أن يراعوا مقام الأدب مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأن يحرصوا على التواضع، وأن يتجافوا عن مقام العُجب بالنفس، فإن العُجب -كما ذكرت لك- يتنافى مع كمال التوحيد، الموحد المحقق هو الذي لا يُعجب بنفسه، هو الذي لا يخطئ طريق الذل والعبودية لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

الخلاصة التي نريد أن نصل إليها من هذا الباب، هي أن الشريعة اعتنت وراعت باب سد الذرائع إلى الشرك، وحمت حمى التوحيد، ومنعت كل أسباب وقوع القوادح في التوحيد، وأدلة هذا كما ذكرت لك كثيرةٌ لا تكاد تحصى، ولاسيما ما يتعلق بالألفاظ التي تؤدي إلى الوقوع في الغلو، فإن الغلو مَدْرَجَةٌ إلى وقوع العبد في الشرك.

٨٥

٨٥- باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

باب

ما جاء في قول الله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

[الزمر:٦٧].

في هذه الليلة ليلة الثاني من شهر محرم عام ثمانية وثلاثين وأربعمائة بعد الألف من هجرة النبي ﷺ، نجتمع في هذا المسجد المبارك المسجد النبوي، في هذا المجلس الخامس والثمانين من مجالس مُدارسة كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، والذي سيكون بعون الله ﷻ المجلس الخاتم لهذا الدرس، -أسأل الله جل وعلا أن يرزقني وإياكم حسن الختام-.

هذا الباب بَوّب عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بآية الزُمر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[الزمر:٦٧]، وقد أحسن ما شاء الله أن يُحسن في اختيارِ هذا التبويب، وجعلهُ آخر بابٍ من أبواب هذا الكتاب العظيم، حتى إنه صار كالتَّاج على مَفْرِقِ هذا الكتاب.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[الزمر:٦٧]، أنكر الله ﷻ على الكفار والمشركين كونهم ما قدروه حق قدره، في ثلاث آياتٍ في كتاب الله:

[الآية الأولى]: في سورة الأنعام في قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾[الأنعام:٩١]

[الآية الثانية]: في سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج:٧٣-٧٤].

الآيةُ الثالثة: هذه الآية التي بين أيدينا، فجميع الكفار والمشركين الذين جحدوا رسالات الله إلى أنبيائه، ووحيه الذي أنزله عليهم، والذين أشركوا مع الله ﷻ غيره، لا شك أنهم ما قدروا الله حق قدره، فالله جَلَّ وَعَلَا قدره عظيم وحقه على عباده عظيم، وهؤلاء الكفار والمشركون لو أنهم قدروا الله حق قدرِه ما وقعوا في هذا الظلم العظيم، حيث أنهم

وضعوا أنفسهم في غير الموضع الذي يليق بهم، وما قاموا بحق الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ حقهم أن يكونوا عبيدًا لله، وحق الله أن يكون ربهم وإلههم ومعبودهم وحده لا شريك له، لكنهم ما قدروه حق قدره، ولذا سووه بغيره جَلَّوَعَلَا.

ويا لله العجب! كيف يُسوى المخلوق الضعيفُ الفقيرُ بالإله العظيم الذي هو غني من كل وجه، والذي له الكمال المطلق الواسع القدير العزيز الحميد المجيد تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

يا لله العجب! كيف تختل هذه العقول، وكيف تنصرفُ عن الحق المبين، لكنهم سيستبينون الأمر يوم القيامة، حينما يقولون: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:٩٧-٩٨]، نعم هذه هي الحقيقة أنهم كانوا في ضلالٍ مبين، حينما سووا غير الله مع الله.

أرأيت لو أن إنسانًا أتى إلى جوهرٍ ثمين هو أغلى الجواهر على الإطلاق، ثم وضعه في إناءٍ مع بعرة، بعرة بعير وقال: انظروا هذان الأمران متماثلان متشابهان، ما أحسنهما، ما رأيكم؟! أيكونُ ذا عقل من يفعل هذا الفعل، حينما يُسوي الدُرَّ النفيس بالبعر الخسيس، يجعلهم على قدم المساواة، ويقول إنهما مثل بعض ويُشبهان بعض، وكلاهما لهما قدر! أهذا يفعله عاقل؟

فكيف بالله العظيم الذي يُسويه هؤلاء المشركون بمخلوقاتٍ ذليلة فقيرة معبودةٍ لله عَجَّلَّ: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام:١] عدلوا غير الله عَجَّلَّ به فما أضل عقولهم، وما أرذل تفكيرهم، وما أعظم انحرافهم.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[الزمر:٦٧] لو أنهم عرفوا الله عَجَّلَّ وعظمته حق المعرفة، ما وقعوا في هذا الأمر العظيم، والمنكر الفادح، سبحان الله العظيم! يتركون عبادة المولى جَلَّوَعَلَا وحده لا شريك له ويتوجهون إلى عبادة أشجار وأحجار، إلى عبادة قرود، بل إلى عبادة فِروج، إلى عبادة أموات، تاركين رب الأرض والسماوات، سبحان الله العظيم! كيف لهؤلاء أن ينصرفوا عن هذا الحق المبين، حيث يُسوون غير الله عَجَّلَّ مع الله.

إذًا هذا الباب نبه فيه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أن الله عَجَّلَّ لعظمتهِ فيجب أن يُوحد بالعبادة، فكان هذا الباب دالًا على أنواع التوحيد الثلاثة؛ دلّ على توحيد الربوبية، والأسماء والصفات بدلالة المطابقة، ودلّ على توحيد الأُلوهية بدلالة اللزوم.

فإن الله جَلَّ وَعَلَا لَما كان له العظمة التامة، ولما كان له الكمال المطلق، وجب أن يُوحد بالعبادة، وألّا يُشرك معه غيره، كما قال ﷻ: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥].

لما كان هو الرب الخالق المدبر المتصرف، ولما كان لا سميَّ له ولا ندا ولا كُفء، كان واجبًا إذًا أن يكونّ المعبود وحده لا شريك له، ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾[مريم:٦٥]، فتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، ثبوت العظمة لله ﷻ ثبوت الصفات الجليلة والنعوت الجميلة له ﷻ، من أعظم الأدلة على توحيده تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالعبادة، أنه يجب أن يكون المعبود وحده فلا يُشرك معه غيره.

وأنت يا أيها القارئ الدارسُ لهذا الكتاب لما مرّ بك حظٌ طيب من مسائل وأدلة توحيد العبادة، عرفت شيئًا عن حق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على عباده، ناسب أن يُتوجَّ هذا ببيان عظمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى التي تحقق لك التوحيد الذي مرت بك معرفته، الله يستحقُ جَلَّ وَعَلَا صدقًا أن يكون المعبود وحده، وأن كل صرف لهذه العبادة وإن دق لغيرِهِ جَلَّ وَعَلَا فإنه ضلالٌ مبين دون شك ، يعرف هذا من قَدر الله حق قدرِه.

قال ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[الزمر:٦٧].

الله ﷻ يُنكر على الكفار والمشركين الذين كفروا به وأشركوا معه غيره ما قدروا الله حق قدرِه، والشأن أن الأرض جميعًا قبضته يوم القيامة، الأرض كلها بما فيها بمائها وأشجارها وبحارها وجبالها بكل ما فيها، فإنها تكون يوم القيامة في قبضة الله تبارك وتعالى: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[الزمر:٦٧].

القبضةُ يعني: ما يُقبضُ باليد هذه في اللغة، والله جَلَّ وَعَلَا سيقبضُ الأرضين يوم القيامة بإحدى يديه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، كما سيأتي معنا إن شاء الله فيما أورد المؤلف من الأدلة.

فلعظمة الله ﷻ كل هذه الأرض بما فيها ليست بشيء أمام هذه العظمة، حتى إنها تكون بهذا القدر الحقير، حتى إن الله جَلَّ وَعَلَا يقبضُها ﷻ بيده، والسماوات تكون مطويةً بيمينة.

الطي: ضد النشر، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[الأنبياء:١٠٤].

الصحيح في تفسير الآية: أن السجل يعني: الصحيفة، وأن الكُتب يعني: المكتوبات يعني جنس ما يُكتب، كما تطوي الصحيفة ما يُكتبُ فيها، فهي بهذه الدرجة من الصغر والحقارة أمام عظمة البارئ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حتى إنه يطويها جَلَّ وَعَلَا، يكون ذلك بيمينه —سبحانه جل في علاه-.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[الزمر:٦٧].

ثم عقّب على هذا بأن نزّهَ نفسه وسبّحها فقال: ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الزمر:٦٧].

إذًا هؤلاء لما أشركوا مع الله وهو الذي اتصف بهذه الصفات العظيمة كانوا غير مُعظمين له حق التعظيم، ولم يكونوا قد قدروه حق قدرِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فنزه نفسه عن قولهم الذي كانوا فيه مشركين مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «جاء حِبْرٌ من الأحبار إلى رسول اللّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى بدت نواجذه تصديقًا لقولِ الحِبْرِ ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية».

هذا الحديثُ ثابتٌ في ((الصحيحين))، يروي لنا فيه ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قصة جرت أمامه وهي أن حبرًا من اليهود، الحَبرُ ولك أن تقول الحِبرُ يجوز فيها فتح الحاء وكسرُها، وهو: العالِم من علماء اليهود، هذا العَالِمُ أتى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال يا محمد، وفي رواية: يا أبا القاسم، إنا نجدُ — يعني: في كُتبنا، يعني: في التوراة– وهذا يدُلك على أن كُتب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ اشتملت على

إثبات الصفات لله جَلَّوَعَلَا، وأن ما فيها يؤيد ويشهد لِما جاء في كتاب الله وسُنة رسولهِ ﷺ، كما سيستبينُ لك في أخر الحديث.

ذكر هذا الحَبرُ أنهم يجدون في كُتبهم أن الله ﷻ يجعل السماوات على إصبع.

وجاء في رواية في الصحيحين: إنه يُمسك السماوات على إصبع.

و جاءت روايةٌ ثالثة وهي: يضع.

إذًا عندنا ثلاث كلمات في هذا الحديث ثابتةٌ في الصحيحين:

١/ يُمسك.

٢/ ويَجعلُ.

٣/ ويضعُ.

يمسك أو يضع أو يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى يعني: التراب على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، سائر الخلق يعني: بقية الخلق بقية المخلوقات يجعلُها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أو يمسكها أو يضعها على إصبع.

وهذا فيه فائدتان:

[الفائدة]الأولى: بيان عظمة الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، حتى إنها أمام عظمة الله ﷻ شيءٌ قليلٌ صغيرٌ حقير كلا شيء.

[الفائدة الثانية]: إثباتُ صفة الأصابع لله جَلَّوَعَلَا، والأصابع مُفردُها إصبع، وهذه الكلمة جاء لها ضبطُ متعددٌ في لغة العرب أوصل ذلك الضبط بعض علماء اللغة إلى عشرة، لكنَّ الأفصح والله تعالى أعلم إِصبَع بِكسر الهمز وفتح الباء.

المقصود أن هذا الحديث دلّ على ثبوت هذه الصفةِ الذاتية لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ متصفٌ بالأصابع، ولا شك ولا ريب أن أصابع الله ﷻ كذاتهِ، ليس هو فيها مشابهًا ولا مماثلًا للمخلوقين، كما أن ذاته لا تُماثل المخلوقين فكذلك صفاته ومنها الأصابع لا تُماثل صفات وأصابع المخلوقين: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾[الشورى:١١]، ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾[مريم:٦٥]، ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾[الإخلاص:٤].

إذًا نحن كما هو الشأن في بقية الصفات الله ﷻ الواردة في الكتاب والسُنة؛ كالوجه، واليدين، والساق، والقدم، والرحمة، والغضب، والاستواء إلى غير ذلك مما ثبت لله

تَبَارَكَوَتَعَالَى، نُثبتهُ على ما وَرَد ونعتقدُ أن الله عَجَلَّ لا يُماثل في هذه الصفات المخلوقين، وبالتالي فإنَّ مَن رَامَ أن يبحث ويُنَقِر عن كيفية اتصاف الله عَجَلَّ بهذه الصفة فإنه يكون قد خاض خوضًا باطلًا، كما أننا لا نعلم كيفية ذات الله عَجَلَّ فإننا أيضًا لا نعلمُ كيفية أصابع الله عَجَلَّ ولا بقية صفاتهِ العليّة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فالكيفُ بالنسبة لنا مجهول.

إذًا هذا الحديث دل على إثبات الصفات لله تَبَارَكَوَتَعَالَى، والنبي ﷺ لما سمع هذه المقالة أَقرَّ ثبوت الصفات لله جَلَّوَعَلَا، ولم يقُل كما يقول المحرفون للكلم عن مواضعه: إنك يا أيها الحَبْرُ مُجسم، أو إنك يا أيها الحَبْرُ مُمثلٍ مُشبه، أو إنك حَشويٌّ ضال.

إنما أقره النبي ﷺ على ما قال، يدُل على هذا ما جاء في ختام هذا الحديث وهو أن النبي ﷺ ضَحِكَ حتى بدت نواجذه ثم تلا قول الله جَلَّوَعَلَا: **﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[الزمر:٦٧]**.

ويُفسر لنا من هو من أعلم أصحابه بهِ، ومن أخصهم به، ومن أعلم الصحابة، ومن أعلمهم وأفهمهم لكتاب الله، وهو ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فسر لنا هذا الضحك بأنه كان عن تصديقٍ لهذا الحبر فيما قال، وأن هذه المقالة يشهدُ لها في كتاب الله عَجَلَّ قوله تعالى: **﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[الزمر:٦٧]**، فهذه الآية تَشْهَدُ لِمَا ذكر هذا الحبر، الحبر قد ذكر الحق، وما جاء في كتابهم التوراة، في هذه الجملة التي ذكرها هذا الحبر لا شك أنها حق، صدّق بهذا النبي ﷺ، وبالتالي فإن هذه الصفات تكون ثابتة بإقرار النبي ﷺ وتصديقهِ لمقالة الحبر.

وإن من العجب العُجاب ما قاله أهل الكلام والبدع، الذين حرفوا الصفات حينما زعموا أن ضحك النبي ﷺ ها هنا إنما كان عن إنكارٍ لمقالة اليهودي.

ويا لله العجب! كيف يضحك النبي ﷺ وقد قيل في الله بغير علم، وشُبهَ الله بخلقهِ على زعمهم أهذا المقام مقام ضحك؟! أم مقام غضب لله عَجَلَّ؟

تأمل -يا رعاك الله- فعل النبي ﷺ فيما مر بنا قريبًا حين قال ذاك الأعرابي (فإنا نستشفع بالله عليك)، غضب النبي ﷺ حتى عُرف ذلك في وجوة أصحابه، وصار يقول: **«سبحان الله!، سبحان الله!»**، يُنزه الله لم يزل يُسبح الله عَجَلَّ من هذه المقالة، ويقول له: **«ويحك، أتدري ما الله؟ ويحك، أتدري ما الله؟»**.

إذًا لما يتكلم المتكلم بالباطل في حق الله ﷻ، أنجد رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يضحك؟!، ألم يكن هديه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه يغضب إذا انتهكت محارم الله، أهذا مكان يُناسب الضحك حتى يقول أن النبي ﷺ قد ضحك إنكارًا لهذه المقالة، سبحان الله العظيم! انظر كيف تفعل الأهواء بأصحابها، صارت النصوص عند هؤلاء بمنزلة الصائل الذي يُدفع بأي شيء كان، كيف ما اتفق يُدفع في صدور النصوص التي تخالف أهوائهم مع الأسف الشديد.

إذًا لا شك أن هذه المقالة مقالة باطلة، أعني تحريفهم لدلالةِ هذا الحديث على ثبوت هذه الصفات لله ﷻ، وهي أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يضع، وأنه يُمسك، وأنه يجعل، وأن له أصابع، وأنه يهُز كما سيأتي ذلك في الرواية القادمة إن شاء الله، أن هذه الصفات ثابتةٌ لله ﷻ صدّق بهذا رسول الله ﷺ وضحك واستشهد بالآية.

إذًا عندنا أوجه تدل على بطلان هذا القول:

أولًا: كون النبي ﷺ قد ضحك من هذه المقالة، وهذا لا يمكن أن يكون على سبيل الإنكار في هذا المقام العظيم، وهو مقام الكلام في الله ﷻ بغير علم، أن يُتكلم في الله ﷻ بالباطل، بل هذا هو مقام الغضب لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، مقام التسبيح كما جاء في حديث الأعرابي الذي سبق.

ثانيًا: كونه ﷺ استشهد بالآية التي معنا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾**[الزمر:٦٧]**، فهذا مما يُؤيد أن هذا اليهودي قد قال الحق، والنبي ﷺ فرح بالحق، لا سيما وقد جرى على لسان من هو من ألد أعدائه.

[ثالثًا]: كون الصحابي الجليل رضي الله عنه يقول: تصديقًا لقول الحَبر.

أرأيتم كيف وصل الحال بهؤلاء المبتدعة، حتى زعموا أنهم أَفْهَمُ لكلام رسول الله ﷺ ولحالهِ من أصحابه، بل من علماء أصحابه كابن مسعود رضي الله عنه؟ ابن مسعود العَالِم الحبرُ البحرُ الجليل صاحب رسول الله ﷺ، والذي هو حاضر يُشاهد الرسول ﷺ، ففَهِمَ أن ضحكه واستشهاده كان تصديقًا لقول الحبر، وهم يقولون: لا، إنما كان هذا إنكارا لمقالتهِ، أهُم أفهم لكلام رسول الله ﷺ أم الصحابة يا أولي الألباب.

إذًا كون الصحابي قد فهم هذا دليلٌ على أن هذا هو الحق الذي لا شك فيه، ولذلك التابعون العلماء الأجلاء الذين تلقوا هذا الحديث من لدن ابن مسعود ﷺ، قد وافقوه على هذا وما أنكروه، وهكذا اتباع التابعين الذين تلقوا ذلك عن التابعين، وهلُم جرا من علماء المسلمين الميامين الذين قدروا الله حق قدره، فما وقع في قلوبهم لوثة التشبيه.

[رابعًا]: لو كان الأمر كما زعموا لاستشكل هذا المقام جدًا، لأن القاعدة عند العلماء بالإجماع أنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة، وأنتم تزعمون أن المقام مقامٌ مُلْتَبِس بدليل أنكم رميتم ابن مسعود ﷺ بأنه ضلَّ في الفهم وأخطأ الحكم، أليس كذلك؟ إذا كان صحابيٌ جليلٌ بهذا القدر وهو على زعمكم ما فَهِمَ المراد، ومع ذلك فإن النبي ﷺ سكت عن البيان، فاتهمتم النبي ﷺ بأنه ما قام بالأمر الواجب الذي أوجبه الله عليه، وهو أنه يُبيّنُ للأمة الذي تحتاج إليه، لا سيما والمقام أهم المقامات على الأطلاق، فإن المطالب الإلهية التي تتعلق بالله ﷻ وبصفاته وبحقوقهِ على عبادة لا شك أنها أهم المطالب على الإطلاق.

إذًا هذه أوجهٌ أربعة تدلك على أن مقالة هؤلاء المحرفين مقالةٌ باطلة، وهي من جنس ما يقوله هؤلاء المؤوّلَة المحرفة في بقية صفات الله تَبَارَكَوَتَعَالَى، حينما يضربون فيها كيفما شاءوا بآرائهم فيصرفونها عن حقائقها اللائقة بالله تَبَارَكَوَتَعَالَى، والحق أنهم ما صنعوا شيئًا فإن كل شيء أولوا إليه هم ملزمون فيه بنحو ما فروا منه، فالحقيقة أن القوم ما زادوا على أن انتهكوا حرمة الكتابِ والسُنة، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي رواية لمسلم: «والجبال والشجر على إصبع ثم يَهُزهن فيقول: أنا الملك، أنا الله».

هذه الرواية نسبها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُإلى مسلم، وفيها زيادتان:

إثبات صفة الهز، وأن الله ﷻ يَهُز ذلك يوم القيامة، الذي قبضه تَبَارَكَوَتَعَالَى من السماوات والأرض فإنه يهُزهُ ﷻ يوم القيامة.

وفيها أيضًا: أن الله ﷻ يقول حينئذ: (أنا الملكُ، أنا الله).

وهذه الرواية راجعتُ فيها صحيحَ مسلم في أكثر من طبعة في حديث ابن مسعود وقد رواه في أول كتاب صفات المنافقين، ووجدت الرواية «**أنا الملك، أنا الملك**»، فلعل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقف على نسخة أخرى فيها: (أنا الملك، أنا الله). الله أعلم كيف هو الحال، وقد وجدت البغوي في ((شرح السُنة)) نسب هذه الرواية بهذا اللفظ إلى مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في السُنة أو في شرح السُنة للبغوي نسب هذه الرواية بهذا اللفظ: (أنا الملك، أنا الله) لمسلم رحمه الله، بل في ((مشكاة المصابيح)) أورد هذا الحديث بهذا اللفظ: (أنا الملك، أنا الله)، وجعله حديث متفقٌ عليه مع أن هذا ليس بالصحيح، الانفراد الذي حصل إن ثبت فهو ليس في البخاري وإنما هو في مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وعلى كل حال، هذا الحديث حديث ابن مسعود الذي جاء فيه ما سمعت من ثبوت هذه الصفات، وما يكون من القبض والطي وما يكون من كلام الله –تبارك وتعالى–، حيث أنه يقول: (أنا الملك) جاء هذا في حديث ابن مسعود في ((الصحيحين))، وجاء هذا أيضًا من حديث ابن عمر في ((صحيح مسلم))، وسيأتي في كلام المؤلف رحمه الله، كما جاء أيضًا في رواية أبي هريرة في ((الصحيحين))، والروايات التي وقفت عليها فيها ما يأتي:

أولًا: حديث ابن مسعود والذي وقفت عليه في الصحيحين، أن الله تعالى يقول: (أنا الملك).

وفي رواية أخرى يقول: (أنا الملك، أنا الملك)، وإن صحت هذه الرواية التي بين أيدينا (أنا الملكُ، أنا الله).

أما حديث أبي هريرة ﷺ ففيه أن الله تعالى يقول: (أنا الملك، أين ملوك الأرض؟).

وحديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فيه روايتان، في رواية يقول: (أنا الملك) موافقة لحديث ابن مسعود.

وفي رواية يقول؛ (أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟) وسيأتي معنا هذا إن شاء الله.

المقصود أن الله تعالى ينادي يوم القيامة فيقول: أنا الملك، كما دل على هذا كتاب الله ﷻ: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾[غافر:١٦]، ثم يُجيب نفسه جَلَّ وَعَلَا فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[غافر:١٦]، في ذلك اليوم يتجلى مُلك الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وينفرد ﷻ بالملك الذي

لا يُشاركه فيه أحدٌ البته، في الدنيا يكون في الناس ملوك لهم ملك جزئي ناقص، أما في الأخرة فلا أحد يملك شيئًا البته، إنما يكون الملك كله لله الواحد القهار، ولذلك وصف الله ﷻ نفسه بذلك في كتابهِ فقال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[الفاتحة:٤]، قال: ﴿مَلِكِ يوم الدين﴾.

والروايات الأخرى كما سيأتي معنا، فيها كما في حديث ابن عمر يقول: «أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»، ولا شك أن هذا من الاستفهامِ الإنكارِي الذي يُرادُ به النفيُ، أن الله جَلَّوَعَلَا يتفرد بالملك، وأما هؤلاء الجبارون المتكبرون في الدنيا فإن الله ﷻ يجعلهم في أحقر حال، فإن المتكبرين يُحشرون كأمثال الذر، سبحان الله العظيم! إنسان ضخم متكبرٌ متعالٍ يجعله اللهﷻ في صورة النملة الصغيرة، واللهِ إن هذا لحق لأن النبي ﷺ قد قاله: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر، يطؤهم الناس» أو قال: «يغشاهم الذل من كل مكان»، -نسأل الله السلامة والعافية-.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي رواية للبخاري: «يجعل السماوات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع» أخرجاه.

هذه الروايات التي جاء فيها اختلافٌ في الألفاظ فيما يتعلق بما يضع الله ﷻ على أصابعه، محملُها والله تعالى أعلم إلى اختلاف الرواةِ في البسط أو الاختصار، يعني منهم من يختصر في كلامه ومنهم من يختصر في روايته، ومنهم من يُتم روايته والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعا: «يطوي الله السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأراضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟».

حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هذا قريبٌ في معناه مما مضى معنا في حديث ابن مسعود، لكن في هذا الحديث بحثٌ خاص، وهو ما يتعلق بثبوت لفظ الشمال ليد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الأخرى.

مما لا شك فيه ولا ريب أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ متصفٌ باليدين، ومما لا شك فيه ولا ريب أن إحدى اليدين توصف باليمين، ومما لا شك فيه ولا ريب أن كلا يدي ربنا جَلَّ وَعَلَا يمين في الخير والبركة، فليست اليد الأخرى يد ناقصة كما هو المعروف والمعتاد عند الناس من أن اليد الأخرى ناقصة بالنسبة لليمين، ويبقى بعد ذلك البحث في وصف اليد الأخرى بأنها شمال، فهل هذا ثابتٌ عن النبي ﷺ كما هو بين أيدينا في هذه الرواية؟ أو أن هذا اللفظ غير ثابت؟

المسألة فيها بحثٌ طويل عند أهل العلم، وأظن أني تكلمت عن هذا في الدرس الماضي، لكن الخلاصة أن أهل العلم مختلفون في إثبات وصف الشمال لليد الأخرى.

فممن أثبت ذلك عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ اللَّهُ في ((نقضه على بشر)) وطائفةٌ من أهل العلم، واستدلوا على هذا بهذا الحديث حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الذي في ((صحيح مسلم)) وقد سمعت لفظه.

وطائفةٌ من أهل العلم أَبَوْ وصف اليد الأخرى بالشمال؛ لعدم ثبوت هذا اللفظ عندهم عن رسول الله ﷺ، وإنما يكتفون بالقول إنَّ إحدى يديه يمين والأخرى هي اليد الأخرى، ويقفون عند هذا، وممن انتصر لهذا ابن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ في ((صحيحه)) وطائفةٌ من أهل العلم.

والبحث ها هنا راجع إلى هذه الرواية التي بين أيدينا، فإنها جاءت من رواية عمر بن حمزة، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه عبد الله بن عمر، لكنَّ هذه الرواية قد خالف فيها عمر بن حمزة رواية ثقتين ثبتين في ابن عمر وهما نافع عن ابن عمر، وخالف رواية عُبيد الله بن مُقسِم، عن ابن عمر، إذًا عندنا عُمر بن حمزة، عن سالم خالف رواية نافع عن، بن عمر و رواية عُبيد الله بن مُقسم، عن ابن عمر، ولا شك أن الصناعة الحديثية تقتضي ترجيح رواية: نافع و عُبيد الله بن مُقسم على رواية عمر بن حمزة، فمثل عمر لا يُحتمل تفردهُ في مثل هذه الرواية، لا سيما مع مخالفة هذين الثقتين الجليلين.

فالأقرب والله تعالى أعلم أنَّ هذا اللفظ شاذٌ غير صحيح، وأنَّ الصحيح أن يُقال كما في الرواية الأخرى لهذا الحديث اليد الأخرى، وهذا ما تشهدُ له روايات أو أحاديث أخرى عن النبي ﷺ، والبحث كما قد علمت بحث في ثبوت حديث، فإن ثبت فعلى الرأس وعلى العين لا مانع يمنع من القول بِهِ البتة، لكن العبرة فقط في مسألة الثبوت، إن ثبت قُلنا به وإن لم يثبُت لم نقُل به، ولعل هذا القول أعني عدم ثبوته أرجح، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَرُوِيَ عن ابن عباس قال: «ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم».

هذا الأثر عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا فيه: بيان عظمة الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وأن نسبة المخلوقات إلى الله عَزَّوَجَلَّ كلا شيء في السماوات والأرض، وهذا الملكوت وهذا الكون كله لا يساوي شيئًا فهو كحبة خردل أو كخردلة في الكف.

الخردلة: نبتة صغيرةٌ أو حبةُ نباتٍ صغيرة يُضرب المثل بها في الصغر، فهي شيء صغير جدا بالنسبة لعظمة الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

وهذا الأثر رواه ابن جرير عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا ومثله لا يُقال بالرأي فله حكم الرفع.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: حدثني أبي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس».

الحديث كما ترى مُرسل، لأنه من رواية ابن زيد الذي هو عبد الرحمن عن أبيه زيد بن أسلم وهو تابعي، يروي عن النبي ﷺ فالحديث مرسل، والمرسل من قسم الحديث الضعيف.

ومعنى هذا الحديث إن ثبت عن النبي ﷺ، إثبات أن الله عَزَّوَجَلَّ عظيمٌ جدًا، حتى إن بعض مخلوقاته أكبر من بعض بما لا مناسبة بين هذا وهذا، قال: ما السماوات والأرض

بالنسبة للكرسي ربنا جل وعلا، والكرسي: موضع قدمي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلا كدراهم سبعة أُلقيت في تُرس.

قيل: أن التُرس هو القطعة من الحديد أو الفولاذ أو الجلد التي يَتقي بها المقاتل ضربات السيوف في المعارك.

وقيل: أن التُرس القاع المنبسطةُ من الأرض، وهذا لعله أقرب بمناسبة الرواية التي تأتي بعده.

المقصود أن هذا الحديث إن ثبت دالٌ على عظمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وأن هذا الملكوت كُله الذي فيه السماوات السبع والأرضين السبع شيءٌ صغير أمام كرسي الله عَزَّ وَجَلَّ، فكيف بالعرش، فكيف بالله العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، فهو الواسع الكبير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال: قال أبو ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كَحلْقَة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض».

حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُخرجه ابن حِبان في صحيحه بإسناد صحيح وفيه بيان عظمة الله عَزَّ وَجَلَّمن جهة النظر أن النسبة بين الكرسي والعرش، والكُرسي كما قد علمت قبل قليل موضع قدمي الله عَزَّ وَجَلَّ، والعرش هو ذاك المخلوق الذي اختصه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى باستوائه عليه، فالكرسي صغيرٌ ضئيلٌ بالنسبة لعظمة العرش، حتى أنه كَحَلَقَةَ من حديد أُلقيت في فلاة، الفلاة هي الصحراء، تأمل -يا رعاك الله- ما النسبة بين حلقة من حديد وصحراء واسعة شاسعة، ما النسبة بين هذه وهذه؟ كلاشيء، فكيف بالنسبة بين عظمة الله -عَزَّ وَجَلَّ- وبقية المخلوقات العرش وما دونه! لا شك أن الله أعظم وأعظم وأكبر وأكبر.

إذن هذا الحديث يدلك على عظيم عظمة الله عَزَّ وَجَلَّ وكبره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعن ابن مسعود قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم».

سبحان الله! هذا الأثر عن ابن مسعود أثرٌ صحيح، وقد صححه الذهبي وغيره من أهل العلم، وفيه تحقيق معنى إسميين جليلين لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وهما: الظاهر والباطن، فالله هو الظاهر الذي فوق كل شيء، وهو الباطن الذي لا يخفى عليه شيء.

أخبر ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهذا الأثرُ يتعلق بأمر غيبي فله حكم الرفع كما لا يخفى عليك، وفيه: أن بين كل سماء يعني بين الأرض إلى السماء الدنيا، مسيرة خمسمائة عام وبين كل سماء والتي فوقها مسيرة خمسمائة عام، وبين السماء والكرسي مسيرة خمسمائة عام، وكِثَفِ الماء الذي العرش فوقه مسيرة خمسمائة عام.

إذن هذا يدلك على علوٍ عظيم لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، فالله عَزَّوَجَلَّ له العلو المطلق تبارك وتعالى، فهو فوق العرش مستوٍ عليه ثبت بهذا الأثر صفةَ العلو لله عَزَّوَجَلَّ، والاستواء على العرش، ومع كل هذا فالله جَلَّوَعَلَا لا تخفى عليه خافية لا من أعمال العباد الظهرة ولا من أعمالهم الباطنة فالله عَزَّوَجَلَّ يعلم السر وأخفى من السر: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[طه:٧]، فأخفى من السر؛ إما أن يكون السر هو: ما تحدثت به حديثًا خفيًا لغيرك أو هو الذي أخفيته في نفسك، فإن كان الأول فالله يعلمه ويعلم ما لم تتحدث به بعد، وأما إن كان الثاني فالله يعلم ما في قلبك وما لم تفكر فيه وستفكر فيه فيما بعد.

إذن الله عَزَّوَجَلَّ بكل شيءٍ عليم لا تخفى عليه خافية تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمة، عن عاصم، عن زِرٍّ عن عبد الله.

ورواه بنحوه المسعودي، عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله؛ قاله الحافظ الذهبي - رحمه الله تعالى.

قال: وله طرق.

وعن العباس بن عبد المطلب ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟»، قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكِثَفُ كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم بني» أخرجه أبو داود وغيره.

الحديث الخاتم لهذا الكتاب، حديث العباس ﵁ وقد خرجه أبو داود والترمذي وابن ماجة وأحمد وغيرهم من أهل العلم، وفيه بحثٌ عند أهل العلم من جهة ثبوته فبعض أهل العلم ضعفه، وبعض أهل العلم أثبته ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه قد حسنه كما في ((الواسطية))، وجوّد إسناده الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في ((مختصر الصواعق))، و الذي لا شك فيه ولا ريب أن هذا القدر الذي بين أيدينا قد دلت عليه الدلائل والشواهد، فهذا المعنى ثابت لا شك فيه بأدلةٍ أخرى، لكن القدر الذي يتوقف في ثبوتهِ على ثبوت هذا الحديث ما جاء عند أبي داود من تتمةٍ لهذا الحديث.

المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختصر هذا الحديث، وهو عند أبي داود بأطول من هذا وفيهِ أن العرش على أو عالٍ ثمانية، هذا القدر من الحديث هو موضع الإشكال في ثبوت هذا الحديث، أعني إنه إن ثبت الحديث أثبتنا ذلك الأمر الغيبي، وإن لم يثبت الحديث لم نثبت هذا المعنى.

والمعنى الذي دل عليه هذا الحديث هو ما سبق الكلام فيه، وهو اجتماع هاتين الصفتين لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الظهور والبطون، فالله ﷻ هو الظاهر والباطن، هو العلي الأعلى الذي له علو الذات المطلق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فهو فوق كل شيء على الإطلاق، وكل شيءٍ فدونه

وتحته، ومع ذلك فالله لا تخفى عليه خافية، يسمع كل صوت، ويرى كل شيء، ويعلم كل شيء.

إذًا إذا كان ذلك كذلك، كان حريًا أن يُعبد، وكان حريًا أن يُتوجه له بالتأله، وكان من الظلم العظيم أن يُتوجه بالعبادة لغير الله ﷻ: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[النمل:٥٩].

قارنوا يا أيها الناس بين صفة الله ﷻ التي دلت الدلائلُ على أنَّها أعظم ما يكون، حيث له الكمال المطلق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وبين غيرِه مما يُشرك معه ﷻ: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[النمل:٥٩].

لا شك ولا ريب أن الله ﷻ خير، ولا شك ولا ريب أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هو المستحق للعبادة، وهذا هو التوحيد الذي هو حق الله على العبيد.

خاتمة

إلى هنا انتهى الكلام عن هذا الكتاب الذي أسأل الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أن يجعل المذاكرة فيه في ميزان المتكلم وفي ميزان السامع، أسأله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ في ختام درسنا أن يرزقنا تحقيق التوحيد، وأن يرزقنا تعظيمه ومحبته وإجلاله والخوف منه، وأسأله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أن يُثبتنا على التوحيد، ونعوذ به أن يردنا على أعقابنا، نعوذ به من الحَور بعد الكَور، ربنا لا تزغ قلوبنا: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[آل عمران:٨].

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، ويا مصرف القلوب صرف قلوبنا والأبصار، صرف قلوبنا على طاعتك.

والوصية أيها الأخوة، وقد مَنَ الله عَجَّلَ علينا بعد أن طوفنا في أنحاء هذا الكتاب، وعشنا مع مباحث ودلائل تتعلق بهذا التوحيد، الوصية هي المداومة على مُدَارسة التوحيد والبحث والتأمل والقراءة والدراسة، لا ينبغي أن تنقطع صلة طالب العلم بكتب التوحيد، ولا سيما بهذا الكتاب الذي كما قد رأيت إنما هو آية وحديثٌ وأثر، كلُّ ذلك يتعلق بأعظم موضوع وهو حق الله وَعَجَّلَ على العبيد الذي ما خلقنا الله وَعَجَّلَ إلا من أجله، وهذه المِدَرَاسه تُعين الإنسان على الثبات على هذا التوحيد فإن الغفلة حاصلة والشيطان له وساوس، والشُبه كثيرة خطافة والتسلح بالعلم بعلم التوحيد من أسباب الثبات بعون الله -وَعَجَّلَ- وتوفيقه من أسباب الثبات على هذا التوحيد.

فالله الله بالحرص على تعلم التوحيد ثم العمل، التوحيد لابد أن يكون له أثر في قلبك وأثر في جوارحك، لابد أن يكون هدفك في الحياة السعي إلى تحقيق التوحيد، وأبشر بالخير فكل ثمرة طيبة يانعة من خيري الدنيا والأخرة؛ فإنها ثمرةٌ لتحقيق التوحيد فاحرص على أن تُصيب من هذا الخير بنصيب وافر، ثم بعد ذلك إذا مَنَ الله عَجَّلَ عليك بالعلم -علم التوحيد- و القيام بهذا الذي علمت يبقى عليك واجبٌ الدعوة إلى هذا التوحيد.

المقام ليس مقام ترف وتفضل إنما هو مقامٌ متعينٌ وحتم لازم على كل موحد، الدعوة إلى التوحيد أمر واجب يا أهل التوحيد وهو من أداء حق التوحيد، والله جَلَّوَعَلَا سيسألنا عن النعيم: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[التكاثر:٨]، فأي نعيم أعظم من توحيد الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[الضحى:١١]، قال بعض أهل التفسير: بالنبوة، وأعظم ما أرسل الله به الرسل هو التوحيد، فعلينا أن نتحدث عن التوحيد

ونتكلم عنه وأن ندعوا إليه وأن نأمر به قدر استطاعتنا، وعلينا أن نتحلى حينئذٍ بما أوصى به النبي ﷺ، رَكْبَ دُعاة التوحيد الذين بعثهم دُعاة إلى توحيد الله ﷻ حينما بعث معاذ وأبا موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى اليمن قال: «**تطاوعا ولا تختلفا وبشرا ولا تُنفرا**».

ما أحوجنا حين دعوتنا إلى التوحيد إلى مراعاة وملاحظة هذه الوصية العظيمة، أن نكون مُبشرين لَبقين، نحسن الكلام عن التوحيد، ونحسن إيصال التوحيد إلى الناس، بالأسلوب الحسن والكلمة الطيبة، أن نكون مُبشرين وألا نكون مُنفرين.

ثم أنْ نتطاوع ولا نختلف إن من أعظم أسباب قوة دعوة التوحيد اتفاق أهلها وعدم اختلافهم، إن اختلاف دعاة التوحيد واختلاف أهل التوحيد، يعني ضعف دعوتهم ويعني قوة أعدائهم.

يا أهل التوحيد هذا الزمان كل أحدٌ فيه يتكلم، وكل أحد فيه يدعوا، أعداء الرُسل وأعداء التوحيد لهم منابر كثيرة ينفذون من خلالها إلى الناس، لهم قنوات، ولهم مواقع، ولهم كُتب، ولهم دورات، ولهم معاهد، ولهم جامعات، ولهم مراكز، ولهم إذاعات، ولهم مجلات، ولهم صحف، وهل يليق بعد كل هذا والشر ينتشر، وشياطين الإنس يجتالون الناس عن عقيدة التوحيد وعن منهج أهل السُنة والجماعة حقًا، ونحن فيما بيننا نتلاسن ونتهارش ونختلف ونتباغض ونتدابر، أيليق هذا؟

الناس تتعاطى السحر، تعلق التمائم، تُمارس البدع، تلجأ إلى القبور، تشُد الرحال إليها تحج إليها، تكفر بالله ﷻ حيث تنذُر إليها، وتطوف بها، ونحن نختلف فيما بيننا، ونتهارش فيما بيننا، ونحن جميعًا على نهجٍ واحد وعلى طريقٍ واحد، طريق السُنة والتوحيد، أهذا يليق يا أهل التوحيد، أيليقُ بالموحد أن يرى محارم الله تُنتهك، وهو بارد لا يُحرك ساكنا، أين أثر التوحيد على نفسك؟

التوحيد يقتضي -يا رعاك الله- أن يكون في قلبك تعظيمٌ لله، فأنت تعتقدُ أن الله حقه أن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر، وأن يُوحد فلا يُشرك به، ولذلك كل مصيبة عندك أهون من أن يُعصى الله ﷻ في أرضه، لا سيما فيما يتعلق بجناب التوحيد، شأنُ الموحد شأنٌ عجيب إحساسه مرهف، المبتدع يبتدع وهو يتأ لم لابتداعه، والعاصي يعصي وهو يبكي من أجله، ذاك يضحك بمعصيته ويضحك بشركه ويضحك لبدعته، والموحد

يبكي لأجله، ذاك يُفسد ومُهِمَة الموحد أن يُصلح، هذه حقيقة تحقيق التوحيد يا إخواني، هذا هو أثر التوحيد على السلوك وعلى الأخلاق.

الله الله في الجد والاجتهاد والعمل، وبذل الوسع في الدعوة إلى التوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة، نحن في زمن غربة قل العلم وقل العلماء، وانتشرت الأهواء، لا ينبغي لمن بصّره الله وأنار قلبه وبصيرته، لا ينبغي أن ينثوي وأن ينطوي وهو يرى حرمات الله ﷻ تُنتهك، وهو لا يُحرك ساكنًا.

أسأل الله جل وعلا أن يُعينني وإياكم على طاعتهِ ومرضاته، وأن يُسدد أقوالنا وأعمالنا، وأن يرزقنا الإخلاص والسداد والهداية والقبول، إن ربنا لسميع الدعاء، وصلى الله على نبينا محمد وآلهِ وأصحابه أجمعين.

تم بحمد الله

الفهرس

شرح كتاب التوحيد ١
١- مقدمة ١
٢- الباب الأول ١١
٣- باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب.. ٢٩
٤- باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب (المجلس الأول).. ٥٠
٥- باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب (المجلس الثاني).. ٧٠
٦- باب الخوف من الشرك.. ٨٥
٧- باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله (المجلس الأول).. ١٠٥
٨- باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله (المجلس الثاني).. ١١٩
٩- باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله (المجلس الأول) ١٣٨
١٠- باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله (المجلس الثاني) ١٥٦
١١- باب من الشرك لبسُ الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه.. ١٦٩
١٢- باب ما جاء في الرقى والتمائم (المجلس الأول) ١٨٤
١٣- باب ما جاء في الرقى والتمائم (المجلس الثاني) ١٩٦
١٤- باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما ٢١٤
١٥- باب ما جاء في الذبح لغير الله.. ٢٣٠
١٦- باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله.. ٢٤٣

١٧- باب من الشرك النذر لغير الله ٢٥٣

١٨- باب من الشرك الاستعاذة بغير الله ٢٦٥

١٩- باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره (المجلس الأول) ٢٧٧

٢٠- باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره (المجلس الثاني) ٢٩٠

٢١- باب قوله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾...... ٣٠٣

٢٢- باب قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (المجلس الأول) ٣١٩

٢٣- ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (المجلس الثاني) ٣٣٢

٢٤- باب الشفاعة (المجلس الأول) ٣٤٥

٢٥- باب الشفاعة (المجلس الثاني) ٣٥٦

٢٦- باب قول الله تعالى: ﴿إنك لا تهدى من أحببت﴾ (المجلس الأول) ٣٦٩

٢٧- باب قول الله تعالى: ﴿إنك لا تهدى من أحببت﴾ (المجلس الثاني) ٣٨١

٢٨- باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين ٣٩٨

٢٩- باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح: فكيف إذا عبده؟ (المجلس الأول) .. ٤١٦

٣٠- باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح: فكيف إذا عبده؟ (المجلس الثاني) .. ٤٣٠

٣١- باب ما جاء في أنّ الغلو في الصالحين يصيرهم أوثاناً تعبد. ٤٤٤

٣٢- باب ما جاء في حماية المصطفى جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك (المجلس الأول) ٤٦٠

٣٣- باب ما جاء في حماية المصطفى جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك (المجلس الثاني) ٤٦٩

٣٤- باب ما جاء أنّ بعض هذه الأمّة تعبد الأوثان (المجلس الأول) ٤٨٢

٣٥- باب ما جاء أنّ بعض هذه الأمّة تعبد الأوثان (المجلس الثاني) ٤٩٧

٣٦- باب ما جاء في السحر ٥١٣

٣٧- باب بيان شيء من أنواع السحر (المجلس الأول) ٥٣١

٣٨- باب بيان شيء من أنواع السحر (المجلس الثاني) ٥٤٣

٣٩- باب ما جاء في الكهان ونحوهم ٥٥٣

٤٠- باب ما جاء في النشرة ٥٧٠

٤١- باب ما جاء في التطير (المجلس الأول) ٥٨٣

٤٢- باب ما جاء في التطير (المجلس الثاني) ٥٩٦

٤٣- باب ما جاء في التنجيم ٦٠٩

٤٤- باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء ٦٢٥

٤٥- باب قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً﴾ الآية ٦٤١

٤٦- باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المجلس الأول) ٦٥٨

٤٧- باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المجلس الثاني) ٦٧١

٤٨- باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المجلس الأول) ٦٨٤

٤٩- باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المجلس الثاني) ٦٩٤

٥٠- باب قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (المجلس الأول) ٧٠٦

٥١- باب قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (المجلس الثاني) ٧١٨

٥٢- باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله (المجلس الأول) ٧٢٨

٥٣- باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله (المجلس الثاني) ٧٤٢

٥٤- باب ما جاء في الرياء ٧٥٧

٥٥- باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا ٧٧١

٥٦- باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أرباباً..... ٧٨٥

٥٧- باب قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (المجلس الأول) ٨٠٠

٥٨- باب قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (المجلس الثاني) ٨١٢

٥٩- باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات (المجلس الأول) ٨٢٦

٦٠- باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات (المجلس الثاني) ٨٤٠

٦١- باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات (المجلس الثالث) ٨٥٢

٦٢- باب قول الله تعالى ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ الآية. ٨٦٦

٦٣- باب قول الله تعالى: ﴿ فلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الآية. ٨٧٨

٦٤- باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله. ٨٩٢

٦٥- باب قول ما شاء الله وشئت. ٩٠١

٦٦- باب من سب الدهر فقد آذى الله. ٩١٢

٦٧- باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه، وباب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك. ٩٢٦

٦٨- باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول (المجلس الأول). ٩٤٢

٦٩- باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول (المجلس الثاني). ٩٥٥

٧٠- باب قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ الآية. ٩٦٩

٧١- باب قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء ﴾ الآية. ٩٨٦

٧٢- باب قول الله تعالى: ﴿ وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ الآية. ١٠٠١

٧٣- باب لا يقال السَّلام على الله. ١٠١٥

٧٤- باب قول اللهم اغفر لي ان شئت. ١٠٢٦

٧٥- بابٌ: لا يقول عبدي وأمتي، وباب: لا يُرد من سأل بالله. ١٠٣٧

٧٦- باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة. ١٠٥٠

٧٧- باب النهي عن سب الريح، وباب قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾. ١٠٦٢

٧٨- باب ما جاء في منكري القدر (المجلس الأول). ١٠٨٤

٧٩- باب ما جاء في منكري القدر (المجلس الثاني). ١٠٩٥

٨٠- باب ما جاء في المصورين ١١١٠

٨١- باب ما جاء في كثرة الحلف. ١١٢٢

٨٢- باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه، وباب ما جاء في الإقسام على الله. ١١٣٦

٨٣- باب لا يستشفع بالله على خلقه. ١١٤٨

٨٤- باب ما جاء في حماية النبي حمى التّوحيد وسده طرق الشرك. ١١٥٨

٨٥- باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾، (الدرس الأخير) ١١٦٩

خاتمة ١١٨٦

الفهرس ١١٩١